

شرح صحيح البخاري

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين

منه مشكورة بحسب مقتضى الأمانة،
مفصلة الأطراف والفوائد، ذات فوائد علمية نفيسة

فيقول التحقيق والعمدة العلمي
بالمكتبة الإسلامية
بمصر
العلامة الألباني
الشيخ بن القيم
العلامة ابن باز
تأليف

الاستئناف - كتابات الأيمان
من ٦٢٣٠ إلى ٦٧٢٢

المكتبة الإسلامية
للنشر والتوزيع - القاهرة

الكتاب الإسلامي
مكتبة القلوب

شَرَحَ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ

مُحَمَّدَ بْنَ صَالِحِ الْعُثْمَيْنِ

طَبِيعُ مُسْكُولَةٍ مُحَقَّقَةٌ مُخَرَّجَةُ الْأَهَارِيِّ،
مُفَرَّغَةُ الْأَطْرَافِ وَالْفَوَائِدِ، زَائِدٌ هَوَاسٌ عَلَيْهِ نَفِيسَةٌ

تَقْلِيقاتُ
الْعَلَامَةِ ابْنِ بَنَارٍ

بِمَخْرُجَاتِ
الْعَلَامَةِ الدُّبَايِ

فَتَرَى تَحْقِيقَ وَجْهِ الْعِلْمِيِّ
بِالْمَكْتَبَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

الْجَزْءُ الْوَحِيدُ

الْمَكْتَبَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ - الْقَاهِرَةُ

الْبَيْتُ الْأَعْلَى لِلْكِتَابِ
مَسْكَاتِينِ - الْقَاهِرَةُ

حقوق الطبع محفوظة

I.S.B.N.

978-977-6241-49-7

البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن
المغيرة، ٨١٠-٨٧٠
شرح صحيح البخاري
الشارح/ محمد بن صالح العثيمين
ط ١ - القاهرة
المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع ٢٠٠٨
٦٥٦ ص ٢٤×١٧ سم
تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٢٤١٤٩٧

الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٢١٥٧

التاريخ: ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م



الإدارة والفرع الرئيسي:

٢٢ ش صعب صالح - حيد شمس الشرقية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت فاكس: ٢٤٩٩١٢٥٤ / ٢٤٩٠٠٦٠٦ / ٢٤٩٠٠٨٠٨

فرع الأزهر: ١٢ ش البيطار خلف جامع الأزهر - ورب (الأثر). ت: ٢٥١٠٨٠٠٤

E-mail: islamya2005@hotmail.com

شیخ
صالح البخاری

کتاب الاستئذان



۶۲۳-۶۲۰.۲



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣- بَابُ: السَّلَامُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النِّكَاحُ: ٨٦].

٦٢٣٠- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، قَالَ: حَدَّثَنِي شَقِيقٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ قَبْلَ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى جَبْرِيلَ، السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا، وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ - فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ - أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَتَخَيَّرُ بَعْدَ مِنَ الْكَلَامِ مَا شَاءَ»^(١).

في هذا: دليلٌ واضحٌ على أنَّ السَّلَامَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ، ولكن هل إذا قال القائل: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ. فهل يَعْنِي: اللَّهُ عَلَيْكَ؟

الجواب: نقول: ظاهرُ صنيعِ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُ قَالَ: السَّلَامُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾. وعلى هذا القولِ يَكُونُ مَعْنَى: اللَّهُ عَلَيْكَ: أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُشْفِقُ عَلَيْكَ، وَيَرَأْفُ بِكَ وَيَرْحَمُكَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَفْتَضِي عَنَاءَةً خَاصَّةً بِهَذَا الشَّخْصِ الَّذِي سَلَّمَ عَلَيْهِ.

والقول الثاني في معنى: السَّلَامُ عَلَيْكَ. في السَّلَامِ أَنَّ مَعْنَاهُ: السَّلَامَةُ مِنَ الْآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ عَلَيْكَ. وهذا هُوَ الْأَقْرَبُ، وَالْدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمَّا قَالُوا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ قَبْلَ عِبَادِهِ. قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ» يَعْنِي: السَّلَامُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْبٍ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ قَوْلَ الْقَائِلِ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا. يَعْنِي: السَّلَامَةُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ.

وفي هذا: دليلٌ على أَنَّ الْأَسْمَ الَّذِي يُوهَمُ نَقْصًا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ. أَوْ هَمَّ ذَلِكَ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَوَّرَ فِيهِ النَقْصُ، فَتَدْعُو اللَّهَ بِالسَّلَامَةِ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَاللَّهُ ﷻ لَا تَكُونُ أَسْمَاؤُهُ إِلَّا حُسْنًا.

وَمِنْ ثَمَّ نَقُولُ: إِنَّ مَا يُضَافُ لِلَّهِ مِنْ هَذَا: اسْمٌ وَخَبْرٌ، وَالْخَبْرُ مِنْهُ مَا يَجُوزُ، وَمِنْهُ مَا لَا يَجُوزُ. فَالاسْمُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَكُلُّهُ حُسْنٌ، وَلَا يُوجَدُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ لَيْسَ مُشْتَمَلًا عَلَى مَعْنَى أَحْسَنَ، لَيْسَ حَسَنًا فَقَطْ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأنعام: ١٨٠]. وَمِنْ ثَمَّ لَا يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى سُبْحَانَهُ بِالذَّهْرِ؛ لِأَنَّ الذَّهْرَ لَا يَحْمِلُ مَعْنَى حَسَنًا وَلَا أَحْسَنَ، فَالذَّهْرُ زَمْنٌ وَوَقْتُ. **وَالثَّانِي:** الْخَبْرُ. وَالْخَبْرُ مِنْهُ مَا يَجُوزُ الْإِخْبَارُ بِهِ عَنِ اللَّهِ، وَمِنْهُ مَا لَا يَجُوزُ، فَإِذَا كَانَ صِفَةً كَمَا لَكِنْ قَدْ يَكُونُ مُتَعَلِّقُهُ نَقْصًا صَحَّ أَنْ يُخْبَرَ بِهِ عَنِ اللَّهِ لَكِنْ لَا يُسَمَّى بِهِ؛ لِأَنَّ مُتَعَلِّقَهُ قَدْ يَكُونُ نَقْصًا، وَإِذَا كَانَ مُتَعَلِّقُهُ قَدْ يَكُونُ نَقْصًا لَمْ يَكُنْ مُشْتَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى الْأَحْسَنِ.

وَالثَّانِي مِنَ الْخَبَرِ: مَا يَحْمِلُ مَعْنَى نَاقِصًا. فَهَذَا لَا يُخْبَرُ بِهِ عَنِ اللَّهِ مُطْلَقًا. مِثَالُ الْخَبَرِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ مُتَعَلِّقُهُ نَقْصًا: الْمُتَكَلَّمُ الْمُرِيدُ فَإِنَّهُ يَجُوزُ الْإِخْبَارُ بِهِمَا عَنِ اللَّهِ، وَلَا يَجُوزُ تَسْمِيَتُهُ بِهِمَا؛ لِأَنَّ مَوْضِعَ الْكَلَامِ قَدْ يَكُونُ نَقْصًا، وَمَوْضِعُ الْإِرَادَةِ قَدْ يَكُونُ نَقْصًا كَذَلِكَ، لَكِنْ مِنْ حَيْثُ الْكَلَامُ وَمِنْ حَيْثُ الْإِرَادَةُ لَا شَكَّ أَنَّهَا صِفَةٌ كَمَا لَكِنْ؛ لِأَنَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَا يَتَكَلَّمُ، وَمَنْ لَهُ إِرَادَةٌ وَاخْتِيَارٌ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ وَلَا اخْتِيَارٌ، وَهَذَا لَا إِشْكَالَ فِيهِ، فَيَجُوزُ الْإِخْبَارُ بِهِ عَنْهُ لَكِنْ لَا يُسَمَّى بِهِ.

وَمِثَالُ مَا يَحْمِلُ مَعْنَى نَاقِصًا: الْأَعْمَى، الْأَصَمُّ، النَّاقِصُ، الْعَاجِزُ. فَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْبَرَ بِهَا عَنِ اللَّهِ أَبَدًا؛ لِأَنَّهَا لَا تَحْمِلُ إِلَّا مَعْنَى نَاقِصًا كُلَّهُ نَقْصٌ، وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَنْ يَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ لَهُ بِالسَّلَامِ تَتَضَمَّنُ أَنَّ النَقْصَ عَلَيْهِ جَائِزٌ، وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدَّعَاءِ بِالسَّلَامِ عَلَى اللَّهِ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ ﷻ؛ أَي: السَّلَامُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، فَالسَّلَامُ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لَهُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤ - بَابُ تَسْلِيمِ الْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ.

٦٢٣١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مِقَاتٍ أَبُو الْحَسَنِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مَنِيبٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْبَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ».

هَذَا وَاضِحٌ، وَالْخَبْرُ هُنَا: «يُسَلِّمُ» بِمَعْنَى الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ الصَّغِيرَ هَلْ هُوَ الصَّغِيرُ سِنًا أَوْ

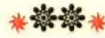
الصغيرُ مرتبةٌ؟

الجواب: الظاهرُ أَنَّهُ الصغيرُ سنًّا؛ لأنَّ صِغَرَ السِّنِّ علامةٌ ظاهرةٌ بخلافِ المرتبةِ فَإِنَّهُ لَا يُدْرَى مثلاً: أَن هذا الرجلُ له مرتبةٌ وشرفٌ وجاهٌ وعِلْمٌ، أو ما شابهَ ذلك، وأما الصَّغَرُ بالسِّنِّ فهو علامةٌ ظاهرةٌ.

❦ وقوله ﷺ: «والهَارُ عَلَى الْقَاعِدِ؛ يَعْنِي: الْهَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ: «وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ» فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ سَلَّمَ الْعَكْسُ، فَيَسَلِّمُ الْكَبِيرُ عَلَى الصَّغِيرِ، وَالْكَثِيرُ عَلَى الْقَلِيلِ. لَكِنِ الْقَاعِدَ عَلَى الْهَاشِي هَلْ يَسَلِّمُ أَوْ لَا يَسَلِّمُ؛ لِأَنَّهُ مُتَجَاوِزٌ، أَوْ يَقُولُ عَلَى الْأَقْلَ مثلاً: صَبَّحَكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَا أَبَا فَلَانٍ، أَوْ مَرَحَبًا بِأَبِي فَلَانٍ؟

الجواب: فالظاهرُ أَنَّهُ يَنْبَغِي إِزَالَةُ اللَّجْفَةِ وَالْقَطِيعَةِ أَنَّ الْقَاعِدَ إِذَا مَرَّ بِهِ الْهَارُ وَلَمْ يَسَلِّمْ أَنْ يَقُولَ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ يَا أَبَا فَلَانٍ.

فَإِذَا قِيلَ: إِذَا مَرَّ شَخْصَانِ، وَلَمْ يَسَلِّمْ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَهَلْ هُنَاكَ إِثْمٌ؟
فالجواب: إِذَا لَمْ يَكُنْ هَجْرٌ فَلَا إِثْمٌ؛ لِأَنَّ تَرْكَ السَّلَامِ هَجْرٌ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ»^(١) فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا دُونَ الثَّلَاثِ جَائِزٌ.
وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي فِي الْحَدِيثِ الَّذِي مَعْنَاهُ فَإِنَّهُ لِلْإِسْتِحْبَابِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥- بَابُ يُسَلِّمُ الرَّكَّابُ عَلَى الْهَاشِي.

٦٢٣٢- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي زِيَادٌ، أَنَّهُ سَمِعَ ثَابِتًا مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُسَلِّمُ الرَّكَّابُ عَلَى الْهَاشِي، وَالْهَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ»^(٢).

٦- بَابُ يُسَلِّمُ الْهَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ.

٦٢٣٣- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا رُوْحُ بْنُ عِبَادَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي

(١) رواه البخاري (٦٢٣٧)، ومسلم (٢٥٦٠) (٢٥).

(٢) ورواه مسلم (٢١٦٠) (١).

زِيَادٌ، أَنَّ ثَابِتًا أَخْبَرَهُ، وَهُوَ مَوْلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُسَلِّمُ الرَّائِبُ عَلَى الْهَائِشِيِّ، وَالْهَائِشِيُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَاعِدُ عَلَى الْكَثِيرِ» ^(١).

فَإِذَا قِيلَ: إِذَا مَرَّ رَجُلٌ عَلَى نِسَاءٍ جَالِسَاتٍ فَهَلْ يُسَلِّمُ عَلَيْهِنَّ؟

الجواب: نقول: لا، لا يسلم، اللهم إلا إذا كُنَّ مِنْ مَعَارِفِهِ؛ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ هُنَا مَفْقُودَةٌ، وَكَذَلِكَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْكَ امْرَأَةٌ وَسَلَّمَتْ هِيَ فَلَا تَرُدُّ.

فَإِذَا قِيلَ: بَعْضُ النَّاسِ إِذَا مَرَّ قَالَ: السَّلَامُ. فَقَطْ، وَلَا يَقُولُ: عَلَيْكُمْ. فَبِمَاذَا تَرُدُّ عَلَيْهِ؟

فالجواب: لا بأس بذلك، وَيُرَدُّ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الرَّسْلَ لَمَّا جَاءَتْ إِلَى إِبْرَاهِيمَ: ﴿قَالُوا سَلِّمُوا﴾ قَالَ سَلِّمُوا ^[٦٩:٦٩].



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧- بَابُ: يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ.

٦٢٣٤- وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ طَهْمَانَ، عَنْ مُوسَى بْنِ عَقَبَةَ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْبَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ» ^(١).

٨- بَابُ إِفْشَاءِ السَّلَامِ.

٦٢٣٥- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ أَشْعَثَ بْنِ أَبِي الشَّعْثَاءِ، عَنْ معاوية بن سويد بن مقرن، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ: بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَتَشْمِيمِ الْعَاطِسِ، وَنَصْرِ الضَّعِيفِ، وَعَوْنِ الْمَظْلُومِ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ، وَنَهَى عَنِ الشُّرْبِ فِي الْفِضَّةِ، وَنَهَى عَنِ تَخْتِمِ الذَّهَبِ، وَعَنِ رُكُوبِ الْمِيَاثِرِ، وَعَنِ ثُبْسِ الْحَرِيرِ وَالذِّيَّاجِ، وَالْقَسِيِّ وَالْإِسْتَبْرِقِ ^(١).

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ: «وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ». إِفْشَاؤُهُ يَعْنِي: إِظْهَارُهُ، وَإِظْهَارُ السَّلَامِ

(١) ورواه مسلم (٢١٦٠) (١).

(٢) علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، بصيغة الجزم، كما في «الفتح» (١٦/١١)، وقد وصله رَحِمَهُ اللَّهُ في «الأدب المفرد»

(١٠٠١) قال: حدثنا أحمد بن أبي عمرو، حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بهذا. «تغليق التعليق» (١٢١/٥).

(٢) ورواه مسلم (٢٠٦٦) (٣).

يَكُونُ بوجهين:

الوجه الأول: أَنْ يُكْثِرَهُ كَلِمًا وَجَدَ سَبِيهَ سَلَّمَ.

والوجه الثاني: أَنْ يُعْلِنَهُ وَيُظْهِرَهُ بَحِثَ يُسَلِّمُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ حَيٍّ، خِلَافًا لِمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ إِذَا سَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يُسَلِّمُ بِأَنْفِهِ وَعَلَى وَجْهِ مُتَمَاوٍ تَكَادُ لَا تَسْمَعُهُ إِذَا خِلَافُ إِفْشَاءِ السَّلَامِ، فَالْمِرَادُ أَنْ يَكُونَ بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ حَتَّى وَلَيْسَ الْمِرَادُ بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ مَزْعَجٍ، لَكِنْ صَوْتًا يُعْرِفُ مِنْهُ أَنَّهُ سَلَّمَ عَنْ طَيِّبِ نَفْسٍ، وَعَنْ قُوَّةٍ وَنَشَاطٍ، وَهَذَا شَامِلٌ لِلرَّدِّ وَالْإِبْتِدَاءِ فَالْمَبْتَدِئُ يَرْفَعُ الصَّوْتَ، وَالْمُجِيبُ كَذَلِكَ.

فَرَجُلٌ سَلَّمَ بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ حَيٍّ نَشِيطٍ فَدَدَّ عَلَيْهِ الْآخَرُ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ وَبِأَطْرَافِ أَنْفِهِ، فَإِنَّ هَذَا الثَّانِي لَا يَكُونُ قَائِمًا بِالْوَجِيبِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِنَحِيَةٍ فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النِّسَاءُ: ٨٦]. وَهَذَا مَا رَدَّ لَا مِثْلَ وَلَا أَحْسَنَ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٩- بَابُ: السَّلَامُ لِلْمَعْرِفَةِ وَغَيْرِ الْمَعْرِفَةِ.

٦٢٣٦- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَوْسَفَ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ»^(١).

٦٢٣٧- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سَفْيَانُ، عَنْ الزَّهْرِيِّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيَصُدُّ هَذَا، وَيَصُدُّ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ» وَذَكَرَ سَفْيَانُ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٢).

❁ قَوْلُهُ: «بَابُ: السَّلَامُ لِلْمَعْرِفَةِ وَغَيْرِ الْمَعْرِفَةِ». اللَّامُ فِي قَوْلِهِ: لِلْمَعْرِفَةِ لِلتَّعْلِيلِ، يَعْنِي: سِوَاءَ مَا كَانَ السَّلَامُ مِنْ أَجْلِ مَعْرِفَتِكَ لِهَذَا الَّذِي تُسَلِّمُ عَلَيْهِ أَوْ لَغَيْرِ الْمَعْرِفَةِ؛ لِأَنَّكَ تُسَلِّمُ لِلسَّلَامِ نَفْسِهِ، لَا لِلْمُسَلِّمِ عَلَيْهِ.

(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٣٩) (٦٣).

(٢) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٦٠) (٢٥).

❖ ثم ذكر الحديث: «أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ». ويشمَلُ هذا إطعامَ الطعامِ حتَّى للأهل؛ لأنَّ إطعامَ الطَّعامِ للأهل صدقةٌ.

❖ والثاني: «تَقْرَأُ السَّلَامَ». يَعْنِي: تَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ لَا يُسَلِّمُ إِلَّا عَلَى مَنْ عَرَفَ فَقَطْ، وَالَّذِي لَا يُسَلِّمُ إِلَّا عَلَى مَنْ عَرَفَ سَلَّمَ لِلْمَعْرِفَةِ لَا لِأَجْلِ السَّلَامِ نَفْسِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَوْ مَرَرْتُ بِالسُّوقِ فَهَلْ أَسَلَّمْتُ عَلَى كُلِّ مَنْ أُمِرْتُ بِهِ وَهَمَ كَثِيرُونَ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ سَلِّمْ؛ لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ السُّنَّةُ، وَلَوْ قِيلَ لَكَ: إِنْ كُلَّ رَجُلٍ سَتَمَرَّ عَلَيْهِ سَيُعْطِيكَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، تَمَلُّ أَوْ لَا تَمَلُّ؟

فَالْجَوَابُ: لَا تَمَلُّ، فَكَذَلِكَ السَّلَامُ لَكَ بِهِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَذَلِكَ بِكُلِّ رَجُلٍ تَسَلِّمُ عَلَيْهِ.

❖ أَمَّا الْحَدِيثُ الثَّانِي فَقَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُصَدُّ هَذَا وَيُصَدُّ هَذَا» فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُسَلِّمَ الْإِنْسَانُ حَتَّى عَلَى الرَّجُلِ الْفَاسِقِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ الْفَاسِقَ أَخٌ لَكَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النِّسَاءُ: ١٧٨]. وَقَالَ تَعَالَى فِي الْمُؤْمِنِينَ يَقْتَتِلُونَ قَالَ: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ١٠]. فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَهْجُرَ الْعَاصِيَ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي هَجْرِهِ مَصْلَحَةٌ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ فِي هَجْرِهِ تَخْفِيفٌ لِلْمَعْصِيَةِ، أَوْ تَوْبَةٌ مِنْهَا، فَحِينَئِذٍ يَتَعَيَّنُّ الْهَجْرُ، أَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ فَهُوَ أَخْوَكُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَهْجُرَهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْفَسَاقِ إِذَا هَجَرُوا أَزْدَادُوا فِسْقًا وَبُعْدًا عَنْ أَهْلِ الْخَيْرِ، وَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِمْ صَارَ فِيهِمْ لَيْنًا، وَرَبَّمَا يَقْبَلُونَ الْمَوْعِظَةَ وَالتَّوْجِيهَ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ابْتِدَاءَ السَّلَامِ لَيْسَ بِوَاجِبٍ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» وَذَكَرَ مِنْهَا: «إِذَا لَقِيَته فَسَلِّمْ عَلَيْهِ» ^(١) أَنَّ هَذَا الْحَقَّ لَيْسَ بِوَاجِبٍ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ وَاجِبًا مَا رُخِّصَ فِي الْهَجْرِ لِمُدَّةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ.

وَيَسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْهَجْرَ يَزُولُ بِالسَّلَامِ؛ لِقَوْلِهِ: «وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ» وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّكَ: إِذَا قُلْتَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ خَاطَبْتَهُ، وَبِهَذَا يَزُولُ الْهَجْرُ.

فَإِنْ قِيلَ: قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْهَجْرَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِالثَّلَاثَةِ إِذَا كَانَ لِلْمَصْلَحَةِ، وَاسْتَدْلُّوا

بقصة عائشة مع عبد الله بن الزبير ^(١) فهل هذا صحيح؟

فالجواب: نعم هذا صحيح إذا كان للمصلحة.

فإن قيل: كيف نجمع بين قصة هجر عائشة لعبد الله بن الزبير، وبين حديث: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»؟

فالجواب: نقول: إذا كان الهجر لمصلحة، ومن المصلحة أن يكون هذا تعزيراً للمهجور تصلح به حاله، وقد هجر النبي ﷺ كعب بن مالك، وصاحبه خمسين ليلة وأمر المسلمين بهجرهم ^(٢).



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٠ - بَابُ آيَةِ الْحِجَابِ.

٦٢٣٨ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ كَانَ ابْنُ عَشْرٍ سَنِينَ مَقْدَمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَخَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرًا حَيَاتِهِ، وَكُنْتُ أَعْلَمُ النَّاسِ بِشَأْنِ الْحِجَابِ حِينَ أَنْزَلَ، وَقَدْ كَانَ أَبِي بْنُ كَعْبٍ يَسْأَلُنِي عَنْهُ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فِي مُبْتَنَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَزِينَةُ ابْنَةِ جَحْشٍ، أَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَا عَرُوسًا، فَدَعَا الْقَوْمَ، فَأَصَابُوا مِنَ الطَّعَامِ ثُمَّ خَرَجُوا، وَبَقِيَ مِنْهُمْ رَهْطٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَطَالُوا الْمُكُثَ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجَ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ. كَيْ يَخْرُجُوا، فَمَشَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَشِيتُ مَعَهُ، حَتَّى جَاءَ عَتَبَةُ حُجْرَةَ عَائِشَةَ، ثُمَّ ظَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَرَجُوا، فَرَجَعَ وَرَجَعْتُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ، فَإِذَا هُمْ جُلُوسٌ لَمْ يَتَفَرَّقُوا، فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَجَعْتُ مَعَهُ، حَتَّى بَلَغَ عَتَبَةُ حُجْرَةَ عَائِشَةَ فَظَنَّ أَنَّ قَدْ خَرَجُوا فَرَجَعَ وَرَجَعْتُ مَعَهُ، فَإِذَا هُمْ قَدْ خَرَجُوا، فَأَنْزَلَ آيَةَ الْحِجَابِ، فَضَرَبَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ سِتْرًا ^(٣).

❖ قوله: «آية الحجاب». يعني: احتجاب زوجات رسول الله ﷺ عن الناس، وهو حجاب أخص من الحجاب العام الذي يكون به ستر الوجه والكفين وبقية الجسم، فهو

(١) رواه البخاري (٦٠٧٣، ٦٠٧٤، ٦٠٧٥).

(٢) رواه البخاري (٤٤١٨).

(٣) ورواه مسلم (١٤٢٨) (٩٣).

حِجَابٌ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَا زَوْجَاتِ النَّبِيِّ ﷺ مَنَعًا تَامًا كَالسِّتْرِ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الاحزاب: ٥٣]. يعني: أن يكونَ بينكم وبينهنَّ سِتْرًا، ويدلُّ على ذلك حديثُ عائشةَ في قصَّتِها مع عبدِ الله بنِ الزبير رضي الله عنه ^(١) فإنه يدلُّ على أنَّ نساءَ النبي ﷺ لهنَّ حِجَابٌ خاصٌّ بهنَّ، حتى لا يرى الناسُ أشخاصهنَّ.

وفي هذا الحديثِ من الفوائد:

شَدَّةُ حياءِ النبي ﷺ؛ أَنَّهُ ﷺ يُحِبُّ أَنْ يَقُومَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ، ولكنهم لم يَقُومُوا أَنَسًا يبقائهم في بيتِ رسولِ الله ﷺ، وقد نَبَّهَ اللهُ على ذلك في قوله: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الاحزاب: ٥٣]. يعني: لا تَقْعُدُوا مُسْتَمْسِكِينَ لِحَدِيثٍ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي، مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي، مِنْ الْحَقِّ﴾ فانظروا إلى هذا الحديثِ، فرجعَ النبي ﷺ عِدَّةَ مَرَاتٍ، وخرَجَ لعلَّهم يخرجونَ.

وفي هذا: دليلٌ على أَنَّ من اللَّبَاقَةِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ أَنْ يَفْعَلَ الْإِنْسَانُ الْفِعْلَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى مُرَادِهِ بِدُونِ أَنْ يُصْرَحَ بِالْقَوْلِ، وَلِذَلِكَ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ بَيْتِ زَيْنَبَ، وَمَشَى حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، وَرَجَعَ لَعَلَّهم يَقُومُوا.

وفي هذا: دليلٌ على أَنَّهُ ينبغي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ نَبِيَّهَا، فَإِذَا شَعَرَ بِأَنَّ صَاحِبَهُ لَا يُرِيدُ هَذَا الشَّيْءَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْرِجَهُ وَيُلْجِئَهُ إِلَى أَنْ يُصْرَحَ بِالْكَلَامِ الَّذِي قَدْ لَا يَكُونُ مَرْغُوبًا فِيهِ، لَا مِنْ جِهَتِهِ وَلَا مِنْ جِهَتِهِمْ.

وفيه أيضًا: مشروعيةُ الْوَلِيْمَةِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ دَعَا الْقَوْمَ فَأَصَابُوا مِنَ الطَّعَامِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٢٣٩ - حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، قَالَ أَبِي: حَدَّثَنَا أَبُو عَجْلَنَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ زَيْنَبَ دَخَلَ الْقَوْمُ فَطَعِمُوا، ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَأَخَذَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ قَامَ مِنْ قَامٍ مِنَ الْقَوْمِ وَقَعَدَ بَقِيَّةُ الْقَوْمِ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ لِيَدْخُلَ، فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَجَاءَ

حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ، فَالْقَى الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٥٣] آيَةً (١).

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: فِيهِ مِنَ الْفَقْهِ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْذِنَهُمْ حِينَ قَامَ وَخَرَجَ، وَفِيهِ: أَنَّهُ تَهَيَّأَ لِلْقِيَامِ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَقُومُوا.

٦٢٤٠ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: احْجُبْ نِسَاءَكَ. قَالَتْ: فَلَمْ يَفْعَلْ، وَكَانَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ يَخْرُجْنَ لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ (٢)، فَخَرَجَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ، وَكَانَتْ امْرَأَةً طَوِيلَةً، فَرَأَاهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَهُوَ فِي الْمَجْلِسِ، فَقَالَ: عَرَفْتُكَ يَا سَوْدَةُ. حِرْصًا عَلَى أَنْ يُنْزَلَ الْحِجَابُ، قَالَتْ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ آيَةَ الْحِجَابِ (٣).

هَذَا الْحَدِيثُ أَيْضًا سَبَبٌ آخَرُ لِنَزُولِ آيَةِ الْحِجَابِ، وَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَتَعَدَّدَ السَّبَبُ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ آيَةَ الْقَدِّحِ كَوْنُهَا لَهَا سَبَابٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ قَوْلُ أَنَسٍ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ: فَأَنْزَلَتْ آيَةَ الْحِجَابِ. يَعْنِي: ظَهَرَتْ أَحْكَامُهَا وَبَانَ، وَلَكِنَّهُ خِلَافُ ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَعَلَيْهِ فَنَقُولُ: إِنَّ حَدِيثَ عَائِشَةَ، وَحَدِيثَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ آيَةُ لَهَا سَبَابٌ، قَالَ الْقِسْطَلَانِيُّ: وَاسْتَشْكِلَ بَأَنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ قِصَّةَ زَيْنَبَ كَانَتْ سَبَبًا لِنَزُولِ آيَةِ الْحِجَابِ فَتَعَارَضَا وَأُجِيبَ: بِأَنَّ عُمَرَ حَرَّصَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَالَ لِسَوْدَةَ مَا قَالَ فَوَقَعَتِ الْقِصَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِزَيْنَبَ فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ فَكَانَ كُلُّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ سَبَبًا لِنَزُولِهَا.

أَوْ أَنَّ عُمَرَ تَكَرَّرَ مِنْهُ هَذَا الْقَوْلُ قَبْلَ الْحِجَابِ وَبَعْدَهُ، أَوْ أَنَّ بَعْضَ الرُّوَاةِ ضَمَّ قِصَّةً إِلَى أُخْرَى، وَقَدْ سَبَقَ مُوَافَقَاتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ. اهـ.

فَإِنْ قِيلَ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: احْجُبْ نِسَاءَكَ. فَلَمْ يَفْعَلْ ﷺ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اتَّعَجِبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعِيدٍ؟ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَغِيرُ مِنْهُ، وَاللَّهِ أَغِيرُ مِنِّي» (٤) فَكَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا؟

(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٢٨) (٩٢).

(٢) الْمَنَاصِعُ هِيَ: الْمَوَاضِعُ الَّتِي يُتَخَلَّى فِيهَا لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ، وَاحِدُهَا: مَنْصَعٌ، لِأَنَّهُ يُبَرَّرُ إِلَيْهَا وَيُظْهَرُ. وَانْظُرْ: «الْنَهَايَةَ» لِابْنِ الْأَثِيرِ (ن ص ع).

(٣) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٧٠) (١٨).

(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٨٤٦)، وَمُسْلِمٌ (١٤٩٩) (١٧).

فالجواب: أنه لم يكن في خروج نساء النبي ﷺ كما تخرج النساء محظور في الأصل، لكن من كمال إكرام الصحابة للرسول ﷺ أحبوا أن نساءه يكن محتجبات حتى عن الناس فلا يرون.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١١- باب الاستئذان من أجل البصر.

٦٢٤١- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ الزُّهْرِيُّ حَفِظْتُهُ كَمَا أَنَّكَ هَاهُنَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: اطَّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرِ فِي حُجْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَ النَّبِيِّ ﷺ مِذْرَى يَحُكُّ بِهَا رَأْسَهُ فَقَالَ: «لَوْ أَعْلَمَ أَنَّكَ تَنْظُرُ لَطَعْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ، إِنَّمَا جُعِلَ الْاِسْتِثْنَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ»^(١).

٦٢٤٢- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا هَمَادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ مِنْ بَعْضِ حُجْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِمَشْقَصٍ أَوْ بِمَشَاقِصَ فَكَانِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَخْتَلُ الرَّجُلُ لِيَطْعَنَهُ^(٢).

[الحديث ٦٢٤٢- طرفاه في: ٦٨٨٩، ٦٩٠٠].

هذا الحديث فيه: دليل على أنه لا يجوز للإنسان أن يطالع على بيت غيره، وأنه إذا اطَّلَعَ على بيت غيره فقد أهدر حرمة عينه، وأنه يجوز لصاحب البيت أن يفقأ عينه برمح أو مِذْرَى أو أي شيء أراد، وليس هذا من باب دفع الصائل، ولكنه من باب عقوبة الجاني، والدليل على أنه ليس من باب دفع الصائل: أن النبي ﷺ كان يختل هذا الرجل من أجل أن يفقأ عينه، ولو كان من باب دفع الصائل لنبهه أولاً، ثم إذا أصر على النظر ولم يندفع إلا بفقأ عينه فقأ عينه، ولكنه لما لم يفعل بَلَاءُ اللَّهِ ﷻ وجعل يختله دل هذا على أن فقأ عين الناظر من باب عقوبة الجاني، وليس من باب دفع الصائل، وعلى هذا فيجوز أن تختله حتى تضرب عينه بمسار أو غيره.

فإن قيل: هل مثل ذلك الأذن؟ يعني: لو أن أحداً سمع إليك من خلف الباب فهل لك أن تخرج أذنه؟

فالجواب: قال أهل العلم: لا، ليس كذلك؛ لأن الإدراك بالبصر والاطلاع على

(١) رواه مسلم (٢١٥٦) (٤٠).

(٢) رواه مسلم (٢١٥٧) (٤٢).

العوراتِ أعظمُ من الاستماعِ، وأيضًا الاستماعُ لا يكونُ إلا بعدَ رفعِ صوتٍ، وإذا رفعَ أهلُ البيتِ أصواتَهُمْ حتى خرَجَ للسُّوقِ فَهُمْ الَّذِينَ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ، ولهذا لو أن البابَ كان مفتوحًا ووقفَ رجلٌ أمامَ البابِ يَنْظُرُ فَإِنَّهُ لَا تُفْقَأُ عَيْنُهُ؛ لأنَّ التفریطَ من أهلِ البيتِ فَهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُوصِدُوا البابَ^(١)، لكن إذا كان البابُ مُوصَدًا وجاءَ إنسانٌ يَنْظُرُ فَإِنَّ هَذَا جَزَاؤُهُ.

وفي هذا: دليلٌ على أن الاستئذانَ له حِكْمَةٌ وهو النَّظَرُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ [النَّحْلُ: ٢٧]. ولهذا قال بعضُ العلماءِ: مِنَ الْأَدَبِ أَنَّكَ إِذَا وَقَفْتَ عِنْدَ الْبَابِ تَجْعَلُ الْبَابَ عَلَى يَمِينِكَ أَوْ عَلَى يَسَارِكَ، حتى إذا جَاءَ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ لَمْ تَكُنْ تَنْظُرُ إِلَى الْبَيْتِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَفْتَحَ. فمثلاً إذا كان البابُ على اليسارِ فَقَفْ أَنْتَ عَلَى الْيَمِينِ، وإذا كان على الْيَمِينِ فَقَفْ عَلَى الْيَسَارِ، وهذا لا شكَّ أَنَّهُ أَدَبٌ حَسَنٌ لَا سِيَّما عِنْدَ الْأَبْوَابِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا فَتَحَاتُ بَيْنَ الْجِدَارِ وَالْبَابِ، فإنه من الْمُسْتَحْسِنِ أَنْ تَكُونَ عَلَى الْيَمِينِ أَوْ الشَّالِ، حتى إذا جَاءَ أَحَدٌ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَ مِنَ النِّسَاءِ فَلَا تَنْظُرُ إِلَيْهَا.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

١٢ - بَابُ زِنَا الْجَوَارِحِ دُونَ الْفَرْجِ.

٦٢٤٣ - حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سَفِيَّانٌ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمْ أَرِ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِنْ قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَحَدَّثَنِي عُمُودٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرَزْنَا الْعَيْنَ النَّظْرَ، وَزَنَا اللِّسَانَ الْمَنْطِقَ، وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتُسْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَكْذِبُهُ»^(١).

[الحديث ٦٢٤٣ - طرفه في: ٦٦١٢].

المؤلفُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذَكَرَ زِنَا الْجَوَارِحِ دُونَ الْفَرْجِ، وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: مَا

(١) انظر: «المغني» (١٢/ ٥٣٩ - ٥٤١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٧) (٢٠).

رَأَيْتُ أَشْبَهَ بِاللَّمَمِ مَا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. يَعْنِي أَنَّ الزَّنا بِنِهَا دُونَ الْفَرْجِ مِنَ اللَّمَمِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النِّسَاءُ: ٣٢]. وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ فِي الْآيَةِ مُنْقَطِعًا؛ لِأَنَّ اللَّمَمَ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ كِبَائِرِ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ، فَإِنَّ اللَّمَمَ هُوَ الصَّغَائِرُ، وَالصَّغَائِرُ تُمْحَى بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النِّسَاءُ: ٣١].

فَمَنْ الزَّنا زِنَا الْعَيْنِ وَذَلِكَ يَكُونُ بِنَظَرِ الْإِنْسَانِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ مِنَ النِّسَاءِ، إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي بَلَدٍ كُلِّ النِّسَاءِ فِيهِ قَدْ كُشِفْنَ وَجُوهَهُنَّ وَأَتَيْنَ بِأَسْبَابِ الْفِتْنَةِ فَالْوَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْضُ الْبَصَرَ، وَالنَّظْرَةُ الْأُولَى مَعْفُوفَةٌ عَنْهَا؛ يَعْنِي: النَّظْرَةُ الَّتِي تَأْتِي بَعْتَةً لَا يَحْسُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِيهَا مَعْفُوفَةٌ عَنْهَا وَمَا بَقِيَ فَالْوَجِبُ عَلَيْهِ التَّحَرُّرُ.

وَمِنْهُ زِنَا اللِّسَانِ وَيَكُونُ بِالْمَنْطِقِ فَرُبَّمَا يَتَكَلَّمُ الْإِنْسَانُ مَعَ امْرَأَةٍ وَيَتَمَتَّعُ بِالْحَدِيثِ مَعَهَا إِمَّا تَمَتُّعٌ بِالْمَنْطِقِ وَحُسْنِهِ، وَإِمَّا تَمَتُّعٌ بِالشَّهْوَةِ وَكِلَاهُمَا حَرَامٌ.

وَزِنَا النَّفْسِ يَكُونُ بِالْتَّمَنِّيِّ وَالتَّشَهِّيِّ؛ يَعْنِي: يَتَمَنَّى وَيَشْتَهِي أَنْ يَزْنِيَ بِالْمَرْأَةِ نَسَّالَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَرْجُ يُصَدَّقُ هَذِهِ الْأُمُورَ أَوْ يَكْذَّبُهَا.

وفي هذا الحديث: التحذيرُ من هذه المُقَدِّماتِ: النَّظَرُ وَالْحَدِيثُ وَالْمِيلُ، فَإِنَّ هَذِهِ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى أَنْ يَزْنِيَ الزَّنا الْأَكْبَرَ، وَهُوَ فِعْلُ الْفَاحِشَةِ نَسَّالَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلِ النَّظَرُ إِلَى الْأَمْرِدِ بِشَهْوَةٍ يَدْخُلُ فِي الْحَدِيثِ؟

الجواب: نَقُولُ: نَعَمْ النَّظَرُ إِلَى الْأَمْرِدِ بِشَهْوَةٍ أَخْبَثُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْمَرْأَةِ، كَمَا أَنَّ الْوِطْاطَ أَخْبَثُ مِنَ الزَّنا، وَلِهَذَا كَانَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ فِي الْوِطْاطِ أَنَّ حَدَّهُ أَعْظَمُ مِنْ حَدِّ الزَّنا، وَأَنَّ الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ يُقْتَلَانِ بِكُلِّ حَالٍ وَإِنْ لَمْ يَكُونَا مُحْصَنَيْنِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ فَاحِشَةٌ عَظِيمَةٌ وَالتَّحَرُّرُ مِنْهَا صَعْبٌ فَيُقْتَلُ الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ، وَقَدْ حَكَى شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ إجماعَ الصحابةِ عَلَى ذَلِكَ؛ أَي: عَلَى قَتْلِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُونَا مُحْصَنَيْنِ لَكِنْ يَقُولُ: اخْتَلَفُوا كَيْفَ يُقْتَلَانِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُحْرَقَانِ بِالنَّارِ، وَقَالَ آخَرُونَ: يُزْجَمَانِ بِالْحِجَارَةِ، وَقَالَ آخَرُونَ: يُقْلَيَانِ مِنْ أَعْلَى مَكَانٍ فِي الْبَلَدِ وَيُدْفَعَانِ بِالْحِجَارَةِ ^(١). الْمُهْمُ أَنَّ الصَّحَابَةَ أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِ الْفَاعِلِ

(١) انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ»: (٢٨ / ٣٣٤، ٣٣٥، ١٥ / ٤١٢، ٢١ / ٢٤٥).

والمفعول به؛ لأنَّ فسادَ هذا عظيمٌ. فيُصْبِحُ الرجلُ، بل يُصْبِحُ الرجالُ كُلُّهم كالنساء. واعلم أنَّ المفعولَ به تَنَكَّسِرُ نفسه حتَّى يَنْظُرَ إلى الرجالِ، كما تَنْظُرُ المرأةُ إلى الرجلِ، نَسْأَلُ اللهَ العافية، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ رجالُ الأُمّةِ كِنَسَائِهَا، ولذلك كان جُرْمُهُ عَظِيمًا أَعْظَمَ مِنَ الزَّنا. فَمَنْ نَظَرَ إلى الأَمْرَدِ بِشَهْوَةٍ فَهُوَ -والعياذُ بالله-، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَحْمِيَنَا وَإِيَّاكُمْ - كَالَّذِي يَنْظُرُ إلى النساءِ، بل أَشَدُّ، ولهذا قال بعضُ أهلِ العلمِ: اتَّقُوا المُرْدَ؛ فَإِنَّهُمْ أَشَدُّ فِتْنَةً مِنَ العَذَارَى ^(١). يَعْنِي: مِنَ النساءِ الأَبْكَارِ، وَلَكِنَّ هَذَا عِنْدَ بَعْضِ النّاسِ، وَأَمَّا بَعْضُ النّاسِ -والحمدُ لله- فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إلى هَؤُلَاءِ كَمَا يَنْظُرُ إلى أَيِّ إِنْسَانٍ عَادِيٍّ.

فإن قيل: ما وجهُ الإتيانِ بهذا الحديثِ في بابِ الاستئذانِ؟
قلنا: وجهه ظاهرٌ؛ لأنَّ الاستئذانَ إنما جُعِلَ من أجلِ النظرِ، والنظرُ إلى النساءِ داخلٌ في هذا الحديثِ.

فإن قيل: إذا كان في البلدِ نساءٌ كاشفاتٌ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ الرجلُ، وَلَا تَتَحَرَّكُ شَهْوَتُهُ، فَهَلْ يَدْخُلُ فِي هَذَا، أَوْ لَا يَدْخُلُ إِلَّا إِذَا تَحَرَّكَتْ شَهْوَتُهُ؟
نقولُ: ظاهرُ الآيةِ الكريمةِ العُومُومُ ^(٢)، وعليه فإنه يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَغْضُضَ بَصْرَكَ، كما قال النبي ﷺ: «النَّظَرُ الْأَوَّلَى لَكَ وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ» ^(٣). وَالإِنْسَانُ رَبِّهَا إِنَّهُ مَا يَسْتَهْيِي، وَرَبِّهَا إِنَّهُ يَكْرَهُ فِعْلَ هَذَا وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ مَعَ الْكَرَاهَةِ لَا يُوجَدُ تَسَهُّيٌّ، لَكِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْعَلِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَلِهَذَا انْظُرْ إِلَى التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ﴾ [الأنعام: ٣٢]. فَهِيَ عَنْ قُرْبِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ قَرَّبَ وَلَجَ.



(١) روى البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣٩٦)، عن الحسن بن ذكوان قال: لا تجالسوا أولاد الأغنياء؛ فإن لهم صورًا كصور النساء، وهم أشد فتنة من العذارى.

(٢) يشير الشيخ رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٩ / ١) (١٣٦٩)، والحاكم في «المستدرک» (٢ / ٢١٢) عن سلمة بن أبي الطفيل، عن علي بن الحسين. وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

ورواه أحمد (٣٥٢، ٣٥١ / ٥) (٢٢٩٧٤)، والترمذي (٢٧٧٧)، وأبو داود (٢١٤٩)، عن بريدة، عن علي بن الحسين، وفي إسناده شريك بن عبد الله النخعي، وهو سيء الحفظ. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣ - بَابُ التَّسْلِيمِ وَالِاسْتِثْنَانِ ثَلَاثًا.

٦٢٤٤ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا ثُمَامَةُ بْنُ عَبْدِ

اللَّهِ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلَاثًا، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا.

❖ قَوْلُهُ: «كَانَ». فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَا تُفِيدُ الْاسْتِمْرَارَ وَالِدَوَامَ، بَلْ هِيَ لَا تُفِيدُهُ مُطْلَقًا،

ف«كَانَ» لَيْسَتْ لِلْاسْتِمْرَارِ، بَلْ هِيَ لِلاتِّصَافِ بِالصِّفَةِ، وَلِهَذَا تَجِدُ فِي الْحَدِيثِ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ بَسْمِيعَ وَالْغَاشِيَةَ ^(١). وَكَانَ يَقْرَأُ بِالْجُمُعَةِ وَالْمَنَافِقُونَ ^(٢). فَلَوْ قُلْنَا: «كَانَ» لِلْاسْتِمْرَارِ لَحُصِّلَ بِذَلِكَ تَعَارُضٌ، لَكِنَّهَا لَا تُفِيدُ الْاسْتِمْرَارَ إِنَّمَا قَدْ تُفِيدُ الْاسْتِمْرَارَ بِقَرِينَةٍ خَارِجَةٍ.

❖ فَقَوْلُهُ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثَلَاثًا». مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يُكْرَرُ السَّلَامُ لَكِنَّ الْحَدَّ الْأَقْصَى لِسَّلَامِهِ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ؛ يَعْنِي: يُسَلِّمُ، وَإِذَا لَمْ يَسْمَعْ الْمُسَلَّمُ عَلَيْهِ أَعَادَ حَتَّى يَسْمَعَ، كَذَلِكَ أَيْضًا الْاسْتِثْنَانُ فَإِنَّهُ كَانَ يَسْتَأْذِنُ ثَلَاثًا؛ يَعْنِي: إِذَا جَاءَ إِلَى بَيْتِ الشَّخْصِ اسْتَأْذَنَ مَرَّةً، فَإِنْ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ أَعَادَ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَمَا سَيَأْتِي فِي الْحَدِيثِ الَّذِي بَعْدَهُ.

وكَذَلِكَ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَعَادَهَا ثَلَاثًا، وَلَكِنْ هَلْ كَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا؟

الْجَوَابُ: لَا، لَكِنْ إِذَا لَمْ يُفْهَمْ أَعَادَهَا ثَلَاثًا، وَلَكِنْ بَعْدَ الثَّلَاثِ هَلْ يُعِيدُهَا؟

الْجَوَابُ: لَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلَمْ يُفْهَمْ الْمُخَاطَبُ دَلَّ هَذَا عَلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا بِلَادَةٍ لَا مُنْتَهَى لَهَا، وَإِمَّا غَفْلَةً فَلَيْسَ أَهْلًا لِأَنْ يُكْرَرَ، وَهَذَا أَيْضًا فِي غَيْرِ مَقَامِ التَّعْلِيمِ، أَمَّا فِي مَقَامِ التَّعْلِيمِ فَالظَّاهِرُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ أَنْ يُعَلَّمَ وَيُكْرَرَ حَتَّى يُفْهَمْ عَنْهُ، لَكِنْ فِي الْكَلَامِ السَّائِرِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثٍ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٢٤٥ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ خُصَيْفَةَ، عَنْ بُسْرِ بْنِ

سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٧٨) (٦٢).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٧٧) (٦١).

كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ فَقَالَ: اسْتَأذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، فَرَجَعْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ؟ قُلْتُ: اسْتَأذَنْتُ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا اسْتَأذَنْ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَتُقِيمَنَّ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ. أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ أَبِي بْنُ كَعْبٍ: وَاللَّهِ لَا يَقُومُ مَعَكَ إِلَّا أَصْغَرُ الْقَوْمِ. فَكُنْتُ أَصْغَرُ الْقَوْمِ. فَقُمْتُ مَعَهُ فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَلِكَ»^(١).

وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ أَخْبَرَنِي بَنُ عُسَيْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ عَنْ بُسْرِ سَمِعَتْ أَبَا سَعِيدٍ هَذَا^(٢).
هَذَا الْحَدِيثُ أَيْضًا فِيهِ: أَنَّهُ إِذَا اسْتَأذَنْ الْإِنْسَانُ ثَلَاثًا، وَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ؛ لِأَنَّ هَذَا يَعْني: أَنَّهُ إِذَا اسْتَأذَنْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو هَذَا مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ:
إِمَّا أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ الْبَيْتِ غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَوْجُودًا، لَكِنْ لَا يُحِبُّ أَنْ يَأْذَنَ لِأَحَدٍ، فَارْجِعْ.

بَلْ لَوْ فَرَضَ أَنَّهُ فَتَحَ لَكَ الْبَابَ، وَقَالَ لَكَ: ارْجِعْ. فَلْتَرْجِعْ، وَهَذَا أَزْكَى لَكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اتَّجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [التَّحْوِيلُ: ٢٨].
وَهَذِهِ الْقِصَّةُ مَعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهَا إِشْكَالٌ؛ لِأَنَّ أَبَا مُوسَى رَوَى حَدِيثًا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَدِيثَ يَقْبَلُ، وَلَوْ مِنْ رَاوٍ وَاحِدٍ ثِقَةٍ، فَكَيْفَ طَلَبَ عُمَرُ بَيِّنَةً لِأَبِي مُوسَى، وَأَبُو مُوسَى ثِقَةٌ؟
وَلَوْ قُلْنَا: إِنَّا لَا نَقْبَلُ الْحَدِيثَ إِلَّا مَعَ شَاهِدٍ لَصَاعَتْ كُلُّ الْأَحَادِيثِ الَّتِي لَا يَرَوِيهَا إِلَّا صَحَابِيُّ وَاحِدٌ، فَمَاذَا نَقُولُ؟

نَقُولُ: إِنَّهُ لَمَّا كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ دِفَاعٍ عَنِ النَّفْسِ، وَنَحْنُ لَا نَشُكُّ فِي صِدْقِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَكِنْ قَدْ يَأْتِي إِنْسَانٌ آخَرٌ فَيَضَعُ حَدِيثًا مِنْ عِنْدِهِ دِفَاعًا عَنْ نَفْسِهِ، فَمِنْ أَجْلِ سَدِّ هَذَا الْبَابِ طَلَبَ عُمَرُ مِنْ أَبِي مُوسَى الْبَيِّنَةَ؛ لِثَلَاثِ يَأْتِي وَاحِدٌ غَيْرُ أَبِي مُوسَى، فَإِذَا أَرَادَ عُمَرُ أَنْ يُعَايِنَهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كَذَا؛ لِأَجْلِ أَنْ يَنْجُو بِنَفْسِهِ، فَأَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَسُدَّ الْبَابَ حَتَّى فِي وَجْهِهِ

(١) ورواه مسلم (٢١٥٣) (٣٣).

(٢) علقة البخاري رحمه الله، بصيغة الجزم، كما في «الفتح» (٢٧ / ١١)، وأراد رحمه الله بهذا التعليق بيان سماع بسير له من أبي سعيد، وقد وصله أبو نعيم في «المستخرج» من طريق الحسن بن سفيان حدثنا حبان بن موسى حدثنا عبد الله بن المبارك، وكذا وقع التصريح به عند مسلم عن عمرو الناقد. انظر: «فتح الباري» (١١ / ٢٩)، و«تغليق التعليق» (٥ / ١٢٢).

هذا الرَّجُلُ الصَّادِقُ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. هذا هو أَقْرَبُ مَا يُقَالُ.

فَعَمْرٌ لَمْ يَتَّهِمْ أَبَا مُوسَى، وَلَمْ يُرِدِ الْاسْتِثْنَاءَ، أَوْ زِيَادَةَ الْاسْتِثْنَاءِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ عِنْدَهُ ثَابِتٌ، وَلَكِنَّهُ خَافَ أَنْ يَأْتِيَ لُكْعُ بَنٍ لُكْعَ فِتْنَتِهِمْ بِشَيْءٍ أَوْ يُوجَّهَ إِلَيْهِ أَمْرٌ فَيَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَذَا؛ لِأَجْلِ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ نَفْسِهِ، فَيُقَالُ مِثْلًا: إِذَا كَانَ عَمْرٌ طَلَبَ مِنْ أَبِي مُوسَى، وَهُوَ مَنْ هُوَ فِي الثَّقَةِ وَالْعَدَالَةِ فَكَيْفَ بغيره؟!

هذا أَقْرَبُ مَا يَكُونُ؛ لِأَنَّ زِيَادَةَ الْاسْتِثْنَاءِ هَذِهِ لَوْ كَانَ هُنَاكَ مُعَارِضٌ كَانَتْ مُمَكِّنَةً، كَمَا اسْتِثْنَى النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي قِصَّةِ ذِي الْيَدَيْنِ ^(١)، أَمَّا وَلَيْسَ هُنَاكَ مُعَارِضٌ فَلَا وَجْهَ؛ لِثَلَاثِ اقْتِرَافَاتٍ: كُلَّمَا جَاءَهُ حَدِيثٌ مِنْ طَرِيقٍ رَأَوْا وَاحِدًا: اثْنِ زِيَادَةِ بَيِّنَةٍ.

لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ دِفَاعٍ عَنِ النَّفْسِ، وَقَدْ يَأْتِي أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ الصَّحَابَةِ، إِذَا أَرَادَ الْإِمَامُ أَنْ يُؤَاخِذَهُ بِشَيْءٍ مِثْلًا فَيَكْذِبُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَكَمَا يُوجَدُ الْآنَ فِي أَهْلِ الْبِدْعِ فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِأَحَادِيثَ مَوْضُوعَةٍ، وَقَدْ قَالَ أَحَدُ الْمُتَعَصِّبِينَ لِمَذْهَبٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ: حَدَّثَنِي فَلَانٌ، عَنْ فَلَانٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَكُونُ فِي أُمَّتِي رَجُلٌ أَصْرُ عَلَيْهَا مِنْ إِبْلِيسَ، يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسٍ» ^(٢).



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

١٤ - بَابُ: إِذَا دُعِيَ الرَّجُلُ فَجَاءَ هَلْ يَسْتَأْذِنُ؟

وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «هُوَ إِذْنُهُ» ^(١).

٦٢٤٦ - حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ، وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ،

(١) رواه البخاري (٧١٤)، ومسلم (٥٧٣) (٩٧).

(٢) هذا حديث موضوع، حدث به مأمون بن أحمد السلمي، وهو خبيث وضاع، عن أحمد الجوباري الكذاب، عن عبد الله بن معدان الأزدي، عن أنس مسندًا. وانظر: «المجروحين» لابن أبي حاتم (٤٦ / ٣)، و«الضعفاء» لأبي نعيم (١٥٠ / ١)، و«كشف الخفاء» (٣٣ / ١).

(٢) علقه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بصيغة الجزم، كما في «الفتح» (٣١ / ١١)، ووصله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الأدب المفرد» (١٠٧٥)، قال: حدثنا عياش بن الوليد، حدثنا عبد الأعلى، أنبأنا سعيد، عن قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَجَاءَ مَعَ الرَّسُولِ فَهُوَ إِذْنُهُ» وكذا رواه أبو داود في «سننه» (٥١٩٠) وقال في آخره: وهو منقطع، ولم يسمع قتادة من أبي رافع. اهـ. وقد ثبت سماعه منه في صحيح البخاري. «تغليق التعليق» (١٢٣ / ٥).

أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ، أَخْبَرَنَا مُجَاهِدٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ فَقَالَ: «أَبَا هُرَيْرَ الْحَقُّ أَهْلُ الصُّفَةِ فَاذْعُمُهُمْ إِلَيَّ» قَالَ: فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا فَاسْتَأْذَنُوا فَأَذِنَ لَهُمْ، فَدَخَلُوا.

وهنا مسألة وهي: إذا دُعِيَ الرَّجُلُ فَجَاءَ فهل يَسْتَأْذِنُ؟ أو نقول: إِنَّ دَعْوَتَهُ إِذْنٌ؟
الجواب: في هذا خلافٌ بين العلماء فمنهم من قال: هو إِذْنُهُ؛ يعني: دَعْوَتُهُ إِذْنُهُ، ولا حاجة إلى أَنْ يَسْتَأْذِنَ.

ومن العلماء مَنْ قال: بَلْ يَسْتَأْذِنُ. وَلَعَلَّ هذا يَرْجِعُ إلى العُرْفِ والعادة، فإذا جَرَتْ العادةُ بِأَنْ دَعْوَتُهُ إِذْنٌ فهو إِذْنٌ، كما لو حَضَرَ إلى البيتِ، ووجدَ البابَ مفتوحًا والناسُ يَدْخُلُونَ فهذا إِذْنٌ ولا يَحْتَاجُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ، أَمَّا لَوْ وَجَدَهُ مُغْلَقًا فإنه يَسْتَأْذِنُ وَإِنْ كَانَ قَدْ دُعِيَ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ ربما يَكُونُ قد دَخَلَ البيتَ وأغْلَقَ البابَ وحينئذٍ لا يَنْبَغِي أَنْ تَدْخُلَ إِلَّا بِاسْتِئْذَانٍ. فَتَكُونُ المسألةُ فيها تفصيلٌ.

وحديثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصةِ أَهْلِ الصُّفَةِ، وهي قصةٌ مشهورةٌ وفيها أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَرِبَ حَتَّى رَوَى فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اشْرَبْ أَبَا هُرَيْرَ» فقال: لا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا ^(١). فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَمْلَأَ الْإِنْسَانُ بَطْنَهُ أحيانًا لَكِنْ مِنَ الشَّيْءِ الْخَفِيفِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ اللَّبَنَ خَفِيفٌ، فَلَيْسَ مِنَ الطَّعَامِ الثَّقِيلِ، ولهذا قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه لا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْكُلَ طَعَامًا يَتَأَذَى بِهِ، أو يَحْصُلَ لَهُ مِنْهُ تَخَمُّعٌ تُغَيِّرُ الْبَطْنَ وَالْمَعِدَةَ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْإِضْرَارِ بِالْبَدَنِ ^(٢) وقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» ^(٣).



(١) رواه البخاري (٦٤٥٢).

(٢) أخرجه الدارقطني (٧٧/٣)، والحاكم (٥٨/٢)، ورواه مالك في الموطأ (٧٤٥/٢) عن يحيى بن عمار مرسلًا، وانظر «الإرواء» (٨٩٦).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٣٢٦/٥)، وابن ماجه (٢٣٤٠)، عن عباد بن الصامت. وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على «سنن ابن ماجه»: صحيح.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥ - بَابُ التَّسْلِيمِ عَلَى الصَّبِيَّانِ.

٦٢٤٧ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَيَّارٍ عَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا وَقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ.

هَذَا أَيْضًا مِنْ هَذِي النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَى الصَّغَارِ إِذَا مَرَّ بِهِمْ، وَهَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمِنْ تَعْلِيمِ الصَّبِيَّانِ أَيْضًا، ففِيهِ فائدتان:

أولاً: التَّوَاضُّعُ وَكَرَمُ الْخُلُقِ.

والثاني: تَعْلِيمُ الصَّبِيَّانِ لِلْآدَابِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَجِبُ عَلَى الصَّبِيَّانِ رَدُّ السَّلَامِ؟

فالجواب: قَدْ يُقَالُ بِالْوُجُوبِ؛ لِأَنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ حَقَّ آدَمِيٍّ، وَقَدْ يُقَالُ بَعْدِيهِ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِينَ، لَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ يُعَلِّمُوا حَتَّى وَلَوْ قُلْنَا بَأَنَّهُ لَا يَجِبُ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعَلِّمُوا وَأَنْ يُؤْمَرُوا بِالرَّدِّ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٦ - بَابُ تَسْلِيمِ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ، وَالنِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ.

٦٢٤٨ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَهْلِ قَالَ: كُنَّا نَفْرَحُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانَتْ لَنَا عَجُوزٌ تُرْسِلُ إِلَى بُضَاعَةَ قَالَ ابْنُ سَلَمَةَ - نَخْلُ بِالْمَدِينَةِ - فَتَأْخُذُ مِنْ أَصُولِ السَّلْقِ فَتَطْرَحُهُ فِي قَدَرٍ وَتُكَرِّرُ حَبَّاتٍ مِنْ شَعِيرٍ، فَإِذَا صَلَّيْنَا الْجُمُعَةَ انْصَرَفْنَا وَنُسَلِّمُ عَلَيْهَا فَتَقْدِّمُهُ إِلَيْنَا فَنَفْرَحُ مِنْ أَجْلِهَا، وَمَا كُنَّا نَقِيلُ وَلَا نَتَغَدَّى إِلَّا بَعْدَ الْجُمُعَةِ.

اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا الْحَدِيثُ يُؤْخَذُ مِنْهُ حَالُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَشِدَّةُ فَاقَتِهِمْ، فَهِيَ هُمْ يَفْرَحُونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ أَجْلِ هَذَا الطَّعَامِ الَّذِي تَقْدِّمُهُ إِلَيْهِمْ هَذِهِ الْعَجُوزُ.

وفي هذا الحديث: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرِّجَالَ يُسَلِّمُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَإِذَا كَانَتِ الْمَسْأَلَةُ مِثْلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ فَلَا بَأْسَ بِتَسْلِيمِ الرِّجَالِ عَلَى الْمَرْأَةِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ فِتْنَةٌ، فَلَيْسَتْ هُنَاكَ خَلْوَةٌ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَحْظُورٌ، فَالرِّجَالُ جَمَاعَةٌ وَالْمَرْأَةُ عَجُوزٌ، وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ شَابَّةً وَالرَّجُلُ

واحدًا، فإن السلام هنا يُوقِعُ في الفتنة، ولذلك لا نقول بِمَشْرُوعِيَةِ السلام هنا؛ لِمَا في هذا من الْفِتْنَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلرَّجُلِ وَبِالنِّسْبَةِ لِلْمَرْأَةِ، ولو قلنا إن الشَّابَّ إِذَا مَرَّ بِالشَّابَّةِ يُسَلِّمُ عَلَيْهَا لِحَصَلِ فِي هَذَا شَرٌّ كَبِيرٌ، وَلِصَارِ كُلِّ الشَّابِّ الَّذِينَ لَيْسَ بِهِمْ خَيْرٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَرَدَّدُوا عَلَى الشَّابَّاتِ، وَكَلَّمَا وَجَدَ شَابَّةً أَسْرَعَ إِلَيْهَا قَائِلًا: السَّلَامُ عَلَيْكِ. وَحَصَلَ فِي هَذَا فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ.

لِلَّذَلِكَ نَقُولُ: إِذَا كَانَتِ الْمَسْأَلَةُ كَمَسْأَلَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هَذِهِ وَالْفِتْنَةُ مَأْمُونَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ فِهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ.

كَذَلِكَ إِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ مَعَارِفِهِ وَمِمَّنْ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ كَثِيرًا بِالْبَيْتِ فَمَرَّ بِهَا فِي بَيْتِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ فَيُسَلِّمُ، وَلَا حَرَجَ فِي هَذَا.

الْمُهِّمُ: أَنَّ الْأَصْلَ هُوَ الْجَوَازُ، لَكِنْ إِذَا كَانَ هُنَاكَ مُحْظُورًا فَإِنَّهُ يَجِبُ الْمَنْعُ مِنْهُ.
قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَشَارَ بِهَذِهِ التَّرْجِمَةِ إِلَى رَدِّ مَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: بَلَّغْنِي أَنَّهُ يُكْرَهُ أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ وَالنِّسَاءُ عَلَى الرَّجَالِ. وَهُوَ مَقْطُوعٌ أَوْ مُعْضَلٌ وَالْمَرَادُ بِجَوَازِهِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ أَمْنِ الْفِتْنَةِ.

وَذَكَرَ فِي الْبَابِ حَدِيثَيْنِ يُؤْخَذُ الْجَوَازُ مِنْهُمَا، وَوَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ لَيْسَ عَلَى شَرْطِهِ، وَهُوَ حَدِيثُ أَسَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ: مَرَّ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فِي نِسْوَةٍ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا. حَسَنَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَلَيْسَ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ فَانْتَفَى بِمَا هُوَ عَلَى شَرْطِهِ، وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ عِنْدَ أَحْمَدَ.

وَقَالَ الْحَلِيمِيُّ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْعِصْمَةِ مَأْمُونًا مِنَ الْفِتْنَةِ، فَمَنْ وَثِقَ مِنْ نَفْسِهِ بِالسَّلَامَةِ فَلَيْسَ لَهُ، وَإِلَّا فَالصَّمْتُ أَسْلَمٌ.

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي عَمَلِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِنْ حَدِيثِ وَائِلَةَ مَرْفُوعًا: يُسَلِّمُ الرَّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ، وَلَا يُسَلِّمُ النِّسَاءُ عَلَى الرَّجَالِ. وَسَنَدُهُ وَاهٍ، وَمِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ مِثْلَهُ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ، وَكَبَتْ فِي مُسْلِمٍ حَدِيثُ أُمِّ هَانِيٍّ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَغْتَسِلُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ^(١). اهـ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: كَلَامُ الْمُؤَلِّفِ وَاضِحٌ فَإِنَّ الْمَسْأَلَةَ إِذَا كَانَ فِيهَا فِتْنَةٌ فَهِيَ مَمْنُوعَةٌ، وَإِذَا أَمِنَتِ الْفِتْنَةُ فَلَا بَأْسَ.

(١) «فتح الباري» (١١ / ٣٣، ٣٤).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٢٤٩ - حَدَّثَنَا ابْنُ مُقَاتِلٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ هَذَا جَبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ» قَالَتْ: قُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، تَرَى مَا لَا نَرَى، تُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ^(١).
تَابِعَهُ شُعَيْبٌ. وَقَالَ يُونُسُ، وَالنَّعْمَانُ عَنِ الزُّهْرِيِّ وَبَرَّكَاتُهُ^(٢).

هذا الحديث فيه: سلامُ الملائكة على النساء، ولكن هذه القضية في الاستدلال بها بُعد؛ لأسباب:
أولاً: هل يجوز أن نَصِفَ الملائكة بالرجولة، أو نقول الملائكة ملائكة فقط؟ ولا شك أننا لا نَصِفُهُم بالإناث لأن الله أنكر هذا.

وثانياً: أن عالم الملائكة ليس كعالم البشر.

فالذي أراه أن الاستدلال بهذا الحديث فيه بُعد واضح.

قال الحافظ في «الفتح»: «وَحَكَى ابْنُ التِّينِ أَنَّ الدَّوْدِيَّ اعْتَرَضَ فَقَالَ: لَا يُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ رِجَالٌ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذَكَرَهُم بِالتَّذْكِيرِ.

والجواب: أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ عَلَى صُورَةِ الرَّجُلِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي بَدْءِ الْوَحْيِ.

وقال ابنُ بَطَّالٍ عَنِ الْمُهَلَّبِ: سَلَامُ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ وَالنِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ إِذَا أَمِنَتْ الْفِتْنَةُ، وَفَرَّقَ الْمَالِكِيَّةُ بَيْنَ الشَّابَّةِ وَالْعَجُوزِ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ، وَمَنَعَ مِنْهُ رِبْعَةٌ مُطْلَقًا.

وقال الكوفيون: لَا يُشْرَعُ لِلنِّسَاءِ ابْتِدَاءُ السَّلَامِ عَلَى الرِّجَالِ؛ لِأَنَّهُنَّ مُعِنَّ مِنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ وَالْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ، قَالُوا: وَيُسْتَشْنَى الْمَحْرَمُ فَيَجُوزُ لَهَا السَّلَامُ عَلَى مَحْرَمِهَا.

قال المهلب: وَحُجَّةُ مَالِكٍ حَدِيثُ سَهْلِ فِي الْبَابِ فَإِنَّ الرِّجَالَ الَّذِينَ كَانُوا يُزَوَّرُونَهَا وَتَطْعِمُهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ مَحَارِمِهَا. انتهى

(١) ورواه مسلم (٢٤٤٧) (٩٠، ٩١).

(٢) قال الحافظ بن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: أما حديث شعيب، فأسنده المؤلف في «الرقاق».

وأما حديث يونس، فأسنده المؤلف في «فضل عائشة» (٣٧٦٨).

وأما متابعة النعمان وهو بن راشد، فوصلها الطبراني في الكبير، قال: حدثنا إبراهيم بن قائلة، حدثنا محمد ابن أبي بكر، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، عن النعمان بن راشد، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن عائشة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ هَذَا جَبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ» فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته... الحديث.

«تغليق التعليق» (٥/ ١٢٣، ١٢٤)، و«الفتح» (١١/ ٣٥).

وقال المتولي: إن كانت للرجل زوجة أو محرّم أو أمة فكأ الرجل مع الرجل، وإن كانت أجنبية نظر إن كانت جميلة يخاف الافتتان بها لم يُشرع السلام لا ابتداءً ولا جواباً، فلو ابتداءً أخذها كرهه للآخر الرد، وإن كانت عجوزاً لا يُفتتن بها جاز.

وحاصل الفرق بين هذا وبين المالكية التفصيل في الشابة بين الجمال وعدمه، فإن الجمال مطنّة الافتتان بخلاف مطلق الشابة، فلو اجتمع في المجلس رجالاً ونساءً جاز السلام من الجانبين عند أمن الفتنة^(١). اهـ



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٧ - بَابُ إِذَا قَالَ: مَنْ ذَا؟ فَقَالَ: أَنَا.

٦٢٥٠ - حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي دِينٍ كَانَ عَلَى أَبِي، فَدَقَّقْتُ الْبَابَ، فَقَالَ: «مَنْ ذَا؟» فَقُلْتُ: أَنَا. فَقَالَ: «أَنَا أَنَا» كَأَنَّهُ كَرِهَهَا^(٢).

في هذا الحديث: دليل على أنه يُكره للإنسان إذا استأذن ف قيل له: مَنْ هذا؟ أن يقول: أنا؛ لأنّ هذا لا يدلُّ على تعيين الرجل، بل يقول: فلان بن فلان.

ولكن هل هذه الكراهة مطلقة أو أن هذه الكراهة ما لم يُعلم صوته بأنه فلان؟

يُنْبَغِي أَنْ يُقَالَ بِالْكَرَاهَةِ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّهُ يُمَكِّنُ تَقْلِيدَ الصَّوْتِ، وَلِأَجْلِ سَدِّ الْبَابِ نَهَائِيًّا، وَلِأَنَّهُ أَشَدُّ طُمَأْنِينَةً لِصَاحِبِ الْبَيْتِ إِذَا قَالَ الْمُسْتَأْذِنُ: أَنَا فَلان بن فلان، فَالْأَوَّلَى إِذَا اسْتَأْذَنْتَ وَقِيلَ: مَنْ عِنْدَ الْبَابِ؟ أَلَا تَقُولُ: أَنَا فَقَطْ بَلْ قُلْ: فَلان بن فلان، أَوْ قُلْ: أَنَا فَلان ابن فلان؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَعَلَ يُكْرِرُهَا وَيَقُولُ: «أَنَا أَنَا» وَمَعْنَى هَذَا: مَنْ أَنْتَ.



(١) «فتح الباري» (١١ / ٣٤، ٣٥).

(٢) ورواه مسلم (٢١٥٥) (٣٩).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٨ - بَابُ مَنْ رَدَّ فَقَالَ: عَلَيْكَ السَّلَامُ.

وقالت عائشة: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ^(١) وقال النبي ﷺ: ردّ الملائكة على آدم: السلام عليك ورحمة الله ^(٢).

٦٢٥١ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فَارْجَعَ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ. فَقَالَ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ فَارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ أَوْ فِي الَّتِي بَعْدَهَا: عَلَّمَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا» ^(٣).

وقال أبو أسامة في الأخير: «حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا» ^(٤).

٦٢٥٢ - حَدَّثَنَا بَشِيرٌ قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنِي سَعِيدٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ جَالِسًا».

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الفتح» (١١ / ٣٦ - ٣٧):

❦ قوله: «بَابُ مَنْ رَدَّ فَقَالَ: عَلَيْكَ السَّلَامُ». يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى مَنْ قَالَ: لَا يُقَدَّمُ عَلَى لَفْظِ السَّلَامِ شَيْءٌ، بَلْ يَقُولُ فِي الْإِبْتِدَاءِ وَالرَّدِّ: السَّلَامُ عَلَيْكَ. أَوْ مَنْ قَالَ: لَا يَقْتَصِرُ عَلَى الْإِفْرَادِ، بَلْ يَأْتِي بِصِغَةِ الْجَمْعِ.

(١) علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، بصيغة الجزم، وقد سبق في الفصل الذي قبله. «التعليق» (١٢٤ / ٥).

(٢) علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، بصيغة الجزم، وقد أسنده رَحِمَهُ اللَّهُ في أول كتاب الاستئذان (٦٢٢٧)، من حديث همام، عن أبي هُرَيْرَةَ. «التعليق» (١٢٤ / ٥ - ١٢٥).

(٣) ورواه مسلم (٣٩٧) (٤٥).

(٤) قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «التعليق» (١٢٥ / ٥): حديث أبي أسامة، عن عبيد الله، في هذه القصة، أسنده المؤلف بتمامه في «الأيان والندور» (٦٦٦٧).

أَوْ مَنْ قَالَ: لَا يَحْذِفُ الْوَاوَ، بَلْ يُجِيبُ بِوَاوٍ الْعُطْفَ فَيَقُولُ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ.
 أَوْ مَنْ قَالَ: يَكْفِي فِي الْجَوَابِ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى: «عَلَيْكَ» بِغَيْرِ لَفْظِ السَّلَامِ.
 أَوْ مَنْ قَالَ: لَا يَقْتَصِرُ عَلَى «عَلَيْكَ السَّلَامُ» بَلْ يَزِيدُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ.
 وَهَذِهِ خَمْسَةُ مَوَاضِعَ جَاءَتْ فِيهَا آثَارٌ تُدَلُّ عَلَيْهَا:

فَأَمَّا الْأَوَّلُ: فَيُؤْخَذُ مِنَ الْحَدِيثِ الْبَاضِي أَنَّ السَّلَامَ اسْمُ اللَّهِ فَيَنْبَغِي أَلَّا يُقَدَّمَ عَلَى اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ،
 نَبَّهَ عَلَيْهِ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ، وَنَقَلَ عَنْ بَعْضِ الشَّافِعِيَّةِ أَنَّ الْمُتَبَدِّلَ لَوْ قَالَ: عَلَيْكَ السَّلَامُ لَمْ يُجْزِئ.
 وَذَكَرَ النَّوَوِيُّ عَنِ الْمُتَوَلَّى أَنَّ مَنْ قَالَ فِي الْإِبْتِدَاءِ: وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ، لَا يَكُونُ سَلَامًا وَلَا
 يَسْتَحِقُّ جَوَابًا. وَتَعَقُّبُهُ بِالرَّدِّ فَإِنَّهُ يُشْرَعُ بِتَقْدِيمِ لَفْظِ عَلَيْكُمْ. قَالَ النَّوَوِيُّ: فَلَوْ أَسْقَطَ الْوَاوَ فَقَالَ:
 عَلَيْكُمْ السَّلَامُ. قَالَ الْوَاحِدِيُّ: فَهُوَ سَلَامٌ وَيَسْتَحِقُّ الْجَوَابَ، وَإِنْ كَانَ قَلْبُ اللَّفْظِ الْمَعْتَادَ.
 هَكَذَا جَعَلَ النَّوَوِيُّ الْخِلَافَ فِي إِسْقَاطِ الْوَاوِ وَإِبَاتِهَا، وَالْمُتَبَادَّرُ أَنَّ الْخِلَافَ فِي تَقْدِيمِ
 عَلَيْكُمْ عَلَى السَّلَامِ كَمَا يُشْعِرُهُ بِهِ كَلَامُ الْوَاحِدِيِّ. قَالَ النَّوَوِيُّ: وَيَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ كَالْوَجْهَيْنِ فِي
 التَّحْلُلِ بِلَفْظِ: «عَلَيْكُمُ السَّلَامُ» وَالْأَصَحُّ الْحَصُولُ.

ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي جَرِيحٍ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ ^(١). أَهـ
 فَالْأَفْضَلُ أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّلَامِ فَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ. وَفِي الرَّدِّ أَنْ يَقُولَ: عَلَيْكَ السَّلَامُ؛
 لِيَتَبَيَّنَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِبْتِدَاءِ وَبَيْنَ الْجَوَابِ.
ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَمَّا الثَّانِي: فَأَخْرَجَ الْبَخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» مِنْ طَرِيقِ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ قَالَ: قَالَ لِي
 أَبِي قُرَّةَ بْنُ إِيَّاسٍ الْمَزْنِيُّ الصَّحَابِيُّ: إِذَا مَرَّ بِكَ الرَّجُلُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَلَا تَقُلْ وَعَلَيْكَ
 السَّلَامُ فَتَخْصُهُ وَحْدَهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ وَحْدَهُ. وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ.

وَمِنْ فُرُوعِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ^(٢): لَوْ وَقَعَ الْإِبْتِدَاءُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ فَإِنَّهُ لَا يَكْفِي الرَّدُّ بِصِيغَةِ
 الْإِفْرَادِ؛ لِأَنَّ صِيغَةَ الْجَمْعِ تَقْتَضِي التَّعْظِيمَ فَلَا يَكُونُ امْتَثَلُ الرَّدِّ بِالْمِثْلِ فَضْلًا عَنِ الْأَحْسَنِ.
 نَبَّهَ عَلَيْهِ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ.

(١) «فتح الباري» (١١/٣٦-٣٧).

(٢) علق الشيخ الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى قَوْلِ الْحَافِظِ هَذَا قَائِلًا: بَلْ هِيَ الْمَسْأَلَةُ.

[يَعْنِي: إِذَا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَلَا تَقُلْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ؛ فَإِنَّهُ نَهَى أَنْ تَرُدَّ بِالْإِفْرَادِ مَعَ أَنَّهُ سَلَّمَ بِالْجَمْعِ] ^(١).

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَقَالَ النُّوويُّ: اتَّفَقَ أَصْحَابُنَا أَنَّ الْمَجِيبَ لَوْ قَالَ: عَلَيْكَ. بَغَيْرِ وَائٍ لَمْ يُجْزِئْ، وَإِنْ قَالَ بِالْوَائِ فَوَجْهَانِ ^(٢).

[وَوَجْهَ ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا قَالَ وَعَلَيْكَ، مَعْنَاهُ: وَعَلَيْكَ بِهِ السَّلَامُ الَّذِي بَدَأْتُ بِهِ، وَأَمَّا إِذَا قَالَ: عَلَيْكَ. لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَبْنِيَّةً عَلَى الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ، فَمَا الَّذِي عَلَيْهِ؟ هَلْ هُوَ السَّلَامُ أَوْ عَلَيْكَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى] ^(٣).

وَأَمَّا الرَّابِعُ: فَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ يَقُولُ: وَعَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ. وَقَدْ وَرَدَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثَ مَرْفُوعَةٍ سَأَذْكُرُهَا فِي بَابِ كَيْفِ الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ ^(٤). اهـ.

وَقَالَ الْحَافِظُ أَيْضًا فِي «الْفَتْحِ» (٦/١١):

فيه: مشروعية الزيادة في الردِّ على الابتداء، وهو مُسْتَحَبٌّ بِالِاتِّفَاقِ؛ لَوُقُوعِ التَّحِيَّةِ فِي ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النِّسَاءُ: ٨٦]. فَلَوْ زَادَ الْمُبْتَدِئُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، اسْتَحَبَّ أَنْ يُزَادَ: وَبَرَكَاتُهُ، فَلَوْ زَادَ وَبَرَكَاتُهُ، فَهَلْ تُشْرَعُ الزِّيَادَةُ فِي الرَّدِّ؟ وَكَذَا لَوْ زَادَ الْمُبْتَدِئُ عَلَى: وَبَرَكَاتُهُ هَلْ يُشْرَعُ لَهُ ذَلِكَ؟

أَخْرَجَ مَالِكٌ فِي «الْمَوْطَأِ» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: انْتَهَى السَّلَامُ إِلَى الْبَرَكَةِ. وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الشُّعَبِ» مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَابِيهِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عُمَرَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ، فَقَالَ: حَسْبُكَ إِلَى وَبَرَكَاتِهِ، انْتَهَى إِلَى وَبَرَكَاتِهِ. وَمِنْ طَرِيقِ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبِدٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: انْتَهَى السَّلَامُ إِلَى وَبَرَكَاتِهِ. وَرَجَالُهُ ثَقَاتٌ.

(١) مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفِينَ مِنْ كَلَامِ الْعَلَامَةِ ابْنِ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) عَلَّقَى الشَّيْخُ الشَّارِحُ عَلَى هَذَا قَائِلًا: وَجْهَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ إِذَا قَالَ: عَلَيْكَ لَمْ يُجْزِئْ.

وَفِي قَوْلِهِ: «وَعَلَيْكَ» وَجْهَانِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَالَ: وَعَلَيْكَ. فَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: السَّلَامُ عَلَيْكَ. فَإِنَّهُ يَعْنِي: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ الَّذِي بَدَأْتُ بِهِ، أَمَّا إِذَا قَالَ: عَلَيْكَ. لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَبْنِيَّةً عَلَى الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ؛ إِذْ أَنَّهُ لَا يُعْلَمُ مَا الَّذِي عَلَيْهِ، هَلْ هُوَ السَّلَامُ، أَوْ عَلَيْهِ كَذَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى.

(٣) مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفِينَ مِنْ كَلَامِ الْعَلَامَةِ ابْنِ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) «فَتْحُ الْبَارِي» (٣٧/١١).

وجاء عن ابنِ عمرَ الجوازُ. فأخرجَ مالكٌ أيضًا في «الموطأ» عنه أنه زادَ في الجوابِ:
والغادياتُ والرائحاتُ.

وأخرجَ البخاريُّ في «الأدب المفرد» من طريقِ عمرو بنِ شعيبٍ، عن سالمٍ مَوْلَى ابنِ
عمرَ قال: كان ابنُ عمرَ يَزِيدُ إذا رَدَّ السلامَ، فَأَتَيْتُهُ مَرَّةً فَقُلْتُ: السلامُ عليكم. فقال: السلامُ
عليكم ورحمةُ الله. ثم أَتَيْتُهُ فَرَدْتُ: وبركاته. فردَّ ورَآدًا وطيبُ صلواتِهِ.

ومن طريقِ زيد بنِ ثابتٍ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى معاويةَ: السلامُ عليكم يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ
وبركاته ومغفرته وطيبُ صلواتِهِ.

ونقلَ ابنُ دُقيقِ العِيدِ عن أبي الوليدِ بنِ رشيدٍ: أَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ
مِنْهَا﴾ الجوازُ فِي الزِيَادَةِ عَلَى الْبَرَكَةِ إِذَا انْتَهَى إِلَيْهَا الْمَبْتَدِئُ.

وأخرجَ أبو داودَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ قَوِيٍّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى
النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَرَدَّ عَلَيْهِ وَقَالَ: «عشر». ثم جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ. فَرَدَّ عَلَيْهِ. وَقَالَ: «عشرون». ثم جَاءَ آخَرُ فزَادَ وَبَرَكَاتِهِ. فَرَدَّ وَقَالَ: «ثلاثون».

وأخرجَ البخاريُّ في «الأدبِ المفرد» من حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ، وَقَالَ:
ثَلَاثُونَ حَسَنَةً، وَكَذَا فِيهَا قَبْلُهَا صَرَّحَ بِالْمَعْدُودِ. وَعِنْدَ أَبِي نُعَيْمٍ فِي «عَمَلِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ» مِنْ
حَدِيثِ عَلِيٍّ؛ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَقَعَ لَهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَلِكَ.

وأخرجَ الطبرانيُّ من حديثِ سهلِ بنِ حنيفٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ رَفَعَهُ: «مَنْ قَالَ السَّلَامَ
عَلَيْكُمْ، كُتِبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ زَادَ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ. كُتِبَتْ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً، وَمَنْ زَادَ:
وَبَرَكَاتِهِ. كُتِبَتْ لَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً».

وأخرجَ أبو داودَ من حديثِ سهلِ بنِ معاذٍ بنِ أنسٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ أَبِيهِ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ نَحْوَ
حديثِ عمرانَ وَزَادَ فِي آخِرِهِ: «ثم جَاءَ آخَرُ فزَادَ: ومغفرته. فقال: أربعون. وقال: هكذا
تكون الفضائل».

وأخرجَ ابنُ السَّكَنِ فِي كِتَابِهِ بِسَنَدٍ وَاهٍ؛ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ يَمُرُّ فَيَقُولُ: السَّلَامُ
عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَيَقُولُ لَهُ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَرِضْوَانُهُ».

وأخرجَ البيهقيُّ في «الشَّعَبِ» بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ: كُنَّا إِذَا سَلَّمَ
عَلَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ قُلْنَا: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ.

وهذه الأحاديث الضعيفة إذا انضمت قَوِيٍّ ما اجتمعت عَلَيْهِ من مشروعية الزيادة على: «وبركاته».

وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الرَّدَّ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ؛ وَجَاءَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ أَنَّهُ قَالَ: يَجِبُ الرَّدُّ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ فَرْدًا.

الَّذِي يَظْهَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، أَنَّهُ يُكْتَفَى بِالْبُرْكََةِ وَأَنَّهَا آخِرُ شَيْءٍ، إِلَّا إِذَا اقْتَضَتْ الْحَالُ الْمُوَاسَاةَ مَعَ مَنْ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ أَوْ يَرُدُّ عَلَيْكَ فَلَا بَأْسَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ قَوْلَكَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فِيهِ الْخَيْرُ وَالْبُرْكََةُ، وَأَنْ مَا زَادَ عَلَى الثَّلَاثِ قَدْ يَكُونُ مُمْلَأً؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَنَّ وَاحِدًا سَلَّمَ عَلَيْكَ وَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَمَرْضَاتُهُ وَطِيبُ صَلَوَاتِهِ فَهَذِهِ سُنَّةٌ تَطُولُ، وَبَعْضُ النَّاسِ يَمَلُّ، فَيُكْتَفَى بِالثَّلَاثِ إِلَّا إِذَا دَعَتْ حَاجَةً إِلَى ذَلِكَ وَمِنْهُ زِيَادَةُ «مَرْحَبًا بِكَ وَأَهْلًا»، وَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ إِذَا سَلَّمَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فِي لَيْلَةِ الْمَعْرَاجِ يَرُدُّونَ السَّلَامَ وَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، وَقَالَ آدَمُ وَإِبْرَاهِيمُ: بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ^(١).

❖ قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْبَابِ: «سَلَّمَ عَلَيْهِ». لَمْ يَذْكُرْ فِيهِ صِيغَةَ السَّلَامِ فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.

فَمَنْ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ: سَلَّمَ عَلَيْهِ رَجَّحَ أَنْ يَكُونَ السَّلَامُ بِالْأَفْرَادِ.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى قَرِينَةِ الْحَالِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسٌ وَعِنْدَهُ أَصْحَابُهُ رَجَّحَ أَنْ يَكُونَ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ.

❖ لَكِنْ قَوْلُهُ ﷺ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ». قَدْ يُرَجَّحُ أَيْضًا أَنَّهُ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَطْ؛ لِأَنَّهُ مَفْرَدٌ مُقَابِلٌ بِمَفْرَدٍ.

وَقَدْ يَقَالُ: إِنْ هَذَا لَيْسَ بِمُرْجَّحٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّجُلَ سَلَّمَ عَلَى جَمَاعَةٍ فَاقْتَضَى أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. هَذَا إِنْ كَانَ هَذَا الْإِحْتِمَالُ هُوَ الْمَتَعَيْنُ، بِخِلَافِ الرَّدِّ فَهُوَ عَلَى وَاحِدٍ فَيَقُولُ: وَعَلَيْكَ.

❖ قَوْلُهُ: «فَلِإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». نَفَى بِهِ أَنْ يَكُونَ صَلَّى؛ لِأَنَّ صَلَاتَهُ هَذِهِ غَيْرُ مُعْتَدٍّ بِهَا شَرْعًا، وَمِنْهُ نَأْخُذُ أَنَّ الْفِعْلَ الَّذِي لَا يُعْتَدُّ بِهِ شَرْعًا يَصِحُّ أَنْ يُنْفَى وَإِنْ كَانَ قَدْ وَجَدَ.

❦ وقوله: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغْ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِهَا تِسْرَرًا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ». هذا مُجْمَلٌ بِمَا تَسْرَرُ لَكِنْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يقرأ فاتحة الكتاب ^(١).

❦ ثم قال: «ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا». وفي لفظ: «حَتَّى تَطْمَئِنَّ قَائِمًا» ^(٢) وَلَا مُنَافَاةَ؛ لِأَنَّ الاسْتِوَاءَ بِمَعْنَى الاسْتِقْرَارِ، وَالِاسْتِقْرَارُ وَالطَّمَأْنِينَةُ شَيْءٌ وَاحِدٌ.

❦ ثم قال: «ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا». وقوله: «ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا» أي: بَعْدَ السَّجْدَةِ الثَّانِيَةِ.

❦ ثم قال: «ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا». وقال أبو أسامة في الأخير: «حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا» وَكَانَ الْبَخَارِيُّ عَارِضَ اللَّفْظِ الَّذِي سَاقَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ بِاللَّفْظِ الَّذِي سَاقَهُ أَبُو أُسَامَةَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُرْجَّحُ مَا رَوَاهُ أَبُو أُسَامَةَ، وَبِهِ نَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ جَلْسَةِ الْإِسْتِرَاحَةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ صَحَّ هَذَا اللَّفْظُ «حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا»، لَكَانَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ جَلْسَةَ الْإِسْتِرَاحَةِ رَكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «لَمْ تُصَلِّ» ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ أَخْلَى بِمَا يَجِبُ وَمِنْهُ أَنْ يَرْفَعَ مِنَ السَّجُودِ الثَّانِي حَتَّى يَطْمَئِنَّ جَالِسًا، لَكِنْ جَمِيعَ الْأَلْفَاظِ لَيْسَ فِيهَا: «حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا» إِلَّا هَذَا السِّيَاقُ الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ الرِّوَاةِ فَمِنْهُمْ مَنْ حَدَّثَهُ وَهُمْ الْأَكْثَرُ فَلَمْ يَقُلْ لَا جَالِسًا وَلَا قَائِمًا وَهُوَ أَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ، وَعَلَى هَذَا يُمَكِّنُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْإِسْطِلَاحِيَةِ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ شَاذَةٌ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ رَوَوْهَا لَمْ يَأْتُوا بِهَا، وَمَعْرُوفٌ أَنَّهُ إِذَا خَالَفَ الثَّقَّةُ مَنْ هُوَ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي الْعَدَدِ أَوْ فِي الْأَوْثَقِيَّةِ، صَارَ حَدِيثُهُ شَاذًا.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (٣٧/١١):

❦ وقوله: «وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ فِي الْآخِرِ: حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا». وَصَلَ الْمَصْنُفُ رِوَايَةَ أَبِي أُسَامَةَ هَذِهِ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَالنَّذْرِ كَمَا سَيَأْتِي، وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي صِفَةِ الصَّلَاةِ النُّكْتَةَ فِي اقْتِصَارِ

(١) وَمِنْ ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ (٧٥٦)، وَمُسْلِمٌ (٣٩٤) (٣٤)، عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يقرأ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ».

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٤/٣٤٠) (١٨٩٩٧)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٠٦٠). وَقَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى «سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ»: صَحِيحٌ.

البخاري على هذه اللفظة من هذا الحديث. وحاصله أنه وقع هنا في الأخير: «ثم ارفع حتى تَطْمَنَنَّ جالسًا».

فأراد البخاري أن يبين أن رَوِيَهَا خُولِفَ فذكر رواية أبي أسامة مُشِيرًا إلى ترجيحها. وأجاب الداودي عن أصل الإشكال بأن الجالس قد يُسَمَّى قائمًا لقوله تعالى: ﴿مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [التغوي: ٧٥] ^(١).

وتعبه ابن التين بأن التعليم إنما وَقَعَ لِبَيَانِ رَكْعَةٍ واحدةٍ والذي يليها هو القيام؛ يعني: فيكون قوله: «حتى تَسْتَوِيَ قائمًا». هو الْمُعْتَمَدُ. وفيه نظر؛ لأن الداودي عرف ذلك وجعل القيام محمولًا على الجلوس، واستدل بالآية، والإشكال إنما وَقَعَ في قوله في الرواية الأخرى: «حتى تَطْمَنَنَّ جالسًا» وجلسة الاستراحة على تقدير أن تكون مرادة لا تُشَرِّعُ الطمأنينة، فيها فلذلك احتاج الداودي إلى تأويله، لكن الشاهد الذي أتى به عكس المراد، والمحتاج إليه هنا أن يأتي بشاهد يدل على أن القيام قد يُسَمَّى جُلُوسًا ^(٢).

وفي الجملة المعتمد الترجيح كما أشار إليه البخاري وصرح به البيهقي، وجوز بعضهم أن يكون المراد به التشهد، والله أعلم.

❖ قوله في الطريق الأخيرة: «قال النبي ﷺ: ثم ارفع حتى تَطْمَنَنَّ جالسًا». هكذا اقتصر على هذا القدر من الحديث وساقه في كتاب الصلاة بتمامه ^(٣). اهـ.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسان إذا فارق القوم، ثم رجع إليهم فإنه يُسَلِّمُ مرةً ثانية؛ لأن الرجل لما فارقهم وصلى ثم عاد سلّم.

ومن فوائده أيضًا: حكمة النبي ﷺ في تعليمه، حيث جعله يذهب فيصلي، ويذهب فيصلي، ولم يعلمه في أول مرة؛ من أجل أن يكون مُتَشَوِّفًا للعلم والمعرفة حتى يأتيه العلم ونفسه قابلة له ومُتَطَلِّعة له.

فلا يُقَالُ: كيف أمره النبي ﷺ أن يصلي هذه الصلاة الباطلة وهذا أمرٌ بالباطل. بل

(١) قال الشيخ الشارح رَحِمَهُ اللهُ، معلقًا على كلام الداودي: هذا عكس للمعنى.

(٢) قال الشيخ الشارح رَحِمَهُ اللهُ، معلقًا على كلام الحافظ هذا: كلام ابن حجر صحيح واضح، ومعناه: أننا لساناً نريد أن يكون القيام بمعنى الجلوس، بل نريد أن يكون الجلوس بمعنى القيام.

(٣) «فتح الباري» (١١/ ٣٧-٣٨).

يُقَالُ: إِنْ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يُصَلِّيَ الصَّلَاةَ الْبَاطِلَةَ، بَلْ أَمَرَهُ أَنْ يُعِيدَ مَرَّةً ثَانِيَةً لَعَلَّهُ يُوَافِقُ الصَّوَابَ، وَفِي النِّهَايَةِ سَوْفَ يُعَلِّمُهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي هَذَا.

وَيُسَبِّهُ هَذَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ حَدِيثَ بَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حَيْثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ: «خُذِيهَا وَاشْتَرِطِي لَهُمُ الْوَلَاءَ» ^(١) مَعَ أَنَّ هَذَا الشَّرْطَ شَرْطٌ فَاسِدٌ، لَكِنْ لِيُبَيِّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَقَدَ عَقْدًا فَاسِدًا فَإِنَّهُ يَجِبُ إِبْطَالُهُ وَإِنْ تَمَّ الْعَقْدُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ لِلرَّجُلِ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»؟

نَقُولُ: قَدْ قِيلَ بِهَذَا، وَقَدْ قِيلَ: بَلْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْمُرْهُ بِإِعَادَةِ مَا مَضَى مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُصَلِّ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ الَّتِي هُوَ مُطَالِبٌ بِهَا الْآنَ، فَلَا تَبَرُّأُ ذِمَّتُهُ مَا دَامَ فِي الْوَقْتِ إِلَّا بِصَلَاةٍ صَحِيحَةٍ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: فَهَذِهِ النِّقْطَةُ نَقْطَةٌ مُهِمَّةٌ وَهِيَ: أَنَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ مَا لَمْ يُمْكِنْ تَدَارُكُهُ، فَإِنْ أُمْكِنَ تَدَارُكُهُ بَأَنَّ كَانَ مُطَالِبًا بِهِ الْآنَ فَلَا بَدَّ مَنْ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ عَلَى وَجْهِ صَحِيحٍ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: هَذَا مَا لَمْ يَكُنْ مُفَرِّطًا.

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ يَجِبُ أَنْ يُنْتَبَهَ لَهَا؛ لِأَنَّهَا مُهِمَّةٌ وَيَقَعُ فِيهَا مَسَائِلُ كَثِيرَةٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِيهَا الْمَرْأَةُ إِذَا حَاضَتْ، وَهِيَ صَغِيرَةٌ وَلَمْ تَصُمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَمْ يُفَرِّطْ، يَعْنِي: مَا قِيلَ لَهُ إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ كَذَا. لَكِنْ بَعْضُ النَّاسِ إِذَا قِيلَ لَهُ: هَذَا وَاجِبٌ فَلْتَسْأَلْ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ قَالَ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [التَّائِبَةُ: ١٠١]. فَإِنْ هَذَا مُفَرِّطٌ، لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لَهُ: إِنَّكَ لَا تَقْضِي مَا فَاتَ، أَمَّا إِذَا كَانَ غَيْرَ مُفَرِّطٍ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ نَاشِئًا فِي بَادِيَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الْعُلَمَاءِ وَعَنِ التَّعْلِيمِ، أَوْ كَانَ الْأَمْرُ مِمَّا لَا يَطْرُقُ عَلَى الْبَالِ أَنَّهُ شَيْءٌ وَاجِبٌ فَذَلِكَ أَيْضًا يُعْذَرُ، وَمِثَالُهُ:

شَخْصٌ كَانَ يَحْتَلِمُ وَلَكِنْ مَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْإِحْتِلَامَ مُوجِبٌ لِلْغُسْلِ، وَلَا طَرَأَ عَلَى بَالِهِ وَيَقُولُ: أَحْسَبُ أَنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ الْبَوْلِ أَغْسِلُهُ وَأَتَوَضَّأُ وَأُصَلِّي. وَلَمْ يُفَرِّطْ، فَهَذَا أَيْضًا لَا نَأْمُرُهُ بِالْقَضَاءِ.

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْأَدْلَةَ بَعْمُومِهَا تَدُلُّ عَلَى: أَنَّ مَنْ تَرَكَ الْوَاجِبَ لِعَدَمِ عِلْمِهِ بِوُجُوبِهِ، فَإِنَّهُ

(١) إرواه البخاري (٢١٦٨)، ومسلم (١٥٠٤) (٨).

لَا يَلْزِمُهُ قِضَاؤُهُ، إِلَّا مَا كَانَ مُطَالِبًا بِهِ الْآنَ فَلَا بَدَّ مِنْهُ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ مُفَرِّطًا فَهِنَا نُلْزِمُهُ الْقِضَاءَ مِنْ أَجْلِ التَّفْرِيطِ.

بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: وَإِذَا كَانَ الْوَاجِبُ لَهُ بَدَلٌ فَهَلْ تُسْقِطُونَ عَنْهُ الْبَدَلَ أَوْ تُلْزِمُونَهُ بِهِ؟ مِثْلُ لَوْ تَرَكَ وَاجِبًا مِنْ وَاجِبَاتِ الْحَجِّ جَهْلًا مِنْهُ، مِثْلًا: تَرَكَ الْمَيْتَ بِمُزْدَلِفَةٍ أَوْ تَرَكَ الْجُمَرَاتِ جَهْلًا مِنْهُ؟ **نَقُولُ:** هَذَا لَيْسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ بَلَا شَكَّ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُفَرِّطًا فِي السُّؤَالِ؛ يَعْنِي: لَمْ يَسْأَلْ، لَكِنْ هَلْ نَقُولُ: يَجِبُ عَلَيْكَ الْبَدَلُ. أَوْ نَقُولُ: إِذَا سَقَطَ الْأَصْلُ سَقَطَ الْبَدَلُ؟ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ كُنْتُ أَذْهَبُ فِيهَا إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ الْبَدَلُ، وَلَكِنِّي تَوَقَّفْتُ الْآنَ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: إِذَا سَقَطَ الْأَصْلُ فَالْبَدَلُ فَرُعٌ عَنْهُ. وَوَجْهُ التَّوَقُّفِ أَنْ نَقُولَ: إِنْ الْأَصْلُ مُوقَّتٌ بَوَقْتٍ أَوْ مُقَيَّدٌ بِحَالٍ، وَالْبَدَلُ لَيْسَ كَذَلِكَ.

يَعْنِي: مِثْلًا الْمَيْتُ فِي مُزْدَلِفَةٍ مُوقَّتٌ بِوَقْتٍ مُعَيَّنٍ وَزَالَ، وَلَكِنْ ذَبَحَ الْفَدْيَةَ لِتَرْكِ الْوَاجِبِ غَيْرِ مُقَيَّدٍ لِذَا فَهِيَ مُحَلٌّ تَرَدُّدٍ عِنْدِي. أَمَّا فِعْلُ الْمُحَرَّمِ إِذَا وَقَعَ عَنْ جَهْلٍ فَلَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَثَرُهُ، لَا كِفَارَةٌ وَلَا غَيْرُهَا. أَيَّا كَانَ هَذَا الْمُحَرَّمُ، وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ سَبَقَ أَنَّا قَرَرْنَاهَا كَثِيرًا وَمَرَارًا.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٩ - بَابُ إِذَا قَالَ: فَلَنْ يُقَرِّتَكَ السَّلَامُ.

٦٢٥٣ - حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَاءُ قَالَ: سَمِعْتُ عَامِرًا يَقُولُ: حَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَدَّثَتْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «إِنْ جَبْرِيلَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ» قَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ^(١).

فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحْتَاجُونَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ﷻ، وَإِلَى أَنْ يُسَلِّمَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْآفَاتِ، وَلِهَذَا قَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ.

وفيه: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَلْزِمُ أَنْ تَقُولَ لِمَنْ نَقَلَ السَّلَامَ إِلَيْكَ: عَلَيْكَ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ. فَلَيْسَ شَرْطًا؛ لِأَنَّ هَذَا مُبْلَغٌ، وَالَّذِي دَعَا لَكَ بِالسَّلَامِ الْمُرْسَلُ، وَلِهَذَا قَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٠- بَابُ التَّسْلِيمِ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَشْرِكِينَ.

٦٢٥٤- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ ^(١) تَحْتَهُ قُطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ وَأَرْدَفَ وَرَاءَهُ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزَرَجِ وَذَلِكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، حَتَّى مَرَّ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَشْرِكِينَ عَبْدَةُ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودُ، وَفِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُوبٍ وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةٌ الدَّابَّةِ خَرَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْفَهَ بَرْدَانَهُ ثُمَّ قَالَ: لَا تُغْبَرُوا عَلَيْنَا. فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ وَقَفَ فَتَزَلَّ فِدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سُلُوبٍ: أَيُّهَا الْمَرْءُ لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمِنْ جَاءَكَ مِنْهَا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: اغْشَيْنَا فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَا نُحِبُّ ذَلِكَ. فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمَشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَتَوَاتَبُوا، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، قَالَ: «أَيُّ سَعْدٍ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟» يَرِيدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَالَ: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: أَعَفُّ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاصْفَحْ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَاكَ اللَّهُ الَّذِي أَعْطَاكَ وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحْرَةِ عَلَى أَنْ يَتَوَجَّوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بِالْعِصْيَانَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِّقْ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ ^(٢).

هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَرَّ بِالْمَجْلِسِ فِيهِ كُفَرَاءٌ وَمُسْلِمُونَ فَإِنَّهُ يُسَلِّمُ، لَكِنْ قَالَ الْعُلَمَاءُ: يَنْبَغِي أَنْ يَنْوِي بِذَلِكَ السَّلَامَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ دُونَ مَنْ مَعَهُمُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

تَوَاضَعُ النَّبِيُّ ﷺ بِرُكُوبِهِ الْحِمَارَ، وَإِرْدَافِهِ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِبَرِ لَا يَرْكَبُونَ مِثْلَ الْحَمِيرِ إِنَّمَا يَرْكَبُونَ الْخَيْلَ الْمَسُومَةَ، وَأَيْضًا لَا يَرْدِفُونَ أَحَدًا مَعَهُمْ، بَلْ يَخْتَصُّونَ فِي الْمَرْكَبِ، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَاضَعًا.

(١) قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْإِكَافُ شَيْءٌ مِثْلُ الْمَخْدَةِ يَرِطُ عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ.

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٧٩٨) (١١٦).

وفيه: الركوبُ لعيادة المريض؛ أي: أن المريض يُعاد ولو من مكانٍ بعيدٍ، فلو ركب الإنسان السيارة ليعود المريض في مكانٍ بعيدٍ فلا بأس.

وفيه: بيان ما عليه المنافقون من شدة العداوة للإسلام ومن يحمل الإسلام.

وفيه: الكبرياء والغطرسة من عبد الله بن أبي؛ وذلك أنه خمر أنفه بردائه تكبراً واحتقاراً لرسول الله ﷺ، ولهذا قال: لا تغبروا علينا.

وفيه أيضاً: أن الرسول ﷺ لا يدعُ فرصةً يدعو الناس فيها إلى الله إلا انتهزها، ولهذا وقف عليه ﷺ ودعاهم إلى الله ﷻ.

وفيه أيضاً: أنه ينبغي للداعية أن لا يدعو الناس، وكأنه لا يريد أن يطمئن؛ يعني: أنه إذا كان على مركوب فإنه ينزل ليربهم أنه مطمئن في ذلك، وليبين لهم أنه متواضع حالة ما نزل من مركوبه ليدعوهم.

وفيه: أن أفضل ما يدعى به الناس كلامُ الله ﷻ، ولهذا قرأ عليهم القرآن، ولا شك أن القرآن يؤثر تأثيراً بالغاً، خصوصاً إذا قرأه شخص من قلبه، ووقف في موافقه، فإنه يتبين من معانيه ما لا يتبين لو قرأه الإنسان بلسانه، ولم يقف في المواقف التي ينبغي أن يقف عليها.

وفيه: أن المنافق لا يردُّ الحق رداً قاطعاً ولكنه يشكك، ولهذا قال عبد الله بن أبي: لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقاً. ولم يقل: هذا كلام باطل، أو كلام أساطير الأولين، أو ما أشبه ذلك، لكن وضع هذه النقطة السوداء، وهي قوله: إن كان ما تقول حقاً. لأن المنافقين من عادتهم المراوغة وعدم الصراحة والبيان.

وفيه أيضاً: دليل على أن المنافقين يتأذون بالدعوة إلى الله ويضيقون بها ذرعاً، ولهذا قال: لا تؤذنا في مجالسنا. ولكن المؤمن عبد الله بن راحة ﷻ قال: اغشنا في مجالسنا فإننا نحب ذلك. فانظر الفرق بين هذين الرجلين مع أنهم كلهم من بني آدم، لكن هذا والعياد بالله منافق وهذا مؤمن.

وفيه أيضاً: دليل على أن عبد الله بن أبي غمز هذا القرآن حيث قال: فمن جاءك منّا فاقصص عليه. فجعل القرآن قصصاً كأنه أساطير الأولين، وجعل النبي ﷺ مثل القصص الذين يمشون إلى الناس، ويقصصون عليهم القصص حقاً كانت أم باطلاً.

وفيه: أن من هدي النبي ﷺ أن لا يتور حتى لا تحصل الفتنة في مثل هذه الأمور، فإذا

حَدَّثَ قَوْلُ أَوْ سَبُّ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَارَعَ النَّاسُ إِلَى حَدِّ تَكُونُ فِيهِ الْفِتْنَةُ، وَلِهَذَا لَهَا تَوَاتُبُوا أَوْ هَمُّوا أَنْ يَتَوَاتَبُوا جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، وَيُسَكِّنُ ثَائِرَتَهُمْ عَلَيْهِ ﷺ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ يَقْتَضِي هَذَا.

وفيه أيضًا: دليلٌ على جوازِ الشُّكَايَةِ إِلَى كَبِيرِ الْقَوْمِ وَزَعِيمِ الْقَوْمِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَكََا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزَرَجِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي مِنَ الْخَزَرَجِ.

وفيه أيضًا: دليلٌ على جوازِ تَكْنِيَةِ الْكَافِرِ أَوْ الْمُنَافِقِ، وَلِهَذَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ» وَلَمْ يَقُلْ: مَا قَالَ ابْنُ أَبِي، أَوْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، بَلْ كَنَاهُ، وَالتَّكْنِيَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ رَفْعَةٌ، وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَكْنِيهِ حِينَ أَنَادِيهِ لِأَكْرِمَهُ
وَلَا الْقَبْهَ وَالسَّوْأَةَ لِلْقَبِّ

وفيه أيضًا: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَرُدُّ الْحَقَّ إِذَا فَاتَ مَقْصُودُهُ بِالْجَاهِ وَالرِّئَاسَةِ؛ لِأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي كَانَ هُوَ زَعِيمُ الْقَوْمِ، حَتَّى أَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ أَنْ يُتَوَجَّهَ وَيُلْبَسُوهُ عِصَابَةَ الْإِمَارَةِ، وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ ﷺ بَطُلَ مَا كَانَ النَّاسُ يُرِيدُونَهُ، وَاتَّجَهَ النَّاسُ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى الْإِسْلَامِ، فَغَارَ مِنْ ذَلِكَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - حَتَّى وَصَلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى النِّفَاقِ.

وفيه: دليلٌ أيضًا على جوازِ الشَّفَاعَةِ فِي حَقِّ الْكَافِرِ، لِأَسْمِيًا إِذَا عَلِمَ أَنَّ مَا حَصَلَ مِنْهُ بِسَبَبِ الْغِيَرَةِ، وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ السَّبَّ وَالشَّتْمَ حَتَّى الْقَذْفَ إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْغِيَرَةِ، فَإِنَّهُ لَا حَكْمَ لَهُ^(١)؛ لِأَنَّ الْغِيَرَةَ أَمْرٌ لَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ فِيهَا، حَتَّى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ عَائِشَةُ تَفْعَلُ أَشْيَاءَ فِي الْغِيَرَةِ، وَالرَّسُولُ ﷺ يَعْفُو عَنْهَا^(٢)؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

(١) البيت لرجل من بني فزارة، وهو موجود في: «خزانة الأدب» للبغدادى (٩/ ١٤٢)، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٣٧١)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٧).

(٢) انظر: «المبدع» (٩/ ٨٦، ٨٧)، و«الفروع» (٦/ ٨٧)، و«الإنصاف» (١٠/ ٢٠٢).

(٣) ومن ذلك:

١- ما رواه البخاري (٣٨٢١)، ومسلم (٢٤٣٧) (٧٨)، عن عائشة ؓ قالت: استأذنت هالة بنت خويلد، أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك فقال: «اللهم هالة بنت خويلد». فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدين، هلكت في الدهر، فأبدلك الله خيرا منها.

٢- ما رواه النسائي (٣٩٥٦) عن أم سلمة ؓ أنها أتت بطعام في صحفة لها إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة ؓ متزرة بكساء ومعها فهر، ففلقت به الصحفة، فجمع النبي ﷺ بين فلقتي الصحفة، ويقول: «كلوا، غارت أمكم - مرتين -»، ثم أخذ رسول الله ﷺ صحفة عائشة، فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة أم سلمة عائشة. والحديث رواه البخاري (٥٢٢٥) عن أنس ؓ، بدون ذكر عائشة وأم سلمة ؓ.

أَنَّ الْغَيْرَةَ شَيْءٌ يُصِيبُ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ التَّخْلَصُ مِنْهُ، فَإِذَا شَفِعَ أَحَدٌ فِي كَافِرٍ نَظَرَ إِلَى أَنْ مَا فَعَلَهُ مِنْ أَجْلِ أَمْرِ كَانَ يُرِيدُهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ فَإِنْ هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَلِهَذَا قَبِلَ النَّبِيُّ ﷺ شَفَاعَةَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَعَفَا عَنْهُ ﷺ.

وفيه أيضًا: دليلٌ على حُسْنِ خُلُقِ الرَّسُولِ ﷺ حَيْثُ عَفَا عَنْهُ، مَعَ أَنَّهُ بَاسْتَطَاعَتِهِ أَنْ يُعَزِّرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ؛ لِأَنَّهُ فَعَلَ عِدَّةَ أَشْيَاءَ تُعْتَبَرُ مَعْصِيَةً:

أولاً: تَخْمِيرُ أَنْفِهِ، وَقَوْلُهُ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا.

ثانيًا: قَوْلُهُ: إِنْ كَانَ مَا تَقُولُهُ حَقًّا.

ثالثًا: قَوْلُهُ: لَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا. رَابِعًا: قَوْلُهُ: فَاقْصُصْ عَلَيْهِ.

فَكُلُّ هَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَزَّرَ عَلَيْهِ أَلْبَغُ تَعْزِيرٍ، وَلَكِنْ عَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، لِمَا كَانَ مِنْ حَالِهِ. وَرَبَّمَا يُؤْخَذُ مِنْهُ جَوَازُ الشَّفَاعَةِ فِي التَّعْزِيرِ، أَيْ: فِي الْعُقُوبَةِ أَوْ فِي الْمَعْصِيَةِ الَّتِي تُوجِبُ التَّعْزِيرَ بِخِلَافِ الْحَدِّ، فَإِنَّ الْحَدَّ لَا تَجُوزُ الشَّفَاعَةُ فِيهِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ»^(١)، وَغَضِبَ عَلَى أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ لِمَا شَفَعَ فِي الْمَرْأَةِ الْمُخْزُومِيَّةِ وَقَالَ لَهُ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ»^(٢) أَمَا التَّعْزِيرُ فَإِنَّهُ تَجُوزُ الشَّفَاعَةُ فِيهِ، وَلَوْ بَلَغَتِ الْمَعْصِيَةُ إِلَى السُّلْطَانِ؛ لِأَنَّ السُّلْطَانَ أَوْ الْحَاكِمَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُقِيمَ التَّعْزِيرَ وَيَجُوزُ أَلَّا يُقِيمَهُ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ كَلَامِ الْفُقَهَاءِ أَنَّ التَّعْزِيرَ وَاجِبٌ وَلَا يَجُوزُ سُقُوطُهُ، لَكِنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا رَأَى الْمَصْلَحَةَ فِي إِسْقَاطِ التَّعْزِيرِ، فَإِنَّ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا هُوَ حَدُّ التَّعْزِيرِ؟

قلنا: لَيْسَ لَهُ حَدٌّ لَا فِي نَوْعِهِ، وَلَا فِي كَيْفِيَّتِهِ، وَلَا فِي كَمِّيَّتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي مَعْصِيَةٍ وَرَدَ الْحَدُّ فِي جَنْبِهَا فَإِنَّهُ لَا يَبْلُغُ بِهِ الْحَدَّ، فَمِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ نُعَزِّرَ هَذَا الشَّخْصَ بِأَخِذٍ شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ. وَالْآنَ عِنْدَنَا بَعْضُ الْمَخَالَفَاتِ خُصُوصًا الْمَخَالَفَاتِ الثَّرْوِيَّةِ يُؤْخَذُ عَلَيْهَا دَرَاهِمٌ، فَهَذَا تَعْزِيرٌ بِالْمَالِ.

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٧٠/٢) (٥٣٨٥)، وأبو داود (٣٥٩٧)، والحاكم في «المستدرک» (٣٢/٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وقال الشيخ الألباني رحمه الله، في تعليقه على «سنن أبي داود»: صحيح.

(٢) تقدم تخريجه في الأنبياء.

وربما يَكُونُ التعزيرُ بالتوبيخِ، فيُؤْتَى بالرجل الشريفِ ذي الجاه الذي تَكُونُ كلمةُ التوبيخِ عندهُ أشدَّ عليه من كُلِّ الدنيا، ويُوَبِّخُ أمامَ الناسِ، فهذا تعزيرٌ.
وربما يَكُونُ بالحسبِ، وربما يَكُونُ بالجلدِ، لكن إذا كَانَ بالجلدِ فإنه إن كَانَ في معصيةٍ في جنسها حَدٌّ فإنه لَا يَبْلُغُ الحدَّ.

مثلاً: رجلٌ قَبْلَ امرأةٍ أجنبيةٍ منه، فإننا نُعَزِّرُهُ لَكُنَّا لَا نَجْلِدُهُ مائةَ جلدَةٍ؛ لأنَّ الزَّنا فيه مائةُ جلدَةٍ، فلو وصلنا إلى مائةِ جلدَةٍ في التقبيلِ فمعناه أننا ساوينا التقبيلَ بالزَّنا، وبينهما فرقٌ عظيمٌ.
وفي الحديثِ مسألةٌ تَعَلَّقَ بِالسَّلامِ وهي: أنه قد يَقُولُ قائلٌ: قد سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديثِ على المسلمينَ والكفارِ، وهم في مجلسٍ واحدٍ، فهل يَجُوزُ إذا مررتُ بمجلسٍ فيه نَصَارَى ومسلمونَ أنْ أَخْصَّ المسلمينَ بِالسَّلامِ فأقولُ: السَّلامُ عليكم قوماً مؤمنين؟
فالجوابُ: لا؛ لأنَّه إذا أَلْقَى السَّلامَ على المؤمنينَ فقط فقد يُثِيرُ ذَلِكَ شَيْئاً من الفتنة، فليَقُلْ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، والأعمالُ بالنياتِ.

وربما نَأْخُذُ منها فائدةٌ؛ وهي أنْ النيةَ تُخَصِّصُ العامَّ وهو كذلك، فإن الإنسانَ إذا ذَكَرَ لفظاً عاماً ونَوَى به الخاصَّ فإنه حَسَبَ نيتهِ، حتى لو حَلَفَ على شيءٍ، وجاءَ بلفظٍ عامٍّ لكنه يُرِيدُ الخاصَّ فإنه على نيتهِ، فلو قال: واللَّهِ لَا أَكُلُ الطَّعامَ. ونيتهُ أَلَّا يَأْكُلَ الطَّعامَ الذي فيه الدَّسَمُ مثلاً فإنه على نيتهِ، فَيَخْتَصُّ بِهَا نَوَى.
ولكن لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أنْ يَبْدَأَ الْكُفَّارَ بِالسَّلامِ؛ لأنَّ الرِّسُولَ ﷺ قَالَ: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلامِ»^(١).



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١- بَابٌ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ عَلَى مَنْ اقْتَرَفَ ذَنْبًا، وَلَمْ يُرِدْ سَلَامَهُ حَتَّى تَتَبَيَّنَ تَوْبَتُهُ، وَإِلَى مَتَى تَتَبَيَّنَ تَوْبَةُ الْعَاصِي.
وقال عبدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: لَا تُسَلِّمُوا عَلَى شَرِيَةِ الْخَمْرِ^(٢).

(١) رواه مسلم (٢١٦٧) (١٣).

(٢) علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، بصيغة الجزم، وقد وصله رَحِمَهُ اللَّهُ في «الأدب المفرد» (١٠١٧) قال: حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا بكر بن مضر، سمع عبيد اللَّهِ بن زحير، عن حبان بن أبي جيلة، عن عبد اللَّهِ بن عمرو بن

٦٢٥٥ - حَدَّثَنَا ابْنُ بَكْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ تَبُوكَ: وَنَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا، وَآتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفْتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا؟ حَتَّى كَمَلْتُ خَمْسُونَ لَيْلَةً، وَأَذَنَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الْفَجْرَ ^(١).

قوله: «بَابُ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ وَمَنْ لَمْ يَرُدِّ السَّلَامَ». فالترجمة فيها مسألتان:
المسألة الأولى: مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ.

والثانية: مَنْ لَمْ يَرُدِّ السَّلَامَ. ومعلوم أن ابتداء السلام سنة ورده واجب.

وقوله: «مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ». يُشْعِرُ بَأْنَ هُنَاكَ قَوْلًا آخَرَ وَهُوَ السَّلَامُ عَلَى مَنْ اقْتَرَفَ الذَّنْبَ رَدًّا وَابْتِدَاءً، وَالْمَسْأَلَةُ هَذِهِ فِيهَا خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَتَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ فَنَقُولُ:
مَنْ اقْتَرَفَ ذَنْبًا سِرًّا وَلَمْ يُعْلِنْ بِهِ فَإِنَّهُ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ هَذَا لَمْ يُبَيِّدْ مُخَالَفَةً، وَالْأَصْلُ ابْتِدَاءُ السَّلَامِ وَرَدُّ السَّلَامِ عَلَى الْمُسْلِمِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يُذْنِبُ لَكِنَّهُ لَا يُجَاهِرُ بِذَنْبِهِ فَإِنَّهُ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ ابْتِدَاءً وَرَدًّا.

وإن كان يُجَاهِرُ بِذَنْبِهِ فَلَا يَخْلُو مَنْ أَنْ يَكُونَ مُقْتَضِي السَّلَامِ حِينَ تَلَبَّسَ بِالذَّنْبِ أَوْ بَعْدَ مَفَارِقَتِهِ، فَمَثَلًا: إِنْسَانٌ يَشْرَبُ الْخَمْرَ. فَإِنْ حَالَتِهِ حِينَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ غَيْرَ حَالَتِهِ بَعْدَ أَنْ يَشْرَبَ وَيَنْتَهِيَ فَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ، فَنَقُولُ: إِذَا كَانَ حِينَ تَلَبَّسَ بِالْمَعْصِيَةِ فَعَدُمُ السَّلَامِ عَلَيْهِ مُتَوَجَّهٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يُرِيدُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ دَعْوَتِهِ وَنَهْيِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَهَذَا يَتَوَجَّهُ السَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ: أَيُّ السَّلَامِ أَقْرَبُ إِلَى حَصُولِ الْمَقْصُودِ، فَإِنَّ السَّلَامَ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَحْسَنُ مِمَّا لَوْ هَاجَمْتَهُ بِالْكَلَامِ قَبْلَ أَنْ تُسَلِّمَ.

وأما إِذَا كَانَ بَعْدَ مَفَارِقَةِ الذَّنْبِ وَلَمْ يَتَلَبَّسْ بِهِ فَإِنَّهُ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهَذَا فِيمَنْ لَمْ يُجَاهِرْ، أَمَّا مَنْ جَاهَرَ فَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ. هذا هو التفصيلُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

العاص، قال: «لا تسلموا على شُرَّابِ الْخَمْرِ». (تغليق التعليق) (١٢٦ / ٥).

(أورواه مسلم مطولاً (٢٧٦٩) (٥٣).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/ ٤٠-٤١):

❦ قَوْلُهُ: «بَابُ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ عَلَى مَنْ اقْتَرَفَ ذَنْبًا، وَمَنْ لَمْ يَرُدِّ سَلَامَهُ حَتَّى تَتَبَيَّنَ تَوْبَتُهُ وَإِلَى مَتَى تَتَبَيَّنَ تَوْبَةُ الْعَاصِي». أَمَّا الْحُكْمُ الْأَوَّلُ فَأَشَارَ إِلَى الْخِلَافِ فِيهِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّهُ لَا يُسَلِّمُ عَلَى الْفَاسِقِ وَلَا الْمُبْتَدِعِ، قَالَ النُّوويُّ: فَإِنْ اضْطُرَّ إِلَى السَّلَامِ بِأَذٍ خَافَ تَرْتُّبَ مَفْسَدَةٍ فِي دِينٍ أَوْ دُنْيَا إِنْ لَمْ يُسَلِّمْ سَلَّمَ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَزَادَ: وَيَنْوِي أَنْ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى فَكَأَنَّهُ قَالَ: اللَّهُ رَقِيبٌ عَلَيْكُمْ.

[هَذَا لَيْسَ بِشَرْطٍ بَلْ تَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَتَنْوِي أَنْ اللَّهُ يُسَلِّمُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا] وَقَالَ الْمُهَلَّبُ: تَرَكُ السَّلَامِ عَلَى أَهْلِ الْمَعَاصِي سُنَّةٌ مَاضِيَّةٌ. وَبِهِ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي أَهْلِ الْبِدْعِ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ جَمَاعَةٌ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْبَابِ قَبْلَهُ.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: يَجُوزُ ابْتِدَاءُ السَّلَامِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا، وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [الأنعام: ٨٣]. وَتُعَقَّبُ بِأَنَّ الدَّلِيلَ أَعْمٌ مِنَ الدَّعْوَى.

[قَوْلُهُ بِأَنَّ الدَّلِيلَ أَعْمٌ مِنَ الدَّعْوَى هَذَا لَيْسَ بَرَدًّا إِلَّا حَيْثُ وَجِدَ تَخْصِيصٌ؛ لِأَنَّ الْمَمْنُوعَ هُوَ أَنْ يَكُونَ الدَّلِيلُ أَخْصَصَ مِنَ الدَّعْوَى، أَمَّا إِذَا كَانَ أَعْمٌ فَلِلْمُدَّعِي أَنْ يَقُولَ: اللَّفْظُ عَامٌّ يَشْمَلُ هَذِهِ الصُّورَةَ الْخَاصَّةَ. فَهَذَا الْكَلَامُ مِنَ الرَّادِّ لَيْسَ بِوَجْهِهِ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: الدَّلِيلُ إِذَا كَانَ أَعْمٌ مِنَ الدَّعْوَى فَهُوَ صَحِيحٌ، لَكِنْ إِذَا وَجِدَ تَخْصِيصٌ لِهَذَا الْعُمُومِ بَطْلٌ، وَهَذَا التَّخْصِيصُ يُخَصِّصُهُ قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَبْدُؤُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ».]

وَالْحَقُّ بَعْضُ الْحَنْفِيَّةِ بِأَهْلِ الْمَعَاصِي مَنْ يَتَعَاطَى خَوَارِمَ الْمَرْوَةِ ككَثْرَةِ الْمَزَاحِ وَاللَّهْوِ، وَفَحْشِ الْقَوْلِ، وَالْجُلُوسِ فِي الْأَسْوَاقِ لِرُؤْيَا مَنْ يَمُرُّ مِنَ النِّسَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. [النَّظَرُ إِلَى النِّسَاءِ مَعْصِيَةٌ وَلَيْسَ تَرَكُ مَرْوَةٌ، أَمَّا كَثْرَةُ الْمَزَاحِ فَصَحِيحٌ رَبَّمَا نَقُولُ إِنَّهُ لَيْسَ بِمَعْصِيَةٍ، لَكِنَّهُ مُخَالَفٌ لِلْمَرْوَةِ].

وَحَكَى ابْنُ رَشِيدٍ قَالَ: قَالَ مَالِكٌ: لَا يُسَلِّمُ عَلَى أَهْلِ الْأَهْوَاءِ. قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ:

(١) مَا بَيْنَ الْمُعْقُوفِينَ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ الشَّارِحِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ قَرِيبًا.

(٣) مَا بَيْنَ الْمُعْقُوفِينَ مِنْ كَلَامِ الشَّارِحِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) مَا بَيْنَ الْمُعْقُوفِينَ مِنْ كَلَامِ الشَّارِحِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَيَكُونُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّأْدِيبِ لَهُمْ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ.

وَأَمَّا الْحُكْمُ الثَّانِي فَاخْتَلَفَ فِيهِ أَيْضًا فَقِيلَ: يُسْتَبْرَأُ حَالَهُ سَنَةً. وَقِيلَ: سِتَّةَ أَشْهُرٍ. وَقِيلَ: خَمْسِينَ يَوْمًا كَمَا فِي قِصَّةِ كَعْبٍ. وَقِيلَ: لَيْسَ لَذَلِكَ حَدٌّ مُحَدَّدٌ، بَلِ الْمَدَارُ عَلَى وَجُودِ الْقِرَائِنِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ مَدَّعَاهُ فِي تَوْبَتِهِ.

[إِذَا: الْحُكْمُ الثَّانِي هُوَ إِلَى مَتَى تَتَبَيَّنُ حَالُهُ، لَكِنَّ الْحُكْمَ الْأَوَّلَ يَتَضَمَّنُ حُكْمَيْنِ وَهُمَا: ابْتِدَاءُ السَّلَامِ وَالرَّدُّ. وَلَا شَكَّ أَنَّ عَدَمَ الرَّدِّ أَخْطَرُ مِنْ ابْتِدَاءِ السَّلَامِ، فَلَوْ قِيلَ: إِنَّمَا لَا تَبْتَدِئُ الْعَاصِي وَمَنْ اقْتَرَفَ ذَنْبًا بِالسَّلَامِ. فَلَا نَقُولُ: وَكَذَلِكَ لَا نَرُدُّ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي ابْتَدَأَ وَهُوَ الَّذِي تَلَطَّفَ إِلَيْنَا. لَكِنْ كَمَا قُلْتُ إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ فَإِنَّمَا لَا تَبْدَأُ وَلَا تَرُدُّ.]^(١)

وَلَكِنْ لَا يَكْفِي ذَلِكَ فِي سَاعَةٍ وَلَا يَوْمٍ، وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْجَنَائِبِ وَالْجَانِبِ. وَقَدْ اعْتَرَضَ الدَّأُودِيُّ عَلَى مَنْ حَدَّثَهُ بِخَمْسِينَ لَيْلَةً أَخَذًا مِنْ قِصَّةِ كَعْبٍ فَقَالَ: لَمْ يَحْدِثْهُ النَّبِيُّ ﷺ بِخَمْسِينَ، وَإِنَّمَا أَخَّرَ كَلَامَهُمْ إِلَى أَنْ أَذِنَ اللَّهُ فِيهِ. يَعْنِي: فَتَكُونُ وَاقِعَةً حَالٍ لَا عَمُومَ فِيهَا. وَقَالَ النَّوَوِيُّ: وَأَمَّا الْمُبْتَدِعُ وَمَنْ اقْتَرَفَ ذَنْبًا عَظِيمًا وَلَمْ يَتُبْ مِنْهُ فَلَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَلَا يُرَدُّ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَمَا قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَاحْتِجَّ الْبُخَارِيُّ لِذَلِكَ بِقِصَّةِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ. انْتَهَى.

وَالْتَقِيدُ بِمَنْ لَمْ يَتُبْ جَيِّدٌ، لَكِنْ فِي الْأَسْتِدْلَالِ لِذَلِكَ بِقِصَّةِ كَعْبٍ نَظَرٌ، فَإِنَّهُ نَدِمَ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُ وَتَابَ، وَلَكِنْ أَخَّرَ الْكَلَامَ مَعَهُ حَتَّى قَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ، وَقَضَيْتُهُ أَنْ لَا يُكَلِّمَ حَتَّى تُقْبَلَ تَوْبَتُهُ، وَيُمْكِنُ الْجَوَابُ: بِأَنَّ الْأُطْلَاعَ عَلَى الْقَبُولِ فِي قِصَّةِ كَعْبٍ كَانَ مُمَكِّنًا، وَأَمَّا بَعْدَهُ فَيَكْفِي ظَهُورُ عَلَامَةِ النَّدَمِ وَالْإِقْلَاعِ، وَأَمَارَةُ صِدْقِ ذَلِكَ.

❖ قَوْلُهُ: «اقْتَرَفَ». أَي: اكْتَسَبَ. وَهُوَ تَفْسِيرُ الْأَكْثَرِ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْاِقْتِرَافُ التَّهْمَةُ. ❖ قَوْلُهُ: «وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: لَا تُسَلِّمُوا عَلَى شَرِيَةِ الْخَمْرِ». بَفَتْحِ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَالرَّاءِ بَعْدَهَا مُوَحَّدَةً، جَمْعُ شَارِبٍ. قَالَ ابْنُ التِّينِ: لَمْ يَجْمَعْهُ الْغُلَيُيُونَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا قَالُوا: «شَارِبٌ وَشَرِبٌ» مِثْلَ «صَاحِبٍ وَصَحْبٍ» انْتَهَى. وَقَدْ قَالُوا: فَسَقَةٌ وَكَذَبَةٌ فِي جَمْعِ فَاسِقٍ وَكَاذِبٍ. وَهَذَا الْأَثَرُ وَصَلَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ» مِنْ طَرِيقِ حَيَّانَ بْنِ أَبِي جَبَلَةَ بِفَتْحِ الْجِيمِ

(١) مَا بَيْنَ الْمُعَقِّفِينَ مِنْ كَلَامِ الشَّارِحِ بِحَذْفِهِ.

والموحدة عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «لا تُسَلِّمُوا على شُرَّابِ الخمرِ». وبه إليه قال: لا تَعُودُوا شُرَّابِ الخمرِ إذا مَرَضُوا.

وأخرج الطبري عن علي موقوفاً نحوه.

وفي بعض النسخ من الصحيح: وقال عبد الله بن عمر. بضم العين وكذا ذكره الإسماعيلي، وأخرج سعيد بن منصور بسند ضعيف عن ابن عمر: لا تُسَلِّمُوا على من شرب الخمر، ولا تَعُودُوهم إذا مَرَضُوا، ولا تُصَلُّوا عليهم إذا ماتوا. وأخرج ابن عدي بسند أضعف منه عن ابن عمر مرفوعاً. اهـ



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٢- بَابُ كَيْفِ الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ بِالسَّلَامِ؟

٦٢٥٦- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: السَّأَمُ عَلَيْكَ. فَفَهَّمْتُهَا فَقُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّأَمُ وَاللَّعْنَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ. فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَقَدْ قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ» ^(١).

٦٢٥٧- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْيَهُودُ فَإِنَّا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّأَمُ عَلَيْكُمْ. فَقُلْ: وَعَلَيْكَ» ^(٢).

٦٢٥٨- حَدَّثَنَا عَثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا عَيْبُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بَنِ أَنْسٍ، حَدَّثَنَا أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ» ^(٣).

[الحديث ٦٢٥٨- طرفه في: ٦٩٢٦].

❖ هذا الباب كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: كَيْفَ الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ إِذَا سَلَّمَ؟ وَآتَى بِهِ الْمُؤَلِّفُ بَصِیغَةَ الْاسْتِفْهَامِ إِحَالَةً عَلَى مَا يُفْهَمُ مِنَ الْأَحَادِيثِ، فَذَكَرَ حَدِيثَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ دَخَلَ رَهْطٌ عَلَى

(١) رواه مسلم (٢١٦٥) (١٠).

(٢) رواه مسلم (٢١٦٤) (٨).

(٣) رواه مسلم (٢١٦٣) (٦).

رسول الله ﷺ من اليهود فقالوا: السَّامُ عليك. والسَّامُ يعني: الموتَ فقولك: السَّامُ عليك. بإزاء قولك: الموتُ عليك. ففهِمَتْهَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالت: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ.

فقولُها: «عليكُمُ السَّامُ»؛ يعني: الموتَ والهلاكَ، وقولُها: اللَّعْنَةُ؛ يعني: الطردَ والإبعادَ عن رحمةِ الله، فهي قابَلَتْهُمُ بِأَسْوَأِ مَا قَالُوا، واليهودُ لَا شَكَّ أَنَّهُمْ أَهْلٌ لَذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِمْ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١). لَكِنَّ الْمَقَامَ لَا يَقْتَضِي هَذَا، وَلِهَذَا قَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». فَقَالَ لَهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ الْعَظِيمَةُ، فَاللَّهُ ﷻ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ، لَا فِي الْعِبَادَاتِ، وَلَا فِي الْمَعَامَلَاتِ فَقَطْ، وَلَا فِي الْمَخَاطَبَاتِ، وَلَا فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَقَطْ، فَاللَّهُ يُحِبُّ الرِّفْقَ.

فَحُذِّ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ وَاسْتَعْمِلْهَا فِي كُلِّ أَحْوَالِكِ، وَكُنْ رَفِيقًا، وَلَوْ لَمْ يَأْتِكَ مِنَ الرِّفْقِ إِلَّا أَنْ ذَلِكَ مَحْبُوبٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ لَكَانَ كَافِيًا، وَإِذَا أَتَيْتَ إِلَى اللَّهِ مَا يُحِبُّ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ.

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي لَفْظٍ آخَرَ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ»^(٢). وَهَذِهِ فَائِدَةٌ عَاجِلَةٌ، فَإِذَا رَفَقْتَ فِي الْأَمْرِ أَعْطَاكَ مَا لَا يُعْطِيكَ فِي الْعُنْفِ.

وَهُنَا لَمَّا قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» وَالْيَهُودُ يَسْمَعُونَ كَلَامَ الرَّسُولِ لَهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ لَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ» أَي: عَلَيْكُمُ السَّامُ. فَأَعْطَاهُمْ ﷺ كَمَا أَعْطَاهُ مَعَ الرِّفْقِ وَالْهُدُوءِ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النِّسَاءُ: ١٢٦].

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يُسْتَفَادُ مِنْ فِعْلِ عَائِشَةَ هَذَا مَعَ الْيَهُودِ جَوَازٌ لَعَنِ الْمَعْيَنَ عَلَى سَبِيلِ الْخُصُوصِ؟

فَالْجَوَابُ: قَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِهَذَا عَلَى جَوَازِ لَعَنِ الْمَعْيَنِ حَالَ تَلَبُّسِهِ بِمَا يَقْتَضِي اللَّعْنَ، فَلَيْسَ عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ.

وَبَعْضُهُمْ قَالَ: لَا، إِنْ عَائِشَةُ أَرَادَتْ بِهَذَا الْخَبَرَ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ قَالَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(٣).

(١) رواه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩) (١٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣) (٧٧).

(٣) تقدم تخريجه قريبًا.

ولكن كلا الأمرين فيها نظر؛ لأنَّ ظاهر الحديث أن عائشة أرادت الدعاء، ولكن يُحْمَلُ على أن هذا من باب الغيرة، فلشدة غيبتها عليها السلام لم تملك نفسها، ولهذا أمرها النبي ﷺ بالرفق. **وأما الحديث الثاني:** فقال: «إذا سلّم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السّام عليك. فقل: وعليك». فأخبر النبي ﷺ أن اليهود يُلَوّنُ ألسنتهم، فيقول أحدهم: السّام عليك. من غير أن يُبين، فقال ﷺ: «قل: وعليك».

وعلم من قوله: «فإنما يقول أحدهم: السّام عليك». أننا لو علمنا أن الكافر قال: السّلام. فإنما نقول: عليكم السّلام. ولا حرج؛ لأنَّ الرسول ﷺ إنما قال: «قل: وعليك» لأنهم يقولون: السّام عليك.

ثم إننا نقول: لا حرج أن تقول: عليك السّلام. إذا صرّح بالسّلام؛ لأنَّ قولك: وعليك. إذا كانوا قد قالوا: السّلام. فإن الذي يكون عليهم هو السّلام.

وأما الحديث الثالث: فقال ﷺ: «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب» وهذا أعم من الذي قبله؛ لأن الحديث الأول الذي قبله: «إذا سلّم عليكم اليهود» وهذا يعم اليهود والنصارى، ولكن هل لنا أن نعمّم ونقول: حتّى المشركون؟ **الجواب:** نعم؛ لأن العلة واحدة.

فإذا قال قائل: هل يجوز أن نسلّم على النصارى لترغيبهم في الإسلام؟

فالجواب أن نقول: هل أنت تظن أن النصارى الآن عندهم من اللين -ولاسيّما نصارى العرب- ما يجعلهم يميلون إلى الإسلام إذا سلّمت عليهم؟

فالجواب: أبداً بل بالعكس، فهؤلاء إذا سلّمت عليهم قالوا: هذا قد ذلّ لنا. أمّا غير العرب فقد يكوّنون أقرب إلى الإسلام من العرب، المهم أننا لا نسلّم عليهم أبداً، وإذا كنّا نريد أن ندعوهم إلى الإسلام فمن الممكن أن نقول: مرحباً أهلاً. فهذا يكفي في تليين قلوبهم.

فإن قيل: هل يؤخذ من هذا الحديث الردّ على من شتمني؟

فالجواب: أن الأفضل أن تقول: عليك مثل ما قلت لي. مثل ما قال الرسول ﷺ:

«قولوا: وعليكم». وإلا فإنه يجوز أصلاً من قوله تعالى: ﴿وَحَرِّزُوا سِتْرَةَ سِتْنَةٍ مِّثْلَهَا﴾ [البقرة: ٤٠]. يجوز لكن الرسول ﷺ دعا إلى الرفق، ولكل مقام مقال، ولا تظن أن الحكم في مسألة يكون كالحكم في كل المسائل؛ إذ قد يختلف الأمر.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٣- بَابٌ مِّنْ نَّظَرٍ فِي كِتَابٍ مِّنْ يُحَذَّرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَيْسَتَيْنِ أَمْرُهُ.

٦٢٥٩- حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بَهْلُولٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ قَالَ: حَدَّثَنِي حُصَيْنُ بْنُ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي هَاشِمٍ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالزَّبِيرُ بْنُ الْعَوَامِ، وَأَبَا مَرْثِدَ الْغَنَوِيِّ - وَكُلُّنَا فَارِسٌ - فَقَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاحٍ، فَإِنَّ بِهَا امْرَأَةً مِّنَ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِّنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ» قَالَ: فَأَوَّزَ كُنَاهَا تَسِيرٌ عَلَى جَهْلِ لَهَا، حَيْثُ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قُلْنَا أَيْنَ الْكِتَابُ الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَتْ: مَا مَعِيَ كِتَابٌ. فَأَنْخَنَّا بِهَا فَابْتَغَيْنَا فِي رَحْلِهَا، فَمَا وَجَدْنَا شَيْئًا، قَالَ صَاحِبَايَ: مَا نَرَى كِتَابًا. قَالَ: قُلْتُ: لَقَدْ عَلِمْتُ مَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَتُخْرِجَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَأَجْرَدَنَّكَ. قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُ الْحِجْدَ مِنِّي أَهَوْتُ بِسِدِّهَا إِلَى حُجْرَتِهَا - وَهِيَ مُحْتَجِزَةٌ بِكِسَاءٍ - فَأَخْرَجَتِ الْكِتَابَ. قَالَ: فَانْطَلَقْنَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» قَالَ: مَا بِي إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا غَبَرْتُ وَلَا بَدَلْتُ، أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ لِي عِنْدَ الْقَوْمِ يَدٌ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهَا عَنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِكَ هُنَاكَ إِلَّا وَلَدٌ مِّنْ يَدْفَعُ اللَّهُ بِهِ عَنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ، قَالَ: «صَدَقَ، فَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا». قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَذَعْنِي فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ، قَالَ: فَقَالَ: «يَا عُمَرُ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدْ أَطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ» قَالَ: فَدَمَعْتُ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

❦ قَالَ الْمَوْلَفُ: «بَابٌ مِّنْ نَّظَرٍ فِي كِتَابٍ مِّنْ يُحَذَّرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لَيْسَتَيْنِ أَمْرُهُ». وَهَذَا مِّنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْتَبَهُوا لَهَا؛ لِأَنَّ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ يَكِيدُونَ لِلْإِسْلَامِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، وَيَدُسُّونَ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ، فَيُؤَلَّفُونَ الْكُتُبَ وَيَكُونُونَ كَالْكُفَّانِ يَأْتُونَ بِهَائَةِ كَلِمَةٍ لَا تُسْتَنْكَرُ، وَيَأْتُونَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تَهْدِمُ مَا كُتِبُوا، وَلِذَلِكَ إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّقُوا بِكُتُبِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، سِوَا مَنْ يَتَّظَاهَرُ بِالْمَعَادَاةِ أَوْ مَنْ لَا يَتَّظَاهَرُ، وَسِوَا كَانُوا مِمَّنْ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْعَقَائِدِ، أَوْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُونَ فِي غَيْرِ الْعَقَائِدِ، فَيَجِبُ الْحَذَرُ؛ حَتَّى لَا نَقَعَ فِي الشَّرِّ.

ثُمَّ ذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ الَّذِي فِيهِ آيَاتٌ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ ﷻ، وَفِيهِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ بَعَثَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ: عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَالزَّبِيرَ بْنَ الْعَوَامِ، وَأَبَا مَرْثِدَ وَكُلَّهُمْ فَارِسٌ؛ يَعْنِي: كُلُّ وَاحِدٍ

منهم فارس، يُجيدُ الركوبَ على الفرس، ومعلومٌ أنَّ مثلَ هذه الحالِ تَقْتَضِي ألا يُرْسَلِ إلا قومٌ فوارس حتى يُدْرِكُوا هذه المرأة.

❖ في قوله: «كلُّنا فارسٌ إشكالٌ». حيثُ إنَّ الخبرَ لم يُطابقِ المبتدأ؛ إذ أنَّ قوله: كلُّنا يَقْتَضِي أن يكونَ الخبرُ جمعاً، ولكنه قال: فارس، فإما أن يُقالَ: إن كلمةَ فارسٍ تَطْلُقُ على الواحدِ والجمع.

وإما أن يُقالَ: إن قوله: كلُّنا بمنزلةِ كلِّ واحدٍ منا، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (٧٦) ﴿الزُّكَّاتِ: ٧٤﴾. أي: اجعل كلَّ واحدٍ منَّا للمتقين إماماً.

ففي الحديثِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْعَظِيمَةِ: آيةٌ مِنَ آيَاتِ النَّبِيِّ ﷺ حيثُ أَخْبَرَ عَنْهَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ. **وفيه:** أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ إِذَا عَلِمَ بِالْحَقِّ أَنْ لَا يَلِينَ أَمَامَ الْبَاطِلِ، بَلْ يَكُونُ قَوِيًّا، وَعَازِمًا فِيهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَزَمَ عَلَى الشَّيْءِ فَإِنَّ قَبِيلَهُ سَوْفَ يَنْهَزِمُ، لَكِنْ إِذَا انْهَزَمَ وَلَوْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ فَإِنَّهُ يُهُزِمُ؛ لِأَنَّ السَّيْفَ كَمَا يَقُولُونَ: بِضَارِيهِ. فَقَدْ يَكُونُ مَعَ شَخْصٍ جَبَانٍ سَيْفٌ بَتَّارٌ فَإِذَا رَأَى الشُّجَاعَ انْتَفَضَ وَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الشُّجَاعِ سَيْفٌ دُونَهُ وَلَكِنَّهُ يَقْلِقُ بِهِ الْهَامَ، فَالسَّيْفُ بِضَارِيهِ، فَإِذَا كَانَ الْحَقُّ مَعَكَ فَاعْزِمْ وَلَا تَلِنْ وَلَا تَتَهَاوَنْ، وَلِهَذَا لَمَّا عَزَمَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهَا أَخْرَجَتْ الْكِتَابَ.

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُ الْجَاسُوسِ الْمُسْلِمِ، فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ جَاسُوسٌ لَعَدُونَا، فَإِنَّهُ يَجُوزُ قَتْلُهُ، بَلْ قَدْ يَجِبُ أَنْ يُقْتَلَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَذْكُرْ مَانِعًا مِنْ قَتْلِ حَاطِبٍ إِلَّا أَنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَشَهَادَةُ بَدْرٍ أَخْصُ مِنْ كَوْنِهِ مُسْلِمًا، فَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يُعَلِّلْ بَأَنَّهُ مُسْلِمٌ، بَلْ عَلَّلَ بَأَنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا، وَهَذِهِ الْمِيزَةُ لَا تَحْصُلُ لِغَيْرِ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا، وَعَلَى هَذَا فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ هَذَا الشَّخْصَ يَتَجَسَّسُ لِلْأَعْدَاءِ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَقْتُلَهُ، إِلَّا إِذَا رَأَى وَلِيُّ الْأُمْرِ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي عَدَمِ قَتْلِهِ فَلَا بَأْسَ. لَكِنْ قَتْلُهُ جَائِزٌ، وَقَدْ يَجِبُ إِذَا تَعَيَّنَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي قَتْلِهِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ هَذَا الْحَدِيثِ: بَيَانُ قُوَّةِ عَمْرِ بْنِ الْعَدِيِّ ﷺ حَيْثُ طَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي قَتْلِهِ.

وفيه: كَمَالُ أَدَبِهِ - أي: عَمَرٌ - لِأَنَّهُ لَمْ يَتَجَرَّأْ فَيَقْتُلْهُ، وَمِنْ هُنَا نَأْخُذُ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَلَّا نَتَجَرَّأَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ شُؤُونِنَا فَنَقْدِمَ عَلَيْهَا، مِثْلَ أَنْ نَرَى بَعْضَ الْمُنْكَرَاتِ فَنَكْسِرَهَا أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَنَحْنُ لَيْسَ لَنَا وِلَايَةٌ عَلَيْهَا خَاصَّةٌ وَلَا عَامَّةٌ، نَعَمْ إِذَا رَأَيْتَ مُنْكَرًا فِي مَكَانٍ لَكَ عَلَيْهِ وِلَايَةٌ خَاصَّةٌ فَانْكُسِرْهُ، لَكِنْ مَا وَلَايَتُهُ عَامَّةٌ فَلَا مَرُّ لَغَيْرِكَ فَاسْتَأْذِنْ وَقَدْ يُؤْذَنُ لَكَ، أَوْ لَا

يُؤْذَنُ لَكَ، الْمَهْمُ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ إِلَيْكَ، وَقَدْ كَانَ تَجَسَّسُ حَاطِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُوجِبًا لِلْقَتْلِ، لَكِنْ مَعَ هَذَا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ الْمَانِعَ.

وَمِنْ فَوَائِدِهِ أَيْضًا: فَضِيلَةُ أَهْلِ بَدْرِ حَيْثُ قَالَ اللَّهُ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجِبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ». وَفِي رَوَايَةٍ: «فَقَدْ غُفِرَتْ لَكُمْ» ^(١). وَفِي هَذَا إِشْكَالٌ، وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ. هَلِ الْأَمْرُ فِيهِ لِلْإِبَاحَةِ وَأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّهُ يَجُوزُ لِأَهْلِ بَدْرِ أَنْ يَكْفُرُوا أَمْ مَاذَا؟

الْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لِلَامْتِنَانِ لَيْسَ لِلْإِبَاحَةِ وَلَا لِلْإِلْزَامِ، كَمَا لَوْ مَنَّ عَلَيْكَ شَخْصٌ بِشَيْءٍ، فَقُلْتَ لَهُ بَعْدَ هَذَا: اْعْمَلِ الَّذِي تَبْغِيهِ، يَعْني: أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي فَعَلْتَ يُكْفِّرُ عَنْكَ كُلَّ مَا تَفْعَلُ، فَالْحَسَنَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي حَصَلَتْ لِأَهْلِ بَدْرِ كَانَتْ مُكْفِّرَةً لِكُلِّ مَا يَعْمَلُونَ، لَكِنَّ فِيهِ بَشَارَةٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ بِأَنَّ أَهْلَ بَدْرِ لَنْ يُشْرِكُوا وَلَنْ يَرْتَدُّوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ ارْتَدُّوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ لَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ دِينَكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٢١٧]. وَحِينَئِذٍ تَكُونُ بُشْرَى لِأَهْلِ بَدْرِ بِأَنَّهُمْ مَهْمَا عَمِلُوا مِنَ الْمَعَاصِي فَإِنَّهَا سَتَكُونُ دُونَ الشَّرِّ، وَحِينَئِذٍ تَقَعُ مُكْفِّرَةً وَلَا تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا هَذِهِ الْحَسَنَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي كَانَتْ مُوجِبَةً لِمَحْوِ جَمِيعِ مَا يَعْمَلُونَ مِنَ السَّيِّئَاتِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَيْضًا: دَلِيلٌ عَلَى رِقَّةِ قَلْبِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ شِدَّتِهِ فِي الْحَقِّ، فِيهِ ثَلَاثُ أُمُورٍ: شِدَّتُهُ فِي الْحَقِّ، وَأَدْبُهُ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، وَرِقَّةُ قَلْبِهِ عِنْدَ تَبَيُّنِ الْحَقِّ لَهُ، حَيْثُ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَوَكَّلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْأَمْرَ إِلَى عَالِمِهِ.

وَفِيهِ: دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّ التَّجَسَّسَ لِلْكَافِرِينَ خِيَانَةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقَرَّ عُمَرَ عَلَى قَوْلِهِ: فَقَدْ خَانَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ. لَكِنْ بَيَّنَّ الْمَانِعَ مِنْ قَتْلِهِ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ بِدِرِّهِ.

وَفِيهِ: إِثْبَاتُ كَلَامِ اللَّهِ؛ لِقَوْلِهِ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غُفِرَتْ لَكُمْ.

وَفِيهِ أَيْضًا: أَنَّ حُكْمَ الْخِطَابِ يَثْبُتُ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْهُ الْمَخَاطَبُ؛ لِأَنَّ أَهْلَ بَدْرِ مَا سَمِعُوا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ». وَلَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ.

وَيَنْفَرُ مِنْ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: أَنَّ الرَّجُلَ لَوْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ غَائِبَةٌ فَإِنَّهَا تُطَلَّقُ، وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ؛ لِأَنَّ هَذَا الْحُكْمَ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ. ثَبَتَ لِأَهْلِ بَدْرِ مَعَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ.

وفيه أيضا: إثبات المشيئة للعبد، فيكون فيه ردُّ على الجبرية الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ لا مشيئةَ له، وأنه مجبرٌ على عمله.

فإن قيل: هل يفهم من ترجمة البخاري جواز مطالعة كتب الكفار للتحذير منها؟
فالجواب: أنه يمكن القول بهذا، حتى لو لم نفهم هذا من الترجمة، فهو واجبٌ يجبُ على من كان عنده ثقةٌ من نفسه، وعلمٌ، وإذا وجد كتاباً مثلاً منتشرًا من كتب الفلاسفة أو الملاحدة أو غيرهم، من الذي حدث أخيرًا؛ لأنَّ الإلحاد أصله واحدٌ، لكنه يتصور ويتلون حسب الوقت، فالإلحاد من أول الدنيا إلى آخرها واحدٌ؛ لكنه يأتي بصورٍ حسب ما تقتضيه الحال، ويغلف بغلافٍ لا يستنكره أهل الوقت، وإلا فهو هو، لكن مثلاً: إذا كان في وقت يُكرَّم الأدب فيه أو ما أشبه ذلك، ويعتني به، جاء الإلحاد بصورة أدبٍ ظاهره رحمةٌ وباطنه عذابٌ، وإذا كان في زمنٍ أو في مكانٍ يُعظَّم فيه المنطق، جاء بصورة المنطق وهكذا، لكن أصله شيءٌ واحدٌ.



ثم قال البخاري رحمه الله:

٢٤- باب: كيف يكتب الكتاب إلى أهل الكتاب.

٦٢٦٠- حدثنا محمد بن مقاتل أبو الحسن، أخبرنا عبد الله، أخبرنا يونس، عن الزهري، قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أنَّ ابن عباس أخبره: أن أبا سفيان بن حرب أخبره: أن هرقل أرسل إليه في نفرٍ من قريش وكانوا تجارًا بالشام فاتوه - فذكر الحديث - قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأ فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. السلام على من اتبع الهدى. أمَّا بعد...»^(١)

إذا: فإذا أردنا أن نكتب الكتاب إلى أهل الكتاب، فإننا نصنعُ كما صنع الرسول ﷺ، فمثلاً إذا أراد أن يكتب السلطان فإنه يقول: من فلانٍ إلى فلانٍ ويصفه بما يوصف به هناك يعني: فلا يحط من قدره، كما قال النبي ﷺ: «من محمد عبد الله ورسوله - صلوات الله وسلامه عليه - إلى هرقل عظيم الروم». ولم يقل: العظيم؛ لأنه عظيم على قومه فقط. وليس له العظمة المطلقة.

(١) ورواه مسلم مطولاً (١٧٧٣) (٧٤).

❦ ثم قال: «السلام على من اتبع الهدى». ولم يقل: السلام عليك؛ لأن اليهود والنصارى لا يُبْدَأُونُ بالسلام.

❦ وفي قوله: «السلام على من اتبع الهدى». ما يُسمَّى في البلاغة بـ «براعة الاستهلال» ومعناها: أن يُؤْتَى في مُسْتَهْلِ الكلام بما يُنَاسِبُ المقام، فكانه يُقُولُ: اتَّبِعِ الْهُدَى لِيَكُونَ السَّلَامُ عَلَيْكَ.

ثم إنه قد يكون بَلَاءُ لِحَظِّ أَمْرِ اللَّهِ وَعَلَى فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧]. وكذا قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ٦٣]. فيكون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممثلاً بهذه العبارة أمر الله في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَ﴾.

وفيه: دليل على أنه ينبغي أن يُبْدَأَ بالبسملة حتى في الكتاب إلى أهل الكتاب؛ لأنَّ البسملة بركةٌ وخيرٌ، والعجيب أن البسملة تَقْلِبُ الخبيث طيباً، والطيب خبيثاً، فإذا ذُبِحَتْ الذبيحة، فإن سَمِيَتْ صارت طيبةً حلالاً، وإن لم تُسَمَّ صارت خبيثةً حراماً، كذلك الطعام إن سَمِيَتْ حُرِّمَ منه الشيطان، وإن لم تُسَمَّ شَارَكَكَ الشيطانُ فَانْتَفَعَ وضيق عليك؛ ولهذا جاء في الحديث: «كلُّ أمرٍ لا يُبْدَأُ فيه بِسْمِ اللَّهِ فهو أَيْبَرُ» ^(١) أي: ناقصُ البركة.

وفيه أيضاً: أنه يُقَدَّمُ اسمُ الكاتبِ على المكتوبِ إليه؛ لأن هذا هو الترتيب الطبيعي، فأنا كاتبٌ من ابتداء، وأنت مكتوبٌ إليك إلى انتهاء، فكان تقديم الكاتب هو المناسب للترتيب الطبيعي، فتَقُولُ: مِنْ فلانٍ إِلَى فلانٍ. هذا هو الأفضل، لكن تَغَيَّرَتِ الأحوالُ الآنَ وصاروا يَكْتُبُونَ: جناب، حضرة، سعادة، ويذكرون من هذه الألقاب، وفي النهاية يَكْتُبُ الاسمَ وهذا خلافُ المشروع، فالمشروع أن تَبْدَأَ بالاسم كما هو موافقٌ للطبيعة، لكن رأيت شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يَكْتُبُ إِلَى فلانٍ مِنْ فلانٍ ^(٢) فَقَدَّمَ المكتوبَ إليه، وكأنه رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه يُريدُ بذلك التأليف؛ لأنَّ بعضَ الناسِ في عهده وفي غير عهده عقولهم في أيديهم

(١) رواه الخطيب في «الجامع» (١٢١٠). وضعفه السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الجامع الصغير». وكذا الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ كما في «الإرواء» (١/ ٢٩-٣٠).

(٢) وذلك كما في رسالته رَحِمَهُ اللَّهُ، إلى الإمام شمس الدين، كما في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٥١).

كما يَقُولُونَ، فَإِذَا رَأَوْا الشَّخْصَ يَقُولُ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ، قَالُوا: هَذَا يَعُدُّ نَفْسَهُ أَعْظَمَ مِنِّي، وَأَعْلَمَ مِنِّي أَتْرُكُوهُ وَكِتَابَتَهُ. لَكِنْ إِذَا رَأَاهُ يَقُولُ: إِلَى فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ مِنْ فُلَانٍ. فَرُبَّمَا يَلِينُ وَيَقْبَلُ، فَإِذَا تَرَكَ الْإِنْسَانَ هَذِهِ السُّنَّةَ لَهَا يَرْجُو مِمَّا هُوَ أَنْفَعُ، فَهَذَا لَا بِأَسْ بِهِ، وَإِلَّا فَلَا فَضْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِاسْمِهِ هُوَ أَوْ لَا.

فَإِنْ قِيلَ: مَا تَقُولُونَ فِي شَخْصٍ كَتَبَ، وَقَالَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى السَّيِّدِ فُلَانٍ مِنَ الْكُفْرَةِ؟

قُلْنَا: لَا يَجُوزُ هَذَا، لَهَا يَلِي:

أَوَّلًا: لِأَنَّكَ أَعْطَيْتَهُ السِّيَادَةَ الْمَطْلُوقَةَ. فَإِذَا قَالَ: أَنَا أَرَدْتُ الْخُصُوصَ، وَاسْتَعْمَالَ الْعَامِّ مُرَادًا بِهِ الْخَاصَّ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [التَّحْقِيقُ: ١٧٣]. وَالْقَائِلُ وَاحِدٌ وَالْجَامِعُ وَاحِدٌ^(١). نَقُولُ: سَبَّحَانَ اللَّهِ الظَّاهِرُ خِلَافُ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنْ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ لَا يَفْهَمُ أَنَّكَ أَرَدْتَ الْخُصُوصَ، بَلْ يَفْهَمُ أَنَّكَ أَرَدْتَ الْعُمُومَ، وَأَرَدْتَ تَعْظِيمَهُ عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ.

ذَكَرْنَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَهُ قَدُوةٌ فِي قَوْلِهِ: «السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى» هَلْ مُمْكِنٌ أَنْ نَقُولَ: «عَظِيمُ الرُّومِ» لَهُ قَدُوةٌ فِيهِ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٦٣]. وَلَمْ يَقُلْ: الْكَبِيرُ، وَالصَّنَمُ الْكَبِيرُ كَبِيرٌ لِمَنْ؟ لِلْأَصْنَامِ، لَا لِكُلِّ أَحَدٍ، وَلِهَذَا احْتَرَزَ بِكَلِمَةِ الْكَبِيرِ عَنِ وَصْفِهِ بِالْكَبِيرِ الْمَطْلُوقِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٥- بَابُ بِمَنْ يُبْدَأُ فِي الْكِتَابِ.

٦٢٦١- وَقَالَ اللَّيْثُ: حَدَّثَنِي جَعْفَرُ بْنُ رَبِيعَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُرْمِزٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذَ خَشَبَةً فَتَقَرَّرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ^(١).

(١) انظر: «الفتح» (٨ / ٢٢٩).

(٢) علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، بصيغة الجزم، كما في «الفتح» (١١ / ٤٨)، وَقَدْ بَيَّنَّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَصَلَهُ لِهَذَا الْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي اللَّيْثُ بِهِ. عَقِبَ تَعْلِيْقِهِ لَهُ فِي الْيُوسُفِ بِرَقْمِ (٢٠٦٣). وَانْظُرْ: «الفتح»

وقال عمرُ بنُ أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة قال النبي ﷺ: «نَجَرَ خَشَبَةً فَجَعَلَ الْمَالَ فِي جَوْفِهَا وَكَتَبَ إِلَيْهِ صَحِيفَةً: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ»^(١).

هذا الحديثُ مثْلُ الأولِ: أي يَبْدَأُ بِالكَاتِبِ إِلَى الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ.

وفيه دليلٌ على أن الإنسانَ إذا كَتَبَ صَحِيفَةً فِي وَدِيعَةٍ عَنْدهُ لِشَخْصٍ فَإِنَّهُ يَكْتَفِي بِذَلِكَ؛ يَعْنِي: لو أن شَخْصًا أَعْطَاكَ دِرَاهِمَ، وقال: خُذْ هَذِهِ عِنْدَكَ. فَاكْتُبْ رَقَّةً فِيهَا: هَذِهِ لِفُلَانٍ كَمَا جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٦- بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ».

٦٢٦٢- حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلٍ بْنِ حَنْفٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ: أَنَّ أَهْلَ قُرَيْظَةَ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ». أَوْ قَالَ: «خَيْرِكُمْ». فَقَعَدَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ». قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تَقْتُلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَتُسَبِّى ذَرَارِيَهُمْ، فَقَالَ: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِمَا حَكَّمَ بِهِ الْمَلِكُ»^(١). قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: أَفْهَمَنِي بَعْضُ أَصْحَابِي، عَنْ أَبِي الْوَلِيدِ مِنْ قَوْلِ أَبِي سَعِيدٍ: إِلَى حُكْمِكَ.

× قوله: «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ». كَانَ الْمَوْلَفَ رَحِمَهُ اللَّهُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ: قُومُوا لِسَيِّدِكُمْ وَإِلَى سَيِّدِكُمْ. وَقَدْ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ يَعْنِي: الْقِيَامَ يَتَعَدَّى إِلَى أَوْ بَعْلَى أَوْ بِاللَّامِ، فَإِنْ تَعَدَّى إِلَى، فَلَا بِأَسْ بِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ» وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ امْشُوا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ «إِلَى» لِلْغَايَةِ فَلَا بَدْءَ مِنْ مَعْنَى، فَإِذَا قُلْتَ: قُمْ إِلَى فُلَانٍ. فَمَعْنَاهُ: أَنْ فَلَانًا بَعِيدٌ عَنْكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَشْيِي حَتَّى يَنْتَهِيَ قِيَامُكَ إِلَيْهِ، فَهَذَا لَا بِأَسْ بِهِ، فَلَوْ أَنَّ شَخْصًا دَخَلَ الْبَابَ وَقَمْنَا وَمَشِينَا إِلَيْهِ، فَإِنْ هَذَا جَائِزٌ وَلَا بِأَسْ بِهِ، وَإِذَا كَانَ أَهْلًا لِلْإِكْرَامِ كَانَ إِكْرَامُنَا إِيَّاهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَشْرُوعَةِ الْمَسْنُونَةِ، وَلَنَا أَنَّ نَسْتَقْبِلُهُ عِنْدَ الْبَابِ إِذَا

(١/ ٣٠٠)، و«التغليق» (٥/ ١٢٦).

(١) علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، بصيغة الجزم، كما في «الفتح» (١١/ ٤٨)، وقد وصله رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الأدب المفرد» (١١٢٨).

قال: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ بِهِ. «التغليق» (٥/ ١٢٦).

(٢) ورواه مسلم (١٧٦٨) (٦٤).

رَأْيَانَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ». وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ فِي أَكْحَلِهِ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ، وَلَمَحَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ، وَلَشَرَفِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ، أَمَرَ أَنْ يُضْرَبَ لَهُ خِبَاءٌ فِي الْمَسْجِدِ - مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ - مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ^(١)؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يُحِبُّهُ، وَهُوَ أَهْلٌ لَذَلِكَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَدَعَا اللَّهَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تُؤْتِنِي حَتَّى تَقَرَّ عَيْنِي بِبَنِي قُرَيْظَةَ^(٢). يَقُولُهُ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، فَأَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَهُ وَأَنْزَلَهُمْ عَلَى حُكْمِهِ. وَهُمْ الَّذِينَ اخْتَارُوا سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا اخْتَارُوهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ حَلِيفَهُمْ، فَظَنُّوا أَنَّهُ سَوْفَ يَجْعَلُ يَدًا دُونَهُمْ، وَسَوْفَ يَشْفَعُ لَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَكِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ فَلَمَّا جَاءَ، قَالَ: حُكْمِي نَافِذٌ فِيهِمْ. قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: وَعَلَى مَنْ هَا هُنَا؟ يُشِيرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ احْتِرَامًا لَهُ. فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «نَعَمْ»^(٣).

فَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: هُوَ قَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ».

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ: أَنْ تَتَعَدَّى بِعَلَى فَيَقَالُ: قَامَ عَلَى فُلَانٍ. فَهَذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَّا فِي مَقَامٍ يُغَاظُ فِيهِ الْأَعْدَاءُ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ، قَالَ: «لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعْظَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(٤) حَتَّى إِنَّهُ فِي الصَّلَاةِ لَمَّا صَلَّى جَالِسًا وَكَانُوا قِيَامًا أَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَجْلِسُوا؛ حَتَّى لَا يَقُومُوا عَلَى رَأْسِهِ فَيَصْنَعُوا كَمَا تَصْنَعُ الْأَعَاجِمُ فِي مَلُوكِهَا^(٥)، لَكِنْ فِي غَزْوَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَهِيَ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ كَانَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَائِمًا عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ ﷺ وَبِيَدِهِ السِّيفُ^(٦) مِنْ أَجْلِ إِغَاظَةِ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَيْهِ الرِّسْلَ لِلْمُفَاوِضَةِ، فَكَانَ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُونَهُ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْحَالِ، فَكَانَ الرَّسُولُ إِذَا تَنَحَّيَ نُخَامَةً تَلَقَّوْهَا بِأَيْدِيهِمْ فَجَعَلُوا يُدَلِّكُونَ بِهَا صُدُورَهُمْ وَوُجُوهَهُمْ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ هَذَا لَكِنْ فَعَلُوهُ مِنْ أَجْلِ إِغَاظَةِ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤١٢٢)، وَمُسْلِمٌ (١٧٦٩) (٦٥).

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٣/ ٣٥٠) (١٤٧٧٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٥٨٢) وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) ذَكَرَهُ ابْنُ حِبَانَ فِي «الثَّقَاتِ» (٢٧٧/١).

(٤) رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٥/ ٢٥٣) (٢٢١٨١)، وَأَبُو دَاوُدَ (٥٢٣٠). وَضَعَفَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى «سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ».

(٥) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤١٣) (٨٤).

(٦) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

المشركين؛ لأجل أن يَرْجِعُوا وَيَقُولُوا لِقَوْمِهِمْ: رأينا ورأينا ولهذا لما رَجَعَ إليهم رسولهم قال: والله لقد دَخَلْتُ على الملوِكِ وكسرى وقيصرَ والنجاشي فلم أرَ أحداً يُعَظِّمُهُ أصحابه مثل ما يُعَظِّمُ أصحابُ محمدٍ محمدًا ^(١).

فالحاصل: أنه إذا كان فيه إغاطة الأعداء فلا بأس به، كما فعل المغيرة بن شعبة مع رسول الله ﷺ، وفي هذا دليل على أن إغاطة أعداء الله محبوبة إلى الله.

ويجوز للإنسان أيضًا أن يَمْسِيَ الخِيَلَاءَ أمام أعداء الله، مع أن الخِيَلَاءَ من كبائر الذنوب، ويجوز أن تَلْبَسَ الحريرَ وأنت رجلٌ إغاطة لأعداء الله إذا كانوا حاضرين، أما نحن الآن فما نَقْدِرُ على فعل هذه الأمور، بل الآن كاد أن يَكُونَ أعداء الله أولياء لنا نَسْأَلُ الله أن يُعَامِلَنَا بعفوهِ، مع أن أعداء الله كَفَارٌ يَجِبُ علينا إغاطتهم وجوبًا قال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَطَ عَلَيْهِمْ﴾ [البخاري: ٩].

وأما الأمر الثالث: وهو القيام للشخص فهذا لا شك أن الأفضل تركه، وأن الناس لو اعتادوا عدم القيام للشخص لكان أولى؛ لأن هذا فعل الصحابة مع النبي ﷺ، لأنهم يَعْلَمُونَ أنه يَكْرَهُ ذلك، لكنه لا بأس به للإكرام فإن النبي ﷺ لما قَدِمَ وفدٌ ثقيف إليه وهو في الجعرانة قام لهم ^(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إذا اعتادَ الناس قيام بعضهم لبعض فلا بأس به ^(٣). فإذا قام الإنسان لشخص دَخَلَ كما جَرَتْ به العادة إكرامًا له فلا حرج، لكن يُمكن أن يتلافى هذا بأن يَقُومَ إليه وَيَتَقَدَّمَ بدلًا من أن يَقِفَ مكانه وَيَكُونُ حينئذ قد قام إليه لكن مع ذلك لا بأس، ولا يُعَارِضُ هذا قوله ﷺ: «من أَحَبَّ أن يَتَمَثَّلَ له الناس قيامًا فليَتَبَوَّأْ مقعده من النار» ^(٤)؛ لأنَّ

(١) نفس التخريج السابق.

(٢) قال ياقوت بن عبد الله الحموي في «معجم البلدان» (٢/ ١٤٢): الجعرانة: بكسر أوله إجماعًا، ثم إن أصحاب الحديث يكسرون عينه، ويشددون راءه، وأهل الإتيقان والأدب يخطئونهم، ويسكنون العين، ويخففون الراء، وقد حكى عن الشافعي أنه قال: المحدثون يخطئون في تشديد الجعرانة وتخفيف الحديبية.

والذي عندنا أنها روايتان جيدتان، حكى إسماعيل بن القاضي، عن علي بن المديني أنه، قال: أهل العراق يخففونها، ومذهب الشافعي تخفيف الجعرانة، وسمع من العرب من قد يثقلها، وبالتخفيف قيدها الخطابي، وهي ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبي ﷺ لما قَسَمَ غنائم هوزان، مرجعه من غزاة حنين، وأحرم منها، وله فيها مسجد. اهـ

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٧٤-٣٧٥).

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (٩١/ ٤)، وأبو داود (٥٢٢٩) ورجاله رجال الشيخين. ورواه الترمذي (٢٧٥٥)

هذا بالنسبة للداخل، فالداخل إذا أحبَّ أن يتمثل الناس له قيامًا فلا شك أن عنده إعجابًا بنفسه وكبرياء، فصَارَ القيامُ ثلاثة أقسام.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٧- بَابُ الْمَصَافِحَةِ.

وقال ابن مسعود: عَلَّمَنِي النَّبِيُّ ﷺ التَّشْهَدَ وَكَفَى بَيْنَ كَفَيْهِ ^(١). وقال كعبُ بْنُ مَالِكٍ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهْرَوُلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي ^(٢).

٦٢٦٣- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَنْسِي: أَكَانَتْ الْمَصَافِحَةُ فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ.

٦٢٦٤- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَلِيحَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي حَيَّوَةُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو عَقِيلٍ زَهْرَةُ بْنُ مُعْبِدٍ سَمِعَ جَدَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. قَوْلُهُ: «بَابُ الْمَصَافِحَةِ». الْمَصَافِحَةُ مَعْنَاهَا: الْمَلَاقَةُ بَيْنَ الْيَدَيْنِ، وَمَرَادُهُ أَنْ يَقُولَ: مَا حَكَمُهَا: هَلْ هِيَ جَائِزَةٌ، أَمْ سُنَّةٌ أَوْ مَاذَا؟

وَذَكَرَ حَدِيثَ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَّمَهُ التَّشْهَدَ، وَكَفَّهُ بَيْنَ كَفَيْهِ؛ أَي: أَنَّ كَفَّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَتْ بَيْنَ كَفَيْهِ الرَّسُولِ ﷺ، إِذَا فَالْرَّسُولُ ﷺ آخِذٌ بِيَدَيْهِ جَمِيعًا، وَالْحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُتَبَهًا لِمَا يُلْقَى إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ.

ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، يَقُولُ: فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهْرَوُلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يَرَاهُ؛ لِأَنَّهُ حَاضِرٌ، وَفِيهِ الْمَصَافِحَةُ وَالتَّهْنِئَةُ بِالْأَمْرِ السَّارِّ، وَلَا يُحْتَاجُ فِي هَذَا إِلَى تَوْقِيفٍ. فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا أَتَاهُ مَا يَسْرُهُ فَهَنَانَاهُ فَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يُقَالَ: هَلْ هُنَا الصَّحَابَةُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ أَوْ

وقال: حديث حسن. وقال الشيخ الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ: صحيح.

(١) علقه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بصيغة الجزم، وأسنده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْبَابِ الَّذِي بَعْدَهُ بِرَقْم (٦٢٦٥). «التعليق» (١٢٩/٥).

(٢) علقه البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بصيغة الجزم، وهو مختصر من قصة توبة كعب، وقد أسنده في «المغازي» (٤٤١٨) وغيرها. «التعليق» (١٢٩/٥).

لا؟ لأنه إذا وُجد أصل المسألة، فلا حاجة إلى أن يُنصَّ على كلِّ فردٍ منها؛ لأن الاعتبار بالجنس، ولهذا قلنا: إن إهداء القُربِ والعباداتِ إلى الأمواتِ جائزٌ، وإن كان ذلك لم يَرِدْ إلا في الصدقةِ والحجِّ والصومِ، لكن ما دام هذا الجنسُ وقعَ وهي قضايا أعيانٍ إنما تَخَصَّصَتْ بهذا اتفاقاً، فلو وُجدَ شيءٌ آخرُ فهل يُبَاحُ الرسولُ ﷺ من ذلك مثلاً؟ وهذه مسألة قلَّ من يَنْتَبِهُ لها، وهي: أن العبرة بالجنسِ لا بالنوعِ أو بالفردِ، خصوصاً في قضايا الأعيانِ التي ليست قولاً، أما القولُ فنعم، فإذا جاء القولُ مَخْصُصاً بشيءٍ تَخَصَّصَ به، لكن إذا جاءت قضايا أعيانٍ وقَعَتْ من جنسٍ، فإنه لا يُجْتَاجُ إلى أن يُنصَّ على كلِّ فردٍ من أفرادِ هذا الجنسِ، أو كلِّ نوعٍ منه، فإذا كان الرسولُ ﷺ أقرَّ إهداء القُربِ من صدقةٍ وحجٍّ وصومٍ؛ لأنها وقَعَتْ في عَهْدِهِ فإننا نقولُ: غيرها مثلها؛ لأن الكلَّ عبادةٌ، لكن لم يَقَعْ في عَهْدِ الرسولِ ﷺ إلا هذا الأمرُ، وما وقَعَ اتفاقاً فمَعْلُومٌ أنه لا يَكُونُ شرعاً؛ بمعنى: أنه لا يَتَخَصَّصُ به، كذلك لما هُنِيَّ كعبُ بنُ مالكٍ، بتوبةِ الله عليه، لا يُقَالُ: أننا لا هُنِيَّ أحداً إلا بالتوبة. بل هُنِيَّ الإنسانَ بكلِّ ما يَسُرُّه من أمورِ دينه وأُمُورِ دُنْيَاهُ، حتى لو فُرِضَ أنه رِيحٌ في بيعَةٍ رِيحاً غيرَ معتادٍ فإننا هُنِيَّه؛ لأنه يَسُرُّ بذلك، لكن لا هُنِيَّ بشيءٍ يَسُرُّه وهو معصيةٌ؛ لأن التهنئةَ بالمعصيةِ رَضاً بها، ولهذا نقولُ: لا يَجُوزُ أن هُنِيَّاً المشركونَ بأعيادِهِمْ مطلقاً باتفاقِ العلماءِ؛ لأن تَهْنِئَتَهُمْ بذلك، معناه: التهنئةُ بالشركِ والكفرِ والإقرارُ على دينه.

❦ ثم ذَكَرَ عن قتادة، أنه قَالَ: قلتُ لأنسٍ: أكانتِ المصافحةُ في أصحابِ النبي ﷺ؟ قال: نعم. فأقرَّها أنسٌ، ولكن هل تكونُ المصافحةُ في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ حينٍ، فمثلاً لو كَانُوا جُلُوساً أجمعين، ثم بَدَأَ لهم أن يَتَصَافَحُوا فهل لهم ذلك؟
فالجوابُ: لا، بل هي تكونُ عندَ الملاقاةِ.

(١) أما في الصدقةِ فروى البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤) (٥١)، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أُمِّي أَفْطَلَتْ نَفْسَهَا، وَأَظْلَمَهَا لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجرٌ إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم».

وأما في الحجِّ، فروى البخاري (٧٣١٥)، عن ابن عباس أن امرأةً جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أُمِّي نذرت أن تحجَّ فهائت قبل أن تحجَّ أفأحجَّ عنها؟ قال: «نعم حجي عنها...».

وأما في الصومِ، فروى البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧) (١٥٣)، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أن رسولَ الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه».

(٢) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم (١/ ٤٤١).

ثم ها هنا مسألة: هل الإنسان إذا دخل إلى مجلسٍ، فهل يُصافِحُ أهلَ المجلسِ واحدًا واحدًا؟ هذا لا أظنُّه مِنَ السُّنَّةِ، وإن كان بعضُ الناسِ الآنَ يَفْعَلُهُ، فإذا دخل استَقْبَلَ المجلسَ مِن أولِ شخصٍ إلى آخرِ شخصٍ يُصافِحُهُ، فهذا ليس من هديِ النبي ﷺ، وكعبُ بنُ مالكٍ في قصَّتِهِ هذه، جاءَ وجلسَ ولم يُصافِحْ كُلَّ واحدٍ، وإن كان المجلسُ مجلسَ ذكرٍ. وقد يُقالُ: إنه تركَ المصافحةَ؛ لئلا يُشغَلَهُم عن الذكرِ. لكن نقولُ: ما كنا نَعْلَمُ أن الرسولَ ﷺ إذا دخل مجلسًا أمسَكَ بيدِ الناسِ يُصافِحُهُم واحدًا واحدًا، ولا كان الصحابةُ يَفْعَلُونَهُ، كما أنهم لا يُسَلِّمُونَ على كُلِّ واحدٍ واحدٍ، وإنما إذا دخل أحدُ المجلسِ سلَّمَ على الجميعِ، وليس على كُلِّ واحدٍ، فكذلك المصافحةُ.

ثم إنه ذكرَ حديثَ عبدِ الله بنِ هشامٍ قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو أخذ بيدَ عمرَ بنِ الخطابِ. لكن لا نَدْرِي هل هو أخذُ بها؟ يعني: مُمَسِّكٌ بها، أو مصافِحٌ؟ وظاهرُ صنيعِ البخاريَّ أنه مصافِحٌ، لكن هذا يَحْتَاجُ إلى بيَنة.

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو حَبْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٥٥):

ووجهُ إدخالِ هذا الحديثِ في المصافحةِ أن الأخذَ باليدِ يَسْتَلْزِمُ التَّعَايُشَ صَفْحَةَ اليَدِ بِصَفْحَةِ اليَدِ غَالِبًا، ومن ثمَّ أفَرَدَها بترجمةٍ تلي هذه؛ لجوازِ وقوعِ الأخذِ باليدِ من غيرِ حصولِ المصافحةِ. قَالَ ابْنُ عَبْدِ البرِّ: رَوَى ابْنُ وَهْبٍ، عن مالكٍ أنه كرهَ المصافحةَ والمعانقةَ، وذهبَ إلى هذا سُخْنُونُ وَجَمَاعَةٌ، وقد جاءَ عن مالكٍ جَوَازُ المصافحةِ، وهو الذي يَدُلُّ عليه صنيعُهُ في «الموطأ»، وعلى جَوَازِهِ جماعةُ العلماءِ سَلَفًا وَخَلَفًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

وعلى كُلِّ حالٍ: فإن الأخذَ بيدَ عمرَ هنا لا يَفْتَضِي المصافحةَ؛ لأنه من الممكنِ أن يُمَسِّكَ بيدهَ لغرضٍ من الأغراضِ، فقد يأخذُ بيدهِ، وهو يَمْشِي معه، فالظاهرُ -واللهُ أعلمُ- أن النبي ﷺ أَخَذَ بيدهِ يَحْدِثُهُ من أجلِ أن يَنْتَبِهَ، والعادةُ أن الإنسانَ يأخذُ بالكفِّ، ويأخذُ بالذراعِ، فليس هذا الأخذُ من بابِ المصافحةِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٨- بَابُ الْأَخْذِ بِالْيَدَيْنِ. وَصَافِحَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ ابْنَ الْمُبَارَكِ بِدَيْهِ. فِي هَذَا الْأَثَرِ رَدُّ لِقَوْلِ مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ كَرِهَ إِذَا قَابَلَتْ أَحَدًا وَصَافَحَتْهُ أَنْ

تَجْعَلَ يَدَكَ الْيَسْرَى عَلَى ظَهْرِ كَفِّهِ.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ غَيْرُ مَكْرُوهٍ، وَأَنَّ هَذَا زِيَادَةٌ فِي الْإِكْرَامِ وَالْمَحَبَّةِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٦٦٥ - حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سَيْفٌ، قَالَ: سَمِعْتُ مُجَاهِدًا يَقُولُ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ سَخْبَرَةَ أَبُو مَعْمَرٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَفَى بَيْنَ كَفَيْهِ التَّشْهَدَ، كَمَا يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَيْنَا، فَلَمَّا قَبِضَ قَلْنَا: السَّلَامُ؛ يَعْنِي: عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. ^(١)

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٥٦، ٥٧):

هَكَذَا جَاءَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى حَدِيثِ التَّشْهَدِ هَذَا فِي أَوَاخِرِ صِفَةِ الصَّلَاةِ قُبَيْلَ كِتَابِ الْجُمُعَةِ مِنْ رِوَايَةِ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَلَيْسَتْ فِيهِ هَذِهِ الزِّيَادَةُ، وَتَقَدَّمَ شَرْحُهُ مُسْتَوْفًى.

وَأَمَّا هَذِهِ الزِّيَادَةُ فَظَاهِرُهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ. بِكَافِ الْخِطَابِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ تَرَكَوا الْخِطَابَ، وَذَكَرُوهُ بِلَفْظِ الْغَيْبَةِ، فَصَارُوا يَقُولُونَ: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي آخِرِهِ: يَعْنِي: عَلَى النَّبِيِّ. فَالْقَائِلُ «يَعْنِي» هُوَ الْبُخَارِيُّ، وَإِلَّا فَقَدْ أَخْرَجَهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «مُسْنَدِهِ» وَ«مُصَنَّفِهِ»، عَنْ أَبِي نُعَيْمٍ شَيْخِ الْبُخَارِيِّ فِيهِ فَقَالَ فِي آخِرِهِ: فَلَمَّا قَبِضَ ﷺ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى النَّبِيِّ. وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ وَأَبُو نُعَيْمٍ، مِنْ طَرِيقِ أَبِي بَكْرِ، وَقَدْ أَشْبَعْتُ الْقَوْلَ فِي هَذَا عِنْدَ شَرْحِ الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ.

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: الْأَخْذُ بِالْيَدِ هُوَ مِبَالِغَةٌ الْمَصَافِحَةِ، وَذَلِكَ مُسْتَحَبٌّ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي تَقْيِيلِ الْيَدِ: فَأَنْكَرَهُ مَالِكٌ وَأَنْكَرَ مَا رُويَ فِيهِ، وَأَجَازَهُ آخَرُونَ، وَاحْتَجُّوا بِمَا رُويَ عَنْ عَمْرِو أَنَّهُمْ لَمَّا رَجَعُوا مِنَ الْغَزْوِ حَيْثُ فَرُّوا قَالُوا: نَحْنُ الْفَرَّارُونَ. قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ الْعَكَارُونَ،

أنا فئة المؤمنين. قال: فقبّلنا يده.

قال: وقبّل أبو لُبَابَةَ وكعبُ بنُ مالكٍ وصاحِباهِ يدَ النَّبِيِّ ﷺ حينَ تَابَ اللهُ عليهم. ذكره الأَبْهَرِيُّ.

وقبّل أبو عبيدة يدَ عمرَ حينَ قَدِمَ، وقبّل زيدُ بنُ ثابتٍ يدَا ابنِ عباسٍ حينَ أَخَذَ ابنُ عباسٍ بركابه.

قال الأَبْهَرِيُّ: وإنما كَرِهَهَا مالِكٌ إذا كانت على وجهِ التَّكْبِيرِ والتَّعْظُمِ، وأما إذا كانت على وجهِ القَرَبَةِ إلى اللهِ لدينه أو لعلِّمه أو لشرفه فإن ذلك جائزٌ. اهـ
ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ احْتِمَالَيْنِ:

الأوّل: إذا قَبَّلَهَا على سبيلِ التَّكْبِيرِ والتَّعْظُمِ وهذا باعتبارِ المَقْبَلِ، كما يَفْعَلُ بعضُ النَّاسِ إذا سَلَّمَ النَّاسُ عليه قَدَّمَ يده فهذا لا شَكَّ أَنَّهُ مَذْمُومٌ.

والثاني: أن يَكُونَ على سبيلِ التَّعَبُّدِ للهِ والتَّقَرُّبِ إليه بتَعْظِيمِ ذلكِ الرَّجُلِ. وهذا في النفسِ منه شيءٌ. وهناك احتمالُ ثالثٌ لم يَذْكُرْهُ الْمُؤَلِّفُ: وهو أن يَكُونَ على سبيلِ الاحترامِ والتَّعْظِيمِ لهذا الرَّجُلِ مِنَ الْفَاعِلِ، معَ كَوْنِ الرَّجُلِ الْمُقْبَلِ لا يُبَالِي قَبْلَ أم لم يُقْبَلْ ولا يَهْتَمُّ، بل ربما يَكْرَهُ ذلكَ، فهذا لا بأسَ فيه، ولا شَكَّ فيه أَنَّهُ جَائِزٌ، ولكنَّ الغريبَ أنَ الْمُؤَلِّفَ ما ذَكَرَ هذا الوجْهَ الثالثَ معَ أَنَّهُ هو الأكثرُ.

والفرقُ: أن الثاني يُقْبَلُهُ وَيَتَعَبَّدُ للهِ بذلكَ، والثالثُ يُقْبَلُهُ تَعْظِيمًا واحترامًا لهذا الشَّخْصِ نَفْسِهِ، وقد لا يَشْعُرُ بأنه يَتَقَرَّبُ إلى اللهِ بذلكَ.

❦ قوله: «يَعْنِي». سبقَ لنا أن قُلْنَا في هذه الروايةِ التي ذَكَرَهَا الْمُؤَلِّفُ، أن هذا التفسيرَ ليس مِن عِبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ لكنه كما قالَ ابنُ حجرٍ من البخاريِّ، والبخاريُّ لَعَلَّهُ اعْتَمَدَ على روايةِ الإِسْمَاعِيلِيِّ وغيرِهِ في أَنَّهُ من كلامِ ابنِ مسعودٍ، ولكنه تقدّمَ لنا أن هذا تَفَقُّهُ من عِبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، لكنه ليس بصوابٍ، وبيّنا أن عمرَ بنَ الخطّابِ رضي الله عنه بعد أن كان خليفةً خَطَبَ النَّاسَ، وعَلَّمَهُم التَّشَهُّدَ على المنبرِ، وفيه أَنَّهُ قالَ: السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ^(١). وعمرُ أَفْقَهُ مِن عِبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، وهو قد قالَ هذا بحضرةِ الصَّحَابَةِ ولم يُنْكِرْ ذلكَ أحدٌ.

(١) رواه مالك في «الموطأ» (١/ ١٠٠) (٥٣). وقال الزيلعي في «نصب الراية» (١/ ٤٢٢): وهذا إسناد صحيح.

ثم إن الصحابة رضي الله عنهم حين يَقُولُونَ: السلامُ عليك أيها النبي. لا يَقْصِدُونَ مخاطبةَ النبي ﷺ أبدًا؛ لأنهم لا يَسْمِعُونَهُ بذلك.

وفي الصحابة أيضًا من لم يُصَلِّ وراءه بل كان يُصَلِّي بأطرافِ المدينة، أو يُصَلِّي بمكة، أو يُصَلِّي بالطائف، أو يُصَلِّي في البر، فالمسألة ليست خطابًا حتى نَقُولَ: إن المخاطَب قد تُوَفِّي وزال.

الثالث: أن الرسول ﷺ علَّم عبد الله بن عباس وعلم عبد الله بن مسعود هذا التشهد على وجه الإطلاق، ولم يَقُلْ: ما دُمْتُ حيًّا فإذا مِتُّ فقولوا: السلامُ على النبي. ومعلومٌ أن خطاب الرسول ﷺ صالحٌ للأُمَّة إلى يوم القيامة. وبذلك يَتَبَيَّنُ أن هذا القول قولٌ ضعيفٌ مرجوح، وأن الصواب أن يَقُولَ الإنسان: السلامُ عليك أيها النبي إلى يومنا هذا. بل إلى يوم القيامة. وبقي أن يُقَالَ: كيف يَقُولُ: السلامُ عليك. وهو لا يَسْمَعُ؟

فالجواب: عن هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن مَنْ سَلَّمَ على الرَّسُولِ ﷺ فإن عنده مَنْ يَنْقُلُ سلامه إلى الرسول ﷺ.

ثانيًا: أنه يَحْتَمِلُ أن الرسول ﷺ يَسْمَعُهُ؛ هكذا لأنه إذا كان مَنْ صُنِعَ البَشَرُ ما يَسْمَعُونَ به الكلام من بعيدٍ بلفظه، فما بالك بالملائكة، فربما تَحْمِلُ الملائكةُ الكلامَ على صورته بصوت الإنسان فيَسْمَعُهُ الرسول ﷺ أو يَنْقُلُوهُ، فيَقُولُونَ: فلانٌ يُسَلِّمُ عليك والله أعلم. لكنَّ الأول ليس بغريب، فهذا الهاتفُ الآن تُسَلِّمُ به على مَنْ في أمريكا، وتَقُولُ: السلامُ عليك.

الوجه الثاني: أن نَقُولَ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، في اقتضاء الصراط المستقيم: إنما جاء بصيغة الخطاب لِقُوَّةِ استحضار العبد، وكان الرسول ﷺ أَمَامَهُ يُخَاطِبُهُ ^(١).



ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٩- بَابُ الْمَعَانِفَةِ وَقَوْلِ الرَّجُلِ كَيْفَ أَصْبَحَتْ؟

٦٢٦٦- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا يَشْرُبُ بْنُ شُعَيْبٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَعْبٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَلِيًّا -يَعْنِي ابْنَ أَبِي طَالِبٍ- خَرَجَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ ح. وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَعْبٍ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ، أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي وَجْعِهِ الَّذِي تُوَفِّي فِيهِ فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَبَا حَسَنِ كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: «أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارِتًا». فَأَخَذَ بِيَدِهِ الْعَبَّاسُ، فَقَالَ: أَلَا تَرَاهُ؟ أَنْتَ وَاللَّهِ بَعْدَ الثَّلَاثِ عَبْدُ الْعَصَا، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَيَتَوَفَّى فِي وَجْعِهِ، وَإِنِّي لَأَعْرِفُ فِي وَجْهِهِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْمَوْتَ، فَادْهَبْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلْهُ فِيمَنْ يَكُونُ الْأَمْرُ؟ فَإِنْ كَانَ فِينَا عِلْمُنَا ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِنَا، أَمْرُنَاهُ فَأَوْصَى بِنَا. قَالَ عَلِيٌّ: وَاللَّهِ لَنَنْ سَأَلْنَاهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَمَنْعَتْنَاهَا لَا يُعْطِينَاهَا النَّاسُ أَبَدًا، وَإِنِّي لَا أَسْأَلُهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبَدًا.

هذا الحديث استدلل به المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على قول الإنسان: كَيْفَ أَصْبَحَتْ؟ والواقع أنه لا يُطَابِقُ الترجمة؛ لأنَّ النَّاسَ لَمْ يَسْأَلُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ: كَيْفَ أَصْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ؟ على سبيل التحية، والنَّاسُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: كَيْفَ أَصْبَحَتْ؟ على سبيل التحية، وإنما سَأَلُوا عَلِيًّا للاستخبار عَنِ حَالِ الرَّسُولِ ﷺ، وكيف أَصْبَحَ، هل هو طيبٌ أو اشتدَّ به المرضُ؟ أو ما أشبه ذلك، فالاستدلال بهذا الحديث على الترجمة فيه شيءٌ مِنَ النِّظَرِ؛ لأنَّ هناك فَرْقٌ بَيْنَ أَنْ أَقُولَ: كَيْفَ أَصْبَحَتْ؟ لِإِنْسَانٍ مَرِيضٍ، وَبَيْنَ قَوْلِي: كَيْفَ أَصْبَحَتْ؟ لِإِنْسَانٍ قَابِلَتْنِي، فَالْأَوَّلَى استخبارٌ وليست تحيةً، والثانية تحيةٌ.

ولكن على كُلِّ حَالٍ: لَا بَأْسَ أَنْ تَقُولَ: كَيْفَ أَصْبَحَتْ؟ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمَخَاطَبَاتِ بَيْنَ النَّاسِ الْحِلُّ، إِلَّا مَا قُصِدَ بِهِ التَّعْبُدُ، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، أَمَا مَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ التَّعْبُدُ، فَالْأَصْلُ فِيهِ الْحِلُّ، وَعَلَى هَذَا الْقَاعِدَةُ الْمَعْرُوفَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، قَالَ النَّاطِمُ:

وَالْأَصْلُ فِي الْأَشْيَاءِ حِلٌّ وَائْتَمَعَ عِبَادَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ الشَّارِعِ^(١)

(١) «المنظومة الفقهية» للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، البيت رقم (٢٢).

فلا حاجة إلى أن نقول: ما الدليل على أن هذا جائز؟ بل نقول لمن منع: ما الدليل على أن هذا ممنوع؟ فأنا لا أقصد بذلك التبعّد إلى الله، لكن جرت العادة أن الناس يقولون هذا الكلام فأقول، فإذا قال: مرحباً أهلاً، حيّك الله ويّاك، وأوسع منازلك، وما أشبه ذلك، فلا يقال: هذا حرام، ولا يقال: لا بدّ من دليل على أن الصحابة فعلوه وقالوه؛ لأنّ الأصل الحلّ. وليعلم أن الاتباع معناه: أن تسير على سننهم، وهم عليهم السلام يوجبون عندهم من التوسع ما لا يوجد عند كثير من الذين يدعون الآن أنهم سلفيون، فتجدهم قد ضيقوا كلّ شيء، ويقولون: اتبّ دليل على هذه المسألة المعينة؟ حتى قال بعض الناس: السنة أن تفكّ أزاريرك؛ لأن معاوية بن حيدة رأى النبي صلى الله عليه وآله وقد فكّ أزاره ^(١)؟ والجواب عن هذا أن يقال: إن هذه قضية عين، فقد يحتمل أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك الوقت مُحترّاً، أو في صدره حرارة، ففتح لذلك.

وأما أن أقول في أمر محتمل: هذا عبادة ومشروع؛ فإن كلّ إنسان قد يرّد عليك بكلّ سهولة، ويقول: لماذا تجعل الأزرّة لأجل أن يزرّ، فإذا كان كذلك فمعناه أننا نحمل فتح الرسول صلى الله عليه وآله أزاره في ملاقة معاوية له لسبب، ما هذا السبب؟ الله أعلم. ونحن نقول إذا كان عندك سبب، وكان عندك فيه غم فيك شيء في جسمك افتح ما فيه هذا من باب الراحة.

فأنا أقول: إنه ينبغي لطالب العلم أنه يتبصّر في الأمور تبصّراً كاملاً؛ لأجل أن يُعطِيَ الشريعة حقّها.

إذا نقول: إن قولة: كيف أصبحت؟ سواء قلنا: إن قول الناس لعليّ بن أبي طالب: كيف أصبح النبي صلى الله عليه وآله من هذا الباب أم لم نقل؟، فالأصل فيها الحلّ، وأن هذا لا بأس به، حتّى يقوم دليل على المنع.

وفي هذا الحديث من الفوائد: أنه قد يوجد ما يسمّى بالوراثية، حتى في الأحوال العارضة من مرض أو غيره، ولهذا قال العباس عليه السلام: إني لأعرف في وجوه بني عبد المطلب الموت. وكان هذا شيء خاصّ بهم، يُعرفون بقرب آجالهم إذا بلغوا إلى حدّ معين، فيكون هذا وراثية، وقد يكون هذا وراثية في الإنسان أنه عند مرضه يحصل له حالة معينة تميّزه عن الناس.

فإذا قال قائل: في هذا الحديث إشكال، وهو: حرصُ العباسِ على الخلافة؟

فالجوابُ عن ذلك، أن نقول: إذا دار الأمر بين سوء الظنِّ وحسنِ الظنِّ في صحابيٍّ من الصحابة، فالواجبُ حسنُ الظنِّ، حتَّى في غير الصحابة، ولهذا قال العلماء: يحرمُ ظنُّ السُّوءِ بمسلمٍ ظاهره العدالةُ. فالذي ظاهره العدالةُ، لا يجوزُ أن نُسِّىَ الظنَّ به، فكيف بالصحابة.

فحرصُ العباسِ على هذا - والعلمُ عندَ الله - من أجل أن لا يتنازعَ الناسُ؛ لأن بني هاشمَ معروفون في العربِ أنهم هم أشرفُ العربِ، فخشِيَ إذا خرج الأمرُ من بين أيديهم أن يكونَ هناك اختلافٌ واضطرابٌ وتمزقٌ للكلمة، فرأى أن تكونَ الخلافةُ في بني العباسِ أو بني هاشم، حتَّى لا يحصلَ بذلك تمزقُ الأمة، فهذا هو الذي يُحمَلُ عليه كلامه.

وفي هذا الحديث أيضًا: دليلٌ على بُعدِ نظرِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام وذكاؤه، ولهذا يضربُ به المثلُ في الذكاءِ والفقهِ، حتَّى إن النُّحَويِّينَ قالوا في «لا» النافية للجنسِ: قضيةٌ ولا أبا حسنٍ لها. يعني: هذه قضيةٌ داهيةٌ عظيمةٌ ولا أبا حسنٍ لها، يقصدونَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ فهو معروفٌ بالذكاءِ، فالنُّحَويُّونَ يقولونَ: قضيةٌ ولا أبا حسنٍ لها، والفرضيُّونَ يقولونَ: دخلَ رجلٌ فسألَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ، وهو يخطُبُ فقال: ما تقولُ في بنتينِ وأبوينِ وزوجةٍ؟ فقال: الحمدُ لله الذي يقضي بالحقِّ قطعًا، ويجزي كلَّ نفسٍ بما تسعى، صارُ ثمنُ المرأةِ ثسْعًا. فقال: صارَ ثمنُ المرأةِ ثسْعًا لأن المسألةَ علت من أربعةٍ وعشرين، إلى سبعةٍ وعشرين، فصارَ الثمنُ الذي هو ثلاثةٌ من أربعةٍ وعشرين ثلاثةً من سبعةٍ وعشرين، أي: ثسْعًا.

على كلِّ حالٍ: هذا الحديثُ يدلُّ وغيره على أن الرجلَ ذكيٌّ وعاقِلٌ عليه السلام. قال: لو أن الرسولَ ﷺ منعنا إياها. وهناك احتمالٌ قويٌّ أنه يَمْنَعُها؛ لأنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ يعلمُ أن الرسولَ ﷺ خلفَ أبا بكرٍ في الناسِ في الحجِّ (١)، وخلفه في الصلاة (٢)، وقال: «لو اتَّخَذْتُ من أمتي خليلًا لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ، لا يَبْقَى في المسجدِ بابٌ إلا سُدَّ إلا بابَ أبي بكرٍ» (٣). فكلُّ هذا يدلُّ على أن الرسولَ ﷺ سيُخلفُ أبا بكرٍ عليه السلام، وقال ﷺ أيضًا للمرأة: «إن لم تجدني فأتني

(١) رواه البخاري (٤٦٥٧)، ومسلم (١٣٤٧) (٤٣٥).

(٢) رواه البخاري (٦٧٨، ٦٧٩)، ومسلم (٤١٨) (٩٠).

(٣) رواه البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢) (٢).

أبا بكر^(١). وقال ﷺ: «يأبى الله ورسوله والمؤمنون إلا أبا بكر^(٢)» وأشياء كثيرة تدلُّ على أن أبا بكر الخليفة، فخاف ﷺ أنه إذا ذهب يطلبُ الخلافةَ منعه الرسول ﷺ فقال: فإذا منعنا فالناس من بعده سوف يتخذون هذا المنع عامًّا شاملًا ثم لا ترجع إلينا، ولهذا قال: والله لئن سألتها رسول الله ﷺ فمَنَعَنَاهَا أو فَيَمْنَعُنَا^(٣) لا يُعْطِيَنَاهَا النَّاسُ أَبَدًا، وإني لا أسألهَا رسول الله ﷺ أَبَدًا. وفي هذا إشارة إلى أن الولاية تكون باتفاق أهل الحل والعقد؛ لأنَّ قوله: لا يُعْطِيَنَاهَا النَّاسُ أَبَدًا. يدلُّ على أنها؛ أي: الخلافة تثبت بإجماع أهل الحل والعقد، وهو كذلك، والخلافة تثبت بأموٍر متعددة منها: النص، ومنها الإجماع، ومنها الغلبة، فإذا نصَّ الخليفة السابق على أن الخليفة من بعده فلانٌ تعيّن، وحرّم الخروج عليه، ووجب على الناس اتخاذه خليفة.

وإذا أجمع أهل الحل والعقد عليه، فكذلك يجب أن يكون هو الخليفة ولا معارض له.

الثالث: الغلبة والقهر، مثل ما حصل في صدر هذه الأمة حينما قُتل عبد الله بن الزبير ﷺ، واستولى عبد الملك على الحجاز وغيره ودان الناس له^(٤). فهنا يجب السمع والطاعة لهذا الخليفة الذي غلب.

فإن قال قائل: هل يجوز للإنسان إذا رأى من نفسه الكفاءة، وخاف أن يتولى الإمارة من لا خير فيه، هل ينبغي له أن يلمح، أو يقال: يخشى أن يكون ممن إذا سألهَا وكل إليها؛ لأن الرسول ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها»^(٥).

الجواب: هذه المسألة تحتاج إلى نظر في القضية المعينة، أحيانًا تعرف أن الناس يبايعون رجلًا لا خير فيه يحملهم على الشر والمعاصي، فهنا قد يتعين عليك أن تطلب الإمارة، لكن لا تصرح، وتقول: أريد أن أكون أنا الأمير، ولكن توصي جماعة من الناس أن يطلبوا الإمارة لك،

(١) رواه البخاري (٣٦٥٩)، ومسلم (٢٣٨٦) (١٠).

(٢) رواه مسلم (٢٣٨٧) (١١).

(٣) انظر: طبعة الشعب (٣ / ٧٤).

(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٢٤٧)، و«البداية والنهاية» (٨ / ٢٦٠).

(٥) أخرجه البخاري (٧١٤٦)، ومسلم (١٦٥٢).

فهذا خير من أن تترك من لا خير فيه أن يتولى الإمارة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٠- بَابُ مَنْ أَجَابَ بِلَيْكَ وَسَعْدَيْكَ.

٦٢٦٧- حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا هَمَامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ
مَعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعَاذُ». قُلْتُ: لَيْكَ وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ قَالَ مِثْلَهُ
ثَلَاثًا: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟». قُلْتُ: لَا. قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا
يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، فَقَالَ: «يَا مَعَاذُ». قُلْتُ: لَيْكَ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا
حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»^(١).

حَدَّثَنَا هُدَيْبٌ، حَدَّثَنَا هَمَامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ مَعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَذَا.

هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ: دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ إِرْدَافِ الْإِنْسَانِ عَلَى الدَّابَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَدَفَ مَعَاذَ
بْنَ جَبَلٍ، وَلَكِنْ بَشْرٌ أَلَا يَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيْهَا، فَإِنْ شَقَّ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ ظَلَمٌ لَهَا
وَعُدْوَانٌ عَلَيْهَا.

وَفِيهِ: عَرَضُ الْمَسْأَلَةِ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ لِيَخْتَبِرَهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَضَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ عَلَى
مَعَاذِ بَنِ جَبَلٍ، لِيَخْتَبِرَهُ هَلْ يَفْهَمُ أَمْ لَا؟

وَفِيهِ أَيْضًا: دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْإِجَابَةِ بِلَيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَمَعْنَى لَيْكَ؛ أَي: إِجَابَةٌ بَعْدَ إِجَابَةٍ،
وَسَعْدَيْكَ؛ أَي: إِسْعَادًا بَعْدَ إِسْعَادٍ؛ فَكَأَنَّكَ تَقُولُ: أَنَا أُجِيبُكَ وَأَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ السَّعَادَةَ.

وَفِيهِ: دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ حَقِّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَحَقِّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ، أَمَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ،
فَلَا إِشْكَالَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَمَدَّهُمْ وَرَزَقَهُمْ، فَلَا جَرَمَ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَقٌّ عَلَيْهِمْ،
لَكِنْ هَلِ الْمَخْلُوقُ يُوجِبُ عَلَى الْخَالِقِ شَيْئًا؟

الْجَوَابُ: لَا. وَلَكِنَّ الْخَالِقَ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَكَرَمًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْتُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ١٢]. فَهُوَ ﷻ
هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ:

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ هو أوجبُّ الأجرِ العظيمِ الشانِ
كلا ولا عملٌ لديه ضائعٌ إن كان بالإخلاصِ والإحسانِ^(١)

وفيه أيضاً: دليلٌ على أن التوحيدَ الخالصَ مع العبادة، موجبٌ لانتفاء العذابِ عن العبدِ؛ لقوله: «حقُّ العبادِ على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يُعَذَّبَهم». يَعْنِي: إذا عَبْدُوهُ لا شريكَ له. والعبادةُ هي: التَعَبُّدُ لِلَّهِ وَعَلَى بَشَرِهِ فعلاً للمأمورِ، وتركاً للمحظورِ، وتصديقاً بالخبرِ. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ آتَى وَالْفَقْرَ ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾ [التِّلْكَ: ٥-٧]. فقوله: ﴿أَعْطَى﴾. أي: فَعَلَ ما أَمَرَ به، وقوله: ﴿وَأَتَقَى﴾. أي: اتَّقَى ما نَهَى عنه، وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾، أي: الخبرِ.

فإذا قال قائلٌ: قال العلماءُ: إن فاعَلَ الكبيرةَ تحتَ المشيئةِ إن شاء الله عَذَّبَهُ وإن شاء رَحِمَهُ، والحديثُ فيه أن مَنْ عبدَ الله كان حقاً على الله ألا يعَذَّبَهُ فكيف الجمعُ؟ **الجوابُ أن يقال:** الحديثُ فيه: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً». وفاعلُ الكبيرةِ ما عبدَ الله؛ لأنه عَصَى الله تعالى بكبيرته، فهذا شرطٌ ثَقِيلٌ ليس بالأمرِ الهينِ؛ أن يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٢٦٨ - حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَهَبٍ، حَدَّثَنَا وَالله - أَبُو ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ عِشَاءً اسْتَقْبَلْنَا أَحَدٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أَحْبَبَ أَنْ أُحَدِّثَ لِي ذَهَبًا يَأْتِي عَلَيَّ لَيْلَةً أَوْ ثَلَاثَ عِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا أَرَصُدُهُ لِدَيْنٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا. - وَأَرَانَا بِيَدِهِ - ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ قُلْتُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الْأَكْثَرُونَ هُمْ الْأَقْلُونَ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا». ثُمَّ قَالَ لِي: «مَكَانَكَ لَا تَبْرَحَ يَا أَبَا ذَرٍّ حَتَّى أَرْجِعَ»، فَاِنْطَلَقَ حَتَّى غَابَ عَنِّي، فَسَمِعْتُ صَوْتًا فَخَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَرِضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَذْهَبَ، ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ

(١) «شرح قصيدة ابن القيم» (٢/ ٢٣٠).

رسول الله ﷺ: لا تَبْرَحْ. فَمَكَّنْتُ، قُلْتُ: يا رسول الله سمعتُ صوتًا خَشِيبٌ أن يَكُونَ عُرِضَ لك، ثم ذَكَرْتُ قولَكَ فَقُمْتُ. فقال النبي ﷺ: «ذاك جبريلُ أتاني فأخبرني أنه مَن مَاتَ مِن أمتي لا يُشْرِكُ بالله شيئًا دَخَلَ الجنةَ». قُلْتُ: يا رسول الله، وإن زَنَى وإن سَرَقَ؟ قال: «وإن زَنَى وإن سَرَقَ».

قُلْتُ لزيد^(١): إنه بَلَغَنِي أنه أبو الدرداءُ. فقال: أَشْهَدُ لِحَدَّثَنِيهِ أَبُو ذَرٍّ بِالرَّبْدَةِ^(٢).

قال الأعمشُ: وَحَدَّثَنِي أَبُو صَالِحٍ، عَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ نَحْوَهُ.

وقال أبو شهابٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ: يَمُكُّ عِنْدِي فَوْقَ ثَلَاثٍ^(٣).

هذا الحديثُ أيضًا فيه: الإجابةُ بَلَيْكَ وَسَعْدِيكَ، وفي الحديثِ أيضًا فوائدُ منها:

أنه يَجُوزُ الإقسامُ على الشيءِ دونَ أن يُسْتَقْسَمَ للتأكيد؛ لقولِ ابنِ وهبٍ: حَدَّثَنَا -والله- أبو ذَرٍّ. وأكَّدَ هذا أيضًا بقوله: بِالرَّبْدَةِ. فأقسَمَ وذكرَ المكانَ إِزَالَةً لِلشُّبْهَةِ التي أشارَ إليها في آخرِ الحديثِ، وهي أن المحدثَ بذلك أبو الدرداءِ، مع أن أبا الدرداءِ قد رَوَى نَحْوَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(٤).

وفي هذا الحديثِ أيضًا: دليلٌ على جوازِ المشي ليلاً؛ لأن أبا ذَرٍّ مَشِيَ هو والنبيُّ ﷺ عِشَاءً، ولكن ما حاجتُهما؟ نَقُولُ: اللهُ أَعْلَمُ، فيَحْتَمَلُ أنها فَعَلًا كما يَفْعَلُ بعضُ الناسِ في أيامِ الصيفِ مِنَ الخروجِ إلى خارجِ البلدِ للتبرِدِ والتَمَشِّي، وقد كَانَ الناسُ يَفْعَلُونَهُ مِن قَبْلُ، أما الآنَ فَقَدْ انشَغَلَ أَكْثَرُ الناسِ بِالْبُيُوتِ.

وفيه أيضًا: دليلٌ على خَطَرِ الهالِ، وهذا الخطرُ يَكْمُنُ فيها إذا كَتَرَهُ الإنسانُ، أما إذا أَنْفَقَهُ ها هنا وها هنا في مَرْضَاةِ اللهِ ﷻ، فَنِعَمَ الهالُ الصالحُ عِنْدَ الرَّجُلِ الصالحِ.

وفي الحديثِ: دليلٌ على حُسْنِ امْتِثَالِ الصَّحَابَةِ ﷺ الْأَمْرِ، وعدمِ تَسَرُّعِهِمْ، وإلا فإِن مُقْتَضَى الحالِ أن يُسَارِعَ أبو ذَرٍّ لِإِنْقَاذِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ ذَهَبَ عَنْهُ لَيْلًا، وَسَمِعَ صَوْتًا، وَخَافَ

(١) قال الحافظ في «الفتح» (٦١ / ١١): القائل هو الأعمش، وهو موصول بالإسناد المذكور. اهـ

(٢) الرَّبْدَةُ: بفتح أوله وثانيه وبالدال المعجمة، هي التي جعلها عمر رضي الله عنه حتى لإبل الصدقة انظر: «معجم ما استعجم» (٢ / ٦٣٣).

(٣) قال الحافظ ابن حجر رحمته الله في «التغليق» (٥ / ١٣٠): حديث أبي شهاب أسنده المؤلف في «الاستقراض» (٢٣٨٨)، وسيأتي الكلام على حديث أبي صالح في «الرقاق».

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (٦ / ٤٤٢) (٢٧٥٦١)، وإسناده ضعيف؛ لأن فيه ابن لهيعة، ولانقطاعه بين راويه وإهاب بن عبد الله - وهو المعافري - وأبي الدرداء.

على النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ مقصودٌ، ففي المدينة مُتَافِقُونَ أَعْدَاءُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِالْإِظْهَارِ، لكن لحسن امتثالهم لأمر الرسول ﷺ لم يَبْرَحْ مكانه وبقي.
وفيه: دليلٌ على مدح الثبات وعدم التسرع، وأن يَنْظُرَ الإنسانُ إلى العواقبِ والغاياتِ لا إلى البداياتِ، وإلا فلو فَرَضَ أن الرسول ﷺ عَرِضَ له عَارِضٌ فهل يُقَالُ: إن أبا ذَرٍّ ملومٌ على عدم فزعِهِ أو لا؟

نقولُ: لا؛ لأنه يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا فِي أُمُورِهِ، غيرَ متسرعٍ.

وفيه أيضًا: دليلٌ على فضيلةِ التوحيدِ وحسنِ عاقبتهِ، وهو أن مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّةِ الرسولِ ﷺ لا يشركُ باللهُ شيئًا دخلَ الجنةَ.

وهذا الحديثُ: مقيدٌ بكونه يَعْبُدُ اللَّهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شيئًا، فإن شئتَ فقل: إنه مطلقٌ محمولٌ على المقيدِ. وإن شئتَ فقل: إن نفيَ الشركِ يَدُلُّ على أصلِ العملِ؛ لأنه لو لم يَكُنْ عملًا لكانَ عَدَمًا، والعَدَمُ ليس بشيءٍ حتى يُقَالَ: إنه أَشْرَكَ فِيهِ أَمْ لم يُشْرِكْ. ولْيُتَبَّهْ لهذه النكتة؛ لأن كثيرًا مِنَ الناسِ، يَظُنُّ أنه يَدْخُلُ الجنةَ ولو لم يَعْمَلْ شيئًا، وهذا خطأٌ عظيمٌ في الفهم؛ لأننا نَقُولُ: الجوابُ عن هذا الحديثِ يَكُونُ مِنْ أَحَدٍ وَجْهينِ:
الأولُ: إما أن يُحْمَلَ على المقيدِ، وهو حديثُ معاذِ بنِ جبلٍ: «حَقُّ الْعِبَادَةِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذَّبَ مَنْ يَعْبُدُهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(١).

وإما أن يُقَالَ: أنه لا حاجةَ إلى الحَمَلِ؛ لأن هذا الحديثَ يَتَضَمَّنُ الْعَمَلَ، وَفَهْمُنَا هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: «لا يُشْرِكُ»؛ لأنه لو لا أن هناكَ عملًا، ما صَحَّ أَنْ يُقَالَ: «لا يُشْرِكُ»؛ لأن عَدَمَ الْعَمَلِ عَدَمٌ، والعَدَمُ ليس بشيءٍ، حتى يُشْرِكَ بِهِ أو لا يُشْرِكْ، وحينئذٍ يَكُونُ هَذَا الْحَدِيثُ دَالًّا عَلَى أَنَّهُ هُنَاكَ عَمَلٌ، لكن بدونِ إشارَةٍ.

ثم إن قَوْلَهُ ﷺ: «دَخَلَ الْجَنَّةَ». لا يَمْنَعُ مَنْ أَنْ يُعَذَّبَ بِقَدْرِ ذَنْبِهِ إِنْ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْعَذَابِ؛ لأن مَنْ مَالَهُ الْجَنَّةُ قَدْ يُعَذَّبُ قَبْلَ الدَّخُولِ، وعلى هذا فلو كان هناكَ صاحبٌ كبائرٍ ولم يُحْدِثْ سَبَبًا يَقْتَضِي الْعَفْوَ عَنْهَا، لدَخَلَ النَّارَ بها ثم خَرَجَ مِنْهَا، كما هو مذهبُ أَهْلِ السُّنَّةِ

والجماعة، ودَخَلَ الجنة^(١).

وفيه: دليلٌ على زهدِ النبي ﷺ في الدنيا، وأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس جماعاً للمال، بل إنه كان يَبِيتُ طاوياً، وَيُعْطِي عطاءً مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ^(٢) صلواتُ الله وسلامُهُ عليه، فليس هو من الذين يُرِيدُونَ الْمَالَ، وإنما يُريدُ أَنْ يَنْفَعَ الْأُمَّةَ بِهِ.

وفيه: ردٌّ على النَّصَارَى عليهم لعنةُ الله إلى يومِ الْقِيَامَةِ، الذين يَقُولُونَ: إنَّ مُحَمَّدًا يُريدُ الْمُلْكَ وأنه رجلٌ شَهْوَانيُّ لَا يُريدُ إِلَّا النِّسَاءَ. فنَقُولُ لَهُمْ: قَاتَلَكُمْ اللَّهُ وَأَعْمَى أَبْصَارَكُمْ، لو كان شَهْوَانيًّا لكان يَتَزَوَّجُ الْأَبْكَارَ الْحِسانَ، وما الذي يَمْنَعُهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْأَبْكَارَ الْحِسانَ، وَأَصْحَابَهُ لو أمرهم أَنْ يَجْزُوا رؤوسَهُمْ عن رِقابِهِمْ لَفَعَلُوا؟ ما الذي يَمْنَعُهُ، وكلُّ فَتاةٍ وكلُّ إِنْسَانٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ بَنَاتِهِ؟! ولكنه لم يَأْخُذْ هَؤُلَاءِ، بل أَخَذَ النِّسَاءَ اللَّاتِي قَدْ تَزَوَّجْنَ، ولم يَتَزَوَّجْ بَكَراً إِلَّا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ مِنْ أَجْلِ الصَّلَةِ بِأَيِّهَا أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد تَزَوَّجَ ﷺ النِّسَاءَ أَيْضًا لِيَكُونَ لَهُ فِي كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ صَلَةٌ؛ لَأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الْمَصَاهِرَةَ أَحَدُ أَسْبَابِ الصَّلَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ، كما قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٥٤]. فكان يَنْتَقِي عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ صَلَةً بِوَاسِطَةِ النِّكَاحِ، وأحياناً يَتَزَوَّجُ مِنْ أَجْلِ جَبْرِ الْقَلْبِ، فَصَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كانَ أَبُوها سَيِّدَ بَنِي النُّضَيْرِ، وَأَخَذَتْ سَبِيًّا مَعَ السَّبْيِ، وما ظَنُّكُمْ بِامْرَأَةٍ تَكُونُ بِنْتًا لِسَيِّدِ قَبِيلَةٍ ثُمَّ تَكُونُ سَبِيًّا تُبَاعُ وَتُشْتَرَى، لَا شَكَّ يَنْكَسِرُ قَلْبُهَا، فَجَبَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ^(٣)، وهي مَعَ ذَلِكَ كانت ظَرِيفَةً لَا شَكَّ، وَعَلَى شَيْءٍ

(١) سئل الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: قَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَخْرِجُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ ما عَمِلُوا خَيْرًا قَطُّ، أَلَيْسَ هَذَا فِيهِ إِشْكَالٌ، وَهُوَ أَنَّهُمْ كَيْفَ يُسَمُّونَ مُسْلِمِينَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ما عَمِلُوا خَيْرًا قَطُّ؟
فَأَجَابَ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: نَعَمْ، هُمْ مُسْلِمُونَ، لَكِنْهُمْ ما عَمِلُوا خَيْرًا قَطُّ إِمَّا لِعَدَمِ عِلْمِهِم بِالْإِسْلَامِ، وَإِمَّا لِكُونِهِمْ ما تَوَارَوا قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ كُنُوفُهُ مِنَ الْعَمَلِ، وَإِمَّا لِكُونِهِمْ لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ مِمَّا لَا يَخْرِجُ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا ما يَخْرِجُ مِنَ الْإِسْلَامِ تَرْكُهُ كَالصَّلَاةِ مِثْلًا فَهَذَا فِيهِ دَلِيلٌ خَاصٌّ فَيَقْضِي عَلَى هَذَا الْعَامِ.

(٢) رَوَى الْبَخَارِيُّ (٤١٠١)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفَرُ، فَعَرَضَتْ كُذْبِيَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَاءَ وَالنَّبِيُّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُذْبِيَّةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ، فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ» ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا... الْحَدِيثُ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ (٢٣١٢) (٥٧)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ما سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَجَعَلَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلَمُوا؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ.

(٣) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ فِي النِّكَاحِ.

مِنَ الْجَمَالِ، لَكِنْ كَانَ أَهْمُ شَيْءٍ، هُوَ أَنْ يَجْبُرَ مَا حَصَلَ لَهَا مِنْ كَسْرِ الْقَلْبِ بِاسْتِرْقَاقِهَا، وَهِيَ بِنْتُ سَيِّدِ بَنِي النَّضِيرِ.

فَهَلْ يُقَالُ: إِنْ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ رَجُلًا شَهَوَانِيًّا يُرِيدُ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِالنِّسَاءِ؟
كَلَّا وَاللَّهِ أَبَدًا، لَكِنَّ النَّصَارَى عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا أَنْ يُشَوِّهُوا
الْحَقَائِقَ، كَمَا شَوَّهُوا الْحَقِيقَةَ فِي عِيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَالُوا: إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، وَإِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَعِيْسَى
نَفْسُهُ يَقُولُ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْرَقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) [الطحاوي: ١١٧].



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣١- بَابُ لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ.

٦٢٦٩- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ
النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ» ^(١).

❦ قَوْلُهُ ﷺ: «يَجْلِسُ». يَجُوزُ فِيهِ الْفَتْحُ وَالرَّفْعُ؛ يَعْنِي: «ثُمَّ هُوَ يَجْلِسُ». عَلَى
الِاسْتِثْنَاءِ، أَوْ: «ثُمَّ يَجْلِسُ» ^(٢) عَلَى أَنَّهَا بِمَعْنَى وَائِ الْمَعْيَةِ، يَعْنِي: لَا يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، فَهَذَا
أَشَدُّ، وَلَكِنْ عَلَى رَوَايَةِ الرِّفْعِ يَكُونُ النِّهْيُ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ بَانْفِرَادِهِ؛ يَعْنِي: لَا يُقِيمُ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ
مُطْلَقًا سِوَاءَ جَلَسَ أَوْ لَمْ يَجْلِسْ، وَلَا يَجْلِسُ فِي مَكَانٍ غَيْرِهِ.

وَهُنَا مَسْأَلَةٌ يَسْأَلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَيَقُولُ: أَنَا إِذَا جِئْتُ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَجَدْتُ
نِصْفَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ كُلَّهُ مُحَمَّيًّا، فَأَجِدُ فِيهِ عَصَا، أَوْ مِندِيلًا، أَوْ كُرْسِيًّا، أَوْ مَصْحَفًا، أَوْ
مِسْوَاكًا، أَوْ مِفْتَاحًا، فَهَلْ أُزِيلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ؟

نَقُولُ: نَعَمْ أُزِيلُهَا، مَا لَمْ أَخْشَ فِتْنَةً، فَإِنْ خَشِيتُ فِتْنَةَ بَنِي وَبَيْنَ وَاضِعِهَا، أَوْ عِدَاوَةً، أَوْ
بَغْضَاءً، أَوْ مُسَابَهَةً، فَتَرُكُ الشَّرَّ أَوَّلَى مِنْ جَلْبِ النِّفْعِ، وَأَنَا إِذَا عَلِمَ اللَّهُ مِنْ نِيَّتِي أَنِّي أُرِيدُ الصَّفَّ
الْأَوَّلَ، وَلَكِنْ مَنَعَنِي مِنْهُ خَوْفُ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَكْتُبُ لِي الْأَجْرَ، هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ دَخَلَ

(١) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٧٧) (٢٧).

(٢) وَمِنْهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (٢٣٩)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَبُولُنْ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ
الَّذِي لَا يَجْرِي ثُمَّ يَفْتَسِلُ فِيهِ». عَلَى رَوَايَةِ النَّصَبِ.

وَوَجَدَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ.

أما بالنسبة لمن وُضِعَها، فقد مرَّ علينا مراتٍ كثيرةً بأن وُضِعَها حرامٌ، وأنه لا عبرةً بمن قال من أهل العلم: إن وُضِعَها حلالٌ، فإن هذا القول ضعيفٌ جدًّا، إلا أننا استثنينا: ما إذا كان الرجلُ في المسجد، ولكنه وُضِعَ هذا في مكانه في الصفِّ الأول، وذهب إلى مكانٍ بعيدٍ لِيَتِمَّكَنَ مِنَ الْقِرَاءَةِ، أو مِنَ الْحِفْظِ، أو مِنْ مَرَاجَعَةِ شَيْءٍ مِنَ الْمَسَائِلِ، أو أُرِدَتْ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْمِرْحَاضِ، أو عَطِشَتْ فَخَرَجَتْ لِتَشْرَبَ؛ يَعْنِي: لغرضٍ، لكن اشترطنا في هذه المسألة ألا يَتَخَطَّى الرَّقَابَ؛ يَعْنِي: أنه يُلَاحِظُ وَيُرَاقِبُ مكانه، فإذا وَجَدَ الصفَّ الثاني مثلاً قد بَلَغَهُ، فإنه يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ وَلَا يَتَأَخَّرُ.

وهذه مسألةٌ يَجِبُ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهَا النَّاسُ عَامَّةً، وطلبة العلم خاصةً؛ وألا يَقْعُوا فِيهَا؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ فِي عَيْنَيْنِ، فَإِنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى طَلِبَةِ الْعِلْمِ فِي أَرْبَعَةِ عِيُونٍ. بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَذْكُرَ مَسْأَلَةً وَهِيَ: مسألة الإيثارِ بِالْقُرْبِ، فالإيثارُ بما لَيْسَ بِقُرْبَةٍ خَصْلَةٌ مَحْمُودَةٌ، اِمْتَدَحَ اللَّهُ بِهَا الْأَنْصَارَ، فَقَالَ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الْمُنَافِقَةُ: ٩]. أما الإيثارُ بِالْقُرْبِ غَيْرِ الْوَاجِبَةِ، فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنه محمودٌ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إنه مكروهٌ.

والمشهورُ مِنْ مَذْهَبِ الْحَنَابِلَةِ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ، فَيُكْرَهُ إِذَا رَأَيْتَ إِنْسَانًا وَأَنْتَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ أَنْ تَتَأَخَّرَ، وَتَقُولَ لَهُ: تَفَضَّلْ هُنَا، وَعَلَّلُوا ذَلِكَ بِأَنَّ الْإِيثَارَ بِالْقُرْبِ عِنْدَ رَغْبَةِ الْإِنْسَانِ عَنْهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٤٨]. فَكَيْفَ تُؤْثِرُهُ وَأَنْتَ مَأْمُورٌ بِالسَّابِقَةِ وَالْمَسَارَعَةِ.

وَالصَّحِيحُ: أَنْ فِي ذَلِكَ تَفْصِيلٌ: فَإِذَا رَأَى أَنَّهُ مِنَ الْمَصْلُحَةِ أَنْ يُؤْثِرَ غَيْرَهُ بِمَكَانِهِ الْفَاضِلِ، فَإِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ تَرْكَ الْمُنْدُوبِ لَا يَسْتَلْزِمُ الْمَكْرُوهَ، هَذِهِ هِيَ الْقَاعِدَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَرَكَ الْمُنْدُوبَ، فَهَلْ نَقُولُ: إِنَّكَ فَعَلْتَ مَكْرُوهًا؟ **فَالْجَوَابُ:** لَا، بَلْ يُقَالُ لَهُ: قَدْ تَرَكَتَ فَضْلًا، لَكِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَكْرُوهًا.

فَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَصْلُحَةِ أَنْ يُؤْثِرَ غَيْرَهُ بِذَلِكَ، فَلَا بَأْسَ، مِثْلَ لَوْ أَنَّ وَالِدَكَ جَاءَ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تُكْرِمَهُ بِمَكَانِكَ، وَأَنْكَ لَوْ لَمْ تَتَأَخَّرَ عَنْ مَكَانِكَ الْفَاضِلِ، وَتُؤْثِرَهُ بِهِ، لَصَارَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ، فَهَذَا نَقُولُ فِيهِ: الْأَفْضَلُ الْإِيثَارُ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْبِرِّ، وَغَايَةُ مَا هُنَاكَ أَنَّكَ

تَنَزَّلَتْ عَنْ فِعْلٍ مُسْتَحِبٍّ، لَهَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ.

كَذَلِكَ لَوْ فُرِضَ أَنْ جَاءَ وَلِيُّ أَمِيرٍ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ لَوْ لَمْ تُؤْثِرْهُ لِفَاتَكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ مِمَّا تُرِيدُ مِنْهُ، وَلَوْ أَثَرَتْهُ لِحَصَلَ لَكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ؛ لِأَنَّ النَّاسَ نَفُوسُهُمْ تَخْتَلِفُ، فَبَعْضُ النَّاسِ إِذَا أَثَرَتْهُ بِالْمَكَانِ رَأَى هَذَا شَيْئًا كَبِيرًا، وَنَلَتْ مِنْهُ مَا تُرِيدُ، وَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ، رَأَى هَذَا شَيْئًا كَبِيرًا، وَأَنَّكَ مُحْتَقِرٌ لَهُ، وَفَاتَكَ: شَيْءٌ كَثِيرٌ مِمَّا تُرِيدُ مِنَ الْمَصَالِحِ، فَهَذَا الْإِثَارُ أَفْضَلُ.

القسم الثالث: الْإِثَارُ بِالْوَاجِبِ، وَالْإِثَارُ بِالْوَاجِبِ حَرَامٌ، مِثَالُ ذَلِكَ: رَجُلٌ مَعَهُ مَاءٌ قَلِيلٌ إِنْ تَوَضَّأَ بِهِ لَمْ يَتَسَبَّحْ لَزْمِيْلَهُ، وَإِنْ تَوَضَّأَ زَمِيْلُهُ لَمْ يَتَسَبَّحْ لَهُ، فَهَلْ يُؤْثِرُهُ بِهِ وَيَتَيَمَّمُ؟ **فالجواب:** لَا. بَلْ يَجِبُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ هُوَ، وَلَا يَتَيَمَّمُ، وَزَمِيْلُهُ يَتَيَمَّمُ.



ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٢- بَابُ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا﴾ [الْمائدة: ١١].

❖ قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. تَفَسَّحُوا؛ يَعْنِي: اجْعَلُوا فَسْحَةً وَمَتَسَّعًا، وَ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. يَعْنِي: يُوسِعُ الْمَجَالِسَ الَّتِي تَفَسَّحْتُمْ فِيهَا، فَإِذَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ هَذَا الْمَكَانَ لَا يَأْخُذُ هَذَا الدَّخْلَ وَتَفَسَّحْتُمْ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُهُ وَلَا يَكُونُ هُنَاكَ ضَيْقٌ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِ﴿يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾. مَا هُوَ أَعْمُ؛ يَعْنِي: يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ، فِي صُدُورِكُمْ، وَفِي أَمْوَالِكُمْ، وَفِي أَوْلَادِكُمْ، وَيَكُونُ الْجَزَاءُ أَكْثَرَ مِنَ الْعَمَلِ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [الأنعام: ٢٠].

❖ قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَانْشُرُوا﴾. يَعْنِي: ارْتَفِعُوا وَقُومُوا، سِوَاءُ قَالِ لَكَ: قُمْ وَاخْرُجْ مِنَ الْبَيْتِ. أَوْ قَالِ لَكَ: قُمْ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ؛ لِأَنَّ مِنَ الْأَدَبِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي حُكْمِ الْمُضَيِّفِ، وَعِنْدَ الْعَامَةِ مِثْلُ صَحِيحٍ، وَهُوَ: الضَّيْفُ فِي حُكْمِ الْمُضَيِّفِ. فَإِذَا

(١) قَالَ فِي حِجَةِ الْقِرَاءَاتِ: (١ / ٧٠٤): قَرَأَ عَاصِمٌ ﴿فِي الْمَجَالِسِ﴾ بِالْأَلْفِ، جَعَلَهُ عَامًّا أَيَّ: إِذَا قِيلَ بِكُمْ تَوَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ، أَيَّ: مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ وَالْعِلْمِ، فَتَفَسَّحُوا. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (فِي الْمَجْلِسِ) عَلَى التَّوْحِيدِ، أَيَّ: فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً. اهـ. وَانْظُرْ: «كِتَابُ السَّبْعَةِ فِي الْقِرَاءَاتِ» (١ / ٦٢٨-٦٢٩).

قال لك المضيف: قُم عن هذا المكان، واجلس في غيره. فلا تأنف ولتقم. وبعض الناس قيل له: قُم عن هذا المكان واذهب إلى غيره. فخرج من البيت كله، وقال: هذا طرد. فنقول له: لا يا أخي، هذا ليس بطرد، بل قد يكون من تنظيم المجلس، فقد تكون صغيراً، وجاء من هو أحق بهذا المكان منك، ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا﴾، إذا قيل لك: انشُر عن البيت كله. فاخرج عن البيت كله.

وكذلك إذا قيل لك عند قرعك للباب: ارجع. فارجع؛ لأن الله قال: ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [التوبة: ٢٨]. ففي هذا الرجوع زكاة له، ورفعة ونمو.

فالحاصل: أن الآداب الإسلامية تجعل الإنسان دائماً في سرور؛ لأنه إذا قيل له: ارجع، أو: قم. فلا شك أنه سيحزن، ولكن إذا رجع وقام ممثلاً لأمر الله، ومحتسباً للأجر، فلا شك أن هذا الاكتئاب سوف ينقلب سروراً وانسراحاً.



ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٢٧٠ - حَدَّثَنَا خَلَادُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا سَقِيَانُ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُقَامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ وَيَجْلِسَ فِيهِ آخَرُ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا. وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يُجْلِسَ مَكَانَهُ ^(١).

هذا الحديث لفظه يُغَايِرُ الأول، لكن الأول هو المراد، وهو أن يُقَامَ الرَّجُلُ وَيَجْلِسَ فِي مَكَانِهِ الْمُقِيمِ.

أما لو كان كما قلنا أولاً في مسألة صاحب البيت الذي أقام الصغير؛ لأنه قد أعد هذا المكان للكابر، فهذا لا يَدْخُلُ في الحديث، وإن كان ظاهر اللفظ الثاني يَشْمَلُهُ، لكن اللفظ الثاني يَجِبُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْلفظِ الأول؛ وذلك لأنَّ الحديث واحد، والراوي واحد، وهذا من تصرف الرواة

❦ قوله: «وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل، ويجلس هو في مكانه». وذلك خوفاً منه أن يكون الإنسان قام له حياة وخجلاً، فإذا علمت أنه قام حياة وخجلاً، فلا تقبل، ولهذا

قال أهل العلم: يَحْرُمُ على الرجل أن يَقْبَلَ الهديةَ أو الهبةَ إذا عَلِمَ أن الواهبَ قد وهبها خجلاً وحياءً.

ومن ذلك: لو أنك رأيتَ مع أخيكَ قلماً طيباً، فقلتَ: ما شاءَ اللهُ هذا قلَمٌ طيبٌ، من أين اشتريته؟ أخبرني لكي أشتريه. فقال الرجلُ: هو لك: فهل تَقْبَلُهُ أو لا تَقْبَلُهُ؟
الجواب: لا تَقْبَلُهُ؛ لأنَّه لو كان يُريدُ أن يُهديكَ إياه، لأهداكَ بدونَ أن تقولَ هذا الكلامَ، فهذا لا تَقْبَلُهُ؛ لأنَّكَ تَعْلَمُ أنه إنما وهبك إياه خجلاً.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٣٣- بابٌ مَنْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ أَوْ بَيْتِهِ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ أَصْحَابَهُ، أَوْ تَهَيَّأَ لِلْقِيَامِ لِيَقُومَ النَّاسُ ٦٢٧١- حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُ، عَنْ أَبِي عِثْلٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، دَعَا النَّاسَ طَعِمُوا ثُمَّ جَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ، قَالَ: فَأَخَذَ كَأَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لِلْقِيَامِ، فَلَمْ يَقُومُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَامَ، فَلَمَّا قَامَ، قَامَ مَنْ قَامَ مَعَهُ مِنَ النَّاسِ وَبَقِيَ ثَلَاثَةٌ، وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ لِيَدْخُلَ، فَإِذَا الْقَوْمُ جُلُوسٌ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَامُوا فَانْطَلَقُوا، قَالَ: فَجِئْتُ، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ انْطَلَقُوا، فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ، فَذَهَبْتُ أَدْخُلُ فَأَرَخِي الْحِجَابَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ [الاحزاب: ٥٣].^(١)

المؤلفُ ترجمَ رَحِمَهُ اللهُ لثَلَاثِ مسائلٍ هي: مَنْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ أَوْ بَيْتِهِ، وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ أَصْحَابَهُ، أَوْ تَهَيَّأَ لِلْقِيَامِ لِيَقُومَ النَّاسُ، مَنْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَلَوْ فِي غَيْرِ بَيْتِهِ، أَوْ قَامَ مِنْ بَيْتِهِ؛ يَعْنِي: بَأَن كَانُوا جَالِسِينَ عِنْدَهُ، فَقَامَ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ، أَوْ تَهَيَّأَ لِلْقِيَامِ لِيَقُومَ النَّاسُ، فَهَلْ هَذَا جَائِزٌ أَوْ لَيْسَ بِجَائِزٍ؟

والجواب: أن هذا جائزٌ، فيَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ بِدُونِ اسْتِئْذَانٍ، سِوَاءَ كَانِ فِي بَيْتِهِ، أَوْ فِي غَيْرِ بَيْتِهِ.

وَيَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَتَهَيَّأَ لِلْقِيَامِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ، وَالتَّهَيُّؤُ لِلْقِيَامِ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يُحِبُّ

أن يقوموا، ويجوزُ أن يُشعرَ الحاضرين بأنه يُحبُّ أن يقوموا بغير التهيؤ للقيام مثل أن يغسلَ فناجينَ القهوة، أو يُريقَ القهوة، أو يُغلقَ أكثرَ لمباتِ الكهرباء أو ما أشبه ذلك، المهمُّ أن يُشعرَ الناسَ بأنه يُحبُّ أن يقوموا.

وأنا أذكرُ أن بعضَ الناسِ فيما سبقَ لما كانوا يَسْتَعْمِلُونَ السَّراجَ، إذا أرادَ من إخوانه أن يقوموا قَصَرَ السَّراجَ؛ لأنَّ السَّراجَ كان يطولُ ويَقْصُرُ، فإذا لم يَنْفَعِ أَطْفَأَ السَّراجَ. فالحَمْدُ: أن يُشعرَهُم بأنه يُحبُّ أن يقوموا، وإذا كان النبي ﷺ وهو أحسنُ الناسِ خُلُقًا قد فعلَ ذلكَ بنفسه فَمَنْ دونه من بابِ أولى. لكن لو أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عندما أرادَ أن يَخْرُجَ وقال: اسْتَأْذِنَا يَا جَمَاعَةُ. فهل يَجُوزُ هذا أم لا؟

الجواب: نعم يَجُوزُ، ولا حرجَ، بل إنه إذا كان مع كبيرِ القوم، وكانوا على أمرٍ جامع، فإنه لا يَجُوزُ أن يَذْهَبَ بلا استئذانٍ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النحل: ٦٢]. لأنه إذا ذَهَبَ في الأمرِ الجامع الذي يَكُونُ مِنْ مصلحةِ الجميع، بدونِ استئذانٍ، لأفسدَ على هذا المجتمعِ اجتماعه، وصارَ شبيهاً بِمَنْ يَتَوَلَّى مِنْ الجهادِ يومَ الزحفِ، أما في الدَّعَوَاتِ العامَّةِ العاديةِ فلا بأسَ أن يَقُومَ بدونِ استئذانٍ.

❀ قوله في الحديث: «وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]». سَتَكَلِّمُ يَسِيرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ:

❀ قوله تعالى: ﴿بُيُوتُ النَّبِيِّ﴾. أَضَافَ فِيهِ الْبُيُوتَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَتَأْتِي أحيانًا الْبُيُوتُ مضافةً إِلَى عَائِشَةٍ، أَوْ إِلَى حَفْصَةَ، أَوْ إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ، أَوْ إِلَى زَيْنَبَ، أَوْ إِلَى إِحْدَى النِّسَاءِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْإِضَافَتَيْنِ ظَاهِرٌ، فإِضَافَةُ الْبُيُوتِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِضَافَةٌ مِلْكٍ، وَإِضَافَةُ الْبُيُوتِ إِلَى النِّسَاءِ إِضَافَةٌ اخْتِصَاصٍ، وَلَيْسَتْ إِضَافَةٌ مِلْكٍ، فَالْمَلِكُ لِلرَّسُولِ ﷺ وَالْاِخْتِصَاصُ لِأَزْوَاجِهِ، فَكُلُّ وَاحِدَةٍ لَهَا بَيْتٌ يَخْصُهَا.

❀ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ﴾. يَعْنِي: إِلَّا إِذَا أُذِنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ، وَهَذَا بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ، وَإِلَّا فَلَوْ أُذِنَ لَهُمْ إِلَى غَيْرِ طَعَامٍ، فَلَا حَرَجَ أَنْ يَدْخُلُوا بَيْتَهُ ﷺ كَمَا شَاءَ.

❀ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَسِينَ لِحَدِيثٍ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾. فَعِنْدَنَا الْآنَ أَمْرٌ وَنَهْيٌ، قَالَ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾.

ثم قال: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا﴾. فكأنه أكد هذا النهي بقوله: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا﴾. أما قبل هذا فلا تدخلوا.

وهل الأمر في قوله: ﴿فَادْخُلُوا﴾. للإباحة أو للطلب؟

نقول: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ لِلإِبَاحَةِ؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ بَعْدَ النَّهْيِ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾. فهو كقولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [الأنعام: ٢٠]. ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾. وهذا أمر بأن الإنسان إذا طعم فقد انتهت الدعوة فليستشر وليذهب وليتفرق.

ثم قال: ﴿وَلَا مُسْتَقْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾. يعني: ولا تقعدوا مستنسين لحديث؛ لأن الإنسان إذا قعد مستأنسا لحديث، فسوف يطيل الجلوس.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ﴾. ﷺ، لأنه ما قال لهم: قوموا. لكنه يتأذى بهذا والله لا يستحي من الحق، وانتشاركم بعد الطعام حق، ولهذا أمرنا الله به.

وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ مِنْ الْحَقِّ﴾. دليل على وصف الله تعالى بالحياء، وهو على قاعدة السلف، حياءً يليق بجلال الله ﷻ، ليس فيه انكسار كحياء آدمي، لكنه حياءً لائق بجلال الله تعالى وعظمته.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. والضمير في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾. يعود على النساء، ولكن هل تقدم ذكر للنساء حتى نقول إنه عائذ إليهن؟

نقول: لا. لكن علم ذلك من السياق.

ثم قال ﷻ: ﴿ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾. يعني: سؤالكم إياهن من وراء الحجاب دون المواجهة، أظهر لقلوبكم وقلوبهن، وأظهر هنا اسم تفضيل، فإذا كان هذا الخطاب للصحية مع زوجات الرسول ﷺ وهو: أن سؤالهن من وراء الحجاب أظهر للقلوب، فما بالك بقلوب ذئاب اليوم، ألا يكون وجوب الحجاب في عصرنا هذا أمراً واضحاً؟

الجواب: بلى، وجوب الحجاب في هذا العصر أمر ظاهر، حتى لو فرض أن الشريعة الإسلامية أباحت كشف الوجه، فإنه في هذا العصر يجب أن يمنع النساء منه سداً للذرائع، فكيف والشريعة قد جاءت بوجوب الحجاب، والتحذير من الكشف، ومن المعلوم أن الوسائل والذرائع لها أحكام الغايات، وقد ذكر الشوكاني رحمه الله، عن ابن رسلان أنه قال: إنه

- أي الحجاب - واجبٌ باتفاق المسلمين في هذه العصور؛ وذلك لفساد الناس من الذكور ومن الإناث^(١).

❦ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ» ❦. وفي هذه الآية: دليلٌ على أن العمدَةَ على طهارة القلب، وأن الميلَ إلى الفاحشة من أرجاس القلوب ونجاساتها وأقذارها؛ لأنَّ الطَّهْرَ إنما يَكُونُ عن شيءٍ مضادٍّ.

❦ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ» ❦. الله أكبرُ هذه حمايةً عظيمةً، أو لا في المسألة التي في نفس الآية وهي الجلوسُ مُسْتَأْنَسِينَ لحديثٍ بعدَ الطعام، وكذلك أن تسألوا زوجاته مقابلةً بدونِ حجاب؛ لأنه يتأذى بذلك، ولا أن تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا؛ يَعْنِي: وما كان لكم أن تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا، احْتِرَامًا لَهُ ﷺ، ولهذا كان بعضُ الناس في عهدِ النَّبِيِّ ﷺ لَا يَتَزَوَّجُ مطلقاً الإنسان المعروف بالغيرَةِ وهو حيٌّ، احْتِرَامًا لَهُ^(٢)، فكان من حقوقِ النَّبِيِّ ﷺ على أُمَّتِهِ، ألا يَتَزَوَّجُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا، وهذا تحریمٌ مؤبَّدٌ سببه الزوجيةُ لرسولِ الله ﷺ، لكنهنَّ حرامٌ غيرُ محارمٍ؛ ولهذا قال: ❦ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ❦. ولو كُنَّ محارمَ لم يَجِبِ الحجابُ لكنهنَّ حرامٌ، وكُنَّ - رضي الله عنهن - من شدةِ الإعلانِ على عدم الرغبةِ في الزواج، يَقْصُصْنَ رُؤُوسَهُنَّ حتى تَكُونَ كالوفرةِ^(٣)؛ يعني: إلى حدِّ المَنكِين أو أنزَلَ قليلاً، من أجل أن يَظْهَرَ للناسِ أنهم أبعدُ النساءِ عن طلبِ الزواج؛ لأنَّه من المعروف أن المرأةَ تَجَمَّلُ بِرَأْسِهَا، وأن رأسها نصفُ جمالها، فلذلك كُنَّ - رضي الله عنهن - يَقْصُصْنَ رُؤُوسَهُنَّ.

وانظر إلى حكمةِ الله ﷻ لما كان رأسُ المرأةِ من جمالها، لم يُوجِبْ عليها في الحجِّ إلا قَدَرُ أَنْمَلَةٍ؛ يَعْنِي قَدَرُ فُصٍّ إصبعٍ من أجل أن تَبْقَى زِينَتُهَا غيرُ متغيِّرةٍ.

ولكن لما اسْتَعَمَرَ الكفارُ ديارنا وأفكارنا، صار النساءُ الآنَ يَرِغْنَ في قِصِّ الرؤوسِ،

(١) «نيل الأوطار» (٦/ ٢٤٥).

(٢) روى أحمد في «مسنده» (١/ ٢٣٨) (٢١٣١) عن ابن عباس حديثاً فيه: فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار، ألا تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟» - يقصد سعد بن عباد - قالوا: يا رسول الله لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته... الحديث. قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٣٢٩): رجال أحمد ثقات.

(٣) رواه مسلم (٣٢٠) (٤٢).

وصار شعرُ المرأةِ يَصِلُ إلى الرقبةِ فقط، حتَّى تكادَ تَغْلُطُ في رأسِها ورأسِ الرجلِ، ومعلومٌ أنها إذا وصلت إلى هذا الحدِّ حرِّمٌ عليها من أجل التشبه بالرجالِ، وكلُّ هذا في الحقيقةِ في غفلةٍ من الرجالِ، والنساءُ لا شكَّ أنهن قاصراتُ العقولِ، ضعيفاتُ الدينِ، وإذا تُركَ لهنَّ الجبلُ على الغاربِ، فعَلَنَ أشياءَ لا تُحَمَدُ عُقْبَاهَا، فلو أنَّ الرجالَ انتَبَهوا لهذه الأمورِ، وعَلِمُوا أنَّ تَلَقِّيَ النساءِ لكلِّ ما يَرِدُ علينا مِنَ الخارجِ له خطرُهُ العظيمُ، لوَضَعُوا حدًّا لانطلاقِ النساءِ وانزلاقِهِنَّ في هذه الأمورِ.

ثم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾. المشارُ إليه ما سبق من إيذاء الرسول ﷺ، أو نكاحِ زوجاته من بعده.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٤- بَابُ الْإِحْتِبَاءِ الْيَدِ، وَهُوَ الْقَرْفُصَاءُ.

٦٢٧٢- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي غَالِبٍ، أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ الْحِزَامِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَفْنَاءُ الْكُعْبَةَ مُحْسِبًا يَبِيدُهُ هَكَذَا.

الاحتباءُ يَكُونُ باليدِ، وَيَكُونُ بغيرِ اليدِ، فَيَكُونُ باليدِ بضمِّ إحداهما إلى الأخرى وَيَجْلِسُ الْقَرْفُصَاءُ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ يَقُولُ: لَا جِلْسَةَ أَخْشَعُ مِنْهَا ^(١).

وَيَكُونُ الْقَرْفُصَاءُ بغيرِ اليدِ، بِسَبْرِ يَرْبُطُ بِهِ الْإِنْسَانُ بَيْنَ سَاقَيْهِ وَظَهْرِهِ، وَالْقَرْفُصَاءُ فِي الْحَقِيقَةِ تَكُونُ كَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَعْتَمِدٌ كَأَنَّهُ عَلَى جِدَارٍ، وَفِيهَا رَاحَةٌ عَظِيمَةٌ.

وكلُّ هذا جائزٌ وليس فيه شيءٌ مِنَ الكراهةِ، سواءً كان بحضرةِ الناسِ، أو بغيرِ حضرةِ الناسِ.



(١) قال ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفُرُوعِ» (٢/ ٩٥): وَكَانَ أَحْمَدُ يَقْصِدُ فِي جُلُوسِهِ هَذِهِ الْجِلْسَةَ، وَهِيَ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى أَلْيَتَيْهِ، رَافِعًا رُكْبَتَيْهِ إِلَى صَدْرِهِ، مَفْضِيًا بِأَخْمَصِ قَدَمَيْهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَرَبِّهَا احْتَبَى، وَلَا جِلْسَةَ أَخْشَعُ مِنْهَا. اهـ وانظر: «كشاف القناع» (٢/ ٣٧).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٥- بَابُ مِنْ اتِّكَائِ يَدَيِ أَصْحَابِهِ.

قَالَ خَبَابٌ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، قُلْتُ: أَلَا تَدْعُو اللَّهَ؟ فَقَعَدَ^(١).

٦٢٧٣- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ، حَدَّثَنَا الْجَرِيرِيُّ، عَنْ عَبْدِ

الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» قَالُوا:

بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ».

٦٢٧٤- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا بِشْرٌ مِثْلَهُ: وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ» فَمَا

زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ^(١).

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ: «كَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ». وَالْمُتَكِنُ هُوَ الْمَعْتَمِدُ عَلَى إِحْدَى

يَدَيْهِ، وَكَذَلِكَ الْمَعْتَمِدُ عَلَى ظَهْرِهِ يُسَمَّى مُتَكِنًا، لَكِنْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْمَرَادُ: مُتَكِنًا عَلَى

إِحْدَى يَدَيْهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: فَجَلَسَ. يَعْنِي: فَاسْتَقَامَ فِي جُلُوسِهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ».

فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ؛ لِأَن قَوْلَ الزُّورِ وَأَعْظَمُهُ شَهَادَةُ الزُّورِ خَطَرُهُ عَظِيمٌ،

فَالْكَذِبُ قَوْلُ زُورٍ، وَالشَّهَادَةُ بِالزُّورِ قَوْلُ زُورٍ، فَظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ يُكْرِّرُهَا، حَتَّى قَالَ

الصَّحَابَةُ: لَيْتَهُ سَكَتَ، مِنْ كَثَرَةِ تَكَرُّرِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

إِذَا: يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ، جَوَازُ اتِّكَاءِ الرَّجُلِ بَيْنَ يَدَيْ أَصْحَابِهِ، وَلَكِنْ هَذَا فِي مَقَامِ

تَسْقُطٍ فِيهِ الْكُلْفَةُ، أَمَّا مَعَ النَّاسِ الْأَجْلَاءِ الَّذِينَ تَخْشَى أَنْ تُرْمَى بِسُوءِ الْأَدَبِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِذَا

فَعَلْتَ ذَلِكَ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْلِسَ هَكَذَا؛ لِأَنَّهُ خِلَافُ الْأَدَبِ، وَلَكِنْ لَوْ جَلَسَ كَبِيرُ الْقَوْمِ بَيْنَ

أَصْحَابِهِ، فَلَا بَأْسَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ فِي هَذَا سُوءَ أَدَبٍ، لَكِنْ لَوْ حَضَرَتْ مِثْلًا لِعَالَمٍ كَبِيرٍ فِي مَجْلِسِ

عُلَمَاءَ، وَجَلَسَتْ مُتَكِنًا فَإِنَّ كُلَّ النَّاسِ سَوْفَ يَرْمُونَكَ بِسُوءِ الْأَدَبِ، لَكِنْ لَوْ كَانَ الْكَبِيرُ مِنْ هَؤُلَاءِ

الْجَمَاعَةِ مُتَكِنًا، لَرَأَوْا أَنَّ ذَلِكَ أَهْوَنُ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٦٦، ٦٧):

قَوْلُهُ: «بَابُ مِنْ اتِّكَائِ يَدَيِ أَصْحَابِهِ». قِيلَ: الْإِتِّكَاءُ: الْاضْطِجَاعُ. وَقَدْ مَضَى فِي

(١) علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، بصيغة الجزم، وقد أسنده رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «علامات النبوة» (٣٦١٢)، وَفِي «مناقب الأنصار»

(٣٨٥٢)، مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ، «التغليق» (٥ / ١٣٠).

(٢) وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٧) (١٤٣).

حديث عمر في كتاب الطلاق، وهو متكى على سرير؛ أي: مُضْطَجِعٌ، بدليل قوله: قد أثر السرير في جنبه. كذا قال عياض، وفيه نظر؛ لأنه يصح مع عدم تمام الاضطجاع، وقد قال الخطابي: كل معتمد على شيء متمكن منه فهو متكى.

وإيراد البخاري حديث خباب المعلق، يُشير به إلى أن الاضطجاع اتكاء وزيادة، وقد أخرج الدارمي، والترمذي وصححه هو وأبو عوانة وابن حبان، عن جابر بن سمرة: رأيت النبي ﷺ متكئاً على وسادة.

ونقل ابن العربي عن بعض الأطباء أنه كره الاتكاء، وتعبه بأن فيه راحة كالاستناد والاحتباء. ❖ قوله: «وقال خباب». بفتح المعجمة، وتشديد الموحدة، وآخره موحدة أيضاً، هو ابن الأرت الصحابي، وهذا القدر المعلق طُرف من حديث له تقدّم موصولاً في علامات النبوة. ثم ذكر حديث أبي بكرة في أكبر الكبار، وأورده من طريقين؛ لقوله فيه: وكان متكئاً فجلس، وقد تقدّمت الإشارة إليه في أوائل كتاب الأدب، وورد في مثل ذلك حديث أنس في قصة ضمام بن ثعلبة، لما قال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقالوا: ذلك الأبيض المتكى. قال المهلب: يجوز للعالم والمفتي والإمام الاتكاء في مجلسه بحضرة الناس؛ لأم يجده في بعض أعضائه، أو لراحة ترتفق بذلك، ولا يكون ذلك في عامة جلوسه. اهـ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٦- بَابُ مَنْ أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ لِحَاجَةٍ أَوْ قَصْدٍ.

٦٢٧٥- حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ عُقْبَةَ ابْنَ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدَّثَهُ قَالَ: صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الْعَصْرَ فَأَسْرَعَ ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ.

❖ قال المؤلف: «بَابُ مَنْ أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ لِحَاجَةٍ أَوْ قَصْدٍ». وذلك لأن الأصل أن الإنسان يَبْغِي له أن يكون في مشيه متمهلاً غير مسرع لكن إذا كان هناك شيء يَدْعُو إلى ذلك فلا حرج؛ لأن النبي ﷺ ذكر حاجة فأسرع المشي.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٧- بَابُ السَّرِيرِ.

٦٢٧٦- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَسَطَ السَّرِيرِ، وَأَنَا مُضْطَجِعَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُبْلَةِ، تَكُونُ لِي الْحَاجَةُ فَأَكْرَهُ أَنْ أَقُومَ فَأَسْتَقْبِلَهُ، فَأَنْسَلُ أَنْسِلًا لَا.

❖ قَوْلُهَا: «فَأَنْسَلُ أَنْسِلًا»^(١): أَي: تَنْزِلُ بَتَّانٍ وَتَدْرِجُ، وَفِي هَذَا بَيَانٌ لِكَمَالِ أَدَبِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَالْمُرَادُ بَوْسَطَ السَّرِيرِ؛ أَي: بِمَحَازَاةِ وَسَطِ السَّرِيرِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ فَوْقَ السَّرِيرِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٨- بَابُ مَنْ أُلْقِيَ لَهُ وِسَادَةٌ.

٦٢٧٧- حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا خَالِدٌ ح. وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَوْنٍ، حَدَّثَنَا خَالِدٌ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو الْمَلِيحِ، قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ أَبِيكَ زَيْدٌ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، فَحَدَّثَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذُكِرَ لَهُ صَوْمِي، فَدَخَلَ عَلَيَّ، فَأَلْقَيْتُ لَهُ وِسَادَةً مِنْ أَدَمَ، حَشَوُهَا لَيْفٌ، فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ، وَصَارَتْ الْوِسَادَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَقَالَ لِي: أَمَا يَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: خَسَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: سَبْعًا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: تِسْعًا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: إِحْدَى عَشْرَةَ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «لَا صَوْمَ فَوْقَ صَوْمِ دَاوُدَ، شَطْرُ الدَّهْرِ، صِيَامُ يَوْمٍ وَإِفْطَارُ يَوْمٍ»^(٢).

الَّذِي جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ قَالَ: لِأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلَأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَرَاغَهُ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا». فَمَا زَالَ يُحَاوِرُهُ حَتَّى وَصَلَ بِهِ الْحَالُ أَنْ رَخَّصَ لَهُ أَنْ يَصُومَ يَوْمًا وَيُفْطِرَ يَوْمًا، وَيَتَّامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومَ ثُلُثَهُ، وَيَتَّامَ سُدُسَهُ، وَقَالَ: «إِنَّ هَذَا قِيَامُ دَاوُدَ، وَهَذَا صَوْمُ دَاوُدَ» لَكِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَمَنَّى بَعْدَ أَنْ كَبَرَ أَنَّهُ قَبْلَ رَخْصَةِ النَّبِيِّ ﷺ، لِأَنَّهُ صَارَ يَشُقُّ عَلَيْهِ أَنْ يَصُومَ يَوْمًا وَيَدَعَّ يَوْمًا، فَصَارَ يَصُومُ خَمْسَةَ عَشَرَ

(١) انظر: «النهاية» لابن الأثير (س ل ل).

(٢) رواه مسلم (١١٥٩) (١٩١).

يَوْمًا تَبَاعًا، وَيُفْطِرُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا تَبَاعًا^(١).

والشاهد من هذا الحديث: أنه وَضَعَ له وسادة. فدلَّ ذلك على جوازِ وَضْعِ الوسادة لِيَتَكَيَّ عليها الإنسان، وأن هذا لَا يُعَدُّ مِنَ التَّرْفِ الممنوع، بل هذا مِنْ إعطاءِ النفسِ حَقَّها بالراحةِ والطَّمَأْنِينَةِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٢٧٨ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدٌ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، أَنَّهُ قَدِمَ الشَّامَ. ح. وَحَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُغِيرَةَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: ذَهَبَ عَلْقَمَةُ إِلَى الشَّامِ، فَاتَى الْمَسْجِدَ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي جَلِيسًا. فَقَعَدَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ. قَالَ: أَلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ السَّرِّ الَّذِي كَانَ لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ - يَعْنِي: حَذِيفَةَ - أَلَيْسَ فِيكُمْ أَوْ كَانَ فِيكُمْ الَّذِي أَجَارَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ - يَعْنِي: عَمَّارًا - أَوَلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ السَّوَالِكِ وَالْوَسَادِ - يَعْنِي: ابْنَ مَسْعُودٍ - كَيْفَ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقْرَأُ: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. قَالَ: ﴿وَالذِّكْرُ وَالْأُنْثَى﴾. فَقَالَ: مَا زَالَ هَؤُلَاءِ حَتَّى كَادُوا يُشَكِّكُونِي، وَقَدْ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

هذا الحديث فيه: دليلٌ على أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ ﷻ الْجَلِيسَ الصَّالِحَ؛ لِأَنَّ الْجَلِيسَ الصَّالِحَ كَمَا وَصَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَحَامِلِ الْمَسْكِ إِمَّا أَنْ يُحَذِّكَ يَعْنِي: يُهْدِي إِلَيْكَ، وَإِمَّا أَنْ يَبِيعَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً، بِخِلَافِ الْجَلِيسِ السَّوِّءِ فَهُوَ كَنَافَخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً^(٢).

وفيه: دليلٌ على فَضِيلَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ كَانَ صَاحِبَ السَّوَالِكِ وَالْوَسَادَةِ، وَهَذَا هُوَ الشَّاهِدُ مِنَ الْحَدِيثِ سَوَالُ النَّبِيِّ ﷺ وَوَسَادَتُهُ.

وَالرَّسُولُ ﷺ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ كَانَ يُرْتَّبُ أَصْحَابُهُ وَيَجْعَلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ خَصِيصَةً^(٣)؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ الْمَشَقَّةِ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الْمُرَكِّزَةَ فِي الْحَقِيقَةِ تُصَيِّغُ الْأَعْمَالَ،

(١) رواه البخاري (١٩٧٤، ١٩٨٠)، ومسلم (١١٥٩) (١٨١، ١٨٢، ١٨٩).

(٢) رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) (١٤٦).

(٣) انظر في ذلك: «زاد المعاد» (١١٦-١١٧).

وَتَشُقُّ عَلَى النَّاسِ، لَكِنْ إِذَا وُزِّعَتِ الْأَعْمَالُ صَارَ فِي هَذَا رَاحَةً لِلنَّاسِ مِنْ وَجْهِ، وَرَاحَةً لِلْعَامِلِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ الْخُلَلُ أَنْ تَجْعَلَ الْأَعْمَالَ مَرَكِزِيَّةً؛ بِمَعْنَى: أَنْ تُرَكِّزَ عَلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بَشَرٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُوزِّعُ أَصْحَابَهُ.

❖ وَقَوْلُهُ هُنَا: «أَلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ السَّرِّ؟». يَعْنِي: حُذِيفَةُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَهُ بِأَسْمَاءِ أَنْاسٍ مُنَافِقِينَ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ غَيْرُهُ ^(١)، حَتَّى كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِحُذِيفَةَ: أُنْشِدْكَ اللَّهُ هَلْ سَمَّيْتُ لَكَ الرَّسُولَ ﷺ مَعَ مَنْ سَمَّيَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ^(٢)، اللَّهُ أَكْبَرُ! عُمَرُ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، وَالوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ يَرَى أَنَّهُ مُؤْمِنٌ كَلَيْمَانَ أَبِي بَكْرٍ أَوْ أَشَدَّ، لَا يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَعَ أَنَّ النِّفَاقَ سَرٌّ لَطِيفٌ، يَدْخُلُ الْقَلْبَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِهِ، وَالنِّفَاقُ يَكُونُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْإِعْتِقَادِ، فَقَدْ يَكُونُ فِي الْإِنْسَانِ نِفَاقٌ إِعْتِقَادِيٌّ كَالرِّيَاءِ مَثَلًا وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَلِهَذَا كَانَ الرَّسُولُ يَقُولُ: «أَخَوْفُ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْخَفِيُّ: أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّيَ فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ» ^(٣).

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ حُذِيفَةَ يُسَمِّي صَاحِبُ السَّرِّ.

❖ وَقَوْلُهُ: «أَلَيْسَ كَانَ فِيكُمْ الَّذِي أَجَارَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ؟». يَعْنِي: عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ رضي الله عنه وَهَذَا مِنْ مَنَقِبَتِهِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رحمته الله فِي «الْفَتْحِ» (٩٢/٧):

❖ قَوْلُهُ: «الَّذِي أَجَارَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ». يَعْنِي: عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ. فِي رِوَايَةِ شُعْبَةَ: أَجَارَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ؛ يَعْنِي: مِنَ الشَّيْطَانِ. وَزَادَ فِي رِوَايَةِ شُعْبَةَ: يَعْنِي: عَمَّارًا. وَزَعَمَ ابْنُ التِّينِ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «وَيَحْ عَمَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّارِ» وَهُوَ مُحْتَمَلٌ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ حَدِيثَ عَائِشَةَ مَرْفُوعًا: «مَا خَيْرَ عَمَّارٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَرشدهما». أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَلَا حَمْدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ، أَخْرَجَهُمَا الْحَاكِمُ، كَوْنُهُ يَحْتَارُ أَرشِدَ الْأَمْرَيْنِ دَائِمًا يَقْتَضِي أَنَّهُ قَدْ أُجِيرَ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ الْأَمْرُ بِالْغَيِّ،

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٢٧٧٩) (٩).

(٢) ذكره الربيع في «مسنده» (٣٦١/١) (٩٢٩).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٣٠/٣)، وابن ماجه (٤٢٠٤). قال الهيثمي في «المجمع» (٣١٥/١): رواه أحمد ورجاله موثقون. وحسنه الشيخ الألباني رحمته الله، كما في تعليقه على «سنن ابن ماجه».

وَرَوَى الْبَزَّازُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مُلِيَ إِيْمَانًا إِلَى مُشَاشِهِ». يَعْنِي عَمَّارًا. وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ مِنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ، قَالَ: قَالَ عَمَّارٌ نَزَلْنَا مَنْزِلًا فَأَخَذْتُ قِرْبَتِي وَدَلَوِي لِأَسْتَقِي فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سَيَأْتِيكَ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنَ الْمَاءِ» فَلَمَّا كُنْتُ عَلَى رَأْسِ الْمَاءِ إِذَا رَجُلٌ أَسْوَدُ كَأَنَّهُ مَرَسٌ فَصَرَعْتُهُ. ذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «ذَاكَ الشَّيْطَانُ». فَلَعَلَّ ابْنَ مَسْعُودٍ أَشَارَ إِلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ بِالْإِجَارَةِ الْمَذْكُورَةِ إِلَى ثَبَاتِهِ عَلَى الْإِيْمَانِ لِمَا أَكْرَهَهُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى النَّطْقِ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ، فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿لَا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ [التَّحْكَةُ: ١٠٦].

وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ عَمَّارًا مُلِيَ إِيْمَانًا إِلَى مُشَاشِهِ، أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ. وَالْمُشَاشُ بَضْمُ الْمِيمِ وَمُعْجَمَتَيْنِ الْأُولَى خَفِيفَةٌ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ لَا تَقَعُ إِلَّا مِمَّنْ أَجَارَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ الْحَدِيثِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ التَّيْنِ فِي بَابِ التَّعَاوُنِ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ مُسْتَوْفَى وَلِلَّهِ الْحَمْدُ. اهـ

❖ وَقَوْلُهُ: «أَوَلَيْسَ فِيكُمْ صَاحِبُ السُّوَالِكِ وَالْوَسَادَةِ؟». يَعْنِي: ابْنَ مَسْعُودٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ حَثَّ عَلَى تَلْقَى الْقُرْآنِ مِنْهُ فَقَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْ بِقِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدِ^(١)» يَعْنِي: ابْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْرَأُ: ﴿وَالْبَلِّ إِذَا يَغْشَى، وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى، وَالذِّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾. هَكَذَا سَمِعَهَا مِنْ فَمِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْقِرَاءَةُ الْمَعْرُوفَةُ الْمُتَوَاتِرَةُ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ يَعْنِي: وَالَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، أَوْ وَخَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، فَيَكُونُ إِقْسَامًا بِاللَّهِ، أَوْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، فَإِذَا جَعَلْنَا «مَا» اسْمًا مُوَصُولًا صَارَتْ قَسَمًا بِاللَّهِ، وَإِذَا جَعَلْنَاهَا مُصَدْرِيَّةً صَارَتْ قَسَمًا بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ؛ أَي: وَخَلَقَ اللَّهُ. وَقِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ تَنَاسَبُ مَعَ سِيَاقِ الْآيَاتِ، فَاللَّهُ أَقْسَمَ بِمَخْلُوقَاتِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى^(٢) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى^(٣)﴾ وَهَذَانِ زَوْجَانِ مُتَقَابِلَانِ ﴿وَالذِّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ زَوْجَانِ مُتَقَابِلَانِ فَتَكُونُ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ مُتَنَاسِقَةً، وَكُلُّهَا إِقْسَامٌ بِمَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الْمُتَقَابِلَةِ عَلَى شَيْءٍ مُتَقَابِلٍ أَيْضًا وَهُوَ: ﴿إِنْ سَعَيْكَ لَشِقَى^(٤)﴾ [التَّحْكَةُ: ٤]. فَالْمَقْسَمُ بِهِ أَشْيَاءٌ مُتَقَابِلَةٌ، وَالْمَقْسَمُ عَلَيْهِ أَيْضًا أَشْيَاءٌ مُتَقَابِلَةٌ.

(١) رَوَاهُ أَحَدٌ فِي «مُسْنَدِهِ» (١/ ٧) (٣٥)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٣٨)، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٣/ ٣٥٨) وَقَالَ: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجْاهُ. وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَمَا فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى «سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ».

لكن مع ذلك فإن القراءة السبعية معروفة، وهي إقسام بالله ﷻ، أو إقسام بصفة من صفاته. ولكن يَنْقَى علينا إشكال إذا جعلنا «ما» اسماً موصولاً، والمعروف أنه إذا عَبَّرَ عن العالم باسم موصول فإنه يُقَالُ: «مَنْ» فلماذا عَبَّرَ بـ«ما»؟

الجواب: أنه إذا كان المقصود هو الوصف أي بـ«ما» دون «مَنْ» ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النِّسَاءُ: ٣]. ولم يقل: مَنْ طاب؛ لأن التركيز هنا على وصف المرأة لا على شخصها، فإذا كان المقصود هو الوصف فإنه يُؤْتَى بـ«ما».

وهنا لا شك أن المقصود هو الوصف؛ يعنى: الإقسام بالله ﷻ بوصفه خالقاً، فيقول: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ولكن هل يجوز لنا أن نقرأ بقراءة ابن مسعود: ﴿والذكر والأنثى﴾. هذه؟

الجواب: نعم، يجوز، وهذا هو الصحيح أنه يجوز القراءة بما صحَّ عن النبي ﷺ وإن لم يكن مُتَوَاتِرًا، وهذا صحَّ عن النبي ﷺ.

لكن سبق لنا أن قلنا: إن القراءة بغير ما يعرفه العوام لا تَبْغِي؛ لأنها توجبُ الفتنة والشك في القرآن، وقد تخرُجُ العامة وتقول: بدأ الناس يَلْعَبُونَ حتَّى بالقرآن، وهذه فتنة عظيمة، لكن الإنسان بينه وبين نفسه، أو مع طلبة العلم الذين يَعْرِفُونَ الحقَّ يَنْبَغِي له أن يقرأ بهذا مرةً وبهذا مرةً.

وفي هذا الحديث: دليل على أن أبا الدرداء رضي الله عنه سَمِعَ القراءة من النبي ﷺ يقرأها: ﴿والذكر والأنثى﴾ فيكون قد رواها عن النبي ﷺ عبد الله بن مسعود وأبو الدرداء رضي الله عنه.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٩- بَابُ الْقَائِلَةِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ.

٦٢٧٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه،

قَالَ: كُنَّا نَقِيلُ وَنَغْدَى بَعْدَ الْجُمُعَةِ ^(١).

٤٠- بَابُ الْقَائِلَةِ فِي الْمَسْجِدِ.

٦٢٨٠- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ

سهل بن سعيد، قال: ما كان لعليٍّ اسمٌ أحبَّ إليه من أبي ترابٍ، وإن كان ليفرح به إذا دُعِيَ بها، جاء رسولُ الله ﷺ بيتَ فاطمةَ عليها السلامُ فلم يجدَ عليًّا في البيتِ، فقال: أين ابنُ عمكِ؟ فقالت: كان بيني وبينه شيءٌ فغاضبني فخرج فلم يقلْ عندي. فقال رسولُ الله ﷺ للإنسانِ: انظرْ أين هو؟ فجاء، فقال: يا رسولَ الله هو في المسجدِ راقدٌ، فجاء رسولُ الله ﷺ وهو مضطجعٌ قد سقطَ رداؤه عن شِقِّه فأصابه ترابٌ، فجعلَ رسولُ الله ﷺ يمسحُه عنه وهو يقولُ: «قُمْ أبا ترابٍ، قُمْ أبا ترابٍ».

ذكر المؤلف رحمه الله زمانَ القائلةِ ومكانها، والقائلةُ هي النومُ وسطَ النهارِ وكانت معروفةً من قبل، لاسيما في أيامِ الصيفِ الطويلةِ فإنَّ الجسدَ يحتاجُ فيها إلى النومِ، أما في أيامِ الشتاءِ فالأمرُ فيه واسعٌ.

❦ قوله: «عن سعيد، قال: كُنَّا نَقِيلُ وَتَغْدَى بَعْدَ الْجُمُعَةِ»؛ لأنَّهم كانوا يُكْرُونَ إلى الجُمُعَةِ؛ لقولِ النبي ﷺ: «من راحَ في الساعةِ الأولى بعدَ أن يَغْتَسِلَ فكأنما قرَّبَ بدَنَةً، وفي الثانيةِ بقرةً، وفي الثالثةِ كبشًا أقرنَ، وفي الرابعةِ دجاجةً، وفي الخامسةِ بيضةً»^(١). فكأنوا يَقِيلُونَ وَيَتَغَدَّونَ بَعْدَ الْجُمُعَةِ، أما في غيرِ الجُمُعَةِ فَيَتَغَدَّونَ قَبْلَ الصَّلَاةِ؛ لأنَّ الغداءَ هو الطعامُ الذي يَكُونُ فِي الْغَدَاةِ؛ أي: في أولِ النهارِ.

واستدلَّ بعضُ العلماءِ بهذا الحديثِ على جوازِ صلاةِ الجمعةِ قَبْلَ الزوالِ، بناءً على أن القيلولةَ هي النومُ وسطَ النهارِ، فإذا كانوا لا يَقِيلُونَ بَعْدَ الْجُمُعَةِ إِلَّا بَعْدَ الصَّلَاةِ ودلَّ ذلك على أنهم يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ قَبْلَ وَقْتِ الْقَائِلَةِ، وإلى هذا ذهبَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحمه الله، وقال: إن صلاةَ الجُمُعَةِ تَجُوزُ، ولو قَبْلَ الزوالِ، بل قال: إن وقتها يَدْخُلُ بِدخولِ وقتِ صلاةِ العيدِ^(٢)؛ يَعْنِي: من حين أن تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ قَبْدَ رَمَحٍ إِلَى الْعَصْرِ.

وعلى هذا فيَكُونُ وَقْتُ الْجُمُعَةِ أَطْوَلَ أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ؛ لأنَّ وَقْتَ الْعِشَاءِ مِنْ مَغِيبِ الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ إِلَى نَصْفِ اللَّيْلِ فَقَطْ، وَلَا يَمْتَدُّ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ، وَلَوْ اِمْتَدَّ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ لَكَانَ أَطْوَلَ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، لَكِنَّهُ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ إِلَى نَصْفِ اللَّيْلِ فَقَطْ، وَعَلَى هَذَا

(١) تقدم تخريجه في «الجمعة».

(٢) انظر: «الكافي في فقه الإمام أحمد» (١/ ٢١٥)، و«المبدع» (١/ ٣٤٠)، و«الفرع» (٢/ ٧٢)، و«شرح العمدة» (٤/ ٢٠١-٢٠٢)، و«الإنصاف» (٢/ ٣٦٤).

فَتَكُونُ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ أَطْوَلَ أَوْ قَاتِ الصَّلَوَاتِ.

لَكِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَمِنْهُمْ الْأُئِمَّةُ الثَّلَاثَةُ عَلَى أَنَّ وَقْتَ الْجُمُعَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالزَّوَالِ ^(١).
وَتَوَسَّطَ قَوْمٌ فَقَالُوا: إِنَّهُ يَجُوزُ قَبْلَ الزَّوَالِ بِنَحْوِ سَاعَةٍ، وَلَا يَجُوزُ قَبْلَ الزَّوَالِ بِزَمَنِ طَوِيلٍ،
وَقَالُوا: إِنْ تَنْصِصَ سَهْلٌ ^{عَلَيْهِمْ} عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقِيلُونَ وَلَا يَتَغَدَّوْنَ إِلَّا بَعْدَ الْجُمُعَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا
خِلَافُ الْعَادَةِ... وَأَنَّهُمْ يَتَأَخَّرُونَ فِي الْقِيلُولَةِ وَالْغَدَاءِ مِنْ أَجْلِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَهَذَا أَقْرَبُ.
أَمَّا الْمَكَانُ فَالْأَصْلُ فِي الْقِيلُولَةِ أَنْ تَكُونَ فِي الْبَيْتِ، وَالْأَصْلُ فِي النَّوْمِ أَنْ يَكُونَ فِي الْبَيْتِ،
قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: وَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَّخِذَ الْمَسْجِدَ مَقِيلًا وَمَنَامًا دَائِمًا؛ لِأَنَّ الْمَسْجِدَ لَمْ
يُبْنَ لَهُذَا إِنَّمَا بُنِيَ لِلصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالذِّكْرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ^(٢). لَكِنْ لَا بَأْسَ أَنْ يَتَّخِذَهُ عِنْدَ
الْحَاجَةِ أَوْ عِنْدَ الْعَارِضِ، مِثْلَ اتِّخَاذِهِ مَقِيلًا أَيَّامَ رَمَضَانَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصَلُّونَ الظُّهْرَ وَيَنَامُونَ.
أَوْ عِنْدَ الْحَاجَةِ كِلَاسَانٍ مِثْلًا مَرًّا بِالْبَلَدِ، وَقَالَ فِيهِ، أَوْ نَامَ فِيهِ، أَوْ إِنْسَانٍ عَزَبَ لَهُ أَهْلٌ
فَهَذِهِ حَاجَةٌ، وَأَمَّا إِنْ لَمْ يَكُنْ حَاجَةً وَلَا عَارِضًا فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا.

وَأَمَّا مَا حَصَلَ مِنْ عَلِيٍّ ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ} فَإِنَّهُ كَانَ لِعَارِضٍ، فَإِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ هَذَا إِلَّا حِينَمَا غَاضِبَ فَاطِمَةَ ^{عَلَيْهَا السَّلَامُ}.
وَفِي فِعْلِ الرَّسُولِ ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} مَعَ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ دَلِيلٌ عَلَى مَلَاطِفَةِ الصَّهْرِ لَصْهَرِهِ؛ لِأَنَّ
الرَّسُولَ ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} جَاءَ إِلَى عَلِيٍّ وَوَجَدَهُ نَائِمًا فَجَعَلَ يَنْفُضُ التَّرَابَ عَنْ ظَهْرِهِ، وَيَقُولُ: «قُمْ أَبَا
تَرَابٍ، قُمْ أَبَا تَرَابٍ». وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَاطِفَةِ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ، وَلَا شَكَّ أَيْضًا أَنَّ هَذَا
مِنَ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ ^{رَحِمَهُ اللَّهُ}:

٤١ - بَابُ مَنْ زَارَ قَوْمًا فَقَالَ عِنْدَهُمْ.

٦٢٨١ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي،
عَنْ ثُمَامَةَ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أُمَّ سَلِيمٍ كَانَتْ تَبْسُطُ لِلنَّبِيِّ ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} نَظْعًا قَيْقِيلَ عِنْدَهَا عَلَى ذَلِكَ النَّظْعِ،
قَالَ: فَإِذَا نَامَ النَّبِيُّ ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} أَخَذَتْ مِنْ عَرَقِهِ، وَشَعْرِهِ فَجَمَعَتْهُ فِي قَارُورَةٍ، ثُمَّ جَمَعَتْهُ فِي سَكٍّ «وَهُوَ

(١) انظر: «الأم» (١/ ١٩٤)، و«التمهيد» (٨/ ٧١)، و«المجموع» (٤/ ٤٣٠)، و«المبسوط» للسرخسي (٢/ ٢٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ١٩٥-١٩٦).

نَاتِمٌ قَالَ: فَلَمَّا حَضَرَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْوَفَاةَ أَوْصَى إِلَيَّ أَنْ يُجْعَلَ فِي حَنَوطِهِ مِنْ ذَلِكَ السُّكِّ، قَالَ: فَجُعِلَ فِي حَنَوطِهِ.

٦٢٨٢، ٦٢٨٣ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ إِلَى قُبَاءٍ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامَ بِنْتِ مِلْحَانَ فَيُطْعِمُهُ، وَكَانَتْ تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، فَدَخَلَ يَوْمًا فَأَطْعَمَتْهُ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مَا يَضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُرَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ نَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسْرَةِ» - أَوْ قَالَ: «عَلَى الْأَسْرَةِ» - سَكَّ إِسْحَاقُ، قُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَدَعَا ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: مَا يَضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُرَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ نَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسْرَةِ - أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرَةِ» - «فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: «أَنْتَ مِنَ الْأَوَّلِينَ». فَرَكِبْتُ الْبَحْرَ فِي زَمَانٍ مُعَاوِيَةَ فَضَرَعْتُ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجْتُ مِنَ الْبَحْرِ فَهَلَكْتُ» ^(١).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/ ٧٢):

❖ قَوْلُهُ: «فِي سَكِّ». بَضْمٌ الْمَهْمَلَةِ وَتَشْدِيدُ الْكَافِ؛ هُوَ طِيبٌ مُرَكَّبٌ، وَفِي النِّهَايَةِ: طِيبٌ مَعْرُوفٌ يُضَافُ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الطِّيبِ، وَيُسْتَعْمَلُ.
وَفِي رَوَايَةِ الْحَسَنِ بْنِ سَفْيَانَ الْمَذْكُورَةِ: ثُمَّ تَجْعَلُهُ فِي سَكِّهَا. وَفِي رَوَايَةِ ثَابِتِ الْمَذْكُورَةِ عِنْدَ مُسْلِمٍ: دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ عِنْدَنَا، فَعَرِقَ، وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ فَجَعَلَتْ تَسْلُتُ الْعِرْقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقَظَ فَقَالَ: «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟» قَالَتْ: هَذَا عَرَقُكَ نَجَعْلُهُ فِي طِينِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ.

وَفِي رَوَايَةِ إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْمَذْكُورَةِ: عَرِقَ فَاسْتَنْقَعَ عَرْقُهُ عَلَى قِطْعَةٍ أَدِيمٍ، فَفَتَحَتْ عَتِيدَتَهَا فَجَعَلَتْ تُنَشِّفُ ذَلِكَ الْعِرْقَ، فَتَعَصِرُهُ فِي قَوَارِيرِهَا، فَأَفَاقَ، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعِينَ؟» قَالَتْ: نَرْجُو بِرَكَتِهِ لَصِيَابِنَا، فَقَالَ: «أَصَبَتْ».

وَالْعَتِيدَةُ بِمُهْمَلَةٍ ثُمَّ مُثَنَاءٌ وَزَنْ عَظِيمَةٍ: السَّلَّةُ أَوْ الْحُقُّ، وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْعَتَادِ، وَهُوَ

الشيء المُعَدُّ للأمرِ المُهِمِّ.

وفي رواية أبي قلابَةَ المذكورة: فكانت تَجْمَعُ عَرَفَهُ فتَجْعَلُهُ في الطَّيْبِ والقَوَارِيرِ، فقال: «ما هذا؟» قالت: عَرَفْتُكَ أَذُوفُ به طَيِّبِي، وَأَذُوفُ بمعجمة مضمومة، ثم فاء، أي: أَخْلِطُ، ويستفادُ من هذه الروايات إطلاَعُ النَّبِيِّ ﷺ على فِعْلِ أُمِّ سَلِيمٍ، وتصويبه، ولا مُعَارَضَةَ بَيْنَ قولها: إنها كانت تَجْمَعُهُ لأجلِ طَيِّبِهِ وبينَ قولها: للبركة. بل يُحْمَلُ على أنها كانت تفَعْلُ ذلك للأمرين معاً.

قال المهلبُ: في هذا الحديثِ مشروعيةُ القائلةِ للكبيرِ في بيوتِ مَعَارِفِهِ، لها في ذلك من ثبوتِ المَوَدَّةِ، وتأكُّدِ المحبةِ، قال: وفيه طَهَارَةٌ شَعْرِ الأَدَمِيِّ وعَرَقِهِ. وقال غيره: لا دَلَالَةٌ فيه؛ لأنَّهُ من خصائصِ النَّبِيِّ ﷺ، ودليلُ ذلك متمكِّنٌ في القُوَّةِ، ولا سيما إنْ ثَبَتَ الدَّلِيلُ على عَدَمِ طَهَارَةِ كُلِّ منهما. اهـ

والصحيحُ بلا شكٍّ أَنَّهُ ليسَ هناك تخصيصٌ للرسولِ ﷺ في الفَضَلاتِ، وأنَّ فَضَلاتِ النَّبِيِّ ﷺ كغيره؛ النَّجَسُ منها نجسٌ، والطاهرُ منها طاهرٌ. ولولا ذلك ما استطعنا أنْ نَسْتَدِلَّ على طَهَارَةِ المَنِيِّ مثلاً؛ لأنَّهُ في إمكانِ كُلِّ إنسانٍ أنْ يقولَ: إنَّ هذا من خصائصِ الرَّسولِ ﷺ.

فالصوابُ: أَنَّ الطاهرَ مِنَ الرَّسولِ ﷺ طاهرٌ منك، والنَّجِسُ منك نجسٌ من الرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ هذا هو مقتضى الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ.

وفي هذا الحديثِ: دليلٌ - كما في رواية مسلم - على أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ من خصائصه - فيما يتعلَّقُ بالنِّسَاءِ - أَنَّهُ لَا يَحْرُمُ على المرأةِ أَنْ تُبَاشِرَهُ؛ يَعْنِي: تَلْمِسُ جِلْدَهُ ^(١).

وفيه أيضاً: دليلٌ على جوازِ خُلُوةِ الرَّسولِ ﷺ بالمرأةِ، وهذا أيضاً من خصائصه. كما أَنَّ من خصائصه أَنَّهُ لَا يَجِبُ على المرأةِ أَنْ تَحْتَجِبَ عنه، وهذا له أدلةٌ مُتَعَدِّدَةٌ ^(٢).

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) من ذلك ما رواه أبو داود (٢٤٩٢)، عن عطاء بن يسار، عن أخت أم سليم الرُّمَيْصَاءِ، قالت: نام النَّبِيُّ ﷺ فاستيقظ، وكانت تغسل رأسها، فاستيقظ وهو يضحك، فقالت: يا رسول الله أتضحك من رأسي؟ قال: «لا». وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ، كما في تعليقه على «سنن أبي داود». وانظر: كلام الحافظ الآتي قريباً إن شاء الله.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (٧٨-٧٢ / ١١):

الحديث الثاني قِصَّةُ أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ، أُخْتِ أُمِّ سُلَيْمٍ.

❖ قَوْلُهُ: «حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ». هُوَ ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ.

❖ قَوْلُهُ: «إِذَا ذَهَبَ إِلَى قِبَاءٍ». لَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْ رِوَاةِ الْمَوْطَأِ هَذِهِ الزِّيَادَةَ إِلَّا ابْنُ وَهْبٍ.

قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ. قَالَ: وَتَابَعَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهَا عَتِيقُ بْنُ يَعْقُوبَ، عَنْ مَالِكٍ.

❖ قَوْلُهُ: «أُمُّ حَرَامٍ». بَفَتْحِ الْمُهِمْلَتَيْنِ؛ وَهِيَ خَالَهَ أَنْسٍ، وَكَانَ يُقَالُ لَهَا: الرُّمَيْصَاءُ.

وَلَأُمُّ سُلَيْمٍ: الْعُمَيْصَاءُ. بِالغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ، وَالبَاقِي مِثْلُهُ، قَالَ عِيَاضٌ: وَقِيلَ بِالْعَكْسِ. وَقَالَ

ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: الْغُمَيْصَاءُ وَالرُّمَيْصَاءُ هِيَ أُمُّ سُلَيْمٍ. وَيُرَدُّه مَا أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، عَنْ

عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ الرُّمَيْصَاءِ أُخْتِ أُمِّ سُلَيْمٍ. وَذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِ الْبَابِ.

وَلِأَبِي عَوَانَةَ مِنْ طَرِيقِ الدَّارِوَرْدِيِّ، عَنْ أَبِي طَوَالَةَ، عَنْ أَنْسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَضَعَ رَأْسَهُ فِي بَيْتِ بِنْتِ مِلْحَانَ، إِحْدَى خَالَاتِ أَنْسٍ.

وَمَعْنَى الْعَمَصِ مُتَقَارِبٌ، وَهُوَ اجْتِمَاعُ الْقَدَى فِي مُؤَخَّرِ الْعَيْنِ، وَفِي هَدْيِهَا وَقِيلَ: اسْتَرْخَاؤُهَا وَانْكَسَارُ الْجَفْنِ.

وَقَدْ سَبَقَ حَدِيثُ الْبَابِ فِي أَوَّلِ الْجِهَادِ فِي عِدَّةٍ مَوَاضِعَ مِنْهُ، وَاخْتَلَفَ فِيهِ عَنْ أَنْسٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ مُسْنَدِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ مُسْنَدِ أُمِّ حَرَامٍ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ أَوَّلَهُ مِنْ مُسْنَدِ أَنْسٍ، وَقِصَّةُ الْمَنَامِ مِنْ مُسْنَدِ أُمِّ حَرَامٍ، فَإِنَّ أَنْسًا إِنَّمَا حَمَلَ قِصَّةَ الْمَنَامِ عَنْهَا، وَقَدْ وَقَعَ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يُضْحِكُكَ؟ وَتَقَدَّمَ بَيَانٌ مَنْ قَالَ فِيهِ: عَنْ أَنْسٍ، عَنْ أُمِّ حَرَامٍ، فِي بَابِ «الدَّعَاءِ بِالْجِهَادِ»، لَكِنَّهُ حَذَفَ مَا فِي أَوَّلِ الْحَدِيثِ وَابْتَدَأَهُ بِقَوْلِهِ: اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَوْمِهِ.... إِلَى آخِرِهِ.

وَتَقَدَّمَ فِي بَابِ رُكُوبِ الْبَحْرِ، مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ -بَفَتْحِ الْمُهِمْلَةِ وَتَشْدِيدِ الْمَوْحَدَةِ- عَنْ أَنْسٍ حَدَّثَنِي أُمُّ حَرَامٍ بِنْتُ مِلْحَانَ أُخْتُ أُمِّ سُلَيْمٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا فِي بَيْتِهَا، فَاسْتَيْقَظَ... الْحَدِيثُ.

❖ قَوْلُهُ: «وَكَاثَتْ تَحْتَ عِبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ». هَذَا ظَاهِرُهُ أَنَّهَا كَانَتْ حِينَئِذٍ رُوحَ عِبَادَةٍ، وَتَقَدَّمَ فِي بَابِ غَزْوِ الْمَرْأَةِ لِلْبَحْرِ، مِنْ رِوَايَةِ أَبِي طَوَالَةَ، عَنْ أَنْسٍ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ابْنَةِ مِلْحَانَ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ: فَتَزَوَّجَتْ عِبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ.

وتقدّم أيضًا في «باب ركوب البحر» من طريق محمد بن يحيى بن حبان، عن أنس: فتزوّج بها عبادة، فخرّج بها إلى الغزو.

وفي رواية مسلم من هذا الوجه. فتزوّج بها عبادة بعد.

وقد تقدّم بيان الجمع في باب غزو المرأة في البحر، وأن المراد بقوله هنا: وكانت تحت عبادة. الإخبار عما آل إليه الحال بعد ذلك، وهو الذي اعتمده النووي وغيره تبعًا ليعاض.

لكن وقع في ترجمة أم حرام من طبقات ابن سعد، أنها كانت تحت عبادة فولدت له محمدًا، ثم خلف عليها عمرو بن قيس بن زيد الأنصاري النجاري، فولدت له قيسًا، وعبد الله، وعمرو بن قيس هذا اتفق أهل المغازي أنه استشهد بأحد، وكذا ذكره ابن إسحاق أن ابنه قيس بن عمرو بن قيس استشهد بأحد، فلو كان الأمر كما وقع عند ابن سعد لكان محمدًا صحابيًا؛ لكونه ولدًا لعبادة قبل أن يفارق أم حرام، ثم اتصلت بمن ولدت له قيسًا فاستشهد في أحد، فيكون محمد أكبر من قيس بن عمرو، إلا أن يقال: إن عبادة سمى ابنه محمدًا في الجاهلية، كما سمى بهذا الاسم غير واحد، ومات محمد قبل إسلام الأنصار؛ فلهذا لم يذكروه في الصحابة، ويعكّر عليه أنهم لم يعدوا محمد بن عبادة فيمن سمى بهذا الاسم قبل الإسلام ويمكن الجواب.

وعلى هذا فيكون عبادة تزوّجها أولًا، ثم فارّقها فتزوّجت عمرو بن قيس، ثم استشهد فرجعت إلى عبادة، والذي يظهر لي أن الأمر بعكس ما وقع في الطبقات، وأن عمرو بن قيس تزوّجها أولًا، فولدت له ثم استشهد هو وولده قيس منها، وتزوّجت بعده بعبادة.

وقد تقدّم في باب ما قيل في قتال الروم، بيان المكان الذي نزلت به أم حرام مع عبادة في الغزو، ولفظه من طريق عمير بن الأسود: أنه أتى عبادة بن الصامت، وهو نازل بساحل حمص، ومعه أم حرام، قال عمير: حدثنا أم حرام فذكر المنام.

❦ قوله: «فدخل يومًا». زاد القعنبي، عن مالك: «عليها» أخرجه أبو داود.

❦ قوله: «فأطعمته». لم أقف على تعيين ما أطعمته يومئذ، زاد في «باب الدعاء إلى الجهاد». وجعلت ثغلي رأسه، وثغلي بفتح المثناة، وسكون الفاء، وكسر اللام؛ أي تفتش ما فيه. تقدّم بيانه في الأدب.

❦ قوله: «فنام رسول الله ﷺ». زاد في رواية الليث، عن يحيى بن سعيد، في الجهاد:

«فنام قريباً مني»، وفي رواية أبي طوالة في الجهاد: فاتكأ، ولم يَقَعْ في روايته، ولا في رواية مالك بيان وقت النوم المذكور، وقد زاد غيره: أنه كان وقت القائلة.

ففي رواية حماد بن زيد، عن يحيى بن سعيد، في الجهاد أن النبي ﷺ قال يوماً في بيتها. ولمسلم من هذا الوجه: «أتانا النبي ﷺ فقال عندنا». ولأحمد، وابن سعد من طريق حماد بن سلمة، عن يحيى: بينا رسول الله ﷺ قائلاً في بيتي، ولأحمد من رواية عبد الوارث بن سعيد، عن يحيى «فنام عندها. أو قال» بالشك، وقد أشار البخاري في الترجمة إلى رواية يحيى بن سعيد.

❦ قوله: «ثم استيقظ يضحك». تقدم في الجهاد من هذا الوجه، بلفظ: «وهو يضحك» وكذا هو في معظم الروايات التي ذكرتها.

❦ قوله: «فقلت: ما يضحك؟». في رواية حماد بن زيد عند مسلم: بأبي أنت وأمّي. وفي رواية أبي طوالة: «لم تضحك؟». ولأحمد من طريقه: «مّم تضحك؟». وفي رواية عطاء بن يسار، عن الرّميصاء: ثم استيقظ وهو يضحك، وكانت تغسل رأسها فقالت: يا رسول الله تضحك من رأسي؟ قال: «لا». أخرجه أبو داود، ولم يسق المتن بل أحال به على رواية حماد بن زيد، وقال: يزيد وينقص.

وقد أخرجه عبد الرزاق من الوجه الذي أخرجه منه أبو داود، فقال: عن عطاء بن يسار أن امرأة حدثته، وساق المتن، ولفظه يدل على أنه في قصة أخرى غير قصة أم حرام. فالله أعلم.

❦ قوله: «ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة». في رواية حماد بن زيد، قال: «عجبت من قوم من أمتي»، ولمسلم من هذا الوجه: «أريت قوماً من أمتي». وهذا يشعر بأن ضحكته كان إعجاباً بهم، وفرحاً لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة.

❦ قوله: «يركبون ثبج هذا البحر». في رواية الليث: «يركبون هذا البحر الأخضر». وفي رواية حماد بن زيد: «يركبون البحر». ولمسلم من طريقه: «يركبون ظهر البحر». وفي رواية أبي طوالة: «يركبون البحر الأخضر في سبيل الله».

والثبج بفتح المثناة والموحدة ثم جيم: ظهر الشيء، هكذا فسره جماعة، وقال الخطابي: متن البحر، وظهره. وقال الأصمعي: ثبج كل شيء، وسطه.

❦ قوله: «ملوكاً على الأسرة». كذا للأكثر، ولأبي ذر: «ملوك». بالرفع.

❦ قوله: «أو قال: مثل الملوك على الأسرة - يشك إسحاق -». يعني: راوية عن أنس.

ووقع في رواية اللَّيْثِ، وَحَمَّادِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا قَبْلُ: «كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرِ». مِنْ غَيْرِ شَكٍّ،
وَفِي رِوَايَةِ أَبِي طَوَالَةَ: «مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرِ». بِغَيْرِ شَكٍّ أَيْضًا، وَلَا أَحَدَ مِنْ طَرِيقِهِ: «مِثْلُهُمْ
كَمِثْلِ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرِ».

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَرَادَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ رَأَى الْغَزَاةَ فِي الْبَحْرِ مِنْ أُمَّتِهِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسْرِ
فِي الْجَنَّةِ، وَرُؤْيَاهُ وَحْيٌ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي صِفَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾
[الْقَائِلَاتُ: ٤٤]، وَقَالَ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِفُونَ﴾ [يَسَّ: ٥٦]. وَالْأَرَائِكُ: السُّرُرُ فِي الْحِجَالِ.

وَقَالَ عِيَاضٌ: هَذَا مُحْتَمَلٌ، وَيُحْتَمَلُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ خَبْرًا عَنْ حَالِهِمْ فِي الْغَزْوِ، مِنْ سَعَةِ
أَحْوَالِهِمْ، وَقِيَامِ أَمْرِهِمْ، وَكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ، وَجُودَةِ عُدَّتِهِمْ، فَكَانَتْهُمْ الْمُلُوكُ عَلَى الْأَسْرِ.
قُلْتُ: وَفِي هَذَا الْإِحْتِمَالِ بُعْدٌ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، لَكِنَّ الْإِتْيَانَ بِالتَّمثِيلِ فِي مُعْظَمِ طَرْقِهِ يَدُلُّ
عَلَى أَنَّهُ رَأَى مَا يُؤَوَّلُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ، لَا أَنَّهُمْ نَالُوا ذَلِكَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، أَوْ مَوْقِعِ التَّشْبِيهِ أَنَّهُمْ فِيمَا
هُمْ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي أُثْبِتُوا بِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ، مِثْلُ مُلُوكِ الدُّنْيَا عَلَى أَسْرَتِهِمْ، وَالتَّشْبِيهِ
بِالْمَحْسُوسَاتِ أَبْلَغُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ.

❖ قَوْلُهُ: «فَقُلْتُ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ نِيَّيْنِي مِنْهُمْ، فِدَعَا». تَقَدَّمَ فِي أَوَائِلِ الْجِهَادِ بِلَفْظٍ: «فِدَعَا
لَهَا». وَمِثْلُهُ فِي رِوَايَةِ اللَّيْثِ.

❖ قَوْلُهُ: «ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ، فَنَامَ». فِي رِوَايَةِ اللَّيْثِ: ثُمَّ قَامَ ثَانِيَةً فَفَعَلَ مِثْلَهَا، فَتَأَلَّتْ مِثْلُ
قَوْلِهَا، فَأَجَابَهَا مِثْلَهَا، وَفِي رِوَايَةِ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، فَقَالَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً.

❖ قَوْلُهُ: «أَنْتَ مِنَ الْأَوَّلِينَ». زَادَ فِي رِوَايَةِ الدَّارَوُرْدِيِّ، عَنْ أَبِي طَوَالَةَ: «وَلَسْتُ مِنْ
الْآخِرِينَ». وَفِي رِوَايَةِ عُمَيْرِ بْنِ الْأَسْوَدِ الثَّانِيَةِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا مِنْهُمْ؟ قَالَ: «لَا».
قُلْتُ: وَظَاهِرُ قَوْلِهِ: «فَقَالَ مِثْلَهَا». أَنَّ الْفِرْقَةَ الثَّانِيَةَ يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ أَيْضًا، وَلَكِنْ رِوَايَةُ عُمَيْرِ بْنِ
الْأَسْوَدِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الثَّانِيَةَ إِنَّمَا غَزَتْ فِي الْبَرِّ؛ لِقَوْلِهِ: «يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ». وَقَدْ حَكَى ابْنُ
الْتِّينِ: أَنَّ الثَّانِيَةَ وَرَدَتْ فِي غَزَاةِ الْبَرِّ وَأَقْرَهُ.

وَعَلَى هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى حَمْلِ الْمِثْلِيَّةِ فِي الْخَبَرِ عَلَى مُعْظَمِ مَا اشْتَرَكَتْ فِيهِ الطَّائِفَتَانِ، لَا
خُصُوصَ رُكُوبِ الْبَحْرِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْعَسْكَرِ الَّذِينَ غَزَوْا مَدِينَةَ قَيْصَرَ، رَكِبُوا
الْبَحْرَ إِلَيْهَا، وَعَلَى تَقْدِيرٍ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مَا حَكَى ابْنُ التِّينِ، فَتَكُونُ الْأَوَّلِيَّةُ مَعَ كَوْنِهَا فِي الْبَرِّ
مُقَيَّدَةً، بِقَصْدِ مَدِينَةِ قَيْصَرَ، وَإِلَّا فَقَدْ غَزَوْا قَبْلَ ذَلِكَ فِي الْبَرِّ مِرَارًا.

وقال القرطبي: الأولى في أوّل من غزا البحر من الصحابة، والثانية في أوّل من غزا البحر من التابعين، قلت: بل كان في كلّ منهما من الفريقين، لكن معظم الأولى من الصحابة، والثانية بالعكس.

قال عياض والقرطبي: في السياق دليل على أن رؤياه الثانية غير رؤياه الأولى، وأنّ في كلّ نومة، عُرضت طائفة من الغزاة.

وأما قول أمّ حرام: ادعُ الله أن يجعلني منهم. في الثانية؛ فلظنّها أنّ الثانية تساوي الأولى في المرتبة، فسألت ثانياً ليتضاعف لها الأجر، لا أنّها شكّت في إجابة دعاء النبي ﷺ لها في المرّة الأولى، وفي جزمه بذلك.

قلت: لا تنافي بين إجابة دعائه، وجزمه بأنّها من الأوّلين، وبين سؤالها أن تكون من الآخرين؛ لأنّه لم يقع التصريح لها أنّها تموت قبل زمان الغزوة الثانية، فجوزت أنّها تُدرِكها فتغزو معهم، ويحصل لها أجر الفريقين، فأعلمها أنّها لا تُدرِك زمان الغزوة الثانية، فكان كما قال ﷺ.

قوله: «فركبت البحر في زمان معاوية». في رواية الليث: فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً، أوّل ما ركب المسلمون البحر مع معاوية. وفي رواية حماد: فتزوج بها عبادة، فخرج بها إلى الغزو. وفي رواية أبي طوالة: فتزوجت عبادة، فركبت البحر مع بنت قرظة، وقد تقدّم اسمها في باب غزو المرأة في البحر.

وتقدّم في باب «فضل من يصرع في سبيل الله». بيان الوقت الذي ركب فيه المسلمون البحر للغزو أولاً، وأنّه كان في سنة ثمان وعشرين، وكان ذلك في خلافة عثمان، ومعاوية يومئذ أمير الشام.

وظاهر سياق الخبر يوهم أنّ ذلك كان في خلافته، وليس كذلك، وقد اغترّ بظاهره بعض الناس فوهّم، فإنّ القصّة إنّما وردت في حقّ أوّل من يغزو في البحر، وكان عمر يُنهى عن ركوب البحر، فلما وليّ عثمان استأذنه معاوية في الغزو في البحر، فأذن له، ونقله أبو جعفر الطبري، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ويكفي في الردّ عليه التصريح في الصحيح بأن ذلك كان أوّل ما غزا المسلمون في البحر، ونقل أيضاً من طريق خالد بن معدان، قال: أوّل من غزا البحر معاوية في زمن عثمان، وكان استأذن عمر فلم يأذن له، فلم يرزّل بعثمان حتى أذن له، وقال: لا تتخبّ أحداً، بل من اختار العزّ فيه طائعاً فأعنه، ففعل.

وقال خليفة بن خياط في تاريخه في حوادث سنة ثمان وعشرين: وفيها غزا معاوية البحر، ومعه امرأته فاختة بنت قَرْظَةَ، ومع عبادة بن الصامت امرأته أم حرام، وأرخها في سنة ثمان وعشرين غير واحد، وبه جَزَمَ ابن أبي حاتم، وأرخها يعقوب بن سفيان في المحرم سنة سبع وعشرين، قال: كانت فيه غزاة قبرص الأولى.

وأخرج الطبري من طريق الواقدي: أن معاوية غزا الروم في خلافة عثمان، فصالح أهل قبرص، وسمى امرأته كبرة بفتح الكاف، وسكون الموحدة، وقيل: فاختة بنت قَرْظَةَ، وهما أختان كان معاوية تزوجهما واحدة بعد أخرى. ومن طريق ابن وهب، عن ابن لهيعة: أن معاوية غزا بامرأته إلى قبرص في خلافة عثمان، فصالحهم.

ومن طريق أبي معشر المدني: أن ذلك كان في سنة ثلاث وثلاثين. فتحصّلنا على ثلاثة أقوال: والأول أصح، وكلها في خلافة عثمان أيضاً؛ لأنه قُتِلَ في آخر سنة خمس وثلاثين.

❦ قوله: «فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا، حِينَ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ، فَهَلَكَتْ». في رواية الليث: فلما انصرفوا من غزوهم قافلين إلى الشام قُرِبَتْ إليها دَابَّةٌ لتركبها، فصرعت فماتت. وفي رواية حماد بن زيد، عند أحمد: فوقصتها بغلة لها شهباء فوقعت، فماتت. وفي رواية عنه مضت في: «باب ركوب البحر»: فوقعت فاندقت عنقها. وقد جمّع بينهما في باب فضل من يصرع في سبيل الله.

والحاصل: أن البغلة الشهباء قُرِبَتْ إليها لتركبها، فصرعت لتركب، فسقطت فاندقت عنقها، فماتت، وظاهر رواية الليث أن وقعتها كانت بساحل الشام، لما خرجت من البحر بعد رجوعهم من غزاة قبرص، لكن أخرج ابن أبي عاصم في كتاب الجهاد، عن هشام بن عمار، عن يحيى بن حمزة بالسند الماضي لقصة أم حرام، في باب ما قيل في قتال الروم، وفيه: وعبادة نازل بساحل حمص. قال هشام بن عمار: رأيت قبرها بساحل حمص، وجزم جماعة بأن قبرها بجزيرة قبرص.

قال ابن جبان بعد أن أخرج الحديث من طريق الليث بن سعد، بسنده: قبر أم حرام بجزيرة في بحر الروم يقال لها: قبرص، بين بلاد المسلمين وبينها ثلاثة أيام. وجزم ابن عبد البر، بأنها

حِينَ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى جَزِيرَةِ قَبْرَصَ، قُرِبَتْ إِلَيْهَا دَابَّتُهَا فَصَرَعَتْهَا.

وَأَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْوَاقِدِيِّ: أَنَّ مَعَاوِيَةَ صَالَحَهُمْ بَعْدَ فَتْحِهَا عَلَى سَبْعَةِ آلَافٍ دِينَارٍ فِي كُلِّ سَنَةٍ، فَلَمَّا أَرَادُوا الْخُرُوجَ مِنْهَا قُرِبَتْ لَأَمٍّ حَرَامٍ دَابَّةٌ لَتَرَكَبَهَا فَسَقَطَتْ. فَمَاتَتْ، فَقَبَّرَهَا هُنَاكَ يَسْتَسْقُونَ بِهِ، وَيَقُولُونَ: قَبْرُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ.

فَعَلَى هَذَا فَلَعَلَّ مَرَادَ هِشَامِ بْنِ عَمَّارٍ بِقَوْلِهِ: رَأَيْتُ قَبْرَهَا بِالسَّاحِلِ، أَيِ: سَاحِلِ جَزِيرَةِ قَبْرَصَ، فَكَأَنَّهُ تَوَجَّهَ إِلَى قَبْرَصَ لِمَا غَزَاهَا الرَّشِيدُ فِي خِلَافَتِهِ.

وَيُجْمَعُ بَأَنَّهُمْ لَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ بَادَرَتْ الْمُقَاتِلَةُ، وَتَأَخَّرَتِ الضُّعَفَاءُ كَالنِّسَاءِ، فَلَمَّا غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ وَصَالِحُوهُمْ، طَلَعَتْ أُمُّ حَرَامٍ مِنَ السَّفِينَةِ قَاصِدَةً الْبَلَدَ؛ لَتَرَاهَا وَتَعُوذُ رَاجِعَةً لِلشَّامِ، فَوَقَعَتْ حِينئِذٍ، وَيُحْمَلُ قَوْلُ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ فِي رَوَايَتِهِ: «فَلَمَّا رَجَعَتْ». وَقَوْلُ أَبِي طَوَالَةَ: «فَلَمَّا قَفَلَتْ». أَيِ: أَرَادَتْ الرُّجُوعَ، وَكَذَا قَوْلُ اللَّيْثِ فِي رَوَايَتِهِ: «فَلَمَّا انْصَرَفُوا مِنْ غَزْوِهِمْ قَافِلِينَ». أَيِ: أَرَادُوا الْإِنْصِرَافَ.

ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَى شَيْءٍ يَزُولُ بِهِ الْإِشْكَالُ مِنْ أَصْلِهِ؛ وَهُوَ مَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ امْرَأَةً حَدَّثَتْ، قَالَتْ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: تَضَحُّكَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ مِنْ قَوْمٍ مِنْ أُمَّتِي يَخْرُجُونَ غَزَاةً فِي الْبَحْرِ، مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرِ». ثُمَّ نَامَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ سِوَاءً، لَكِنْ قَالَ: فَيَرْجِعُونَ قَلِيلَةً غَنَائِمُهُمْ، مَغْفُورًا لَهُمْ». قَالَتْ: فَادَّعَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَدَعَا لَهَا. قَالَ عَطَاءٌ: فَرَأَيْتُهَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا الْمُنْذِرُ ابْنُ الزَّبِيرِ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ، فَمَاتَتْ بِأَرْضِ الرُّومِ، وَهَذَا إِسْنَادٌ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ.

وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ هِشَامِ بْنِ يَوْسَفَ، عَنْ مَعْمَرٍ، فَقَالَ فِي رَوَايَتِهِ: عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ الرُّمَيْصَاءِ أُخْتِ أُمِّ سُلَيْمٍ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ حَفْصِ بْنِ مَيْسَرَةَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، فَقَالَ فِي رَوَايَتِهِ: عَنْ أُمِّ حَرَامٍ، وَكَذَا قَالَ زَهَيْرُ بْنُ عَبَّادٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ. وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ قَوْلَ مَنْ قَالَ فِي حَدِيثِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ هَذَا: عَنْ أُمِّ حَرَامٍ وَهْمٌ، وَإِنَّمَا هِيَ الرُّمَيْصَاءُ، وَلَيْسَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ، وَإِنْ كَانَتْ يَقَالُ لَهَا أَيْضًا: الرُّمَيْصَاءُ. كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْمَنَاقِبِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ: لِأَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ لَمْ تَمُتْ بِأَرْضِ الرُّومِ، وَلَعَلَّهَا أُخْتُهَا أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِلْحَانَ فَقَدْ ذَكَرَهَا ابْنُ سَعْدٍ فِي الصَّحَابِيَّاتِ، وَقَالَ: إِنَّهَا أَسْلَمَتْ وَبَاتَتْ. وَلَمْ أَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَبَرِهَا

إِلَّا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ سَعْدٍ، فَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هِيَ صَاحِبَةُ الْقِصَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا عَطَاءُ بْنُ يَسَارٍ، وَتَكُونُ تَأَخَّرَتْ حَتَّى أَدْرَكَهَا عَطَاءٌ، وَقَصَّهَا مَغَايِرَةً لِقِصَّةِ أُمِّ حَرَامٍ مِنْ أَوْجُهٍ:

الأول: أَنَّ فِي حَدِيثٍ أُمِّ حَرَامٍ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا نَامَ كَانَتْ تَقْلِي رَأْسَهُ، وَفِي حَدِيثِ الْآخَرَى أَنَّهُا كَانَتْ تَغْسِلُ رَأْسَهَا، كَمَا قَدَّمْتُ ذِكْرَهُ مِنْ رَوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ.

الثاني: ظَاهِرُ رَوَايَةِ أُمِّ حَرَامٍ أَنَّ الْفِرْقَةَ الثَّانِيَةَ تَغْزُو فِي الْبَرِّ، وَظَاهِرُ الرُّوَايَةِ الْآخَرَى أَنَّهُا تَغْزُو فِي الْبَحْرِ.

الثالث: أَنَّ فِي رَوَايَةِ أُمِّ حَرَامٍ أَنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْفِرْقَةِ الْأُولَى، وَفِي الرُّوَايَةِ الْآخَرَى أَنَّهُا مِنْ أَهْلِ الْفِرْقَةِ الثَّانِيَةِ.

الرابع: أَنَّ فِي حَدِيثٍ أُمِّ حَرَامٍ أَنَّ أَمِيرَ الْغَزْوَةِ كَانَ مُعَاوِيَةُ، وَفِي الرُّوَايَةِ الْآخَرَى أَنَّ أَمِيرَهَا كَانَ الْمَنْذَرُ بْنُ الزَّبِيرِ.

الخامس: أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ ذَكَرَ أَنَّهَا حَدَّثَتْهُ، وَهُوَ يَصْغُرُ عَنْ إِدْرَاكِ أُمِّ حَرَامٍ، وَعَنْ أَنَّ يَغْزُو فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ، بَلْ وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ؛ لِأَنَّ مَوْلِدَهُ عَلَى مَا جَزَمَ بِهِ عُمَرُو بْنُ عَلِيٍّ وَغَيْرُهُ كَانَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ عَشْرَةٍ.

وَعَلَى هَذَا فَقَدْ تَعَدَّدَتِ الْقِصَّةُ مِنْ أُمِّ حَرَامٍ، وَلَاخْتِهَا أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ، فَلَعَلَّ إِحْدَاهُمَا دُفِنَتْ بِسَاحِلِ قَبْرِصَ، وَالْآخَرَى بِسَاحِلِ حِمَاصَ، وَلَمْ أَرَّ مَنْ حَرَّرَ ذَلِكَ - وَاللَّهُ الْحَمْدُ عَلَى جَزِيلِ نِعَمِهِ -.

وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ: التَّرْغِيبُ فِي الْجِهَادِ وَالْحِصْنِ عَلَيْهِ، وَبَيَانُ فَضِيلَةِ الْمَجَاهِدِ.

وفيه: جَوَازُ رُكُوبِ الْبَحْرِ الْمَلْحِ لِلْغَزْوِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ الْاِخْتِلَافِ فِيهِ، وَأَنَّ عُمَرَ كَانَ يَمْنَعُ مِنْهُ، ثُمَّ أُذِنَ فِيهِ عُثْمَانُ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ: ثُمَّ مَنَعَ مِنْهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، ثُمَّ أُذِنَ فِيهِ مَنْ بَعْدَهُ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ عَلَيْهِ، وَنُقِلَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ إِنَّمَا مَنَعَ رُكُوبَهُ لِغَيْرِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَنُقِلَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَنَّهُ يَحْرُمُ رُكُوبُهُ عِنْدَ ارْتِجَاجِهِ اتِّفَاقًا، وَكَرِهَ مَالِكُ رُكُوبَ النِّسَاءِ مُطْلَقًا الْبَحْرَ، لِمَا يُخْشَى مِنْ اِطْلَاعِهِنَّ عَلَى عَوْرَاتِ الرِّجَالِ فِيهِ، إِذِ تَعَسَّرَ الْاِحْتِرَازُ مِنْ ذَلِكَ، وَخَصَّ أَصْحَابُهُ ذَلِكَ بِالسُّفُنِ الصَّغَارِ، وَأَمَّا الْكِبَارُ الَّتِي يُمْكِنُهُنَّ فِيْهِنَّ الْاِسْتِنَارُ بِأَمَاكِنَ تَخْصُهُنَّ فَلَا حَرَجَ فِيهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: جَوَازُ تَمَنِّيِ الشَّهَادَةِ، وَأَنَّ مَنْ يَمُوتُ غَازِيًا يَلْحَقُ بِمَنْ يُقْتَلُ فِي الْغَزْوِ، كَذَا قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْقِصَّةِ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنَ الْاِسْتِوَاءِ فِي أَصْلِ الْفَضْلِ الْاِسْتِوَاءُ فِي الدَّرَجَاتِ، وَقَدْ

ذَكَرْتُ فِي بَابِ الشُّهَدَاءِ مِنْ كِتَابِ الْجِهَادِ كَثِيرًا مِمَّنْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ الشَّهِيدُ، وَإِنْ لَمْ يُقْتَلْ.

وفيه: مشروعية القاتلة لما فيه من الإعانة على قيام الليل، وجواز إخراج ما يؤذي البدن من قمل ونحوه عنه.

ومشروعية الجهاد مع كل إمام؛ لتضمينه الشاء على من غزا مدينة قيصر، وكان أمير تلك الغزوة يزيد بن معاوية.

وثبوت فضل الغازي إذا صلحت نيته.

وقال بعض الشراح: فيه فضل المجاهدين إلى يوم القيامة؛ لقوله فيه: «ولست من الآخرين». ولا نهاية للآخرين إلى يوم القيامة. والذي يظهر أن المراد بالآخرين في الحديث الفرقة الثانية، نعم يؤخذ منه فضل المجاهدين في الجملة، لا خصوص الفضل الوارد في حق المذكورين.

وفيه: ضروب من إخبار النبي ﷺ بما سيقع، فوقع كما قال، وذلك معدود من علامات نبوته؛ منها إعلامه ببقاء أمته بعده، وأن فيهم أصحاب قوة، وشوكة، ونكاية في العدو، وأنهم يتمكنون من البلاد، حتى يغزوا البحر، وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان، وأنها تكون مع من يغزو البحر، وأنها لا تدرك زمان الغزوة الثانية.

وفيه: جواز الفرح بما يحدث من النعم، والضحك عند حصول الشؤر؛ لصحبه ﷺ إعجاباً بما رأى من امتثال أمته أمره لهم بجهاد العدو، وما أثابهم الله تعالى على ذلك، وما ورد في بعض طرقه بلفظ التعجب محمول على ذلك.

وفيه: جواز قاتلة الضيف في غير بيته بشرطه، كالإذن، وأمن الفتنة.

وجواز خدمة المرأة الأجنبية الضيف بإطعامه، والتمهيد له ونحو ذلك، [هذا قد يقال: إن فيه نظراً، وذلك لأن النبي ﷺ لا يساوي غيره في هذا الباب؛ لأن الفتنة بالنسبة للرسول ﷺ مأمونة جداً بخلاف غيره، وقد سبق لنا أن من خصائص الرسول ﷺ جواز النظر إلى المرأة الأجنبية، وجواز الخلوة بها، وجواز مكالمتها، وجواز أن تغلي رأسه، وما أشبه ذلك فهذه الفائدة فيها نظر، ولو سلم الاستدلال بها، لكان يجب أن يكون ذلك بحضرة المحرم، والسلامة من الفتنة] ^(١).

(١) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين.

وإباحة ما قدمته المرأة للضيف من مال زوجها؛ لأنَّ الأغلب أنَّ الذي في بيت المرأة هو من مال الرَّجُل، كذا قال ابنُ بطَّالٍ، قال: وفيه أنَّ الوكيلَ والمؤتمَنَ إذا علِمَا أَنَّهُ يَسْرُ صاحِبَه ما يفعله مِن ذلك جازَ له فَعَلُهُ، ولا شكَّ أنَّ عُبَادَةَ كَانَ يَسْرُهُ أَكُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا قَدَّمَتْهُ لَهُ امْرَأَتُهُ، ولو كان بغيرِ إِذْنٍ خَاصٍّ مِنْهُ، وتَعَقَّبَهُ الْقُرْطُبِيُّ بِأَنَّ عُبَادَةَ حِينَئِذٍ لَمْ يَكُنْ زَوْجَهَا كَمَا تَقَدَّمَ. قُلْتُ: لكن ليس في الحديث ما يُنْفِي أَنَّهَا كَانَتْ حِينَئِذٍ ذَاتَ زَوْجٍ، إِلَّا أَنَّ فِي كَلَامِ ابْنِ سَعْدٍ مَا يَقْتَضِي أَنَّهَا كَانَتْ حِينَئِذٍ عَزَبًا.

وفيه: خَدَمَتِ الْمَرْأَةُ الضَّيْفَ بِتَفْلِيَةٍ رَأْسَهُ، وَقَدْ أَشْكَلَ هَذَا عَلَى جَمَاعَةٍ، فَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَظُنُّ أَنَّ أُمَّ حَرَامٍ أَرْضَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَوْ أَخْتَهَا أُمَّ سَلِيمٍ، فَصَارَتْ كُلُّ مَنِهَا أُمَّهُ، أَوْ خَالَتَهُ مِنَ الرِّضَاعَةِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ يَنَامُ عِنْدَهَا، وَتَسَالُ مِنْهُ مَا يَجُوزُ لِلْمَحْرَمِ أَنْ يَنَالَهُ مِنْ مُحَارِمِهِ، ثُمَّ سَأَلَ بِسَنَدِهِ إِلَى يَحْيَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَزِينٍ، قَالَ: إِنَّمَا اسْتَجَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَفْلِيَ أُمَّ حَرَامٍ رَأْسَهُ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مِنْهُ ذَاتَ مُحْرَمٍ مِنْ قَبْلِ خَالَاتِهِ، لِأَنَّ أُمَّ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؛ جَدَّهُ، كَانَتْ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَمِنْ طَرِيقِ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: قَالَ لَنَا ابْنُ وَهْبٍ: أُمُّ حَرَامٍ إِحْدَى خَالَاتِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الرِّضَاعَةِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ يَقِيلُ عِنْدَهَا وَيَنَامُ فِي حَجَرِهَا، وَتَفْلِيَ رَأْسَهُ. قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَإِيهمَا كَانَ فَهِيَ مُحْرَمٌ لَهُ، وَجَزَمَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ الْجَوْهَرِيِّ وَالذَّائِدِيُّ، وَالْمَهْلَبُ فِيهَا حَكَاهُ ابْنُ بَطَّالٍ عَنْهُ بِمَا قَالَ ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا كَانَتْ خَالَةً لِأَبِيهِ، أَوْ جَدَّهُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: سَمِعْتُ بَعْضَ الْحُفَاطِ يَقُولُ: كَانَتْ أُمُّ سَلِيمٍ أُخْتِ أَمَنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ أُمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الرِّضَاعَةِ. وَحَكَى ابْنُ الْعَرَبِيِّ مَا قَالَ ابْنُ وَهْبٍ، ثُمَّ قَالَ: وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مَعْصُومًا؛ يَمْلِكُ إِرْبَهُ ^(١) عَنْ زَوْجَتِهِ، فَكَيْفَ عَنْ غَيْرِهَا مِمَّا هُوَ الْمُتَزَّه عَنْهُ؟ وَهُوَ الْمُتَبَرِّأُ عَنْ كُلِّ فَعْلٍ قَبِيحٍ، وَقَوْلِ رَفِثٍ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْلَ الْحِجَابِ.

(١) قَالَ النَّوَوِيُّ تَحْلُوتُهُ فِي شَرْحِهِ لَصَحِيحِ مُسْلِمٍ (٤ / ٢٣٤): هَذِهِ اللَّفْظَةُ رَوَاهَا عَلَى وَجْهَيْنِ: أَشْهَرُهَا رَوَايَةُ الْأَكْثَرِينَ: إِرْبُهُ بِكَسْرِ الِهْمْزَةِ وَإِسْكَانِ الرَّاءِ، وَكَذَا نَقَلَهُ الْخَطَّابِيُّ وَالْقَاضِي عَنْ رَوَايَةِ الْأَكْثَرِينَ. وَالثَّانِي: بِفَتْحِ الِهْمْزَةِ وَالرَّاءِ، وَمَعْنَاهُ بِالْكَسْرِ الْوَطْرُ وَالْحَاجَةُ، وَكَذَا بِالْفَتْحِ، وَلَكِنَّهُ يَطْلُقُ الْمَفْتُوحُ أَيْضًا عَلَى الْعَضْوِ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي مَعْلَمِ السَّنَنِ (٢ / ٩٨): هَذِهِ اللَّفْظَةُ تَرَوَى عَلَى الْوَجْهَيْنِ: الْفَتْحُ، وَالْكَسْرُ وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَهُوَ حَاجَةُ النَّفْسِ وَوَطَرُهَا. اهـ

وَرُدَّ بِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ بَعْدَ الْحَجَابِ جَزْمًا، وَقَدْ قَدِّمْتُ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ عَلَى شَرْحِهِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بَعْدَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ.

وَرَدَّ عِيَاضُ الْأَوَّلِ بِأَنَّ الْخُصَائِصَ لَا تَثْبُتُ بِالْإِحْتِمَالِ، وَثَبُوتُ الْعِصْمَةِ مُسَلَّمٌ، لَكِنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ الْخُصُوصِيَّةِ، وَجَوَازُ الْإِقْتِدَاءِ بِهِ فِي أَفْعَالِهِ، حَتَّى يَقُومَ عَلَى الْخُصُوصِيَّةِ دَلِيلٌ.

وَبَالِغُ الدِّمِيَاطِيِّ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ ادَّعَى الْمَحْرَمِيَّةَ، فَقَالَ: ذَهَلَ كُلُّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ أُمَّ حَرَامٍ إِحْدَى خَالَاتِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الرِّضَاعَةِ، أَوْ مِنَ النَّسَبِ، وَكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ لَهَا خَوْلَةً تَقْتَضِي الْمَحْرَمِيَّةَ؛ لِأَنَّ أُمَهَاتِهِ مِنَ النَّسَبِ وَاللَّاتِي أَرْضَعْنَهُ مَعْلُومَاتٌ لَيْسَ فِيهِنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الْبَتَّةِ سِوَى أُمِّ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهِيَ سَلْمَى بِنْتُ عَمْرِو بْنِ زَيْدِ بْنِ لَبِيدِ بْنِ خَرَّاشِ بْنِ عَامِرِ بْنِ غَنَمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ، وَأُمُّ حَرَامٍ هِيَ بِنْتُ مِلْحَانَ بْنِ خَالِدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَرَامِ بْنِ جَنْدَبِ بْنِ عَامِرِ الْمَذْكُورِ، فَلَا تَجْتَمِعُ أُمُّ حَرَامٍ وَسَلْمَى إِلَّا فِي عَامِرِ بْنِ غَنَمٍ جَدَّهُمَا الْأَعْلَى، وَهَذِهِ خَوْلَةٌ لَا تَثْبُتُ بِهَا مَحْرَمِيَّةٌ؛ لِأَنَّهَا خَوْلَةٌ مُجَازِيَّةٌ وَهِيَ كَقَوْلِهِ ﷺ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ: «هَذَا خَالِي». لَكُونِهِ مِنْ بَنِي زُهْرَةَ، وَهُمْ أَقَارِبُ أُمِّهِ آمَنَةَ، وَلَيْسَ سَعْدٌ أَخًا لِآمَنَةَ، لَا مِنَ النَّسَبِ وَلَا مِنَ الرِّضَاعَةِ.

ثُمَّ قَالَ: وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَدْخُلُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِ إِلَّا عَلَى أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقِيلَ لَهُ: فَقَالَ: «أَرْحَمُهَا، قُتِلَ أَخُوهَا مَعِيَ». يَعْنِي: حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ، وَكَانَ قَدْ قُتِلَ يَوْمَ بَيْرِ مَعُونَةَ.

قُلْتُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ قِصَّتُهُ فِي الْجِهَادِ، فِي بَابِ فَضْلِ مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا، وَأَوْصَحْتُ هُنَاكَ وَجْهَ الْجَمْعِ بَيْنَ مَا أَفْهَمَهُ هَذَا الْحَصْرُ، وَبَيْنَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبَابِ فِي أُمَّ حَرَامٍ، بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّهُمَا اخْتَانَا كَانَتَا فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا فِي بَيْتٍ مِنْ تِلْكَ الدَّارِ، وَحَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ أَخُوهُمَا مَعًا، فَالْعَلَّةُ مُشْتَرَكَةٌ فِيهِمَا، وَإِنْ ثَبَتَ قِصَّةُ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ بِنْتِ مِلْحَانَ الَّتِي أَشْرَتْ إِلَيْهَا قَرِيبًا فَالْقَوْلُ فِيهَا كَالْقَوْلِ فِي أُمَّ حَرَامٍ، وَقَدْ انْضَافَ إِلَى الْعَلَّةِ الْمَذْكُورَةِ كَوْنُ أَنْسِ خَادِمِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمُخَالَطَةِ الْمُخْدُومِ خَادِمَهُ، وَأَهْلَ خَادِمِهِ، وَرَفَعَ الْحِشْمَةِ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ الْأَجَانِبِ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ الدِّمِيَاطِيُّ: عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْخُلُوةِ بِأُمَّ حَرَامٍ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ مَعَ وَلَدٍ، أَوْ خَادِمٍ أَوْ زَوْجٍ، أَوْ تَابِعٍ.

قُلْتُ: وَهُوَ إِحْتِمَالٌ قَوِيٌّ، لَكِنَّهُ لَا يَدْفَعُ الْإِشْكَالَ مِنْ أَصْلِهِ لِبَقَاءِ الْمَلَاسَةِ فِي تَقْلِيلِهِ

الرَّأْسِ، وكذا النَّوْمُ فِي الْحِجْرِ.

وَأَحْسَنُ الْأَجْوِبَةِ دَعْوَى الْخُصُوصِيَّةِ، وَلَا يَرُدُّهَا كَوْنُهَا لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِدَلِيلٍ؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ وَاضِحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى كَلَامُ الْحَافِظِ.

الظَاهِرُ الْأَخِيرُ، وَهُوَ الْمَعْتَمَدُ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْخُصُوصِيَّةِ؛ لِأَنَّ إِثْبَاتَ الْخَوْلَةِ وَالرَّضَاعَةِ الْأَصْلُ فِيهَا الْعَدَمُ، فَلَا ظَهْرَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْخُصُوصِيَّةِ، كَمَا اخْتَصَّ النَّبِيُّ ﷺ: أَنَّهُ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ، فَلَهُ ﷺ خَصَائِصٌ فِيهَا يَتَعَلَّقُ بِالنِّكَاحِ وَالْمَحْرَمِيَّةِ لَا تَثْبُتُ لِغَيْرِهِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٢ - بَابُ الْجُلُوسِ كَيْفَمَا تَيْسَّرُ.

٦٢٨٤ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ،

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ لَيْسَتَيْنِ، وَعَنْ بَيْعَتَيْنِ: اشْتِهَالِ الصَّمَاءِ، وَالِاحْتِبَاءِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ لَيْسَ عَلَى فَرْجِ الْإِنْسَانِ مِنْهُ شَيْءٌ، وَالْمَلَامَسَةِ، وَالْمُنَابَذَةِ^(١).

تَابِعَهُ مَعْمَرٌ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُدَيْلٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ^(٢).

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَابُ الْجُلُوسِ كَيْفَمَا تَيْسَّرُ». يَحْتَمِلُ هَذَا أَنْ يَكُونَ فِي الْمَكَانِ، وَأَنْ يَكُونَ فِي الْهَيْئَةِ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

أَمَّا فِي الْمَكَانِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَجْلِسُ كَيْفَمَا تَيْسَّرُ، إِمَّا فِي آخِرِ النَّاسِ، أَوْ فِي وَسْطِهِمْ، أَوْ فِي أَوَّلِهِمْ، كَيْفَمَا تَيْسَّرُ لَا يَكْلِفُ نَفْسَهُ وَلَا غَيْرَهُ.

وَفِي الْهَيْئَةِ كَذَلِكَ يَجْلِسُ كَيْفَمَا تَيْسَّرُ لَا يَشُقُّ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِذَا كَانَ لَا يَرْتَاحُ إِلَّا مُتَرَبِّعًا تَرَبُّعًا، أَوْ مُفْتَرِشًا افْتَرَشَ، فَكَيْفَمَا تَيْسَّرَ جَلَسَ؛ لِأَنَّهُ سَبَقَ لَنَا قَاعِدَةٌ، وَهِيَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُسَهِّلَ عَلَى نَفْسِهِ مَا اسْتَطَاعَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا فِيهَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ.

(١) وَبَنَحُوهُ رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٥١٢) (٣).

(٢) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَمَّا حَدِيثُ مَعْمَرٍ، فَأَسْنَدُهُ الْمُؤَلَّفُ فِي «الْبَيْوعِ» (٢١٤٧). وَأَمَّا تَابِعَةُ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ، فَهِيَ عِنْدَ أَبِي أَحْمَدَ بْنِ عَدِيٍّ فِي نَسْخَةِ أَحْمَدَ بْنِ حَفْصَةَ النَّيْسَابُورِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ طَهْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ.

وَأَمَّا تَابِعَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُدَيْلٍ، فَأَظْهَرَ فِي «الزُّهْرِيَّاتِ». جَمَعَ الزُّهْرِيُّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. «الْفَتْحُ» (١١ / ٧٩)، وَ«التَّغْلِيْقُ» (٥ / ١٣١)، وَانْظُرْ: «هُدًى السَّارِي» (ص ٦٤).

ثم ذكر حديث أبي سعيد، أن الرسول ﷺ نهى عن لِيَسْتَبِينَ، وعن بَيْعَتَيْنِ: اشتِهَالِ الصَّمَاءِ، والاحتبَاءِ في ثوبٍ واحدٍ.

اشتِهَالُ الصَّمَاءِ معناه: أن الإنسان يَلْتَفُ ثوبٌ، ولا يُخْرِجُ يَدَيْهِ. فإن هذا، قال فيه أهلُ العلم: إنه يُوَدِّي إلى أنه لا يَسْتَطِيعُ الدَّفَاعَ عَنْ نَفْسِهِ فيما لو هَاجَمَهُ شيءٌ.

وكذلك الاحتبَاءُ في الثوبِ الواحدِ أيضًا، فإنه يُنْهَى عنه؛ وذلك لأنه إذا احتبَى وليس عليه إلا ثوبٌ واحدٌ فإن عَوْرَتَهُ مِنْ فَوْقِ تَبْدُو؛ لأنَّ الاحتبَاءَ معناه أن الإنسان يَلْتَفُ ثوبٌ يكونُ على ظَهْرِهِ وعلى سَاقِيهِ، فإذا فَعَلَ ذلك فإن عورته من فوق سوف تبدو، وربما يسْقُطُ على ظَهْرِهِ فينْكَشِفُ، ولهذا قال: «ليس على فَرْجِ الإنسانِ منه شيءٌ». أمَّا لو فَرَضَ أن هذا الثوبَ الواحدَ مثلاً قِطْعَةً أو جزءًا منه ملفوفةٌ على الفَرْجِ خاصَّةً فإن هذا لا بأس به؛ لزوالِ المحظورِ.

❖ وأمَّا البيْعَتَيْنِ، فقال: «المَلَامَسَةُ والمُنَابَذَةُ». فالمَلَامَسَةُ مِنَ اللَّمَسِ، والمُنَابَذَةُ مِنَ النَّبَذِ، وهو: الطَّرْحُ، والمَلَامَسَةُ، أن يقولَ: أيُّ ثوبٍ لَمَسْتَهُ فهو عليك بكَذَا. وهي حرامٌ؛ لأجلِ الغَرَرِ؛ لأنه قد يَلْمَسُ ثوبًا فيكونُ عليه بئَاةً، وهو لا يُسَاوِي إلا رِيَالًا واحدًا، فيكونُ مجهولًا، كذلك أيضًا قد يَلْمَسُ الثوبَ الأَبْيَضَ، أو الأَحْمَرَ، أو الأَخْضَرَ، فيكونُ مجهولَ العينِ، فهو إمَّا مجهولُ القِيَمَةِ، وإمَّا مجهولُ العَيْنِ.

أما المُنَابَذَةُ، فأن يقولَ: أيُّ ثوبٍ أَنَبَذُهُ إِلَيْكَ فهو بعْشَرَةٌ مثلاً. فهذا أيضًا لا يجوزُ؛ لأنه مجهولُ العينِ، ومجهولُ الثَّمَنِ، فقد يَنْبِذُ إِلَى شَيْئًا لا يساوي درهماً، وهو قد باعَهُ عَلَى بَعْشَرَةٍ، والتزمتُ بها، وقد يَنْبِذُ إِلَى ثوبًا يساوي مائةً، ففيه جهالةٌ، وقد يَنْبِذُ إِلَى ثوبًا أَسْوَدَ، وقد يَنْبِذُ إِلَى ثوبًا أَبْيَضَ، فيكونُ أيضًا فيه جهالةٌ العينِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٣ - بَابُ مَنْ نَاجَى بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ، وَمَنْ لَمْ يُخْبِرْ بِسِرِّ صَاحِبِهِ، إِذَا مَاتَ أَخْبَرَ بِهِ. ٦٢٨٥، ٦٢٨٦ - حَدَّثَنَا مُوسَى، عَنْ أَبِي عَوَانَةَ، حَدَّثَنَا فِرَاسٌ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، حَدَّثَنِي عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنَّا كُنَّا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ جَمِيعًا لَمْ تَغَادِرْ مِنَّا وَاحِدَةً، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ تَمْشِي وَلَا وَاللَّهِ مَا تَخْفَى مِشْيَتُهَا مِنْ مَشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَّبَ قَالَ: «مَرْحَبًا يَا بِنْتِي». ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ

سَارَّهَا، فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى حُزْنَهَا سَارَّهَا الثَّانِيَةَ، فَإِذَا هِيَ تَضَحْكُ، فَقُلْتُ لَهَا أَنَا مِنْ بَيْنِ نَسَائِهِ: خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالسَّرِّ مِنْ بَيْنِنَا، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا، عَمَّا سَارَّكِ؟ قَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ سِرَّهُ. فَلَمَّا تُوْفِي، قُلْتُ لَهَا: عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ لَمَّا أَخْبَرْتَنِي. قَالَتْ: أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ. فَأَخْبَرْتَنِي، قَالَتْ: أَمَّا حِينَ سَارَّرَنِي فِي الْأَمْرِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَنِي «أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يَعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَارَضَنِي بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أَرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِيَ اللَّهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نَعَمَ السَّلَفُ أَنَا لَكَ». قَالَتْ: فَبَكَيتُ بِكَائِي الَّذِي رَأَيْتُ، فَلَمَّا رَأَى جَزْعِي سَارَّرَنِي الثَّانِيَةَ، قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةً نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةً نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟»^(١).

اللَّهُ أَكْبَرُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عِدَّةُ فَوَائِدَ:

أولاً: اجتماع زوجات الرسول ﷺ إليه، مما يدلُّ على أَنَّ الْغَيْرَةَ الَّتِي تَكُونُ فِي نفوسهن تزول عند الاجتماع على ما فيه المصلحة، وأن هذا هو ما يَنْبَغِي للزوجات المتعددات، وأن يُذْهِبْنَ ما في قلوبهن من الْغَيْرَةِ بِقَدْرِ الإمكان.

ومنها: أَنَّ الْوَلَدَ يُشَبِّهُ أَبَاهُ، إِمَّا فِي الصِّفَةِ، وَإِمَّا فِي الْهَيْئَةِ، وَإِمَّا فِي الْمَشْيَةِ، وَإِمَّا فِي الصَّوْتِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُا تَقُولُ: إِنْ مِشِيَّةَ فَاطِمَةَ كَمِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ومنها: حَسَنُ خُلُقِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَعَامَلَتُهُ أَوْلَادَهُ وَتَرْحِيْبُهُ بِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْوَالِدُ مَعَ أَوْلَادِهِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ عُلُوٍّ؛ لِأَنَّهُ أَبُوهُمْ مِثْلًا، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ رَحْمَةٍ وَإِشْفَاقٍ، وَلِهَذَا لَمَّا أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ وَرَأَاهَا النَّبِيُّ ﷺ رَحَّبَ، وَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي». وَالْمَرْحَبُ مِنَ الرَّحْبِ وَهُوَ السَّعَةُ؛ يَعْنِي: أَنَّكَ حَلَلْتِ مَكَانًا وَاسِعًا. وَهَذَا يَحْتَمِلُ مَعْنِيَيْنِ:

المعنى الأول: أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِهِ سَعَةُ صَدْرِي لَكَ.

والثاني: سَعَةُ الْمَكَانِ بِمَعْنَى أَنَّكَ لَنْ تُضَيِّقِي عَلَيَّ.

ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ وَالشُّكُّ مِنَ الرَّاوي، ثُمَّ سَارَّهَا فَبَكَتْ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْمَسَارَّةِ إِذَا كَانَ مَعَ الْمُتَسَارِّرِينَ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ لَيْسَ مَعَهَا إِلَّا

واحدٌ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً أَنْ يَتَنَاجَى اثْنَانِ مِنْ أَجْلِ أَنْ ذَلِكَ يُخْزِيهِ ^(١). أما إذا كان المجلس كثيراً فلا بأس أن يتسارَّ اثنان، ولا حرج في هذا.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ الْإِنْسَانَ يَتَقَلَّبُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، فَكَانَتْ بِالْأَوَّلِ تَبْكِي، ثُمَّ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ بَعْدَ أَنْ سَارَّهَا النَّبِيُّ ﷺ ضَحِكَتْ.

وفيه: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَمْسَحَ مَا أَحْدَثَهُ كَلَامُهُ مِنَ الْحَزَنِ وَالْغَمِّ بِشَيْءٍ يَطْرُدُ ذَلِكَ وَيَمْحُوهُ؛ لِأَنَّهَا لَمَّا حَزِنَتْ وَبَكَتْ ﷺ سَارَّهَا النَّبِيُّ ﷺ بِمَا أَفْرَحَهَا حَتَّى ضَحِكَتْ.

ومن فوائد الحديث: جَرَأُ عَائِشَةَ ﷺ؛ لِأَنَّهَا وَاثِقَةٌ مِنْ نَفْسِهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهَا أَحَدٌ مِنْ نِسَائِهِ إِلَّا عَائِشَةَ ﷺ.

ومنها: جَوَازُ سُؤَالِ الْإِنْسَانِ عَمَّا وَقَعَ مِنَ السَّرِّ بَيْنَ اثْنَيْنِ؛ لِأَنَّ عَائِشَةَ سَأَلَتْ فَاطِمَةَ ﷺ، وَلَكِنْ بَشَرِطَ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ، أَمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ فَإِنْ مِنْ حَسَنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرَكُّهُ مَا لَا يَعْنِيهِ، وَلَوْ كَانَ الْمَتَسَارِّانِ يُرِيدَانِ أَنْ يَعْلَمَ بِهِ الْحَاضِرُونَ لِأَفْسَوْهُ وَلَمْ يُسْرُوهُ.

ومنها أيضاً: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِفْشَاءُ السَّرِّ؛ لِقَوْلِ فَاطِمَةَ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَرَّهُ. وَلَكِنْ كَيْفَ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا سَرٌّ؟

نقول: طَرُقَ الْعِلْمُ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا: إِذَا دَعَانِي إِلَى جَنْبِهِ وَتَكَلَّمَ مَعِيَ هَمْسًا، فَإِنْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ سَرٌّ، وَمِنْهَا إِذَا كَتَبَ إِلَيَّ بِوَرَقَةٍ وَأَنَا جَالِسٌ مَعَ النَّاسِ وَأَعْطَانِيهَا يُرِيدُ الْجَوَابَ فَأَجَبْتُهُ، فَهَذَا سَرٌّ أَيْضًا، وَمِنْهَا: أَنْ يَطْلُبَ الْإِتِّصَالَ مَعَهُ فِي مَكَانٍ خَاصٍّ، فَيَتَّصِلُ مَعَهُ وَيُكَلِّمُهُ، فَهَذَا أَيْضًا سَرٌّ، فَإِذَا وُجِدَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ سَرٌّ فَإِنَّهُ سَرٌّ، حَتَّى إِنْ بَعْضُ السَّلَفِ، قَالَ: إِذَا حَدَّثَكَ الْإِنْسَانُ وَهُوَ يَلْتَفِتُ فَإِنْ هَذَا سَرٌّ ^(٢)؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَّا خَشْيَةً أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ، فَإِذَا حَصَلَ هَذَا فَهُوَ سَرٌّ، فَلَا تُفْشِهِ.

ومنها أيضاً: أَنَّهُ إِذَا زَالَ الْمَحْظُورُ فَإِنَّهُ يَجُوزُ إِفْشَاءُ هَذَا السَّرِّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ فَاطِمَةَ ﷺ بَعْدَ أَنْ تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَتْ بِمَا سَارَّهَا بِهِ، وَلَيْسَ كَمَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ مَنْ نَاجَى

(١) سَيَأْتِي تَخْرِيجُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْبَابِ بَعْدَ الْقَادِمِ.

(٢) وَيَدُلُّ لِذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَحَدٌ فِي مُسْنَدِهِ (٣/ ٣٢٤) (١٤٤٧٤)، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٨٦٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٩٥٩)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ، ثُمَّ التَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ». قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى السَّنَنِ: حَسَنٌ. اهـ.

بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ وَمَنْ لَمْ يُخْبِرْ بِسَرٍّ صَاحِبِهِ فَإِذَا مَاتَ أَخْبَرَ بِهِ، أَيْ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ أَخْبَرَ بِالسَّرِّ مطلقاً، بَلْ نَقُولُ: أَخْبَرَ بِالسَّرِّ إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ، وَإِلَّا فَلَا تُخْبِرُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُفْضَى إِلَيْهِ بِسَرٍّ يَخْتَصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا يَحِبُّ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ.

فَهَلْ نَقُولُ: إِذَا مَاتَ لَا بَأْسَ أَنْ تُفْشِيَ السَّرَّ؟

الجواب: لا، ما نقول بهذا، فإِطْلَاقُ التَّرْجُمَةِ فِي كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ فِيهَا نَظَرٌ، وَالْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِطْلَاقِ.

وَلِأَنَّهُ لَا يُسْتَدَلُّ بِالْأَخْصِ عَلَى الْأَعْمِ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ بِالْأَعْمِ عَلَى الْأَخْصِ؛ يَعْنِي: إِذَا جَاءَ الدَّلِيلُ عَامًّا أَمْكَنَّا أَنْ نُسْتَدِلَّ بِهَذَا الْعُمُومِ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ هَذَا الْعُمُومِ، لَكِنْ إِذَا جَاءَ الْحَدِيثُ خَاصًّا، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ نُسْتَدِلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْخَاصِّ عَلَى الْعُمُومِ.

فَالَّذِي يَظْهَرُ لَنَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِإِنْسَانٍ أَسْرًا إِلَيْهِ شَخْصٌ مَا شِئْنَا، ثُمَّ مَاتَ أَنْ يُفْشِيَ هَذَا السَّرَّ، إِلَّا إِذَا كَانَتِ الْعِلَّةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَسْرَ قَدْ زَالَتْ، فَمَثَلًا لَوْ أَسْرَ إِنْسَانٌ شَيْئًا إِلَى شَخْصٍ خَوْفَ أَنْ يَبْدُوَ مِنْهُ فَيُقْتَلَ أَوْ يُؤْذَى صَاحِبُهُ، ثُمَّ مَاتَ هَذَا الرَّجُلُ، فَيَحِينُذُ يَجُوزُ إِفْشَاؤُهُ؛ لِأَنَّ الْمَحْذُورَ الَّذِي خَافَهُ قَدْ زَالَ، أَمَا إِذَا كَانَ الشَّيْءُ الَّذِي أَسْرَهُ شَيْئًا يَتَعَلَّقُ بِشَخْصِهِ؛ بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَوْ أُفْشِيَ بَعْدَ مَوْتِهِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ قَدْخٌ فِيهِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ إِفْشَاؤُهُ.

وَفَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَفْشَتِ السَّرَّ الَّذِي أَسْرَهُ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَسْرَ قَدْ زَالَ، فَهُوَ عَلَيْهَا السَّلَامُ سَارَهَا بِهَا يَقْتَضِي نَعْيَ نَفْسِهِ وَهَذَا يَزُولُ بِمَوْتِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَخْبَرَتْ بِهِ فِي حَيَاتِهِ عَلَّمَ النَّاسَ بِقَرْبِ أَجَلِهِ، وَلَوْلَا أَنَّهُ ﷺ لَا يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ وَلَا سِيَّامًا زَوَاجَاتُهُ بِقَرْبِ أَجَلِهِ مَا أَسْرَهُ، فَإِذَا مَاتَ زَالَ هَذَا الْمَحْظُورُ، وَكَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لَهَا حِينَمَا قَالَ لَهَا: «أَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ». فَهَذَا مِنَ التَّحَدُّثِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﷻ، وَالْغَيْرَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يُحْظَرَ مِنْهَا زَالَتْ بِمَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَكُنْ فِي إِفْشَاءِ هَذَا السَّرِّ مَحْظُورٌ.

فَعَلَى هَذَا نَقُولُ: إِفْشَاءُ سَرِّ الْإِنْسَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ فِيهِ تَفْصِيلٌ: فَإِنْ كَانَ سَبَبُ السَّرِّ بَاقِيًا، فَإِفْشَاؤُهُ حَرَامٌ، وَإِنْ كَانَ زَائِلًا، فَإِفْشَاؤُهُ لَا بَأْسَ بِهِ.

وفي هذا الحديث: دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَةِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَأَنَّهَا سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالْخِلَافُ فِي اللَّفْظِ فَقَطْ؛ لِأَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْذُ خُلِقَ آدَمُ ﷺ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مُؤْمِنُو هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَإِذَا كَانَتْ سَيِّدَةُ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لَزِمَ أَنْ تَكُونَ سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْذُ

خَلِقَ آدَمَ ﷺ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وفيه أيضًا: الأخذُ بالقرينة؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ بِقَرِينَةٍ مَعَارِضَتِهِ لِلْقُرْآنِ مَرَّتَيْنِ؛ بِأَنَّ أَجَلَهِ قُرْبٌ، وَالْعَمَلُ بِالْقُرَائِنِ ثَابِتٌ؛ لِأَنَّ الْقُرَائِنَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، فَإِنَّ الْبَيِّنَةَ كُلُّ مَا بَانَ بِهِ الْحَقُّ، وَلِهَذَا اسْتَدَلَّ الْحَاكِمُ الَّذِي حَكَمَ بَيْنَ يَوْسُفَ وَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ بِقَدِّ الثَّوبِ، قَالَ: ﴿إِنْ كَانَتْ فَمِصَصُهُ، قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (١٧) وَإِنْ كَانَتْ فَمِصَصُهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [٢٦-٢٧]. وَوَجْهُهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَقْبَلَ عَلَيْهَا، فَأَرَادَتْ التَّخْلَصَ مِنْهُ، فَقَدَّتْ فَمِصَصَهُ، وَإِذَا كَانَ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَهِيَ الَّتِي لِحِقَّتْهُ، وَأَمْسَكَتْ بِفَمِصَصِهِ حَتَّى قَدَّتْهُ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: فَإِنَّ الْقُرَائِنَ مَعْمُولٌ بِهَا، وَقَدْ مَرَّ عَلَيْنَا كَثِيرًا نَهَاجُ مِنْ هَذَا، مِنْهَا: لَوْ أَنَّ شَخْصًا لَيْسَ عَلَيْهِ غُتْرَةٌ، وَآخَرُ عَلَيْهِ غُتْرَةٌ وَمَعَهُ غُتْرَةٌ، وَقَدْ هَرَبَ، وَالْأَوَّلُ يَلْحَقُهُ وَيَقُولُ: أَعْطِنِي غُتْرَتِي. فَهَلْ يُقْبَلُ قَوْلُ الْآخَرِ؟

نَقُولُ: نَعَمْ يُقْبَلُ، مَعَ أَنَّ الْغُتْرَةَ بِيَدِ هَذَا الرَّجُلِ الْهَارِبِ، لَكِنْ نَقُولُ: لَدَيْنَا قَرِينَةٌ وَهِيَ وَجُودُ هَذَا لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَهَذَا مَعَهُ اثْنَتَانِ، فَهَذِهِ قَرِينَةٌ يُحْكَمُ بِهَا لِهَذَا الْمُدَّعِي. وَكَذَلِكَ لَوْ تَنَازَعَ الزَّوْجَانِ فِي أَغْرَاضِ الْبَيْتِ، فَإِنَّا نَقُولُ: مَا يَصْلُحُ لِلْمَرْأَةِ فَهُوَ لِلزَّوْجَةِ، وَمَا يَصْلُحُ لِلرَّجُلِ فَهُوَ لِلزَّوْجِ. وَهَنَّاكَ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنْ هَذَا النَّوعِ، فَالْمُهِّمُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَمِلَ بِالْقَرِينَةِ.

وفيه أيضًا: مشروعية نصيحة الإنسان بتقوى الله تعالى والصبر؛ لقوله ﷺ لِفَاطِمَةَ: «فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي». وَهَذَا أَمْرٌ لَهَا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا أُخْبِرَتْ بِهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَصِيبَةِ الَّتِي أُخْبِرَتْ بِهَا؛ لِأَنَّ فَاطِمَةَ سَوْفَ يَنَالُهَا الْحُزَنُ بِالْخَبَرِ وَبِالْمَخْبَرِ بِهِ، فَأَمْرُهَا أَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ وَتَصْبِرَ عَلَى هَذَا وَهَذَا.

وفيه أيضًا: جوازُ ثناء الإنسان على نفسه بما هو فيه للمصلحة؛ لقوله ﷺ: «فَإِنِّي نَعَمُ السَّلَفُ أَنَا لَكَ». نَعَمْ وَاللَّهِ هُوَ نَعَمُ السَّلَفُ لَهَا؛ لِأَنَّ مِنْ أَوَّلِ مَنْ يَدْخُلُ فِي شَفَاعَتِهِ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهُوَ سَلَفُ الْأُمَّةِ كُلِّهَا صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، فَهُوَ نَعَمُ السَّلَفُ لَهَا وَلِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لَكِنْ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الثَّنَاءِ مَصْلَحَةٌ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَزْكِي نَفْسَهُ لَهَا يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْعُجْبِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ تَحْلُثُهُ:

٤٤ - بَابُ الاسْتِلقاءِ.

٦٢٨٧ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عِبَادُ بْنُ تَمِيمٍ، عَنْ عَمِّهِ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ مُسْتَلْقِيًا، وَاضِعًا إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ^(١). فِي هَذَا: دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الاسْتِلقاءِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْذُو أَنْ يَكُونَ هَيْئَةً مِنْ هَيْئَاتِ الْأَضْطِجَاعِ، لَكِنْ لَا بَدَأَ أَنْ يَأْمَنَ الْإِنْسَانُ مِنْ انْكِشَافِ الْعَوْرَةِ، فَإِنْ كَانَ يَخْشَى مِنْ انْكِشَافِ عَوْرَتِهِ فَلَا يَفْعَلْ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ رُبَّمَا إِذَا نَامَ مُسْتَلْقِيًا يَرْفَعُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ، فَإِذَا رَفَعَهَا وَلَيْسَ عَلَيْهِ سُرَاوِيلٌ انْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ.

كَذَلِكَ يُشْتَرَطُ أَنْ يَأْمَنَ مِنَ الْفِتْنَةِ فَلَا تَسْتَلْقِي امْرَأَةً فِي مَكَانٍ قَدْ يَكُونُ فِيهِ رِجَالٌ غَيْرُ زَوْجِهَا، وَهَذَا يَحْدُثُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي أَيَّامِ رَمَضَانَ وَغَيْرِ رَمَضَانَ أَيْضًا، فَإِنْ بَعْضُ النِّسَاءِ تَقَتْنُ مَنْ يَمُرُّ بِهَا إِذَا كَانَتْ مُسْتَلْقِيَةً. فَلَا بَدَأَ مِنْ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ، فَإِذَا انْتَفَى هَذَانِ الشَّرْطَانِ، فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ تَحْلُثُهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٨١):

❦ قَوْلُهُ: «بَابُ الاسْتِلقاءِ». هُوَ الْأَضْطِجَاعُ عَلَى الْقَفَا، سَوَاءً كَانَ مَعَهُ نَوْمٌ أَمْ لَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذِهِ التَّرْجُمَةُ، وَحَدِيثُهَا فِي آخِرِ كِتَابِ اللَّبَاسِ قَبِيلِ كِتَابِ الْأَدَبِ. وَتَقَدَّمَ بَيَانُ الْحُكْمِ فِي أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ مِنْ كِتَابِ الصَّلَاةِ، وَذَكَرْتُ هُنَاكَ قَوْلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ النَّهْيَ عَنْ ذَلِكَ مَنْسُوخٌ وَأَنَّ الْجَمْعَ أَوْلَى وَأَنَّ مَحَلَّ النَّهْيِ حَيْثُ تَبْدُو الْعَوْرَةُ، وَالْجَوَازُ حَيْثُ لَا تَبْدُو، وَهُوَ جَوَابُ الْخُطَابِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ.

وَنَقَلْتُ قَوْلَ مَنْ ضَعَّفَ الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي ذَلِكَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يُخْرِجْ فِي الصَّحِيحِ، وَأُورِدْتُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ غَفَلَ عَمَّا فِي كِتَابِ اللَّبَاسِ مِنَ الصَّحِيحِ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ صَحِيحُ مُسْلِمٍ، وَسَبَقَ الْقَلَمُ هُنَاكَ فَكُتِبَتْ صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ، وَقَدْ أَصْلَحَتْهُ فِي أَصْلِي.

وَلِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ فِي الْبَابِ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ صَحَّحَهُ ابْنُ حَبَّانَ. أَهـ
جَزَى اللَّهُ ابْنَ حَجَرٍ خَيْرًا، فَهَذَا تَنْبِيهُ طَيِّبٌ. يَقُولُ: إِذَا وَجَدَ الشَّرْطَانِ اللَّذَانِ أَشْرَنَا إِلَيْهِمَا

صار الحديث في النهي^(١) إنما هو فيمن يخاف انكشاف العورة.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٥ - بَابٌ لَا يَتَنَجَّى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنْتَجِبُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَوا بِالرِّبِّ وَالنَّقْوَى وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَوْنَ﴾ ① إِنَّمَا التَّجَوُّ مِنْ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ② ﴿[المائدة: ٩-١٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ③﴾ [المائدة: ١٢]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ④﴾ [المائدة: ١٣].

٦٢٨٨ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُونُسَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ. ح. وَحَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَجَّى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ»^(١).

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَابٌ لَا يَتَنَجَّى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ». أوردَ فِيهِ الْحَدِيثَ الْمُنَاطِقَ لِلترجمة تَمَامًا، لَكِنْ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ: «مِنْ أَجْلِ أَنْ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»^(٢) فِيهِ بَيَانُ الْعِلَّةِ. وَالتَّنَاجِي هُوَ التَّخَاطُبُ سِرًّا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَحْيَا ⑤﴾ [مريم: ٥٢]. فَالنداءُ يَكُونُ بِصَوْتٍ عَالٍ، وَالنَّجَاءُ يَكُونُ بِصَوْتٍ خَفِيٍّ، وَقَدْ أَتَى الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنْتَجِبُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَوا بِالرِّبِّ وَالنَّقْوَى﴾ [المائدة: ٩]. لِيُشِيرَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الْمُنَاجَاةَ نَوْعَانِ: نَوْعٌ مَأْذُونٌ فِيهِ، وَنَوْعٌ مَنْهِيٌّ عَنْهُ.

الْمَأْذُونُ فِيهَا مَا كَانَتْ بَرًّا وَتَقْوَى، وَالْمَنْهِيُّ عَنْهَا مَا كَانَتْ إِثْمًا، وَعُدْوَانًا، وَمَعْصِيَةً لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْإِثْمُ أَنْ يَتَنَجَّى اثْنَانِ لِفَعْلِهِمْ مَنَكْرًا، كَأَنْ يَتَنَجَّيَانِ عَلَى شَرْبِ الْخَمْرِ أَوْ

(١) يُشِيرُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٠٩٩) (٧٤) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَسْتَلْقِينَ أَحَدُكُمَا ثُمَّ يَضَعُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى».

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٨٣) (٣٦).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٢٩٠)، وَمُسْلِمٌ (٢١٨٤) (٣٧).

ما أشبه ذلك، والعدوانُ أن يَتَنَاجِيَا على منكرٍ متعَدٍّ للغير، كأن يَتَنَاجِيَانِ على سرقةٍ مالٍ، ومعصيةِ الرسولِ أن يَتَنَاجِيَا في مخالفةِ أمرِ النبي ﷺ في تنظيمِ الأمورِ كالجهادِ أو غيره، وربما نَقُولُ: مَنْ يَتُوبُ مِنَابِ الرِّسُولِ ﷺ فَإِنَّهُ يَقُومُ مَقَامَهُ فِي هَذَا الْبَابِ، فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ فِي مَعْصِيَةٍ مِنْ وُلِّي الْأَمْرَ إِذَا كَانَ أَمْرُهُ هَذَا مِمَّا تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيهِ.

ثم قال: ﴿وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾. البرُّ: معناه الخيرُ والإحسانُ، كأن يَتَنَاجَى اثْنَانِ عَلَى الْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَالتَّقْوَى كَأَن يَتَنَاجِيَانِ عَلَى تَرْكِ الْمَحْرَمِ. لَكِنْ بَقِيَ قِسْمٌ ثَالِثٌ لِأَنَّ الْقِسْمَةَ الْعَقْلِيَّةَ تَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ الْمَنَاجَاةُ ثَلَاثَةً أَقْسَامٍ: أَثَمَةٌ، وَبَارَةٌ، وَالثَّالِثُ لَا أَثَمَةَ وَلَا بَارَةً. فَالَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا بَرٌّ فَهَذِهِ مَبَاحَةٌ، لَا يُؤْمَرُ بِهَا وَلَا يُنْهَى عَنْهَا، لَكِنْ إِنْ تَضَمَّنَتْ بَرًّا عَرَضًا صَارَتْ مِنَ الْبَرِّ، وَإِنْ تَضَمَّنَتْ إِثْمًا عَرَضًا صَارَتْ مِنَ الْإِثْمِ.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١). فَأَمَرَنَا ﷻ بِتَقْوَاهُ، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ لَا بَدَأَ أَنْ تُلَاقِيَهُ فَيَسْأَلَنَا عَمَّا تَزَمَّنَا بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا التَّجَوُّى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. وَهَذَا كَانَ يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي عَهْدِ الرِّسُولِ ﷺ، فَكَانُوا يَتَنَاجَوْنَ، وَيَشِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَكَلَّمَا نَاجَى أَحَدُهُمَا أَصْحَابَهُ نَظَرَ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يُخِيفُهُ كَأَنَّهُ يَتَوَعَّدُهُ، وَيَقُولُ: نَحْنُ نَتَأَمَّرُ عَلَيْكَ (١) فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: لِيُلْقِيَ الْحُزْنَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. يَعْنِي: هَذَا التَّنَاجِي حَتَّى وَإِنْ كَانَ مَوَازِمَةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَلَنْ يَضُرَّهُمْ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا كَانَ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَالْمُؤْمِنُ يُرْضَى بِمَا أَذِنَ اللَّهُ بِهِ ﷻ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فَأَمَرَنَا بِسُبْحَانِهِ بِأَنْ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ، وَأَنْ لَا يَهْمُنَا تَأَمَّرُهُ هَؤُلَاءِ وَتَنَاجِيهِمْ لِاحْزَانِنَا.

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ كُلَّ مَا يُحْزِنُ الْإِنْسَانَ فَإِنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ حَتَّى لَوْ كَانَ مِنْ تَقْدِيرِ اللَّهِ، فَإِنْ بَعَثَ الْحُزْنَ عَلَى مَا قَدَّرَ اللَّهُ حُزْنًا يَصْحَبُهُ السَّخَطُ فَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ، أَمَّا الْحُزْنُ الطَّبِيعِيُّ الَّذِي لَا يَصْحَبُهُ السَّخَطُ فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّ الرِّسُولَ ﷺ لَمَّا رُفِعَ إِلَيْهِ ابْنُهُ إِبْرَاهِيمُ وَهُوَ فِي النَّزْعِ قَالَ: «الْعَيْنُ تَدْمَعُ وَالْقَلْبُ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٨/ ١٥-١٦)، و«تفسير الصنعاني» (٣/ ٢٧٩).

الرَّبِّ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»^(١).

فالحاصل: أَنَّ الشَّيْطَانَ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، أَوْ يَأْمُرُ بِهَا أَوْلِيَائَهُ مِنْ أَجْلِ إِحْزَانِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا يُرِيهِ الشَّيْطَانُ النَّائِمَ مِنَ الْمَرَاتِي الْمَكْرُوهَةِ الَّتِي تُمْرِضُ الْإِنْسَانَ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ إِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ أَنْ يَتَغَلَّ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَيَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ. وَمِنْ شَرِّ مَا رَأَيْتُ»، وَأَنْ لَا يُحَدِّثَ بِهَا أَحَدًا، وَأَنْ يَنْقَلِبَ مِنَ الْجَنْبِ الَّذِي كَانَ نَائِمًا عَلَيْهِ إِلَى الْجَنْبِ الْآخَرِ، وَإِذَا عَادَتْ إِلَيْهِ فَلْيَقُمْ وَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ^(٢)، فَإِذَا فَعَلَ هَذَا فَإِنَّمَا لَا تَضُرُّهُ مَهْمَا كَانَتْ، وَمَهْمَا تَكَرَّرَتْ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَرَاتِي الْمُحْزَنَةِ تُكَرِّرُ عَلَى الْإِنْسَانِ، حَتَّى يَقُولَ الْقَائِلُ: هَذِهِ لَيْسَتْ حَلَمًا مِنَ الشَّيْطَانِ، بَلْ هَذِهِ رُؤْيَا، وَإِلَّا فَلِمَ إِذَا كُرِّرَتْ؟ فَإِذَا حَصَلَ هَذَا فَدَوِّهُ مَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَزُولُ وَلَا تَعُودُ.

ثم قَالَ الْبُخَارِيُّ: «وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ». قَوْلُهُ: ﴿إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾. أَي: أَرَدْتُمْ مَنَاجَاةَهِ وَالِدَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾. وَلَوْ كَانَتْ الْمَنَاجَاةُ قَدْ مَضَتْ لَمْ يَصِحَّ وَقَوْلُهُ: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾. يَعْنِي: إِذَا أَرَدْتُمْ مَنَاجَاةَ الرَّسُولِ ﷺ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً، وَهَذَا كَانَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَثُرَتْ مَنَاجَاةُ الرَّسُولِ ﷺ، حَتَّى جَاءَ مَنْ يُنَاجِي الرَّسُولَ ﷺ بِصَدَقٍ؛ يَعْنِي: أَنَّهُ مُحْتَاجٌ لِمَنَاجَاةِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، لَكِنْ لِمَحَبَّتِهِمْ لِلرَّسُولِ ﷺ كَانُوا يُجِبُونَ أَنْ يُنَاجُوهُ دَائِمًا، مَعْلُومٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ حَيًّا كَرِيمًا يَسْتَجِي أَنْ يَمْنَعَهُمْ، فَأَرَادَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَخْتَبِرَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَنْظُرَ الصَّادِقَ مِنْ غَيْرِهِ، فَأَمَرَهُمْ إِذَا أَرَادُوا الْمَنَاجَاةَ أَنْ يَقْدِمُوا صَدَقَةً^(٣)، وَصَدَقَةٌ. جَاءَتْ مُطْلَقَةً لَمْ تُبَيَّنْ فَتَشْمَلُ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ.

ثم قَالَ: «﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾». يَعْنِي: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ هُنَا مَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ، وَكَلِمَا كَانَ الْجَزَاءُ مَغْفِرَةً وَرَحْمَةً فَمَعْنَاهُ سَقُوطُ الْمَوَاضِيحِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤). أَي: أَلَا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٥). أَي: أَلَا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ^(٦).

(١) تقدم تخريجه في الجنائز.

(٢) انظر: البخاري (٣٢٩٢)، ومسلم (٢٢٦١)، (٢٢٦٢)، (٥)، (٢٢٦٣)، (٦).

(٣) انظر: «تفسير الصنعاني» (٣/ ٢٨٠)، و«الطبري» (٢٨/ ١٩-٢١)، و«ابن كثير» (٤/ ٣٢٨)، و«الدر المنثور» (٨/ ٨٤).

ولمغفرته ورحمته؛ أسقط عنهم المؤاخذه، فهذا قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وهذا الحكم لا غرابة فيه؛ أعني: سقوط وجوب تقديم الصدقة لمن لم يجد؛ لأنه مبني على قاعدة أصيلة في الشريعة، وهي: أنه لا واجب مع العجز، وأن جميع الواجبات تسقط بالعجز.

ثم قال: ﴿وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٣). يعني: أخفتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات؛ فيكون ذلك شاقاً عليكم؟ لأنه قد يكون الإنسان محتاجاً إلى المناجاة، وإن كانت ليست بالحاجة الضرورية، وإلا فإن المحتاج الذي يقدر على الصدقة يتصدق، والذي ما يقدر مغفوعه، لكن مع ذلك شق عليهم، فقد لا يكون عند الإنسان شيء حاضر عند إرادة مناجاة النبي ﷺ فعفى الله عنه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. يعني: فقد عفونا عنكم، وسقط هذا الوجوب، لكننا أمرونا بما نؤمر به من تحقيق إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وهاتان الآيتان ليس فيهما ما تتضمنه الترجمة إلا اسم المناجاة.

ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجي اثنان دون الثالث». يعني: لا يساره، والثالث حاضر، وفي معنى هذا أن يكلمه بلغة لا يفهمها الثالث؛ فإن هذا بمعنى التناجي؛ لأن العلة واحدة، وهي إحزانه.

فلو اجتمع اثنان يتكلمان بلغة غير عربية، وعندهما ثالث لا يعرف إلا العربية، فصار أحدهما يحدث الآخر باللغة التي لا يعرفها الثالث كان هذا بمنزلة المناجاة.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٦ - بَابُ حِفْظِ السِّرِّ.

٦٢٨٩ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَبَّاحٍ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ أَمَرَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ سراً، فَمَا أَخْبَرْتُ بِهِ أَحَدًا بَعْدَهُ، وَلَقَدْ سَأَلْتَنِي أُمُّ سُلَيْمٍ فَمَا أَخْبَرْتُهَا بِهِ ^(١).

أُمُّ سَلِيمٍ هِيَ أُمُّهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَبَى أَنْ يُخَبِّرَهَا بِحِفْظِ السِّرِّ، وَحَفِظَ السِّرَّ وَاجِبٌ كَمَا قُلْنَا فِيهَا سَبَقَ، فَيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا أُسِرَّ إِلَيْهِ حَدِيثٌ أَنْ يَحْفَظَهُ، وَالْأَيُّشِيَّةُ.

وَسَبَقَ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ الْمُسِرُّ فَلَا بَأْسَ بِإِفْشَائِهِ بِشَرَطٍ أَنْ تَكُونَ الْعِلَّةُ الَّتِي اقْتَضَتْ سِرَّهُ فِي الْأَوَّلِ قَدْ زَالَتْ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ يَجِبُ حَفْظُ السِّرِّ، لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ -نَسَّأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْهَدَايَةَ- يَفْخَرُ إِذَا أُسِرَّ إِلَيْهِ بَعْضُ الْكِبَرَاءِ شَيْئًا، وَيُحَدِّثُ النَّاسَ قَائِلًا: قَالَ لِي فُلَانٌ كَذَا وَقَالَ لِي فُلَانٌ كَذَا. لِيُظْهِرَ أَنَّهُ مَرْجِعُ الْكِبَرَاءِ، أَوْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ أَنَّهُ صَدِيقٌ لِشَخْصٍ مَا، قَالَ: قَالَ لِي فُلَانٌ، وَقَالَ لِي فُلَانٌ. مَعَ أَنَّهُ سِرٌّ، فَهَذَا حَرَامٌ.

وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ: أَخْفِ نَفْسَكَ تَبَنٍ لِلنَّاسِ، فَإِلْنَسَانُ تُظْهِرُهُ أَفْعَالُهُ وَأَقْوَالُهُ لَا مَا يَدَّعِيهِ، فَكَلِمَا كَانَ الْإِنْسَانُ مُخْفِيًا لِأَمْرِهِ كَانَ أَشَدَّ ظُهُورًا لِلنَّاسِ؛ لِأَنَّهُ مَهْمَا يَكْتُمُ الْإِنْسَانُ فَاللَّهُ يَعْلَمُهُ، وَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ مِنْ شَخْصٍ أَنَّهُ أَخْفَى عَمَلَهُ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُظْهِرُهُ وَيُبَيِّنُهُ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلْقِيَةِ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ^(١)

فَالْمَهْمُ: أَنْ بَعْضَ النَّاسِ -هَدَانَا اللَّهُ وَإِيَاهُمْ- إِذَا أُسِرَّ إِلَيْهِمْ حَدِيثٌ صَارُوا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ؛ لِيُظْهِرُوا لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ مَرْجِعٌ وَمَحَلُّ شُورَى وَمَا أَشَبَّ ذَلِكَ، وَهَذَا خَطَأٌ إِلَّا إِذَا أَذِنَ لَهُمْ الَّذِي أُسِرَّ فَلَا بَأْسَ؛ لِأَنَّهُ أحيانًا قَدْ يَأْذَنُ بِذَلِكَ لِدَفْعِ مَذْمَةٍ عَنْهُ أَوْ جَلْبِ مَصْلَحَةٍ، لَكِنْ لَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مِنْهُ مَبَاشَرَةً؛ يَعْنِي: بَعْضُ النَّاسِ مِثْلًا يَكُونُ مَتَّهَمًا بِشَيْءٍ فَيُسِرُّ إِلَيْكَ بِهِ، وَيَقُولُ: لَا حَرَجَ عَلَيْكَ أَنْ تُبَيِّنَ مَا سَمِعْتَ مِنِّي؛ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَدْفَعَ الْمَذْمَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ بِوَاسِطَةٍ فَيَأْتِي لِشَخْصٍ يَثِقُ بِهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُ، وَيَقُولُ: إِذَا شِئْتَ انْشُرْ عَنِّي هَذَا. أَمَّا إِذَا لَمْ يَأْذَنُ لَنَا صَاحِبُ السِّرِّ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَقُومَ بِالْوَاجِبِ حَتَّى مَعَ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَأَحَقَّهُمْ بِرِّهِ، وَهِيَ الْأُمُّ.



(١) البيت لزهير، وهو موجود في: «معاهد التنصيص» (١/٣٢٩)، (٢/١١٢)، و«خزانة الأدب» للحموي (٢/٤٩٢)، و«خزانة الأدب» للبغدادى (٩/٢٨)، و«الكامل في الأدب» (٢/١٦).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٧ - بَابُ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةٍ فَلَا بَأْسَ بِالْمُسَارَّةِ وَالْمَنَاجَاةِ.

٦٢٩٠ - حَدَّثَنِي عُمَانُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى رَجُلَانِ دُونَ الْآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ أَجَلَ أَنْ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»^(١).

قَوْلُهُ: «أَجَلَ». كَذَا بِالنَّصْبِ: وَهَذَا مَثَلٌ نَادِرٌ يَنْبَغِي لِأَهْلِ النَّحْوِ أَنْ يَحْتَفِظُوا بِهِ، وَمَا الَّذِي نَصَبَهَا؟

الْجَوَابُ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ النَّصْبُ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: مِنْ أَجْلِ، وَالنَّصْبُ بِنَزْعِ الْخَافِضِ فِي غَيْرِ أَنْ وَأَنْ غَيْرُ مَطْرُودٍ كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ:

* فِي أَنْ وَأَنْ يَطْرُدُ^(٢) *

وَلَكِنْ فِي غَيْرِهِمَا مَبْنِيٌّ عَلَى السَّمَاعِ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُعْرَبَ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ^(٣).

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ، قَوْلُهُ: «حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ». لِأَنَّهُمْ إِذَا اخْتَلَطُوا بِالنَّاسِ صَارُوا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةٍ، وَعَلَى هَذَا فَالْحَدِيثُ مُطَابِقٌ تِمَامًا لِلرَّجْعَةِ، فَإِذَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَتَنَاجَى اثْنَانِ، فَإِنْ تَنَاجَى ثَلَاثَةٌ وَبَقِيَ وَاحِدٌ، أَوْ تَنَاجَى ثَلَاثَةٌ دُونَ الرَّابِعِ فَالْحَكْمُ وَاحِدٌ، مِثْلُ اثْنَيْنِ دُونَ الثَّلَاثِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٢٩١ - حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا قِسْمَةً، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: إِنَّ هَذِهِ لِقِسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ. قُلْتُ: أَمَا

(١) رواه مسلم (٢١٨٤) (٣٧).

قال الحافظ رحمه الله في «الفتح» (١١ / ٨٢): قوله: «فلا يتناجى اثنان دون الثالث». كذا للأكثر بألف مقصورة ثابتة في الخط صورة ياء، وتسقط في اللفظ لالتقاء ساكنين، وهو بلفظ الخبر ومعناه النهي، وفي بعض النسخ بجيم فقط بلفظ النهي وبمعناه. اهـ

(٢) «الألفية»، باب تعدي الفعل ولزومه، البيت رقم (٢٧٣)، وتماهه: مَعَ أَمْنٍ لَيْسَ كَعَجَبْتُ أَنْ يَدُّوا.

(٣) وهذا هو الأقرب؛ الأصل عدم التقدير.

وَاللَّهُ لَا يَنْبَغِي النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي مَلَأٍ فَسَارَزَتْهُ فغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، ثُمَّ قَالَ: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى أَوْذِي بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبْرٌ»^(١).

❖ الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ: «فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ فِي مَلَأٍ فَسَارَزَتْهُ». وَلَمْ يَنْهَهُ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ فِي مَلَأٍ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، فَهَذَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الْعَظِيمَةَ: إِنَّ هَذِهِ لِقَسْمَةٌ مَا أُريدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ. فَالشَّيْطَانُ قَدْ يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى قَوْلِ الْفَرِيَةِ الْعَظِيمَةِ، فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ قَسَمَ قَسْمَةً مَا يُريدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ فَمَنْ الَّذِي يُريدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ؟

الْجَوَابُ: لَا أَحَدًا، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ الْأَنْصَارِيِّ حِينَ حَكَّمَ النَّبِيُّ ﷺ لِلزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَامِ فِي مَسْأَلَةِ شِرَاجِ الْحَرَّةِ^(٢)، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لِلزَّبِيرِ حَائِطٌ، وَلِجَارِهِ الْأَنْصَارِيِّ حَائِطٌ، وَيَمُرُّ السَّيْلُ بِحَائِطِ الزَّبِيرِ قَبْلَ أَنْ يَمُرَّ بِحَائِطِ الْأَنْصَارِيِّ، وَالْأَحَقُّ مِنْهَا الْأَعْلَى وَهُوَ الزَّبِيرُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زَبِيرُ، ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ». فَقَوْلُهُ: «اسْقِ». مُطْلَقٌ، يَصْدُقُ عَلَى مَا يَحْصُلُ بِهِ السَّقْيُ وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا، فغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، وَقَالَ: أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ لِأَنَّ الزَّبِيرَ بْنَ الْعَوَامِ أُمُّهُ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ: «اسْقِ يَا زَبِيرُ حَتَّى يَصِلَ الْجَدْرُ ثُمَّ أَرْسِلْهُ إِلَى جَارِكَ»^(٣). فَاحْتَفَظَ النَّبِيُّ ﷺ لِلزَّبِيرِ بِحَقِّهِ. وَالْجَدْرُ: هُوَ الْحُدُودُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَ أَحْوَاضِ الْمَاءِ فِي الْمَزْرَعَةِ.

هَذَا وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ قَدْ أَعْطَى الزَّبِيرَ بْنَ الْعَوَامِ بَعْضَ حَقِّهِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ تَحَصَّلَ بِهِ الْكَفَايَةُ، وَيَحْصُلُ بِالْبَاقِي نَفْعُ جَارِهِ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَتَانِ مَصْلَحَةُ الزَّبِيرِ بِالسَّقْيِ وَلَوْ قَلِيلًا، وَمَصْلَحَةُ الْجَارِ حَيْثُ لَا يُحْرَمُ مِنَ السَّقْيِ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ بِهِذِهِ الْكَلِمَةَ الْعَظِيمَةَ احْتَفَظَ النَّبِيُّ ﷺ لِلزَّبِيرِ بِحَقِّهِ كَامِلًا، وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْقِيَ إِلَى الْجَدْرِ ثُمَّ يُرْسِلَهُ إِلَى جَارِهِ.

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٠٦٢) (١٤١).

(٢) قَالَ الْحَافِظُ رحمته الله فِي «الْفَتْحِ» (٣٦ / ٥): شِرَاجُ الْحَرَّةِ: بِكَسْرِ الْمَعْجَمَةِ وَالْجِيمِ جَمْعُ شَرْجٍ بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَسُكُونِ الرَّاءِ، مِثْلُ: بَحْرٍ وَبَحَارٍ، وَيَجْمَعُ عَلَى شُرُوجٍ أَيْضًا، وَحَكَى ابْنُ دَرِيدٍ شَرْجَ: بَفَتْحِ الرَّاءِ، وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ: شَرْجَةٌ وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا مَسِيلُ الْمَاءِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَتْ إِلَى الْحَرَّةِ لِكُونِهَا فِيهَا، وَالْحَرَّةُ: مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ بِالْمَدِينَةِ. اهـ.

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٥٨٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٥٧) (١٢٩).

وفي هذا الحديثِ غَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ، وقال: «رَحِمَهُ اللهُ عَلَى مُوسَى، أَوْذَى بِأَكْثَرِ مَنْ هَذَا فَصَبْرٌ». ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأنعام: ٦٩]. يعني: لا تُؤذُوا محمداً كما أُوذِيَ موسى، فموسى ﷺ قد أُوذِيَ حَسًّا ومعنى؛ أُوذِيَ في دينه، وفي خِلْقَتِهِ، حتى قالوا: أنه آذَرُ، يعني: كبير الخُصِيَّةِ، وهو عيبٌ، فبرَّاهُ اللهُ ﷻ مما قالوا، حيثُ اغْتَسَلَ ذاتَ يومٍ فَوَضَعَ ثوبَهُ على الحجرِ، ففَرَّ الحجرُ بثوبِهِ حتى وصلَ إلى بني إسرائيلَ، وكان موسى قد لحِقَهُ عُريَانًا، يَقُولُ: ثُوبِي حَجَرٌ، ثُوبِي حَجَرٌ. حتى وصلَ للملأِ مِنْ بني إسرائيلَ، وشاهدُوا موسى ليس به عيبٌ، فبرَّاهُ اللهُ ﷻ مما قالوا ^(١).



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٤٨ - بَابُ طَوْلِ النَّجْوَى.

وقوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الأنعام: ٤٧]. مُصَدِّرٌ مِنْ نَاجَيْتُ، فوصَفَهُم بها، والمعنى: يَتَنَاجَوْنَ. ❦ قوله رَحِمَهُ اللهُ: «بَابُ طَوْلِ النَّجْوَى»؛ يعني: هل يُطِيلُ الإنسانُ المناجاةَ مع صاحبه أو لا؟ ومعلومٌ أنَّنا إذا رَجَعْنَا إلى قولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» ^(١) عَرَفْنَا فيما سَبَقَ أنه إذا كانتِ النَّجْوَى في خَيْرٍ فإن طَوَّلَهَا لا بأسَ به، ولا حَرَجَ فيه، وإذا كانتِ النَّجْوَى ليس فيه خَيْرٌ فَعَدَمُ طَوَّلِهَا أَوْلَى.

❦ وقولُ البخاري: «﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ مُصَدِّرٌ مِنْ نَاجَيْتُ، فوصَفَهُم بها». «هم» ضميرُ جمعٍ، و«نجوى» مفردٌ كَدَعَوَى، فوصَفَهُم وهم جمعٌ بالنَّجْوَى؛ لأنَّ الوصفَ بالمصدرِ يُلتَزَمُ فيه بالإفرادِ والتذكيرِ قَالَ ابنُ مالِكٍ:

وَنَعْتُوا بِمَصْدَرٍ كَثِيرًا فَالْتَزَمُوا الْإِفْرَادَ وَالتَّذْكِيرَ ^(٢)

وكذلك إذا أُخْبِرَ بالمصدرِ فإنه يُخْبَرُ به مفردًا مذكرًا، فتَقُولُ: زَيْدٌ عَدْلٌ، والزيدانِ عَدْلٌ، والزيدونَ عَدْلٌ. فلا تُغَيِّرُهُ.

(١) رواه البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩) (٧٥).

(٢) تقدم تخريجه في الأدب.

(٢) «الألفية» البيت رقم (٥١٣)، باب «النعت».

وقوله: «فوصفهم بها، والمعنى: يَتَنَاجُونَ»؛ أي: وإذ هم مُتَنَاجُونَ يُنَاجِي بعضُهم بعضًا. وفي تفسير البخاري رحمه الله، أو في شرحه لهذه الكلمة دليل على أن المحدث ينبغي أن يكون عنده علم في النحو؛ لأن من أقوى ما يُعِينُكَ على معرفة المعنى أن يكون لديك علم بالنحو والصرف؛ إذ إنَّ الألفاظ قوالب للمعاني، تدلُّ عليها، وتُعبِّر عنها.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله:

٦٢٩٢ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، وَرَجُلٌ يُنَاجِي رَسُولَ اللَّهِ صلی الله علیه وسلم، فَمَا زَالَ يُنَاجِيهِ حَتَّى نَامَ أَصْحَابُهُ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى ^(١).

في هذا الحديث: دليل على جواز مُنَاجَاةِ الإمام بعد الإقامة، وأن طول المناجاة أيضًا لا يضرُّ، وأنه لا تُشترط الموالاة بين الإقامة والصلاة؛ لأنَّ الصحابة رضي الله عنهم ناموا، ثم قام فصلَّى، فدلَّ ذلك على أن طول الفصل بين الإقامة والصلاة لا بأس به، لكن بشرط أن يكون قد أقام عند إرادة الصلاة؛ يعني: أنه لا يُقِيمُ وهو يَعْلَمُ أنه لن يُصَلِّيَ إلا بعد مدة، ولكن يُقِيمُ ثم إذا حصل ما يَمْنَعُ أو ما يَفْصِلُ بين الإقامة والصلاة - فهذا لا بأس به - ولو طال الفصل.

وفيه أيضًا: دليل على أن النوم لا يَنْقُضُ الوضوء؛ وذلك لأنَّ النوم نفسه ليس حدثًا إنما هو مَطْنَةُ الحدث؛ يعني: أنَّ مَنْ نَامَ فَإِنَّهُ يُطْنُ فِيهِ أَنْ يُحْدِثَ؛ لأنه كما جاء في الحديث: «العين وكاء السه فإذا نامت العينان استطلقت الوكاء» ^(٢) وهذا فيما إذا نام نومًا عميقًا بحيث لا يَشْعُرُ بنفسه لو أحدث انتقض وضوءه، أما النوم اليسير الذي لو أحدث فيه الإنسان لأحسَّ بنفسه فإن ذلك لا

(١) رواه مسلم (٣٧٦) (١٢٤).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٩٧ / ٤) (١٦٨٧٩) من حديث معاوية، وقال الزيلعي في «نصب الراية» (١ / ٤٦): وأعل بوجهين: أحدهما: الكلام في أبي بكر بن أبي مريم. والثاني: أن مروان بن جراح قد رواه عن عطية بن قيس عن معاوية موقوفًا. اهـ.

ورواه أحمد (١ / ١١١) (٨٨٧)، وأبو داود (٢٠٣)، وابن ماجه (٤٧٧) عن علي بلفظ: «العين وكاء السه فمن نام فليتوضأ».

وقال ابن أبي حاتم في «العلل» (١٠٦): هذا الحديث والذي بعده ليسا بقويين.

وقال ابن حجر في «التلخيص» (١٥٩): وحسن المنذري، وابن الصلاح، والنووي حديث علي.

يُنْقُضُ الْوُضُوءَ وَلَوْ طَالَ، وَلَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ مُضْطَجِعًا، أَوْ مُتَبِّعًا، أَوْ مُسْتَنَدًا؛ إِذِ الْعَبْرَةُ بِالْوَعْيِ، فَإِذَا كَانَ يَعْيِي نَفْسَهُ بَحِثْ لَوْ أَحْدَثَ لِأَحْسَ، فَإِنْ وَضُوهُ لَا يُنْقَضُ، أَمَّا إِذَا كَانَ لَا يُحِسُّ لَوْ أَحْدَثَ فَإِنْ وَضُوهُ لَا يُنْقَضُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٩- بَابٌ: لَا تُتْرَكُ النَّارُ فِي الْبَيْتِ عِنْدَ النَّوْمِ.

٦٢٩٣- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَيْنَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُتْرَكُوا النَّارَ فِي بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ»^(١).

٦٢٩٤- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بَرِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي بَرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: احْتَرَقَ بَيْتٌ بِالْمَدِينَةِ عَلَى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ، فَحُدِّثَ بِشَأْنِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ النَّارَ إِنَّمَا هِيَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ»^(٢).

٦٢٩٥- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ كَثِيرٍ - هُوَ ابْنُ شَنْظِيرٍ - عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمَرُوا الْأَنْبِيَةَ، وَأَجِفُّوا الْأَبْوَابَ، وَأَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ؛ فَإِنَّ الْفُؤَيْسَقَةَ رُبَّمَا جَرَّتْ الْفَتِيلَةَ فَأَحْرَقَتْ أَهْلَ الْبَيْتِ»^(٣).

❖ هَذَا الْبَابُ كَمَا قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا تُتْرَكُ النَّارُ فِي الْبَيْتِ عِنْدَ النَّوْمِ»؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يُخْشَى مِنْهَا الْإِحْتِرَاقُ.

وفيه: دليلٌ على الوقاية من الشيء قبل نزوله، وقد قيل: إن الوقاية خيرٌ من العلاج.

وفيه: جواز ترك النار في البيت إذا كان أهلُه في يقظة؛ لقوله: «حين تنامون».

وفيه: دليلٌ على أنه إذا أُمن من هذه النار فلا بأس ببقائها، وعلى هذا فنقول: إذا أُمن الآن من إبقاء اللمبة في المكان مشتعلة، أو المدفأة مثلاً، فلا بأس بذلك؛ لأنه مأمونٌ.

وفيه أيضًا: دليلٌ على أنه ينبغي أن لا تكون المدفأة في أيام الشتاء قريبة من الفرش؛ لأنه ربما يَنقَلِبُ النَّائِمُ عَلَيْهَا فَتَحْرِقُهُ، فَالْعَلَّةُ الَّتِي ذَكَرَهَا الرَّسُولُ ﷺ إِذَا وَجِدْتَ ثَبْتَ الْحَكْمَ، وَإِلَّا فَلَا.

(١) رواه مسلم (٢٠١٥) (١٠٠).

(٢) رواه مسلم (٢٠١٦) (١٠١).

(٣) وينحوه رواه مسلم (٢٠١٢) (٩٦).

وفيه: حُتَّ عَلَى قَتْلِ الْفَأْرَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَصَفَهَا بِالْفُؤَيْسِقَةِ فَقَالَ: «إِنِ الْفُؤَيْسِقَةُ رَبُّهَا جَرَّتِ الْفَتِيلَةَ فَأَحْرَقَتْ أَهْلَ الْبَيْتِ». وَهُوَ كَذَلِكَ، فَلَا أَكْثَرَ مِنْ عِبَثِ الْفَأْرَةِ، وَهِيَ أَيْضًا تَرْعَبُ بِالذَّهَبِ، فَإِذَا رَأَتْ الذَّهَبَ اخْتَطَفَتْهُ وَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى بَيْتِهَا تَلْعَبُ بِهِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَحْلِي بِهِ. وَقَدْ حَدَّثَنَا شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ كَانَ جَالِسًا يَكْتُبُ كِتَابًا، فَجَاءَتْهُ فُؤَيْسِقَةٌ فَوَضَعَ عَلَيْهَا شَيْئًا، فَجَاءَتْ أَخْتُهَا تُرِيدُهَا، فَلَمْ تَتِمَّكِنْ، يَقُولُ: فَصَعِدَتْ إِلَى السَّقْفِ، وَأَتَتْ بَدِينَارٍ فَأَلْقَتْهُ عِنْدَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُطْلِقِ الْمَجْبُوسَةَ، فَذَهَبَتْ وَجَاءَتْ بَدِينَارٍ آخَرَ، وَثَالِثٍ وَرَابِعٍ إِلَى عَشْرَةِ دَنَانِيرٍ، ثُمَّ جَاءَتْ آخِرًا بِكَيْسَةِ الدَّنَانِيرِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهَا شَيْءٌ، وَلَا أَذْكَرُ مَا حَدَّثَ فِي النِّهَايَةِ وَالظَّاهِرِ لِي أَنَّهُ قَتَلَهَا وَقَتَلَ أَخْتُهَا. وَقَدْ وَقَعَ لِي أَنْ أَخَذْتُ خَاتَمًا، وَصَعِدْتُ بِهِ إِلَى السَّقْفِ، وَأَدْخَلْتُهُ فِي جُحْرِهَا.

❖ وَفِي الْحَدِيثِ الثَّانِي قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّمَا هِيَ عَدُوٌّ لَكُمْ فَإِذَا نِمْتُمْ فَأُطْفِئُوهَا عَنْكُمْ» وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْعَاقِلَ يَحْذَرُ مِنْ عَدُوِّهِ أَنْ يُصِيبَهُ بِسُوءٍ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ عَدُوٌّ لَنَا وَمَتَاعٌ لَنَا فَتَنْتَفِعُ بِهَا، وَلِهَذَا عَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَصُولِ النِّعَمِ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ الَّتِي فِيهَا إِمْدَادُ الْخَلْقِ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١) «أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ» (٧٢) «نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ» (٧٣) [الوَاقِعَةُ: ٧١-٧٣]. فَهِيَ فِيهَا خَيْرٌ، وَفِيهَا شَرٌّ، فَيَجِبُ أَنْ نَحْذَرَهَا حِينَ نَخَافُ شَرَّهَا، وَأَنْ نَنْتَفِعَ بِهَا حِينَ نَرْجُو خَيْرَهَا.

❖ وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ أَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﷺ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ، فَقَالَ: «خَمَرُوا الْآنِيَةَ، وَأَجِيفُوا الْأَبْوَابَ، وَأُطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ». وَتَخْمِيرُ الْآنِيَةِ؛ يَعْنِي: تَغْطِيئُهَا؛ لِأَنَّ فِي السَّنَةِ لَيْلَةً يَنْزِلُ فِيهَا الْبَلَاءُ، فَلَا يُصِيبُ إِنَاءً لَمْ يُخْمَرْ إِلَّا نَزَلَ فِيهِ ^(١)، وَهَذِهِ اللَّيْلَةُ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ فَكُلُّ لَيْلَةٍ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ هِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي فِيهَا هَذَا الْبَلَاءُ؛ فَلِهَذَا أُمِرَ بِالتَّحَرُّزِ مِنْهُ بِتَخْمِيرِ الْأَوَانِي. وَقَوْلُهُ: «أَجِيفُوا الْأَبْوَابَ». يَعْنِي: أَغْلِقُوهَا؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ زِيَادَةَ أَمْنٍ وَطُمَأْنِينَةٍ، وَحِمَايَةً لَكَ مِنْ أَرَادَ السُّوءَ بِكَ.

❖ وَقَوْلُهُ: «أُطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ». سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ. فَإِنْ قِيلَ: هَذِهِ الْأَوَامِرُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْوُجُوبِ أَمْ لِلإِشَادِ؟

نقول: هذه للإرشاد، لكن لا ينبغي تركها؛ لأنه ﷺ أرشد إلى ما فيه الخير فهي مطلوبة لما فيها من الخير، بالإضافة إلى إرشاد النبي ﷺ لها.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٠- بَابُ غَلَقِ الْأَبْوَابِ بِاللَّيْلِ.

٦٢٩٦- حَدَّثَنَا حَسَانُ بْنُ أَبِي عَبَّادٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَطْفِئُوا الْمَصَابِيحَ بِاللَّيْلِ إِذَا رَقَدْتُمْ، وَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ، وَأَوْكُوا الْأَسْقِيَةَ، وَخَمَرُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ». قَالَ هَمَّامٌ: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: «وَلَوْ بَعُودَ يَوْمٍ يَعْرُضُهُ».

هذا الحديث فيه زيادة على ما سبق، وهي قوله: «أَوْكُوا الْأَسْقِيَةَ»؛ يَعْنِي: ازْبُطُوا أَفْوَاهَهَا، وَالْأَسْقِيَةُ مِثْلُ الْقَرَبِ؛ وَذَلِكَ لِثَلَا يَدْخُلُ فِيهَا الْبَلَاءُ وَالْهَوَامُّ وَغَيْرُ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥١- بَابُ الْخَتَانِ بَعْدَ الْكِبَرِ وَتَنْفِ الْإِبْطِ.

٦٢٩٧- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ قُزَعَةَ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ شَهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْفَطْرَةُ خَمْسٌ: الْخَتَانُ، وَالْأَسْتِحْدَادُ، وَتَنْفِ الْإِبْطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ»^(١).

٦٢٩٨- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ بْنُ أَبِي حَزْزَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو الزُّنَادِ، عَنْ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اخْتَنَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَاخْتَنَ بِالْقُدُومِ»^(٢) مَخْفَفَةً.

قال أبو عبد الله: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا الْمُغِيرَةُ، عَنْ أَبِي الزُّنَادِ وَقَالَ: «بِالْقُدُومِ» وَهُوَ مَوْضِعٌ مُشَدَّدٌ.

٦٢٩٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ، أَخْبَرَنَا عَبَّادُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ،

(١) رواه مسلم (٢٥٧) (٤٩).

(٢) رواه مسلم (٢٣٧٠) (١٥٢).

عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس رضي الله عنه مثل من أنت حين قبض النبي ﷺ؟ قال: أنا يومئذ نخون. قال: وكانوا لا يخنون الرجل حتى يدرك.

٦٣٠٠ - وقال ابن إدريس، عن أبيه، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه: قبض النبي ﷺ وأنا ختين ^(١).

❖ قَالَ الْمُؤَلَّفُ: «بَابُ الْخَتَانِ بَعْدَ الْكِبَرِ وَتَنْفِ الْإِنِط». ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قَالَ: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ». والفطرة نوعان: فطرة باطنة، وفطرة ظاهرة، فالفطرة الباطنة هي طهارة القلب من الشرك، ويدل عليها قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٠]. وقول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه» ^(٢) فهذه الطهارة مفطور عليها كل أحد، فكل مولود يولد على الفطرة، ولا يتغير عنها إلا بسبب البيئة التي يعيش فيها، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه.

❖ والنوع الثاني: الفطرة الظاهرة، وهي طهارة الظاهر، ومنها هذه الخمس، وإننا قلنا: منها. لأنه قد ثبت في صحيح مسلم أنها عشرة ^(٣).

❖ قَالَ: «الْخَتَانُ». والختان يكون للذكر، ويكون للأنثى، أما الذكر فإن ختانه يقطع الجلد التي فوق الحشفة، وتسمى: القلفة، وأما في المرأة فيقطع جلدة تكون بين مخرجي البول والغائط، وهي معروفة عند النساء.

واختلف أهل العلم في الختان هل هو واجب، أو سنة، أو واجب في حق الرجال، سنة في حق النساء ^(٤)، فالمشهور من مذهب الإمام أحمد رحمته الله أن الختان واجب في حق الرجال والنساء ^(٥)، وأنه يجب أن يختن الرجل، وأن تختن المرأة.

(١) علقه البخاري رحمته الله بصيغة الجزم، ووصله الإسماعيلي من طريق عبد الله بن إدريس. «تغليق التعليق» (١٣٢/٥)، و«الفتح» (٩١/١١).

(٢) رواه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨) (٢٢).

(٣) رواه مسلم (٢٦١) (٥٦).

(٤) انظر: «روضة الطالبين» (١٨٠/١٠)، و«المجموع» (٣٦٥/١)، و«الشهيد» (٥٩/٢١)، و«مغني المحتاج» (٢٠٣/٤ - ٢٠٤)، و«المبدع» (١٠٤/١)، و«الفروع» (١٠٥/١)، و«مجموع الفتاوى» (١١٣/٢١)، و«تحفة المودود» (ص ١٠٧).

(٥) انظر: «المغني» (١١٥ - ١١٦)، و«الإنصاف» (١٢٣/١)، و«الكافي في فقه الإمام أحمد» (٢٢/١)، و«شرح العمدة» (٢٤٣/١).

وقيل: بل هو سنةٌ في حقِّ الرجالِ والنساءِ كالاستحداذِ، وقصَّ الأظفارِ.

وقيل: واجبٌ في حقِّ الرجالِ، سنةٌ في حقِّ النساءِ، وهذا هو الأقربُ؛ وذلك أن الرجالَ يَسْتَفِيدُونَ منه ما لا تَسْتَفِيدُ منه النساءُ، فإن الرجلَ لو بقيت قُلْفَتُهُ لتلوّثت بالنجاسةِ، فإن البولَ يَدْخُلُ بينها وبين الحَشْفَةِ ويُفْسِدُ المكانَ، وربما يُؤدِّي إلى الجروحِ والتقرحِ، بخلافِ المرأةِ، فصار في حقِّ الرجالِ واجباً وفي حقِّ النساءِ سنةً، وهذا هو القولُ الراجحُ الذي استقرَّ عليه علماءُ أهلِ نجدٍ في الزمنِ الأخيرِ، على أنه ليس واجباً في حقِّ النساءِ.

❖ أما الثاني: «فلاستحداذُ». الاستحداذُ مأخوذٌ مِنَ الحديدِ وهو إزالةُ الشعرِ بالموسَى، ويَكُونُ في العانةِ، والعانةُ: هي الشعرُ الحَشِينُ الذي يَنْبُتُ حَوْلَ القُبُلِ عندَ البلوغِ. وفي قوله: «الاستحداذُ». إشارةٌ إلى أنه يَنْبَغِي فيه الحلقُ دونَ غيره؛ يعني: دونَ النتفِ، ودونَ الإزالةِ بالدهوناتِ، وإنما تَزَالُ العانةُ بالحديدِ بالحلقِ.

ومن فوائده: أنه أشدُّ وأقوى للمثانةِ، فإن الحلقَ يُقَوِّي أصولَ الشعرِ، وكلما قوي هذا المحلُّ صارَ أسلمَ للمثانةِ مِنَ الصدماتِ وغيرها.

❖ وأما «نتفُ الإبطِ» فظاهرٌ؛ لأنَّ الإبطَ يَنْبُتُ فيه الشعرُ وإذا تَرَكَ فإنه يَتَلَوَّثُ هذا الشعرُ بالعرقِ، ويَحْصُلُ فيه رائحةٌ كريهةٌ، فاستحبَّ فيه النتفُ؛ لأنَّ النتفَ يُضَعِّفُ أصولَ الشعرِ، وإذا ضَعُفَتِ الأصولُ فإنه في النهايةِ سوفَ يَقْضَى عليه نهائياً، والناسُ يَخْتَلِفُونَ في هذا اختلافاً عظيماً، فمنهم مَنْ يَكُونُ شعرُ إبطِهِ كثيراً حتى إنه يَشُقُّ عليه النتفُ لكثرتِهِ، وقوَّتِهِ، وصلابَتِهِ، ومنهم مَنْ يَكُونُ قليلاً، ومنهم يَكُونُ قليلاً جداً، وعلى كُلِّ حالٍ فالمشروعُ في الإبطِ النتفُ، ولكن لو أن الإنسانَ يَعْجُزُ عن هذا ويؤْلِمُهُ ألماً شديداً فلا حرجَ أن يُزِيلَهُ بغيرِ ذلك.

❖ الرابعُ: «قصُّ الشاربِ». والشاربُ معروفٌ وهو خاصٌّ بالرجالِ، فينبغي للإنسانِ أن يَقْصَهُ؛ لأنَّ قَصَّهُ مِنَ الفطرةِ، ووجهُ ذلك ظاهرٌ جداً؛ لأنَّه إذا طَالَ فإنَّ الشعرَ يَجْمَعُ الوَسَخَ، ولهذا فإنه يَنْبَغِي للإنسانِ أن يَتَعَاهَدَ شَعْرَهُ بالتنظيفِ، وإذا طَالَ الشاربُ صارَ عرضةً لأنَّ يَسْقُطَ الشعرُ في الشرابِ فَيَتَلَوَّثَ الماءُ أو اللبنُ أو ما أشبه ذلك، ثم كذلك أيضاً إذا ما شَرِبَ لبناً أو نحوه مِنَ الدسمِ علقَ فيه هذا الشعرُ، وصعَّبَ تنظيفُهُ، ثم إن ما يَخْرُجُ مِنَ الأنفِ مِنَ الأذى والقذرِ يَعلَقُ بهذا الشعرِ، ويُسَوِّهُ المنظرَ، فكان من الفطرةِ أن يَقْصَ وَيُضَعِّفَ.

❦ أما الخامس فقال: «تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ». وتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ أَيْضًا مِنَ الْفِطْرَةِ؛ لِأَنَّ الْأَظْفَارَ كَمَا نَعْلَمُ خَلَقَهَا اللَّهُ ﷻ وَحِكْمًا وَقَايَةً لِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، وَلِهَذَا إِذَا قَصَّهَا الْإِنْسَانُ صَارَتْ مُقَابِلَةُ الْأَصَابِعِ لِلْأَشْيَاءِ ضَعِيفَةً، وَتَبَالَمَ رُؤُوسُ الْأَصَابِعِ إِذَا قَصَّهَا وَجَارَ عَلَيْهَا، فَخَلَقَهَا اللَّهُ ﷻ لِأَجْلِ أَنْ تُشَدَّ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ، لَكِنْ إِذَا طَالَتْ صَارَتْ مَفْسُودَةً، فَإِنَّ الْأَوْسَاحَ تَتَجَمَّعُ فِيهَا، فَإِذَا قُصَّتْ هَذِهِ الْأَظْفَارُ حُصِّلَ الْمَقْصُودُ، وَزَالَتْ هَذِهِ الْأَوْسَاحُ، وَلَئِنْ الْإِنْسَانُ إِذَا قَصَّهَا تَمَيَّزَ بِبَشَرِيَّتِهِ عَنِ الْبَهَائِمِ؛ لِأَنَّ الْبَهَائِمَ ذَاتُ أَظْفَارٍ طَوِيلَةٍ، وَلِهَذَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ^(١)؛ يَعْني: كُلَّ ذِي ظَفَرٍ مِنَ الطَّيْرِ يَخْلُبُ بِهِ وَيَصِيدُ بِهِ.

فهذه خمسة أشياء مِنَ الْفِطْرَةِ، وَالنَّاسُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا إِلَّا أَنَّ الشَّيَاطِينَ اسْتَهْوَتْ بَعْضَهُمْ وَصَارُوا يُخَالِفُونَ هَذِهِ الْفِطْرَةَ فِيمَا يَأْتِي: أَوَّلًا: فِي الْاسْتِحْدَادِ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَسْتَحِدُّ أَبَدًا، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْتَحِدُّ فِي السَّنَةِ مَرَّةً.

وكَذَلِكَ أَيْضًا فِي قَصِّ الشَّارِبِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَقْصُ شَارِبَهُ، وَتَجِدُ لِحْيَتَهُ مَحْلُوقَةً، وَأَيُّ شَعْرَةٍ تَخْرُجُ فِي هَذِهِ اللَّحْيَةِ فَوَيْلٌ لَهَا مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ، لَكِنَّ شَارِبَهُ يَبْقَى كَثِيفًا، يَتَنَاسَلُ وَيَتَنَامَى، حَتَّى إِنْ بَعْضُهُمْ يَقْطُرُ بِطُولِ شَارِبِهِ، وَيَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الْجَاهِلِ: الرَّجَالُ طَوَالُ الشَّوَارِبِ. وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ الرَّجَالَ هُمُ الَّذِينَ يَمْتَلُونَ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ قَصِّ الشَّارِبِ.

وكَذَلِكَ أَيْضًا تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ اجْتَالَتْهُ الشَّيَاطِينُ فَصَارَ لَا يَقْلِمُ أَظْفَارَهُ، وَيُقْبِيهَا حَتَّى تَكُونَ كَالْحَرَابِ، وَحَتَّى يَكُونَ كَالْحَبْشَةِ، فَإِنَّ الظَّفَرَ مَدَى الْحَبْشَةِ، وَالْغَرِيبُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لَعِبَ بِهِمُ الشَّيْطَانُ فَصَارُوا يَقْلُدُونَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ يُقْبِي ظَفَرَ السَّبَابَةِ وَالْبَاقِي يَقْصُهُ، وَبَعْضُهُمْ يُقْبِي الْخَنَصَرَ وَالْبَاقِي يَقْصُهُ، وَفِي هَذَا مُخَالَفَةٌ لِلشَّرِيعَةِ، وَتَشَبُّهُ بِالْكَفَّارِ، وَإِخْلَالٌ بِالْعَدْلِ، إِذْ كَيْفَ تَحْرِمُ هَذَا الْأَصْبَعَ مِنَ الْفِطْرَةِ، وَبَقِيَّةُ الْأَصَابِعِ تُعْجِرُهَا عَلَى الْفِطْرَةِ، وَلَكِنْ كَمْ تَوَقَّتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ؟

الجواب: تَوَقَّتْ بِأَرْبَعِينَ يَوْمًا، قَالَ أَنَسُ رضي الله عنه: وَقَّتْ لَنَا فِي ذَلِكَ أَلَا تُتْرَكَ أَوْ أَلَا تُتْرَكَ فَوْقَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا^(٢). فَيَحْسُنُ أَنْ الْإِنْسَانُ يُرَتِّبُ لِنَفْسِهِ فَيَجْعَلَ مِثْلًا كُلَّ جُمُعَةٍ أَوَّلَى فِي الشَّهْرِ هِيَ

(١) رواه مسلم (١٩٣٤) (١٦).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨) (٥١).

وقت إزالة هذه الأشياء، حتى لا ينسى؛ لأن الإنسان إذا لم يؤقّت فالأيام تمضي سريعاً فقد يمضي أربعون يوماً أو خمسون يوماً ولا يشعر، لكن إذا رتب نفسه على أن أول جمعة من كل شهر، حصل له خير كثير، وصار يتعاهد نفسه.

❦ ثم ذكر الحديث الثاني، وفيه: «اختتن إبراهيم بعد ثمانين سنة». وفي هذا دليل على أن الختان من ملة إبراهيم عليه السلام، وأنه يجوز الختان بعد الكبر، لكن هذا بعد أن ثبت وجوبه، لا يكون إلا في شخص أسلم متأخراً، وإلا فإذا كان مسلماً من الأصل، فإنه يجب أن يختن من حين تجب عليه الصلاة؛ لأنه لا بد من التطيف، ولهذا يجب الختان قبل البلوغ فإن أخره حتى بلغ، كان أثماً.

❦ وقوله: «واختن بالقدم، مخففة». القدم معروف آلة يقطع بها، ولكنه بلا شك أنه تحرى وضبط نفسه حتى اختن عليه السلام، وليس المعنى أنه ضرب ضربة كما تضرب الخشبة مثلاً؛ لأن هذا لا شك أنه قد يخطئ، ومثل هذه الأشياء يجب التحري فيها، والآن والحمد لله يسر الله لنا الاختن بالمستشفيات على وجه منضبط مأمون.

ثم ذكر الحديث الثالث وفيه: «سئل ابن عباس رضي الله عنهما: مثل من أنت حين قبض النبي ﷺ؟ قال: أنا يومئذ محتون، قال: وكانوا لا يختنون الرجل حتى يدرك».

يدرك؛ يعني: يبلغ أو يقارب البلوغ، ولهذا قال أهل العلم: إنه يجب الاختتان قبيل البلوغ، لئلا يبلغ وهو غير مختن، فيتلوث بالنجاسة.

والعلماء يقولون: إن الختان في زمن الصغر أفضل؛ لأن الختان في زمن الصغر فيه فائدتان: **الفائدة الأولى**: سرعة البرء.

والفائدة الثانية: عدم الاهتمام والقلق النفسي؛ لأن الصغير ليس عنده قلق نفسي، وغاية ما هنالك إن أحس بالألم صاح، وإلا فليس عنده تفكير أو ألم نفسي، فلهذا كان في زمن الصغر أفضل، إلا أنهم قالوا: يكره أن يبادر به قبل اليوم السابع، وإنما يكون في اليوم السابع فما بعده، وبعضهم كرهه حتى في اليوم السابع، ولكن الظاهر عدم الكراهة، وهذه مسألة أحببت أن أتبه عليها.

وفيه: دليل على توقيت الشيء بما هو معلوم وإن لم يذكر، فيستفاد منه أنه يجوز توقيت

الْأَجَالِ إِلَى وَقْتِ الْحَصَادِ، وَإِلَى وَقْتِ الْجَذَازِ^(١)، وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ الْأَوْقَاتِ الْمَعْلُومَةِ لِلنَّاسِ جَمِيعًا؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ مَعْلُومًا فَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ يُعَيَّنَ، اكْتِفَاءً بِمَا هُوَ مَشْهُورٌ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٢- بَابُ كُلِّ لَهْوٍ بَاطِلٌ إِذَا شَغَلَهُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَمَنْ قَالَ لِمَالِكِهِ: تَعَالَى أَقَامِرُكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

٦٣٠١- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ

عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى. فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ قَالَ لِمَالِكِهِ: تَعَالَى أَقَامِرُكَ فَلْيَتَصَدَّقْ»^(١).

هَذَا الْبَابُ بَابُ مَهْمُ كُلِّ لَهْوٍ إِذَا شَغَلَهُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ؛ يَعْنِي فَمَا حَكَمُهُ؟ اللَّهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ: لَهْوٌ بَاطِلٌ مَمْنُوعٌ مُطْلَقًا، وَلَهْوٌ بَاطِلٌ غَيْرُ مَمْنُوعٍ مَا لَمْ يَتَّصِفْ بِمَحْظُورٍ.

أَمَّا اللَّهُوَ الْبَاطِلُ الْمَمْنُوعُ فَهُوَ: الْأَشْيَاءُ الَّتِي فِيهَا إِلَهَاءٌ كَثِيرٌ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ؛ مِثْلُ النَّرْدِ وَالشُّطْرَنْجِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَلْعَابِ الَّتِي تُلْهِي كَثِيرًا، وَتَقْتُلُ الْوَقْتَ وَأَنْتَ لَا تُحَسُّ، وَفَائِدَتُهَا قَلِيلَةٌ، فَهَذِهِ حَرَامٌ؛ لِأَنَّهَا تَذْهَبُ أَعَزَّ مَا عَلَى الْإِنْسَانِ، فَإِنْ أَعَزَّ مَا عَلَى الْإِنْسَانِ عَمْرُهُ، وَالْعَجَبُ أَنَّ أَعَزَّ مَا عَلَى الْإِنْسَانِ عَمْرُهُ، وَهُوَ أَرْخَصُ مَا عَلَى الْإِنْسَانِ يَذْهَبُ، فَتَجِدُ الْإِنْسَانَ يَتَخَلَّى بِالْدَرَاهِمِ وَالْدِينَارِ، لَكِنَّهُ لَا يَتَخَلَّى بِالسَّاعَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَذْهَبُ مِنْ عَمْرِهِ بِلا فائدةٍ، مَعَ أَنَّ الْعَمْرَ أَعْلَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾^(٢) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ. وَلَمْ يَقُلْ: لَعَلِّي أَتَجَرُّ فِيمَا تَرَكْتُ حَتَّى أَرْبَحَ، بَلْ قَالَ: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾. حَتَّى لَا يَضِيعَ عَلَيَّ بِلا فائدةٍ، فَهَذَا النُّوعُ مِنَ اللَّهُوَ -أَعْنِي الَّذِي يُلْهِي كَثِيرًا وَلَيْسَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ- مُحَرَّمٌ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ إِضَاعَةِ الْوَقْتِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى مِنَ الْمَالِ، وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ نَهَى عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ^(٣). فَإِضَاعَةُ الْوَقْتِ مِنْ بَابِ أُولَى.

(١) جَذَهُ يَجْذُهُ جَذًا: كَسَرَهُ، أَوْ قَطَعَهُ. فَهُوَ جَذِيدٌ، وَمَجْذُودٌ فِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزُ ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ﴾. وَيُقَالُ:

جَذَّ الْحَبْلُ، وَجَذَّ الشَّيْءُ عَنِ الشَّيْءِ. وَالنَّخْلُ جَذًا، وَجِذَادًا: قَطَعَ ثَمَرَهُ وَجَنَاهُ. اهـ

انظر: «المعجم الوسيط» مادة (ج ذ ذ).

(٢) رواه مسلم (١٦٤٧) (٥).

(٣) تقدم تخريجه في الزكاة.

الثاني لهوٌ باطلٌ؛ يَعْنِي: لَيْسَ فِيهِ نَفْعٌ وَلَا خَيْرٌ، فَهَذَا جَائِزٌ لِلتَّرْوِيحِ عَنِ النَّفْسِ، وَلَكِنْ بِشَرَطٍ أَلَّا يَتَضَمَّنَ مُحَرَّمًا أَوْ تَرَكَ وَاجِبًا، مِثْلَ الْمَسَابَقَةِ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَالْمَصَارَعَةِ، وَاللَّعِبِ بِكَرَةِ الْقَدَمِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي فِيهَا مَصْلَحَةٌ، وَفِيهَا إِهَاءٌ، وَفِيهَا إِجْهَامٌ^(١) لِلنَّفْسِ، وَلَا تُلْهِي كَثِيرًا، فَهَذِهِ نَقُولُ بِجَوَازِهَا بِشَرَطٍ أَلَّا تُلْهِيَ عَنِ وَاجِبٍ أَوْ تُوقِعَ فِي مُحَرَّمٍ؛ فَإِنَّ أَلْهَتَ عَنِ وَاجِبٍ صَارَتْ حَرَامًا، كَمَا لَوْ عَكَفَ أَصْحَابُهَا عَلَيْهَا فِي وَقْتِ الصَّلَاةِ، وَتَرَكَوْا بِذَلِكَ وَاجِبَ الصَّلَاةِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، أَوْ فِي الْوَقْتِ، أَوْ أَضَاعُوا صَلَاةَ رَحِمٍ، أَوْ بَرٍّ وَالِدَيْنِ، أَوْ أَضَاعُوا تَشْيِيعَ جَنَازَةٍ يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَشْيِيعُهَا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَهَذَا حَرَامٌ؛ لِأَنَّهُ أَلْهَى عَنِ وَاجِبٍ، كَذَلِكَ لَوْ أَوْقَعَ فِي مُحَرَّمٍ، بَأَن كَانَ هَذَا سَبَبًا لِلسَّبِّ، وَالشَّتْمِ، وَالْعَدَاوَةِ، وَالْبَغْضَاءِ، وَفِي لَعِبِ الْكَرَةِ كَمَا لَوْ أَدَّى إِلَى كَشْفِ الْأَفْخَاذِ، فَإِنَّ هَذَا يَكُونُ حَرَامًا لَا لِذَاتِهِ وَلَكِنْ لِمَا صَحَبَهُ مِنَ الشَّيْءِ الْمُحَرَّمِ، وَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ صُورِ اللَّاعِبِينَ نَسَأَلَ اللَّهُ لَنَا وَلَهُمُ الْهَدَايَةَ صُورًا فَظِيعةً وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ، لَيْسَ عَلَى الْوَاحِدِ إِلَّا مَا يَسْتُرُ السُّوءَ فَقَطْ، بِحَيْثُ لَوْ أَرَادَ الْإِنْسَانُ الْبَصِيرُ أَنْ يُدَقِّقَ لِرَأْيِ شَيْئًا مَا، فَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ حَرَامٌ، وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَتَدَنَّى وَيَتَدَلَّى إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنَ اللَّبَاسِ، مَصَانَعَةِ الْكَافِرِ، أَوْ لِفَاسِقٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا إِذَا رَأَيْنَا مِنَ الشَّبَابِ مَنْ هُوَ بِهَذِهِ الْحَالِ أَنْ نَنْصَحَهُ وَنُخَوِّفَهُ بِاللَّهِ، وَنَقُولُ: يَا أَخِي لَا تَدَاهَنْ فِي دِينِ اللَّهِ، دِينَ اللَّهِ لَيْسَ فِيهِ مِدَاهَنَةٌ، فَلَوْ أَنَّ أَعْظَمَ شَخْصٍ فِي الْعَالَمِ وَأَعْظَمَ سُلْطَةً فِي الْعَالَمِ أَمَرَكَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَقُلْ لَهَا: لَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ وَاجِبَةٌ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلَنْ تَمْتَلِكُوا هَذَا الْأَمْرَ.

وَالْإِنْسَانُ يَجِبُ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى شَخْصِيَّتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْكَفَارُ إِذَا رَأَا الْإِنْسَانَ قَوِيًّا فِي دِينِهِ صَارُوا أَذَلَّ مِنْ أَذَلِّ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَرْذَلُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَإِذَا رَأَا الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا فِي دِينِهِ، ضَعِيفَ الشَّخْصِيَّةِ رَكِبُوهُ، وَصَارُوا يُمْلُونَ عَلَيْهِ مَا يُحْطَمُ دِينُهُ، نَعْمَ قَدْ لَا يَقُولُونَ لَهُ: أَشْرِكْ بِاللَّهِ، أَوْ أَنْكَرْ رِسَالَاتِ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ. وَلَكِنْهُمْ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا يُهَوِّنُ الدِّينَ فِي قَلْبِهِ، حَتَّى يَضْمَحِلَّ الدِّينُ عَنْ قَلْبِهِ، لَكِنْ إِذَا كَانُوا يَجِدُونَ مِنَ الْمُسْلِمِ قُوَّةً، فَإِنَّهُمْ سَيَضْعِفُونَ أَمَامَهُ.

(١) أَجْمَعَ الْإِنْسَانُ وَالْفَرَسَ وَنَحْوَهُمَا: اسْتَرَاحَ فَذَهَبَ إِعْيَاؤُهُ، وَانْظُرِ الْمَعْجَمَ الْوَسِيطَ مَادَّةَ (ج م م).

وَنَحْنُ نَقُولُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ: يَوْجَدُ مِنَ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ هَذِهِ الرِّيَاضَةَ مَنْ اسْتَقَامُوا وَرَجَعُوا، وَصَارَ لَهُمْ ذِكْرُ حَسَنَةٍ فِي أَوْسَاطِ اللَّاعِبِينَ، وَبُرْجَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنَّ هَذَا الْخَيْرَ يَسْتَمِرُّ وَيَنْتَشِرُ، حَتَّى يَكُونَ لِسَابِقِنَا مِنَ الشَّخْصِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ مَا يَجْعَلُهُ فَوْقَ الْمَدَاهِنَةِ، أَوْ الْمَدَارَةِ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ مِنَ الْكُفْرَةِ وَالْفَاسِقِينَ.

فَهَذَا النُّوعُ مِنَ اللَّعِبِ حُكْمُهُ الْإِبَاحَةُ مَا لَمْ يَسْتَمِلْ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلٍ مُحْرَمٍ. فَصَارَ اللَّهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ: بَاطِلٌ مُحْرَمٌ، وَبَاطِلٌ غَيْرُ مُحْرَمٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَرَادَ بِالْبَاطِلِ هُنَا مَا لَا خَيْرَ فِيهِ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى مَا فِيهِ الْإِثْمُ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ الْبَاطِلَ فِي اللَّغَةِ هُوَ الضَّاعُ سَدًى، الَّذِي لَيْسَ يُنْتَفَعُ بِهِ وَلَيْسَ يُحْتَصُّ بِالْمُحْرَمِ.

❖ ثُمَّ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا شَغَلَهُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ». وَطَاعَةُ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ إِمَّا فِي شَيْءٍ وَاجِبٍ، وَإِمَّا فِي شَيْءٍ مُسْتَحَبٍّ، فَإِنْ كَانَتْ فِي شَيْءٍ مُسْتَحَبٍّ فَالشَّاعِلُ عَنْهُ مَكْرُوهٌ، وَإِنْ كَانَتْ فِي شَيْءٍ وَاجِبٍ فَالشَّاعِلُ عَنْهُ حَرَامٌ.

ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّهُ فِي هَذَا الْبَابِ يُرَخِّصُ لِلصَّغَارِ مَا لَا يُرَخِّصُ لِلْكِبَارِ، كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ يَعْنِي: أَنَّ هَذَا اللَّهُوَ قَدْ نَقُولُ فِيهِ: هَذَا - رَأً عَلَى الْكِبَارِ، لَكِنَّهُ غَيْرُ حَرَامٍ عَلَى الصَّغَارِ، وَلِهَذَا رَخَّصَ أَوْ أَذِنَ الرَّسُولُ ﷺ لِعَائِشَةَ أَنْ تَلْعَبَ بِالْبَنَاتِ؛ لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ السُّرُورِ لِلصَّبِيِّ، وَإِزَالَةِ الْإِنْطَوَاءِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الصَّبِيَّ إِذَا مُنِعَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَلْعَابِ فَإِنَّهُ يَنْزَوِي وَيَنْطَوِي وَيَتَحَجَّرُ، وَيَكُونُ فِي نَفْسِهِ عُقْدٌ، فَإِذَا أُطْلِقَتْ لَهُ الْحَرِيَّةُ فِي بَعْضِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا يُحِلُّ لِلْكَبِيرِ الْبَالِغِ الَّذِي يُقَدَّرُ الْأُمُورَ وَيَعْرِفُ قَدَرَ الزَّمَنِ، صَارَ فِي هَذَا مُصْلِحَةً، وَأَنْتُمْ تَذْكُرُونَ لَهَا كِتْمَ صَغَارًا، كِتْمَ تَلْعَبُونَ أَلْعَابًا لَا تَلْعَبُونَهَا الْيَوْمَ، وَلَوْ لَعَبْتُمُوهَا الْيَوْمَ لَقَالُوا: هَذَا إِمَّا مُجَنُونٌ، وَإِمَّا فِيهِ بَلَاءٌ، لَكِنَّ الصَّغَارَ يُرَخِّصُ لَهُمْ مَا لَا يُرَخِّصُ لِلْكِبَارِ.

❖ ثُمَّ قَالَ: «وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَى أَقَامِرُكَ». يَعْنِي: فَمَاذَا يَصْنَعُ؟ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْحَدِيثِ. ❖ ثُمَّ قَالَ: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾». لَهْوَ الْحَدِيثِ؛ يَعْنِي: مَا يَلْهُو بِهِ الْمَرْءُ مِنَ الْحَدِيثِ وَهُوَ أَقْسَامٌ فِي

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٠ / ٢١٤)، و«الفتاوى الكبرى» (٤ / ٤٩٧).

(٢) تقدم تخريجه في الأدب.

الواقع فقد يُلْهُو المرءُ بحديثٍ واجبٍ، وقد يُلْهُو بحديثٍ مستحبٍ، وقد يُلْهُو بحديثٍ مباحٍ، وقد يُلْهُو بحديثٍ محرمٍ، وقد يُلْهُو بحديثٍ محرمٍ لذاته أو محرمٍ لغيره، فالإنسان الذي يَتَكَلَّمُ مع الناس وَيَعْظُمُهُمْ يُلْهُو بالحديث، لكنَّه لاهٍ في الحقيقة عن شيءٍ مشتغلٍ بشيءٍ آخرٍ نافعٍ، فهذا لا يُذَمُّ، وكذلك اللاهِي عن شيءٍ بشيءٍ آخرٍ مستحبٍ، لا يُذَمُّ.

أما اللاهِي بالمباح فهذا هو محلُّ التفصيل، فإذا كان هذا اللهُو في المباح يُلْهِي عن واجبٍ أو عن مستحبٍ، صار مذمومًا، فإن ألْهِى عن واجبٍ فهو محرمٌ، وإن ألْهِى عن مستحبٍ فهو مكروهٌ، وإذا كان يُقصدُ به الإضلالُ عن سبيلِ الله؛ كان يُلْهُو بحديثٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُضِلَّ عن سبيلِ الله، فهذا حرامٌ بلا شكٍّ، وقد يَصِلُ إلى الكفرِ، أَرَأَيْتَ الجَمَاعَةَ الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبُ بَطُونًا، وَلَا أَكْذَبُ أَلْسِنًا، وَلَا أَجْبَنُ عِنْدَ اللِّقَاءِ، يَعْنُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ، قَالُوا: إِنَّا نَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرِّكْبِ لِنَقْطَعَ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ، وَقَالُوا: إِنَّمَا كُنَّا نَخْوُضُ وَنَلْعَبُ^(١). فكان هذا الخوضُ واللعبُ كفرًا: ﴿لَا تَمْنِرُوا فَاذْكُرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ١٦٦]. فالذي يُلْهُو لِضَلِّ النَّاسِ عن سبيلِ الله داخلٌ في هذا الحديث، حتى لو كنتَ في مجلسٍ وأذنٌ للصلاة، فقام أحدُ الحاضرين لِيُصَلِّيَ، فقلت: اجلسْ اجلسْ تَتَحَدَّثُ فما زال في الوقتِ سَعَةً. تُريدُ أَنْ تُلْهِيَهُ عن الصلاة، فأنت داخلٌ في هذه الآية؛ لأنَّكَ تَضِلُّ عن سبيلِ الله.

❦ وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. هل اللامُ فيه للتعليلِ أو للعاقبة أو صالحةٌ لهما؟ نقولُ: يُحْتَمَلُ، لكن إن كانت للتعليلِ ففعلُ هذا الذي له الحديثُ أقبحُ، وإن كانت للعاقبة فغايته قبيحةٌ.

ومثالُ اللامِ التي للعاقبة، اللامُ التي في قوله تعالى: ﴿فَالنَّقَطَةُ﴾ أَلْ فَرَعُونَ لِيَكُونُوا لَهُمْ عَدُوًّا وَحِزْنًا [التوبة: ٨]. فاللامُ هنا للعاقبة، ولا تَصْلَحُ أَنْ تَكُونَ هنا للتعليلِ؛ لأنهم لم يَنْقَطُوا لِيَكُونُوا لَهُمْ عَدُوًّا وَحِزْنًا، وإنما صارت عاقبته فيما بعدُ، عندما صارَ رسولًا، وكفر به، أن صار له عدوًّا وحزنًا، ولأنَّهم لو كانوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحِزْنًا لَمَّا التَقَطُوا، فاللامُ في هذه الآية: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ للتعليلِ؛ يَعْنِي: يَشْتَرِي لَهُو الحديثِ مِنْ أَجْلِ

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٠ / ١٧٢، ١٧٣). وعزاه صاحب «الدر المنثور» (٤ / ٢٣٠) إلى ابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

هذا الغرض، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَاقِبَةِ؛ يَعْنِي: أَنَّهُ إِذَا تَلَهَّى بِالْحَدِيثِ أَضَلَّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.
قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/ ٩١-٩٢):

قَوْلُهُ: «بَابُ: كُلُّ لَهْوٍ بَاطِلٌ إِذَا شَغَلَهُ». أَي: شَغَلَ الْإِلَهِي بِهِ، «عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ». أَي:
 كَمَنْ تَلَهَّى بِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مُطْلَقًا، سِوَاءٍ كَانَ مَأْذُونًا فِي فِعْلِهِ، أَوْ مِنْهِيًّا عَنْهُ؛ كَمَنْ اشْتَغَلَ
 بِصَلَاةٍ نَافِلَةٍ، أَوْ بِتِلَاوَةِ، أَوْ ذِكْرِ، أَوْ تَفَكُّرٍ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ مِثْلًا حَتَّى خَرَجَ وَقْتُ الصَّلَاةِ
 الْمَفْرُوضَةِ عَمْدًا، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا الضَّابِطِ، وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْأَشْيَاءِ الْمُرَغَّبِ فِيهَا
 الْمَطْلُوبِ فِعْلُهَا، فَكَيْفَ حَالُ مَا دُونَهَا، وَأَوَّلُ هَذِهِ التَّرْجُمَةِ لَفْظُ حَدِيثٍ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ،
 وَالْأَرْبَعَةُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ. وَالْحَاكِمُ، مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَفَعَهُ: «كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ
 الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ بَاطِلٌ إِلَّا رَمِيَهُ بِقُوسِهِ، وَتَأْدِيئَهُ فَرَسَهُ، وَمَلَاعِبَتُهُ أَهْلَهُ». الْحَدِيثُ، وَكَأَنَّهُ لَمَّا لَمْ
 يَكُنْ عَلَى شَرْطِ الْمَصْنَفِ اسْتَعْمَلَهُ لَفْظَ تَرْجُمَةٍ، هُوَ اسْتَنْبَطَ مِنَ الْمَعْنَى مَا قَيَّدَ بِهِ الْحَكَمَ
 الْمَذْكُورَ، وَإِنَّمَا أَطْلَقَ عَلَى الرَّمِيِّ أَنَّهُ لَهْوٌ؛ لِإِمَالَةِ الرِّغَابِ إِلَى تَعْلِيمِهِ، لَمَّا فِيهِ مِنْ صُورَةِ اللَّهِ،
 لَكِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ تَعْلِيمِهِ الْإِعَانَةُ عَلَى الْجِهَادِ، وَتَأْدِيئُ الْفَرَسِ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَسَابَقَةِ عَلَيْهَا،
 وَمَلَاعِبَةُ الْأَهْلِ، لِلتَّائِسِ وَنَحْوِهِ، وَإِنَّمَا أَطْلَقَ عَلَى مَا عَدَاهَا الْبَطْلَانُ مِنْ طَرِيقِ الْمَقَابِلَةِ؛ لِأَنَّهُ
 جَمِيعُهَا مِنَ الْبَاطِلِ الْمَحْرَمِ.

[قَوْلُهُ: لَا أَنْ جَمِيعُهَا مِنَ الْبَاطِلِ الْمَحْرَمِ. صَحِيحٌ، لَكِنْ هِيَ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ الْبَاطِلَ هُوَ كُلُّ مَا
 لَا نَفْعَ فِيهِ.] ^(١)

قَوْلُهُ: «وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أَقَامِرُكَ». أَي: مَا يَكُونُ حَكْمُهُ.

**قَوْلُهُ: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ الْآيَةُ». كَذَا فِي رِوَايَةِ أَبِي
 ذَرٍّ وَالْأَكْثَرِ، وَفِي رِوَايَةِ الْأَصْبَلِيِّ وَكَرِيمَةَ: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الْآيَةُ، وَذَكَرَ ابْنُ بَطَالٍ أَنَّ
 الْبُخَارِيَّ اسْتَنْبَطَ تَقْيِيدَ اللَّهِ فِي التَّرْجُمَةِ بِمَفْهُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. فَإِنَّ
 مَفْهُومَهُ أَنَّهُ إِذَا اشْتَرَاهُ لَا لِيُضِلَّ، لَا يَكُونُ مَذْمُومًا، وَكَذَا مَفْهُومُ التَّرْجُمَةِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَشْغَلْهُ اللَّهُ
 عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، لَا يَكُونُ بَاطِلًا، لَكِنَّ عَمُومَ هَذَا الْمَفْهُومِ يُخَصُّ بِالْمَنْطُوقِ، فَكُلُّ شَيْءٍ نُصِّصَ
 عَلَى تَحْرِيمِهِ مِمَّا يُلْهِي يَكُونُ بَاطِلًا، سِوَاءٍ شَغَلَ، أَوْ لَمْ يَشْغَلْ، وَكَأَنَّهُ رَمَزَ إِلَى ضَعْفِ مَا وَرَدَ فِي**

(١) مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفِينَ مِنْ كَلَامِ الشَّيْخِ ابْنِ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

تفسير الله في هذه الآية بالغناء.

وقد أخرج الترمذي من حديث أبي أمامة رفعه: «لا يَحِلُّ بَيْعُ الْمُغْنِيَّاتِ، وَلَا شُرَاؤُهُنَّ». الحديث، وفيه، وفيه أنزل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾. الآية وسنده ضعيف. وأخرج الطبراني، عن ابن مسعود موقوفاً، أنه فسر الله في هذه الآية بالغناء، وفي سنده ضعف أيضاً.

❖ ثم أورد حديث أبي هريرة، وفيه: «وَمَنْ قَالَ لِمَا بِهِ: تَعَالَ أَقَامِرُكَ... الحديث». وأشار بذلك إلى أن القمار من جملة اللهو، ومن دعا إليه دعا إلى المعصية، فلذلك أمر بالتصدق؛ ليكفر عنه تلك المعصية؛ لأن من دعا إلى معصية وقع بدعائه إليها في معصية. وقال الكرمانى: وجه تعلّق هذا الحديث، والترجمة بالاستئذان أن الداعي إلى القمار لا ينبغي أن يؤذّن له في دخول المنزل، ثم لكونه يتضمّن اجتماع الناس، ومناسبة بقية حديث الباب للترجمة أن الحلف باللات للهو يشغل عن الحق بالخلق، فهو باطل انتهى.

ويحتمل أن يكون لما قدّم ترجمة ترك السلام على من اقترف ذنباً أشار إلى ترك الإذن لمن يشتغل باللهو عن الطاعة، وقد تقدّم شرح حديث الباب في تفسير سورة «والنجم».

قَالَ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ». بعد أن أخرج هذا الحديث: هذا الحرف: «تَعَالَ أَقَامِرُكَ». لا يرويه أحدٌ إلا الزهري، وللزهري نحو تسعين حرفاً لا يُشارِكُه فيها غيره، عن النبي ﷺ، بأسانيد جياد.

قلت: وإنما قيّد التفرد بقوله: «تَعَالَ أَقَامِرُكَ»؛ لأن لبقية الحديث شاهداً من حديث سعد بن أبي وقاص، يُستفاد منه سبب حديث أبي هريرة، أخرجه النسائي بسند قوي، قال: كنا حديثي عهد بجاهلية فحلفت باللات والعزى، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وانفث عن شمايلك، وتعوذ بالله، ثم لا تعدّ».

فيمكن أن يكون المراد بقوله في حديث أبي هريرة: «فليقل: لا إله إلا الله...». إلى آخر الذكر المذكور إلى قوله: «قدير». ويحتمل الاكتفاء بـ «لا إله إلا الله»؛ لأنها كلمة التوحيد، والزيادة المذكورة في حديث سعد تأكيد. انتهى كلام الحافظ رحمه الله

قوله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ مِنْكُمْ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

اللات والعزى: هذان صنمان كانت تَعْبُدُهُما قريش، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١١ وَمَوَدَّةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ۝١٢﴾ [البقرة: ١٩-٢٠]. يعني: ما شأنها، وما عظمتها بالنسبة إلى عظمة الله ﷻ، وأنتم تَعْبُدُونَهَا مع الله.

فإذا قال الإنسان: باللات والعزى. فقد أقسم بهذه الأصنام، والحلف بغير الله شرك، قد يَكُونُ أكبر، وقد يَكُونُ أصغر، وإذا كان بوثنٍ أو صنمٍ يُعْبَدُ صار أَقْبَحَ وَأَقْبَحَ، لكنَّ هذا الشرك أمرُ النبي ﷺ بمداواته بضده، فقال: «فليقل: لا إله إلا الله». وهكذا الأدواء إنما تُعَالَجُ بضدها الحسية والمعنوية، فالشرك دواءه التوحيد؛ ولهذا قال: «فليقل: لا إله إلا الله». فهو إذا قال: لا إله إلا الله فلن يَحْلِفَ باللات والعزى؛ لأن الحلفَ تعظيمٌ للمحلول به، ولهذا كان شركاً.

❦ قوله: «ومن قال: تعال أقامرك فليتصدق». فليتصدق؛ لأن المقامرة أكلٌ للمال بالباطل، والصدقة ضدها، ولهذا أمره أن يتصدق ليُدَاوِيَ هذه السيئة بضدها، وهذا يُشْبِهُ قولَ الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِّكَ يَتُوبَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. لأنه لا يُقْبَلُ ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن ذِكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾. أي: الفاعلون لما به التضعيف. فالحاصل: أن الإنسان يُدَاوِيَ المعصية بضدها، فيُدَاوِيَ الشرك بالتوحيد، ويُدَاوِيَ القمار بالصدقة.

والقمار هو: كلُّ معاملةٍ مبنية على المغالبة، بحيث يَكُونُ الإنسان فيها إما غانماً، وإما غارماً، وكلُّها حرامٌ داخلَةٌ في الميسر، والناس اليوم وقَعُوا في الرِّبَا كثيرًا، وصَارُوا يَقْعُونَ في الميسرِ بهذه المسابقات والتأمينات، وما أشبهها.

ولست أعني كلَّ مسابقةٍ أو كلَّ تأمينٍ، لكنَّ المراد المسابقة والتأمينُ المبنيان على: إما غانم وإما غارم، فهذا من الميسر، واستحلاله كاستحلال الخمر؛ لأنَّ الله تعالى جعل الحكمَ فيهما واحداً، قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ولما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ لأصحابه: «إن الله تعالى عَرَضَ بالخمرِ والميسرِ فمن كان عنده شيءٌ منها فليَتَفَقَّعْ به أو لِيَبِعْهُ»^(١). ثم أنزل الله الآية في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فالحاصل: أن القهار هو كل معاملة مبنية على المغالبة يكون فيها المتعاملان إما غانمًا وإما غارمًا، ويُستثنى من ذلك ما مصلحته أعظم من مضرته وهو المسابقة على الخيل والإبل والسهام، فإن المغالبة فيها جائزة ولو بدون مُحلِّل فإذا كان عند شخصين فرسان، وتَسَابَقًا عليهما بعوض يكون للغالب منهما على صاحبه فهذا جائز، وكذلك الإبل، وكذلك في السهام بالرمي؛ لأن الرمي قوة كما قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرمي»^(١)، «والخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»^(٢)، والإبل تحمِلُ الأثقال: «وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ» إِنَّ بَلَدَكُمْ تَكُونُوا بَلَدِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ [البقرة: ١٧]. وَتَحْمِلُ عَلَيْهَا الْمُجَاهِدُونَ أَمْتَعْتَهُمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَفِي وَقْتِنَا الْحَاضِرِ لَيْسَ هُنَاكَ إِبِلٌ أَوْ خَيْلٌ أَوْ سَهَامٌ كَمَا فِي الزَّمَنِ السَّابِقِ، وَلَكِنْ يُقَالُ: مَا حَلَّ مُحَلِّهَا فَلَهُ حَكْمُهَا، فَسِيَارَاتُ النُّقْلِ لِلْجِيُوشِ حَكْمُهَا حَكْمُ الْإِبِلِ، وَالطَّائِرَاتُ حَكْمُهَا حَكْمُ الْخَيْلِ، وَالصَّوَارِيخُ حَكْمُهَا حَكْمُ السَّهَامِ، وَالْحَقُّ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِذَلِكَ سَهَامُ الْعِلْمِ وَهِيَ الْمَغَالِبَةُ فِي الْمَسَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ فَأَجَازَ فِيهَا الْعَوْضُ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ: إِنْ الْعِلْمُ جِهَادٌ، وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجَازَ الْمَغَالِبَةَ فِي وَسَائِلِ الْجِهَادِ، فَكَذَلِكَ تَجُوزُ الْمَغَالِبَةُ فِي وَسَائِلِ الْعِلْمِ^(٣). فَإِذَا تَنَازَعَ شَخْصَانِ فِي مَسْأَلَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَتَسَابَقًا فِيهَا، فَإِنْ هَذَا جَائِزٌ وَظَاهَرُ النُّصُوصِ سِوَاءُ قَصَدَ الْإِنْسَانُ مُطْلَقَ الْمَغَالِبَةِ أَوْ قَصَدَ الْفَائِدَةَ الْمَرْجُوءَةَ، بِمَعْنَى أَنَّهُ إِذَا تَسَابَقَ اثْنَانِ عَلَى فَرْسَيْنِ فَسِوَاءُ قَصَدَا الْمَغَالِبَةَ، أَوْ قَصَدَا التَّمَرُّنَ عَلَى رُكُوبِ الْخَيْلِ، هَذَا ظَاهَرُ الْحَدِيثِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخَيْرَ حَاصِلٌ سِوَاءُ أَرَدْتَ هَذَا أَوْ أَرَدْتَ هَذَا، وَكَذَلِكَ مَسَائِلُ الْعِلْمِ لَوْ تَسَابَقَ فِيهَا رَجُلَانِ عَلَى عَوْضٍ، وَقَصَدَا الْعَوْضَ، فَالظَّاهِرُ لِي أَنَّ هَذَا جَائِزٌ، وَإِنْ كَانَ هَذَا لَا يُسَاوِي مَنْ قَصَدَا بِتَسَابُقِهِمَا الْعُثُورَ عَلَى حَكْمِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ أَدْلَتِهَا الشَّرْعِيَّةِ، لِأَنَّ هَذَا الثَّانِي هُوَ الْقَصْدُ الصَّحِيحُ.

فإن قال قائل: هل يُشترطُ المُحلِّلُ؟

الجواب: لا، ومعنى المحلل أن يَدْخُلَ معهما ثالثٌ لا يَضَعُ شَيْئًا مِنَ السَّبَقِ؛ يَعْنِي: يُسَابِقُهُمَا مَجَانًا، وَالَّذِينَ اشْتَرَطُوا الْمُحَلِّلَ، قَالُوا: مِنْ أَجْلِ أَنْ تَخْرُجَ الْمَسْأَلَةُ عَنْ شِبهِ الْقَهَارِ،

(١) رواه مسلم (١٩١٧) (١٦٧).

(٢) تقدم تخريجه في الجهاد والسير.

(٣) «الفتاوى الكبرى» (٤/ ٤٩٨). وانظر: «الفروسية» لابن القيم (ص ٩٧).

ولكنَّ الصحيح أن المحلل ليس بشرطٍ، وأن هذه المسألة مستثناة من القمارِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٣- بَابُ مَا جَاءَ فِي الْبِنَاءِ.

وقال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: إِذَا تَطَاوَلَ رِעَاءُ الْبَنِيَانِ»^(١).

٦٣٠٢- حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ هُوَ ابْنُ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: رَأَيْتُنِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بَنَيْتُ بِيْدِي بَيْتًا يُكْتَنِي مِنَ الْمَطَرِ وَيُظِلُّنِي مِنَ الشَّمْسِ مَا أَعَانَنِي عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ خَلْقِ اللَّهِ.

٦٣٠٣- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سَفِيَانٌ، قَالَ عَمْرُو: قَالَ ابْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ مَا وَضَعْتُ لِنَتَةً عَلَى لَبَنَةٍ، وَلَا غَرَسْتُ نَخْلَةً، مِنْذُ قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ. قَالَ سَفِيَانٌ: فَذَكَرْتَهُ لِبَعْضِ أَهْلِهِ، قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ بَنَى بَيْتًا. قَالَ سَفِيَانٌ: قُلْتُ: فَلَعَلَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَبْنِي.

❁ قوله: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ». أَيِ مِنْ عِلَامَاتِهَا، وَالْأَشْرَاطُ جَمْعُ شَرْطٍ، وَهُوَ فِي اللُّغَةِ: الْعِلَامَةُ، وَالسَّاعَةُ لَهَا عِلَامَاتٌ تَدُلُّ عَلَى قُرْبِهَا، مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وَقَالَ بِأَصْبَعِهِ الْوَسْطَى وَالسَّبَابَةَ^(٢). وَدَلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَشْرَاطِهَا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ، لَكِنْ هُنَاكَ أَشْرَاطٌ تَدُلُّ عَلَى قُرْبِهَا، مِنْهَا: كَثْرَةُ الْمَالِ وَفَيْضُهُ^(٣) وَإِذَا كَثُرَ الْمَالُ تَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبَنِيَانِ فَيَتَطَاوَلُ رِعَاءُ الْبَنِيَانِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَجَبْرِيلَ: «وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبَنِيَانِ»^(٤)؛ يَعْنِي: الْبَادِيَةُ تَأْتِي لِلْحَاضِرَةِ بِكَثْرَةِ الْمَالِ، وَاسْتِغْنَائِهِمْ عَنِ الْمَوَاشِيِّ، وَتَطَاوُلِهِمْ فَيَتَطَاوَلُونَ فِي الْبَنِيَانِ، وَهَلْ وَقَعَ هَذَا أَمْ لَا؟

الجواب: أَنَّهُ وَقَعَ، وَرَبِمَا سَيَأْتِي شَيْءٌ أَشَدُّ مِنْ هَذَا.

(١) علقه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، بصيغة الجزم، كما في «الفتح» (١١ / ٩٢)، وقد أسنده رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْإِيمَانِ مَطْوَلًا، مِنْ حَدِيثِ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِرَقْم (٥٠).

وَانْظُرْ: «التَّغْلِيْقُ» (٥ / ١٣٢).

(٢) تقدم تخريجه في التفسير.

(٣) تقدم تخريجه في البيوع.

(٤) تقدم تخريجه.

ثم ذكر أثر ابن عمر - رضي الله عنه وعن أبيه - قال: بنيت بيدي بيتاً يُكَنِّي من المطر ^{هـ} ما ساعده عليه أحدٌ فهو بنفسه يأتي باللبن وبالطين وبالماء، ثم سقفه وحده، وهذه من معونة الله، والإنسان إذا استعان بالله وعزم على الشيء تيسر له، فابن عمر ^{هـ} ما أعانه أحدٌ على هذا البيت الذي أكنته من المطر، وأظله من الشمس.

أما الأثر الثاني، فقال: والله ما وضعت لبنة على لبنة، ولا غرست نخلة منذ قبض النبي ^ص. قال سفيان: فذكرته لبعض أهله، فقال: والله لقد بنى. فابن عمر أقسم إنه ما وضع لبنة على لبنة وبعض أهله، قال: والله لقد بنى. وهذا تعارض: فبعض أهله حلف أنه بنى، وهو قال ما بنيت، فأيهما نصدق؟

الجواب: نقول كل منهما أقسم على نقيض ما قال الآخر، فلا بد من تأويل وقد أولها سفيان فقال: لعله قال قبل أن يبنى وهذا لا شك تأويل جيد وصحيح، واعتذار منه ^{هـ} عن ابن عمر؛ يعني: كان إقسام ابن عمر قبل أن يبنى، فيكون ابن عمر صادقاً في يمينه وبعض أهله صادقاً أيضاً؛ لأنه هو قال: والله ما وضعت لبنة على لبنة. ولم يقل: ولن أبني، فالمستقبل له الله ما يدرى عنه وما يعلم عنه، فهذا جمع من سفيان بلا شك وهو المتعين؛ لأن ابن عمر ^{هـ} صادق وبعض أهله أيضاً صادق.

فإن قال قائل: هل هذا يدل على كراهة البناء أو لا؟

فالجواب: نعم يدل على أن البناء إذا استلزم أن يشغل الإنسان، ويكون هو همه حتى لا يهتم إلا بدار الدنيا دون دار الآخرة فلا شك أنه يذم، أما إذا كان الإنسان يريد أن يبنى ما يسائر به أمثاله فإن هذا لا بأس به، بشرط أن لا يفضي إلى احتياج إلى الخلق، فإن أفضى إلى احتياج إلى الخلق صار خطأ وسفهاً، فإن من الناس من يكون فقيراً ما عنده شيء وبيته من طين، وجاره قد هدم بيته وبناه مسلحاً فقال: بيتي الآن كأنه فقير إلى جوار غني ولا يمكن أن أقبل بهذا، سوف أستقرض، أو أقع في الربا، أو الحيلة على الربا، من أجل أن أهدم بيتي هذا وأبني بيتاً مسلحاً كجاري.

نقول: هذا خطأ يذم عليه الإنسان؛ لأنه يشغل ذمته، ويُرْهَق بالديون، وهو في غنى عنه، وإذا كان الله تعالى قال: ﴿وَلَيْسَتَفِي الَّذِينَ لَا يُحَدِّثُونَ كَلِمًا حَتَّى يَغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التكوير: ٣٣] وحاجة الإنسان إلى النكاح قد تكون أعظم من حاجته إلى تجديد بنائه، فما بالك بمن يُجدد بناءه؟!!

بل أسفه من هذا من يذهب يستقرض، أو يتدين بالربا، أو بالحيلة عليه، من أجل أن
يفرش الدرج؛ لأنها تبرد في الشتاء فيستدين ويُرهِق نفسه بالديون، من أجل هذه المقاصد
التي تُعتبر بالنسبة له سفها.

فالبناء إذا شغل عما هو أهم، وصار هم الإنسان فلا شك أنه يدم.



شَيْخ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْبُخَارِيُّ

كِتَابُ الدَّعَوَاتِ

٦٤١١-٦٣٠٤



قَالَ الْبَخَارِيُّ رحمته الله تعالى:

كِتَابُ الدَّعَوَاتِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [مَعْفُورٌ: ٦٠].

١- بَابُ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ.

٦٣٠٤- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا، وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ»^(١).

[الحديث ٦٣٠٤ - طرفه في: ٧٤٧٤].

٦٣٠٥- وَقَالَ لِي خَلِيفَةُ: قَالَ مُعْتَمِرٌ: سَمِعْتُ أَبِي، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ سَأَلْ سُؤلاً - أَوْ قَالَ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا - فَاسْتَجِيبَ فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

❖ قَالَ الْمَوْلَفُ رحمته الله تعالى: «كِتَابُ الدَّعَوَاتِ». الدَّعَوَاتُ جَمْعُ دَعْوَةٍ، وَالْمَرَادُ بِهَا دَعْوَةُ اللَّهِ ﷻ وَهُوَ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى مَفْعُولِهِ؛ يَعْنِي: دَعَاءَ الْإِنْسَانِ رَبَّهُ. وَدَعَاءُ اللَّهِ تَعَالَى يَنْقَسِمُ إِلَى قَسَمَيْنِ: دَعَاءُ مَسْأَلَةٍ، وَدَعَاءُ عِبَادَةٍ، فَدَعَاءُ الْمَسْأَلَةِ سُؤَالُ الْإِنْسَانِ رَبَّهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي دِينِهِ، وَدُنْيَاهُ، وَدَعَاءُ الْعِبَادَةِ أَنْ يَتَعَبَّدَ الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

(١) أخرجه مسلم (١٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٠).

ووجه كون العبادة دعاءً أن المتعبّد يدعو بلسان الحال؛ لأنك لو سألتَه: لم تعبّد الله؟ لقال رجاء ثوابه وخوف عقابه، إذن فهو وإن لم يسأل بلسان المقال فهو سائل بلسان الحال. ولهذا قسم العلماء الدعاء إلى قسمين: دعاء مسألة ودعاء عبادة وكلاهما من العبادة لقوله تعالى كما في الآية التي ذكرها البخاري رحمه الله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [الشورى: ٦٠].

❦ قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي﴾. هذا فعل أمر، وجوابه: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. ولهذا جُزِمَتْ: أَسْتَجِبْ لَكُمْ.

والدعاء هنا يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، وإن كان في دعاء العبادة أظهر؛ لأن الاستجابة إنما تكون لمن دعا بالطلب.

❦ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾. يدل على أن الدعاء من العبادة، فالذي يستكبر عن دعاء الله عز وجل، ولا يرى نفسه محتاجاً إلى ربه، ولا يهتمُّ أن يلجأ إلى الله [فإن] هذا مستكبر، وجزاؤه أن يدخل جهنم داخراً؛ أي: صاغراً -والعياذ بالله-، ولهذا نقول في كل صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

❦ ثم قال المؤلف: «باب: لكل نبي دعوة مستجابة». وذكر الحديثين. والمعنى: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعوا الله بدعاء فاستجاب لهم، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الشورى: ٧٦]. وغير ذلك مما ذكر الله عز وجل من دعاء الرسل واستجابته تعالى لدعائهم.

أما النبي ﷺ فجعل الدعوة العظيمة التي يهتمُّ بها، ويعتني بها، جعلها مُدخَرة يوم القيامة في الشفاعة لأمتِه، وذلك فيمن استحق النار ألا يدخلها، وفيمن دخلها أن يخرج منها.

ولا يعني هذا أن النبي ﷺ لم يدع بدعاء فاستجاب له، بل قد دعا بدعوات كثيرة واستجاب له، لكن الدعوة التي لها شأن عند الرسول ﷺ والعامة للأمة أخرها ليوم القيامة.

والشفاعة سبق الكلام عليها، وأنها قسمان: عامة وخاصة، وأن الخاص بالرسول ﷺ ثلاثه شفاعات: شفاعته في أهل الموقف أن يقضى بينهم، وشفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها الجنة، وشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه من العذاب، فخفف عنه حتى كان في

ضحضاح من نار، وعليه نعلان يعلّي منهما دماغه، وإنه لأهون أهل النار عذاباً^(١)، ومع ذلك لا يرى أن أحداً أعظم منه؛ لأنه لو رأى أن أحداً أعظم منه لهان عليه الأمر، لكنه لا يرى ذلك، فكان ذلك زيادةً في عذابه.

وإنما قلنا: إن الثالثة خاصة بالرسول ﷺ؛ لأنه لا أحد يُشْفَعُ في كافر أبداً إلا الرسول ﷺ شُفِعَ في أبي طالب، وسبق لنا السبب في ذلك، وهو أن لأبي طالب من نصرة الإسلام، ونصرة النبي ﷺ ما لم يكن لأحد من الكافرين، فلذلك خُصَّ بهذه الشفاعة. ثم أعلم أن الدعاء لا بد فيه من أمور:

الأمر الأول: صدق الالتجاء إلى الله بحيث يسأل الإنسان ربه سؤال مضطراً، لا سؤال مستغني عن الله؛ لأنك إذا سألت سؤال المستغني عن الله وأنت لا تبالي أُجِيت دعوتك أم لم تُجَبْ؟ فإنه حريٌّ ألا تُجَابَ دعوتك، فلا بد أن تسأل وأنت مظهر الحاجة والفقر إلى الله ﷻ.

ثانياً: أن تدعو الله تعالى وأنت تؤمل الإجابة، غير مُجَرَّبٍ ولا مستبعد للإجابة، فمن دعا الله على سبيل التجربة، أو دعا الله مستبعداً إجابته فهو حريٌّ ألا يُجَابَ؛ ولهذا جاء في الحديث: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»^(٢).

الثالث: ألا يعتدي في الدعاء، فإن اعتدى في الدعاء بأن سأل ما لا يكون شرعاً، أو ما لا يكون قدراً، فإن ذلك عدوان في الدعاء، فلا يحل له أن يعتدي، ولا يُجَابَ، فإذا قال: اللهم إني أسألك أن تَضَعَ عني فرض صلاة الظهر. فهذا عدوان في الدعاء، ولو قال: اللهم اجعلني نبياً من أنبيائك. فهذا عدوان في الدعاء، لا يحل ولا يُجَابَ.

ومن العدوان في الدعاء أن يدعُو على شخص بغير حق، فإذا دعا على شخص بغير حق فإنه لا يُستَجَابُ له؛ ولهذا قال النبي ﷺ في أهل الكتاب: «يُستَجَابُ لنا فيهم، ولا يُستَجَابُ لهم فينا»^(٣)؛ لأنهم ظلمة، ونحن على حق، فلا يجوز أن يدعُو على شخص بغير حق؛ لأن هذا من العدوان في الدعاء.

الرابع: أن يجتنَبَ التَّغْذِيَّ بالحرام، فإن تغذى بالحرام فبعيد أن يُستَجَابَ له؛ لأن

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٤)، ومسلم (٢١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وأحمد (٦٦٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٠١)، وانظر: «فتح الباري» (١٠٧/٦).

النَّبِيِّ ﷺ ذَكَرَ الرَّجُلَ يَطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يُمَدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ يَا رَبَّ. وَمَطْعُمُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَذَلِكَ»^(١). فَذَكَرَ الرَّسُولُ ﷺ لِهَذَا الرَّجُلِ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدَّعَاءِ، وَهِيَ:

أَوَّلًا: أَنَّهُ مَسَافِرٌ مُطِيلٌ لِلسَّفَرِ.

وَتَانِيًا: أَنَّهُ أَشْعَثُ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ أَغْبَرُ، وَهَذِهِ مِنْ أَسْبَابِ الإِجَابَةِ.

وَالرَّابِعُ: أَنَّهُ يَقُولُ يَا رَبَّ يَا رَبَّ. وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّلِ بِرَبَوِيَّةِ اللَّهِ.

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَطْعُمُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَذَلِكَ»؛ يَعْنِي: بَعِيدٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَوَانِعِ.

وَلَا حَظُّوا أَنْ اسْتَبْعَادَ الِاسْتِجَابَةَ لَا يَعْنِي أَنَّهَا مَمْتَنَةٌ، فَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّ شَخْصًا مَا يَتَغَذَّى بِالْحَرَامِ، وَدَعَا اللَّهَ فَاسْتَجَابَ لَهُ فَإِنْ هَذَا لَا يَخَالِفُ الْحَدِيثَ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ اسْتَبْعَدَ وَلَمْ يَذْكُرِ الْإِمْتِنَاعَ.

ثُمَّ لَاحَظُوا أَيْضًا أَنَّ الْمَضْطَرَّ أَوْ الْمَظْلُومَ يُجِيبُ اللَّهَ دَعَاءَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، هَذَا شَيْءٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [البقرة: ٦٢]، فَهُوَ الَّذِي يُجِيبُ الْمَضْطَرَّ، حَتَّى الْكَفَّارَ يُجِيبُ اللَّهُ دَعْوَتَهُمْ فِي الْبَحْرِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ إِذَا نَجَوْا سَوْفَ يُشْرِكُونَ؛ لَكِنْ لَأَنَّهُمْ مَضْطَرُونَ.

كَذَلِكَ الْمَظْلُومُ، وَإِنْ أَكَلَ الْحَرَامَ، وَفَعَلَ أَشْيَاءَ مِنْ مَوَانِعِ الإِجَابَةِ، فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ لَهُ؛ لِأَنَّ إِزَالََةَ الظُّلْمِ، أَوْ الْإِنْتِقَامَ مِنَ الظَّالِمِ مِنَ الْعَدْلِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى عَدْلِ اللَّهِ ﷻ.

فَعِنْدَنَا الْآنَ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:

أَوَّلًا: هَلِ الْحَدِيثُ دَلٌّ عَلَى أَنَّ مَنْ يَتَغَذَّى بِالْحَرَامِ لَا يُسْتَجَابُ لَهُ قَطْعًا؟

الْجَوَابُ: لَا؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ قَالَ: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَذَلِكَ». وَلَمْ يَقُلْ فَلَا يُسْتَجَابُ.

ثَانِيًا: إِذَا كَانَ مَضْطَرًّا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُجِيبُ دَعَاءَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَدَحَ نَفْسَهُ بِإِجَابَةِ الْمَضْطَرِّ، فَقَالَ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ أَلْأَرْضِ أَأَلَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

ثَالِثًا: إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ دَعَاؤُهُ فِيمَنْ ظَلَمَهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ:

«اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢- باب أَفْضَلِ الْإِسْتِغْفَارِ.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنَزِّلَ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝﴾ [١٠: ١-١٢]. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٣٥].

٦٣٠٦- حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ الْعَدَوِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». قَالَ: «وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمِيسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ أَفْضَلِ الْإِسْتِغْفَارِ». الْإِسْتِغْفَارُ هُوَ: طَلْبُ الْمَغْفِرَةِ، وَالْمَغْفِرَةُ تَتَّصِمُنَّ شَيْئَيْنِ: سِتْرَ الذَّنْبِ، وَالتَّجَاوُزَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْمَغْفَرِ، وَهُوَ مَا يُوَضَّعُ عَلَى الرَّأْسِ عِنْدَ الْقِتَالِ فَيَحْصُلُ بِهِ السِّرُّ وَالْوَقَايَةُ، فَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي. فَأَنْتَ تَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئَيْنِ: أَنْ يَسْتُرَ ذُنُوبَكَ عَنِ النَّاسِ، وَأَنْ يَغْفُو عَنْكَ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ آيَتَيْنِ:

١- الْآيَةُ الْأُولَى فِي سُورَةِ نُوحٍ وَهِيَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾. وَهَذَا نَقْلٌ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝﴾. وَهَذَا أَضَافَ اللَّهُ الْقَوْلَ إِلَى نُوحٍ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ بِلَفْظِهِ؛ لِأَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ حَادِثَةٌ بَعْدَ نُوحٍ، فَلَعَنَ نُوحٍ

ليست عربية، ومع ذلك يضيف الله القول إلى قائله، كذلك عند ذكر موسى عليه السلام فإن الله تعالى يقول: قَالَ موسى لقومه وكذلك قَالَ فرعون. وما أشبه ذلك. وبهذا نعرف أن القول قد يُضاف إلى من لم يقله بلفظه، بل قاله بمعناه.

❖ وقول نوح عليه السلام: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾. أي: أنه أمرهم أن يستغفروا الله، وعلل ذلك مرغبا إياهم في الاستغفار ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.

❖ و«غفار» صيغة مبالغة، وصيغ المبالغة تأتي على أوزان عدة، مثل: فَعُولٍ، وَمِفْعَالٍ، وَفَعَالٍ، وَفَعِيلٍ، وَفَعِلٍ.

وقولنا: «إِنَّ اللَّهَ غَفَّارٌ». هل نقول: إن هذه صيغة مبالغة، أو نسبة؟

الجواب: يحتمل هذا وهذا، والنسبة معناها أنها صفة لازمة؛ كما نقول مثلاً: نجارٌ، حدادٌ. فهذه صفة لازمة لها.

أما صيغة المبالغة فهي صفة فعلية، والله تعالى متصف بالمغفرة أزلاً وأبداً، وهو كثير المغفرة.

❖ وقوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ﴾. يرسل بالجر مع أن الجر لا يدخل في الأفعال؛ لأن الجر من علامات الاسم، ولكن الكسر هنا ليس علامة إعراب فكلمة «يرسل» مجزومة بالسكون؛ لأنها فعل وقع في جواب الشرط، ولكنها حُرِّكَتْ بالكسر لالتقاء الساكنين.

❖ وقوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكَ مِدْرَارًا﴾. المراد بالسماء هنا: المطر؛ يعني: أن المطر ينزل بكثرة.

❖ وقوله تعالى: ﴿وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَبَيْنَ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾. وهذه أمور دنيوية، فإذا قال قائل: كيف رغبهم في أمور دنيوية من أجل عمل صالح؟

فالجواب: أن الظاهر - والله أعلم - أن هؤلاء القوم يميلون إلى الدنيا أكثر مما يميلون إلى الآخرة؛ ولهذا رغبهم في الدنيا، ولم يقل هنا يغفر لكم ذنوبكم، ولكن قاله في مقام آخر، لكن ذكر لهم ذلك هنا من أجل الترغيب؛ لأنهم قوم ماديون يريدون الدنيا؛ فرغبهم فيها. ولكن ينبغي للإنسان أن يطمح عن هذا، وأن يكون قصده باستغفار الله مغفرة ذنوبه، وأن يجعل هذه الأمور تأتي تبعاً.

وأما الآية الثانية: التي ذكرها المؤلف فهي قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١٣٥]. الفاحشة هي: ما عظم من الذنوب؛ ومنه: الزنا،

واللواط، ونكاح ذوات المحارم، فكل هذه فواحش نص الله عليها في القرآن فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٢]. وبالنظر إلى هاتين الآيتين يتضح لنا أن نكاح ما نكح الآباء أعظم من الزنا؛ لأن الله تعالى قال عن الزنا: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾. أما عن نكاح ما نكح الآباء فإنه قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾. فزاد المقت، وأما اللواط فقد قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

❖ وقوله تعالى: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾. يعني: بما دون الفواحش.

❖ وقوله تعالى: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾. هل المراد ذكروا الله بألستهم، فقالوا: لا إله إلا الله مثلاً، أو ذكروه بقلوبهم؛ فخافوه؟

الجواب: الثاني أقرب فيذكرون الله عَزَّ وَجَلَّ بذكر عظمته وانتقامه؛ فيستغفرون لذنوبهم؛ أي: ويسألون الله أن يغفر لهم الذنوب.

❖ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾. «من» استفهامية، ولا تصح أن تكون اسم شرط؛ لأن الفعل بعدها مرفوع، وهو استفهام بمعنى النفي، والدليل على أنه كذلك الاستثناء الواقع بعده ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾.

ووضع الاستفهام موضع النفي فيه فائدة زائدة عن النفي وهي أنه إذا وقع الاستفهام موقع النفي كان مشرباً بالتحدي؛ لأن النفي المجرد ليس فيه تحدٍ، فإذا قلت: لم يَقم أحدٌ. فهو ليس كقولك: مَنْ يَقم سوى زيد. وإذا قلت: لم يَقم أحدٌ إلا زيد فهو ليس كقولك: مَنْ يَقم سوى زيد. فالثانية أعظم.

كذلك: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾. أبلغ من قولك: لا يَغْفِرُ الذنوبَ إلا الله.

❖ وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُبْصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١٣٥]. يعني: وقد يُبْصِرُونَ على ما فعلوا إذا كانوا لا يعلمون، ومن فعل الذنب غير عالم به فإن إصراره على ذنبه لا يُكْسِبُهُ إثماً؛ لأنه جاهل، وقد قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ سَيِّئًا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [التوبة: ٢٨٦].

أما الحديث الذي ذكره المؤلف، فيه أن سيد الاستغفار أن يقول الإنسان هذا الدعاء المذكور.

❦ وقوله: «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت». على عهدك؛ أي: على ما عاهدتُك عليه من الطاعة؛ لأن الله تعالى عاهد بني آدم على الطاعة.

❦ وقوله: «ووعدك». أي: الإيوان بما وعدت، فالإنسان عند فعل الطاعات يستشعر شيئين: الشيء الأول: أنه قائم بالعهد، والشيء الثاني: أنه مصدق بالوعد؛ ولهذا قال: «أنا على عهدك ووعدك». لأنه إذا قام بالعهد، وصدق بالوعد، صار منطبقاً عليه أنه فعل الشيء إيماناً واحتساباً، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا...» الحديث ^(١).

❦ وقوله: «ما استطعت». لأن ما لا يُستطاع لا يُكلف الإنسان به؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

❦ وقوله: «أعوذ بك من شرٍّ ما صنعت». وليس ما صنعت، ولا شك أننا أيضاً نستعيذ من شرٍّ ما خلق الله؛ كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢]. لكن هنا من شرٍّ ما صنعت أنا.

و«ما» هنا إما موصولة وإما مصدرية، فإن كانت موصولة فتقدير الكلام: من شرٍّ الذي صنعتُه، ويكونُ العائدُ محذوفاً، وإن كانت مصدرية صار تقديرُ الكلام: من شرٍّ صنعتي. وعلى كلِّ حال: فإن المعنى لا يَخْتَلِفُ وهو أنك تستعيذ بالله من شرٍّ ما صنعت من الأعمال السيئة.

❦ وقوله: «أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي». (أبوء)؛ بمعنى: أعترف بنعمتك عليّ، والنعمة هنا مفردٌ مضافٌ فيشمل جميع النعم؛ الدينية، والدنيوية، وأبوء بذنبي. أي: أعترف به، وما من إنسانٍ إلا وله ذنبٌ، قال النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ» ^(٢). وما أكثرُ ذنوبنا، ولو قلنا: إن ذنوبنا أكثرُ من طاعاتنا لكننا صادقين؛ لأن طاعاتنا مخلوطة بالذنوب، فمن الذي يُتَقَنَّ طاعته على الوجه المطلوب، إلا نادراً، ففي كلِّ طاعة ذنبٌ، لكن صحيح -والحمد لله- أن الطاعات حسنات، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [ممت: ١١٤]. فأخطأنا كثيرة؛ ولهذا قال: «أبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

(١) أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وأحمد (١٣٠٧٢).

والشاهد من هذا الحديث: قوله: «فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». وإنما كان هذا سيد الاستغفار لما فيه من التوحيد، والاعتراف بالذنوب، وتقرير الإيمان، والاعتراف بالنعم، فهو أبلغ مما لو قال الإنسان: اللهم اغفر لي. ولهذا كان سيد الاستغفار. أما ثواب هذا فيقول النبي ﷺ: «مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». إذن فينبغي لنا أن نحفظ هذا الحديث، وأن نحرص على أن نقوله ليلاً ونهاراً.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣- باب استغفار النبي ﷺ في اليوم واللييلة.

٦٣٠٧ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً».

قوله: «باب استغفار النبي ﷺ في اليوم واللييلة». يعني: كم هو؟ فبين الرسول ﷺ أنه يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة، وهذا العدد قد يصل إلى المئة أو أكثر، لكن في حديث آخر أنه كان يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مائة مرة^(١)، يفعل هذا وهو النبي ﷺ الذي قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلم يعتمد على ما وعده به، فإن الله قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [البقرة: ١-٢]. وقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [الحج: ١-٣]. ولا مانع من أن يكون من أسباب المغفرة لرسول الله ﷺ أنه يَسْتَغْفِرُ؛ لأن حق الله ﷻ عظيم وليس بالأمر الهين، فالنبي ﷺ ومن دونه كلهم عبيد لله، وكلهم محتاجون إلى مغفرة الله، وكلهم يُمكن أن يقع منهم خطأ، لكن الأنبياء خطوهم لا يُقرون عليه، بل يُستعتبون منه، أما غيرهم فلا.

فعلى كل حال: إذا كان الرسول ﷺ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ سبعين مرة، ويتوب إليه فما بالك بنا

نَحْنُ فَلَوْ أَحْصَيْنَا مَا اسْتَغْفَرْنَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ لَبَلَغَ الْمُؤَكَّدَ خَمْسَةَ عَشَرَ، وَهُوَ مَا نَقَوْلُهُ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ: اسْتَغْفِرُ اللَّهَ، اسْتَغْفِرُ اللَّهَ، اسْتَغْفِرُ اللَّهَ. وَالْبَاقِي نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اسْتَغْفَرَ بِقَلْبِهِ، وَلِسَانِهِ يَجِدُ رَاحَةً، وَطَمَآنِينَةً، وَصَلَةَ بِاللَّهِ ﷻ، وَيَجِدُ لَذَةً لَا تُوصَفُ وَلَا تَقَارَنُ لَا بِأَكْلِ الْحُلَى، وَلَا الْعَسَلِ، وَلَا أَيِّ شَيْءٍ، وَكَلِمَا اسْتَغْفَرَ اللَّهُ وَجَدَ -سُبْحَانَ اللَّهِ- سَعَةً، وَطَمَآنِينَةً، وَرَاحَةً، لَكِنْ بِشَرَطٍ أَنْ يَكُونَ الْاسْتَغْفَارُ بِالْقَلْبِ وَبِاللِّسَانِ مَعًا، نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤- بَابُ التَّوْبَةِ.

قَالَ قَتَادَةُ: تُوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا. الصَّادِقَةُ: النَّاصِحَةُ.

٦٣٠٨- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا أَبُو شَهَابٍ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ حَدِيثَيْنِ: أَحَدُهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَالْآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ، قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا -قَالَ أَبُو شَهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ-». ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلِكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ، وَالْعَطَشُ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: أَرْجِعْ إِلَيَّ مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ»^(١).

تَابِعَهُ أَبُو عَوَانَةَ وَجَرِيرٌ عَنْ الْأَعْمَشِ.

وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا عُمَارَةُ، سَمِعْتُ الْحَارِثَ بْنَ سُوَيْدٍ. وَقَالَ شُعْبَةُ، وَأَبُو مُسْلِمٍ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ، وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ عُمَارَةَ، عَنْ الْأَسْوَدِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ.

قَالَ الْمُؤَلَّفُ رحمته الله: «بَابُ التَّوْبَةِ». والتوبة هي: الرجوعُ إلى الله وَعَلَيْهِ السَّلَامُ من معصيته إلى طاعته، ولها شروطٌ خمسةٌ:

الأول: الإخلاصُ لله وَعَلَيْهِ السَّلَامُ بأن لا يَحْمِلَ الإنسانُ على التوبةِ خوفَ مخلوقٍ أو رجاءَ مخلوقٍ.

والثاني: الندمُ على ما فعل من المعصية بحيث يَحْزَنُ وَيَسُوُّهُ ما جرى منه.

والثالث: الإقلاعُ عن الذنبِ في الحال.

والرابع: العزمُ على ألا يَعُودَ في المستقبل.

والخامس: أن تكونَ في الوقتِ المقبولةِ فيه، وذلك بأن يكونَ بالنسبةِ لكلِّ إنسانٍ قبلَ

حضورِ الأجلِ ^(١)، وبالنسبةِ لعمومِ الناسِ قبلَ طلوعِ الشمسِ من مغربها ^(٢)، وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا حَضَرَه الأجلُ فلا توبةَ له؛ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ﴾ [النِّسَاء: ١٨]. وكذلك من تابَ بعد أن تَطَلَّعَ الشَّمْسُ من مغربها فإنه لا توبةَ له؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ من مغربها»، فهذه شروطٌ خمسةٌ لكونِ التوبةِ مقبولةً.

والتوبةُ واجبةٌ لأمرِ الله تَعَالَى بها، ولأنَّ الإنسانَ إذا أَصْرَّ على المعصية صارتِ الصغيرةُ كبيرةً.

واختلف العلماءُ رحمهم الله هل تَصِحُّ التوبةُ من ذنبٍ مع الإصرارِ على غيره.

ومنهم من قَالَ: إنها لا تَصِحُّ من ذنبٍ مع الإصرارِ على غيره إذا كان من جنسه، فلو تابَ مثلاً من نظَرِ النساءِ المحرَّمِ إلى مكالمتهن، أو من مكالمتهن إلى النظرِ إليهن، فإن التوبةَ لا تُقْبَلُ؛ لأنَّ الذَّنبَيْنِ من جنسٍ واحدٍ، بخلافِ ما لو تابَ من الكذبِ، ولكنه تعاملَ بالربا، فإن التوبةَ من الكذبِ تَصِحُّ؛ لأنَّ الذَّنْبَ ليس من جنسِ الذَّنْبِ الآخرِ.

ولكنَّ الصحيحَ: أن من تابَ من ذنبٍ فإن الله تَعَالَى يتوبُ عليه لعمومِ الأدلةِ الدالةِ على ذلك، حتَّى وإن أَصْرَّ على جنسه فإن الله تَعَالَى يتوبُ عليه.

وابنُ القيمِ رحمته الله لمَّا تكلم على هذه المسألةِ في «مدارك السالكين» فَقَالَ: إن المسألةَ

(١) والدليل على ذلك ما أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ».

(٢) والدليل على ذلك ما أخرجه مسلم (٢٧٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

لها غورٌ. يَعْنِي: لها عمقٌ، ولكنَّ التحقيقَ في هذه المسألة أن يقال: أمَّا التوبةُ المطلقةُ التي يستحقُّ بها الإنسانُ الثناءَ ويُجْعَلُ من التوابين فهذه لا تَصِحُّ من ذنبٍ مع الإصرارِ على غيره؛ لأنه لا يَصِحُّ أن نَصِفَ هذا بالتوابِ وهو يَفْعَلُ المعاصي، وأما مطلقُ التوبةِ فإن الصحيح أنها تَصِحُّ من ذنبٍ مع الإصرارِ على غيره، لكن لا يَصِحُّ لهذا الرجلِ أن يُوصَفَ بأنه من التوابين؛ فيقال: هو تائبٌ. ولا يقال: توابٌ.

ثم ذكر المؤلفُ حديثين عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه يقول: إن أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/١٠٥):

❖ قوله: «حديثين أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه». قَالَ: إن المؤمنَ. فذكره إلى قوله: «فوق أنفه». ثم قَالَ: «الله أفرحُ بتوبة عبده». هكذا وَقَعَ في هذه الرواية غير مصرحٍ برفع أحدِ الحديثين إلى النبي ﷺ.

قَالَ النووي: قالوا: المرفوعُ: «الله أفرحُ... إلخ». والأول قولُ ابنِ مسعودٍ، وكذا جزم ابنُ بطالٍ بأن الأول هو الموقوفُ، والثاني هو المرفوعُ. وهو كذلك.

ولم يقف ابنُ التينِ على تحقيق ذلك، فقال: أحدُ الحديثين عن ابنِ مسعودٍ، والآخر عن النبي ﷺ فلم يَزِدْ في الشرحِ على الأصلِ شيئاً، وأغربَ الشيخُ أبو محمدٍ بنِ أبي جرةٍ في مختصره، فأفرد أحدَ الحديثين من الآخرِ وعبرَ في كُلِّ منهما بقوله: عن ابنِ مسعودٍ، عن النبي ﷺ، وليس ذلك في شيءٍ من نسخ البخاريِّ. اهـ

على كُلِّ حالٍ: فإنه في الحقيقة لم يبينِ المرفوعُ من الموقوفِ؛ لأنه قَالَ: حديثين: أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه. يَعْنِي: عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: إن المؤمنَ يرى ذنوبه. فلم ندرِ أيهما عن ابنِ مسعودٍ، وأيها عن النبي ﷺ.

ولكن إذا نظرنا إلى الثاني: «الله أفرحُ» وجدنا أن له أصلاً عن النبي ﷺ؛ كما في حديث أنسٍ ^(١)، وهذا هو السرُّ في أن البخاريَّ رَوَاهُ يأتي بحديث أنسٍ بعد حديث ابنِ مسعودٍ.

إِذَا: فإن الموقوفَ قوله: إن المؤمنَ يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبلٍ يخافُ أن يقعَ

عليه. فهذا من كلام ابن مسعود رضي الله عنه وليس من كلام النبي ﷺ وذلك أن المؤمنَ يخافُ من ذنوبه؛ لأن الذنوبَ مخوفةٌ، فالذنوبُ كشررةِ الجمرِ ربما تَوَلَّدَ السعيرُ؛ لأن الإنسانَ إذا استهانَ بمعصيةِ استهانَ بالصغيرةِ، ثم بأخرى، ثم بثالثةٍ، ثم برابعةٍ حتَّى يَتَدَرَّجَ إلى الكبائرِ، وربما يَصِلُ إلى الكفرِ؛ ولهذا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنْ الْمَعَاصِيَ بَرِيدُ الْكُفْرِ. يَعْنِي: يَنْزِلُهَا الْإِنْسَانُ مَرَحَلَةً مَرَحَلَةً حتَّى يَصِلَ إِلَى الْكُفْرِ.

فالمؤمنُ يخافُ من الذنوبِ كما يخافُ الإنسانُ الذي تحتَ جبلٍ أن يَقَعَ عليه هذا الجبلُ، وَإِنْ الْفَاجِرُ يَرَى ذَنْبَهُ كَذَبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا. كَأَنَّهُ شَيْءٌ سَهْلٌ؛ يَعْنِي: الْفَاجِرُ يُذْنِبُ، وَيُذْنِبُ، وَيُذْنِبُ، وَلَا يَبَالِي كَأَنَّهُ ذَبَابٌ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا وَهَذَا مَعْنَاهُ التَّسَاهُلُ. فَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ تَتَسَاهَلُ بِالذَّنْبِ، وَلَا تَتَعَاظُمُهَا، فَاعْلَمْ أَنَّ بكَ مَرَضًا، فَصَحِّحِ الْخَطَأَ، وَصَحِّحِ الْقَلْبَ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الثَّانِي فَهُوَ قَوْلُهُ: «اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ... إِلَى آخِرِهِ». هَذَا هُوَ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ. قَوْلُهُ: «اللَّهُ أَفْرَحُ». يَعْنِي: أَشَدَّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مِنْزَلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ لَمَّا اسْتَيْقَظَ وَلَمْ يَجِدِ الرَّاحِلَةَ، ذَهَبَ يَبْتَحثُ عَنْهَا فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي؛ لِأَنَّهُ كَانَ نَائِمًا تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ. مِنْ يُقَدَّرُ هَذَا الْفَرَحُ! فَنَحْنُ لَا نَتَصَوَّرُهُ وَلَا نَتَخَيَّلُهُ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ مِمَّا نَتَخَيَّلُ إِذْ إِنَّهُ حَيَاةٌ بَعْدَ مَوْتٍ، فَهَذَا الْفَرَحُ لَا يُوجَدُ لَهُ نَظِيرٌ إِطْلَاقًا وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ أَمْسَكَ بِزِمَامِ النَّاقَةِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ». فَعَجَزَ عَنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَلَمْ يَضْبِطِ الْكَلَامَ. فَاللَّهُ ﷻ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذَا بِنَاقَتِهِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: إِبْثَابُ الْفَرَحِ لِلَّهِ ﷻ، وَهُوَ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُفَسَّرَ بِالْمُبَادَرَةِ بِالثَّوَابِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَالْقَاعِدَةُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ يُوصَفَ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ، فَنَوْْمُنْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ عَلَى أَنَّهَا حَقٌّ، لَكِنْ بَدُونِ تَمَثِيلٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ١١].

والذين حَرَّفُوا النُّصُوصَ فِي صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ ظَنُّوا أَنَّهَا تَقْتَضِي الْمِثَالَةَ، فَحَمَلُوهَا أَوَّلًا عَلَى التَّمثِيلِ، ثُمَّ حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَقَالُوا مِثْلًا: الْفَرْحُ يَقْتَضِي أَنْ شَيْئًا مَحْبُوبًا إِلَى الْفَارِحِ حَصَلَ لَهُ فَرْحٌ بِهِ؛ لِانْتِفَاعِهِ بِهِ. فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذَا الْفَرْحُ فَرْحُ الْآدَمِيِّ؛ فَرْحُ الْمَخْلُوقِ، أَمَا فَرْحُ الْخَالِقِ فَفَرْحٌ يَخْتَصُّ بِهِ وَلَا يِمَاطِلُ فَرْحَ الْمَخْلُوقِينَ.

وهكذا بَقِيَّةُ الصِّفَاتِ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَوْمَنَ بِهَا كَمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهَا نَفْسَهُ، وَكَمَا وَصَفَهُ بِهَا رَسُولُهُ ﷺ، لَكِنْ بَدُونِ تَمَثِيلٍ.

وفيه أيضًا: دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ ﷻ؛ حَيْثُ يَقْرَحُ بَتَوْبَةٍ عِنْدَهُ هَذَا الْفَرْحُ الْعَظِيمَ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ غَنِيٌّ عَنِ الْعَبْدِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [التكوير: ٧]. وَيَقُولُ ﷻ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٩٧]. وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا»^(١).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٠٩ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا حَبَّانُ، حَدَّثَنَا هِمَامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. ح وَحَدَّثَنَا هُدْبَةُ، حَدَّثَنَا هِمَامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ»^(١).

٥ - بَابُ الضَّجْعِ عَلَى الشُّقِّ الْأَيْمَنِ.

٦٣١٠ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَجِيءَ الْمُؤَذِّنُ فَيُؤَذِّنُهُ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢). مطولاً.

(٢) أخرجه مسلم (٧٣٦).

وهذه الضجعة التي تكون بعد سنة الفجر، قيل: إنها سنة في كل حال لمن يُصلي في بيته. وقيل: إنها ليست بسنة، وإنما فعلها النبي ﷺ للراحة فقط. وفصل بعض العلماء، فقال: إن كان الإنسان ذا قيام من الليل يحتاج أن ينام؛ ليستريح فينشط لصلاة الفجر فعل، وإلا فلا، ولكن هذا أيضاً مشروط بالآيخشى أن ينام عن صلاة الفجر، فإن خشى أن ينام عن صلاة الفجر لم تكن هذه الضجعة سنة، بل قد نقول: لا يجوز أن يضطجع.

وبالغ ابن حزم رحمه الله فقال: إن هذه الضجعة شرط لصحة صلاة الفجر، فمن لم يضطجع بعد سنة الفجر على جنبه الأيمن فصلاته باطلة. وهذا من غرائب العلم؛ لأن أقصى ما ورد فيها أنها من فعل رسول الله ﷺ، وفعل النبي ﷺ المجرد لا يدل على الوجوب، وأما الأمر بها: «إذا صلى أحدكم ركعتي الفجر فليضطجع على جنبه الأيمن»^(١). فهذا لا يصح، إنما صح أنها من فعل النبي ﷺ فقط.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله:

٦ - باب إِذَا بَاتَ طَاهِراً.

٦٣١١ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ قَالَ: سَمِعْتُ مَنْصُورًا، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَقَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَالْجَنَاتِ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتُّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ». فَقُلْتُ أَسْتَذْكِرُهُنَّ: وَرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. قَالَ: لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»^(١).

وقوله: «فقلْتُ أَسْتَذْكِرُهُنَّ». تفسير لـ «قلْتُ»؛ يعني: فأعدتُهن.

وهذا الحديث أيضاً فيه: ما سبق وهو أنه ينبغي للإنسان أن ينام على طهر لقوله ﷺ:

(١) أخرجه أبو داود (١٢٦١).

(٢) أخرجه مسلم (٧١٠).

«توضاً وضوءاً للصلاة».

وفيه أيضاً: أنه يضطجع على الشق الأيمن دون الأيسر ولو كانت القبلة خلف ظهره، أو عند رجله، أو عند رأسه، فالمهم أن يضطجع على الجنب الأيمن.

وفيه: الدعاء الذي ذكره النبي ﷺ وعلمه البراء رضي الله عنه.

وفيه أيضاً: المحافظة على لفظ الحديث؛ لأنه لما قال: وبرسولك الذي أرسلت. قال: «لا، وبنبيك الذي أرسلت». هكذا قال بعضهم.

ولكن في هذا نظراً؛ لأن اختلاف اللفظين ليس اختلافاً لفظياً فقط حتى نقول: إن هذا من باب المحافظة على رواية الحديث باللفظ. بل الخلاف خلاف معنوي؛ وذلك أنه إذا قال: برسول الذي أرسلت. فقد يكون من الألفاظ المجملة؛ لأن من الرسل من لم يكن بشراً، فالملائكة رسل، وجبريل رسول من الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝﴾ [الزكوة: ١٩-٢٠]. فإذا قال: برسولك الذي أرسلت. لم يمنع إرادة الرسول الملكي، أما إذا قال: وبنبيك الذي أرسلت. فإنه يمنع إرادة الرسول الملكي؛ لأن الملائكة ليس منهم نبي، فيتعين أن يكون المراد بالرسول هنا الرسول البشري وهو محمد ﷺ هذا من وجه.

الوجه الثاني: أنه إذا قال: برسولك الذي أرسلت. دخلت النبوة من باب دلالة التضمن؛ لأن كل رسول نبي، فإذا قال: وبنبيك الذي أرسلت. دخلت النبوة بدلالة النطق الصريح، لا التضمن، فيكون هذا أولى، لذلك كانت المحافظة على قوله: وبنبيك الذي أرسلت. ليس من أجل المحافظة على اللفظ فقط، بل لأنه يختلف المعنى، والدلالة.

وفيه أيضاً: أن القرآن كلام الله ﷻ لقوله: بكتابتك الذي أنزلت. وهذا أمر معروف.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمته الله:

٧- باب مَا يَقُولُ إِذَا نَامَ.

٦٣١٢- حَدَّثَنَا قَيْصَةُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ حِرَاشٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: «بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا». وَإِذَا قَامَ قَالَ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» ^(١). تُنَشِّرُهَا: تُخْرِجُهَا.

هذا أيضًا من الدعاء عند النوم، إذا أويتَ إلى فراشك تقول: باسمك أموت وأحيا. لأن الله تعالى هو المحيي والمميت، وإذا قمتَ تقول: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أَمَاتَنَا وإليه النُّشُورُ. وذلك لأن النوم ميتةٌ صغرى؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣١٣ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَرَفَةَ، قَالَا: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، سَمِعَ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ رَجُلًا ح. وَحَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِيُّ، عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى رَجُلًا فَقَالَ: «إِذَا أَرَدْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْبَسْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتُّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ» ^(١).

٨ - باب وَضْعِ الْيَدِ الْيُمْنَى تَحْتَ الْخَدِّ الْأَيْمَنِ.

٦٣١٤ - حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ رَبِيعٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا». وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» ^(٢).

هذا الحديث: يدلُّ على أن هذا الفعل يُشْرَعُ في نوم الليل؛ لقوله: كان إذا أخذ مضجعه من الليل. فظاهره أنه إذا نام في النهار لا يفعل هذا الفعل، وربما يؤيِّده قوله: «باسمك اللهم أموت وأحيا». وقوله: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أَمَاتَنَا وإليه النُّشُورُ». لأن هذا إنما جاء في القرآن في نوم الليل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ

(١) أخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

لِيُقَضَّ أَجَلُ مُسَيٍّ ﴿الأنعام: ٦٠﴾. وإن كان ظاهرُ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٤٢]. أن النومَ وفاةٌ سواءً كان في الليل، أو في النهار، لكن على كلِّ حالٍ نأخذُ بها أماناً، وهو أن هذا إنما يُشرَعُ في نومِ الليلِ فقط.

ثم قال البخاري رحمه الله:

٩ - باب النَّوْمِ عَلَى الشَّقِّ الْأَيْمَنِ

٦٣١٥ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زِيَادٍ، حَدَّثَنَا الْعَلَاءُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، قَالَ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَامَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْبَسْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَهُنَّ ثُمَّ مَاتَ تَحْتَ لَبْلَبِهِ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ»^(١).

هذا الحديث من غرائب الأحاديث، فمرة قال: إن الرسول ﷺ أمر البراء بن عازب ومرة قال: إنه أوصى رجلاً، ومرة رواه من فعل النبي ﷺ، فكيف نجمع بين هذه الوجوه، وهل هذا اضطرابٌ في الحديث يوجب ضَعْفَهُ أم ماذا؟

نقول: أمّا الجمع بين قوله: إن النبي ﷺ أمره، وأوصى رجلاً، فواضحٌ، لأن أمره إياه وصيةٌ لرجل، لكنه مرةً بيّن نفسه ومرةً أبهم نفسه. لكن كونه يرويه من فعل الرسول ﷺ هذا هو الذي محلُّ إشكالٍ. وإن كان يمكنُ الجمعُ لكن ننظر إلى قولِ الشارح.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (١١٠ / ١١):

«تنبيه: هكذا وقع.. اللهم أنت ربي ومليكي وإلهي لا إله إلا أنت، إليك وجهت

وجْهِي» الحديث. اهـ

على كلِّ حالٍ: يُمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ أمره بما كان هو يفعله ﷺ، وإن كان هذا الحديث الأخير ليس فيه ذكرُ الوضوء.

والنوم على الشقِّ الأيمن من الناحية الطَّيِّبَةِ أنفع؛ لأن فَمَ المعدة من اليمين فيكون هذا

أَسْهَلَ فِي الْهَضْمِ، وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلْقَلْبِ أَنْفَعُ أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ مَعْلُقٌ بِالْجَانِبِ الْأَيْسَرِ، فَإِذَا نَامَ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ فَإِنَّهُ يَأْخُذُهُ النَّوْمُ وَيَسْتَغْرِقُ وَرَبِمَا لَا يَصْحُو، بِخِلَافِ إِذَا مَا كَانَ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٠ - بَابُ الدُّعَاءِ إِذَا انْتَبَهَ بِاللَّيْلِ.

٦٣١٦ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا ابْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ سَلَمَةَ، عَنْ كُرَيْبٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «بِتُّ عِنْدَ مَيْمُونَةَ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَسَلَّمُ فَأَتَى حَاجَتَهُ فَفَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ، ثُمَّ نَامَ ثُمَّ قَامَ، فَأَتَى الْقُرْبَةَ فَأَطْلَقَ شِنَاقَهَا، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَضُوءًا بَيْنَ وَضُوءَيْنِ لَمْ يُكْثِرْ وَقَدْ أَبْلَغَ فَصَلَّى، فَقُمْتُ فَتَمَطَّيْتُ كَرَاهِيَةً أَنْ يَرَى أَنِّي كُنْتُ أَتَقِيهِ، فَتَوَضَّأْتُ، فَقَامَ يُصَلِّي فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَخَذَ بِأُذُنِي فَأَدَارَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَتَمَّتْ صَلَاتُهُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ اضْطَجَعَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ - وَكَانَ إِذَا نَامَ نَفَخَ - فَأَذَنَهُ بِلَالٍ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ وَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي بَصَرِي نُورًا وَفِي سَمْعِي نُورًا وَعَنْ يَمِينِي نُورًا وَعَنْ بَسَارِي نُورًا وَفَوْقِي نُورًا وَتَحْتِي نُورًا وَأَمَامِي نُورًا وَخَلْفِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي نُورًا» قَالَ: كُرَيْبٌ وَسَبْعٌ فِي التَّابُوتِ فَلَقِيتُ رَجُلًا مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ فَحَدَّثَنِي بِهِمْ فَذَكَرَ «عَصِيٍّ وَلَحْمِي وَدَمِي وَشَعْرِي وَبَشْرِي» وَذَكَرَ خَصْلَتَيْنِ» ^(١).

هذا الحديث فيه: الدعاء إذا انتبه من الليل، وكان النبي ﷺ إذا انتبه من الليل يقرأ العشر آيات التي في آخر سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿التَّوْبَةِ: ١٨٠﴾ وفيهن دعاء، وكذلك يقول ما قاله ابن عباس.

وفيه: دليل على بساطة ما كان عليه النبي ﷺ وزهده، فكأنك ترى الآن بيته ﷺ القُرْبَةَ فيها الماء للوضوء والشرب؛ لأنه كان يتوضأ بالمُدِّ ويغتسل بالصَّاع.

وفي هذا الحديث أيضًا: دليل على التَّوَرُّعِ فابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «فَتَمَطَّيْتُ كَرَاهِيَةً أَنْ

(١) أخرجه مسلم (٧٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٥٦).

يَرَى أَنِّي كُنْتُ أَتَقِيهِ» وفي نسخة «أرتقبه» يعني: ليتين، يعني كأنه قام الآن من نومه؛ لأن عادة بعض الناس إذا قام من النوم يتمغط.

وفيه أيضاً: دليل على جواز نية الإمامة في أثناء الصلاة؛ لأن ابن عباس رضي الله عنه دخل مع النبي ﷺ في أثناء صلاته مأموماً.

وفيه أيضاً: دليل على أن موقف المأموم الواحد عن يمين الإمام؛ لأنه قال فقمت عن يساره، فأخذ بأذني فأدارني عن يمينه.

وفيه: دليل على جواز الحركة لمصلحة الصلاة، وقد سبق لنا أن الحركة في الصلاة تنقسم إلى خمسة أقسام.

وفيه: دليل على أن اليسار ليس موقفاً للمأموم الواحد؛ لأن اليمين أفضل، لكن هل هو على سبيل الوجوب، يعني: أنه يجب أن يكون عن يمينه أو على سبيل الاستحباب؟

فيه قولان لأهل العلم: ورجح شيخنا عبد الرحمن السعدي رحمته الله: أن ذلك للاستحباب وليس للوجوب، وعلمه بأن هذا الذي حصل من الرسول ﷺ مجرد فعل، ومجرد الفعل لا يدل على الوجوب؛ ولأنه لو كان الوقوف عن يمين الإمام واجباً، لنبهه بعد سلامه، لقال له: لا تفعل، كما نبه الصحابة رضي الله عنهم حين صلوا قياماً خلفه، ثم أمرهم فجلسوا فلما سلم أخبرهم بأنه إنما جعل الإمام ليؤتم به، فلما لم يخبر ابن عباس بأن هذا ليس بجائز - أي الوقوف عن اليسار - دل على أن كون المأموم الواحد عن يمين الإمام أفضل من كونه عن يساره وليس ذلك على سبيل الوجوب - ولا شك أن هذا تعليل قوي وحجة ظاهرة؛ لأن القاعدة عند أهل العلم: أن مجرد فعل الرسول ﷺ لا يدل على الوجوب، وإنما يدل على الاستحباب.

لكن لقائل أن يقول: إن الحركة في الصلاة الأصل فيها المنع، فلما تحرك الرسول ﷺ من أجل تعديله دل هذا على أن بقاءه في اليسار مُحَرَّم.

والجواب على هذا أن يقال: إن الحركة في الصلاة جائزة لأدنى سبب، حتى في تسكيت الصبي عن الصياح جائز كما كان الرسول ﷺ يحمل أمانة بنت زينب وهو في الصلاة ^(١)، وهذا يؤدي إلى حركة، والأقرب ما ذهب إليه شيخنا رحمته الله أن وقوف المأموم الواحد عن

(١) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٥٤٣).

يمين الإمام سنة وليس بواجب، وأنه لو صلى عن يساره مع خلو يمينه فصلاته صحيحة لكن هذا خلاف الأولى.

وفيه أيضًا: أن صلاة الرسول ﷺ ثلاث عشرة ركعة في الليل، والجمع بينه وبين حديث عائشة رضي الله عنها أنه مازاد على إحدى عشرة ركعة ^(١)؛ أنها حكّت ما رأت، على أنه قد روي عنها أيضًا بوجه صحيح: أنه كان يصلي ثلاث عشرة ركعة ^(٢)، وعلى هذا فيكون الرسول ﷺ يصلي مرة إحدى عشرة، ومرة ثلاثة عشرة.

وفيه أيضًا: دليل على أن النوم لا ينقض الوضوء؛ لأن الرسول ﷺ نام حتى نفخ وسُمع له صوت، صوت النائم، وصلى ولم يتوضأ، فبدل ذلك: على أن النوم لا ينقض الوضوء، ولكن قد يقول قائل: إن هذا من خصائص الرسول ﷺ: أن نومه لا ينقض الوضوء؛ لأنه عليه الصلاة والسلام تنام عيناه ولا ينام قلبه ^(٣)، ولهذا كان من خصائصه أنه لا يتنقض وضوؤه بنومه، وقد يقال: الأصل عدم الخصوصية، وأن مرادة ﷺ بقوله: «تنام عيناه ولا ينام قلبه» في الذكر، وأنه لا يغفل عن ذكر الله وكأنه يقظان، لكن الأول أظهر وأن الرسول ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ قد نام هو وأصحابه في سفر في آخر الليل وطلع الفجر وطلعت الشمس ولم يوقظهم إلا حرّ الشمس ^(٤)، فكيف تقولون: إنه لا ينام؟

قلنا: لا، نقول: إنه لا ينام جسده، الذي لا ينام هو قلبه، فإحساسه الباطن معه، أما الحواس الظاهرة فإنه ينام، ولهذا قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه».

وفيه: هذا الدعاء العظيم الذي دعا به الرسول ﷺ: «اللهم اجعل في قلبي نورًا» نورًا معنويًا يبصر به الحق، «وفي بصري نورًا» أيضًا معنويًا حتى يرى المنكر منكراً والمعروف معروفًا، وكذلك قال: «وفي سمعي نورًا»، ولما سأل الله: أن يجعل النور في هذه الثلاثة التي هي مدارك العلوم والعقل ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ^(٥) فسأل الله أن يجعل النور في هذه الثلاثة.

(١) أخرجه البخاري (٩٩٤، ١١٢٣، ١١٤٧)، ومسلم (٧٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٠)، ومسلم (٧٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢م).

ذكر الأمر الخارجي قال: «واجعل عن يميني نورًا وعن يساري نورًا وفوقي نورًا وتحتي نورًا وأمامي نورًا وخلفي نورًا» يميني، يساري، فوقي، تحتي، أمامي، خلفي، هذه ست جهات، سأل الله أن يجعله محاطًا بالنور من كل جهة؛ وقال في آخرها: «واجعلي لي نورًا» وفي بعض الروايات: «واجعلني نورًا»^(١) بالنون، أي مَنَارًا يهتدي به غيري. ففي هذا دليل على أهمية النور، وأنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله هذا السؤال.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي «الفتح» (١١٧/١١-١١٩):

❦ قوله: «قال كريب: وسبع في التابوت». قلت: حاصل ما في هذه الرواية عشرة، وقد أخرج مسلم من طريق عقيل عن سلمة بن كهيل فدعا رسول الله ﷺ بتسع عشرة كلمة حدثنيها كريب، فحفظت منها ثنتي عشرة ونسيت ما بقي، فذكر ما في رواية الثوري هذه وزاد: «وفي لساني نورًا» بعد قوله: «في قلبي» وقال في آخره: «واجعل لي في نفسي نورًا وأعظم لي نورًا» وهاتان ثنتان من السبع التي ذكر كريب أنها في التابوت مما حدّثه بعض ولد العباس. وقد اختلف في مراده بقوله: «التابوت» فجزم الدمياطي في حاشيته بأن المراد به الصدر الذي هو وعاء القلب، وسبق ابن بطلال والداودي إلى أن المراد «بالتابوت» الصدر، وزاد ابن بطّال: كما يقال لمن يحفظ العلم: علمه في «التابوت» مستودع.

وقال النووي تبعًا لغيره: المراد «بالتابوت» الأضلاع وما تحويه من القلب وغيره تشبيهًا بالتابوت الذي يحرز فيه المتاع، يعني: سبع كلمات في قلبي ولكن نسيته، قال: وقيل: المراد سبعة أنوار كانت مكتوبة في التابوت الذي كان لبني إسرائيل فيه السكينة. وقال ابن الجوزي يريد بالتابوت الصندوق؛ أي: سبع مكتوبة في صندوق عنده لم يحفظها في ذلك الوقت. قلت: ويؤيده ما وقع عند أبي عوانة من طريق أبي حذيفة عن الثوري بسند حديث الباب: «قال كريب وستة عندي مكتوبات في التابوت» وجزم القرطبي في «المفهم» وغير واحد بأن المراد بالتابوت الجسد؛ أي أن السبع المذكورة تتعلق بجسد الإنسان بخلاف أكثر ما تقدّم فإنه يتعلق بالمعاني كالجهات الست، وإن كان السمع والبصر من الجسد، وحكى ابن التين عن الداودي أن معنى قوله: «في التابوت» أي في صحيفة في تابوت عند

(١) أخرجه مسلم (٧٦٣).

بعض ولد العباس، قال: والخصلتان العظم والمخ. وقال الكِرْمَانِيُّ: لعلهما الشحم والعظم، كذا قالوا وفيه نظر، سأوضحه.

❖ قوله: «فلقيت رجلاً من ولد العباس» قال ابنُ بَطَّال: ليس كريبُ هو القاتل «فلقيت رجلاً من ولد العباس» وإنما قاله سلمةُ بن كهيل الراوي عن كريب. قلت: هو محتمل، وظاهرُ رواية أبي حذيفة أن القاتل: هو كريب، قال ابنُ بطال: وقد وجدتُ الحديثَ من رواية علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال فذكر الحديث مطولاً، وظهرت منه معرفة الخصلتين اللتين نسيهما فإن فيه: «اللهم اجعل في عظامي نوراً وفي قبري نوراً».

قلت: بل الأظهر أن المرادَ بهما اللسانُ والنفسُ وهما اللذان زادهما عقيل في روايته عند مسلم وهما من جملة الجسد، وينطبق عليه التأويلُ الأخير للتأبوت، وبذلك جزم القرطبيُّ في «المفهم» ولا ينافيه ما عداه، والحديث الذي أشار إليه أخرجه الترمذيُّ من طريق داود بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده «سمعت نبي الله ﷺ ليلة حين فرغ من صلاته يقول: اللهم إني أسألك رحمة من عندك» فساق الدعاء بطوله وفيه: «اللهم اجعل لي نوراً في قبري» ثم ذكر القلب ثم الجهات الست والسمع والبصر ثم الشعر والبشر، ثم اللحم والدم والعظام، ثم قال في آخره: «اللهم أعظم لي نوراً وأعطني نوراً واجعلني نوراً» قال الترمذيُّ غريب. وقد روى شعبة وسفيان عن سلمة عن كريب بعض هذا الحديث ولم يذكره بطوله انتهى.

وأخرج الطبريُّ من وجه آخر عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه في آخره: «وزدني نوراً. قالها ثلاثاً» وعند ابن أبي عاصم في كتاب الدعاء من طريق عبد الحميد بن عبد الرحمن عن كريب في آخر الحديث: «وهب لي نوراً على نور» ويجتمع من اختلاف الروايات كما قال ابنُ العربيِّ خمس وعشرون خصلة.

❖ قوله: «فذكر عصبي». بفتح المهملتين وبعدهما موحدة قال ابن التين هي أطناب المفاصل.

❖ وقوله: «وبشري». بفتح الموحدة والمعجمة: ظاهر الجسد.

❖ قوله: «وذكر خصلتين». أي: تكملة السبعة، قال القرطبيُّ: هذه الأنوار التي دعا بها رسول الله ﷺ يمكن حملها على ظاهرها، فيكون سأل الله تعالى أن يجعل له في كل عضو من أعضائه نوراً يستضيء به يوم القيامة في تلك الظلم هو ومن تبعه أو من شاء الله منهم، قال والأولى أن يقال: هي مستعارة للعلم والهداية كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزُّمَرُ: ٢٢].

❖ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [النور: ١٢٢].

ثم قال: والتحقيق في معناه أن النورَ مظهرٌ ما نسب إليه، وهو يختلف بحسبه: فنورُ السمع مظهرٌ للمسموعات، ونورُ البصرِ كاشفٌ للمبصرات، ونورُ القلبِ كاشفٌ عن المعلومات، ونورُ الجوارحِ ما يبدو عليها من أعمال الطاعات. قال الطيبي: معنى طلب النورِ للأعضاء عضوًا عضواً أن يتحلّى بأنوارِ المعرفة والطاعات ويتعزى عما عداهما، فإن الشياطينَ تحيطُ بالجهات الست، بالوساوس فكان التخلُّص منها بالأنوارِ السادة لتلك الجهات. قال: وكلُّ هذه الأمور راجعةٌ إلى الهداية والبيان وضياء الحق، وإلى ذلك يرشد قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ، كِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]. انتهى ملخصاً

وكان في بعض ألفاظه ما لا يليقُ بالمقام فحذفته. وقال الطيبي أيضاً: خصَّ السمع والبصرَ والقلبَ بلفظ: «لي»، لأن القلبَ مقرُّ الفكرة في آلاء الله، والسمعَ والبصرَ مسارحَ آياتِ الله المصونة، قال: وخصَّ اليمينَ والشمالَ «بعن» يذنانا بتجاوزِ الأنوارِ عن قلبه وسمعه وبصره إلى من عن يمينه وشماله من أتباعه وعن بقية الجهات «بمن» يشمل استنارته وإنارته من الله الخالق

❖ وقوله في آخره: «واجعل لي نوراً» هي فذلِكَ لذلك وتأکید له.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣١٧ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ سَمِعْتُ سُلَيْمَانَ بْنَ أَبِي مُسْلِمٍ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَإِلَيْكَ أَنْبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ

أَنْتَ الْمَقْدَّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ - أَوْ لَا إِلَهَ غَيْرُكَ - ^(١)

هذه أيضًا من الكلمات التي كان الرسول ﷺ يدعو بها إذا قام يتهجد من الليل: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ» وهذا يطابق قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. فمن أوصاف الله ﷻ أنه نور، نور السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ولم يردِ النور مفردًا غير مضاف منسوبًا لله ﷻ، بل هو مضاف فيقال: الله نور السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وأما ما نسمعه من بعض المطوّفين: يا نور النور، فهذا لا نعلمه واردًا عن النبي ﷺ ولا يجوز أن يقال هكذا، فما معنى: نور النور؟! النور له نور!! لكن هذه يأتون بها من أجل السَّجع، كما يأتون بأشياء كثيرة منها لم يرد.

❖ قوله: «وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وهذا كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وكقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٣].

فالله تعالى هو القيوم وهو القائم على كل نفس بما كسبت ﴿وَمِنْ عَائِنِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ٢٥].

❖ قوله: «وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ» الحق معناه: الثابت الذي ليس فيه باطل، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [البقرة: ٦٢]؛ فهو حق ﷻ في ذاته وفي أسمائه وصفاته وأحكامه وأفعاله، وكل ما يصدّر منه.

❖ «وَوَعْدُكَ حَقٌّ» لا يُخْلَفُ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١) [البقرة: ١٩٤]. لمن؟ للمؤمنين.

❖ قوله: «قَوْلُكَ حَقٌّ» كما قال الله تعالى: ﴿وَوَعَدْتُكَ بِمَا كُنْتُ بِكَ صِدْقًا وَعَدًا﴾ [البقرة: ١١٥].

فقوله حق في الأخبار وحق في الأحكام، ومعنى كونه حقًا في الأخبار، أنه صدق، ومعنى كونه حقًا في الأحكام: أنه عدل متضمن للمصالح مبتعدًا عن المفساد.

❖ قوله: «وَلَقَاوُكَ حَقٌّ» كما قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُتْلَقِيهِ﴾ (٢) [الأنبياء: ٦].

فَأَنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ سَتَلَاقِي رَبَّكَ ﷻ، فَانْظُرْ مَاذَا أَعَدَدْتَ لِهَذَا الْلِقَاءِ، هَلْ أَعَدَدْتَ عَمَلًا يَرْضَى اللَّهُ عَنْكَ ﷻ، أَوْ أَعَدَدْتَ عَمَلًا يُخْجَلُّكَ أَمَامَ اللَّهِ، هَذَا الْلِقَاءُ لَا بَدَّ مِنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلُمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُحَانُ» لَا يَوْجَدُ مُتَرْجِمٌ يَكْلِمُكَ ﷻ بِدُونِ وَاسِطَةٍ، فَكُلْ إِنْسَانٌ يَكْلِمُهُ اللَّهُ، فَأَنْتَ يَا أَخِي تَصَوَّرُ هَذَا الْلِقَاءَ، تَصَوَّرُ هَذِهِ الْمَكَالِمَةَ، إِذَا وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَهَذَا شَيْءٌ لَيْسَ بِبَعِيدٍ، لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ رَوْحُكَ مِنْ بَدَنِكَ ثُمَّ يَنْتَهِيَ كُلُّ شَيْءٍ، مَا يَبْقَى إِلَّا أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ثُمَّ تَلَاقِي رَبَّكَ ﷻ، فَلِقَاءُ اللَّهِ حَقٌّ. ❖ كَذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ: «وَالْجَنَّةُ حَقٌّ» الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ^(١)، نَوْرٌ يَتَلَأَلُ، هَذِهِ «الْجَنَّةُ حَقٌّ»، وَكَذَلِكَ «النَّارُ حَقٌّ» ثَابِتٌ لَا بَدَّ مِنْهُ، وَهُمَا الْآنَ مَوْجُودَتَانِ، وَبِقِيَانِ أَبَدِ الْآبِدِينَ لَا يَفْنِيَانِ أَبَدًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي أَهْلِهَا: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النَّبَأَةُ: ١٧٢].

وَقَالَ فِي النَّارِ أَيْضًا فِي أَهْلِهَا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: فِي سُورَةِ النَّسَاءِ وَسُورَةِ الْأَحْزَابِ وَسُورَةِ الْجَنِّ، فَفِي سُورَةِ النَّسَاءِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ^(٢) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ^(٣)﴾ [النَّبَأَةُ: ١٦٨-١٦٩].

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا أَنَّهُمَا سَتَبْقَى أَبَدًا، كَذَلِكَ قَالَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ^(٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ^(٥)﴾ [الْأَحْزَابُ: ٦٤-٦٥]. وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجَنِّ: ﴿وَمَنْ يَقْعِرْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ^(٦)﴾ [الْجَنَّةُ: ٢٣]. وَمَا يُذَكَّرُ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمَا سَتَفْنِي، فَهُوَ قَوْلٌ ضَعِيفٌ جَدًّا، وَلَا قَوْلٌ لِأَحَدٍ مَعَ وَجُودِ كَلَامِ اللَّهِ ﷻ، وَلَوْلَا أَنَّهُ قِيلَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ السَّنَةِ لَقُلْنَا: هَذَا مِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْبِدْعِ الَّذِينَ يَرُونَ أَنَّ تَسْلُسَلَ الْحَوَادِثِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِمْتَنِعٌ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجَدَ شَيْءٌ يَبْقَى أَبَدَ الْآبِدِينَ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، وَلَكِنَّ الصَّحِيحَ: أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ يَبْقِيَانِ أَبَدَ الْآبِدِينَ بِنِهَايَةِ بَيْنَهُمَا.

❖ قَوْلُهُ: «النَّبِيُّونَ حَقٌّ» مِنْهُمْ مَنْ قَصَّهَمُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَقْصُصْهُمْ عَلَيْنَا، لَكِنْ

(١) يُشِيرُ الشَّيْخُ تَحَفُّثُهُ إِلَى مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٢٤٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٢٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» وَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [الْجَنَّةُ: ١٧].

كلهم حق، كلهم جاءوا بالحق، ولكن منهم من اندثرت آثارهم ولم يبقَ لهم كتب، ومنهم من بقيت كتبهم على أنها مُحَرَّفَةٌ ومُبَدَّلَةٌ قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قِرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

❖ قوله: «وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ» ﷺ وهو آخر الأنبياء، يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ ﷺ عن نفسه: «محمد حق» لأنه يجب عليه أن يشهد أنه هو رسول الله إلى الناس جميعًا، وهو أوَّلُ مَنْ يشهد بأنه رسول الله ﷺ.

❖ قوله: «لَكَ أَسْلَمْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَبِكَ آمَنْتُ»: «لَكَ أَسْلَمْتُ» انقاد لك ظاهري «وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ» اعتمد عليك قلبي، «وَبِكَ آمَنْتُ» أقررت إقرارًا موجبًا للقبول والإذعان

❖ قوله: «وَالَيْكَ أَنْبْتُ» أي رجعت «وَبِكَ خَاصَمْتُ» أي: استعينك، والباء هنا للاستعانة على المخاصمة، مخاصمة الأعداء.

❖ قوله: «وَالَيْكَ حَاكَمْتُ» المحاكمة، قال: إليك، المخاصمة قال: بك؛ لأن المخاصمة يكون له فيها خصمٌ فهو يحتاج إلى معونة واستعانة بالله، والمحاكمة لها غاية، غايتها إلى الله ﷻ ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠]. ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ٥٩]. ولهذا قال: «وَالَيْكَ حَاكَمْتُ».

❖ قوله: «فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ» أربعة أنواع، لو قال: اللهم اغفر لي ذنبي، كفى؟ يكفي فهو يشمل ما قَدَّمَ وما أَخَّرَ وما أَعْلَنَ وما أَسْرَرَ، ولو قال: هكذا لكفى لو قال: اللهم اغفر لي ذنبي لكفى، لكنَّ مقام الدُّعَاءِ ينبغي في البَسْطِ، لفوائد ثلاث أو أكثر:

الفائدة الأولى: أن يستحضر الإنسان الذنوبَ كُلَّهَا على أنواعِها؛ لأنه إذا قال: اللهم اغفر لي ذنبي، هذا عامٌّ صحيحٌ لكنه مُجْمَلٌ، أما إذا فَصَّلَ، فهو يستحضر الذنب كله بأنواعه.

الثانية: أن مقام الدعاء مقام عبادة، وكلما زادت الكلمات زادت العبادة.

الثالثة: أن مقام الدعاء مناجاة مع الله ﷻ، والإنسان يحب طولَ المناجاة مع حبيبه، وأحب شيء إلينا هو الله ﷻ، فيُحب الإنسان أن يطيلَ المناجاة مع حبيبه ﷻ.

الرابعة: أنه إذا فَصَّلَ: يَشْعُرُ في كُلِّ كلمةٍ يقولها تفصيلًا أنه في هذه الحال مُفْتَقِرٌ إلى الله ﷻ، فيزداد بذلك ضراعةً إلى الله ﷻ، فلهذا كان في مقام الدعاء ينبغي البسط، وكان الرسول ﷺ يبسط في الدعاء ويكرِّرُ في الدعاء أيضًا.

كان إذا دعا أحياناً يدعو ثلاثاً، وقد سَمِعَهُ حذيفةً في صلاةِ الليلِ يقول: «اللهم اغفر لي، اللهم اغفر لي، اللهم اغفر لي» ^(١).

❦ قوله: «أَنْتَ الْمُقَدَّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ» وَمَنْ قَدَّمَهُ اللَّهُ فَلَا مُؤَخَّرَ لَهُ، وَمَنْ آخَرَهُ اللَّهُ فَلَا مُقَدَّمَ لَهُ، لَوْ اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ كُلُّهَا عَلَى أَنْ يُؤَخَّرُوا مَا قَدَّمَ اللَّهُ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَلَوْ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يُؤَخَّرُوا مَا قَدَّمَ اللَّهُ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَأَنْتَ إِذَا آمَنْتَ بِهَذَا اعْتَمَدْتَ عَلَى اللَّهِ وَصَارَ النَّاسُ كُلُّهُمْ خَلْفَ ظَهْرِكَ وَالَّذِي أَمَامَكَ هُوَ اللَّهُ ﷻ. الْمُقَدَّمُ وَالْمُؤَخَّرُ فِي الْأَحْوَالِ وَالْأَزْمَانِ وَالْأَمَاكِنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

❦ قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» خَتَمَهَا بِالتَّوْحِيدِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، هَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَوْ وَزَنْتَ بِهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَرَجَحْتَ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِأَنَّهَا كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ، كَلِمَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَمْرَيْنِ، عَلَى رَكْنَيْنِ لَا بَدَ مِنْهُمَا، هُمَا:

النَّفْيُ وَالْإِثْبَاتُ؛ لِأَنَّ التَّوْحِيدَ مَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ؛ لِأَنَّ النَّفْيَ الْمُحَضَّزَ تَعْطِيلٌ، وَالْإِثْبَاتُ بَدُونِ نَفْيٍ لَا يَمْنَعُ الْمَشَارَكَةَ، فَإِذَا لَا بَدَّ مِنْ نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ.

لَوْ قُلْتَ: لَا قَائِمَ فِي الْبَيْتِ، هَذَا نَفْيٌ، لَا يَوْجَدُ أَحَدٌ قَائِمٌ، إِذَا عَطَلْنَا الْقِيَامَ مَرَّةً، لَا يَوْجَدُ قِيَامٌ. **لَوْ قُلْنَا:** مُحَمَّدٌ قَائِمٌ فِي الْبَيْتِ، أَثْبَتْنَا الْقِيَامَ، لَكِنْ مَا أَثْبَتْنَا التَّوْحِيدَ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ قَائِمًا أَيْضًا مَشَارِكًا لَهُ فِي الْقِيَامِ.

إِذَا قُلْنَا: لَا قَائِمَ فِي الْبَيْتِ إِلَّا مُحَمَّدٌ حِينَئِذٍ وَحَدْنَا مُحَمَّدًا بِالْقِيَامِ، نَفَيْنَا الْقِيَامَ عَمَّا سِوَاهُ وَأَثْبَتْنَاهُ لَهُ، إِذَا لَا بَدَ فِي التَّوْحِيدِ مِنْ رَكْنَيْنِ: النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ أَوْ مَا يَقُومُ مَقَامَهُمَا، يَعْنِي: قَدْ لَا يَوْجَدُ نَفْيٌ وَإِثْبَاتٌ، لَكِنْ يَوْجَدُ مَا يَقُومُ مَقَامَهُمَا، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]. كَلِمَةُ وَاحِدٌ، هَذِهِ تَغْنِي عَنِ النَّفْيِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى وَاحِدٍ يَعْنِي: لَا ثَانِي مَعَهُ، أَوْ لَا شَرِيكَ مَعَهُ.

❦ قوله: «لَا إِلَهَ غَيْرُكَ» «أَوْ» هُنَا شَكٌّ مِنَ الرَّاوي، وَهَذَا الشَّكُّ لَا يَضُرُّ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى وَاحِدٌ. **فِي هَذَا الْحَدِيثِ:** دَلِيلٌ عَلَى صَدَقِ التَّجَاءِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى رَبِّهِ، وَعَلَى ثَنَائِهِ عَلَى رَبِّهِ ﷻ، وَالثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ دَعَاءٌ بِلِسَانِ الْحَالِ؛ لِأَنَّ الْمَشْنِيَّ عَلَى اللَّهِ لَوْ سَأَلْتَهُ: لِمَ إِذَا أَثْنَيْتُ؟ يَقُولُ: رَجَاءٌ

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٤)، والسنائي (١٠٦٨، ١١٤٤)، وابن ماجه (٨٩٧) وغيرهم بلفظ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي»، وانظر «صحيح ابن ماجه» (٧٣١).

الثوابِ وخوفِ العقابِ، فالثناءُ على الله يُعْتَبَرُ دعاءً في الحقيقة، ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ شغله ذكرى عن مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ»^(١) وإن كان هذا الحديث فيه نظر لكن يدل على أن الثناء يقوم مقام الدعاء، وفيه قال الشاعر.

*** إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ ***

يعني معناه: أنه يكفيه الثناء؛ لأن الثناء عند الكريم طلبٌ وسؤالٌ وحاجةٌ.

وفيه أيضًا: أن الرسول ﷺ قد يقع منه الذنب؛ لقوله: «اغفر لي ما قدمت» ووقوع الذنب إذا تاب منه العبد لا يضرُّ، بل قد يكون الإنسان بعد التوبة من الذنب خيرًا منه قبل وقوع الذنب، خيرًا منه حالًا؛ لأن التوبة تجب ما قبلها، والإنسان بعد الذنب والانكسار إلى الله ﷻ والرجوع إليه يعرف قدر نفسه، لكن قبل أن يُذنب قد يرى نفسه أنه ليس عنده شيء يستغفر الله منه أو يتوب إلى الله منه، فيربوا بنفسه ويتعالى على نفسه أو يتعالى بنفسه، فإذا أذنب ثم تاب انكسر بين يدي الله ﷻ، ولهذا قال الله تعالى في حق آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٢) ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى^(٣) [طه: ١٢١-١٢٢].

حصّل أمرين، بل ثلاثة: التوبة، والاجتناب، والهداية، هذه ما حصلت له قبل أن يُذنب فالحاصل: أن الرسول ﷺ وغيره من إخوانه الكرام الرسل ليسوا ممنوعين من الذنب، قد يذنبون، لكن يتوبون إلى الله لا يُقَرُّون على الذنب، هذا هو الفرق بينه وبين سائر الناس، أن سائر الناس ربما يستمرُّ في ذنبه ولا يعود، لكن الرسل لا، معصومون من الإقرار على الذنوب.

ثانيًا: يظهر لي -والله أعلم- أنه هناك فرقًا آخر، أن معصية الأنبياء ليست عن تشبه وهوى، بخلاف معصية غيره فهي عن تشبه وهوى، أما معصية الأنبياء فهي قد تكون عن اجتهدٍ أخطأوا فيه، لكن حصل منهم بعض الشيء الذي يجعل هذا الاجتهاد نوعًا من الذنب، مثل قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾^(٤) [البقرة: ٤٣]، وتأمل هذا العتاب اللطيف، قدّم الله العفو على التأنيب، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾، خطابٌ لطيفٌ؛ يعني: ما أتبه الله ووبّخه، بل عفا عنه قبل أن يبدى ما وبّخه به، فهنا الرسول ﷺ أذن لهم، لا شك أنه يظن أن المصلحة في ذلك، كذلك

(١) أخرجه ابن شعبة في «المصنف» (٦/ ٣٤)، وإسناده ضعيف.

قال الله له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١﴾ [التَّحْوِيلُ: ١].

إذا: هو حَرَّمَ ما أَحَلَّ اللهُ له من أجلِ مَرْضَاتِ الزَّوْجَاتِ والإِصْلَاحِ والتَّأْلِيفِ، وعدمِ التَّشْوِيشِ، فهذا مُجْتَهِدٌ، لكنْ أَتْبَهَ اللهُ على ذلك: ﴿عَسَى وَتَوَلَّى ٢﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ [التَّحْوِيلُ: ١-٢]. لم يقل: عِبَسْتُ وَتَوَلَّيْتُ، فيه نَوْعٌ لَطَافَةٍ في الْخُطَابِ.

الفرق الثاني: أن الظاهر من حالِ الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - أنهم لم يصدُرْ منهم الذنب على سبيلِ الهوى والشهوة، ولكن على سبيلِ الاجتهادِ، وفيه نَوْعٌ من الْقُصُورِ أَذْيٌ إلى أن يكون ذلك الشيءُ ذَنْبًا.

الثالث: الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - معصومون من كُلِّ ذَنْبٍ يُخْلُ بِالْأَخْلَاقِ مثل: الزَّنا واللواط وما أشبه ذلك، هذا شيء ممنوع من الأنبياء، لأن ذلك هدمٌ لأصل الرسالة، قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ». فلا يُمكن أن يَأْتِيَ بها يَنَاقُضُ ذلك فهو معصومٌ من هذا.

رابعًا: معصومون أيضًا من الكذب والخيانة، فالنبي لا يمكن أن يكذبَ، ولا يمكن أن يخونَ؛ لأن هذا طعن في الرسالة، وإذا كان يكذب ما يؤمن أن يكذب بالوحي، إذا كان يخون ما يؤتمن على الوحي أبدًا.

ولهذا قال النبي ﷺ: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةٌ الْأَعْمَى» ^(١)، فكيف بخائنة اللسان؟! فهم معصومون من هذا؛ لأنه يُخْلُ بِأَصْلِ الرِّسَالَةِ.

خامسًا: معصومون من الشرك، لا يمكن أن يشركوا؛ لأن الشرك يُناقِضُ ما جاءوا به، هم جاءوا بالتوحيد، فالشرك يُناقِضُ حتى وإن كان أصغر لا يمكن أن يقعَ منهم.

ولهذا نرى أن الرواية التي رويت عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة آدم وحواء وتسميتهما ابنهما عبد الحارث أن هذه موضوعةٌ، ليست صحيحةً، والقصةُ معروفةٌ جاءها الشيطان، قال سَمِيًّا ولدكما عبد الحارث، فإن لم تُسمياه عبد الحارث، فأنا أجعلُ له قرني أيل، فيشُقُّ بطنك ^(٢) فيخرج منه .

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والنسائي (٤٠٧٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٢١٢/٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٧)، وقال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه مرفوعًا، إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه، عمر بن إبراهيم: شيخ بصري». اهـ

وقد قال لهما لما جاء، قال: أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة. هذا مما يدل على أن القصة موضوعة، إذا كان يُريد أن يطيعاه فيما أمر، هل يتوسل إليهما بكونه أخرجهما من الجنة؟ لا، هذا ممتنع، لو كان هو الذي أمرهما لتوسل إليهما بشيء ينسيهما أنه أخرجهما من الجنة.

على كل حال: لا يمكن لأحد من الأنبياء أو الرسل -عليهم الصلاة والسلام- أن يُشرك، فهم معصومون من الشرك خفيّه وجليّه، صغيره وكبيره، فإن قلت: ما الجواب عمّا ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «أفلح وأبيه إن صدق»^(١).

ومن المعلوم: أن الحلف بغير الله شرك، لكنه شرك أصغر ما لم يُعظم المحلوف به كتعظيم الله، فإن عظمه كتعظيم الله صار أكبر، فأحسن ما يُقال في ذلك: أن هذا مما جرى على لسانه بغير قصد، كقول الرسول ﷺ: «ثكلتك أمك»^(٢)، معنى ثكلتك يعني: فقدتك، والرسول ﷺ: لا يمكن أن يدعو على مُعاذ بن جبل وهو يريد أن يعلمه فيقول: «ثكلتك أمك» فهذا مما يجري على اللسان بلا قصد.

فالحاصل: أن هذا الحديث يدل على أنه يقع الذنب من الرسول ﷺ ولكن كما قلت لكم: لا بد أن تعرف الفروق بينه وبين غيره من الناس.

وأما من زعم من أن الأنبياء لا يذنبون، فهذا قول يردّه الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [التكوير: ١٩].

وبه يبطل تأويل من قال: إن قوله تعالى: ﴿يَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [البقرة: ٢]. يعني: من ذنب أمتك وما تأخر من ذنوبها، فإن هذا لا داعي له، خلاف ظاهر اللفظ ولا حاجة إليه.

(١) أخرجه مسلم (١١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/٨٣، ٢٦٩)، والحاكم (٤١٣/٢).

ثم قال البخاري رحمه الله:

١١ - باب التَّكْبِيرِ وَالتَّسْبِيحِ عِنْدَ الْمَنَامِ

٦٣١٨- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ الْحَكَمِ، عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ عَلِيٍّ، أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ شَكَتْ مَا تَلْقَى فِي يَدَيْهَا مِنَ الرَّحَى فَآتَتْ النَّبِيَّ ﷺ تَسْأَلُهُ خَادِمًا، فَلَمْ تَجِدْهُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَمَائِشَةٍ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ قَالَتْ: فَجَاءَنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا فَذَهَبَتْ أَقْوَمُ فَقَالَ: «مَكَانُكَ فَجَلَسَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي، فَقَالَ: أَلَا أَذْلكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْنَا إِلَى فِرَاشِكُمَا أَوْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَكُمَا فَكَبِّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»^(١) وَعَنْ شُعْبَةَ عَنْ خَالِدٍ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: التَّسْبِيحُ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ.

هذا الحديث أيضًا: يدلُّ على أنه ينبغي للإنسان عند النوم أن يُكَبِّرَ ويسبِّحَ، ويحمد كما جاء في الحديث تقول: «سبحان الله ثلاثًا وثلاثين والحمد لله ثلاثًا وثلاثين والتَّكْبِيرُ ثلاثًا وثلاثين فإن هذا خيرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ». يعني: أنه يُعين الإنسان على أشغال البيت ويقويه.

وفي هذا الحديث: دليل على أن المرأة - أي الزوجة - تخدم زوجها في مثل هذه الأمور، يعني: في الطَّحْنِ والعَجْنِ والخَبْزِ وما أشبه ذلك، حتى إن زوجة الزبير بن العوام رضي الله عنه كانت تحمل النَّوى من المدينة إلى بستانه خارج المدينة^(٢)، فيه ردُّ على هؤلاء الذين يقولون: إن المرأة لا تخدم الزوج في شيء من حوائج البيت وإنما هو الذي يأتي بالطَّعام لها ناضجًا، ولا يلزمها أن تعمل له طعامًا أو شرابًا ولا أن تغسل الثوب.

فهذا لا شك أنه خلافُ هدي النبي ﷺ وأصحابه، وأن هدي النبي ﷺ وأصحابه أن الزوجة تخدم زوجها في مثل هذه الأمور، ولهذا لما شكَّت ما تَلْقَى في يدها من الرَّحَى ما قال: إنه لا يجب عليك، ما قال: دعيه يأتي لك بخادمٍ أو دعيه مثلًا يطحنُ هو، بل عليها السلام أقرَّ ما حصل لها من هذا.

وفيه دليل: على ما بين عائشة وفاطمة رضي الله عنهما من الائتلاف وحسن الصُّحبة حتى إنها تُطلع

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥١)، ومسلم (٢١٨٢).

عائشة رضي الله عنها على مثل هذا الأمرِ الدقيق.

وفيه أيضًا: دليلٌ على حظوة عائشة عند رسول الله ﷺ وأنها من أحبِّ النساءِ إليه.

وفيه: دليل على جوازِ مجيء الصُّهرِ إلى ابنته وزوجها حتى في فراشِ المنام؛ لأنَّ النبي ﷺ فعل ذلك ولا شكَّ أنه أحسنُ الناسِ خلقًا وأشدُّهم حياءً، ومع ذلك حضر.

وفيه: دليلٌ على أنَّ الرسولَ ﷺ كان لا يحبُّ أن تأتي بالخدام؛ لأنَّ عدوله عن إجابة الطلبِ إلى هذا يدل على أنَّ هذا أفضلُّ، وأنَّ الإنسانَ كلما صبر عن الخادم كان أفضلَّ وأولى، وهذا هو الواقعُ وهو الحقُّ، أنه كلما صبر الإنسانُ عن الخادم فهو أولى لاسيما في مثلِ هذا الوقتِ الذي ضعف فيه الإيَّانُ وقلَّتْ فيه مراقبة الرحمن ﻋَظِمْ، وصارت الخادمة على خطرٍ ولاسيما إذا كان البيتُ فيه شباب فإنَّ الخطرَ عظيمٌ.

وعلى كلِّ حالٍ: كلما حصل الاستغناء عن الخادم فإنه أولى، وإذا كانت الخادمُ كافرةً صار ذلك أقبحَ وأقبحَ؛ لأنَّ وجودَ الكافرِ في الحقيقة في البيتِ أمرٌ عظيم، الكافرةُ عدوةٌ لله ولرسوله وللمؤمنين، فكيف يليقُ بك أن تجعلَ عدوةَ الله ولرسوله وللمؤمنين موجودة في بيتك؟!.

كان الإمامُ أحمد رحمته الله إذا رأى النصراني يُغمَضُ عينيه، قال: أنا أكره أن أرى مَنْ هو عدو لله ورسوله، والمسألة خطيرةٌ جدًا. أعني: وجود غير المسلمين في بيوت المسلمين - ولو ذهبنا نقص ما نسمع من القصص العظيمة من هؤلاء الخدم الذين هم غير مسلمين لطلال بنا الكلام لكن بعضها معروفٌ ومشهورٌ، ما يحصل من هؤلاء الخدم، لهذا ينبغي لكم أنتم طلبة العلم أن تُحدِّثوا ما استطعتم من وجود الخدم إطلاقًا، وشددوا على وجود الخدم غير المسلمين وتحذروا منهن، وليُعلم أن العداوة ليست بالأمر الهين، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ [البقرة: ٩٨].

كلُّ كافرٍ فاللهُ عدوُّ له، وقال ﻋَظِمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوًّا وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ ﴿[البقرة: ١٩]﴾. بدأ بعداوتِهِ أولاً وهو يوجه الخطابَ لنا، ما قال عدوكم. قال: عدوي، لأجل أن يكون بُعدنا عن هؤلاء من أجل عداوتهم لله قبل أن يكونوا أعداءَ لنا؛ لأنهم قد يتظاهرون بالولاية لنا وأنهم ليسوا بأعداء. ولكن هم حقيقة أعداءُ مهما كان الأمر.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله «الفتح» (١١/١٢٢):

❦ قوله: «فكبراً أربعاً وثلاثين وسبعاً ثلاثاً وثلاثين واحداً ثلاثاً وثلاثين» كذا هنا بصيغة

الأمر والجزم بأربع في التكبير. وفي رواية بدل مثله ولفظه: «فكبرا الله» ومثله للقطان لكن قدّم التسبيح وآخر التكبير ولم يذكر الجلالة. وفي رواية عمرو بن مرة عن ابن أبي ليلى وفي رواية السائب كلاهما مثله، وكذا في رواية هبيرة عن علي وزاد في آخره: «فتلك مائة باللسان وألف في الميزان» وهذه الزيادة ثبتت أيضًا في رواية هبيرة وعمارة بن عبد معًا عن علي عند الطبراني.

وفي رواية السائب كما مضى، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم كالأول، لكن قال تسبحين بصيغة المضارع. وفي رواية عبيدة بن عمرو «فأمرنا عند منامنا بثلاث وثلاثين وثلاث وثلاثين وأربع وثلاثين من تسبيح وتحميد وتكبير» وفي رواية غندر للكشميهني مثل الأول، وعن غير الكشميهني: «تكبران» بصيغة المضارع وثبوت النون، وحذفت في نسخة وهي إما على أن إذا تعمل عمل الشرط وإما حذفت تخفيفًا.

وفي رواية مجاهد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى في النفقات بلفظ: «تسبحين الله عند منامك» وقال في الجميع «ثلاثا وثلاثين» ثم قال في آخره قال سفيان رواية «إحداهن أربع» وفي رواية النسائي عن قتيبة عن سفيان «لا أدري أيها أربع وثلاثون» وفي رواية الطبري من طريق أبي أمامة الباهلي عن علي في الجميع «ثلاثا وثلاثين. واختماها بلا إله إلا الله» وله من طريق محمد بن الحنفية عن علي «وكبراه وهلاه أربعًا وثلاثين» وله من طريق أبي مريم عن علي «أحدا أربعًا وثلاثين» وكذا له في حديث أم سلمة، وله من طريق هبيرة أن التهليل أربع وثلاثون ولم يذكر التحميد، وقد أخرجه أحمد من طريق هبيرة كالجماعة وما عدا ذلك شاذ. وفي رواية عطاء عن مجاهد عند جعفر وأصله عند مسلم: «أشك أيها أربع وثلاثون غير أني أظنه التكبير» وزاد في آخره: «قال علي فما تركتها بعد فقالوا له: ولا ليلة صفين؟ فقال: ولا ليلة صفين». انتهى كلام الحافظ

وعلى كل حال: فإن ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ قد طَوَّلَ لكن عندي قال: اتفاق الرواة على أن أربعًا للتكبير أرجح من كون التسبيح أربعًا وثلاثين.

إِذَا: يعتمد؛ لأن التكبير أربعًا وثلاثين والتسبيح والتحميد على ثلاثًا وثلاثين. فالجميع مائة.

ثم قال البخاري رحمه الله:

١٢ - باب التَّعَوُّذِ وَالْقِرَاءَةِ عِنْدَ الْمَنَامِ.

٦٣١٩ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، قَالَ حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ نَفَثَ فِي يَدَيْهِ، وَقَرَأَ بِالْمُعَوَّذَاتِ، وَمَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ» ^(١).

❦ قوله: «بالمعوذات» يعني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ^(١). و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ^(٢). و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ^(٣). وأطلق على الثلاثة اسم معوذات من باب التغليب؛ لأن قول ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ^(١). ليس فيها تعويذ.

ثم قال البخاري رحمه الله:

١٣ - باب.

٦٣٢٠ - بَابُ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبَرِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتَ جَنِّي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكَتْ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِيَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ» تَابَعَهُ أَبُو ضَمْرَةَ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ زَكَرِيَّا عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَيُشَرُّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَرَوَاهُ مَالِكٌ وَابْنُ عَجَلَانَ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ ^(١).

[الحديث: ٦٣٢٠ - طرفه في: ٧٣٩٣]

هذا الحديث واضح في معناه: أن الرسول ﷺ أمر الإنسان إذا أوى إلى فراشه أن ينفضه بداخله إزاره، وعَلَّ ذلك بأنه لا يدري ما خلفه عليه.

(١) أخرجه مسلم (٢١٩٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٤).

قال الحافظ بن حجر رحمه الله «الفتح»: (١١/١٢٦):

قوله: «فليَنفُضْ فراشه بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ» كَذَا لِلْأَكْثَرِ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي زَيْدِ الْمُرَوَّزِيِّ «بِدَاخِلِ» بِلَا هَاءٍ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ مَالِكِ الْإِتْيَاءُ فِي التَّوْحِيدِ «بَصْنِفَةِ ثَوْبِهِ» وَكَذَا لِلطَّبْرَانِيِّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، وَهِيَ بِفَتْحِ الصَّادِ الْمُثَمَّلَةِ وَكَسْرِ النُّونِ بَعْدَهَا فَاءٌ هِيَ الْحَاشِيَةُ الَّتِي تَلِي الْجِلْدَ، وَالْمُرَادُ بِالدَّاخِلَةِ طَرَفُ الْإِزَارِ الَّذِي يَلِي الْجَسَدَ، قَالَ مَالِكٌ: دَاخِلَةُ الْإِزَارِ مَا يَلِي دَاخِلَ الْجَسَدِ مِنْهُ. وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عِنْدَ مُسْلِمٍ «فَلْيَحُلْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ فَلْيَنفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ» وَفِي رِوَايَةِ يَحْيَى الْقَطَّانِ كَمَا سَيَأْتِي «فَلْيَنْزِعْ» وَقَالَ عِيَّاضٌ: دَاخِلَةُ الْإِزَارِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ طَرَفُهُ، وَدَاخِلَةُ الْإِزَارِ فِي حَدِيثِ الَّذِي أُصِيبَ بِالْعَيْنِ مَا يَلِيهَا مِنَ الْجَسَدِ، وَقِيلَ: كُنِيَ بِهَا عَنْ الذِّكْرِ وَقِيلَ عَنْ الْوَرِكِ، وَحَكَى بَعْضُهُمْ أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنَّهُ أَمَرَ بِغَسْلِ طَرَفِ ثَوْبِهِ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الصَّوَابُ.

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «الْمُنْهَمِ»: حِكْمَةُ هَذَا النِّفْضِ قَدْ ذُكِرَتْ فِي الْحَدِيثِ، وَأَمَّا اخْتِصَاصُ النِّفْضِ بِدَاخِلَةِ الْإِزَارِ فَلَمْ يَظْهَرْ لَنَا، وَيَقَعُ لِي أَنَّ فِي ذَلِكَ خَاصِيَّةً طَبِيعَةً تَمْنَعُ مِنْ قُرْبِ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ الْعَائِنُ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ «فَلْيَنفُضْ بِهَا ثَلَاثًا» فَحَذَا بِهَا حَذُو الرُّقَى فِي التَّكْرِيرِ انْتَهَى.

وَقَدْ أَبْدَى غَيْرُهُ حِكْمَةَ ذَلِكَ، وَأَشَارَ الدَّأودِيُّ فِيمَا نَقَلَهُ ابْنُ التِّينِ إِلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْإِزَارَ يُسْتَرُ بِالثِّيَابِ فَيَتَوَارَى بِمَا يَنَالُهُ مِنَ الْوَسْخِ، فَلَوْ نَالَ ذَلِكَ بِكُمِّهِ صَارَ غَيْرَ لَدُنِ الثَّوْبِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ عَمَلًا أَنْ يُحْسِنَهُ. وَقَالَ صَاحِبُ النِّهَايَةِ: إِنَّمَا أَمَرَ بِدَاخِلَتِهِ دُونَ خَارِجَتِهِ؛ لِأَنَّ الْمُؤْتَزَرَ يَأْخُذُ طَرَفِي إِزَارِهِ بِيَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَيُلْصِقُ مَا بِشِمَالِهِ وَهُوَ الطَّرَفُ الدَّاخِلِيُّ عَلَى جَسَدِهِ وَيَضَعُ مَا بِيَمِينِهِ فَوْقَ الْآخَرِ، فَمَتَى عَاجَلَهُ أَمْرٌ أَوْ خَشِيَ سُقُوطَ إِزَارِهِ أَمْسَكَهُ بِشِمَالِهِ وَدَفَعَ عَنْ نَفْسِهِ بِيَمِينِهِ، فَإِذَا صَارَ إِلَى فِرَاشِهِ فَحَلَّ إِزَارَهُ فَإِنَّهُ يَحِلُّ بِيَمِينِهِ خَارِجَ الْإِزَارِ وَتَبَقَى الدَّاخِلَةُ مُعَلَّقةٌ وَبِهَا يَقَعُ النِّفْضُ.

وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ: إِنَّمَا أَمَرَ بِالنِّفْضِ بِهَا؛ لِأَنَّ الَّذِي يُرِيدُ النَّوْمَ يَحِلُّ بِيَمِينِهِ خَارِجَ الْإِزَارِ وَتَبَقَى الدَّاخِلَةُ مُعَلَّقةٌ فَيَنفُضُ بِهَا، وَأَشَارَ الْكَرْمَانِيُّ إِلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ يَدُهُ حِينَ النِّفْضِ مَسْتَوْرَةً لِّئَلَّا يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ فَيَحْصُلُ فِي يَدِهِ مَا يَكْرَهُ انْتَهَى. وَهِيَ حِكْمَةُ النِّفْضِ بِطَرَفِ الثَّوْبِ دُونَ الْيَدِ لَا خُصُوصَ الدَّاخِلَةِ. اهـ

على كلِّ حال: كما سمعتم، العلماءُ رَحِمَهُمُ اللهُ كُلُّ يَرى حكمةً في أنه ينفضه بداخِليةِ الإزار، ولكن الذي يَظْهَرُ والله أعلم أنه خَصَّتْ الداخلة دون الخارجة من أجل أنه إذا كان فيه وسخ يكون من الداخل حتى لا يَتَسَخَّ ظاهره، هذا إذا نفَضَ من غير حَلٍّ، أما إذا حلَّه فالأمرُ واضحٌ؛ لأنه إذا حلَّه وأمسك به فيكون النفَضُ بالداخل ضرورة المَسْكِ باليد.

وقد وردَ كما قال المؤلف: في بعض طرق الحديث أنه يفعلُ ذلك ثلاثاً، ثم هل هذا خاصٌّ بالإزار؟

يحتمل الخصوصية ويحتمل أنه إنما خَصَّ بالإزار؛ لأنَّ الناسَ في عهدِ الرسول ﷺ كان من عاداتهم في الأكثر أن يلبسَ الإنسانُ رداءً وإزاراً، وكون الوسخ يكون في الإزار أهون من كونه يكونُ في الرداء؛ لأن الرداء في أعلى الجسد يكونُ ظاهراً بيناً بخلاف الإزار، وبناءً على ذلك فإذا كان الإنسان قد أعدَّ لنومه ثوباً خاصاً فلا حرج أن يمسحَ به ولو كان غير إزار كالقميص مثلاً أو السراويل أو ما أشبه ذلك.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على أن الرسول ﷺ يتبعُ الأحكامَ العلل، وهذا كثيرٌ حتى في القرآن - أي أن الحكم يُذكر مع علته، وفائدة ذكر العلة مع الحكم معلومةٌ لكم سبق التنبيه عليها، ومنها:

الفائدة الأولى: أن يعرفَ العبدُ بالعلَّةِ وجهَ ذلك الحكم حتى يستقرَّ في نفسه.

والفائدة الثانية: زيادةُ الطمأنينة لهذا الحكم.

والفائدة الثالثة: أن يقاسَ على الحكم ما يشاركه في العلة.

والفائدة الرابعة: بيانُ سُمُو الشريعة، وأنها لا تأمر ولا تنهى إلا لحكمةٍ وغايةٍ محمودة.

ثم قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ:

١٤ - باب الدعاءِ نِصْفَ اللَّيْلِ.

٦٣٢١ - حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْأَعْرَبِيِّ وَأَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي

فَأَسْتَجِبْ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيهِ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرْ لَهُ؟^(١)

هذا الحديث حديثٌ عظيمٌ ذكر بعضُ أهل العلم أنه بلغ حدَّ التواترِ عن النبي ﷺ ولا شك أنه حديثٌ مستفيضٌ مشهور. شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في كتابٍ مستقلٍّ لما فيه من الفوائد العظيمة.

ففيه: ثبوتُ النزولِ لله ﷻ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا» والنزولُ من صفاتِ الله الفعلية؛ لأنه فعل، وهذا النزولُ حقيقة؛ لأن الرسول ﷺ أضافه إلى الله «يَنْزِلُ رَبُّنَا» ونحن نعلمُ جميعاً أن رسول الله ﷺ أعلمُ الناسِ بالله، ونعلمُ كذلك أن الرسولَ ﷺ أفصحُ الخلقِ كما قال الشاعر:

وأفصحُ الخلقِ على الإطلاق نبينا فَمِلْ عَنِ الشَّقَاقِ

ونعلمُ كذلك أن رسولَ الله ﷺ أنصحُ الخلقِ، وأنه عَلِمَ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يساويه أحدٌ من الخلقِ في النصيحة للخلقِ، هذه ثلاثة أمور، ونعلمُ كذلك أنه ﷺ لا يُريدُ من العبادِ إلا الهداية، من تمام نصحه أنه لا يريدُ منهم أن يضلُّوا، فهو عَلِمَ أَكْثَرَ النَّاسِ أعلمُ الخلقِ بالله وأنصحُ الخلقِ للخلقِ، وأفصحُ الخلقِ فيما ينطقُ به، وكذلك لا يُريدُ إلا الهدايةَ للخلقِ فإذا قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»، فإن أيَّ إنسانٍ يقولُ خلافَ ظاهرِ هذا اللفظِ قد اتَّهمَ النبي ﷺ، إما بأنه غيرُ عالم، فمثلاً إذا قال المراد: ينزلُ أمره.

نقول: كيف! هل أنت أعلمُ من الرسول ﷺ؟ الرسولُ يقولُ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»، وأنت تقولُ: ينزلُ أمره، أنت أعلمُ أم رسولُ الله؟! أو أنه اتَّهمه بأنه لا يريدُ النصْحَ للخلقِ، حيث عمَّ عليهم فخاطبهم بما يُريدُ خلافه، ولا شك أن الإنسان الذي يخاطبُ الناسَ بما يريدُ خلافه غيرُ ناصحٍ لهم، أو نقولُ: أنت الآن اتَّهمتَ الرسولَ ﷺ بأنه غيرُ فصيح، عيبي، يريدُ شيئاً لكن لا ينطقُ به، يريدُ ينزلُ أمرُ ربنا ولكن يقولُ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا» لأنه لا يفرِّقُ بين هذا وهذا، فأنت كلامك هذا لا يخلو من وصمة الرسول ﷺ، فعليك أن تتقي الله، وأن تؤمنَ بما قال الرسولُ ﷻ من أن الله تعالى ينزلُ حقيقةً.

وهذا النزولُ هل يستلزمُ أن الله ﷻ يخلو منه العرشُ أو لا؟

الجوابُ: نقولُ: أولاً: أصلُ هذا السؤالُ بدعة، وإيراده غيرُ مشكورٍ عليه مورده،

لَا يُشْكِرُ عَلَيْهِ مَنْ أوردَهُ، لَأَنَّا نَسْأَلُ هَلْ أَنْتِ أَحْرَصُ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَى فَهْمِ صِفَاتِ اللَّهِ؟ إِنْ قَالَ: نَعَمْ فَقَدْ كَذَبَ، وَإِنْ قَالَ: لَا، قُلْنَا: فَلَيْسَ عَكَ مَوْسِعَهُمْ، مَا سَأَلُوا الرَّسُولَ ﷺ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا نَزَلَ هَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ؟

وَمَا لَكَ وَلِهَذَا السُّؤَالُ؟! قُلْ: يَنْزِلُ وَاسْكُتْ. يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ أَوْ مَا يَخْلُو، هَذَا لَيْسَ إِلَيْكَ، وَأَنْتِ مَأْمُورٌ بِأَنْ تَصَدَّقَ الْخَبَرَ، وَلَا سِيَّما مَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ فَوْقَ الْعُقُولِ. فإِذَا نَقُولُ: هَذَا السُّؤَالُ بَدْعَةٌ أَصْلًا لَا يَرِدُ، كُلُّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ الْأَدَبَ كَمَا تَأَدَّبَ الصَّحَابَةُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ لَا يوردُهُ.

ثَانِيًا: إِذَا قُدِّرَ أَنَّ شَخْصًا ابْتَلِيَ بِأَنْ وَجَدَ الْعُلَمَاءُ بَحْثُوا فِي هَذَا وَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: يَخْلُو، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَا يَخْلُو، وَمِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّفَ، فَالْسَّبِيلُ الْأَقْوَمُ فِي هَذَا هُوَ التَّوَقُّفُ، ثُمَّ الْقَوْلُ بِأَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَأَضْعَفُ الْأَقْوَالِ أَنَّهُ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ، التَّوَقُّفُ أَسْلَمُهَا، وَلَيْسَ هَذَا مِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا الْقَوْلُ بِهِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَبَيِّنْهُ وَالصَّحَابَةُ لَمْ يَسْتَفْسِرُوا عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَهُ لَبَيَّنَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِأَيِّ طَرِيقٍ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ أَحْيَانًا يَبَيِّنُ الرَّسُولُ ﷺ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَحْيَانًا يَتَوَقَّفُ فَيَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَأَحْيَانًا يَأْتِي أَعْرَابِيٌّ فَيَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ، وَأَحْيَانًا يَسْأَلُ الصَّحَابَةُ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الشَّيْءِ، كُلُّ هَذَا لَمْ يَرِدْ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، فَإِذَا لَوْ تَوَقَّفْنَا وَقُلْنَا: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا سَبِيلٌ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

ثَالِثًا: هَلْ إِذَا نَزَلَ ثَقُلَهُ السَّمَاءُ وَتَكُونُ السَّمَاءُ الثَّانِيَّةُ فَمَا فَوْقَهَا فَوْقَ اللَّهِ؟

الْجَوَابُ: هَذَا لَا يَكُونُ، لِأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: إِنْ السَّمَاءُ ثَقُلَتْ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، كَمَا تَكُونُ أَنْتِ مُحْتَاجًا إِلَى السَّقْفِ إِذَا أَقْلَكَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنْ كُلَّ شَيْءٍ مُحْتَاجٌ إِلَى اللَّهِ.

إِذَا: نَجْزِمُ بِأَنَّ السَّمَاءَ لَا ثَقُلَتْ، لِأَنَّهُ لَوْ أَقْلَتْهُ لَكَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، وَهَذَا مُسْتَحِيلٌ عَلَى اللَّهِ ﷻ.

هَلِ السَّمَاءُ الثَّانِيَّةُ فَمَا فَوْقَهَا تَكُونُ فَوْقَهُ؟.

الْجَوَابُ: لَا نَجْزِمُ بِهَذَا؛ لِأَنَّا لَوْ قُلْنَا: بِإِمَّاكَانِ ذَلِكَ لَبَطَلَتْ صِفَةُ الْعُلُوِّ؛ وَصِفَةُ الْعُلُوِّ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِلَّهِ، صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ فَوْقَهُ. حِينَئِذٍ يَبْقَى الْإِنْسَانُ حَائِرًا، كَيْفَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا ثَقُلَتْ وَلَا تَكُونُ السَّمَوَاتُ الْأُخْرَى فَوْقَهُ، كَيْفَ هَذَا؟ هَلْ يُمْكِنُ؟

الجواب: إذا كنت حائرًا من هذا، فإنما تتحير إذا قست صفات الخالق بصفات المخلوق، صحيح أن المخلوق إذا نزل إلى المصباح صار السطح فوقه، وصار سطح المصباح يُقلِّه، لكن الخالق، لا يمكن أن يقاس بخلقه، لا تقل: كيف ولها، فإذا هذان سؤالان:

السؤال لأول: هل السماء تُقلِّه؟

الجواب: لا، لأنك لو فرضت هذا لزم أن يكون الله مُحتاجًا للسماء، والله تعالى غني عن كل شيء وكل شيء محتاج إليه.

السؤال الثاني: هل تكون السماوات فوقه ما عدا الدنيا؟

الجواب: لا، لأنك لو فرضت ذلك لزم سقوط صفة العلو لله مع أن العلو من صفاته الذاتية التي لا ينفك عنها.

السؤال هذا من أصله، إذا قدرنا أننا سُئلنا، هل يصح أن نقول للسائل: هذا السؤال بدعة؟

الجواب: نعم، يصح أن نقول: هذا السؤال بدعة، كما قال الإمام مالك للذي سأله عن الاستواء كيف استوى؟ قال: هذا السؤال بدعة، ما سأله الصحابة عنه، فأنت الآن ابتدعت في دين الله، حيث سألت عن أمر ديني ما سأل عنه الصحابة وهم أفضل منك وأحرص منك على العلم بصفات الله، لكن مع ذلك لو قال: أنا يا جماعة يساورني القلق، أنا أخشى أن أعتقد في الله ما لا يجوز، فبينوا لي جزاكم الله خيرًا، وأنقذوني، حينئذ نبين له؛ لأن الإنسان قد يستل بمثل هذه الأمور ويأتيه الشيطان ويوسوس له، ويقول: كيف وكيف حتى يؤدي به إلى أحد محظورين:

إما التمثيل وإما التعطيل، فإذا جاءنا إنسان يسأل، ويقول: أنقذوني: أنا عجزت، أنا مازال هذا يتردد في خاطري، فبين له، إذا قال: ما يكفيني أن تقولوا بدعة، كيف أذهب ما في خاطري وما في قلبي، نبين له.

الرابع: من المعلوم أن ثلث الليل ينتقل من مكان إلى آخر، فثلث الليل مثلاً في الشرق ينتقل حتى يكون في الغرب، ويختلف الزمن، فكيف نوفق بين هذا وبين تقييد نزول الله ﷻ في ثلث الليل؟.

نقول: هذا والحمد لله أولاً السؤال عنه بدعة، كف عن هذا، إذا كنت في أرض وفي ثلث الليل فهذا وقت نزول الله ﷻ، في أرض وأنت في النهار فهذا ليس وقت النزول واسترح، استرح من التقديرات ولا تسأل، فالسؤال هذا بدعة من أصله، فإذا قال: أريد أن تبينوا لي

حتى أطمئن، نقول: إن الله ﷻ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فيكون في الجهة التي فيها ثلث الليل نازلًا إلى السماء الدنيا، وفي الجهة الأخرى التي طلع فيها الصبح أو التي لم يأتها ثلث الليل بعد غير نازل، وانتهينا.

ولا تقل: لم أو كيف، هذه غير واردة علينا في صفات الله.

الخامس: هل الذي ينزل هو الله ﷻ أو لا؟

ذكرنا قبل قليل بل في أول الكلام: أن الذي ينزل هو الله نفسه هكذا قال رسول الله ﷺ وهو أعلم الخلق به وأنصَحهم وأفصحهم مقالًا وأصدقهم فيما يقول، أعلم وأنصح وأفصح وأصدق، كل هذه الصفات الأربع في كلامه ﷺ، فوالله ما كذب في قوله: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»، ولا غش الأمة ولا نطق بعِي ولا نطق عن جهل، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [الشع: ٢٠]. بل هو الصادق المصدوق ﷺ.

نقول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا»، لكن قال بعض الناس: إن الذي ينزل أمر الله، وقال آخرون: رحمة الله، وقال آخرون: ملك من ملائكة الله ﷻ، الرسول ﷺ ما يعرف أن يُعبر هذا التعبير لا يعرف أن يقول: نزل رحمة الله، أو ينزل أمر الله، أو ينزل ملك من ملائكة الله، ما يعرف أن يُعبر؟

الجواب: يعرف يُعبر، ولو كان المراد ينزل أمره أو رحمته أو ملكه، لكان الرسول ﷺ مُلبسًا على الأمة وحاشاه من ذلك ولم يكن مُبينًا للأمة، بل مُلبسًا عليهم، لأن الذي يقول: «يَنْزِلُ رَبُّنَا» وهو يريد ينزل أمره، فهذا قد غشك ولَبَسَ عليك.

فإذا: الذي ينزل هو الرب ﷻ، وفساد هذا التحريف ولا نقول: تأويل في الحقيقة، القول بأن مثل هذا التحريف تأويل تلطيف للمسألة، وكل تأويل لا يدل عليه دليل فهو تحريف.

نقول: هذا التحريف لا شك أنه باطل.

إذا قلنا: أن الذي ينزل أمر الله في ثلث الليل، معناه: غير ثلث الليل ما ينزل أمر الله، وأمر الله نازل في كُل لحظة ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [الشع: ٥].

ثانيًا: أمر الله ما ينتهي بالسماء الدنيا ﴿يُدِيرُ الْأُمُورَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ليس إلى السماء الدنيا فقط، فبطل هذا التأويل، من جهة أن الأمر لا يختص بهذا الجزء من الليل، وأن الأمر لا ينتهي إلى السماء بل ينزل إلى الأرض.

ورحمة الله ﷻ - أيضًا - نفس الشيء نقول: تنزل كل لحظة ولو فقدت رحمة الله من العالم

لحظة واحدة لهلكنا، كل لحظة تنزل الرحمة، وتنزل إلى الأرض، ما الفائدة لنا بنزول رحمته إلى السماء فقط ما الفائدة من هذا؟ ليس لنا منها فائدة، إذا لم تصلنا الرحمة، فلا فائدة لنا فيها. فيظل تفسيرها بالرحمة، بل ما يترتب على تفسيرها بالأمر أو بالرحمة أعظم مما يتوهمه من المفاسد من صرف اللفظ إلى الأمر والرحمة كما رأيتم الآن.

ثالثاً: هل يمكن للأمر أو للرحمة أن تقول: مَنْ يدعوني فأستجب له؟

الجواب: ما يمكن، ما تقول رحمة الله: مَنْ يدعوني، ولا أمر الله: مَنْ يدعوني الذي يقوله هو الله وَعَلَيْهِ.

كذلك إذا قلنا: ملكٌ من ملائكته، الملك إذا نزل إلى السماء الدنيا: لا يمكن أن يقول: مَنْ يدعوني؟! أبداً، يعني: لو قال الملك: مَنْ يدعوني صار مشركاً، لأن الذي يُجيب المضطر إذا دعاه هو الله وَعَلَيْهِ، فلا يمكن للملك أن يقول هكذا حتى لو فرض أن الله أمره أن يقول، لقال: مَنْ يدعو الله فيستجب له؟ ما يقول: مَنْ يدعوني، ولا يمكن لملك من الملائكة وهم لا يعصون الله أن يقول للخلق: مَنْ يدعوني فأستجب له، وبهذا بطل تحريف هذا الحديث إلى هذا المعنى، أن يكون النازل ملكاً، وتحريف نصوص الصفات من القرآن والسنة يُجرى فيها هذا المجرى، يعني: أنها كلها، كل التحريفات إذا تأملتها وجدت أنه يترتب على تحريفاتهم من المفاسد أضعاف ما يترتب على المفاسد التي توهموها لو أجروا اللفظ على ظاهره، ولهذا نجد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سلموا من هذا، لم يرد عنهم حرف واحد في نصوص الصفات؛ لأنه لا يوجد إشكال عندهم، يجرونها على ظاهرها كما يجرون آيات الأحكام على ظاهرها، والغريب أن هؤلاء الذي يحرفون في نصوص الصفات وهم لا يستطيعون أن يعقلوها، لو حرّف أحد في نصوص الأحكام مع أن الأحكام مَربوطة بالمصالح، والمصالح للعقول فيها مدخل، لو حرّف أحد في نصوص الأحكام لأقاموا عليه الدنيا وقالوا له: ما يمكن أن تُحرّف، ما يمكن أن تخرج اللفظ عن ظاهره، مع أن الأحكام مَربوطة بالمصالح، والمصالح معقولة؛ يعني: للعقل فيها مجال، لكن صفات الله غير مَربوطة بهذا، صفات الله طريقها الخبر المجرد، يعني: لا يوجد تلقي لصفات الله نفيًا أو إثباتًا إلا الكتاب والسنة، ومع ذلك نجد مَنْ يلعب بنصوص الكتاب والسنة فيما يتعلق بصفات الله، ويحرفها حيثما يرى أن العقل يقتضي ذلك، مع أن العقل الذي يدّعي أنه

يقتضي هذا، عقل من؟ عقل زيد، عقل عمرو، بكر، كل واحدٍ منهم له عقلٌ يقول: هذا الحق، ولهذا نجدهم يتناقضون، بل إن الواحدٍ منهم ينقض كلامه بعضه بعضاً، يؤلف كتاباً فينقض ما في الكتاب الأول وهكذا.

حججٌ تهافت كالزجاج نخالها حقاً وكل كاسر مكسور

ما عندهم دليل، يتناقضون؛ لأنهم على غير برهانٍ وعلى غير أساسٍ، فلهذا الطريق السليم والمنهج الحكيم ما درج عليه السلف من إجراء هذه النصوص على ظاهرها.

فإذا قال قائل: ظاهرها التمثيل، قلنا له: كذبت، ليس ظاهرها التمثيل، كيف يكون ظاهرها التمثيل وهي مضافة إلى الله، مثلاً: ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ﴾ [التحريم: ٢٧].

إذا قال: أنا لا أثبت الوجه حقيقة؛ لأن ظاهره التمثيل، ماذا نقول له؟ نقول له: أنت كاذب، ليس ظاهره التمثيل؛ لأن الله تعالى لم يذكر وجهاً مطلقاً حتى يُحمل على المعهود وإنما ذكر وجهاً مضافاً إلى ذاته ﴿وَبَقِيَ وَجْهٌ رَبِّكَ﴾، فإذا كان مضافاً إلى ذاته وأنت تؤمن بأن ذاته لا تماثل ذوات المخلوقين وجب أن يكون وجهه لا يماثل أوجه المخلوقين والله أكبر عليك، لو قيل يد الفيل ما فهمت أنها كيد الهرة، أليس كذلك؟ وذلك لأنها أضيفت إلى الفيل، فهي ليست يدًا مطلقةً حتى نقول: تشترك مع غيرها، فهي مضافة إلى الفيل، فلا يمكن أن تفهم من قول القائل: يدُ فيل أنها كقول القائل: يد هراً أبداً، فكيف تفهم إذا قيل يدُ الله بأنها كيد زيد وعمرو، ما يمكن أبداً.

فكل من قال: إن ظاهر نصوص الصفات التمثيل فإنه كاذب، سواء تعمد الكذب أم لم يتعمد الكذب، حتى الذي يقول عن تأويل خاطيء يسمى كاذباً، أليس الرسول ﷺ قد قال لأبي السنابل لما أخبر بأن أبي السنابل قال لسبيعة الأسلمية: لن تنكحي حتى يمضي عليك أربعة أشهر وعشرًا، فقال الرسول ﷺ: «كذب أبو السنابل»^(١) مع أنه لم يتعمد الكذب، لكنه قال قولاً خاطئاً فنحن نقول: هذا كاذب سواء كان قد تعمّد أم لم يتعمّد، فليس في نصوص الصفات - والله الحمد - ما يقتضي التمثيل. لا عقلاً ولا سمعاً، ثم إن لدينا آية من كتاب

(١) أخرجه أحمد (٤٢٧٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/ ٤٢٩)، وأصله عند البخاري (٣٩٩١)، ومسلم (١٤٨٤) دون قوله: «كذب أبو السنابل».

اللَّهُ ﷻ تَمَحَو كُلَّ مَا ادْعَى أَنْ فِيهِ تَمَثِيلًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

فَأَنْتَ إِذَا جَاءَكَ نَصٌّ إِثْبَاتٍ فَاقْرَنِهِ بِنَصِّ هَذَا النِّفْيِ، لَا تَوْمَنُ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُ بِبَعْضٍ، اقْرَنِهِ بِهِ ﴿وَبَقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ﴾ تَقُولُ: لَيْسَ كَمِثْلِ وَجْهِ اللَّهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَعَلَى هَذَا فِقْسٌ، وَالْأَمْرُ لِلَّهِ الْحَمْدُ ظَاهِرٌ جَدًّا، وَلَوْلَا أَنَّ النَّاسَ الَّذِينَ سَلَكُوا هَذَا الْمَسْلَكَ -أَعْنَى: مَسْأَلَةُ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِمْ وَالتَّحْرِيفِ فِيهَا نَرَى- لَوْلَا كَثَرَتِهِمْ لَكَانَ الْأَمْرُ غَيْرَ مُشْكَلٍ عَلَى أَحَدٍ إِطْلَاقًا؛ لِأَنَّهُ وَاضِحٌ، مَا فِيهِ إِشْكَالٌ، فَلِهَذَا نَقُولُ: يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَوْمَنَ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا هُوَ نَفْسُهُ، كَمَا نَوْمَنُ بِأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي يَخْلُقُ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ، وَأَضَافَ الْخَلْقَ إِلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ؛ لِأَنَّ الْإِضَافَةَ فِي (يَنْزِلُ) كَالْإِضَافَةِ فِي (خَلَقَ) أَوْ (يَخْلُقُ) لَا فَرْقَ، فَالْإِضَافَةُ هُوَ اللَّهُ، وَالْخَالِقُ هُوَ اللَّهُ، وَالرَّازِقُ هُوَ اللَّهُ، وَالْبَاسِطُ هُوَ اللَّهُ وَهَكَذَا، لَا فَرْقَ بَيْنَهَا، وَالْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَتَّقِي اللَّهَ ﷻ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَرِّفَ مَا أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ وَيُضِيفَهُ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ، وَإِذَا أَدَّاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ مَعْدُورًا لَا مَشْكُورًا؛ لِأَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ السَّعْيِ الْمَشْكُورِ وَهُوَ مَا وَافَقَ الْحَقَّ، وَبَيْنَ الْعَمَلِ الْمَعْدُورِ وَهُوَ مَا خَالَفَ الْحَقَّ لَكِنْ نَعْلَمُ مِنْ صَاحِبِهِ النَّصْحَ، إِلَّا أَنَّهُ التَّبَسُّعُ عَلَيْهِ الْحَقُّ، فَإِنْ فِي هَؤُلَاءِ الْمُؤُولَةِ وَالَّذِينَ نَرَى أَنَّ أَعْمَالَهُمْ تَحْرِيفٌ فِيهِمْ مَنْ يُعْلَمُ مِنْهُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ التَّبَسُّعُ عَلَيْهِمُ الْحَقُّ، فَضَلُّوا الطَّرِيقَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

❦ قَوْلُهُ: «فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَاسْتَجِيبْ لَهُ» فِي هَذَا إِثْبَاتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ وَأَنَّهُ بِحَرْفِ وَصُوتِ «مَنْ يَدْعُونِي» حُرُوفٌ وَهِيَ بِصَوْتٍ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْقَوْلِ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ بِصَوْتٍ، وَإِلَّا قَيَّدَ، لَوْ كَانَ قَوْلٌ بِالنَّفْسِ لَقَيَّدَهُ اللَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾.

فَإِذَا أُطْلِقَ الْقَوْلُ فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ بِصَوْتٍ، ثُمَّ إِنْ كَانَ مِنْ بُعْدِ سُمِّي نِدَاءً، وَإِنْ كَانَ مِنْ قُرْبِ سُمِّي نَجَاءً.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: يَقُولُ: «مَنْ يَدْعُونِي فَاسْتَجِيبْ لَهُ» وَنَحْنُ لَا نَسْمَعُ هَذَا الْقَوْلَ، فَنَقُولُ: أَخْبَرْنَا بِهِ مَنْ قَوْلُهُ عِنْدَنَا أَشَدُّ يَقِينًا مِنْ لَوْ سَمِعْنَا، وَهُوَ الرِّسُولُ ﷺ، نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ بِخَبَرِ أَصْدَقِ الْخَلْقِ ﷺ وَنَحْنُ لَوْ سَمِعْنَا قَوْلًا لَظَنَّا أَنَّهُ وَجِبَةُ شَيْءٍ سَقَطَ، أَوْ حَفِيفُ أَشْجَارٍ مِنْ رِيَّاحٍ، فَتَقُولُ فِيهَا نَسْمَعُ، لَكِنْ مَا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّهُمْ فِيهِ، فَيَكُونُ

خبر الرسول ﷺ عندنا بمنزلة ما سمعناه بآذاننا، بل أشد يقيناً إذا صحَّ عنه، وهذا الحديث قد صحَّ عنه فهو متواترٌ أو مشهورٌ مستفيضٌ عند أهل السنة وقد رواه أكثر من ستين صحابياً عن الرسول ﷺ، فذلك نقول: إن الله يقول هذا فينبغي لك وأنت تهجدُ الله في هذا الزمن من الليل أن تشعرَ بأن الله ينادي، فيقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له، فتدعو الله تعالى وأنت موقن بهذا الدعاء، أن تقول: (يا رب).

❖ قوله: «مَنْ يَسْأَلُنِي» أن تقول: يا رب أسألك الجنة، الأول يا رب نداء، ويا رب أسألك الجنة: سؤال، وإذا اجتمع في قول القائل: يا رب أسألك الجنة، الدعاء والسؤال. ❖ قوله: «فَاغْفِرْ لَهُ» يا رب اغفر لي، هذا استغفار.

إذا قال القائل: اللهم إني أسألك الجنة، ففيه سؤال ودعاء، فالدعاء في (اللهم)، لأن اللهم أصلها يا الله، فإذا فيها دعاء، (أسألك الجنة) هذا سؤال.

وفي حديث أبي بكر الذي علمه إياه النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» فهذا متضمن للثلاثة، الدعاء «اللهم» والاستغفار: «فاغفر لي». الدعاء «ارحمني».

❖ قوله: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ» «مَنْ» اسم استفهام والمراد به: التشويق، ليس المراد به الاستخبار؛ لأن الله يعلم ﷻ، لكن المراد به التشويق، يشوق ﷻ عباده أن يسألوه وأن يدعوه، وأن يستغفروه، وفي هذا غاية الكرم والجود من الله ﷻ، أنه هو الذي يشوق عباده إلى سؤاله ودعائه ومغفرته، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرٍ مُسْتَجِرٍّ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ۖ﴾ [القصص: ١٠]. انظر إلى هذا الخطاب الرفيق الرقيق، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرٍ مُسْتَجِرٍّ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ۖ﴾.

ففيه التشويق والرفق والركة، ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرٍ مُسْتَجِرٍّ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ۖ﴾، ولم يقل: يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ما قال هكذا، وإن كان قالها في آية أخرى، لكن في هذه الآية ما قالها؛ لأن المقام يقتضي ذلك، فالصورُ كُلُّها صورة جهادٍ من أولها إلى آخرها، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا﴾ [القصص: ٤]. وآخرها ﴿فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عِدْوِهِمْ فَإِصْبُوا ۚ لَظَهَرَنَ﴾ [القصص: ١٤].

المهم: أن في هذا الحديث وأمثاله من كرم الله ﷻ ما هو ظاهر لمن تأمله، وأهم شيء فيها

تكلمنا عليه في مسألة الصفات، فأنا أكرر أن تلتزموا فيها ما التزمه السلف، وألا تحيدوا يميناً ولا شمالاً، ولا تسألوا عما لم يسأله السلف، أما ما لم يسأل عنه السلف فهذا من التنطع والتكلف والابتداع في دين الله، وإني أقول لكم: إن الإنسان كلما تعمق في مثل هذه الأمور فأخشي أن ينقص في قلبه من إجلال الله وتعظيمه بقدر ما نقص من هذا التعمق في البحث في هذه الأمور.

واسأل العامي: العامي إذا ذكر الله عنده اقشعر جلده، وإذا ذكرت نزوله إلى السماء الدنيا يقشعر جلده، لكن أولئك الذين يتعمقون في الصفات ويحاولون أن يسألوا حتى عن الأظافر نسأل الله لنا ولهم الهداية.

هؤلاء بلا شك سينقص من إجلال الله ﷻ في قلوبهم بقدر ما حاولوا التعمق في هذه الأمور، وليس إجلالنا لله ﷻ كإجلال الصحابة، ولا قريباً منه ولا حرصنا على العلم بصفات الله كحرص الصحابة، وهم ما سألوا هذه الأسئلة، ولذلك أنصحكم الله وأرجو منكم ألا تتعمقوا في هذه الأمور، خذوا ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واتركوا ما عدا ذلك؛ لئلا يوقعكم الشيطان في أمر تعجزون عن التخلص منه، قد يوقعكم في التمثيل ويلزمكم إلزاماً بأن تعتقدوا ذلك نسأل أن يحمينا وإياكم من ذلك؛ لأن الإنسان الذي يتعمق إلى هذا الحد يخشى عليه، خذوا ما جاء في الكتاب وفي صحيح السنة واحمدوا الله على العافية واسلكوا سبيل السابقين.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥ - باب الدعاء عند الخلاء

٦٣٢٢ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَرَفَةَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صَهْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ»^(١)

❁ قوله: «باب الدعاء عند الخلاء» أي عند إرادة الدخول. ذكر فيه حديث أنس وقد تقدم شرحه في كتاب الطهارة، وفيه ذكر من رواه بلفظ: «إذا أراد أن يدخل».

❁ قوله: «إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ» قال العلماء معناه: إذا أراد دخوله وأن الرسول ﷺ يقول

هذا الذكر قبل أن يدخل والخبث: الشر، والخبائث: النفوس الشريرة، جمع خبيثة، ومناسبة التعوذ بالله من الخبث والخبائث هنا؛ لأن المكان مكان خبيث، معد للقضاء الحاجة. قال أهل العلم: وإذا كان الإنسان في البر فيقول هذا الذكر إذا أراد الجلوس؛ يعني: عند المكان الذي يريد أن يقضي حاجته فيه.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

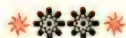
١٦ - باب مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ.

٦٣٢٣ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ بُشَيْرِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَرْبُؤُكَ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَرْبُؤُكَ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ. إِذَا قَالَ حِينَ يُمَسِّي فَمَاتَ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ - أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ - وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلُهُ».

٦٣٢٤ - حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ جَرَّاشٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ قَالَ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَمَائِهِ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

٦٣٢٥ - حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ جَرَّاشٍ، عَنْ خُرَاشَةَ ابْنِ الْحَرِّ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»^(١).

[٦٢٢٥ - طرفه في: ٧٣٩٥]



(١) أخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

١٧ - بَابُ الدَّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ

٦٣٢٦ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا النَّبِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلَّمَنِي دُعَاءَ أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١).

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ: عَنْ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

٦٣٢٧ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ سَعِيرٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُ بِهَا ﷺ أَنْزَلَتْ فِي الدَّعَاءِ.

٦٣٢٨ - حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: كُنَّا نَقُولُ فِي الصَّلَاةِ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَى فَلَانٍ؛ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ؛ فَإِذَا قَعَدَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلْ: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ» إِلَى قَوْلِهِ: «الصَّالِحِينَ» فَإِذَا قَالَهَا؛ أَصَابَ كُلُّ عَبْدٍ لِلَّهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ صَالِحٌ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الشَّيْءِ مَا شَاءَ»^(٢).

هذه الأحاديث في الدعاء في الصلاة، منها أحاديث أبي بكر عليه السلام حين سأل النبي ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته، ويتبين لنا فضيلة هذا الدعاء في أنه وقع السؤال عنه من أبي بكر عليه السلام والجواب من النبي ﷺ لأبي بكر، وإذا كان النبي ﷺ قال لمعاذ: «إني أحبك، فقل في دبر كل صلاة»^(٣) فإن محبة النبي ﷺ لأبي بكر أشد من محبته لمعاذ بن جبل؛ لأن أحب الرجال إلى الرسول ﷺ أبو بكر، فيدل هذا على عظمة هذا الدعاء.

وصيغة الدعاء أيضًا تدل على عظمته؛ فإن فيه أشياء متنوعة من الوسيلة.

❖ قوله: أولاً قوله: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا» هذا توسل إلى الله بحال الداعي، وهو من أنواع التوسل المشروع.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٢).

(٣) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وانظر: «صحيح أبي داود» (١٣٤٧).

❖ قوله: «ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت» هذا توسُّلٌ بصفاتِ الله ﷻ وأفعاله، وهو أيضًا أحد أنواع التوسُّلِ المشروعة.

❖ قوله: «فاغفر لي مغفرةً من عندك»، هذا هو المتوسِّلُ إليه؛ يعني الذي توسل الإنسان إلى الله بصفاته من أجل حصول المطلوب، يعني: هذا هو الثمرة المطلوبة، وفي إضافة المغفرة إلى الله دليل على عظمة هذه المغفرة وأنها مغفرة من عند صاحب المغفرة الذي لا يغفرُ الذنوبَ إلا هو ﷻ.

❖ قوله: «إنك أنت الغفور الرحيم» فيها أيضًا: توسل إلى الله تعالى بأسمائه وقد مرَّ علينا أن التوسُّلَ المشروع أنواع:

أولاً: التوسل بحال الداعي. **ثانيًا:** التوسل إلى الله بأسمائه.

ثالثًا: التوسل إلى الله بصفاته. **رابعًا:** التوسل إلى الله بأفعاله.

خامسًا: التوسل إلى الله ﷻ بدعاء الصالحين، يعني: أن تتوسل بدعاء الصالح، تسأله أن يدعو الله لك.

سادسًا: التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح.

التوسل إلى الله بحال الداعي مثل: «اللهم: إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا»، ومثل قول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢١) [التوبة: ٢٤]. ومن قول أيوب: ﴿إِنِّي مَسْفِيٌّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. وأشبه ذلك كثير.

التوسل إلى الله بأسمائه؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ومنها هذا الحديث: «إنك أنت الغفور الرحيم».

التوسل إلى الله بأفعاله: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم»^(١).
التوسل إلى الله تعالى بصفاته: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا علمت الحياة خيرًا لي»^(٢)، فإن علم الغيب والقدرة و الخلق هذه من باب الصفات.
التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين: كقول عمر: «اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

(٢) أخرجه النسائي (١٣٠٥) وفي «الكبرى» (١٢٢٩)، وأحمد (٢٦٤/٤).

فتسقيناه، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»^(١)، فيقوم العباسُ فيدعو الله، هذه من أنواع التوسل الجائز.

التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح: بأن يذكر الإنسان عمله فيتوسل إلى الله به مثل قول عباد الله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [التوبة: ١١٩٣]. ثم قال: ﴿رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾. وكذلك أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فتوسلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم^(٢).

أما التوسل إلى الله بالذوات مثل أن نقول: اللهم أتوسل إليك بمحمد، فإن هذا لا يُفيد، لأن ذات البشر ليست مما يُقرب الإنسان إلى الله، ولا تُغنيك شيئاً. كذلك التوسل إلى الله بأوصاف البشر مثل: أسألك بخلق محمد كذا وكذا، أسألك بجاه محمد كذا وكذا، فخلق وجاه محمد ماذا يُفيد، هذا يُفيد صاحبه، وما يفيدك أنت، نعم لو قلت: اللهم كما مننت على محمد بالخلق العظيم فارزقني خلقاً حسناً، فهذا يصح؛ لأنه توسل إلى الله بنعمة إليه على رسوله بهذا الخلق، وهي من التوسل إلى الله بأفعاله.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن الصحابة كانوا يقولون في الصلاة: السلام على الله، السلام على فلان فقال الرسول ﷺ: «إن الله هو السلام»^(٣)، فليس بحاجة أن تقولوا: السلام على الله تدعون الله بالسلامة، ليس بحاجة، لماذا؟ لأنه سلام، سالم من كل عيب ونقص السلام على فلان لم ينههم الرسول عنه لكنه أعلمهم ﷺ بدعاء أعم، فقال: «إنكم إذا قلتم عباد الله الصالحين أصاب كل عبد صالح في السماء والأرض»^(٤).

وفي هذا الحديث: دليل على أن الجمع إذا أُضيف يكون للعموم وأن للعموم صيغة خلافاً لمن خالف بذلك من الأصوليين.

❖ وفي قوله: «ثم يتخير من الثناء ما شاء» وفي لفظ «من الدعاء» وهذا نقل للحديث بالمعنى: لأن الدعاء ثناء على الله بلا شك، لأنه يتضمن حاجتك واعترافك بقدرة الله ﷻ.

(١) أخرجه البخاري (١٠١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢).

(٤) انظر التعليق السابق.

وغناه فهو ثناء، فالدعاء متضمن للثناء.

❦ وفي قوله: «ما شاء» دليل على أنه يجوز للإنسان أن يدعو الله تعالى في صلاته بما يعود إلى أمر الدنيا. فيقول: اللهم ارزقني سيارة قوية، اللهم ارزقني بيتا واسعاً، ولا حرج في ذلك. وأما قول من قال من أهل العلم: إنه إذا دعا بما يتعلق بأمور الدنيا بطلت صلاته فقول لا وجه له، ما الذي يُبطله؟! هو يخاطب الله، والصلاة يفسدها خطابُ الآدميين، أما دعاء الله فلا يفسدها والحديث عام.

ثم قال البخاري رحمه الله:

١٨ - باب الدعاء بعد الصلاة

٦٣٢٩ - حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا يَزِيدُ، أَخْبَرَنَا وَرْقَاءُ، عَنْ سُمَيٍّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنْيَةِ بِالدَّرَجَاتِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ قَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ قَالُوا: صَلَّوْا كَمَا صَلَّيْنَا وَجَاهَدُوا كَمَا جَاهَدْنَا وَأَنْفَقُوا مِنْ فُضُولِ أَمْوَالِهِمْ وَلَكِنِّي لَنَا أَمْوَالٌ قَالَ: أَفَلَا أَخْبِرْكُمْ بِأَمْرٍ تَذَرُكُمْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَتَسْقُونَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَأْتِي أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُمْ بِهِ إِلَّا مَنْ جَاءَ بِمِثْلِهِ تُسَبِّحُونَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَتُحَمِّدُونَ عَشْرًا وَتُكَبِّرُونَ عَشْرًا تَابِعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ عَنْ سُمَيٍّ وَرَوَاهُ ابْنُ عَجَلَانَ عَنْ سُمَيٍّ وَرَجَاءُ بْنُ حَيَوَةَ وَرَوَاهُ جَرِيرٌ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَرَوَاهُ سُهَيْلٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (١).

٦٣٣٠ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ الْمُسَيَّبِ بْنِ رَافِعٍ، عَنْ وَرَادٍ مَوْلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: «كَتَبَ الْمُغِيرَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ إِذَا سَلَّمَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ وَقَالَ شُعْبَةُ عَنْ مَنْصُورٍ قَالَ سَمِعْتُ الْمُسَيَّبَ» (٢).

(١) أخرجه مسلم (٥٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٣).

❦ قوله: «باب الدعاء بعد الصلاة» ولم يذكر حديثاً يدلُّ على ذلك بصريح الدعاء، فإما أن يكونَ قد أشار إلى حديثٍ ليس على شرطه كما يفعل ذلك كثيراً، ويكتب الترجمة، وينسوق الأحاديثَ وليس فيها شيءٌ يدلُّ على الترجمة، لكنه يُشير إلى أحاديثٍ وردت بها تدلُّ عليه الترجمة لكنها ليست على شرطه، وهذا من فقهه رَحِمَهُ اللهُ ومن نصحه أيضاً.

من فقهه من أجل أن الإنسان يبحثُ عن الأحاديثِ التي أشارت إليها هذه الترجمة. ومن نصحه: لئلاً يُغفلَ ما تدل عليه هذه الأحاديث وإن كانت على خلاف شرطه أو وإن لم تكن على شرطه.

ويحتمل أن المؤلفَ رَحِمَهُ اللهُ جعل الذكرَ دُعاءً؛ لأن الذكرَ إنما يرجو بذكره ثوابَ اللهِ والنجاةَ من عقابه وحينئذ يكونُ الذكرُ دعاءً من باب دلالة اللزوم دون المطابقة والتضمن؛ لأن من لازم الذكرِ الدعاء، إذ أن الذكرَ لو سألته ماذا دعوت لقال: أرجو ثوابَ اللهِ وأخشى عقابه فهذا احتمالان.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على أن من صفاتِ الذكرِ الواردة بعد الصلاة: أن يُسبِّحَ عشرًا ويُكَبِّرَ عشرًا ويحمدَ عشرًا، وقد ثبت ذلك في صحيح مسلم.

وأما هذا الحديث فاختلف فيه الرواة، ولهذا بعض العلماء لم يُصحح هذه الرواية، ولكن قد صحَّت روايةٌ مستقلةٌ عن النبي ﷺ في مسلمٍ بالتسبيحِ عشرًا، والتحميدِ عشرًا، والتكبيرِ عشرًا، وهذه إحدى الصفات الواردة في الذكر.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على حرصِ الصحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على المسابقةِ إلى الخيرِ.

وفيه: دليلٌ على الغبطةِ في الأعمالِ الصالحةِ وأن هذا ليس من بابِ الحسدِ لكن من بابِ الغبطةِ حيث سبق الأغنياءُ الفقراءَ.

وفي الحديث الثاني: كان الرسول ﷺ يقول دُبر كل صلاةٍ إذا سلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ» وهذا سبق الكلام على معناه.

❦ قوله: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ» هذا ثناءٌ على الله ﷻ بتمامِ سلطانه وأنه لا مانعَ لما أعطى. ولا مُعطيَ لما منع. وتأمَّ قهره بأنه لا ينفعُ ذا الجَدِّ منه الجد، يمنع هنا ضمنت معنى يمنع، يعني لا يمنعُ صاحبُ الجَدِّ منك جدُّه، والجَدُّ هو الغنى والحظ، فصاحبُ الغنى والحظ لا يمنعه حظه ولا غناه من الله شيئاً،

إذا أراد الله به سوءاً فلا مردّ له.

هذا الشاء على الله يتضمن دعاء، كأنك تقول: اللهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت، فأعطني ولا تحرمني «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» فلا تجعل لأحدٍ عليّ سلطاناً من ذوي الحظوظ والغنى.

ثم قال البخاري رحمه الله:

١٩ - باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٣]. وَمَنْ خَصَّ أَخَاهُ بِالْدُّعَاءِ دُونَ نَفْسِهِ وَقَالَ أَبُو مُوسَى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدِ أَبِي عَامِرٍ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ»
«باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾» [البقرة: ١٠٣]. يعني: ادع لهم.
فإذا قال قائل: لماذا حملتم الصلاة هنا على الدعاء والمعروف أن الألفاظ الشرعية تُحمل على الحقائق الشرعية؟

فالجواب على هذا: أن الرسول ﷺ بين ذلك بفعله؛ لأن الله قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ فكان إذا جاءه قومٌ بزكاتهم، قال: «اللهم صلّ عليهم»^(١)، فدلّ هذا على أن المراد بالصلاة هنا الدعاء.

❁ قوله: «ومن خصّ أخاه بالدعاء دون نفسه» يعني: هل يجوز أو لا يجوز؟
واستدل المؤلف بقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدِ أَبِي عَامِرٍ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ» بجواز تخصيص أخيه بالدعاء دون نفسه، يعني: يجوز أن تدعو لشخص ولا تدعو لنفسك.

٦٣٣١ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ مَوْلَى سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَيَا عَامِرٌ لَوْ أَسْمَعْتَنَا مِنْ هُنَيْئَاتِكَ، فَنَزَلَ يَحْدُو بِهِمْ يُذَكِّرُ «تَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا» وَذَكَرَ شِعْرًا غَيْرَ هَذَا وَلَكِنِّي لَمْ أَحْفَظْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ هَذَا السَّائِقُ قَالُوا عَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ قَالَ: يَرْحَمُهُ اللَّهُ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ لَا مَتَعْتَنَابِهِ فَلَمَّا صَافَ الْقَوْمُ قَاتَلُوهُمْ، فَأُصِيبَ عَامِرٌ بِقَائِمَةٍ سَيْفٍ نَفْسِهِ فَمَاتَ، فَلَمَّا أَمْسُوا أَوْقَدُوا نَارًا كَثِيرَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا هَذِهِ النَّارُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ

تَوَقِدُونَ قَالُوا: عَلَى حُمْرٍ إِنْسِيَّةٍ، فَقَالَ: أَهْرِيقُوا مَا فِيهَا وَكَسِّرُوهَا، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَهْرِيقُ مَا فِيهَا وَنَغْسِلُهَا قَالَ: «أَوْ ذَاكَ»^(١).

الشاهد من هذا قوله: «يَرْحُمُهُ اللَّهُ» وقولهم: «لَوْلَا مَتَّعْتَابِيهِ»، لأنه لما دعا له الرسول ﷺ بهذه الدعوة، فهموا أن الرجل سيموت -لما دعا له بالرحمة- لأنه كان إذا دعا لأحد بمثل هذا، فهو علامة أجله.

وفي هذا الحديث: دليل على أن من قتل نفسه خطأ فإنه لا إثم عليه؛ لأن الناس صاروا يقولون: بطل أجر عامر بطل أجر عامر، لأنه قتل نفسه فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: كذبوا، بل له الأجر مرتين. إنه لجاهد مجاهد، فأبطل قولهم ﷺ.

وفي هذا الحديث: دليل على أن الحمر الإنسية حرام وعلى أنها نجسة؛ لأن النبي ﷺ أمر بغسل الأواني منها، وكان أول ما أمر أن أمر بكسر الأواني وذلك والله أعلم تعزيراً لهم؛ لأن الحمر كانت حُرِّمَتْ ولكنهم لعلهم لما رأوا ما بهم من الفاقة والجوع أقدموا على ذلك فقال لهم النبي ﷺ «أَهْرِيقُوا مَا فِيهَا وَكَسِّرُوهَا» فسألوه أن يقتصروا على الغسل فأذن لهم في ذلك فقال: «أَوْ ذَاكَ».

ثم قال البخاري رحمه الله:

٦٣٣٢ - حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةٍ، سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا آتَاهُ رَجُلٌ بِصِدْقَةٍ قَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ فَأَتَاهُ أَبِي فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»^(١).

٦٣٣٣ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانٌ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ جَرِيرًا قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا تُرِجِنِي مِنْ ذِي الْخَلَصَةِ - وَهُوَ نَصَبٌ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ يُسَمَّى الْكَعْبَةَ الْبَيَانِيَّةَ - قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَجُلٌ لَا أَتُبُّ عَلَى الْخَيْلِ فَصَكَّ فِي صَدْرِي فَقَالَ: اللَّهُمَّ تَبَّهْ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًا قَالَ: فَخَرَجْتُ فِي خَمْسِينَ مِنْ أَخْمَسَ مِنْ قَوْمِي - وَرُبَّمَا

(١) أخرجه مسلم (١٨٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٧٩م).

قَالَ سُفْيَانُ: فَأَنْطَلَقْتُ فِي عَصَبَةٍ مِنْ قَوْمِي - فَأَتَيْتُهَا فَأَحْرَقْتُهَا، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى تَرَكْتُهَا مِثْلَ الْجَمَلِ الْأَجْرَبِ فَدَعَا لِأَحْمَسَ وَخَيْلَهَا^(١).

هذا فيه أيضًا: الدعاء للشخص بدون أن يدعو الإنسان لنفسه، حيث قال الرسول ﷺ: «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًا» هاديًا للناس مهديًا من قبلك؛ لأنه ليس كل هادي يكون مهديًا، قد يكون الإنسان هاديًا لكنه ضالٌّ والعياذ بالله كما قال: تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْتَدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ٢٣]. وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْتُمُونَ إِلَى الْكَارِ﴾ [التوبة: ٤١]. فالهادي إذا لم يكن مهديًا، فقد تكون هدايته شرًا عليه وعلى غيره.

وفي هذا أيضًا: دليل على أن الإنسان قديمًا مباركًا على قومه يؤخذ من قوله: «فَدَعَا لِأَحْمَسَ وَخَيْلَهَا» وهو كذلك، فإن الله تعالى قد يرفع القبيلة بشخص واحد منها، يكون مشهورًا بالكرم أو مشهورًا بالشجاعة أو مشهورًا بالعلم أو ما أشبه ذلك فيرفع الله به قبيلته.

ثم قال البخاري رحمه الله:

٦٣٤ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ الرَّبِيعِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «سَمِعْتُ أَنَسًا قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَنْسَ خَادِمُكَ قَالَ: اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ»^(١).
٦٣٥ - حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يَقْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً أَسْقَطْتُهَا فِي سُورَةِ كَذَا وَكَذَا»^(٢).

هذا أيضًا فيه: الدعاء للشخص.

وفيه أيضًا: مكافأة الإنسان الذي يُحسن إليك بالدعاء.

وفيه: أن الإنسان قد يثاب على العمل الصالح وإن لم يقصد ذلك؛ لأن هذا الرجل الذي كان يقرأ ما كان يريد أن يُذَكِّرَ النبي ﷺ بما أسقط من الآيات ولكن حصل هذا الشيء بفعله، فيكون الإنسان مأجورًا بعمله الذي انتفع به غيره وإن يكن قاصدًا ذلك، وعليه يقول العامة:

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (٦٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٧٨٨).

إن الإنسان يؤجر غضباً عليه، يعني: أن الإنسان قد لا يكون في باله هذا الشيء، ثم ينتفع به الناس فيحصل له الأجر.

٦٣٣٦- حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ أَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَسَمًا فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لِقَسْمَةٌ مَا أُرِيدُ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَغَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»^(١).

الشاهد قوله: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرٍ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ» و«يَرْحَمُ» هنا جملة خبرية لفظاً لكنها إنشائية المعنى، إذ أن المراد بها الدعاء ومن هنا نأخذ أنه لا بأس أن تقول: يرحم الله فلاناً، أو رحم الله فلاناً، أو فلاناً مرحوم، يعني: أن الذي يُرجى أن يكون الله رحمه، وليس هذا باب الخبر المجزوم؛ به لأن الإنسان ما يدري لكنه من باب الخبر الذي يُراد به الإنشاء والرجاء.

ثم قال البخاري رحمه الله:

٢٠- باب ما يُكره من السَّجْعِ فِي الدَّعَاءِ

٦٣٣٧- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ السَّكَنِ، حَدَّثَنَا حَبَّانُ بْنُ هِلَالٍ أَبُو حَبِيبٍ، حَدَّثَنَا هَارُونُ الْمُقَرِّي، حَدَّثَنَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْخَرِيتِ، عَنْ عِكْرِمَةَ «عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً فَإِنْ آبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَلثَلَاثَ مِرَاتٍ وَلَا تُبَلِّغِ النَّاسَ هَذَا الْقُرْآنَ وَلَا الْفَيْنَكَ تَأْتِي الْقَوْمَ وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ فَتَقْصُ عَلَيْهِمْ، فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فَمَلُّهُمْ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ فَإِذَا أَمْرُكَ فَحَدِّثْهُمْ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ، فَاَنْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدَّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ الْاجْتِنَابَ».

هذه وصايا من ابن عباس رضي الله عنهما، وصايا مهمة.

❖ أولاً قوله: «حَدَّثَ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً - هذه واحدة - فَإِنْ آبَيْتَ فَمَرَّتَيْنِ فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَلثَلَاثَ مِرَاتٍ»، ولكن المراد بهذا حديث الموعظة الذي يقصد به تحريك القلوب والوعظ، أما العلم فيكون كل وقت، ولهذا كان الرسول ﷺ يجلس لأصحابه دائماً، لكن يتخولهم بالموعظة التي يُراد بها ترقيق القلب والحث على الإقبال.

❖ قوله: «وَلَا تُمِلَّ النَّاسَ هَذَا الْقُرْآنَ» ومن هذا النوع أن تقرأ في مجالس وترى الناس لا يريدون هذا، ولا تتهم الناس بالنفاق وإذا رأيتهم لا يريدون القراءة؛ لأن النفوس تختلف، لها إقبال ولها إدبار، فإذا رأيت أن الناس يريدون أن يتحدثوا بأحاديثهم العادية المباحة، وإنك لو قرأت عليهم شيئاً من القرآن أو شيئاً من الحديث لملأوا وضجروا.

❖ قوله: «وَلَا أُلْفِيَنَّكَ - يعني: لا أجدنك - تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فتملهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم»، هذا أيضاً من الآداب، تأتي إلى أناس يتحدثون فيما بينهم أحاديث مباحة، ثم تأتي فتقول: يا جماعة استمعوا: أريد أن أعظكم، هذا لا ينبغي؛ يعني: قد لا يكونون على استعداد لقبول الموعظة وأيضاً تقطع عليهم أحاديثهم، ولكن أنصت فإن أمروك وقالوا: حدثنا، عظمنا جزاك الله خيراً وما أشبه ذلك فحدث؛ لأن الأمر جاء منهم، وكذلك لو رأينا شيئاً محرماً، لأبد من التنبيه عليه، فحدثهم، وأما أن ترى شيئاً مباحاً والناس مشتغلون، كل يتحدث بما يختص به، وربما لا يحصل لهم تقابل إلا في هذه المناسبة، فيحدث بعضهم بعضاً ويسأله عن حاله، فتأتي أنت وتقوم وتقص عليهم، فتقطع أحاديثهم وتملهم، هذا لا ينبغي، لكن إذا طلبوا منك قالوا: حدثنا، حدثهم، أو إذا رأيت أمراً منكراً فلا يجوز السكوت عليه، حدثهم وحذرهم منه، وهذا لا شك أنه من التربية، التربية العظيمة، لأن الإنسان يجب عليه أن يكون مربيًا كما يكون عالمًا، ليس العلم كل شيء، العلم يحتاج إلى تربية وإلى أن يعرف الإنسان استعداد الناس للقبول وعدمه، فلا يثقل عليهم ولا يملهم؛ لأنه إذا حصل شيء فيه ملل صاروا يكرهون هذا الشخص نفسه حتى إنهم إذا جاءوا إلى مجلس أو اجتماع وجاء فلان قالوا: أعاننا الله عليه، مع أنه يقول لهم كلاماً طيباً موعظة، ولكنهم ليسوا على استعداد لهذا الشيء، وقد يسمع منهم كلام مكره في نفس المكان وربما يتشاغلون بأحاديث يضايقون هذا الذي يتحدث، يضحكون وما أشبه ذلك؛ إغاضة له، فالإنسان ينبغي أن يكون عنده حكمة، يختار الموضوع المناسب والوقت المناسب ليتحدث فيه.

❖ قوله: «وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ فَاَنْظُرِ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ» هذا أيضاً من توجيهات ابن عباس رضي الله عنه وقال إن الرسول ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك، ولكن الحقيقة أن السجع ينقسم إلى قسمين:

* سَجْعٌ مُتَكَلِّفٌ رَبِّمَا يَتَغَيَّرُ بِهِ الْمَعْنَى فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مَذْمُومٌ.

* وَسَجْعٌ تَأْتِي بِهِ الطَّبِيعَةُ غَيْرُ مُتَكَلِّفٍ وَلَا يَخْتَلُّ بِهِ الْمَعْنَى فَهَذَا جَائِزٌ.

وكان الرسول ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دَقَّهْ وَجَلَّهْ عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ»^(١) هذا فيه سجعٌ لكنه ليس مُتَكَلِّفًا. ومن هنا نأخذُ أن ما يكون في بعض الختمات التي يختمون بها القرآن - بعض الأئمة - من الأسجاع العجيبة الطويلة الغريبة التي تحمل أحيانًا معانٍ غير صحيحة، نعرفُ أن هذا أمرٌ على خلافٍ ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، هذا فضلًا عن أن أصل الختمة في الصلاة ليست بمشروعة وليس لها أصل، وكلُّ شيءٍ يأتي في الصلاة لابد أن يكون له أصل، فهو يحتاج إلى دليل؛ لأن الصلاة أذكراها معروفة معلومة ومعينة من قبل الشرع، والقيام له ذكر، والركوع له ذكر، والسجود له ذكر، والقعود له ذكر فأبي ذكر يُدخل في الصلاة بدون دليل فإنه يُعْتَبَر غير مشروع.

قال الحافظ رحمه الله في «الفتح» (١٣٩/١١):

❦ قوله: «لا يفعلون إلا ذلك». أي: تركُ السجع. ووقع عند الإسماعيلي، عن القاسم بن زكريا، عن يحيى بن محمد شيخ البخاري بسنده فيه «لا يفعلون ذلك» بإسقاطٍ إلا، وهو واضح، وكذا أخرجه البزار في «مسنده» عن يحيى والطبراني عن البزار، ولا يردُّ على ذلك ما وقع في الأحاديث الصحيحة؛ لأن ذلك كان يصدُّر من غير قصدٍ إليه، ولأجل هذا يأتي في غاية الانسجام، كقوله ﷺ في الجهاد: «اللَّهُمَّ مَنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، هَازِمَ الْأَحْزَابِ»، وكقوله ﷺ: «صدق وعده، وأعزَّ جنده». الحديث، وكقوله: «أعوذ بك من عين لا تدمع، ونفس لا تشبع، وقلب لا يخشع». وكلُّها صحيحة، قال الغزالي: المكروه من السجع هو المتكلف؛ لأنه لا يلائم الضراعة والذلة، وإلا ففي الأدعية كلمات متوازية لكنها غير متكلفة، قال الأزهري: وإنما كرهه ﷺ لمشاكلته كلام الكهنة كما في قصة المرأة من هذيل. وقال أبو زيد وغيره: أصل السجع قصدُ المستوي، سواء كان في الكلام أم غيره. اهـ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١- بَابُ لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُكْرَهَ لَهُ.

٦٣٣٨- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلَا يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إِنِّي شِئْتُ فَأَعْطِنِي. فَإِنَّهُ لَا مُسْتَكْرَهَ لَهُ»^(١).

[الحديث ٦٣٣٨ - طرفه في: ٧٤٦٤].

٦٣٣٩- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتُ. لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُسْتَكْرَهَ لَهُ»^(٢).

[الحديث ٦٣٣٩ - طرفه في: ٧٤٧٧]

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: بَابُ لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةَ. يعني: لِيَعْزِمَ الدُّعَاءَ؛ فالمسألة يعني: سؤال الله ودعائه، يعني: يَعْزِمُ فِيهِ وَلَا يُقَيِّدُهُ، فيقول مثلاً: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي، اللَّهُمَّ اجْبُرْنِي، وهكذا، وَلَا يَقُلْ: إِنْ شِئْتُ؛ لأنَّ قَوْلَهُ: إِنْ شِئْتُ. يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةً مُحَاذِيرَ:

أولاً: يُؤْهِمُ بَأْنَ اللَّهِ لَهُ مِنْ يُكْرِهُهُ عَلَى الشَّيْءِ، كَمَا أَقُولُ: إِنْ شِئْتُ فَافْعَلْ وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَفْعَلْ إِذَا أُكْرِهْتَ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ فِي الْحَدِيثِ: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرَهَ لَهُ». وَلَا يُقَالُ: إِنْ شِئْتَ. إِلَّا لِإِنْسَانٍ لَهُ أَحَدٌ فَوْقَهُ يُكْرِهُهُ.

ثانياً: أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَعَاطَمُ هَذَا الشَّيْءَ أَنْ يُعْطِيَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي لَفْظِ آخَرَ: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»^(٣). وَأَنْتَ إِذَا قُلْتَ: إِنْ شِئْتُ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ تَتَعَاطَمُ هَذَا الشَّيْءَ، وَأَنَّ هَذَا قَدْ يَكُونُ عَظِيماً عَلَى اللَّهِ فَلَا يُعْطِيكَ إِيَّاهُ.

الثالث من المحظورات: أَنَّهُ يُنْبِئُ عَنْ اسْتِغْنَاءِ الْإِنْسَانِ وَعَدَمِ مِبَالَاتِهِ إِنْ حَصَلَ أَمْ لَمْ يَحْصَلْ، كَمَا تَقُولُ مَثَلًا لِشَخْصٍ مِنَ النَّاسِ: إِنْ كَانَ وَدُّكَ تُعْطِينِي كَذَا وَكَذَا، يَعْنِي وَإِلَّا فَأَنَا فِي

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٨).

(٣) انظر التعليق السابق.

غَنَى عَنْهُ. فَأَنْتَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ؛ يَعْنِي: إِنْ شِئْتَ اغْفِرْ لِي فَذَاكَ، وَإِنْ لَمْ تَشَأْ فَلَا يَهُمُّ. **وهذا نقول:** في هذا ثلاثة محاذير، إثنان دَلَّ عليها الحديث، وثالثٌ يُؤَخِّدُ مِنَ الْمَعْنَى. وإذا كان فيه هذه المحظورات الثلاثة فإنه يَكُونُ حَرَامًا، فَيَكُونُ الْأَمْرُ قَوْلِهِ: فَلْيَعِزِّمْ لِلْجَوَابِ، وَالنَّهْيُ فِي قَوْلِهِ: «لَا يَقُولَنَّ». لِلتَّحْرِيمِ.

فإن قلت: إنه قد جاء في رقية المريض أن الرسول ﷺ كان يَقُولُ للمريض: «لا بأسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(١). فهل يُعَارِضُ هذا الحديث؟

فالجواب: لا يُعَارِضُهُ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يُحْمَلَ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُقَالَ: إِنْ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: «لا بأسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». أَنْ يُرَادَ بِهِ الْخَبَرُ؛ يَعْنِي: أَقُولُ: طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَجْزِمَ بِشَيْءٍ مِنْ فِعْلٍ غَيْرِهِ إِلَّا مُقَيَّدًا بِالْمَشِئَةِ، هَذِهِ وَاحِدَةٌ. **ثانيًا:** أَوْ نَقُولُ: إِنْ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ». التَّبَرُّكُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ التَّعْلِيقُ.

ثالثًا: أَنْ نَقُولَ أَيْضًا: صَوْرَةُ قَوْلِ الْقَائِلِ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. لَيْسَتْ كَصَوْرَةِ قَوْلِهِ: إِنْ شِئْتَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «إِنْ شِئْتَ». صَرِيحٌ فِي الْمَخَاطَبَةِ، فَفِيهِ نَوْعٌ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ فَيَكُونُ الْجَوَابُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٢ - بَابُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَعْجَلْ.

٦٣٤٠ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ مَوْلَى ابْنِ أَزْهَرَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»^(١).

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ». هَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ يُعْطَى مَا سَأَلَ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ يُعْطَى أَحَدٌ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ؟

الجواب: الثاني؛ بِمَعْنَى: أَنَّ الدَّاعِيَ إِذَا دَعَا بِإِخْلَاصٍ، وَعَلَى حَسَبِ الشَّرْطِ الْأَرْبَعَةِ

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٥).

السَّابِقَةَ حَصَلَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ أُمُورِ ثَلَاثَةٍ: إِمَّا أَنْ يُعْطَى مَا سَأَلَ بِعَيْنِهِ، وَإِمَّا أَنْ يُصَرَّفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مَا هُوَ أَعْظَمُ، وَإِمَّا أَنْ تُدَخَّرَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا بَدَّ.

فَإِذَا عَجَلَ فَإِنَّهُ لَا يُسْتَجَابُ لَهُ؛ يَعْنِي: يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي. فَإِذَا قَالَ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي. فَإِنَّهُ سَوْفَ يَسْتَحْسِرُ وَيَدْعُ الدَّعَاءَ، وَحِينَئِذٍ لَا يَحْصُلُ لَهُ مَطْلُوبٌ، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا مِنْ بَعْضِ النَّاسِ، وَيَقُولُ: أَنَا مِثْلًا فِي كَذَا وَكَذَا فَتَقُولُ لَهُ: ادْعُ اللَّهَ. يَقُولُ: يَا أَخِي دَعَوْتُ كَثِيرًا. هَذَا غَلَطٌ، هَذَا حَرَمَانٌ مِنَ الْإِجَابَةِ، فَتَقُولُ: ادْعُ اللَّهَ، وَادْعُ اللَّهَ رَبِّهَا يَكُونُ عَدَمُ سُرْعَةِ الْإِجَابَةِ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُكَثِّرَ مِنَ الدَّعَاءِ، وَكَلِمَا أَكْثَرَتْ مِنَ الدَّعَاءِ أَزْدَدَتْ رِفْعَةً عِنْدَ اللَّهِ، لِأَنَّ الدَّعَاءَ عِبَادَةً وَفِي النِّهَايَةِ سَوْفَ يُسْتَجِيبُ اللَّهُ لَكَ.



ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٣- بَابُ رَفْعِ الْأَيْدِي فِي الدَّعَاءِ.

وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: دَعَا النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ. وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ بِمَا صَنَعَ خَالِدٌ».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَقَالَ الْأَوْسِيُّ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، وَشَرِيكَ سَمِعَا أَنَسًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ ^(١).

قَالَ الْمُؤَلَّفُ: بَابُ رَفْعِ الْأَيْدِي فِي الدَّعَاءِ. وَلَمْ يَجْزِمْ بِحُكْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ فِيهَا مُخْتَلَفٌ، فَأَوَّلًا نَقُولُ: الْأَصْلُ أَنَّ رَفْعَ الْيَدَيْنِ فِي الدَّعَاءِ مِنْ آدَابِ الدَّعَاءِ، وَمِنْ أَسْبَابِ الْإِجَابَةِ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا» ^(٢).

ثَانِيًا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ ^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٨٩٥).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (١٤٨٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٥٥٦)، وَابْنُ حِبَانَ (٨٧٦).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٠١٥).

ثالثاً: أن هذه الهيئة تدلُّ على قوة التضرع إلى الله ﷻ، وأن الداعي يمدُّ يديه إليه مدَّ المتضرع المستقيم الذي يَرْجُو من ربه ﷻ أن يَمْلَأَ هذه الأيدي بالخير والقبول، فهذه أدلة ثلاثة، دليلان أثريان، ودليل نظريُّ على أن الأصل في رفع اليدين في الدعاء هو المشروع. لكن أحياناً يكون الأصل، أو يكون المشروع خلاف ذلك؛ أي: عدم رفع الأيدي في الدعاء، وبالتبع لهذه المسألة وجدنا أن المسألة لها أربع حالات:

الحالة الأولى: ما ثبت فيه الرفع عن النبي ﷺ وهذا يكون مشروعاً من وجهين: الوجه الأول: أن الأصل في الدعاء مشروعية رفع اليدين، والوجه الثاني: المشروعية الخاصة بهذا الدعاء، وذلك كرفع النبي ﷺ يديه في الاستسقاء والاستصحاء في خطبة الجمعة، فأما الاستسقاء فقد ثبت أنه ﷺ رفع يديه وقال: «اللهم اغثنا»^(١). وأما في الاستصحاء فقد ثبت أنه رفع يديه وقال: «اللهم حوالينا»^(٢) وكرفع النبي ﷺ يديه على الصفا وعلى المروة^(٣)، وكرفع النبي ﷺ يديه في موقف عرفة، وفي موقف مزدلفة، وفي موقف الجمرات^(٤)، وهذا كثير، قد ذكر المؤلف منها شيئاً.

إذاً هذه الحالة الأولى: وهي ما ثبت فيها الرفع فيكون الرفع فيها مشروعاً من وجهين: الوجه الأول: العموم، والوجه الثاني: الخصوص.

الثاني: ما ثبت فيه عدم الرفع، وذلك في الدعاء يوم الجمعة في الخطبة في غير الاستسقاء والاستصحاء، ودليل ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم أنكروا على بشر بن مروان لما رفع يديه في الدعاء في الخطبة يوم الجمعة وقالوا: إن الرسول ﷺ لم يزد على الإشارة؛ يُشير بأصبعه هكذا^(٥)، ولكنه لا يرفع يديه في الدعاء، فهنا نقول: رفع الأيدي في الدعاء غير مشروع بل منهى عنه؛ لأن الصحابة أنكروا على بشر بن مروان رفع يديه في حال الدعاء في خطبة الجمعة.

الحالة الثالثة: الذي يكون الظاهر فيه عدم الرفع؛ يعني لا تجزئ بعدم الرفع ولا بالرفع، لكن

(١) أخرجه البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) التعليق السابق.

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٤) انظر التعليق السابق.

(٥) أخرجه مسلم (٨٧٤).

الظاهر عدمُ الرفع وقد يَقْوَى إلى أن يَصِلَ إلى قَرِيبِ اليقين، وقد يَضْعُفُ وذلك مثلُ الدعاءِ في الصلاة، فالصلاةُ فيها دعاءٌ في مواضع كثيرة، ففي الاستفتاح: اللهم باعدْ بيني وبين خطاياي... ^(١)، وفيها دعاءُ بين السجدةين: رَبِّ اغْفِرْ لي وارْحَمْنِي ^(٢)، وفيها دعاءٌ في التشهد: اللهم صلِّ على محمدٍ... ^(٣)، ولم يَرِدْ عن النبي ﷺ أنه كان يَرْفَعُ يديه، وهذا كاليقين إلا أنه وَرَدَ عنه الرفعُ في القنوتِ في النوازلِ وصَحَّ عن عمرَ أيضًا أنه رَفَعَ يديه في قنوتِ الوترِ، وَيَكُونُ هذا مستثنى من الدعاءِ في الصلاة، فإنها تُرْفَعُ فيه الأيدي، ومن ذلك؛ أي: من الذي الظاهرُ فيه عدمُ الرفع: الدعاءُ بعدَ السلام مثل الاستغفار: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ^(٤). ومثل: رَبِّ أَجِرْنِي مِنَ النَّارِ. سبعَ مراتٍ بعدَ المغربِ والفجرِ ^(٥)، فإن الظاهرَ فيها عدمُ الرفع. إذن هذا لا يُشْرَعُ فيه الرفع.

القسمُ الرابعُ: ما لم يَظْهَرْ فيه شيءٌ من ذلك لا الرَّفْعُ، ولا عدمُ الرَّفْعِ فالأصلُ فيه أن يرفعَ للدليلِ العامِّ وهو الرفعُ فالأصلُ فيه الرفعُ؛ لأنه من آدابِ الدعاءِ وهذا كسائرِ الأدعية، فمثلاً انتهى المؤذنُ من الآذانِ وأنتِ سَأَلْتَ اللَّهَ الوسيْلَةَ للرسولِ ﷺ ^(٦) ودَعَوْتَ اللَّهَ بما شِئْتَ هنا يُسَنُّ رَفْعُ اليَدِ؛ لأن الأصلَ في الدعاءِ مشروعِيَّةَ رفعِ اليدين.

فهذه أقسامُ أربعةٍ فيها يَتَعَلَّقُ برفعِ اليدين، ثم هذا الرفعُ هل يَكُونُ رَفْعًا مَبَالِغًا فيه، أو رَفْعًا سِيرًا إلى الصَّدْرِ أم ماذا؟

الجوابُ: يقولُ أصلُ العلم: إنه إذا بَالَعَ الإنسانُ في الابتِهَالِ فَيَنْبَغِي أن يَزِيدَ في الرفعِ، وَيَكُونُ رَفْعُ اليدينِ هنا مطابقًا لرفعِ القلبِ، والإنسانُ كلما اشْتَدَّ في الابتِهَالِ إلى اللَّهِ اشْتَدَّ ارتفاعُ قلبِهِ إلى اللَّهِ وتعلُّقه بِاللَّهِ، فإذا اشْتَدَّ الابتِهَالُ إلى اللَّهِ اشْتَدَّ الرفعُ، وهذا كما أنه هو الموافقُ للشرعِ فيما يَظْهَرُ فهو الموافقُ أيضًا للفترة، فإن الإنسانَ من شدَّةِ الابتِهَالِ أحيانًا يَحْرِصُ وكأنه يَريدُ أن يَنْتَزِعَ شيئًا من السماءِ فيكونُ في هذا رَفْعٌ مَبَالِغٌ.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

(٢) انظر «صحيح أبي داود» (٨٥٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

(٤) أخرجه مسلم (٥٩١).

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٥٢)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/١٠٩): «فيه محمد بن محض

العكاشي وهو متروك». اهـ

(٦) أخرجه مسلم (٣٨٤) من حيث أن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهل ما ثبت في «صحيح مسلم» من أن النبي ﷺ استسقى فرقع يديه وجعل ظهورهما نحو السماء^(١)، هل هذا من باب المبالغة، أو هو صفة لوضع اليدين، أو صفة لحال اليدين؟
الجواب: في هذا خلاف بين أهل العلم؛ فمن العلماء من قال: إن هذا من باب المبالغة في الرفع، وكأنه لما اشتد رفعه ﷺ كان ظهورهما صارت إلى السماء، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقال: إنه لا يُشرع أن الإنسان يقلب يديه عند الدعاء؛ لأن الإنسان مستجدي، والمستجدي ليس يقلب يديه على الظهر، وإنما يجعل يديه على البطن، لكن مع شدة الرفع يتخيل للرائي أن ظهورهما نحو السماء.

وقال بعض العلماء بظاهر الحديث، وأنه في الاستسقاء ينبغي أن يجعل ظهورهما نحو السماء، ثم عداه بعضهم إلى أوسع من ذلك، وقال: إن كان الدعاء بطلب حصول محبوب فبالطون، وإن كان بدفع مكروه فبالظهور، ولكن من يقول بهذه القاعدة؟! إلا إذا ثبت.
 فالحاصل: أن الصحيح في هذه المسألة: أن الدعاء ببطون الأكف، لكن يُبالغ فيهما عند الابتهاال وشدة التضرع إلى الله ﷻ.

ثم قال المؤلف رحمه الله: وقال أبو موسى الأشعري: دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه. ولماذا يقول: ورأيت بياض إبطيه؟

الجواب: أنه من المعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يلبسون الأزر والأردية، فغالبًا لا تظهر أيديهم، والذي يظهر من الجلد للشمس والهواء يكون أسود، والداخل يكون أبيض، والنبي ﷺ في ذلك كغيره بشر، يعتريه ما يعتري البشر من الأحوال الجسدية، فكان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه.

وقال أيضًا: قال ابن عمر: رفع النبي ﷺ يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». وذلك لأن خالدًا رضي الله عنه بعثه النبي ﷺ في سرية فلما نزل بالقوم جعلوا يقولون: صبانًا صبانًا. ففهم خالد رضي الله عنه أنهم يقولون كلمة الكفر فقتلهم، وهم يقولون: صبانًا صبانًا. يعني: دخلنا في الإسلام؛ لأن الصابئ في لغة العرب من خالف دين قومه، وقد كانوا على الكفر فإذا صباؤا من الكفر إلى الإسلام صاروا مسلمين، لكنهم لم يحسنوا التعبير، فلما بلغ ذلك

النَّبِيُّ ﷺ رفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»^(١). وهنا لم يَقُلْ: من خالد. بل قَالَ: «مما صنع». لأن الإنسان قد يُخْطِئُ في قضية من القضايا ولا يُوجِبُ ذلك سبّه والبراءة منه على كُلِّ حالٍ.

وفيه أيضًا: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وقال الأوسي: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ. وهذا كالحديثِ الأولِ المرويِّ عن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. **وكان قد قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ «الْمَغَازِي»:**

- بَابُ بَعَثِ النَّبِيِّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ

- حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ. وَحَدَّثَنِي نَعِيمٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزَّهْرِيِّ، عَنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا: أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَّأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ، وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِّنَّا أُسِيرَةً. حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مِّنَّا أُسِيرَةً، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أُسِيرِي وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِّنْ أَصْحَابِي أُسِيرَةً. حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ، مَرَّتَيْنِ»^(٢).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (٨/ ٥٧-٥٨):

❦ قَوْلُهُ: «بَابُ بَعَثِ النَّبِيِّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ». بَفَتْحِ الْجِيمِ وَكَسْرِ الْمَعْجَمَةِ ثُمَّ تَحْتَانِيَّةٍ سَاكِنَةٍ؛ أَي: ابْنِ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ صَفَاةَ بْنِ كِنَانَةَ. وَوَهُمُ الْكِرْمَانِيُّ فَظَنَّ أَنَّهُ مِّنْ بَنِي جَذِيمَةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ بَكْرِ بْنِ عَوْفِ قَبِيلَةٍ مِّنْ عَبْدِ قَيْسٍ، وَهَذَا الْبَعْثُ كَانَ عَقِبَ فَتْحِ مَكَّةَ فِي شَوَالٍ قَبْلَ الْخُرُوجِ إِلَى حَنِينٍ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ الْمَغَازِي، وَكَانُوا بِأَسْفَلِ مَكَّةَ مِنْ نَاحِيَةِ يَلْمَلَمَ.

قَالَ ابْنُ سَعْدٍ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ دَاعِيًا إِلَى الْإِسْلَامِ لَا مَقَاتِلًا.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٩).

(٢) انظر التعليق السابق.

❖ قوله: «حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ». هو ابنُ غِيْلَانَ، وقوله: «وَحَدَّثَنِي نَعِيمٌ». هو ابنُ حَمَادٍ، وعبدُ الله هو ابنُ المبارك، وعندَ الإِسْمَاعِيلِيِّ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السِّيَاقَ الَّذِي هُنَا لَفْظُ ابْنِ الْمُبَارَكِ.

❖ قوله: «بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ». قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «حَدَّثَنِي حَكِيمُ بْنُ عَبْدِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ - يَعْني الباقِرَ - قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ حِينَ افْتَتَحَ مَكَّةَ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ دَاعِيًا، وَلَمْ يَبْعَثْهُ مَقَاتِلًا.

❖ قوله: «فَلَمْ يُحَسِّنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَأْنَا، صَبَأْنَا». هَذَا مِنْ ابْنِ عَمَرَ رَاوِي الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فِهِمُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا الْإِسْلَامَ حَقِيقَةً. وَيُؤَيِّدُهُ فِهِمُهُ أَنَّ قَرِيشًا كَانُوا يَقُولُونَ لِكُلِّ مَنْ أَسْلَمَ: صَبَأَ. حَتَّى اشْتَهَرَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ وَصَارُوا يُطْلِقُونَهَا فِي مَقَامِ الدِّمِّ. وَمِنْ ثَمَّ لَمَّا أَسْلَمَ ثَمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ، وَقَدِمَ مَكَّةَ مُسْتَمِرًّا، قَالُوا لَهُ: صَبَأْتَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَسْلَمْتُ. فَلَمَّا اشْتَهَرَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ بَيْنَهُمْ فِي مَوْضِعٍ أَسْلَمْتُ اسْتَعْمَلَهَا هَؤُلَاءِ، وَأَمَّا خَالِدٌ فَحَمَلَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ: صَبَأْنَا. أَي: خَرَجْنَا مِنْ دِينٍ إِلَى دِينٍ، وَلَمْ يَكْتَفِ خَالِدٌ بِذَلِكَ حَتَّى يُصَرِّحُوا بِالْإِسْلَامِ.

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ خَالِدٌ نَقِمَ عَلَيْهِمُ الْعَدُولَ عَنْ لَفْظِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ فِهِمُ عَنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ وَقَعَ مِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْأَنْفَةِ وَلَمْ يَنْقَادُوا إِلَى الدِّينِ فَفَقَتَلَهُمْ مَتَاوَلًا قَوْلَهُمْ.

❖ قوله: «فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ». فِي كَلَامِ ابْنِ سَعْدٍ أَنَّهُ أَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَأْسِرُوا فَاسْتَأْسَرُوا فَكَتَفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَفَرَّقَهُمْ فِي أَصْحَابِهِ، فَيَجْمَعُ بَأَنَّهُمْ أَعْطَوْا بِأَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْمُحَارَبَةِ.

❖ قوله: «وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُسِيرَةً». أَي: مِنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي السَّرِيَّةِ، وَفِي رِوَايَةِ الْبَاقِرِ: فَقَالَ لَهُمْ خَالِدٌ: ضَعُوا السِّلَاحَ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْلَمُوا، فَوَضَعُوا السِّلَاحَ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَكَتَفُوا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى السَّيْفِ.

❖ قوله: «حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ». كَذَا بِالتَّنْوِينِ، أَي: مِنْ الْأَيَّامِ، وَكَانَ تَامَةً، وَعِنْدَ أَبِي سَعْدٍ: «فَلَمَّا كَانَ السَّحَرُ نَادَى خَالِدٌ: مَنْ كَانَ مَعَهُ أُسِيرٌ فَلْيَضْرِبْ عُنُقَهُ».

❖ قوله: «أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُسِيرَةً». فِي رِوَايَةِ الْكُشَمِيهَنِيِّ «كُلُّ إِنْسَانٍ».

❖ قوله: «فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أُسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أُسِيرَةً». وَعِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ «فَأَمَّا بَنُو سُلَيْمٍ فَفَقَتَلُوا مَنْ كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَأَرْسَلُوا أَسْرَاهُمْ» وَفِيهِ جَوَازُ الْحَلْفِ عَلَى نَفْيِ فِعْلِ الْغَيْرِ إِذَا وَثِقَ بِطَوَاعِيَّتِهِ.

❦ قوله: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». قَالَ الخطابي: أنكر عليه العجلة وترك الثبوت في أمرهم قبل أن يَعْلَمَ المراد من قولهم: صَبَأْنَا.

❦ قوله: «مرتين». زاد ابنُ عسْكَرٍ عن عبد الرزاق «أو ثلاثة» أخرجه الإسماعيلي، وفي رواية الباقرين «ثلاث مرات» وزاد الباقر في روايته «ثم دعا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَاً فقال: اخْرُجْ إلى هؤلاء القومِ واجعلْ أمرَ الجاهلية تحتَ قدميك، فخرجَ حتى جاءهم ومعه مالٌ فلم يَبْقَ لهم أحدٌ إلا ودَاهُ» وذكر ابنُ هشامٍ في زيادته أنه انفلت منهم رجلٌ فأتى النَّبِيَّ ﷺ بالخبر، فقال: هل أنكرَ عليه أحدٌ؟ فوصفَ له صفَةُ ابنِ عمرَ وسالم مولي أبي حذيفة. وذكر ابنُ إسحاقٍ من حديثِ ابنِ أبي حدودَ الأسلميَّ قَالَ: «كنتُ في خيلِ خالدٍ فقال لي فتى من بني جذيمة قد جُمِعَتْ يدهُ في عنقه برمة: يا فتى هل أنتَ آخذٌ بهذه الرمة فقاؤدي إلى هؤلاء النسوة؟ فقلتُ: نعم، فقدتُهُ بها فقال: أسلمي حبيش. قبلَ نفاذِ العيش.

أريتُك إن طالبتُكم فوجدتُكم بحيلةٍ أو أدرَكتُكم بالخوانقِ

الآيات، قَالَ: فقالت له امرأةٌ منهن: وأنتَ نجيتَ عشراً وتسعاً ووترًا وثمانياً تقرى. قَالَ: ثم ضربتُ عنقَ الفتى، فأكبْتُ عليه فما زالت تُقَبِّلُهُ حتى ماتت.

وقد روى النسائيُّ والبيهقي في «الدلائل» بإسنادٍ صحيحٍ من حديثِ ابنِ عباسٍ نحوَ هذه القصة، وقال فيه: «فقال إني لستُ منهم، إني عشقتُ امرأةً منهم فدعوني أنظرَ إليها نظرةً - قَالَ فيه - فَضْرَبُوا عنقه، فجاءتِ المرأةُ ووقعتْ عليه فَشَهَقَتْ شهقةً أو شرقتْ ثم ماتت، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «أما كان فيكم رجلٌ رحيمٌ؟». وأخرجه البيهقي من طريق ابنِ عاصمٍ عن أبيه نحوَ هذه القصة وقال في آخرها: فأنحدرتُ إليه من هودجها فحنت عليه حتى ماتت. اهـ

المهم: أن في هذا الحديث: أن من فعل الشيء متأولاً فإنه لا يُؤَاخَذُ به، ولكن الرسول ﷺ وداهم من عنده؛ لأنهم قُتِلُوا بغيرِ حقٍّ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٤- باب الدُّعَاءِ غَيْرِ مُسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةِ.

٦٣٤٢- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَبُوبٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَسْقِينَا. فَتَغَيَّمَتِ السَّمَاءُ وَمُطِرْنَا حَتَّى مَا كَادَ الرَّجُلُ يَصِلُ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمْ تَزَلْ تُمَطِّرُ إِلَى الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، فَقَامَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوْ غَيْرُهُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنَّا فَقَدْ غَرَقْنَا. فَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا». فَجَعَلَ السَّحَابُ يَتَقَطَّعُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَلَا يُمَطِّرُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ^(١).

هذا دعاء غير مستقبل القبلة؛ لأن الخطيب يوم الجمعة يكون مستدبر القبلة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٥- باب الدُّعَاءِ مُسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةِ.

٦٣٤٣- حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى، عَنْ عَبَادِ بْنِ تَمِيمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هَذَا الْمُصَلَّى يَسْتَسْقِي، فَدَعَا وَاسْتَسْقَى، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَقَلْبَ رِدَائِهِ^(٢).

هذا واضح

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٦- باب دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِخَادِمِهِ بِطُولِ الْعُمُرِ، وَبِكَثْرَةِ مَالِهِ.

٦٣٤٤- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْأَسْوَدِ، حَدَّثَنَا حَرَمِيُّ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَادِمُكَ أَنَسٌ ادْعُ اللَّهَ لَهُ. قَالَ: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٨٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٩٨٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٨٠).

❦ قوله: «بطول العمر». مرَّ علينا في بعض الطرق أنه كبير فعلاً.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/١٤٤-١٤٥):

قال بعض الشراح: مطابقة الحديث للترجمة أن الدعاء بكثرة الولد يستلزم حصول طول العمر، وتُعقَّب بأنه لا ملازمة بينهما إلا بنوع من المجاز بأن يُراد أن كثرة الولد في العادة تستدعي بقاء ذكر الوالد ما بقي أولاده، فكأنه حيٌّ، والأولي في الجواب أنه أشار كعادته إلى ما ورد في بعض طرقه، فأخرج في «الأدب المفرد» من وجه آخر عن أنسٍ قال: «قالت أمُّ سُلَيْمٍ -وهي أمُّ أنسٍ- خَوِّدِي مَتَّك أَلَا تَدْعُو لَهُ؟ فقال: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَطْلُ حَيَاتَهُ وَاغْفِرْ لَهُ». فأما كثرة ولد أنسٍ وماله فوقع عند مسلمٍ في آخر هذا الحديث من طريق إسحاق ابن عبد الله بن أبي طلحة عن أنسٍ قال أنسٌ: فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو المائة اليوم. وتقدَّم في حديث: «الطاعون شهادة لكل مسلم». في كتاب الطب قول أنسٍ: أخبرني ابنتي أمينة أنه دُفِنَ من صليبي إلى يومٍ مقدَّم الحجاج البصرة مائة وعشرون. وقال النووي في ترجمته: كان أكثر الصحابة أولاداً. وقد قال ابن قتيبة في «المعارف»: كان بالبصرة ثلاثة ما ماتوا حتَّى رأى كل واحدٍ منهم من ولده مائة ذكرٍ لصلبه: أبو بكرة، وأنسٌ وخليفة بن بدر، وزاد غيره رابعاً وهو المهلب بن أبي صفرة وأخرج الترمذي عن أبي العالية في ذكر أنسٍ: وكان له بستان يأتي في كلِّ سنة الفاكهة مرتين، وكان فيه ريحانٌ يجيء منه ريح المسك. ورجاله ثقات. وأما طول عمر أنسٍ فقد ثبت في الصحيح أنه كان في الهجرة ابنَ تسع سنين وكانت وفاته سنة إحدى وتسعين فيما قيل، وقيل: سنة ثلاثٍ وله مائة وثلاث سنين. قاله خليفة وهو المعتمد، وأكثر ما قيل في سنه أنه بلغ مائة وسبع سنين، وأقل ما قيل فيه: تسعاً وتسعين سنة. اهـ



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٧- بَابُ الدَّعَاءِ عِنْدَ الْكَرْبِ

٦٣٤٥- حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ بْنُ أَبِرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»^(١).

[الحديث ٦٣٤٥- أطرافه في: ٦٣٤٦، ٧٤٢١، ٧٤٣١]

٦٣٤٦- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ هِشَامِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(٢). وَقَالَ وَهَبٌ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ مِثْلَهُ.

هذا الحديث أوفى من الذي قبله، ومعناه: أن الإنسان إذا أُصِيبَ بمكروه فإنه يذكرُ الله ﷻ بهذا الذكر.

❖ وقوله: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ». أي: أنه يتوسَّلُ إلى الله بعظمته وحلمه إلى إزالة هذا الكرب؛ لأن هذا ذكرٌ وثناءٌ يَتَضَمَّنُ الدعاء.

❖ وقوله: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ». وقد وَصَفَ اللهُ العرشَ بالعظمة في القرآن الكريم؛ لأنه أعظمُ المخلوقات، فإن السمواتِ السبع والأرضين بالنسبة إلى الكرسيِّ كحلقةٍ أَلْقِيَتْ في فلاةٍ من الأرض^(٣)، وفضلُ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفلاةِ على هذه الحلقة، إذن لا يُقَدَّرُ قدره إلا اللهُ ﷻ.

❖ وقوله: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ». هكذا أيضًا وَصَفَ اللهُ العرشَ بالكرم في القرآن، والكرمُ في كلِّ شيءٍ بِحَسَنِهِ فمعناه هنا: ذو الحسنِ والبهاءِ، ومنه قولُ الرسولِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»^(٤). فالكرامةُ من المالِ هي الحسنَةُ

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٠).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) أخرجه ابن حبان (٣٦١).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

الجميلة المرغوب فيها، والكريم من بني آدم هو الجواد الكريم الذي يَنْدُلُ الْمَالَ فِي مَحَلِّهِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٨ - باب التَّعَوُّذِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ.

٦٣٤٧ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنِي سُمَيُّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ وَسُوءِ الْقَضَاءِ وَشَهَاتَةِ الْأَعْدَاءِ»^(١). قَالَ سُفْيَانُ: الْحَدِيثُ ثَلَاثٌ، زِدْتُ أَنَا وَاحِدَةً لَا أَدْرِي أَتَيْنَهُنَّ هِيَ.

[الحديث ٦٣٤٧ - طرفه في ٦٦١٦].

كان الرسول ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ:

الأول: «جَهْدُ الْبَلَاءِ». يَعْنِي: أَنْ يُبْتَلَى حَتَّى يَبْلُغَ بِهِ الْجَهْدُ؛ يَعْنِي: الْمَشَقَّةُ؛ لِأَنَّ الْبَلَاءَ قَدْ يَبْلُغُ بِالْإِنْسَانِ الْجَهْدَ، وَقَدْ يَكُونُ دُونَ ذَلِكَ.

الثاني: «دَرَكُ الشَّقَاءِ». يَعْنِي: أَنْ يُدْرِكَ الشَّقَاءُ، وَالشَّقَاءُ ضِدُّ السَّعَادَةِ.

والثالث: «سُوءُ الْقَضَاءِ». وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ سُوءُ الْقَضَاءِ؛ أَيِ: الْقَضَاءِ مِنَ اللَّهِ ﷻ؛ لِأَنَّ مَا أَصَابَنَا مِنْ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَتِ السَّيِّئَةُ أَسْبَابَهَا نَحْنُ لَكِنْ كُلُّهَا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْقَضَاءِ قَضَاءُ اللَّهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِسُوءِ الْقَضَاءِ؛ أَيِ: قَضَائِي أَنَا. أَيِ: مِنْ سُوءٍ مَا أَقْضِي بِهِ، فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا.

والرابع: «شَهَاتَةُ الْأَعْدَاءِ». وَمَعْنَاهُ أَنْ يَفْرَحُوا عَلَيْنَا وَيُسْرِوْا بِمَا يَسُوءُنَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَعْدَاءَ يَسُوءُهُمْ كُلُّ مَا يَسُرُّ عَدُوَّهُمْ وَيُفْرِحُهُمْ كُلُّ مَا يَسُوءُ عَدُوَّهُمْ، وَلِهَذَا كَانَتْ قَرِيشُ لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي عَمْرَةِ الْقَضَاءِ وَوَصَلَ إِلَى الْبَيْتِ وَجَعَلَ يَطُوفُ جَلَسُوا مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرِ يَسْتَمْتُونَ بِالصَّحَابَةِ؛ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ قَوْمٌ وَهَتَّهْمَ حَمَى يَثْرَبَ. فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَرْمُلُوا مِنَ الْحِجْرِ الْأَسْوَدِ إِلَى الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ، وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ^(٢)، فَيَكُونَ الرَّمْلُ لَيْسَ فِي كُلِّ الشَّوْطِ، بَلْ مِنَ الْحِجْرِ الْأَسْوَدِ إِلَى الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ فَقَطْ،

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٠٢)، ومسلم (١٢٦٦).

لكن في حجة الوداع رَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَشْوَاطَ الثَّلَاثَةَ كُلَّهَا مِنَ الْحَجَرِ إِلَى الْحَجَرِ ^(١).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٩- باب دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى».

٦٣٤٨- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَفِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ قَالَ: حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَحِيحٌ: «لَنْ يُقْبَضَ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ». فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي، غُشِيَ عَلَيْهِ سَاعَةٌ، ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى». قُلْتُ: إِذَا لَا يَخْتَارُنَا، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ قَالَتْ: فَكَانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى» ^(١).

قَالَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: بَابُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى». ولم يَقُلْ: بَابُ الدُّعَاءِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى. فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ يَرَى رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الدُّعَاءِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَعْلَى اسْمُ تَفْضِيلٍ يُدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَايَةُ الْعُلُوِّ، وَغَايَةُ الْعُلُوِّ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلرَّسُولِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَأَوَّلُوا الْعَزْمَ مِنْهُمْ خَاصَّةً، فَإِذَا دَعَا الْإِنْسَانُ بِشَيْءٍ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الرَّسُلُ صَارَ فِي هَذَا نَوْعٌ مِنَ الْإِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ، لِأَنَّا ذَكَرْنَا أَنَّ الْإِعْتِدَاءَ فِي الدُّعَاءِ هُوَ طَلِبُ مَا لَا يَجُوزُ، إِمَّا لَتَعَذُّرِهِ شَرْعًا أَوْ قَدْرًا.

وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُؤَلَّفَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يُرِيدُ هَذَا، وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ دَعَا بِهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعَلَى هَذَا فَيَجِبُ أَنْ يُؤَوَّلَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى بِأَهْلِ الْجَنَّةِ عَمُومًا إِذَا دَعَا بِهِ إِنْسَانٌ غَيْرُ الرَّسُولِ ﷺ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/١٤٩-١٥٠):

قوله: «باب» كذا للأكثر بغير ترجمة، ذكر فيه حديث عائشة في الوفاة النبوية، وفيه قوله ﷺ: «الرفيق الأعلى». وقد تقدم شرحه في أواخر المغازي، وتعلقه بما قبله من

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤٤).

جهةً أن فيه إشارةً إلى حديثٍ عائشةً أنه كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، وقضيةً سياقها هنا أنه لم يتعوذ في مرض موته بذلك، بل تقدم في الوفاة النبوية من طريق ابن أبي مليكة عن عائشة: فذهبتُ أَعُوذُهُ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: «فِي الرِّفِيقِ الْأَعْلَى». اهـ.

على كُلِّ حَالٍ: «الرِّفِيقُ الْأَعْلَى» كما وصفتُ لكم إذا قُصِدَ اسْمُ التَّفْضِيلِ فَهَذِهِ مَنْزِلَةُ الرِّسْلِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْزِلَةَ الرِّسْلِ هِيَ أَعْلَى مَا فِي الْجَنَّةِ، لَكِنْ يَنَالُهَا أَيْضًا غَيْرُهُمْ، وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغَرْفِ كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الْغَائِبَ الدَّرِيَّ فِي الْأَفْقِ». قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَنَالُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(١). وَهَذَا أَيْضًا قَدْ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ فِي مَنْزِلَةِ الْأَنْبِيَاءِ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ بَيْنَ أَنْ هَذِهِ لَيْسَتْ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ. بَلْ مَنَازِلُ رَجَالٍ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ، وَتَكُونُ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ أَعْلَى مِنْهَا.

على كُلِّ حَالٍ: فَإِنَّ الْأَعْلَى الْعُلُوُّ الْمَطْلُوقُ فِي الْجَنَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلرِّسْلِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى مَا أَصَابَ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ مِنَ الشَّدَةِ؛ لِأَنَّهُ غَشِيَ عَلَيْهِ ﷺ وَوَجَدَ شِدَّةً فِي الْمَوْتِ حَتَّى إِنْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَا أَغْطِي أَحَدًا بَعْدَهُ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَنَالَ النَّبِيَّ ﷺ أَعْلَى دَرَجَاتِ الصَّبْرِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَصْبَرَ الصَّابِرِينَ؛ صَبَرَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَكَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَوَرَّمَ قَدَمَاهُ^(٢)، وَصَبَرَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ ﷻ، وَصَبَرَ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّمَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالرِّسَالَةِ وَغَيْرِهَا؛ فَصَبَرَ عَلَى أَذِيَةِ قَرِيشٍ وَمَا يَنَالُهُ مِنْهُمْ، وَصَبَرَ عَلَى الْأَقْدَارِ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِالدَّعْوَةِ، فَكَانَ يُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرِّجْلَانِ مَنَّا^(٣)، وَشُدَّ عَلَيْهِ فِي الْمَوْتِ كُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنَالَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الصَّابِرِينَ.

فَهُوَ ﷻ سَيِّدُ الْخَلْقِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ؛ لِأَنَّ الصَّبَرَ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ لَا تُنَالُ بِالسَّهُولَةِ، لَا تُنَالُ إِلَّا بِشَيْءٍ يُصْبِرُ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا يُشَدَّدُ الْبَلَاءُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ الصَّالِحِينَ الْأَمْثِلِ فَالْأَمْثِلِ^(٤)

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والنسائي في «الكبرى» (٧٤٨١)، وابن حبان (٢٩١٠)، وأحمد (١٧٢/١).

من أجل أن يتألوا من درجة الصبر بقدر ما نالهم من البلاء.
وهذه مسألة إذا تأملها الإنسان هانت عليه المصائب وسهّل عليه البلاء؛ لأنه يعلم أنه يتأل بذلك درجة أعلى.

ومعنى: «اللهم الرفيق الأعلى». أي: أنزلني الرفيق الأعلى، والمراد بالرفيق الأعلى مجتمع الأنبياء، أو الأنبياء أنفسهم كما قال تعالى: ﴿وَحَسِّنْ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾ [النِّسَاء: ٦٩].

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٠- باب الدعاء بالموت والحياة.

٦٣٤٩- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ قَيْسٍ قَالَ: أَتَيْتُ حَبَابًا وَقَدْ اِكْتَوَى سَبْعًا قَالَ: لَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُو بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ ^(١).

٦٣٥٠- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: حَدَّثَنِي قَيْسٌ قَالَ: أَتَيْتُ حَبَابًا وَقَدْ اِكْتَوَى سَبْعًا فِي بَطْنِهِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَوْلَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُو بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ ^(٢).

٦٣٥١- حَدَّثَنَا أَبُو سَلَامٍ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنَّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي» ^(٣).

هذا أيضًا باب الدعاء بالموت والحياة؛ يعنى أنه لا يجوز لك للإنسان أن يدعوا بالموت لضرّ نزل به، فإذا كان لابد فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وذلك لأن الإنسان لا يدري فهذا الضر الذي نزل به ربما يزول، وربما يكتسب به درجات لا يتألها إلا به، وإذا زال وبقي في الحياة ووفق للعمل الصالح كان بقاءه خيرًا، فلهذا قال: «أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي». ففي الأول

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨١).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٨).

قَالَ: «ما كانت الحياة» فَأَتَى بِ«ما» الْمَصْدَرِيَّةِ الظَّرْفِيَّةِ؛ أَي: مَدَّةُ كَوْنِ الْحَيَاةِ خَيْرًا لِي، وَأَمَّا فِي الْوَفَاءِ فَقَالَ: «إِذَا» فَأَتَى بِ«إِذَا» الشَّرْطِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْحَيَاةَ لِلْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنَ الْوَفَاءِ، فَلِهَذَا اخْتَلَفَ التَّعْبِيرُ، وَلَا يُنَافِي هَذَا قَوْلُهُ ﷺ عَنْ يُونُسَ: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوْفَنِي مُسْلِمًا وَالْحَقَّ بِالصَّالِحِينَ﴾ [يُونُسَ: ١٠١]. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْ وَفَاءً مُطْلَقَةً، بَلْ سَأَلَ وَفَاءً عَلَى الْإِسْلَامِ؛ يَعْنِي: وَإِنْ تَأَخَّرْتُ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ مَرْيَمَ: ﴿بَلَّغْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٢٣]. فَإِنَّمَا لَمْ تَتَمَنَّ مَوْتًا عَاجِلًا، لَكِنَّمَا تَمَنَّتْ مَوْتًا قَبْلَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ؛ يَعْنِي: يَا لَيْتَنِي مِثُّ وَلَمْ أَفْتَنَّ هَذِهِ الْفِتْنَةَ فَهُوَ تَمَنُّ لِمَوْتٍ مُقَيَّدٍ: ﴿مِثُّ قَبْلَ هَذَا﴾. يَعْنِي: قَبْلَ أَنْ أَفْتَنَّ، فَلِذَلِكَ نَقُولُ: لَا مَنَافَاةَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ، وَكَذَلِكَ لَا مَنَافَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي لَمْ يَذْكُرْهُ الْمُؤَلَّفُ: «وَإِنْ أَرَدْتَ بَعَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»^(١). فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ دَعَاءً بِالْمَوْتِ، لَكِنَّهُ دَعَاءٌ بِأَنْ يَمُوتَ عَلَى غَيْرِ فِتْنَةٍ؛ يَعْنِي: وَإِنْ تَأَخَّرَ مَوْتِي فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَمَنَّيَ الْمَوْتَ مُطْلَقًا، حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِي أَمْرِ نَزَلَ بِهِ فِي دِينِهِ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ فِي دِينِهِ يَفْتَنُهُ فَلْيَقُلْ: اقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ. هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْبَقَاءَ لِلْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنَ الْمَوْتِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَنْ طَالَ عَمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ^(٢). اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ.

ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣١- بَابُ الدَّعَاءِ لِلصَّبْيَانِ بِالْبَرَكَةِ وَمَسْحِ رُءُوسِهِمْ.
وَقَالَ أَبُو مُوسَى: وَلَدَ لِي غُلَامٌ، وَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْبَرَكَةِ.

٦٣٥٢- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا حَاتِمٌ، عَنْ الْجَعْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: سَمِعْتُ السَّائِبَ بْنَ يَزِيدَ يَقُولُ: ذَهَبَتْ بِي خَالَتِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ ابْنَ أُخْتِي وَجَعَ، فَمَسَحَ رَأْسِي، وَدَعَا لِي بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ تَوَضَّأَ، فَشَرِبْتُ مِنْ وَضُوئِهِ، ثُمَّ قُمْتُ خَلْفَ

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٣)، وأحمد (٣٤٨٤).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٩٨١)، وانظر «الترغيب والترهيب» (٤٨/٤، ١١٧).

ظَهَرُوا، فَتَنَزَّلَتْ إِلَى خَاتَمِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِثْلُ زُرِّ الْحَجَلَةِ^(١).

هذا بابُ الدعاءِ للصبيانِ بالبركةِ ومسحِ رؤوسهم، والدعاءِ لهم بالبركةِ؛ أي: بأن يُنَزَلَ اللهُ عليهم البركةُ، وإذا نزلت البركةُ على الشخصِ بارك اللهُ له في قوله وفعله وماله وولده وجميعِ أحواله.

ومسحُ رؤوسهم؛ لأن مسحَ الرأسِ يَسْتَنْزِلُ الرِّيحَةُ والبركةُ كما هو مشاهدٌ معلومٌ، والإنسانُ يَنْبَغِي له أن يُعَامِلَ الصبيانَ بالبركةِ واللينِ؛ لأن هذا يُرَقِّقُ القلبَ، وربما يُدْمِعُ العينَ أحياناً ففي ملاطفَتِهِمْ سرٌّ عجيبٌ في تليينِ القلوبِ وترقيقِها، وإذا بَعُدَ بالإنسانِ التأملُ، وتأملَ حكمةَ اللهِ ﷻ وكيف اختلفَ هذه المخلوقاتُ؛ فهذا شيخٌ كبيرٌ، وهذا كهلٌ، وهذا شابٌ، وهذا صغيرٌ، وكيف يَجْمَعُ اللهُ في هذا الكونِ بين هذه الأصنافِ كُلِّها من أجل أن تبقى الحياةُ، فإذا تأملَ الإنسانُ مثلَ هذه الأمورِ ومسحَ رأسَ الصبيِّ حصلَ في هذا خيرٌ كثيرٌ ورقَّةٌ في القلبِ والإنسانُ يَنْبَغِي له أن يَكُونَ رقيقَ القلبِ، لأنه إذا كان رقيقَ القلبِ لكلِّ ذي قربي ومسلمٍ صار من أصحابِ الجنةِ الذين ذَكَرَهُم الرسولُ ﷺ^(٢).

وفي هذا الحديث: دليلٌ أيضاً على أن الصبيَّ الصغيرَ لن يَنْسَى ما يَفْعَلُهُ به غيره، فتجدُ هذا الصبيَّ إذا عَمِلَتْ فيه مثلُ هذا العملِ؛ مسحتَ على رأسِهِ وبركتَ عليه وما أشبه ذلك لا يَنْسَى هذا أبداً، بل يَذْكُرُهُ وهو كبيرٌ ويقولُ: فلان تلكَ السَّنَةُ وأنا صغيرٌ فَعَلَ بي كذا وكذا، وإذا عَقِلَ ربما يَكُونُ في ذلك سببٌ لأنْ يَدْعُوا اللهُ لك على ما فعلتَ فيه.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على أن رسولَ اللهِ ﷺ يَذْهَبُ الناسُ إليه للدعاءِ لهم لا أن يُغِيثَهُمْ؛ لأنه لا يُغِيثُ إلا اللهُ.

وفيه: دليلٌ على جوازِ التبرُّكِ بفضلِ ماءِ الرسولِ ﷺ؛ أي: بفضلِ وضوئه؛ لأنه قَالَ: فَشَرِبْتُ مِنْ وضوئه. أي: من الماءِ الذي فَضَّلَ بَعْدَ وضوئه، ولكن لا أَحَدَ سِوَى الرسولِ ﷺ يُتَبَرَّكُ بِفَضْلِ مَائِهِ، أو بعرقِهِ، أو بثوبِهِ، أو ما أشبه ذلك، بل هذا خاصٌّ برسولِ اللهِ ﷺ.

(١) أخرجه مسلم (٢٣٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

فإذا قَالَ قائلٌ: ما الدليل على الخصوصية ولماذا لا نقول: إذا كان الناس يتبركون بالرسول ﷺ فأجيزوا للناس أن يتبركوا بخلفاء الرسول وهم العلماء؛ لأن العلة وهي الدعوة إلى الله على بصيرة موجودة في غير الرسول ﷺ؟

الجواب أن نقول: الدليل على هذا أن الصحابة لم يفعلوا بعضهم في بعض فما كانوا يتبركون بأبي بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي، ولا غيرهم من الصحابة، ولو كان هذا من الأمور الجائزة أو المشروعة لكان الصحابة أول من يفعل هذا الشيء، فلما لم يفعلوه علم أنه ليس بمشروع، وأنه لا يتنفع به الإنسان، وأظن أننا ذكرنا أن كل سبب لم يثبت نفعه شرعاً ولا حساً فإن اتخذه سبباً نوع من الشرك؛ لأن الإنسان ثبت حكماً أو أثراً في شيء لم يجعله الله تعالى فيه، فيكون مشاركاً لله تعالى في هذا الأمر الذي أثبت في هذا الشيء.

وفيه أيضاً: إثبات خاتم الرسول ﷺ خاتم النبوة وهو مثل زر الحجلة، والحجلة هي عبارة عن خباء صغير يكون في البيت يدخله الإنسان ويزر على نفسه، والزرار معروف، وهو عبارة عن شيء ناتي أسود عليه شعرات بين كتفيه، وكان من صفته ﷺ المعروفة أن خاتم النبوة بين كتفيه.

ويذكر أن سلمان الفارسي رحمه الله لما ذكر له وصف النبي ﷺ وكان من بين ذلك أنه يرى خاتم النبوة بين كتفيه، فجلس ذات يوم وراء النبي ﷺ وعرف النبي ﷺ أنه يحب أن يرى هذا، فنزل رداءه ﷺ من أجل أن يراه.

فيستفاد من هذا الحديث - إن صح - فائدة عظيمة وهي: أنك إذا رأيت من أخيك تطلعاً لشيء، وأنت لا بضرك أن تبين له فإن الأفضل أن تطلع عليه لاسيما إذا كان يتنفع به لكن بعض الناس على العكس من هذا؛ إذا رأى الإنسان يتطلع لشيء قال هذا بلوغ. يعني: يحب الإطلاع على كل شيء هذا يدخل بين الظفر واللحم لا تخبره، اكتم عنه، لا تعلمه. وهذا لا ينبغي، فإذا لم يكن عليك ضرر ورأيت أخاك يتطلع إلى معرفة الشيء فأطلع عليه؛ لأن هذا من هدي الرسول ﷺ، وفيه تطيب لخاطر أخيك، وفيه سباحة، أما إذا خشيت الضرر فإنه لا يلزمك أن تطلع عليه، بل اكتم عنه إذا خشيت. يعني: إذا أطلع عليك في حاجة ضرك فهذا

لَا تُطْلِعْهُ، وَاحْرِصْ أَنْ تَكْتُمَ عَنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَإِذَا دَنَا مِنْكَ فَقُلْ: لَا مِسَاسَ، ابْعُدْ. لِأَنَّهُ يُخْشَى مِنْهُ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُخْشَى مِنْهُ الضَّرَرَ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَقَّعَ ضَرَرَهُ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٥٣ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي عُقَيْلٍ أَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ بِهِ جَدُّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هِشَامٍ مِنَ السُّوقِ أَوْ إِلَى السُّوقِ، فَيَشْتَرِي الطَّعَامَ، فَيَلْقَاهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ، وَابْنُ عُمَرَ فَيَقُولَانِ: أَشْرَكْنَا فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ دَعَا لَكَ بِالْبَرَكَةِ، فَيُشْرِكُهُمْ قَرِيبًا أَصَابَ الرَّاحِلَةَ كَمَا هِيَ فَيَبْعُثُ بِهَا إِلَى الْمَنْزِلِ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١٣٦/٥ - ١٣٧):

❖ قَوْلُهُ: «عَنْ جَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هِشَامٍ»؛ أَي: ابْنِ زَهْرَةَ التِّيمِيِّ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ كَعْبٍ بْنِ سَعِيدِ بْنِ تَيْمٍ بِنِ مَرَّةَ رَهْطُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ، وَهُوَ جَدُّ زَهْرَةَ لِأَبِيهِ.

❖ قَوْلُهُ: «وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ». ذَكَرَ ابْنُ مَنْدَه أَنَّهُ أَدْرَكَ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّ سِنِينَ، وَرَوَى أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» أَنَّهُ احْتَلَمَ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ ابْنُ لَهِيْعَةَ، وَحَدِيثُ الْبَابِ يَدُلُّ عَلَى خَطَا رَوَايَتِهِ هَذِهِ فَإِنْ ذَهَابَ أُمُّهُ بِهِ كَانَ فِي الْفَتْحِ وَوُصِفَ بِالصَّغَرِ إِذَا ذَاكَ، فَإِنْ كَانَ ابْنُ لَهِيْعَةَ ضَبَطَهُ فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ بَلَغَ فِي أَوَائِلِ سَنِّ الْاِحْتِلَامِ.

❖ قَوْلُهُ: «وَذَهَبَتْ بِهِ أُمُّهُ زَيْنَبُ بِنْتُ حُمَيْدٍ»؛ أَي: ابْنِ زَهْرَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزَى وَهِيَ مَعْدُودَةٌ فِي الصَّحَابَةِ، وَأَبُوهُ هِشَامٌ مَاتَ قَبْلَ الْفَتْحِ كَافِرًا، وَقَدْ شَهِدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هِشَامٍ فَتْحَ مِصْرَ وَاخْتَطَّ بِهَا فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ يُونُسَ وَغَيْرُهُ، وَعَاشَ إِلَى خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ.

❖ قَوْلُهُ: «وَدَعَا لَهُ». زَادَ الْمُصَنِّفُ فِي الْأَحْكَامِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ «عَنْ زَهْرَةَ» وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» مِنْ حَدِيثِ ابْنِ وَهْبٍ بِتَمَامِهِ فَوْهَمَ.

❖ قَوْلُهُ: «وَعَنْ زَهْرَةَ بْنِ مَعْبِدٍ». هُوَ مُوَصَّلٌ بِالإِسْنَادِ الْمَذْكُورِ.

❖ قَوْلُهُ: «فَيَلْقَاهُ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الزُّبَيْرِ». قَالَ الإِسْمَاعِيلِيُّ: رَوَاهُ الْخَلْقُ فَلَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ هَذِهِ الزِّيَادَةَ إِلَى آخِرِهَا إِلَّا ابْنُ وَهْبٍ.

قُلْتُ: وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْمُصَنِّفُ فِي الدَّعَوَاتِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهْبٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَكَذَلِكَ

أخرجه أبو نعيم من وجهين عن ابن وهب، وقال الإسماعيلي: تفرد به ابن وهب.

❦ قوله: «فيقولان له: أشركنا». هو شاهد الترجمة لكونهما طلبا منه الاشتراك في الطعام الذي اشتراه فأجابها إلى ذلك وهم من الصحابة، ولم يُنقل عن غيرهم ما يخالف ذلك فيكون حجة، وفي الحديث مسح رأس الصغير، وترك مبيعة من لم يبلغ، والدخول في السوق لطلب المعاش، وطلب البركة حيث كانت، والرد على من زعم أن السعة من الحلال مذمومة، وتوفر دواعي الصحابة على إحضار أولادهم عند النبي ﷺ لالتماس بركته، وعلم من أعلام نبوته ﷺ لإجابة دعائه في عبد الله بن هشام.

تنبيهان: أحدهما: وقع في رواية الإسماعيلي «وكان -يعني: عبد الله بن هشام- يُصَحِّي بالشاء الواحدة عن جميع أهله». فعزا بعض المتأخرين هذه الزيادة للبخاري فأخطأ.

ثانيهما: وقع في نسخة الصغاني زيادة لم أرها في شيء من النسخ غيرها، ولفظه: «قال أبو عبد الله: كان عروة البارقي يدخل السوق وقد ربح أربعين ألفا بركة دعوة رسول الله ﷺ بالبركة حيث أعطاه دينارا يشتري به أضحية، فاشترى شاتين فباع إحداها بدينار وشاء، فبرك له رسول الله ﷺ. اهـ»

قال القسطلاني: «يقول عن أبي عقيل، قوله إنه كان يأخذ به جدُّ عبد الله بن هشام التميمي من بني تميم بن مرة من السوق أو إلى السوق قال الكرمانى: من السوق؛ أي: من جهة دخول السوق والمعانة فيه بالشك من الراوي وفي باب الشركة فيه بالطعام من السوق بالجزم من غير شك فيشتري الطعام فيلقاه ابن الزبير عبد الله وابن عمر عبد الله فيقولان له: أشركنا إضافة لهمزة مفتوحة وكسر الراء.

[أشركنا تقف عليها إضافة الهمزة وكسر الراء] ^(١) في الطعام الذي اشتريته فإن النبي ﷺ قد دعا لك بالبركة وذلك أن أمه زينب بنت حميد ذهبت به إلى رسول الله ﷺ فمسح رأسه ودعا له كما في رواية الباب المذكورة فيشركهم. لأبي ذر وبالضم ثم كسر لغيره و عبر بالجمع باعتبار أن أقل الجمع اثنان وربما أصابه بدون شاء الراحلة كما هي أي: بتماه فيبعث بها إلى المنزل بركة دعوة النبي ﷺ له، وفي الحديث فأمرهم له من الدعاء للصبيان بالبركة

(١) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

ومسح رؤوسهم كما في رواية ابن أبي شريك المذكورة وإجابة دعائه ﷺ. اهـ
 فإذا عرفنا قوله: فربما أصاب الراحلة كما هي فيبعث بها إلى المنزل يعني يربحها؛ يربح
 الراحلة كلها بما عليها فيبعث بها إلى المنزل وذلك بركة دعوة النبي ﷺ حين دعا له بالبركة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٥٤ - حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ،
 عَنْ ابْنِ شَهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَهُوَ الَّذِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَهُوَ
 غُلَامٌ مِنْ بَنِيهِمْ^(١).

وكان له خمس سنين في ذلك الوقت، وأخذ منه علماء المصطلح أنه يجوز أن يتحمل
 الإنسان الحديث وهو صغير وله خمس سنين.

وفيه أيضاً: دليل على أن التمييز ليس مقيداً بسبع سنين فقط، ولكن الغالب أنه يكون في سبع
 سنين، وإلا فقد يميز الإنسان قبل السبع، وقد يبلغ السبعة وهو لا يميز، والناس يختلفون، لكن
 الغالب أن سن التمييز سبع سنين، ولهذا قال الرسول ﷺ: «مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ»^(١).
 لأنها في الغالب، وإلا فإن التمييز قد يحصل قبلها، وقد يتأخر عنها، كما هو معروف.

وفي هذا الحديث: جواز مج الماء في وجه الصبي، ولكن بشرط أن نأمن العاقبة؛ لأن
 الرسول ﷺ ليس كغيره فريقه بركة وخير، وأما غيره فليس كذلك، لكن لو رشق عليه من
 مائه تودداً له وتعطفاً عليه فهذا لا بأس به بشرط أن لا يؤدي إلى فزعه أيضاً، فإن أدى إلى
 فزعه لأن بعض الصبيان لو ترشق عليه الماء فزع وصاح فهذا لا تفعل، لكن إذا عرفنا أنه
 عنده شيء من الفهم ورشقته بالماء من باب التودد إليه فهذا يشبه مج النبي ﷺ الماء في وجه
 محمود بن الربيع رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) أخرجه مسلم (٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦٧٥٦)، والطبراني في «الأوسط» (٤١٢٩)، والدارقطني (١/٢٣١)، وقال الهيثمي في
 «مجمع الزوائد» (١/٢٩٤): «رواه الطبراني، وفيه داود بن المحبر، ضعفه أحمد والبخاري، وجماعة، وثقة
 ابن معين....» اهـ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٥٥- حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتِي بِالصَّبِيَّانِ فَيَدْعُو لَهُمْ، فَأَتِي بِصَبِيٍّ فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَغْسِلْهُ ^(١).

هذا أيضًا من لطف الرسول ﷺ وتواضعه أن الناس يأتون بالصَّبِيَّانِ فَيَدْعُو لَهُمْ صلوات الله وسلامه عليه فَأَتِي بِصَبِيٍّ فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ وَلَمْ يَغْسِلْهُ. الصَّبِيُّ بَالٌ عَلَى ثَوْبِهِ وَهُوَ مَعْدُورٌ؛ لِأَنَّهُ صَبِيٌّ لَا يَعْقِلُ وَلَمْ يَدْعُ الرُّسُولُ ﷺ عَلَيْهِ: وَلَمْ يَقُلْ: اللَّهُمَّ يُنَجِّسْكَ كَمَا نَجَّسْتَنَا. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يَقُولُهَا الْعَامَّةُ عِنْدَنَا إِذَا بَالَ الصَّبِيُّ عَلَى ثَوْبِهِ قَامَ يَدْعُو عَلَيْهِ، وَالرُّسُولُ ﷺ لَمْ يَدْعُ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ أَتَوْا بِهِ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَفْسَدَةُ أَزَالَهَا ﷺ بِأَنْ دَعَا بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ: يَعْنِي: صَبَّهُ عَلَيْهِ حَتَّى عَمَّ جَمِيعَ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ الْبَوْلُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَغْسِلْهُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: لَمْ يَغْسِلْهُ يَعْنِي مَا عَصَرَهُ وَلَا فَرَكَهُ؛ لِأَنَّهُ صَبَّهُ وَبَوَّلُ الصَّبِيِّ الَّذِي لَمْ يَتَغَدَّ بِالطَّعَامِ يَكْفِي فِيهِ الْإِتْبَاعُ؛ فَإِذَا أَتْبَعْتَهُ الْمَاءَ كَفَى، أَمَا إِذَا صَارَ يَتَغَدَّى بِالطَّعَامِ فَإِنَّهُ كَغَيْرِهِ لَا بَدَّ أَنْ يُغْسَلَ، وَكَذَلِكَ غَائِطُهُ لَا بَدَّ أَنْ يُغْسَلَ، وَكَذَلِكَ بَوْلُ الْأُنْثَى لَا بَدَّ أَنْ يُغْسَلَ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: بَوْلُ الصَّبِيِّ، بَوْلُ الْأُنْثَى، وَغَائِطُ الصَّبِيِّ، وَغَائِطُ الْأُنْثَى، ثَلَاثَةٌ مِنْهَا لَا بَدَّ فِيهَا مِنَ الْغَسْلِ وَهِيَ: بَوْلُ الْأُنْثَى، وَغَائِطُ الصَّبِيِّ، وَغَائِطُ الْأُنْثَى، وَأَمَّا بَوْلُ الصَّبِيِّ يَكْفِي فِيهِ الْإِتْبَاعُ؛ أَنْ يُتَّبَعَ بِمَاءٍ حَتَّى يَغْتَمَّ مَكَانَ النِّجَاسَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

٦٣٥٦- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَعْلَبَةَ ابْنُ صُعَيْرٍ -وَكَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ مَسَحَ عَيْنَهُ- أَنَّهُ رَأَى سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ يُؤْتِرُ بِرُكْعَةٍ. الشَّاهِدُ قَوْلُهُ: «قَدْ مَسَحَ عَيْنَهُ».

٣٢- بَابُ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

٦٣٥٧- حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا الْحَكَمُ، قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لُبَلَى قَالَ: «لَقِيتُ كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ، فَقَالَ: أَلَا أَهْدِي لَكَ هَدِيَّةً إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقُلْنَا:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّيْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ^(١).

٦٣٥٨- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْرَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي حَازِمٍ وَالدَّرَاوَرْدِيُّ، عَنْ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَبَّابٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّي؟ قَالَ: قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ؟ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ»^(٢).

❖ قوله: «باب الصلاة على النبي ﷺ» يعني: كيفيتها، والصلاة على النبي ﷺ إذا سألها الإنسان ربّه، فهو يعني أنه يسأل الله أن يُثني على رسوله ﷺ في الملاء الأعلى، فإذا قلت: اللهم صَلِّ عليه يعني: أثني عليه في الملاء الأعلى من الملائكة.

وفي حديث كعب بن عُجرة دليلٌ على أن العلم إذا بلغه الإنسان أحدًا، فهذا هديةٌ ولعمرُ الله إنه لمن أفضل الهدايا لأن العلم أفضل من المال ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

❖ ولم يذكر المال، فهدية العلم أفضل من هدية المال ولهذا قال: «أهدي لك هدية».

❖ وفي قوله ﷺ: «قولوا: اللهم صَلِّ على محمدٍ» دليلٌ على أن هذه الكيفية هي المطلوبة؛ لأن الرسول ﷺ لما سأله: كيف نصلي؟ قال: قولوا: كذا، وليس هذا أمرًا دالًّا على الوجوب، وذلك لأنه ليس أمرًا مُبتدأً وإنما هو أمرٌ بكيفية سئله الرسول ﷺ، فعلى هذا يكون فيه دليلٌ على وجوب الصلاة على النبي ﷺ؛ لأنك لو سألت شخصًا وقلت: كيف أفعل؟ فقال: افعل كذا وكذا، فهو أمرٌ بالكيفية، وهو أمرٌ إرشاد؛ لأن السائل يسترشد.

وفيه أيضًا: دليلٌ على أن هذه الكيفية وردت بأكثر من لفظ، منها ما ورد في هذا الحديث: «اللهم صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ» فليس فيها ذكرُ

(١) أخرجه مسلم (٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٥) من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

إبراهيم، ولكن في بعض الروايات: «على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»^(١)، وهي ثابتة في صحيح البخاري، ولكن على ذلك إذا فرض أنها لم تثبت، فإنه إذا قيل: آل فلان دخل فيهم فلان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(٢) [٤٦: ٤٦]. فإن فرعون منهم كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَوْرُودُ﴾^(٣) [٩٨: ٩٨]. وفي حديث أبي سعيد الخدري صفة ثانية للصلاة على النبي ﷺ وعلى هذا فتكون الصلاة على النبي ﷺ واردة على وجهين: حديث كعب بن عجرة وحديث أبي سعيد. والقاعدة الصحيحة: أنه إذا جاءت العبادات على وجهين فأكثر فالسنة أن يتعبد الإنسان لله بوجهين أو أكثر؛ لأن هذا أولى فإن الإنسان إذا أتى بالعبادات على وجوها المتنوعة استفاد ثلاث فوائد:

الأولى: أنه يأتي بجميع السنن.

الثانية: دفع الملل وأن يكون فعله تعبداً لا يكون حركة عادية.

الثالثة: تحقيق متابعة الرسول ﷺ حيث يأتي بالسنة على وجوها وإحياء السنة، فكل هذه الفوائد تحصل فيما إذا أتينا بالسنن الواردة كلها.



ثم قال البخاري رحمه الله:

٣٣ - باب هل يصلى على غير النبي ﷺ؟ وقول الله تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

٦٣٥٩ - حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَرْة، عَنْ ابْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ: كَانَ إِذَا أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ بِصَدَقَتِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ فَإِنَّا أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى^(١).

٦٣٦٠ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ سُلَيْمٍ الزُّرْقِيِّ قَالَ: «أَخْبَرَنِي أَبُو حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ أَنَّهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٠) من حديث كعب بن عجرة رحمه الله.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٧٨ م).

نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ»^(١).

أورد المؤلف رحمه الله في هذا الباب حديث عبد الله بن أبي أوفى، وحديث أبي حميد الساعدي، أما حديث عبد الله بن أبي أوفى ففيه الصلاة على غير النبي على وجه الانفراد. وأما حديث أبي حميد ففيه الصلاة على غير النبي على وجه التبع، فأما الصلاة على غير النبي ﷺ على وجه التبع فمجمع على جوازه، كل المسلمين يقولون: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ» من غير تكبر، وأما الصلاة على وجه الاستقلال على غير النبي ﷺ فهذه موضع خلاف، والصحيح أنه إذا كان لها سبب ولم تتخذ شعاراً لهذا الشخص المعين فإنه لا بأس بها، فلا بُدَّ من شَرْطَيْنِ:

الشرط الأول: إذا كان لها سبب.

والثاني: إذا لم تتخذ شعاراً، فمثلاً إذا جاءنا رجلٌ بزكاة، أو رأيناَه تقدَّم في عملٍ خيرٍ أو ما أشبه ذلك، قلنا: لنا أن نقول: اللهم صَلِّ عليه، ولا حرج في هذا، أما إذا كان لغير سببٍ لكن لمجرد ذكره فهذا فيه نظرٌ وكذلك إذا جُعِلَ شعاراً لهذا الشخص المعين، بحيث كلما ذُكر قيل: ﷺ، فهذا لا يجوز؛ لأنه يلحقه بمرتبة النبي، فمثلاً لو قلت: زرتُ محمداً ﷺ فأكرمني محمداً ﷺ وخرج بي محمداً ﷺ إلى بستانه ﷺ هذا لا يجوز؛ لأنك ألحقته بالأنبياء. وفي حديث أبي حميد دليلٌ على اختلافِ صفةِ صلاةِ النبي ﷺ فتكونُ صفةً ثالثة، حديث كعب بن عجرة، حديث أبي سعيد، وحديث أبي حميد، تكونُ صفةً ثالثة: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ».

وفي هذا الحديث دليل: على أن زوجاتِ الرسولِ ﷺ من آله كما هو القول الصحيح الذي اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وعلى هذا فتحرمُ عليهنَّ الصدقة؛ يعني: الزكاة. والمسألة هنا نظريةٌ أما عملياً فغير واقعة؛ لأن أزواجه قد توفين لكن هذا يدلُّ على أن أزواجه من آله؛ لأنها جاءت في اللفظ الثاني «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ» إذا قال قائل: هل يجب أننا إذا سلمنا على النبي أن نصلي عليه أو يستحبُّ ذلك؟

الجواب: الصحيح أنه لا يجب ولا يكره الأفراد؛ يعني: الصحيح أنه لا يجب أن نجتمع بين الصلاة، والتسليم، ولا يكره أن نفرّد أحدهما وإن كان بعض العلماء ذهب إلى وجوب الجمع؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٨) [الاحزاب: ٥٦]. لكن الصحيح عدم وجوب الجمع وعدم كراهة الأفراد، ودليل ذلك أن النبي ﷺ لما ذكر إجابة المؤذن أن نقول مثل ما يقول، ثم قال: «ثم صلّوا عليّ»^(١) ولم يذكر التسليم، ولو كان الجمع واجبًا لقال: صلّوا وسلموا عليّ.



٣٤ - باب قول النبي ﷺ: «مَنْ آذَيْتُهُ فَاجْعَلْ لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً»

٦٣٦١ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ~~رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ~~ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ فَأَيُّكُمْ مُؤْمِنٌ سَبَّيْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

الترجمة لا تتطابق مع الحديث الذي ساقه المؤلف، وكما أسلفنا أن البخاري رحمه الله قد يشير بالترجمة إلى حديث ليس على شرطه، فلعله يشير إلى حديث ليس على شرطه لكن ما ذكره من الأحاديث قريب منه «فأيُّكم مؤمنٍ سببته» سببته، يعني: ذكرته بها يسوءه في حضرته؛ لأن ذكر الإنسان بها يسوءه وهو غائب يُسمى غيبة وذكره بها يسوءه وهو حاضر يُسمى سبًّا. قوله: «فاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ قُرْبَةً إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قرابة إليك بالنسبة لهذا الذي وقع عليه السبُّ يوم القيامة، وإن نادى رسول الله ﷺ بهذا؛ لأن سبَّ النبي ﷺ للرجل ليس كسبِّ غيره، إذ إن سبَّ النبي ﷺ للرجل عظيم، وينال الرجل من المعرة أكثر مما يناله فيها لو سبَّه غير النبي ﷺ.



(١) أخرجه مسلم (٣٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٠).

ثم قال البخاري رحمه الله:

٣٥ - باب التَّعَوُّذِ مِنَ الْفِتَنِ

٦٣٦٢ - حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَحْفَوْهُ الْمَسْأَلَةَ فَغَضِبَ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: «لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنَّتُهُ لَكُمْ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لَأَفَّ رَأْسُهُ فِي نَوْبِهِ يَبْكِي فَإِذَا رَجُلٌ كَانَ إِذَا لَاحَى الرَّجَالُ يُدْعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبِي قَالَ: «حُذَافَةُ» ثُمَّ أَنْشَأَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْتُ فِي الْخَيْرِ وَالْشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ إِنَّهُ صُوِّرَتْ لِي الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا وَرَاءَ الْحَائِطِ» وَكَانَ قَتَادَةُ يَذْكُرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِيثِ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿يَكُنَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْتَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [التَّائِبَةُ: ١٠١].

❦ قوله: «باب التعوذ من الفتن» يعني: أنه ينبغي للإنسان أن يستعيذ بالله من الفتن، وقد أمرنا أن نستعيذ بالله من الفتن في كل صلاة، قال النبي ﷺ إذا تشهد أحدكم التشهد الأخير، فَلْيَقُلْ «اللهم إني أعوذ من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال» والفتنة تكون فتنة لشحه تعرض للإنسان، فيلتبس عليه الحق ولا يعرفه، أو تكون لشهوة أي: لهوى يعصف بالإنسان ويخطئ وهو يعلم أنه مخطئ:

فالأول: شبهة في العلم.

والثانية: شبهة في القصد.

والإنسان دائم بين الأمرين، لا يفتن في دينه إلا لهذين السببين، إمّا جهل وإمّا هوى فتجد مثلاً في الجهل يفعل الخطأ وهو لا يدري أنه خطأ، وتجده في الهوى يفعل الخطأ وهو يعلم أنه خطأ، وكلا الأمرين إن لم يعصمك الله منها فإنك تهلك.

وفي هذا الحديث: دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يحلف في المسألة. لاسيما في عهد الرسول ﷺ فإن النبي ﷺ مُشَرِّعٌ قد تحرّم المسألة من أجل سؤال السائل فيكون أعظم الناس جُرْماً. أما بعد وفاته فكذلك لا ينبغي للإنسان أن يلحف إلا رجلاً وقعت به نازلة فيسأل عنها، أو يتوقع أن تنزل به نازلة فيسأل عنها، ورجلاً يتعلّم العلم فيبحث ويسأل من

أجل تعلُّم العلم، فالأول الذي نزلت به النازلة أو صار يتوقعها محتاج إليها بنفسه، والثاني محتاج إليها لغيره.

وفي هذا: دليل على أن الرسول ﷺ لما ألحقوه في المسألة كانه ﷺ خاف أن يكون هذا الذي وقع منهم عن شك، فغضب عليهم ﷺ وصعد المنبر وقال: «لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنَّتهُ لَكُمْ» وهذا شبه تحدُّ لهم، حيث ألحقوه وأتبعوه في المسألة فقال هذا الكلام، ولهذا انتقدوا على أنفسهم ووبخوا أنفسهم توبيخاً فعلياً صار كل واحد لف رأسه في ثوبه، تغطَّى، وجعلوا يبكون ﷺ فندموا على ما فعلوا مع الرسول ﷺ هذا النَّدَم، يقول أنس، جعلتُ أنظر يميناً وشمالاً، فإذا كلُّ رجل لاف رأسه في ثوبه يبكي.

ولما قال ﷺ «لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنَّتهُ» استغلَّ رجلٌ هذا الكلام، رجل كان الناس يدعونه لغير أبيه، يعني يقولون: ابن فلان وهو ليس أباً له، فاستغلَّ هذا الكلام من الرسول ﷺ فقال: مَنْ أبي؟ قال: أبوك حذافة، أخبره بأبيه عن طريق الوحي؛ لأن الرسول ﷺ قد لا يكون علم هذا؟ ثم أنشأ عمر هذا الكلام الذي لا يمكن أن ينازعه فيه أحد، قال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً؛ يعني: فلا نسأل بل نحن راضون بالله رباً هو الذي يحكم فينا، وبالإسلام ديناً لا نتجاوزه، وبمحمد رسولاً فقرر ﷺ ما يجب على كلِّ مسلم، وهو الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً. وقال تعوذ بالله من الفتنِ خاف أن تكون هذه الأسئلة التي ألحقوا رسول الله بها أن تكون من الفتنِ.

ربما ينزل أشياء ما كانوا يتوقعونها بسبب هذه الأسئلة، فقال رسول الله ﷺ ما رأيت في الخير والشر كالיום قط؛ لأنه رأى شيئاً عظيماً كما رآه حين كان في صلاة الكسوف، لكنه في صلاة الكسوف رأى الجنة والنار بين يديه، حتى أنه تأخر خوفاً من لفح النار، وتقدَّم ليأخذ من العنب الذي رآه في الجنة^(١).

أما هذا فيقول: «صَوَّرْتُ لِي الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا وَرَاءَ الْحَائِطِ»، يعني: ما كانت بين يديه كما كانت في صلاة الكسوف.

ثم قال البخاري رحمه الله:

٣٦ - باب التَّعَوُّذِ مِنْ غَلْبَةِ الرِّجَالِ

٦٣٦٣ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرِو مَوْلَى الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْطَلٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لِأَبِي طَلْحَةَ: التَّمَسَّ لَنَا غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي، فَخَرَجَ بِي أَبُو طَلْحَةَ يُرِدُّنِي وَرَاءَهُ، فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُلَّمَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلْبَةِ الرِّجَالِ، فَلَمْ أَزَلْ أَخْدُمُهُ حَتَّى أَقْبَلْنَا مِنْ خَيْبَرَ وَأَقْبَلَ بِصَفِيَّةَ بِنْتُ حُيٍّ قَدْ حَازَهَا فَكُنْتُ أَرَاهُ يَحْوِي وَرَاءَهُ بَعَاءَةً - أَوْ كِسَاءً - ثُمَّ يُرِدُّهَا وَرَاءَهُ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالصُّهْبَاءِ صَنَعَ حَيْسًا فِي نِطْعٍ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَدَعَوْتُ رَجُلًا فَآكَلُوا، وَكَانَ ذَلِكَ بِنَاءَهُ بِهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا بَدَأَ لَهُ أَحَدٌ قَالَ: هَذَا جَبَلٌ يُجِبُّنَا وَنُجِبُهُ فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْرَمُ مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا مِثْلَ مَا حَرَّمَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَدَنِهِمْ وَصَاعِهِمْ^(١).

❦ قوله: «باب التعوذ من غلبة الرجال». وغلبة الر - حال؛ يعني: أن يغلبوه لأن غلبة الرجال قهرٌ للإنسان سواءً غلبوا بحقٍّ أو بغير حقٍّ، لكن إذا غلبوا بغير حق صار ذلك أشدَّ وأعظم؛ لأنهم أثروا على هذا المغلوب من وجهين:

من وجه الغلبة ومن وجه الظلم، وإذا كان بحقٍّ فالغلبة لا يريد لها أحدٌ. فكان من المشروع أن يتعوذ الإنسان من الغلبة

ثم ذكر هذا الحديث: أن الرسول ﷺ قال لأبي طلحة «التَّمَسَّ لَنَا غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي» يعني: أنس بن مالك، وقد سبق أن أم سليم جاءت به إلى النبي ﷺ ليخدمه^(١) ولا منافاة، فإنه يمكن أن يكون أبو طلحة جاء به ويمكن أن تكون أم سليم جاءت به من باب التأكيد أو لم تعلم بأن أبا طلحة فعل ذلك.

وفيه دليلٌ: على أنه ينبغي للإنسان أن يستعيذ بالله من هذا الشيء «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٦).

(٢) سبق تخريجه.

والحزن والعجز والكسل»، اللهم للمستقبل والحزن للماضي، والإنسان فيما يسوءه في زمن، بين زمنين، إما زمن لاحق، وإما زمن سابق، فالذي يسوءه في الزمن السابق يحدث له حزنًا، والذي يسوءه في الزمن المستقبل ويخاف منه يحدث له همًا، فجمع النبي ﷺ بين الأمرين.

أما العجز والكسل، فالعجز: هو عدم القدرة، والكسل: عدم العزيمة، والإنسان لا يفعل الشيء إلا بأمرين بعزيمة صادقة وقدرة كاملة، فإن لم يكن لديه عزيمة لم يفعل، وإن كان لديه عزيمة ولكنه عاجز لم يفعل، فجمع النبي ﷺ بينهما.

❖ وقوله: «والبخل والعجب». العجب: شح بالنفس، والبخل شح بالمال. العجب شح بالنفس بمعنى أنه لا يُقدِّم بالإنسان على الجهاد مثلاً؛ لأن نفسه عنده غالية، والبخل شح بالمال فلا يبدل الإنسان شيئاً من ماله؛ لأنه يخشى أن ينقص ماله.

❖ وقوله: «وضلع الدين». ضلع الدين؛ يعني: غلبة الدين وذلك بكثرتِه حتى يُصيب الإنسان على وجه قوي.

❖ وقوله: «وغلبة الرجال». هذا هو الشاهد من الحديث.

وفي هذا الحديث: دليل على أنه ينبغي الحذر من الدين؛ لأن الدين في الحقيقة رُق الحر، وذُلُّ العزيز، ولهذا لم يُرشد الرسول ﷺ إليه الرجل الذي طلب منه أن يزوجه المرأة التي وهبت نفسها للنبي فلما سأله وقال: «ماذا تُصدِّقُها؟» قال: إزارِي. قال: «إن أصدقتُها الإزار بقيت بلا إزار، وإن لم تأخذْها هي وبقي عليك فلا فائدة لها منه». ثم طلب منه أن يلتبس ولو خاتماً من حديد، فلم يجد، ثم قال ﷺ: «زوجتك بما معك من القرآن»^(١). ولا أرشده إلى أن يقترض، أو يستدين؛ لأن القرض، أو الدين، ذُلُّ للعزيز، وأسرُّ للحر الطليق، فأنت يا أخي الكريم احرص بقدر ما تستطيع على تجنب الدين، وإنك لتعجب من بعض الناس يستدين الديون من أجل أن يستزيد من المال؛ يعني: يستدين ديوناً كثيرة ليتكسب بها وأحياناً تكون النتيجة عكسية فيخسر وتكون الخسارة عليه مضاعفة.

تجد بعض الناس أيضاً يستدين من أجل أن يصل إلى مستوى الأغنياء، فمثلاً تكون عنده سيارة قد كفته وقامت بحاجته، لكنه قال أنا أريد سيارة فخمة، السيارة التي عنده

(١) أخرجه البخاري (٥٠٨٧)، ومسلم (١٤٢٥).

تساوي عشرين ألفاً وحالتها جيدة لكنه يقول: لا أريدُها، أنا أريدُ سيارةً تساوي ثمانين ألفاً، ثم يذهبُ يَسْتَدِينُ هذا سَفَهٌ، إنسانٌ آخرُ عنده بيتٌ وعنده فراشٌ للحجرة التي يجلسُ فيها، والحجرة التي ينامُ فيها، لكنه قالَ لا هذا لا يكفي فأنابني فراشاً للصلاة وفراشاً للدرج وأريدُ كذا وكذا من الأشياء التي على مستوى الأغنياء فهذا غلطٌ عظيمٌ وسفهٌ في العقل، اجعلْ ما تَحْتَاجُهُ على قدر حاجتك فقط وإلا فتَصَبَّرْ حتَّى لو قُدِّرَ أنك لا تأكلُ في اليوم إلا مرةً واحدةً فافعلْ ولا تَسْتَدِنْ؛ ولهذا قالَ ﷺ: «وَضَلَعَ الدِّينَ، وَغَلَبَ الرِّجَالُ»؛ لأن الغالب أن غلبة الرجال إنما تأتي من ضلع الدين، لأنه إذا استدان وحلَّ الأجل ضيق عليه الرجال ضيقوا عليه وغلبوه ولهذا جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ بينهما.

وفي هذا الحديث أيضاً: دليلٌ على مراعاة النَّبِيِّ ﷺ لأهله وقيامه بشؤونهم ولهذا يقول: فكنتُ أراه يَحْوِي وراءه بعبادة أو كساءً ثم يُرْدِفُها وراءه. والمعنى أنه ﷺ يجعلُ كساءً أو عبادةً حاويةً للمرأة ليَحْجِبَها من الناس ثم أردفها خلفه ﷺ.

وفيه أيضاً: دليلٌ على استحبابِ الوليمة وأنها تكونُ بالحِيسِ وهو تمرٌ يخلطُ مع دقيق، وأحياناً مع الأقطِ ويَكُونُ بسمِنٍ، وعندنا نحن يَخْلُطُونَهُ مع الدقيق، لكنهم يَطْبُخُونِ الدقيق أولاً بالسمنِ حتَّى يَنْضَجَ ثم يَخْلُطُونَهُ بالتمر.

وفيه أيضاً: دليلٌ على استحبابِ الدعوة إلى الوليمة وأنه يجوزُ أن يُوكَّلَ من يدعُو النَّاسَ ولو لم يُعَيِّنْ ولهذا قالَ: فدعوتُ رجالاً.

وفيه: دليلٌ على إثباتِ المحبة من الجهادِ وذلك في قوله ﷺ حين رأى أحداً: «هذا جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه»^(١). وهذه المحبةُ محبةٌ حقيقيةٌ؛ يعنِي: أن هذا الجبلَ يُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ محبةً حقيقيةً لكنها ليست كمحبة البشر للبشر؛ لأن المحبة إذا أُضيفت إلى شيء اختصت به.

وَيَتَفَرَّغُ على ذلك فائدةٌ وهي أن قوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ [الكهف: ٢٧٧]. أن هذه الإرادة إرادةٌ حقيقيةٌ أيضاً وليست مجازاً كما يدَّعيه أهلُ المجاز، بل هي إرادةٌ حقيقيةٌ لكنَّ إرادة كلِّ شيء بحسبه.

وإنما كنا نحبه -أي: أُنحَد- لما حصل فيه من البلاءِ والتمحيصِ على أصحابِ النَّبِيِّ ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (٣٧١، ٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥).

فإنه كما هو معلوم فقد استشهد منهم سبعون رجلاً منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وأسد الله وأسد رسوله ﷺ.

وفيه أيضاً: الدعاء لأهل المدينة في مدّهم وصاعهم والمداد فيها يُكَال قليلاً كان أو كثيراً فأشار إلى القليل بقوله: «مدّ». وإلى الكثير بقوله: «صاع». والمراد أن الرسول ﷺ دعا لهم بالبركة في طعامهم.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ:

٣٧ - باب التَّعَوُّذِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

٦٣٦٤- حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ خَالِدٍ بِنْتَ خَالِدٍ، قَالَ: وَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا سَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ غَيْرَهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

٦٣٦٥- حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ، عَنْ مُصْعَبٍ كَانَ سَعْدٌ يَأْمُرُ بِخَمْسٍ وَيَذْكُرُهُنَّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهِنَّ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا يَغْنِي فِتْنَةَ الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(١).

٦٣٦٦- حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَجُوزَانِ مِنْ عَجُزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ فَقَالَتَا لِي: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذِّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذَّبْتُهُمَا وَلَمْ أَنْعِمْ أَنْ أَصَدَّقَهُمَا، فَخَرَجَتَا وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ عَجُوزَيْنِ وَذَكَرْتُ لَكَ. فَقَالَ: «صَدَقَتَا، إِنَّهُنَّ يُعَذِّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا». فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدَ فِي صَلَاةٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ^(٢).

قوله رَحِمَهُ: «باب التَّعَوُّذِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، عذابُ القبرِ ثابتٌ بالقرآن، وبالسنة، وبإجماع المسلمين:

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٦) من حديث أنس رَحِمَهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٥٨٦).

أما القرآن: فقد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقال تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ يَعْنِي: سَكَرَاتِهِ. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ أَخْرَجُوهَا مِنْ أَجْسَادِكُمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَنْفُسَ الْكَفَّارِ إِذَا بُشِّرَتْ بِالْعَذَابِ وَالْغَضَبِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - اشْمَازَتْ وَنَكِصَتْ وَتَفَرَّقَتْ فِي الْبَدَنِ خَوْفًا وَهَرَبًا وَلِهَذَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ شَحِيحًا بِهَا فَيُطَالَبُ مُطَالَبَةً: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ ﴿الْيَوْمَ﴾ «أَل» هُنَا لِلْعَهْدِ الْحَضُورِيِّ؛ يَعْنِي: هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي هُوَ يَوْمُ وَفَاتِهِمْ. ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. هَاتَانِ آيَاتَانِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، أَمَّا الْآيَةُ الثَّالِثَةُ فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿أَنَّا نُرْغِصُوكَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَبِیَوْمِ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ﴿١٥﴾ [الشعراء: ٤٦]. فَقَوْلُهُ: ﴿يُرْغِصُوكَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وَاضِحٌ أَنَّهُمُ الْآنَ يُعْرَضُونَ وَأَمَّا يَوْمُ تَقُومُ السَّاعَةُ فَأِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ - نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ -.

وأما السنة: فَتَكَادُ تَكُونُ مُتَوَاتِرَةً فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَصْحَابَهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ، وَذَلِكَ إِذَا سَأَلَهُ الْمَلَكَانِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ فَلَمْ يُجِبْ فَإِنَّهُ يُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ وَلَوْ سَمِعَهَا الْإِنْسَانُ لَهَلَكَ وَصُعِقَ ^(١). وَثَبَتَ عَنْهُ كَذَلِكَ أَنَّهُ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ - أَي: فِي أَمْرِ شَاقٍّ عَلَيْهِمَا - أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِعُهُ مِنَ الْبَوْلِ» ^(٢). وَكَذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ ﷺ أُمَّتَهُ أَنْ يَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وأما الإجماع: فَإِنَّ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ فِي صَلَاتِهِمْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ عَامَّتُهُمْ وَخَاصَّتُهُمْ.

فَإِذَا كَانَ يَكُونُ عَذَابُ الْقَبْرِ ثَابِتًا بِالْقُرْآنِ وَالسَّنةِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَكِنْ هَلْ عَذَابُ الْقَبْرِ عَلَى الْبَدَنِ أَوْ عَلَى الرُّوحِ؟

الجواب: ظَاهِرُ النُّصُوصِ أَنَّهُ عَلَى الْبَدَنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٣٨).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢١٦)، وَمُسْلِمٌ (٢٩٢).

تُجَزَّوْنَ ﴿. وَلَمْ يَقُلْ: يُجَزَى أَنْفُسُكُمْ. بَلْ قَالَ: ﴿تُجَزَّوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾. وكذلك قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾. أي: يُعْرَضُونَ هُمْ دُونَ أَنْفُسِهِمْ فظاهرُ النصوصِ أن العذابَ على البدنِ والروحِ سَتَّائِمٌ بذلك، ولكنَّ هذا العذابُ الذي يَنَالُ البدنَ لا يَظْهَرُ أثرُه ظهورًا حسيًّا كما في الدنيا يَعْنِي مثلاً لا نرى عليه أثرَ الضربِ بِالْمِرْزَقَةِ أو أثرَ الضيقِ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، لا نرى هذا؛ لأنَّ عذابَ القبرِ عذابٌ غَيْبِيٌّ وليس كعذابِ الدنيا، كما أن نعيمَ القبرِ نعيمٌ غَيْبِيٌّ وليس كنعيمِ الدنيا، وحياةُ الشهداءِ والأنبياءِ حياةٌ برزخيةٌ وليست كحياةِ الدنيا، فهذا العذابُ ظاهرُ النصوصِ أنه على البدنِ.

وقال بعضُ أهلِ العلمِ: بل هو على الروحِ، أما البدنُ فلا يَنَالُهُ من هذا العذابِ شيءٌ. وقال آخرون: بل العذابُ في الأصلِ على الروحِ ولكنَّ بها اتصالاً بالبدنِ. والأقربُ عندي القولُ الأولُ.

فإذا أوردَ موردٌ علينا أننا لو حَفَرْنَا القبرَ من عَدِهِ لوجدنا الميتَ بحالِهِ.

فالجواب: أن هذا من الأمورِ الغيبيةِ التي لا يُمكنُ أن تَظْهَرَ في المشاهدةِ، اللهمَّ إلا على وجهِ الآيةِ لِيُرِيَ اللَّهُ عِبَادَهُ هذا الشيءَ فَيُمكنُ، إنما الأصلُ أنه عذابٌ غَيْبِيٌّ وكذلك النعيمُ نعيمٌ غَيْبِيٌّ.

البحثُ الثالثُ في عذابِ القبرِ؛ هل هو دائمٌ، أو منقطعٌ؟

فالجواب: أما عذابُ الكفارِ فدائمٌ، قَالَ تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾. أي: كُلَّ يَوْمٍ، في الصباحِ والمساءِ -نعوذُ باللهِ من النارِ-.

وأما عذابُ العصاةِ من المؤمنين فهذا حَسَبُ المعصيةِ، فقد تُكونُ المعصيةُ كبيرةً يَسْتَحِقُّ الإنسانُ أن يُعَذَّبَ عليها إلى يومِ القيامةِ، وقد تُكونُ دونَ ذلك، فيُعَذَّبُ بِقَدْرِهَا. المهمُّ: أن قواعدَ الشرعِ تَقْتَضِي أن يُعَذَّبَ بِقَدْرِ ذَنْبِهِ، قد يَطُولُ، وقد يَقْصُرُ.

ثم ذكرَ المؤلفُ حديثَ أمِّ خالدِ بنتِ خالدٍ وذكرَ قولَ موسى بنِ عقبةَ: سَمِعْتُ أمَّ خالدِ بنتَ خالدٍ قَالَتْ: ولم أسمعَ أحداً سَمِعَ من النَّبِيِّ ﷺ غَيْرَهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَعَوَّذُ من عذابِ القبرِ. موسى بنُ عقبةَ صاحبُ المغازي المشهورِ قَالَ هذه الكلمةُ -جزاه اللهُ خيراً- من أجلِ أن يُبَيِّنَ أن كُلَّ حديثٍ يُسْنِدُهُ إلى الرسولِ ﷺ غيرَ هذا الحديثِ فإنه يُعْتَبَرُ مراسلاً؛ لأنه هو صَرَحَ بأنه ما سَمِعَ من أحدٍ سَمِعَ من النَّبِيِّ ﷺ إلا من هذه المرأةِ.

قولها: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». يَفْعَلُ هَذَا النَّبِيُّ ﷺ، يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَمَا بِالكَ بَمَنْ سِوَاهُ؟ كَانَ جَدِيرًا أَنْ يَتَعَوَّذَ أَكْثَرَ.

ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِخَمْسٍ وَيَذْكُرُهُنَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَبَنِ»، وَسَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا وَذَكَرْنَا أَنَّ الْجَبْنَ هُوَ الشُّحُّ بِالنَّفْسِ، وَالبَخْلُ هُوَ الشُّحُّ بِالْمَالِ.

❦ وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَأَعُوذُ بِكَ أَوْ أُرَدِّ إِلَى أُرْدَلِ الْعَمْرِ». أُرَدِّلُ الْعَمْرَ؛ يَعْنِي: أَنْقَصَهُ وَأَزْدَاهُ، وَهَذَا يَشْمَلُ أَنْ يَبْلُغَ الْإِنْسَانُ مَبْلَغًا فِي الْكِبَرِ يَزُولُ مِنْهُ تَمَيُّزُهُ، أَوْ أَنْ يُصَابَ بِمَرَضٍ يَزُولُ مِنْهُ تَمَيُّزُهُ، فَأُرَدِّلُ الْعَمْرَ يَشْمَلُ هَذَا وَهَذَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا سَقَطَ تَمَيُّزُهُ بَعْدَ الْكِبَرِ سَوَاءٌ لِسَبَبٍ، أَوْ مِنْ أَجْلِ كَثَرَةِ السِّنِينَ مَلَأَ أَهْلُهُ، وَتَعَبُوا مِنْهُ، وَصَارَ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ السَّخَرِيَّةِ يَلْعَبُونَ بِهِ وَيَهْزَعُونَ بِهِ، وَالْإِنْسَانُ لَا شَكَّ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ هَذَا، لَوْ خَيْرَ الْإِنْسَانُ بَيْنَ أَنْ يَمُوتَ أَوْ أَنْ يَكُونَ الْعُوبَةَ بَيْنَ الصَّبِيَانِ فِي بَيْتِهِ لَاخْتَارَ أَنْ يَمُوتَ؛ وَلِهَذَا تَعَوَّذَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَنْ يُرَدَّ إِلَى أُرْدَلِ الْعَمْرِ.

❦ وَقَوْلُهُ: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا». يَعْنِي فِتْنَةَ الدِّجَالِ.

❦ وَقَوْلُهُ: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». هَذَا هُوَ الشَّاهِدُ.

قَالَ الْقُسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا. يَعْنِي بِفِتْنَةِ الدُّنْيَا: فِتْنَةَ الدِّجَالِ. قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: إِنْ قَوْلُهُ: يَعْنِي: فِتْنَةُ الدِّجَالِ. مِنْ زِيَادَاتِ شُعْبَةَ بْنِ الْحَجَّاجِ وَرَدَّهُ فِي فَتْحِ الْبَارِي فِي بَابِ التَّعَوُّذِ مِنَ الْبَخْلِ، وَبَيَّنَّ أَنَّ فِي رِوَايَةِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ ^(١) أَوْ

إِذْنِ هَذَا التَّفْسِيرُ تَفْسِيرٌ مِنْ بَعْضِ الرُّوَاةِ وَلَيْسَ مِنْ سَعْدِ الَّذِي هُوَ الصَّحَابِيُّ، بَلْ مِنْ دُونِهِ سِوَاءٍ كَانَ شُعْبَةً، أَوْ غَيْرَهُ، لَكِنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ تَخْصِيصٌ لِلنَّصِّ بِدُونِ دَلِيلٍ، بَلْ إِنْ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يَتَعَوَّذَ الْإِنْسَانُ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدِّجَالِ ^(٢)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِتْنَةَ الدُّنْيَا أَعْمٌ مِنْ فِتْنَةِ الدِّجَالِ، وَلَعَلَّ مِنْ فَسَّرَ هَذَا بِفِتْنَةِ الدِّجَالِ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ أَكْبَرَ فِتْنَةٍ فِي الدُّنْيَا هُوَ فِتْنَةُ الدِّجَالِ،

(١) انظر: «فتح الباري» (١١/١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (١٣١).

كما أخبر بذلك النَّبِيُّ ﷺ، أما أن تكون فتنة الدنيا هي فتنة الدجالِ فقط فهذا ليس بصحيح، إذن فتنة الدنيا تعم كل فتنة ومنها فتنة الدجال.

❖ وقوله: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». هذا هو الشاهد.

أما الحديث الثالث حديث عائشة رضي الله عنها في قصة العجوزين من اليهود، ففيه وجوب قبول الحق ممن جاء به من أي جنس كان، لأن النَّبِيَّ ﷺ صدَّق اليهوديتين مع أنها شَبَتَا وشابتا على اليهودية، لكن لما جاءتا بالحق صدَّقها النَّبِيُّ ﷺ وقال: «صدقنا». ولنا في رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أسوة حسنة وهو أن الإنسان إذا جاء بالحق أيًا كان جنسه، حتى لو كان من الفسقة، أو من الفجرة، أو من الكفار وجب علينا قبوله، لا لأنه جاء به، ولكن لأنه حق.

وكذلك بالعكس لو جاء باطل من شخص ولو كان من أصدق الناس وجب علينا رده؛ ولهذا فإن النَّبِيَّ ﷺ لما أخبرته سبيعة الأسلمية أن أبا السنابل قال لها: إنك لن تنكحي حتى تمرَّ بك أربعة أشهر وعشر. قَالَ ﷺ: «كَذَبَ أَبُو السَّنَابِلِ» ^(١). فكذَّبه، وكذلك لما قالوا في عامر بن الأكوع رضي الله عنه الذي عاد سيفه عليه فمات، قالوا: بطل أجر عامر. قَالَ ﷺ: «كَذَّبُوا، مَا بَطَلَ أَجْرُ عامِرٍ، بل له الأجر مرتين» ^(٢).

أقول: إنه يجب علينا أن نقبل الحق من أي إنسان جاء به، بل إن الرسول ﷺ قبل الحق من قائد كفار بني آدم، وهو الشيطان وذلك حين قال الشيطان لأبي هريرة: ألا أدلك على آية من كتاب الله إذا قرأتها لم يزل عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح: آية الكرسي. فقال النَّبِيُّ ﷺ لأبي هريرة: «صدقك وهو كذوب» ^(٣). ما معنى صدقك؟ أي: أخبرك بالصدق. وهو الشيطان، أما استكاف بعض الناس من الحق إذا جاء به شخص فاسق، أو ما أشبه ذلك فهذا خطأ عظيم، وأشد منه خطأ إذا جاء بهذا الحق شخص آخر عدل لكنه عنده علم وذاك يريد أن لا يكون هو الذي عثر على هذا الحكم فتجده يرده لأنه جاء به، ولو أنه هو الذي جاء بهذا الرأي لاعتبر ذلك مفخرة له.

فالحاصل: أن الحق يجب أن يقبل من أي أحد.

(١) أخرجه أحمد (٤٢٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣١١) معلقاً.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٨- باب التَّعَوُّذِ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ.

٦٣٦٧- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ» ^(١).

٣٩- باب التَّعَوُّذِ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ.

٦٣٦٨- حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ أَسَدٍ، حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلَجِ وَالْبَرْدِ، وَتَقَّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَيْتَ الثُّوبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» ^(١).

هذا الحديث فيه ألفاظٌ مرثٌ علينا مثل الكسلِ والهَرَمِ.

❖ أما قوله: «المأثم». أي: الإثم.

❖ وقوله: «المغرم». أي: الغرم، وهذا يُشبه غلبة الدين.

❖ وقوله: «ومن فِتْنَةِ الْقَبْرِ». فِتْنَةُ الْقَبْرِ هي سؤال الميت عن ربِّه ودينه ونبِيِّه وهي -أي: هذه الفِتْنَةُ- اختبارٌ يُختَبَرُ بها الإنسانُ فإنه إذا دُفِنَ وتولَّى عنه أصحابُه أتاها ملكان فيسألانه: من ربُّك، وما دينك، ومن نبيُّك؟ فيُجِبُّ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابت -نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم- ويُضِلُّ الله الظالمين.

❖ قوله: «وعذاب القبر». قد مرَّ.

❖ وقوله: «وفِتْنَةِ النَّارِ». يعني: الفِتْنَةُ التي تَكُونُ سببًا لدخولِ النار، وهي فِتْنَةُ الْإِنْسَانِ بالشهواتِ، أو بالشبهاتِ.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٦١٤٨) مختصراً.

❦ وقوله: «وعذاب النار». واضح، وهو أن يُعَذَّبَ الإنسان في نار جهنم.

❦ وقوله: «ومن شرّ فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر». الغنى فتنة، والفقر فتنة، فَيَسْتَعِيدُ الإنسان بالله من شرّ فتنة الغنى، ومن فتنة الفقر؛ وذلك لأن الغنى قد يَحْمِلُ الإنسان على الشرّ والبطر، والكبرياء، والخيلاء، والغرور، والإعراض عن الآخر؛ ولهذا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى أن تَفْتَحَ عليكم الدنيا فتَنَافَسُوهَا كما تنافسها من قبلكم، فَتُهْلِكُكُمْ كما أهلكتهم»^(١). وَصَدَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فإن الذي أَفْسَدَ هذه الأمة هو كثرة المال، ففتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وفتنة هذه الأمة في المال، فقد أَفْسَدَ النَّاسَ وصاروا كأنها خُلِقُوا له، مع أن المال خُلِقَ لهم، لكنهم هم اشتغلوا بما خُلِقَ لهم عما خُلِقُوا له، وهو عبادة الله. كذلك الفقر فتنة، فإن له فتنة عظيمة يَصُدُّ الإنسان عن عبادة الله؛ لأن الإنسان إذا جَاعَ يَطْلُبُ ما يُشْبِعُ بطنه، وربما يَعْتَدِي على الناس بالنهب والسرقة، وربما يَكْذِبُ وَيَغُشُّ، وربما يَبِيعُ عِرْضَهُ -والعياذ بالله- فإن المرأة إذا اضْطُرَّتْ ربما تَبِيعَ عرضها ولا يَبْعُدُ عن بالكَم قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار وتوسلوا إلى الله بصالح الأعمال، فإن أَحَدَهُم توسل بالعفاف التَّام وذلك أنه كان له بنتٌ عَمٌّ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا فَأَلَمَتْ بها سنة من السنين واحتاجت إليه، فجاءت تَطْلُبُ منه المساعدة فأبى إلا أن تُمَكِّنَهُ من نفسها فأبَتْ، فاضطرت ذات يوم، فجاءت إليه، وطلبت منه المساعدة وأبى إلا أن تُمَكِّنَهُ من نفسها فمِن أجل الضرورة مَكَّنَتْهُ من نفسها، فلما جَلَسَ منها مجلس الرجل من امرأته قالت له: يا هذا اتَّقِ اللَّهَ ولا تَقْضُ الخاتمَ إلا بحَقِّه، فقام عنها وهي من أَحَبِّ النَّاسِ إليه، يَعْنِي ما كرهها بل لا زالت رَغْبَتُهُ فيها، لكنه قام عنها تقوى الله ﷻ لأنها ذَكَرَتْهُ بالله، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا ما نَحْنُ فِيهِ^(٢).

وإنما أتيت بهذا الحديث استشهاده على أن الفقر قد يَحْمِلُ الإنسان على بيع عرضه، بل إِنَّا نَسْمَعُ أنه في بعض الجهات يَبِيعُونَ أولادهم الذكور والإناث لِيَأْخُذُوا الدراهم ويأكلون بها خوفًا من الهلاك، كُلُّ ذَلِكَ من الفقر، ولهذا استعاذ النَّبِيُّ ﷺ من فتنة الفقر.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٥)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

❦ قوله: «وأعوذُ بك من فتنة المسيح الدجال». وسبق الكلام عليه.

❦ وقوله: «اللهم اغسل عین خطايای بماءِ الثلجِ والبردِ ونقِّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوبَ الأبيضَ من الدنسِ، وباعدْ بيني وبين خطايای كما باعدتَ بين المشرقِ والمغربِ». أيضًا سبق الكلام عليه في دعاء الاستفتاح.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٤٠ - باب الاستعاذة من الجبن والكسل. كَسَالِي وَكَسَالِي وَاحِدٌ.

٦٣٦٩ - حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُو بْنُ أَبِي عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجَبَنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلِيَةِ الرِّجَالِ»^(١).

٤١ - باب التَّعَوُّذِ مِنَ الْبُخْلِ. الْبُخْلُ وَالْبَخْلُ وَاحِدٌ، مِثْلُ الْحَزَنِ وَالْحَزَنِ.

٦٣٧٠ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنِي غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهَذِهِ الْخَمْسِ وَيُحَدِّثُهُنَّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَبَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَرُدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

٤٢ - باب التَّعَوُّذِ مِنْ أَرْدَلِ الْعُمَرِ. أَرَادَلْنَا: سُقَّاطْنَا.

٦٣٧١ - حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَلِّ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَبَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ»^(١).

٤٣ - باب الدُّعَاءِ بِرَفْعِ الْوَبَاءِ وَالْوَجَعِ.

٦٣٧٢ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَانْقُلْ حِمَامَهَا إِلَى الْجُحْفَةِ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدَنَّا وَصَاعِنَا»^(١).

٦٣٧٣- حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، أَخْبَرَنَا ابْنُ شِهَابٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ أَبَاهُ قَالَ: عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ شُكْوَى أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَلِّغْ بِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجْعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلْثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا». قُلْتُ: فَيَسْطُرُهُ؟ قَالَ: «الثَّلَاثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجُرْتَ، حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِيْ أَمْرَاتِكَ». قُلْتُ: أَأَخْلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَرَدَدَتْ دَرَجَةً وَرَفَعَةً، وَلَعَلَّكَ تُخْلَفُ حَتَّى يَسْتَفْعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ، اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلَا تُرَدِّهِمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، لَكِنَّ الْبَائِسَ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ». قَالَ سَعْدٌ: رَأَيْتُ لَهُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ أَنْ تُوفِّيَ بِمَكَّةَ^(٢).

هذا الحديث أيضًا فيه الدعاء برفع الوباء والوجع، وهذا يشمل رفعه عن المكان ورفعَه عن المصاب.

أما رفعه عن المكان فكما دعا النبي ﷺ رَبَّهُ ﷻ أَنْ يَنْقُلَ حَمَى الْمَدِينَةِ إِلَى الْجُحْفَةِ فَإِنْ هَذَا دَعَاءُ بَرَفِ الْوَبَاءِ عَنِ الْمَكَانِ عَامَةً.

أما الرفع عن المصاب، فمثل قول الرسول ﷺ ﷺ في حديث سعدٍ: «اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ». فَإِنْ هَذَا الدُّعَاءُ يَتَّصِمُنُ أَنْ يَشْفِيَ اللَّهُ سَعْدًا حَتَّى لَا يَمُوتَ فِي مَكَّةَ، وَمِثْلُهَا الدُّعَاءُ لِلْمَرِيضِ: «اللَّهُمَّ اشْفِهِ. اللَّهُمَّ عَافِهِ. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. فَهَذَا دَعَاءُ بَرَفِ الْوَبَاءِ عَنِ الْمَصَابِ، لَا عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ.

فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ». لَا شَكَّ أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أُخْرِجُوا مِنْ أَحَبِّ الْبَقَاعِ إِلَيْهِمْ، لَا سِيَّما وَأَنْ فِيهَا بَيْتُ اللَّهِ ﷻ، وَأَنَّهَا أُمُّ الْقُرَى، وَأَفْضَلُ بِلَادِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ

(١) أخرجه مسلم (١٣٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢٨).

سَوْفَ يَشُقُّ عَلَيْهِمُ، الْإِنْسَانُ لَوْ أُخْرِجَ مِنْ بَلَدِهِ وَهِيَ هَذِهِ إِلَى بَلَدٍ كُلِّ بَنَائِهَا قَصُورٌ مُشِيدَةٌ لَكَانَ ذَلِكَ عَزِيزًا عَلَيْهِ وَشَاقًّا عَلَيْهِ، فَكَيْفَ يَهْؤُلَاءِ الْمُهَاجِرِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهِيَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ، وَفِيهَا بَيْتُ اللَّهِ، وَمَكَّةُ مَأْوَى النَّاسِ وَمَثَابَةُ النَّاسِ، وَالْمَدِينَةُ كَانَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ سَبْخَةً وَبَيْتَةً كُلُّهَا مِنْ نَقَاعَاتِ الْمَاءِ وَفَضَلَاتِ الْمَاءِ الَّتِي تُولَدُ الْبَعُوضُ وَالْأُوبَةُ، وَكَانَتْ ذَاتَ حَيٍّ فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْقُلَ حَمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ الَّتِي هِيَ مِيقَاتُ أَهْلِ الشَّامِ وَإِنَّمَا دَعَا اللَّهَ أَنْ يَنْقُلَهَا إِلَى الْجُحْفَةِ؛ لِأَنَّ الْجُحْفَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ بِلَادَ كُفْرٍ، وَإِذَا نُقِلَتِ الْحُمَى إِلَيْهِمْ فَهَذَا عَوْنٌ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الْقَضَاءِ عَلَى الْكُفْرِ.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على أن الإنسانَ قد يُحِبُّ الْأَمَّاكِنَ؛ لقوله: «حُبُّ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حُبُّ إِلَيْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدُّ».

وفيه أيضًا: أن الحبَّ يَخْتَلِفُ قُوَّةً وَضَعْفًا، وَشِدَّةً وَخِفَةً.

أَمَّا حَدِيثُ سَعْدٍ فِيهِ مَسَائِلُ:

أولاً: فيه دليلٌ على جَوَازِ الْإِخْبَارِ عَمَّا بَلَغَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْمَرَضِ؛ لقوله: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَلَغَ بِي مَا تَرَى مِنَ الْوَجَعِ. وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ.

وَالْإِخْبَارُ بِمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ مِنَ الْمَرَضِ يَنْقَسِمُ إِلَى أَقْسَامٍ فِي الْوَاقِعِ:

القسم الأول: أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّوَجُّعِ وَالتَّشَكُّيِّ، فَهَذَا يُنَافِي الصَّبْرَ؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ صَبْرٌ بِلَا شَكْوَى، وَأَنْتَ إِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ فَإِنَّهُ مِنْ سَفْهِكَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْكُوَ فَاشْكُ إِلَى اللَّهِ الَّذِي يَرْحَمُكَ، أَمَا أَنْ تَشْكُوَ إِلَى الْخَلْقِ فَإِنَّ الْخَلْقَ إِمَّا أَنْ يَرْحَمُوكَ، وَإِمَّا أَنْ يَشْتُمُوا بِكَ.

والقسم الثاني: أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِالْإِخْبَارِ: الْإِخْبَارُ بِالْوَاقِعِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْمَئِنَّ الْمَخْبِرُ وَيَعْرِفَ الْأَمْرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَهَذَا كَمَا يُخْبِرُهُ الْإِنْسَانُ أَقَارِبَهُ وَأَصْحَابَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ.

والقسم الثالث: أَنْ يُخْبِرَ بِالْمَرَضِ الَّذِي أَصَابَهُ لِلْحَاجَةِ كَمَا لَوْ وَصَفَ نَفْسَهُ لِلطَّيِّبِ مِنْ أَجْلِ تَشْخِصِ الْمَرَضِ؛ لِأَنَّ الطَّيِّبَ إِذَا لَمْ يُخْبَرَ بِأَعْرَاضِ الْمَرَضِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْرِفَ الْمَرَضَ ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى مَعَالِجَتِهِ وَدَوَائِهِ، وَمِنْ الْحَاجَةِ مَا ذَكَرَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ لِرَسُولِ

الله ﷺ؛ لأنه أخبره بهذا لِيَسْتَشِيرَهُ فيما يَفْعَلُ، ولهذا قَالَ له: وأنا ذو مالٍ.

❖ وقوله: «وأنا ذو مالٍ». التنكيرُ هنا للتكثير؛ أي: للعمومِ يَعْنِي ذو مالٍ كثيرٍ. ولا يَرِثُنِي إلا ابنةٌ لي واحدةٌ. يَعْنِي: لا يرثني من الأولادِ إلا ابنةٌ واحدةٌ فقط، فهو في ذلك الوقت ليس له إلا بنتٌ واحدةٌ، وبالتالي فإن بقيةَ المالِ سوفَ يَكُونُ للعصبةِ.

❖ وقوله: «أفأُتصدَّقُ بثلثي مالي». يَعْنِي: اثنين من ثلاثة. قَالَ: «لا». قلت: فبِشْطَرِهِ. قَالَ: «الثُلُثُ كثيرٌ». لكن في بعضِ ألفاظِ الحديثِ قلت: بِشْطَرِهِ. قَالَ: «لا». قلت: بثلثه. قَالَ: «الثُلُثُ، والثُلُثُ كثيرٌ». فذكر الثلثين، ثم النصفَ، ثم الثلثَ.

ومع هذا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الثُلُثُ كثيرٌ». وفي هذا إشارةٌ إلى أن الأولى أن يَنْقُصَ عن الثلثِ؛ ولهذا اختارَ أبو بكرٍ رضي الله عنه أن يُوصِيَ بالخمسةِ، وسلكَ فقهاءُ الحنابلةِ هذا المسلكَ، وقالوا: يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أن يُوصِيَ بالخمسةِ. والعجبُ أن جميعَ كُتُبِ الوصايا التي اطلعتُ عليها كلُّهم يَكْتُبُونَ الثلثَ، الثلثَ، وَيَتَذَكَّرُ أن تَمُرَّ بِكَ وصيةٌ يَكُونُ الإنسانُ قد أوصى فيها بالخمسةِ.

والحقيقةُ: أن على أهلِ العلمِ مسئوليةً في هذه المسألة؛ لأن العاميَّ عاميٌّ، والإنسانُ إذا أدبر على الدنيا صار بخيلاً بها، كما قَالَ النَّبِيُّ عليه السلام: «لا تَمْهَلْ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ ^(١)». ولو أن طلبةَ العلمِ الذين يَكْتُبُونَ الوصايا يُنَبِّهُونَ الموصِيَ فيقولون: يا أخي، أنت تُريدُ الأفضلَ فاجعلِ الوصيةَ بالخمسةِ؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ ما رَخَّصَ في الثلثِ إلا على مَضَضٍ، ولهذا أشارَ إلى أن الأفضلَ أن يَنْقُصَ، فقال: «الثُلُثُ، والثُلُثُ كثيرٌ». وكان ابنُ عباسٍ رضي الله عنه يقول: لو أن الناسَ غَضُّوا من الثلثِ إلى الربعِ؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: الثلثُ، والثُلُثُ كثيرٌ، لكنَّ أبا بكرٍ اختارَ الخمسةَ، وقال: أختارُ ما اختاره اللهُ لنفسِهِ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١].

❖ قوله: «إنك أن تَذَرُ ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أن تَذَرَهُمَ عالةً». «أن» بالفتحِ أو بالكسرِ؟ قَالَ بعضُهم: إن فيها روايتين؛ الفتحُ، والكسرُ؛ أما الفتحُ فعلى أنها بدلٌ من الضميرِ في قوله: «إنك». وهذا البدلُ يُسمى بدلَ الاشتغالِ، قَالَ ابنُ مالكٍ في البدلِ:

مطابقاً أو بعضاً أو ما يَشْتَمِلُ عليه يلفى أو كمعطوفٍ بيل

فهو بدلُ اشتغال.

الوجه الثاني: «إِنْ تَذَرُ». تكون «إِنْ» شرطية، وإذا جعلنا «إِنْ» شرطية أشكل علينا جوابُ إِنْ الشرطية أين هو؟ «خيرٌ»، لكن على تقدير محذوف: إِنْك إِنْ تَذَرُ ورثتَ أغنياءَ فهو خيرٌ فيكونُ المبتدأ في جملة الجواب محذوف.

❦ وقوله: «إِنْك لَنْ تُنْفِقَ نفقةً تَبْتَغِي بها وجه الله إِلَّا أُجِرْتَ عليها». «نفقة» عامةٌ لأنها جاءت في سياق النفي، وهي نكرةٌ فتفيدُ العمومَ، ولكنه اشترط ﷺ أَنْ يَكُونَ يَبْتَغِي لها وجه الله؛ أي: يَبْتَغِي بها الوصولَ إلى الجنةِ الذي يَحْصُلُ به النظرُ إلى الله ﷻ؛ لأن المؤمنين يَرَوْنَ رَبَّهُمْ في الجنة.

❦ وقوله: «إِلَّا أُجِرْتَ عليها». أي: أُعْطِيتَ عليها أجرًا، ومعروفٌ أَنَّ الحسنةَ بعشرِ أمثالِها إلى سبعِ مائةٍ ضعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة.

❦ وقوله: «حَتَّى مَا تَجْعَلَ في فيِّ امرأتِكَ». «في» الثانيةُ اسمٌ وليست حرفَ جرٍّ، لكنها من الأسماءِ الخمسةِ فتَجَرُّ بالياءِ، والأسماءُ الخمسةُ هي «أبوك، أخوك، حموك، فوك، ذو». قوله هي «فيِّ» لكنها جُرَّتْ بالياءِ، وفيها لغةٌ: إبدالُ الياءِ ميمًا، يَعْنِي: في فَمِ امرأتِكَ، وهي لغةٌ عربيةٌ صحيحةٌ.

❦ وفي قوله: «وحتى ما تَجْعَلَ». حَتَّى هذه للغاية. والمعنى: في أدنى شيءٍ؛ يَعْنِي: حَتَّى الشيء الذي تَفَعَّلَهُ معاوضةً وهو الإنفاقُ على الزوجةِ، فإنك تُؤَجِّرُ عليه، مع أَنَّ الإنفاقَ على الزوجةِ واجبٌ في مقابل الاستمتاع بها.

❦ وقوله: «قُلْتُ: أُخَلِّفُ بعدَ أصحابي؟» هذا استفهامٌ يُقْصَدُ به الخوفُ؛ يَعْنِي: خاف أَن يُخَلِّفَ بعدَ أصحابِهِ، ومعنى التخليفِ هنا: أَن يَمُوتَ في مكة، وكانوا يَكْرَهُونَ أَن يَمُوتَ المهاجرُ من مكة في مكة؛ لأنها بلادٌ خرجوا منها لله فكَرِهوا أَن يَعُودُوا فيها، ولهذا يَحْرُمُ على المهاجرِ من مكة أَن يَبْقَى فيها أكثرَ من ثلاثةِ أيامٍ لغيرِ النسكِ. وكان معنى قوله: أُخَلِّفُ بعدَ أصحابي. يَعْنِي: أُخَلِّفُ في مكة فأموتُ فيها وقد خرجتُ منها مهاجرًا. فقال له النبي ﷺ مطمئنًا إياه: «إِنْك لَنْ تُخَلِّفَ»؛ يَعْنِي: لَنْ تَبْقَى في مكة، «فَتَعْمَلُ عملاً يَبْتَغِي به وجه الله إِلَّا ازدادت به درجةٌ ورفعةٌ»؛ يَعْنِي: حَتَّى لو فُرِضَ أَنَّك خُلِفْتَ ولم تَتِمَّكَنَّ من الخروجِ من مكة، ولكنك تَعْمَلُ عملاً يَبْتَغِي به وجه الله إِلَّا ازدادت به درجةٌ ورفعةٌ يَعْنِي أَن

ذلك لا يَعُوقُكَ عن رفع الدرجات.

ثم قَالَ له ﷺ: «ولعلك تُخَلِّفُ»، ومعنى «تُخَلِّفُ» الثانيةُ غير معنى «تُخَلِّفُ» الأولى تُخَلِّفُ؛ أي: تَبْقَى ولا تَمُوتُ في مكة. «حَتَّى يَنْتَفِعَ بك أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بك آخرون». وصدق ما توقعه النَّبِيُّ ﷺ فَإِنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وقاصٍ بَقِيَ، خُلِّفَ وَعُمِّرَ وأجرى اللهُ على يديه من الفتوحاتِ في المشرقِ ما هو معلومٌ في التاريخ فضرَّ اللهُ به أَقْوَامًا ونَفَعَ به آخَرِينَ؛ ضَرَّ به الكفارَ، ونَفَعَ به المسلمين، وهذا من آياتِ النَّبِيِّ ﷺ فإنه صدق ما توقعه فخلِّفَ سَعْدُ، وانتفعَ به أَقْوَامٌ، وَضُرَّ به آخرون، وخُلِّفَ أولادًا كثيرين يَزِيدُونَ على العشرةِ وكان في الأولِ ما عنده إلا بَنَتْ.

ثم قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ امْضِ لأصحابي هجرتهم، ولا تُرْذِهِم على أعقابهم». دعا اللهُ ﷻ أَنْ يُمَضِّيَ لأصحابِهِ هجرتهم، وَأَنْ لا يَرْذِهِم على أعقابِهِمْ فَيَبْقُوا في البلادِ التي هاجروا منها وَيَحْتَمِلُ ما هو أَعْمُ من ذلك أَنْ لا يَرْذِهِم على أعقابِهِمْ أي: إلى الكفرِ بعدَ الإيمانِ، كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا﴾ [التوبة: ١٤٤].

ثم قَالَ: «لكن البائسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ». يَرْتَبِي له رَسُولُ اللهِ ﷺ من أَنْ تُوفِّيَ بمكة، البائسُ يَعْنِي: الذي لم يَنْتَلِ ما يُرِيدُ.

سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ هَاجَرَ أَحَدَ الْمُهَاجِرِينَ، قَضَى اللهُ أَنْ يَمُوتَ في مكةَ فرَتَى له النَّبِيُّ ﷺ يَعْنِي تَوَجَّعَ له؛ لأنهم كانوا - كما قُلْتُ - يُحِبُّونَ أَنْ لا يَمُوتَ أَحَدٌ من المهاجرينِ في مكة، ولكن هذا الأمرُ بيدَ اللهِ ﷻ ليس إلى الشخصِ نفسه، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [التكاثر: ٣٤]. يُوجَدُ بعضُ الناسِ يَكْرَهُ أَنْ يُسَافِرَ إلى بلدٍ ما، ثم يُقَدَّرُ اللهُ له أَنْ يَمُوتَ فيها.

ومن كانت مَنِيَّتُهُ بأَرْضٍ فليس يَمُوتُ في أرضٍ سواها

ولكن مع ذلك لا مانعَ أَنْ نَقُولَ لشخصٍ ابْتُليَ بأمرٍ من الله ليس له به طاقة: إنه بائسٌ. قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ ﴿٨٨﴾ [الحج: ٢٨]. والإنسانُ لا يَخْتَارُ الفقرَ وإنما الفقرُ بيدَ مَنْ بيده كُلُّ شيءٍ وهو اللهُ ﷻ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٤ - باب الاستعاذة من أَرَذَلَ الْعُمُرُ، وَمِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَفِتْنَةِ النَّارِ.

٦٣٧٤ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا الْحُسَيْنُ، عَنْ زَائِدَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ مُصْعَبٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: تَعَوَّذُوا بِكَلِمَاتِ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِهِنَّ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرَذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ».

سبق الكلام على هذه، والجبن هو الشح بالنفس، وضده الشجاعة، والبخل هو الشح بالمال، وضده الكرم.

❦ وقوله: «من أن أُرَدَّ إلى أَرَذَلِ الْعُمُرِ»؛ أي: أنقصه من حيث المعنى، والإحساس، والعقل، مثل أن يبلغ الإنسان من العمر أَرَذَلَهُ ويضيع فكره، وقلنا ربما يُحْمَلُ أيضًا على ما لو حَدَثَ له حادثٌ فأضاع فكره فإن هذا أيضًا من أَرَذَلِ الْعُمُرِ.

❦ وقوله: «فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْقَبْرِ». سبق أن فِتْنَةَ الدُّنْيَا مدارُهَا على الشبهة، أو الشهوة، والشهوة بمعنى الهوى، والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: فِتْنَةُ النَّارِ فَهَلْ لِلنَّارِ فِتْنَةٌ؟
الجواب: المرادُ الْفِتْنَةُ التي يَدْخُلُ بها أَهْلُ النَّارِ النَّارَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٧٥ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْمَغْرَمِ وَالْمَأْتَمِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَفِتْنَةِ النَّارِ وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغَنَى وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلَجِ وَالْبَرْدِ، وَتَقَّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يَتَّقَى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(١).

سبق الكلام عليها إلا فِتْنَةَ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ فذكرنا أننا تكلمنا عليها في «شرح زاد المستقنع».

(١) سبق تخريجه.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٥ - باب الاستعاذة مِنْ فِتْنَةِ الْغِنَى.

٦٣٧٦ - حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا سَلَامُ بْنُ أَبِي مُطِيعٍ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ خَالَتِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(١).

٤٦ - باب التَّعَوُّذِ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ.

٦٣٧٧ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَشَرِّ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ قَلْبِي بِمَاءِ التَّلَجِّ وَالْبَرْدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ»^(٢).

لِنَنْظُرَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ مِنَ النَّاخِيَةِ الْحَدِيثِيَّةِ: حَدِيثُ عَائِشَةَ أَظْنُهُ بَدَأَ مِنْ بَابِ التَّعَوُّذِ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ، وَمَدَّاهُ عَلَى هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، وَكُلُّ هَذِهِ الْاِخْتِلَافَاتِ مِنْ بَعْدِ هِشَامٍ فَمَثَلًا وَهَيْبٌ عَنْ هِشَامٍ فِي بَابِ التَّعَوُّذِ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ وَفِي بَابِ الْاِسْتِعَاذَةِ مِنْ أَرْذَلِ الْعَمْرِ وَكَيْفُ حَدَّثَنَا هِشَامٌ، وَأَبُو مُعَاوِيَةَ فِي بَابِ التَّعَوُّذِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرِّوَاةَ كَانُوا يَرَوْنَ الْأَحَادِيثَ بِالْمَعْنَى، إِلَّا فَالظَّاهِرُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْ بِالْحَدِيثِ عَلَى وَجْهِ وَاحِدٍ، هَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، وَمَنْ بَعْدَهَا لَعَلَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَحْكُونَهَا، وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنَّ مَنْ بَعْدَ هِشَامٍ هُمُ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا؛ لِأَنَّ هِشَامَ اتَّفَقَ الرِّوَاةُ عَلَى أَنَّهُمْ يُخْرِجُونَهُ عَنْهُ، فَيَكُونُ الْخِلَافُ مِمَّنْ بَعْدَ هِشَامٍ؛ لِأَنَّهُ يَبْعُدُ أَنَّ هِشَامَ يُحَدِّثُ بِهِ تَارَةً كَذَا، وَتَارَةً كَذَا، وَهُوَ مِنَ الثَّقَاتِ الْأَثْبَاتِ، فَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ مِمَّنْ بَعْدَهُ، لَكِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَحْدَّثِينَ يَرَوْنَ الْأَحَادِيثَ بِالْمَعْنَى.

(١) أخرجه مسلم (٥٨٩).

(٢) سبق تخريجه.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٧ - باب الدُّعَاءِ بِكَثْرَةِ السَّالِ مَعَ الْبَرَكَةِ.

٦٣٧٨، ٦٣٧٩ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أُمِّ سُلَيْمٍ أَنَهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْسَ خَادِمُكَ ادْعُ اللَّهَ لَهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ»^(١). وَعَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ مِثْلَهُ.

٦٣٨٠، ٦٣٨١ - حَدَّثَنَا أَبُو زَيْدٍ سَعِيدُ بْنُ الرَّبِيعِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: أَنْسَ خَادِمُكَ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ»^(١).

الرواية الثانية فيها فائدة مهمة بالنسبة للسند، وهي تصريح قتادة بالسماع؛ لأن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ فيه شيء من التدليس، لكن مع ذلك ما رواه البخاري ومسلم عنه بلفظ العننة فهو محمول على السماع؛ لأن هذا هو مقتضى شرط البخاري ومسلم، فما روي في البخاري ومسلم عن قتادة بلفظ العننة فإنه محمول على السماع فلا يطعن فيه.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٨ - باب الدُّعَاءِ عِنْدَ الْإِسْتِخَارَةِ.

٦٣٨٢ - حَدَّثَنَا مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو مُصْعَبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الْمَوَالِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنِّدِ، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَالسُّورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ: «إِذَا هَمَّ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدِرْهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْني عَنْهُ، وَاقْدِرْ لِي الْحَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِنِي بِهِ وَيَسِّمِي حَاجَتَهُ».

(١) أخرجه مسلم (٢٤٨٠).

(٢) انظر التعليق السابق.

هذا بابُ الدعاءِ عند الاستخارة، والاستخارةُ هي طلبُ خيرِ الأمرين، والإنسانُ في أفعاله إما أن يتبينَ له خيرُ الأمرين فيفعله ولا يحتاجُ إلى استخارة، وإما أن يترددَ، ويشكُلَ عليه الأمرُ فحينئذٍ يحتاجُ إلى استخارة؛ لأنه لا يدري ما خيرُ الأمرين، وإنما العالمُ بذلك هو الله ﷻ؛ ولهذا قال: كان النبي ﷺ يُعلمنا الاستخارةَ في الأمورِ كلها كالسورة من القرآن... إلى آخره.

❦ قوله: «في الأمورِ كلها». يعني: التي نطلبُ فيها خيرَ الأمرين، أما التي يتبينُ لنا فيها خيرُ الأمرين فلا حاجةَ للاستخارة؛ ولهذا لا شكَّ أننا كلُّنا نهمُّ بالعشاءِ أو الفجرِ فهل نطلبُ منا أن نستخير؟

الجواب: لا، لأننا قد عرفنا الخيرَ، وكذلك يُطلبُ منا أن نتصدقَ، وهل نحن إذا أردنا الصدقةَ نستخير؟! لما أمر النبي ﷺ النساءَ بالصدقة تصدقن فوراً^(١)، ومعلومٌ أنهن لم يتصدقن إلا بعدَ الهمِّ بها، والإرادة لها فقولُه في الأمورِ كلها. أي: في الأمورِ التي نطلبُ فيها خيرَ الأمرين، ويشكُلُ علينا فيها الأمرُ، فكما نستشير الخلقَ نستخير الخالقَ، والخلقُ شَشِيرُهُ، والخالقُ شَشِيرُهُ.

يقول: «إذا همُّ بالأمرِ فليركع ركعتين». أنا ليس عندي من غير الفريضة^(٢).

قَالَ الْقَسْطَلَانِي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: من غير الفريضة في غير وقت الكراهة.

ولا ذكرها رواية؟

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/ ١٨٥):

❦ قوله: «من غير الفريضة». فيه احترازٌ عن صلاة الصبح مثلاً... إلخ. اهـ.

معناه أنها موجودة في نسخة ابن حجر.

على كلِّ حالٍ: هي وإن لم تذكرْ فواضحٌ أن المراد من غير الفريضة؛ لأن قوله: فَلْيَرْكَعْ ركعتين. أمرٌ بركعتين من أجل الاستخارة، والفرائض ثابتة بلا سببٍ؛ يعني: فيكونُ قوله: «من

(١) أخرجه البخاري (٩٧٨)، ومسلم (٨٨٥).

(٢) أخرج هذه الرواية البخاري برقم (٧٣٩٠).

غير الفريضة». من باب التوكيد، وإلا فإن كل صلاة سببها طلبُ الخيرة لابد أن تكون من غير الفريضة؛ لأن الفريضة ليس لها سببٌ فهي واجبةٌ بدون سببٍ، سببها دخول الوقت فقط.

❖ وقوله: «ثم يقول». وظاهره أنه يقول ذلك بعد السلام؛ لقوله: ثم يقول.

❖ وقوله: «اللهم إني أَسْتَخِيرُكَ بعلمك». أي: أطلبُ منك خيرَ الأمرين بحسبِ علمك به.

❖ وقوله: «بعلمك». أي: فيما تعلمه، والله تعالى يعلم قطعاً خيرَ الأمرين للإنسان.

❖ وقوله: «وَأَسْتَقْدِرُكَ بقدرتك». أي: أطلبُ منك القدرةَ على خيرِ الأمرين إذا قدرته لي

بقدرتك.

❖ وقوله: «وَأَسْأَلُكَ من فضلك العظيم». لأن المقامَ مقامُ حاجةٍ وتضرعٍ إلى الله ﷻ.

❖ وقوله: «فإنك تقدرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ». فيها لفٌّ ونشْرٌ غيرُ مرتبٍ؛ لأنه

قال: أَسْتَخِيرُكَ بعلمك. فقدّم العلمَ، وهنا قال: فَتَقْدِرُ ولا أقدرُ، وتعلمُ ولا أعلمُ.

❖ وقوله: «وأنت علامُ الغيوب». أي: ما غابَ عنا في المستقبل، وكذلك في الحاضر.

❖ وقوله: «اللهم إن كنت تعلمُ أن هذا الأمرَ خيرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبةَ أمري». لا

يقول: «هذا الأمر»، وإنما يُسمِّي حاجته.

❖ وقوله: «أو قال». شكٌ. «في عاجلِ أمري وآجلِهِ، فاقدره لي». وأيهما أعمُّ؟ هل خيرٌ لي

في ديني ومعاشي وعاقبةَ أمري، أو في عاجلِ أمري وآجلِهِ؟

الأولى فيها تفصيلٌ: في ديني ومعاشي الذي هو الدنيا فإنها محلُّ المعاش، وعاقبةَ

أمري؛ أي: الآخرة، وعاجلِ أمري وعاجلِهِ إذا قلنا: أمري مفردٌ مضافٌ يعمُّ كلَّ الأمور صار

الأولُ أكثرَ تفصيلاً من الثاني، ولكن إن قلتَ هذا أو هذا أجزأ؛ لأن الراوي شكَّ أيهما سَمِعَ.

لو قالَ قائلٌ: أو أقولُ الاثنين جميعاً فأقول: في ديني ومعاشي وعاقبةَ أمري وعاجلِ

أمري وآجلِهِ.

نقولُ: لا، لا يَجْمَعُ؛ لأن الراوي جَزَمَ بأن الذي جاء به النصُّ هذا أو هذا، فلا يُمكنُ أن

تأتيَ بالأمرين جميعاً.

❖ وقوله: «وإن كنت تعلمُ أن هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبةَ أمري» -أو قال: عاجلِ

أمري آجلِهِ- فاصرفه عني واصرني عنه، واقدر لي الخيرَ حيث كان، ثم رَضِّنِي به». هكذا يقولُ.

بعد هذا الدعاء كيف نَعْلَمُ أيَّ الأمرين خيرٌ؟

الجواب: نَعْلَمُ ذَلِكَ بِأَمْرٍ:

الأمر الأول: أَنْ يَنْشَرِحَ صَدْرُهُ لِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَيَسْرِعُ فِيهِمَا انْشَرَحَ لَهُ صَدْرُهُ.

الأمر الثاني: أَنْ يَرَى رُؤْيَا تُؤَيِّدُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ.

الأمر الثالث: أَنْ يُشِيرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّصِيحِ بِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَتَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

اسْتَخَارَ لَهُ ذَلِكَ.

الأمر الرابع: أَنْ يَتَفَاقَلَ بِأَنْ يَسْمَعَ شَيْئًا يُؤَيِّدُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ فَهَذَا يَأْخُذُ بِهِ.

الأمر الخامس: أَنْ يُفْتَحَ عَلَيْهِ التَّفَكُّرُ وَالتَّأَمُّلُ فَيَتَأَمَّلُ مِنْ وَقَعَ لَهُ مِثْلُ هَذَا فَأَقْدِمَ عَلَى هَذَا

فَغْنِمَ، أَوْ أَقْبَلَ عَلَى الثَّانِي فَنَدِمَ، فَيَأْخُذُ بِمَا فِيهِ الْغَنَمُ مِنْ بَابِ الْإِعْتِبَارِ، كُلُّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ تُرْجَحُ لِلْمُسْتَخِيرِ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ.

فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ مَرْجَحٌ فَإِنَّهُ يُعِيدُ الاسْتِخَارَةَ مَرَّةً ثَانِيَةً حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْأَمْرُ، وَهَذَا لَا يَضُرُّهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَعَادَهَا فَإِنَّمَا يَزْدَادُ عَمَلًا صَالِحًا وَدُعَاءً، وَالدُّعَاءُ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَافْتِقَارًا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِذَا اسْتَسْقَى النَّاسُ فَسَقُوا فَقَدْ حَصَلَ الْمَطْلُوبُ، وَإِنْ لَمْ يُسْقَوْا أَعَادُوا الاسْتِسْقَاءَ مَرَّةً، وَمَرَّةً، وَمَرَّةً، إِلَى أَنْ يُسْقَوْا، فَالاسْتِخَارَةُ أَيْضًا نَقُولُ فِيهَا كَذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٩ - بَابُ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْوُضُوءِ.

٦٣٨٣ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ،

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: دَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِإِيٍّ فَتَوَضَّأَ بِهِ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبِيدِ أَبِي حَامِرٍ، وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ»^(١).

قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَابُ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْوُضُوءِ». يَعْنِي: لَيْسَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الدُّعَاءُ لِلْوُضُوءِ، فَالدُّعَاءُ لِلْوُضُوءِ أَنْ تَقُولَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ^(٢). لَكِنَّ الدُّعَاءَ عِنْدَ الْوُضُوءِ؛ يَعْنِي: إِذَا فَرَعَ الْإِنْسَانُ مِنْ وَضُوئِهِ، ثُمَّ دَعَا.

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٤).

وظاهرُ كلامِ المؤلفِ أن النَّبِيَّ ﷺ لم يَتَوَضَّأْ للدَّعاءِ، وإنما تَوَضَّأَ وضوءاً عادياً، ثم دعا، ويَحْتَمِلُ أن الرسولَ ﷺ تَوَضَّأَ أولاً، ثم دعا؛ لأنه قال: لمن سلم عليه فلم يردَّ عليه السَّلامَ حتَّى تَوَضَّأَ أو تيمم قال: «كرِهْتُ أن أذكرُ اللهَ على غيرِ طَهْرٍ»^(١).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٥٠ - باب الدُّعَاءِ إِذَا عَلَا عَقَبَةٌ.

٦٣٨٤ - حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا حِمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي عَثْمَانَ، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهَا النَّاسُ أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا». ثُمَّ أَتَى عَلِيٌّ، وَأَنَا أَقُولُ فِي نَفْسِي: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّهَا كُنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ». أَوْ قَالَ: «أَلَا أَذْلُكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كُنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٢).

قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: بَابُ الدُّعَاءِ إِذَا عَلَا عَقَبَةٌ. ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي السَّفَرِ إِذَا عَلَوْ شَيْئًا مُرْتَفَعًا مِنْ جَبَلٍ، أَوْ رَمَلٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ يُكَبِّرُونَ؛ أَيُ: يَقُولُونَ: اللهُ أَكْبَرُ. وَإِذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا. وَالْمُنَاسِبَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلَا قَدْ يَكُونُ فِي نَفْسِهِ تَكْبَرٌ وَارْتِفَاعٌ فَيَذْكُرُ نَفْسَهُ يَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ. وَإِذَا نَزَلَ فَهُوَ انْحِطَاطٌ وَسُفُولٌ فَيُزَيِّدُ اللهُ عَنْ هَذَا النِّقْصِ، وَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ. فَعِنْدَ النِّزُولِ تَسْبِيحٌ، وَعِنْدَ الْعُلُوِّ تَكْبِيرٌ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا». قَوْلُهُ: «لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ». أَيُ: لَا يَسْمَعُ، وَلَا غَائِبًا. أَيُ: لَا يَعْلَمُ وَلَا يَرَى، وَإِنَّمَا تَدْعُونَ «سَمِيعًا» ضِدَّ «أَصَمَّ»، «بَصِيرًا» ضِدَّ «غَائِبًا»، فَأَفَادَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَشُقَّ عَلَى نَفْسِهِ فِي الدُّعَاءِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ». يَعْنِي:

(١) أخرجه أبو داود (١٧)، والنسائي (٣٨)، وابن ماجه (٣٥٠)، وأحمد (٨/٥)، وابن حبان (١٨٩)، والحاكم (١٦٧/١)، والبيهقي (٩٠/١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٤).

خَفَّفُوا عَلَيْهَا وَلَا تُزَعِّجُوهَا، وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ ﷻ، وَهُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، قَرِيبٌ مِنْ عِبَادِهِ وَلِهَذَا جَاءَ فِي اللَّفْظِ الثَّانِي: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» ^(١). فَهُوَ ﷻ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ عُنُقِ الرَّوَّاحِلِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْقَرَبَ لَا يُنَافِي عُلُوَّهُ ﷻ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، فَتَوْمُنٌ بِقَرَبِهِ مَنَّا وَتَوْمُنٌ بَعُلُوَّهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، كَمَا قُلْنَا فِي حَدِيثِ النَّزُولِ: «إِنْ نَزَلَ اللَّهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا لَا يُنَافِي عُلُوَّهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ». وَهَذَا لَا يَلْزَمُ مِنْهُ مَنَافَاةُ عُلُوِّ اللَّهِ ﷻ.

❦ قَوْلُهُ: «لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا». هَذَا مِنْ صِفَاتِ السَّلْبِ، وَإِنَّمَا نَفَى عَنْهُ الصَّمَمَ وَالْغَيْبَةَ لِكَمَالِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ عِنْدَنَا فِي الصِّفَاتِ الْمَنْفِيَةِ أَنْ الْمَرَادَ بِهَا إِثْبَاتُ كَمَالِ الضَّدِّ، فَإِذَا قُلْتُ: لَيْسَ اللَّهُ بِأَصَمٍّ. فَالْمَعْنَى أَنَّهُ كَامِلُ السَّمْعِ، فَلَيْسَ فِي سَمْعِهِ صَمَمٌ، إِذَا قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ. فَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ كَامِلُ الْعَدْلِ فَلَا ظِلْمَ عِنْدَهُ، وَهَكَذَا.

ثُمَّ أَتَى عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ، وَهُوَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رحمته الله فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَإِنَّمَا كُنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ».

لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. مَا مَعْنَاهَا؟ قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ أَيُّ: لَا تَحَوَّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ يَعْنِي: إِلَّا بِأَنْ يُعِينَكَ اللَّهُ ﷻ، فَالْبَاءُ هُنَا لِلِاسْتِعَانَةِ، وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَلِمَةُ اسْتِعَانَةٍ، وَلَيْسَتْ كَلِمَةً اسْتِرْجَاعٍ فَإِذَا حَاوَلْتَ شَيْئًا صَعَبًا فَقُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. يَسْهُلُ عَلَيْكَ.

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْآنَ إِذَا أُصِيبُوا بِمُصِيبَةٍ قَالُوا: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وَلَكِنْ هَذَا خِلَافُ الْأَوَّلَى، الْأَوَّلَى إِذَا أُصِيبَتْ بِمُصِيبَةٍ أَنْ تَقُولَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. فَإِنَّ هَذِهِ مَقَالَةُ الصَّابِرِينَ. لَكِنْ يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَّهَ كَلَامُ النَّاسِ؛ أَعْنِي: قَوْلُهُمْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَعِينُ بِاللَّهِ عَلَى تَحْمِيلِ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ، وَهَذَا تَوْجِيهٌ لَا بِأَسَّ بِهِ، لَكِنَّ الْأَوَّلَى الْمَحَافَظَةُ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٧٦٨٠)، وأحمد (٢٤٧/٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨).

❦ وقوله: «كنزٌ من كنوز الجنة». يعني: أنها من أفضل الدعاء الذي يستعين به الإنسان على الوصول إلى الجنة؛ لأن الإنسان إذا استعان بالله بهذه الكلمة سهل الله عليه الأعمال وتيسرت حتى يصل بذلك إلى الجنة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥١- باب الدعاء إذا هبط وادياً. فيه حديث جابر رضي الله عنه.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/١٨٨):

❦ قوله: «باب الدعاء إذا هبط وادياً». فيه حديث جابر. كذا ثبت عند المستملي والكشَمِيهَنِيِّ وسقط لغيرهما، والمراد بحديث جابر ما تقدم في الجهاد وفي «باب التسبيح» إذا هبط وادياً» من حديثه بلفظ «كنا إذا صعدنا كبرنا وإذا نزلنا سبَّحنا». وقال بعده «باب التكبير إذا علا شرفاً» وأورد فيه حديث جابر أيضاً لكن بلفظ «وإذا تصوَّبتنا» بدل «نزلنا» والتصويب الانحذار. وقد ورد بلفظ «هبطنا» في هذا الحديث عند النسائي وابن خزيمة وأُشْرَتْ إلى شرحه هناك، ومناسبة التكبير عند الصعود إلى المكان المرتفع أن الاستعلاء والارتفاع محبوبٌ للنفوس لما فيه من استشعار الكبرياء، فشرع لمن تلبَّس به أن يذكر كبرياء الله تعالى وأنه أكبر من كل شيء فيكبره ليشكر له ذلك فيزيده من فضله، ومناسبة التسبيح عند الهبوط لكون المكان المنخفض محل ضيق فيشرع فيه التسبيح؛ لأنه من أسباب الفرج، كما وقع في قصة يونس عليه السلام حين سبَّح في الظلمات فنجي من الغم.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٢- باب الدعاء إذا أراد سفراً أو رجع. فيه يحيى بن أبي إسحاق عن أنس.

٦٣٨٥- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَفَلَ مِنْ غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ يُكَبِّرُ عَلَى كُلِّ شَرْفٍ مِنَ الْأَرْضِ ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، آيُّونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، صَدَقَ اللَّهُ وَعْدُهُ، وَنَصَرَ عَبْدُهُ، وَهَزَمَ

الأَحْزَابُ وَحَدَّثَهُ^(١).

هذا أيضًا من الدعاء إذا أرادَ سفرًا ولكنَّ المؤلِّفَ يَقُولُ: فيه يحيى بنُ أبي إسحاق عن أنسٍ ولم يذكِرِ الحديثَ ولكنه أشارَ إليه إشارةً، ويُمكنُ أن نَقْرَأَ الشرحَ.

قَالَ الْحَافِظُ تَحْفَظُهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/١٨٩):

❖ قوله: «بَابُ الدَّعَاءِ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَوْ رَجَعَ، فِيهِ يَحْيَى بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَنَسٍ». كَذَا وَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْحَمَوِيِّ عَنِ الْفَرِيرِيِّ، وَمِثْلُهُ فِي رِوَايَةِ أَبِي زَيْدٍ الْمُرُوزِيِّ عَنْهُ، لَكِنْ بِالْوَاوِ الْعَاطِفَةِ بَدَلَ لَفْظِ «بَابٍ». وَالْمَرَادُ بِحَدِيثِ يَحْيَى بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ فِيهِ أَظُنُّ الْحَدِيثَ الَّذِي أَوَّلُهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقْبَلَ مِنْ خَيْبَرَ وَقَدْ أُرْدِفَ صَفِيَّةٌ، فَلَمَّا كَانَ بِيَعُضِ الطَّرِيقِ عَثَرَتِ النَّاقَةُ». فَإِنْ فِي آخِرِهِ «فَلَمَّا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: آيُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ. فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُهَا حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ». وَقَدْ تَقَدَّمَ مَوْصُولًا فِي أَوَاخِرِ الْجِهَادِ وَفِي الْأَدَبِ وَفِي أَوَاخِرِ اللَّبَاسِ وَشَرْحَتُهُ هُنَاكَ. إِلَّا الْكَلَامَ الْأَخِيرَ هُنَا فَوَعَدْتُ بِشَرْحِهِ هُنَا. وَإِسْمَاعِيلُ فِي الْحَدِيثِ الْمَوْصُولِ هُوَ ابْنُ أَبِي أُوَيْسٍ. اهـ

أَمَّا إِذَا أَرَادَ سَفَرًا فَهُوَ مَعْرُوفٌ أَنَّهُ ﷺ يَقُولُ فِيهَا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ...»^(٢) إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ، وَأَمَّا إِذَا رَجَعَ فَإِنَّهُ يَقُولُ إِذَا قَفَلَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ هُنَا، وَيَقُولُهَا أَيْضًا إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى يَدْخُلَهَا.

أَمَّا مَعْنَى الْحَدِيثِ فَقَدْ سَبَقَ أَكْثَرُهُ، لَكِنْ قَوْلُهُ: «آيُونَ». أَي: رَاجِعُونَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ الْعِبَادَةَ لَهُ وَأَوَّابٌ﴾ [قُلُوبُ: ٣٠]. أَي: رَجَّاعٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ.

❖ وَقَوْلُهُ: «تَائِبُونَ». مِنَ التَّوْبَةِ، وَهُوَ الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَتَجَلُّلُهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ إِلَى طَاعَتِهِ.

❖ وَقَوْلُهُ: «عَابِدُونَ». اسْمٌ فَاعِلٌ مِنَ الْعِبَادَةِ؛ أَي: مُتَذَلِّلُونَ لَهُ بِالطَّاعَةِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا.

❖ وَقَوْلُهُ: «لِرَبِّنَا حَامِدُونَ». مِنَ الْحَمْدِ، وَهُوَ وَصْفُ الْمُحَمَّدِ بِالْكَامِلِ، وَقَدَّمَ قَوْلَهُ:

«لِرَبِّنَا». مِنْ أَجْلِ الْاِخْتِصَاصِ.

❖ وَقَوْلُهُ: «صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ». لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ بِأَنْ يَنْصُرَ رُسُلَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ

❖ أخرجه مسلم (١٣٤٢).

❖ أخرجه مسلم (١٣٤٢).

الدنيا، وصدق الله وعده ونصر نبيه ﷺ؛ ولهذا قال: «ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». وهذه الجملة الثلاث تناسب فيما إذا قدم من الغزو، لكن قد يقولها الرسول ﷺ تذكيرًا بنعمة الله ﷻ بهذا النصر، كما قاله حين صعد الصفا في الحج فقال: «لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»^(١). فيكون هذا من باب التذكير بهذه النعم إذا قفل من الحج أو العمرة، أما إذا قفل من الغزو فالمناسبة فيه ظاهرة.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٣ - باب الدعاء للمتزوج.

٦٣٨٦ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَى النَّبِيَّ ﷺ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَثَرُ صُفْرَةٍ فَقَالَ: «مَهَيْمٌ أَوْ مَهْ». قَالَ: قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً عَلَى وَزْنِ نَوَآءٍ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ أَوْلَمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»^(١).

٦٣٨٧ - حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَمْرِو، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: هَلَكَ أَبِي وَتَرَكَ سَبْعَ أَوْ تِسْعَ بَنَاتٍ، فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَزَوَّجْتَ يَا جَابِرُ». قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «بِكُرٍّ أَمْ ثِيًّا». قُلْتُ: ثِيًّا. قَالَ: «هَلَا جَارِيَةٌ تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ، أَوْ تُضَاحِكُهَا وَتُضَاحِكُكَ». قُلْتُ: هَلَكَ أَبِي فَتَرَكَ سَبْعَ أَوْ تِسْعَ بَنَاتٍ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَجِثَهُنَّ بِمِثْلِهِنَّ، فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً تَقُومُ عَلَيْهِنَّ. قَالَ: «فَبَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(٢). لَمْ يَقُلْ ابْنُ عُيَيْنَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ عَمْرِو: «بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْكَ».

هذا أيضًا باب الدعاء للمتزوج وذلك بأن يقول له: بارك الله لك، وعليك، أو يقول: بارك الله لكما وعليكما، وجمع بينكما في خير^(٣). وقد سبق الكلام على هذا، وبيننا أن الله أبدل تهنئة الجاهلية بهذا الدعاء المبارك، فالجاهلية يقولون: بالرفاء والبنين. يعني: بالرفاهية، والترف، والنعمة، والبنين؛ يعني: أن الله يزرُقك البنين؛ لأنهم كانوا يكرهون البنات، وقد

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (٧١٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٢١٣٠)، وابن ماجه (١٩٠٥)، وأحمد (٨٩٤٤).

سَمِعْنَا أَنَّ بَعْضَ الْجَاهِلِينَ السَّفَهَاءِ الْآنَ يَقُولُونَ ذَلِكَ لِلْمُتَزَوِّجِينَ؛ يَقُولُونَ: بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ. وَيَعْدِلُونَ عَنْ سُنَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَعَنْ هَذَا الدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُعِيدُوا الْجَاهِلِيَّةَ الْأُولَى، وَذَلِكَ لَجَهْلِهِمْ، وَسَفَهِهِمْ، وَعَدَمِ رَغْبَتِهِمْ بِالسُّنَّةِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمُؤْمَنَ حَقِيقَةً لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْدِلَ بِمَا جَاءَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ شَيْئًا أَبَدًا، فَإِنْ مَا جَاءَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ هُوَ الْخَيْرُ، لَا سِيَّمَا وَأَنْ يُبَدِّلَ النَّبِيُّ ﷺ التَّهْنِئَةَ الْجَاهِلِيَّةَ بِهِ يَدُلُّ عَلَى كَرَاهِيَّتِهِ لَهَا.

وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ دَلِيلٌ عَلَى مَرَاعَاةِ تَأْدِيبِ الْبَنَاتِ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُرَاعِيَ مِنْ عِنْدِهِ مِنَ الْبَنَاتِ مَنْ أَجَلَ تَأْدِيبَهُنَّ.

وفيه: أَنَّ الْأُولَى لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَزَوَّجَ بَكْرًا إِلَّا لِسَبَبٍ، وَلِهَذَا أَرَشَدَ النَّبِيُّ ﷺ جَابِرًا إِلَى ذَلِكَ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُ السَّبَبَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٤ - بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ.

٦٣٨٨ - حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ كُرَيْبٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا. فَإِنَّهُ إِنْ يَقْدَرُ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا»^(١).

هَذَا أَيْضًا مِنَ الدُّعَاءِ الَّذِي يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَهُ عِنْدَ جَمَاعِ أَهْلِهِ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا.

وفيه هذه الفائدة العظيمة: أَنَّهُ إِذَا قَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا.

وَهَلِ الْمُنْفَى هَذَا الضَّرَرُ الْبَدَنِي أَوِ الضَّرَرُ الْمَعْنَوِي؟

ظَاهِرُ الْحَدِيثِ الْعُمُومُ؛ أَنَّهُ لَا يَضُرُّهُ لَا بَدَنِيًّا، وَلَا مَعْنَوِيًّا، وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا أَنَّهُ قَدْ يَقُولُ الْإِنْسَانُ هَذَا الذِّكْرَ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ يَكُونُ فِي أَوْلَادِهِ الْفُسْقَةُ الَّذِينَ أَغْوَاهُمُ الشَّيْطَانُ.

لَأَنَّا نَقُولُ فِي الْجَوَابِ عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ بَابِ السَّبَبِ، وَالسَّبَبُ قَدْ يَعْتَرِضُهُ مَانِعٌ يَمْنَعُ مِنْ نَفْوِذِهِ، فَأَنْتَ افْعَلِ السَّبَبَ، وَإِذَا جَاءَ الْأَمْرُ عَلَى خِلَافِ هَذَا السَّبَبِ، فَلَا يَعْنِي

ذلك بطلانَ هذا السببِ، وقد سبقَ أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أحرضُ على ما يَنْفَعُكَ، واستَعِذْ باللهِ، ولا تَعْجِزْ، وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أني فعلتُ كذا لكان كذا»^(١). فالإنسانُ عليه أن يَفْعَلَ السببَ فإن تخَلَّفَ المسبَّبَ لِمَانعٍ، فليس ذلك معناه أو مقتضاه تعطيلُ السببِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٥- باب قول النَّبِيِّ ﷺ: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً».

٦٣٨٩- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^(٢).

❁ قوله: «ربنا آتنا». يَعْنِي: أعطنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

❁ قوله: «في الدنيا حسنة». ولم يُبَيِّنْ هذه الحسنة، فتشملُ حسنة الأولادِ، والِهالِ، والجاهِ، والعلمِ، وغير ذلك.

❁ وقوله: «وفي الآخرة حسنة». أَيْضًا تَشْمَلُ كُلَّ ما في الآخرة من حسناتٍ، وإن كان لفظُها ليس لفظَ العمومِ، لكن لما جاءت في سياقِ الدعاءِ، فإن الظاهرَ فيها العمومُ، وهذا كان أَكْثَرَ دعاءِ النَّبِيِّ ﷺ، وغالبًا ما يَخْتِمُ به النَّبِيُّ ﷺ دعاءه، كما يَخْتِمُ به كُلُّ شوطٍ، فكان يَقُولُ بين الركنِ اليمانيِّ والحجرِ الأسودِ: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة»^(٣)، وقنا عذابَ النارِ.

وفي هذا الدعاءِ حصولُ المطلوبِ في الدنيا والآخرة، وزوالُ المرهوبِ في قوله: «وقنا عذابَ النارِ».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٦- باب التَّعَوُّذِ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا.

٦٣٩٠- حَدَّثَنَا فَرْوَةُ بْنُ أَبِي الْمَغْرَاءِ، حَدَّثَنَا عَمِيْدَةُ بْنُ حَمِيْدٍ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود (١٨٩٢)، وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح أبي داود» (١٦٦٦): حسن.

عُمَيْرٌ، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ أَبِيهِ رحمته الله قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ كَمَا تَعَلَّمُ الْكِتَابَةُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تُرَدَّ إِلَيَّ أَرْذَلُ الْعُمَرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ».

هذا سبق الكلام عليه.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمته الله:

٥٧- باب تَكْرِيرِ الدُّعَاءِ.

٦٣٩١- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُنْذِرٍ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طُبَّ حَتَّى إِنَّهُ لَيَحْبِلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ صَنَعَ الشَّيْءَ وَمَا صَنَعَهُ، وَإِنَّهُ دَعَا رَبَّهُ ثُمَّ قَالَ: «أَشْعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «جَاءَنِي رَجُلَانِ فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَيْدُ بْنُ الْأَعْصَمِ. قَالَ: فِيمَاذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفٍّ طُلْعَةٍ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي ذُرْوَانَ. وَذُرْوَانُ بَثْرٌ فِي بَنِي زُرَيْقٍ». قَالَتْ: فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَائِشَةَ فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَكَآنَ مَاءَهَا نِقَاعَةَ الْحِنَاءِ، وَلَكَآنَ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ». قَالَتْ: فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهَا عَنِ الْبَثْرِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَهَلَّا أَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: «أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا»^(١).

زَادَ عِيسَى بْنُ يُونُسَ، وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَا وَدَعَا. وَسَاقَ الْحَدِيثَ.

هذا الحديث رُوي عن النَّبِيِّ ﷺ من عدة أوجه، وهو ثابت بلا شك أن الرسول ﷺ سُحِرَ، وَلَا يُسْتَعْرَبُ هذا على أعداء المسلمين، وخصوصاً اليهود الذين اشتبهوا بقتل الأنبياء بغير حق، واشتهروا بالقدح باللَّهِ ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ، فقالوا: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ. وقالوا: إِنْ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ثُمَّ تَعِبَ، فَاسْتَرَحَ يَوْمَ السَّبْتِ. وقالوا: إِنْ اللَّهُ افْتَقَرَ فَقَالَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. إِلَى آخِرِ مَا رُوي عَنْهُمْ مِنَ الْمَعَائِبِ، وَالْمَصَائِبِ، لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

ومن جملة ما صنعوا أنهم سَحَرُوا النَّبِيَّ ﷺ ، وَسَمُّوا النَّبِيَّ ﷺ ، حَتَّى إِنَّهُ قَالَ فِي مَرَضٍ مَوْتِهِ ﷺ: «مَا زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْرٍ تَعَاوِدُنِي وَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ الْأَبَرِ مِنِّي» (١) .
وانقطاعُ الْأَبَرِ يَعْنُونَ بِهِ الْمَوْتَ، حَتَّى قَالَ الزَّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَتَلَهُ الْيَهُودُ. لَكِنَّهُ لَيْسَ قَتْلًا مُبَاشِرًا مُنَاجِزًا، وَإِنَّمَا قَتَلَ بَطِيءٌ؛ لِأَنَّ خَيْرَ كَانَتْ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ، أَوِ السَّابِعَةِ، وَهُوَ لَمْ يُتَوَفَّ إِلَّا فِي السَّنَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ.

أَقُولُ: مِنْ جَمَلَةٍ مَا فَعَلُوا هَذَا السَّحَرَ، وَلَكِنْ غَايَةُ مَا حَصَلَ لَهُ مِنْ هَذَا السَّحَرِ مَعَ الْفُتُورِ الْبَدَنِيِّ وَالضَّعْفِ أَنَّهُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ صَنَعَ الشَّيْءَ وَمَا صَنَعَهُ، أَمَّا الشَّرِيعَةُ فَمَحْرُوسَةٌ وَمَحْفُوظَةٌ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ، لَا بَزِيَادَةٍ، وَلَا بِنَقْصٍ.

وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَحَرَ وَقَالُوا: لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُصَدَّقَ بِأَنَّهُ سَحِرَ؛ لِأَنَّا لَوْ صَدَّقْنَا بِهَذَا لَوَافَقْنَا قَوْلَ الظَّالِمِينَ: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٢) [الآيَةُ: ٤٧]. وَلَوْ صَدَّقْنَا بِأَنَّهُ سَحَرَ لَاخْتَلَتْ الثَّقَةُ بِالشَّرِيعَةِ، وَلَكِنَّ هَذَا عَقْلٌ مُقَدِّمٌ عَلَى النَّصِّ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَحَرَ وَلَا شَكَّ، وَالْحَدِيثُ فِي ذَلِكَ إِمَّا مُتَوَاتِرٌ، أَوْ مُسْتَفِضٌ مَشْهُورٌ وَثَابِتٌ فِي الصَّحِيحِينَ وَغَيْرِهِمَا، لَكِنَّا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ الْقُرْآنَ مَحْفُوظٌ، وَأَنَّ الشَّرِيعَةَ مَحْفُوظَةٌ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٣) [الْمُتَعَفِّ: ٩]. وَلَيْسَ قَوْلُنَا: إِنَّهُ سَحَرَ. كَقَوْلِ الظَّالِمِينَ: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾. لِأَنَّ الظَّالِمِينَ يَقُولُونَ: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ يَعْنِي: أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ سَحَرٌ لَيْسَ حَقًّا وَلَا شَرِيعَةً هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ، أَمَّا نَحْنُ فَنَقُولُ: إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ وَشَرِيعَةٌ، لَكِنَّهُ اعْتَدَى عَلَيْهِ ﷺ بِهَذَا السَّحَرِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ غَيْرَ ضَارٍّ بِهِ مِنْ حَيْثُ الشَّرِيعَةُ.

تَقُولُ: وَإِنَّهُ دَعَا رَبَّهُ. وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: دَعَا ثَمَّ دَعَا. يَعْنِي: كَرَّرَ الدَّعَاءَ ﷺ ، وَهَكَذَا يَتَّبِعِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُكَرِّرَ دَعَاءَ اللَّهِ ﷻ، وَأَنْ لَا يَيْئَسَ، وَأَنْ لَا يَسْتَحْسِرَ؛ لِأَنَّ الدَّعَاءَ كُلَّهُ خَيْرٌ وَبَرَكَةٌ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا شُعُورُ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَى رَبِّهِ دَائِمًا لَكَانَ ذَلِكَ كَافِيًا فِي تَكَرُّرِهِ، كَلِمَا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ أَوْ حَاجَةٌ فَكَّرَ الدَّعَاءَ وَاللَّهُ تَعَالَى يُجِيبُكَ.

ثُمَّ قَالَ: «أَشْعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ». وَذَكَرَ الْقِصَّةَ، جَاءَهُ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَالثَّانِي عِنْدَ رِجْلِهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ.

مَطْبُوبٌ؟ يَعْنِي: مسحورًا، وأصل الطبِّ معالجةُ المريضِ لشفائه فُسمي المسحورُ مطبوعًا من بابِ التَّفَاوُلِ، كما سُمي الكسِيرُ جَبِيرًا، وسُمي اللدِيعُ سَلِيمًا.

ثم قال: «من طَبَّهُ؟ قَالَ: لِبَيْدِ بْنِ الْأَعْصَمِ». لِبَيْدُ بْنُ الْأَعْصَمِ هذا رجلٌ يهوديٌّ، وسَحَرَهُ في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ، وَجُفَّ طَلْعَةٌ. جعلَ السَّحَرُ في هذه الأشياءِ الثلاثةِ ووضَعَهُ في البَثْرِ، والمُشْطُ الذي يُمَشَّطُ بهِ الرَّأْسُ، والمُشَاطَةُ: السَّحَرُ الذي يَحْمِلُهُ المُشْطُ، وَجُفَّ الطَّلْعَةُ: الكافورُ الذي يَكُونُ في طَلْعِ الفَحْلِ من النخْلِ، وهذا الطَّلْعُ هو الذي يُؤْخَذُ من الفَحْلِ وَيُوضَعُ في النخلةِ، وهذا الفَعْلُ هو الذي يُسَمَّى التَّابِيرُ، وهذا الطَّلْعُ يَكُونُ كَبِيرًا في العَادَةِ، فَإِنَّ الْقِنَوَ كَبِيرٌ جَدًّا، وهو أَكْبَرُ من قِنَوِ النخلةِ الْأَثْنَى، فهذا الخَبِيثُ جعلَ السَّحَرُ في ذلك وجعلَهُ في بَثْرِ ذَرَوَانَ في بَنِي زُرَيْقٍ.

يَقُولُ: فَأَتَاهَا الرَّسُولُ ﷺ فَرَأَى مَاءَهَا نُقَاعَةً الْحِنَاءِ يَعْنِي: مِثْلَ نُقَاعَةِ الْحِنَاءِ، وَالْحِنَاءُ مَعْرُوفَةٌ وَنُقَاعَتُهَا تَكُونُ صَفْرَاءً فِي سَوَادٍ.

وَإِذَا نَخَلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ. يَعْنِي: كَأَنَّهُا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّخْيِيلِ؛ أَي: أَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ تَأْثِيرِ السَّحَرِ فَإِنَّهُ لَمَّا قَرَّبَ مِنْهُ الرَّسُولُ ﷺ رَأَى نَخْلَهَا رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ، وَرَأَى مَاءَهَا نُقَاعَةً الْحِنَاءِ كَمَا خُيِّلَ لِمُوسَى أَنْ عَصِيَّ السَّحَرَةِ وَجِبَالَهُمْ تَسْعَى إِلَيْهِ. وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ لَهُ: فَهَلَّا أَخْرَجْتَهُ. وَفِي رَوَايَةٍ: هَلَّا تَنْشَرْتَ. وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ الْمَحَبُّ لِلْهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ وَعَدِمَ إِثَارَةَ الْفِتْنَةِ امْتَنَعَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: أَمَا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ حَصْلَ، وَهُوَ زَوَالُ السَّحَرِ بِالشِّفَاءِ وَكَوْنُهُ يُخْرِجُ وَيُنْشَأُ يَفْضَحُ هَذَا الْخَبِيثُ لِبَيْدِ بْنِ الْأَعْصَمِ هَذَا يُثِيرُ شَرًّا عَلَى النَّاسِ فَتَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا خَوْفًا مِنَ الشَّرِّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى حِكْمَتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَنَّهُ قَدْ يَتَنَازَلُ عَنْ حَقِّهِ خَوْفًا مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ، كَمَا فَعَلَ ﷺ حِينَ تَنَازَلَ فِي قِصَةِ الْإِفْكِ (١) الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَا رُمِيَ بِهِ حَيْثُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ أَرَادُوا أَنْ يُدَنِّسُوا فِرَاشَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَكَانُوا يَتَحَيَّنُونَ الْفُرْصَةَ لِيُوقِعُوهُ، فَوَجَدُوا هَذِهِ الْفُرْصَةَ، هَذِهِ الْفُرْصَةَ كَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَذَلِكَ أَنَّهَا فِي إِحْدَى غَزَوَاتِ الرَّسُولِ ﷺ كَانَتْ فِي هَوْدَجِهَا، فَخَرَجَتْ لَتَقْضِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخْرَاي (٢٦٦١)، وَمُسْلِم (٢٧٧٠).

حاجتها فأذن النَّبِيُّ ﷺ بالرحيل، فجاء الناس وأخذوا هودجها، وربطوه على البعير ولم يُحسوا بفقدِها؛ لأنها كانت في ذلك الوقت صغيرة لم يأخذها اللحم، وقد ظنوا أنها موجودة، ولا سيما كما هو معروف أن حالة الناس عند الرحيل يكون معهم قوة على التحميل وسرعة، ما يتأتون ويكون الشيء عندهم خفيفاً، لكنها ﷺ لم تكن موجودة وإنما ذهبت لتقضي حاجتها، فلما جاءت وجدت القوم قد رحلوا، وانظر إلى ذكائها على صغرِها قالت: إن ذهبت أطلبهم ضعت وضيعوني لكن أبقى في المكان حتى يرجعوا إليّ وهذا من ذكائها ﷺ فبقيت، وإذا صفوان بن المُعطّل ﷺ وهو من قوم إذا ناموا لا يمكن أن يستيقظوا إلا إذا شبعوا من النوم، وكان في أخريات القوم فلما استيقظ وأقبل وإذا هذا السواد فلما وصل إليه وإذا عائشة أم المؤمنين ﷺ ولكن انظروا ماذا فعل؟ أناخ البعير ووطئ على ركة البعير ولم يكلمها بكلمة قط احتراماً لفراس رسول الله ﷺ حتى ركب فجاء يقودُ بها ضحى، والمريب هل يمكن أن يعرض ريبه على الناس ضحى؟ أبداً ما يمكن، ثم انتهت القضية.

اتخذ المنافقون من هذا سلاحاً ليطلعوا لا في أم المؤمنين ولا في محمد بن عبد الله ﷺ ولكن في الرسالة التي جاء بها؛ لأنه إذا أصبح هذا الرجل قد دُئس فراشه هذا الدنس ومن أصحابه أيضاً ما بقي ثقةً بالشرعية أبداً وهم يريدون هذا -والعياذ بالله- فصاروا يُفشون هذا الأمر بين الناس حتى انزعج من المسلمين ثلاثة من المؤمنين حقاً وقالوا ما قالوا، ومنهم حسان بن ثابت ﷺ فقد حصل منه هذا الشيء، ثم شاع الخبر، ولما وصلت المدينة مرضت ﷺ وذلك لحكمة أرادها الله ﷻ مرضت نحواً من شهر، وكان الرسول ﷺ يأتي إليها ويعودها، ولكنها لا تجد منه الرقة واللين الذي كانت تعهدُهما منه، إنها يأتي ويقول: «كيف تيكم». ثم ينصرف وقد استغربت ﷺ هذا الأمر.

والنبي ﷺ في هذه المدة -كما يقول المتأخرون- قد عاش على أعصابه يتكلم، ويسأل، ويشاور، ولكنه ﷺ واثق بالله ﷻ وبأن الله تعالى لن يهينه إلى هذا الحد حتى يجعل فراشه دنساً بهذه التهمة الكاذبة.

فخرجت ﷺ ذات يوم مع أم مسطح بن أثانة ﷺ للخلاء لقضاء الحاجة فعرثت أم مسطح فقالت: تعس مسطح. فقالت عائشة: كيف تقولين تعس مسطح ومسطح من أهل بدر. قالت: أما سمعت كذا وكذا وذكرت ما قيل، قال: لا ما سمعت ثم رجعت إلى بيتها

وجعلت لا تنام أبداً، لا يرقأ لها دمعٌ ولا تهناً بنوم لأن المقام مقامٌ عظيمٌ فليس هو تدنيسٌ عائشة بنت أبي بكر، بل تدنيسُ الرسالة كلها، وعرض عليها الرسول ﷺ أنه إذ كان ما قيل حقاً أن تستغفر وتُتوب إلى الله فطلبت من أبيها وأمها أن يجيبا رسول الله ﷺ ولكن ما ردوا لكن هي ردت ردّاً عجيباً قالت: إن كنت بريئة فسيبرئني الله، وإن لم أكن بريئة فمهما قلت لكم فلن تُصدّقوني. ولكن جاء الفرَجُ من الله ﷻ، وجاءت براءتها من الله ﷻ في آياتٍ تُتلى إلى يوم القيامة آياتٌ عظيمةٌ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [النجم: ١١]. إلى آخره وسبق أن شرحناها في التفسير وبيننا ما فيها من الفوائد العظيمة.

فالحاصل: أن النبي ﷺ لا يحب أن يُثير الشرَّ على أصحابه، لكنه حدّ الصحابة الثلاثة الذين حصل منهم هذا الأمر، وهم مسطحٌ، وحسانٌ وحمنة بنت جحش، وأما الذي تولى كبره منهم، وهو عبد الله بن أبي، وغيره من المنافقين فلم يحدهم.

واختلف العلماء رحمهم الله لماذا لم يحده هؤلاء؟

فقال بعضهم: لم يحدهم لأنهم ليسوا أهلاً للتطهير؛ لأنهم رجسٌ، والحدُّ تطهيرٌ للمحدود.

وقال بعضهم: لم يحدهم خوفاً من الفتنة.

وقال آخرون: لم يحدهم؛ لأنهم ما كانوا يصرّحون بالقذف، ولكن يُشيرون إلى ذلك إشارةً، يقولون: قال الناسُ كذا. قيل كذا. أما سمعتَ هذا القول؟ وما أشبه هذا، لا يصرّحون، فلذلك درأ عنهم الحدّ.

وقيل: بل لهذه الأسباب كلها وغيرها فربما هناك أشياء لا نعلم عنها؛ لأن هذه قضايا أعيانٍ مرهونةٌ بوقتها، وما يُحيطُ بها من الأمور.

وعلى كلِّ حالٍ فأنا أردتُ من هذا البسط أن أقول: إن أعداء المسلمين من اليهود والنصارى والمنافقين ما زالوا يترَبّصون بالمسلمين الدوائر كما أخبرنا الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَبَّ أَلْمَنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠]. أي: اصبروا عليه، فهذا شاعرٌ يجيء، ويموت، ويذهب. فقال الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَصِينَ﴾ [الأنعام: ٣١].

يقول: زاد عيسى بن يونس والليث بن سعد، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة قالت: سحر النبي ﷺ فدعا ودعا. وساق الحديث.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (٢٣٠/١٠، ٢٣١):

قوله: «كَأَن مَاءَهَا» فِي رَوَايَةِ ابْنِ نَمِيرٍ «وَاللَّهُ لَكَأَن مَاءَهَا» أَي: الْبَيْتُ «نَقَاعَةُ الْحَنَاءِ» بِضَمِّ النُّونِ وَتَخْفِيفِ الْقَافِ، وَالْحَنَاءُ مَعْرُوفٌ وَهُوَ بِالْمَدِّ: أَي: أَنَّ لَوْنَ مَاءِ الْبَيْتِ لَوْنُ الْمَاءِ الَّذِي يُنْقَعُ فِيهِ الْحَنَاءُ. قَالَ ابْنُ التِّينِ: يَعْنِي: أَحْمَرٌ. وَقَالَ الدَّاوُدِيُّ. الْمَرَادُ الْمَاءُ الَّذِي يَكُونُ مِنْ غَسَالَةِ الْإِنَاءِ الَّذِي تُعْجَنُ فِيهِ الْحَنَاءُ. قُلْتُ: وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ «فَوُجِدَ الْمَاءُ وَقَدْ اخْضَرَ» وَهَذَا يُقَوِّي قَوْلَ الدَّاوُدِيِّ.

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: كَانَ مَاءُ الْبَيْتِ قَدْ تَغَيَّرَ إِمَّا لِرَدَائِهِ بِطَوْلِ إِقَامَتِهِ، وَإِمَّا لِمَا خَالَطَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أُلْقِيَتْ فِي الْبَيْتِ.

قُلْتُ: وَيُرَدُّ الْأَوَّلُ أَنَّ عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ فِي مَرْسَلِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ قَيْسٍ حَوَّرَ الْبَيْتَ الْمَذْكُورَةَ وَكَانَ يَسْتَعَذُّبُ مِنْهَا وَحَفَرَ بَيْتًا أُخْرَى فَأَعَانَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَفْرِهَا.

قوله: «وَكَأَن رَعُوسَ نَخْلِهَا رَعُوسُ الشَّيَاطِينِ» كَذَا هُنَا، وَفِي الرِّوَايَةِ الَّتِي فِي بَدِءِ الْخَلْقِ «نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رَعُوسُ الشَّيَاطِينِ» وَفِي رَوَايَةِ ابْنِ عَيْنَةَ وَأَكْثَرِ الرِّوَاةِ عَنْ هِشَامٍ «كَأَن نَخْلُهَا» بِغَيْرِ ذِكْرِ «رَعُوسٍ» أَوَّلًا، وَالتَّشْبِيهُ إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى رَعُوسِ النَّخْلِ فَلِذَلِكَ أَفْصَحَ بِهِ فِي رَوَايَةِ الْبَابِ وَهُوَ مُقَدَّرٌ فِي غَيْرِهَا. وَوَقَعَ فِي رَوَايَةِ عُمَرَ عَنْ عَائِشَةَ «فَإِذَا نَخْلُهَا الَّذِي يُشْرَبُ مِنْ مَائِهَا قَدْ تَلَوَّى سَعْفُهُ كَأَنَّهُ رَعُوسُ الشَّيَاطِينِ» وَقَدْ وَقَعَ تَشْبِيهُ طَلْعِ شَجَرَةِ الزَّقُومِ فِي الْقُرْآنِ بِرَعُوسِ الشَّيَاطِينِ.

قَالَ الْفَرَاءُ وَغَيْرُهُ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ شَبَّهُ طَلْعِهَا فِي قَبْجِهِ بِرَعُوسِ الشَّيَاطِينِ؛ لِأَنَّهَا مُوصُوفَةٌ بِالْقَبْجِ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي اللِّسَانِ أَنَّ مَنْ قَالَ: فَلَانُ شَيْطَانٌ. أَرَادَ أَنَّهُ خَبِيثٌ أَوْ قَبِيحٌ، وَإِذَا قَبَّحُوا مَذْكَرًا قَالُوا: شَيْطَانٌ، أَوْ مُؤَنَّثًا قَالُوا: غَوْلٌ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ بِالشَّيَاطِينِ الْحَيَاتِ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي بَعْضَ الْحَيَاتِ شَيْطَانًا وَهُوَ ثَعْبَانٌ قَبِيحٌ الْوَجْهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ نَبَاتٌ قَبِيحٌ، قِيلَ: إِنَّهُ يُوجَدُ بِالْيَمَنِ. اهـ

عَلَى كُلِّ حَالٍ: الْعُلَمَاءُ هَؤُلَاءِ حَمَلُوا الْمَسْأَلَةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَأَنَّ الْمَاءَ مُتَغَيِّرٌ لَطَوِيلِ مَكْتَبِهِ، لَكِنْ ابْنُ حَجَرٍ رَدَّ عَلَى هَذَا، وَقَالَ: إِنَّهَا قَدْ حُفِرَتْ وَهُوِّرَتْ، يَعْنِي نُظِفَتْ، وَصَارَتْ تُسْتَعَذَّبُ. وَمِثْلُ هَذِهِ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ، كَذَلِكَ النَّخْلُ، قَالُوا: إِنَّهُ قَدْ بَيَسَ وَتَلَوَّى سَعْفُهُ، وَصَارَ

كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَحَمَلُوا هَذَا أَيْضًا عَلَى الْحَقِيقَةِ.
وَعِنْدِي أَنَا - وَاللَّهِ أَعْلَمُ - أَنَّ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّخِيلِ؛ يَعْنِي أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ تَخَيَّلَ أَنَّ هَذِهِ
كَأَنَّهُا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ، وَأَنَّ الْبَثْرَ مَتَغَيَّرَ الْمَاءُ كَأَنَّهُ نُقَاعَةُ الْحَنَاءِ، وَالْمَسْأَلَةُ تَحْتَاجُ إِلَى زِيَادَةٍ
بَحْثٍ وَنَظَرٍ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٨ - بَابُ الدُّعَاءِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبَعِ يُوسُفَ». وَقَالَ:
«اللَّهُمَّ عَلَيْكَ يَا بِي جَهْلٍ». وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ دَعَا النَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا
وَفُلَانًا». حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بَابُ الدُّعَاءِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبَعِ يُوسُفَ»^(١).

❦ قَوْلُهُ: «سَبْعِ يُوسُفَ». يَعْنِي بِهَا: السَّبْعَ الشَّدَادَ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ رَأَى فِي الْمَنَامِ سَبْعَ بَقَرَاتٍ
سَمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عَجَافٍ، وَسَبْعَ سَنَبَلَاتٍ خَضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ، وَانْزَعَجَ لَهُذِهِ الرَّؤْيَا فَطَلَّبَ
مَنْ يَعْبُرُهَا لَهُ، فَذَلَّ عَلَى يُوسُفَ، فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفَ ﷺ: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾.
يَعْنِي: مُتَابَعَةً؛ لِأَنَّ الْخِصْبَ وَالْغَيْثَ سَيَنْزِلُ، ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ فَقَالَ: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٧﴾ [يوسف: ٤٧]. لِأَنَّ الْحَبَّ إِذَا بَقِيَ فِي السَّنْبُلِ لَا تَأْتِيهِ الْآكِلَةُ وَيَسْلَمُ، ثُمَّ
يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شُدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٨﴾ [يوسف: ٤٨]. فَهَذِهِ هِيَ السَّبْعُ
الَّتِي دَعَا بِهَا الرَّسُولُ ﷺ عَلَى قَرِيشٍ، فَقَبِلَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ فَأَصَابُوا بِجَدَبٍ عَظِيمٍ جَدًّا أَهْلَكَ
الْحَرثَ وَالنَّسْلَ، حَتَّى كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَأَنَّهُا دُخَانٌ، مَا يَكَادُ يُبْصِرُهَا.

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٩٢- حَدَّثَنَا ابْنُ سَلَامٍ، أَخْبَرَنَا وَكِيعٌ، عَنْ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْأَحْزَابِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ اهْزِمْهُمْ وَزَلِّزْلَهُمْ» ^(١).

سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ وَبَيَّنَّا أَنَّ فِيهِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: «مُنْزِلَ الْكِتَابِ». وَالْكِتَابُ كَلَامٌ، وَإِذَا كَانَ كَلَامًا مُنْزَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ كَلَامَهُ؛ لِأَنَّ الْمُنْزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَيْنًا، أَوْ مَعْنَى.

إِنْ كَانَ عَيْنًا فَهُوَ مَخْلُوقٌ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الْإِنْشَاء: ٤٨]. وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الْحَدِيد: ٢٥]. ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةً آزُوجَ﴾ [الْبَقَرَة: ٦٠]. فَهَذِهِ أَعْيَانٌ فَتَكُونُ مَخْلُوقَةً.

وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ صِفَاتٍ وَمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ وَذَلِكَ مِثْلُ الْكَلَامِ، فَإِنَّ الْكَلَامَ لَا يَقُومُ إِلَّا بِمُتَكَلِّمٍ، فَإِذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْهُ. دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ.

❖ وَقَوْلُهُ: «سَرِيعَ الْحِسَابِ» وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ﷻ يُحَاسِبُ عِبَادَهُ كُلَّهُمْ فِي نِصْفِ يَوْمٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الْإِنْشَاء: ٢٤].

❖ وَقَوْلُهُ: «اهْزِمِ الْأَحْزَابَ». يَعْنِي الَّذِينَ تَحَرَّزُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، اهْزِمْهُمْ وَزَلِّزْلَهُمْ حَتَّى لَا تَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ، وَلَا تَسْتَقَرَّ وَصَارَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا شَدِيدَةً الْبُرُودَةِ عَاصِفَةً فَلَمْ يَقَرَّرْ لَهُمْ قَرَارٌ، حَتَّى صَاحُوا بِالرَّحِيلِ مِنْ لَيْلَتِهِمْ وَغَادَرُوا.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ السَّجْعِ فِي الدَّعَاءِ، وَكَذَلِكَ السَّجْعُ فِي الْكَلَامِ جَائِزٌ بِشَرَطٍ أَنْ لَا يَكُونَ مُتَكَلِّفًا، بَلْ تَأْتِي بِهِ الطَّبِيعَةُ، أَمَّا الْمُتَكَلِّفُ الَّذِي يَسْتَلْزِمُ الْإِتْيَانَ بِالْأَفَافِ غَرِيبَةٍ، أَوْ بِتَقْدِيمٍ، أَوْ بِتَأْخِيرٍ لَا يَسُوعُ فِي اللَّغَةِ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ النَّدَرَةِ، أَوْ مَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي، وَكَذَلِكَ السَّجْعُ الَّذِي يُقَصَّدُ بِهِ إِبْطَالُ الْحَقِّ، وَإِحْقَاقُ الْبَاطِلِ فَإِنَّهُ يُنْهَى عَنْهُ، وَلِهَذَا لَمَّا قَامَ حَمَلُ بْنُ النَّابِغَةِ يِعَارِضُ فِي قَضَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنِينِ بَغْرَةً، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَغْرُمُ مِنْ لَا شَرِبَ، وَلَا أَكَلَ، وَلَا نَطَقَ، وَلَا اسْتَهْلَ، فَمِثْلُ ذَلِكَ يُطْلَى. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا هُوَ مِنْ

إِخْوَانِ الْكُفَّانِ^(١)؛ مِنْ أَجْلِ سَجْعِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا السَّجْعَ يُرَادُّ بِهِ إِبْطَالُ الْحَقِّ، فَلِذَلِكَ ذَمَّهُ النَّبِيُّ ﷺ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٩٣ - حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ فَضَالَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ قُنْتُ اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ»^(١).

في هذا الحديث: دليل على أن القنوت بعد الركوع؛ لأنه يقول كان إذا قال سمع الله لمن حمده. **وفيه:** دليل على جواز تعيين المدعو عليه في الصلاة، وكذلك المدعو له، فتقول وأنت تصلي: اللهم اغفر لفلان.

وفيه: دليل على جواز اسم الوليد خلافاً لمن كرهه؛ لأن الرسول ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ». ولم يُغَيِّرْهُ مَعَ أَنَّهُ غَيَّرَ اسْمَ «بَرَّةَ» إِلَى «زَيْنَبَ»^(٢) فدلَّ هذا على أنه يجوز أن يَتَسَمَّى الْإِنْسَانُ بِالْ«وَلِيدِ».

وفيه أيضاً: دليل على جواز الدعاء على المشركين عموماً، والدعاء للمسلمين عموماً؛ لقوله: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ».

وفيه: دليل على جواز القنوت في الفرائض، لكن العلماء قَيَّدُوا ذَلِكَ بِمَا إِذَا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ نَازِلَةٌ كَأَن تَحْدُثَ حَادِثَةٌ فِيهَا إِزْعَاجٌ لِلْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ يُقْنَتُ فِي الْفَرَائِضِ كُلِّهَا وَلَيْسَ فِي الْفَجْرِ فَقَطْ^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٠)، ومسلم (١٦٨١).

(٢) أخرجه مسلم (٦٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٩٢)، ومسلم (٢١٤١).

(٤) وفي ذلك ما أخرجه الترمذي (٤٠٢)، وغيره عن أبي مالك الأشجعي قال: قلت لأبي «يا أبت: إنك صليت خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب ههنا بالكوفة نحواً من خمس سنين، إنا كنا

واختلف العلماء من الذي يقنت؟

ف قيل: الذي يَقْنُتُ الإمام فقط دون بقية الناس. واستدلوا لذلك بأن القنوت إنما كان من رسول الله ﷺ دون غيره من أئمة مساجد المدينة ولو كان هذا مشروعاً على سبيل العموم لقنت جميع الناس، وكذلك لأن الإمام هو المسئول عن الأمة في حربها وسلمها فكان هو المسئول في القنوت لها عند النوازل.

وقال بعض أهل العلم: بل يَقْنُتُ كُلُّ إمام مسجد. واستدلوا بقوله ﷺ: «صَلُّوا كما رأيتموني أصلي»^(١). وأما من صَلَّى منفرداً فلا يَقْنُتُ.

وذهب آخرون إلى أن القنوت مشروع لكل مصلٍّ حتَّى المنفرد، وحتى النساء؛ لأن هذا أمرٌ يَتَعَلَّقُ بعموم المسلمين فكان مشروعاً لجميع المسلمين أن يَقْنُتُوا، لأنه لا يَعْدُو أن يَكُونَ دعاءً. **والأقرب عندي:** أنه لا يَقْنُتُ إلا الإمام، أو الأئمة لكن بإذن الإمام؛ لأن ذلك أضبطٌ للأمة الإسلامية ولئلا تَتَفَرَّقَ الأمة وَيَكُونَ بعضهم يَتَكَلَّمُ في بعض، ويُقَالُ: فلان قنت، وفلان ما قنت. ثم يُقَالُ هذا يُحِبُّ الجهاد وهذا لا يُحِبُّ الجهاد، وهذا يَدْعُو للمستضعفين، وهذا لا يَهْتَمُّ بهم، هذا يَدْعُو على الكافرين، وهذا راضٍ بفعالهم. وما أشبه ذلك، فإذا ضُبِطَت المسألة وقيل إنها موكولة إلى الإمام، أو إلى إذنه كان في ذلك خيرٌ.

ومع هذا من أراد أن يَقْنُتَ سرّاً فيما بينه وبين نفسه فهذا لا يُمْنَعُ ولو كان منفرداً في بيته، لأن هذا دعاءٌ ولا يُمْنَعُ منه والرسول ﷺ قَالَ في حديث ابن مسعود: «ثم لِيَتَخَيَّرَ من الدعاء ما شاء»^(٢). ولكن الكلام السابق على الدعاء الظاهر الذي يُجَهَرُ فيه، فالذي أرى أنه لا يَكُونُ إلا من الإمام أو بإذن الإمام لأن الإمام هو المسؤول عن المسلمين؛ عن ضعفائهم، وعن جهاد أعدائهم، فإذا فعل، أو أذن فعلنا، وإلا فلا نَجْهَرُ بشيء يَخْتَلِفُ الناس فيه، وَيَكُونُ فيه، وَيَكُونُ فيه مثارٌ للفتنة ويُقَالُ: وهذا كذا، وهذا كذا، هذا هو أقرب الأقوال في هذه المسألة.

يقنتون الصبح، قال: أي بُني مُحدث» وإسناده صحيح.

(١) أخرجه البخاري (٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٦٥)، ومسلم (٤٠٢).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٩٤ - حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الرَّبِيعِ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَاءُ، فَأَصِيبُوا فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ عَلَى شَيْءٍ مَا وَجَدَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَتْ شَهْرًا فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَيَقُولُ: «إِنْ عُصِيَتْ عَصَا اللَّهِ وَرَسُولُهُ»^(١).

وهذه نكبة عظيمة، القراء حملة القرآن أُصيبوا، وقُتل منهم طائفة كبيرة في عهدِ النَّبِيِّ ﷺ فوجدَ عليهم بَلَاءُ اللَّهِ ﷻ؛ يَعْنِي: حَزَنٌ حَزَنًا عَظِيمًا، وَصَارَ يَقْتُنُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ، وَقَالَ: «إِنْ عُصِيَتْ عَصَا اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

وفي هذا: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَسْمَ قَدْ يَكُونُ لَهُ أَثَرٌ فِي الْعَمَلِ؛ يَعْنِي: أَنَّ يَكُونَ عَمَلُ الْإِنْسَانِ كَاسِمِهِ، وَقَدْ قِيلَ فِي ذَلِكَ.

وَقُلَّ أَنْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ ذَا الْقَبِّ إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لِقْبِهِ

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٩٥ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ الْيَهُودُ يُسَلِّمُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُونَ: السَّامُ عَلَيْكَ. فَفَطِنَتْ عَائِشَةُ إِلَى قَوْلِهِمْ فَقَالَتْ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا يَقُولُونَ. قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي أَنِّي أَرَدْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَأَقُولُ: وَعَلَيْكُمْ»^(١).

هذا الحديثُ فِيهِ الدَّعَاءُ عَلَى الْمَشْرِكِينَ لِقَوْلِهَا: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ. وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِالرِّفْقِ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ»^(٢). وَهَذَا شَيْءٌ مُجَرَّبٌ، فَإِنَّ الْعَنْفَ قَدْ يُثْمِرُ ثَمَرَاتٍ، لَكِنَّ الرِّفْقَ يُثْمِرُ أَكْثَرَ، وَلَا نَعْنِي بِالرِّفْقِ الْمَدَاهَنَةَ بَأَنْ يُوَافِقَ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ فِي رَأْيِهِ وَلَوْ كَانَ بَاطِلًا

(١) أخرجه مسلم (٦٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٣).

لِبِدَاهَتِهِ، وَلَكِنْ نَقُولُ لِيَرُدُّ عَلَيْهِ بَرْفِي، وَيُبَيِّنُ لَهُ بَرْفِي، وَيُدَارِيهِ، وَالْمَدَارَةُ مَعْنَاهَا أَنْ يَتَمَهَّلَ حَتَّى يَجِدَ الْفُرْصَةَ فِي مَخَاطِبَتِهِ وَمَكَالَمَتِهِ.

فَعِنْدَنَا الْآنَ أَرْبَعَةُ أُمُورٍ: عَنَفٌ، وَرَفْقٌ، وَمَدَارَةٌ، وَمِدَاهَنَةٌ.

فَالأَوَّلُ: الْعَنَفُ، وَهَذَا مُلَغِيٌّ شَرْعًا وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ - إِنْ حَصَلَ - شَيْءٌ مِنَ الْمُنْفَعَةِ إِلَّا قَلِيلٌ.

وَالثَّانِي: الرَّفْقُ، فَهُوَ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَاللَّهُ يُعْطِي بِالرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنَفِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُحَاوَلَ الْإِنْسَانُ الرَّدَّ عَلَى الْبَاطِلِ، لَكِنْ بَرْفِي.

وَالثَّالِثُ: الْمَدَارَةُ، فَمَعْنَاهَا أَنْ يُدَارِيَ الْإِنْسَانُ هَذَا الشَّخْصَ وَيَعْزِمَ عَلَى أَنَّهُ سَيَرُدُّ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ يَدْعُهُ إِلَى وَقْتٍ آخَرَ يَكُونُ أَنْسَبَ وَأَقْرَبَ إِلَى حَصُولِ الْمَقْصُودِ.

وَالرَّابِعُ: الْمِدَاهَنَةُ، وَهَذَا مُحْظُورٌ وَذَلِكَ بِأَنْ يُوَافِقَ الْإِنْسَانُ غَيْرَهُ عَلَى رَأْيِهِ، وَيَأْخُذُ بِمَا يَقُولُ مِدَاهَنَةً لَهُ، وَيَعْزِمُ فِي نَفْسِهِ أَلَّا يَتَكَلَّمَ مَعَهُ بِشَيْءٍ، وَإِنْ كَانَ عَلَى بَاطِلٍ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّنَا نَقُولُ لِمَنْ سَلَّمَ عَلَيْنَا مِنَ الْيَهُودِ: وَعَلَيْكُمْ. وَأَنَّنَا إِذَا قَلْنَا: وَعَلَيْكُمْ. فَقَدْ رَدَدْنَا عَلَيْهِمْ، إِنْ كَانُوا قَالُوا: السَّلَامُ. فَالَّذِي يَكُونُ عَلَيْهِمْ هُوَ السَّلَامُ، وَإِنْ كَانُوا قَالُوا السَّلَامُ كَانَ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ: إِذَا صَرَّحَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِمْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. فَإِنَّا نَصْرِّحُ فَنَقُولُ: عَلَيْكُمْ السَّلَامُ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣٩٦ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا الْأَنْصَارِيُّ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، حَدَّثَنَا عَبِيدَةُ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَقَالَ: «مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَبَيُوتَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلَاةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَهِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ»^(١).

هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ: الدَّعَاءُ عَلَى الْمَشْرِكِينَ حَيْثُ قَالَ: «مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَبَيُوتَهُمْ».

وَفِيهِ: الدَّعَاءُ بِلَفْظِ الْخَبَرِ؛ لِقَوْلِهِ: «مَلَأَ». وَفِي السَّنَدِ التَّسْلُسُ بِالْأَدَاءِ؛ حَيْثُ قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: حَدَّثَنَا؛ مِنَ الْبُخَارِيِّ إِلَى عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا صَالِحٌ قَالَ: حَدَّثَنَا

هشام، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ، قَالَ: حَدَّثَنَا عبيدة، قَالَ: حَدَّثَنَا عليُّ بْنُ أَبِي طالبٍ، فهذا مسلسل بالسند.

وفيه أيضًا: دليلٌ على أن الصلاة الوسطى هي صلاةُ العصر، وقد اختلف العلماء فيها اختلافًا كثيرًا، ولكن ما دام رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قد فسرها فإنه لا عبرة بما خالف في القول، وأن الصحيح أن الصلاة الوسطى هي صلاةُ العصر.

وفي هذا الحديث أيضًا: دليلٌ على أنه ينبغي للإنسان أن يذكر علة ما قال؛ لقوله: «كما شغلونا». فإن «الكاف» هنا للتعليل، فهي كقولك: كما صليت على إبراهيم، وكقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٩- بَابُ الدُّعَاءِ لِلْمُشْرِكِينَ.

٦٣٩٧- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَفْصَةَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرِو عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهِمْ»^(١).

قوله: «فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ». يَحْتَمِلُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَفَعَ يَدَيْهِ فَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ يَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ ظَنُّوا هَذَا الظَّنَّ؛ لِأَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرِو سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهَا، وَظَنُّوا أَنْ يُجِيبَهُ، وَأَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهِمْ.

وفيه: دليلٌ على الدعاء للمشركين بالهداية، وأما الدعاء لهم بالمغفرة فهذا لا يجوز؛ لقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]. وكذلك الدعاء بالرحمة وبالجنة وما أشبه ذلك، لكن بالهداية لا بأس.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٠- باب قول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ».

٦٣٩٨- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَبَّاحٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١).

وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاذٍ، وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ.

[الحديث ٦٣٩٨ - طرفه في: ٦٣٩٩].

٦٣٩٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَجِيدِ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مُوسَى، وَأَبِي بُرْدَةَ أَخْبَسَهُ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَايَايَ وَعَمْدِي، وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي»^(٢).

قَالَ الْقُسْطَلَانِي: وَقَعَ فِي مُسْلِمٍ: «هَزْلِي وَجِدِّي». وَهُوَ أَنْسَبُ، وَقَالَ أَيْضًا: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي». أَي: ذَنْبِي، وَجَهْلِي: ضِدُّ الْعِلْمِ، وَإِسْرَافِي: مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ، فِي أَمْرِي كُلِّهِ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ: جَمْعُ خَطِيئَةٍ، وَعَمْدِي: ضِدُّ السَّهْوِ. وَجَهْلِي: ضِدُّ الْعِلْمِ، كَمَا مَرَّ، وَهَزْلِي: ضِدُّ الْجِدِّ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (١١/١٩٨):

❦ قَوْلُهُ: «وَجَهْلِي». الْجَهْلُ: ضِدُّ الْعِلْمِ.

❦ قَوْلُهُ: «وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ». الْإِسْرَافُ: مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِجَمِيعِ مَا ذَكَرَهُ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧١٩).

(٢) انْظُرِ التَّعْلِيلَ السَّابِقَ.

❦ قوله: «اغفر لي خطايي وعمدي». وقَعَ في رواية الكُشْمِينِي في طريق إسرائيل: «خطئي» وكذا أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» بالسند الذي في الصحيح، وهو المناسبُ لذكرِ العمدِ، ولكنَّ جمهورَ الرواةِ على الأولِ، والخطايا: جمعُ خطيئةٍ، وعطفُ العمدِ عليها من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، فإن الخطيئةَ أعمُّ من أن تكونَ عن خطيئةٍ عن عمدٍ، أو هو من عطفِ أحدِ العامِّين على الآخرِ.

❦ قوله: «وجهلي وجدي». وقَعَ في مسلمٍ «اغفر لي هزلي وجدي». وهو أنسبُ، والجِدُّ بكسرِ الجيمِ ضدُّ الهزلِ. اهـ
خالفه مسلمٌ في أمرين في ذكرِ الجِدِّ بدلَ الجهلِ، وفي تقديمِ الهزلِ على الجِدِّ، ولا شكَّ أن روايةَ مسلمٍ أحسنُ.

وهذا الحديثُ كالأولِ وفيه: دليلٌ على أن الرسولَ ﷺ لا يملكُ لنفسه نفعاً ولا ضرراً؛ لأنه سأل الله أن يغفرَ له.

وفيه: أن الرسولَ ﷺ إذا استغفر فإنما يستغفرُ لنفسه خلافاً لمن زعمَ أنه إنما يستغفرُ لأمتِه، وادَّعى أن الرسولَ ﷺ لا يُذنبُ، وقد مرَّ علينا الذنوبُ التي يُعصَمُ منها الأنبياءُ، وأنهم لو فعلوا ذنباً فإنهم لا يُقرُّون عليه، وأنه لا يُمكنُ أن يفعلوا الذنبَ وهم يَعْتَقِدُونَ أنه ذنبٌ، لكن قد يَعْلَمُونَهُ وَيَعْتَقِدُونَ أن ذلك صواباً، هذا هو الظاهرُ أو يحولُهم على ذلك غيرُهُ، أو ما أشبه ذلك.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦١ - باب الدُّعَاءِ فِي السَّاعَةِ الَّتِي فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

٦٤٠٠ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا أَيُّوبُ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ». وَقَالَ بِيْهِ. قُلْنَا يُقَلِّلُهَا يُزَهِّدُهَا^(١)

سبق الكلامُ على هذا الحديثِ، وبينَّا أن أرجى ساعةٍ هي ما بين أن يأتي الإمامُ إلى أن

تُقْضَى الصَّلَاةُ، أَوْ مَا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٢ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «يُسْتَجَابُ لَنَا فِي الْيَهُودِ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيْنَا».

٦٤٠١ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ الْيَهُودَ آمَنُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ. قَالَ: «وَعَلَيْكُمْ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ عَلَيْكُمْ وَلَعَنَكُمْ اللَّهُ وَعَظَبَ عَلَيْكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ أَوْ الْفُحْشَ». قَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيِّي»^(١).

هذا الحديث أيضًا سبق الكلام عليه وبيننا أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت ذلك من شدة غيبتها على النبي ﷺ ومحبتها له فعمزت أن تملك نفسها فقالت هذا الدعاء عليهم.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٣ - بَابُ التَّأْمِينِ.

٦٤٠٢ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: حَدَّثَنَا عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا آمَنَ الْقَارِئُ فَأَمَّنُوا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُوْمِّنُ، فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينِ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٢).

❦ قوله: «إِذَا آمَنَ الْقَارِئُ». يعني: في الصَّلَاةِ الجهرية، ويُرادُ بالقارئ هنا الإمام، ومعنى: آمَن. أي: شرع في التَّأْمِينِ، أو بلغ مكان التَّأْمِينِ، وليس المعنى أننا ننتظر حتى يقول الإمام: آمين. ثم نقول بعده؛ وذلك لأن حديث أبي هريرة هذا قد أخرجه مسلمٌ بلفظ: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: وَلَا الضَّالِّينَ. فقولوا: آمين»^(٣). وهذا صريحٌ في أننا نُؤْمِنُ معه، ولا نُؤْمِنُ بعده.

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤١٥).

وفيه أيضًا: أن الملائكة تُؤمّن، وكان هؤلاء الملائكة -والله أعلم- وكلّهم الله ﷻ أن يُصلّوا مع الجماعة فيؤمّنوا، ويحتمل أنهم يؤمّنون وإن لم يكونوا يُصلّون فيؤمّنون فإذا وافق تأمين الإنسان تأمين الملائكة غفر الله له تقدّم من ذنبه.

فإن قال قائل: كيف يُعلّق الرسول ﷺ هذا الحكم على أمر مجهول لأننا لا ندري هل نوافق تأمين الملائكة أم لا؟

قلنا: إذا أمّنا حين تأمين الإمام فقد علمنا أننا وافقنا تأمين الملائكة؛ لأن الرسول ﷺ أتى بهذه العلة لهذا الحكم، وهو أن تؤمّن إذا أمّن الإمام، فدلّ ذلك على أن من أمّن مع الإمام فقد وافق تأمينه تأمين الملائكة، والتأمين هو أن يقول الإنسان: آمين وهي اسم فعل بمعنى: استجب يا الله.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٤ - باب فضل التهليل.

٦٤٠٣ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ سُمَيٍّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عِدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ»^(١).

هذا الحديث فيه: فضل هذا الذكر، وذلك أن من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير مائة مرة حصل له هذه الخصال الخمس: كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحدًا بأفضل مما جاء، إلا رجل عمل أكثر منه.

ولهذا قال العلماء ينبغي أن تقول هذا الذكر مائة مرة في أول النهار لأجل أن تبقى جميع نهارك محروسًا من الشيطان.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩١).

ومعنى: لا إله إلا الله؛ أي: لا معبود حق إلا الله، وما عبد من دون الله فليس بحق ومعنى: وحده لا شريك له. تأكيداً للنفي والإثبات، ف«وحده» تأكيدٌ للإثبات، و«لا شريك له». تأكيدٌ للنفي، و«له الملك وله الحمد» فيه إثبات الربوبية والأسماء والصفات، الربوبية في قوله: له الملك. والأسماء والصفات في قوله: له الحمد؛ لأنه يُحمد على كمال صفاته. وقوله: «وهو على كل شيء قدير». فيه إثبات عموم قدرته على كل شيء؛ ولهذا كان هذا الذكر فيه هذا الثواب العظيم.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٠٤ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي زَائِدَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ: مَنْ قَالَ عَشْرًا كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ. قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي زَائِدَةَ: وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السَّفَرِ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ مِثْلَهُ. فَقُلْتُ لِلرَّبِيعِ: يَمُنُّ سَمِعْتَهُ؟ فَقَالَ: مِنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ. فَاتَيْتُ عَمْرَو بْنَ مَيْمُونٍ فَقُلْتُ: يَمُنُّ سَمِعْتَهُ؟ فَقَالَ: مِنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى. فَاتَيْتُ ابْنَ أَبِي لَيْلَى فَقُلْتُ: يَمُنُّ سَمِعْتَهُ؟ فَقَالَ: مِنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ يُحَدِّثُهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَوْلَهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ مُوسَى: حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ عَامِرٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ رَبِيعِ قَوْلَهُ. وَقَالَ آدَمُ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَيْسَرَةَ، سَمِعْتُ هِلَالَ بْنَ يَسَافٍ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ، وَعَمْرُو ابْنِ مَيْمُونٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَوْلَهُ. وَقَالَ الْأَعْمَشُ، وَحُصَيْنٌ، عَنْ هِلَالٍ، عَنْ رَبِيعِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَوْلَهُ. وَرَوَاهُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَضْرَمِيُّ، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلٍ»^(١).

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: وَالصَّحِيحُ قَوْلُ عَمْرٍو.

قال الحافظ أبو ذر الهروي: صوابه عمرو، وهو ابن زائدة.

قال اليوناني: قلت: وعلى الصواب ذكره أبو عبد الله البخاري في الأصل كما تراه لا عمرو.
عندي يقول: كذا بهامش الفروع التي في أيدينا تبعاً لليونينية. وهذه الزيادة قد تكون موجودة في بعض النسخ دون البعض الآخر.
والحديث هذا ورد عن النبي ﷺ في «صحيح مسلم» أن من قاله عشر مرات كان كمن اعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل^(١). من قاله عشر مرات وليس مرة واحدة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥- باب فضل التسبيح.

٦٤٠٥- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ سُمَيٍّ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١).

وهذا أيضاً يشمل من قالها في أول النهار وآخره، لكن قال العلماء: ينبغي أن يقولها في آخره من أجل أن تكون خطاياها في النهار محسوبة بهذا الذكر، فصار مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له تُقال في أول النهار، وسبحان الله وبحمده مائة مرة تُقال في آخر النهار.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٠٦- حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ فَضِيلٍ، عَنْ عُمَارَةَ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»^(١).

ذكر النبي ﷺ في هاتين الكلمتين أنهما: خفيفتان على اللسان؛ أي: ليس فيها تعب. ثقيلتان في الميزان. وهذا من باب المقابلة.

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٤).

حبيبتان إلى الرحمن. يَعْنِي: إلى الله ﷻ ففيهما هذه الفوائد الثلاث.
وهاتان الكلمتان هما: سبحانَ الله العظيم، سبحانَ الله وبحمده، وهناك لفظٌ بتقديم
«سبحانَ الله وبحمده» على «سبحانَ الله العظيم» والمعنى لا يَخْتَلِفُ.
إِذَنْ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُكْثِرَ مِنْ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ الْفَوَائِدِ؛ الثَّقُلُ فِي الْمِيزَانِ،
وَالْمَحَبَّةُ إِلَى الرَّحْمَنِ ﷻ، مَعَ أَنَّهَا لَيْسَ فِيهَا مَشَقَّةٌ، بَلْ هُمَا خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ فَتَسْتَطِيعُ مِثْلًا
وَأَنْتَ تَمْشِي مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَى بَيْتِكَ أَنْ تَقُولَهَا كَثِيرًا.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦- بَابُ فَضْلِ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ.

٦٤٠٧- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ،
عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ
الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(١).

وهذا تباينٌ عظيمٌ، فالحيُّ والميتُ بينهما فرقٌ عظيمٌ، فهذا مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ اللَّهَ والذي لا
يَذْكُرُهُ، الذي لا يَذْكُرُهُ مثله مَثَلُ الْمَيِّتِ، والذي يَذْكُرُ اللَّهَ مثله مَثَلُ الْحَيِّ.
ووجهُ المشابهةِ أَنْ مَنْ يَذْكُرُ اللَّهَ ﷻ يَحْيَا قَلْبُهُ بِالذِّكْرِ فَإِنَّ الذِّكْرَ بِمَنْزِلَةِ الرُّوحِ، والذي
لَا يَذْكُرُهُ يَكُونُ قَلْبُهُ خَالِيًا مِنَ اللَّهِ ﷻ فَيَكُونُ كَالْجَسَدِ الْخَالِي مِنَ الرُّوحِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٠٨- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي
هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا
وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَيْنَا حَاجَتُكُمْ. قَالَ: فَيَحْفُوهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ
الدُّنْيَا. قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ

(١) أخرجه مسلم (٧٧٩) بلفظ: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهِ: مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُحَمِّدُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمَجُّدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا. قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّدُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا خَافَةً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فَلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ^(١). رَوَاهُ شُعْبَةُ، عَنْ الْأَعْمَشِ وَلَمْ يَرْفَعْهُ. وَرَوَاهُ سَهِيلٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ الْقُسْطَلَانِيُّ: «فَيَحْفُونَهُمْ». بفتح التحتية، وضم الحاء المهملة: يَطُوفُونَ وَيَدُورُونَ حَوْلَهُمْ بِأَجْنَحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

قَالَ الْمَظْهَرِيُّ: الْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ. يَعْنِي: يُدِيرُونَ أَجْنَحَتَهُمْ حَوْلَ الذَّاكِرِينَ، وَقَالَ الطَّبِيُّ: الظَّاهِرُ أَنَّهَا لِلِاسْتِعَانَةِ، كَمَا فِي قَوْلِكَ: كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ؛ لِأَنَّهُ حَفَّهِمُ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَى السَّمَاءِ إِنَّمَا يَسْتَقِيمُ بِوَسْطَةِ الْأَجْنَحَةِ. وَلَأَبَى دُرٌّ عَنِ الْكُشْمِيهَنِيِّ: إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/٢١٢):

❦ قَوْلُهُ: «فَيَحْفُونَهُمْ بِأَجْنَحَتِهِمْ». أَي: يَذْنُونَ بِأَجْنَحَتِهِمْ حَوْلَ الذَّاكِرِينَ، وَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، وَقِيلَ لِلِاسْتِعَانَةِ.

❦ قَوْلُهُ: «إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا». فِي رَوَايَةِ الْكُشْمِيهَنِيِّ: إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا. وَفِي رَوَايَةِ سَهِيلٍ: قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ بِأَجْنَحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَأُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَمَاءِ الدُّنْيَا. أَهـ
هَذِهِ فِيهَا إِشْكَالٌ. وَوَجْهُ الْإِشْكَالِ أَنَّ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ يَرْفَعُونَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: يَحْفُونَهُمْ بِأَجْنَحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الذَّاكِرِينَ فِي الْأَرْضِ مَا رُفِعُوا، فِيمَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَخْلُقُ أَشْبَاحًا لَهُوْلَاءِ الذَّاكِرِينَ تَحْمِلُهَا الْمَلَائِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَرْوَاحَهُمْ؛ لِأَن أَرْوَاحَهُمْ بَاقِيَّةٌ، وَلَمْ يَنَامُوا حَتَّى نَقُولَ لَعَلَّهَا رُفِعَتْ فِي حَالِ النَّوْمِ، فَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُمْ يَرْفَعُونَ أَشْبَاحَ هَؤُلَاءِ الذَّاكِرِينَ الْجَالِسِينَ لِلذِّكْرِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٧- بَابُ قَوْلٍ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

قَوْلُهُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ». الْحَوْلُ بِمَعْنَى التَّحَوُّلِ، وَالْقُوَّةُ مَعْرُوفَةٌ ضِدُّ الضَّعْفِ؛ يَعْنِي: لَا تَحَوُّلَ وَلَا قُوَّةَ عَلَى التَّحَوُّلِ إِلَّا بِاللَّهِ ﷻ، وَ«الْبَاءُ» هُنَا، هَلْ هِيَ بِمَعْنَى «فِي»؛ يَعْنِي لَا قُوَّةَ إِلَّا فِي اللَّهِ هُوَ الْقَوِيُّ وَهُوَ الْمُحَوَّلُ لِلْأَشْيَاءِ، أَوْ «الْبَاءُ» لِلْإِسْتِعَانَةِ؛ يَعْنِي: لَا أَمْلِكُ أَنْ أَتَحَوَّلَ إِلَّا بِاللَّهِ ﷻ؟

نَقُولُ: إِنْ الْمَعْنَى صَحِيحَانِ، فَالَّذِي يُحَوَّلُ الْأُمُورَ، وَيُغَيِّرُ الْأُمُورَ هُوَ اللَّهُ، وَالَّذِي يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ ﷻ، وَكَذَلِكَ أَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَحَوَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَلَا أَقْوَى عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلِهَذَا فَإِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ كَلِمَةُ إِسْتِعَانَةٍ، وَلَيْسَتْ كَلِمَةً اسْتِرْجَاعٍ؛ فَإِذَا قُلْتَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَهِيَ بِمَعْنَى قَوْلِكَ: اللَّهُمَّ أَعْنِي؛ لِأَنَّهُ تَبَرُّؤٌ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِاللَّهِ. وَأَمَّا اسْتِعْمَالُ النَّاسِ لَهَا فِي مَوْضِعِ الْإِسْتِرْجَاعِ فَهَذَا لَا وَجْهَ لَهُ، فَالنَّاسُ إِذَا أَخْبَرَ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ بِمُصِيبَةٍ قَالُوا: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وَالْأَوَّلَى أَنْ يَقُولَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٠٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ أَبُو الْحَسَنِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ فِي عَقِيَّةٍ - أَوْ قَالَ: فِي ثَنِيَّةٍ - قَالَ: فَلَمَّا عَلَا عَلَيْهَا رَجُلٌ نَادَى فَرَفَعَ صَوْتَهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ. قَالَ: وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا». ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا مُوسَى أَوْ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَثَرِ الْجَنَّةِ؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(١).

الشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ: «ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة». فهذه الكلمة هي من كنز الجنة، وهي أيضًا كلمة استعانة يُسْتَعَانُ بها تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ومعنى كونها من كنز الجنة أنها سبب لأن يثاب عليها الإنسان ثوابًا يدخل به الجنة.

❖ وأما قوله: «فإنكم لا تدعون أصمَّ، ولا غائبًا». ففيه نفْيُ الصَّمِّ والغَيْبِ عن الله، وقد مرَّ علينا قاعدة في باب العقيدة: أن الصفات المنفية عن الله لا يُرَادُ بها مجردُ النفي، وإنما يُرَادُ بها إثبات كمال ضدها. يعني: فهو سَمِيعٌ سمعًا لا صمم فيه، فنفي الصمم لكمال السمع؛ لأننا نحن نسمع، لكن سمعنا فيه صمم؛ بمعنى أننا لا نسمع كل شيء، وأيضًا يعترينا الصمم فقد يصاب الإنسان بصمم ولا يسمع، أما الله عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه ليس بأصم لكمال سمعه، ولا غائبًا لكمال حضوره؛ لأنه قال في آخر الحديث: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(١).

لكن هذا القرب لا يعني أن الله تعالى في الأرض؛ لأن هذا مستحيل، فالله عَلَيْهِ السَّلَامُ له علو المطلق الثابت أزلاً وأبدًا، ولكن لكمال إحاطته عَلَيْهِ السَّلَامُ صار أقرب إلى الإنسان من عنق راحلته. وفي قوله: «إن الذي تدعونه أقرب». دليل على أن القرب خاص بالداعي وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهذه المسألة اختلف فيها علماء السلف وهي: هل القرب من صفات الله العامة، أو من صفاته الخاصة؟ يعني هل إن الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قريب من كل أحد، حتى من الكافر والفاجر والفاسيق، أو هو قريب ممن يعبدوه ويدعوه فقط؟

ذهب بعض العلماء إلى أن القرب من صفات الله العامة، ومنهم ابن القيم رحمته الله، وذهب آخرون إلى أنه من صفاته الخاصة، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله، وقال: إن القرب ليس عامًا كالمعية، فالمعية عامة وخاصة، لكن القرب أخص من المعية، ولم يرد القرب لله على سبيل الإطلاق، إنما ورد مقيدًا فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. يعني: في حال دعائهم إياي: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»^(٢). فهذا

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٤).

(٢) انظر التعليق السابق.

قُرْبُ الدَّعَاءِ؛ يَعْنِي: هَذَا الْقُرْبُ فِي حَالِ كَوْنِ الْإِنْسَانِ فِي دَعَاءٍ، أَمَا فِي حَالِ كَوْنِهِ فِي عِبَادَةٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»^(١). وَهَذَا الْقُرْبُ فِي حَالِ كَوْنِ الْإِنْسَانِ فِي عِبَادَةٍ، لَكِنْ مَا وَرَدَ أَنَّ اللَّهَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ؛ لِأَنَّ الْقُرْبَ كَمَا قُلْتُ أَخْصُّ مِنَ الْمَعِيَةِ، فَإِنَّ الْمَعِيَةَ تَصِحُّ وَلَوْ مَعَ بَعْدِ الْإِنْسَانِ عَنْهُ هُوَ مَعَهُ، وَلِهَذَا يُقَالُ: الْمَرْأَةُ مَعَ الزَّوْجِ. وَهِيَ فِي الْمَشْرِقِ، وَهُوَ فِي الْمَغْرِبِ، وَلَا يُقَالُ: الْمَرْأَةُ قَرِيبَةٌ مِنَ الزَّوْجِ. وَهِيَ فِي الْمَشْرِقِ، وَهُوَ فِي الْمَغْرِبِ، فَلَا يُقَالُ: قَرِيبَةٌ. إِلَّا إِذَا كَانَتْ قَرِيبَةً حَقًّا.

الْمَهْمُ: أَنْ قَوْلَهُ: «أَصَمُّ». يُرَادُ بِهَا إِبْثَاتُ كِمَالِ السَّمْعِ وَلَيْسَ فَقَطْ نَفْيُ الصَّمَمِ. يَعْنِي: نَفْيُ الصَّمَمِ عَنْهُ لِكِمَالِ سَمْعِهِ، لَا لِعَدَمِ قَبُولِهِ لِلْسَّمْعِ أَوْ لِعَدَمِ قَبُولِهِ لِلصَّمَمِ كَمَا قَالَ ذَلِكَ أَهْلُ التَّعْطِيلِ، فَإِنَّ أَهْلَ التَّعْطِيلِ يَقُولُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَصَمٍّ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَابِلٍ لِلْسَّمْعِ وَالصَّمَمِ، وَلَكِنَّ هَذَا قَوْلٌ مُنْكَرٌ، وَالصَّوَابُ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَصَمٍّ لِكِمَالِ سَمْعِهِ، لَا لِعَدَمِ قَبُولِهِ.

❖ أَمَا قَوْلُهُ: «وَلَا غَائِبًا». فَقُلْتُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَاضِرٌ، وَأَنَّهُ قَرِيبٌ مِمَّنْ يَدْعُوهُ. **وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ:** عَرَضَ الْعَالَمُ الْعِلْمَ خِلَافًا لِمَنْ يَقُولُ: إِنْ سَأَلُونِي عِلْمُتُهُمْ وَإِلَّا فَلَا أَعْرِضُ الْعِلْمَ عَلَيْهِمْ. بَلْ يَنْبَغِي لِلْعَالَمِ أَنْ يَعْرِضَ الْعِلْمَ عَلَى النَّاسِ وَيَحْتُثَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: أَلَا أَخْبِرْكُمْ، أَلَا أَعْلَمُكُمْ. مَتَى وَجَدَ لَذَلِكَ مَسَاعًا وَفُرْصَةً فَلَا يَدْخِرُ وَقَتًا لِنَفْسِهِ يَحْرِمُ النَّاسَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ.

وَفِيهِ أَيْضًا: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ بِالذِّكْرِ وَالِدَّعَاءِ رَفْعًا يَشُقُّ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ فِي نَفْسِ الْحَدِيثِ: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ». يَعْنِي: هَوِّنُوا عَلَيْهَا، أَمَا أَنْ تَصْرُخَ صُرَاخًا يُزْعِجُ غَيْرَكَ وَيَشُقُّ عَلَيْكَ فَهَذَا غَيْرُ مَطْلُوبٍ مِنْكَ. وَمِنَ الْعَجَبِ أَنْ بَعْضَ النَّاسِ اسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي رَفْعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ عَقِبَ الصَّلَاةِ، وَهَذَا لَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ.

أَوَّلًا: هَذَا الْحَدِيثُ مَا وَرَدَ فِي الصَّلَاةِ.

وَنَائِبًا: لَوْ فَرَضْنَا أَنَّهُ وَرَدَ فِي الصَّلَاةِ فَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَنْهَ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ مطلقًا، إِنَّمَا نَهَى عَنِ الْمَشَقَّةِ فَقَالَ: «ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ». وَالْإِنْسَانُ إِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ رَفْعًا مُعْتَادًا فَإِنَّهُ لَا

يَشُقُّ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ إِنْ رَفَعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ^(١)، فَمَا مَوْقِفُنَا أَمَامَ اللَّهِ أَنْ نَذْهَبَ لِنُؤَوِّلَ هَذَا الْحَدِيثَ تَأْوِيلًا بَعِيدًا؛ لِأَنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّهُ غَيْرُ مَشْرُوعٍ.

وهذا من مَضَرَّةِ التَّقْلِيدِ واعتقادُ الإنسانِ الشَّيْءَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَيْهِ لِأَنَّكَ إِذَا اعْتَقَدْتَ شَيْئًا، ثُمَّ وَجَدْتَ نَصًّا يَخَالِفُ مَا تَعْتَقِدُهُ مَاذَا تَفْعَلُ؟ تُحَاوِلُ أَنْ تُنَزِّلَ النِّصَّ عَلَى مَا تَعْتَقِدُهُ وَلَوْ بَلَى عِنْقَهُ، بَلْ وَلَوْ بِكَسْرِ عِنْقِهِ فَلَا يَهْمُ، الْمَهْمُ أَلَا يَخَالِفَ مَا تَعْتَقِدُهُ، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ جَدًّا، وَالصَّوَابُ أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَكَ تَابِعًا لِلنُّصُوصِ لَا مُتَبَوِّعًا لَهَا، هَذَا إِنْ كُنْتَ عَابِدًا لِلَّهِ حَقًّا، وَمُتَبَوِّعًا لِلرَّسُولِ ﷺ حَقًّا.

أحيانًا يَمُرُّ بِنَا أَحَادِيثَ نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَجْلَاءِ مِنْ حَرْفِهَا تَحْرِيفًا وَاضِحًا، لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ خِلَافَهَا مَعَ أَنَّهُمْ أَجْلَاءُ، لَكِنَّ مَشْكَلَةَ النَّفْسِ أَنَّهُ يَصْعَبُ عَلَيْهَا أَنْ تَتَحَوَّلَ عَمَّا تَعْتَقِدُهُ، وَيَسْهُلُ عَلَيْهَا أَنْ تُؤَوِّلَ مَا تَسْتَدِلُّ بِهِ، وَهَذَا لَيْسَ بِجَيِّدٍ.

وَمِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ إِنْ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَجْهَرُ بِالذِّكْرِ عَقِبَ الصَّلَاةِ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ. فنَقُولُ لَهُمْ: أَنْتُمْ الْآنَ تَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ غَيْرُ مَشْرُوعٍ، وَأَنَّهُ بَدْعَةٌ، فَكَيْفَ يَفْعَلُ الرَّسُولُ ﷺ الْبَدْعَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ مَعَ أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ بِغَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: «قُولُوا كَذَا وَكَذَا». مِثْلَ مِثْلَمَا قَالَ لَهُمْ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ تُذَرِّكُونَ بِهِ مِنْ سَبَقِكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مِنْ بَعْدِكُمْ؟ تُسَبِّحُونَ، وَتُحَمِّدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ». وَقَدْ عَلَّمَهُمْ وَانْتَهَى، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّهُ يُكْرَرُ هَذَا كُلُّ صَلَاةٍ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ وَهُوَ عِنْدَكُمْ غَيْرُ مَشْرُوعٍ، وَلَيْسَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ فَهَلْ هَذَا مَعْقُولٌ، ثُمَّ نَقُولُ: تَنْزَلْنَا مَعَكُمْ أَنَّهُ يُعَلِّمُ النَّاسَ، فَهُوَ يُعَلِّمُ النَّاسَ الذِّكْرَ وَصِفَةَ الذِّكْرِ، كَأَنَّا يَقُولُ: اذْكُرُوا اللَّهَ بِمَا أَقُولُ، وَاجْهَرُوا كَمَا جَهَرْتُ. نَحْنُ نَقْبَلُ إِنَّهُ لِلتَّعْلِيمِ، لَكِنْ لِلتَّعْلِيمِ أَصْلُ الذِّكْرِ وَتَعْلِيمُ صِفَةِ الذِّكْرِ كَذَلِكَ.

جَاءُوا مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ فَقَالُوا: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يُصَلُّونَ فِي اللَّيْلِ وَيَرْفَعُ بَعْضُهُمْ صَوْتَهُ بِالْقِرَاءَةِ، فَقَالَ: «لَا يَجْهَرُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٨٤٢)، ومسلم (٥٨٣).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٣٢)، وأحمد (٩٤/٣)، وابن خزيمة (١٩٠/٢).

نقول: هذا اعتراض جيد، لكن لما إذا كان يرفع صوته بعد الصلاة، فهذا شيء وهذا شيء آخر، وأيضاً فالقراءة مختلفة، فهذا يقرأ في أول القرآن، وهذا في وسطه، وهذا في آخره فيحصل التصادم والتشويش، لكن الذكر الناس فيه سواء، فلا يحصل تشويش، إلا إذا كان أحداً يقضي صلاته بجانبك فحينئذ نقول: لا ترفع صوتك؛ لأنك إن رفعت صوتك وهو بجانبك سوف تشوش عليه قطعاً. وحينئذ نقول عرض للفاضل ما جعله مفضولاً؛ وذلك لمراعاة هذا المصلي حتى لا أشوش عليه.

أما إذا كان الناس كلهم ليس فيهم أحد يقضي أو أن هناك أناس يقضون وراءنا ولا يشوشون منا، فلماذا نعارض السنة بشيء غير الحقيقة.

فلنتعلم الآن الأدب في تلقي النصوص ولا نقول والله العالم الفلاني قال: كذا وكذا، والعالم الفلاني قال كذا وكذا. ولكن لننظر؛ لأن الله يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [التكوير: ٦٥]. فهذا في الرسالة ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَتُنْكَرُونَ﴾ [الزمر: ٢١]. هذا في التوحيد فيسأل الإنسان عن هذين الأمرين: من كان يعبد من دون الله، والثاني: من كان يتبع من غير رسول الله ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾. فالإنسان يسأل يوم القيامة ماذا أجاب المرسلين، لا ماذا أجاب فلاناً وفلاناً.

ولننظر إلى شيخ الإسلام رحمه الله فمذهبه حنبلي لا شك ومع ذلك يخرج كثيراً عن مذهب الحنابلة إلى المذاهب الأخرى، بل إنه أحياناً يخرج عن المذاهب الأربعة كلها اتباعاً للدليل، وله مسائل متعددة انفرد بها عن المذاهب الأربعة، لا عن إجماع الأمة لأنه رجل يتبع الدليل، وإن كان على مذهب الحنابلة.

فالحاصل أني أقول: إن الواجب أن نتبع النص وإذا رأينا بعض أهل العلم تأوله ندعوه بالمغفرة ولا نجعل خطأه خطأ لنا؛ لأننا لن نحاسب عن فهمه، وإنما سنحاسب عن فهمنا نحن وعلمنا نحن.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٨ - باب لله مائة اسم غير واحد.

٦٤٠٩ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ: حَدَّثَنَا عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ الْأَعْرَجِ،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَوَاهُ قَالَ: اللَّهُ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَتَرٌ يُحِبُّ الْوَتَرَ^(١).

هذا الحديث فيه: فيما يَتَعَلَّقُ بالإِسْنَادِ، أو بعلمِ المصطلحِ قوله: عن أبي هريرة رواية فإن هذا ليس مرفوعاً صريحاً، ولكنه مرفوعٌ حكماً فمن لديه شرحنا في المصطلح فينبغي أن يُلْحَقَ هذا المثال به إذا لم يَكُنْ موجوداً بالفعل.

وأما قوله ﷺ: «لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ». فهذا أحدُ ألفاظِ الحديثِ واللفظُ الآخرُ: «من أحصاها دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

ومعنى الحديث أن من أساء الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دَخَلَ الْجَنَّةَ، وليس المعنى أن أساء الله محصورةً في هذا العدد، بل إن أساء الله أكثر من ذلك، لكن المحصور أن من أحصى هذا العدد دَخَلَ الْجَنَّةَ.

وهذه الأسماء لم يُبَيِّنْهَا النَّبِيُّ ﷺ، والحديث الذي وَرَدَ فيه سردُ هذه الأسماء ضعيفٌ لأن هناك أسماء لم تُذَكَّرْ في هذا الحديث مثلُ الربِّ والشافي، وفيه أشياء ليست من أسماء الله وذُكِرت مثلُ المنتقمِ والمعزِّ، فإن المنتقم ليس من أسماء الله لأن الله تعالى لم يَذْكُرْهُ بلفظِ «أَل» ولم يَذْكُرْهُ أيضاً إلا مقيداً، فقال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾^(٣) [البقرة: ٢٢]. فسردها الذي أخرجه الترمذي لا يصحُّ عن النَّبِيِّ ﷺ.

فإذا قَالَ قائلٌ: إذن كيف نتوصل إليها؟

فيقال: إن هذا من الحكمة أن الله لم يُبَيِّنْهَا في القرآن ولم يُبَيِّنْهَا الرسولُ ﷺ، وذلك كما أخفى عنا ساعةَ الإجابة في يومِ الجمعة، وأخفى ليلةَ القدرِ في عشرِ رمضان، والحكمة في ذلك من أجل أن يَجْتَهِدَ الإنسانُ في تتبعِ الكتابِ والسنةِ حتَّى يُحْصِيَ منها تسعةً وتسعين اسماً. فإن قَالَ قائلٌ: هذا يوجبُ اختلافَ الأمةِ في تعيينها؟

قلنا: هذا لا يضرُّ، فمن أتى بتسعةٍ وتسعين اسماً وإن لم يُوافَقْ عليها جميعاً فقد أدرك ما

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وفي إسناده: الوليد بن مسلم، وهو يدلّس تدليس التسمية، ولم يصرح بالساع في طبقات الإسناد.

فيه هذا الثواب والأجر؛ يَعْنِي: لَا يُلْزَمُ أَنْ يَتَفَقَّ النَّاسُ عَلَيْهَا فَقَدْ يُدْرِكُ مِنْهَا فَلَانُ شَيْئًا، والثاني لَا يُدْرِكُ، أَوْ بِالْعَكْسِ.

المهم: أَنْ تُدْرِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ تِسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا.
 وقوله: «مِنْ أَحْصَاهَا». لَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ تَحْفَظَهَا وَتَقْرَأَهَا أَمَانِيًّا فَقَطْ بَدُونِ مَعْرِفَةٍ، وَلَكِنْ إِحْصَاءَهَا يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: حَفْظَهَا لَفْظًا، وَفَهْمُهَا مَعْنَى، وَالتَّعَبُّدُ لِلَّهِ بِمَقْتَضَاهَا، فَالرَّحْمَنُ مِثْلًا عَلِيًّا أَنْ أَعْرِفَ هَذَا اللَّفْظَ «الرَّحْمَنُ»، وَأَعْرِفَ مَعْنَاهُ وَأَفْهَمُهُ أَنَّهُ «ذُو الرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ»، وَأَتَعَبَّدَ لِلَّهِ بِمَقْتَضَى هَذَا الْاسْمِ فَاتَعَرَّضَ لِرَحْمَتِهِ بِالْعِبَادَةِ وَبِالدَّعَاءِ؛ بِالْعِبَادَةِ بِأَنْ أَقُومَ بِمَا يَكُونُ سَبَبًا لِلرَّحْمَةِ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَبِالدَّعَاءِ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ الرَّحْمَةَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٩- بَابُ الْمَوْعِظَةِ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ.

٦٤١١- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ قَالَ: حَدَّثَنِي شَقِيقٌ قَالَ: كُنَّا نَنْتَظِرُ عَبْدَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ فَقُلْنَا: أَلَا تَجْلِسُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَدْخُلُ فَأُخْرِجُ إِلَيْكُمْ صَاحِبَكُمْ وَإِلَّا جِئْتُ أَنَا فَجَلَسْتُ فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِهِ فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ: أَمَّا إِنِّي أَخْبَرُ بِمَكَانِكُمْ، وَلَكِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَحَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهِيَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا^(١).

قوله: «أَخْبَر». فِيهَا نَسَخَتَيْنِ: «أَخْبِرُ»، وَ«أَخْبَرُ».

وَمَا قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ مِنْ تَرْبِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَوْعِظَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الْمَوْعِظَةِ فَيَسْأَمَ النَّاسُ وَيَمْلُوا وَيَكْرَهُوا الْمَوْعِظَةَ مِنْ أَجْلِ سَوْءِ تَصْرِفِ الْوَاعِظِ، بَلْ يَتَحَوَّلُ النَّاسُ، وَكَلِمَا وَجَدَ النَّاسُ إِلَى الْمَوْعِظَةِ أَشَوْقَ وَعَظْهُمْ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي قَالَ فِيهِ: إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ لَا تَقْطَعْ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فَتَعْظُهُمْ، دَعِهِمْ يَتَحَدَّثُونَ فِي أُمُورِهِمْ وَلِلْمَوْعِظَةِ مَكَانٌ آخَرٌ وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ تَرْبِيَةٌ نَفْسِيَّةٌ فَإِذَا وَجَدَ النَّاسَ نَفْسَهُمْ مُسْتَعِدَّةً فَحِينَئِذٍ يَحْسُنُ الْكَلَامُ.

شَيْخ
صَحِيحُ الْإِسْلَامِ
أَبُو بَكْرٍ

كِتَابُ الرِّوَقَاتِ

٦٥٩٣-٦٤١٢



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كِتَابُ الرِّقَاقِ

١ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّقَاقِ وَأَنْ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ.

❦ قَوْلُهُ: «الرِّقَاقُ». يَعْنِي: مَا يُرَقِّقُ الْقَلْبَ وَيُلَيِّنُهُ وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ قَدْ يَقْسُو بِالْمَعَاصِي وَكَثْرَةِ الْغَفْلَةِ فَيَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ يُرَفِّقُهُ، وَالنَّصُوصُ الَّذِي تُوجِبُ رَقَّةَ الْقَلْبِ يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ الرِّقَاقَ؛ لِأَنَّهَا تُرَفِّقُ الْقَلْبَ وَيُلَيِّنُهُ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤١٢ - حَدَّثَنَا الْمُكَلِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ - هُوَ ابْنُ أَبِي هِنْدٍ -، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصُّحَّةُ وَالْفَرَاغُ».

وَقَالَ عَبَّاسُ الْعَنْبَرِيُّ: حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَيْسَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدٍ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ.

اللَّهُ أَكْبَرُ، صَدَقَ الرَّسُولُ ﷺ، إِنَّ هَاتَيْنِ النِّعْمَتَيْنِ لِمَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ كَثُرَا مِنَ النَّاسِ قَدْ أَضَاعَهُمَا، تَمْضِي عَلَيْهِ الْأَيَّامُ الطَّوِيلَةُ، وَهُوَ صَحِيحُ الْبَدَنِ فَارِغٌ، وَتَضَيُّعٌ عَلَيْهِ، وَهَذَا غَبْنٌ بِلَا شَكٍّ، وَلَا يَعْرِفُ هَذَا الْغَبْنَ إِلَّا إِذَا مَرِضَ فَيَقُولُ: كَيْفَ لَمْ أَفْعَلْ كَذَا فِي أَيَّامِ صِحَّتِي؟ كَيْفَ رَاحَتَ عَلَيَّ هَذِهِ الْأَيَّامُ وَيَتَبَيَّنُ لَهُ الْغَبْنُ.

كذلك الفراغ، فترى الإنسان فارغاً ليس عنده ما يشغله، ويأتيه رزقه عند عتبة داره، ولا يحتاج إلى طلبه، ثم إذا به ينشغل في طلب الرزق، أو في غيره، فحينئذ يذكر أنه مغبون فيما سبق؛ حيث لم يعمل في وقت ذلك الفراغ، ولهذا قال الرسول ﷺ: «مغبون فيها كثير من الناس».

وأفاد الحديث: أن من الناس من لا يُغبنُ فيها، وهؤلاء هم أهل الحزم والعزم، الذين يُقدِّرون الأمور ويعرفونها، ويعرفون أن الوقت أسرع مما يتصورون، فكم من إنسان يستبطئ الأجل فإذا به حل، وكم من إنسان يستبطئ زوال النعمة فإذا بها قد زالت، فمثلاً يكون صحيح البدن فيقول: متى أكون شيخاً أعجز عن العمل؟ فإذا هو به يُصاب بأفة تمنعه من العمل، وهكذا الدنيا لا تأمنها، لذلك يجب على الإنسان أن يكون حازماً، كما قال الرسول ﷺ: «خذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»^(١).



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ:

٦٤١٣ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَأَصْلِحِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ»^(١).

٦٤١٤ - حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ الْمُقْدَامِ، حَدَّثَنَا الْفُضَيْلُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ، حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ، كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْخَنْدَقِ وَهُوَ يَخْفَرُ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ وَبَصَرُنَا فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَافْغِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ». تَابَعَهُ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ^(٢).

الخندق كان في سنة خمس من الهجرة، حين تألب الأحزاب على رسول الله ﷺ وحاصروه في المدينة، وخاف ﷺ أن يدخلوا المدينة، فاستشار سلمان الفارسي رضي الله عنه ماذا يصنع، فأشار عليه بحفر الخندق، فحفر النبي ﷺ ما بين الحرتين، لأن الحرة يمكن أن يأتوا منها؛ لأنها صعبة على الإبل وعلى الأقدام، فحفر ما بين الحرتين خندقاً لا يتجاوزه العدو، وجعل النبي ﷺ يخفر الخندق ويأمره بنفسه للدفاع عن أصحابه، وكان شعره كثيراً ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من قول ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٠٤).

حتى رُئي الترابُ على شعره ﷺ وهو يَنْقُلُ الترابَ، أحياناً يَحْفِرُ وأحياناً يَنْقُلُ، ويقول ﷺ: «اللهم لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة» وصدق ﷺ فعيشُ الدنيا يزُولُ، إما أن يزُولَ عنك وإما أن تزُولَ عنه، لكن عيشُ الآخرة باقٍ لا يزُولُ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٧) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿الْأَنْفَالُ: ١٦-١٧﴾. خيرٌ في هذا النعيمِ وأبقى في الدوامِ، لهذا يَنْبَغِي للإنسانِ أن يَنْظُرَ ماذا عَمِلَ لهذا العيشِ لا للعيشِ الزائلِ، نَسَأَلُ اللهَ أَنْ يُعِنَّا على أَنْفُسِنَا، فإن أَكْثَرَ النَّاسِ يَنْظُرُ ماذا يَعْملُ للعيشِ الزائلِ، ولكن الحازمُ هو الذي يَعْملُ للعيشِ الباقي فلا عيشَ إلا عيشُ الآخرة، ولهذا ما يَنْبَغِي أَنْ نَأْسَفَ على ما فاتنا من أَمْرِ الدنيا؛ لأن هذا الزوالَ هو النتيجةُ الحتميةُ فيما أن تزُولَ عنه، وأنت أشدُّ ما تَكُونُ به تعلقاً، وإما أن يزُولَ عنك، لا بدَّ من هذا.

وكان ﷺ إذا رأى ما يُعْجِبُهُ من الدنيا يَقُولُ: «ليكَ إن العيشَ عيشُ الآخرة» (١) وهذه تربيةٌ نفسيةٌ عجيبةٌ، لأن النفسَ إذا رأت ما يُعْجِبُهَا في الدنيا ربما تَنْصَرِفُ إلى ما رأت والذي يَصْرِفُهَا عن ذلك هو ذمَامُ وخَطَامُ، «ليكَ» كأن هذا الإعراضَ يُقَابِلُ بالتلبية؛ يعني أَجَبْتُكَ وَرَجَعْتُ إِلَيْكَ، ثم يُوْطِنُ هذه النفسَ وَيُزَهِّدُهَا فيما رأت مما يُعْجِبُهَا من هذه الدنيا، فيقولُ: «إن العيشَ عيشُ الآخرة» وانظر إلى الذين عاشوا في الدنيا أعْظَمَ وأنعمَ عيشَ أين هُم؟ قد زالوا تحت الثرى هم وغيرهم سواء، وربما يَكُونُونَ أسوأ من غيرهم، وانظُرْ إلى من طلبَ عيشَ الآخرة - نَسَأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنِي وإياكم على طلبِهِ - كيف صارت لهم الذُكْرَى الحسنَةُ في الدنيا، والجزاءُ الأحسنُ في الآخرة، فها هو أبو هريرة رضي الله عنه كان في عهده خلفاءُ نَعَمُوا في الدنيا، وأتتهُم الدنيا وهي راغمةٌ، ولكن هل بقي ذِكْرُهُم كما بقي ذِكْرُ أبي هريرة؟

الجواب: لا، ما بقي، أما أبو هريرة فيذكرُ في كل مجلسٍ علمٍ، وفي كل مسجدٍ، وفي كل خطبةٍ كلما جاء حديثُهُ، وهؤلاء نَسُوا عيشَ الآخرة وهذا النعيمُ، اللهم اجْعَلْنَا ممن يَكُدُّ له.

﴿ثُمَّ قَالَ ﷺ: «فاغفرِ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ». هذا فيه جوازُ مراعاةِ الرُّوْيِ أو القافية، أو السجع؛ لأن من المعلوم أن المهاجرةَ أَفْضَلُ من الأنصارِ، فالمهاجرونُ جمعوا رضي الله عنهم بين الهجرة وترك الأوطانِ والديارِ - ولا سيما أنهم تركوا أَفْضَلَ بلادِ الله - وبين النصرَةَ، والأنصارَ أَخَذُوا بالنصرة وقال تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣- بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

٦٤١٦- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو الْمُؤَنِّدِ الطَّفَاوِيُّ، عَنْ

سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ قَالَ: حَدَّثَنِي مُجَاهِدٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.

أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَنْكِبِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْتَبِهَ لَهَا يَقُولُ.

❖ وقوله: «كأنك غريبٌ أو عابرٌ سبيلٍ». الفرقُ بينهما: أن الغريبَ هو المقيمُ في البلدِ الذي ليس وطنًا له، وعابرُ السبيلِ هو الذي مرَّ بالبلدِ، وهو سائرٌ؛ أي: أنك لا تتخذُ الدنيا وطنًا، لأنَّ النَّاسَ ثلاثةُ أقسامٍ: مستوطنٌ، وعابرُ سبيلٍ، والثالثُ مقيمٌ لكنه غريبٌ، فقوله: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ». أي: مقيمٌ في غيرِ وطنك، «أو عابرُ سبيلٍ»؛ أي: كالمسافرِ الذي مرَّ ببلدٍ، فأخذَ منها حاجةً، ثم ذهبَ وتركها فلا تكنَ مستوطنًا في هذه الدنيا؛ لأنها ليست دارَ وطنٍ، ولهذا تأثرَ ابنُ عمرَ بهذه الوصيةِ فكانَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ؛ يَعْنِي: اْعْمَلْ وَلَا تَقُلْ: أَتْرُكُ عَمَلَ الصَّبَاحِ لِأَخْرِ النَّهَارِ، أَوْ عَمَلِ آخِرِ النَّهَارِ لِعَمَلِ الصَّبَاحِ. بَلْ اْعْمَلْ لَا تَنْتَظِرْ؛ لَأَنَّكَ لَا تَدْرِي هَلْ تُدْرِكُ الصَّبَاحَ إِذَا أَمْسَيْتَ، أَوِ الْمَسَاءَ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ؛ لَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ دَائِمًا صَحِيحًا، فَقَدْ يَمْرُضُ فَيَعْجِزُ عَنِ الْوُضَائِفِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَفْعَلُهَا فِي حَالِ صِحَّتِهِ، فَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَوْتَكَ أَطْوَالَ مِنْ حَيَاتِكَ بِكَثِيرٍ، فَإِنَّكَ إِذَا عُمِّرْتَ سَتَعْمُرُ مِثْلًا مِائَةً وَخَمْسِينَ سَنَةً، لَكِنْ كَمَ مِنَ النَّاسِ مَاتُوا مِنْذُ آلَافِ السِّنِينَ، فَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ، وَهَذِهِ وَصِيَّةٌ مِنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَصِيَّةٌ نَافِعَةٌ، تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا.

بَعْضُ النَّاسِ يَرْوِي حَدِيثًا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ يَقُولُ: «اْعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا»^(١). أَوَّلَا هَذَا لَيْسَ بِحَدِيثٍ، وَثَانِيًا مَعْنَاهُ لَيْسَ عَلَى مَا يَظُنُّهُ

(١) انظر: «فيض القدير» (١٢/٢).

بعض الناس؛ لأن معني قوله: اعملْ لَدُنْكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا؛ يعني: لَا تَهْتَمَّ فَمَا لَمْ تَفْعَلْهُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا الْيَوْمَ، فَافْعَلْهُ غَدًا، وَاَعْمَلْ لَأَخْرَجَكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا؛ يعني: لَا تُؤَخَّرْ عَمَلَ الْآخِرَةِ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا فَاعْمَلِ الْيَوْمَ، أَمَا الدُّنْيَا فَخُذْهَا عَلَى التَّرَاحِي.

وَلَيْسَ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْمَعْنَى! أَحْكِمْ عَمَلَ الدُّنْيَا، وَلَا تَهْتَمَّ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ عَمَلَ الْآخِرَةِ لَا تَدْرُ ثَمَرَتَهُ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ، بَلْ مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا أَلَّا يَهْتَمَّ بِهَا، فَمَا لَا يَكُونُ الْيَوْمَ يَكُونُ غَدًا وَكَأَنَّهُ يَعِيشُ أَبَدًا، أَمَا الْآخِرَةُ فَاهْتَمَّ بِهَا وَلَا تُضَيِّعْهَا، وَلَا تُؤَخَّرْ عَمَلَ الْيَوْمِ لِغَدٍ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤- بَابُ فِي الْأَمَلِ وَطَوِيلِهِ. وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَمَنْ رُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (التغلق: ١٨٥). ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحج: ٢). [المعنى: ٣].

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مَدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبَلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ ^(١).

بِمَرْحُزِهِ: بِمَبَاعِدَةٍ.

هَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ رُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. صَدَقَ اللَّهُ ﷻ فَبِهَذَا هُوَ الْفَوْزُ فَلَيْسَ الْفَوْزُ أَنْ تَقُورَ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، بَلِ الْفَوْزُ أَنْ تَرْحُجَ عَنِ النَّارِ وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرْحُجَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلَتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتِيَ إِلَيْهِ» ^(١). فَهَذِهِ مِنْ أَسْبَابِ حَصُولِ الزَّحْزَحَةِ عَنِ النَّارِ وَدُخُولِ الْجَنَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾. سَبَقَ نَظِيرُهُ.

(١) أخرجه البخاري معلقاً (الرقاق / باب ٤)، وهو عند ابن أبي شيبة (٧ / ١٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

❦ وقوله: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. هذا تهديد لهم؛ يعني: ذر هؤلاء المكذِّبين يأكلوا من نعم الله، ويتَمَتَّعوا بها، ويلْهِمُ الأمل، ويقول قائلهم: غدا أتوبُ غدا أتوبُ. وإذا بالأجل قد حَصَرَ، فسوف يَعْلَمُونَ، قال الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ شَارِعِ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

أما أثرٌ على ^{هذه} فهو معلقٌ، والمعلقُ حكمه الضعفُ، لكن البخاري إذا جزم بالمعلق فهو عنده صحيحٌ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

١٧٦٤ - حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ الْفَضْلِ، أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي، أَبِي، عَنْ مُنْذِرٍ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ خُثَيْمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مَرْبَعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خَطًّا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ، مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ وَقَالَ: «هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُوطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا».

١٨٦٤ - حَدَّثَنَا مُسْلِمٌ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا فَقَالَ: «هَذَا الْأَمَلُ وَهَذَا أَجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الْخُطُّ الْأَقْرَبُ».

الله أكبر هذا ضربٌ مثل من النبي ﷺ بالشكل، فإنه ﷺ خطَّ خطًّا مَرْبَعًا؛ يعني: ذو خطوطٍ أربعة متصلة بعضها ببعض، وخطٌّ في الوسطِ خطًّا خارجًا منه بارزًا، وخطٌّ حوله خطوطًا؛ أي: أن أَمَلَ الإنسان زائدٌ على ما قدَّر له، فالخطوطُ الأربعُ محيطةٌ به لا يُمكنُ أن يخرجَ عنها^(١)، لكن أَمَلُهُ بعيدٌ، فقد يأملُ الإنسانُ أن يعيشَ عشرينَ سنةً ولا يعيشَ شهرًا

(١) ناقش العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْأَشْكَالَ الَّتِي أَوْرَدَهَا الشَّرَاحُ لِهَذَا الرَّسْمِ، وَاسْتَبْعَدَ مَا وَرَدَ فِي «الْفَتْحِ»، وَقَالَ: إِنَّ رَسْمَ الْعَيْنِي رَحِمَهُ اللهُ أَقْرَبُ، وَصِفَةُ رَسْمِ الْعَيْنِ هَكَذَا:

أجل

إنسان ١١١١١١

أمل

١١١١١١

واحداً، فالأمل خارج عن الحدِّ، والأجل محيطٌ به من كلِّ جانبٍ، والأعراضُ التي تُؤدِّي إلى حلولِ الأجلِ، على اليمين واليسار، فإن سَلِمَ من شيءٍ نَهَشَهُ الآخَرُ، حتى يَقْضِي عليه، فيتبدَّدَ الأملُ ويَضِيعَ. إذن علينا أن نبَادِرَ الأجلَ قَبْلَ أن يَحِلَّ بنا، أما الأملُ فإنه يَكُونُ بعيداً وبعيداً، لا يَدْرِي الإنسانُ أَيَدْرِكُهُ أم لا، فكم من إنسانٍ أَمَلَ أن يَأْتِيَ أَهْلُهُ وَيَتَغَدَّى، أو يَتَعَشَّى، فإذا به لا يتغَدَّى، ولا يتعَشَّى والله المستعان.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥- بَابُ مَنْ بَلَغَ سِتِينَ سَنَةً فَقَدْ أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي الْعَمْرِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ [ط: ٣٧].

❦ قَوْلُهُ تَعَالَى: «﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾». تَوْيِيخٌ لِأَهْلِ النَّارِ، فَتَقَامُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: كَوْنِي، وَالثَّانِي شَرْعِيٌّ.

أما الكونيُّ: فإنَّ الله أَمَدَّهُمْ فِي الْعَمْرِ، حَتَّى بَلَغُوا عُمْرًا يَتَذَكَّرُ فِيهِ الْمُتَذَكِّرُ؛ يَعْنِي: لَمْ يُعَاجِلْهُمْ بِالْمَوْتِ حَتَّى يَقُولُوا: وَاللَّهِ إِنَّا لَمْ نُعْطَ فَسْحَةً تَتَذَكَّرُ فِيهَا. بَلْ أَعْطُوا مَهْلَةً يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا، وَيَشْمَلُ هَذَا طَوْلَ الْعَمْرِ وَالْحَوَادِثَ الَّتِي تَجَدُّ عَلَى الْإِنْسَانِ وَالْمَصَائِبَ فَيَتَعَطَّ بِهَا؛ لِأَنَّ الْمَصَائِبَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوْعِظَةً لِلْقُلُوبِ، يَتَعَطَّ بِهَا النَّاسُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٤١].

أما الشرعيُّ فَقَوْلُهُ: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ وهو الرِّسُولُ وَالْخُطَابُ لِكُلِّ أُمَّةٍ بِحَسَبِهَا، فَالنَّذِيرُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ هُوَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْقُرَشِيُّ الْهَاشِمِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَغَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْأُمَمِ نَذِيرُهُمْ رَسُولُهُمْ، فَكُلُّ أُمَّةٍ خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ وَقَامَتْ عَلَيْهَا الْحُجَّةُ، فَهَمَّ إِذَا وَبَخُوا هَذَا التَّوْبِيخَ أَزَادُوا حَسْرَةً -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَقَالُوا: يَا أَسَفًا، يَا حَسْرَتًا، كَيْفَ لَمْ نَتَعَطَّ؟! فَقَدْ جَاءَنَا النَّذِيرُ، وَعُمَرْنَا عُمْرًا نَتَمَكَّنُ فِيهِ مِنَ الْإِتْعَاطِ وَالْمَوْعِظَةِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤١٩ - حَدَّثَنِي عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ مُطَهَّرٍ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ مَعْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْفِقَارِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَى أَمْرِي آخِرَ أَجَلِهِ حَتَّى بَلَغَهُ سِتِينَ سَنَةً». تَابِعَهُ أَبُو حَازِمٍ وَابْنُ عَجَلَانَ عَنِ الْمَقْبُرِيِّ.

❖ قوله: «أَعَذَرَ اللَّهُ». يعني: أعطاه عمراً يَكُونُ فِيهِ الْعَذْرُ؛ يعني: أن الله أقام عليه الحجة، فلم يَكُنْ لَهُ عَذْرٌ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٢٠ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا أَبُو صَفْوَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطَوْلِ الْأَمَلِ»^(١). قَالَ لَيْثٌ، عَنْ يُونُسَ، - وَابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ -، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدٌ وَأَبُو سَلَمَةَ.

٦٤٢١ - حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ أَبِرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَكْبُرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبُرُ مَعَهُ اثْنَانِ حُبُّ الْمَالِ، وَطَوْلُ الْعُمُرِ». رَوَاهُ شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ^(٢).

صَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَكُلَّمَا كَبُرَ الْإِنْسَانُ زَادَ حُبًّا فِي الدُّنْيَا، وَازْدَادَ أَمَلُهُ، فَتَجِدُ الْعَمَرَ غَالِيًا جَدًّا عِنْدَ الْكَبِيرِ، وَتَجِدُهُ عِنْدَ الصَّغِيرِ رَخِيصًا، فَالصَّغِيرُ يَبْذُلُ نَفْسَهُ وَلَا يَهْتَمُّ، وَلَكِنِ الْكَبِيرُ يَشُحُّ بِالْعَمْرِ، فَكُلَّمَا طَالَ عُمُرُهُ زَادَ قُوَّةً فِي الْأَمَلِ.

وَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ يَقُولُ: «حُبُّ الدُّنْيَا» وَالثَّانِي: «حُبُّ الْمَالِ» وَالْأَوَّلُ أَشْمَلُ وَأَعَمُّ، لِأَنَّهُ يَشْمَلُ حُبَّ الدُّنْيَا فِي الْقُصُورِ، وَالْفَخْرِ، وَالْمَالِ، وَالْجَاوِ، وَالرِّئَاسَةِ، وَالنِّسَاءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالثَّانِي يَقُولُ: «حُبُّ الْمَالِ» فَهُوَ أَخْصَصُ، فَالْأَوَّلُ أَعَمُّ، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ، وَلِهَذَا يُذَكِّرُ أَنَّ رَجُلًا

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٧).

قيل له: يا أبا فلانٍ بَلَغْتَ ثلاثًا وستينَ سنةً وهي عمرُ النبي ﷺ وفيها بركةٌ: فقال: نعم في عمرِ النبي ﷺ بركةٌ، ولكن أبدأ من اليوم؛ يعني: أنه يُريدُ أن يكونَ له مائةٌ وسنةٌ وعشرونَ سنةً.

ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦- بابُ العملِ الذي يَتَّبِعِي به وجهُ اللهِ. فيه سعد.

❦ قوله: «فيه سعد». يُشيرُ إلى حديثِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ الطويلِ المشهورِ أنه مَرِضَ في مكة، وجاءه النبي ﷺ يَعُوذُهُ، فقال: يا رسولَ اللهِ إني ذو مالٍ يَعْنِي: ذو مالٍ كثيرٍ. ولا يرثني إلا ابنةٌ لي؛ يعني: لا يرثُهُ من الأولادِ إلا بنتٌ فقط، والباقي بنو عمِّي أَفَاتَصَدَّقُ بثلثي مالي. ثلثي؛ يعني: اثنين من ثلاثة فقال: «لا» قال: فالشطرُ؛ يعني: النصف. فقال: «لا» قال: فالثلث. فقال: «الثلثُ والثلثُ كثيرٌ» إنك إن تَذَرُ ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أن تَذَرَهُمَ عالَةً يتكفَّفونَ الناسَ» ثم قال: يا رسولَ اللهِ أُخَلِّفُ بعد أصحابي؛ يعني: أموتُ في مكة وأنا مهاجرٌ منها. فقال النبي ﷺ: «إنك لم تُخَلِّفْ فتعملَ عملاً تبتغي به وجهَ اللهِ إلا ازددت به رفعةً ودرجةً، ولعلك أن تُخَلِّفَ حتى ينتفعَ بك أقوامٌ، ويضرَّ بك آخرونَ»^(١).

وقوله: «أن تُخَلِّفَ»؛ يعني: تَبْقَى في الدنيا وتُعَمَّرَ، حتى يَنْتَفِعَ بك أقوامٌ، ويضرَّ بك آخرونَ، فكان الأمرُ كما تَوَقَّعَ النبي ﷺ: فقد تخلفَ سعدٌ وعمرٌ، وحصلَ على يديه هَؤُلَاءِ فتوحاتٌ كثيرةٌ في فارسٍ، ومات عن سبعةٍ عشرَ ابنًا واثنتي عشرةَ بنتًا، وكان في ذلك الوقتِ ليس عنده إلا واحدةٌ، فصار عنده سبعةٌ عشرَ ابنًا واثنتي عشرةَ بنتًا وعمرٌ، والشاهدُ أن الرسولَ ﷺ قال: «إنك لن تُخَلِّفَ فتعملَ عملاً تبتغي به وجهَ اللهِ إلا ازددت به رفعةً ودرجةً» وقال له: «إنك لن تُنْفِقَ نفقةً تبتغي بها وجهَ اللهِ إلا أُجِرتَ عليها، حتى ما تَجْعَلَهُ في فمِ امرأتِكَ»^(٢).

وفي هذا: دليلٌ على أنه ينبغي للإنسانِ إخلاصُ النيةِ وأن يَسْتَحْضِرَ دائماً أنه يُريدُ بعملِهِ وجهَ اللهِ، والناسُ في الحقيقةِ يَنْقَسِمُونَ في هذا البابِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

قسمٌ: غفلوا عن النيةِ فصارت عباداتهم عاداتٍ.

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) انظر التعليق السابق.

وقسم: تذكروا فصارت عاداتهم عبادات.

وقسم: بين هؤلاء وهؤلاء فصارت عاداتهم عبادات وعاداتهم عادات. والكُمْل هم الذين تذكروا حتى صارت عاداتهم عبادات، فالأكل، والنوم، الشرب، والنكاح، وما أشبه ذلك، كلُّ هذا عادات، فإذا نَوَى الإنسانُ بفعلها التقربَ إلى الله ﷻ صارت عبادةً وانتفعَ بها، فصار إن تَغَذَّى أو تَعَشَّى سَمَّى الله عند الأكل، وحمد الله عند الانتهاء، وكذلك في الشرب، ونَوَى بأكله التقوي على طاعة الله، ونَوَى بذلك التَنَعُّمَ بكرم الله ﷻ وجُودِهِ وفضله، صار أَكَلُهُ عبادةً.

أما القسم الثاني: فتجده يأتي ويُصَلِّي ويتوضأ على عادته ولا يستحضر أنه جاء إلى المسجدَ ليعبدَ الله، ويقفَ بين يديه، ويناجيه بكلامه، ودعائه، فيكونُ عنده غفلةٌ كبيرةٌ فتتقلبُ عباداته عادات.

أما الوسطُ فهم الذين يَفْعَلُونَ العبادةَ للعبادة، والعادةَ للعادة، فهؤلاء لا شك أنهم أتوا بالواجب وقاموا به، لكن الأولون هم الكُمْل.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٢٢ - حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ أَسَدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الرَّبِيعِ وَزَعَمَ مُحَمَّدٌ أَنَّهُ عَقَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: وَعَقَلَ بَحَّةً بَحَّتْهَا مِنْ دَلْوٍ كَانَتْ فِي دَارِهِمْ^(١).
٦٤٢٣ - قَالَ: سَمِعْتُ عِثْبَانَ بْنَ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيَّ ثُمَّ أَحَدَ بَنِي سَالِمٍ قَالَ: عَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «لَنْ يُؤَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. يَتَغَيُّ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ».

الله أكبرُ أما حديثُ محمود بن الربيع فإنه عَقَلَ مَجَّةً مَجَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في وجهه من دلوٍ من دارهم، وكان له خمسُ سنواتٍ كما في صحيح البخاريٍّ وقد مرَّ علينا سابقاً، فأخذ العلماءُ من ذلك أنه يُمكنُ أن يكونَ التمييزُ لأقلَّ من سبعِ سنواتٍ؛ لأنَّ محموداً عَقَلَ النَّبِيَّ ﷺ، وعَقَلَ هذه المَجَّةَ، وأنها من دلوٍ، وأنها كانت في دارهم، ولهذا كان الصحيحُ أن

التمييز هو معرفة الخطأ، وردّ الجواب، ولكن الغالب أنه يَكُونُ بعدُ سبع سنين.

❖ ثم ذكر البخاري رحمه الله حديث عثمان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: غداً على رسول الله، يعني: أتاني غدوة، وكان قد طلب من النبي ﷺ أن يحضر إلى داره ليُصَلِّيَ في مكان يتخذُه عتبان مصلياً له؛ لأن عتبان كُفَّ بصره، وصار لا يُسْتَطِيعُ المجيء إلى المسجد، فغداً عليه النبي ﷺ وما أن دخل حتى قال: «أين تريدُ أصلي لك؟». وذلك قبل أن يُقدِّمَ إليه طعام الضيافة، وقد استنبطنا من ذلك أنه ينبغي للإنسان إذا أراد عملاً أن يبدأ به قبل كل شيء؛ لأنه هو المقصود، ثم يأتي ما بعده نافله.

❖ ثم ذكر هذا الحديث العظيم البشري -نسأل الله أن يحقّقه لنا ولكم- يقول: «لن يُؤافي عبدٌ يوم القيامة؛ يعني: لن يُؤافي الله ويُقابله، يقول: لا إله إلا الله. يبتغي به وجه الله إلا حرم الله عليه النار». الله أكبر فلا يكفي القول، بل لابد من الإخلاص؛ لقوله: «يبتغي به وجه الله». أما مجرد القول فإنه يقع حتى من المنافق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٧٢) فالمنافقون يذكرون الله إذا أراد أن يمتحنهم بآية أو يقولوا أنهم يحبون الله، ولكنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً.

❖ وإذا أراد أن يمتحنهم بآية أو يقولوا أنهم يحبون الله، ولكنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً.

بين إذا سمعه الإنسان قال: ما شاء الله هذا هو المؤمن البالغ في الإيمان غايته. فإنهم إن يقولوا تسمع لقولهم، من شدة ما يقولون وبيانه وفصاحته، حتى يأتوا للرسول ﷺ يقولون: نشهد أنك لرسول الله، فيشهدون ويؤكدون الشهادة بقسم إنك لرسول الله، وما أحلى هذه الكلمة لكن إذا سمعت قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠١) شهادة بشهادة أقوامها بلا شك شهادة الله، ونحن نشهد والله إن المنافقين لكاذبون، فلو حلفوا ألف مرة بأن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فهم منافقون -نسأل الله العافية-.

فإذا قال لا إله إلا الله يبتغي به وجه الله حرم الله عليه النار، فلا تأكله النار، حتى لو فرض أنه دخل النار بذنوبه فإنها لن تؤثر عليه النار شيئاً، إن فرض ذلك مع أن ظاهر الحديث أنه لا يدخلها، ولكن لابد من هذا الشرط وهو أن يبتغي بذلك وجه الله وما أشد هذا الشرط، فإن هذا شرط عظيم شديد جداً جداً، قال بعض السلف: ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص. وصدق رحمه الله فالأعمال البدنية سهلة فالكل يستطيع أن يتوضأ ويصلي، ويصوم، ويحج، ويتصدق، لكن الأعمال القلبية هي الصعبة -نسأل الله أن يعيننا عليها- فهي الصعبة التي

لَا يَكَادُ أَحَدٌ يَقْوَىٰ عَلَيْهَا، وَلِهَذَا كَانَ الرَّجُلُ مِنَ السَّلَفِ يَقُولُ: مَا جَاهَدْتُ نَفْسِي عَلَى شَيْءٍ مُّجَاهِدْتُهَا عَلَى الْإِحْلَاصِ. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «يَبْتَغِي وَجَهَ اللَّهِ».

وقد استدلل بهذا الحديث من يقول: إِنْ تَارَكَ الصَّلَاةَ لَا يَكْفُرُ؛ لِأَنَّهُ اقْتَصَرَ عَلَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقَالَ: إِذَا كَانَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَوَافَى اللَّهَ بِذَلِكَ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَارَكَ الصَّلَاةَ لَا يَكْفُرُ.

ولنا عن ذلك جوابان:

الجواب الأول: أَنَّ هَذَا الْقَيْدَ يَمْنَعُ أَنْ يَتْرَكَ الصَّلَاةَ، بَلْ يَمْنَعُ أَنْ يَتْرَكَ الزَّكَاةَ، وَالصَّوْمَ، وَالْحَجَّ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَبْتَغِي شَيْئًا لَّابَدَّ أَنْ يَطْلُبَ الْوَصُولَ إِلَيْهِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ فَهَلْ مِنْ طَرِيقِ الْوَصُولِ إِلَى اللَّهِ أَنْ تَدَعَ الصَّلَاةَ؟

الجواب: كَلَّا. أَنْتَ إِذَا كُنْتَ مِثْلًا تَبْتَغِي مَا لَا فَهَلْ تَعْمَلُ لِلْحَصُولِ عَلَى هَذَا الْمَالِ أَوْ لَا تَعْمَلُ؟ **الجواب:** يَجِبُ أَنْ نَعْمَلَ، كَذَلِكَ فَإِنَّ الَّذِي يَبْتَغِي وَجَهَ اللَّهِ لَابَدَّ أَنْ يَعْمَلَ لِلْوَصُولِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا فَإِنَّ هَذَا الْقَيْدَ يَخْرِجُ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ؛ لِأَنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ وَادَّعَى أَنَّهُ يَبْتَغِي بِقَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَجَهَ اللَّهِ قُلْنَا لَهُ: كَذَبْتَ، لَوْ كُنْتَ تَبْتَغِي وَجَهَ اللَّهِ لَعَمِلْتَ لَهُ.

الجواب الثاني أن تقول: هَذَا عَامٌّ وَنصوص ترك الصلاة خاصة؛ يعني: لَمْ يَقُلْ هَذَا وَلَوْ تَرَكَ الصَّلَاةَ بَلْ لَوْ قَالَ: وَلَوْ تَرَكَ الصَّلَاةَ. لَقُلْنَا: نَعَمْ، لَكِنْ هَذَا عَامٌّ يَشْتَمِلُ مَنْ تَرَكَ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ، فَيَخْرُجُ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ بِالنصوص الدالة على أَنَّ تَرْكَهَا كُفْرٌ، وَالَّذِي يَسْتَدِلُّ بِهَذَا الْحَدِيثِ بِلَيْتِهِ كَلْبِيَّةٍ غَيْرِهِ، وَهِيَ أَنَّهُ اعْتَقَدَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَدِلَّ، وَهَذِهِ الْبَلِيَّةُ بَلِيَّةٌ عَظِيمَةٌ - نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يُنَجِّينَا مِنْهَا - أَنْكَ تَعْتَقِدُ ثُمَّ تَسْتَدِلُّ، ثُبُّ أَنْكَ إِذَا اعْتَقَدْتَ ثُمَّ اسْتَدَلَلْتَ فَسَوْفَ تَلْوِي أَعْنَاقِ النصوص إلى مَا اعْتَقَدْتَ، لَكِنْ اجْعَلْ نَفْسَكَ بَيْنَ النصوصِ كَالْمَيْتِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَغْسَلِ لَا تُحْرِكْ شَيْئًا، كَأَنَّكَ خُلِقْتَ الْآنَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَكَيَّفَ مَعَ النصوصِ، فَلَا تَحْوِلْ مَعْنَى، وَلَا تَحْمِلْ عَقِيدَةً، فَإِنْ حَمَلَ الْعَقِيدَةَ قَدْ يُوْدِي بِالْإِنْسَانِ إِلَى الْهَوَى، كَمَا يُوجَدُ مِنْ تَصَرُّفَاتِ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ وَهُمْ فُقَهَاءُ أَجْلَاءَ وَعُلَمَاءُ أَجْلَاءَ، تَجِدُهُمْ مِنْ أَجْلِ اتِّبَاعِ مَذْهَبٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ يَلُوُونَ أَعْنَاقَ النصوصِ لِتَوَافُقِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَمَنْ أَقْرَبُ الْأَمْثَلِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مِنَ الْفُقَهَاءِ مَنْ قَالَ: إِنْ الرَّجُلَ لَوْ تَطَهَّرَ بِفَضْلِ طَهُورِ الْمَرَأَةِ كَانَ ذَلِكَ حَرَامًا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَرْتَفَعْ حَدُّهُ يَعْنِي: مِثْلًا امْرَأَةٌ تَوَضَّأَتْ مِنْ قَدِيرٍ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ بَعْدَ أَنْ تَوَضَّأَتْ وَأَرَادَ أَنْ يَتَوَضَّأَ مِنْهُ، قَالُوا: لَا يَجُوزُ أَنْ

يَتَوَضَّأُ، وَلَوْ تَوَضَّأَ مَا صَحَّ الْوُضُوءُ، وَلَوْ تَوَضَّأَ رَجُلٌ فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَتَوَضَّأَتْ بِفَضْلِ وَضُوئِهِ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ، وَيَرْتَفِعُ الْحَدِيثُ، قَالُوا: وَالِدَيْهِ أَنْ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَوَضَّأُ الرَّجُلُ بِفَضْلِ طَهْوِرِ الْمَرْأَةِ، وَلَا الْمَرْأَةُ بِفَضْلِ طَهْوِرِ الرَّجُلِ» ^(١)، فَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَوَضَّأَ الرَّجُلُ بِفَضْلِ طَهْوِرِ الْمَرْأَةِ، وَكَذَلِكَ نَقُولُ: نَهَى أَيْضًا أَنْ الْمَرْأَةُ تَتَوَضَّأَ بِفَضْلِ طَهْوِرِ الرَّجُلِ، فِي الْحَالَتَيْنِ إِمَّا أَنْ تَقُولَ بِهَذَا وَهَذَا يَعْنِي: يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُسَوِّيَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، وَالْعَجِيبُ أَنْ تَوَضَّأَ الرَّجُلُ بِفَضْلِ طَهْوِرِ الْمَرْأَةِ قَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِجَوَازِهِ، وَلَمْ تَرِدِ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنْ تَوَضُّؤِ الْمَرْأَةِ بِفَضْلِ طَهْوِرِ الرَّجُلِ فَقَدْ وَرَدَ فِي السُّنَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَتَوَضَّأَ مِنْ جَفْنَةٍ؛ يَعْنِي: إِنَاءٌ كَبِيرٌ، وَكَانَتْ قَدْ اغْتَسَلَتْ مِنْهُ بَعْضُ نِسَائِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَغْتَسِلَ مِنْهُ فَقَالَتْ لَهُ بَعْضُ نِسَائِهِ: إِنِّي كُنْتُ جَنَابًا وَاغْتَسَلْتُ مِنْهُ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمَاءَ لَا يُجْنِبُ» ^(٢). وَاغْتَسَلَ مِنْهُ، إِذَنْ فَقَدْ اغْتَسَلَ ﷺ بِفَضْلِ طَهْوِرِ الْمَرْأَةِ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْجَوَازِ، وَرَبَّمَا نَقُولُ: إِنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ تَوَضُّؤِ الرَّجُلِ بِفَضْلِ طَهْوِرِ الْمَرْأَةِ وَالْعَكْسِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «إِنَّ الْمَاءَ لَا يُجْنِبُ». عِلَّةٌ تَشْمَلُ هَذَا وَهَذَا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: أَنَا أَرَدْتُ أَنْ أَضْرِبَ مِثْلًا، وَالْأَمثلةُ كَثِيرَةٌ عَلَى أَنْ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِذَا ذَهَبَ مَذْهَبًا مِنَ الْمَذَاهِبِ، وَأَتَى عَلَى النُّصُوصِ حَاوَلَ أَنْ يُغَيِّرَ النُّصُوصَ مِنْ أَجْلِ مَوَافَقَةِ الْمَذْهَبِ، وَهَذِهِ عِلَّةٌ نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ مِنْهَا، وَالْوَاجِبُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ أَمَامَ النُّصُوصِ سَادِّجًا كَأَنَّهُ وَلَدَ الْآنَ، حَتَّى يَكُونَ مُتَبَعًا لِلنُّصُوصِ وَلَا تَكُونُ النُّصُوصُ مُتَبَعَةً لَهُ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٢٤ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَمْرِو، عَنْ مَعْيِدِ الْمُقْبَرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ، إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّةً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ».

الشَّاهِدُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ هُوَ قَوْلُهُ: «ثُمَّ احْتَسَبَهُ». وَمَعْنَى احْتَسَبَهُ؛ أَي: قَصَدَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا» ^(٣)؛ لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٨١)، وَالنَّسَائِيُّ (٢٣٨).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٦٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٦٥)، وَابْنُ مَاجَةَ (٣٧٠)، وَانْظُرْ: «صَحِيحُ الْجَامِعِ» (١٩٢٧).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٨)، وَمُسْلِمٌ (٧٦٠).

الحساب، فمعني احتسب؛ يعنى: أراد ثواب الآخرة والصفى يعنى: من صفوة الناس عنده، كالابن، والبنات، والأب، والأم، وما أشبه ذلك.

ثُمَّ قَالَ الْبُحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧- باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.

٦٤٢٥- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: ابْنُ شِهَابٍ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ الْمُسَوَّرَ بْنَ عُرْمَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ وَهُوَ حَلِيفُ لِبْنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَى كَانَ شَهِيدَ بَدْرٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِحَرْبَتَيْهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ صَالِحَ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضَرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَلٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ فَوَافَقَتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ فَبَسَمَ حِينَ رَأَاهُمْ وَقَالَ: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ». قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَابْشُرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُلْهِيَكُمُ كَمَا أَلْهَتْهُمْ»^(١).

هذا الحديث فيه شاهد للترجمة وهي: ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها. والتي

أصبحت اليوم هي شأن الناس كلهم، وصار الناس لا يهتمون إلا بزهرة الدنيا، والتنعم والترفيه فيها، والرفاهية، وما أشبه ذلك، فلا تكاد تجد من يتحدث بالنشاط الديني الذي ينبغي أن يكون عليه المسلمون، لكن يتشدقون ويتحدثون بما يحصل من الرفاهية في البلاد، وفي أنفسهم، وهذا هو الذي خشي النبي ﷺ فقال ﷺ: «ما الفقر أخشى عليكم»؛ لأن الفقر لا يحصل منه تطاولٌ وغرورٌ وإعراضٌ عن الله ﷻ، وإن كان الفقر لا شك أنه يُلْهي أحياناً بطلب الرزق والمعيشة، لكن مع ذلك طلب الرزق والمعيشة إذا كان بنية صالحة صار عبادة، ثم قال ﷺ: «ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم»؛ يعني: توسع وتكثر «فتنافسوها -أو تنافسوها- كما تنافسوها» أي: من قبلكم

«وَتُلهِيكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ» والذي خشيه النبي ﷺ وَقَعَ، وَأَصْبَحْنَا الْآنَ نَتَنَافَسُ الدُّنْيَا كَمَا تَنَافَسَهَا الْكُفَّارُ، وَنَسَعَى لَهَا كَمَا يَسَعَى لَهَا الْكُفَّارُ، وَأَصْبَحَ الْكَثِيرُ مِنَّا لَا يَهْتَمُّونَ إِلَّا بِمَنَازِلِهِمْ، وَمَرَاقِبِهِمْ، وَثِيَابِهِمْ، وَبَسَاتِينِهِمْ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وفي هذا الحديث: إثبات الجزية على الكفار إذا كانوا تحت ولايتنا وحكمنا؛ لأن الكفار يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَصْحَابُ جَزِيَّةٍ، وَأَصْحَابُ عَهْدٍ، وَأَصْحَابُ حَرْبٍ.

فأصحاب الجزية: هم الذين يُقِيمُونَ فِي أَرْضِنَا، وَتَحْتَ وَلايَتِنَا، نَحْمِيهِمْ وَنَذُبُ عَنْهُمْ، وَنَمْنَعُ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ عَلَيْهِمْ، لَكِنْ بِجَزِيَّةٍ يَبْذُلُونَهَا لَنَا.

وأصحاب العهد: هم الذين بيننا وبينهم عهد لَا نُقَاتِلُهُمْ وَلَا يُقَاتِلُونَنَا، وَهُمْ فِي دِيَارِهِمْ وَلَهُمْ سُلْطَةٌ فِي بِلَادِهِمْ، لَا نَتَعَرَّضُ لَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ، وَلَا يَتَعَرَّضُونَ لَنَا فِي بِلَادِنَا.

والثالث أصحاب حرب؛ يعني: بيننا وبينهم حربٌ نُحَارِبُهُمْ وَيُحَارِبُونَنَا، فَأَمَّا مِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ حَرْبٌ فَهُمْ بِالنِّسْبَةِ لَنَا مُبَا حُوا الدِّمِّ وَالْمَالِ؛ يَعْنِي: مَتَى قَدَرْنَا عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَلْنَا قَتْلَهُ. وَأَمَّا أَصْحَابُ الْعَهْدِ فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَفِيَّ لَهُمْ بَعْدَهُمْ، وَأَنْ نَسْتَقِيمَ لَهُمْ مَا اسْتَقَامُوا لَنَا، وَهُمْ بِالنِّسْبَةِ لَنَا؛ أَي: أَصْحَابُ الْعَهْدِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ أَيْضًا:

قسم: وَفِي بَعْدِهِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

وقسم: غَدَرَ فَاَنْتَقَضَ عَهْدُهُمْ، فَلْنَا أَنْ نَبَاغِتَهُمْ بِالْحَرْبِ.

والقسم الثالث: مَنْ نَخْشَى مِنْهُمْ الْغَدَرَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨]. يَعْنِي: مَنْ قَوْمٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ ﴿فَأَنذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾. يَعْنِي: أَرْسَلْ إِلَيْهِمْ وَقُلْ إِنَّ الْعَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ مَبْنُودٌ، حَتَّى يَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ.

أَمَّا مَنْ غَدَرَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرْنَا أَنْ نُقَاتِلَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا أَصْحَابَ حَرْبٍ، وَلِهَذَا غَزَى النَّبِيُّ ﷺ قَرِيشًا حِينَما نَقَضَتِ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فِي صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَبَاغَتْهُمْ فِي دِيَارِهِمْ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَمِّي عَنْهُمْ الْأَخْبَارَ حَتَّى نَبْغَتْهُمْ فِي بِلَادِهِمْ».

إِذَنْ فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ هُوَ أَصْحَابُ الْحَرْبِ وَهَؤُلَاءِ مُبَا حُوا الدِّمِّ وَالْمَالِ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ، فَمَتَى قَدَرْنَا عَلَيْهِمْ قَتَلْنَاهُمْ.

والقسم الثاني: المعاهدون فهؤلاء يجب علينا أن نفي بعهدهم ما وافوا بعهدنا، وذكرنا أنهم ثلاثة أقسام.

القسم الثالث: هم أهل الذمة الذين تحت ولايتنا، فهؤلاء نلزمهم بحكم الإسلام، ولا يتعدون علينا وإذا نقض أحد منهم العهد صاروا بمنزلة الحربي.

ومن فوائد هذا الحديث:

حسن خلق الرسول ﷺ حينما تبسم حين رآهم جاءوا يتشوقون إلى الهال، وهذا لا شك أنه من أحسن الأخلاق، فبعض الناس إذا رأى شخصاً يتشوق بطلب شيء تجده يتميزو يعبس ويقول في نفسه: هذا يريد أن يرزأنا بنفسه، أما الرسول ﷺ فإنه لما رآهم جعل يتبسم ﷺ.

وفيه أيضاً: أنه ينبغي للإنسان أن يلقي البشرى للناس، لما في ذلك من إدخال السرور عليهم، وكل شيء تدخل به السرور على أخيك - وأنت محتسب - فإن لك فيه أجراً، وذلك لقوله: «أبشروا، وأملوا ما يسركم».

وفيه أيضاً: جواز الحلف بدون استحلاف؛ لقوله: «فو الله ما الفقر أخشى عليكم».

وفيه: التحذير من الدنيا؛ لقوله ﷺ: «ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم».

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله:

٦٤٢٦ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا»^(١).

هذا الحديث أيضاً فيه: دليل على أن الرسول ﷺ كان يزور شهداء أحد وهو كذلك،

وهذه الصلاة التي صلاها عليهم صلاة الميت ليست هي الصلاة التي تُشْرَعُ عند موت الإنسان، فإن الشهداء لا يُصَلَّى عليهم، ولكن هذه الصلاة قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِيهَا: إن هذه صلاة توديع لهم؛ يَعْنِي: صَلَّى عليهم صلاة الجنائز كالمودع لهم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وفي هذا الحديث: دليل على أن حوضه الآن موجود؛ لقوله: «إني والله لأُنْظَرُ إلى حوضي الآن» وقد كَشَفَهُ اللهُ له حتى شاهده رَحِمَهُ اللهُ.

وفيه: أن الله أعطاه مفاتيح الأرض، أو مفاتيح خزائنها، ولم يُدْرِكِ النَّبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى منها شيئاً كثيراً، ولكن أدرك ذلك خلفاؤه من بعده.

وفيه أيضاً: أن الرسول رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى لم يَخَفْ على أصحابه أن يُشْرِكُوا بعده، وذلك لما قر في قلوبهم من الإيمان، ولا يَرِدُ على هذا أصحاب الردة الذين ارتدوا بعد النَّبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى؛ لأنه لم يَكُنْ يُخَاطِبُهُمْ حين ذاك؛ وأهل الردة الذين ارتدوا لم يَكُنْ الإيمان قد قر في قلوبهم، فارتدوا بعد موت النَّبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

٦٤٢٧- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ». قِيلَ وَمَا بَرَكَاتُ الْأَرْضِ قَالَ: «زَهْرَةُ الدُّنْيَا». فَقَالَ: لَهُ رَجُلٌ هَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ فَصَمَتَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ فَقَالَ: «أَيْبَنَ السَّائِلُ». قَالَ: أَنَا. قَالَ: أَبُو سَعِيدٍ لَقَدْ حَمِدْنَاهُ حِينَ طَلَعَ لَذَلِكَ. قَالَ: «لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وَإِنْ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبْطًا أَوْ يُلِيمُ، إِلَّا أَكَلَتِ الْخَضِرَةُ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسُ، فَاجْتَرَتْ وَتَلَطَّتْ وَيَالَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ، مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ، فَنِعِمَّ الْمَعُونَةُ هُوَ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ، كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ»^(١).

٦٤٢٨- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَمْرَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي زَهْدَمُ بْنُ مُضَرَّبٍ قَالَ: سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ». قَالَ: عِمْرَانُ فَمَا أَذْرَى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَعْدَ قَوْلِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا «ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤْفَوْنَ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ»^(١).

هذا الحديث فيه: آيات من آيات الرسول ﷺ، يقول إن أكثر ما يخاف علينا ما يخرجُ اللهُ لنا من بركات الأرض، وهي زهرة الدنيا، لأن الرسول ﷺ فسرها بنفسه لما قيل له: ما بركات الأرض؟ قال: «زهرة الدنيا». فقال له رجل: «هل يأتي الخير بالشر؟» لأن زهرة الدنيا وسعة الرزق خير، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [الأنعام: ٨]. فصمت النبي ﷺ حتى ظنوا أنه يُنزَلُ عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، وهذا يحتمل أنه يُنزَلُ عليه كما كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي يتصبب عرقاً، ولو في وسط الشتاء، ويحتمل أنه لم يُنزَلُ عليه ولكن كان هذا السؤال له وقع عظيم في نفسه، والشيء إذا ورد على النفس وله وقع عظيم فإن الإنسان يتأثر ويعرق، كما حصل لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال له رجل: يا أبا عبد الله ﷺ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. كيف استوى؟ فأتى برأيه حتى علاه الرضاء، يعني: العرق ثم رفع رأسه وقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، والرواية المسندة عنه: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. لكن الأول هو المشهور عنه، وهذا هو المسند عنه.

على كل حال أقول: إن الرسول ﷺ يحتمل أنه أنزل عليه كما ظن الصحابة، ويحتمل أنه لشدة وقع هذا السؤال حصل له ما يحصل لغيره من البشر، المهم أنه قال: أين السائل؟ قال: أنا. قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع، يعني لم يخف نفسه؛ لأن كون الرسول ﷺ صمت، وجعل يمسح عن جبينه، فربما يهاب بعض الناس أن يقول: أنا السائل؛ خوفاً من أن يكون نزل في شأنه ما يفضحه، أو يؤبّخه، ولهذا قال أبو سعيد: حمدناه حين طلع لذلك؛ يعني: حين قال هذا القول حمدناه.

❖ فقال النبي ﷺ: «لا يأتي الخير إلا بالخير». الله أكبر فالوسائل لها أحكام والمقاصد، والخير لا يأتي إلا بالخير، وصدق النبي ﷺ هذه قاعدة مطردة قَعَدَهَا الرسول ﷺ: «إن الخير لا يأتي إلا بالخير» والشر لا يأتي إلا بالشر.

❖ ثم قال: «إن هذا المَال خضرة حلوة»؛ «خضرة» يعني: حيّ رطب، كل النفوس تشتهي، مثل ما تشتهي الزرع الأخضر، «حلوة» أي: في المذاق، فهو جميل في النظر لكونه أخضر، حلوّ في المذاق، فإذا كان جميلاً في النظر حلوّ في المذاق فإنه سوف تنكّب عليه النفوس.

❖ ثم قال: «وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يُلِمُّ». وفي بعض الروايات: «وإن مما أنبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يُلِمُّ»؛ يعني: بعض ما يُنبت الربيع يقتل؛ أي: تأكله البهيمة فيقتلها؛ يعني: مثلاً يحصل فيها انتفاخ في البطن حتى يتنفخ بطنها وتموت، وهي يُقال: إنها أكلت العشب، لكن أكلت فماتت.

❖ ثم قال: «إلا أكلة الخضرة». يعني: التي تأكل في هدوء ولا تأكل كل ما أمامها، لأن التي تأكل ما أمامها ربا تأكل شيئاً يقتلها، لكن أكلة الخضرة التي تأكل ما تنتفع به فقط، والخضرة لينّة، ليس فيها قسوة، فهذه تأكل حتى إذا امتدت خاصرَها؛ أي: توسّعت، والخاصرة أسفل البطن، يعني: إذا شبعت شبعاً كاملاً من الخضرة وليس من كلّها هبّ ودبّ استقبلت الشمس، فاجترت وثلطت وبالت وهذا الاجترار بإذن الله يسهّل الهضم، ثم ثلطت وبالت، إذن خرج ما يضرّ من هذا الأكل الذي أكلت بالبول والثلط، بقي النافع فإذا خلا جسمها من الخضرة تعود، ولهذا قال: «ثم عادت فأكلت». وهلمّ جرّاً تأكل باحتياط، ولا تأكل إلا ما ينفع، ثم ترمي البقية التي ليس فيها نفع، ثم تعود فتأكل، فصارت تنتفع انتفاعاً تاماً بالربيع.

أما الثانية التي تأكل كل ما رأت، فإن مما تأكل ما يقتل حبطاً أو يُلِمُّ؛ أي: يُقارب أن يقتل.

❖ يقول ﷺ: «وإن هذا المَال حلوة». اللهم صلّ وسلم عليه. حلوة؛ يعني: وخضرة، لكن ربما أن الراوي نسي، أو تكون في الرواية الأخرى؛ لأن في أول الحديث يقول: «إن هذا المَال خضرة حلوة، من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعّم المعونة هو» الله أكبر فالمال مصدر ومورد، فلا بد أن يكون مصدره بحق، ومورده بحق، فإن أخذته بغير حق لم ينفعك، ولو صرفته في حق، وإن أخذته بحق وصرفته في غير حق لم ينفعك، وإن أخذته بباطل، وباطل صار أضرباً وأشدّ، وإن أخذته بحق ووضّعته في حقه صار خيراً.

فَالِهَالُ يَنْقَسِمُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ: يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ وَيَضَعُهُ فِي حَقِّهِ.

وَقِسْمٌ: يَأْخُذُهُ بِبَاطِلٍ، وَيَضَعُهُ فِي بَاطِلٍ.

وَقِسْمٌ: يَأْخُذُهُ بِبَاطِلٍ، وَيَضَعُهُ فِي حَقٍّ.

وَقِسْمٌ: يَأْخُذُهُ بِحَقٍّ، وَيَضَعُهُ فِي بَاطِلٍ.

والسالم منهم هو القسم الأول الذي يأخذه بحقه ويضعه في حقه، فعليك يا أخي أن تقتصد في تحصيل الهال، وأن تقتصد في تصريف الهال، فإذا قدرنا أن شخصاً من الناس أخذ الهال بحق، ولنقل إنه موظف يؤدي الوظيفة الكاملة، فلا ينقصها لا من الساعات، ولا من العمل، فأخذ الهال هذا أخذاً بحق، لكن صار يصرفه في باطل، في أمور محرمة، وربما يصرفه في أمور غير محرمة لكن يسرف في الإنفاق.

فنقول: هذا أخذه بحق ووضعه في غير حق، وينقص من الحق بقدر ما نقص؛ يعني: جزاءً وفاقاً.

إذن لابد للإنسان أن يرتب أموره في الهال تحصيلًا، وتصريفًا، وتمويلًا، وبهذا نعرف أن من أعطى فوائد ربويّة وأخذها فإنها لا تنفعه، لأنه أخذها بغير حق، والربا كما هو معروف أمره عظيم، فإذا أخذ فوائد ربويّة ولو وضعها في صدقات، أو في صلاح مساجد، أو في صلاح طرق، فإنها لا تنفعه، بل يكون قد عصى الله عز وجل في أخذها، وإذا قدر أنه تخلص منها، باتفاقها في مشاريع عامّة، صار كالذي يتلوّث بالنجاسة، ثم يحاول أن يطهر يده منها لكن خير من ذلك أن نقول لا تأتي النجاسة أصلًا ولماذا تأخذها؟ وهذا فيه مضیعة وقت، وفيه أيضًا مفايد كثيرة ترتب عليه منها: أن من رآه يأخذ سوف يقول: هذا حلال فقد أخذ فلان، وأخذ فلان، ولا يعلمون أنه يصرفه في أمور أخرى.

على كل حال: ليس هذا موضع بسط هذه المسألة؛ لأنها ربما تأتينا إن شاء الله في وقت آخر، لكن قصدي أن الإنسان الذي يأخذ الهال بغير حق لا ينفعه إذا صرفه في حق؛ لأن الرسول ﷺ إنما أثنى على من أخذه بحقه، ووضعه بحقه.

ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع - سبحانه الله - وهذه مجربة، فإذا تعود الإنسان - والعياد بالله - على أن يأخذ الهال بغير حق صار - والعياد بالله - منهومًا في طلب

المال، ولو تأتبه الملايين فقلبه فقير، حتى لو أخذ كل أموال الناس؛ لأنه كما قال الرسول: «كالذي يأكل ولا يشبع».

وأما هذا الحديث الأخير فيحدث فيه الرسول ﷺ عن خير القرون في هذه الأمة، ويقول: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم» إلى آخره، وإذا كان قرنه خير هذه الأمة فهو خير الناس جميعاً لأن هذه الأمة خير الأمم وأكرمها عند الله، كما قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [التوبة: ١١٠]. وقرنه؛ يعني: الصحابة، ثم الذين يلونهم التابعين، ثم الذين يلونهم تابعوا التابعين، وهذه القرون الثلاثة تسمى عند العلماء: القرون الثلاثة المفضلة. وهم خير هذه الأمة، والمراد بالخيرية فيما بعد الصحابة الخيرية في الجملة لا في كل فرد، إذ قد يوجد من تابعي التابعين من هو خير من كثير من التابعين، لكن المراد في الجملة، كما تقول الرجال خير من النساء، وقد يوجد في النساء من هي خير من كثير من الرجال أما الصحابة فلا حد يساويهم، أو يتقدم عليهم في الخيرية، لأنهم يمتازون بشيء لا يشاركهم فيه أحد وهو صحبة النبي ﷺ؛ لأن هذه الصحبة لا تحصل لأحد سواهم.

ثم ذكر الرسول ﷺ بعد هذه القرون الثلاثة: قومًا يشهدون ولا يستشهدون؛ يعني: يؤدّون الشهادة لكن لا يستشهدون لعدم الثقة بهم فهم خونة لا يستشهدهم الناس، لكن هم يشهدون هذه الواحدة، والثاني: «يخونون ولا يؤمنون» فإذا اتُّمِنُوا على شيء خانوا -والعياذ بالله- سواء كان هذا الشيء مالاً، أو كلاماً، أو أموراً سرية.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٢٩ - حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ آيَانُهُمْ وَأَيَانُهُمْ شَهَادَتُهُمْ»^(١).
هذا سبق الكلام على أوله.

❦ أما قوله: «يحيى من بعدهم قومٌ تسبقُ شهادتهمُ أيمانهم، وأيمانهم شهادتهم». فالمعنى أنهم يشهدون. ولكن لعدم ثقة الناس بهم يقربون الشهادة باليمين، فيتهدون شيئين: أولاً الشهادة بغير الحق، والثاني: اليمين الكاذبة، فتحده يقول: والله إني لأشهد بكذا، أو يقول: أشهد بالله والله إنه كذا وكذا. فلعدم ثقة الناس به يحلف على ما يشهد به، فأحياناً تسبق اليمين الشهادة، وأحياناً تسبق الشهادة اليمين والله المستعان.

فإذا كان الأمر بعد الثلاثة قرون هو أن تتغير الأمانة، وتنزل الأمانة إلى خيانه، فقد مضى على الثلاثة قرون هذه أحد عشر قرناً، فإذا كان التغير في صدر الأمة يصل إلى هذا الحد فما بالك بالتغير في هذا الوقت، وهذا يوجب الحذر والخوف، وأن يحرص الإنسان على أداء الأمانة، وأداء الشهادة.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٣٠ - حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ خَبَابًا وَقَدْ اكْتَوَى يَوْمَئِذٍ سَبْعًا فِي بَطْنِهِ وَقَالَ: لَوْلَا أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَانَا أَنْ نَدْعُو بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِالْمَوْتِ، إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَضَوْا وَلَمْ تَنْقُصْهُمْ الدُّنْيَا شَيْئاً، وَإِنَّا أَصَبْنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعاً إِلَّا التُّرَابَ^(١).

٦٤٣١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: حَدَّثَنِي قَيْسٌ، قَالَ: أَتَيْتُ خَبَابًا وَهُوَ يَبْنِي حَائِطًا لَهُ فَقَالَ: إِنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ مَضَوْا لَمْ تَنْقُصْهُمْ الدُّنْيَا شَيْئاً، وَإِنَّا أَصَبْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ شَيْئاً، لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعاً إِلَّا فِي التُّرَابِ^(١).

٦٤٣٢ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ خَبَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. الْحَدِيثُ^(٢).

هذا الحديث أيضاً فيه: الحذر من الدنيا والانشغال بها، كما فعل خباب رضي الله عنه وفيه: أن النبي ﷺ نهي عن الدعاء بالموت، بل قد نهى عن تمنّي الموت وإن لم يدع به الإنسان لضرّ نزل به.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٨١).

(٢) أخرجه مسلم (٦٤٠).

❖ وأما قوله ﷺ: «إِنْ أُرِدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَأَقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ». فالمعني: أَنه يسأل الله أَنْ يَقْبِضَهُ قَبْلَ أَنْ يُفْتَنَ. لَا أَنْ يُعَجِّلَ بِقَبْضِهِ، وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُ مَرْيَمَ: ﴿وَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٢٣]. فَإِنَّمَا لَمْ تَدْعُ عَلَى نَفْسِهَا بِتَعْجِيلِ الْمَوْتِ، وَلَكِنهَا تَمَنَّتْ أَنَّهَا لَمْ يَحْصُلْ لَهَا هَذَا الشَّيْءُ قَبْلَ مَوْتِهَا، مِثْلَ مَا يَقُولُ الْقَائِلُ: يَا لَيْتَنِي مِتُّ وَلَمْ أُشَاهِدْ هَذَا الشَّيْءَ. فَلَيْسَ الْمَعْنَى تَعْجِيلَ الْمَوْتِ، وَلَكِن الْمَعْنَى أَنَّهُ يُحِبُّ أَنَّهُ مَاتَ سَالِمًا مِنْهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ يُوسُفَ: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يُوسُفَ: ١٠١]. فَهَذَا دَعَاءٌ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٨- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [٥] إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْصَاءِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ [نُور: ٥-٦]. جَمْعُهُ: سَعَرٌ. قَالَ مُجَاهِدٌ: الْغُرُورُ الشَّيْطَانُ.

❖ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. هُوَ تَوْجِيهٌ لِعُمُومِ النَّاسِ حَتَّى الْكَافِرِ يُدْخِلُ فِي هَذَا التَّوْجِيهِ مِنَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْكَافِرَ وَتَغُرُّ الْمُؤْمِنَ.

❖ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾. يَشْمُلُ وَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، وَعْدَهُ لِأَهْلِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ وَبِالْجَنَّةِ، وَوَعِيدَهُ لِأَهْلِ الْعَمَلِ السَّيِّئِ بِالْعُقُوبَةِ وَالنَّارِ.

❖ وَقَوْلُهُ: ﴿حَقٌّ﴾. يَعْنِي: ثَابِتًا وَقَعًا لَا بَدَلَ مِنْهُ.

❖ ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾. وَهَذَا هُوَ الشَّاهِدُ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾؛ أَي: لَا تَتَّخِذْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا خِدَاعَةٌ غَرَارَةٌ، تَغُرُّ الْإِنْسَانَ وَتَتَّخِذُهُ، وَالْمَرَادُ بِالدُّنْيَا مَا أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التَّوْبَةِ: ١٤]. فَكُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا أَجْمَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَإِلَّا نَسَانُ قَدْ يَغُرُّهُ الْمَالُ، وَقَدْ تَغُرُّهُ النِّسَاءُ، وَقَدْ يَغُرُّهُ الْجَاهُ، وَقَدْ يَغُرُّهُ الْمَرْكُوبُ، وَقَدْ يَغُرُّهُ الْمَسْكُونُ، الْمَهْمُ أَنَّ الْجَوَانِبَ كَثِيرَةً فِي الْغُرُورِ فِي الدُّنْيَا.

وَهَذِهِ الْآيَةُ ﴿فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾. عَامَةٌ، وَالْغُرُورُ هُوَ الشَّيْطَانُ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَهَا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ فَالْغُرُورُ أَيْضًا، هُوَ الَّذِي يَغُرُّ وَيُخَدِّعُ، لَعَلَّهُ يَشْمُلُ

شَيْطَانُ الْإِنْسِ، وَشَيْطَانُ الْجَنِّ؛ فَشَيْطَانُ الْجَنِّ هُوَ ذَلِكَ الْعَالَمُ الْغَيْبِيُّ الَّذِي لَا نَشَاهِدُهُ، لَكِنْ نَعْرِفُهُ بِآثَارِهِ، وَشَيْطَانُ الْإِنْسِ ظَاهِرٌ دَعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، كَمَا فِي حَدِيثٍ حَذِيفَةٍ هَلَفَتْ: «دَعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مِنْ أَجَابِهِمْ قَذَفُوهُ فِيهَا». وَمَا أَكْثَرَ دَعَاةِ جَهَنَّمَ لَا سِيَّامَا فِي زَمَانِنَا هَذَا.

❦ وَقَوْلُهُ: «﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾». خَبَرٌ وَأَمْرٌ: هَذَا الْخَبَرُ مُفْرَعٌ عَلَى هَذَا الْخَبَرِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾» يَعْنِي: اجْعَلُوهُ عَدُوًّا حَقِيقِيًّا، وَإِذَا اتَّخَذَنَاهُ عَدُوًّا فَلَنْ نَنُخْلِعَ بِهِ، فَإِذَا أَمَرْنَا عَصِيانَهُ، وَإِذَا نَهَانَا خَالَفَنَاهُ؛ لِأَنَّ عَدُوَّكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْمُرَكَ بِمَا فِيهِ مَصْلَحَتُكَ أَبَدًا، وَلَا يَنْهَاكَ عَمَّا فِيهِ مَضَرَّتُكَ، إِنَّمَا يَنْهَاكَ عَمَّا فِيهِ مَصْلَحَتُكَ، وَلِهَذَا قَالَ: «﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾» [طه: ٦٠]. أَي: يَدْعُوهُمْ لِهَذَا لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ؛ أَي: مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ.

وَبِهَذَا التَّحْدِيدِ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَعْرِفَ أَوَامِرَ الشَّيْطَانِ، فَكُلُّ مَا يُوجِبُ الْإِثْمَ وَالْعُقُوبَةَ فَهُوَ مِنْ أَوَامِرِ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ، إِذَنْ فَكُلُّ دَعْوَةٍ تَقَعُ فِي نَفْسِكَ لِتَرْكِ وَاجِبٍ، أَوْ فِعْلٍ مُحْرَمٍ، فَاعْلَمْ أَنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ، وَحِينَئِذٍ تَجَنَّبْهَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾» وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ أَظْنُهَا لَا تُخْفَى عَلَى أَحَدٍ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَنَا لَا أَشَاهِدُ الشَّيْطَانَ.

قلنا: هَذَا الْمِيزَانُ بَيْنَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: أَنْتَ مَتَى أَحْسَسْتَ مِنْ نَفْسِكَ مِيلًا إِلَى مَعْصِيَةٍ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِنْ أَمْرِ الشَّيْطَانِ فَخَالَفَهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ أَمْرِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ، فَكَيْفَ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا مِنَ النَّفْسِ وَهَذَا مِنَ الشَّيْطَانِ؟

قلنا: الْأَصْلُ أَنَّ النَّفْسَ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ مُؤْتَمِرَةٌ بِأَمْرِ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّهَا تَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطَانُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٣٣ - حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْرَاهِيمَ الْقُرَشِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي، مُعَاذُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ ابْنَ أَبَانَ أَخْبَرَهُ، قَالَ: أَتَيْتُ عُثْمَانَ بِطَهْوَرٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْمَقَاعِدِ، فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ تَوَضَّأَ وَهُوَ فِي

هَذَا الْمَجْلِسِ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَغْتَرُّوا»^(١).

❖ الشاهد من هذا الحديث قوله: «لَا تَغْتَرُّوا». يَعْنِي: لَا تَغْتَرُّوا بِالشَّيْطَانِ، وَبِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

❖ وقوله: «بَطْهَرٍ». كلمة طهّور، ووضوء، تأتي مفتوحة مرة، ومضمومة مرة فنقول: طَهَّورٌ وَطُهورٌ، وَضُوءٌ وَوُضُوءٌ، والفرق بينهما: أَنَّ الطُّهورَ وَالْوُضُوءَ بِالضَّمِّ هُوَ الْفِعْلُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الطُّهورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»^(٢).

أما بالفتح طَهَّور، وَضُوء، فهو ما يَتَطَهَّرُ بِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (١٨) [الزُّمَر: ٤٨]. طَهَّورًا؛ يَعْنِي: مَطْهَرًا، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٩- بَابُ ذَهَابِ الصَّالِحِينَ، وَيُقَالُ: الذَّهَابُ الْمَطْرُ.

٦٤٣٤- حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ حَمَّادٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ بَيَانَ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ مِرْدَاسِ الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ، لَا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بِأَلَّةٍ». قَالَ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: يُقَالُ حُفَالَةٌ وَحُثَالَةٌ.

هذا كما سبق في قوله: «خيرُ الناسِ قرني، ثم الذين يلونهم». فالصالحون يَذْهَبُونَ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُفَالَةٌ كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ لَا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بِأَلَّةٍ؛ يَعْنِي: لَا يُبَالِي بِمَنْ يُعَاقِبُهُمْ وَيُعَذِّبُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَن يَعْتَنِي اللَّهُ بِهِمْ.



(١) أخرجه مسلم (٢٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٠- بَابُ مَا يَتَّقِي مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ، وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التكْوِين: ١٥].
 قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. «هَذِهِ الصَّيْغَةُ فِيهَا حَصْرٌ، وَطَرِيقَةٌ ﴿إِنَّمَا﴾ يَعْنِي: مَا أَمْوَالُكُمْ، وَلَا أَوْلَادُكُمْ، إِلَّا فِتْنَةٌ، لَكِنْ هَلْ هِيَ فِتْنَةٌ خَيْرًا، أَوْ فِتْنَةٌ شَرًّا؟ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الْأَنْعَام: ٣٥]. قَدْ تَكُونُ فِتْنَةٌ بِخَيْرٍ، وَقَدْ تَكُونُ فِتْنَةٌ بِشَرٍّ، وَكَذَلِكَ الْأَمْوَالُ وَالْأَوْلَادُ، فَقَدْ يَكُونُ الْوَلَدُ صَالِحًا فَيَكُونُ عَوْنًا لِأَبِيهِ فِي حَيَاتِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَيَنْفَعُهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ بِالْإِعْدَاءِ، وَكَذَلِكَ الْمَالُ فَيَنْعِمُ الْمَالُ الصَّالِحَ، فَالْفِتْنَةُ هُنَا تَشْمَلُ هَذَا وَهَذَا، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَهُ: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يَعْنِي: فَاجْعَلُوا هَذَا فِتْنَةً فِي الْخَيْرِ لَتَنَالُوا الْأَجْرَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٣٥- حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ، عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالْدَّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضْيٍ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ».

قَوْلُهُ: «تَعَسَّ». بِمَعْنَى: خَابَ وَخَسِرَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالْدَّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ، وَالْخَمِصَةِ. وَالدِّينَارُ وَالْدَّرْهَمُ مَعْرُوفَانِ، وَأَمَّا الْقَطِيفَةُ فَهِيَ مَا يَجْلِسُ عَلَيْهِ، وَالْخَمِصَةُ مَا يُلْبَسُ، فَالْإِنْسَانُ يَعْتَنِي بِدَرَاهِمِهِ وَدِينَارِهِ، وَيَعْتَنِي بِمَجْلِسِهِ وَمَلْبِسِهِ، فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْتَنِي بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَتَكُونَ عَوْنًا لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ بِهَا نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَغِلُ بِهَا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، حَتَّى يَكُونَ عَبْدًا لَهَا، كَأَنَّمَا خُلِقَ لَهَا، فَلَيْسَ لَهُ هُمْ إِلَّا تَحْصِيلُ الدِّينَارِ وَالْدَّرْهَمِ، وَالْخَمِصَةِ وَالْقَطِيفَةِ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْجُدُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَسْجُدُ لِلدَّرَاهِمِ وَالْدَنَانِيرِ، وَالْقَطَائِفِ وَالْخَمَائِصِ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى أَنَّهُ يَشْتَغِلُ بِهَا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «إِنْ أُعْطِيَ رِضْيٍ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ». وَيَكُونُ رِضَاهُ عَلَى الْمَعْطَى، حَتَّى إِذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ رِضْيًا عَنْ اللَّهِ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ سَخِطَ عَنِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٥٨].

فِيهِ: التَّحْذِيرُ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا لِهَذِهِ الْأُمُورِ بَلْ كُنْ عَبْدًا لِلَّهِ، وَاسْتَغْنِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٣٦ - حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَا يَبْتَغِي ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» ^(١).

٦٤٣٧ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَطَاءً يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ مِלًّا وَادِيًا مَالًا لِأَحَبِّ أَنْ لَهُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ، وَلَا يَمْلَأُ عَيْنَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ». قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ فَلَا أَدْرِي مِنَ الْقُرْآنِ هُوَ أَمْ لَا. قَالَ: وَسَمِعْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ يَقُولُ ذَلِكَ عَلَى الْمِنْبَرِ ^(٢).

٦٤٣٨ - حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ الْفَسِيلِ، عَنْ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلٍ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى الْمِنْبَرِ بِمَكَّةَ فِي خُطْبَتِهِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ، كَانَ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلَأَ مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ».

٦٤٣٩ - حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» ^(٣).

٦٤٤٠ - وَقَالَ: لَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي قَالَ:

كُنَّا نَرَى هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿الْهَمَّكُمُ الْكَافِرُ﴾ [الأنعام: ١١٠].

هذه الأحاديث كلها معناها واحدٌ، وهو أن الإنسان لا ينتهي له طمعٌ في المالِ، فلو كان له واديانٍ من مالٍ لا يَبْتَغِي لهما ثالثًا، ولو كان له ثلاثة لا يَبْتَغِي رابعًا، وهكذا، ولا يَمْلَأُ بطنه إلا الترابُ؛ يعني: إلا أن يَمُوتَ فيُدفَنَ في الترابِ، وليس، المعنى: أنه يأكلُ الترابَ حتى يَشْبَعُ. ❖ قَالَ: «وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ». هذا ترشيحٌ لما سبقَ بمعنى أن الإنسان وإن كان عنده جشعٌ فإنه إن أخطأ في ذلك وتابَ بابَ اللَّهِ عليه.

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٩).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٤٨).

❖ وأما قوله: «كنا نرى هذا من القرآن، حتى نزلت: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَاكُمُ الْمَقَاتِلُ﴾». فهذا ظنٌ من الصحابة الذي سمِعوا هذا القول أنه من القرآن، ولكنه ليس من القرآن؛ لأنه لو كان من القرآن لبقِيَ؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [المختار: ٩].



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١١ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «هَذَا الْمَالُ خُضْرَةٌ حُلُوءٌ».

وقال الله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ١٤]. قال عمر: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقِّه. ❖ يقول البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: هَذَا الْمَالُ خُضْرَةٌ حُلُوءٌ». وقد سبق هذا في حديث متصل، قال: وقال الله تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾.

❖ قوله: «﴿زَيْنٌ﴾». المزيّن هو الله ﷻ، ولكن أحياناً يذكر الله الفعل الذي يكون منه ﷻ على سبيل المبنى لما لم يسم فاعله كراهةً نسبتِه إلى الله ﷻ، ومن ذلك قولُ الجَنِّ: ﴿وَأَنَا لَنَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [البقرة: ١٠]. فلما ذكروا الشرَّ قالوا: ﴿أُرِيدُ﴾ مع أن الله هو الذي يُريدُ، ولما ذكروا الخيرَ والرشدَ قالوا: ﴿أَمَرَأَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾.

❖ قوله: «﴿النِّسَاءُ﴾». يعني: من الزوجات، «وَالْبَنِينَ» معروفٌ، «وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ» يعني: الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة، «وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ» أي: المعلمة التي وضع لها علامة تدلُّ على جودتها، وشدة عذوها، «وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ» فكلُّ هذه الأصناف يقولُ الله عنها: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَادِ﴾ [١١] ﴿قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مَنَ دَلِكُمْ﴾ أي: من كلِّ هذا: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [١٥] ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَهْمَاكَ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٦] ﴿الصَّكِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [١٧] - أسألك الله أن يجعلني وإياكم منهم - هذا هو الخيرُ، خيرٌ من هذا كله.

مع أن الإنسان ربما يُدرك هذا مع إدراك ما زين الله له في الدنيا، كما قال عمر رضي الله عنه: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بها زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمته الله:

٦٤٤١ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ: سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ، يَقُولُ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْمَالُ - وَرُبَّمَا قَالَ: سُفْيَانُ قَالَ لِي: يَا حَكِيمُ - إِنَّ هَذَا الْمَالُ خَصِرَةٌ حُلُوءٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطَيْبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافٍ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» ^(١).

هذا الحديث فيه دليل: على كرم النبي ﷺ، وكان من كرمه أنه لا يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه ﷺ.

وفيه أيضاً: دليل على التحذير من الاستشراف للمال، وأن الإنسان إذا أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، ومعني إشراف نفس: يعني: تطلع له فضلاً عن أن يسأل، أما من أتاه بدون استشراف نفس، ولا سؤال، فإنه يُبارك له فيه، وقد قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ» ^(٢). يعني: بعد انتفاء الأمرين: الإشراف وهو التطلع، والسؤال، فخذ ثم قال ﷺ: «وما لا فلا تتبعه نفسك». وصدق النبي ﷺ فإن الذي يُشرف للمال، ويسأله كالذي يأكل ولا يشبع.

ثم بين الرسول ﷺ أن هذا يده سفلى فقال: «واليد العليا خير من اليد السفلى» واليد العليا هي يد المعطي، واليد السفلى هي يد الآخذ، لأن يد المعطي تأتي من فوق ليضع الدرهم والدينار في يد الآخذ، فالآخذ يده سفلى، والمعطي يده عليا.

(١) أخرجه مسلم (١٠٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٢- بَابٌ مِنْ قَدِيمٍ مِنْ مَالٍ فَهُوَ لَهُ.

٦٤٤٢- حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: قَالَ: عَبْدُ اللَّهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنْ مَالُهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا آخَرَ».

❦ قوله: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟». والمتبادر أن ماله أحبُّ إليه، ولهذا قالوا: يا رسول الله ما مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ قَالَ: «فَإِنْ مَالُهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا آخَرَ». وصدق الرسول ﷺ فإن الذي تُقدِّمه نفسك في الدنيا مالك؛ لأنك ستجده أمامك يوم القيامة، والذي تخلف لورثتك.

ولهذا ينبغي للإنسان بقدر ما يُمكن -نسأل الله أن يُعيننا على أنفسنا- أن يكون باذلاً للمال في حقِّه، وفي وجهه، وفي كلِّ فرصة تعرض له، وعلى كلِّ حالٍ يقول الرسول ﷺ: «أبدأ بنفسك ثم بمن تعول»^(١). فلا تريد من الإنسان أن ينفق ماله كله ويبقى فقيراً، لا سيما إذا كان ضعيف التوكل على الله، ولكن نقول: أنفق يُنفق عليك، والله ﷻ وعد وهو أصدق القائلين، وأقدر الفاعلين، فقال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فلا بد أن يُخلف الله عليك وهو خير الرازقين، فلو أننا كنا على يقين ونرجو الله أن يجعلنا على يقين من هذا الوعد الصادق ما تخلف أحدنا عن الإنفاق في وجهه، لكن أحياناً يعتري الإنسان غفلة وشك فيقول في نفسه: أنا أخشى أن أخرج ريالاً من هذه المائة، فتصبح تسعة وتسعين، وإذا أخرجت ريالاً آخر من الغد، صار عندي ثمان وتسعين، فهذا نقص، لكن الله يقول: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ولا يلزم أن الشيء الذي يأتي خلفاً أن يأتي فوراً، فقد يأتي بعد زمن، ولا يلزم أن يكون بالكم أيضاً، فقد يكون بالكيف وبالبركة فيبارك الله للعبد في ماله حتى يُنفق وكأنه لا يُنفق، فلا يجد نقصاً في ماله.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣ - بَابُ الْمَكْشُرُونَ هُمُ الْمُقْلُونَ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَكُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [مائدة: ١٥-١٦].

٤٣٦٤ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ خَرَجْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي وَحْدَهُ، وَلَيْسَ مَعَهُ إِنْسَانٌ. قَالَ: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَهُ أَحَدٌ. قَالَ: فَجَعَلْتُ أَمْشِي فِي ظِلِّ الْقَمَرِ فَالْتَفَتَ فَرَأَنِي، فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟». قُلْتُ: أَبُو ذَرٍّ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ. قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَالَ». قَالَ: فَامْشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً فَقَالَ: «إِنَّ الْمُكْشِرِينَ هُمُ الْمُقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا، فَتَفَحَّ فِيهِ يَمِينُهُ وَشِمَالُهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ، وَعَمِلَ فِيهِ خَيْرًا». قَالَ: فَامْشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً فَقَالَ لِي: «اجْلِسْ هَا هُنَا». قَالَ: فَأَجْلَسَنِي فِي قَاعٍ حَوْلَهُ حِجَارَةً، فَقَالَ لِي: «اجْلِسْ هَا هُنَا حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ». قَالَ: فَانْطَلَقَ فِي الْحَرَّةِ حَتَّى لَا أَرَاهُ فَلَبِثْتُ عَنْهُ فَاطَالَ اللَّبْثُ، ثُمَّ إِنِّي سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُقْبِلٌ وَهُوَ يَقُولُ: «وَأِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى». قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ لَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي جَانِبِ الْحَرَّةِ مَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَرْجِعُ إِلَيْكَ شَيْئًا. قَالَ: «ذَلِكَ جَبْرِيلُ ﷺ عَرَضَ لِي فِي جَانِبِ الْحَرَّةِ؟ قَالَ: بَشَّرُ أَمْتِكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ زَنَى، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ زَنَى، قَالَ: نَعَمْ قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ، وَإِنْ زَنَى؟ قَالَ: نَعَمْ»^(١). قال النضر: أَخْبَرْنَا شُعْبَةَ، وَحَدَّثَنَا

حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ، وَالْأَعْمَشُ، وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ رُفَيْعٍ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ وَهَبٍ بِهَذَا.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: حَدِيثُ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَرْسَلٌ لَا يَصِحُّ، وَإِنَّمَا أَرَدْنَا لِلْمَعْرِفَةِ، وَالصَّحِيحُ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ.

قِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: حَدِيثُ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ؟ قَالَ: مَرْسَلٌ أَيْضًا لَا يَصِحُّ، وَالصَّحِيحُ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ.

قال: اضربوا على حديث أبي الدرداء هذا: «إذا مات قال: لا إله إلا الله عند الموت».

❖ هذا الباب يَقُولُ فيه: «بابُ المكثرون هم المقلون». المكثرون؛ يَعْنِي: من المالِ إذا لم يُنْفَقُوهُ في سبيلِ الله صاروا مقلّين يومَ القيامةِ، لأنهم لم يُقَدِّمُوا شَيْئًا، فصاروا مقلّين، وقد يكونُ الإنسانُ قليلَ المالِ وغيره أقلّ منه مالًا، لكن أكثر منه عملًا وإنفاقًا، فيكونُ هذا الثاني يومَ القيامةِ هو المكثّر، والأوّل هو المقلّ.

❖ وقولُ الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾. قوله: «مَنْ» شرطيةٌ تُفِيدُ العمومَ؛ يَعْنِي: أيُّ إنسانٍ يُريدُ الحياةَ الدنيا وزينتها، والبقاءَ فيها، والمكثَ فيها، طولَ البقاء، وما فيها من الزينة، من النساءِ، والبنينِ، والقناطيرِ المقنطرة، وغير ذلك ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ يَعْنِي: أعمالهم فيها وافيةً، ويثابون على أعمالهم في الدنيا قال تعالى: ﴿وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ ﴿وَلِذَلِكَ يُعْطِي الْكَافِرُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِ فِي الدُّنْيَا سِيَادَةً فِي الدُّنْيَا وَتَكُونُ الدُّنْيَا فِي حَقِّهِ جَنَّةً وَنَعِيمًا وَرَفَاهِيَةً، ولهذا لا تُغِطِ الإنسانَ على رفاهيته، بل اغبطه على عمله الصالح، أما الرفاهيةُ في الدنيا فالأصلُ أنها للكفار، كما قالَ الله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَاصْصَبْ أَسْمَالَ مَا أَصْصَبُ أَسْمَالَ﴾ (١١) فِي سَمَوٍ وَحَمِيمٍ (١٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْتُمِيهِ (١٣) لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ (١٤) إِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (١٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (١٦) [الواقعة: ٤١-٤٦]. ولهذا من الشقاء والبلاء أن يَسِيرَ المسلمون اليومَ إلى هذا الاتجاهِ المَعْوِجِ المرتدِّ عن الصراطِ المستقيم، وليس ردةُ الكفر، لكن ردةُ استقامة، بحيث يُريدونَ من كلِّ أمورهم أن يَنَالُوا شرفَ الترفِ، ولكنه تَلَفَ الترفِ؛ لأن الرسولَ ﷺ بَيَّنَ لنا في الحديثِ الصحيح الذي يَقُولُ فيه: «إذا تابعتُم بالعينة، وأخذتم بأذنابِ البقر، ورضيتُم بالزرع، وتركتُم الجهاد، سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا يَتَزَعُهُ مِنْكُمْ - أَوْ قَالَ: من قلوبكم - حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» (١). فإن سَيرنا خلفَ الدنيا يُحدِثُ الذلَّ، الذي لا يُنزعُ، حتى نرجعَ إلى الدين.

ونَحْرِصُ على الدينِ مثلَ ما نَحْرِصُ على الدنيا، والآن مع الأسفِ الشديدِ نجدُ أن التوجهاتِ العامةَ في الصحفِ، وغير الصحفِ، كُلُّهَا للترفِ والتنعيمِ في هذه الدنيا، وهذا لا شكَّ أنه خطأ، لأن هذا الحياةَ الدنيا ليست حياةً في الواقع، بل الحياةُ هي الآخرةُ قال الله

تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [التجدة: ٢٤]. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [الحجرات: ٦٤].
فهذا هو الذي ينبغي أن نعتني به ونعمل له والله الموفق.
❖ قوله: «قَالَ النضر».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْح»:

وقوله: «وقال النضر بن شميل: أنبأنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت، والأعمش، وعبد العزيز بن رفيع، قالوا: حدثنا زيد بن وهب بهذا». الغرض بهذا التعليق تصريح الشيوخ الثلاثة المذكورين بأن زيد بن وهب حدثهم، والأولان نسباً إلى التدليس، مع أنه لو ورد من رواية شعبة بغير تصريح لأمن فيه التدليس؛ لأنه كان لا يتحدث عن شيوخه إلا بما لا تدليس فيه، وقد ظهرت فائدة ذلك في رواية جرير بن حازم عن الأعمش فإنه زاد فيه بين الأعمش وزيد بن وهب رجلاً مبهمًا، ذكر ذلك الدارقطني في العلل، فأفادت هذه الرواية المصرحة أنه من المزيد في متصل الأسانيد، وقد اعترض الإسماعيليُّ على قول البخاري في هذا السند بهذا.

[هو من المزيد في متصل الأسانيد؛ لأن شعبة صرح بالتحديث، وقال: حدثني الحبيب وهذه مرّت في المصطلح بأنه مثلاً إذا روي الحديث بسندين، وذكر المحدث أن فلاناً حدثه، وسار السند الآخر فيه بين فلانٍ والذي حدثه رجلٌ زائد فإن هذا يُسمّى المزيد في متصل الأسانيد؛ لأنه لما صرح بالتحديث علمنا أنه متصل، لكن لو لم يُصرّح وقال: فلانٌ عن فلانٍ، ثم جاء سند آخر فيه رجلٌ بينه وبين فلانٍ الذي عنّ عنه فهنا لا نحكم بالمزيد في متصل الأسانيد لاحتمال أن يكون السند الأول ساقطاً، فقد يكون فيه التدليس؛ لأن المدلس إذا قال: عن، ولم يُصرّح بالتحديث فهو مدلسٌ واضحٌ، ولكن هل يؤثر المزيد في متصل الأسانيد في السند الذي لا زيادة فيه؟ بمعنى: هل نحكم بأن السند الذي ليس فيه زيادة منقطع إذا صرح بالتحديث؛ لأننا لا نحكم بالزيادة إلا بعد التصريح بالتحديث، فهل نحكم بأن السند الذي فيه النقض يكون منقطعاً؟

الجواب: لا؛ لأنه صرح بالتحديث^(١). فأشار إلى رواية عبد العزيز بن رفيع واقتضى ذلك أن رواية شعبة هذه نظير روايته، فقال: ليس في حديث شعبة قصة المقلّين والمكثرين إنما فيه قصة من مات لا يُشرك بالله شيئاً، قال: والعجب من البخاري كيف أطلق ذلك ثم ساقه

(١) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

موصولاً من طريق حميد بن زنجور به: حَدَّثَنَا النُّصْرُ بْنُ شَمِيلٍ عَنْ شُعْبَةَ وَلَفْظُهُ: «أَنَّ جَبْرِيلَ بَشَّرَنِي أَنَّ مِنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» قِيلَ لِسُلَيْمَانَ يَعْنِي الْأَعْمَشُ: إِنَّمَا رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ. فَقَالَ: إِنَّمَا سَمِعْتُهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْ طَرِيقٍ مَعَاذَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، وَبِلَالٍ وَالْأَعْمَشُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ رَفِيعٍ سَمِعُوا زَيْدَ بْنَ وَهْبٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ زَادَ فِيهِ، رَاوِيًا وَهُوَ بِلَالٌ وَهُوَ ابْنُ مُرْدَاسٍ الْفَزَارِيُّ شَيْخٌ كُوفِيٌّ أَخْرَجَ لَهُ أَبُو دَاوُدَ وَهُوَ صَدُوقٌ لَا بَأْسَ بِهِ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ عَنْ شُعْبَةَ كِرَاوِيَةَ النَّضْرِ لَيْسَ فِيهِ بِلَالٌ، وَقَدْ تَبَعَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ عَلَى اعْتِرَاضِهِ الْمَذْكُورِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مُغْلَطَايَ، وَمِنْ بَعْدِ وَالْجَوَابُ عَنِ الْبُخَارِيِّ وَاضِحٌ عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ، لِأَنَّ مَرَادَهُ أَصْلُ الْحَدِيثِ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ الْمَذْكُورَ فِي الْأَصْلِ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءٍ، فَيَجُوزُ إِطْلَاقُ الْحَدِيثِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِذَا أُريدَ بِقَوْلِ الْبُخَارِيِّ بِهَذَا أَيْ بِأَصْلِ الْحَدِيثِ لَا خُصُوصَ الْفَلِظِ الْمَسَاقِ فَالْأَوَّلُ مِنَ الثَّلَاثَةِ: مَا يَسُرُّنِي أَنْ لِي أَحَدًا ذَهَبًا. وَقَدْ رَوَاهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَيْضًا بِنَحْوِهِ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَتَقَدَّمَ فِي الزَّكَاةِ، وَالنَّعْمَانُ الْغِفَارِيُّ وَسَلَامُ ابْنِ الْجَعْدِ وَسُوَيْدُ بْنُ الْحَارِثِ كُلُّهُمْ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، وَرَوَايَاتُهُمْ عِنْدَ أَحْمَدَ، وَرَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَيْضًا أَبُو هُرَيْرَةَ، وَهُوَ فِي آخِرِ الْبَابِ مِنْ طَرِيقِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْتَةَ عَنْهُ، وَسَيَأْتِي فِي كِتَابِ التَّمَنِّيِّ مِنْ طَرِيقِ هَمَامٍ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْادٍ، وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، كُلُّهُمْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، كَمَا سَأَيَيْنَهُ.

الثاني حديث: الْمُكَثِّرِينَ وَالْمَقْلِينَ. وَقَدْ رَوَاهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَيْضًا الْمَعْرُورُ بْنُ سُوَيْدٍ كَمَا تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ، وَالنَّعْمَانُ الْغِفَارِيُّ وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ أَيْضًا.

الثالث حديث: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ». وَفِي بَعْضِ طَرِيقِهِ: «وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ». وَقَدْ رَوَاهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَيْضًا أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّوَلِيُّ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي اللَّبَاسِ، وَرَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَيْضًا أَبُو هُرَيْرَةَ كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ، لَكِنْ لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. وَأَبُو الدَّرْدَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ مِنْ رَوَايَةِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ.

وفيه أيضًا فائدة أخرى وهو: أَنَّ بَعْضَ الرُّوَاةِ قَالَ: عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ. فَلِذَلِكَ قَالَ الْأَعْمَشُ لَزَيْدٍ مَا تَقَدَّمَ فِي رَوَايَةِ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ عَنْهُ قُلْتُ لَزَيْدٍ: بَلْغَنِي أَنَّهُ أَبُو

الدرداء. فأفادت رواية شعبة أن حبيباً وعبد العزيز وافقاً الأعمش على أنه زيد بن وهب عن أبي ذر لا عن أبي الدرداء.

وممن رواه عن زيد بن وهب عن أبي الدرداء محمد بن إسحاق فقال: عن عيسى بن مالك عن زيد بن وهب عن أبي الدرداء أخرجه النسائي، والحسن بن عبيد الله النخعي أخرجه الطبراني من طريقه عن زيد بن وهب عن أبي الدرداء بلفظ: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. فقال أبو الدرداء: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. فكررها ثلاثاً وفي الثالث: وإن رغم أنف أبي الدرداء.

وسأذكر بقية طريقه عن أبي الدرداء في آخر الباب الذي يليه، وذكره الدراقطني في العلل فقال: يشبه أن يكون القولان صحيحين. قلت: وفي حديث كل منهما في بعض الطرق ما ليس في الآخر. اهـ

هذا الشرح يدلنا على اعتناء علماء الحديث بالأحاديث سنداً ومتناً، ويدلنا أيضاً على أن الله ﷻ يسر لسنة الرسول ﷺ من يحفظها حفظاً تاماً، فهذه المناقشة الطويلة التي ساقها ابن حجر رحمه الله كلها تدل على تحرّي أهل العلم بالحديث في الأسانيد، وأنهم يحرصون جداً على تحريرها؛ حتى لا يقع إشكال، أو طعن في الرواة، والطعن في الرواة يؤدي إلى الطعن في المروي كما هو ظاهر.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله:

١٤ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا يَسُرُّنِي أَنْ عِنْدِي مِثْلُ أَحَدٍ هَذَا ذَهَبًا».

٦٤٤٤ - حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الرَّبِيعِ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ: أَبُو ذَرٍّ كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَنَا أَحَدٌ فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ. قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «مَا يَسُرُّنِي أَنْ عِنْدِي مِثْلُ أَحَدٍ هَذَا ذَهَبًا، تَمْضِي عَلَى ثَلَاثَةِ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا شَيْئًا أَرْضُهُ لِدَيْنٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا». عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ - ثُمَّ مَشَى ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْمُقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ: هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا - عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ». ثُمَّ قَالَ لِي: «مَكَانَكَ لَا تَبْرَحَ حَتَّى آتِيكَ». ثُمَّ انْطَلَقَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ حَتَّى تَوَارَى فَسَمِعْتُ

صَوْتًا قَدْ اَرْنَعَ، فَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ قَدْ عَرَضَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَهُ لِي: «لَا تَبْرَحْ حَتَّى آتِيَكَ» فَلَمْ أَبْرَحْ حَتَّى آتَانِي، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتًا تَخَوَّفْتُ، فَذَكَرْتُ لَهُ فَقَالَ: «وَهَلْ سَمِعْتَهُ». قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ جِبْرِيلُ آتَانِي فَقَالَ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ». قُلْتُ: وَإِنْ رَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ رَنَى وَإِنْ سَرَقَ»^(١).

٦٤٤٥ - حَدَّثَنِي، أَحْمَدُ بْنُ شَيْبٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ يُونُسَ. وَقَالَ: اللَّيْثُ، حَدَّثَنِي يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا يَسُرُّنِي أَنْ لَا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ، إِلَّا شَيْئًا أَرُصُّهُ لِدِينِي»^(١).

هذان الحديثان حديث أبي ذرٍّ وحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أي بهما المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لمطابقة الترجمة، وهي قول النبي ﷺ: «مَا أَحَبُّ أَنْ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا». يَعْنِي: أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ مَالٌ وَلَا يَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَمُرُّ عَلَيْهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ. ❖ قَوْلُهُ: «تَمُرُّ عَلَيْهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ». الثَلَاثُ دَائِمًا يُعْلَمُ الشَّارِعُ بِهَا أَحْكَامًا، مِثْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فَالْثَلَاثُ لَهَا اعْتِبَارٌ فِي الشَّرْعِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

١٥ - الْغَنِي غَنِيَ النَّفْسِ.

وقال الله تعالى: ﴿يَتَحَسَّبُونَ أَنَّمَا يُدْهَرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۞﴾ [التوبة: ١٥٥]. إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ دُونَ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ۞﴾ [التوبة: ٦٣]. قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: لَمْ يَعْمَلُوهَا، لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَعْمَلُوهَا. ❖ هَذِهِ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَحَسَّبُونَ أَنَّمَا يُدْهَرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۞﴾ نَسَاجُ لَمْ يَفِي لُغَتِهِ ﴿وَهَنَا قَدْ كَتَبْتُ﴾ وَأَنْ ﴿وَحَدَّهَا﴾ وَ﴿مَا﴾ وَحَدَّهَا وَذَلِكَ لِأَنَّ مَا هُنَا اسْمُ مَوْصُولٍ، وَلَيْسَ الْمَرَادُ هُنَا «أَنْهَا» الدَّالَّةُ عَلَى الْحَصْرِ، فَ«أَنْهَا» الدَّالَّةُ عَلَى الْحَصْرِ تُكْتَبُ جَمِيعًا، وَأَمَّا أَنْ مَا

(١) أخرجه مسلم (٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (٩٩١).

اسْمُ المَوْصُولِ فَإِنَّمَا تُفَرَّدُ كُلُّ وَاحِدَةٍ عَنِ الْآخَرَى، وَلَكِنْ بَعْضُ الْكُتَّابِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْإِمْلَاءَ يَكْتُبُونَ أَنَّ مَا الْمَوْصُولَةَ كَأَنَّهَا الَّتِي لِلْحَصْرِ، كَمَا يَكْتُبُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَيُقَرِّئُونَ النُّونَ بِالشَّيْنِ فَتَكُونُ: إِنْشَاءً، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ إِنْشَاءَ اللَّهِ هَكَذَا لَيْسَ لَهَا بَخْبَرٌ.

فلهذا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ الْقَاعِدَةَ الْإِمْلَائِيَّةَ فِي هَذَا.

❖ يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾. يَعْنِي: يُظَنُّونَ أَنَّ مَا أَمَدَدْنَاهُمْ بِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَبَنِينَ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ؛ يَعْنِي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بَلْ إِذَا أَمَدَّ اللَّهُ الْإِنْسَانَ بِالْمَالِ وَبَنِينَ وَهُوَ مَقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَسَارَعَةِ بِالْخَيْرَاتِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ وَذَلِكَ لَغْفَلَتِهِمْ عَنِ اللَّهِ ﷻ، وَعَنْ اسْتِدْرَاجِهِ، يُظَنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ مَسَارَعَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَنَّا لَمُهَمِّزُونَ﴾ كَيِّدِي مَتِينٌ ﴿٥٨﴾﴾ [التكْوِيْن: ٤٤-٤٥].

❖ ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾. أَي: مِنْ خَوْفِهِ الْمَبْنِيِّ عَلَى الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ الْخَشْيَةَ خَوْفٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الْعِلْمِ، بِخِلَافِ الْخَوْفِ، وَلِأَنَّ الْخَشْيَةَ تَكُونُ بِسَبَبِ قُوَّةِ الْمَخْشَى، وَالْخَوْفُ يَكُونُ بِسَبَبِ ضَعْفِ الْخَائِفِ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْخَشْيَةُ أَعْلَى مَرْتَبَةً مِنَ الْخَوْفِ، فَالْخَشْيَةُ خَوْفٌ عَنِ عِلْمٍ، وَالذَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [طه: ٢٨]. خِلَافِ الْخَوْفِ، فَقَدْ يَذْعُرُ الْإِنْسَانُ وَيَخَافُ مِنَ الشَّيْخِ، فَقَدْ يَرَى سَوَادًا بَعِيدًا وَيَحْسَبُ أَنَّهُ سَبْعٌ فِيْخَافُ، فَالْخَوْفُ ذَعْرٌ وَهَلَعٌ فِي الْقَلْبِ، غَيْرُ مَبْنِيٍّ عَلَى الْعِلْمِ، وَأَيْضًا الْخَوْفُ يَكُونُ مِنْ ضَعْفِ الْخَائِفِ، وَالْخَشْيَةُ تَكُونُ مِنْ قُوَّةِ الْمَخْشَى، وَعَلَى هَذَا فَقَدْ يَخْشَى الْقَوِيُّ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ، أَمَّا الْخَوْفُ فَسَبَبُهُ الضَّعْفُ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ أَي: خَائِفُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الطُّورِ: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُّشْفِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الطُّور: ٢٦]. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ وَالَّذِينَ هُمْ رَايَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [التكْوِيْن: ٥٧-٥٨]. بِالْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ وَالْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ فَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا، وَهُوَ الَّذِي يُدَبِّرُهَا، وَيُسَخِّرُهَا، وَالْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ فَيُؤْمِنُونَ بِهَا، وَيُذْعِنُونَ لَهَا، وَيَقْبَلُونَهَا.

❖ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾. لَا يُشْرِكُونَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا أَلُوْهِيَّتِهِ وَلَا أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التكْوِيْن: ٦٠]. يَعْنِي: يَفْعَلُونَ مَا أَمَرُوا أَنْ يَفْعَلُوهُ، فَيُؤْتُونَ مَا آتَوْا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ بِذَلِّ الْمَالِ، وَالنَّفْسِ، وَالبَدَنِ، وَقُلُوبِهِمْ وَجَلَةٌ؛

أي: خائفةً من أن لا يتقبل منها، لا سوء ظنٍّ بالله، ولكن سوء ظنٍّ بأنفسهم فيخشون من التفریط، أو الإفراط فلا يقبل منهم ثم قال: ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (أن) جاءت هنا بالفتح، وجاءت مفتوحة لأنها جاءت على تقدير الله، فالجمله هنا تعليلية؛ أي: لأنهم راجعون إلى الله: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (١١) [الأنعام: ٦١]. أي: يسارعون إليها، وفي تنفيذها إذا دخلوا فيها، ولهذا جاءت (في) في مكان يظنُّ أن اللائق فيه (إلى) وليس كذلك بل (في) أليق من (إلى)؛ لأن المسارعة إلى الشيء تنتهي بوصوله، لكن المسارعة فيه تكون بالسعي إليه حتى يصل إليه الإنسان، وبالسعي فيه؛ أي: في أثناء العمل، فصار ﴿يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أبلغ من: يُسَارِعُونَ إلى الخيرات.

❦ ثم قال: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (١١). فهم يسارعون، ويحققون المسارعة بالسبق، فلا يكلون ولا يملون.

❦ ثم قال: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِزْرًا وَسَعَهَا﴾. الجملة هذه صلتها بما قبلها ظاهرة جدًا؛ لأنه لما أثنى عليهم بالمسارعة والسبق، بين أن هذه المسارعة والسبق مبنية على القدرة، وأن الله لا يكلفهم إلا ما يستطيعون، فإذا سارعوا في عمل، وقصروا عن غيره، من أجل عدم قدرتهم على ذلك فهم في عداد المسارعين السابقين، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِزْرًا وَسَعَهَا﴾.

❦ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧). قوله: «هم مشفقون» مبتدأ وخبر؛ أي: من شدة خوفهم لله الخوف المبني على العلم مشفقون من عذاب الله خائفون منه؛ وذلك لإيمانهم الإيمان التام بأن ما وعد الله أو أوعده سيكُون، فهم مشفقون من خشية الله، (ومن) هنا للتعليل؛ أي: من أجل الخشية خائفون من عذاب الله.

والخشية هي: الخوف مع العلم. والخوف بلا علم خوف مجرد فهذا فرق بين الخوف والخشية. فرق آخر: أن الخشية تكون من عظم المخشي، وإن كان الخاشي عظيمًا أيضًا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المخوف ضعيفًا.

❦ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٨). وأتي بـ «يؤمنون»؛ لن هذه الآيات تتجدد، فالذين في وقت نزول القرآن تتنزل عليهم الآيات يومًا فيومًا، فكلما نزلت آية ازدادوا إيمانًا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) [الأنعام: ١٢٤]. وكذلك الآيات الكونية تتجدد، فكلما جاءت آية مطابقة لما

أخبر الله به ورسوله زادتِ المؤمنَ إيماناً، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرِيتَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل: مؤمنون كما قال: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ لأن الإيمانَ يتكرَّرُ فهم كلما أتتهم آيةً زادتهم إيماناً.

❦ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرِيتَ رَبَّهُمْ لَا يَشْرِكُونَ﴾ (١٨). وقوله: ﴿هُم يَرِيتَ رَبَّهُمْ لَا يَشْرِكُونَ﴾، أتى فيه بالجملة الفعلية ولم يقل غيرَ مشركين؛ وذلك لأنهم لا يُشْرِكُونَ في أيِّ فعلٍ يفعلونه لله، فلا رياءَ عندهم ولا سمعةً، ولا يريدون الدنيا بعملهم، إنما يريدون الله ﷻ.

❦ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾. أي: يعطون ما أعطوا، ويبدلون ما بدّلوا من الأعمال البدنية والأموال ﴿وَقُلُوبُهُمْ رَاجِعَةٌ﴾؛ أي: خائفةٌ من أن لا يُقبَلَ منهم، ومن أن يردَّ عليهم العمل، لا سوءَ ظنٍّ بالله، ولكن احتقاراً لأنفسهم، وخوفاً من التقصير، فهم يؤتون ما آتوا، ويفعلون العملَ الصالح، لكن يخشون ألا يُقبَلَ منهم، فيصومون مثلاً ويخافون ألا يُقبَلَ منهم، وكذلك بقية الأعمال.

❦ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾؛ يعني: يعطون ما أعطوا؛ لأنهم يؤمنون برجوعهم إلى الله، وأن الله تعالى سوف يجازيهم.

❦ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَا سَافِقُونَ﴾ (١٩). يسارعون فيها؛ أي: في الوصول إليها، وفي إتقانها، وهم مدركون لها، ولها سابقون.

❦ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِزْرًا وَلَا تُلْغِي عَنْهَا﴾. لما كانت المسارعة قد يتوهم منها واهم أنهم لو عجزوا عن المسارعة لم ينالوها قال: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِزْرًا وَلَا تُلْغِي عَنْهَا﴾ فهم يسارعون حتى لو صلّى الإنسان منهم قاعداً؛ لعجزه عن القيام فهو مسارع؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا وِزْرًا وَلَا تُلْغِي عَنْهَا﴾.

❦ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَطْلُقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٠). وهذا الكتاب هو ما كتبه الملائكة من أعمال بني آدم، فهو ينطق بالحق يوم القيامة، ويُقال للإنسان ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ نَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الأنعام: ١٤). قال الحسن: «لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك». وأنت إن حاسبت نفسك ستجد أن الأمر كما كتب.

❦ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا﴾. هذا كقوله في أول الآيات: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ (٥٥) ﴿سَارِعًا لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا﴾؛ يعني: قد حلَّ بها ما غمرها ولم يفتطنوا له ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (٥٧).

المؤمنين: [٦٣]. وهذه هي أعمال الدنيا، ولهذا قَالَ: ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ إشارة لانخفاض رتبتهَا، ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ الجملة هذه أسمية؛ يَعْنِي: متقنون للعمل لها، وقَدَّم المفعول (لها) للدلالة على أَنَّهُمْ قد حَصَرُوا أَنفُسَهُمْ، وأفكارَهُمْ، وعقولَهُمْ، في هذه الأعمال الدنيوية.

❖ ثُمَّ قَالَ البخاري: «قال ابن عيينة: لم يعملوها لا بدَّ من أن يعملوها». يَعْنِي: هم ما عملوها بعد، لكن لا بدَّ أن يعملوها؛ يَعْنِي أَنَّهُمْ مصرونَّ على عملها.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٤٤٦ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ، حَدَّثَنَا أَبُو حَاصِبٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»^(١).

❖ قَوْلُهُ: «ليس الغني عن كثرة العرض»؛ أي: ليس عن كثرة المال، ولكنه غني النفس وغني القلب، فكم من إنسانٍ عنده ملايين الملايين ومع ذلك يعملُ عملَ الفقير، من شدة الحرص على المال وطلبه له، وكم من إنسانٍ عنده دون ذلك بكثير تجده لا يهتمُّ، وتجده كريماً يُعْطِي أكثر مما يُعْطِي ذلك الرجل الذي عنده الأموال الكثيرة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

١٦ - بَابُ فَضْلِ الْفَقْرِ.

٦٤٤٧ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟». فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ. قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا؟». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خُطِبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِثْلِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا».

الواقعُ أن الحديثَ الذي استدُلَّ به البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ لَا يُطَابِقُ الترجمةَ؛ لأنَّ قولَ الرسولِ ﷺ: «هذا خيرٌ من ملءِ الأرضِ مثلِ هذا» لا يدلُّ على أنَّ هذا بسببِ الفقرِ، فقد يَكُونُ خيرًا منه لأعمالٍ أخرى يَعْلَمُهَا النَّبِيُّ ﷺ، وكم من غنيٍّ هو خيرٌ من ألفِ فقيرٍ، وكم من فقيرٍ خيرٌ من ألفِ غنيٍّ.

فالواقعُ أنَّ الفقرَ والغنيَّ لو نظرنا إليهما من حيثَ هما لكان الغنيُّ أحسنَ وأفضلَ، لأنَّ الغنيَّ يحصلُ به من النفعِ الخاصِّ والعامِّ ما لا يحصلُ بالفقرِ، ولهذا اختلفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللهُ أيُّهما أفضلُ: الغنيُّ الشاكرُ، أم الفقيرُ الصابرُ؟ فقال بعضهم: الغنيُّ الشاكرُ أفضلُ؛ لأنه يحصلُ منه من الخيرِ ونفعِ الأمةِ النفعَ العامَّ الكثيرَ ما لا يحصلُ بفقرِ الفقيرِ.

وقال بعضهم: بل الفقيرُ الصابرُ أفضلُ؛ لأنه قد صبرَ على البلاءِ وكان من الصابرينَ. وقد ذكرَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللهُ في كتابهِ «بدائعِ الفوائدِ» هذه المناظرةَ في أيُّهما أفضلُ الغنيُّ الشاكرُ أم الفقيرُ الصابرُ.

ولكن إذا نظرنا من حيثِ الإطلاقِ فإنَّ الغنيَّ الشاكرَ أفضلُ؛ لأنَّ البلوي بالمالِ ليست هينةً؛ لأنَّ إذا ابتلي الإنسانُ بالمالِ وشكرَ فإنَّ معاناته للشكرِ قد تَكُونُ أشدَّ من معاناةِ الفقيرِ للصبرِ؛ لأنَّ كثيرًا من الأغنياءِ إذا أغناهم اللهُ أخذهم الغنيُّ بالأشرِ والبطرِ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٣].

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ:

❖ قوله: «ثم مرَّ رجلٌ». زاد إبراهيمُ: من فقراءِ المسلمينَ وفي روايةِ ابنِ حبانَ: مسكينٌ من أهلِ الصَّفةِ.

❖ قوله: «هذا خيرٌ من ملءِ الأرضِ». من ملءِ بكسرِ الميمِ وسكونِ اللامِ مهموزٌ.

❖ قوله: «ملءٌ». بكسرِ اللامِ ويجوزُ فتحُها.

قَالَ الطَّبِيبِيُّ: وَقَعَ التفضيلُ بينهما باعتبارِ مميزٍ وهو قوله بعد هذا لأنَّ البيانَ والمبينَ شيءٌ واحدٌ زادَ أحمدُ وابنُ حبانَ: «عندَ اللهِ يومَ القيامةِ» وفي روايةِ ابنِ حبانَ الأخرى: «خيرٌ من طلاعِ الأرضِ من الآخرِ» و«طَلَعَ»: بكسرِ المهملةِ، وتخفيفِ اللامِ، وآخرُه مهملةٌ؛ أي: ما طَلَعَتْ عليه الشمسُ من الأرضِ كذا قال عياضٌ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: الْمَرَادُ مَا فَوْقَ الْأَرْضِ، وَزَادَ فِي آخِرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا يُعْطَى هَذَا كَمَا يُعْطَى الْآخَرُ؟ قَالَ: «إِذَا أُعْطِيَ خَيْرًا فَهُوَ أَهْلُهُ، وَإِذَا صُرِفَ عَنْهُ فَقَدْ أُعْطِيَ حَسَنَةً». [قَوْلُهُ: «إِذَا أُعْطِيَ خَيْرًا فَهُوَ أَهْلُهُ». هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَضَى لِلْغَنِيِّ بِصِفَاتٍ أُخْرَى^(١).
وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَالِمٍ الْجَيْشَانِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ فِيمَا أَخْرَجَهُ مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ الرُّوْيَانِيُّ فِي «مُسْنَدِهِ»، وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ فِي «فَتْوحِ مِصْرَ» وَمُحَمَّدُ بْنُ رَيْبَعٍ الْجِزْيِيُّ فِي «مُسْنَدِ الصَّحَابَةِ» الَّذِينَ نَزَلُوا مِصْرًا مَا يُؤْخَذُ مِنْهُ تَسْمِيَةُ الْمَارِّ الثَّانِي وَلَفْظُهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كَيْفَ تَرَى جُعِيلًا؟ قُلْتُ: مُسْكِينًا كَشْكَلِهِ مِنَ النَّاسِ. قَالَ: فَكَيْفَ تَرَى فَلَانًا؟ قُلْتُ: سَيِّدًا مِنَ السَّادَاتِ. قَالَ: «فَجُعِيلٌ خَيْرٌ مِنْ مَلَأِ الْأَرْضِ مِنْ مِثْلِ هَذَا». قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَفُلَانٌ هَكَذَا وَتَصْنَعُ بِهِ مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: «إِنَّهُ رَأْسُ قَوْمِهِ فَأَتَأَلَّفُهُمْ».

وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي الْمَغَازِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التِّيمِيِّ مَرْسَلًا أَوْ مَعْضَلًا قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُعْطِيَتْ عُيَيْنَةٌ وَالْأَقْرَعُ مَائَةَ الْمَائَةِ وَتَرَكْتُ جُعِيلًا؟! قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَجُعِيلٌ بْنُ سَرَاقَةَ خَيْرٌ مِنْ طَلَاعِ الْأَرْضِ مِثْلِ عُيَيْنَةٍ وَالْأَقْرَعِ، وَلَكِنِّي أَتَأَلَّفُهُمَا وَأَكُلُ جُعِيلًا إِلَى إِيَابَانِهِ». وَلَجُعِيلُ الْمَذْكُورُ ذَكَرَ فِي حَدِيثِ أَخِيهِ عَوْفِ بْنِ سَرَاقَةَ فِي غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَفِي حَدِيثِ الْعَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَقِيلَ فِيهِ: جِعَالٌ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ وَتَخْفِيفِ ثَانِيهِ، وَلَعَلَّهُ صُغْرٌ، وَقِيلَ: بَلْ هُمَا أَخَوَانِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: بَيَانُ فَضْلِ جُعِيلِ الْمَذْكُورِ، وَأَنَّ السِّيَادَةَ بِمَجْدِدِ الدُّنْيَا لَا آثَرَ لَهَا، وَإِنَّمَا الْإِعْتِبَارُ فِي ذَلِكَ بِالْآخِرَةِ كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ، وَأَنَّ الَّذِي يَفُوتُهُ الْحَظُّ مِنَ الدُّنْيَا يُعَاضُ عَنْهُ بِحَسَنَةِ الْآخِرَةِ، فَفِيهِ فَضِيلَةُ الْفَقِيرِ كَمَا تَرَجَّمَ بِهِ، لَكِنْ لَا حُجَّةَ فِيهِ لِتَفْضِيلِ الْفَقِيرِ عَلَى الْغَنِيِّ، كَمَا قَالَ ابْنُ بَطَالٍ: بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ فَضَّلَ عَلَيْهِ لِفَقْرِهِ فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ: خَيْرٌ مَنْ مَلَأَ الْأَرْضَ مِثْلَهُ لَا فَقِيرَ فِيهِمْ، وَأَنْ كَانَ لِفَضْلِهِ فَلَا حُجَّةَ فِيهِ.

قُلْتُ: يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَلْتَزِمُوا الْأَوَّلَ وَالْحَيْثِيَّةَ مَرْعِيَّةً، لَكِنْ تَبَيَّنَ مِنْ سِيَاقِ طَرِيقِ الْقِصَّةِ أَنَّ جِهَةَ تَفْضِيلِهِ إِنَّمَا هِيَ لِفَضْلِهِ بِالتَّقْوَى وَلَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ مَفْرُوضَةً فِي فَقِيرٍ مَتَّقٍ وَغَيْرٍ مَتَّقٍ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ اسْتَوَائِهِمَا أَوْ لَا فِي التَّقْوَى.

(١) مَا بَيْنَ الْمُعَقَّوفِينَ مِنْ كَلَامِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ عَثِيمِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وأيضاً فما في الترجمة تصريحٌ بتفضيلِ الفقرِ على الغنيِّ، إذ لا يلزمُ من ثبوتِ فضيلةِ الفقرِ أفضليتهُ، وكذلك لا يلزمُ من ثبوتِ أفضليةِ فقيرٍ على غنيٍّ، أفضليةُ كلِّ فقيرٍ على كلِّ غنيٍّ^(١). اهـ



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٤٨ - حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ قَالَ: عَدْنَا حَبَابًا فَقَالَ: هَاجَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تَرْيِدُ وَجْهَ اللَّهِ، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْخُذْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ نَمْرَةً فَإِذَا غَطَّيْنَا رَأْسَهُ بَدَّتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نُغَطِّيَ رَأْسَهُ، وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ مِنَ الْإِذْخِرِ، وَمِمَّا مَنْ آتَنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِيهَا^(٢).

اللَّهُ أكبر هذا هو حال الصحابة رضي الله عنهم هاجروا مع النبي ﷺ يريدون وجه الله.

منهم من مضى ولم يأخذ من أجره شيئاً؛ يعني: لم يأخذ من الغنائم شيئاً وعوضاً عن هجرته، مثل: مصعب بن عمير رضي الله عنه، وكان صاحب الراية في غزوة أُحُدٍ، وكان شاباً مدللاً بين أبويه في مكة، فلما أسلم طرده أبواه، فهاجر مع النبي ﷺ، وكان يلبس قميصاً مرقعاً، مع أنه كان في مكة يلبس أحسن الثياب التي يلبسها الناس، وذلك قبل أن يسلم، ففَضَّلَ ﷺ ترك أهله، ودله، وبلده، هجرةً إلى الله ورسوله، وكان جزاؤه أن الله ﷻ اختار له الشهادة، فقتل في أُحُدٍ شهيداً، وأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٣) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ [التوبة: ١٦٩-١٧١].

ومن الصحابة من عَمَّر. وأذكرك الهال ووفرته وصار يهدب هذه الثمرة؛ أي: يُجنيها. والله أعلم بالحال هل الأفضل فيهم من لم يأخذ من أجره الدنيوي شيئاً مثل مُصْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ، أو الآخر.

(١) انظر: «الفتح» (١/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٩٤٠).

وهذا الحديث أيضًا لا يدلُّ على فضلِ الفقرِ؛ لأنَّ الفقرَ شيءٌ يبتلي به الله العبدَ، ولكن الصبرَ على الفقرِ هو الذي فيه الفضلُ؛ لأنه من كسبِ العبدِ، وكم من إنسانٍ حرصَ حرصًا عظيمًا على المالِ ولم يُدرِكْه، وكم من إنسانٍ تسبَّبَ بأسبابٍ ضئيلةٍ فأدركَ المالَ، وكم من إنسانٍ لم يتسبَّبَ فجاءه المالُ.

وهذا شيءٌ مشاهدٌ، فمن الناسِ من يكونُ ذكيًا جيدًا في اكتسابِ المالِ، ولكنه لا يربحُ بل كلما اشترى شيئًا خسرَ.

ومن الناسِ من يكونُ سببه ضعيفًا ولكنه يحصلُ على خيرٍ كثيرٍ، وكلما اشترى سلعةً ارتفعت قيمتها فباع ما اشتراه بأضعافه مثلاً، فهذا يغني في وقتٍ قصيرٍ. ومن الناسِ من يأتيه المالُ بلا سببٍ؛ مثلُ أن يموتَ له قريبٌ غنيٌّ، فيرثَ المالَ من بعده فيُصبحَ غنيًا.

فالفقرُ ليس من كسبِ العبدِ حتى يُقالَ: إن الإنسانَ يُثابُّ عليه، بل هو يُثابُّ على الصبرِ على الفقرِ، وحينئذٍ تأتي المسألةُ: هل الأفضلُ الفقيرُ الصابرُ أم الغنيُّ الشاكرُ؟



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٤٩ - حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا سَلْمُ بْنُ زَرْبِرٍ، حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَأَطْلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ» ^(١). تَابِعَهُ أَيُّوبُ وَعَوْفٌ، وَقَالَ صَخْرٌ وَحَمَّادُ بْنُ نَجِيحٍ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

في هذا الحديث من الفوائد:

أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ موجودتانِ الآنَ، وهو كذلك، كما دلَّ عليه القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنْقُضُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ^(٢) [التكوير: ١٣١]. وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ^(٣) [التكوير: ١٣٣].

❖ وقوله: «رأيت أكثر أهلها الفقراء». لأن الفقراء أكثر انقيادًا من الأغنياء إلى الحق، وليس هذا لفقيرهم، فإن الغني الشاكر قد يكون أفضل من الفقير الصابر، لكن من أجل أن الفقراء أكثر انقيادًا للحق من الأغنياء ولهذا تجد في القرآن أن الذين يكذبون الرسل هم الملائكة قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٦٦]. و﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا﴾ [الأعراف: ٧٥]. وما أشبه ذلك، فهذا هو وجه كونه أكثر أهل الجنة الفقراء.

أما السبب في أن أكثر أهل النار النساء فينبه الرسول ﷺ في حديث آخر: «بأنهن يكثرن اللعن، ويكفرن العشير»^(١). و«أنهن ناقصات عقل»^(٢). وهن أسباب الفتنة، كما قال النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»^(٣). فلهذا كن أكثر أهل النار. فإن قال قائل: كيف رآهم النبي ﷺ في الجنة والنار وهم ما دخلوها بعد؟
فالجواب: من الممكن أن يقال: كُشف له ﷺ عن المستقبل.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٥٠ - حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ، وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ.

٦٤٥١ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَقَدْ تَوَفَّى النَّبِيُّ ﷺ وَمَا فِي رَفِيٍّ مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فِكَلْتُهُ، فَقَفَنِي^(١).

❖ قوله: «لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ». الخوان هو شيء مرتفع يُوضَع عليه الطعام؛ حتى لا يَطَّأ طِئُ الأكل رأسه عند الأكل، والمعني أن النبي ﷺ لم يكن يأكل أكل المترفين، وأنه لم تفتح له الدنيا حتى وصل إلى هذا الحال.

(١) أخرجه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٧٣).

وقوله: «وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ». الخبزُ المرقَّقُ هو الذي يُجعلُ فيه الإدامُ من اللحم وغيره، من الأشياء التي تَرْقِّقُه حتى يَكُونُ لِينًا، أو أنه خبزٌ مرقَّقٌ بسببِ كَيْفِيَةِ خَبْزِهِ؛ لأنه قد يَكُونُ الخبزُ جافًا، وقد يَكُونُ لِينًا، فإِذَا أَن يَكُونُ مَرَقَّقًا بِنَا يَجْعَلُ مَعَهُ مِنَ الْأَدَمِ، أو مَرَقَّقًا بِمَا هُوَ فِي كَيْفِيَةِ صَنْعِهِ، فَإِنِ الْخَبْزُ يَكُونُ لِينًا رَطْبًا كَأَنَّهُ الْقَطَنُ.

وأما قول عائشة: «فَكَلَّتُهُ فَنَفِي». ففيه دليلٌ على أن الإنسانَ إِذَا كَالَ الشَّيْءَ، وَصَارَ يُلَاحِظُ هَلْ نَقَصَ أَوْ زَادَ، فَإِنَّهُ بِرَكَتِهِ تُنَزَّعُ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ: «لَا تُوعِي فَيُوعِي اللَّهُ عَلَيْكَ»؛ أَي: لَا تَقْدَّرِي الْأَشْيَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ يُوعِي عَلَيْكَ؛ أَي: أَنَّهُ يُعَامِلُكَ بِحَسَبِ مَا تُقَدِّرِينَ. فَإِذَا جَعَلَ الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ مُوَكَّوْلًا إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَصَارَ يَأْكُلُ مِنْهُ حَتَّى يَفْنَى صَارَ هَذَا أَبْرَكَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٧ - بَابُ كَيْفَ كَانَ عَيْشُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَتَخْلِيهِمْ عَنِ الدُّنْيَا.

٦٤٥٢ - حَدَّثَنِي أَبُو نُعَيْمٍ يَنْحُو مِنْ يَصِفُ هَذَا الْحَدِيثِ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ ذَرٍّ، حَدَّثَنَا مُجَاهِدٌ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَفْيِ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يُخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِشِبَعِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِى عُمَرُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِشِبَعِي، فَمَرَّ فَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِى أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَى، وَعَرَفَ، مَا فِى نَفْسِي وَمَا فِى وَجْهِى، ثُمَّ قَالَ: «أَبَا هُرٍّ». قُلْتُ: لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الْحَقُّ». وَمَضَى فَتَبِعْتُهُ، فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِى، فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَنًا فِى قَدَحٍ، فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ». قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ. قَالَ: «أَبَا هُرٍّ». قُلْتُ: لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصَّفَةِ فَادْعُهُمْ لِى». قَالَ: وَأَهْلُ الصَّفَةِ أَصْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ إِلَى أَهْلِ وَلَا مَالٍ، وَلَا عَلَى أَحَدٍ، إِذَا آتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا آتَتْهُ هِدْيَةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، فَسَأَلَنِي ذَلِكَ فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصَّفَةِ كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنِي فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، بَدُّ، فَاتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ فَأَقْبَلُوا، فَاسْتَأْذَنُوا فَادْنِ لَهُمْ، وَأَخَذُوا

مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ قَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرٍ». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «خُذْ فَأَعْطِهِمْ». قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَى الْقَدَحِ، فَأَعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَى الْقَدَحِ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَى الْقَدَحِ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوَى الْقَوْمُ كُلَّهُمْ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ فَقَالَ: «يَا هُرَيْرٌ». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ». قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «اقْعُدْ فَاشْرَبْ». فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ. فَقَالَ: «اشْرَبْ». فَشَرِبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: «اشْرَبْ». حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا. قَالَ: «فَارِنِي». فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ فَحَمِدَ اللَّهُ وَاسْمَى، وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ.

اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد، حديث أبي هريرة هذا فيه فوائد عظيمة:
أولاً: قوله: «اللَّهُ». هذا قسم، فالهمزة الممدودة بدل عن الواو، كما أن حرف القسم يُبدل أحياناً بهاء، فيقال: هالـلـه. فحروف القسم الأصلية ثلاثة: الواو، والباء، والتاء، لكن قد يُبدل عنها حروف فرعية وهي: هاء، والهمزة الممدودة، فيقول: اللـه. وهذا غير همزة الاستفهام.
 ❖ فقولُه هنا: «اللَّهُ الذي لا إله إلا هو إِنْ كُنْتَ لِأَعْتَمِدُ». هذا قسم، والمقسم عليه قوله: «إِنْ كُنْتَ لِأَعْتَمِدُ». و«إِنْ» هنا مخففة من الثقلية، واسمها محذوف ضمير الشأن، وجملة كنت خبرها، واللام في قوله: لِأَعْتَمِدُ. لام التوكيد، وهي في هذا الموضع لازمة؛ لأنها فارقة بين إِنْ النافية وإِنْ المؤكدة، إذ لو حذفت لالتبسَتْ «إِنْ» النافية بـ«إِنْ» المؤكدة، فلو قال: إِنْ كُنْتَ أَعْتَمِدُ. لأشبه أن تكون: ما كنت أَعْتَمِدُ فاللام هذه للتوكيد، وهي لام واجبة؛ لأنها فارقة بين: «إِنْ» المؤكدة و«إِنْ» النافية، وهي لازمة إلا ظهر المعنى بدونها فتكون غير لازمة.
 ❖ قوله: «إِنْ كُنْتَ لِأَعْتَمِدُ بكبدي على الأرض من الجوع». يعني: ينبطح من الجوع ليخفَّ عليه.

❖ وقوله: «وأشدُّ الحجر على بطني من الجوع». ذلك لأنه إذا شدَّ الحجر على بطنه اعتمد واستقام أكثر.

❖ وقوله: «ولقد قعدت يوماً على طريقهم»؛ أي: على طريق الصحابة رضي الله عنهم، أو على طريق الناس الذي يخرجون منه.

❖ قَالَ: «فمرَّ أبو بكرٍ، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألتُهُ إلا لِيُشْعِنِي». وفي لفظٍ: لِيَسْتَبْعِنِي؛ يعني: لأجلِ أن يُضَيِّقَهُ لكنَّ أبا بكرٍ لم يُفَكِّرْ في هذا الأمرِ، وما ظنَّ أنه يُريدُ هذا.

❖ قَالَ: «ثم مرَّ عمر رضي الله عنه، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألتُهُ إلا لِيُشْعِنِي أو لِيَسْتَبْعِنِي، فمرَّ فلم يفعل».

فإن قال قائلٌ: في هذا إشكالٌ وهو: إن أبا هريرة سألهم عن آية من كتاب الله، وهذا يؤهمُّ أنه يُريدُ حفظَ كتابِ الله، وهو لا يُريدُ إلا الأكلَ، فهل يكونُ هذا من بابِ إرادة الدنيا بعملِ الآخرة؟

فالجواب: لا؛ لأن الرجلَ ما قرأ، فلو قرأ من أجلِ أن يُقالَ له: تفضَّل ويَضَيِّفَ، كما يفعلُ بعضُ القراءِ في المسجدِ الحرامِ - وقد قلُّوا الآنَ والحمدُ لله - يَقْرَأُونَ القرآنَ بأصواتٍ عالية، من أجلِ أن يستمعَ الناسُ إليهم فيعطونهم مالًا، فهؤلاء ليس لهم في الآخرة من خلاقٍ، لكنَّ أبا هريرة رضي الله عنه ما قرأ شيئًا بل قالَ مثلاً: أخبرني عن آية كذا، أخبروني عن آية كذا فيخبرهُ المستول ظنًا منه أنه قد نسيها ويحتاجُ إلى تذكُّرها.

❖ يقولُ: «ثم مرَّ بي أبو القاسم عليه السلام». وقوله: أبو القاسم فيها إشكالٌ أيضًا وهو: أن الله نهى أن يُدعى الرَّسُولُ عليه السلام كما يُدعى الناسُ، بل يُقالُ: «يا رسولَ الله»، يا نبي الله». وهنا قالَ: مرَّ بي أبو القاسم.

والجوابُ على هذا أن يُقالَ: إنَّ الخبرَ غيرُ الطلبِ، والمنهَى عنه هو أن تقولَ: يا أبا القاسم، يا محمد. وأمَّا الخبرُ فلا بأسَ به.

وفي هذا الحديثُ: دليلٌ على ما أشارَ إليه البخاري رحمته الله في بيانِ كيف كانَ عيشُ النبي ﷺ وأصحابِهِ، وتخليهِم عن الدنيا.

وفيه من الفوائد:

بيانُ حالِ أبي هريرة رضي الله عنه، وما كانَ عليه من قلةِ ذاتِ اليدِ، وأنَّه بلغَ به الفقرُ إلى هذا الحدِّ.

وفيه: دليلٌ على جوازِ التعريضِ، يؤخِّدُ ذلكَ من جلوسِهِ في الطريقِ، وطلبِهِ أن يُفتحَ عليه في الآياتِ، مع أنَّه لا يجهلُ الآيةَ، لكن من أجلِ أن يَسْتَبْعِنَهُ حَتَّى يُشْعِنَهُ.

وفيه: بيانُ فِرَاسَةِ النبي ﷺ، وذلكَ أنَّه من حينِ رَأَى أبا هريرةَ فعرفَ ما في نفسِهِ وما في وجهِهِ.

وفيه: دليلٌ على مشروعية الاستئذان، حتى وإن كان الإنسان مع الشخص، يعزني: لو أنك أتيت أنت وصاحبك إلى بيته ودخل إلى البيت، ولم يقل لك: ادخل. فإنك لا تدخل عليه إلا بعد استئذان، ولهذا قال: فدخل فاستأذنت، وفي النسخة التي معي: فاستأذن ولكن هذه الظاهر أنها غلط؛ لأن فاستأذن وفي نسخة ثالثة فاستأذنت وهاتان النسختان أقرب إلى الصواب؛ لأن هناك نسخة كون الرسول ﷺ يستأذن مع أن البيت بيته فيه بعد، وإن كان الإنسان ينبغي له أن يستأذن فربما يكون أهله على حال لا يحبون أن يطالع عليها، لكن الأقرب أنها: فاستأذن. أو فاستأذنت.

وفيه: دليلٌ على بركة الطعام عند رسول الله ﷺ. حيث بارك الله في هذا اللبن. **وفيه:** الإشارة إلى حال أهل الصفة، وأنهم قومٌ هاجروا إلى المدينة، ولم يكن لهم أحد يأوون إليه، فجعل لهم النبي ﷺ صفة في المسجد أو قريباً منه، يأوون إليها ويهدى إليهم الطعام واللبن وغير ذلك. وقد زعم بعض الناس أن الصوفية نسبة إليهم، فقالوا: الصوفية نسبة إلى أهل الصفة الجامع بينهما الزهد.

ولكن هذا ليس بصحيح، والصحيح أن الصوفية نسبة إلى الصوف؛ لأنهم كانوا يلبسون الصوف ترهّداً، ولو كان ذلك نسبة إلى الصفة لقال: الصّفيّة. لا الصوفية. **في هذا الحديث:** دليلٌ على إطلاق القول على ما في النفس، حيث قال أبو هريرة: فقلت وما هذا اللبن. فإن الظاهر أنه قال هذا في نفسه، ولكن المعروف في اللغة أنه إذا أريد بالقول حديث النفس قيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ [الجن: ٨]. مع أن فيه احتمالاً أن أبا هريرة قالها نطقاً، وإن لم يسمع النبي ﷺ.

وفيه: ما كان عليه الصحابة من طاعة الله ورسوله، حيث إن أبا هريرة سَمِعَ وأطاع بدعوة أهل الصفة، مع أن اللبن كان قليلاً وكان في نظره لا يكفي.

وفيه أيضاً: دليلٌ على جواز ملء الإنسان بطنه؛ لقول أبي هريرة: ما أجِدُّ له مسلَكًا. ولكن هذا لا ينبغي دائماً فالشَّرهونَ كلما أكلوا قالوا: إن أبا هريرة قال: لا أجِدُّ له مسلَكًا. وجعلوا هذه حالاً دائمة. ويقولون: عندنا حديثاً أقره النبي ﷺ ولكن نقول: إن الصّحة والعافية والنشاط تكمن فيما أرشد إليه النبي ﷺ في قوله: «حَسْبُ ابْنِ آدَمَ

لُقِيَاتٍ يُقْمَنَ صَلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مُحَالَاةَ فَنُلْكَ لِطَعَامِهِ، وَنُلْكَ لِشَرَابِهِ، وَنُلْكَ لِنَفْسِهِ^(١). وهذا هو الذي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ حَالُ الْمَرْءِ عَلَيْهِ الدَّائِمُ أَوْ الْغَالِبُ، لَكِنْ لَا بَأْسَ أَنْ يَمْلَأَ بَطْنُهُ أَحْيَانًا، كَمَا فَعَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَأَقْرَهَا النَّبِيُّ ﷺ.

وفيه: دليل على تواضع النبي ﷺ؛ حيث كان آخر القوم شربًا، حتى بعد أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وفي الحديث: فحَمَدَ اللَّهُ وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ. وهذا الحمد ليس حمدًا على شربه بل هو حمدٌ على ما حصلَ مِنَ الْبَرَكَةِ لِهَذَا اللَّبَنِ، حَيْثُ أَرَوَى أَهْلَ الصُّفَّةِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ، وَبَقِيَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَمْدَ عَلَى الْأَكْلِ أَوْ الشَّرْبِ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَهُ.

وفيه: دليل على مشروعية التسمية. أي: أن يقول: بِاسْمِ اللَّهِ. وإن زادَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ. فلا حرج، وإن اقتصرَ على: بِاسْمِ اللَّهِ. حصلتَ بِذَلِكَ السُّنَّةُ، وَالتَّسْمِيَةُ عَلَى الْأَكْلِ مَشْرُوعَةٌ بِالِاتِّفَاقِ؛ إِنَّمَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلْ هِيَ وَاجِبَةٌ أَمْ لَا؟

وَالصَّحِيحُ: أَنَّهَا وَاجِبَةٌ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَعَمَّدَ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ عَلَى الْأَكْلِ فَهُوَ آثِمٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: «يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ». وَقَالَ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لَا نَدْرِي أَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا؟ قَالَ: «سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا»، وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ لَمْ يُسَمِّ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُشَارِكُهُ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، فَكُلْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّسْمِيَةَ عَلَى الْأَكْلِ وَاجِبَةٌ. وَلَكِنْ إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً فَهَلْ تَكْفِي تَسْمِيَةُ أَحَدِهِمْ، أَوْ لَا بَدَّ أَنْ يُسَمِّيَ كُلُّ وَاحِدٍ؟

نقول: إِذَا سَمِعُوا تَسْمِيَتَهُ وَاسْتَمَعُوا لَهَا فَإِنْ ذَلِكَ كَافٍ، حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَنْوُهَا هُوَ عَنِ الْجَمِيعِ، وَإِمَّا إِذَا لَمْ يَسْمَعُوهَا، أَوْ لَمْ يَسْتَمِعُوهَا؛ أَيْ: لَمْ يَعْتَقِدُوا أَنَّهَا عَنْهُمْ جَمِيعًا، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ بَعْدَ أَنْ سَمِيَ الْأَوَّلُ، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يُسَمِّيَ^(٢)، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى طَعَامٍ، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ تَجْرِي كَأَنَّهَا تُدْفَعُ دَفْعًا، حَتَّى وَضَعَتْ يَدَهَا فِي الْإِنَاءِ، فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهَا، وَأَمَرَهَا أَنْ تُسَمِّيَ اللَّهَ، وَأَخْبَرَ أَنَّ يَدَ الشَّيْطَانِ مَعَ يَدِهَا فِي يَدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦٧٦٩)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وابن حبان (٥٢٣٦).

(٢) قال الشيخ رحمه الله: وإن قال قائل: إن النبي ﷺ أمر عمر بن أبي سلمة بقوله: «يا غلام سمِّ»، وهذا مع أنه ﷺ سمِّي في أول أكله، فما وجه الرد على هذا مع القول بأن التسمية من الواحد تكفي عن الجماعة؟ فالجواب: ربما أنه لم يسمع، والدليل على أن الواحد يكفي عن الجماعة قد جاءت به السنة، ولا يحضرني الآن، وقد يقال: إن هذا كإلقاء السلام، فإن فيه أن الواحد يكفي عن الجماعة.

قد دَفَعَهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَأْكُلَ فِي هَذَا الطَّعَامِ بِلَا تَسْمِيَةٍ حَتَّى يُشَارِكَ فِيهِ.

فَالصَّحِيحُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ التَّسْمِيَةَ عَلَى الْأَكْلِ وَاجِبَةٌ، وَإِنْ نَسِيَ أَنْ يُسَمِّيَ فِي أَوَّلِهِ ثُمَّ ذَكَرَ فِي أَثْنَائِهِ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ ^(١). وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٥٣ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا قَيْسٌ قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدًا يَقُولُ: إِنِّي لِأَوَّلِ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَأَيْتُنَا نَغْزُو، وَمَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحَبْلَةِ وَهَذَا السَّمُرُ، وَإِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ، مَا لَهُ خِلْطٌ، ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تُعْزِّرُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ، خَبْتُ إِذَا وَضَلَ سَعْيِي ^(٢).

هَذَا الْحَدِيثُ أَيْضًا: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا فِي شِدَّةٍ وَفِي ضَيْقٍ مِنَ الْعَيْشِ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحَبْلَةِ، وَأُظُنُّ أَنَّ الْحَبْلَةَ نَوْعٌ مِنَ الْأَشْجَارِ الْبَرِّيَّةِ وَهَذَا السَّمُرُ.

يقول: «وَإِنَّ أَحَدَنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ». المعنى: أَنَّ الْبَرَّازَ الَّذِي كَانَ يَخْرُجُ مِنْهُ كَانَ كَبْرَازِ الشَّاةِ أَخْضَرَ لَيْسَ فِيهِ خِلْطٌ مِنَ طَعَامٍ.

قوله: «ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ تُعْزِّرُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ».

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ»:

قوله: «ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَنُو أَسَدٍ». أي: ابْنُ خُزَيْمَةَ بْنِ مَدْرَكَةَ بْنِ إِيَّاسِ بْنِ مُضَرَ، وَبَنُو أَسَدٍ هُمْ إِخْوَةُ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ جَدِّ قُرَيْشٍ، وَبَنُو أَسَدٍ كَانُوا فِي مَنَازِلٍ أَرْتَدَّ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَبِعُوا طُلْحِيَّةَ بْنَ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيَّ لَمَّا ادَّعَى النَّبُوَّةَ ثُمَّ قَتَلَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ وَكَسَرَهُمْ، وَرَجَعَ بِقَبَائِلِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَتَابَ طُلْحِيَّةٌ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَسَكَنَ مَعْظَمُهُمُ الْكُوفَةَ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ كَانُوا مِنْ شُكَاةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَهُوَ أَمِيرُ الْكُوفَةِ إِلَى عَمْرِو حَتَّى عَزَلَهُ، وَقَالُوا فِي جَلَّةٍ مَا شَكُوهُ إِنَّهُ لَا يُحْسِنُ الصَّلَاةَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ وَاضِحًا فِي بَابِ

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (٦٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٦).

وجوب القراءة على الإمام والمأموم من أبواب صفة الصلاة، وبيّنت أسماء من كان منهم من بني أسد المذكورين.

وأغرب النووي فقل عن بعض العلماء أن مراد سعيد بقوله: فأصبحت بنو أسد. بنو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي. وفيه نظر؛ لأنّ القصّة إن كانت هي التي وقعت في عهد عمر فلم يكن للزبير إذ ذاك بنون يصفهم سعد بذلك، ولا يشكو منهم، فإنّ آباهم الزبير كان إذ ذاك موجوداً وهو صديق سعيد، وإن كانت بعد ذلك فيحتاج إلى بيان^(١). اهـ

❦ قوله: «تعزرنى على الإسلام». أي: في الإسلام، وتعزيرهم إياه هو إتهامهم له أنه لا يحسن الصلاة، ولا يقسم بالسوية، ولا يخرج بالسرية.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٥٤ - حَدَّثَنِي عُثْمَانُ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْأَسْوَدِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا شَبِعَ آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامٍ بَرٍّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعًا حَتَّى قُبِضَ^(١).

٦٤٥٥ - حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ -هُوَ الْأَزْرُقُ-، عَنْ مِسْعَرِ بْنِ كِدَامٍ، عَنْ هِلَالِ الْوَزَانِ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا أَكَلَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَكْلَتَيْنِ فِي يَوْمٍ، إِلَّا إِحْدَاهُمَا تَمُرٌّ.

❦ قوله: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام برٍّ». فيه دليل على أنّ البرّ في ذلك الوقت عزيز، وأنّه من الأَطْعَمَةِ التي يَنْدُرُ الحصول عليها، وهو كذلك، فإنّ البرّ في عهد النبي ﷺ كان قليلاً ولم يكثر إلّا بعد الفتوحات في زمن معاوية ومن بعده؛ يعنّي: لم يكثر في المدينة إلّا بعد ذلك.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٥٦ - حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ أَبِي رَجَاءٍ، حَدَّثَنَا النَّضْرُ، عَنْ هِشَامٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ

(١) انظر: «الفتح» (١١/ ٢٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٧٠).

عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ آدَمَ، وَحَشْوُهُ مِنْ لَيْفٍ^(١).

الآدم: الجلود.

وقولها: «وَحَشْوُهُ مِنْ لَيْفٍ». الليفُ وإن كَانَ أَلَيْنَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا أَنَّهُ لَا شَكَّ فِيهِ خَشُونَةٌ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٥٧ - حَدَّثَنَا هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا هَمَامُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ قَالَ: كُنَّا نَأْتِي أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَخَبَّازُهُ قَائِمٌ وَقَالَ: كُلُوا فَمَا أَغْلَمَ النَّبِيُّ ﷺ رَأَى رَغِيْفًا مُرَقَّقًا، حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ، وَلَا رَأَى شَاةً سَمِيْطًا بِعَيْنِهِ قَطُّ.

٦٤٥٨ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ يَأْتِي عَلَيْنَا الشَّهْرُ مَا نُوْقِدُ فِيهِ نَارًا، إِنَّمَا هُوَ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنْ نُؤْتَى بِاللُّحْمِ^(١).

٦٤٥٩ - حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَوْسِيُّ، حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُوْمَانَ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: ابْنُ أَخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَلَاكِ ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوْقِدَتْ فِي آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ. فَقُلْتُ: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ لَهُمْ مَنَاحِيْجُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ آيَاتِهِمْ، فَيَسْقِيْنَاهُ^(١).

٦٤٦٠ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضِيلٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُمَارَةَ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا»^(١).

قوله ﷺ في الحديث الأخير: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا».

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا». هكذا وقع هنا، وفي رواية الأعمش عن عمارَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا» وَهُوَ الْمَعْتَمَدُ، فَإِنَّ

(١) أخرجه مسلم (٢٠٨٢).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٤) أخرجه مسلم (١٠٥٥).

اللفظ الأول صالحاً لأن يكون دعاءً بطلبِ القوتِ في ذلك اليوم، وأن يكونَ طلبَ لهمِ القوتَ، بخلافِ اللفظِ الثاني فإنه يعينُ الاحتمالَ الثاني وهو الدال على الكفافِ.

وقد تقدم تقرير ذلك في الباب الذي قبله، وعلى ذلك شرح ابن بطالٍ وقال: فيه دليلٌ على فضل الكفافِ، وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك، رغبةً في توفير نعيم الآخرة، وإثارة لما يبقى على ما يفنى، فينبغي أن تقتضي به أمته في ذلك.

وقال القرطبي: معنى الحديث أنه طلب الكفافِ، فإنَّ القوتَ ما يقوتَ البدنَ ويكفُّ عن الحاجة، وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً والله أعلم. اهـ. صحيح أنه إذا كان الرزق قوتاً يكفي، يعني: لا يحتاج الإنسان فيه إلى أحد، وليس عنده مال كثير ينسيه الآخرة، فإنه يسلم من طغيان الغنى وذل الفقر، ولهذا دعى النبي ﷺ ربّه أن يجعل رزق آل محمد قوتاً؛ يعني لا ينقص عن الحاجة، ولا يزيد عليها.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٨ - بَابُ الْقَصْدِ وَالْمَدَامَةِ عَلَى الْعَمَلِ.

٦٤٦١ - حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنَا أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَشْعَثَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ مُسْرُوقًا قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَيُّ الْعَمَلِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: الدَّائِمُ. قَالَ: قُلْتُ فَأَيَّ حِينٍ كَانَ يَقُومُ قَالَتْ: كَانَ يَقُومُ إِذَا سَمِعَ الصَّارِخَ^(١).

قولها: «الصارخ». يعني: الديك، وغالب الديكة يكون لها توقيت منفصل، فإذا أقبل نصف الليل الآخر بدأت تؤذن شتاءً وصيفاً، حتى إنَّ الناس فيما سبق حين كانت الساعات قليلة ونادرة كانوا يستغنون بها عن الساعات وكانت توقّت توقيتاً منضبطاً، فكان النبي ﷺ إذا سمع الصارخ قام ﷺ؛ لأنه لم يكن هناك ساعات في ذلك الوقت. وفي هذا الحديث: دليل على استحباب الإدامة على العمل الصالح؛ لأن ذلك يدل على رغبة الإنسان في العمل، أما الإنسان الذي لا يدوم فإن هذا يدل على فتوره وكسله.

لكن إذا انتقل من عملٍ إلى عملٍ يرى أنه أفضل فإن هذا من المداومة؛ يعني: إذا كان

من عادته أن يصوم يوماً بعد يوم ثم طرأ عليه ما يقتضي أن يفطر هذا اليوم لغرض شرعي، فإن هذا لا يقال: إنه ترك المداومة؛ لأنه انتقل إلى عمل أفضل منه، ولهذا كان النبي ﷺ يصوم وهو الذي يحب أن يداوم العمل - حتى إنه لما قضى سنة الظهر الراتبه بعد العصر استمر عليها - ومع ذلك نجده أحياناً يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم. وكذلك في القيام يقوم حتى يقال: لا ينأ. وينأ حتى يقال: لا يقوم. وهكذا؛ أي: أنه يتبع ما هو أصلح.

فلا تظن أن معني المداومة أن تدأوم على العمل بعينه - هذا صحيح أنه نوع من المداومة - لكن إذا تركت هذا العمل بعينه لعمل آخر مثله، أو فضل منه، فإنك تعتبر مداوماً.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٦٢ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ^(١).

قوله: «أحب العمل إلى رسول الله»؛ يعني: من جنسه، وإنه لمن المعلوم أن الإنسان لو داوم على النافلة ما صارت أحب إلى الله من الفريضة، كما جاء في الحديث القدسي أن الله قال: «ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضه عليه»^(٢). فقصدوا العمل من هذا الجنس.

فمثلاً: رجل يصلي الضحى ويتركها، وآخر يصليها ويدأوم عليها بمقتضى النصوص عنده، نقول: الثاني أحب إلى الله.

وكذلك إنسان يدأوم على راتبه الظهر، وآخر لا يدأوم عليها نقول: الأول أحب إلى الله.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٦٣ - حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي ذَثْبٍ، عَنْ سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «وَلَا أَنَا».

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدُّوْا وَقَارِبُوا، وَاعْدُوا وَرَوْحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدَّلْجَةِ. وَالْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا»^(١).

هذا الحديث فيه: أن العمل لا ينجي من النار، ولكن يشكل عليه نصوص أخرى تدل على أن العمل سبب للنجاة من النار، والجمع بينهما أن نقول:

❖ إن قوله: «لا ينجي أحدا منكم عمله». على سبيل المعاوضة، وأما قوله: ﴿جَزَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أن العمل سبب، فإن العمل مجرد سبب لا أنه عوض؛ لأنه لو وجدت المعاوضة لكانت نعمة واحدة من الله على الإنسان في الدنيا تُعَادِلُ جميع الأعمال، فلو أننا أردنا المعاوضة وأتينا بإنسان وقلنا له: كم عملت؟ قال: عملت كذا. وكذا، وكذا، لقلنا: كم الله عليك من نعم لا تحصى؟

فلو أريد المعاوضة لكانت نعمة واحدة في الدنيا تُعَادِلُ جميع العمل.
لكن نقول: إن العمل سبب، والسبب لا يُشترط فيه أن يكون مكافئاً للمسبب، فعمل الإنسان سبب للنجاة من النار ودخول الجنة، ولكنه ليس هو العوض.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٦٤ - حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَدُّوْا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنْ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ قَلَّ»^(٢).

هذا الحديث في لفظه بعض الركافة، وهذا بلا شك أنه من الراوي.
❖ قوله: «سَدُّوْا وَقَارِبُوا». التسديدُ معناه الإصابة؛ والمقاربة؛ أي: المقاربة من الصواب؛ يعني: اتوا بالعمل على أكمله إذا أمكن، أو قاربوا إذا لم يُمكن؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [النساء: ١٦]. وقوله: «وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنْ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا إِلَى اللَّهِ وَإِنْ قَلَّ» صواب اللفظ: وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٨).

وإن قلَّ، ولكنه هنا فصل بين العامل والمعمول، ولكن الألفاظ الأخرى تُبيِّن أن هذا اللفظ فيه شيءٌ من الاضطراب، لكنه لا يضرُّ ما دام المخرج واحدًا، فإنه يُحمَلُ على اللفظ الذي ليس فيه إشكالٌ.

❖ **والحديث الأول فيه فائدة، وهي قوله ﷺ: «الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا الْقَصْدَ».** معناه: ألا يتكلَّف الإنسان في الشيء؛ لأن الإنسان إذا تكلَّف في الشيء تعب ومَلَّ وترك، أما إذا أتى بالشيء قصداً بدون كلفة فإنه يستمرُّ عليه ولا يتأثَّر، ولا يملُّ، ولهذا قال: «اغدوا وروحووا، وشيءٌ من الدُّلجة». الغدوة هي السير صباحاً، والروحة هي السير مساءً، وكلُّ هذا يُبيِّن أن منهج الإنسان في حياته، وفي عبادته، ينبغي ألا يكون مُشَقًّا؛ لأن الإنسان إذا أَرهَقَ بعمله تعب ومَلَّ وترك في النهاية.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٤٦٥ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَرَفَةَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ: «أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ». وَقَالَ: «اكْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ»^(١).

❖ **قوله: «اَكْلَفُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ»؛ أي: تكلَّفوا من العمل ما تُطِيقُونَ، ولا تتعبوا أنفسكم.**



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٤٦٦ - حَدَّثَنِي عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ كَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ ﷺ هَلْ كَانَ يَخْصُ شَيْئًا مِنَ الْأَيَّامِ؟ قَالَتْ: لَا، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيْكُمْ يَسْتَطِيعُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَطِيعُ^(٢).

❖ **قوله: «هَلْ كَانَ يَخْصُ شَيْئًا مِنَ الْأَيَّامِ؟».** يعني: يعمل فيه ولا يعمل في غيره، فبيَّنت أن عمله كان ديمة؛ يعني: يُدِيمُ العمل، حتى إنه عَلَيْهِ السَّلَامُ ﷺ لَهَا شُغْلٌ عَنْ رَكْعَتِي الظَّهْرِ قِضَاهُمَا

(١) أخرجه مسلم (٧٨٣).

(٢) انظر التعليق السابق.

بعدَ العصرِ وأدامَ ذلكَ، فصارَ يُصَلِّي ركعتينِ بعدَ العصرِ، وإلا فإنه كانَ يَخْصُ بعضَ الأيامِ، فكانَ يَصُومُ يومَ الاثنينِ والخميسِ، ويقولُ: إِنِهما تُعَرَّضُ فيهما الأَعمالُ على اللَّهِ فَأُحِبُّ أَنْ يُعَرَّضَ عَمَلِي وَأَنَا صائِمٌ^(١).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٦٧ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الزُّبَيْرِ قَان، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ». قَالُوا: وَلَا، أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ»^(١).

قَالَ: أَظُنُّهُ عَنْ، أَبِي النَّضْرِ عَنْ، أَبِي سَلَمَةَ عَنْ، عَائِشَةَ. وقال عفان: حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «سَدُّوا وَأَبْشِرُوا». وقال مجاهد: سَدَادًا سَدِيدًا صَدَقًا.

يعني أَنه يقولُ: وقولاً سَدِيدًا والأصلُحُ أَنْ يُقَالَ: القولُ السَّدِيدُ الصَّوابُ. فإن كانَ خَبَرًا فصوابُه الصَّدَقُ، وإن كانَ حَكَمًا فصوابُه العَدْلُ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٦٨ - حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ هِلَالِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى لَنَا يَوْمًا الصَّلَاةَ، ثُمَّ رَفَعَ الْمِنْبَرَ فَأَشَارَ بِيَدِهِ قَبْلَ قِيلَةِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «قَدْ أَرَيْتُ الْآنَ - مُنْذُ صَلَّيْتُ لَكُمْ الصَّلَاةَ - الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مُتَمَلِّكَيْنِ فِي قَبْلِ هَذَا الْجِدَارِ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ».

(١) أخرجه النسائي (٢٣٥٧)، وأحمد (٢٠١/٥)، والبيهقي في «الشعب» (٣٨٢١).

(٢) سبق تخريجه.

في هذا الحديث: إثبات أن الجنة والنار موجودتان الآن، وقد دلَّ على ذلك القرآن كما في قوله في الجنة: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٣٣]. وفي النار: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ١٣١]. وفيه أيضًا: أن الرسول ﷺ قد يكشف له عن أمور الغيب، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [النمل: ١٨] إِلَّا مَنْ أَرَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٧﴾ [الحق: ٢٦-٢٧].

قوله: «فلم أرَ كالיום في الخير». هذا باعتبار رؤية الجنة، والشرُّ باعتبار رؤية النار، وهذا الحديث سياقه في صلاة الكسوف.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٩ - بَابُ الرَّجَاءِ مَعَ الْخَوْفِ. وقال سفيان: ما في القرآن آية أشدَّ عليَّ من: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]. قوله: «بَابُ الرَّجَاءِ مَعَ الْخَوْفِ». الرجاء هو الأمل في رحمة الله ﷻ، والخوف هو الخوف من نار الله وعقابه. والعلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقُولُونَ: ينبغي أن يكونَ الخوفُ والرجاءُ واحدًا في حالِ سيرِ الإنسانِ إلى ربِّه، قالوا: لأنه إذا غلبَ الرجاءُ دخلَ في الأمنِ من مكرِ الله، وإذا غلبَ الخوفُ خيفَ عليه القنوطُ من رحمةِ الله.

مثال ذلك:

إنسانٌ صَلَّى صلاةً فهو بينَ أمرين: إما أن يخافَ ألا تقبلَ، أو يرجو أن تقبلَ. كذلك: إنسانٌ فعَلَ المعاصي، فهو بينَ أمرين خائفٌ من هذه المعاصي، وراجٍ لرحمةِ الله. والعامَّةُ دفعًا للومِ يُغلبونَ الرجاءَ، فإذا قيل: لماذا تفعلُ هذا؟ قال: إن اللهَ غفورٌ رحيمٌ. فهذا نقولُ له: نعم يا أخي. الله غفورٌ رحيمٌ ولكن تجبُ عليك أن تفعلَ أسبابَ المغفرةِ والرحمةِ. وأما أهلُ الغيرةِ والتمسكِ فيغلبونَ جانبَ الخوفِ، فتجدُهم يخافونَ على الإنسانِ، وربما يقنطونَ من رحمةِ الله أن يهديه إلى الحقِّ.

وفي هذا قال بعضُ العلماء: بل ينبغي أن يُغلبَ الرجاءُ؛ لأنَّ الله تعالى قال في الحديث

الْقُدْسِيِّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِ بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي»^(١). فَإِذَا كَانَ اللَّهُ عِنْدَ ظَنِّكَ بِهِ فَاطْظُنْ بِهِ خَيْرًا وَغَلِّبْ جَانِبَ الرَّجَاءِ، قَالُوا: وَيَذُلُّ لِهَذَا أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿تَتَعَبُ عِبَادِيَ بِأَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ^(٣) [المائدة: ٤٩-٥٠]. فَبَدَأَ بِالرَّجَاءِ ثُمَّ ثَنَّى بِالْخَوْفِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: يَنْبَغِي لَهُ فِي جَانِبِ الطَّاعَةِ أَنْ يُغَلِّبَ جَانِبَ الرَّجَاءِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ مِنْهُ، وَفِي جَانِبِ الْمَعْصِيَةِ - إِذَا هُمْ بِهَا - أَنْ يُغَلِّبَ جَانِبَ الْخَوْفِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَّعَدَّ عَنْهَا وَلَا يَفْعَلَهَا، وَلَا يُغَلِّبَ جَانِبَ الرَّجَاءِ حِينَئِذٍ؛ لِأَنَّهُ إِنْ غَلَّبَ جَانِبَ الرَّجَاءِ هُنَا أَقْدَمَ عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي فِي حَالِ الْمَرَضِ أَنْ يُغَلِّبَ جَانِبَ الرَّجَاءِ، وَفِي حَالِ الصَّحَّةِ أَنْ يُغَلِّبَ جَانِبَ الْخَوْفِ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ»^(٤). وَالْإِنْسَانُ الْمَرِيضُ أَقْرَبُ إِلَى الْمَوْتِ مِنَ الْإِنْسَانِ الصَّحِيحِ، وَإِنْ كَانَتْ الْأَجَالُ بِيَدِ اللَّهِ ﷻ لَكِنْ هَذَا هُوَ الْغَالِبُ.

أَقُولُ: وَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ طَيِّبَ نَفْسِهِ، فَإِنْ رَأَى مِنْ نَفْسِهِ جَنَاحًا إِلَى الشَّرِّ فَلْيَغَلِّبْ جَانِبَ الْخَوْفِ، وَإِنْ رَأَى مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةَ عَلَى الطَّاعَةِ وَتَرْكِ الْمَعَاصِي فَلْيَغَلِّبْ جَانِبَ الرَّجَاءِ، وَأَنَّ اللَّهَ ﷻ يُثَبِّتَهُ وَيُثَبِّتُهُ عَلَى عَمَلِهِ.

أَمَّا الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ: إِنْ الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ كَجَنَاحِي الطَّائِرِ، إِنْ انْخَفَضَ أَحَدُهُمَا سَقَطَ الطَّائِرُ، وَإِنْ تَسَاوَا استَمْسَكَ الطَّائِرُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ وَاحِدًا، فَأَيُّهُمَا غَلَبَ عَلَى الْآخَرِ هَلَكَ صَاحِبُهُ.

❖ قَوْلُهُ: «وَقَالَ سَفِيَانُ». أَظُنُّهُ سَفِيَانُ بْنُ عَيْنَةَ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّهُ إِذَا أُطْلِقَ سَفِيَانُ فِي بَابِ الْفَقْهِ وَالْأَحْكَامِ فَهُوَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيِّ، وَإِذَا أُطْلِقَ فِي بَابِ الزَّهْدِ وَالْوَرَعِ وَالرَّقَائِقِ فَهُوَ سَفِيَانُ بْنُ عَيْنَةَ؛ لِأَنَّ الثَّانِي يَمِيلُ إِلَى الْعِبَادَةِ أَكْثَرَ.

❖ قَالَ: «وَقَالَ سَفِيَانُ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾». الْخَطَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ يَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنْ مَا خَاطَبَ اللَّهُ بِهِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤٠٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٧٥).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٨٧٧).

بني إسرائيل خطاباً لنا، فكأنه يقول: إذن نحن كذلك لسنا على شيءٍ حتى نُقيمَ الكتابَ والسنةَ، وما أنزل إلينا، وإقامتهما صعبةٌ صعبةٌ، فمن الذي يستطيعُ أن يُقيمَ القرآنَ والسنةَ في كلِّ أمرٍ، وفي كلِّ نهيٍ، وفي كلِّ خبرٍ، بحيثُ يفعلُ كلَّ مأمورٍ، ويدعُ كلَّ منهيٍّ عنه، ويصدقُ تصديقاً لا شكَّ معه في كلِّ خبرٍ؟ هذا من أصعبِ ما يكونُ، وهذا هو معني إقامة الكتابِ المنزلِ، أو السنةِ التي جاء بها النبي ﷺ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٦٩ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عَنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَنَاسُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»^(١).

❦ قوله: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا». يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ لَيْسَتْ رَحْمَةً اللَّهِ الَّتِي هِيَ صِفَتُهُ؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ الَّتِي هِيَ صِفَتُهُ لَيْسَتْ مَخْلُوقَةً؛ لَكِنْ هَذِهِ رَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا مِائَةَ قِسْمٍ، أَمْسَكَ عَنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ، وَأَرْسَلَ وَاحِدَةً، فَهَذِهِ الْوَاحِدَةُ مَخْلُوقَةٌ يُتَرَاخَمُ بِهَا الْخَلْقُ حَتَّى إِنْ الْبَعِيرَ، أَوِ الْنَاقَةَ، أَوِ الْفَرَسَ، لَتَرْفَعُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ^(٢).

وهذا الشيءُ مشاهدٌ فانظر إلى رحمةِ الآدميينَ مثلاً وكيفَ يرحمُ الوالدانِ ولدهما، فقد ثَبَتَ أَنَّ أُمَّرَأَةً جَاءَتْ تَطْلُبُ وَلَدَهَا فِي السَّبْيِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ أَخَذَتْهُ وَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا بِشَدَّةٍ وَشَوْقٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ تَقْذِفُ وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «اللَّهُ أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ أَوْ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ الْوَالِدَةِ بَوْلَدِهَا»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٢).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

وكذلك الرحمتُ الموجودةُ في الخلقِ مخلوقةٌ أم لا؟ مخلوقة؛ لأنها من صفاتهم، والمخلوق هو وصفاته مخلوقُ اللهِ ﷻ، أما الرحمتُ الأخرى - التسعُ وتسعون - فهذه علمُها عند الله لكنها مخلوقة - كما صرح النبي ﷺ -، الله خلقها، وحينئذٍ فليست هي رحمته التي هي صفته؛ لأن صفاتِ اللهِ سبحانه وتعالى ليست بمخلوقة.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ» (١٠/٤٣٢-٤٣٣) عِنْدَ شَرْحِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ فِي «الْأَدَبِ»:

❦ قوله: «جعلَ اللهُ الرحمةَ في مائةِ جزءٍ». قَالَ الكرمانِيُّ: كان المعني يَتِمُّ بدوْنِ الظرفِ ففعلَ «في» زائدةٌ أو متعلقةٌ بمحذوفٍ، وفيه نوعٌ مبالغَةٍ إذ جعلها مظروفاً لها معني بحيث لا يفوتُ منها شيءٌ.

وقال ابنُ أبي جمرة: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﷻ لَهَا مَنْ عَلَى خَلْقِهِ بِالرَّحْمَةِ جَعَلَهَا فِي مِائَةِ عِوَاءٍ فَأَهْبَطَ مِنْهَا وَاحِدًا لِلْأَرْضِ.

قُلْتُ: خَلَّتْ أَكْثَرُ الطَّرِيقِ عَنِ الظَّرْفِ كِرَاوِيَةِ سَعِيدِ الْمَقْبَرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ الْآتِيَةِ فِي الرِّقَاقِ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ». وَلِمُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ عَطَاءٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ» وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ سَلْمَانَ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ رَحْمَةٍ طَبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ».

وقال القرطبي: يجوزُ أَنْ يَكُونَ معني خَلَقَ اخْتَرَعَ وَأَوْجَدَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بمعني قَدَّرَ، وَقَدْ وَرَدَ خَلَقَ. بمعني قَدَّرَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ فَيَكُونُ المعني أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ تَقْدِيرَهُ لِدَلَالَةِ ذَلِكَ يَوْمَ أَظْهَرَ تَقْدِيرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

❦ وقوله: «كُلُّ رَحْمَةٍ تَسَعُ طَبَاقَ الْأَرْضِ». الْمُرَادُ بِهَا التَّعْظِيمُ وَالتَّكْثِيرُ، وَقَدْ وَرَدَ التَّعْظِيمُ بِهَذَا اللَّفْظِ فِي اللُّغَةِ وَالشَّرْعِ كَثِيرًا.

❦ قوله: «فَأَمْسَكَ عَنْهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جِزْءًا». فِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ: «وَأَخَّرَ عَنْهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً» وَفِي رِوَايَةِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «وَخَبَأَ عَنْهُ مِائَةَ إِلَّا وَاحِدَةً».

❦ قوله: «وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جِزْءًا وَاحِدًا». فِي رِوَايَةِ الْمَقْبَرِيِّ: «وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلَّهُمْ رَحْمَةً» وَفِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ: «أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ». وَفِي حَدِيثِ

سلمان: «فجعلَ منها في الأرضِ واحدةً» قال القرطبيُّ هذا نصٌّ في أن الرحمةَ يُرادُ بها متعلِّقُ الإرادة لا نفسُ الإرادة، وأنها راجعةٌ إلى المنافع والنعم.

❦ قوله: «فمن ذلك الجزء تراكُم الخلقُ حتى ترفعُ الفرسُ حافرَها عن ولدها خشيةً أن تُصيبه». في رواية عطاء: «فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطفُ الوحشُ على ولدها». وفي حديث سلمان: «فبها تعطفُ الوالدةُ على ولدها، والوحشُ والطيرُ بعضها على بعضٍ». قال ابنُ أبي جمرَةَ: خصَّ الفرسَ بالذكر؛ لأنها أشدُّ الحيوانِ المألوفة الذي يُعاني المخاطبونَ حركته مع ولده، ولما في الفرسِ من الخفة والسُرعة في التنفُّل، ومع ذلك تتجنَّب أن يصلَ الضرُّ منها إلى ولدها، ووقع في حديثِ سلمانَ عند مسلمٍ في آخره من الزيادة: «فإذا كان يومُ القيامةِ أكملها هذه الرحمة مائة».

وفيه: إشارةٌ إلى أن الرحمة التي في الدنيا بين الخلقِ تكونُ فيهم يومَ القيامةِ يتراحمونَ بها أيضًا، وصرَّحَ بذلك المهلبُ فقال: الرحمةُ التي خلقها اللهُ لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتغافرونَ بها يومَ القيامةِ التبعاتِ بينهم، ويجوزُ أن يستعملَ اللهُ تلك الرحمةَ فيهم بها سوي رحمته التي وسعت كلَّ شيءٍ، وهي التي من صفةِ ذاته ولم يزلَ موصوفًا بها، فهي التي يرحمهم بها زائدًا على الرحمة التي خلقها لهم.

قال: ويجوزُ أن تكونَ الرحمةُ التي أمسكها عند نفسه هي التي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض؛ لأن استغفارَهم لهم دالٌّ على أن في نفوسهم الرحمةُ لأهل الأرض.

قلت: وحاصلُ كلامه أن الرحمةَ رحمتان: رحمةٌ من صفةِ الذاتِ وهي لا تتعدد، ورحمةٌ من صفةِ الفعلِ وهي المشارُ إليها هنا، ولكن ليس في شيءٍ من طرق الحديثِ أن التي عندَ اللهِ رحمةٌ، بل اتَّفقت جميعُ الطريقِ على أن عنده تسعةٌ وتسعينَ رحمةً وزاد في حديثِ سلمان: «أنه يكملها يومَ القيامةِ مائة بالرحمة التي في الدنيا» فتعدُّ الرحمةَ بالنسبةِ للخلقِ.

وقال القرطبيُّ: مقتضى هذا الحديثِ أن اللهُ عليمٌ أن أنواعِ النعمِ التي يُنعمُ بها على خلقه مائة نوعٍ [تفسيرُ الرحمةِ بالنعمةِ فيه نظر؛ لأن الرحمةَ التي في الخلائقِ غيرُ النعمةِ] ^(١). فأنعمَ عليهم في هذه الدنيا بنوعٍ واحدٍ انتظمت به مصالحُهم، وحصلت به مرافقُهم، فإذا كان يومُ القيامةِ كَمَّلَ

(١) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين رحمه الله.

لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا بَقِيَ فَبَلَغَتْ مِائَةً، وَكُلُّهَا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝١٢﴾ [الْأَنْعَامُ: ٤٣]. فَإِنْ ﴿رَحِيمًا﴾ مِنْ أُنْبِيَةِ الْمُبَالِغَةِ الَّتِي لَا شَيْءَ فَوْقَهَا، وَيَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَفَّارَ لَا يَبْقَى لَهُمْ حَظٌّ مِنَ الرَّحْمَةِ، لَا مِنْ جِنْسِ رَحْمَاتِ الدُّنْيَا، وَلَا مِنْ غَيْرِهَا، إِذَا كَمَلَ كُلُّ مَا كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَاتِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٥٦]. الْآيَةُ.

وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ: الرَّحْمَةُ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الْقُدْرَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِإِيصَالِ الْخَيْرِ، وَالْقُدْرَةُ فِي نَفْسِهَا غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ وَالتَّعَلُّقُ غَيْرُ مُتَنَاهٍ، لَكِنْ حَصَرَهُ فِي مِائَةٍ عَلَى سَبِيلِ التَّمَثِيلِ تَسْهِيلًا لِلْفَهْمِ، وَتَقْلِيلًا لَهَا عِنْدَ الْخَلْقِ، وَتَكْثِيرًا لَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا مُنَاسَبَةُ هَذَا الْعَدَدِ الْخَاصِّ فَحَكِي الْقُرْطُبِيُّ عَنْ بَعْضِ الشَّرَاحِ: أَنَّ هَذَا الْعَدَدَ الْخَاصَّ أُطْلِقَ لِإِرَادَةِ التَّكْثِيرِ وَالْمُبَالِغَةِ فِيهِ. وَتَعَقُّبُهُ بِأَنَّهُ لَمْ تَجْرِ عَادَةُ الْعَرَبِ بِذَلِكَ فِي الْهَائَةِ، وَإِنَّمَا جَرَى فِي السَّبْعِينَ كَذَا قَالَ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي جَهْرَةَ: ثَبِتَ أَنَّ نَارَ الْآخِرَةِ تَفْضُلُ نَارَ الدُّنْيَا بِتِسْعٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، فَإِذَا قُوِيَ كُلُّ جُزْءٍ بِرَحْمَةٍ زَادَتْ الرَّحْمَاتُ ثَلَاثِينَ جُزْءًا، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الرَّحْمَةَ فِي الْآخِرَةِ أَكْثَرُ مِنَ النِّقْمَةِ فِيهَا، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ: غَلَبَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي.

قلت: لَكِنْ تَبَقِيَ مُنَاسَبَةُ خُصُوصِ هَذَا الْعَدَدِ فَيَحْتَمِلُ أَنَّ تَكُونَ مُنَاسَبَةُ هَذَا الْعَدَدِ الْخَاصِّ لِكُونِهِ مِثْلَ عَدَدِ دَرَجِ الْجَنَّةِ، وَالْجَنَّةُ هِيَ مَحَلُّ الرَّحْمَةِ فَكَأَنَّ كُلَّ رَحْمَةٍ بِإِزَاءِ دَرَجَةٍ، وَقَدْ ثَبِتَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَمَنْ نَالَتهُ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً كَانَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مُنْزَلَةً، وَأَعْلَاهُمْ مُنْزَلَةً مِنْ حَصَلَتْ لَهُ جَمِيعُ الْأَنْوَاعِ مِنَ الرَّحْمَةِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي جَهْرَةَ: فِي الْحَدِيثِ إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ أَنَّ النَّفْسَ يَكْمُلُ فَرَحُهَا بِمَا وَهَبَ لَهَا إِذَا كَانَ مَعْلُومًا مِمَّا يَكُونُ مُوعُودًا.

وفيه: الْحَثُّ عَلَى الْإِيمَانِ، وَاتِّسَاعُ الرِّجَاءِ فِي رَحْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُدْخَرَةِ.

قلت: وَقَدْ وَقَعَ فِي آخِرِ حَدِيثِ سَعِيدِ الْمُقْبِرِيِّ فِي «الرِّقَاقِ»: «فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَأْسَ مِنَ الْجَنَّةِ»، وَأَفْرَدَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَيَأْتِي شَرْحُهُ هُنَاكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. انْتَهَى كَلَامُ الْحَافِظِ.

❖ وقوله: «لو يعلم المؤمن». و«لو يعلم الكافر». هذا يؤيد ما ذهب إليه بعض العلماء من أن الذي يُبَغِّي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً؛ حتى لا يأمن من مكر الله، ولا يقنط من رحمة الله.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٠ - بَابُ الصَّبْرِ عَنْ مُحَارِمِ اللَّهِ: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [التكوير: ١٠]. وقال عمر: وجدنا خير عيشنا بالصبر.

❖ قوله: «الصبر عن محارم الله». الصبر هو حبس النفس، ومنه قولهم: قتل صبراً؛ أي: حبساً، فيُحبس ويُقتل.

ولإنما قيد المؤلف الصبر بالصبر عن محارم الله؛ لأن الصبر كما قال العلماء: ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

○ صبرٌ على طاعة الله.

○ وصبرٌ عن معصية الله.

○ وصبرٌ على أقدار الله سواء كانت مؤلمة أو مفرحة.

أما الصبر على طاعة الله فمعناه أن يصبر الإنسان على طاعة ربه، حتى يؤديها كما أمر، ولا شك أن الطاعة تحتاج إلى صبر، ولا سيما الطاعات الشاقة، كالصيام مثلاً، فإن الصيام بلا شك شاق على النفوس، ولهذا سمي شهر رمضان شهر الصبر.

كذلك أيضاً الجهاد فإنه شاق على النفوس ويحتاج إلى صبر عظيم، ولهذا أمر الله بالثبات عند ملاقات العدو.

ومن ذلك أيضاً الحج، فإنه فيه مشقة مالية وبدنية، لاسيما مع بعد الإنسان عن مكة منه.

والصبر على الطاعة يحتاج إلى معانيتين: الأولى: معاناة بدنية؛ لأنها إما فعل يحتاج إلى حركة، أو قول يحتاج إلى حركة، ومعاناة نفسية يرغم الإنسان نفسه على فعلها.

أما الصبر عن المعصية فهو حبس النفس عن فعل المعاصي.

فمثلاً: إنسان حدثته نفسه أن يزني فأمسك، أو حدثته أن يؤخر الصلاة عن وقتها

فأمسك، أو أن يسرق فأمسك عن المعصية، أو أن يشرب الخمر فأمسك عن المعصية فهذا صبر عن المعصية.

وهذا الصبرُ فيه معاناةٌ لكنها معاناةٌ نفسيةٌ؛ لأنه لم يفعل ولم يقل، بل كف نفسه، والكف ليس فيه إلا معاناةٌ واحدةٌ وهي المعاناةُ النفسيةُ.

ولهذا قال العلماء: إن الصبرَ على الطاعةِ أفضلُ من الصبرِ عن المعصية؛ لأن الصبرَ على الطاعةِ فيه معاناةٌ نفسيةٌ ومعاناةٌ بدنيةٌ أما الصبرُ عن المعصيةِ معاناةٌ نفسيةٌ فقط. أما الصبرُ على الأقدارِ. فالمعروفُ أن أهل العلم يقولون فيه إنه الصبرُ على أقدارِ الله المؤلمةِ، والحقيقةُ أنه ينبغي أن يُقال: المؤلمةُ والملائمةُ؛ لأنه وإن كانت الأقدارُ المؤلمةُ؛ كالمرضِ، والفقرِ، وموتِ القريبِ، وما أشبه ذلك، لا شك أنها تحتاجُ إلى معاناةٍ وإلى صبرٍ فذلك الأقدارُ الملائمةُ تحتاجُ إلى صبرٍ، ومعناه في الحقيقة أن يمنع نفسه عن الأشرِ والبطرِ، وهو من هذا الوجه تُلحَقُ بالصبرِ عن المعصيةِ، وأما بالنسبةِ لشكرِها وهي من هذا الوجه تُلحَقُ بالصبرِ على الطاعةِ.

وهذا هو وجهُ كونِ العلماءِ رَحِمَهُمُ اللهُ قَدَّوْها بالصبرِ على الأقدارِ المؤلمةِ فالصبرُ على الأقدارِ الملائمةِ إن كان بكبحِ النفسِ عن الأشرِ والبطرِ فهو من الصبرِ عن المعصيةِ، وإن كان يحِملُ النفسَ على الشكرِ فهو من الصبرِ على الطاعةِ، لذلك نُرجِّحُ أن نبقى على قيدِ أهلِ العلمِ، فنقول: الصبرُ على الأقدارِ المؤلمةِ، أما الملائمةِ فلا شك أنها تحتاجُ إلى صبرٍ قال سليمان: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

ولكن أيهما أفضلُ، الصبرُ على الأقدارِ المؤلمةِ، أو عن معصيةِ الله، أو على طاعةِ الله؟ **نقول:** الصبرُ على الطاعةِ أفضلُ، ثم الصبرُ عن معصيةِ الله، ثم الصبرُ على أقدارِ الله، وقد جعلنا الصبرَ أقدارِ الله في المرتبةِ الأخيرة؛ لأن هذا صبرٌ على شيءٍ ليس من فعلك، فكبحُ النفسِ عن المحرمِ من فعلك، لكن القدرِ المؤلمِ والمصيبةِ التي أصابتك ليست من فعلك، ولهذا كان الصبرُ عليها أقلَّ مرتبةٍ من الصبرِ عن معصيةِ الله وعلى طاعةِ الله، وهذا من حيث الجنسِ، لكن قد يحصلُ للإنسانِ من العانةِ النفسيةِ في الصبرِ عن المعصيةِ أكثرُ مما يحصلُ في الصبرِ على الطاعةِ.

فمثلاً: يسهُلُ على إنسانٍ أن يقومَ فيصليَ ركعتينِ وهذا صبرٌ على الطاعةِ، لكن قد يصعبُ على شابٍّ شديدِ الشهوةِ أن يصبرَ عن الزنى أو ما دونه من التمتعِ المحرمِ فيكونُ هذا أصعبَ عليه وأشقَّ.

وكذلك قد يصعبُ على الإنسانِ الفقيرَ أن يمتنعَ عن أخذِ مالِ الغيرِ الذي يسهلُ عليه أخذه، أشدَّ مما يصعبُ على شخصٍ قامَ فصلَّى ركعتين.

فالتفضيلُ الذي ذكرته هو تفضيلُ الجنسِ على الجنسِ، أما بالنسبة لتفضيلِ الفردِ على الفردِ فقد يكونُ فضلُ الصبرِ عن المعصية أكثرَ من فضلِ الصبرِ على الطاعة، أو يكونُ الصبرُ على الأقدارِ المؤلمة أشدَّ من الصبرِ عن المعصية أو على فعلِ الطاعة.

وهذا النوعُ من التفضيلِ يُشكلُ على كثيرٍ من الطلبة، فيصعبُ عليه أن يفرقَ بين التفضيلِ الجنسيِّ الذي يُفضَّلُ فيه الجنسُ على الجنسِ، وبين التفضيلِ الفرديِّ الذي يُفضَّلُ فيه الفردُ على الفردِ.

فمثلاً: نحن نقولُ الصحابةُ أفضلُ من التابعينَ، والتابعونَ أفضلُ من تابعي التابعينَ، كما قال الرسولُ ﷺ: «خيرُ الناسِ قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١). لكن يوجدُ في تابعي التابعين من هو أفضلُ من التابعين بكثيرٍ؛ لأننا نعتبرُ الجنسَ.

كذلك نقولُ: الرجالُ خيرٌ من النساءِ. وذلك باعتبارِ الجنسِ، لكن يوجدُ من النساءِ من هو خيرٌ من كثيرٍ من الرجالِ.

❖ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢)؛ أي: يُعطى الصابرون أجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ يعني: أنه ليس كغيره من الأعمالِ الصالحةِ الحسنةِ بعشر أمثالِها إلى سبعمائة ضعفٍ، بل هذا أجرٌ أكثرُ من أن يُحصي، فهو بغيرِ حسابٍ.

❖ وقولُ عمرَ: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبرِ». هذه حكمةٌ بالغةٌ، أن الإنسانَ إذا صبرَ فإنه يعيشُ عيشةً راضيةً؛ لأنه لا ينظرُ إلى من فوقه فيستقلُّ ما أعطاه الله، بل ينظرُ إلى من تحته حتى يعرفَ أن الله أعطاه أكثرَ منه، وقد جاء في الحديثِ. «لا تنظروا إلى من هو فوقكم، ولكن انظروا إلى من هو أسفلُ منكم؛ فإنه أجدرُ ألا تزدروا نعمةَ الله عليكم»^(٣)؛ يعني: ألا تحقروها؛ لأن الإنسانَ لو نظرَ إلى مَنْ هو أعلى منه لقال: ليس عندي شيءٌ، فإذا نظرَ إلى من دونه عرفَ قدرَ نعمةِ الله.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٣).

فمثلاً: إذا كان الإنسانُ ضعيفَ البدنِ، فلا يَنْظُرُ إلى قوِّي البدنِ؛ لأنه إذا نظرَ إلى قوِّي البدنِ استقلَّ ما أعطاه الله، ولكن لِيَنْظُرَ إلى من هو أضعفُ منه.

كذلك إذا كان قليلَ ذاتِ اليدِ وليس عنده مالٌ، فلا يَنْظُرُ إلى من هو أغنى منه؛ لأنه لو نظرَ إلى من هو أغنى منه لاستقلَّ ما أعطاه الله، ولكن لِيَنْظُرَ إلى من هو أفقرُ منه، وهلمَّ جراً. حتَّى في مسائل الدين لا تَنْظُرَ إلى من هو أعلى منك؛ لأنك إذا نظرتَ إلى من هو أعلى منك احتقرتَ نعمةَ الله عليك، ولكن سابقَ غيرك في دينِ الله؛ حتى تنالَ ما ينالُ.

فالنظرُ إلى من هو فوقك في الدين إن كنت تُريدُ منه أن تُسابقَه حتى تصلَ إلى ما وصل إليه فهذا خيرٌ، وإن كان نظركُ إلى من هو أعلى منك في الدين يَسْتَلْزِمُ احتقاركَ لنعمةِ الله عليك لما أنعم به، فإنك لا تَنْظُرُ.

فقد يَنْظُرُ الإنسانُ مثلاً إلى رجلٍ صائمٍ، قائمٍ، مجاهدٍ، باذلٍ، عالمٍ، معلمٍ، فيجدُ نفسه ليس في هذه المنزلة، فيَحْتَقِرُ ما أنعم الله عليه من الدين، أما إذا نظرَ إلى من تحته من الفساق والكفار، عَرَفَ قدرَ نعمةِ الله عليه، فهنا يَنْظُرُ إلى من هو دونه.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٧٠ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ السَّيِّئِيُّ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَنَسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَسْأَلْهُ أَحَدٌ إِلَّا أَعْطَاهُ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفِدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي خَيْرٌ لَا أَدَّخِرُهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ بِعَفْوِ اللَّهِ، وَمَنْ يَتَصَبَّرَ بِصَبْرِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ بِغْنِيهِ وَلَنْ تُعْطُوا عَطَاءَ خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

الشاهد من هذا الحديث قوله: «ولن تُعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر». وذلك لأن الصابرَ يَحْتَمِلُ أشياء كثيرة، ولا يَتَأَثَّرُ منها، ولا يَضْجَرُ منها، وهذا لا شك أنه خيرٌ، بخلاف غير الصابر فإنه لا يَحْتَمِلُ، إن أصابه مرضٌ تعب، وإن أصابته حاجةٌ تعب، وإن هلك له صديقٌ تعب، وإن فقدَ ما لا تعب، وهكذا، لكن إذا كان صابراً تجده دائماً مطمئناً في سرورٍ، لا يَهْتَمُّ بهذه المصائب؛ لأنه يصبرُ عليها.

وقوله: «ما يَكُنْ عِنْدِي من خيرٍ لا أَدَّخِرُهُ عَنْكَ». يَعْنِي: مها يَكُنْ عِنْدِي من خيرٍ فإني

لَا أَذْخِرْهُ عَنْكُمْ، وَلَا أَسْتَأْذِرُ بِهِ وَأَخْتَصُّ بِهِ دُونَكُمْ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَالُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ كَانَ يُعْطِي الْعَطَاءَ وَيَبِيتُ طَاوِيًا ﷺ، وَكَانَ يُعْطِي عَطَاءً مِنْ لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ.

❖ وَقَوْلُهُ: «وَأَنَّهُ مِنْ يَسْتَعِفُّ». وَفِي نَسَخَةٍ: «مَنْ يَسْتَعِفُّ». وَهَذِهِ لَا إِشْكَالَ فِيهَا؛ لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا هُوَ الْإِدْغَامُ وَفُكُّ الْإِدْغَامِ، وَفُكُّ الْإِدْغَامِ هُنَا جَائِزٌ، لَكِنَّ الْمَشْكَالَ هُنَا قَوْلُهُ: «يُعِفُّهُ اللَّهُ». فَإِنَّهُ قَالَ: «يُعِفُّهُ». بِالضَّمِّ، وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْفِعْلَ الْمُضْعَفَ يُخَفَّفُ بِالْفَتْحَةِ، فَيُقَالُ: يُعِفُّهُ اللَّهُ. إِلَّا إِذَا كَانَ مَضْمُومًا، فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُخَفَّفَ بِالضَّمِّ، فَيُقَالُ مِثْلًا: مَنْ شَدَّ يَشُدُّهُ. وَيَجُوزُ يَشُدُّهُ. وَهُوَ الْأَصْلُ، لَكِنَّ الْإِشْكَالَ هُنَا؛ أَنَّ مَا قَبْلَ الْفَاءِ مَكْسُورٌ وَلَوْ كَانَ مَضْمُومًا لَقَلْنَا يَجُوزُ فِيهِ الضَّمُّ إِتْبَاعًا.

❖ وَقَوْلُهُ: «يُعِفُّهُ اللَّهُ». مَعْنَاهُ: أَنَّ مَنْ يَسْأَلُكَ سَبِيلَ الْعَفَةِ فَإِنَّ اللَّهَ يُعِفُّهُ، إِمَّا بِإِعْطَائِهِ مَا يَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ الْغَيْرِ، وَإِمَّا بِإِغْنَاءِ قَلْبِهِ بِحَيْثُ لَا يَتَطَلَّعُ إِلَى شَيْءٍ أَكْثَرَ مِمَّا أُعْطِيَ.

❖ وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ»؛ يَعْنِي: عَلَى الْمَصَائِبِ «يُصْبِرُهُ اللَّهُ». وَأَمَّا مَنْ يَتَشَكَّى فَإِنَّهُ يُحَرِّمُ الصَّبْرَ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَذْكُرَ مَصَائِبَهُ عِنْدَ النَّاسِ شِكَايَةً؛ لِأَنَّكَ إِذَا شَكَوْتَ لِلَّهِ إِلَى الْمَخْلُوقِ، فَقَدْ شَكَوْتَ الرَّحِيمَ إِلَى مَنْ لَا يَرْحَمُ.

وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

أَمَّا الْإِخْبَارُ بِالشَّيْءِ لَا عَلَى سَبِيلِ التَّشْكِيِّ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعَائِشَةَ: «بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهُ»^(١). وَأَخْبَرَ بِأَن رَأْسَهُ يُؤْلِمُهُ وَلَا حَرَجَ فِي هَذَا، وَقَالَ: «إِنَّمَا أُوعِكَ كَمَا يُوعِكَ الرَّجُلَانِ مِنْكُمْ»^(٢).

فَفَرَّقَ بَيْنَ شَخْصٍ يُخْبِرُ عَمَّا فِيهِ مِنَ الْمَرَضِ مِثْلًا أَوْ الْفَقْرِ أَوْ غَيْرِهِ تَشْكِيًّا وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ إِخْبَارًا، فَالْأَوَّلُ مَذْمُومٌ، وَالثَّانِي لَا بَأْسَ بِهِ.

❖ وَقَوْلُهُ: «مَنْ يَسْتَغْنِي يُغْنِيَهُ اللَّهُ»؛ يَعْنِي: مَنْ اسْتَغْنَى عَنِ غَيْرِهِ أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَهَذَا خَلْقٌ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَيْهِ بِأَنْ يَسْتَغْنِي عَنِ كُلِّ النَّاسِ، وَقَدْ بَايَعَ الصَّحَابَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَنْ لَا يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا^(٣)، فَكَانَ الرَّجُلُ يَسْقُطُ مِنْهُ سَوْطُهُ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ، فَيَنْزِلُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٥٦٦٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٥٦٦٧)، وَمُسْلِمٌ (٢٥٧١).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٠٤٣).

وَيَأْخُذْهُ، وَلَا يَقُولُ: يَا فَلَانُ تَأْوِلْنِي السُّوْطُ؛ لِأَنَّ السُّوْأَلَ مَذْلَةٌ، فَإِذَا اسْتَغْنَيْتَ بِهَا أَعْطَاكَ اللَّهُ عَنْ غَيْرِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُغْنِيكَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٧١- حَدَّثَنَا خَلَادُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ، حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ عَلَاقَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي حَتَّى تَرِمَ أَوْ تَتَفَتَّحَ قَدَمَاهُ فَيَقَالَ لَهُ، فَيَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»^(١).

هذا الحديث فيه: الصبر على الطاعة، والباب هنا: الصبر عن محارم الله. وكان البخاري رحمه الله لما كتب العنوان ذكر أن هناك نوعاً آخر من الصبر، وهو الصبر على طاعة الله من أجل أداء شكره، فالنبي ﷺ كان يُصَلِّي في الليل حَتَّى تَرِمَ أَوْ تَتَفَتَّحَ قَدَمَاهُ، فَيَقَالَ لَهُ: يَغْنِي: كَيْفَ تَفْعَلُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَيَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا». فتكون طاعته هذه من باب الشكر ﷻ.

وفي الحديث: دليل على أن الطاعة من الشكر؛ ولهذا عَرَفَ بعضهم الشكر بأنه: القيام بطاعة المنعم.

وفي الحديث: دليل على أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اختارَ مقامَ العبودية على مقامِ الملكية؛ لأنه خَيْرٌ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا أَوْ يَكُونَ مَلِكًا، فاختار أن يَكُونَ عَبْدًا^(٢).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١- باب: ﴿وَمَنْ يَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: مِنْ كُلِّ مَا ضَاقَ عَلَى النَّاسِ.

٦٤٧٢- حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ: سَمِعْتُ حُصَيْنَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ قَاعِدًا عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٩).

(٢) انظر: «التمهيد» (٦٥/١٩).

«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(١).

قوله: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ». التوكل هو: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة، وفعل الأسباب المأذون فيها. والمعنى: أن تعتمد اعتماداً صادقاً على الله ﷻ في جلب المنافع؛ يعني: في إعطاء المنافع التي يجلبها الله لك، ودفع المضار، ويكون هذا الاعتماد مصحوباً بثقة؛ أي: أن تكون واثقاً من أن الله ﷻ سيكشفك، ويكون أيضاً مصحوباً بفعل الأسباب المأذون فيها.

فمن لم يصدق في اعتياده على الله فليس بمتوكل، ومن صدق في اعتياده على الله، وكان عنده شيء من القلق وعدم الطمأنينة، يعني: ليس واثقاً، فإنه لم يتوكل، ومن صدق الاعتماد على الله، ووثق به، ولكنه لم يفعل الأسباب المأذون فيها فليس بمتوكل؛ لأن هذا تواكل وإنكاراً لحكمة الله ﷻ، فإن من لم يفعل الأسباب وقال: إني متوكل، فقد طعن في حكمة الله؛ لأن الله ﷻ حكيم يُنزل الأشياء في مواضعها، فإذا لم تفعل السبب، فكيف تقول إني متوكل على الله.

فلو أن رجلاً قال: أنا متوكل على الله بأن الله يرزقني. ولكنه نائم في فراشه، فهل هذا صادق في توكله؟

نقول: لا، بل يجب فعل السبب، صحيح أن الله قد يرزقك بلا سبب، فقد يموت لك قريب غني ويحصل لك رزق، لكن هذا خلاف الأصل.

كذلك أيضاً لو أن رجلاً يقول: أنا متوكل على الله بأن الله سوف يأتي لي بوليد صالح ولم يتزوج، فهل هذا صادق في اعتياده؟

الجواب: لا؛ لأنه لم يفعل السبب، ولا بد له أن يفعل السبب.

كذلك أيضاً إنسان قال: أنا متوكل على الله بأنني سأكون عالماً. ولكنه يمضي الوقت

بالعب. فهل هذا صحيح في توكله؟

الجواب: لا؛ إذ لا بد من فعل الأسباب المأذون فيها.

فإذا تمت هذه القيود الثلاثة:

١- صدقُ الاعتمادِ على الله.

٢- الثقةُ بالله.

٣- فعلُ الأسبابِ المأذونِ فيها.

فإن الله يقولُ: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾. أي: فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ كافيك؛ يعْني: كلُّ ما ضاق على الناس، فإن الله تعالى يَكْفِيكَ إياه، وهذا شيءٌ مشاهدٌ، فإن الله سبحانه إذا توكل الإنسانُ عليه توكلًا حقيقيًا كفاه وَعَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١) [الأنفال: ٦٤]. فاللهُ حسبُ النَّبِيِّ وحسبُ من اتَّبعه من المؤمنين، والمؤمنون متوكلون كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢) [التوبة: ١٦٠].

❖ قوله في الحديث: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَمْتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». قوله: «أمتي»؛ أي: أمةُ الإجابة. وقوله: «بغير حساب». أي: لا يُحَاسَبُونَ يومَ القيامةِ، وقد وردَ في «مسند الإمام أحمد» بإسنادٍ جيدٍ جدًا: «أَنْ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا» ^(١). فيكون الجميعُ أربعَ ملياراتٍ وتسعمائة مليون، والحمدُ لله على هذه النعمة.

❖ قوله: «هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ»؛ أي: لا يَطْلُبُونَ من غيرهم أن يَرْقِيَهُمْ، وأما ما جاء في «صحيح مسلم» من أنهم: «لا يَرْقُونَ» ^(٢). فهذه الرواية منكرةٌ لا تُعْتَمَدُ؛ لأن الرسولَ ﷺ كان يَرْقِي أصحابه، وكان يَرْقِي نفسه، وقال: «إِذَا اسْتَطَاعَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ» ^(٣). والرقية من الإحسان، فكيف يَكُونُ التخلِّي عنها سببًا لدخولِ الجنةِ بغيرِ حسابٍ؟!

❖ أما قوله: «لا يَسْتَرْقُونَ». فمعناه: أنهم لا يَطْلُبُونَ من غيرهم أن يَرْقِيَهُمْ؛ أي: أن يقرأَ عليهم، وذلك اعتمادًا على الله؛ لأن الذي يَطْلُبُ من غيره أن يَرْقِيَهُ ربما يَتَعَلَّقُ قلبه به، خصوصًا إذا شَفِيَ على يديه؛ فإنه قد يَحْصُلُ في قلبه الاعترافُ بفضلِ هذا القارئِ دونَ الاعترافِ بفضلِ الله؛ لأن كثيرًا من ضعيفي الإيمانِ يَعْتَمِدُونَ على الأسبابِ أكثرَ مما يَعْتَمِدُونَ على المسبَّب، وهو الله ﷻ.

❖ ثم قال: «ولا يَتَطَيَّرُونَ». التطيُّرُ: هو التشاؤمُ بمعلوم، إما مرئي، أو مسموع، أو زمان،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (٢٢٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٩٩).

أو مكان، وأصله من الطير؛ لأن العرب كانت تشاءم بالطيور، فإذا رأت الطير حينما نهض في الطير ان ذهب يميناً تفاءلت، وإذا ذهب يساراً تشاءمت، وإذا ذهب إلى الإمام فلها عندهم اعتقاد آخر، وإذا ذهب للخلف فلها اعتقاد آخر؛ فلهذا سميت: الطيرة.

وقد يتشاءم الإنسان بمسموع، كأن يسمع صراخاً وهو ذاهب إلى عمل ما، فيتشاءم ويقول: إن الصارخ لا يأتي إلا بمصيبة ويترك العمل.

مثاله أيضاً: أن يسمع البومة تصرخ على بيته، فيتشاءم ويقول: قد انتهى أجلي أو أجل أهلي؛ لأن البومة لا تصرخ على البيت إلا وهي تنعى صاحب البيت، أو أهله.

والبومة - على حسب اعتقادهم - يقولون: إنها إذا صرخت ليلاً، وكان لأهل الدار قتيل، قالوا: هذه روح القتيل خرجت من قبره تنعى القتيل، وتقول لأهله: خذوا بالثأر. وإذا لم يكن هناك قتيل، قالوا: هذه تنعانا.

وقد يتشاءم الإنسان بمرئي، مثاله:

خرج لعمل وكان أول من لاقاه شخص مريض؛ فقال: إذن هذا العمل باطل؛ لأن الذي لاقاني شخص مريض.

كذلك إذا لاقاه رجل أعور، قال: هذا اليوم ليس فيه خير؛ لأن أول من قابلني رجل أعور.

حتى إنهم كانوا في بعض البلاد إذا كان أول من يأتي إلى الدكان رجل أعور أعطاه البائع الشيء بدون مقابل، وقال له: خذه بشرط ألا أراك بعدها.

وعلى كل حال: فالعرب عندهم جهل عظيم؛ حيث يتشاءمون بهذه الأشياء.

وكذلك بالزمان فقد كانوا يتشاءمون بشهر صفر، وكانوا يتشاءمون بشهر شوال بالنسبة للنكاح ويقولون: إن الذي يتزوج في شوال لا يوفق، وكانوا يتشاءمون أيضاً بيوم الأربعاء، وكل هذا من الجاهلية.

وكانوا يتشاءمون بالأنواء ويقولون: إذا ولدت في نوء كذا وبرج كذا، وتقابل هذا مع ذاك وتناطحا هلكا.

وعلى هذا فقس؛ ولهذا يوجد مع الأسف في بعض الجرائد التي تخرج الآن جداول هذه الأبراج وكل هذا من التطير بالزمان.

وبعض الناس يتطير بالمكان فإذا دخل من عند الباب وحدث له أدنى مكروه قال: هذا

مَكَانٌ مَشْتَوْمٌ لَا أَدْخُلُ فِيهِ.

وَكُلُّ هَذَا خِلَافُ الشَّرْعِ، حَتَّى إِنْ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ»^(١). وَهَذَا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- يُرِيدُ مِنَ الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا فِي سُرُورٍ وَلَا يَتَشَاءَمُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَلَا يُتَبِعُ نَفْسَهُ إِيَّاهَا، بَلْ يَكُونَ دَائِمًا مَطْمَئِنًّا لَا يَقَعُ فِي التَّشَاوُمِ، فَإِنَّ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ.

❖ ثُمَّ قَالَ: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». هَذَا هُوَ الشَّاهِدُ مِنَ الْحَدِيثِ، فَهَمَّ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى رَبِّهِمْ لَا عَلَى غَيْرِهِ، وَهَذَا الْجُمْلَةُ فِيهَا حَصْرٌ: طَرِيقُهُ تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، فَهِيَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [التَّائِبِينَ: ٥٠]. حَيْثُ قَدَّمَ لَهَا الْمَعْمُولَ الَّذِي هُوَ: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»؛ يَعْنِي: لَا عَلَى غَيْرِهِ.

وَهَذَا السِّيَاقُ الَّذِي سَاقَهُ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مُخْتَصَرٌ؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ لَمَّا أَخْبَرَ بِهَذَا جَعَلَ الصَّحَابَةُ يَبْحَثُونَ فِي هَؤُلَاءِ، حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ... الْحَدِيثُ».

وفيه أيضًا: اختصارًا، لِأَنَّهُ بَقِيَ وَصْفٌ رَابِعٌ لِلَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَهُوَ: «أَنَّهُمْ لَا يَكْتَوُونَ»؛ يَعْنِي: لَا يَطْلُبُونَ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يَكُوِيَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْتَدِلُّوا لِأَحَدٍ، لَا بِالرَّقِيعَةِ، وَلَا بِالْكَيِّ؛ لِأَنَّ الْكَيَّ أَيْضًا فِيهِ إِحْسَانٌ مِنَ الَّذِي يَكُوِي، فَقَدْ كَوَى النَّبِيُّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ فِي أَكْحَلِهِ، فَهَنَّاكَ فَرَقٌ بَيْنَ الَّذِي يَكُوِي وَالَّذِي يَكْتَوِي، فَالَّذِي يَكْتَوِي هُوَ الَّذِي يَطْلُبُ الْكَيَّ، وَأَمَّا الَّذِي يَكُوِي فَهُوَ الَّذِي يَفْعَلُهُ بغيرِهِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٢- بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنْ قِيلٍ وَقَالَ.

٦٤٧٣- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، أَخْبَرَنَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُغِيرَةُ وَفُلَانٌ وَرَجُلٌ ثَالِثٌ أَيْضًا عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ وَرَادٍ كَاتِبِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى

(١) قَالَ الْهَيْثَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَادِ» (١٠٣/٥): رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ، وَفِيهِ: إِسْحَاقُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَطَارُ، وَثَقَهُ أَبُو

حَاتِمٍ وَضَعَفَهُ عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، وَبَقِيَ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ. اهـ

الْمُغِيرَةُ: أَنْ أَكْتُبَ إِلَيَّ بِحَدِيثِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْمُغِيرَةُ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنَ الصَّلَاةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». قَالَ: وَكَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَمَنْعِ وَهَاتِ، وَعُقُوقِ الْأُمَهَاتِ، وَوَادِ الْبَنَاتِ^(١).
وَعَنْ هُشَيْمٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ وَرَادًا يُحَدِّثُ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ الْمُغِيرَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

❦ قوله: «باب ما يُكره من قيل وقال». المرادُ بذلك: نقل الحديث من غير تثبت؛ ولهذا يُقال: قيل، أو: قال فلان. ولم يَتَّبَعْ فإن هذا مما يُنهى عنه؛ وذلك لأن الإنسان لا يخلو فيه من زلل، وإذا زل فإنه يَبْقَى قَلِيلُ الثِّقَةِ لَهَا يُحَدِّثُ بِهِ، وهذا لا شك أنه يُؤَثِّرُ عَلَى الْمَرْءِ لَاسِيَا إِذَا كَانَ الْمَرْءُ إِمَامًا فِي الْعِلْمِ، أَوْ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ يَجِبُ التَّثَبُّتُ فِيمَا يَنْقُلُهُ الْإِنْسَانُ. وقد يَكُونُ قَوْلُهُ: قيل وقال. كنايةً عن كثرة الكلام؛ لأن من كثر كلامه كثُرَ زَلُّهُ؛ ولهذا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٢). فَالصَّمْتُ أَوْلَى مِنَ الْكَلَامِ إِلَّا إِذَا تَرَجَّحَتْ كِفَّةُ الْكَلَامِ.

أما الحديث: فَإِنْ مَعَاوِيَةَ رضي الله عنه كَتَبَ إِلَى الْمُغِيرَةِ يَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ إِنَّمَا سَأَلَهُ عَنْ حَدِيثٍ يَتَعَلَّقُ بِأَذْكَارِ الصَّلَاةِ، لِأَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ رضي الله عنه رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَلَكِنْ قَرِينَةُ الْحَالِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا سَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِالصَّلَاةِ.

❦ قوله: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنَ الصَّلَاةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». فَأَمَّا الْجُمْلَةُ الْأُولَى فَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي هِيَ مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ، بَلْ وَمِفْتَاحُ الْإِسْلَامِ أَيْضًا، فَإِنْ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. عُصِمَ دَمُهُ كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فِي قِصَّةِ الرَّجُلِ الْمَشْرُكِ الَّذِي أَدْرَكَهُ أُسَامَةُ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَظَنَّ أُسَامَةُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَهَا مَتَعُودًا بِهَا مِنَ الْقَتْلِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ لَهُ:

(١) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

«أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا مَتَعُودًا. قَالَ: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا مَتَعُودًا. قَالَ: «أَشَقَقْتُ عَنْ قَلْبِهِ، أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قَالَ: إِنَّمَا قَالَهَا مَتَعُودًا. حَتَّى قَالَ لَهُ: «مَا تَصْنَعُ بِ- لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟^(١) حَتَّى قَالَ هَيْهَاتَهُ: تَمْنَيْتُ أَنْتَنِي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ؛ يَعْني: مِنْ أَجْلِ أَنْ تَقَعَ هَذِهِ الْخَطِيئَةُ فِي حَالِ الْكُفْرِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهَا إِذَا وَقَعَتْ فِي حَالِ الْكُفْرِ ثُمَّ أَسْلَمَ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقوله: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هل معناها: لَا يُوجَدُ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ، أَمْ المرادُ: لَا يُوجَدُ إِلَهٌ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ؟
نقول: الثاني هو المتعين؛ لِأَنَّهُ تُوْجَدُ آلِهَةٌ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [مجادل: ١٠١]. لَكِنَّ هَذِهِ الْأُلُوهِيَّةَ مَجْرَدُ اسْمٍ فَقَطْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا﴾ [البقرة: ٢٣]. أَمَّا حَقِيقَةُ فَلَا، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْخَبَرُ مَحْذُوفًا تَقْدِيرُهُ: «حَقٌّ» أَي: لَا إِلَهَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ - كَمَا تَقُولُ: لَا أَحَدٌ قَائِمٌ إِلَّا فَلَانٌ.

فإن قيل: مَا هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْحَكْمِ هَلْ هُوَ الْمَحْذُوفُ أَوْ الْمَوْجُودُ؟
نقول: فِي مِثْلِ هَذَا التَّرْكِيبِ يَكُونُ مَا بَعْدَ «إِلَّا» بَدَلًا مِمَّا قَبْلَهَا، وَالبَدَلُ كَمَا قَالَ ابْنُ مَالِكٍ هُوَ: التَّابِعُ الْمَقْصُودُ بِالْحَكْمِ بَلَا وَاسْطَةً هُوَ الْمُسَمَّى بَدَلًا وَعَلَى هَذَا فَتَقُولُ: «اللَّهُ» بَدَلٌ مِنْ «حَقٌّ» الَّذِي هُوَ الْخَبَرُ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالْحَكْمِ؛ أَي: لَا يُوجَدُ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْآلِهَةِ فَهِيَ بَاطِلَةٌ.
❖ وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ». فَهِيَ كَلِمَتَانِ مُؤَكَّدَتَانِ فَ«وَحْدَهُ»، مُؤَكَّدَةٌ لِلْإِثْبَاتِ، «وَلَا شَرِيكَ لَهُ». لِلنَّفْيِ.

❖ وقوله: «لَهُ الْمَلِكُ». أَي: لَهُ الْمَلِكُ كُلُّهُ؛ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ فِيهَا حَصْرٌ وَهُوَ تَقْدِيمُ الْخَبَرِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: وَلَهُ الْحَمْدُ، وَقَدْ قَرَنَ الْحَمْدَ بِالْمَلِكِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحْمَدُ عَلَى كُلِّ مَا يَفْعَلُهُ فِي مَلِكِهِ، حَتَّى أُمُورِ الشَّرِّ الَّتِي يَفْعَلُهَا اللَّهُ تَعَالَى وَيُقَدِّرُهَا يُحْمَدُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ أُمُورَ الشَّرِّ الَّتِي يَقْدِرُهَا اللَّهُ فِيهَا خَيْرٌ عَظِيمٌ، فَهِيَ مِنْ تِمَامِ حِكْمَتِهِ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ:

قرن الحمد بالملك؛ لأن جميع ملكه متضمن الحمد الذي يُحمد عليه.

❖ وقوله: «وهو على كل شيء قدير». قوله: «كل شيء». عامٌ وصيغة العموم فيها «كل» فهو سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات، وتعلق القدرة في الموجودات يكون بأن يُعِدُّها أو يُغَيِّرُها، وفي المعدومات بأن يُوجِدُها، فما من شيء إلا والله سبحانه قادرٌ عليه.

❖ ثم قال: «وكان يُنهي عن قيل وقال - هذا هو الشاهد - وكثرة السؤال». والسؤال هل المراد هنا هو: سؤال الاستجداء أم سؤال الاستفهام؟

نقول: أما سؤال الاستجداء فإنه يُنهي عنه سواء كثر أم قل، كما قال النبي ﷺ: «من سأل الناس أموالهم تكثر فأبوا يسأل جرة»^(١). وأخبر أن المسألة يُكَبُّ بها وجه الرجل^(٢)، وأخبر أن الإنسان لا يزال يسأل حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزعة لحم^(٣).

ولكن الظاهر أن المراد بذلك هنا: كثرة السؤال عن العلم؛ بدليل قوله ﷺ: «إنها أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم»^(٤).

وكثرة السؤال في العلم تنقسم إلى قسمين:

الأول: أن يسأل عما لم يقع ولا يتوقع.

والسؤال عما لا يتوقع أشد من الأول؛ لأنه من باب التنطع في العلم.

فالأشياء ثلاثة: شيء واقع، وشيء لم يقع لكنه متوقع، وشيء لم يقع ولا يتوقع.

فالسؤال عن الواقع غير مذموم، والسؤال عن غير الواقع الذي يتوقع وقوعه جائز استعداداً له، والسؤال عن غير الواقع الذي لا يتوقع مكروه؛ لأنه من باب التنطع، وإضاعة الوقت فيه إضاعة بلا فائدة.

أما القسم الثاني من كثرة السؤال فهو: كثرة التعنت والمجادلات، وذلك بإيراد

الاحتمالات العقلية على الظواهر اللفظية، فهذا من باب التعنت، مثاله:

(١) أخرجه مسلم (١٠٤١).

(٢) أخرجه النسائي (٢٦٠٠)، وأبو داود (١٦٣٩)، وأحمد (١٩/٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

أَنْ يَأْتِيَ حَدِيثٌ ظَاهِرُهُ كَذَا فَيَأْتِي إِنْسَانٌ فَيَقُولُ: أَلَيْسَ يَحْتَمِلُ كَذَا؟ نَقُولُ: هَذَا مِنْ بَابِ التَّعَنُّتِ، وَقَدْ نَصَّ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّا لَوْ أَدْخَلْنَا الاحْتِمَالَاتِ الْعَقْلِيَّةَ فِي الدَّلَالَاتِ اللَّفْظِيَّةَ مَا بَقِيَ لَفْظٌ إِلَّا وَيَحْتَمِلُ مَعْنَى عَقْلِيًّا سِوَى ظَاهِرِهِ، وَحِينَئِذٍ يَضِيعُ النَّاسُ وَتَبْقَى عُلُومُهُمْ كُلُّهَا احْتِمَالَاتٍ، وَقَدْ امْتَدَحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصَّحَابَةَ بِأَنَّهُمْ أَعَمَّقُوا النَّاسَ عُلُومًا وَأَقْلَهُمْ تَكَلُّفًا، فَهَمَّ عُلُومُهُمْ عَمِيقَةً كَبِيرًا لَا قَاعَ لَهُ، وَأَقْلَهُمْ تَكَلُّفًا.

فَالْتَكَلُّفُ، وَكَثْرَةُ الْأَسْئَلَةِ، وَإِيرَادُ الاحْتِمَالَاتِ عَلَى النُّصُوصِ، لَا شَكَّ أَنَّهُ خِلَافُ جَادَةِ السَّلَفِ؛ إِذْ إِنْ السَّلَفُ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَلَا يَتَكَلَّفُونَ الْأَسْئَلَةَ؛ وَلِهَذَا قَالَ مَالِكٌ لِلَّذِي قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥٠. كَيْفَ اسْتَوَى؟ قَالَ لَهُ: السُّؤَالُ عَنْهُ بَدْعٌ؛ لِأَنَّهُ مِنَ التَّكَلُّفِ، بَلْ دَعِ الْأُمُورَ عَلَى ظَاهِرِهَا وَلَا تَتَعَمَّقْ، وَلَا تُورِدِ الاحْتِمَالَاتِ.

وَيُوجَدُ أَنَاثُ الْآنَ يُورِدُونَ مِثْلَ هَذِهِ الاحْتِمَالَاتِ عَلَى قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ» ^(١). فَيَقُولُ هَذَا الْمُرَدُّ: ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ لَا يَزَالُ مَوْجُودًا عَلَى الْكَرَةِ الْأَرْضِيَّةِ، فَإِنَّهُ إِذَا انْتَقَلَ مِنْ جِهَةٍ حَلٍّ فِي جِهَةٍ أُخْرَى فَعَلَى هَذَا يَكُونُ اللَّهُ تَعَالَى دَائِمًا نَازِلًا.

نَقُولُ: مَنْ قَالَ بِهَذَا، بَلْ نَقُولُ: سَلَّمَ لظَاهِرِ النَّصِّ وَقُل: يَنْزِلُ ثُلُثَ اللَّيْلِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ فَقَطْ، وَبَعْدَ ذَلِكَ لَا يَكُونُ نَزُولٌ بِالنِّسْبَةِ لِهَذِهِ الْجِهَةِ الَّتِي طَلَعَ الْفَجْرُ عَلَيْهَا، فَالرَّبُّ ﷻ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ حَتَّى يُقَاسَ بِخَلْقِهِ.

وَقَدْ امْتَدَحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصَّحَابَةَ بِأَنَّهُمْ أَعَمَّقُوا النَّاسَ عُلُومًا وَأَقْلَهُمْ تَكَلُّفًا، فَعُلُومُهُمْ عَمِيقَةٌ بَحْرٌ لَا قَاعَ لَهُ، وَأَقْلَهُمْ تَكَلُّفًا، فَالْتَكَلُّفُ وَإِيرَادُ الْأَسْئَلَةِ وَكَثْرَةُ الاحْتِمَالَاتِ عَلَى النُّصُوصِ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ خِلَافُ جَادَةِ السَّلَفِ، السَّلَفُ يَأْخُذُونَ الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَلَا يَتَكَلَّفُونَ كَثِيرًا، وَلِهَذَا قَالَ مَالِكٌ لِلَّذِي قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥٠ كَيْفَ اسْتَوَى؟ قَالَ لَهُ: «السُّؤَالُ عَنْهُ بَدْعٌ؛ لِأَنَّهُ تَكَلُّفٌ، أَتَرَكَ الْأُمُورَ عَلَى ظَاهِرِهَا وَلَا تَتَعَمَّقْ، وَلَا تُورِدُ احْتِمَالَاتٍ، كَذَلِكَ يَوْجَدُ الْآنَ أَنَاثُ يُورِدُونَ مِثْلَ هَذِهِ الاحْتِمَالَاتِ عَلَى قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ» ^(١). فَيَقُولُ هَذَا الْمُرَدُّ:

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١١٤٥)، وَمُسْلِمٌ (٧٥٨).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١١٤٥)، ٦٣٢١، ٧٤٩٤، وَمُسْلِمٌ (٧٥٨).

ثَلَاثَ اللَّيْلِ الْآخِرِ لَا يَزَالُ مُوجُودًا عَلَى الْكَرَةِ الْأَرْضِيَّةِ إِذَا انْتَقَلَ مِنْ جِهَةٍ حَلٍّ فِي جِهَةٍ أُخْرَى، إِذَا يَكُونُ اللَّهُ دَائِمًا نَازِلًا.

نقول له: مَنْ قَالَ لَكَ أوردَ هَذَا الْإِيرَادَ، ابْقَى عَلَى ظَاهِرِ اللَّفْظِ، يَنْزِلُ ثَلَاثَ اللَّيْلِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ فَقَطْ، بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَكُونُ نَزُولُ لَتِلْكَ الْجِهَةِ الَّتِي طَاعَ الْفَجْرُ عَلَيْهَا، وَالرَّبُّ ~~يَكُنْ~~ لَيْسَ كَمَثَلِ شَيْءٍ حَتَّى يُقَاسَ بِخَلْقِهِ، فَأَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْمَسَائِلَاتِ مِمَّا يَكْرَهُ، فَصَارَ كَثْرَةُ السُّؤَالِ الْآنَ قِسْمَانِ:

القسم الأول: ثلاثة أنواع، والثاني: نوع واحد.

القسم الأول: أَنْ يَسْأَلَ عَمَّا وَقَعَ؛ وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ عَمَّا لَمْ يَقَعْ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا يَتَوَقَّعُ.

الثاني: كَثْرَةُ الْإِيرَادَاتِ عَلَى ظَوَاهِرِ النُّصُوصِ، فَإِنَّ هَذَا يُوجِبُ لِلْإِنْسَانِ الدُّخُولَ فِي مَتَاهَاتٍ وَعَدَمَ اسْتِقْرَارِ عِلْمِهِ، وَأَنْ يَكُونَ دَائِمًا فِي شَكٍّ: يُحْتَمَلُ كَذَا، يُحْتَمَلُ كَذَا، هَذَا مِمَّا يُنْهَى عَنْهُ. ❖ أَمَّا قَوْلُهُ: «إِضَاعَةُ الْمَالِ». فَظَاهِرُ إِضَاعَةِ الْمَالِ صَرْفُهُ فِيهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. مِثْلُ إِنْسَانٍ يَشْتَرِي مِثْلًا بِأَلْفِ رِيَالٍ زِفْتًا وَهُوَ مَا يُوقَدُ بِهِ، ثُمَّ يَشْعَلُهُ لِيَرَى لَوْنَ اسْتِعَالِ النَّارِ بِهِ. هَذَا إِضَاعَةُ مَالٍ.

وإِضَاعَةُ الْمَالِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ الْإِنْسَانِ، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ النَّاسِ كَانَ بِالْغَا عَاقِلًا اشْتَرَى أَشْيَاءَ مَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلصِّبْيَانِ، اشْتَرَى مِثْلًا جِرَافَةً صَغِيرَةً يَلْعَبُ بِهَا بِالْيَدِ، أَوْ عُرُوسَةً إِذَا كَانَتْ امْرَأَةً أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أَوْ مَفْرَقَاتٍ، فَهَذَا بِالنِّسْبَةِ لِهَذَا الرَّجُلِ الْبَالِغِ يَعْتَبَرُ إِضَاعَةُ مَالٍ بِلَا شَكٍّ، لَكِنَّهُ لَوْ اشْتَرَاهُ لِصَبِيٍّ يَلْعَبُ بِهِ وَيَدْخُلُ السُّرُورَ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُبَاحَةِ صَارَ ذَلِكَ غَيْرَ إِضَاعَةِ الْمَالِ، وَلِهَذَا يُرَخَّصُ لِلصِّغَارِ مِنَ الْأَعْيَانِ مَا لَا يُرَخَّصُ لِلْكِبَارِ، وَيُرَخَّصُ فِي الشَّرَاءِ لَهُمْ مَا لَا يُرَخَّصُ لِلْكِبَارِ.

وَإِذَا أَنْفَقَ مَالَهُ فِي أَمْرٍ مُضِرٍّ، هَلْ هُوَ إِضَاعَةُ مَالٍ؟

الجواب: نَعَمْ بِطَرِيقِ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ أَنْفَقَهُ فِي شَيْءٍ لَا يَنْفَعُ فَهُوَ إِضَاعَةُ مَالٍ، فَمَا بِالْكَ إِذَا أَنْفَقَهُ فِي شَيْءٍ ضَارٍّ! وَمِنْ هُنَا نَأْخُذُ تَحْرِيمَ الدِّخَانِ؛ لِأَنَّهُ بِلَا شَكٍّ مُضِرٌّ، حَتَّى الَّذِينَ يَشْرِبُونَهُ يُقَرِّونَ بِضَرَرِهِ.

فتقول: إِذَا صَرَفَ الْمَالُ فِيهِ فَهَذَا مِنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ.

❖ قَوْلُهُ: «وَمَنْعًا وَهَاتٍ». أَي: مَنْعًا فِيهِ يَبْذُلُ وَهَاتٍ فِيهِمَا يَسْأَلُ، يَكُونُ جَمُوعًا مَنْوَعًا، الَّذِي عَنْدَهُ يُمْسِكُهُ فَلَا يَصْرِفُهُ، وَالَّذِي عَنْدَ غَيْرِهِ يَأْخُذُهُ وَيَقُولُ: هَاتِ. أَعْطَاهُ عَشْرَةَ يَقُولُ:

هات عشرين. وإذا أعطاه عشرين قَالَ: هات ثلاثين.

إِذَا: المنع والهات عبارة عن: منع ما يبذل وطلب ما ليس عنده.

قَوْلُهُ: «وعقوق الأمهات». العقُ بمعنى: القطع؛ يَعْنِي: مَنَعَ حَقَّ الْأُمِّ.

ونصَّ على الأمِّ؛ لأنها أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ مِنَ الْأَبِ؛ وَلأنَّ الْأُمَّ لضعفها لا تأخذ بحقها غالبًا بخلاف الأب؛ لأنَّ الْأَبَّ لو أن ابنه قطعه مثلاً لأخذ حقه بيده بخلاف الأم؛ لأنها لضعفها ورقيتها وحنانها لا تأخذ بحقها، فلهذا قَالَ: «وعقوق الأمهات». وإلا فعقوق الآباء حرامٌ منهِّي عنه.

قَوْلُهُ: «ووأد البنات». الوأدُ: هو دَفْنُ الْحَيِّ، وكان الناس في الجاهلية لسفَههم وجَهْلهم يدفنُ الرَّجُلَ ابنته - أعوذ بالله - يَعْنِي: أغلظ من الحيوان، يحفر لها حفرةً وهي تشاهد ويدفنها وهي حيَّةٌ، لماذا؟ خوفاً من العارِ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٩﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ٥٨﴾ يختفي. ﴿يَمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ٥٩﴾ يَعْنِي: على ذُلٍّ وهوان. ﴿أَرَىٰ يَدُسُّ فِي التُّرَابِ ٥٨﴾ [الحق: ٥٨-٥٩]؛ يَعْنِي: يتردُّ هل يُمَسِّكُ هذه البنت على هون أو يدسُّها في التراب؟ وأكثرهم يدسُّها في التراب - نسأل الله العافية - حتَّى ذكروا أنَّ الواحدَ منهم يحفرُ الحفرةَ لابنته فإذا طَارَ الْغَبَارُ على لحيته نَفَضَتْ هي لحيته عَنِ الْغَبَارِ ثُمَّ يدفنها - والعياذُ بالله -، وربما يدفن ابنته وهي تستغيثُ به وتقول: يا أبي، يا أبي وهو يدفنها - والعياذُ بالله - جبروت وغلظة - نسأل الله العافية - ولهذا قَالَ: «ووأد البنات».

ولم يذكر وأد الأبناء بناءً على الغالب، فالغالب أنَّ البنات هي التي تُوأدُ ولهذا قَالَ: «ووأد البنات».

الشاهد من الحديث: هو كان يَنْهَى عن «قيل وقال». ولذلك يعتبرُ الرَّجُلُ الصَّمُوتَ محترماً، لكن لاحظ أنَّ الصَّمْتَ في غير موضعِهِ جفاءٌ؛ لأنَّ بَعْضَ النَّاسِ صَمُوتٌ يجلسُ في المكانِ ساعةً أو أكثر أو أقل ما يتكلم، هذا جفاءٌ، لكن لا تكن كثيرَ الكلام، ولا تكن ساكناً في موضعٍ لا ينبغي فيه السكوتُ، خيرُ الأمور الوسط.

ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ تَحَلَّاهُ:

٢٣- باب حِفْظِ اللِّسَانِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ﴾ (١٨) [نقطة: ١٨].

هذا من أهم ما يكون - نسأل الله أن يعيننا وإياكم على حفظه - حفظ اللسان من أهم ما يكون؛ لأن النبي ﷺ أخذ بلسان نفسه وقال لمعاذ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ - يَعْنِي: هل علينا إنم في الكلام - قَالَ: «تَكَلَّمْتَ أَمَّا يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاقِبِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» (١). فحَصَائِدُ اللِّسَانِ من أخطر ما يكون على الإنسان ربما يتكلم الإنسان بكلمة واحدة لا يُلْقِي إليها بالاً وهي من غضب الله تهوى به في النار (٢) - نسأل الله العافية - ولذلك يجب أن نحفظ ألسنتنا عما حَرَّمَ الله، ويندب ندباً بالغاً أن نحفظها عما لا ينفع «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» (٣). أما ما كان خيراً في ذاته أو خيراً لغيره فلتكلم به، فالخير لذاته مثل الذكر والقرآن، والخير لغيره أن يكون كلاماً مباحاً لكن به إدخال السرور على جلسائك فهذا لا بأس به هذا خير؛ يَعْنِي: لو كان إنسان يريد أن يتكلم بشيء مباح لكن فيه إدخال السرور على الغير، فهذا من الخير لكن ليس خيراً لذاته، بل خيراً لغيره، فإن اجتمع في ذلك أن يكون خيراً في ذاته وخيراً في غيره مثل أن يتكلم بمسائل علم تنفع الحاضرين كان هذا أطيّب وأفضل.

واللسان له آفات كثيرة تتعلق بحق الله وتعلق بحق عباده الله، ففي حق الله: أن يتكلم بكلام يعترض به على حكم الله القدري أو حكم الله الشرعي أو يصف الله بما لا يليق به، هذا يتعلق بحق الله. مثال الأول: القدح في حكم الله القدري: أن يقدح فيما يقدّر الله تعالى على عباده من قحط المطر وجذب الأرض أو أمراض تحدث أو فتن أو حروب وغيرها، هذا لا يجوز أن تعترض على الله في هذا، الله ﷻ له حكمة فيما يُقدّر، واعلم أنه لم يُقدّر هذا الشيء إلا لحكمة عظيمة قد تخفى عليك، فلا يجوز أن تعترض على الله فيها، ولهذا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لَوْ

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٤/٨٣، ٢٦٩).

(٢) سيأتي عند الحديث رقم (٦٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٨٥، ٦١٣٦)، ومسلم (٤٧).

تَفْتَحَ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١). هذا فيما يتعلق بحق الله.

أَمَّا فيما يتعلق بحق المخلوق: كالغيبَةِ أو السَّبِّ أو الشَّتْمِ أو اللَّعْنِ كُلُّ هذا يجب حفظ اللسان منه، وأن يبتعد اللسان منه غاية الابتعاد.

❖ وقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٢). تكلمنا عليه.

❖ وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٣).

❖ حرف جر زائد، و﴿قَوْلٍ﴾ مفعول به منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، فكلمة «قول» إذا دخل عليها حرف جر زائد إعراباً لكنه ليس زائداً معنئياً، بل يزيدُها معنئياً.

و﴿قَوْلٍ﴾. نكرة، والمعروف عند علماء البلاغة أن الحروف الزائدة كلها تفيّد التوكيد، وعلى هذا فهي مؤكدة لعموم كلمة «قول» لأن «قول» نكرة في سياق النفي فتكون عامّة، وتكون «من» مؤكدة لهذا العموم، وأنا أريد أن أتوصل بهذا التقرير إلى أن أي قول يقوله الإنسان فإن لديه ذلك الرقيب العتيد، كل قول سواء خير أو شر أو لغو - لا خير ولا شر - فلديك رقيب يراقب، وعتيد حاضر، حتى إن الإمام أحمد دخل عليه رجل وهو يئن من المرض فقال له: إن طاووساً يقول: أن الملك يكتب أنين المريض، فأمسك بحلقه عن الأنين؛ خوفاً من أن يكتب عليه.

إذا: ما من قولٍ تقوله إلا يُكْتَبُ - سبحانه الله - ما أكثر الأقوال المكتوبة، نحن الآن في هذا المكان لو سجلنا كلامنا قبل عشر ليالٍ فقط في جلستنا هذه، كم يكون من أشرطة؟
الجواب: أشرطة كثيرة، كل هذا المكتوب سوف يُنشر لك يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ويُقال: اقرأ كتابك.

فأنا أقول: والله إن إنساناً يُكْتَبُ عليه كل ما يقول لحريّ به أن يقلّ من القول؛ لأنه سوف يجد هذا الكتاب منشوراً يوم القيامة، لأن هذا الرقيب العتيد يكتب الخير والشر، الخير لك والشر عليك، قد يتكافأ، وقد يزيد أحدهما، لكن من نعمة الله أن الحسنه بعشرة

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) سبق تخريجه.

أمثالها والسيئة بمثلها فقط.

وفي هذه الآية تحذيرًا من إطلاق اللسان؛ لأنَّ كلَّ شيء سوف يُكتب.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٧٤ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمُقَدَّمِيُّ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ سَمِعَ أَبَا حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ».

[الحديث ٦٤٧٤ - طرفه في: ٦٨٠٧].

الرسول ﷺ يخاطبُ المؤمنين، فإذا ضَمِنَ المؤمنُ ما بين لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ ضَمِنَ الرسولُ له الجنة.

والضَّامِنُ هنا إنما يَضْمَنُ على أنه وكيلٌ يَعْنِي: عن الله، أما الرسول ﷺ نفسه فلا يقدر أن يعطي الجنة أبدًا، لكنه ضامنٌ بها أَوْحَى اللهُ إليه فهو كالرسول عن الله ﷻ أنه ضامن لمن حفظ ما بين لَحْيَيْهِ - وهو اللِّسَان - وما بين رِجْلَيْهِ - وهو الفرج - فإن الجنة مضمونة له، وفي هذا الترغيب على حفظ اللسان.

وَأَمَّا مَا وَرَدَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ الْمَلِكَ يَكْتُبُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ دُونَ اللَّغْوِ، فَهَذَا خِلَافٌ لظَاهِرِ الْآيَةِ؛ لَكِنْ لَعَلَّ ابْنَ عَبَّاسٍ إِنْ صَحَّ عَنْهُ النُّقْلُ يَرِيدُ مَا يَثَابُ عَلَيْهِ أَوْ يَعَاقِبُ؛ بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ كِتَابًا يَثَابُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ أَوْ يَعَاقِبُ إِلَّا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، أَمَّا الْكِتَابُ الثَّانِي يُكْتُبُ، وَلَكِنْ لَا يُوَاخِذُ بِهِ الْإِنْسَانُ.

وَأَمَّا قَوْلُ الْبَعْضِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهِ سِوَاهُ، فَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، بَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»^(١). لِأَنَّ نِسْبَةَ الْمَكْرُوهِ إِلَى اللَّهِ كَأَنَّهُ يَعْطِي التَّرْجِعَ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنْ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُ خَالِقُ الْحَمِيرِ وَخَالِقُ الْكِلَابِ وَخَالِقُ الْأَقْدَارِ. لَكِنْ تَقُولَ: اللَّهُ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، أَوْ تَجِيبَ مَنْ سَأَلَكَ، شَخْصٌ يَسْأَلُ مِنْ خَلْقِ الْحِمَارِ؟ تَقُولَ: اللَّهُ، أَمَّا أَنْ تَنْصَرَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَقْبَحِ ذَكَرَهَا تَنْسِبُهُ إِلَى اللَّهِ فَهَذَا فِيهِ شَيْءٌ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ، فَإِذَا قُلْتَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُحْمَدُ عَلَى

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٣، ٣٨٠٤)، وابن حبان (٧٧٦)، والحاكم (٤٣١/١).

مكروه سواه، صار المعنى أنك ضجر من تقدير الله ﷻ، قل كما قال الرسول ﷺ: «الحمد لله على كلِّ حالٍ». وإذا أصابه ما يُسرُّ به يقول: «الحمد لله الذي تتمُّ بنعمته الصَّالحاتِ»^(١). هذا هدي النَّبِيِّ ﷺ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٤٧٥- حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(٢).

❦ قوله: «فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ». ومن ذلك إذا كان عنده راديو أو مسجل فيه أغاني، فإنه لا يحلُّ له أن يرفع صوته بحيث يؤذي جاره، بل لو كان عنده مسجل فيه قرآن ولكن جاره يتأذى بذلك؛ لأنه يريد أن ينام فإنه لا يحلُّ له أن يرفع صوته؛ لأن ذلك يؤذي الجار. فلو قال أحد الناس: أنا في سطحي أحبُّ أن أقرأ القرآن -وهو رجل قوي الصوت- وصار إذا طاب المنام عند النَّاسِ رفعَ صوته بالقرآن، وجيرانه يريدون النَّومَ ولا يحصل لهم، وربما يكونون مرَّضى فماذا نقول لهذا؟

الجواب: نقولُ له: لا يجوز أن ترفع صوتك، لكن بعض النَّاسِ لو قلتَ لها هذا الكلام، قال: وهل أنا أغني؟

نقولُ له: أنت ما تغني، أنت تقرأ كلام الله، لكن لا تؤذي بكلام الله النَّاسَ، لا تجعل النَّاسَ يكرهون القرآنَ من أجلك؛ لأنَّ النفوسَ ضعيفةٌ ربما يكره القرآنَ من أجل عمل هذا القارئ الذي شوش به عليه وآذاه.

وهل يدخل في ذلك الضَّرُّ لا يؤذي جاره؟ من باب أولى إذا كان يضُرُّ جاره من باب أولى، مثل أن يكون عنده شجرة إلى جدار جاره إذا سقاها تسرَّب الماءُ إلى بيت جاره فتضرَّر

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) أخرجه مسلم (٤٧).

به ماذا نقول؟ حرام؛ لأنه يؤذي جاره، أو مثلاً عنده آلة يدق بها على الأرض فتهدأ أرض جاره، هذا أيضاً يكون ضرراً أو إيذاءً.

فإذا قال قائل: ما حد الجار؟

الجواب: الجار وردت أحاديث فيها صَعْفُ أن حدّه أربعون بيتاً^(١)، ولكن لا شك أن الجار الملاصق ليس كالجار الآخر، ولكن يظهر إذا لم تصح هذه الأحاديث أنه يرجع في ذلك إلى العرف.

❦ قوله: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ». الضيف هو المسافر الذي ينزل بك، أما صاحب البلد فليس بضيف، فلو جاءك شخص من أهل البلد ففرغ الباب فأذنت له بالدخول، فقال: أنا ضيفٌ عندك، ماذا تقول؟ أقول: لست بضيف، إن قلت أنك ضيف في مجيئك هذا لا بأس أن نكرمه، لكن ضيف يريد أن يبقى عندي يوم وليلة؛ لأن يوم وليلة واجب للضيف، ثلاثة أيام سنة^(٢)، فهذا لا أمكنه، وإلا سيأتي كل يوم عشرة أشخاص أو خمسة عشر من أهل البلد يقولون: نحن ضيوف.

على كل حال: الضيف هو المسافر النازل بصاحب القرية، ويجب إكرامه بما يكرم به عادة، وهذا يختلف باختلاف الناس، مثل لو جاءك إنسان كبير في علمه أو ماله أو جاهه، فليس كالإنسان الصغير، حتى الإنسان الصغير ما يرى أن واجباً عليك أن تكرمه كما تكرم الكبير، بل ربما إن أكرمته كما تكرم الكبير لعد ذلك سخية واستهزاء.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٧٦ - حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي شَرِيحٍ الْخَزَاعِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَذْنَابِي وَوَعَاهُ قَلْبِي النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الضَّيْفَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ جَائِزَتُهُ». قِيلَ: مَا جَائِزَتُهُ؟ قَالَ: «يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَ كُنْتُ»^(١).

(١) انظر: «كشف الخفاء» (١٠٥٤)، عزاه العجلوني إلى أبي يعلى وابن حبان في «الضعفاء».

(٢) سيأتي تحريجه قريباً.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨).

فبما سبق ذكر من وجوب إكرام الضيف ومن وجوب السُّكُوتِ إلا عن خير، وفيها أيضًا أن الضيافة التامة ثلاثة أيام والضيافة التي لا بدَّ منها يومًا وليلة.

فإن قَالَ قائلٌ: الذي وَرَدَ في الحديث: الأمرُ بالسُّكُوتِ وعدمِ الكلامِ إلَّا في خيرٍ، والصَّحَابَةُ رضي الله عنهم لا شكَّ أنهم كانوا يتكلمون كلامًا عاديًا مع بعضهم البعض، ولم تقتصر أحاديثهم على الكلام في الخير فحسب؟

فالجواب: أن ما وَرَدَ في الحديث يشمل الخير للنفس والغير، فالكلام مع الزوجة هذا خيرٌ لغيره تحصلُ به الألفة وعدم الوحشة، وكذلك مع أصدقائه؛ لكن النهي في الحديث عن مثل لو كان الإنسان يتكلم بكلام لغو بدون فائدة أو يتكلم بكلام حرام، مع أنه قد يقال أن قوله فليقل خيرًا؛ يَعْنِي: فلا يقل شرًّا وحينئذ يكون المحرم الكلام في الشر فقط.

❖ قوله: «جائزته»؛ يَعْنِي: جائزة الضيافة التي لا بدَّ منها، الضيافة ثلاثة أيام هذه الكاملة، ثم جائزته؛ يَعْنِي: التي لا بدَّ منها يوم وليلة.

ثُمَّ قَالَ الْبُحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٧٧ - حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمَزَةَ، حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ يَزِيدَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عِيسَى بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ التَّبَّيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُن فِيهَا يَزُلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبَدًا بَيْنَ الْمَشْرِقِ»^(١).

[الحديث ٦٤٧٧ - طرفه في ٦٤٧٨].

هذا فيه أيضًا: وجوب حفظ اللسان، وأن الإنسان يتكلم بالكلمة لا يتبين ما فيها؛ يَعْنِي: لا يتثبت ولا ينظر ما فيها من مصلحة أو مفسدة فيزل بها في النار أبعد ما بين المشرق؛ يَعْنِي: ما بين المشرق والمغرب، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرِيلَ تَقِيَكُمْ الْحَرَّ﴾^(٨١) [الفلق: ٨١]. يَعْنِي: الحرَّ والبرد، فقد يُحذف أحد المتقابلين لدلالة الثاني عليه.

وهل السَّلامة دائمًا في السكوت؟

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٨).

نقول: قد تكون السَّلامة في الكلام، ولهذا مثلاً لو سَكَتَ عن الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر ما صار سالماً، كذلك لو سَكَتَ سكوتاً يعتبره الجلوس جفاءً قد لا يكون سالماً؛ لأن إدخال السُّرورِ على المسلم وتنشيطه وتبسيطه هذا من الأمور المطلوبة، فلو تركه فهو جفاء بدون شك؛ يَعْنِي: يأتي يجلس هو وآخر نصف ساعة، ساعة ما يتكلم، هذا خبلٌ وجفاءٌ. والمراد بـ«ال» في الكلمة: الجنس، وأيضاً يجب أن نعلم -وهذه فائدة- أن الكلمة في لسان الشارع غير الكلمة في لسان النحويين.

الكلمة هي الجملة المفيدة كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ^(١) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴿[المائدة: ٩٩-١٠٠]﴾. وهي جملٌ، وقال النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهُ باطل» ^(٢). قَالَ ﷺ «كلمة». مع أنها شطْرُ بيتٍ مستقلٍ، فالكلمة في اصطلاح النحويين غيرها في لسان الشرع وقول مالك:

*** وكلمة بها كلام قد يعم ***

❖ وقوله: «ما يَتَبَيَّنُ». هذا باعتبار اصطلاح النحويين لا باعتبار اللغة، وإلا فالأصل في اللغة أن الكلمة هي الجملة المفيدة.

ومعنى «ما يَتَبَيَّنُ فيها»، يَعْنِي: ما يثبت، وليس معناها: ما يكون فصيحاً، المراد ما يتبين فيها ما يثبت لا يعلم هذه حرام أو حلال؟ هل هي غيبة أو غير غيبة؟ مثلاً هل هي صدق أو كذب؟ وهكذا لا يثبت فيها ما يدري عنها خرجت من لسانه هكذا.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٧٨-٦ - حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُنِيرٍ سَمِعَ أَبَا النَّضْرِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -

يَعْنِي: ابْنَ دِينَارٍ - عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَسْتَكَلِمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

كُلُّ هَذَا فِيهِ تَحْذِيرٌ مِنْ إِطْلَاقِ اللِّسَانِ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ، فَقَدْ يَقُولُ كَلِمَةً يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَكَلَّمَ بِسُخْرِيَةٍ فِي ذَاتِ اللَّهِ أَوْ فِي الدِّينِ مِثْلًا، أَوْ فِي أَهْلِ الْخَيْرِ وَمَا يَهْتَمُّ بِهَا، وَتَكُونُ كَفْرًا، فَيَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ وَهَذَا كَثِيرًا مَا يَقَعُ لَأَسِيًّا مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ كَثْرَةُ الْمَزَاحِ، تَجِدُهُ يَتَكَلَّمُ وَلَا يَبَالِي تَأْتِي مِنْهُ كَلِمَةٌ تَحْبُطُ عَمَلَهُ وَهُوَ لَا يَدْرِي.

كَذَلِكَ بِالْعَكْسِ الْكَلِمَةُ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ قَدْ يَتَكَلَّمَ الْإِنْسَانُ بِكَلِمَةٍ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا فَيَسْمَعُهَا شَخْصٌ فَيَنْتَفِعُ بِهَا، وَتَكُونُ كَلِمَةٌ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ مِثْلًا تَكَلَّمَ كَلِمَةً لَمْ يَعْطِ لَهَا بَالًا فَيَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ مَعَ أَنَّهُ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، لَكِنْ أَثَارُهَا الطَّيِبَةُ يَثَابُ عَلَيْهَا وَإِلَّا فَقَدْ يَقَالُ إِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي لَا يُلْقِي الْبَالُ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ، وَهُوَ لَمْ يَرِدْ؟

نقول: هذا من باب الثمرات؛ لأن هناك فرقًا بين ثمرات الشيء وبين نفس الشيء، قد يكون للشيء ثمراتٌ جليلةٌ ينتفع بها الإنسان وهي كلمةٌ ما ألقى لها بال.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٤ - بَابُ الْبُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

قوله: «من خشية الله». «من» هذه للسببية؛ أي: بسبب خشية الله، والخشية هي: الخوف المبنى على العلم؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [طه: ٢٨]. وهي أيضًا مبنية على عظم المخشي، فأما الخوف الذي لا يبنى على علم فإنه يسمى خوفًا ولا يسمى خشية، ثم إن الخوف قد لا يكون من باب تعظيم المخشي، ولكن من باب ضعف الخائف، فمثلًا يخاف الصبي أكبر منه سنًا، هذا الخوف ليس من الخشية؛ لأنه إنما حصل له الخوف من أجل ضعفه أمام هذا، وإلا فهذا المخوف ضعيف، فالخشية نقول: هي الخوف المبنى على العلم وتكون من عظم المخشي.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَرَدَ فِي حَدِيثِ بَدِءِ الْوَحْيِ لَمَّا جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَرَدَ فِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «... لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»^(١). فَقَالَ: «خَشِيتُ» مَعَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَنْ يَخْشَاهُ؟

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (١٦٠).

فالجواب: أن هذا شيء عظيم ماله مقابل، لا يستطيع أن يقابله، فإذا جاءك شيء تخشاه من عظمتيه، وليس لك فيه قبل، فهذا تعظيم، وكذا قول هارون عليه السلام: ﴿خَشِيتُ أَنْ يَقُولَ فَرَّقَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفَعْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]؛ لأن موقف موسى عليه السلام من هارون عليه السلام موقف العزة فهو أخذ برأسه وأخذ بلحيته أيضًا، فيجوز أن يقول الإنسان خشيت على الشيء الذي يخشاه لعظمته.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٧٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنِي حُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ: رَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(١).

قوله: «سبعة». هذه لا تدل على الحصر؛ لأنه قد وردت أحاديث صحيحة في أناس يظللهم الله في ظله ليسوا من هؤلاء السبعة، لكن الرسول ﷺ أحيانًا يذكر أشياء محصورة في سياق واحد، ولكنها لا تدل على أن ما سواها لا يدخل في هذا الحكم.

قوله: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم». هل لا يوجد إلا هؤلاء الثلاثة؟

الجواب: لا، فمثلاً لما حدث بهذا قال أبو ذر: من هم يا رسول الله؟ خابوا وخسروا. قَالَ: «الْمُسْبِلُ وَالْمَنَانُ وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتْهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»^(٢).

هذا حديث آخر: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أَسِيمُطُ زَانٍ، وَعَائِلُ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ بِضَاعَتَهُ، لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِمِيزَانِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِمِيزَانِهِ»^(٣). هذا ذكر فيه ثلاثة، وفي الآخر ثلاثة، فدل ذلك على أن مثل هذا التعبير لا يدل على الحصر وهو كذلك.

(١) أخرجه مسلم (١٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤٦/٦)، وفي «الأوسط» (٥٥٧٧)، وانظر: «الترغيب والترهيب» (٢٦٦٤).

لكن هؤلاء السبعة ذكروا على وجه التمام في سياق آخر غير ما ذكره المؤلف: «إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئاً له ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(١). هؤلاء سبعة يظلهم الله في ظله.

والشاهد من هذا الحديث: ما ذكره المؤلف في هذا السياق: وهو قوله: «رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»، واعلم أن قول الرسول ﷺ: «في ظله». هذا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه؛ يعني: في ظلّ يخلقه الله لا يبنيه الآدميون بالسقوف والعروش وما أشبه ذلك، فالدنيا يبنّي الناس فيها ما يظلهم لكن في الآخرة ما فيها ظلّ إلا ظلّ الله ﷻ الذي خلقه، فهو ظلّ مخلوق وليس ظلّ الخالق ﷻ.

وقد توهّم بعض الناس من باب التمسك بظاهر السنة فيما يضيفه الله إلى نفسه وادّعى أننا إذا قلنا: إنه ظلّ مخلوق أن ذلك تحريف للكلم عن مواضعه، ولكن هذا من جهله، وذلك لأن الظلّ يكون تحت المظلل عنه، الظلال دون الشيء لا بدّ أن يكون تحته وإلا لم يكن ظلّا.

وهل يمكن أن يكون هناك شيء ذو نور يكون فوق الله ﷻ يكون الله ﷻ مُظللًا عنه، يمكن أو لا يمكن؟

الجواب: لا يمكن قطعاً، لو أن أحداً قال هذا؛ لهُوى إلى الهاوية لصار كالذي ينكر علو الله. الله ﷻ لا يمكن أن يكون شيء فوقه، ومعلوم أن الناس بالحشر على الأرض، فلو قدر أن هذا ظلّ الله نفسه لزم من هذا أن يكون هناك شيء فوقه يكون الله تعالى ظلالاً دونه ودون الخلائق وهذا لا شك أنه معنى منكر، فالحديث لا يدلّ على هذا أصلاً حتى يقال: إنه مُحَرَّف عن موضعه نقول: «في ظله». أضافه الله إلى نفسه؛ لأنه في ذلك الوقت لا يستطيع أحد أن يأتي بظلال، في الدنيا نستطيع أن نبني أبنية نستظل بها، مع ما خلق الله تعالى من الظلال من الكهوف وغيرها، لكن في الآخرة ما فيها إلا ظلّ الله الذي خلقه إما ظلّ العرش أو غيره مما يظل، ولهذا

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

جاء في الحديث: «كُلُّ امرئٍ في ظِلِّ صدقته يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). الصَّدَقَاتُ تأتي يومَ القيامة تُظِلُّ صاحبها، وحكى لنا بعض الناس من كبار السن أن رجلاً كان قد منع أهله أن يتصدقوا من ماله بشيء وقال: لا تتصدقوا بشيء، ولكن كانت العائلة في البيت عائلةً كريمة إذا جاء المحتاج أعطوه، فجاءهم فقيرٌ محتاجٌ إلى لباسٍ، فأعطوه كِسوةً، ثم جاءهم فقيرٌ آخر محتاجٌ إلى طعام فأعطوه ثلاث رطب فقط صاحب البيت رأى في المنام أن القيامة قامت، وأن الناس في كرب وشموس، فرأى على رأسه كساءً يظللُّه إلا أن فيه ثلاثة خروقي فجاءت ثلاث تمرات فسدت هذه الخروقي، فجاء إلى أهله مذعورًا، وقال: رأيت كذا وكذا وكذا، فما الذي حدث. قالوا: لم يحدث شيء، قال: لا، لابد أن تخبروني فأخبروه بأن هذا هو الحاصل، تصدقوا بكساء، ثم تصدقوا بتمرات، فقال لهم: أنتم في حلٍّ تصدقوا بما شئتم. الله أكبر، صارت فاتحة خير له.

فالحاصل: أن الرسول أخبر بأن كلَّ امرئٍ في ظلِّ صدقته يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فالظلُّ الذي قال فيه الرسول ﷺ: «في ظله». هذا ظلٌ يخلقه الله ﷻ، وإن صحَّ الحديث بلفظ: «يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ»^(٢). فقد بينَ هذا المبهم وإن لم يصح، فنقول: هذا ظلٌ يخلقه الله، والله أعلم به. ولكن العرش يكون فوق الخلائق، فكيف يكون حائلاً بين الشمس والخلائق، وهذا الذي جعلني أقول إن صحت الكلمة: «في ظل عرشه»؛ يَعْنِي: أن العرش فوق كل شيء فكيف يكون حائلاً بين الشمس وبين الخلائق يومَ القيامة.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٥- بابُ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ.

٦٤٨- حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ رَبِيعٍ، عَنْ حَذِيفَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يَمْتَنُّ كَأَن قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِهِ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِذَا أَنَا مِتُّ

(١) أخرجه أحمد (١٤٧/٤)، وابن خزيمة (٢٤٣١)، وابن حبان (٣٣١٠)، والحاكم (٥٧٦/١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٠/٣): «رجالٌ أحمد ثقات...».

(٢) أخرجه هذه الزيادة سعيد بن منصور في «سننه» كما في «الفتح» (١٤٤/٢)، وأخرج الترمذي (١٣٠٦)، وابن حبان (٧٣٣٧) هذا اللفظ في أحاديث أخرى.

فَخَذُونِي فَذَرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمِ صَائِفٍ، فَفَعَلُوا بِهِ فَجَمَعَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ؟ قَالَ: مَا حَمَلَنِي إِلَّا خَافَتُكَ. فَغَفَرَ لَهُ.

٦٤٨١- حَدَّثَنَا مُوسَى، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ سَمِعْتُ أَبِي، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَبْدِ الْغَافِرِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ «ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ - أَوْ قَبْلَكُمْ - أَنَّهُ اللَّهُ مَا لَا وَوَلَدًا؛ يَعْنِي: أَعْطَاهُ. قَالَ: فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِنِسِيِّهِ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ. قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَبِزْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا - فَسَرَهَا قَتَادَةُ: لَمْ يَدْخَرْ - وَإِنْ يَقْدُمُ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبُهُ، فَانْظُرُوا فَإِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي - أَوْ قَالَ: فَاسْهَكُونِي - ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِيفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا. فَأَخَذَ مَوَائِقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَدَّبِي فَفَعَلُوا، فَقَالَ اللَّهُ: كُنْ. فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: خَافَتُكَ - أَوْ فَرَّقَ مِنْكَ - فَمَا تَلَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ»^(١).

فَحَدَّثْتُ أَبَا عَثْمَانَ فَقَالَ: سَمِعْتُ سَلْمَانَ غَيْرَ أَنَّهُ زَادَ: «فَأَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ» أَوْ كَمَا حَدَّثَ. وَقَالَ مُعَاذٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ.

هذا الحديث كالذي مضى من قبل فيه: أن هذا الرجل لشدة خوفه من الله وصلى أن يُحرق، ثم يُدري في اليَمِّ خوفًا من الله ﷻ، وهذا الرجل يقال إنه فعل ذلك ظانًا أن الله لا يقدرُ عليه وأنه إذا فعل هذا نجا من العذاب، فبعثه الله ﷻ وسأله لما فعلت ذلك؟ فأخبره أنه فعلَ هذا خوفًا منه فغفر الله له.

ووجه أهل العلم هذا بأنه مُتَأَوَّلٌ ما قصَدَ الشكَّ في قدرة الله، لكن ظنَّ أن هذا ينجيهِ من عذابِ الله، وبنوا على ذلك أن كلمة الكفر إذا قالها الإنسان غير مريد لها فإنه لا يكفر بهذا، وأيدوا قولهم بما ثبت في الصحيح أن الله ﷻ يفرحُ بتوبة عبده أشدَّ فرحًا من رجل ضلَّتْ راحلته عنه فلما آيس منها اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت، فإذا بخطام ناقته متعلقًا بغصن الشجرة، فأخذ بخطامها وقال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»^(١). فلم يعاقبه الله على هذا الأمر، وينبني على ذلك أن كلمة الكفر لا بدَّ أن يكون القائل

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

لها قاصداً، وإذا قصدَها كَفَرَ سواء كان جاداً أم لا عباً؛ لأنَّه لا فرق في كلمة الكُفْرِ بين المستهزئ وبين الجادِّ، الكلامُ على أنه يقصدُ معناها بخلاف المتأول.

ووجه الجمع بين الحديث وبين حديث: «أنا عندُ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِي...»^(١). أن هذا الرَّجُلَ ظَنَّ أَنَّ اللهَ لن يَغْفِرَ له ومع ذلك غَفَرَ له؛ لأنَّه ظَنَّ ذلك لَتَهَمَّتِهِ نَفْسَهُ، وأمَّا الحديث الآخر ففيه عدمُ المغفرة؛ لأنَّه ظَنَّ سوءاً بالله ﷻ.

وفي هذا الحديث دليلٌ: على أنَّ الخوفَ يُنجي من عذابِ الله وهو كذلك، فإنَّ الخوفَ من الله ينجي من عذابِ الله، ولكن قد يردُّ على هذا مثل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) فَكَانَ عَنِيتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ [البقرة: ١٦-١٧]. فهنا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

والجواب عن ذلك: أن الشيطان لم يخفْ خوفَ تعظيم وإجلالٍ وإنما هو خوفٌ هلاكٍ؛ يعني: خاف أن يهلكه الله لا إجلالاً لله ﷻ ولا تقرباً إليه بالخوف ولهذا لم ينفعه، فخوفُ الشيطان من الله كخوفِ الإنسان من الأسد، وخوف الإنسان من الأسد ليس خوفَ عبادة ولا تعظيم ولا إجلالٍ.

وهذا الرَّجُلُ ما فعلَ هذا إلا لإيمانه بالله وإيقانه بأن الله سيعذِّبه، لكن ظنَّ أن هذا سيحميه لكن أخطأ في هذا الظنَّ، ولا يقال: إنَّ في شكِّه في القدرة ينافي الإيمان؛ لأنَّه قد لا يكون في ذهنه في تلك الساعة الشك في القدرة لكن ظنَّ أن هذا ينجيه من الله وهو ما فعل هذا إلا خوفاً من الله.

على كل حال: المسألة محتملة أنه شاكٌّ في قدرة الله، لكن ليس معناه أنه شاكٌّ من الأصل، عقيدته سليمة لكن ظنَّ أن هذا ينجيه من عذابِ الله وأنَّ الله ﷻ لن يفعل.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٦- باب الْإِنْتِهَاءِ عَنِ الْمَعَاصِي.

٦٤٨٢- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي

بُرْدَةً، عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَنِي اللَّهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعَنِي وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالْجَاءَ النَّجَاءُ. فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَذْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَّوْا، وَكَذَبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَاَحَهُمْ»^(١).

[الحديث ٦٤٨٢ - طرفه في: ٧٢٨٣].

هذا فيه النهي عن المعاصي وأن الإنسان يجب عليه أن يبادر، والمعاصي جمع معصية، وهي مخالفة الأمر إما بترك المأمور، وإما بفعل المحذور، والواجب على العبد أن يكون مستقيماً في هذا وهذا فيقوم بالأوامر ويدع النواهي، وضرب النبي ﷺ مثلاً لما جاء به ولنفسه بمثل رجل أتى قوماً فقال: «رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان».

❖ قوله: «رأيت بعيني». هذا من باب التوكيد؛ لأنه إذا قال: «رأيت» فقط فقد يحتمل أن المعنى عَلِمْتُ من طريق لم أشاهد بعيني، لكن إذا قال: «بعيني» صار هذا من باب التوكيد مثل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرَاطٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٧].

❖ وقوله: «أنا النذير العريان»؛ لأنه كلما اشتدت النذارة حَصَلَ هذا الأمر؛ يعني: من عادتهم عند العرب أن النذير إذا جاء يُنذِرُ بقوم أحياناً يصيحُ بهم ويقول: العدو العدو، وأحياناً مع الصياح والاستصراخ، يتعرى يخلع ثيابه؛ لأنه يرى أن هذا أشدُّ في استنهاض همهم وطلب النجاة.

❖ وقوله: «فَالْجَاءَ النَّجَاءُ»؛ يعني: الزموا النجاة يقول: «فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَذْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَّوْا، وَكَذَبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَاَحَهُمْ». الذين أطاعوه وصدقوه مشوا على مهلٍ وسلموا، والآخرون بقوا واجتاحهم العدو.

ففي هذا: دليل على أنه تجب المبادرة في طاعة الله ورسوله وأن من تأخر فإنه على خطر.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٨٣ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ

اَسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا أَخَذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا»^(١).

هذا أيضًا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ له مع أمته، رجلٌ اسْتَوْقَدَ نَارًا فلما أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وهذا الدَّوَابُّ الَّتِي تَقْتَحِمُ النَّارَ يَقَعْنَ فِيهَا كما تشاهدون في البرِّ إذا أَوْقَدْتَ نَارًا صار الْفَرَاشُ وغيرُهُ من الحشرات يَأْتِي وَيَقَعُ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ». يَعْنِي: يَطْرُدُهُنَّ لَكِنْ أَبَيَّنَ إِلَّا أَنْ يَقَعْنَ فِي النَّارِ، فَهَذِهِ حَالُ الْأُمَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِأَوَامِرِ الرَّسُولِ ﷺ، يَقُولُ: «فَأَنَا أَخَذُ بِحُجَزِكُمْ - أَيِ مَا يَحْجُزُكُمْ عَنِ النَّارِ - وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا».

هذا أيضًا فيه: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ رِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهَا مَنَاجَاةٌ، لَكِنْ لِمَنْ نَجَا بِهَا، يَعْنِي: ابْتَعَدَ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ وَأَتَى بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ.

وفي هذا والذي قبله: دَلِيلٌ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمْثَالِ الْحَسِيَّةِ لِتَقْرِيبِ الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَهَذَا كَمَا هُوَ طَرِيقُ السَّنَةِ فَهُوَ طَرِيقُ الْقُرْآنِ أَيْضًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِئَلَّا تُفَكِّرُوا فِيهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [التكوير: ١٣]. وَمَا أَكْثَرَ الْأَمْثَالَ الْوَارِدَةَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّهَا تَقْرُبُ الْمَعْنَى فَإِنْ إِدْرَاكَ الْإِنْسَانَ لِلْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ أَقْرَبَ مِنْ إِدْرَاكِهِ لِلْأُمُورِ الْمَعْقُولَةِ فَتَضَرَّبُ الْأَمْثَالَ لِتَقْرِيبِ الْمَعْنَى الْمَعْقُولِ.

وفيه أيضًا - في هذين الحديتين وما شابههم -: دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ الْقِيَاسِ، وَأَنَّهُ دَلِيلٌ مُعْتَبَرٌ، وَكُلُّ مَثَلٍ ضَرَبَهُ اللَّهُ وَكُلُّ مَثَلٍ ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ الْقِيَاسِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْمَثَلِ الْإِلْحَاقَ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ وَهَذَا هُوَ الْقِيَاسُ، الْقِيَاسُ: الْإِلْحَاقُ غَيْرِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ بِالْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ لَعَلَّةَ جَامِعَةٍ.

ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٨٤ - حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا، عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: قَالَ:

النَّبِيُّ ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٠).

❖ قوله: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ... إلى آخره»، «والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ». هذا ليس على سبيل الحَضَرِ، لكن المسلم في حقوق العباد، فهو عامٌّ أُرِيدَ به الخاصُّ، أما المسلم على سبيل الإطلاق فهو من استسلم لله ظاهرًا وباطنًا، لكن هنا المسلم باعتبار حقوق الأديمين من سلم المُسْلِمُونَ من لسانه ويده فذلك المُسْلِمُ.

❖ وقوله: «مِنْ لِسَانِهِ». فلا يغتاب الناس ولا يسبهم ولا ينم ببعضهم إلى بعض، ويده فلا يعتدي عليهم بضرب، أو قتل أو جرح، أو أخذ مال، أو ما أشبه ذلك.

❖ وقوله: «المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ». هذا أيضًا عامٌّ أُرِيدَ به الخاصُّ، يَعْنِي: المُهَاجِرُ إِلَى اللَّهِ ﷻ لا الهجرة التي هي الانتقال من بلد الشُّرْكِ إلى بلد الإسلام، لكنَّ المهاجر إلى الله بعمله لا يبدنه هو من هَجَرَ ما نهى الله عنه، سواء كان هذا المنهي عنه قولًا أو فعلًا وبهذا الحديث نَعْرِفُ أن الإسلام وأن الهجرة تنوعٌ ولها معاني متعددة يُبَيِّنُهَا السِّيَاقُ.

❖ وقوله: «مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ». إذا قَالَ قَائِلٌ: لم يَذْكُرْ ما نهى عنه الرَّسُولُ ﷺ؟
فالجواب: نقول: إن ما نهى عنه الرَّسُولُ ﷺ كالذي نهى عنه الله؛ لأن الرسول رسول الله، ولهذا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النِّسَاءُ: ٨٠].

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٧- باب قول النبي ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

٦٤٨٥- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا».

[الحديث ٦٤٨٥ - طرفه في: ٦٦٣٧].

٦٤٨٦- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»^(١).

هذا الحديث أيضًا فيه التخويفُ، تخويفُ الإنسان من العذاب.

❖ وقوله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم». يعني: من عظمة الله ﷻ لا من أحكامه؛ لأنَّ أحكامه التي علمها بيَّنها النبي ﷺ للناس، ولم يحدِّث شيئاً منها، لكن لو تعلمون ما أعلم من عظمة الله وقدرته التي لا يصلُّ إليها إلا من كان على جانب كبير من العلم بالشرع «لضحكتكم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، وذلك لهول ما يعلمه ﷺ من عظمة الله ﷻ ومما يخافه من عذاب يوم القيامة ولهذا يقولون: من كان بالله أعرف كان منه أخوف، وكان النبي ﷺ أشدَّ الناس خَوْفاً من الله، كان ﷺ يقومُ حتَّى تتورم قدماه ^(١)؛ ليكون عبداً شكوراً يؤدي شكرَ نعمة الله عليه، كلُّ هذا خوفاً من أن يكونَ من غير أهل الشكر، وأما الأحكام فلا بدَّ أنه أخبرنا بها.

فإن قال قائل: ثبت أن الرسول ﷺ رأى الجنة والنَّار ^(٢)، فما وجه الجمع بين هذا، وبين حديث: «فيها ما لا عين رأت...» ^(٣)؟

وجه الجمع بينهما أن نقول:

أولاً: أن النصوص الشرعية منها عامٌ يدخلها التخصيص، ممكن أن نقول ما لا عين رأت ولا أذن سمعت إلا ما رآه النبي ﷺ.

ثانياً: هل الرسول ﷺ لما رأى الجنة والنَّار، هل رأى كلَّ الجنة والنَّار، أو رأى شيء منها، رأى مثلاً امرأة تعذب، ورأى صاحب المحجن.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٨- باب حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ.

٦٤٨٧- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ» ^(١).

حُجِبَتْ هنا بمعنى: أُحِيطَتْ؛ يعني: النَّارُ مَحَلُّ ذَوِي الشَّهَوَاتِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا إِتْبَاعُ شَهَوَاتِهِمْ وَمِنْ ذَلِكَ شَهْوَةُ الزَّنا، اللَّوْاطِ، شَرْبُ الْخَمْرِ، السَّرْقَةُ، الْعُلُو فِي الْأَرْضِ،

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٨)، ومسلم (٢٤٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «حفت».

والفساد فيها كل هذه شهوات، فهذه التي أحيط بها النار، ولذلك أكثر من يدخل النار المترفون كما قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ فِي سُومٍ وَحَمِيرٍ ۖ وَظِلٍّ مِنْ يَحْتُمُونَ ۖ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ۖ﴾ [الزُّمَرُ: ٤١-٤٥].
وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۖ﴾ [الزُّمَرُ: ١٦].

فأصحاب الشهوات هم الذين اقتحموا ما حُجِبَتْ به النار حتى دخلوها -والعياذ بالله- أما الجنة فبالعكس حُجِبَتْ بالمكاره؛ لأنَّ عمل الخير مكروهٌ للنفوس الأماره بالسوء، فتجد الكثير من الناس عند عمل الخير يُرْغِمُ نفسه ويكرهها على ذلك ولكن هذا يوصله إلى الجنة، ومع هذا إذا تجاوز الإنسان هذه المكاره صارت بالنسبة له محاباً، وصار لا يأنس إلا بهذه الأعمال، كما قال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١). وقال بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، فالإنسان إذا اعتاد فعل الطاعة مع الإخلاص والمتابعة صارت الطاعة أحبَّ شيء إليه، لكنها في الأصل -لا باعتبار كل شخص بعينه- الأصل أنها مكاره، من ذلك مثلاً ما قاله النبي ﷺ فيما يرفع الله به الدرجات، ويُحطُّ به الخطايا قال: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ»^(٢). يَعْنِي: فِي السَّرَاتِ، فِي الْبَرْدِ يَسْبِغُ الْإِنْسَانُ الْوُضُوءَ، مَعَ أَنَّهُ يَكْرَهُ إِذْيَاؤَهُ بِهَذَا الْمَاءِ الْبَارِدِ، لَكِنَّهُ يَفْعَلُهُ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ، هَذَا مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ عِنْدَمَا يَسَافِرُ لِلْحَجِّ لِلجِهَادِ يَجِدُ هَذَا مَكْرُوهًا عِنْدَهُ، لَكِنَّهُ وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البَقَرَةُ: ٢١٦].



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٩- باب الْجَنَّةِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ.
٦٤٨٨- حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مَسْعُودٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ وَالْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

(١) أخرجه النسائي (٣٩٥٠)، والحاكم (١٦٠/٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥١).

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فِي الْبَابِ السَّابِقِ أَنَّ الْجَنَّةَ حُقِّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَالنَّارُ حُقِّتْ بِالشَّهَوَاتِ، بَيَّنَّ أَنَّهُمَا مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ فَهِيَ أَقْرَبُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَهَذَا يَضْرِبُ مِثْلًا لِلشَّيْءِ الْقَرِيبِ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ، وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيْبُ، التَّرْغِيبُ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَدْرِكُهَا بِأَدْنَى عَمَلٍ، وَالتَّرْهِيْبُ مِنَ النَّارِ وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَسْتَحِقُّهَا بِأَدْنَى عَمَلٍ، رَبُّ كَلِمَةٍ يَصِلُ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى عِلْيَيْنٍ وَكَلِمَةٍ يَنْزِلُ بِهَا إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٤٨٩ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ الشَّاعِرُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»^(١).

هَذَا أَصْدَقُ شَيْءٍ، أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، وَفِي لَفْظِ كَمَا هُنَا بَيْتٌ:

* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ *

كُلُّ شَيْءٍ بَاطِلٌ سِوَى اللَّهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التَّحْقِيقُ: ٨٨].
وَالْمُرَادُ بِالْبَطْلَانِ هُنَا: الذَّهَابُ الشَّيْءِ الذَّاهِبِ الضَّائِعِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ مِنْهُ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، فَإِنَّهُ حَقٌّ وَكَذَلِكَ مَا عُمِلَ لَهُ فَهُوَ حَقٌّ يَبْقَى فَإِنَّهُ ثَوَابٌ الْآخِرَةِ وَهُوَ بَاقٍ.

وَفِي هَذَا: دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الِاسْتِشْهَادِ بِالشَّعْرِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَشْهَدَ بِهِ.

وَفِيهِ أَيْضًا: دَلِيلٌ عَلَى قَبُولِ الْحَقِّ مِمَّنْ جَاءَ بِهِ حَتَّى وَإِنْ كَانَ شَاعِرًا أَوْ كَانَ فَاسِقًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ وَهُوَ وَاضِحٌ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ نَبَأٌ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الْمُحْتَفَلُونَ: ٦].
فَإِذَا بَانَ لَنَا أَنَّ خَبْرَهُ صَحِيحٌ وَجَبَ عَلَيْنَا قَبُولُهُ.

❖ قَوْلُهُ: «أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ». أَي: كُلُّ شَيْءٍ بَاطِلٌ سِوَى اللَّهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [التَّحْقِيقُ: ٨٨]. وَالْمُرَادُ بِالْبَطْلَانِ هُنَا: الذَّهَابُ؛ أَي: الشَّيْءُ الذَّاهِبُ الضَّائِعُ الَّذِي لَا فَائِدَةَ مِنْهُ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، فَإِنَّهُ حَقٌّ، وَكَذَلِكَ مَا عُمِلَ لَهُ فَهُوَ حَقٌّ يَبْقَى

وهو ثواب الآخرة فإنه باقٍ.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على جواز الاستشهاد بالشعر؛ لأن النبي ﷺ استشهد به.

وفيه أيضًا: دليلٌ على قبول الحق ممن جاء به، حتى وإن كان شاعرًا، أو كان فاسقًا، أو غير ذلك - وهو واضح - وقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَ كُفْرًا فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [المائدة: ٦٠]. فإذا بان لنا أن خبره صحيح وجب علينا قبوله.

ومناسبة هذا الحديث للترجمة خفيفة، قال الحافظ في «الفتح» (١١ / ٣٢٢):

تنبيه: مناسبة هذا الحديث الثاني للترجمة خفيفة، وكان الترجمة لما تَصَمَّنْتَ ما في الحديث الأول من التحريض على الطاعة ولو قلَّت، والزجر عن المعصية ولو قلَّت، فيُفْهَمُ أن من خالف ذلك إنما يُخَالِفُهُ لرغبة في أمر من أمور الدنيا، وكلُّ ما في الدنيا باطلٌ كما صرَّح به الحديث الثاني، فلا يَنْبَغِي للعاقل أن يُؤَثِّرَ الفاني على الباقي. اهـ

قَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ: ومطابقة الحديث للترجمة من حيث أن كلَّ شيءٍ ما خلا الله في الدنيا الذي لا يُؤْوِلُ إلى طاعة الله، ولا يُقَرِّبُ منه، إذا كان باطلاً يَكُونُ الاشتغال به مُبْعَدًا من الجنة، مع كونها أقرب إليه من شرك نعله. والاشتغال بالأمور التي هي داخلية في أمر الله تعالى يَكُونُ مُبْعَدًا من النار، مع كونها أقرب إليه من شرك نعله. قاله في «عمدة القاري» وقال: إنه من الفيض الإلهي الذي وقع في خاطره. اهـ

على كلِّ حالٍ: لا يُسْتَبْعَدُ أنه لما ذُكِرَ ما يُرْغَبُ في الجنة، وما يُرْهَبُ ويُحَذَّرُ من النار، ذُكِرَ أن الذي يُوصِلُ إلى الجنة هو قصدُ الله ﷻ، وأن الذي يُوصِلُ إلى النار هو قصدُ ما سوى الله وهو الباطل، فلا يُسْتَبْعَدُ أن يَكُونُ البخاري رحمه الله قد فهِمَ هذا الفهم، ويَكُونُ المعنى أنه لما ذُكِرَ ما يُرْغَبُ في الجنة ويُرْهَبُ من النار ذُكِرَ السبب، فما قُصِدَ به الله فهو مما يُقَرَّبُ إلى الجنة، وما قُصِدَ به الدنيا فهو مما يُقَرَّبُ إلى النار.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله:

٣٠- باب لِيَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ وَلَا يَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ.

٦٤٩٠- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي رَافَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ

إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِنْ فَضْلٍ عَلَيْهِ»^(١).

سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَفِي هَذَا فَائِدَةٌ تَرْبُويَةٌ وَهِيَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي لَهُ إِذَا نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى ضِدِّهِ وَمُقَابِلِهِ؛ حَتَّى يُقَابَلَ هَذَا بِهَذَا، وَلِهَذَا شَوَاهِدُ كَثِيرَةٌ فِي السَّنَةِ، وَمِنْهَا: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَفِرُّكَ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةٌ، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا، رَضِيَ مِنْهَا خُلُقًا آخَرَ»^(٢). فَهَكَذَا إِذَا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْكَ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْمُقَابِلِ، وَهُوَ مَنْ دُونَكَ؛ حَتَّى تَعْرِفَ بِذَلِكَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ ﷻ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣١- بَابُ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ بِسَيِّئَةٍ.

٦٤٩١- حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا جَعْدُ أَبُو عُمَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ الطُّمَارِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرُوي عَنْ رَبِّهِ ﷻ قَالَ: «قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضَعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(٣).

❦ قَوْلُهُ: «مَنْ هَمَّ». الْهَمُّ: يُطْلَقُ عَلَى مَبَادِيِ التَّفَكِيرِ، وَيُطْلَقُ -أَيْضًا- عَلَى مَنَاهِيِ التَّفَكِيرِ؛ أَيِ: مُتْنَهَاءِ، وَهَذَا الْأَخِيرُ: هُوَ الْمَرَادُ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ لَيْسَ فِيهِ فِعْلٌ مِنَ الْعَبْدِ، وَلَيْسَ فِيهِ عَزَمٌ عَلَى شَيْءٍ، لَكِنِ الْمَرَادُ: أَوَّخِرُ الْهَمِّ، وَهُوَ الْعَزَمُ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْتَزِلُ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ.

❦ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ». قَوْلُهُ: «كَتَبَ». يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: بَيَّنَّهَا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: كَتَبَ ثَوَابَهَا، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْاحْتِمَالُ الثَّانِي: آخِرُ الْحَدِيثِ؛ حَيْثُ قَالَ: «ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ».

❦ وَقَوْلُهُ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»؛ ذَلِكَ لِأَنَّ مُجَرَّدَ الْهَمِّ

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٣١).

بالحسنة الذي هو العزم يُعْتَبَرُ حسنة؛ لأنك إن لم تَهَمَّ بها هَمَمْتَ بسيئة، أو بشيء لهو لا فائدة منه.
 ثم قال: «فإن همَّ بها فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إلى سبعمائة ضِعْفٍ، إلى أضعاف كثيرة».

إذن فالحسنة لها مرتبتان:

المرتبة الأولى: أن يَهَمَّ بها. **والثانية:** أن يَهَمَّ بها، وَيَعْمَلَهَا.

وهناك مرتبة ثالثة: لم تُذَكَّرْ هنا، وهي: إذا همَّ بها وعزم عليها، لكن عجز عنها، أو فعلها ولم يُدْرِكْها، فهذا يُكْتَبُ له الأجر كاملاً: أجر النية، وأجر الفعل، إذا كان قد شَرَعَ في العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٠]. ولأن النبي ﷺ أخبر عن الرجل الفقير الذي ليس عنده مال، حين قال لرجل صالح يُنْفِقُ المال في مَراضِي الله: «لو أن لي مال فلان، لَعَمِلْتُ فيه عمل فلان». قال: «فهو بنيتي، فهما في الأجر سواء»، فصار الهمُّ المُجَرَّدُ يُعْطَى الإنسان عليه حسنة كاملة، فإن همَّ ولكنه عجز، ولا سيما بعد أن شَرَعَ في العمل، فهذا يُعْطَى الأجر كاملاً، فإذا لم يَشْرَعْ ولكنه تَمَنَّى مع العجز، فإنه يُعْطَى أجر النية كاملاً، فإذا همَّ وعَمِلَ أُعْطِيَ الأجر كاملاً، فهذه ثلاث مراتب.

ثم قال: «ومن همَّ بسيئة فلم يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ له سيئة واحدة». وتأمّل هذا الفرق، فإنه في الحسنة قال: «كاملة». وفي السيئة قال: «واحدة». حتى لا يَتَوَهَّم أحد الزيادة.

وإذا همَّ الإنسان بالسيئة ولم يَعْمَلْهَا، فلا يَحُلُو من أحوال:

الحالة الأولى: أن يَعْجَزَ عنها، فهذا يُكْتَبُ له وزرُّها، فإن شَرَعَ فيها، ثم عجز صار أشدَّ وأشدَّ.

الحالة الثانية: أن يَتْرُكَهَا لله، فهذه هي التي يُؤَجَّرُ عليها.

الحالة الثالثة: أن يَتْرُكَهَا؛ لعدم رَغْبَتِهِ فيها، فهذا لا يَأْتُمُ فيها، ولا يُؤَجَّرُ.

وهذا التقسيم مأخوذ من أدلة أخرى غير المذكورة هنا؛ لأن قوله: «همَّ بسيئة فلم يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حسنة كاملة». وفي بعض ألفاظ الحديث في غير الصحيح: «لأنه إنما تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي»^(١). أي: مِنْ أَجْلِي.

(١) أخرجه مسلم (١٢٩).

ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٢- باب مَا يُتَّقَى مِنَ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ.

٦٤٩٢- حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ، حَدَّثَنَا مَهْدِيٌّ، عَنْ غِيلَانَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُؤَبَّاتِ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: يَعْنِي بِذَلِكَ: الْمُهْلِكَاتِ.

❦ قوله: «ما يُتَّقَى مِنَ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ»؛ أي: ما يَجِبُ أَنْ يَتَّقَهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي يُحَقِّرُهَا، وَيَقُولُ فِيهَا: هَذِهِ صَغِيرَةٌ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَلَكِنْ نَقُولُ: إِيَّاكَ أَنْ تُعَوِّدَ نَفْسَكَ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمُحَقَّرَاتِ إِذَا اجْتَمَعَتْ صَارَتْ عَظِيمَةً، فَإِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى، ثُمَّ إِنْ هَذِهِ الْمُحَقَّرَاتِ إِذَا عَوَّدَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَلَيْهَا سَهَّلَتْ عَلَيْهِ الْكِبَائِرُ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنْ الصَّغَائِرَ بَرِدُ الْكِبَائِرَ، وَإِنْ الْكِبَائِرَ بَرِدُ الْكُفْرِ؛ إِذْ إِنْ الْإِنْسَانُ يَرْتَقِي -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- مَرَحَلَةً مَرَحَلَةً، حَتَّى يَصِلَ إِلَى غَايَةِ الْمَعْصِيَةِ، فَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُحَقِّرَ الذُّنُوبَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَضُرُّهُ فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ.

ثم ذَكَرَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّاسَ فِي عَهْدِهِ كَانُوا يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا يُحَقِّرُونَهَا، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَعُدُّونَهَا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُؤَبَّاتِ؛ أَي: أَنَّهُمْ يَسْتَعْظِمُونَهَا، وَيَرَوْنَ أَنَّهُ مُهْلِكَةٌ، أَمَا فِي الْعَصْرِ الَّذِي بَلَغَهُ أَنَسٌ -وَقَدْ بَلَغَ إِلَى حَوَالِي التَّسْعِينَ- فَقَدْ تَغَيَّرَ النَّاسُ، حَتَّى صَارَتِ الْكَلِمَاتُ عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ بِشَيْءٍ، فَصَارَ الْإِنْسَانُ يُعْتَابُ وَيَنْمُو، وَلَا يَهْمُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَرَبَّمَا أَشْعَلَ فِتْيَلِ الْفِتْنَةِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَرَاهَا شَيْئًا؛ فَلِذَلِكَ حَذَّرَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ هَذِهِ الْمُحَقَّرَاتِ ^(١).

(١) قَالَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «... وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ غِيْبَةَ وَلَاَةِ الْأَمْرِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُحَقِّرُهَا الْإِنْسَانُ وَهِيَ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ غِيْبَةَ وَلَاَةِ الْأَمْرِ مِنَ الْأُمَرَاءِ الْعُلَمَاءِ أَشَدُّ مِنْ غِيْبَةِ غَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّ غِيْبَةَ الْأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ تَوْجِبُ أَنْ يَخْفَ وَزْنُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ، وَيَسْهَلُ التَّمَرُّدُ عَلَيْهِمْ، وَإِذَا عَمِلُوا أَيْ عَمِلُوا خَيْرًا مِثْلَ الشَّمْسِ لَمْ يَرِ النَّاسُ فِيهِ فَضْلًا لَوْلَا الْأُمُورُ.

وَالْعُلَمَاءُ أَشَدُّ -أَيْضًا- فِي ذَاكَ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي الْعُلَمَاءِ يُؤَدِّي -أَيْضًا- إِلَى حَطِّ رَتَبَتِهِمْ، وَعَدَمِ قَبُولِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ، فَيَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ مُتَسَبِّبًا فِي رَدِّ الشَّرْعِ الَّذِي جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ، فَاِلْمَسْأَلَةُ خَطِيرَةٌ جَدًّا؛ يَعْنِي: التَّعَرُّضُ لِلْعُلَمَاءِ وَالْأُمَرَاءِ اعْظُمَ بِكَثِيرٍ مِنَ التَّعَرُّضِ لِعَامَةِ النَّاسِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الشَّخْصُ أَحْيَانًا يَكُونُ مُضْطَرًّا لِبَيَانِ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ مَخَالَفَاتٍ وَأَخْطَاءٍ؟

فَاجْلُوب: أَنَّهُ لَا وَجْهَ لِلْاضْطِرَارِّ، وَإِذَا رَأَيْتَ شَيْئًا مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْأُمَرَاءِ مُخَالَفًا لَشَرْعِ اللَّهِ فِي نَظَرِكَ، فَلَيْسَ بِمِثْلٍ

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٣- باب الأَعْمَالِ بِالْخَوَاتِيمِ وَمَا يُخَافُ مِنْهَا.

٦٤٩٣- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَيَّاشٍ الْأَنْهَائِيُّ الْجَمْعِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَسَّانَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى رَجُلٍ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ - وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِ الْمُسْلِمِينَ غَنَاءَ عَنْهُمْ - فَقَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا». فَبَيَّعَهُ رَجُلٌ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَقَالَ بِذُبَابَةٍ سَيْفِهِ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ فَتَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ - فِيمَا يَرَى النَّاسُ - عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ - فِيمَا يَرَى النَّاسُ - عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا»^(١).

❖ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ وَمَا يُخَافُ مِنْهَا»؛ أَي: مِنَ الْخَوَاتِيمِ،

يُرَادُ بِهِ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِيهِمُ الْمَجَالِسُ، وَالَّذِي يُزِيلُهُ أَنْ تَتَّصَلَ بِهِمْ وَتُرَاسَلَهُمْ.
وَأَنْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَمْلِكُهُ كُلُّ أَحَدٍ.

قُلْنَا: عَلَيْكَ أَنْ تَكْتُبَ كِتَابًا، وَأَنْ تَتَّصَلَ بِمَنْ عَلَى صِلَةٍ بِهِمْ لِإِبْلَاغِهِمْ، وَأَمَّا أَنْ تَتَكَلَّمَ فِيهِمْ: وَكَأَنَّمَا وَكَلْتَ أَنْ تَنْشُرَ مَعَايِبَهُمْ، فَهَذَا خَطَأٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَذَا لَيْسَ سَهْلًا فِي كُلِّ بَلَدٍ، وَفِي بَعْضِ الْبِلَادِ الْإِتِّصَالُ بِأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ يَعْتَبَرُ عَيْسًا وَأَنْ تُتَّصَلَ بِمَنْ عَلَى صِلَةٍ بِهِمْ تَقْفُ عَنْهُ الشُّكُوى أَوْ الرِّسَالَةُ، وَرَبَّمَا عُرِضَ مَنْ يَسْعَى فِي ذَلِكَ إِلَى الْمَخَاطِرِ.

فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنْ تَكَلَّمْنَا فِي الْمَجَالِسِ، وَجَعَلْنَاهُمْ فَكْهَةً الْمَجَالِسِ، فَمَا الَّذِي يُسْتَفَادُ مِنْ ذَلِكَ؟! لَا شَيْءَ.

وَأَنْ قِيلَ: إِنْ الْكَلَامُ فِيهِمْ يَسُوغُ لِبَعْضِ الدُّعَاةِ.

فَأَقُولُ: أَنَا لَا أَرَى هَذَا، وَالَّذِي أَرَاهُ أَنْ لِلدُّعَاةِ أَنْ يَتَكَلَّمُوا عَنِ الْأَشْيَاءِ الْمُنْكَرَةِ الْمُنْتَشِرَةِ بَيْنَ النَّاسِ وَيَحْذَرُوا مِنْهَا، وَأَمَّا الْكَلَامُ فِي نَفْسِ وَلِي الْأَمْرِ فَهُوَ غَيْرُ مَشْرُوعٍ.

فَإِنْ قِيلَ: إِنْ بَعْضُ وَلَاةِ الْأُمُورِ يَكُونُ حَرْبًا عَلَى الْإِسْلَامِ.

نَقُولُ: نَعَمْ، هَذَا لَهُ اعْتِبَارٌ إِذَا كَانَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ يُجِدِّي وَيُثْمِرُ، وَلَكِنْ الْغَالِبُ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ تَأْتِي بِالْعَكْسِ، وَأَنْ حُكُومَةُ هَذَا الْحَاكِمِ تَقْبِضُ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ وَتَضَعُ عَلَى الْحَبَّةِ عَشْرَ حَبَاتٍ.

وَأَقُولُ: لَا يَجِئُ أَحَدٌ مِنْ خِفَاءِ الْحَقِّ، فَالْحَقُّ لَا يُدْفَنُ، وَالَّذِي عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ وَأُرْشِدَ.

فَمَثَلًا يَقُولُ: لَا يَجُوزُ أَنْ نَشَاهِدَ مَا فِي التِّلْفُزِيُونِ مَثَلًا، أَوْ نَقْرَأَ مَا فِي الصُّحُفِ يَمَّا يَخَالِفُ الْإِسْلَامَ أَوْ مَا يُوْجِبُ هَذَمَ الْأَخْلَاقِ، فَلَا بَأْسَ بِهَذَا.

أَمَّا أَنْ يَأْتِيَ وَزِيرُ الْإِعْلَامِ - مَثَلًا -، وَأَقُولُ: هَذَا الرَّجُلُ الْغَاشُّ الْمَجْرُمُ الْخَائِنُ لِأَمَانَتِهِ، فَهَذَا لَيْسَ فِيهِ فَائِدَةٌ،

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ هَذَا سَبَبًا لِإِبْعَادِهِ، فَلَا بَأْسَ حِينَئِذٍ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١١٢).

فالأعمال في الحقيقة بالخواتيم، كما قال المؤلف رحمه الله؛ وذلك أن الإنسان ربما يعمل العمل من عمل أهل الجنة، ولكنه من أهل النار، أو بالعكس؛ فهذا يجب أن يحذر الإنسان من هذا، وأن يخاف.

ثم ذكر قصة هذا الرجل، وكان شجاعاً مقداماً، لا يدع شاة ولا فاذة للعدو إلا قضى عليها، فقال النبي ﷺ ذات يوم: «من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى هذا». فشق هذا على الصحابة، وعظم عليهم، وقالوا: كيف يكون هذا من أهل النار، وهو بهذه المثابة، فقال رجل: والله لألزمته. أي: سأتيه، حتى أنظر ما خاتمه، فحصل ما ذكر هنا، من أنه لما جرح استعجل الموت، وكأنه لشجاعته وإقدامه قال: لماذا أجرح وأنا بهذه المثابة فأنا شجاع مقدام، فاستعجل الموت - والعياذ بالله - قهراً، فأخذ بذبابة سيفه فوضعه بين ثديه، فتحامل عليه، حتى خرج من بين كتفيه ومات، فقال النبي ﷺ: «إن العبد ليعمل - فيما يرى الناس - عمل أهل الجنة، وإنه لمن أهل النار». نعوذ بالله.

❦ قوله: «فما يرى الناس». ويكون ما في باطنه مخالفاً لظاهره، وكذلك قد يعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار، وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم، فقد يكون هذا الرجل يعمل بعمل أهل النار فيما يرى الناس، ثم يمن الله عليه بالهداية فيهدي، ويختتم له بحسن الخاتمة، نسأل الله أن يحسن لنا جميعاً الخاتمة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله:

٣٤- باب العزلة راحة من خلط السوء.

٦٤٩٤- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ حَدَّثَهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ح، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ: حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ: حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: جَاءَ أَغْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَرَجُلٌ فِي شَعْبٍ مِنَ الشَّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»^(١).

تَابِعَهُ الرَّبِيعِيُّ، وَسَلْيَمَانُ بْنُ كَثِيرٍ، وَالنَّعْمَانُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ.

وَقَالَ مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَطَاءٍ أَوْ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَالَ يُونُسُ، وَابْنُ مُسَافِيرٍ، وَيَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ بَعْضِ

أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

❦ قَالَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْعُزْلَةُ رَاحَةٌ مِنْ خُلَاطِ السُّوءِ». وَصَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنَّ الْعُزْلَةَ

رَاحَةٌ، إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا اخْتِلَاطٌ مَعَ أَهْلِ السُّوءِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الرَّاحَةَ خَيْرٌ مِنَ التَّعَبِ، لِأَسِمَا التَّعَبُ فِيهَا لَا يُرِضِي اللَّهَ ﷻ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ: الْعُزْلَةُ أَوْ الْاِخْتِلَاطُ بِالنَّاسِ؟

فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْعُزْلَةَ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّهَا أَسْلَمٌ لِدِينِ الْمَرْءِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: بَلِ الْاِخْتِلَاطُ بِالنَّاسِ أَفْضَلُ؛ لِمَا يُتَوَقَّعُ مِنْ أَمْرِ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنِ

مَنْكَرٍ، وَدَعْوَةٍ إِلَى الْخَيْرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّ الْاِخْتِلَاطَ بِالنَّاسِ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ

النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»^(١)،

إِلَّا إِذَا كَانَ فِي الْاِخْتِلَاطِ شَرٌّ عَلَى الْمَرْءِ فِي دِينِهِ، فَحَيْثُذْ تَكُونُ الْعُزْلَةُ خَيْرًا، لَكِنِهَا مُوقَّتَةٌ،

بِمَعْنَى: أَنَّهُ إِذَا زَالَتِ الْمَوَانِعُ اخْتَلَطَ بِالنَّاسِ؛ لِأَنَّ الْاِخْتِلَاطَ بِالنَّاسِ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ دَعْوَةٍ لِلْخَيْرِ،

وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، وَنَهْيٍ عَنِ مَنْكَرٍ، وَمَعْرِفَةٍ لِأَحْوَالِ النَّاسِ، وَاتِّسَاسٍ بِهِمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ

الْمَصَالِحِ الْكَثِيرَةِ.

وَالْعُزْلَةُ يَنْطَوِي الْإِنْسَانُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ، وَرَبْمَا يَنْفَتِحُ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْعُزْلَةِ أَبْوَابٌ لَا

يَسْتَطِيعُ سَدَّهَا مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالتَّفَكِيرَاتِ السَّيِّئَةِ، حَتَّى يَذْهَبَ بِذَلِكَ دِينُهُ وَدُنْيَاهُ؛ وَلِهَذَا

قَيَّدَهَا الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ: رَاحَةٌ مِنْ خُلَاطِ السُّوءِ؛ يَعْنِي: لَا مُطْلَقًا.

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْعُزْلَةَ أَسْلَمٌ، فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْكَثِيرَ مِنَ النَّاسِ يَبْنُونَ السَّلَامَةَ عَلَى

التَّخَلِّيِ عَنِ الشَّيْءِ، وَهَذَا خَطَأٌ، فَالتَّخَلِّيُّ عَنِ الشَّيْءِ قَدْ لَا يَكُونُ سَلَامَةً؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَجِبَ

عَلَيْكَ الْخُرُوجُ لِلنَّاسِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمَنْكَرِ، لَمْ تَكُنْ

الْعُزْلَةُ سَلَامَةً، بَلْ تَكُونُ الْعُزْلَةُ نَدَامَةً، وَمُسْتُولِيَةً وَإِضَاعَةً، فَالتَّخَلِّيُّ عَنِ الشَّيْءِ لَيْسَ سَلَامَةً عَلَى كُلِّ حَالٍ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ النَّدَامَةُ وَالْمَلَامَةُ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْبَخَارِيُّ بِحَدِيثِهِ هَذَا الْحَدِيثَ وَاضْطِرَابَ إِسْنَادِهِ، لَكِنَّهُ اضْطِرَابٌ لَا يَضُرُّ.

وفيه: سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ: «رَجُلٌ جَاهَدَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ». فَهَذَا خَيْرُ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ رَكِبَ ذُرْوَةَ سَنَامِ الْإِسْلَامِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ذُرْوَةُ سَنَامِهِ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

والثاني: «رَجُلٌ فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ». وَهَذَا فِي حَالِ الْفِتَنِ وَحَالِ الشَّرِّ بِاخْتِلَاطِ النَّاسِ، فَتَكُونُ الْعُزْلَةُ فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ خَيْرًا مِنَ الْاخْتِلَاطِ بِالنَّاسِ؛ لَهَا فِي الْاخْتِلَاطِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ.

فَالْجِهَادُ فِي حَالٍ مَشْرُوعِيَّتُهُ وَجُوبًا أَوْ اسْتِحْبَابًا خَيْرٌ مِنَ الْعُزْلَةِ، وَالْعُزْلَةُ فِي حَالِ الْفِتْنَةِ خَيْرٌ مِنَ الْاخْتِلَاطِ.

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ إِطْلَاقُ قَوْلِهِ: «رَجُلٌ فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ». مَقِيدًا بِمَا إِذَا كَثُرَتِ الْفِتَنُ، وَلَعَلَّهُ يُفَسِّرُهُ: مَا رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «إِذَا رَأَيْتَ شُحًا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَاهُ مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ»^(٢).

وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِي تَأْثِيرِهِمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يُؤَثِّرُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِالتَّوْجِيهِ السَّلِيمِ، فَقَدْ يَكُونُ اعْتِرَاضُهُ خَيْرًا، أَمَّا إِذَا كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤَثِّرَ، فَاخْتِلَاطُهُ بِالنَّاسِ وَبَيَانُ الْحَقِّ أَوْلَى؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي أَحْوَالِ الْفِتَنِ يَمُوجُونَ كَأَمْوَاجِ الْبَحْرِ.



ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ بِحَدِيثِهِ:

٦٤٩٥ - حَدَّثَنَا أَبُو نَعِيمٍ، حَدَّثَنَا الْهَاجِسُونُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ خَيْرٌ مَالِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ الْغَنَمُ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ».

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٨٧٣)، وأحمد (٢٤٨/٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

ما أخبر به النَّبِيُّ ﷺ في هذا الحديث يدل على أنه سيأتي على الناس زمان يكون خير مال الرجل المسلم الغنم، «يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ»؛ يعني: مواقع الأمطار كالأودية، «يَقْرُؤُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»؛ أي: يكون خير مال الإنسان أن يسلم دينه من الفتن.

وهذا الحديث وأمثاله من الأحاديث لا يَنْبَغِي أَنْ نُطَبِّقَهُ عَلَى قَضِيَّةٍ مَعِينَةٍ حَتَّى تَتِمَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ وَتَكُونَ مُطَابِقَةً تَامًا لَهَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ، ثُمَّ إِذَا وَقَعَتِ الْقَضِيَّةُ مُطَابِقَةً تَامًا لَهَا جَاءَ بِالْحَدِيثِ فَهَلْ نَقُولُ: إنها انتهت ولن تعود؟ أو نقول: ربما تعود؟ ففي صدر الإسلام حصل فتنٌ عظيمةٌ من الخوارج وغير الخوارج، وفي ذلك الوقت قد يكون خير مال المسلم غنمًا يتبع بها شَعَفَ الْجِبَالِ، فهل نقول: انقضت؟ أو نقول: ربما تعود؟

نَقُولُ: ربما تعود، فربما يأتي على الناس زمان يكون فيه ما ذكره الرسول ﷺ وَيَنْقَطِعُ، ثُمَّ يَعُودُ وَيَنْقَطِعُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٥- بَابُ رَفْعِ الْأَمَانَةِ.

٦٤٩٦- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا هِلَالُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

المراد بالساعة هنا: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ سَاعَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ سَاعَةُ الْهَلَاكِ؛ يَعْنِي: أَنَّ الْأُمَّةَ تَهْلِكُ إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ. وَإِنْ كَانَتِ السَّاعَةُ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ، فَلَا حَتْمًا لَهَا وَإِرْدَانًا. وَالْمَهْمُ: أَنَّ فِي الْحَدِيثِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْأُمَّةَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ سَوْفَ تَفْسُدُ بِتَضْيِيعِ الْأَمَانَةِ، وَذَلِكَ إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ؛ يَعْنِي: إِذَا أُسْنِدَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ؛ وَذَلِكَ فِي الْوِلَايَةِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَّةِ.

فمثلاً: إِذَا أُسْنِدَتِ الْإِمْرَةُ إِلَى شَخْصٍ بَعِيدٍ عَنِ الدِّينِ، لَا يُقِيمُ الْحُدُودَ، وَيُحَابِي الْقَرِيبَ، وَيُحَابِي الْغَنِيَّ، وَيَضْغَطُ عَلَى الضَّعِيفِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهَذَا لَيْسَ أَهْلًا لِلْإِمَارَةِ، فَإِذَا أُسْنِدَتِ إِلَيْهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ.

كذلك: إِذَا أُسْنِدَتِ الْوِزَارَةُ إِلَى وَزِيرٍ يَقُودُ الْأُمَّةَ إِلَى الشَّرِّ، وَفَسَادِ الْأَخْلَاقِ، وَانْحِلَالِ الْأُمَّةِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ.

كذلك: رئيس لا يحكم بكتاب الله، ولا بسنة رسوله ﷺ، فإذا أسند الأمر إليه فانتظر الساعة. كذلك: مديرٌ مثلاً أسند إليه الأمر، لكنه لا يحسن الإدارة لا فنياً ولا تربوياً، لكنه قريبٌ للوزير، أو معرفةٌ للوزير، أو ما أشبه ذلك، فأسند إليه الإدارة، نقول: هذا أيضاً من إضاعة الأمانة، بل إن النبي ﷺ أخبر أن الرجل إذا ولى شخصاً على أحدٍ وفيهم من هو خيرٌ منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، يعني: إذا ولى أحدًا على جماعة وفيهم خيرٌ منه لهذه الولاية، فهذه خيانة الله ورسوله والمؤمنين، وإذا طبقت هذا الأمر على واقعنا اليوم وجدت أن الأمانة قد ضيعت تماماً إلا أن يشاء الله، وأن الأمر مُسندٌ إلى غير أهله، أو يُسندُ إلى غير أهله، فيحابي القريب، ويحابي الصديق، ويحابي الوجيه. وهذه مشكلة؛ ولهذا نقول: الآن نحن منتظرون للساعة: إما ساعة الهلاك، وإما ساعة القيامة التي تقوم؛ لأن الرسول ﷺ جعل شرطاً ومشروطاً، فالشرط: تضييع الأمانة. والمشروط: الساعة.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٣٣٤):

❖ قوله: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ». هذا جوابُ الأعرابي الذي سأل عن قيام الساعة، وهو القائل: كيف إضاعتها؟ قوله: «إِذَا أُسْنِدَ». قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: أَجَابَ عَنْ كَيْفِيَةِ الْإِضَاعَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الزَّمَانِ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْجَوَابَ؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ بَيَانِ أَنَّ كَيْفِيَّتَهَا هِيَ الْإِسْنَادُ الْمَذْكُورُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ هُنَاكَ بِلَفْظِ «وُسْدٍ» مَعَ شَرْحِهِ. وَالْمُرَادُ مِنَ الْأَمْرِ: جَنْسُ الْأُمُورِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ، كَالْخِلَافَةِ وَالْإِمَارَةِ، وَالْقَضَاءِ وَالْإِفْتَاءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: «إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ». قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: أَتَى بِكَلِمَةِ «إِلَى» بَدَلَ اللَّامِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى تَضَمِينِ مَعْنَى الْإِسْنَادِ. قَوْلُهُ: «فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ، أَوْ جَوَابُ شَرْطٍ مَحْذُوفٍ؛ أَي: إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فانتظر. [هذا الإعرابُ خطأٌ وغلطٌ؛ إذ لهماذا نقدر جوابَ الشرطِ مع وجوده، وهو قوله ﷺ: «فانتظر الساعة»].^(١)

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: مَعْنَى «أُسْنِدَ الْأَمْرَ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ»: أَنَّ الْأُئِمَّةَ قَدْ اتَّمَنَّهُمُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمُ النَّصِيحَةَ لَهُمْ، فَيَنْبَغِي لَهُمْ تَوَلِيَةُ أَهْلِ الدِّينِ، فَإِذَا قَلَّدُوا غَيْرَ أَهْلِ الدِّينِ فَقَدْ ضَيَّعُوا الْأَمَانَةَ الَّتِي قَلَّدَهُمُ اللَّهُ - تَعَالَى - إِيَّاهَا. اهـ

(١) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين رحمه الله.

قَالَ الْقُسْطَلَانِي:

«فانتظر الساعة». الفاء للتفريع أو جواب شرط؟ أي: إذا كان الأمر كذلك فانتظر الساعة وحديثه سبق في أول العلم.

❦ قوله: «إذا وسد»، أي: أسند وأصله من الوسادة وكان من شأن الأمير عندهم إذا جلس أن تثني تحته وسادة، فقوله: وسد، أي: جعل له غير أهله فتكون «إلى» بمعنى: «اللام» وأتى بها؛ ليدل على تضمين معنى أسند، ولفظ محمد بن سنان في الرقاق إذا أسند وكذا رواه يونس بن محمد وغيره عن فليح ومناسبة هذا المتن لكتاب العلم أن إسناد الأمر إلى غير أهله عند غلبة الجهل ورفع العلم، وذلك من جملة الأشراف ومقتضاه أن العلم ما دام قائماً ففي الأمر فسحة، وكان المصنف أشار إلى أن العلم إنما يؤخذ عن الأكابر تلميحاً لما روي عن أبي أمية الجمحي أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «من أشراف الساعة أن يلتبس العلم عند الأصاغر»^(١).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٩٧٦٤ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهَبٍ، حَدَّثَنَا حُذَيْفَةُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَنِ. وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفِيعِهَا قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتَقْبُضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيُظِلُّ أَثَرَهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتَقْبُضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجَلِ، كَجَمْرٍ دَخَرَجَتْهُ عَلَى رَجُلِكَ فَتَنْفِطُ فَتَرَاهُ مُتَبَيَّرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَيْتِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَقْعَلَهُ! وَمَا أَظْرَفَهُ! وَمَا أَجْلَدَهُ! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ». وَلَقَدْ أَتَى عَلِيٌّ رَمَانَ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّ عَلَيَّ سَاعِيهِ. فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا»^(٢).

قَالَ الْفِرْبَرِيُّ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أَحْمَدَ بْنَ عَاصِمٍ يَقُولُ:

(١) قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وفيه ابن لهيعة: وهو ضعيف. اهـ.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣).

سَمِعْتُ أَبَا عُبَيْدٍ يَقُولُ: قَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَأَبُو عَمْرٍو وَغَيْرُهُمَا: جَذَرُ قُلُوبِ الرِّجَالِ الْجَذَرُ: الْأَصْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَالْوَكْتُ: أَثَرُ الشَّيْءِ الْيَسِيرِ مِنْهُ. وَالْمَجْلُ: أَثَرُ الْعَمَلِ فِي الْكَفِّ إِذَا غُلِظَ.

هَذَا أَيْضًا مِنْ جَنْسِ الْأَوَّلِ، فَحَذِيفَةُ يَقُولُ: إِنَّ الرِّسُولَ ﷺ حَدَّثَهُمْ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ. الْأَوَّلُ: أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذَرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، وَالْأَثَرُ وَالْجِذْمُ أَيْضًا؛ يَعْنِي: الْأَصْلَ، أَصْلَ الشَّيْءِ.

وَنَزَلَتْ الْأَمَانَةُ بِنَاءً عَلَى الْفَطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا. «ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ». وَهَذَا تَغْذِيَةٌ لِلْفَطْرَةِ. «ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السَّنَةِ»، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّعَلُّمَ مِنَ الْقُرْآنِ مُقَدَّمٌ عَلَى التَّعَلُّمِ مِنَ السَّنَةِ خِلَافًا لِمَا سَلَكَهُ بَعْضُ النَّاسِ الْيَوْمَ مِنَ الْعِنَايَةِ التَّامَّةِ بِالسَّنَةِ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا، حَتَّى إِنَّكَ تَسْأَلُهُمْ عَنْ أَدْنَى آيَةٍ مِنَ كِتَابِ اللَّهِ فَلَا يَعْرِفُونَهَا، بَيْنَمَا هُمْ فِي الْحَدِيثِ أَجْلَاءُ وَعُلَمَاءُ، لَكِنَّهُمْ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ وَعِلْمِ الْقُرْآنِ ضِعَافٌ. وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ نَقْصٌ، وَالْوَاجِبُ: تَقْدِيمُ الْقُرْآنِ ثُمَّ السَّنَةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى قَوْلِنَا: إِنَّ الْوَاجِبَ تَقْدِيمُ الْقُرْآنِ أَنَّ تَدْعَ السَّنَةَ، وَلَكِنْ تَجْعَلُ اهْتِمَامَكَ أَكْثَرَ فِي تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَعَلُّمِ السَّنَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السَّنَةِ». يَقُولُ: «وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا». يَعْنِي: الرِّسُولَ ﷺ قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ». نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُبَيِّنَنَا وَإِيَّاكُمْ، يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ عَلَى أَنَّهُ أَمِينٌ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ إِذَا الْأَمَانَةُ مَزْوُوعَةٌ مِنْ قَلْبِهِ؛ وَلِهَذَا شُرِعَ لِلنَّاسِ أَنْ يَنَامَ عَلَى ذِكْرٍ، وَأَنْ يَسْتَيْقِظَ عَلَى ذِكْرٍ، وَمَا أَجْدَرَ بِنَا أَنْ نَعْلَمَ أَذْكَارَ النَّوْمِ وَأَذْكَارَ الْاسْتَيْقَظِ، حَتَّى نَنَامَ عَلَى ذِكْرٍ وَنَقُومَ عَلَى ذِكْرٍ، لَكِنَّ الَّذِي لَا يَنَامُ عَلَى ذِكْرٍ يُخْشَى أَنْ تُتَرَعَ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ إِذَا اسْتَيْقَظَ، وَإِذَا هِيَ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ، وَالْإِنْسَانُ يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نِعْمَتِهِ. وَيَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ ﷻ يُصَرِّفُهُ وَيُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، «فَيَظْلُ أَثَرُهَا مِثْلُ أَثَرِ الْوَكْتِ»، الْوَكْتُ: الْأَثَرُ الْيَسِيرُ؛ يَعْنِي: مِثْلُ لَوْ أَنَّ شَرَارَةً سَقَطَتْ عَلَى جِلْدِكَ فَصَارَ لَهَا أَثَرٌ، لَكِنْ لَيْسَ بِذَاتِ الْأَثَرِ الْقَوِي، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، فَمُسَرَّهُ بِقَوْلِهِ: «كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَفَنَظَّ فَرَاهُ مُتَبَرِّأً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ» هَذَا أَيْضًا أَشَدُّ مِنَ الْأَوَّلِ أَنْ يَنَامَ ثُمَّ تُقْبَضُ مِنْ قَلْبِهِ وَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ، كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَفَنَظَّ. يَقُولُ: «فَرَاهُ مُتَبَرِّأً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ»، وَهَذَا شَيْءٌ تَقْهَمُونَهُ أَنْتُمْ، إِذَا سَقَطَتْ جَمْرَةٌ عَلَى رِجْلِكَ انْتَبَرَتْ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، هَكَذَا إِذَا نُزِعَتِ الْأَمَانَةُ النَّزْعَةُ الثَّانِيَّةُ.

❦ ويقول: «فَيُضَيِّحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ»؛ أي: حتَّى في البيع الذي هو جارٍ في حياتهم صباحًا ومساءً لا تكادُ تجدُ أحدًا يقومُ فيه الأمانة، فهناك غشٌ وكذبٌ وخداعٌ ومكرٌ، وهلمَّ جراً. فهذا إذا طبَّقته على حاضرنا اليومَ وجدتَ أنه مُنطبقٌ على كثيرٍ من الباعة، فكثيرٍ من الباعة يَلْعَبُ وَيَغِشُّ وَيَكْذِبُ، وَيَخْدَعُ وَيَخُونُ؛ لأنَّ المهمَّ أن يَجِدَ كَسْبًا ولو عن طريقٍ محرَّم، «فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فيقالُ: إن في بني فلانٍ رجلاً أميناً» أي: قبيلةٍ ليس فيها إلا رجلٌ واحدٌ أمينٌ، ثم قال: ويُقالُ للرجل: ما أعقله! ما أظرفه! ما أجَلَدَه! وما في قلبه مثقالُ حبة خردلٍ من إيمانٍ. يعني: هو فيما يَبْدُو للناسِ في المعاملة جيِّدٌ، لكن ليس عنده إيمانٌ - أَعُوذُ بِاللَّهِ - مثقالُ حبة خردلٍ، وهذا مما يُضْرَبُ به المثلُ في القِلَّةِ.

❦ ثم قال رحمه الله: «ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيَّكم بايعتُ، لئن كان مسلماً ردَّه عليَّ الإسلامُ، وإن كان نصرانياً ردَّه عليَّ ساعيه، فأما اليومُ فما كنتُ أباعُ إلا فلاناً وفلاناً». والمعنى: أنه يقولُ: إن اليومَ نَزَعَتِ الْأَمَانَةُ، فلا أكادُ أرى أحدًا يَصْلُحُ للمبايعةِ إلا فلاناً وفلاناً.

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٣٣٤):

❦ قوله: «وإن كان نصرانياً ردَّه عليَّ ساعيه». أي: واليه الذي أقيم عليه؛ لِيُنْصَفَ منه. وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ الساعي في ولاية الصدقة، وَيَحْتَمِلُ أن يرادَ به هنا: الذي يتولَّى قبضَ الجزية. ❦ قوله: «إلا فلاناً وفلاناً». يَحْتَمِلُ أن يكونَ ذَكَرَهُ بهذا اللفظِ، وَيَحْتَمِلُ أن يكونَ سَمَّى اثنين من المشهورين بالأمانة؛ إذ ذاك فأبَهِمَهُما الراوي، والمعنى: لستُ أَتَّقُ بأحدٍ أَثْمِنُهُ على بيعٍ ولا شراءٍ إلا فلاناً وفلاناً. اهـ

ليس هذا مشكلةً وإنما المشكلةُ أنه يقولُ: وإن كان نصرانياً. كيف يُبَاعُ النصرانيُّ؟ يعني: «أنه كان يُعَامِلُ مَنْ شاءَ غَيْرَ باحِثٍ عن حالِهِ وثوقاً بأمانتِهِ، فإنه إن كان مسلماً فدينُهُ يَمْنَعُهُ مِنَ الْخِيَانَةِ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى أَدَاءِ الْأَمَانَةِ». اهـ

إِذْنُ: المبايعةُ هنا ليست مبايعةَ الولاية؛ وإنما المبايعةُ في البيعِ والشراءِ، والمسلمُ يُبَاعُ المسلمُ، وَيُبَاعُ النصرانيُّ، وَيُبَاعُ اليهوديُّ، وَيُعَامِلُ كُلُّهُمْ مِنْهُمْ.

❦ قوله: «ردَّه عليَّ ساعيه». واضحٌ؛ يعني: لو بايعتَ نصرانياً، فإن الذي يَتَوَلَّى أُمُورَهُ سوف يَرُدُّه عليَّ، بمعنى: أنه لا يُمَكِّنُهُ مِنَ الْخِيَانَةِ فَيَرُدُّ الْأَمَانَةَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٤٩٨ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَدِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالْإِبِلِ الْهَائِةِ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»^(١).

هذا الحديث شرحه شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في الأحاديث التسع والتسعين التي جمعها، والحقيقة أن الواقع يشهد له فالناس كالإبل الهائِة، فهذا رجل عنده مائة بعير، يريد منها راحلة هيئة لينة سهلة المشي، فيركب واحدة، فإذا هي تُغيرُ به، ويركب الثانية فيجدها صعبة، ويركب الثالثة فيجدها حرونا، ويركب الرابعة فيجدها رغاءة وهكذا فتجده يحوم على الهائِة، فلا يكاد يجد فيها راحلة واحدة، لأنها كلها لا تصلح للركوب. فهكذا الناس أيضا، لو أن واحدا شغل منصبه ولا سيما المناصب الدينية لبقيت مدة تطلب أحدا، فلا تجد أحدا يقوم بالكفاية، فهذا المثل منطبق تماما على الأمة في هذا العصر، لا تكاد تجد راحلة في مائة، فلو قدرنا مثلا هذا الشعب عشرين مليوناً فما تجد فيهم مائتي رجل على ما تريد من الصلاح.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٦ - باب الرِّبَاءِ وَالسَّمْعَةِ.

٦٤٩٩ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ سُفْيَانَ، حَدَّثَنِي سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ. ح. وَحَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ سَلَمَةَ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدَبًا يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ غَيْرُهُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ يَرَانِي يَرَانِي اللَّهَ بِهِ»^(٢).

[الحديث ٦٤٩٩ - طرفه في: ٧١٥٢].

فهذان السندان المحوّل عنه، والمحوّل إليه لكل منهما مزيّة، فالثاني أعلى من الأول،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكن يمتاز الأول بالتصريح بالتحديث من سفیان بن عیینة، وسفیان من الذين يدلسون أحياناً، فالثاني أعلى إسناداً لكن فيه عنعنهُ سفیان، وهذا في الحقيقة مما يدلُّ على أن البخاريَّ رحمه الله إمامٌ في علم الحديث؛ يعني: لما رأى أن السند ليس فيه أيُّ ضَعْفٍ من حيث الإسناد دَعَّمَهُ بكونه عاليًا في الطريق الأخرى.

الشاهد من هذا قوله: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ». «مَنْ سَمِعَ»؛ يعني: مَنْ قَالَ قَوْلًا يَتَقَرَّبُ بِمِثْلِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْمَعَ النَّاسُ فَيَمْدَحُوهُ عَلَيْهِ. «سَمِعَ اللَّهُ بِهِ»؛ يعني: أَظْهَرَ اللَّهُ حَالَهُ لِلنَّاسِ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاسُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا بِحَالِهِ، فَصَارَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بِهِ. «وَمَنْ يُرَائِي» بأنَّ فَعَلَ؛ لِأَنَّ الرُّؤْيَا تَكُونُ لِلْفِعْلِ، وَالسَّمْعُ يَكُونُ لِلْقَوْلِ. وَالْإِنْسَانُ: إِمَّا قَائِلٌ وَإِمَّا فَاعِلٌ، فَمَنْ قَالَ قَوْلًا يُرَائِي بِهِ لِيَسْمَعَ النَّاسُ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ فَعَلَ فَعَلًا يُرَائِي بِهِ لِيَرَاهُ النَّاسُ رَائِي اللَّهُ بِهِ وَأَظْهَرَ أَمْرَهُ.

ففي هذا: التحذير من الرياء والشُّمُوعَةِ.

فإذا قَالَ قَائِلٌ: قَدْ يَعْزُضُ لِلْإِنْسَانِ الرِّيَاءُ فَلَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ.

قلنا: هذا صحيحٌ، لكن له دواءٌ، إذ عَرَضَ الشَّيْطَانُ عَلَيْكَ الرِّيَاءَ فَأَعْرِضْ عَنْهُ، وَحَدِّثْ نَفْسَكَ بِأَنَّكَ قُلْتَ هَذَا لِيُقْتَدَى بِكَ، لَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تُمدَحَ بِأَنَّكَ فاعِلٌ، فإذا أَشْعَرْتَ نَفْسَكَ بِأَنَّكَ فَعَلْتَهُ لِيُقْتَدَى بِكَ زَالَ عَنْكَ الرِّيَاءُ مِنْ وَجْهِهِ، وَشَعَرْتَ بِالمُسْتُولِيَةِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، أَنَّكَ إِمَامٌ تَرِيدُ أَنْ يَقْتَدِيَ النَّاسُ بِكَ؛ لِأَنَّكَ لَوْ أَطَعْتَ الشَّيْطَانَ فِي قَوْلِهِ: إِنَّكَ مُرَاءٍ. مَا فَعَلْتَ فَعْلَةً، وَكَذَلِكَ وَلَوْ أَطَعْتَ الشَّيْطَانَ فِي قَوْلِكَ: إِنَّكَ مُسَمِّعٌ مَا قُلْتَ قَوْلًا تَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله:

٣٧- بَابُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

٦٥٠- حَدَّثَنَا هُدَيْبُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا هَبَاءٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ **رحمته الله** قَالَ: بَيْنَا أَنَا وَرَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ». قُلْتُ: لَيْسَ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ وَوَسْعَدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ». قُلْتُ: لَيْسَ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ وَوَسْعَدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ». قُلْتُ: لَيْسَ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ وَوَسْعَدَيْكَ. قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا». ثُمَّ سَارَ

سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ». قُلْتُ: لَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ»^(١).

❖ قَالَ الْمُؤَلَّفُ رحمه الله: «بَابُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ». جَاهَدَ عَلَى وَزْنِ فَاعَلَ. وَجَاهَدَ فِي الْأَصْلِ تَكُونُ مِنْ طَرَفَيْنِ؛ يَعْني: بَيْنَ شَيْئَيْنِ، كَقَاتَلَ. وَقَدْ تَأْتِي عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ، مِثْلُ قَوْلِهِمْ: سَافَرَ. فَالْمُجَاهِدَةُ مَعْنَاهَا: بَذْلُ الْجُهِدِ، وَالْإِنْسَانُ مَعَ نَفْسِهِ فِي جِهَادٍ دَائِمًا، فَالنَّفْسُ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي. وَالْإِنْسَانُ لَهُ نَفْسٌ أُخْرَى تَرِيدُ الْخَيْرَ وَهِيَ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، وَنَفْسٌ أَمَارَةٌ، وَنَفْسٌ لَوَامَةٌ. فَالْمُطْمَئِنَّةُ تَرِيدُ الْخَيْرَ، وَالْأَمَارَةُ بِالسُّوءِ تَرِيدُ الشَّرَّ، وَالْوَلَامَةُ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا. فَالْإِنْسَانُ لَا يَبْدَأُ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رحمهم الله فِي الَّذِي يُجَاهِدُ نَفْسَهُ عَلَى الطَّاعَةِ: هَلْ هُوَ أَفْضَلُ، أَمْ الَّذِي يَفْعَلُ الطَّاعَةَ بِدُونِ مَشَقَّةٍ وَجِهَادٍ.

فَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْأَوَّلَ أَفْضَلُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْزَعُوهُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَلِأَنَّهُ يَحْمِلُ نَفْسَهُ وَيُصَبِّرُهَا، وَالثَّانِي لَيْسَ فِيهِ هَذَا الْأَمْرُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الثَّانِي أَفْضَلُ؛ لِأَنَّهُ الطَّاعَةُ صَارَتْ كَأَنَّهَا غَرِيزَةٌ فِي نَفْسِهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ لَهُ وَدَوَامِهِ عَلَيْهَا.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّ الثَّانِي الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُجَاهَدَةٍ أَكْمَلُ حَالًا مِنَ الْأَوَّلِ، وَالْأَوَّلُ رَبَّمَا يُعْطَى أَجْرًا أَكْثَرَ فِيمَا يَتَكَلَّفُهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَكِبَالُ الْحَالِ أَفْضَلُ مِنَ مُجَاهَدَةِ الْأَعْمَالِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم أَكْمَلُ حَالًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ مَعَ أَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَلَا سِيَّما فِي غَرِبَةِ الدِّينِ يَتَكَلَّفُونَ لِلْعِبَادَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَكَلَّفُ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم.

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ حَدِيثَ مُعَاذٍ، وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالتَّنَكُّبِ: تَكَرَّارُ النِّدَاءِ لِلشَّخْصِ مِنْ أَجْلِ زِيَادَةِ الْإِنْتِبَاهِ، وَبَيَانِ الْعَنَاءِ؛ وَلِهَذَا نَادَاهُ الرَّسُولُ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذٌ». قُلْتُ: لَبِيكَ. إِلَى آخِرِهِ.

وفيه أيضًا: بَيَانُ مَا يُؤَكِّدُ الْخَبَرَ مِنْ ذِكْرِ الْحَالِ، فَإِنَّ مُعَاذًا رضي الله عنه ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ إِلَّا مَوْخَرَةُ الرَّحْلِ.

وفيه أيضًا: أن حقَّ الله على العباد: أن يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا به شيئًا. وهذا حقٌّ لا يشاركه فيه أحدٌ. والعبادة هي: القيام بطاعة الله على وجه المحبة والتعظيم. فلا بدَّ فيها من دُلٍّ، واعتقادٍ أن الإنسان عبدٌ لله، مُسَخَّرٌ باذِلٌ نفسه فيما يُرْضِي رَبَّهُ، لا أن يَفْعَلَ العبادة على وجه العادة، ولا أن يَفْعَلَ العبادة وهو يَشْعُرُ بأنه مُسْتَعْنٍ عن رَبِّهِ، بل لا بدَّ من التذللِ التامِّ لله ﷻ، والقيام بطاعته محبةً له وتعظيمًا له. ومتى كان الإنسان على هذا الوجه فلا بدَّ أن يَقُومَ بالأعمالِ الصالحة؛ ولهذا لا تَظُنُّ أن هذا الأمرَ الذي قاله النبي ﷺ أمرٌ سهلٌ، بل هو أمرٌ صعبٌ؛ ولهذا قَالَ: «حقُّ الله على العباد: أن يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا به شيئًا»، ولا يَجُوزُ أن نُشْرِكَ أحداً مع الله في هذا الحقِّ الخاصِّ، أما حقُّهم عليه ﷻ: ألا يُعَذِّبَهُمْ إذا عَبدُوهُ ولم يُشْرِكُوا به شيئًا.

ومن الفوائد في هذا الحديث: إسنادُ العلمِ إلى الله ورسوله بدونِ الإتيانِ بـ«ثم»، حيث قَالَ معاذٌ: الله ورسوله أعلمُ. وأقرَّه النبي ﷺ على ذلك، ووجهه: أن مسائلَ الشرعِ عِلْمُ الرسولِ ﷺ فيها من عِلْمِ الله، فيَصِحُّ أن تَنْسِبَ العلمَ فيها إلى الله ورسوله بواوِ العطفِ الدالةِ على الاشتراكِ؛ لأن ما قاله الرسولُ فهو شرعُ الله، أما المسائلُ القدريَّةُ الكونيةُ فلا يَجُوزُ أن تَقَرَّنَ الرسولَ ﷺ مع الله بواوِ العطفِ، بل لا بدَّ من «ثم» التي تدلُّ على التأخِرِ والتراخي في حقِّ الرسولِ ﷺ بالنسبةِ إلى حقِّ الله. فالأمورُ الكونيةُ لا يُمكنُ أن تُشْرِكَ الرسولَ مع الله بالواوِ، مثلُ ما أنكرَ الرسولُ ﷺ على الرجلِ الذي قَالَ له: ما شاء الله وشئتَ. فقال: «أجعلنني لله نداءً، قل: ما شاء الله وحده»^(١). لكن لما قَالَ معاذٌ: الله ورسوله أعلمُ، ولما قَالَ الصحابةُ في غزوةِ الحديبيةِ لما أصبحوا وقد أُمْطِرَتِ السماءُ، قَالَ لهم الرسولُ ﷺ: «أتدرون ما ذا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلمُ^(٢). لم يُنْكَرْ عليهم؛ لأن المسائلَ الشرعيةَ كما قلتُ لكم: عِلْمُ الرسولِ فيها من عِلْمِ الله، وما قاله الرسولُ فيها تشريعًا، فهو شرعُ الله. فصَحَّ أن يُقَرَّنَ الحُكْمُ بينَ الله ورسوله بالواوِ، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩]. لأن الإتيانَ هنا: إتيانٌ شرعيٌّ.

فإن قَالَ قائلٌ: ما وجه إنكارِ النبي ﷺ وقوله: «بئسَ خطيبُ القومِ أنتَ» لمن قَالَ: «مَنْ

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٤٧)، ومسلم (٧١).

يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رُشِدَ، وَمَنْ يَعْصِيهَا فَقَدْ غَوَى^(١) ؟

والجواب: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ رَأَى مِنْ هَذَا الْخَطِيبِ مَا يُوْجِبُ الْقَدَحَ فِي خَطِيئَتِهِ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ -يَعْنِي: مَقَامَ الْخُطْبَةِ- يَقْتَضِي الْبَسْطَ وَالْإِيضَاحَ؛ لِأَنَّ السَّامِعَ الَّذِي لَا يَدْرِي رَبِّهَا يَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ الْغَيُّ إِلَّا إِذَا اجْتَمَعَ فِيهِ مَعْصِيَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ الْغَيُّ إِلَّا إِذَا وَرَدَ نَصُّ كِتَابٍ وَنَصُّ سُنَّةٍ ثُمَّ خُولِفَ، فَالْخُطْبَةُ لَهُ لَا لِأَنَّهُ جَمَعَهُمَا، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَمْ يُفْصَلْ، وَإِلَّا فَقَدْ جَمَعَهُمَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي هذا الحديث: أَنَّ لِلْعِبَادِ حَقًّا عَلَى اللَّهِ وَاجِبًا أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ هُوَ وَجَلَّ تَكْرُمًا مِنْهُ وَفَضْلًا، وَإِلَّا فَهُوَ رَبُّنَا يَفْعَلُ مَا شَاءَ، لَكِنْ مِنْ كَرَمِهِ أَنْ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ لَنَا حَقًّا، وَمِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ نَحْنُ نَاقِلُهُ بِعَدْوَةٍ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ عَفْوَ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]. كَتَبَ بِمَعْنَى: فَرَضَ، وَأَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ. أَمَا نَحْنُ فَلَا تُوجِبُ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا، لَكِنْ إِذَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ تَكْرُمًا مِنْهُ فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْفَضْلُ؛ وَلِهَذَا قَيَّدَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نَعُمُوا فَيَفْضُلُهُ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ
قَيَّدَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، فَقَالَ:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هُوَ أَوْجَبَ الْأَجَرَ الْعَظِيمَ الشَّانَ
كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ

«مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ». فَقَيَّدَهُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالْوَاجِبِ الَّذِي أَوْجَبَهُ هُوَ عَلَى نَفْسِهِ، كَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ الشَّانِ.

وقوله: «كَلَّا وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ». فَقَيَّدَ هَذَا بِأَنَّ الْعَمَلَ لَا بَدَّ فِيهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِخْلَاصٌ وَلَا إِحْسَانٌ؛ أَي: عَلَى شَرِيعَةِ الرَّسُولِ ﷺ يَكُونُ ضَائِعًا.

وفيه أيضًا: دليلٌ على تواضع الرسول ﷺ حيث أردف خلفه معاذًا وجواز الإراداف على الدابة لكن بشرك ألا يكون ذلك شاقًا عليها.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٨- بَابُ التَّوَاضُّعِ.

٦٥٠١- حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا حُمَيْدٌ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَاقَةٌ... ح. وحدثني محمد، أخبرنا الفزاري وأبو خالد الأحر، عن حميد الطويل، عن أنسٍ قَالَ: كَانَتْ نَاقَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ تُسَمَّى الْعَضْبَاءَ وَكَانَتْ لَا تُسَبِّقُ فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ فَسَبَقَهَا، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَقَالُوا: سَبَقَتِ الْعَضْبَاءُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ».

قَالَ الْمُؤَلَّفُ: «بَابُ التَّوَاضُّعِ». التَّوَاضُّعُ؛ يَعْنِي: التَّطَامُنَ وَالتَّنَازُلَ، وَعَدَمَ التَّرْفُّعِ. وَهُوَ نَوْعَانِ: تَوَاضُّعٌ لِلْحَقِّ. وَتَوَاضُّعٌ لِلخَلْقِ.

التَّوَاضُّعُ لِلْحَقِّ: يَكُونُ فِي جَانِبِ اللَّهِ وَجَانِبِ رَسُولِهِ ﷺ؛ يَعْنِي: فِي حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ الْعِبَادِ، فَالتَّوَاضُّعُ فِي حَقِّ اللَّهِ ﷻ أَنْ الْإِنْسَانَ مَتَى عَلِمَ بِالشَّرْعِ فِي أَيِّ مَسْأَلَةٍ مِنَ الْمَسَائِلِ أَخَذَ بِهَا وَإِنْ خَالَفتْ هَوَاهُ، وَإِنْ خَالَفتْ مَا كَانَ يَقُولُهُ. أَمَا قَوْلُنَا: «وَإِنْ خَالَفتْ هَوَاهُ» فَإِنْ بَعْضُ النَّاسِ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْحَقِّ إِلَّا مَا وَافَقَ الْهَوَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٨) الْإِنْسَانُ الْقَوْلُ بِالْحَقِّ أَوْ التَّوَاضُّعُ لِلْحَقِّ قَدْ يَمْنَعُهُ أَنْ يَقُولَ قَوْلًا بِخِلَافِهِ؛ يَعْنِي: مِثْلًا قَالَ بِالْأَمْسِ لِلنَّاسِ: إِنَّ هَذَا حَرَامٌ ثُمَّ اطَّلَعَ عَلَى أَنَّ هَذَا الشَّيْءَ حَلَالٌ فِي حُكْمِ اللَّهِ، فَتَجَدُّهُ يَضْعُبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ غَدًا: إِنَّ هَذَا حَلَالٌ، أَوْ يَقُولَ لِلنَّاسِ الْيَوْمَ: أَنَّ هَذَا حَلَالٌ ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَى أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ أَنَّهُ حَرَامٌ، فَيَضْعُبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: إِنَّهُ حَرَامٌ. هَذَا إِذَنْ غَيْرُ تَوَاضُّعٍ، وَالْوَاجِبُ إِذَا بَانَ لَكَ الْحَقُّ: أَنْ تَتَوَاضَّعَ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ الَّذِي أَبَانَهُ لَكَ أَدْنَى مِنْكَ سِنًا وَمَرْتَبَةً وَجَاهًا؛ لِأَنَّ الْحَقَّ مُتَبَوِّعٌ فَلَوْ جَاءَ نَصْرَانِيٌّ أَوْ يَهُودِيٌّ، أَوْ وَثْنِيٌّ أَوْ مُلْحِدٌ تَوَاضَّعَ لَهُ وَتَقَبَّلَهُ، وَلَوْ جَاءَ بِالْبَاطِلِ مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ مَا قَبِلْتَهُ.

والتَّوَاضُّعُ لِلخَلْقِ: هُوَ لِيْنُ الْجَانِبِ وَعَدَمُ الْعُنْفِ، وَلَكِنْ لِيْنُ الْجَانِبِ وَعَدَمُ الْعُنْفِ إِذَا

اقتضتِ الحكمة ذلك، فإن العُنفَ أحياناً والشدة والغلظة تقتضيها الحكمة، وانظر إلى قول الله تعالى في وصف الصحابة: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٩]. بل قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. بل دون ذلك، قال في الزاني والزانية: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٢١]. فالأحوال ثلاثة: ما تقتضي الحال فيه اللين، فهذا يكون استعمال اللين فيه هو الحكمة.

وما تقتضي فيه الشدة؛ فهنا نأخذ بالحكمة ونستعمل الشدة.

وما لا تقتضي الحال فيه هذا ولا هذا، فهل الأحسن الشدة؛ ليكون الإنسان مُهابَ الجانب أو اللين؛ ليكون محبوباً مألوفاً؟

الجواب: اللين هو الأحسن؛ ولهذا يُذكر أن الرسول ﷺ قال لأبي بكر: أنت كإبراهيم. وقال -أظنه لعمر-: أنت كنوح قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذَيَّارًا﴾ [يوسف: ٢٦]. وإبراهيم قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٣٦].

فالحاصل: أن هذه الأحوال الثلاثة: ما اقتضتِ الحال فيه اللين فلا شك أن اللين هو الخير، وهو الموافق للحكمة، وما اقتضت فيه الشدة فاللين غير مناسب، وما لا تقتضي الحكمة هذا ولا هذا فلا شك أن اللين أولى وأطيب، حتى إنه أطيّب لقلب اللين، فإن الإنسان إذا لم يجد من نفسه انشراحاً، وإذا غلظ ربما يندم يقول: كيف فعلتُ كذا ليتني ما فعلته، لكن إذا استعمل اللين ما يندم في الغالب، والنبي ﷺ أخبر بأن الله يُعطي بالرفق ما لا يُعطي على العُنف^(١)؛ ولذلك متى تعارض عندك الأمران فمِلْ إلى اللين.

أما الحديث الذي ذكره يقول: «كانت ناقة رسول الله ﷺ تُسمى العُضباء، وكانت لا تُسبق فجاء أعرابي على قعود له؛ فَعُود: الذي ليس هو بكبير «فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين» إنها ناقة الرسول غلبت، وقالوا: «سُبقَتِ العُضباء» مستكرين لهذا الأمر، فقال النبي ﷺ: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»، أما من الدين فمن رفعه الله فإنه لا ضعة له، لكن إذا ركن الإنسان إلى الدنيا فهذا يوضع قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [ص: ١٧٥-١٧٦]. نعوذ بالله

صار همه الدنيا ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ فلم يرفعهُ الله فكان مثله ﴿كَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثَ﴾ [الأنعام: ١٧٦].

يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: أنه لا حرج على الإنسان إذا اشتد عليه الأمر إذا غلب؛ لأن هذا من طبيعة البشر، صحيح أنه لا بد أن يرضى بالقضاء والقدر، لكن لا بد أن يشتد عليه الأمر، وإنما عليه الصبر، وأما أن نقول: اجعل نفسك لا تهتم بشيء أبداً، فهذا لا يمكن.

وهل يؤخذ من ذلك أن الإنسان لو اشتد عليه رسوب ابنه في الاختبار أنه لاشيء عليه؟
الظاهر: أنه إذا اشتد عليه فلا حرج؛ لأن الامتحانات عبارة عن مسابقة، وإذا نجح وفرح بهذا فما عليه شيء ولا يلام، ومرر عليكم أن عمر رضي الله عنه تمنى أن عبد الله بن عمر أجاب بما في نفسه لما سأل النبي ﷺ الصحابة، قال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مِثْلُهَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ» ^(١). يقول: فخاض الناس في أشجار البوادي. يقول ابن عمر: فوقع في قلبي أنها النخلة ولكنني كنت أصغر القوم فلم أتكلم، فتمنى عمر رضي الله عنه أنه تكلم، وهذا معروف أنه تقدّم ونجاح.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٠٢ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ كَرَامَةَ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ حَدَّثَنِي شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَجْرٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ قَالَ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

هذا الحديث حديث عظيم ذكره النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «الأربعين النووية».

يقول الله ﷻ في الحديث الذي رواه النبي ﷺ عن ربه: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ». الولي لله هو: المؤمن التقى. هكذا فسره الله ﷻ في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيََاءَ اللَّهِ لَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٧﴾ [التوبة: ٦٢-٦٣]. فهم طاهرون في ظواهرهم وبواطنهم، طاهرون في بواطنهم بالإيمان؛ لأن الإيمان محلّه القلب، وظواهرهم بالتقوى فهو لاء هم أولياء الله.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ -: «مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا تَقِيًّا كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا». والمعاداة ضدّ الموالاة، والمعنى: أن يكون لهذا الذي يُعَادِي الوليَّ حربًا عليه، مُبْغِضًا له، كارهًا له، وبهذا يكون قد آذَنَ اللَّهُ بالحرب.

❖ وقوله: «فقد آذنته بالحرب». يَعْنِي: أعلمته أنني محاربٌ له، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مُحَارِبَهُ فهو مخذولٌ ولا بدّ.

❖ ثم قال ﷺ: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه». والعبادات التي يتقرب الإنسان بها إلى الله: بعضها فريضة وبعضها نافلة، وكلُّ أركان الإسلام العملية فيها فريضة ونافلة، فالصلاة فريضة ونافلة، والزكاة فريضة ونافلة، والصوم فريضة ونافلة، والحج فريضة ونافلة، وغالب العبادات هكذا البرُّ فريضة ونافلة، الصلّة فريضة ونافلة، لكن الفرائض أحبُّ إلى الله من النوافل، فإذا صَلَّى الإنسان أربع ركعات نفلًا وصلاة الظهر، كانت صلاة الظهر أحبَّ إلى الله ﷺ من هذه الأربع النوافل.

ويدلُّ لذلك من الناحية العقلية: أن الله فرض هذه الفرائض وألزم العباد بها، فلولا أن محبته إياها أقوى من محبته للنوافل لم يفرضها عليهم.

❖ ثم يقول ﷺ: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل؛ التي هي زيادة على الفرائض حتى أحبه»، إذن فالتقرب بالنوافل سبب لمحبة الله.

وأسباب محبة الله كثيرة متعددة:

منها: اتباع الرسول ﷺ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣١].

فإذا أكثر الإنسان من النوافل أحبه الله ﷺ؛ «فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها». «كنتُ سمعَه»: لا ريب أن المراد: تسديدُ الله تعالى لهذا الرجل في سمعه، بحيث يوفق فلا يسمع إلا خيرًا ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ٥٥]. «وكنتُ بصرَه» يُسَدِّدُ في نظره ورؤيته، بحيث لا يرى

إِلَّا الْخَيْرَ، وَإِذَا رَأَى الشَّرَّ وَاللَّغْوَ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا: الَّذِي يُطَالِعُ فِي الْكُتُبِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا فَائِدَةٌ، فَهَذَا لَمْ يُسَدِّدْ بَصَرَهُ؛ لِأَنَّهُ رَأَى شَيْئًا لَا خَيْرَ لَهُ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الَّذِي يَسْمَعُ أَقْوَالَ لَا تَنْفَعُهُ فِي دِينِهِ لَمْ يُسَدِّدْ فِي سَمْعِهِ.

❖ «وَيْدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا» يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ يُوَفِّقُهُ حَتَّى لَا يَعْمَلَ بِيَدِهِ شَيْئًا إِلَّا وَفِيهِ الْخَيْرُ لَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ يَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا فَسَدَّدَهُ.

❖ «وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا». كَذَلِكَ نَقُولُ فِيهَا: يُسَدِّدُ بِحَيْثُ لَا يَمْشِي إِلَّا إِلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ.

وَلَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يَتَوَهَّهَ وَاهِمٌ ذُو عَقْلٍ أَنَّ اللَّهَ يَكُونُ نَفْسَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْيَدِ وَالرَّجْلِ، حَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ! وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ سَمْعَهُ» وَالسَّمْعُ صِفَةٌ فِي السَّامِعِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى صِفَةً فِي غَيْرِهِ، وَالْبَصَرُ كَذَلِكَ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَصَرًا فِي غَيْرِهِ، ثُمَّ إِنْ سَمِعَ الْإِنْسَانُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ وَرِجْلَهُ حَدَثٌ لَيْسَ بِقَدِيمٍ ﴿هَذَا قِيَاسٌ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [اللائحة: ١]. وَأَنْتَ مَثَلًا: إِذَا كَانَ لَكَ الْآنَ عَشْرُونَ سَنَةً، لَمْ تَكُنْ قَبْلَ خَمْسِ وَعَشْرِينَ سَنَةً شَيْئًا مَذْكُورًا، وَلَا مَوْجُودًا، وَلَا يُدْرَى عَنْهُ شَيْءٌ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْخَالِقُ ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ} صِفَةً أَوْ جُزْءًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَلَا يُمْكِنُ هَذَا؛ وَلِذَلِكَ لِمَا احْتَجَّ أَهْلُ التَّعْطِيلِ عَلَى أَهْلِ السَّنَةِ: بِأَنَّهُمْ أَوَّلُوا فِي هَذَا الْحَدِيثِ، قَالُوا: نَحْنُ مَا أَوَّلْنَا؛ لِأَنَّ الظَّاهِرَ الَّذِي ظَنَنْتُمُوهُ لَيْسَ بِظَاهِرٍ أَصْلًا، حَتَّى نَقُولَ: خَرَجْنَا عَنْ الظَّاهِرِ. ثُمَّ إِنَّا -نَحْنُ مَعِشَرُ أَهْلِ السَّنَةِ- لَا تُنْكِرُ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا، بَلْ نَقُولُ: إِنْ التَّأْوِيلَ بِدَلِيلٍ هُوَ الدَّلِيلُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا دَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَى التَّأْوِيلِ صَارَ مُقْتَضًى هَذَا النَّصِّ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الْأُخْرَى؛ لِأَنَّ النُّصُوصَ لَا تَتَنَاقُضُ، فَإِذَا كَانَ التَّأْوِيلُ بِدَلِيلٍ فَلَيْسَ هُنَاكَ إِشْكَالٌ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [الحجرات: ٩٨]. فَنَقُولُ: «إِذَا قَرَأْتَ»؛ أَيُّ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقْرَأَ، وَهُوَ إِخْرَاجٌ لِلْفِظِ عَنْ ظَاهِرِهِ، لَكِنْ عِنْدَنَا دَلِيلٌ، وَحِينَئِذٍ لَمْ نَكُنْ خَرَجْنَا عَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّ لَدَيْنَا دَلِيلًا مِنْ فِعْلِ الرَّسُولِ ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ}: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْرَأَ اسْتَعَاذَ.

ثُمَّ قَالَ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ يَقُولُ: «إِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتَنِي»، قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: هَلْ هَذَا عَلَى إِطْلَاقِهِ؟

نقول: فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّهُ لَوْ سَأَلَ اللَّهُ -تَعَالَى- مَا فِيهِ اعْتِدَاءٌ لِأَعْطَاهُ، وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ: أَنْ يَقَالَ: مِثْلُ هَذَا الرَّجُلِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ مَا فِيهِ اعْتِدَاءٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ سَأَلَ مَا فِيهِ

اعتداء لما صار من أولياء الله، ولا صار أهلاً لمحبة الله، فلا بد أن يكون السؤال هنا سؤالاً فيما يسوغ سؤاله.

❖ «ولئن استعاذني لأعिذته». استعاذني: يعني استجار بي من مكروه، لأعिذنه، فجمع الله له بين حصول المطلوب في قوله: «ولئن سألتني لأعطينه» وزوال المكروه في قوله: «لئن استعاذني لأعिذته».

❖ ثم قال: «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن». عن نفسه؛ يعني: عن قبض نفسه، بدليل قوله: «يكره الموت وأنا أكره مساءته» يعني: أن الله عز وجل «فَمَا لِيَمُوتَ بَرٌّ؟» [البقرة: ١٦٧]. وهذا لا شك فيه، لكنه عز وجل لمحبتة للمؤمن - وأسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم - يتردد في قبض نفس المؤمن؛ لأن المؤمن يكره الموت، والله تعالى يكره إساءته، والموت يسوؤه بلا شك؛ لأنه يحب أن يبقى في الدنيا فيزداد عملاً صالحاً، وغير المؤمن يكره الموت؛ لأنه يريد أن يبقى في الدنيا ليتمتع فيها على كل حال.

❖ قوله: «يكره الموت وأكره مساءته». فمن كراهة المؤمن للموت؛ يكره الله أن يقبض روحه؛ لأن ذلك يسوؤه، ولكن في لفظ آخر: «يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه» أي: إن لم يموت اليوم مات غداً، فإذا كان كذلك فإن الله تعالى يفعل ما تقتضيه حكمته فيقبض نفسه؛ يعني: هذا هو الذي تقتضيه الحكمة.

وقد أشكل على بعض الناس وصف الله تعالى بالتردد، ولكنه ليس فيه إشكال - والله الحمد -؛ لأن التردد منشؤه أحد أمرين: إما شيء يتعلق بالفاعل؛ لجهله بعواقب الأمور، وإما شيء يتعلق بالغير؛ لمصلحتهم. فإن كان لشيء يتعلق بالفاعل؛ لكونه يخفى عليه عواقب الأمور، فهذا نقص وهو ممتنع على الله، فلا يمكن أن يكون منشؤ التردد في حق الله هذا السبب. والثاني منشؤه يتعلق بالغير، وإلا فالله تعالى أعلم بما تقتضيه الحكمة. فهذا يقع من الله، ومنشؤ هذا في الحقيقة: الرحمة بالغير؛ ولهذا قال: «يكره الموت وأكره مساءته» إذن يكون هذا التردد صفة كمال ^(١).



(١) يشير الشيخ رحمه الله إلى قوله تعالى في الحديث: «وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن» البخاري (٦٥٠٢).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٩- بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ».

﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ [الْحَلَقَةُ: ٧٧].

❖ قوله: «بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ». ويجوزُ والسَّاعَةُ على أنها معطوفة على التاء في قوله: «بعثتُ» وذلك لوجود الفاصل بين الضمير المتصل وبين المعطوف، أما لو لم يوجد الفاصل فإن الأرجح يكون النصب.

قَالَ ابْنُ مَالِكٍ فِي الْأَلْفِيَةِ:

وإن على ضميرٍ رَفَعَ مَتَّصِلٌ عطفَتْ فافْصِلْ بالضميرِ المنفصلِ

أو فاصِلٍ ما، وبِلا فَصْلٍ يَرِدُ في النظمِ فاشيًّا، وضعفه اعتقُدْ

❖ أما قوله: «والسَّاعَةُ». فالمرادُ بها: ساعةُ القيامةِ، وسميت ساعة؛ لأنه لا ساعةَ أعظمُ منها؛ ولهذا جاءت (بأل) الدالَّةُ على العهدِ الذهنيِّ المفهومِ لكلِّ أحدٍ؛ لأنها ليست معهودًا ذكريًّا ولا معهودًا حضورِيًّا، بل هي معهودٌ ذهنيٌّ متقرَّرٌ في أذهانِ كلِّ أحدٍ، فهي أعظمُ شيءٍ يمرُّ على الإنسانِ.

❖ وقوله: «﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾». «أَمُرُ السَّاعَةِ»؛ أي: شأنُها؛ أي: قيامُها.

﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ لمَحُ البصرِ يُضْرَبُ به المثلُ في السرعةِ.

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾؛ أي: بل هو أقربُ من لمَحِ البصرِ؛ لأن الذي يأمرُ بها مَنْ يقولُ للشيءِ كن فيكونُ، من حين ما تُسْتَكْمَلُ (النون) في (كن) وإذا الشيءُ قد كان، وهذا ليس شأنُ الساعةِ وحدها، بل كلُّ أمرٍ من أمورِ الله ﷻ. قال الله تعالى: «﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾» [التكوير: ٥٠]. ثم قال تعالى: «﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾» ومن تمامِ قدرته: قيامُ الساعةِ الذي يكونُ كَلَمْحِ البصرِ أو هو أقربُ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٠٣- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا أَبُو غَسَّانَ، حَدَّثَنَا أَبُو حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ هَكَذَا» وَيُشِيرُ بِإِصْبَعِيهِ فِيمُدُّهَا^(١).

❖ قوله: «هاتين». يعني: مقترنتين؛ لأن الرسول ﷺ آخر الأنبياء، وقد خطب الناس ذات يوم، والشمس على رءوس النخل، فقال: «إنه لم يبق في دنياكم إلا كما بقي في هذا اليوم»^(٢). وإذا كان اليوم يومًا صائفًا، فمعناه: أن الذي مضى مدة طويلة، خصوصًا وأنا نحن الآن في القرن الخامس عشر من الهجرة، ومع ذلك لم تقم الساعة. إذن فالذي مضى يكون كثيرًا، ولا يعلم به إلا الله، ومع هذا فإن الرسول ﷺ مبعوث هو والساعة كما بين إصبعيه: السَّابَّةِ وَالْوُسْطَى؛ يعني: أن أمر الساعة قريب جدًا.

والغرض من هذا الحديث: حثُّ الناس على العمل الصالح قبل أن تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٠٤ - حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ - هُوَ الْجُعْفِيُّ - حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ وَأَبِي الْتِيَّاحِ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»^(١).

٦٥٠٥ - حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ يَوْسُفَ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ عَنْ أَبِي حَصِينٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»؛ يَعْنِي: إِصْبَعَيْنِ تَابَعَهُ إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي حَصِينٍ. رَوَاهُ هَذَا الْحَدِيثُ عَنِ الرَّسُولِ ثَلَاثَةٌ: سَهْلٌ، وَأَنْسٌ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، فَيَكُونُ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى قَاعِدَةِ الْمُحَدَّثِينَ لَيْسَ مُتَوَاتِرًا، وَإِنَّمَا هُوَ مَشْهُورًا إِلَّا إِذَا كَانَ قَدْ جَاءَ فِي غَيْرِ الْبُخَارِيِّ بِرَوَايَةٍ أُخْرَى، فَهَنَّا قَدْ يُحْكَمُ لَهُ بِالتَّوَاتُرِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٠ - بَابٌ.

وفي نسخة باب طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٩١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥١).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: «بَابٌ» كذا للأكثرِ بغيرِ ترجمةٍ وللكشميهني: «بَابُ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١). اهـ
وسبق لنا أن البخاريَّ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قال: «بَابٌ» ولم يذكُرِ الترجمةَ، فهو بمنزلةِ الفصلِ عند
غيره؛ لأنَّ غيره مثلاً يقول: «كِتَابُ الطَّهَارَةِ» و«أَبْوَابُ الطَّهَارَةِ» ثم يذكُرُ ما شاء الله مِنْ
مسائلَ، ثم يقول: «فَصْلٌ» والبخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ما في كتابه شيءٌ يُسَمَّى «فَصْلاً» لكن فيه «بَابٌ»
فإذا إذا ذكر باباً بدونِ ترجمةٍ فهو بمعنى «فصل».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٠٦ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي
هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ
فَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِمْنُهَا تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكْسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا
خَيْرًا» [الاعتقالات: ١٥٨]. وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ،
وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ أَنْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقَعْتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ
فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أَكْلَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا»^(١).

❖ قولُ النبي ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا». والشَّمْسُ الآنَ تَطْلُعُ
مِنَ الْمَشْرِقِ وَتَغْرُبُ فِي الْمَغْرِبِ ❖ وَسَحَرَكُمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَيْنِ ❖ [البقرة: ٢٣]. وهذا شأنُها
دائماً ولكنَّ الله ﷻ إذا أَرَادَ إنهاءَ الدُّنْيَا رَدَّهَا إِلَى حَيْثُ جَاءَتْ؛ لِأَنَّهَا الآنَ تَذْهَبُ وَتَسْجُدُ
تَحْتَ الْعَرْشِ وَتَسْتَأْذِنُ مِنَ اللَّهِ، فَإِنْ أَذِنَ لَهَا وَإِلَّا قِيلَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَرْجِعُ مِنَ
الْمَغْرِبِ، فَيَرَاهَا النَّاسُ شَارِقَةً مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ هَكَذَا آمَنُوا؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ
لَيْسَ هُنَاكَ قُدْرَةٌ تَرُدُّهَا مِنْ مَغْرِبِهَا إِلَّا اللَّهُ ﷻ، وَلَكِنْ حِينَئِذٍ ❖ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِمْنُهَا تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَكْسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ❖ حَتَّى الْمُسْلِمُ الْعَاصِي إِذَا تَابَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا تُقْبَلُ
تَوْبَتُهُ؛ لِأَنَّهَا تَوْبَةٌ بَعْدَ نَزُولِ الْآيَاتِ، فَلَا تَنْفَعُهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَنْقُطُ الْمُهْجَرَةُ حَتَّى

(١) انظر: «الفتح» (١١/٣٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٧).

تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

وفي هذا الحديث أيضًا: دليلٌ على أنها تأتي بغتة، قال ﷺ ضاربًا المِثَالِ الأولَ لذلك: «وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ».

والمِثَالُ الثاني: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقَحْتِهِ فَلَا يَطْعُمُهُ». رجلٌ حَلَبَ لِقَحْتَهُ، ثُمَّ ذَهَبَ بِالْإِنَاءِ لِيَشْرَبَ فَلَا يُمَكِّنُهُ ذَلِكَ، فَتَقُومُ الْقِيَامَةُ.

«وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ». يَلِيطُ، أَي: يُصْلِحُهُ؛ لِيَصُبَّ السَّاءُ فَتَشْرَبَ الْإِبِلُ، وَلَكِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ قَبْلَ أَنْ يَسْقِيَهُمْ.

وأشدُّ من هذا: «وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهَا»، أَي: أَنَّ الطَّعَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ، فَتَقُومُ السَّاعَةُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَهُ، وَحِينَئِذٍ يَمُوتُ كُلُّ الْعَالَمِ وَلَيْسَ هَذَا الرَّجُلُ فَقَطْ بَلْ كُلُّ الْعَالَمِ يَمُوتُ مَرَّةً وَاحِدَةً.

وهذا يُفَسِّرُ قَوْلَ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَنْ السَّاعَةِ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأنفال: ١٨٧]. لَكِن لَهَا أَشْرَاطٌ مُتَقَدِّمَةٌ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَسْتَبْعِدُهَا النَّاسُ إِذَا هِيَ قَدْ بَغَتْهُمْ - نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يُحَسِّنَ لَنَا وَلَكُمْ الْخَاتَمَةَ -.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤١ - بَابُ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ.

٦٥٠٧ - حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» قَالَتْ عَائِشَةُ - أَوْ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ - إِنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَمَامَةِ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حَضَرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِنْ أَمَامَةِ، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨٧١١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٨٣).

اِخْتَصَرَهُ أَبُو دَاوُدَ وَعَمَرُو عَنْ شُعْبَةَ وَقَالَ سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ سَعِيدٍ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

٦٥٠٨ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أَسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدٍ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١).

هذا الحديثُ يَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ الْحَدِيثِ السَّابِقِ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ لِقَوْلِهِ: «يَكْرَهُ الموتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ» فَهَذَا يَقُولُ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ». وَلَا يُحِبُّ أَحَدٌ لِقَاءَ اللَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، لِمَا يُوقِنُ بِهِ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ عِنْدَ رَبِّهِ ﷻ. فَكَيْفَ يَقُولُ فِيهَا سَبَقُ: «يَكْرَهُ الموتَ» وَهَذَا يَقُولُ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ» هَذَا الْإِيرَادُ أَوْرَدَتْهُ عَائِشَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: «إِنَّا لَنَكْرَهُ الموتَ»، فَقَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الموتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ». إِذَنْ عِنْدَمَا يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ يَفْرَحُ، وَيُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ بُشِّرَ بِهَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا، وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِ يَحْضُرُهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَيُبَشِّرُ - نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ - بِعَذَابِ اللَّهِ وَعَقُوبَتِهِ، فَيَكْرَهُ ذَلِكَ، وَحَيْثُ لَا يَكُونُ هُنَاكَ تَعَارُضٌ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ، فَالْحَدِيثُ الْأَوَّلُ فِيهِ كِرَاهَةُ الموتِ وَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ جُبِلَتْ عَلَيْهِ النَفُوسُ حَتَّى الْبَهَائِمُ وَالْحَشَرَاتُ كُلُّهَا تَهْرَبُ مِنَ الموتِ، لَكِنَّ الْمَدَارَ عَلَى لِقَاءِ اللَّهِ، فَالْمُؤْمِنُ يُحِبُّهُ؛ لِأَنَّهُ يُبَشِّرُ عِنْدَ الموتِ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرِّضْوَانِ وَالثَّوَابِ وَالْكَافِرُ بِالْعَكْسِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٠٩ - حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ صَاحِجٌ: «إِنَّهُ لَمْ يَقْبُضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرُ» فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخْذِي غَشِيَ عَلَيْهِ سَاعَةٌ، ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى السَّقْفِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى» قُلْتُ: إِذَا لَا يَخْتَارُنَا وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا بِهِ. قَالَتْ: فَكَانَتْ تِلْكَ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ^(١).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٩١).

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/ ٣٦١):

❦ قَوْلُهُ: «أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعُرْوَةُ بْنُ الزَّبِيرِ فِي رَجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ كَذَا فِي رَوَايَةِ عُقَيْلٍ، وَمَضَى فِي «الْوَفَاةِ النَّبَوِيَّةِ» مِنْ طَرِيقِ شُعَيْبٍ، عَنِ الزَّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَعَهُ أَحَدًا. وَمِنْ طَرِيقِ يُونُسَ، عَنِ الزَّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ فِي رَجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَذْكُرْ عُرْوَةَ، وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي «كِتَابِ الدَّعَوَاتِ» تَسْمِيَةَ بَعْضِ مَنْ أَهْبَمَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ مِنْ شَيْخِ الزَّهْرِيِّ، وَتَقَدَّمَ شَرْحُ الْحَدِيثِ مُسْتَوْفَى فِي «الْوَفَاةِ النَّبَوِيَّةِ». اهـ

يَقْصِدُ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْلَ الْبَخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بَابُ دَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى».

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعُرْوَةُ بْنُ الزَّبِيرِ فِي رَجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: «أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا» الْحَدِيثُ (١).

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/ ١٤٩-١٥٠):

❦ قَوْلُهُ: «أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعُرْوَةُ بْنُ الزَّبِيرِ فِي رَجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: لَمْ أَقِفْ عَلَى تَعْيِينِ أَحَدٍ مِنْهُمْ صَرِيحًا، وَقَدْ رَوَى أَصْلُ الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ عَنْ عَائِشَةَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ وَذَكْوَانُ -مَوْلَى عَائِشَةَ- وَأَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الزَّهْرِيُّ عَنْهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ. اهـ

هَذَا الْحَدِيثُ وَاضِحٌ أَنْ فِيهِ شَاهِدًا لِهَذِهِ التَّرْجُمَةِ، وَهُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى» الرَّفِيقُ: اسْمٌ جَنْسٍ يَصْدُقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْمُتَعَدِّدِ؛ يَعْنِي: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَهُ مَعَ الرَّفَقَاءِ الْأَعْلِينَ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْحَدِيثِ.

وَقَوْلُهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرُ»، يَعْنِي: يُخَيَّرُ بَيْنَ أَنْ يَمُوتَ وَيُقْبَضَ وَبَيْنَ أَنْ يُعَمَّرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُعَمَّرَهُ، وَيَذُلُّ لِهَذَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ فَقَالَ: «إِنْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يَعِيشَ فِي الدُّنْيَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَعِيشَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ». فَلَمَّا خَطَبَ هَذِهِ الْخُطْبَةَ بَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ بَكَاءِ أَبِي بَكْرٍ كَيْفَ يُحَدِّثُ الرَّسُولَ بِهَذَا الْحَدِيثِ ثُمَّ يَبْكِي؟! لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ عَرَفَ بِهَذَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَيِّتٌ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَ النَّاسِ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَحَدِيثِهِ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٦٣٤٨) وَقَدْ سَبَقَ تَحْرِيجُهُ.

والباقون ما عَلموا ولا شَعروا أنه يريدُ هذا، فالمهمُّ أن النبي ﷺ سأل الله أن يكونَ في الرفيقِ الأعلى، وذلك آخرُ ما تكَلَّم به النبي ﷺ.

وأما ما وُرِدَ في الحديثِ أنه كان يقولُ ويوصي في آخرِ حياتِه: «الصلاةُ والصلاةُ وما ملَكْتُ أيْمانُكم، حتى جعلَ يُغْرِغُ بها»^(١). فهذا المرادُ به الأحكامُ الشرعيةُ؛ أي: آخرُ ما تكَلَّم به في الأحكامِ الشرعيةِ الوصيةُ بالصلاة، وأما الدعاءُ فأخرُ ما قالَ: «اللهمَّ في الرفيقِ الأعلى». حتَّى إن يده مالت ﷺ وقَبِضَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ تَحْلِفَتُهُ:

٤٢ - بَابُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ.

٦٥١ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ بْنِ مَيْمُونٍ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَنَّ أَبَا عَمْرٍو ذَكَوَانَ مَوْلَى عَائِشَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ ~~بِهَا~~ كَانَتْ تَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكُوعٌ أَوْ عُلبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، - يَشْكُ عُمَرُ - فَجَعَلَ يَدْخُلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: فِي الرِّفْقِ الْأَعْلَى حَتَّى قَبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: الْعُلبَةُ مِنَ الْخَشَبِ، وَالرَّكُوعَةُ مِنَ الْأَدَمِ^(١).

«الرَّكُوعَةُ مِنَ الْأَدَمِ» يعني: مِنَ الْجِلْدِ وَالْخَشَبِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ.

فِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شُدِّدَ عَلَيْهِ فِي الْمَوْتِ، وَهُوَ كَذَلِكَ: فَالنَّبِيُّ ﷺ شُدِّدَ عَلَيْهِ فِي مَقَامِ الدَّعْوَةِ وَأَذَى إِيْذَاءٍ عَظِيمًا، وَيُشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي الْمَرَضِ، فَيُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلَانِ، وَشُدِّدَ عَلَيْهِ فِي الْمَوْتِ حَتَّى كَادَ لَا يُغْبِطُ أَحَدٌ بِسَهُولَةِ الْمَوْتِ بَعْدَ الرُّسُولِ ﷺ، لِأَجْلِ أَنْ يَنَالَ أَعْلَى دَرَجَةِ الصَّابِرِينَ ﷺ؛ لِأَنَّ الصَّبْرَ مَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ لَا تَأْتِي بِسَهُولَةٍ، فَالرُّسُولُ ﷺ امْتَحَنَهُ مَوْلَاهُ - وَنَعِمَ الْمَوْلَى وَنَعِمَ النَّصِيرُ - بِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ فَصَبَرَ إِلَى آخِرِ مَا فَارَقَ الدُّنْيَا، وَهُوَ مَبْتَلَى بِهَذَا ﷺ، لَكِنَّهُ صَبَرَ وَخَتَمَ حَيَاتَهُ بِالتَّوْحِيدِ، فَكَانَ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا

(١) أخرجه الحاكم (٤٣٨٨)، وانظر «مجمع الزوائد» (١/٢٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤٤).

اللَّهُ، إِنْ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ».

انظر إلى النصيح من الرسول ﷺ في هذه الحال، فإنه يُوطَّنُ العبادُ أن للموتِ سَكَرَاتٍ، فمن أصابته سَكَرَاتُ الموتِ فلا يَتَعَجَّبُ؛ لأن هذا أمرٌ لا بد منه، فهو يُسَلِّي ﷺ أُمَّتَهُ بِمِثْلِ هذه الجملة: «إِنْ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ». وهذا يَدُلُّ على كمالِ نُصْحِهِ -صلواتُ الله وسلامُهُ عليه- وأنه أنصحُ الخلقِ للخلقِ، وإلا فالإنسانُ في مثلِ هذه الحالِ مشغولٌ بِنَفْسِهِ، لكنه لم يَنْشَغِلْ عَنْ أُمَّتِهِ، فجزاه الله عنها خيراً.

وكان يقول: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»^(١). وكان يقول: «إِنْ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» فَيُوطَّنُ العبادُ على الأحكام الشرعية، والأحكام القدريّة التي لا بدّ منها، وفي هذا دليلٌ على أنه يَنْبَغِي للإنسانِ أَنْ يَسْتَشْعِرَ عندما تَحْصُلُ مثلُ هذه النوائِبِ. الذِّكْرُ؛ يعني: أَنْ يَجْعَلَ أَهَمَّ شيءٍ عنده أَنْ يَذْكُرَ اللهَ عندَ الحوادثِ؛ لأن بعضَ الناسِ عندما يُصَابُ بحادثٍ يَذْكُرُ أهله، فيقول: أمي، وأبي، وإخواني، وأولادي، كُلُّ هؤُلاءِ ماذا يَفْعَلُونَ مِن بعدي؟! وإن كان هذا على كُلِّ حالٍ مجبواً لا عليه الإنسانُ، لكنَّ أَهَمَّ مِنْ ذلك أَنْ تَذْكُرَ نَفْسَكَ بأن تَذْكُرَ الشهادةَ وفي مثلِ هذه الأمورِ، وإلا فالشيطانُ يَأْتِيكَ وَيَجْعَلُكَ تُفَكِّرُ فيها وراءك، وهذا مِنْ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ، فَفَكِّرْ فيما أَمَامَكَ والذي يَصْلُحُ لك، وهو أَنْ تَخْتِمَ حَيَاتَكَ بِشهادةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ ولهذا يَنْبَغِي للإنسانِ أَنْ يَجْعَلَ شهادةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ على بَالِهِ كُلِّها أُصِيبَ بِحادثٍ حتى يُخْتِمَ له بها -نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَخْتِمَ لَنَا وَلَكُمْ بها حَيَاتَنَا، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ!



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٥١١ - حَدَّثَنِي صَدَقَةُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُهُ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأَعْرَابِ جُفَاءً يَأْتُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَيَسْأَلُونَهُ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى أَصْفَرِهِمْ فَيَقُولُ: «إِنْ يَعْشُ هَذَا لَا يُدْرِكُهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»^(١). قَالَ هِشَامٌ يَعْنِي: مَوْتَهُمْ.

هذا الحديث يَسْأَلُ فِيهِ الْأَعْرَابُ عَنِ السَّاعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ لَهُمْ شَيْئاً يَكُونُ هُوَ السَّاعَةُ

(١) أخرجه أبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨)، وأحمد (٧٨/١)، والبيهقي في «الكبرى» (١١/٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٢).

بالنسبة إليهم، وهو الموت؛ لأنه لا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، التي هي القيامةُ الكُبْرَى، وبينَ موتِ الإنسان، فإن الإنسان إذا مات انقَطَعَ عمله؛ ولهذا يَقُولُ العلماءُ: كُلُّ مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ، فكان الرسول ﷺ يَنْظُرُ إِلَى أَصْغَرِهِمْ فيَقُولُ: «إِنْ يَعِشَ هَذَا لَا يُدْرِكُهُ الْهَرَمُ، حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ».

إِذَنْ نَقُولُ: ساعةُ كُلِّ إنسانٍ: موته.

لكن ما مناسبتُهُ للبابِ؟

قَالَ الْقُسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

ومطابقته للترجمة غير ظاهرة؛ نعم قيل: يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ قَوْلِهِ «يَعْنِي: مَوْتَهُمْ»؛ لأنَّ كُلَّ مَوْتٍ فِيهِ سَكْرَةٌ. اهـ

وهذا بعيدٌ؛ لأنه لو كان كذلك لكان كُلُّ حَدِيثٍ فِيهِ ذِكْرُ الْمَوْتِ دَاخِلًا فِي التَّرْجِمَةِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ شَيْئًا.

❦ وقوله: «كَانَ رَجَالٌ مِنَ الْأَعْرَابِ جُفَاءً». جُفَاءً بِالْجِيمِ، وَأَنَا عِنْدِي نَسْخَةُ حُفَاءَةٍ بِالْحَاءِ، وَهِيَ نَسْخَةٌ وَلَيْسَتْ رَوَايَةً.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٥١٢ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَلْحَلَةَ عَنْ مَعْبِدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيِّ الْأَنْصَارِيِّ: أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ بِحَنَارَةٍ فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاخُ مِنْهُ؟ قَالَ: «الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ»^(١).

٦٥١٣ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَلْحَلَةَ، حَدَّثَنِي ابْنُ كَعْبٍ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٩٥٠).

(٢) التعليق السابق.

❦ قوله ﷺ: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ». الظاهر: أن «الواو» هنا بمعنى: «أو»؛ يعني: أن الميت: إما مُسْتَرِيحٌ، وإما مُسْتَرَاخٌ مِنْهُ، فالمؤمنُ مُسْتَرِيحٌ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا، وَنَكْدِهَا، إِلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَالْكَافِرُ أَوْ الْفَاجِرُ مُسْتَرَاخٌ مِنْهُ؛ يعني: أن الناسَ يَسْتَرِيحُونَ مِنْ أَذَاهُ، وَمِنْ تَعَبِهِ، وَهَذَا أَيْضًا فِيهِ خَفَاءٌ بِالنِّسْبَةِ لِمُطَابَقَتِهِ لِلتَّرْجِمَةِ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/٣٦٥):

تنبيه: مناسبة دُخُولِ هَذَا الْحَدِيثِ فِي التَّرْجِمَةِ: أَنَّ الْمَيِّتَ لَا يَعْدُو أَحَدَ الْقَسَمَيْنِ: إِمَّا مُسْتَرِيحٌ وَإِمَّا مُسْتَرَاخٌ مِنْهُ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَجُوزُ أَنْ يُشَدَّدَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَأَنْ يُخَفَّفَ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ، وَلَا يَتَعَلَّقُ ذَلِكَ بِتَقْوَاهُ وَلَا بِفُجُورِهِ، بَلْ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى أَزْدَادًا ثَوَابًا، وَإِلَّا فَيُكْفَرُ عَنْهُ بِقَدْرِ ذَلِكَ، ثُمَّ يَسْتَرِيحُ مِنْ أَذَى الدُّنْيَا الَّذِي هَذَا خَاتِمَتُهُ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ: مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِ عَائِشَةَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «مَا أَحَبُّ أَنْ يَهْوَنَ عَلَيَّ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ؛ إِنَّهُ لَأَخْرُ مَا يُكْفَرُ بِهِ عَنِ الْمُؤْمِنِ»، وَمَعَ ذَلِكَ فَالَّذِي يَحْصُلُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ بُشْرَى وَمَسْرَةٍ الْمَلَائِكَةِ بِلِقَائِهِ، وَرَفَقِهِمْ بِهِ وَفَرَحِهِ بِلِقَاءِ رَبِّهِ يَهْوَنُ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ أَلَمِ الْمَوْتِ، حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ لَا يُحِسُّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. اهـ

وَقَالَ أَيْضًا (١١/٣٦٥):

❦ قوله: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ، الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ». كَذَا أَوْرَدَهُ بَدْوِي السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ مُقْتَصِرًا عَلَى بَعْضِهِ، وَأَوْرَدَهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ مِنْ طَرِيقِ بِنْدَارٍ، وَأَبِي مُوسَى، عَنْ يَحْيَى الْقَطَّانِ، وَمِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الرَّزَاقِ قَالَ: «حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ» تَامًا، وَلَفْظُهُ: «مَرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِجِنَازَةٍ» فَذَكَرَ مِثْلَ سِيَاقِ مَالِكٍ، لَكِنْ قَالَ: «فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مُسْتَرِيحٌ» إلخ. اهـ.

وَقَالَ فِي «النِّهَايَةِ»: «يُقَالُ أَرَاخَ الرَّجُلُ وَاسْتَرَاخَ: إِذَا رَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ بَعْدَ الْإِعْيَاءِ»، «وَالْوَاوُ» فِي قَوْلِهِ: «وَمُسْتَرَاخٌ» بِمَعْنَى: «أَوْ»، فَهِيَ تَنْوِينِيَّةٌ: أَي: لَا يَخْلُوا ابْنُ آدَمَ عَنْ هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ، فَلَا يَخْتَصُّ بِصَاحِبِ الْجِنَازَةِ. اهـ.

وَالْمَعْنَى عَلَى كُلِّ حَالٍ وَاضِحٌ، لَكِنْ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا هُوَ الدَّلِيلُ؟

قلنا: لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جَعَلَ كُلَّ مَعْنَى مِنْهُمَا مُقَابِلًا لِلْآخَرِ، وَإِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُقَابِلًا لِلْآخَرِ مَا صَحَّ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ بِمَعْنَى الْجَمْعِ؛ لِأَنَّ الْجَمْعَ يُفِيدُ الْإِشْتِرَاكَ، وَهَذَا يَعْنِي - حَتَّى لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ الْعُلَمَاءَ السَّابِقِينَ مَا ذَكَرُوا هَذَا - أَنَّ هَذَا وَاضِحٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ

الواو بمعنى الجمع، وكل واحد يُقابل الآخر.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥١٤ - حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ»^(١).

إِذْنُ: فالأجدد بنا أن نَعْتَنِي بالصاحب الذي يَبْقَى، وهو: العمل؛ لأنه يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةً: أَهْلُهُ؛ لِتَشْيِيعِهِ، وَمَالُهُ؛ كَالرَّقِيقِ الَّذِينَ يَمْلِكُهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ سَيِّدَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَهُمْ مَالٌ لَهُ، وَعَمَلُهُ وَاضِحٌ، يَرْجِعُ اثْنَانِ، وَهُمْ: الْأَهْلُ وَالْمَالُ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ وَهُوَ: الْعَمَلُ. ولو قيل: إن المال هو ما يَكُونُ عَلَى الْمَيِّتِ مِنَ السَّيْرِ عَلَى نَعْشِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَوْ مَا يُكْرَمُ بِهِ الْمَرْءُ مِنْ أَجْلِ مَالِهِ؛ يَعْنِي: الَّذِينَ يُشَيِّعُونَهُ لَا لِلْقَرَابَةِ، وَلَكِنْ لِلْمَالِ، نَعَمْ لَوْ قِيلَ ذَلِكَ لَكَانَ لَهُ وَجْهٌ، فَيَكُونُ الْمَالُ مُحْتَمِلًا لِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ، وَهِيَ:

الأول: هذا الرقيق، وهو مالٌ حقيقَةٌ.

الثاني: أن يَكُونُ المرادُ بِالمالِ: مَنْ يَتَّبِعُهُ؛ لِأَجْلِ الْمَالِ.

الثالث: ما قد يَكُونُ عَلَى نَعْشِ الْمَيِّتِ مِنَ السَّيْرِ وَنَحْوِهِ.

وهذا أيضًا يُشَكِّلُ مناسبتَهُ للترجمةِ جَدًّا وَلَكِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ نَمْشِي، وَالبخاري أعلم بما عنده.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥١٥ - حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ قَالَ: حَدَّثَنَا حِمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ أَبِيهِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيًّا، إِمَّا النَّارُ وَإِمَّا الْجَنَّةُ فَيَقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ»^(١).

❦ قَوْلُهُ: «عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ». هَذَا يَكُونُ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿الْأَنَارُ

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٦).

يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [النمل: ٤٦]. وهذا أحد الأدلة التي يُسْتَدَلُّ بها على عذاب القبر ونعيمه، وهي أدلة كثيرة من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ، فقد قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٥١]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]. اليوم تجزون عذاب الهون؛ أي: هذا في عذاب القبر، وفي نعيم القبر قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ نَوَّفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الحق: ٣٢].

ففي القرآن أدلة على إثبات نعيم القبر وعذابه.

وأما في السنة: فهي متواترة، فكل المسلمين يقولون في صلواتهم: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ». والأحاديث في هذا كثيرة لا تحصى. وقوله: «هذا مقعدك حتى تُبعث»؛ يعني: أنه مقعدك تبقى في قبرك حتى تُبعث إلى هذا المقعد الذي في الجنة أو في النار.



ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥١٦ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَسْبُوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»^(١).

في هذا الحديث: دليل على أن الغيبة تُسمى سبًا؛ لأن الميت لا يمكن أن تسبه وهو أَمَامَكَ. وقوله: «فإنهم أفضوا إلى ما قَدَّمُوا»، يعني: وإذا كانوا أفضوا إلى ما قَدَّمُوا فلا فائدة من سبهم، وفي لفظ آخر: «فَتَوَذُّوا الْأَحْيَاءَ»^(٢). أي: الذي يتأذى هم أقاربه وأصدقاؤه وما أشبه ذلك، فسب الأموات ليس فيه فائدة إطلاقًا، وأما الأحياء فيُنظر: فإذا كانوا أهل بدع وأهل شرٍّ، وتكلم الإنسان فيهم من أجل التحذير منهم، فلا بأس، وأما أن يتكلم فيهم

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢)، وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لمَجْرَدِ غَيْرَةٍ فِي نَفْسِهِ، وَبِغَضَاءٍ لَهُمْ، فَهَذَا لَا يَجُوزُ، لَكِنَّهُ إِذَا كَانَ قَصْدُهُ الْمَصْلَحَةَ بَأَن يَحْذَرُ النَّاسَ مِنْهُمْ، وَلَا يَغْتَرُّونَ بِهِمْ، فَهَذَا لَا بَأْسَ، وَيَكُونُ هَذَا مِنْ بَابِ النِّصِيحَةِ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/٣٦٣)^(١):

وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّ شِدَّةَ الْمَوْتِ لَا تَدُلُّ عَلَى نَقْصِ الْمَرْتَبَةِ، بَلْ هِيَ لِلْمُؤْمِنِ: إِمَّا زِيَادَةً فِي حَسَنَاتِهِ، وَإِمَّا تَكْفِيرًا لِسَيِّئَاتِهِ، وَبِهَذَا التَّقْرِيرِ تَظْهَرُ مَنَاسِبَةُ أَحَادِيثِ الْبَابِ لِلتَّرْجِمَةِ. أَهـ لَا تَظْهَرُ؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ سِوَاءً شُدِّدَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ لَمْ يُشَدَّدْ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٣ - بَابُ نَفْخِ الصُّورِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: الصُّورُ كَهَيْئَةِ الْبُوقِ. زَجْرَةٌ: صَيْحَةٌ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّاقُورُ: الصُّورُ. الرَّاحِفَةُ: النَّفْخَةُ الْأُولَى. وَالرَّادِفَةُ: النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ.

❦ قَوْلُهُ: «بَابُ نَفْخِ الصُّورِ». ذُكِرَ نَفْخُ الصُّورِ فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ، وَذَكَرَهُ اللَّهُ ﷻ مُفَصَّلًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِيهَا يَنْظُرُونَ﴾ [الزَّحْزَحَةُ: ٦٨]. وَقَالَ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النَّبَأُ: ٨٧]. فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هَلِ النَّفْخُ فِي الصُّورِ مَرَّتَانٍ أَوْ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ؟

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ، وَجَعَلُوا قَوْلَهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ النَّفْخَةَ الْأُولَى، وَالنَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وَالثَّلَاثَةَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِيهَا يَنْظُرُونَ﴾، فَقَالُوا: نَفْخَةٌ فَزَعٍ، وَنَفْخَةٌ صَعِقٍ، وَنَفْخَةٌ بَعَثٍ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: بَلْ هُمَا نَفْخَتَانِ، لَكِنَّ النَّفْخَةَ الْأُولَى يَحْصُلُ فِيهَا فَزَعٌ عَظِيمٌ يُؤَدِّي إِلَى الْمَوْتِ، وَلَعَلَّهَا تَطَوَّلُ؛ يَعْنِي: لَا يُنْفَخُ مَرَّةً وَتَقِفُ فَوْرًا، بَلْ يَكُونُ لَهَا عَوِيلٌ يُقَطِّعُ الْقُلُوبَ، وَيَمُوتُ النَّاسُ؛ فَتَكُونُ نَفْخَةٌ وَاحِدَةً يَفْزَعُ فِيهَا النَّاسُ أَوَّلًا، ثُمَّ يُصَعِّقُونَ ثَانِيًا؛ أَي: يَمُوتُونَ

(١) قَالَه الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ عِنْدَ تَعْلِيْقِهِ عَلَى حَدِيثٍ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكُوعًا أَوْ عَابَةً فِيهَا مَاءٌ فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَهُ...».

﴿فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: كلُّ أحدٍ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، ثم بعد ذلك يُنْفَخُ فيه النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ، ﴿فَإِذَا هُمْ فِيَّامٍ يَنْظُرُونَ﴾؛ أي: يَنْظُرُونَ ما الذي أَخْرَجَهُمْ مِنَ الْقُبُورِ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الطَّفَنَةُ: ٦٦﴾. يقومون كما وصفهم النَّبِيُّ ﷺ: «يُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا بَعْهًا»^(١)، فالحفاة، يعني: الذين ليس عليهم نعال. عُرَاة: الذين ليس عليهم ثياب. غُرْلًا: الذين ليسوا مَخْتُونِينَ. بَعْهًا: الذين ليس معهم أموالٌ وحَشَمٌ، وخَدَمٌ، فكلُّ مُبْهَمٍ، فلا يُعْرَفُ الْمَلِكُ مِنَ الْمَمْلُوكِ؛ لأنَّ المسألة مُبْهَمَةٌ فإنَّ التَّمْيِيزَ إِنَّمَا هُوَ فِي الدُّنْيَا، هَذَا غَنِيٌّ وَهَذَا فَقِيرٌ، وَهَذَا مَلِكٌ وَهَذَا مَمْلُوكٌ، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ بِهُمْ يُحْشَرُونَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ.

ثم انظر على ماذا سألت عائشةَ فإنَّ الصحابةَ ﷺ كانوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَا يَسْأَلُونَ عَنِ الْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ الْكُونِيَّةَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلَا مَنَاقِشَةَ عَنْدهُمْ فِي ذَلِكَ.

قالت عائشةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، تَعْنِي: يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. قَالَ: «الْأُمُرُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ»، أي: لَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةً نَظَرٍ، بَلْ ﴿يَوْمَ يُفْرَأُ الزُّرُّ مِنْ أُخْدٍ﴾^(٢) وَأُمِّيَّةٌ وَأَبِيَّةٌ^(٣) وَصُحْبِيَّةٌ وَأَبِيَّةٌ^(٤) لِكُلِّ أَمْرٍ يَنْتَهِي بِمَوَازِينِهِمْ شَأْنٌ يُعْنِيهِ^(٥) ﴿مَجْمَعًا: ٣٤-٣٧﴾. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾^(٦) ﴿الْمُنَافِقَةُ: ١٠١﴾. أي: لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ أَحَدًا، بَلْ إِنْ الْإِنْسَانُ يَفْقَرُ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَقْرَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَخَافُ أَنْ يَكُونَ لِقَرِيْبِهِ عَلَيْهِ حَقٌّ، فَيَقْرَّ مِنْهُ، فَهِيَ ﷺ مَا سَأَلَتْ: كَيْفَ يَقُومُونَ، وَمَتَى يَقُومُونَ؟ وَهَكَذَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلَمَّا حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الدَّجَالِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ يَبْقَى فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا؛ يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَأَسْبُوعٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ»^(٧). فَمَا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَوْمٌ كَسَنَةٍ، أَلَيْسَتْ الشَّمْسُ مُجْرَاهَا وَاحِدٌ، كَيْفَ تَتَأَخَّرُ حَتَّى تَكُونَ سَنَةً، لَكِنْ لَوْ حَدَّثَ بِهَذَا فِي أَيَّامِنَا لَظَلَّ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ مِثْلَ مَا يَنَاقِشُونَ كَيْفَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي ثَلَاثِ اللَّيْلِ، أَيْ: يَذْهَبُ الثَّلَاثَانِ الْآخِرَانِ، وَمَا الَّذِي سَأَلُوا عَنْهُ؟ سَأَلُوا عَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي مَكْلَفُ بِهَا الْإِنْسَانُ قَالُوا هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي كَسَنَةُ هَلْ تَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةَ يَوْمٍ وَاحِدٍ، انْظُرِ الْفَرْقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ لَوْ أَنَّهُ حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٧)، ومسلم (٢٨٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٣٧).

يقول: كيف الشمس؟ ولماذا تتغير؟ وكيف تتغير؟ يمكن كان ما تقطع الأفق وهي بالعادة بأربعة وعشرين ساعة، لكن هذا لا يرد على الصحابة؛ لأنهم يعلمون أن مسائل الكون فوق وسعنا وتصورنا، هذه الروح التي بين جنينا ما ندري ما هي؟

﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الزَّكَاةُ: ١٣]. يوم القيامة ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ﴿١٤﴾ [الزَّكَاةُ: ١٤]. نحن في الدنيا نشاهد النبات إذا أراد أن ينبت ينهض الأرض قليلاً فلق، ثم رويداً رويداً حتى ينبت، لكن في ذلك اليوم كلمة واحدة تخرجهم من القبور، لو كان عمق القبر سبعين ذراع يخرجون مرة واحدة، الصحابة ما سألوا عن هذا؛ لأن مسائل الكون، والتقدير، والقدرة، ليست في وسع الإنسان، وهذا هو الذي أُحِبُّ أن نفهمه، وأن نقف أمامه مسلمين مُستسلمين، بخلاف مسائل الشرع، فلا بأس أن نسأل عنها؛ لأنها التي تهْمُنَا، والتي نحن مُكَلَّفُونَ بها، وهذا هو ما فعل الصحابة رضي الله عنهم.

المهم: نحن ذكرنا أن العلماء اختلفوا في النَّفْخِ في الصُّورِ: هل هو مرَّتان، أو ثلاث مرَّات؟ والذي يَظْهَرُ لي: أنه مرَّتان فقط:

المرَّة الأولى: فيها فَرْعٌ وَصَعَقٌ.

والمرَّة الثانية: فيها بَعَثٌ؛ لأن هذا هو الذي جاء مُفَصَّلًا في سورة الزَّمرِ، ولا منافاة بين الفَرْعِ، وبين الصَّعَقِ؛ فالإنسان يُفَزَعُ، وقد يَكُونُ الفَرْعُ شديداً، يُقَطِّعُ القلوبَ.

وقوله: «الصُّورُ كَهَيْئَةِ الْبُوقِ». البوقُ: مثلُ القَرْنِ يُنْفَخُ فيه. ولهذا وُرِدَ في بعض الآثارِ: إن الصُّورَ قَرْنٌ عَظِيمٌ مساحته مثل ما بين السماء والأرض؛ لأن كلَّ الأرواحِ بإذنِ الله تَجْتَمِعُ فيه: أرواحُ السَّعْدَاءِ والأَشْقِيَاءِ، تَجْتَمِعُ في هذا، فإذا نُفِخَ فيه خَرَجَتِ الأرواحُ منه.

وفي بعض الآثارِ: أن أرواحَ المؤمنين تَتَلَأَلُ نُورًا، وأرواحَ الكافرين تَكُونُ ظُلُمَةً -والعباد بالله- حتى تَذْهَبَ كلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها التي كانت تَعْمُرُ في الدنيا، لا تُخْطِئُهُ أَبَدًا على كثرة الناس الذين لا يُحْصِيهِمْ إِلَّا الذي خَلَقَهُمُ سُبْحَانَ اللَّهِ المُسْتَعَانُ، من هذا البُوقِ تخرج.

وقوله: «زَجْرَةٌ» يعني: صيحة؛ أي: يُصَاحُ بالناسِ، حتى يَخْرُجُوا مرةً واحدةً.

وقوله: قال ابنُ عَبَّاسٍ: الناقورُ: الصُّورُ، قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ ﴿١٠﴾ [الْمُلَّةُ: ٩-١٠]. فاليومُ نفسُه عَسِيرٌ، لكنه على المؤمنِ يَسِيرٌ؛ لأنه قال: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ﴾ وَيَدُلُّ على ذلك أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾

﴿٦﴾ [البُخَارِيُّ: ٢٦]. فهذا اليوم من حيث هو يومٌ: يومٌ عسيرٌ وصعبٌ وعظيمٌ لا شك في ذلك، حتى قال الله عنه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ﴿١﴾ [البُخَارِيُّ: ٤]. لكنه على المؤمن سهلٌ، حتى إنه ورد في بعض الآثار: أنه كهيئة صلاة مفروضة؛ يعني: كما يؤدي المؤمن الصلاة المفروضة - جعلنا الله وإياكم منهم -.

❦ وقوله: «الراجفة». النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الثانية، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ﴿٧﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٨﴾ [البُخَارِيُّ: ٦-٧].



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥١٧ - حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي إِبرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجِ أَنَّهُمَا حَدَّثَاهُ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ، رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ وَالَّذِي اضْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ، فَقَالَ: الْيَهُودِيُّ وَالَّذِي اضْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، قَالَ: فَغَضِبَ الْمُسْلِمُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمَرِ الْمُسْلِمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُخَبِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفَيِّقُ إِذَا مَوْسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَذْرِي أَكَانَ مُوسَى فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ يَمُنَّ اسْتَسْنَى اللَّهُ ﷻ»^(١).

٦٥١٨ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَصْعَقُ النَّاسُ حِينَ يَصْعَقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ قَامَ، إِذَا مَوْسَى أَخَذَ بِالْعَرْشِ فَمَا أَذْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ» رَوَاهُ أَبُو سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(١).

هذا الحديث فيه: أنه استَبَّ رجلان: رجلٌ مسلمٌ، ورجلٌ يهوديٌّ. والصراع بين المسلمين واليهود ما زال قائماً منذ جاء الإسلام، وبين المسلمين والنصارى أيضاً، ما زال قائماً منذ جاء الإسلام، وبين المسلمين والمشركين، ما زال قائماً منذ جاء الإسلام، فكلُّ أصنافِ الكفرة أعداءٌ للمسلمين، ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧٣).

(٢) انظر التعليق السابق.

[الأنفال: ٧٣]. فكلُّ الكافرين أعداءٌ للمسلمين، ولولا أن الله يُلْطَفُ بالمسلمين، ويُوَدِّدُ الإسلامَ، لكان قد ذهبَ ذهابَ أمسِ الدابر، ولكنَّ الله تعالى قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحج: ٩]. فاثنا عشر ألفاً من المسلمين، بل من المؤمنين لن يَغْلِبَهُم أحدٌ، إذا آمنوا إيماناً حقيقياً، وقاموا بما يَجِبُ عليهم من وسائل الانتصارِ المعنويةِ والماديةِ، فلن يَغْلِبَهُم أحدٌ، ولكنَّ المسلمين اليومَ ألفُ مليونٍ، ولكنهم غُثَاءٌ كغُثَاءِ السَّيْلِ، بعضهم لبعضٍ أعدى من اليهودِ والنصارى - نَسَأَلُ الله العافية - وهم كلُّهم يَقُولُونَ: نحن نَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمداً رسولُ الله.

فاليهوديُّ استَبَّ والمسلمُ، فقال المسلمُ: والذي اصطَفَى محمداً على العالمين، وقال اليهوديُّ: والذي اصطَفَى موسى على العالمين؛ يعني: أن موسى أفضلُ من محمدٍ، فغار المسلمُ من هذا؛ لأن هذا القولَ من اليهوديِّ هُضمٌ للحقِّ، وإلا فإنه لا شكَّ أن محمداً ﷺ أفضلُ من موسى عليه السلام، فلما غار هذا المسلمُ انتَصَرَ للحقِّ، فلطَمَ اليهوديَّ؛ لأن اليهوديَّ قال القولَ الباطلَ، ولكن لا شكَّ أن موسى اصطَفَاهُ الله على العالمين في زمانه، ولكن بعد أن بُعِثَ الرسولُ ﷺ فهو المصطفى ﷺ، فذهب اليهودي إلى الرسول ﷺ؛ لأنه يَعْلَمُ أن النبيَّ ﷺ يَقُولُ الحقَّ، وَيَقْضِي بِالْعَدْلِ، فما ذهب إلى فلانٍ وفلانٍ، لا إلى عبدِ الله بنِ أبي، ولا غيره من الرؤساء، بل ذهب للرسولِ ﷺ، فأخبره، فقال ﷺ: «لا تُخَيِّرُونِي على موسى؛ يَعْني: لا تَقُولُوا: أنا خيرٌ من موسى، ثم ذكر التعليل.

وهذا من تواضعِ الرسولِ ﷺ، ولاسيما في حالِ المُخَاصَمةِ والمُفَاضَلةِ التي تُؤدِّي إلى مَفْسَدَةٍ، وإلا فلا شكَّ أن الرسولَ ﷺ خيرٌ من موسى عليه السلام، بل قال: «أنا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، لكن في مقامِ المُخَاصَمةِ والمُغَالَبَةِ لا يَتَّبِعِي أن يَقُولَ قائلٌ: محمدٌ خيرٌ من موسى، لكن عندما نُخَيِّرُ خبراً مجرّداً، فإننا نقولُ: محمدٌ خيرٌ من موسى، ومن جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام-، مع أن في كلِّهم خيراً، ويَدُلُّ لهذا: قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وقوله في آيةٍ عامةٍ: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [التغوى: ١٦٣]. وقوله في آيةٍ أخرى خاصةٍ: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِكَ ﴾ [الأنفال: ١٠]. فالنبيون، والصدّيقون، والشهداء، والصالحون، كلُّهم يَتَفَاضَلُونَ، ولكنَّ المقاماتِ

تَخْتَلِفُ، فعلى هذا نَقُولُ: إن هذا النهي ليس على الإطلاق، بل إنما يَكُونُ في حالِ الْمُخَاصَمَةِ والمغالبة؛ لأن ذلك يُؤَدِّي إلى مَفْسَدَةٍ، وَيُؤَدِّي معَ الْغَيْرَةِ والشَّحْنَاءِ إلى أن يَكُونَ في نفسِ الْمُفْضَلِ تهوينٌ لَشَأْنِ الْمُفْضَلِ عليه؛ لأنه يُغَالِبُ وَيَخَاصِمُ.

وفي هذا الحديث أيضًا: أَنَّ النَّاسَ يَصْعُقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، والظاهر: أَنَّ هذا الصَّعَقَ ليس هو صَعَقُ النَّفْخِ في الصُّورِ، ولكنه صَعَقٌ آخَرُ يَكُونُ في نفسِ الْيَوْمِ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وفيه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا في الدُّنْيَا وَلَا في الْآخِرَةِ، حَتَّى في يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ مِنْ مَشَاهِدِ الْغَيْبِ مَا كَانَ خَفِيًّا مِنْ قَبْلُ؛ ولهذا يَقُولُ: «لَا أَدْرِي أَكَانَ فَيَمَنْ صُعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِنْ أَسْتَشْنَى اللَّهِ»، وهذا الاستثناء في قوله: «فَصُعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» [التَّحْكِيمُ: ٦٨]. وفي آيَةِ النَّمْلِ: «فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» [التَّحْكِيمُ: ٨٧]. فما هذا المستثنى؟

أولاً: ما أَمَرَهُ اللَّهُ ورسوله ولم يُبَيِّنْ بِنَصٍّ؛ فَإِنِ الْوَاجِبُ أَنْ نَأْخُذَهُ عَلَى إِبْهَامِهِ، فنَقُولُ: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، اللَّهُ أَعْلَمُ، ولكن معَ ذلك فَإِنِ هُنَاكَ أَشْيَاءٌ قَدْ يَكُونُ لَدِينَا مِنْهَا عِلْمٌ، فَمَثَلًا: الْحُورُ فِي الْجَنَّةِ مِمَّنْ أَسْتَشْنَى اللَّهُ؛ لِأَنَّ الْحُورَ فِي الْجَنَّةِ لَا يَمُتْنَ وَلَا يَصْعَقْنَ، فهذا مما عَلِمْنَا، وكذلك حَمَلَةُ الْعَرْشِ، قيل: إِنَّهُمْ كَذَلِكَ لَا يَصْعَقُونَ، ولكن يَجِبُ أَنْ نَتَوَقَّفَ فِي التَّعْيِينِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ بِنَصٍّ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ مَجَالِ الاجْتِهَادَاتِ.

وفي هذا الحديث: الْعَمَلُ بِالْإِسْتِثْنَاءِ، وَأَنَّهُ مُعْتَبَرٌ مَخْرَجٌ لِلْمُسْتَشْنَى مِنْ عُمُومِ الْمُسْتَشْنَى مِنْهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «أَوْ كَانَ مِنْ أَسْتَشْنَى اللَّهِ»، والحديث الذي بعده مثله.

فَهَلْ يُؤْخَذُ مِنَ الْحَدِيثِ جَوَازَ لَطْمِ الْوَجْهِ؟

هذا الحديث ليس فيه الإنكار: فإِذَا أَنْ يَكُونَ هَذَا قَبْلَ النَّهْيِ، وَإِذَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ السَّكُوتَ عَنْهُ لَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ أَحَادِيثَ صَرِيحَةً فِي النَّهْيِ عَنِ الضَّرْبِ عَلَى الْوَجْهِ ^(١).

قال الحافظ في «الفتح» (١١ / ٣٧٠):

تنبيه: إِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ النَّفْخَ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْقُبُورِ، فَكَيْفَ تَسْمَعُهَا الْمَوْتَى؟

والجواب: يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ تَطَوَّلَ إِلَى أَنْ يَتَكَامَلَ أَحْيَاؤُهُمْ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ،

وتقدّم الإلهام في قصة موسى بشيء مما ورد في تعيين مَنْ اسْتَشْنَى الله - تعالى - في قوله تعالى: ﴿فَصَعَّقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ وحاصل ما جاء في ذلك: عشرة أقوال:

الأول: أنهم موتى كلهم؛ لكونهم لا إحساس لهم، فلا يَصْعَقُونَ، وإلى هذا جنح القرطبي في «المفهم»، وفيه ما فيه، ومستنده: أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح، وتعبه صاحبه القرطبي في «التذكرة»، فقال: قد صحَّ فيه حديث أبي هريرة، وفي الزهد لهناد بن السري، عن سعيد بن جبيرة موقوفاً: «هم الشهداء». وسنده إلى سعيد صحيح، وسأذكر حديث أبي هريرة في الذي بعده.

وهذا هو القول الثاني.

الثالث: الأنبياء، وإلى ذلك جنح البيهقي في تأويل الحديث في تجويزه أن يكون موسى ممن اسْتَشْنَى الله، قال: ووجهه عندي أنهم أحياء عند ربهم، كالشهداء، فإذا نُفِخَ في الصور النفخة الأولى صُعِقُوا، ثم لا يكون ذلك موتاً في جميع معانيه إلا في ذهاب الاستشعار، وقد جوز النبي ﷺ أن يكون موسى ممن اسْتَشْنَى الله، فإن كان منهم، فإنه لا يَذْهَبُ استشعاره في تلك الحالة بسبب ما وقع له في صَعَقَةِ الطُّورِ، ثم ذكر أثر سعيد بن جبيرة في الشهداء، وحديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أنه سأل جبريل عن هذه الآية: مَنْ الَّذِينَ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَصْعَقُوا؟ قَالَ: هم شهداء الله ﷻ. صحَّحه الحاكم، ورواته ثقات، ورجَّحه الطبري.

الرابع: قال يحيى بن سلام في تفسيره: بلغني أن آخر مَنْ يَبْقَى: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملئكَ الموت، ثم يَمُوتُ الثلاثة، ثم يَقُولُ اللهُ لملك الموت: مُتْ، فَيَمُوتُ، قلت: وجاء نحو هذا مُسْنَدًا في حديث أنسٍ أَخْرَجَهُ البيهقي وابنُ مردويه بلفظ: فكان ممن اسْتَشْنَى اللهُ ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وملئكَ الموت. الحديث، وسنده ضعيف، وله طريق أخرى عن أنسٍ ضعيفة أيضاً عند الطبري، وابنُ مردويه، وسياقه أنهم، وأخرج الطبري بسند صحيح، عن إسماعيل السدي، ووصله إسماعيل بن أبي زياد الشامي في «تفسيره»، عن ابن عباسٍ مِثْلَ يَحْيَى بْنِ سَلامٍ، ونحوه عن سعيد بن المسيب، أَخْرَجَهُ الطبري وزاد: «ليس فيهم حملة العرش؛ لأنهم فوق السموات».

الخامس: يُمكنُ أن يأخذَ مما في الرابع، السادس: إلا الأربعة المذكورون.

السادس: الأربعة المذكورون، وحملة العرش، ووقع ذلك في حديث أبي هريرة الطويل

المعروف بحديث الصور، وقد تقدّمت الإشارة إليه، وأنّ سنّده ضعيفٌ مضطربٌ، وعن كعبِ الأحرارِ نحوه، وقال: هم اثنا عشر، أخرجه ابنُ أبي حاتم، وأخرجه البيهقيُّ من طريق زيد بن أسلمٍ مقطوعاً، ورجاله ثقاتٌ، وجمع في حديثِ الصورِ بينَ هذا القولِ وبينَ القولِ: «أنهم الشهداء»، ففيه فقال أبو هريرة: يا رسولَ الله، فمن استُشني حينَ الفزعِ؟ قال: الشهداء، ثم ذكرَ نفخةَ الصّعقِ على ما تقدّم.

السابع: موسى وحده، أخرجه الطبريُّ بسنَدٍ ضعيفٍ، عن أنسٍ، وعن قتادة، وذكره الثعلبيُّ، عن جابر.

الثامن: الولدانُ الذين في الجنةِ والحورُ العينُ.

التاسع: هم وخزّانُ الجنةِ والنارِ وما فيها من الحيّاتِ والعقاربِ، حكاه الثعلبيُّ، عن الضحاكِ بنِ مُزاحمٍ.

العاشر: الملائكةُ كلّهم، جزمَ به أبو محمدٍ بنِ حَزْمٍ في «الملل والنحل»، فقال: الملائكةُ أرواحٌ لا أرواحَ فيها^(١)، فلا يَمُوتُونَ أصلاً وأما ما وَقَعَ عند الطبريِّ بسنَدٍ صحيحٍ، عن قتادة قال: قَالَ الحسنُ: يَسْتَشْنِي اللهُ وما يَدْعُ أحداً إلا أذاقَه الموتَ، فيُمْكِنُ أن يُعَدَّ قولاً آخر، قال البيهقيُّ: اسْتَضَعَفَ بعضُ أهلِ النظرِ أكثرَ هذه الأقوال؛ لأنَّ الاستثناءَ وَقَعَ من سُكَّانِ السمواتِ والأرضِ، وهؤلاء ليسوا من سُكَّانِها؛ لأنَّ العرشَ فوقَ السمواتِ، فحملته ليسوا من سُكَّانِها، وجبريلُ وميكائيلُ من الصّافينَ حولَ العرشِ؛ ولأنَّ الجنةَ فوقَ السمواتِ، والجنةُ والنارُ عالمانِ بانفرادهما، خُلِقَتَا للبقاء، وَيَدُلُّ على أن المُسْتَشْنَى غيرُ الملائكةِ. ما أخرجه عبدُ الله بنُ أحمدَ في «زوائد المسند» وصحّحه الحاكمُ من حديثِ لقيطِ بنِ عامرٍ مطوّلاً، وفيه: «يَلْبَثُونَ ما لبثْتُمْ، ثم تُبْعَثُ الصّائِحَةُ، فلعمري إهلك ما تدعُ على ظهْرِها من أحدٍ إلا مات، حتى الملائكةُ الذين مع ربِّك». اهـ.

إذا: فكلُّ هذه الأقوالِ ضعيفةٌ، والأوّلَى أن تُبْهَمَ ما أبهَمَ اللهُ، حتّى إنَّ النّبِيَّ ﷺ ما عَلِمَ أن موسى كان ممن استُشْنَى اللهُ أو لا؟ وفي حديث آخر: «أو جوزي بصعقة الطور»^(٢).

(١) كذا أورده الحافظ في «الفتح»، واعترض العلامة ابن عثيمين رحمه الله على ذلك قائلاً: «لعلَّ الصواب أجساد لا أرواح فيها. وعلى كلِّ فهذا ليس بصواب». اهـ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٨).

جوزي بصعقة الطور يعني: معناها أن الله لن يكرر عليه الصعقة مرتين، وهذا مما يوجي أن هذا الصعق -والله أعلم- يكون حيث ينزل الرب ﷻ للفصل بين القضاء، فإن الناس يصعقون ثم يفيقون.



نَمْ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٤ - باب: يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. رواه نافع، عن ابن عمر عن النبي ﷺ. هذا الباب أشار الله إليه في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [التكوير: ٦٧]. أي: عظموه حق تعظيمه ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾، والأرض: الجملة هنا حالية، ويحتمل أنها استئنافية؛ لبيان عظمة الله ﷻ، فعلى القول بأنها حالية يكون التقدير: «وما قدرُوا الله حق قدره»، والحال أن الأرض جميعاً قَبْضَتُهُ، ومن المعلوم: أن هذه الحال غير مُصاحبة؛ لأن قَدْرَهُم الله حَقَّ قَدْرِهِ في الدنيا ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾، أي: يومَ القيامة في الآخرة، فتكونُ الحالةُ مرتقبة، أما القول بأنها استئنافية، فيكونُ معنى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وكان الله الأرض قَبْضَتُهُ يومَ القيامة، وقَبْضَةُ اليد، خلافاً لمن أنكر هذا وقال: إن المراد بقَبْضَتِهِ: أنها في تصرُّفه وتحت أمره، كما يُقال: الهالُ في قَبْضَةِ فلانٍ، ولا شك أن هذا تحريفٌ مخالفٌ للنصوص، والتنظيرُ غيرُ صحيح؛ لأن هناك فرقاً بين أن يُقال: الأرض قَبْضَتُهُ، والهالُ في قَبْضَتِهِ؛ لأنه إذا دخلت «في» صار المعنى: أنه في تصرُّفه، أما إذا قال: قَبْضَتُهُ؛ يعني: أنها في القَبْضَةِ؛ أي: المقبوضة. فالأرضُ جميعاً قَبْضَةُ الله يومَ القيامة، وقد جاء ذلك مصرحاً به في حديث ابن مسعود وغيره ^(١)، وأما ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [التكوير: ٦٧]. فالسَّمَوَاتُ على عَظْمِهَا وَسَعَتِهَا وكبرها مطويةٌ بيمينِ الله ﷻ؛ أي: بيده، وكلتا يديه يمينٌ، وأما القولُ بأن المراد باليمين: القوة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. فهو تحريفٌ؛ فإن الله يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. أي: مثل ما يطوي السِّجِلُّ الذي فيه الموائيقُ، وعندنا الآن يُسمى الصُّكُوكُ، فالله يطوي السَّمَوَاتِ يومَ القيامة كَطَيِّ السِّجِلِّ للكتبِ والإنسان إذا طوى الورقة؛ فإنها تكونُ سهلةً عليه، لكنَّ طَيَّ الله للسَّمَوَاتِ أسهلُّ وأسهلُّ بكثيرٍ ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).

لِلْكَتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴿الْمِثْلَةُ: ١٠٤﴾.

ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥١٩ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ يَمِينَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ»^(١).
قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٣٧٢ / ١١):

قوله: عن أبي سلمة كذا قال يونس، وخالفه عبد الرحمن بن خالد فقال: عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، كما تقدم في تفسير «سورة الزمر»، وهذا الاختلاف لم يتعرض له الدارقطني في «العلل»، وقد أخرج ابن خزيمة في كتاب «التوحيد» الطريقتين، وقال: هما محفوظان عن الزهري، وسأشبع القول فيه إن شاء الله - تعالى - في كتاب «التوحيد» مع شرح الحديث، إن شاء الله تعالى، وأقتصر هنا على ما يتعلق بتبديل الأرض بمناسبة الحال. اهـ

ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٢٠ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ خَالِدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّوْهَا الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نَزْلاً لِأَهْلِ الْجَنَّةِ» فَاتَى رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَلَا أُخْبِرُكَ بِنَزْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: بَلَى. قَالَ تَكُونُ الْأَرْضُ خُبْزَةً وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا ثُمَّ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِإِدَامِهِمْ» قَالَ: «إِدَامُهُمْ بِالْأَمِّ وَنُونٌ»، قَالُوا: وَمَا هَذَا قَالَ: «ثَوْرٌ وَنُونٌ، يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةٍ كِبِدَهُمَا سَبْعُونَ أَلْفًا»^(١).

قوله: «تَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً»؛ لأنها في الدنيا كُرَّةً واحدةً، ففي الآخرة

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٩٢).

تَكُونُ خَبْزَةً وَاحِدَةً؛ يَعْنِي: مَبْسُوطَةٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ﴾ [الانشقاق: ١-٤]. إِذَا الْأَرْضُ مَدَّتْ: يَعْنِي: أَنْ الْأَرْضَ تُمَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهِيَ الْآنَ مَسْطُوحَةٌ، وَلَيْسَتْ مَمْدُودَةً؛ لِأَنَّهَا لَكَبِيرُهَا لَا نُحِشُّ بِاسْتِدَارَتِهَا؛ لِذَلِكَ يَرَاهَا الْإِنْسَانُ وَكَأَنَّهَا سَطْحٌ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ مُكَوَّرَةٌ، لَكِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُمَدُّ فَتَكُونُ كَالْخَبْزَةِ يَتَكَفَّوْهَا الْجَبَّارُ ۖ وَهُوَ اللَّهُ ﷻ، وَفِي رَوَايَةٍ: «كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خَبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نَزْلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ»؛ يَعْنِي: ضَيْافَةً تَكُونُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهَذِهِ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ ﷻ، فَهَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي هِيَ الْآنَ طِينٌ وَرَمْلٌ وَغَيْرُهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ مِنْ أَحْسَنِ الْأَطْعِمَةِ، بَلْ مِنْ الْأَطْعِمَةِ الَّتِي لَمْ تَرْ مِثْلَهَا، فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، تَكُونُ هَذِهِ نَزْلًا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

❦ قَوْلُهُ: «فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: بَارَكَ الرَّحْمَنُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ». وَلَا أَذْرِي لِمَاذَا لَمْ يَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ إِلَّا إِذَا كَانَ هَذَا الْيَهُودِيُّ حَاضِرًا وَيَسْمَعُ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❦ قَالَ: «أَلَا أَخْبِرُكَ بِنَزْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: تَكُونُ الْأَرْضُ خَبْزَةً وَاحِدَةً كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَظَنَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْنَا، ثُمَّ صَحَّحَ، حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»؛ أَي: صَحَّحَ سُرُورًا بِمَا شَهِدَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ الْيَهُودِيُّ، وَلَيْسَ هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَشْهَدَ لَهُ هَذَا الْيَهُودِيُّ، وَلَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ يُحَدِّثُ بِمَا حَدَّثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ لَا شَكَّ أَنْ فِي هَذَا تَقْوِيَةٌ لَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ۖ﴾ [النحل: ٩٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۖ﴾ [النحل: ٤٣]. وَالْإِنْسَانُ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَقْرَحُ بِمَا شَهِدَ بِهِ لَهُ غَيْرُهُ، وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَ خَصَمَّهُ، كَالْيَهُودِيِّ، فَإِنَّهُ يُقَالُ: الْحَقُّ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ، فَإِذَا جَاءَ هَذَا الْيَهُودِيُّ وَتَحَدَّثَ بِمَا حَدَّثَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ ذَلِكَ تَأْيِيدًا لِلرَّسُولِ ﷺ، وَشَهَادَةً لَهُ بِأَنْ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ عِلْمِ الْغَيْبِ حَقٌّ.

وفيه: دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الضَّحِكِ لِمَا يَسُرُّ، وَأَنَّهُ لَوْ صَحَّحَ الْإِنْسَانُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فَلَا بَأْسَ، أَمَا التَّبَسُّمُ، وَانْشِرَاحُ الصَّدْرِ، وَنَضْرَةُ الْوَجْهِ عِنْدَ وُجُودِ مَا يُؤْيِدُ الْإِنْسَانَ، فَهَذَا كَثِيرٌ، لَكِنِ الضَّحْكُ قَدْ يَكُونُ قَلِيلًا، لَكِنَهُ لَا بَأْسَ بِهِ أَيْضًا.

وفي هذا الحديث: أَنَّ إِدَامَ هَذِهِ الْخَبْزَةِ (تَوْرٌ وَنُونٌ) الشَّوْرُ: مَعْرُوفٌ: ذَكَرُ الْبَقْرِ، وَالنُّونُ: الْحَوْتُ، وَلَكِنْ لَا حَظُّوا أَنَّ التَّوْرَ الَّذِي ذَكَرَ هُنَا لَيْسَ كَالثَّوْرِ الَّذِي تُشَاهِدُهُ؛ لِأَنَّ مَا فِي الْجَنَّةِ يَتَّفِقُ مَعَ مَا فِي الدُّنْيَا فِي الْأَسْمِ فَقَطْ، أَمَا فِي الْحَقِيقَةِ فَبَيْنَهُمَا تَبَايُنٌ عَظِيمٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا

أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ [التَّحْفَةُ: ١٧]. وقال الله تعالى في الحديث القدسي: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، ولو كان ما في الجنة يُمَثَّلُ في حقيقته ما في الدنيا، لكانت النفوس تعلم ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، فهذا الثَّوْرُ اسمه: ثَوْرٌ، لكنه ليست حقيقته كحقيقة الثيران في الدنيا، وكذلك الحوت.

❀ قوله: «يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا». ومع هذا فإنه يَكُونُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ نُزُلًا، وَلَا تَقُلْ: إِذَا كَانَ يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةِ كَبِدِهِمَا سَبْعُونَ أَلْفًا فَالْبَاقِي سَيَكُونُ قَرِيبًا مِنْ هَذَا. **نَقُولُ:** لا، قَدْ يُبَارِكُ اللَّهُ فِي الْبَاقِي، حَتَّى يَأْكُلَ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ سَبْعُونَ أَلْفًا: الْمَبَالِغَةُ فِي الْكَثْرَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التَّحْفَةُ: ٨٠]. وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»^(١). وَمَعَ ذَلِكَ صَحَّتِ الْأَحَادِيثُ بِأَنْ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا^(٢).

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ هَذِهِ الْمَسَائِلَ - مَسَائِلَ الْغَيْبِ - عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُسَلِّمَ فِيهَا، وَلَا يُعَارِضُهَا بِعَقْلٍ؛ لِأَنَّ الْعُقُولَ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تُدْرِكَ ذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ لِمَنْ سَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [التَّحْفَةُ: ٨٥].
يَعْنِي: مَا بَقِيَ عَلَيْكُمْ مَا تَعْرِفُونَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا الرُّوحَ، فَهَنَّاكَ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنَ الْعِلْمِ مَا أُوتِينَا عِلْمَهَا وَلَا نَعْرِفُهَا.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٢١ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ». قَالَ سَهْلٌ - أَوْ غَيْرُهُ -: لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ^(١).

❀ قوله: «عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ». النَّقِيُّ: الْبُرُّ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ قُشُورٌ.

❀ وَقَوْلُهُ: «قَالَ سَهْلٌ - أَوْ غَيْرُهُ - لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ»؛ يَعْزِي: لَيْسَ فِيهَا جَبَلٌ، وَلَا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٩٠).

أشجاراً، ولا قُصُورَ، ولا أوديةً، ولا شيءَ أبداً، بل بيضاءَ عفرَاءَ، ليس فيها شيءٌ من هذه المعالمِ إطلاقاً، وقد ذَكَرَ اللهُ ﷻ هذا في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. والتبديلُ هنا: تبديلُ صفةٍ، لا تبديلُ عَيْنٍ؛ لأنَّ الناسَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَرْضِ وَيُحْشَرُونَ عَلَيْهَا نَفْسَهَا، فالمعنى: أنها لا تَتَغَيَّرُ بِأَنْ تَأْتِيَ أَرْضٌ جَدِيدَةٌ، لكنها تُبَدَّلُ بِالصِّفَةِ، فَأَرْضُنَا الْآنَ فِيهَا أوديةٌ، وجبالٌ، ورمالٌ، وأشجارٌ، وأحجارٌ، وقُصُورٌ، ومبانٍ، وآبارٌ، وغيرها، كُلُّ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَزُولُ، فَتَكُونُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ﴿١٧﴾ [طه: ١٠٧].



ثُمَّ قَالَ الْبَحَّارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٤٥- بَابُ الْحَشْرِ.

٦٥٢٢- حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ أَسَدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشْرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيُحْشَرُ بِقِيَّتِهِمُ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتَ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا»^(١).

❦ قوله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ». يَحْتَوِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْحَشْرُ الَّذِي يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ يَعْنِي: بَعْدَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ الْحَشْرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى أَرْضِ الشَّامِ، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ آخِرِ الْحَدِيثِ، حَيْثُ قَالَ: «وَتَحْشَرُ بِقِيَّتِهِمُ النَّارُ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا». إِلَى آخِرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَرْضَ الْحَشْرِ، هِيَ أَرْضُ الشَّامِ، وَيُحْشَرُ النَّاسُ إِلَيْهَا عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ، حَتَّى يَكُونَ هُنَاكَ الْمَوْتُ، وَهُنَاكَ الصَّعْقُ، ثُمَّ الْحَشْرُ الْأَكْبَرُ الَّذِي يُحْشَرُ فِيهِ النَّاسُ إِلَى الْحِسَابِ وَالْفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

❦ قوله: «رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ». الْفَرْقُ بَيْنَ الرَّاغِبِ وَالرَّاهِبِ: أَنَّ الرَّاغِبَ طَالِبٌ، وَالرَّاهِبٌ هَارِبٌ، وَالطَّالِبُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ مُشْفِقٌ عَلَى الشَّيْءِ؛ لِأَنَّهُ يُجِبُّهُ وَيَطْلُبُهُ، وَأَمَّا الرَّاهِبُ فَهُوَ خَائِفٌ مِنْهُ، نَافِرٌ مِنْهُ.

قَالَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/٣٧٨-٣٧٩):

❖ قوله: «بَابُ الْحَشْرِ». قال القرطبي: الحشر: الجمع، وهو أربع؛ حشران في الدنيا، وحشران في الآخرة، فالذي في الدنيا: أحدهما: المذكور في سورة الحشر، في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. والثاني: الحشر المذكور في أشراف الساعة، الذي أخرجه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رفعه: «أَنَّ السَّاعَةَ لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ» فذكره، وفي حديث ابن عمر عند أحمد، وأبي يعلى مرفوعاً: «تَخْرُجُ نَارٌ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ حَضَرَمَوْتٍ، فَتَسُوقُ النَّاسَ» الحديث، وفيه: «فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ»، وفي لفظ آخر: «ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تُرْحِلُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ»، قلت: وفي حديث أنس في مسائل عبد الله بن سلام لما أسلم: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ». وقد قَدِّمْتُ الإشارةَ إليه في بَابِ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَنَّهُ مَذْكُورٌ فِي بَدِئِ الْخَلْقِ، وفي حديث عبد الله بن عمرو عند الحاكم رفعه: «تُبْعَثُ نَارٌ عَلَى أَهْلِ الْمَشْرِقِ، فَتَحْشُرُهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَيَكُونُ لَهَا مَا سَقَطَ مِنْهُمْ وَتُخْلَفُ تَسْوِفُهُ سَوْقُ الْجَمَلِ الْكَسِيرِ».

❖ قوله: «على ثلاث طرائق» في رواية مسلم: «ثلاثة». والطرائق: جمع طريق، وهي تُدَكَّرُ وتُؤَنَّثُ.

❖ قوله: «راغبين وراهيين». في رواية مسلم: «راهيين». بغير واو، وعلى الروایتين، فهي الطريقة الأولى. قوله: «واثنان على بعير، ثلاثة على بعير، أربعة على بعير، عشرة على بعير». كذا فيه بالواو في الأول فقط، وفي رواية مسلم والإسماعيلي بالواو في الجميع، وعلى الروایتين، فهي الطريقة الثانية، قوله: وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ، هذه النارُ المذكورةُ في حديث حذيفة بن أسيد -بفتح الهمزة- وعند مسلم في حديث فيه ذكرُ الآياتِ الكائنة قبل قيام الساعة، كطلوع الشمس من مغربها، ففيه: «وَأَخْرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تُرْحِلُ النَّاسَ»، وفي رواية له: «تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى حَشْرِهِمْ». قوله: «تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا... إِلَى آخِرِهِ»: فيه إشارة إلى ملازمة النار لهم إلى أن يصلوا إلى مكان الحشر، وهذه الطريقة الثالثة. قال الخطابي: هذا الحشر يكون قبل قيام الساعة، تحشر الناس أحياء إلى الشام، وأما الحشر من القبور إلى الموقف، فهو على خلاف هذه الصورة من الركوب على الإبل والتعاقب عليها، وإنما هو على ما ورد في حديث ابن عباس في الباب: «حُفَاةٌ، عُرَاةٌ، مُشَاةٌ»،

قال: وقوله: «واثنان على بعير، وثلاثة على بعير» إلى آخره، يُريدُ أنهم يَعْتَقِبُونَ البعيرَ الواحدَ، يَرْكَبُ بعضهم، وَيَمْشِي بعضُ. قلتُ: إنما لم يَذْكُرِ الخمسةَ والستةَ إلى العشرةِ إيجازًا واكتفاءً بما ذَكَرَ مِنَ الأعدادِ، معَ أن الاعتقَابَ ليس مجزومًا به، ولا مانعٌ أن يجعلَ اللهُ في البعيرِ ما يَقْوَى به على حملِ العشرةِ، ومالِ الحليميُّ إلى أن هذا الحشرُ يَكُونُ عندَ الخروجِ مِنَ القُبُورِ، وجَزَمَ به الغزاليُّ، وقال الإسماعيليُّ: ظاهرُ حديثِ أبي هريرةَ يُخَالِفُ حديثَ ابنِ عباسٍ المذكورَ بعدُ: «أنهم يُحْشَرُونَ حُفَاةً، عُرَاةً، مُشَاةً». قال: ويُجْمَعُ بينهما: بأن الحشرَ يُعْبَرُ به عن النَّشْرِ لاتصاله به، وهو إخراجُ الخلقِ مِنَ القُبُورِ حُفَاةً، عُرَاةً، فَيُسَاقُونَ وَيُجْمَعُونَ إلى الموقفِ للحسابِ، فحينئذٍ يُحْشَرُ المَتَّقُونَ رُكْبَانًا على الإبلِ، وجمعُ غيره: بأنهم يَخْرُجُونَ مِنَ القُبُورِ بالوصفِ الذي في حديثِ ابنِ عباسٍ، ثم يَفْتَرِقُ حَالَهُمْ مِنْ ثَمَّ إلى الموقفِ على ما في حديثِ أبي هريرةَ، ويُؤَيِّدُهُ ما أخرجه أحمدُ، والنسائيُّ، والبيهقيُّ من حديثِ أبي ذرٍّ: حدَّثني الصادقُ المصدوقُ: «أن الناسَ يُحْشَرُونَ يومَ القيامةِ على ثلاثةِ أَفْوَاجٍ: فَوْجٌ طاعمينَ كاسينَ راكبينَ، وفَوْجٌ يَمْشُونَ، وفَوْجٌ تَسْجُبُهُم الملائكةُ على وُجُوهِهم» الحديث. وصَوَّبَ عِيَاضُ ما ذهب إليه الخطابيُّ، وقَوَّاهُ بحديثِ حذيفةَ بنِ أسيدٍ وبقوله في آخرِ حديثِ البابِ: «تَقِيلُ معهم، وتَبِيتُ، وتُصْبِحُ، وتُمْسِي»؛ فإن هذه الأوصافَ مختصةٌ بالدنيا، وقال بعضُ شُرَاحِ «المصابيحِ» حَمَلَهُ على الحشرِ مِنَ القُبُورِ أَقْوَى مِنْ أَوْجِهٍ:

أحدها: أن الحشرَ إذا أُطْلِقَ في عُرْفِ الشَّرْعِ إنما يُرادُ به الحشرُ مِنَ القُبُورِ ما لم يَخُصَّ دليلٌ.

ثانيها: أن هذا التقسيمَ المذكورَ في الخبرِ لا يَسْتَقِيمُ في الحشرِ إلى أرضِ الشامِ؛ لأنَّ المهاجرَ لا بد أن يَكُونَ راغبًا، أو راهبًا، أو جامعًا بين الصفتين: فإما أن يَكُونَ راغبًا راهبًا فقط، وتَكُونُ هذه طريقةً واحدةً لا ثانيَ لها مِنْ جنسِها.

[هذا الوجه ضعيفٌ جدًّا، والذين صاروا راغبين وراهبين ظهر فيه التقسيم، وحتى لو قال: راغبين راهبين بدون واو ما يظهر هذا القول] ^(١).

ثالثها: حشرُ البقيَّةِ على ما ذَكَرَ، وإلجاءُ النارِ لهم إلى تلك الجهة، وملازمتُها حتى لا تُفَارِقَهُمْ قولٌ لم يَرُدُّ به التوقيفُ، وليس لنا أن نَحْكُمَ بتسليطِ النارِ في الدنيا على أهلِ الشَّقْوَةِ

(١) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين رحمه الله.

مِنْ غَيْرِ تَوْقِيفٍ. [هَذَا غَلَطٌ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ يُسَلِّطُ النَّارَ عَلَى هَذَا، مِثْلَ مَا سَلَّطَ اللَّهُ النَّارَ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ الْحِجَازِ فِي عَامِ (٦٥٦ هـ)، فَيُمْكِنُ ذَلِكَ، فَنَقُولُ فَهَذَا أَيْضًا سَلَّطَ اللَّهُ النَّارَ تَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ وَتَمْشِي مَعَ النَّاسِ، وَهَذَا أَقْرَبُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: «تَقِيلُ مَعَهُمْ، وَتَمْشِي مَعَهُمْ، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ»، فَيَوْمُ الْقِيَامَةِ لَيْسَ هُنَاكَ مَسَاءٌ، وَلَا صَبَاحٌ^(١).

رابعها: أَنَّ الْحَدِيثَ يُقَسَّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَقَدْ وَقَعَ فِي الْحِسَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَبِي نَوَاسٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بَلْفَظٍ: «ثَلَاثًا عَلَى دَوَابٍ، وَثَلَاثًا يَنْسَلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَثَلَاثًا عَلَى وُجُوهِهِمْ»، قَالَ: وَنَرَى التَّقْسِيمَ الَّذِي وَقَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ نَظِيرَ التَّقْسِيمِ الَّذِي وَقَعَ فِي تَفْسِيرِ الْوَاقِعَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [التَّحْفَةُ: ١٧]. الْآيَاتِ، فَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ. يُرِيدُ بِهِ عَوَامَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ مَنْ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، فَيَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، يَخَافُونَ عَاقِبَةَ سَيِّئَاتِهِمْ، وَيَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ بِإِيمَانِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ أَصْحَابُ الْمِمْنَةِ.

❖ وَقَوْلُهُ: «وَإِثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ... إِلَى آخِرِهِ»: السَّابِقِينَ، وَهُمْ أَفْضَلُ الْمُؤْمِنِينَ، يُحْشَرُونَ رُكْبَانًا. ❖ وَقَوْلُهُ: «وَتَحْشَرُ بَقِيَّتُهُمُ النَّارَ». يُرِيدُ بِهِ أَصْحَابَ الْمَشْئَمَةِ، وَرُكُوبُ السَّابِقِينَ فِي الْحَدِيثِ يَحْتَمِلُ الْحَمْلَ دَفْعَةً وَاحِدَةً نَبِيَّهَا عَلَى أَنَّ الْبَعِيرَ الْمَذْكُورَ يَكُونُ مِنْ بَدَائِعِ فِطْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى يَقْوَى عَلَى مَا لَا يَقْوَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنَ الْبُعْرَانِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ التَّعَاقُبُ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَإِنَّمَا سَكَتَ عَنِ الْوَاحِدِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ يَكُونُ لِمَنْ فَوْقَهُمْ فِي الْمَرْتَبَةِ، كَالْأَنْبِيَاءِ؛ لِيَقَعَ الْاِمْتِيَازُ بَيْنَ النَّبِيِّ، وَمَنْ دُونَهُ مِنَ السَّابِقِينَ فِي الْمَرَاقِبِ، كَمَا وَقَعَ فِي الْمَرَاقِبِ. أَنْتَهَى مَلْخَصًا، وَتَعَقَّبَهُ الطَّبِيبِيُّ وَرَجَّحَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْخَطَّابِيُّ، وَأَجَابَ عَنِ الْأَوَّلِ: بِأَنَّ الدَّلِيلَ ثَابِتٌ، فَقَدْ وَرَدَ فِي عِدَّةٍ أَحَادِيثَ وَقَوَعُ الْحَشْرِ فِي الدُّنْيَا إِلَى جِهَةِ الشَّامِ، وَذَكَرَ حَدِيثَ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الَّذِي نَبَّهْتُ عَلَيْهِ قَبْلُ، وَحَدِيثَ مُعَاوِيَةَ بْنِ حِذَافَةَ - جَدُّ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ - رَفَعَهُ: «إِنَّكُمْ تَحْشُرُونَ، وَنَحْنُ بِيَدِهِ نَحْوُ الشَّامِ، رِجَالًا وَرُكْبَانًا، وَتَجْرُونَ عَلَى وُجُوهِكُمْ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، وَسَنَدُهُ قَوِيٌّ، وَحَدِيثُ: «سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، وَتَنْحَازُ النَّاسُ إِلَى مُهَاجِرِ إِبْرَاهِيمَ وَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ إِلَّا شَرَارُهَا تَلْفِظُهُمْ أَرْضُوهُمْ، وَتَحْشَرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ». أَنْتَهَى كَلَامُ الْحَافِظِ.

(١) مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفِينَ مِنْ كَلَامِ الْعَلَامَةِ ابْنِ عَثِيمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ما زال عندي إشكالٌ، وهو أن التقسيم ليس ظاهرًا في أن هذا قسيمٌ هذا، مثلًا راغبين راهبين هذا الأول، الثاني على بعير، (وبقيتهم) تحشروهم النار، فالذين على بعير قد يكونون راغبين راهبين، ولو كان الحديث: راغبين وراهبين، وراغبين راهبين؛ يعني: أن منهم راغبًا، ومنهم راهبٌ، ومنهم جامعٌ بين الأمرين. هذا هو التقسيم المتبادر، لكن الله أعلم بما أراد الرسول ﷺ، إنها لا شك عندي في أن هذا الحشر في الدنيا، وليس في الآخرة؛ لأن كونهم على إبل، وكون النار تطاردُهم، وتُصبِحُ، وتُمسي معهم، وتَقِيلُ معهم. فكلُّ هذا لا يكون إلا في الدنيا.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٢٣ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَغْدَادِيُّ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «الْأَيْسَ الَّذِي أَمْسَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ قَتَادَةُ: بَلَى وَعِزَّةُ رَبِّنَا^(١).

في هذا الحديث: تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿وَيُحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ عُميًا وَبُكْمًا وَصُفًا﴾ [الأنعام: ٩٧]. فهذا الرجل استشكل كيف يُحْشَرُ الكافر على وجهه، فبين له النبي ﷺ أن الذي أَمْسَاهُ في الدنيا على رجلين قادرٌ على أن يُمَشِّيه على وجهه يوم القيامة، وهذا جوابٌ واضحٌ. وفي قول قَتَادَةَ: بلى، وعِزَّةُ رَبِّنَا. دليلٌ على جَوَازِ الْحَلْفِ بِالصِّفَةِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْعِزَّةَ صِفَةٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨) [الصافات: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [طه: ١٠].



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٢٤ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَفْصَةَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ بْنُ جُبَيْرٍ سَمِعْتُ أَبَانَ عَبَّاسَ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّكُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ حُفَاةَ عُرَاةٍ مُشَاةَ غُرُلَا»^(١)، قَالَ سُفْيَانُ: هَذَا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٠٦).

بِمَا نَعُدُّ أَنْ ابْنَ عَبَّاسٍ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

❖ قوله: «قال سفيان: إنما هذا مما نَعُدُّ... إلى آخره». إنما قال سفيان هذا؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما كما هو معلوم كان صغيراً، وقد روى أحاديث كثيرة جداً عن الرسول ﷺ، وقد ذكر بعض العلماء أنه لم يحفظ عن الرسول إلا نحو أربعين حديثاً فقط. أما بقية الأحاديث التي لم يسمعهما فهو إنما قد سمعها من الصحابة، لكنه رضي الله عنهما يرسُل، ومرسل الصحابي - كما مر علينا في المصطلح - حكمه حكم المتصل، لاسيما مثل مراسيل ابن عباس؛ لأنه كان كبيراً يحفظ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٢٥ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَمْرِو، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: «إِنَّكُمْ مُلَأَقُوا اللَّهُ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا»^(١).

٦٥٢٦ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ الْمُغْبِرَةِ بْنِ الشُّعْبَانِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فَقَالَ إِنَّكُمْ تَحْشُرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ ﴿الْأَنْعَامُ: ١٠٤﴾. الْآيَةُ وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ، وَإِنَّهُ سَيَجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصِحَّاحِي فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بِعَدِّكَ، فَأَقُولُ، كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْمَلِكُ﴾ ﴿التَّائِمِينَ: ١١٧-١١٨﴾. قَالَ: فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَثْقَابِهِمْ^(٢).

هذا الحديث فيه: شاهد لقول سفيان السابق: إن هذا مما سمعه من النبي ﷺ؛ لأنه قال هنا - أي: ابن عباس - قام فينا يخطب، فيدل على أنه سمعه من النبي ﷺ.

❖ وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ هذا استشهاد بالآية؛ يعني: كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾.

وفي هذا: دليل على أنه يجوز للمستشهد بالآية أن لا يقول: لقوله تعالى، أو قال الله تعالى؛

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٠٦).

لأن النبي ﷺ أَدْمَجَ الآيَةَ فِي الْحَدِيثِ، وَلَمْ يَقُلْ: كَمَا قَالَ تَعَالَى، أَوْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى.

وفيه: دليلٌ على أن الناس يُكْسَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَن أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذِهِ مِيزَةٌ لَهُ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي رِسَالَةٍ: «عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ» أَنَّ مَنْ حَصَلَتْ لَهُ مِيزَةٌ وَخَصِيصَةٌ عَنْ غَيْرِهِ، فَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ تَفْضِيلُهُ عَلَى غَيْرِهِ تَفْضِيلًا مُطْلَقًا، بَلْ إِنَّهُ يَمْتَّازُ بِهَذِهِ الْخَصِيصَةِ، وَيَكُونُ الْفَضْلُ الْمَطْلُوقُ لِمَنْ يَفْضُلُهُ.

فَمَثَلًا عَلَيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(١). فَهَذَا لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ؛ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَهُ فَضَائِلُ أُخْرَى جَعَلَتْهُ أَفْضَلَ مِنْ عَلِيٍّ مُطْلَقًا.

فَهَذَا قَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ يُكْسَى أَوَّلَ الْخَلَائِقِ، فَهَلْ يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ؟

الجواب: لا؛ لِأَنَّهُ وَإِنْ اِمْتَّازَ بِهَذِهِ الْخَصِيصَةِ فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ لَهُ الْفَضْلُ الْمَطْلُوقُ.

وفي هذا الحديث أيضًا: دليلٌ على أَنَّهُ سَيَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، لَكُنْهُمْ قَلَّةٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «أَصْحَابِي». وَأَصْحَابِي هَذِهِ تَصْغِيرٌ يَدُلُّ عَلَى التَّقْلِيلِ، وَأَمَّا رِوَايَةُ: «أَصْحَابِي» فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِهَا الْجَنْسُ الَّذِي يَشْمَلُ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ، وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الْجَنْسُ الَّذِي يَشْمَلُ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ، ثُمَّ جَاءَ مُفَسِّرًا بِأَنَّهُ قَلِيلٌ، حُوِّلَ الْجَنْسُ عَلَى الْقَلِيلِ.

وَبِهَذَا التَّقْرِيرِ يَنْدَفِعُ مَا ادَّعَاهُ الرَّافِضَةُ مِنْ أَنَّ الصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ وَعَلَى رَأْسِهِمْ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ قَدْ ارْتَدُّوا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ كَفَّارًا إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هَذَا الْحَدِيثُ فِي «الْبُخَارِيِّ»، الَّذِي هُوَ عِنْدَكُمْ أَصَحُّ الْكُتُبِ يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ فِيهِ: «يَا رَبُّ أَصْحَابِي» فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُمَا بَعْدَكَ»، فَتَقُولُ: قَوْلُهُ: «أَصْحَابِي» جَنْسٌ يَشْمَلُ الْقَلِيلَ وَالكَثِيرَ، وَقَوْلُهُ: «أَصْحَابِي»: يَخْتَصُّ بِالْقَلِيلِ.

وَأَيْضًا كَلِمَةُ «أَصْحَابِي» كَمَا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ الْعَدَدِ، فَهِيَ تَدُلُّ أَيْضًا عَلَى قِلَّةِ الْكَيْفِيَّةِ، يَعْنِي: تَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ الصُّحْبَةِ فِيهِمْ، أَيْ: أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الصَّحَابَةِ الْمُتَلَازِمِينَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ رَجُلًا صَاحِبَ النَّبِيِّ ﷺ مُدَّةً طَوِيلَةً، ثُمَّ يَرْتَدُّ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى عَقِبِهِ.

فصار التصغيرُ هنا للتقليلِ والتحقيقِ، وليس معنى قولي للتحقيقِ أن الصحابةَ فيهم أحدٌ حقيرٌ، لكن المعنى: أن هؤلاءَ كانت صحبتُهم للرسولِ ﷺ قليلةً، فيكونُ المرادُ: قِلَّةُ العددِ وقِلَّةُ الصُّحْبَةِ والمُلازِمَةِ؛ ولهذا قال: «أصحابي».

فإن قالَ قائلٌ: ألا ينقضُ هذا الحديثُ القاعدةَ المتقررةَ بأنَّ الصحابةَ كلَّهم عدولٌ، وأنه لا يُنَحَّثُ عن عدالتهم؟

فالجوابُ: أن الذين ارتدوا بعد النَّبِيِّ ﷺ قد زالت صحبتهم بالردة، وهم مُعَيَّنُونَ معروفون، وبهذا يزولُ الإشكالُ، والله أعلمُ.

وفيه أيضًا: دليلٌ على أن الرسولَ ﷺ يزودُ عن أُمِّهِ ﷺ؛ لأنه دافعٌ عن هؤلاءِ، ولكنه لا يَعْلَمُ الْغَيْبَ لا حيًّا ولا ميتًا، وهو بعدَ الموتِ أبعدُ مِنَ الْعِلْمِ عما كان قبلَ الموتِ.

❦ وقوله: «إنهم لم يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ على أعقابهم». هذا في الذين ارتدُّوا مِنَ الصَّحَابَةِ، ولم يَرْجِعُوا إلى الإسلامِ، وقاتلهم الصحابةُ؛ أبو بكرٍ وغيره، ومنهم من قُتِلَ، ومنهم مَنْ سلم وآمن، ومنهم مَنْ سلم ومات على الرِّدَّةِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٢٧- حَدَّثَنَا قَيْسُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ الْحَارِثِ، حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ أَبِي صَغِيرَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرًّا لَا قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهَمَّهُمْ ذَلِكَ»^(١).

٦٥٢٨- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟». قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟». قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا سَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟». قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا سَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أُنْتُمُ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا

كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ^(١).

[الحديث ٦٥٢٨ - طرفه في: ٦٦٤٢].

٦٥٢٩ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي أَخِي، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ ثَوْرٍ، عَنْ أَبِي الْغَيْثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَتَرَأَى ذُرِّيَّتَهُ، فَيَقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثْ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَمْ أَخْرِجْ؟ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا أَخَذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَالَ: «إِنَّ أُمَّتِي فِي الْأُمَمِ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ».

هذان الحديثان فيهما: دليل على أن هذه الأمة ستكون نصف أهل الجنة، وقد ورد في «السنن»: أن الجنة مائة وعشرون صفاً، وأن منها ثمانين من هذه الأمة^(١)، فتكون هذه الأمة ثلثي أهل الجنة؛ لأن النبي ﷺ أكثر الأنبياء أتباعاً؛ إذ أن مُتَّبِعِيهِ مِنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، بخلاف غيره من الأنبياء، فإن الأنبياء الذين قبله يأتون يوم القيامة فيكون مع النبي الرَّجُلُ والرَّجُلَانِ، والنبي ومعه الرَّهْطُ، والنبي وليس معه أحد^(٢)، أما محمد ﷺ، فإن معه أُمَّمًا لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ؛ لهذا كانت أُمَّتُهُ نصف أهل الجنة على ما ثبت في «الصحيحين»، أو ثلثي أهل الجنة على ما جاء في «السنن».

وعلى هذا: فيكون في ذلك فَضْلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ حيث كانت أُمَّتُهُ أَكْثَرَ الْأُمَمِ أَتْبَاعًا لِلْأَنْبِيَاءِ. وقد بَيَّنَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع) في هذين الحديثين: أننا مع كثيرنا فلسنا في أهل الشرك إلا كالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ.

وقوله: «كالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ». يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا تَرْدِيدًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ يَعْنِي: أَنَّهُ قَالَ هَذَا أَوْ هَذَا، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ شَكٌّ مِنَ الرَّوَايِ، وَأَيًّا كَانَ فَالْمَعْنَى لَا يَخْتَلِفُ.

أما الحديث الثاني ففيه: إثبات أن الله ﷻ يُنَادِي وَيُخَاطِبُ، وَيَقُولُ وَيُجَابُ؛ لقوله: «فَيَقُولُ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ». كما سيأتي أن القائل هو الله ﷻ.

(١) أخرجه مسلم (٢٢١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٤٦)، وهو ابن ماجه (٤٢٨٩)، وابن حبان (٧٤٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

❦ وقوله: «فيقول: أخرج من كل مائة تسعة وتسعين». وفي الحديث الآتي: «من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»؛ ومعلوم: أن النسبة في الحديث الثاني أقل بكثير من النسبة في هذا الحديث، وسند ذكر الجمع بينهما بعد الكلام على الحديث القادم - إن شاء الله -.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٦ - باب قوله ﷺ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [التكْوِيْن: ١]. ﴿أَزْفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ [التكْوِيْن: ٥٧]. ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [التكْوِيْن: ١].

❦ قوله ﷺ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾. هذا بقية آية قال الله فيها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [التكْوِيْن: ١-٢].

وقد اختلف العلماء في هذه الزلزلة: هل هي يوم القيامة، أو هي الزلزلة التي تكون قبيل النفخ في الصور؟

فمنهم من قال بالأول، وقال: إن هذه الزلزلة تكون يوم القيامة، وأنها عبارة عن زلزلة الأفئدة والقلوب، واضطرابها.

ومنهم من قال: أنها في الدنيا، وإنها زلزلة حسية تزلزل الأرض بهم، وحينئذ يعتقدون أو يوقنون بأنها هي الساعة، ثم ينفخ في الصور فيقزعون ويموتون.

وهؤلاء أكدوا رأيهم بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾. فقال: «كل مرضعة». والتاء إذا جاءت في «مرضع» فهي للفعل لا للوصف، بخلاف ما إذا نزعيت التاء فإنها تكون للوصف، فنقول: امرأة مرضع، وامرأة مرضعة. والفرق بينهما: أن الأول وصف، والثاني فعل، يعني: الآن صبيها يرضعها، بخلاف الأولى. أما لو كان الصبي في فراشه فهي مرضع؛ لأنه وصف حينئذ.

قالوا: فقوله تعالى: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾. يدل على أن هناك من ترضع فعلاً.

❦ وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾. يدل على أن هناك حملاً فعلاً يوضع، وهذا لا يوجد في الآخرة، ولا شك أن هذا يؤيد أنها زلزلة تكون في آخر الدنيا.

وقوله: ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾. ﴿أَفْتَرَيْتِ السَّاعَةَ﴾. «أزفت الأزفة» يعني: قربت القريفة، وهي الساعة، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ (٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٨) [البخاري: ٥٧-٥٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (٩) [البخاري: ١٧]. وقال في الآية التي ساقها المؤلف: ﴿أَفْتَرَيْتِ السَّاعَةَ﴾. فعلى هذا تكون الأزفة هي الساعة.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٣٠- حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ». قَالَ: «يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَانِ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ. فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا ذَلِكِ الرَّجُلُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلًا». ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثُ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالَ: فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنْ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ الرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْجَمَارِ» (١).

هذا الحديث أَوْفَى مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ السَّابِقِ وَفِيهِ: أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. وفي هذا: نصٌّ واضحٌ على أن كلامَ اللَّهِ تعالى بصوتٍ مسموعٍ، وأنه بحروفٍ؛ لأن قوله: يَا آدَمُ، كلمةٌ، بل كلماتٌ مكوَّنةٌ مِنْ حُرُوفٍ وَبصوتٍ؛ لأنَّ آدَمَ سَمِعَ؛ ولهذا قَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ.

ومعنى قوله: «لبيك». أي: إجابةٌ لك بعد إجابةٍ. وليس المقصودُ به التثنية، بل المقصودُ به مطلقُ التَّكرارِ، فهو كقوله: ﴿ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (١) [البخاري: ٤]. فقوله: «كرتين» ليس معناه مرَّتين فقط، بل المرادُ كَرَّةً بعدَ كَرَّةٍ.

وقوله: «لبيك». مفعولٌ مطلقٌ، لكن حُذِفَتْ زوائده؛ لأنه مِنْ: أَلَبَّ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ

به. ولو كان مصدرًا لقال: إلبابًا إلبابين؛ لأن: أَلَبَّ. رباعيٌّ، ومصدرُ الرباعيِّ يكونُ على وزن: إفعالٍ. فـ«أَلَبَّ» مصدرُهُ: إلبابٌ. إلا إنه حُذِفَتْ زوائده فصار: لَبَّيْكَ. فهو مفعولٌ مطلقٌ منصوبٌ على مفعوله المطلق.

❖ وقوله: «وَسَعْدَيْكَ». يَعْنِي: إسعادًا بعدَ إسعادٍ، وأصلُ الإسعادِ: المعاونةُ والمساعدةُ، وهو عبارةٌ عن إظهارِ الإنسانِ وِلايَتَهُ لِلَّهِ ﷻ، ونصرَتَهُ لِدِينِهِ.

❖ وأما قوله: «الْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ». فمعناه واضحٌ، وهو: أن الخيرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ ﷻ، وهو الذي يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

❖ وقوله: «أَخْرَجَ بَعَثَ النَّارِ». «بَعَثَ» مصدرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ؛ أي: مبعوثِ النارِ؛ أي: الذين يُبْعَثُونَ إلى النارِ.

❖ وقوله: «قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ». أي: أنه سَيَبْقَى واحدٌ مِنَ الألفِ.

❖ وقوله: «فَإِذَاكَ حِينَ يَنْشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ». وقوله تعالى: ﴿سُكَّرَى﴾. قرئ: ﴿سُكَّرَى﴾: «تَرَى النَّاسَ سُكَارَى». وذلك لاضطرابِ تصرفاتهم وأفعالهم، كأنهم يَتَصَرَّفُونَ بِلا عُقُولٍ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَّرَى﴾ يَعْنِي: ليس فيه سَكَرٌ حَقِيقَةٌ، ولكن تصرفهم تصرفُ السُّكْرَانِ.

❖ وقوله: «فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ». يَعْنِي: على الصحابةِ.

❖ وقوله: فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: «أَبَشِّرُوا، فَإِنْ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ». وفي نسخة: «أَلْفًا». وهذه هي الموافقةُ لقواعدِ اللغةِ العربيةِ المعروفة؛ لأن «منكم» خبرٌ «إِنْ» مقدَّمٌ، و«أَلْفًا» اسمُها مؤخَّرٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ [الطَّحْتُ: ٤٩]. فقال: «مُكَذِّبِينَ». ولم يَقُلْ: مكذبون. فهذه الآيةُ مثلُ قوله: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا».

لكن إن صحَّت رواية: «أَلْفٌ». فإنها تأوَّلُ على أن اسمَ «إِنْ» ضميرُ الشأنِ، والجملةُ بعدها خبرٌ.

❖ وقوله: «يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ». هما قبيلتانِ عظيمتانِ كبيرتانِ، قَالَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ:

«ما كانتا في شيءٍ إلا كثرتا»^(١).

وفي هذا الحديث: دليلٌ على أن يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ من بني آدم، وهو كذلك؛ لأن الخَلْقَ ثلاثة أصنافٍ: ملائكةٌ، وجِنٌّ، وبني آدم، فالملائكةُ خَلِقُوا مِن نورٍ، والجنُّ مِن نارٍ، وبني آدم من طينٍ، ومنهم يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ.

فَيَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ من بني آدم، وأشكالُهم كأشكالِ بني آدم، وأما ما ذَكَرَ في بعض الكتب التي تَتَكَلَّمُ عن أَشْرَاطِ السَّاعَةِ مِن أنهم أصنافٌ بعضُهم طوله مُفْرِطٌ يَأْخُذُ السَّمَكَةَ مِن قَاعِ الْبَحْرِ وَيَشْوِيهَا بِالشَّمْسِ، وبعضُهم قصيرٌ جدًا حتَّى إن العِشْرَةَ يَرَكِّبُ بعضُهم بعضًا فلا يَبْلُغُونَ المَدَّ، ثم يَنْظُرُونَ إِلَى المَدِّ فيَقُولُونَ: ما أَبْعَدَ قَعْرَ الْبَيْرِ. وبعضُهم له أذنان طَوِيلَةٌ يَفْتَرِشُ أذْنًا وَيَلْتَحِفُ أُخْرَى. إلى غير ذلك مِنَ الْخَرَافَاتِ، وهو شيءٌ عَجِيبٌ.

وهذا كُلُّهُ ليس بصحيح، فهم من بني آدم تَمَامًا، شَكْلُهُم كَشَكْلِ بني آدم، وَيَخْتَلِفُونَ باختلافِ الْبَيِّنَاتِ، كما تَخْتَلِفُ الْبَيِّنَاتُ الْآنَ فَتَجِدُ مِثْلًا بَعْضَ النَّاسِ فِي الشِّمَالِ تَكُونُ أَجْسَامُهُمْ كَبِيرَةً، وَفِي مَحَلٍّ آخَرَ تَكُونُ صَغِيرَةً، كما فِي شَرْقِ آسِيَا.

❖ وقوله ﷺ: «منكم رجلٌ، ومنهم ألفٌ». استدلَّ به شيخنا عبد الرحمن بن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ: أن يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ تَشْمَلُ جَمِيعَ الْكُفَّارِ وَلِيسُوا قَبِيلَةً مَعِينَةً، قَالَ: لأنَّ الرِّسُولَ ﷺ حَصَرَ بَنِي آدَمَ بِالْفِ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدٌ، وَالباقِي من يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ، إِذْنُ فَكُلُّ الْكُفَّارِ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ. وَأَيَّدَ قَوْلَهُ ذَلِكَ بِأنَّ أَجْبِجَ النَّارِ عِنْدَ التَّهَابِهَا يَكُونُ مُضْطَرَّبًا مُخْتَلَفًا، وَهَكَذَا الْكُفَّارُ تُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوْ لَمْ يَرْوُقْ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وَقَالَ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [نوح: ٥٠]. قَالَ: فَلِيسَ الْمَرَادُ: يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ قَبِيلَةً مَعِينَةً، أَوْ قَبِيلَتَيْنِ مَعِينَتَيْنِ، بَلْ إِنْ كُلُّ الْكُفَّارِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ. وَجَعَلَ الْأَجْبِجَ أَجْبِجًا مَعْنَوِيًّا؛ وَذَلِكَ لِفَسَادِ أَفْكَارِهِمْ، وَاضْطِرَابِ عُقُولِهِمْ وَعَدَمِ ثَبَاتِهِمْ.

وقال: هذا الحديثُ يَدُلُّ عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مِنْ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِنْ بَنِي آدَمَ تِسْعُمَائَةِ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ، وَوَاحِدٌ مُسْلِمٌ فَهُوَ لَا هُمْ بَنُو آدَمَ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ بَنِي آدَمَ إِلَّا مُسْلِمًا أَوْ كَافِرًا،

(١) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْكَبَرَى» (١١٣٤٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣١٦٩)، وَاحِدٌ (٤/٤٣٥)، وَابْنُ حَبَانَ (٧٣٥٤).

فهذا يدلُّ على أن المراد بَيَّاجُوجَ وَمَأْجُوجَ في هذا الحديثِ جميعُ الكفَّارِ.

❖ وقوله: «والذي نفسي بيده إني لأطمعُ أن تكونوا ثلثُ أهلِ الجنةِ». قَالَ: فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا. ثم قَالَ: «والذي نفسي بيده إني لأطمعُ أن تكونوا شَطْرُ أهلِ الجنةِ، إن مثلكم في الأُمَمِ كَمِثْلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ». فَأَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِدُونِ أَنْ يُسْتَقْسَمَ، ففيه: دليلٌ على جَوَازِ الإِقْسَامِ عَلَى الشَّيْءِ بِدُونِ أَنْ يُسْتَقْسَمَ الْإِنْسَانُ، إِذَا دَعَتْ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ، وَالْحَاجَةُ هُنَا دَاعِيَةٌ إِلَى ذَلِكَ، وَهِيَ: أَنْ يَطْمَئِنَّ الصَّحَابَةُ رَضًا، وَأَلَّا يَيَاسُوا مِنْ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، بِنَاءً عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

❖ قوله: «بَابُ إِنْ زَلَزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ». أَشَارَ بِهِذِهِ التَّرْجِمَةُ إِلَى مَا وَقَعَ فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ عِنْدَ ذِكْرِ الْحَدِيثِ، وَالزَّلْزَلَةُ: الْاضْطِرَابُ، وَأَصْلُهُ: مِنَ الزَّلَلِ، وَفِي تَكْرِيرِ الزَّاي فِيهِ تَنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَالسَّاعَةُ فِي الْأَصْلِ: جِزَاءٌ مِنَ الزَّمَانِ، وَاسْتُعِيرَتْ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي بَابِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: مَعْنَى السَّاعَةِ: الْوَقْتُ الَّذِي تَقُومُ فِيهِ الْقِيَامَةُ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا سَاعَةٌ خَفِيفَةٌ يَقَعُ فِيهَا أَمْرٌ عَظِيمٌ.

وَقِيلَ: سُمِّيَتْ سَاعَةً؛ لَوْقُوعِهَا بَغْتَةً، أَوْ لَطُولِهَا، أَوْ لِسُرْعَةِ الْحِسَابِ فِيهَا، أَوْ لِأَنَّهَا عِنْدَ اللَّهِ خَفِيفَةٌ مَعَ طُولِهَا عَلَى النَّاسِ.

❖ قوله: «أَزَفَتِ الْأَزْفَةُ». «أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ». هُوَ مِنَ الْأَزْفِ -بَفَتْحِ الزَّاي- وَهُوَ الْقُرْبُ، يُقَالُ: أَزَفَ كَذَا؛ أَي: قَرَّبَ.

وَسُمِّيَتْ السَّاعَةُ أَزْفَةً؛ لِقُرْبِهَا، أَوْ لَضَيْقِ وَقْتِهَا. وَاتَّفَقَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ مَعْنَى «أَزَفَتْ»: اقْتَرَبَتْ أَوْ دَنَتْ.

❖ قوله: «جَرِيرٌ». هُوَ ابْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ.

❖ قوله: «عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ». فِي رِوَايَةِ أَبِي أَسَامَةَ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ، وَحِفْصِ بْنِ غِيَاثٍ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجِّ كِلَاهُمَا، عَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ وَهُوَ ذَكْوَانُ. وَأَبُو سَعِيدٍ هُوَ الْخُدْرِيُّ.

❖ قوله: «يَقُولُ اللَّهُ». كَذَا وَقَعَ لِلْأَكْثَرِ غَيْرِ مَرْفُوعٍ، وَبِهِ جِزْمُ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْمُسْتَخْرَجِ»، وَفِي

رواية كريمة بإثبات قوله: قال رسول الله ﷺ، وكذا وقع لمسلم، عن عثمان بن أبي شيبة، عن جرير، بسند البخاري فيه، ونحوه في رواية أبي أسامة وحفص.

وقد ظهر من حديث أبي هريرة الذي قبله: أن خطاب آدم بذلك أول شيء يقع يوم القيامة، ولفظه: «أول من يدعى يوم القيامة: آدم ﷺ، فتراعى ذريته». بمثناة واحدة، ومد، ثم همزة مفتوحة مهالة، وأصله: فتتراءى. فحذفت إحدى التائين، وتراعى الشخصان تقابلا، بحيث صار كل منهما يتمكن من رؤية الآخر.

ووقع في رواية الإسماعيلي من طريق الداروردي عن ثور: «فتراعى له ذريته» على الأصل، وفي حديث أبي هريرة: فيقال: هذا أبوكم. وفي رواية الداروردي: «فيقولون: هذا أبوكم».

❖ قوله: «فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يدك». في الاقتصار على الخير نوع تعطيف ورعاية للأدب، وإلا فالشر أيضا بتقدير الله كالخير.

❖ وله: «أخرج بعث النار». في حديث أبي هريرة: «بعث جهنم من ذريتك». وفي رواية أحمد: «نصيب». بدل: «بعث». والبعث بمعنى المبعوث، وأصلها في السرايا التي يبعثها الأمير إلى جهة من الجهات للحرب وغيرها، ومعناها ههنا: ميز أهل النار من غيرهم، وإنما خص بذلك آدم؛ لكونه والد الجميع، ولكونه كان قد عرف أهل السعادة من أهل الشقاء، فقد رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء وعن يمينه أسودة، وعن شماله أسودة. الحديث، كما تقدم في حديث الإسراء.

وقد أخرج ابن أبي الدنيا من مرسل الحسن قال: يقول الله لأدم: يا أدم، أنت اليوم عدل بيني وبين ذريتك، قم فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم.

❖ قوله: «قال: وما بعث النار؟». الواو عاطفة على شيء محذوف تقديره: سمعت وأطعت، وما بعث النار؟ أي: وما مقدار مبعوث النار؟ وفي حديث أبي هريرة: «فيقول: يا رب، كم أخرج؟».

❖ قوله: «من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». وفي حديث أبي هريرة: «من كل مائة تسعة وتسعين». قال الإسماعيلي: في حديث أبي سعيد: «من كل ألف واحد». وكذا في حديث غيره، ويُسبِّهُ أن يكون حديث ثور يعني: راويه عن أبي الغيث، عن أبي هريرة وهما. **قلت:** ولعله يريد بقوله: غيره. ما أخرجه الترمذي من وجهين، عن الحسن البصري، عن

عمران بن حصين نحوه، وفي أوله زيادة قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فرفع صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رِبَكُمُ إِنَّكَ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ مَن عَظِيمٌ﴾ (١) إلى ﴿شَدِيدٌ﴾. فحث أصحابه المطي فقال: «هل تدرون أي يوم ذاك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذاك يوم يُنادي الله آدم». فذكر نحو حديث أبي سعيد وصححه، وكذا الحاكم، وهذا سياق قتادة، عن الحسن من رواية هشام الدستوائي عنه.

ورواه معمر، عن قتادة فقال: عن أنس. أخرجه الحاكم أيضًا. ونقل عن الذهلي: أن الرواية الأولى هي المحفوظة. وأخرجه البزار، والحاكم أيضًا، من طريق هلال بن خباب - بمعجمة وموحدتين الأولى ثقيلة - عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: «هل تدرون؟» فذكر نحوه. وكذا وقع في حديث عبد الله بن عمر، وعند مسلم رفعه: «يُخْرِجُ الدَّجَالَ - إلى أن قال: - ثم يُنْفَخُ فِي الصُّورِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثم يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارِ». وفيه: «فَيُقَالُ: مِن كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، فِذَاكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا».

وكذا رأيت هذا الحديث في مسند أبي الدرداء بمثل العدد المذكور، رؤيناه في «فوائد طلحة بن الصقر» وأخرجه ابن مردويه من حديث أبي موسى نحوه. فاتفق هؤلاء على هذا العدد، ولم يستحضر الإسماعيلي لحديث أبي هريرة متابعًا، وقد ظفرت به في مسند أحمد، فإنه أخرج من طريق أبي إسحاق الهجري - وفيه مقال - عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود نحوه.

وأجاب الكرماني بأن مفهوم العدد لا اعتبار له، فالتخصيص بعدد لا يدل على نفى الزائد، والمقصود من العددين واحد وهو تقليل عدد المؤمنين، وتكثير عدد الكافرين.

قلت: ومقتضى كلامه الأول: تقديم حديث أبي هريرة على حديث أبي سعيد، فإنه يشتمل على زيادة، فإن حديث أبي سعيد يدل على أن نصيب أهل الجنة من كل ألف واحد، وحديث أبي هريرة يدل على عشرة فالحكم للزائد، فإذا زاد هنا نقص هنا [هذا غير ظاهر، فإنه لا يمكن أن نعين أن واحدًا هو الزائد؛ لأنه سيقتى عندنا العدد الصريح] (١)، ومقتضى

(١) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين رحمه الله.

كلامه الأخير أن لا يُنظَر إلى العدد أصلاً، بل القدر المشترك بينهما ما ذكره من تقليل العدد. وقد فتح الله - تعالى - في ذلك بأجوبة أخر، وهو: حمل حديث أبي سعيد ومن وافقه على جميع ذرية آدم، فيكون من كل ألف واحد.

وحمل حديث أبي هريرة ومن وافقه على من عدا يأجوج ومأجوج، فيكون من كل ألف عشرة، ويُقَرَّب ذلك أن يأجوج ومأجوج ذكروا في حديث أبي سعيد دون حديث أبي هريرة [ليس هذا الحمل بصحيح] ^(١).

ويُحْتَمَل أن يكون الأول يتعلّق بالخلق أجمعين، والثاني بخصوص هذه الأمة، ويُقَرَّب قوله في حديث أبي هريرة: إذ أخذ منا. لكن في حديث ابن عباس: «وإنما أمتي جزء من ألف جزء». ويُحْتَمَل أن تقع القسمة مرتين: مرة من جميع الأمم قبل هذه الأمة، فيكون من كل ألف واحد، ومرة من هذه الأمة فقط فيكون من كل ألف عشرة.

ويُحْتَمَل أن يكون المراد بيع النار الكفار، ومن يدخلها من العصاة، فيكون من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون كافراً؛ ومن كل مائة تسعة وتسعون عاصياً. والعلم عند الله تعالى.

[أقول: الجمع بين هذين الحديثين بسيط، وهو: أن نؤول: إن الراوي قد وهم ولا نأتي بهذه التعليقات المستبعدة، كما توهموا مثلاً في عدد دراهم حمل جابر رضي الله عنه، وفي عدد دراهم بريرة، وفي عدد الدنانير في حديث فضالة بن عبيد وغيرها، وعلى هذا فنقول: ما دام الحديث قد جاء من عدة أوجه بلفظ: «من كل ألف» يكون هذا اللفظ هو المعتمد] ^(١).

❦ قوله: «فذاك حين يشيب الصغير وتضع». وساق إلى قوله: «شديد». ظاهره: أن ذلك يقع في الموقف، وقد استشكل: بأن ذلك الوقت لا حمل فيه، ولا وضع، ولا شيب، ومن ثم قال بعض المفسرين: إن ذلك قبل يوم القيامة. لكن الحديث يرد عليه.

وأجاب الكرمانى بأن ذلك وقع على سبيل التمثيل والتهويل، وسبق إلى ذلك النووي، فقال: فيه وجهان للعلماء فذكرهما وقال: التقدير: أن الحال ينتهي إلى أنه لو كانت النساء حينئذ حوامل لوضعن، كما تقول العرب: أصابنا أمر يشيب منه الوليد.

(١) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين رحمته الله.

(٢) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين رحمته الله.

وأقول: يُحْتَمَلُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَإِنْ كُلُّ أَحَدٍ يُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، فَتُبْعَثُ الْحَامِلُ حَامِلًا، وَالْمُرْضِعُ مُرْضِعَةً، وَالطِفْلُ طِفْلًا، فَإِذَا وَقَعَتْ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ، وَقِيلَ ذَلِكَ لِآدَمَ، وَرَأَى النَّاسُ آدَمَ، وَسَمِعُوا مَا قِيلَ لَهُ، وَقَعَ بِهِمْ مِنَ الْوَجَلِ مَا يَسْقُطُ مَعَهُ الْحَمْلُ، وَيَشِيبُ لَهُ الطِفْلُ، وَتَذْهَلُ بِهِ الْمَرْضِعَةُ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَعْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى وَقَبْلَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ، وَيَكُونُ خَاصًّا بِالْمَوْجُودِينَ حِينَئِذٍ، وَتَكُونُ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «فَذَلِكَ» إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي الْآيَةِ، وَلَا يَمْنَعُ مِنْ هَذَا الْحَمْلِ مَا يُتَخَيَّلُ مِنْ طُولِ الْمَسَافَةِ بَيْنَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَاسْتِقْرَارِ النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ، وَنَدَاءِ آدَمَ لِمُمَيِّزِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ ذَلِكَ يَقَعُ مُتَقَارِبًا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٧) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٨)﴾ [الْقَائِنَاتِ: ١٣-١٤]. يَعْنِي: أَرْضَ الْمَوْقِفِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٩) السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ (٢٠)﴾ [الْمُلْكِ: ١٧-١٨].

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُطْلَقُ عَلَى مَا بَعْدَ نَفْخَةِ الْبَعْثِ مِنْ أَهْوَالٍ، وَزَلْزَلَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِلَى آخِرِ الْاسْتِقْرَارِ فِي الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ.

وَقَرِيبٌ مِنْهُ: مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ إِلَى أَنَّ ذَكَرَ النَّفْخَ فِي الصُّورِ، إِلَى أَنَّ قَالَ: ثُمَّ يُنْفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارِ، فَذَكَرَهُ، قَالَ: فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا.

وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ الطَّوِيلِ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ مَعْبُدٍ وَغَيْرِهِ، مَا يُؤَيِّدُ الْإِحْتِمَالَ الثَّانِي، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي بَابِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ، وَفِيهِ بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَتَضَعُ الْحَوَامِلُ مَا فِي بَطُونِهَا، وَتَشِيبُ الْوِلْدَانُ، وَتَتَطَايَرُ الشَّيَاطِينُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ تَصَدَّعَتِ الْأَرْضُ، فَيَأْخُذُهُمْ لَذَلِكَ الْكَرْبُ وَالْهُوْلُ، ثُمَّ تَلَا الْآيَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ الْحَجِّ.. الْحَدِيثَ». قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي «التَّذَكُّرَةِ»: هَذَا الْحَدِيثُ صَحَّحَهُ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فَقَالَ: يَوْمُ الزَّلْزَلَةِ يَكُونُ عِنْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى، وَفِيهِ مَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْعَظِيمَةِ، وَمِنْ جُمْلَتِهَا: مَا يُقَالُ لِآدَمَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونَ ذَلِكَ مَتَّصِلًا بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى، بَلْ لَهُ مَحْمَلَانِ:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ آخِرُ الْكَلَامِ مَنْوًى بِأَوَّلِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: يُقَالُ لِآدَمَ ذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ الْيَوْمِ الَّذِي يَشِيبُ فِيهِ الْوِلْدَانُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وثانيهما: أَنْ يَكُونَ شَيْبُ الْوِلْدَانِ عِنْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى حَقِيقَةً، وَالْقَوْلُ لِآدَمَ يَكُونُ وَصْفُهُ

بذلك إخباراً عن شدته وإن لم يوجد عين ذلك الشيء.
وقال القرطبي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّ ذَلِكَ حِينَ يَقَعُ لَا يَهُمُّ كُلُّ أَحَدٍ إِلَّا نَفْسُهُ،
حَتَّى إِنْ الْحَامِلُ تَسَقَطَ مِنْ مِثْلِهِ، وَالْمُرْضِعَةُ إِلَى آخِرِهِ.

وَيُقَالُ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْمَعْنَى أَنَّ لَوْ كَانَ هُنَاكَ مُرْضِعَةٌ لَدَهَلَتْ.
وَذَكَرَ الْحَلِيمِيُّ - وَاسْتَحْسَنَهُ الْقُرْطُبِيُّ - أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يُحْيِيَ اللَّهُ حِينَئِذٍ كُلَّ حَمَلٍ كَانَ قَدْ تَمَّ
خَلْقُهُ، وَنُفِخَتْ فِيهِ الرُّوحُ، فَتَذْهَلُ الْأُمُّ حِينَئِذٍ عَنْهُ؛ لِأَنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى إِرْضَاعِهِ، إِذْ لَا غِذَاءَ هُنَاكَ
وَلَا لَبَنٍ، وَأَمَّا الْحَمْلُ الَّذِي لَمْ يُنْفَخْ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّهُ إِذَا سَقَطَ لَمْ يُحْيَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يَوْمُ الْإِعَادَةِ، فَمَنْ
لَمْ يَمُتْ فِي الدُّنْيَا لَمْ يُحْيَا فِي الْآخِرَةِ. انْتَهَى كَلَامُ الْحَافِظِ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: الْخِلَافُ فِي هَذَا هُوَ: هَلْ هَذَا الْفَرْعُ الَّذِي يَحْضُلُ لِلنَّاسِ، فَيَشِيبُ بِسَبَبِهِ الصَّغِيرُ،
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلًا حَمَلًا، وَتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، يَكُونُ حِينَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ أَوْ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ قِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؟

الجواب: هَذَا الثَّانِي هُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ، وَلَا مَانِعَ مِنْ كَوْنِ الرَّسُولِ ﷺ يَذْكُرُ شَيْئًا
يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ قِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ يُشَبِّهُ مَا كَانَ عِنْدَ انْتِهَاءِ الدُّنْيَا، وَيَكُونُ
قَوْلُهُ: «تَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلًا حَمَلًا، وَتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ» عَلَى حَقِيقَتِهِ فِيمَا كَانَ بَعْدَ
النَّفْخَةِ الْأُولَى عِنْدَ الْفَرْعِ، وَيَكُونُ عَلَى تَقْدِيرٍ: أَنَّ الْمَرْأَةَ تَرْضِعُ، أَوْ أَنَّ الْمَرْأَةَ حَامِلٌ فِيمَا إِذَا كَانَ بَعْدَ
قِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٧ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۖ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ [المطففين: ٤-٦]. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝﴾ [النجم: ١٦٦]. قَالَ:
الْوَصَلَاتُ فِي الدُّنْيَا.

قَوْلُهُ ﷺ: «بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۖ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾». هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي سِيَاقِ جَزَاءِ الْمُطَفِّفِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا
عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝﴾ [المطففين: ٢]. وَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ؛ أَيُّ: إِنْهُمْ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ لَا
بَأْسَ بِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ حَقُّهُمْ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾ [المطففين: ٣]. يَعْنِي: إِذَا كَالُوا

لهم، أو وَزَنُوا لهم يُخْسِرُونَ؛ يَعْنِي: يَنْقُصُونَ، فهم يُطَالِبُونَ بحقوقهم، وَيَهْضُمُونَ حقوق الناس، وهذا غايةُ الجور، فلو أنهم لَا يُطَالِبُونَ لا بهذا ولا بهذا لكان أهْوَنَ، ولو كانوا يَعْدِلُونَ بهذا وهذا لكان حقًا، أما كونهم يُريدُونَ حقَّهم كاملاً وَيَنْقُصُونَ حقَّ غيرهم فهو لاءِ هم الْمُطَفِّفُونَ الذين قَالَ اللهُ تعالى فيهم: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾. واعلم أن هذا على سبيل المثال -أعني: ذَكَرَ الكَيْلَ والوَزْنَ- وَلَا فِكْلٌ مَنْ كَانَ يُنْقِصُ حقَّ غيره وَيُطَالِبُ بحقه كاملاً فهو مِنَ الْمُطَفِّفِينَ، حتَّى في مسائل العلم، فلو أن شَخْصًا أَرَادَ أَنْ يُقَارَنَ بَيْنَ قَوْلَيْنِ، وَصَارَ يَنْصُرُ قَوْلَهُ وَيَأْتِي بالترجيحات الكثيرة لقوله، وهو مع ذلك يَهْضُمُ قولَ غيره، وَلَا يَعْرِضُهُ كما يَعْرِضُ قولَ نفسه، فهو مِنَ الْمُطَفِّفِينَ.

كذلك الْمُؤَظَّفُ الذي يَبْخُسُ الوظيفةَ حقَّها فيتأخَّرُ في الحضور، أو يَتَعَجَّلُ في الانصراف، أو لَا يُعْطِي العملَ حقَّه في حالِ تَلَبُّسه بالعمل، وهو مع ذلك لو نَقَصَ دِرْهَمٌ واحدٌ مِنْ رَاتِيهِ لَطَالَبَ به، فهذا أيضًا مِنَ الْمُطَفِّفِينَ.

فالضابطُ: أن الْمُطَفِّفَ هو: مَنْ يُريدُ حقَّه كاملاً، وَيَهْضُمُ حقَّ غيره.

❦ وقوله وَكَلَّ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾. يَظُنُّ بمعنى: يُوقِنُ؛ لأنَّ الظَّنَّ لَا يَكْفِي في باب الإيَّان، بل لَا بدَّ مِنَ اليقين، فكُلَّمَا جَاءَتْكَ كلمةُ «ظن» في أمرٍ يُطَلَّبُ فيه اليقينُ فالمرادُ بالظَّنِّ فيها هو اليقينُ، مثلُ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الزمر: ٣٢]. ﴿الْمُكَنَّنِ: ٥٣﴾. فالظَّنُّ هنا بمعنى: اليقين. فقوله: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾. إلَى آخره؛ يَعْنِي: أَلَا يُوقِنُ هَؤُلَاءِ.

وفي هذه الآية عَرَضٌ بمعنى: التوبيخ فـ«أَلَا» أداة عَرَضٍ، لكنها هنا بمعنى: التوبيخ.

❦ وقوله: ﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [١] يَوْمَ عَظِيمٍ. هو يومُ القيامة، و«مبعوثون» من البعث، وهو الإخراجُ والإرسالُ، وله عدةُ معانٍ.

❦ وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. هذا هو اليومُ العظيمُ، وهو يومُ البعثِ، يومُ يَقُومُ النَّاسُ كُلُّهُمْ مؤمنهم وكافرهم، صغيرهم وكبيرهم، برُّهم وفاجرهم، لربِّ العالمين الذي خلقهم وأماهم، ثم أحياهم.

وهذا فيه: التحذيرُ مِنَ التَّطْفِيفِ؛ لأنَّ هذا اليومَ العظيمَ يَلْقَى الْمُطَفِّفُ فيه جزاءه.

❦ وقوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾. هذا في سياقِ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا

مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَنَقَطَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٧﴾ [البقرة: ١٦٦]. الَّذِينَ اتَّبَعُوا هُمُ السَّادَةُ وَالْكِبَرَاءُ، الَّذِينَ يَتَّبِعُهُمْ أَتْبَاعُهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ يَتَّبِرُونَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِنْهُمْ الْمَعْبُودُونَ مَعَ الْعَابِدِينَ، فَإِنَّهُمْ يَتَّبِرُونَ مِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَرَأَوْا الْكَذَابَ وَنَقَطَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾. وَهَذَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

❦ وَقَوْلُهُ: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْوُصْلَاتُ فِي الدُّنْيَا». فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: الْمَوَدَّةُ. يَعْنِي: الْمَحَبَّةَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَالْوُصْلَاتُ تَنْقَطُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا؛ إِذْ إِنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِالتَّوَاصُلِ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بِغُضْفٍ عَلَيْهَا وَإِلَى الْمُتَّقِينَ الْوُصْلَةُ يَوْمَئِذٍ﴾ [البقرة: ١٦٧].



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٣١ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبَانَ، حَدَّثَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: «يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رُشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أَذُنَيْهِ»^(١).

٦٥٣٢ - حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ، عَنْ ثَوْرِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِي الْغَيْثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَعْرِقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ أَذَانَهُمْ»^(٢).

❦ قَوْلُهُ: «يَعْرِقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا» إِلَى آخِرِهِ. هَذِهِ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ؛ أَيْ: أَنْ يَخْرُجَ الْعَرَقُ مِنَ النَّاسِ بِهَذِهِ الْكَمِّيَّةِ الْكَبِيرَةِ، فَهُمْ يَعْرِقُونَ حَتَّى يَصِلَ عَلَى أَنْصَافِ الْأُذُنَيْنِ، وَحَتَّى يُلْجِمُهُمْ؛ يَعْنِي: يَصِلُ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ؛ لِأَنَّ الْإِلْجَامَ هُوَ مَكَانُ اللَّجَامِ مِنَ الْفَرَسِ، وَهُوَ الْقَمُ.

وَلَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ذَكَرَ أَعْلَى مَا يَكُونُ، وَإِلَّا فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ الْعَرَقُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَإِلَى حَقْوَيْهِ، وَيَخْتَلِفُ النَّاسُ فِي الْعَرَقِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ،

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٣).

ومَنهم مَن يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ.

ولا تَتَعَجَّبُ كيفَ يَكُونُ الناسُ في موقفٍ واحدٍ؛ أي: من كَوْنِ بعضُهم يَصِلُ العَرَقُ إلى أَذُنَيْهِ، وبعضُهم إلى كَعْبَيْهِ؛ لأنَّ أحوالَ يومِ القِيامَةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدُّنيا، فهي شيءٌ فوقَ التَّصَوُّرِ، وإذا كُنَّا في الدُّنيا مثلاً يُمْكِنُ أن يَقِفَ أربعةٌ، أو خَمسةٌ، أو عَشْرَةٌ، على مُدْرَجٍ في ماءٍ، فالذي في أعلى المَاءِ يَصِلُ إلى كَعْبَيْهِ، والذي في أسفل المُدْرَجِ يُمْكِنُ أن يُلْجِئَهُ المَاءُ وَيُعْطِيَهُ.

فهذا مَثَلٌ يَقْرُبُ لك المَسْأَلَةَ، مع أنَّا لا نَحْتَاجُ إلى التَّقْرِيبِ في مَثَلِ هذه الأُمُورِ؛ يَعْنِي: ليس بنا حَاجَةٌ تُلْحِقُ إلى أن نَعْرِفَ أن هذا شيءٌ مُمكِنٌ؛ لأنَّ أحوالَ الآخِرَةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدُّنيا، ولكنَّ ضَرْبَ المَثَلِ للتَّقْرِيبِ لا بِأَسَ به، كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا تُضَامُونَ في رُؤْيَيْهِ»^(١).

❖ وقولُه: «يَذْهَبُ عَرَقُهُمْ في الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِراعاً». الذِّراعُ هو: مِن رَأْسِ المِرْفَقِ إلى رَأْسِ الأَصْبُعِ الوُسْطَى، ومعلومٌ أن الناسَ يَخْتَلِفُونَ في الأحْجامِ، ولكنَّ المرادُ هنا: الوَسْطُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٤٨ - بابُ القِصَاصِ يَوْمَ القِيامَةِ، وَهِيَ الحَاقَّةُ؛ لِأَنَّ فِيهَا الثَّوَابَ وَحَوَاقِ الأُمُورِ، الحَقَّةُ وَالْحَاقَّةُ وَاحِدٌ، وَالْقَارِعَةُ وَالْغَاشِيَةُ وَالصَّاحَّةُ، وَالتَّغَابُنُ: غَبُنُ أَهْلِ الجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ.

❖ قولُه: «بابُ القِصَاصِ». القِصَاصُ هو: أَخَذُ الحَقِّ مِنَ الغَيْرِ على وَجْهِ المُقَاصَّةِ، وَيَكُونُ في الدِّمَاءِ، وَيَكُونُ في الأَمْوَالِ، وَيَكُونُ في الأَعْراضِ، قَالَ ﷺ: «إِنْ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالُكُمْ، وَأَعْراضُكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ»^(٢).

بل يَكُونُ - أي: القِصَاصُ - حَتَّى بَيْنَ البَهايمِ العُجْمِ؛ فَإِنَّهُ يُقْتَصُّ لِلشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ يَوْمَ القِيامَةِ، فَهُوَ يَوْمُ القِصَاصِ وَيَوْمُ العَدْلِ.

❖ وقولُه: «يَوْمَ القِيامَةِ». لِأَنَّهُ يَقُومُ فِيهِ الناسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ العَالَمِينَ، وَيَقُومُ فِيهِ الأَشْهادُ، وَيَقَامُ فِيهِ العَدْلُ.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩).

❖ وقوله: «الحاقَّةُ»؛ لأنَّ فيها الثَّوابَ، وحواقَّ الأمور. الحاقَّةُ؛ أي: إنها تَحِقُّ فيها الأشياءُ، وَيَذْهَبُ كُلُّ باطلٍ، فليس في الآخرةِ إِلَّا الشَّيْءُ الثَّابِتُ الحَقُّ، فليس فيها لَعِبٌ، ولا هَزْءٌ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الحاقَّةَ أي: التي تَحِقُّ على النَّاسِ، يَعْنِي: أَنها تَأْتِيهِمْ على وَجْهِ حَقِيقِي لَيْسَ فِيهِ مِرْيَةٌ وَلَا كَذِبٌ.

❖ وقوله: «والقارعةُ»؛ لأنها تَفْرَعُ النَّاسَ، والقارعةُ هي: كل ما يُصِيبُ الإنسانَ من مصيبةٍ. وأما الغاشيةُ فهي التي تَغْشَى النَّاسَ، يعني: تَغْطِيهِمْ، والمرادُ: أَنها تَغْطِيهِمْ على وَجْهِ الفزعِ. وأما الصاخةُ فهي: التي يَكُونُ فِيها الصَّوْتُ العَظِيمُ الَّذِي يُصِيبُ الْأَذَانَ وَيَصْخُها. ❖ وقوله: «التَّغَابُنُ». غَبْنُ أَهْلِ الجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ. ذَلِكَ لِأَنَّ التَّغَابُنَ مِنَ الْغَبْنِ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ يَوْمُ التَّغَابُنِ، أَمَّا الدُّنْيَا فَلَيْسَ فِيها غَبْنٌ إِلَّا فِي مَسْأَلَتَيْنِ فَقَطْ ذَكَرَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ وهما: صَاحِبٌ عِلْمٍ يَشْرُ عِلْمَهُ وَيَدْعُو بِهِ النَّاسَ، وَصَاحِبٌ مَالٍ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. أَمَّا الْقُصُورُ الْمُشِيدَةُ، وَالْمَرَائِبُ الْفَخْمَةُ، وَالنِّسَاءُ الْجَمِيلَاتُ، وَالْأَوْلَادُ النَّبَهَاءُ وَالْأَذْكِيَاءُ، فَهَذَا لَيْسَ غَبْنًا أَبَدًا، بَلِ الْغَبْنُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَغْبِنُ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَهْلَ النَّارِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الأنعام: ٢١].

فَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ رَجُلٍ مُتَرَفٍّ مُنْعَمٍ، عِنْدَهُ مِنْ أَصْنَافِ التَّرَفِ مَا لَا يُحْصَى، وَبَيْنَ شَخْصٍ آخَرَ مُعَذَّبٍ، إِلَّا إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ: ﴿وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾. فَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَصْحَابَ الْغُرَفِ مِثْلَ مَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ الْغَابِرُ فِي الْأَفْقِ؛ يَعْنِي: أَنَّ لَهُمْ مَنَازِلَ عَالِيَةً مِثْلَ مَا تَرَى الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ الْمُضِيءُ الْغَابِرُ فِي الْأَفْقِ، فَإِنَّكَ تَرَاهُ شَيْئًا عَظِيمًا وَرَفِيعًا فِيهِ دَرَجَاتٌ عَظِيمَةٌ، وَلِهَذَا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ دَرَجَاتُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَنَالُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(١). يَعْنِي: يَنَالُونَ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ، فَلَيْسَتْ خَاصَّةً بِالْأَنْبِيَاءِ.

قَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِ هَذِهِ التَّرْجِمَةِ:

❖ قوله: «بَابُ كَيْفِيَةِ الْقِصَاصِ». بِكسْرِ الْقَافِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَهِيَ أَي: يَوْمُ الْقِيَامَةِ

الحاقَّة؛ لأن فيها ثواب وحواق الأمور.

الحَقَّة والحاقَّة بفتح الحاء المهملة وتشديد القاف بالكلِّ، واحدٌ في المعنى، قاله الفراء في معاني القرآن.

وقال غيره: الحاقَّة: التي يَحِقُّ وُقُوعُها، أو التي تَحِقُّ فيها الأمور؛ أي: تُعَرَفُ حقيقتها، أو تَقَعُ حواقُّ الأمور من الحسابِ والجَزَاءِ مجازًا.

والقَارِعَةُ من أسماء يوم القيامة أيضًا؛ لأنها تَقْرَعُ القُلُوبَ بأهوالها.

وكذا من أسمائها: الغاشية؛ لأنها تَغْشَى الناسَ بشدائدها.

والصاخَّة مأخوذة من قوله: صَخَّ فلانٌ فلانًا إذا أَصَمَّهُ. وَسُمِّيَتْ بذلك؛ لأن صِيحَةً

القيامة مُسَمَّاةٌ لأُمُورِ الآخرة، ومُصَمَّاةٌ عن أُمُورِ الدنيا. اهـ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٣٣- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنِي شَقِيقٌ، سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ» ^(١).

[الحديث ٦٥٣٣- طرفه في: ٦٨٦٤].

❦ قوله: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ». وذلك لأن الدِّمَاءَ هي أعظمُ العُدُوانِ، فَقَتْلُ النَّفْسِ أعظمُ ما يَكُونُ فهو أعظمُ مِنَ الزَّنا؛ يَعْنِي: أعظمُ مِنَ الاعتداءِ على العِرْضِ، وإن كان الزَّنا أعظمُ مِنَ القَتْلِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى.

فمثلاً: القَتْلُ يَثْبُتُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ، وَالزَّنا لَا يَثْبُتُ إِلَّا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ.

كذلك القَدْفُ بِالزَّنا مُوجِبٌ لِلْحَدِّ، فَلَوْ قُلْتُ لِشَخْصٍ: يَا زَانِي. فإِذَا أَنْ تَقِيمَ بَيِّنَةً، أَوْ يُقَرَّرَ الْمُقْدُوفُ، أَوْ تُجْلَدَ ثَانَيْنِ جُلْدَةً.

وَلَوْ قَدَفْتَ إِنْسَانًا بِالْقَتْلِ فَقُلْتَ لَهُ: يَا قَاتِلُ، فَإِنَّكَ لَا تُحَدُّ.

فكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أعظمُ مِنْ وَجْهِ، لَكِنَّ الْحِكْمَةَ فِي أَنَّهُ لَا بَدَّ فِي شَهَادَةِ الزَّنا مِنْ أَرْبَعَةِ رِجَالٍ هِيَ: الحِفاظُ على الأَعْراضِ مِنَ التَّدْنِيسِ.

وكذلك الْحِكْمَةُ مِنْ كَوْنِ الْقَاذِفِ بِالزَّنَا يُجْلَدُ، وَالْقَاذِفِ بِالْقَتْلِ وَشَبْهِهِ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَعَاصِي لَا يُجْلَدُ: أَنَّ الْقَذْفَ بِالزَّنَا مُفْسِدٌ لِلسَّمْعَةِ وَالسُّلُوكِ بَيْنَ النَّاسِ بِخِلَافِ الْقَذْفِ بِالْقَتْلِ. وَقَوْلُهُ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ». هَذَا فِي حُقُوقِ الْعِبَادِ، أَمَا فِي حُقُوقِ اللَّهِ فَإِنْ أَوَّلَ شَيْءٍ يُقْضَى فِيهِ مِنْهَا هُوَ الصَّلَاةُ^(١).



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٣٤ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ سَعِيدِ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ تَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ».

قَوْلُهُ: «مَظْلَمَةٌ». يَعْنِي الْمَظْلَمَةَ فِي الدِّمِ وَفِي الْمَالِ وَفِي الْعَرَضِ.

وَالْتَحَلَّلُ يَكُونُ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يُبَيِّحَهُ الْمَظْلُومُ وَيُسْقِطَ حَقَّهُ.

وَأِمَّا أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ مَظْلَمَتَهُ.

فَمَثَلًا: لَوْ أَنَّ شَخْصًا سَرَقَ مِنْ إِنْسَانٍ دِرَاهِمَ، ثُمَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَتَابَ، فَلَا بَدَّ أَنْ يُؤَدِّيَ هَذِهِ الدِّرَاهِمَ إِلَى صَاحِبِهَا، وَلَكِنْ هَلْ يَقُولُ: هَذِهِ دِرَاهِمُ سَرَقْتُهَا مِنْكَ، وَأَنَا الْآنَ تَائِبٌ. أَوْ يَقُولُ: هَذِهِ دِرَاهِمُ فِي ذِمَّتِي لَكَ. أَوْ يُرْسِلُهَا مَعَ شَخْصٍ ثِقَةٍ، وَلَا يُبَيِّنُ نَفْسَهُ.

نَقُولُ: لَا شَكَّ أَنَّ الصَّرَاحَةَ أَنْ يَقُولَ: أَنَا سَرَقْتُهَا وَقَدْ تَبْتُ؛ وَلِذَلِكَ رَبِّهَا يَقُولُ لَهُ صَاحِبُ الْحَقِّ: مَا دِمْتَ قَدْ تَبْتَ وَجِئْتَ مُعْتَدِرًا فَهِيَ لَكَ. وَرَبِّهَا يَسْجُنُهُ وَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ سَرَقْتَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا.

فَنَقُولُ: إِذَا خَافَ الْإِنْسَانُ مِنْ تَعْذِيبٍ أَوْ سِجْنٍ، فَأَرْسَلَهَا مَعَ ثِقَةٍ أَوْ أَرْسَلَهَا فِي الْبَرِيدِ مَثَلًا، فَتَرَجُّو أَنْ تَبْرَأَ ذِمَّتُهُ بِهَذَا الشَّيْءِ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ وَصَلَ إِلَى صَاحِبِهِ.

وَلَكِنْ أَحْيَانًا يَنْسَى الْمَظْلُومُ فَمَاذَا يَصْنَعُ؟

نَقُولُ: يَتَصَدَّقُ بِهِ عَنْهُ؛ يَعْنِي: يَتَصَدَّقُ بِهِ عَنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَظْلُومِ وَتَبْرَأَ ذِمَّتُهُ، ثُمَّ إِنْ

جَاءَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ، أَوْ وَجَدَهُ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَعَلِيهِ أَنْ يُخَيَّرَهُ، فَيَقُولَ لَهُ: إِنَّ فِي ذِمَّتِي لَكَ دِرَاهِمٌ، وَلَكِنِّي عَجَزْتُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْكَ وَتَصَدَّقْتُ بِهَا عَنْكَ، فَإِنْ أَمْضَيْتَهَا فَهِيَ لَكَ، وَإِنْ لَمْ تَمْضِهَا فَهِيَ لِي وَهَذَا عَوْضُهَا.

وَإِذَا كَانَ كَافِرًا؛ أَي: أَنَّهُ سَرَقَ مِنْ كَافِرٍ فِي شَرَكَةٍ مِثْلًا، ثُمَّ ذَهَبَ هَذَا الْكَاسِرُ وَلَا يَدْرِي مَحَلَّهُ، فَهَلْ يَتَصَدَّقُ بِهَا عَنْهُ؟

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: يَتَصَدَّقُ بِهَا عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ رَبِّهَا يُسَلِّمُ فَتَنْفَعُهُ الصَّدَقَةُ، وَقَدْ يُعَارِضُ هَذَا بَأْنَ الْأَصْلَ بِقَاوُهِ عَلَى الْكُفْرِ، وَالْمُسْتَقْبَلُ لَا نَعْلَمُهُ، وَحِينَئِذٍ يَتَصَدَّقُ بِهَا بِغَيْرِ نِيَّةٍ أَنْ تَكُونَ لِصَاحِبِهَا، أَوْ نُعْطِيهَا الْحَاكِمُ الشَّرْعِيُّ أَوْ مَأْمُورَ بَيْتِ الْمَالِ، إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَأْمُورٌ، وَنَسَلِمُ مِنْهَا.



ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ بِحَلَّتْهُ:

٦٥٣٥- حَدَّثَنِي الصَّلْتُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الْأَنْعَامُ: ٤٣]. قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي الْمُتَوَكِّلِ النَّاجِيِّ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيَجْسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أَذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

هَذَا الْقِصَاصُ الْمَذْكُورُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ يُشْكِلُ عَلَيْهِ أَنْ هُنَاكَ قِصَاصًا سَابِقًا قَبْلَ الْعُبُورِ عَلَى الصِّرَاطِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَخْلُصُونَ مِنَ النَّارِ وَيَنْجُونَ مِنْهَا بِعُبُورِهِمْ عَلَى الصِّرَاطِ، ثُمَّ يُوقَفُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ كَمَا قَالَ: «بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ». وَالْقَنْطَرَةُ: الْجِسْرُ. فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ: هَذَا الْقِصَاصُ تَكَرَّرَ لِلأُولَى. أَوْ يُقَالُ: إِنْ الْمَرَادُ بِالْقِصَاصِ هُنَا تَنْقِيَةُ قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِلِّ؛ حَتَّى يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَيْسَ فِي قُلُوبِ أَحَدِهِمْ غِلٌّ عَلَى أَحَدٍ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقِصَاصَ وَإِنْ تَمَّ فَإِنَّهُ سَيَقِي فِي الْقَلْبِ شَيْءٌ مِنْ أَجْلِ الْجِنَايَةِ الْأُولَى؛ يَعْنِي: أَنَّ الْمَجْنِيَّ عَلَيْهِ وَإِنْ اقْتَصَّ لَهُ فَسَيَظَلُّ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ عَلَى الْجَانِي. فَيَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْقِصَاصِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ الْعُبُورِ عَلَى الصِّرَاطِ التَّنْقِيَةُ؛ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾.

❖ وَقَوْلُهُ: «لَا أَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا». هَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَلَيْسَ بِغَرِيبٍ، فَهَذَا الصَّبِيُّ يُولَدُ وَيَهْتَدِي إِلَى الثَّدِيِّ بِدُونِ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، فَكَذَلِكَ

الإنسانُ في الجَنَّةِ إذا دَخَلَ الجَنَّةَ - نَسَأَلَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وإياكم منهم - فإنه يَهْتَدِي إلى مَنْزِلِهِ بدُونِ دَلَالَةٍ. واللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رحمته الله تعالى في «الفتح» (٣٩٩/١١):

❦ قوله: «فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ». سَيَأْتِي أَنَّ الصِّرَاطَ جِسْرٌ مَوْضُوعٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ وَرَاءَ ذَلِكَ، فَيَمُرُّ عَلَيْهِ النَّاسُ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ النَّاجِي، وَهُوَ مَا زَادَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ أَوْ اسْتَوَى أَوْ تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ، وَمِنْهُمْ السَّاقِطُ وَهُوَ مَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ إِلَّا مَنْ تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُ، فَالسَّاقِطُ مِنَ الْمُؤَخَّرِينَ يُعَذَّبُ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُخْرَجُ بِالشَّفَاعَةِ وَغَيْرِهَا، وَالنَّاجِي قَدْ يَكُونُ عَلَيْهِ تَبَعَاتٌ وَلَهُ حَسَنَاتٌ تَوَازِيهَا أَوْ تَزِيدُ عَلَيْهَا، فَيُؤْخَذُ مِنَ حَسَنَاتِهِ مَا يَعْدِلُ تَبَعَاتِهِ فَيَخْلُصُ مِنْهَا.

وَاخْتَلَفَ فِي الْقَنْطَرَةِ الْمَذْكُورَةِ.

فَقِيلَ: هِيَ مِنْ تَتِمَّةِ الصِّرَاطِ، وَهِيَ طَرَفُهُ الَّذِي يَلِي الْجَنَّةَ.

وَقِيلَ: إِنَّمَا صِرَاطَانِ.

وَبِهَذَا الثَّانِي جَزَمَ الْقُرْطُبِيُّ.

وَسَيَأْتِي صِفَةُ الصِّرَاطِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْحَدِيثِ الَّذِي فِي «بَابِ: الصِّرَاطُ جِسْرٌ جَهَنَّمَ» فِي

أَوَاخِرِ «كِتَابِ الرِّقَاقِ».

❦ قوله: «فَيَقْتَصَّرُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ». بَضْمٌ أَوَّلُهُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ لِلْأَكْثَرِ، وَفِي رَوَايَةِ الْكَشْمِيهَنِيِّ بَفَتْحٍ أَوَّلُهُ، فَتَكُونُ اللَّامُ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ زَائِدَةً، أَوِ الْفَاعِلُ مَحْذُوفٌ وَهُوَ اللهُ، أَوْ مَنْ أَقَامَهُ فِي ذَلِكَ.

وَفِي رَوَايَةِ شَيْبَانَ: «فَيَقْتَصَّرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ».

❦ قوله: «حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا». بَضْمُ الْهَاءِ، وَبَضْمُ النُّونِ، وَهُمَا بِمَعْنَى التَّمْيِيزِ

وَالْتَخْلِيسِ مِنَ التَّبَعَاتِ.

❦ قوله: «أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ. هَذَا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ مَرْفُوعٌ كُلُّهُ، وَكَذَا فِي سَائِرِ الرِّوَايَاتِ، إِلَّا فِي رَوَايَةِ عَفَانَ عِنْدَ الطَّبْرِيِّ، فَإِنَّهُ جَعَلَ هَذَا مِنْ كَلَامِ قَتَادَةَ، فَقَالَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ». قَالَ: وَقَالَ قَتَادَةُ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى إِلَى آخِرِهِ.

وَفِي رَوَايَةِ شُعَيْبِ بْنِ إِسْحَاقَ بَعْدَ قَوْلِهِ: «فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ». قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِلَى

آخِرِهِ. فَأَبْتَهُمُ الْقَائِلَ.

فَعَلَى رَوَايَةِ عَفَانَ يَكُونُ هُوَ قِتَادَةٌ، وَعَلَى رَوَايَةِ غَيْرِهِ يَكُونُ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ. أَهـ
يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يَضُرُّ، يَعْنِي: كَوْنُ الرَّوَايَةِ يَرْفَعُ الْحَدِيثَ أحيانًا وَيُوقِفُهُ أحيانًا
لَا يُعَدُّ هَذَا اضْطِرَابًا فِي النَّقْلِ، وَلَا ضَعْفًا فِي الْحَدِيثِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّوَايَةَ إِذَا تَأَكَّدَ فِي الْحَدِيثِ
فَقَدْ يَقُولُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، كَمَا لَوْ قُلْتُ لَكَ مِثْلًا: مَنْ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا مُرَاتِبًا بِذَلِكَ فَإِنَّهُ يُحْبِطُ
عَمَلُهُ، إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرَأٍ مَا نَوَى. مَعَ أَنِّي رَبِّمَا أَسُوْقُ هَذَا الْحَدِيثَ مُسْنَدًا إِلَى
الرَّسُولِ ﷺ مَرْفُوعًا، فَيَكُونُ قَوْلِي الْأَوَّلُ غَيْرَ مُعَارِضٍ لِإِسْنَادِي لِلْحَدِيثِ.

فَكُونُ قِتَادَةٍ كَانَ أحيانًا يَذْكُرُهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، وَأحيانًا يَذْكُرُهُ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ لَا يُؤَثِّرُ.
عَلَى كُلِّ حَالٍ: سَبَقَ لَنَا أَنَّ هَذَا الْاِقْتِصَاصُ اقْتِصَاصُ يُرَادُ بِهِ التَّهْذِيبُ وَالتَّنْقِيَةُ، وَإِزَالَةُ مَا
فِي الْقُلُوبِ مِمَّا بَقِيَ مِنَ الْأَحْقَادِ وَالضَّغَائِنِ، أَمَا الْاِقْتِصَاصُ الَّذِي هُوَ الْمُجَازَاةُ فَإِنَّهُ يَسْبِقُ
الْعُبُورَ عَلَى الصِّرَاطِ.

أَمَا هَذِهِ الْقَنْطَرَةُ: فَهَلْ هِيَ مُسْتَقِلَّةٌ أَوْ هِيَ طَرَفُ الصِّرَاطِ؟
فَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَكِنْ ظَاهِرُ التَّنْكِيرِ فِي قَوْلِهِ: «عَلَى قَنْطَرَةٍ» أَنَّهَا قَنْطَرَةٌ خَاصَّةٌ، وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْمَعْنَى
الْمَعْقُولِ فَإِنَّا نَقُولُ: هَذِهِ الْقَنْطَرَةُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تَكُونُ؟! فَالَّذِي يُرْجِّحُهُ الْعَقْلُ أَنَّهَا طَرَفُ الصِّرَاطِ؛
أَيُّ: إِنَّهُ يَكُونُ مَمْتَدًّا مُتَجَاوِزًا لِمَحَاذَةِ النَّارِ، فَيُوقِفُونَ عِنْدَ طَرَفِهِ.



ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤٩ - بَابُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذْبَ.

٦٥٣٦ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ الْأَسْوَدِ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ
عَائِشَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذْبَ». قَالَتْ: قُلْتُ: أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:
﴿نَسُوفَ يَحْأَسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]. قَالَ: ذَلِكَ الْعَرْضُ (١).

حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ الْأَسْوَدِ، سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي
مُلَيْكَةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ ... مِثْلَهُ.

وَتَابِعَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ، وَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمٍ، وَأَبُو بَرْزَاءٍ، وَصَالِحُ بْنُ رُسْتَمٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

٦٥٣٧- حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ أَبِي صَغِيرَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، حَدَّثَنِي الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنِي عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كَيْفَ بَيَّيْنَهُ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-٨]. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكَ ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا أَعْدَبَ»^(١).

هذا الحديث طُرْفُهُ تَدُلُّ عَلَى إثْبَاتِ الْحِسَابِ، وَأَنَّ اللَّهَ ﷻ يُحَاسِبُ الْخَلَائِقَ، لَكِنَّ الْحِسَابَ نَوْعَانِ:

○ حسابٌ مناقشة.

○ وحسابٌ عَرْضٍ.

فحسابُ العَرْضِ: أَنْ يُقَالَ: أَلَمْ تَعْمَلْ كَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا؟ أَلَمْ تَعْمَلْ كَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا؟ حَتَّى يُقَرَّرَ بِذُنُوبِهِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: «إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(٢). فَهَذَا حِسَابُ الْعَرَضِ؛ أَيُّ: أَنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ عَمَلُهُ فَقَطْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْفُو عَنْهُ، وَهَذَا هُوَ الْحِسَابُ الْيَسِيرُ.

أَمَّا النُّوعُ الثَّانِي: فَهُوَ حِسَابُ الْمُنَاقَشَةِ؛ أَيُّ: أَنْ يُنَاقَشَ الْإِنْسَانُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَوَقَّشَ فَسَوْفَ يُعَذَّبُ قَطْعًا؛ لِأَنَّكَ لَوْ أَرَدْتَ أَنْ تُقَابِلَ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ ﷻ عَلَيْكَ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكَ الصَّالِحَةِ لَرَجَحَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ وَبَقِيَتْ مُطَالِبًا؛ لِأَنَّ الْمُنَاقَشَةَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُحَاسَبُ بِمَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ، فَلَوْ نَاقَشْنَا اللَّهَ ﷻ الْحِسَابَ لَهَلَكْنَا؛ لِأَنَّ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِهِ تُطِيحُ بِجَمِيعِ أَعْمَالِنَا، بَلْ إِنْ أَعْمَلْنَا الصَّالِحَةَ نَفْسَهَا مِنَ النَّعْمِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْكُفَّارِ، ثُمَّ إِلَى الْفُسَّاقِ، ثُمَّ إِلَى الْعَصَاةِ، وَرَأَيْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِمَا لَيْسُوا عَلَيْهِ فَسَتَعَلَّمُ أَنَّ هَذِهِ نِعْمَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (١٢٩).

كَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ
وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَوْلُهُ:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةً اللَّهُ نِعْمَةً
عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

❖ فَقَوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «مَنْ نَوَقَشَ الْحَسَابَ عَذَّبَ». هَذَا هُوَ مَعْنَاهُ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُنَاقِشُهُ الصَّحَابَةُ فِيمَا يُشْكِلُ عَلَيْهِمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها نَاقَشَتِ النَّبِيَّ ﷺ بَكِتَابِ اللَّهِ.

وَهَذِهِ الْفَائِدَةُ تَتَفَرَّغُ عَنْهَا مَا هُوَ أَهَمُّ مِنْهَا، وَهُوَ: أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَدْعُوا شَيْئًا تَحْتَاجُ الْأُمَّةُ إِلَيْهِ إِلَّا تَبَيَّنُوا عَنْهُ، وَسَأَلُوا عَنْهُ، وَمَا لَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ فَهُوَ وَاضِحٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى سَوَالٍ، وَلَكِنْهُمْ - كَمَا قُلْتُ سَابِقًا - لَيْسُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْأُمُورِ الْكُونِيَّةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا نَادِرًا، وَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنِ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمِثْلُنَا لَذَلِكَ بِحَدِيثِ الدَّجَالِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الدَّجَالَ وَقَالَ: «إِنَّهُ يَمُكُّثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَسَنِيَّةً، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَأَسْبُوعٍ» ^(١). لَمْ يَسْأَلُوهُ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ وَإِنَّمَا سَأَلُوهُ عَنِ كَيْفِيَّةِ الصَّلَاةِ.

وَبِهِ نَعْرِفُ أَيْضًا ضَعْفَ الرِّوَايَةِ الَّتِي يَتَنَاقَلُهَا أَصْحَابُ الْبَلَاغَةِ تَحْتَ عُنْوَانٍ: أَسْلُوبُ الْحَكِيمِ. مِنْ أَنَّ الصَّحَابَةَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ: مَا بَالُ الْهَلَالِ يَبْدُو صَغِيرًا، ثُمَّ يَكْبُرُ، ثُمَّ يَعُودُ صَغِيرًا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ^(٢). فَالْبَلَاغِيُّونَ يَدْعُونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ سَأَلُوا الرَّسُولَ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ يَعْنِي: عَنْ صِغَرِهَا وَكِبَرِهَا. ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾. فَعَدَلَ اللَّهُ عَنْ جَوَابِ مَا سَأَلُوا إِلَى الْمَصْلَحَةِ الشَّرْعِيَّةِ؛ أَيُّ: أَنَّهَا مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ.

قَالُوا: هَذَا جَوَابُ السَّائِلِ بِهَا لَا يَتَوَقَّعُ. وَسَمُُّوا ذَلِكَ: أَسْلُوبَ الْحَكِيمِ. إِذْ لَوْ كَانَ الْجَوَابُ عَلَى وَفْقِ السَّوَالِ - إِنْ صَحَّ السَّوَالُ - لَكَانَ هُوَ: قُلْ هِيَ تَصْغُرُ كُلَّمَا دَنَتْ مِنَ الشَّمْسِ؛ لِأَنَّ الْهَلَالَ كُلَّمَا كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الشَّمْسِ كَانَ نُورُهُ أَقْلَ، وَكُلَّمَا بَعُدَ صَارَ نُورُهُ أَكْبَرَ؛ وَلِهَذَا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا بَعْدٌ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ صَارَ مَمْلُوءًا بِالنُّورِ، لَكِنْ هَذَا أَمْرٌ قَدَرِي لَيْسَ لَهُ دَخْلٌ فِي الشَّرْعِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢١٣٧).

(٢) انْظُرْ: «تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ» (١/ ٢٥٤).

ولكنَّ هذا الذي ادَّعاه البلاغيون غير صحيح، فلم يصحَّ أن هذا هو سبب النزول، إنما سبب النزول هو سؤال عن الحكمة منها. فبيَّن الله الحكمة من السؤال.

المهم: أن هذا الحديث فيه دليل على أن الصحابة كانوا يناقشون الرسول ﷺ فيما يُشكِّل عليهم، سواءً أشكل عليهم ابتداءً، أو أشكل عليهم بتنزيل آيات من القرآن عليهم.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٣٨ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَنَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. ح. وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ عُبَادَةَ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَنَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقَالُ لَهُ: قَدْ كُنْتَ سَأَلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ»^(١).

هذا الحديث من جملة المناقشة، وهذا الحديث فيه مناقشة، وفيه تنذير لهذا الكافر، فإنه يقال له: لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. وهذا واقع فالكل يُفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِمَا يَسْتَطِيعُ.

وقوله: «فَيَقَالُ لَهُ: قَدْ كُنْتَ سَأَلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ». أي: أن تؤمن بالله ورُسُلِهِ، وتُقيم الصلاة، وتأتي بشرائع الإسلام، وهي أمور سهلة، فحتى الزكاة التي هي حق السال لا تجب في كل مال، وإذا وجبت في مال فهو جزء يسير، والغالب أيضًا: أنها لا تجب إلا في الأموال النامية، وقد تجب في الأموال غير النامية كالذهب والفضة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٣٩ - حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، قَالَ: حَدَّثَنِي الْأَعْمَشُ قَالَ: حَدَّثَنِي خَيْثَمَةُ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيَّكَلُمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنْ

اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ^(١).

٦٥٤٠ - قَالَ الْأَعْمَشُ: حَدَّثَنِي عَمْرُو، عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ». ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ، ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ». ثُمَّ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ثَلَاثًا، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةً طَيِّبَةً».

هذا الحديث كالأول فيه الحساب، أن الله ﷻ يُكَلِّمُ الإنسان ليس بينه وبينه تُرْجُمَانٌ أي: بدون مُترَجِّم.

فلو سألنا سأل فقال: بأيِّ لُغَةٍ يُكَلِّمُهُم سبحانه؟

قلنا له: لَيْسَ عِنْدَكَ مَا وَسِعَ الصَّحَابَةُ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَسْأَلُوا بِأَيِّ لُغَةٍ إِلَّا أَنَّهُ لَا شَكَّ سَيُكَلِّمُهُ بِكَلَامٍ يَفْهَمُهُ، ولهذا قَالَ: «ليس بينه وبينه تُرْجُمَانٌ».

❖ وقوله: «ثم يَنْظُرُ فلا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ». وفي رواية عند مسلم: «فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فلا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فلا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ ثم يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ»؛ يَعْنِي: ينظر أمام وجهه فيرى النار.

❖ وقوله: «فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»؛ يَعْنِي: فليَفْعَلْ، وشِقُّ التمرة، يعني: نصفها.

وفي هذا: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ شِقَّ التمرة قَدْ يُنْجِي مِنَ النَّارِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا تَصَدَّقَ الْإِنْسَانُ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَوْ بِمَا يُعَادِلُ التمرة الواحدة أَخَذَهَا ﷻ بِيَمِينِهِ فَرَبَّاهَا ^(١) حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ، فَتَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ.

❖ وقوله: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكَلِمَةً طَيِّبَةً». هل المراد طيبة في ذاتها، أو في كيفية أدائها، أو في الأمرين جميعًا؟

الجواب: في الأمرين جميعًا، فهي كلمة طيبة في ذاتها، طيبة في أدائها؛ أي: تؤديها بِرَفْقٍ وَلِينٍ، وَابْتِسَامَةٍ وَانْشِرَاحٍ، فهذه أيضًا مما تُتَّقَى به النار.

وفي الحديث: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُكَلِّمُ عِبَادَهُ بِكَلَامٍ مَسْمُوعٍ، وَبَلُغَةٍ مَفْهُومَةٍ؛ لِقَوْلِهِ:

(١) أخرجه مسلم (١٠١٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

«يَكْلُمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ». والكلامُ هنا حَقِيقِيٌّ لَا مَجَازٍ، وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَأُئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ: أَنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ حَقِيقِيٍّ كَمَا شَاءَ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٠- بَابُ: يَدْخُلُ الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ.

٦٥٤١- حَدَّثَنَا عُمَرَانُ بْنُ مَيْسَرَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا حُصَيْنٌ. ح. وَحَدَّثَنِي أَسِيدُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، عَنْ حُصَيْنٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْعَشْرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ انْظُرِي إِلَى الْأَفْقِ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ. قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ. قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتُمُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فَقَامَ إِلَيْهِ عُكَّاشَةُ بْنُ مِخْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ قَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»^(١).

٦٥٤٢- حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ أَسِيدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا يُونُسُ، عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِخْصَنٍ الْأَسَدِيُّ يَرْفَعُ نِمْرَةً عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: «سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ»^(١).

٦٥٤٣- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَسَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ - شَكٌّ فِي

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠).

(١) أخرجه مسلم (٢١٦).

أَحَدِهِمَا - مُتَمَسِّكِينَ، أَخِذْ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَأَخِرُّهُمْ الْجَنَّةَ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ^(١).

في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الأول أن الرسول ﷺ عرضت عليه الأمم؛ يعني: مع أنبيائهم، فرأى من الأنبياء من معه أمة، ومنهم من معه دون ذلك، ورأى من ليس معه أحد.

وفي هذا: دليل على أنه لا ينبغي للداعية إلى دين الله إذا لم يتبعه أحد أن ييأس أو يقنط، أو يظن أنه ضاع عمله سدى، بل حتى ولو لم يتبعك أحد، فأنت على خير، وأنت مأجور، ولن يضيع عملك، بل ربما تكسب أجراً أكثر من جهة مشقة العمل؛ لأن الرجل إذا دعي فأجيب سهلته عليه الدعوة، ونشط، وصار الذين يحيونه يساعدونه، أما إذا كان يدعو ولا يجاب، وهو على حق، فإنه تصعب عليه الدعوة، فإذا صبر نال أجر الصابرين.

المهم: إذا كنت داعية ولم تجد استجابة، فلا تيأس، فإن هؤلاء الأنبياء وهم أفضل منك رآهم النبي ﷺ وليس معهم أحد.

وفيه: فضيلة هذه الأمة؛ لأن الرسول ﷺ رأى سواداً كثيراً فسأل جبريل: «هؤلاء أمتي؟ قال: لا». وفي رواية أخرى: «هذا موسى وقومه»^(٢)، فموسى ﷺ من أكثر الأنبياء أتباعاً، ثم قال: «ولكن انظر إلى الأفق. فنظرت فإذا سوادٌ كثير». وفي لفظ آخر: «فإذا سوادٌ عظيمٌ قد سدَّ الأفق. فقبل لي: هذه أمتك». وفائدة هذا اللفظ: أن هذه الأمة أكثر الأمم، ولا شك في أن هذه الأمة والله الحمد أكثر الأمم.

فإن قيل: كيف تكون أكثر الأمم والنصارى الآن أكثر من المسلمين؟

فالجواب: أن هؤلاء النصارى ليسوا على دين، فليسوا من أمة عيسى، وليسوا من أمة موسى، لأن دينهم الذي هم عليه الآن دين باطل منسوخ قد نسخته الله؛ أي: أبطله نفس الذي شرعه برسالة محمد ﷺ، وعلى هذا لا يكونون من أتباع عيسى، وعلى هذا أيضاً لا يكون أتباع عيسى أكثر من أتباع محمد ﷺ.

وفيه أيضاً: فضيلة هذه الأمة؛ لأن منهم سبعين ألفاً يدخلون الجنة من غير حساب ولا

(١) أخرجه مسلم (٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥).

عذاب، إذن فالحسابُ لا يَكُونُ عامًّا لجميع الناس بل في الناس مَنْ لا يُحاسب، ومنهم الأنبياء ومنهم هؤلاء الذين ذكّرهم الرسول ﷺ وهم الذين جَمَعُوا هذه الصفات وهي: أنهم لا يَكْتُونُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ.

❖ وقوله: «لا يَكْتُونُونَ». يَعْنِي: لا يَطْلُبُونَ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يَكُوِيَهُمْ، وليس المعنى: لا يَكُونُونَ غَيْرَهُمْ، أو لا يَكُونُونَ أَنْفُسَهُمْ إذا كان منهم مَنْ يُحَسِّنُ الْكَيَّ، فَإِنْ مَنْ يُحَسِّنُ الْكَيَّ قَدْ يَكُوِي نَفْسَهُ أو يَكُوِي غَيْرَهُ، لكن المراد: أنهم لا يَكْتُونُونَ؛ يعني: لا يَطْلُبُونَ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يَكُوِيَهُمْ؛ لأنهم يَعْتَمِدُونَ عَلَى اللَّهِ، ولا يُجِبُونَ أَنْ يَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا، أو أَنْ يُذِلُّوا أَنْفُسَهُمْ بِسُؤَالِ النَّاسِ.

❖ وقوله: «لا يَسْتَرْقُونَ». أَي: لا يَطْلُبُونَ أَحَدًا يَرْقِيهِمْ، وليس المعنى: أنهم لا يَرْقُونَ غَيْرَهُمْ. ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: إن رواية مسلم: «لا يَرْقُونَ» ^(١) روايةٌ غَيْرُ صَحِيحَةٍ؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَرْقِي غَيْرَهُ، بل معنى قوله: «لا يَسْتَرْقُونَ» أَي: لا يَطْلُبُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ أَنْ يَرْقَاهُمْ.

ولكن لو مَكَّنُوا مَنْ يَرْقَاهُمْ عَلَيْهِمْ: فَهَلْ يَخْرُجُونَ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ، كَأَنْ يَحْضَرَ رَجُلٌ إِلَى مَرِيضٍ وَيَقُولُ لَهُ: أُرِيدُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ فَمَكَّنَهُ الْمَرِيضُ فَهَلْ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ؟
الجواب: لا يَخْرُجُ؛ لأنه لم يَسْتَرْقِ ولم يَطْلُبِ الرُّقِيَّةَ.

❖ وقوله: «ولا يَتَطَيَّرُونَ». يَعْنِي: لا يَتَشَاءَمُونَ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ التَّشَاؤْمِ بِالتَّطَيُّرِ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ تَشَاؤُمِ الْعَرَبِ كَانَ بِالطَّيْرِ، وَإِلَّا فَهَمَّ يَتَشَاءَمُونَ بِكُلِّ مَعْلُومٍ: مِنْ زَمَانٍ، أَوْ مَكَانٍ، أَوْ أَشْخَاصٍ، أَوْ صِفَاتٍ فَالْعَرَبُ كَانُوا جَهْلَةً يَتَطَيَّرُونَ بِكُلِّ شَيْءٍ إِنْ رَأَوْا طَيْرًا أَسْوَدَ قَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ أَسْوَدَ لَا سَعَادَةَ فِيهِ إِطْلَاقًا، إِذَا رَأَوْا طَيْرًا أَيْضَ قَالُوا: الْيَوْمُ يَوْمُ النُّورِ وَيَوْمُ الْبَيَاضِ. مَعَ أَنَّ هَذَا مَالَهُ أَصْلٌ، نَعَمْ التَّفَاوُلُ شَيْءٌ طَيِّبٌ، وَلَكِنَّ التَّفَاوُلَ بِمَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَهُمْ، فَقُولُ: أَنَّ التَّطَيُّرَ هُوَ: التَّشَاؤُمُ بِمَعْلُومٍ مِنْ مَرْتَبٍ أَوْ مَسْمُوعٍ، أَوْ زَمَانٍ، أَوْ مَكَانٍ. وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ الْمُتَطَيِّرِينَ دَائِمًا فِي قَلْقٍ وَلَأَنَّ الْمُتَشَاءِمَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا تَشَاءَمَ بِهِ، أَمَّا الْمُعْتَمِدُونَ الْمُتَوَكِّلُونَ الْمُتَفَائِلُونَ فَنَجِدُهُمْ دَائِمًا فِي سُرُورٍ وَسَعَادَةٍ.

❖ وقوله: «وعلى ربهم يَتَوَكَّلُونَ». يَعْنِي: أَنْ تَوَكَّلَهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى رَبِّهِمْ لَا عَلَى غَيْرِهِ، وَقُلْنَا: لَا عَلَى غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، وَأَخَذْنَا «لَا عَلَى غَيْرِهِ» مِنْ تَقْدِيمِ الْمَعْمُولِ؛

لأن المعمول حقه التأخير فإذا قُدِّمَ أفادَ الحَصْرَ، يعني: على ربهم لا على غيره.
ولكن ليس مُقْتَضَى التوكُّل أن تدع الأسبابَ، بل افعَلِ الأسبابَ ولا تعتمدُ عليها بل اعتمدْ على مُسَبِّبِ الأسبابِ وَعَلَى اللَّهِ، واتخذِ الأسبابَ على أنها سببٌ فقط.

❖ وقوله: «فقام عكاشةُ بنُ محصنٍ فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم». قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». وفي لفظ: «أنتَ مِنْهُمْ». وهذا من مناقبه وَمِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ له أن سبقَ وبادرَ بطلبِ أن يكونَ منهم فكانَ منهم.

❖ وقوله: «ثم قام إليه رجلٌ آخرُ قال: ادعُ الله أن يجعلني منهم». قَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ». وإنما قالَ له النبي ﷺ ذلك؛ لأنه أرادَ أن يسدَّ البابَ؛ لئلا يقومَ من لا يستحقُّ أن يُشهدَ له بذلك.

❖ قوله: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ». قد صارَ مثلاً في كلِّ مَنْ طلبَ شيئاً قد فاتهُ فيقالَ له: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ. وبناءً على هذا الحديثِ نُشهدُ لعكاشةَ بنِ محصنٍ أنه من الذين يدخلون الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ، بدونِ أن نَسألَ عن عمله لأنه قد شهدَ له الرسولُ ﷺ بذلك.

❖ وقوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الثاني: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضَيُّ وَجُوهُهُمْ إضاءةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». فيه أيضاً مُنْقَبَةٌ لهؤلاءِ، وأنهم بالإضافة إلى أنهم يَدْخُلُونَ الجنةَ بلا حسابٍ؛ فإنهم تُضَيُّ وَجُوهُهُمْ إضاءةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وهذا يدلُّ على أنها مضيئةٌ وتُشعُّ نوراً كالقَمَرِ.

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو حَجْرٍ فِي شَرْحِ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ فِي «الْفَتْحِ» (٤٠٨/١١):

❖ قوله: «هؤلاءِ أُمَّتُكَ وهؤلاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّاهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ». وفي روايةٍ سعيد بن منصورٍ: معهم بدلٌ: «قَدَّاهُمْ». وفي روايةٍ حُصَيْنِ بنِ ثَمِيرٍ: «وَمَعَ هَؤُلَاءِ». وكذا في حديثِ ابنِ مَسْعُودٍ.

والمرادُ بالمعية: المعنويةُ، فإن السبعين ألفاً المذكورين من جملةِ أُمَّتِهِ، لكن لم يَكُونُوا في الدين عَرَضُوا إِذْ ذَاكَ، فأريدُ الزيادةَ في تكثيرِ أُمَّتِهِ بإضافةِ السبعين ألفاً إليهم.

وقد وقعَ في روايةِ ابنِ فضالٍ: وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بغيرِ حسابٍ. وفي روايةٍ عبثٍ بنِ القاسمِ: «هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا». وبالإشارةِ بهؤلاءِ إلى الأُمَّةِ؛ لا إلى خُصُوصٍ من عَرَضٍ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «مَعَ» بمعنى

«مَنْ» فَتَأْتِلُ الرِّوَايَاتُ.

❖ قَوْلُهُ: «قُلْتُ وَلَمْ». يَكْسِرُ اللَّامَ وَفَتْحَ الْمِيمِ، وَيَجُوزُ إِسْكَانُهَا، يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنْ السَّبَبِ. وَقَعَ فِي رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ وَشُرَيْحٍ عَنْ هُثَيْمٍ: ثُمَّ نَهَضَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ». وَفِي رِوَايَةٍ عَبَثَ فَدَخَلَ وَلَمْ يَسْأَلُوهُ وَلَمْ يَفْسَرْ لَهُمُ وَالْبَاقِي نَحْوَهُ. وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ الْفُضَيْلِ: «فَأَفَاضَ الْقَوْمُ، فَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِي آمَنَّا بِاللَّهِ، وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ، فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّا وَلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ فَخَرَجَ فَقَالَ...» وَفِي رِوَايَةِ حُسَيْنِ بْنِ نَمِيرٍ: «فَقَالُوا: أَمَّا نَحْنُ فَوَلِدْنَا فِي الشَّرْكِ، وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَانُنَا».

وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ: «قَالَ بَعْضُنَا: هُمُ الشَّهَدَاءُ». وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «مَنْ رَقَّ قَلْبُهُ لِلْإِسْلَامِ».

❖ وَقَوْلُهُ: «لَا يَكْتُونُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». اتَّفَقَ عَلَى ذِكْرِ هَذِهِ الْأَرْبَعِ مَعْظَمُ الرِّوَايَاتِ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ الْبَعْضِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَكَذَا فِي حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ، وَفِي لَفْظٍ لَهُ سَقَطَ «وَلَا يَتَطَيَّرُونَ» هَكَذَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَفِي حَدِيثِ جَابِرِ الدَّيْنِ أَشْرَتْ إِلَيْهِمَا بِنَحْوِ الْأَرْبَعِ.

وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «وَلَا يَرْقُونَ» بَدَلًا مِنْ «وَلَا يَكْتُونُونَ». وَقَدْ أَنْكَرَ الشَّيْخُ تَقِي الدِّينَ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ هَذِهِ الرِّوَايَةَ وَزَعَمَ أَنَّهَا غَلَطٌ مِنْ رَاوِيهَا، وَاعْتَلَّ بِأَنَّ الرَّاقِيَ يَحْسُنُ إِلَى الَّذِي يَرْقِيهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ مَطْلُوبًا بِالتَّرْكِ وَأَيْضًا فَقَدْ رَقَى جَبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، وَرَقَى النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ، وَأَذَنَ لَهُمْ فِي الرَّقَى وَقَالَ: «مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ» وَالنَّفْعُ مَطْلُوبٌ. قَالَ: وَأَمَّا الْمُسْتَرْقِي فَإِنَّهُ يَسْأَلُ غَيْرَهُ، وَيَرْجُو نَفْعَهُ، وَتِمَامُ التَّوَكُّلِ يَنَافِي ذَلِكَ.

قَالَ: وَإِنَّمَا الْمُرَادُ وَصْفُ السَّبْعِينَ بِتِمَامِ التَّوَكُّلِ، فَلَا يَسْأَلُونَ غَيْرَهُمْ أَنْ يَرْقِيَهُمْ، وَلَا يَكُونُهُمْ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ مِنْ شَيْءٍ.

وَأَجَابَ غَيْرُهُ بِأَنَّ الزِّيَادَةَ مِنَ الثِّقَةِ مَقْبُولَةٌ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ حَافِظٌ، وَقَدْ اعْتَمَدَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وَاعْتَمَدَ مُسْلِمٌ عَلَى رِوَايَتِهِ هَذِهِ وَبَأَنَّ تَغْلِيظَ الرَّوَايِ مَعَ إِمْكَانِ الزِّيَادَةِ لَا يَصَارُ إِلَيْهِ.

والمعنى الذي حمّله على التغليط موجود في المسترقي؛ لأنه اعتلّ بأن الذي لا يطلب من غيره أن يرقيه تام التوكل، فكذلك يقال له والذي يفعل غيره به ذلك ينبغي ألا يُمكنه منه؛ لأجل تمام التوكل، وليس في وقوع ذلك من جبريل دلالة على المُدّعى، ولا في فعل النبي ﷺ له أيضًا دلالة؛ لأنه في مقام التشريع وتبيين الأحكام ^(١).

ويمكن أن يقال: إنما ترك المذكورون الرُقي والاسترقاء حسماً للمادة؛ لأن فاعل ذلك لا يأمن أن يكل نفسه إليه، وإلا فالرقية في ذاتها ليست ممنوعة، وإنما مُنعت منها ما كان شركاً، أو احتمله، ومن ثم قال ﷺ: «أعرضوا على رقاكم، ولا بأس بالرُقي ما لم يكن شرك». ففيه إشارة إلى علة النهي كما تقدم تقرير ذلك واضحاً في كتاب الطب.

وقد نقل القرطبي عن غيره أن استعمال الرقي والكي قاذح في التوكل، بخلاف سائر أنواع الطب وفرّق بين قسمين بأن البرء فيها أمر موهوم وما عداها محقق عادة كالأكل والشرب فلا يقدر.

قال القرطبي وهذا فاسد من وجهين أحدهما أن أكثر أبواب الطب موهوم، والثاني أن الرقي بأساء الله تعالى تقتضي التوكل عليه والاتجاء إليه والرغبة فيما عنده والتبرك بأسمائه فلو كان ذلك قاذحاً في التوكل لقدح الدعاء إذ لا الفرق بين الذكر والدعاء وقد رقى النبي ﷺ ورقى وفعله السلف والخلف فلو كان مانعاً من اللحاق بالسبعين أو قاذحاً في التوكل لم يقع من هؤلاء وفيهم من هو أعلم أفضل ممن عداهم وتعقب بأنه بنى كلامه على أن السبعين المذكورين أرفع رتبة من غيرهم مطلقاً، وليس كذلك لما سألني، وجوز أبو طالب بن عطية في موازنة الأعمال أن السبعين المذكورين هم المراد بقوله تعالى: ﴿وَالسَّبْعُونَ﴾ ^(١٠) أُولَئِكَ الْمَرْبُوتُونَ ^(١١) فِي جَنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ^(١٢) ١٠-١٢ فإن أراد أنهم من جملة السابقين فمسلم وإلا فلا وقد أخرج أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث رفاعة الجهني قال:

(١) قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذَا تَحَامُلٌ مِنَ الْحَافِظِ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا شَكَّ، وَكَلَامُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ حَقٌّ وَوَاضِحٌ، وَكَوْنُهُ يَقُولُ: إِنْ الْمَرْقِيُّ عَلَيْهِ يَضْعَفُ تَوَكُّلُهُ، هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، فَإِنْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ؛ بَيْنَ الَّذِي يَطْلُبُ الْإِنْسَانَ وَتَعَلُّقُ نَفْسِهِ بِهِ، وَتَعَلُّقُ السَّبَبِ، بِخِلَافِ شَخْصٍ دَخَلَ عَلَيْهِ إِنْسَانٌ وَقَرَأَ عَلَيْهِ، وَلَوْ قَبْلَنَا هَذَا لَقُلْنَا إِذَا يَقِينُ الرَّسُولُ ضَعْفَ تَوَكُّلِهِ بِقِرَاءَةِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ، لَكِنْ هُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ الْمَشِيدُ بِشَيْخِ الْإِسْلَامِ حَتَّى إِذَا مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: الشَّيْخُ تَقَى الدِّينَ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، أَكْثَرَ مَا يَقُولُ: قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ.»

أقبلنا مع رسول الله ﷺ فذكر حديث وفيه: «وعدني ربي أن يُدْخِلَ الجنة من أمتي سبعين ألف بغير حساب وأني لأرجو ألا يدخلوها حتى تبوءوا أنتم ومن صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة». فهذا يدلُّ على أن مزية السبعين بالدخول بغير حساب لا يستلزم أنهم أفضل من غيرهم بل فيمن يحاسب في الجملة من يكون أفضل منهم وفيمن يتأخر عن الدخول ممن تحققت نجاته وعرف مقامه من الجنة يشفع في غيره من هو أفضل منهم وسأذكر بعد قليل من حديث أم قيس بنت محصن أن السبعين ألفاً ممن يحشروا من مقبرة البقيع بالمدينة وهي خصوصية أخرى.

❦ قوله: «ولا يتطيرون». تقدّم بيان الطيرة في كتاب الطب والمراد أنهم لا يتشاءمون كما كانوا يفعلون في الجاهلية.

❦ قوله: «وعلى ربهم يتوكلون». يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسرة لما تقدم من ترك الاسترقاء والاكثواء والطيرة ويحتمل أن تكون من العام بعد الخاص؛ لأن صفة كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل، وهو أعم من ذلك وقد مضى القول في التوكل في باب من يتوكل على الله فهو حسبه قرية وقال القرطبي وغيره قال طائفة من الصوفية لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى حتى لو هجم عليه الأسد لا يزعج وحتى لا يسعى في طلب الرزق لكون الله ضمنه له وأبي هذا الجمهور وقالوا: يحسن التوكل بأن يثق بوعده الله ويوقن بأن قضاءه واقع ولا يترك اتباع السنة وابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب.

ثم قال رحمه الله «في الفتح» (١١/٤١٣):

❦ قوله: «يدخل الجنة من أمتي زمرة». بضم الزاي وسكون الميم هي: الجماعة إذا كان بعضهم إثر بعض.

❦ قوله: «سبعون ألفاً». تقدم شرحه مستوفى في الذي قبله وعرف من مجموع الطرق التي ذكرت أن أول من يدخل الجنة من هذه الأمة هؤلاء السبعون الذين بالصفة المذكورة ومعنى المعية في قوله في الروايات الماضية مع كل ألف سبعون ألفاً أو مع كل واحد منهم سبعون ألفاً.

ثم قال رحمه الله «في الفتح» (١١/٤١٠):

ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضرراً بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته فإذا وقع من المرء ركون إلى السبب

قدح في توكله وهم مع ذلك فيه على قسمين واصل سالك فالأول صفة الواصل وهو الذي لا يلتفت إلى الأسباب ولو تعاطاها وأما السالك فيقع له الالتفات إلى السبب أحياناً إلا أنه يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية والأذواق الحالية إلى أن يرتقى إلى مقام الواصل، وقال أبو القاسم القشيري التوكل محلله القلب وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبل الله فإن تيسر شيء فبتيسيره وإن تعسر فبتقديره ومن الأدلة على مشروعية الاكتساب ما تقدم في البيوع من حديث أبي هريرة رفعه «أَفْضَلُ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَكَانَ دَاوُدُ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهِ» فقد قال تعالى: ﴿وَعَلَّانَئِنَّ صَنَعَةَ لُبِّئِ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿وَعُدُّوا حِزْبَكُمْ﴾ [النسبة: ١٠٢].

وأما قول القائل: كيف تطلب ما لا تعرف مكانه، فجوابه أنه يفعل السبب المأمور به ويتوكل على الله فيما يخرج عن قدرته، فيشق الأرض مثلاً ويلقي الحب ويتوكل على الله في إنباته وإنزال غيثه له ويحصل السلعة مثلاً وينقلها ويتوكل على الله في إلقاء الرغبة في قلب من يطلبها منه، بل ربما كان التكسب واجباً كقادر على الكسب يحتاج عياله للنفقة فمتى ترك ذلك كان عاصياً وسلوك الكرماني في الصفات المذكورة مسلك التأويل، فقال: لا يكتوون معناه إلا عند الضرورة مع اعتقاده أن الشفاء من الله لا من مجرد الكي وقوله ولا يسترقون معناه الرقي التي ليست في القرآن والحديث الصحيح كركي الجاهلية وما لا يُؤْمَنُ أن يكون هي شرك وقوله ولا يتطيرون أي لا يتشاءون بشيء فكان المراد أنهم الذين يتركون أعمال الجاهلية في عقائدهم قال: فإن قيل إن المتصف بهذا أكثر من العدد المذكور فما وجه الحصر فيه وأجاب باحتمال أن يكون المراد به التكثير لا خصوص العدد قلت الظاهر أن العدد المذكور على ظاهره فقد وقع في حديث أبي هريرة ثاني حديث الباب وصفهم بأنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر ومضى في بدء الخلق من طريق عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رفعه: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة». وأخرجه مسلم من طرق عن أبي هريرة منها رواية أبي يونس وهمام عن أبي هريرة: «على صورة القمر». وله من حديث جابر: «فتنجدوا أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفاً لا يحاسبون». وقد وقع في أحاديث أخرى أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم ففي حديث أبي هريرة عند أحمد والبيهقي في البعث من رواية

سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قَالَ: «سألت ربي فوعدني أن يدخل الجنة من أمتي...». فذكر الحديث نحو سياق حديث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ثاني حديث الباب وزاد: «فاستزادت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً». وسنده جيد، وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني وعن حذيفة عند أحمد وعن أنس عند البزار وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم فهذه طريق يقوى بعضها بعضاً وجاء في أحاديث أخرى أكثر من ذلك فأخرج الترمذي وحسنه والطبراني وابن حبان في صحيحه من حديث أبي أمامة رفعه: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً مع كل ألف سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب وثلاث حثيات من حثيات ربي». وفي صحيح ابن حبان أيضاً والطبراني بسند جيد من حديث عتبة بن عبد نحوه: «ثم يشفع كل ألف في سبعين ألفاً ثم يحشي ربي ثلاث حثيات بكفيه». وفيه: فكبر عمر فقال النبي ﷺ: «إن السبعين ألفاً يشفعهم الله في آباءهم وأمهاتهم وعشائرهم وإني لأرجو أن يكون أدنى أمتي الحثيات». وأخرجه الحافظ الضياء وقال: لا أعلم له علة، قلت: علته لاختلاف في سنده فإن الطبراني أخرجه من رواية أبي سلام قَالَ: حدثني عامر بن زيد أنه سمع عتبة ثم أخرجه من طريق أبي سلام أيضاً فقال: حدثني عبد الله بن عامر أن قيس بن الحارث حدثه أن أبا سعيد الأنباري حدثه فذكره وزاد قَالَ قيس: فقلت لأبي سعيد سمعته من رسول الله ﷺ قَالَ: نعم، قَالَ: وقال رسول الله ﷺ: «وذلك يستوعب مهاجري أمتي ويؤفّي الله بقيتهم من أعرابنا». وفي رواية لابن أبي عاصم قَالَ أبو سعيد: فحسبنا عند رسول ﷺ فبلغ أربعة آلاف وتسعمائة ألف [أربعة آلاف ألف يعني: أربعة ملايين^(١) يعني: من عدا الحثيات. وقد وقع عند أحمد والطبراني من حديث أبي أيوب نحو حديث عتبة بن عبد وزاد: «والخبئية» بمعجمة ثم موحدة وهمزة وزن عظيمة عند ربي. وورد من وجه آخر ما يزيد على العدد الذي حسبه أبو سعيد الأنباري، فعند أحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر الصديق نحوه بلفظ: «أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً». في سنده راويان أحدهما ضعيف الحفظ، والآخر لم يسم. وأخرج البيهقي في البعث من حديث عمرو بن حزم مثله، وفيه راو ضعيف أيضاً، واختلف في سنده وفي سياق متنه، وعند البزار من حديث أنس بسند ضعيف نحوه، وعند الكلاباري في «معاني

(١) ما بين المعقوفين من كلام العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

الأخبار» بسند وإٍ من حديث عائشة: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذات يوم فاتبعته فإذا هو من مشربة يَسْلِي، فرأيت على رأسه ثلاثة أنوار، فلما قضى صلاته قَالَ: «رَأَيْتِ الْأَنْوَارَ». قلت: نعم. قَالَ: «إِنْ أَتَانِي مِنْ رَبِّي فَبَشِّرْنِي أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، ثُمَّ أَتَانِي فَبَشِّرْنِي أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ مِنْ أُمَّتِي مَكَانَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، ثُمَّ أَتَانِي فَبَشِّرْنِي أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ مِنْ أُمَّتِي مَكَانَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا الْمَضَاعِفَةَ سَبْعِينَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ لَا يَبْلُغُ هَذَا أُمَّتِي. قَالَ: أَكْمِلْهُمْ لَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ لَا يَصُومُ وَلَا يَصِلِي». قَالَ الْكَلَابَارِيُّ: الْمُرَادُ بِالْأُمَّةِ أَوَّلًا: أُمَّةُ الْإِجَابَةِ، وَبِقَوْلِهِ آخِرًا أُمَّتِي: أُمَّةُ الْإِتِّبَاعِ، فَإِنَّ أُمَّتَهُ ﷺ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، أَحَدُهَا أَخَصُّ مِنَ الْآخَرِ: أُمَّةُ الْإِتِّبَاعِ، ثُمَّ أُمَّةُ الْإِجَابَةِ، ثُمَّ أُمَّةُ الدَّعْوَةِ، فَالْأُولَى: أَهْلُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالثَّانِيَّةُ: مُطْلَقُ الْمُسْلِمِينَ، وَالثَّلَاثَةُ: مَنْ عَدَاهُمْ مِمَّنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ، وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بِأَنَّ الْقَدْرَ الزَّائِدَ عَلَى الَّذِي قَلْبُهُ هُوَ مَقْدَارُ الْحَثِيَّاتِ، فَقَدْ وَقَعَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ رَوَايَةِ قَتَادَةَ عَنِ النَّضْرِ بْنِ أَنَسٍ أَوْ غَيْرِهِ عَنْ أَنَسٍ رَفَعَهُ: «أَنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَرْبَعِمِائَةَ أَلْفٍ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: زِدْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «وَهَكَذَا وَجَمَعَ كَفِيهِ». فَقَالَ: زَادْنَا. وَقَالَ: «هَكَذَا». فَقَالَ عُمَرُ: حَسْبُكَ أَنْ اللَّهَ إِنْ شَاءَ أَدْخَلَ خَلْقَهُ الْجَنَّةَ بِكَفِّ وَاحِدٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ عُمَرُ». وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ لَكِنْ اخْتَلَفَ عَلَى قَتَادَةَ فِي سَنَدِهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا. اهـ

لَا شَكَّ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ دَعَا لِعُكَاشَةِ ﷺ لَعَلَّمَهُ أَنَّهُ أَهْلٌ، وَلِهَذَا ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَدَّ الرَّجُلَ الْآخَرَ وَهُوَ مِنَ الْأَنْصَارِ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ عَنْ حَالِهِ شَيْئًا يَوْجِبُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِأَنَّهُ مِنْهُمْ فَلَوْلَا أَنَّهُ أَهْلٌ مَا دَعَى لَهُ الرَّسُولُ وَأَنْتَ مِنْهُمْ شَيْخٌ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٤٤ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا نَافِعٌ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ: يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ، خُلُودٌ»^(١).

٦٥٤٥ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: خُلُودٌ لَا مَوْتَ. وَلِأَهْلِ النَّارِ: يَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ».

ورد أنهم يُنادون: «يا أَهْلَ الْجَنَّةِ يا أَهْلَ النَّارِ. فيشرَّبون يطلعون فيؤتى بالموت على صورة كبشٍ أظنه أبيض، فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ، يا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتَ»^(١)، وهذا من قدرة الله ﷻ أنه يجعل المعنى شيئاً محسوساً جسمائياً والحكمة من هذا زيادة الطمأنينة بأنهم لن يموتوا؛ لأنه ليس الخبر كالمُعَايَنَةِ^(٢)، فإذا شاهدوا الموت قد ذُبِحَ أمامهم اطمأنوا أكثر من الخبر، وهذا نظيرُ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ تُوْزَن يوم القيام بالميزان، مع أن الأعمال كما نعلم جميعاً أمرٌ معنوي انتهى، ولكن تُوزَن وتُجْعَل أجساماً فيزنها الله ﷻ موازنة بين الحسنات والسيئات.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٥١ - باب صِفَةِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ .

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ زِيَادَةُ كِبِدِ حُوتٍ». عَدَنُ خُلْدٌ، عَدَنُ بَارِضٍ: أَقَمْتُ، وَمِنْهُ الْمَعْدِنُ، (فِي مَعْدِنٍ صِدْقٍ)، فِي مَنَبِتٍ صِدْقٍ.

فَسَّرَ الْعَدَنَ بِأَنَّهُ الْإِقَامَةُ، فَمَعْنَى جَنَاتِ عَدَنَ، أَي: جَنَاتُ إِقَامَةٍ لَا ظَعْنُ فِيهَا، وَإِذَا كَانَتْ إِقَامَةٌ لَا ظَعْنَ فِيهَا، فَهِيَ إِقَامَةُ خُلْدٍ وَبِهَذَا جَعَلَ التَّفْسِيرِينَ، قَالَ: عَدَنُ خُلْدٌ، وَهَذَا الْمُرَادُ، وَعَدَنَ بِالْأَرْضِ: أَقَامَ، هَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ اللَّفْظِيُّ؛ لِأَنَّ التَّفْسِيرَ قَدْ يَكُونُ تَفْسِيرًا لَفْظِيًّا وَقَدْ يَكُونُ تَفْسِيرًا بِالْمُرَادِ، وَلِهَذَا نَقُولُ مَثَلًا الْإِقَامَةُ بِمَعْنَى كَذَا، وَالْمُرَادُ كَذَا، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا فِي التَّفْسِيرِ تَجَدُّدُ بَعْضِ الْمَفْسَّرِينَ يَفْسِّرُ الْكَلِمَةَ بِلَفْظِهَا، ثُمَّ يَقُولُ: وَالْمُرَادُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ هَذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّحْرِيفِ، لَكِنْ مِنْ بَابِ الْمَعْنَى الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَالتَّفْسِيرُ اللَّفْظِيُّ هُوَ الَّذِي تَفْسَّرُ بِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ كَلِمَةٌ يَقْطَعُ النَّظَرَ عَنْ سِيَاقِهَا.



(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٤٥، ٢٧١)، وابن حبان (٦١٨٠، ٦١٨١)، والحاكم (٢/٣٨٠)، والطبراني في الكبير (١٢/٥٤)، وإسناده صحيح.

ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٤٦ - حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ الْهَيْثَمِ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ أَبِي رَجَاءٍ، عَنْ عِمْرَانَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ».

٦٥٤٧ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ أُسَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَكَانَ عَامَّةٌ مَنِ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَجْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةٌ مَنِ دَخَلَهَا النِّسَاءُ».

هذا كالأول فيه: دليل على أن الفقراء يسبقون الأغنياء في دخول الجنة، وذلك لأنهم ابتلوا بحرمان النعيم في الدنيا وصبروا على ذلك، فعوضوا عنه بسبق التنعيم في الآخرة، أما كون أكثر أهل النار هم النساء، فلما يحصل بهنَّ ومنهنَّ من الفتن العظيمة، ولهذا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضُرُّ على الرِّجَالِ من النِّسَاءِ»^(١). قَالَ العلماء: وفي هذا إشارة إلى أَنَّ المواليد من النساء أكثر من المواليد من الرِّجَالِ؛ لأنه إذا كان أهل النار من الآلاف تسعمائة وتسعة وتسعون^(٢)، وأكثر أهل النار النساء لَزِمَ من ذلك أن يكون عدد النساء من بنات آدم أكثر من عدد الذكور.



٦٥٤٨ - حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ أَسَدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِيَءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ لَا مَوْتَ، يَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ. فَيَزِدُّ أَهْلَ الْجَنَّةِ قَرَحًا إِلَى قَرَحِهِمْ، وَيَزِدُّ أَهْلَ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ»^(٣).

هذا الحديث يقول: «ثم يُذْبَحُ»، البناء للمجهول ما ندري من الذابح؟!

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٢٤١):

❦ قوله: «ثم يُذْبَحُ». لم يسم من ذبحه، ونقل القرطبي عن بعض الصوفية أن الذي

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٥٠).

يذبحه يحيى بن زكريا بحضرة النبي ﷺ إشارة إلى دوام الحياة، وعن بعض التصانيف أنه جبريل. قلت: هو في تفسير إسماعيل بن أبي زياد الشامي أحد الضعفاء في آخر حديث الصور الطويل فقال فيه: «فيحيى الله تعالى ملك الموت وجبريل وميكائيل وإسرافيل ويجعل الموت في صورة كبش أملح فيذبح جبريل الكبش وهو الموت». اهـ
 عل كل حال: خيرٌ من هذا كله أن نقول: هذا لا صحّة له والله أعلم من ذبح.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٤٩ - حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ أَسَدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَبِّ وَآيَ شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١).

وهذا مما يعطي الله ﷻ أهل الجنة أنه يعطيهم أكثر مما يظنون من النعيم، وهو أنه يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدًا.

وكذلك أيضًا ينظرون إلى الله ﷻ كما يرون القمر ليلة البدر، وهذه هي الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لَخَيْرٌ وَزِيَادَةٌ﴾.

وفي هذا الحديث: دليل على ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من إثبات القول لله تعالى بالحروف والصوت المسموع، ولهذا يخاطب الله أهل الجنة فيجيئون ويخاطبهم مرة ثانية. **وفيه أيضًا:** إثبات الرضا لله وأنه من الصفات الفعلية؛ لأنه قال: «أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي وَلَا أَسْخَطُ». فدلّ هذا أنه قد يأتي السخط بعد الرضا، وهذا يدلّ على أن الرضا من الصفات الفعلية، والقاعدة عند أهل العلم أن ما كان متعلقًا بمشيئة الله فهو من الصفات الفعلية، وما كان لازمًا لذات الله فهو من الصفات الذاتية.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٥٠ - حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ حُمَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا يَقُولُ: أَصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَرَفْتُ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فَإِنَّ يَكُ فِي الْجَنَّةِ أَصِيبُ وَأَحْتَسِبُ، وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ. فَقَالَ: «وَيْحَاكِ - أَوْهَيْلَتِ - أَوْجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ جَنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ».

حارثة هذا من الأنصار، يعني: ليس هو أبا زيد بن حارثة، لكنه من الأنصار وكأَنَّهُ صغير، فجاءت أمه تسأل النبي ﷺ فقال لها: «أَوْهَيْلَتِ» يعني: أصابك الهبال، والهبال هو الخبال والجنون، وهذا موجودٌ عندنا نحن هنا في اللغة العامية إذا تكلم أحدٌ بشيء مستبعد، قيل له: أنت مهبول يعني: فيك جنون.

❦ فقال: «أَوْجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ». يعني: الجنان أكثر من واحدة إنها جنان كثيرة وأنه لفي جنة الفردوس، والفرق بين الصبر والاحتساب، أن الصبر حبس النفس، والاحتساب رجاء الأجر، فالإنسان قد يصبر نفسه ويحبسها عن الجزع ويستغفر لكن لا يطيق انتظار الثواب، فإذا كان منتظرًا للثواب صار محتسبًا.

قَالَ الْقِسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أَوْهَيْلَتِ» بهمزة الاستفهام وواو العطف على مقدرٍ وفتح الهاء وكسر الموحدة وسكون اللام، أي: أفقدت عقلك لما أصابك من الثقل بابنك حتى جنتي به؟ «أَوْجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ» بهمزة وواو العطف على مقدرٍ أيضًا.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٥١ - حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ أَسَدٍ، أَخْبَرَنَا الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا الْفَضِيلُ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ مَنْكِبَيْ الْكَافِرِ مَسِيرَةٌ ثَلَاثَةٌ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ»^(١).

٦٥٥٢- وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا الْمُغِيرَةُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاکِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»^(١).

٦٥٥٣- قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَحَدَّثْتُ بِهِ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاکِبُ الْجَوَادُ الْمُضْمَرَّ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا»^(٢).

أَمَّا الحديث الأول ففيه: دليل على أن الكفار يكونون بهذه المثابة، ما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيام للراكب السريع - ونسأل الله العافية - يعني أنها تكبر أجسامهم، قال بعض العلماء: من أجل أن تتوسع رقعة العذاب في البدن؛ لأن رقعة العذاب تتسع باتساع البدن. أمّا أهل الجنة، فقد سبق أنهم ستون ذراعاً في الطول، وورد أنهم سبعة أذرع في العرض^(٣)، فليسوا كأهل النار، أهل النار أعظم أجساماً وأضخم.

وعندي والله أعلم مناسبة ثانية وهي: أنه كما كُبرَتْ أجسامهم زاد ملوهم للنار، والله ﷻ قد وعد النار ملائها، حتى أنها يلقى فيها، فتقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة عليها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط، يعني كفى أو حسبي حسبي^(٤).

أما الحديث الثاني: فَحَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ يَسِيرُ الرَّاکِبُ الْمُضْمَرُّ الْجَوَادُ. «المضمر» يعني: السريع مائة عام لا يقطعها، وهذا دليل على كبرها وعظمتها، وهذه الشجرة قيل أنها طوبى، التي ترد كثيراً في القرآن والسنة، وقيل: إنها غيرها، والصحيح أن طوبى ليست شجرة بل إن معناها: الحياة الطيبة.

وبقى عندنا إشكال في قوله: «في ظلها» فكيف يكون هناك ظل، وليس في الجنة شمس؟ **فيقال:** إن هذا إما على تقدير أن هناك شمساً، أو يقال: إن الجنة لها جهة معينة تكون أشد إضاءة من الجهة الأخرى، وحينئذ يكون هناك ظل للأشجار والأول أقرب.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٢٨م).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٩٥)، والطبراني في «الصغير» (٨٠٨)، وانظر «الترغيب والترهيب» (٥٤٤٦).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٧).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٥٤- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ - أَوْ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ، لَا يَدْخِرُ أَبُو حَازِمٍ إِلَيْهَا قَالَ- مُتَمَسِكُونَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَا يَدْخُلُ أُولَهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»^(١).

❖ قوله: «لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم». يدل على أن أبواب الجنة واسعة جدًا جدًا؛ لأنه إذا كان لا يدخل الأول حتى يدخل الآخر لابد أن يكونوا على صف واحد، وهذا يدل على سعة أبواب الجنة، وسبق الكلام عليه.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٥٥- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلَمَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَهْلِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْغُرَفَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ فِي السَّمَاءِ»^(١).

٦٥٥٦- قَالَ أَبِي: فَحَدَّثْتُ النُّعْمَانَ بْنَ أَبِي عِيَّاشٍ فَقَالَ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ يُحَدِّثُ وَيَزِيدُ فِيهِ: «كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الْغَارِبَ فِي الْأَفْقِ الشَّرْقِيِّ وَالْغَرْبِيِّ»^(٢).

٦٥٥٧- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ. فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَيَّتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^(٣).

مَرَّ عَلَيْنَا هَذَا الْحَدِيثُ دُونَ قَوْلِهِ: «فِي صُلْبِ آدَمَ»^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٢١٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٣١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٠٥).

(٥) انظر الحديث رقم (٦٥٣٨).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٤٠٣/١١):

قوله: «قَدْ كُنْتُ سئِلْتُ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ». فِي رِوَايَةِ أَبِي عِمْرَانَ يَقُولُ: «أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ شَيْئًا، فَأَيَّبْتُ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي» وَفِي رِوَايَةِ ثَابِتٍ «قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ». قَالَ عِيَّاضٌ: يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٧٢]. الْآيَةُ، فَهَذَا الْمِثَاقُ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ، فَمَنْ وَفَّى بِهِ بَعْدَ وَجُودِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ لَمْ يَوْفَ بِهِ فَهُوَ الْكَافِرُ، فَمُرَادُ الْحَدِيثِ أَرَدْتُ مِنْكَ حِينَ أَخَذْتُ الْمِثَاقَ فَأَيَّبْتُ إِذْ أَخْرَجْتُكَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشُّرْكَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْإِرَادَةِ هُنَا الطَّلَبُ وَالْمَعْنَى: أَمَرْتُكَ فَلَمْ تَفْعَلْ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَكُونُ فِي مَلِكِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ. وَاعْتَرَضَ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ بِأَنَّهُ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَأْمُرَ بِمَا لَا يُرِيدُ؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمُتَمَنِّعٍ وَلَا مُسْتَحِيلٍ.

وَقَالَ الْمَازِرِيُّ: مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ إِيْمَانَ الْمُؤْمِنِ وَكُفْرَ الْكَافِرِ، وَلَوْ أَرَادَ مِنَ الْكَافِرِ الْإِيْمَانَ لَأَمَنَ، يَعْنِي: لَوْ قَدَّرَهُ عَلَيْهِ لَوَقَعَ. وَقَالَ أَهْلُ الْإِعْتِزَالِ: بَلْ أَرَادَ مِنَ الْجَمِيعِ الْإِيْمَانَ فَاجَابَ الْمُؤْمِنُ وَامْتَنَعَ الْكَافِرُ، فَحَمَلُوا الْعَائِبَ عَلَى الشَّاهِدِ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ مُرِيدَ الشَّرِّ شَرٌّ وَالْكَفْرُ شَرٌّ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُرِيدَهُ الْبَارِي. وَأَجَابَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ الشَّرَّ شَرٌّ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ، وَأَمَّا فِي حَقِّ الْخَالِقِ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ إِرَادَةُ الشَّرِّ شَرًّا لِنَهْيِ اللَّهِ عَنْهُ، وَالْبَارِي سُبْحَانَهُ لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ يَأْمُرُهُ فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَقَاسَ إِرَادَتُهُ عَلَى إِرَادَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَأَيْضًا فَالْمُرِيدُ لِفَعْلٍ مَا إِذَا لَمْ يَحْصُلْ مَا أَرَادَهُ أَذِنَ ذَلِكَ بِعَجْزِهِ وَضَعْفِهِ وَالْبَارِي تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِالْعَجْزِ وَالضَّعْفِ فَلَوْ أَرَادَ الْإِيْمَانَ مِنَ الْكَافِرِ وَلَمْ يُؤْمِنْ لَأَذَنَ ذَلِكَ بِعَجْزٍ وَضَعْفٍ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَدْ تَمَسَّكَ بَعْضُهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ مَا تَقَدَّمَ، وَاجْتَبَوْا أَيْضًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرُ﴾ [البقرة: ٧]. وَأَجِيبُوا بِأَنَّهُ مِنَ الْعَامِّ الْمَخْصُوصِ بِمَنْ قَضَى اللَّهُ لَهُ الْإِيْمَانَ، فَعِبَادَةُ عَلَى هَذَا الْمَلَائِكَةِ وَمُؤْمِنُو الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَقَالَ آخَرُونَ: الْإِرَادَةُ مَعْنَى الرِّضَا، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَرْضَى﴾؛ أَي: لَا يَشْكُرُهُ لَهُمْ وَلَا يُبَيِّهُهُمْ عَلَيْهِ، فَعَلَى هَذَا فَهِيَ صِفَةٌ لِفَعْلٍ.

وَقِيلَ: مَعْنَى (الرِّضَا) أَنَّهُ لَا يَرْضَاهُ دِينًا مَشْرُوعًا لَهُمْ، وَقِيلَ: (الرِّضَا) صِفَةٌ وَرَاءَ الْإِرَادَةِ، وَقِيلَ: الْإِرَادَةُ تُطْلَقُ بِإِزَاءِ شَيْئَيْنِ إِرَادَةُ تَقْدِيرٍ وَإِرَادَةُ رِضَا، وَالثَّانِيَةُ أَخْصَصَ مِنَ الْأُولَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَقِيلَ: الرِّضَا مِنَ اللَّهِ إِرَادَةُ الْخَيْرِ كَمَا أَنَّ السُّخْطَ إِرَادَةُ الشَّرِّ. وَقَالَ النَّوَوِيُّ: قَوْلُهُ: «فَيَقَالُ لَهُ كَذَبْتَ» مَعْنَاهُ لَوْ رَدَدْنَاكَ إِلَى الدُّنْيَا لَمَا افْتَدَيْتَ لِأَنَّكَ سَبَلْتَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ فَأَبَيْتَ، وَيَكُونُ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُمْ لِكَبْذِئِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٨]. وَبِهَذَا يَجْتَمِعُ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَانِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ [الأنعام: ٣٦]. قَالَ: وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: جَوَازُ قَوْلِ الْإِنْسَانِ: يَقُولُ اللَّهُ خِلَافًا لِمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنَّمَا يَجُوزُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ قَوْلٌ شَادٌّ مُخَالِفٌ لِأَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ. وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأنعام: ٤].

حديث أخذ العهد والميثاق في صلبِ آدم تكلم فيه الناس كثيرًا، فمنهم من صححه، ومنهم من ضعفه، وقالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. إن هذا هو ما ركز الله تعالى في الفطر والعقول من الوحداية والإيمان بالله ﷻ، ولهذا قَالَ: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ﴾. ولم يقل: من ظهورهم، ولم يقل: من ظهرهم. فالجمع يدلُّ على أن المراد بنو آدم أنفسهم أن الله أخذَ عليهم وهم في بطون أمهاتهم، وذلك بما ركز الله في قلوبهم من الفطرة، والمسألة مبسطة في شرح الطحاوية، وعلى كل حال: الشاهد من هذا أن أهل النار يودون أن يفتدوا بملء الأرض ذهبًا، ولكنه لا يحصل لهم ذلك.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٥٨ - حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَادٌ، عَنْ عَمْرِو، عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَةِ كَأَنَّهُمْ الشَّعَائِرُ». قُلْتُ: مَا الشَّعَائِرُ؟ قَالَ: «الضَّغَائِرُ». وَكَانَ قَدْ سَقَطَ فَمُهُ فَقُلْتُ لِعَمْرِو بْنِ دِينَارٍ أَبَا مُحَمَّدٍ سَمِعْتَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَخْرُجُ بِالشَّفَاعَةِ مِنَ النَّارِ»^(١).

❦ قوله: «يُخْرَجُ بِالشَّفَاعَةِ». الباء للسببية، والشَّفَاعَةُ هِيَ التَّوَسُّطُ إِلَى الْغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مُضَرَّةٍ، وَقَدْ قَسَمَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ إِلَى قَسَمَيْنِ: خَاصَّةٌ بِالرَّسُولِ ﷺ وَعَامَةٌ.

فَالْخَاصَّةُ بِالنَّبِيِّ ﷺ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٌ:

النوع الأول: الشَّفَاعَةُ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ أَنْ يَقْضَى بَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ فِي مَوْقِفِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَا تَذْهَبُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ فَيَأْتُونَ إِلَى آدَمَ وَيَذْكُرُونَ لَهُ مِنْ مَنَاقِبِهِ مَا يَرُونَ أَنَّهُ صَالِحٌ لِلشَّفَاعَةِ بِوَاسِطَتِهِ، وَلَكِنْ يَعْتَذِرُ؛ لِأَنَّهُ نُهِيَ مِنَ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلَ مِنْهَا ثُمَّ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ وَيَذْكُرُونَ لَهُ مِنْ مَنَاقِبِهِ مَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مَقْبُولَ الشَّفَاعَةِ بِهِ وَلَكِنَّهُ يَعْتَذِرُ، ثُمَّ إِلَى إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ إِلَى مُوسَى، ثُمَّ إِلَى عِيسَى، ثُمَّ يَحِيلُهُمْ عِيسَى إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَيَقْبَلُ اللَّهُ شَفَاعَتَهُ وَيَقْضِي بَيْنَ الْعِبَادِ^(١)، فَهَذِهِ كَمَا تَرَوْنَ خَاصَّةٌ بِالرَّسُولِ ﷺ.

فَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُ إِلَّا عِيسَى، كُلُّهُمْ يَعْتَذِرُ بِذَنْبٍ أَوْ بِعَمَلٍ يَرَى أَنَّهُ يَمْنَعُهُ مِنْ قَبُولِ الشَّفَاعَةِ إِلَّا عِيسَى، فَإِنَّ عِيسَى لَا يَعْتَرِفُ بِشَيْءٍ لَكِنْ يُحِيلُ الْفَضْلَ إِلَى أَهْلِهِ، وَهَذِهِ لَا شَكَّ أَنَّ فِيهَا فَضِيلَةً عَظِيمَةً لِلرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُقَالُ: إِنَّ الْأَرْبَعَ الْأَوَّلِينَ اعْتَذَرُوا بِشَيْءٍ يَرُونَ أَنَّهُ جَارِحٌ فِي الشَّهَادَةِ أَمَّا عِيسَى فَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا لَكِنَّهُ يَعْرِفُ الْفَضْلَ لِأَهْلِهِ.

الثانية: شَفَاعَتُهُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا وَصَلُوا إِلَيْهَا وَجَدُوهَا مَغْلُقَةً الْأَبْوَابِ، فَيَشْفَعُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَفْتَحَ بَابَ الْجَنَّةِ لِأَهْلِهَا، فَيُشْفَعُ بَعْدَ ذَلِكَ.

الثالثة: شَفَاعَتُهُ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ؛ لِأَنَّ أَبَا طَالِبٍ كَافِرٌ، وَالْكَافِرُونَ قَالُوا اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ (١٨) [الأنعام: ٤٨]. إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَهِيَ خَاصَّةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلشَّافِعِ وَبِالنِّسْبَةِ لِلْمَشْفُوعِ لَهُ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ حَصَلَ مِنْهُ مِنَ الدِّفَاعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنِ الْإِسْلَامِ مَا جَعَلَ ذَلِكَ مُسَهِّلًا لِلشَّفَاعَةِ لَهُ، وَلَكِنَّهُ شَفَعَ لَهُ بِدُونِ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ إِلَّا أَنَّهُ جُعِلَ فِي ضَحَضٍ مِنْ نَارٍ وَعَلَيْهِ نَعْلَانٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ^(٢) أَبَدَ الْأَبَدِينَ وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْرِجَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (١٨).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

[المختار: ٤٨]. لكن هُوَ عليه العذاب، فهو أهون أهل الأرض عذاباً وهو كما سمعتم، نسأل الله أن يُعيدنا وإياكم من النار.

هذه ثلاثة أنواع خاصة بالرسول ﷺ.

القسم الثاني: العام للرسول ولغيره ﷺ وهي الشفاعة في أهل الكبائر وقد ذكروا لها نوعين.

النوع الأول: ألا يدخل النار.

النوع الثاني: أن يُخرجوا من النار.

فيشفع في أهل الكبائر المستحقين لدخول النار ألا يدخلوها، ولكنني لم يحضر لي دليل لا سابقاً ولا لاحقاً لهذه المسألة إلا أن أهل العلم ذكروها وتكلموا عليها.

والثانية: فيمن دخلوا النار أن يُخرج منها وهذه تواترت بها الأحاديث وكثر نقلها بين سلف الأمة، لأن الخوارج والمعتزلة كانوا ينكرونها، فإن مذهبهم أن فاعل الكبيرة مُخلد في النار لا يمكن أن يخرج منها، ومن أجل ذلك تواترت الأحاديث في هذا النوع من الشفاعة كما قال الناظم:

بِمَاتَوَاتَرِ حَدِيثٍ مِّنْ كَذِبٍ وَمِنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُيُوءَ شَفَاعَةٍ وَالْحَوْضِ وَمَسَّحُ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

يوجد أنواع من الشفاعة غير هذه. مثل الصلاة على الميت كما قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُّسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»^(١). وكذلك الصبيان الصغار إذا ماتوا للإنسان، إذا مات له ثلاثة لم يبلغوا الحلم أو اثنان كانوا حجاباً له أو سترآ له من النار^(٢)، لكن المشهور الأنواع التي سبقت - خمسة أنواع، ثلاثة خاصة بالرسول ﷺ، واثنان عامة له ولغيره، الشفاعة الموجودة هنا في الحديث هي الشفاعة في أهل الكبائر بعد دخول النار، وهي من القسم العام الذي يكون للنبي ﷺ ولغيره من المرسلين وللعلماء ولكل أحد.

(١) أخرجه مسلم (٩٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٨).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/٤٢٩):

❖ قوله: «كَأَنَّهُمُ الثَّعَالِرُ». بِمَثَلَةِ مَفْتُوحَةٍ ثُمَّ مَهْمَلَةٍ وَاحِدَةً: ثَعْرُورٌ كَعَصْفُورٍ.

❖ قوله: «قَلَّتْ وَمَا الثَّعَالِرُ». سَقَطَتِ الْوَائِلُ لَغَيْرِ الْكُشْمِيهْنِيِّ.

❖ قوله: «قَالَ الضَّغَالِيْسُ» بِمَعْجَمَتَيْنِ ثُمَّ مَوْحِدَةٍ بَعْدَهَا مَهْمَلَةٌ.

أَمَّا الثَّعَالِرُ: فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: هِيَ قِثَاءٌ صَغَارٌ، وَقَالَ أَبُو عِيْدَةٍ مِثْلُهُ وَزَادَ وَيُقَالُ بِالشِّينِ الْمَعْجَمَةُ بَدَلُ الْمَثَلَةِ، وَكَأَنَّ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي قَوْلِ الرَّوَايِ: وَكَانَ عَمْرُو ذَهَبَ فَمَهْ - أَي: سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ - فَنَطَقَ بِهَا ثَاءً مِثْلَةً وَهِيَ شَيْنٌ مَعْجَمَةٌ.

قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: وَإِذَا لُقِبَ بِالْأَثَرَمِ بِالْمَثَلَةِ وَفُتِحَ الرَّاءُ أَهْـ

كَأَنَّهُ نَطَقَ بِهَا الثَّعَالِرُ فَقَالَ: الثَّعَالِرُ، وَلِهَذَا أَشْكَلُ عَلَى الرَّوَايِ.

عَلَّ كُلِّ حَالٍ: صَارَتْ الْآنَ الضَّغَالِيْسُ أَوْ الثَّعَالِرُ أَوْ الثَّعَالِرُ هِيَ إِمَّا صَغَارُ الْقِثَاءِ أَوْ رَعُوسُ الطَّرَائِيْثِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْبَرِّ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٥٩ - حَدَّثَنَا هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بَعْدَ مَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفْعٌ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَسْمِيهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ»^(١).

[الْحَدِيثُ ٦٥٥٩ - طَرَفُهُ فِي: ٧٤٥].

وَهَذَا اللَّقْبُ «الْجَهَنَّمِيِّينَ» لَا يَرُونَ بِهِ بَأْسًا - بَلْ يَرُونَهُ مَنَقِبَةً وَمَفْخَرَةً لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْرَجَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلِهَذَا لَا يُقَالُ كَيْفَ يَلْقَبُونَهُمْ بِهَذَا اللَّقْبِ، وَالْجَنَّةُ لَيْسَ فِيهَا غُلٌّ وَلَيْسَ فِيهَا حَقْدٌ، وَهَذَا رَبَّمَا يَجْعَلُ فِي نَفْسِهِمْ شَيْئًا، نَقُولُ: لَا يَجْعَلُ؛ لِأَنَّهُمْ يَرُونَ هَذَا مِنْ مَنَاقِبِهِمْ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُمْ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِيهَا، وَلِهَذَا إِذَا وَقَعَ الْإِنْسَانُ فِي هَلَكَةٍ مِثْلَ لَوْ سَقَطَ فِي بَثْرٍ، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ قَلِيلٍ: هَذَا صَاحِبُ الْبَثْرِ يَفْرَحُ أَنَّهُ نَجَّى مِنْهَا، وَيَرَى أَنَّ هَذَا مِمَّا يَسْرُهُ.

❖ قَوْلُهُ: «وَسَفْعٌ»؛ يَعْنِي: لَفْحٌ، لَفَحَ مِنْهَا بَحِيْثٌ أَثَرَ عَلَى جُلُودِهِ وَمِنْهُ سَفْعَةُ الْخَدَيْنِ؛

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٩١) مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أي: أن من خَدَّيْهَا خُضْرَةٌ - لسعة خضراء -.

ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٦٠ - حَدَّثَنَا مُوسَى، حَدَّثَنَا وَهْبٌ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَزْدَلٍ مِنْ إِبْرَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتَحَشُوا وَعَادُوا حُمَمًا، فَيَلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ فَيَبْتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ أَوْ قَالَ: حَمِيمَةِ السَّيْلِ. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَمْ تَرَوْا أَنَّهُ تَنْبَتُ صَفْرَاءُ مُلْتَوِيَةً؟»^(١).

٦٥٦١ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تَوَضَّعَ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ»^(٢).

[الحديث ٦٥٦١ - طرفه في: ٦٥٦٢].

٦٥٦٢ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَجَاءٍ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ بِالْقَمْقَمِ»^(٣).

هذا أبو طالب عم النبي ﷺ وذلك أن الله أذن لنبيه ﷺ أن يشفع فيه فشفع حتى كان في ضحضاح من نارٍ وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»^(٤) نعوذُ بالله.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على شدة عذابِ النارِ نعوذُ بالله.

وفيه أيضًا: دليلٌ على أن أحوالَ الآخرة ليست كأحوالِ الدنيا؛ لأنَّ المعروفَ في الدنيا أنَّ مَنْ عليه نعلان من نارٍ لا يغلي منهما دماغه، إنها تتقطعُ قدماه ويموت، لكن أحوالَ الآخرة

(١) أخرجه مسلم (١٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٣).

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

ليست كأحوال الدنيا ولا يجوز للإنسان أن يقايس بينها.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٦٣- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو، عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاعَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاعَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَحِدْ فِيكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»^(١).

الإشاحة لها معنيان: إما الإعراض كأن الإنسان يتوقاها، أو أنه يعبس كاشراً وجهه، يعني: كراهة لها كأنه ينظر إليها.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٦٤- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي حَارِثٍ وَالدَّرَّ أَوْ رِدِّي، عَنْ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبَّابٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَذَكَرَ عِنْدَهُ عُمَةُ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ: «لَعَلَّه تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحَضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبِيهِ يَغْلِي مِنْهُ أَمْ دِمَاعِهِ»^(١).

٦٥٦٥- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوْ اِسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ فَاسْتَمَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ وَيَقُولُ: ائْتُوا نَوْحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا عِيسَى. فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. فَيَأْتُونِي فَاسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا،

(١) أخرجه مسلم (١٠١٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤).

فَبَدَّعْنِي مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُقَالُ لِي: اِرْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ وَقُلْ يُسْمَعُ وَاشْفَعْ تُشْفَعُ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحْدُثُ لِي حَدًّا ثُمَّ أَخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقْعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ. وَكَانَ قِتَادَةً يَقُولُ عِنْدَ هَذَا: أَيُّ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ^(١).

هذا الحديث فيه فوائد كثيرة:

منها: جمع الناس يوم القيامة، وقد سمَّاهُ اللهُ تعالى: «يوم الجمع»، فقال **وَجَّعَ**: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ [التكْوِين: ٩٠]. لَأَنَّ اللَّهَ تعالى يجمعُ الناسَ الأولين والآخرين ومعهم الجن والملائكة والوحوش وجميع الدوابِّ كلها تُبْعَثُ يومَ القيامةِ، وفي هذا اليوم يحصلُ للناسِ من الكرب والغمِّ ما لا يطيقون حفاةً عراةً غُرلاً، الشمسُ فوق رؤوسهم بقدر ميل، كلُّ شاخصٍ بصره ﴿مُتَطَيِّعَاتٍ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [التكْوِين: ٤٣]. غيرُ مستقرةٍ، طائرةٌ فهم كما وصفَ اللهُ تعالى قلوبهم: ﴿لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [التكْوِين: ١٨]. هم غمٌّ لا يمكن أن يوصفَ، فيطلبُّون أحداً يريحُهم من هذا الموقفِ، إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النارِ.

المهمُّ: أن يستريحوا من هذا الموقفِ، فيأتون إلى آدم فيذكِّرونه بنعمةِ اللهِ عليه ويقولون له: «أَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَ اللَّهَ بِيَدِهِ». وهذه مزية ليست لأحد من البشرِ، فَلَمْ يَخْلُقِ اللهُ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ بِيَدِهِ إِلَّا آدَمَ، وَرَدَّ أَنَّهُ غَرَسَ جَنَّةَ عَدْنٍ بِيَدِهِ وَأَنَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ **وَجَّعَ**.

فالمهمُّ: أن الله لم يخلق أحداً من البشرِ بِيَدِهِ إِلَّا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أما قول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [التكْوِين: ٤٧]. فـ«أيدٍ» هنا ليست جمع يد، بل هي مصدر: أَدَى يَبْنِي أَيَّدَا. ونظيره: باع، وكال.

إذا: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾. ليست جمع يد، ولا يجوز لأحد أن يفسرَها بأن الله خلق السماء بِيَدِهِ؛ لَأَنَّ اللَّهَ لم يَضِفْهَا لِنَفْسِهِ، ما قَالَ: «بأيدينا» كما قَالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ وَمَا عَلَّمَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يُونُس: ٧١].

والمرَّةُ الثانيةُ: «وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»؛ أي: الرُّوح التي خلقها وليست رُوحَ اللهِ نَفْسِهِ، بل هي رُوحٌ مخلوقةٌ من مخلوقاتِ اللهِ **وَجَّعَ**.

فإن قال قائل: هذا من باب التأويل؛ لأن ظاهر الآية أنها روح الله نفسه. قلنا: نعم، وليس كل تأويل يكون باطلاً، التأويل الذي يدل عليه الدليل جائز، بل هو تفسير الكلام، أريت قوله تعالى: ﴿أَفَأَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْجُدُوا﴾ [البقرة: ١٠]. نحن نقول ﴿أَفَ﴾ هنا بمعنى: يأتي، مع أن ظاهر اللفظ أنه ماضى، لكن قوله: ﴿فَلَا تَسْجُدُوا﴾ يدل على أنه ما أتى. وكذلك قوله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»^(١). ليس المراد ظل نفسه ﷺ لأن هذا ممتنع؛ لأنه لو كان المراد ظل نفسه لزم أن يكون هناك شيء فوق الله؛ لأن من المعلوم أن الخلق في الأرض، فإذا كان هناك شيء يظلمهم من الشمس لزم أن تكون الشمس فوق هذا الذي أظلمهم، وهذا مستحيل.

إذا: «لا ظل إلا ظله»؛ يعني: إلا الظل الذي يخلقه في ذلك اليوم. لأن في الدنيا يوجد أظلة بينهن الناس كالتي في القصور والمنازل، لكن في ذلك اليوم لا يوجد ظل إلا ظل الله ﷻ الذي ينشئه ﷻ كما يشاء.

وإذا: الروح هنا ليست روح الله نفسه، والذي يمنع من ذلك أنه لو قلنا به لزم أن يكون جزء من الله حالاً في آدم، وهذا ممتنع غاية الامتناع ولا يمكن أن يفصل شيء من الله ليحل في بشر، فالروح إذا روح مخلوقة لكنها أضيفت إلى الله إضافة تشريف وتكريم، كما أضيفت الناقة إلى الله في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا﴾ [البقرة: ١٣]. أضيفت إلى الله إضافة تشريف وتعظيم، وكما أضيفت المساجد إلى الله إضافة تشريف وتعظيم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤]. ليست مساجد الله؛ أي: أن الله يسجد فيها ويصلي فيها، لا، أضيفت إليه؛ لأنها بيوتته. وكما أضيفت أيضاً البيوت -بيوت الله- التي هي المساجد إلى الله، كل هذا من باب إضافة المخلوق إلى خالقه على سبيل التشريف والتعظيم.

الصفة الثالثة: وهي التي تختص بآدم، قال: «وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ». ولم يأمر الله الملائكة أن تسجد لأحد إلا لآدم، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وهذه ثلاث مناقب كلها توجب أن يكون آدم أهلاً للشفاعة، لكنه بغير الإذن لا يعتذر. قوله: «اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ»؛ أي: اطلب من ربك أن يزيل عنا ما نحن فيه من الشدة،

لأنَّ الشفاعةَ: هي التوسطُ للغيرِ بجلبِ الخيرِ أو دفعِ الضرِّ، والضرُّ هو الضرُّ، وهنا من بابِ دفعِ الضرِّ.

❦ قوله: «لست هناك»؛ يعني: لست في ذلك المحلِّ الذي أشفعُ فيه، ولست أهلاً للشفاعةِ، ويذكر خطيئته، فيذكر الحكمَ وسببَ الحكم، الحكم: أنه ليس أهلاً للشفاعةِ، سببه: الخطيئة، والخطيئة هي أكله من الشجرة مع أنَّ الله نهاه أن يأكلَ منها، فأكلَ منها بغرورِ الشيطانِ ووساوسِ الشيطانِ، وبهذا نعرف كذبَ القصة التي تُذكر أنَّ الشيطانَ أتى إلى آدمَ بعد أن حملت امرأته حواء، وقالَ لهما: سمِّيا ابنكما عبدَ الحارث، فأبيا أن يُسمياه، فخرجَ ميّتا، وقالَ: إما أن تسمياه عبدَ الحارث، أو أجعلَ له قرنيَّ أبيل -أي: غزال- فيخرجَ من بطنك فيشقُّه، فلما أشفقا على الولد سمَّياه عبدَ الحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَليحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩٠]. هذه كذبٌ باطلٌ، وقد ذكرنا في شرح التوحيد بطلانها من عشرة أوجه، فهي لا تصحُّ عن آدمَ ولو كان هذا الأمرُ وقعَ منه لكان يُقدِّمه في الاعتذار؛ لأنَّ الشركَ أبلغُ من الأكلِ من الشجرة. فلماذا ذكر الخطيئة؟!

وكانه يقول: أنا بحاجةٌ إلى مَنْ يشفعُ لي من خطيئتي، فكيف أكون شافعاً؛ لأنَّ الشافعَ يجبُ ألا يكونَ منه خطيئةٌ، أمّا أن تفعلَ الخطيئةَ أمامَ مَنْ تشفعُ عنده، ثم تجيء تشفع فيقول: تعصي وتأتي تشفع، أنت الآن تُجري عليك العقوبة.

ثم يأتون إلى نوحٍ بأمرِ آدمَ «اتنوا نوحاً». وهنا قد يتساءل السائل كيف يُعرف نوح؟ **فيقال:** إنَّ الذي هدى الطِّفلَ إلى ثدي أمِّه بدون تعليمٍ يهدي الخلقَ إلى معرفة نوحٍ في ذلك الموقف، لا بدَّ أن يعرفوه فيأتون إلى نوح - أول رسول بعثه الله. هذه ميزة، يقولون له: «أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض». وهذه ميزة له؛ لأنه يكونُ قدوةً لمن بعده من الرسل فيذكرون له هذه الميزة.

ويستفاد من هذا الحديث: أنه أولُ رسولٍ فلا رسولَ قبله، لكن هل هناك نبيُّ قبله؟ **الجواب:** نعم، وهو آدم، فإنَّ آدمَ نبيٌّ مُكَلِّمٌ لا شكَّ؛ لأنه لا يمكن للبشر أن يتعبَّدَ لله بدون وحي - فلذلك أوحى الله إلى آدمَ ما أوحى من العبادَةِ وصار يتعبَّدُ وصار أبناؤه يتبعونه؛ لأنَّ الناسَ لم يكثرُوا ولم يختلفوا، فهم يُعدون بالعشرات أو بالمئات فيتبعون أباهم، فلما كثروا واختلفوا أرسلَ الله الرسلَ، وأوَّلَ مَنْ أُرْسِلَ نوح، وفي هذا دليلٌ على كذبِ مَنْ قال أنَّ

إدريسَ قبل نوح هذا ليس بصحيح، هذا كذب ويدلُّ لهذا قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّيِّتِينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الشع: ١٦٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحشر: ٢٦]. فلا أحد من آباء نوح أو أجداده صار نبياً أو رسولاً هذه ميزة، فيعتذر ويقول: «لست هناكم و يذكر خطيئته». وهذا أنه سأل ما ليس له به علم، حيث قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينِي أَوْ يُسَوِّدَ لِي إِسْمِي وَهُوَ يُبَدِّلُ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ [مريم: ٤٥]. لأن نوحاً عليه السلام وعده الله ^{بِالْجَنَّةِ} أَنْ يُنَجِّيه وأهله إلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ التَّوَلُّ مِنْهُمْ، فلما أَرَادَ اللهُ إغراقَ قومه وركب نوحٌ وَمَنْ مَعَهُ مِمَّنْ نَجَا فِي السَّفِينَةِ ورأى ابنه لم يكن في السفينة وإنما قال: ﴿سَوِّدَتْ لِيَ إِسْمِي وَهُوَ يُبَدِّلُ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ [مريم: ٤٣]. ولما رأى السماء قد غشاه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينِي أَوْ يُسَوِّدَ لِي إِسْمِي وَهُوَ يُبَدِّلُ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ [مريم: ٤٥]. قال: ﴿يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ لِمَا يُبَدِّلُ دِينَكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [مريم: ٤٦]. أنصحك أن تكون من الجاهلين فهذه هي الخطيئة، اعتذر بها ونقول في ذكر الخطيئة هنا كما قلنا في ذكر الخطيئة في آدم: أن مَنْ كان مُخْطِئاً فَإِنَّهُ لَا يَرَى نَفْسَهُ أَهْلاً لِلشَّفَاعَةِ.

قوله: «اتَّوَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلاً». فيأتون إبراهيم عليه السلام وقد اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلاً، والخليل هو: البالغ في المحبة أقصاها وغايتها، ولهذا قالوا: إن مراتب المحبة عشرة. أعلاها: الخُلة دون الخِلة، الخِلة تعني: الاختلال والنقص، والخُلة -بالضم- أعلى أنواع المحبة.

قوله: «اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلاً». واتخذ نبينا ﷺ خليلاً، ولا نعلم أحداً من الأنبياء اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلاً سوى هذين، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»^(١). ولم يذكر غيره من الأنبياء والرسل، فاتخذ الله إبراهيم خليلاً، ومن أكبر أسباب ذلك فيما نعلم ما جرى له في قصة ابنه إسماعيل، فإن ابنه إسماعيل أتاه على كبر، فلما بلغ معه السَّعي وكان في سنٍّ أكثر ما يكون القلبُ به تعلُّقاً، أمره الله بذبحه، فلما رأى هذه الرؤيا العظيمة التي لا يُقَدِّمُ عليها إلا مَنْ امتلأ قلبه بمحبة الله قال: ﴿وَبُنِيَ لِيَ فِي الْمَنَامِ آيَةٌ الْعَظِيمَةُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ^{رضي الله عنه}، وأمّا اللفظ المذكور فهو عند مسلم (٥٣٢) من حديث جندب البجلي ^{رضي الله عنه}.

أَذْنُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴿[الْمَائِدَةُ: ١٠٢]﴾. قَالَ لَهُ لَا عَلَى سَبِيلِ الْمَشَاوَرَةِ، لَكِنْ عَلَى سَبِيلِ
الامْتِحَانِ وَالِاخْتِبَارِ، اخْتِبَارُ الْوَلَدِ لِيَنْظُرَ مَا عِنْدَهُ، فَكَانَ الْوَلَدُ نَعَمَ الْمَعِينِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، قَالَ
لَهُ: ﴿فَاعْمَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الْمَائِدَةُ: ١٠٢]. سُبْحَانَ اللَّهِ! غُلَامٌ صَغِيرٌ
يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ، لَكِنْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ، وَقَالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وَلَمْ
يَعِزْمْ بَلْ وَكَّلَ الْأَمْرَ إِلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ مَا لَا يَشَاءُهُ اللَّهُ لَا يَكُونُ، فَعِزْمْ عَلَى التَّنْفِيزِ ﴿فَلَمَّا
أَسْلَمَا﴾؛ أَيِ: الْأَبِ وَالْابْنِ ﴿وَتَلَّهِ لِلْجَنِّينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الْمَائِدَةُ: ١٠٣]. تَلَّهِ عَلَى وَجْهِهِ، قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَلَمْ
يَتَلَّهِ عَلَى ظَهْرِهِ وَلَا عَلَى جَنْبِهِ؛ لِثَلَا يَرَى ابْنَهُ فَيَتَأَلَّمُ كَثِيرًا أَنْ يَرَى وَجْهَ ابْنِهِ وَهُوَ يَذْبَحُهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا
تَلَّهِ عَلَى الْوَجْهِ صَارَ الَّذِي يَسْتَقْبِلُهُ الظَّهْرَ وَالْقَفَا، فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الْعَصِيبَةِ جَاءَ الْفَرْجُ مِنْ
اللَّهِ وَجَلَّ: ﴿وَنَدَيْتَهُ أَنْ يَتَابَرَهِيْمُ ﴿١٠٤﴾ فَذَصَدَّتْ الرُّيَا﴾ [الْمَائِدَةُ: ١٠٤-١٠٥]. سُبْحَانَ اللَّهِ! صَدَّقَ
الرُّوْيَا؛ يَعْنِي: ذَبَحَ؛ يَعْنِي: آتَاهُ اللَّهُ أَجْرَ مَنْ ذَبَحَ؛ لِأَنَّهُ عِزْمْ وَنَفَذَ وَفَعَلَ، لَكِنْ رَحْمَةً أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ وَجَلَّ بِالْابْنِ وَالْأَبِ أَدْرَكَتْهُ، فَقَالَ: ﴿فَذَصَدَّتْ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ إِنَّ
هَذَا لَمْؤُؤُا أَلْبَسُوا الْمَيِّتُ ﴿[الْمَائِدَةُ: ١٠٥-١٠٦]﴾.

اللَّهُ أَكْبَرُ، صَحِيحٌ أَنَّهُ بَلَاءٌ مُبِينٌ، وَاخْتِبَارٌ عَظِيمٌ لِلْأَبِ وَالْابْنِ، مِنْ أَجْلِ هَذَا اتَّخَذَهُ اللَّهُ
تَعَالَى خَلِيلًا، لِأَنَّهُ قَدَّمَ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَلَى مَحَبَّةِ هَذَا الْابْنِ الَّذِي بَلَغَ السَّعْيَ مَعَهُ، وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ
وَلَدٌ سِوَاهُ، وَالَّذِي آتَاهُ عَلَى كِبَرٍ، وَمَعَ ذَلِكَ نَفَذَ هَذَا الْأَمْرَ الْعَظِيمَ.
فَيَأْتُونَ إِلَيْهِ، يَقُولُ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ»؛ يَعْنِي: أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الشَّفَاعَةِ وَيَذْكُرُ
خَطِيئَتَهُ، وَهِيَ أَنَّهُ كَذَبَ فِي ذَاتِ اللَّهِ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، قَالَ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٨﴾﴾ [الْمَائِدَةُ: ٨٩]. وَقَالَ: ﴿بَلْ
فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴿٨٩﴾﴾ [الْمَائِدَةُ: ٩٠]. وَقَالَ: «هَذِهِ أُخْتِي»؛ يَعْنِي: زَوْجَتَهُ، وَهَذِهِ كَذَبَاتٌ فِي
الظَّاهِرِ لَكِنْ فِيهَا يَرِيدُ حَقِيقَةً؛ لِأَنَّهُا تَوْرِيَّةٌ، وَالتَّوْرِيَّةُ لَيْسَتْ كَذِبًا فِي الْبَاطِنِ وَلَكِنَّهَا كَذِبٌ فِي
الظَّاهِرِ، فَمِنْ شِدَّةِ وَرَعِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَافَ أَنْ تُكْتَبَ عَلَيْهِ وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ خَطِيئَةً، أَيْنَ نَحْنُ مِنْهُ؟!
نَحْنُ نَكْذِبُ كَذِبَ أَكْبَرٍ مِنَ الْجِبَالِ وَلَا نَرَى مِنْهَا كَذِبَةً، فَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجْعَلُ التَّأْوِيلَ كَذِبًا، وَمَعَ
ذَلِكَ هُوَ فِي ذَاتِ اللَّهِ.

❦ قَوْلُهُ: «اتَّبَعُوا مُوسَى» وَيَذْكُرُ لَهُ مَزِيَّةَ «كَلِمَةُ اللَّهِ»؛ يَعْنِي: يَأْتُونَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاهُ

اللَّهُ ﷻ بكلامه، فكلمه وقد كلم غيره، لكن ليس في أصل الرسالة، بل كلم موسى في أصل الرسالة - أول ما أرسله كلمه - أما محمد وغيره من الأنبياء فتأتيهم الرسالة عن طريق الوحي من طريق الرسول جبريل عليه السلام.

❖ يقول: «فيأتونه فيقول: لست هناكم فيذكر خطيئته». وهي: أنه قتل قبطياً في قصته مع الإسرائيلي ذكره الله في سورة القصص ﴿وَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا﴾؛ يعني: من بني إسرائيل ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾؛ يعني: طلب النجدة والغوث فاستجاب لذلك ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾. وكان موسى عليه السلام قوياً شديداً من أشد الرجال وأقواهم، ضربته مرة واحدة فقصى عليه. فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (القصص: ١٥). ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (القصص: ١٦). فأقر بظلم نفسه واستغفر ربه وغفر الله له، فذهب أثر الذنب ﴿قَالَ رَبِّ يَمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص: ١٧)؛ يعني: لن أكون مُسَاعِداً لهم، ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾. خائفاً بقلبه، يترقب بصره ويخشى؛ لأن الخبر شاع في المدينة بأن قبطياً وإسرائيلياً تقاتلا وأن الإسرائيلي استفزعَ برجل من قومه، فوكر القبطي فقتله، ﴿فَإِذَا الَّذِي اِسْتَصْرَعَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ﴾ اليوم مع رجل آخر، يقول الله ﷻ ﴿فَإِذَا الَّذِي اِسْتَصْرَعَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ﴾ قال له موسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (القصص: ١٨)؛ يعني: ضالٌّ عن الحق غاوٍ بين الغواية ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ تَهَيَّأَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ ظن الإسرائيلي أنه سيقته لأنه وبخه قال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ (القصص: ١٨) فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوُّ لهما؛ أي: بالقبطي قال له الإسرائيلي: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ (القصص: ١٩). فعرف موسى وحصل ما حصل.

فهو يعتذر بأنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها مع أنه عليه السلام اعترف بالذنب واستغفر الله، وغفر الله له وزال أثر الذنب، لكن هؤلاء الأنبياء ليسوا كسائر الناس في معرفتهم بربهم واستحيائهم منه وإنابتهم إليه، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أتباعه.

❖ قوله: «اثنوا عيسى». عيسى نفع الله فيه من روجه مثل آدم، وخلقه بلا أب وأعطاه آيات يأتون إليه فيقول: «لست هناكم». ولا يذكر خطيئته، ثم يقول: «اثنوا محمداً ﷺ»، فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

❖ قوله: «اثنوا محمداً» ولم يذكر ذنباً، وهذا من مناقب النبي ﷺ أن الأنبياء السابقين

ينقسمون إلى قسمين:

○ قسمٌ ذكر مانعًا من شفاعته وهو: الخطيئة.

○ وقسمٌ لم يذكر مانعًا لكنه أحال إلى مَنْ هو أعلى منه مرتبة وهو عيسى، فإنه لم يذكر مانعًا، يَعْنِي: هو أَهْلٌ لَأَنْ يَشْفَعَ لكنه تقاصر عن الشَّفاعَةِ؛ لأنه رأى مَنْ هو أعلى منه مرتبة وأفضل وهو محمدٌ ﷺ، فَيَأْتُونَ إلى محمدٍ ﷺ.

❖ قوله: «فأستأذن على ربي». استأذِنُ: أَطْلُبُ منه الإِذْنَ؛ لَأَنَّ الرَّبَّ ﷻ قد استوى على عرشه، فيدنو منه النَّبِيُّ ﷺ ويستأذنُ عليه، فإذا رأى اللهُ وقَعَ ساجدًا؛ تعظيمًا للهِ رَبِّ العالمين ﷻ يقع ساجدًا تعظيمًا له.

❖ قوله: «فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللهُ». ولم يبين النَّبِيُّ ﷺ كم يدْعُهُ: سنةً أو ستتين، أو شهرًا أو شهرين، أو يومًا أو يومين، أو ساعةً أو ساعتين، اللهُ أعلم.

❖ قوله: «ثم يُقال: اَرْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلِّ تَعْطَهُ». «ارفع رأسك» من السجود. «وسلِّ تَعْطَهُ» تحتل على أن تكونَ الهاءُ للسكت كما هي مسكنةٌ عندي، وتحتل أن تكونَ ضميرًا، فإذا كانت ضميرًا فإنه يُقال: تُعْطَهُ؛ أي: تُعْطَى المسئولُ، «سَلِّ» بمعنى: اسأل.

❖ قوله: «قل يسمع»؛ يَعْنِي: يُسْمَعُ القول، قل ما شئت فإنه يُسْمَعُ؛ يَعْنِي: يُسْتَجَاب.

❖ قوله: «واشفعْ تُشفعْ». هذا الشَّاهد؛ لَأَنَّهُ إنما جاء للشفاعة.

❖ قوله: «فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميدٍ يُعلمني»؛ يَعْنِي: تحميدًا جديدًا غير ما كان النَّبِيُّ ﷺ يعرفه في الدُّنيا، يفتحُ اللهُ عليه من المحامدِ في ذلك الوقتِ ما لم يكن يعرفه في الدُّنيا، ولهذا قَالَ: «بتحميدٍ يُعلمني».

❖ قوله: «ثم أشفع فيحدُّ لي حدًّا ثم أُخرجهم من النَّارِ وأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثمَّ أَعُوذُ فَأَقْعُ ساجدًا مثله في الثَّالِثَةِ أو الرَّابِعَةِ حَتَّى مَا يَبْقَى في النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ». وهم الكفرة الذين لا يخرجون من النَّارِ.

ودَلَّ هذا الحديث: على أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يشفعُ في مَنْ دخل النَّارَ أن يُخرجَ منها.

❖ قوله: «وكان قتادة يقول عند هذا: أي وجب عليه الخلود»؛ يَعْنِي: قوله: إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ؛ أي: وَجَبَ عليه الخلودُ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٦٦ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ ذَكْوَانَ، حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ، حَدَّثَنَا عُمَرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُخْرَجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ».

هذا الحديث سَبَقَ الكلامُ عليه، وَبَيَّنَّا أَنَّهُمْ لَا يَهْتَمُّونَ بِهَذَا وَلَا يَضْجُرُونَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ يُذَكِّرُهُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حَيْثُ أَنْجَاهُمْ مِنَ جَهَنَّمَ، وَصَاحِبُ الْفَتْحِ ذَكَرَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يَشْكُونَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَرَفَعُ عَنْهُمْ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ ^(١).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٦٧ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ عَرْبٌ سَهْمٌ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْتُ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِنْ قَلْبِي، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ لَمْ أَبْكِ عَلَيْهِ وَإِلَّا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ لَهَا: «هَبِلِي أَجَنَّةً وَاحِدَةً هِيَ، إِنَّهَا جَنَّاتٌ كَثِيرَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى».

٦٥٦٨ - وَقَالَ: «عُدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابٌ قَبُوسٍ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعٌ قَدَمٌ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لِأَصْأَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا - يَعْنِي: الْخِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

هذا فيه فضائل عظيمة وهما حديثان: حديث أم حارثة وقد سبق الكلام عليه.

❁ وقولها ^(٢) «وإلا سَوْفَ تَرَى مَا أَصْنَعُ»؛ يَعْنِي: مِنْ شِدَّةِ الْبُكَاءِ، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا فَقَدْ وَلِدَهَا وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ فِيزْدَادُ حَزْنُهَا.

❁ وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَقَالَ: عُدْوَةٌ» هَذَا حَدِيثٌ آخَرُ، «عُدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ». الْغُدْوَةُ: أَوَّلُ النَّهَارِ، وَالرَّوْحَةُ: آخِرُ النَّهَارِ.

(١) قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٤٣٠): «... وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَزَادَ: فَيَدْعُونَ اللَّهَ فَيَذْهَبُ عَنْهُمْ هَذَا الْأَسْمُ». اهـ
وَهَذَا الْحَدِيثُ عِنْدَ مُسْلِمٍ (١٨٣) وَلَمْ نَقِفْ عَلَى اللَّفْظِ الْمَذْكُورِ عِنْدَهُ.

❦ قوله: «خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ وَالتَّرَفِ.

❦ قوله: «قَابُ قَوْسٍ أَحَدُكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»؛ يَعْنِي: الْمَكَانَ الصَّغِيرَ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا كُلُّهَا زَائِلَةٌ، وَكُلُّهَا مُنْعَصَةٌ لَا يَأْتِي يَوْمٌ إِلَّا يَخْلُفُهُ يَوْمٌ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نَسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

فَالْجَنَّةُ لَيْسَ فِيهَا هَذَا، فَمَوْضِعُ الْقَدَمِ أَوْ قَابُ الْقَوْسِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ لِأَنَّهُ يَبْقَى.

❦ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لِأَضَاءَتِ مَا بَيْنَهُمَا» اللَّهُ أَكْبَرُ، أَضَاءَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِذَا: فَهِيَ نَوْرٌ عَظِيمٌ مِثْلُ الشَّمْسِ تُضِيءُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

❦ قوله: «وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا»؛ يَعْنِي: مِنَ الرِّيحِ الطَّيِّبِ الَّذِي لَا تَدْرِكُهُ مِشَامُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ يَمَآكَاتٍ يَعْمَلُونَ﴾ [الْحَجَّة: ١٧].

❦ قوله: «وَلَنَصِفُهَا»؛ يَعْنِي: خَارَهَا؛ يَعْنِي: الْخَمَارُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَهَذِهِ الْخَيْرِيَّةُ وَاضِحَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَفَضْلُ اللَّهِ وَاسِعٌ، حَتَّى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «رَكَعَتَا الْفَجْرِ - يَعْنِي: سُنَّةُ الْفَجْرِ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١).



ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٦٩- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ».

هَذَا أَيْضًا مِنْ كِمَالِ النِّعَمِ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُرَى أَهْلَ الْجَنَّةِ مَا زَالَ عَنْهُمْ مِنَ الْمَخَافِ وَالشَّقَاءِ فَيَقُولُ: هَذَا مَكَانُكَ لَوْ أَسَأْتَ، وَمَنْ بَوَّسَ أَهْلَ النَّارِ أَنَّهُ يُرَى مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ: هَذَا مَكَانُكَ لَوْ أَحْسَنْتَ، نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٧٠ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ عَمْرِو، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ».

هذا فيه أيضًا: إثبات شفاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لأهل الكبائرِ من أُمَّتِهِ، وأن أسعدَ الناسِ بذلك مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، فهو أسعدُ الناسِ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وفيه: دليلٌ على منقبةٍ من مناقبِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حرصُهُ على الحديثِ عن النَّبِيِّ ﷺ، ولهذا سألَ هذا السؤالَ الذي قَالَ فِيهِ الرَّسُولُ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَ مِنْكَ». يَعْنِي: قَبْلَكَ.

وفيه أيضًا: أن التَّقَدُّمَ فِي السُّؤَالِ أَوْ التَّقَدُّمَ بِالسُّؤَالِ مِنْ مَنَاقِبِ الْإِنْسَانِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ النَّاسُ يَحْتَاجُونَ إِلَى هَذَا السُّؤَالِ، أَمَا فَرَضُ مَسْأَلَةِ بَعِيدَةِ الْوُقُوعِ وَالتَّعَنُّتِ فِيهَا، فَإِنْ هَذَا مِمَّا نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»^(١).



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٧١ - حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا فَيَقُولُ اللَّهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُمَا مَلَائِكَةٌ، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى. فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُمَا مَلَائِكَةٌ، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى. فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا - فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي - أَوْ تَضْحَكُ

مِنِّي - وَأَنْتَ الْمَلِكُ ». فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يَقُولُ: «ذَلِكَ أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً»^(١).

[الحديث ٦٥٧١ - طرفه في: ٧٥١١].

هذا دليل على نعيم الجنة وأنه أعظم بكثير من الدنيا، يقول الله ﷻ: «إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا». كلها وهو رجل واحد.

وقوله: «أَتَسْخَرُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ». هذا بناء على ما تبادر إليه؛ لأنه هو آخر أهل النار، وجاء وخيل له أنها ملئت فقال: أين الدنيا؟ الدنيا بسعتها ببساتينها بأشجارها بأنهارها بكل شيء له عشرة أمثالها، ولهذا جاء في الحديث: «أن أدناهم من ينظر في ملكه مسيرة ألفي عام ويرى أقصاه كما يرى أدناه». وهذا يدل على كمال النعيم، أن النظر بامتداده لا يتأثر، نحن نرى الأقرب منا أكثر مما نرى الأبعد ونحيط به أكثر، لكن في الجنة كله سواء، حتى لا يغيب عنك شيء مما من الله به عليك من النعيم، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٧٢ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَمِيرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ تَوْفَلٍ، عَنْ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ نَفَعَتْ أَبَا طَالِبٍ شَيْءٌ؟^(١)

نعم نفعه، حتى كان في ضحْضَاحٍ من نارٍ وفي أخس قدميه نعلان يغلي منها دماغه - والعياذ بالله - ولولا له لكان في الدرك الأسفل من النار، لكنه هل نفعه بإخراجه من النار؟ لا، لأن الله قال عن أهل النار: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾^(٢) [المائدة: ٤٨]. لا يمكن أن يُخرج بأي وسيلة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥٢ - باب الصَّراطِ جَسْرُ جَهَنَّمَ.

٦٥٧٣ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي سَعِيدٌ وَعَطَاءٌ بْنُ زَيْدٍ،

(١) أخرجه مسلم (١٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٩).

أَنْ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّثَّيْنِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، هَلْ تَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟». قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟». قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعْ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ، وَيَتَّبِعْ هَذِهِ الْأُمَّةَ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِينَا رَبُّنَا، فَإِذَا أَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ وَيَضْرِبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَدَعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَسَلِّمْ، وَبِهِ كَلَالِبُ مِثْلِ شَوْكِ السَّعْدَانِ، أَمَّا رَأَيْتُمْ شَوْكِ السَّعْدَانِ؟». قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمَتِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَتَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمْ الْمُؤَبَّقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ الْمُخْرَدُ، ثُمَّ يَنْجُو حَتَّى إِذَا قَرَعَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَآرَادَ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ آوَدَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْهُ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوهُمْ فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرِ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَهُمْ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَسْتَوْنَ نَبَاتِ الْجَنَّةِ فِي حِمِلِ السِّلِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ قَسَيْتَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذُكَاؤُهَا فَاصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللَّهَ، فَيَقُولُ: لَعَلَّكَ إِنْ أَعْطَيْتَنِي أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرُهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرُهُ. فَيَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: يَا رَبِّ قَرَّبْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ. فَيَقُولُ: أَلَيْسَ قَدْ رَعِمْتَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرُهُ، وَيَلَّكَ يَا بَنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ! فَلَا يَزَالُ يَدْعُو فَيَقُولُ: لَعَلَّنِي إِنْ أَعْطَيْتَنِي ذَلِكَ تَسْأَلَنِي غَيْرُهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرُهُ. فَيُعْطِي اللَّهُ مَا شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَمَوَاتِيقَ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرُهُ، فَيَقْرُبُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا رَأَى مَا فِيهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: رَبِّ ادْخُلْنِي الْجَنَّةَ. ثُمَّ يَقُولُ: أَوَلَيْسَ قَدْ رَعِمْتَ أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرُهُ؟ وَيَلَّكَ يَا بَنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ! فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ. فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى

يُصَحِّحُ، فَإِذَا صَحِّحَ مِنْهُ أَذِنَ لَهُ بِالْدُّخُولِ فِيهَا، فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا قِيلَ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا. فَيَتَمَنَّى، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا. فَيَتَمَنَّى حَتَّى تَنْقَطِعَ بِهِ الْأَمَانِيُّ، فَيَقُولُ لَهُ: هَذَا لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا^(١).

٦٥٧٤- قَالَ عَطَاءٌ وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ جَالِسٌ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لَا يُغَيِّرُ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ حَدِيثِهِ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ: هَذَا لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: حَفِظْتُ: «مِثْلُهُ مَعَهُ»^(٢).

هذا حديث طويل فيه عدة فوائد وعقائد:

أولاً: الصَّحَابَةُ رَضُوا سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ هل نرى ربنا يومَ القيامة؟ فقال: «هل تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟». قالوا: لا؛ يَعْنِي: هل يلحقكم ضررٌ في رؤيةِ الشمسِ ليس دُونَهَا سَحَابٌ، قالوا: لا. كُلُّ النَّاسِ يَرَوْنَهَا، يَرَاهَا كُلُّ إِنْسَانٍ وَهُوَ فِي مَكَانِهِ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ فَقَالَ: «هل تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟». فقالوا: لا يا رسولَ اللهِ؛ لِأَنَّ رُؤْيَيْتَهُ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ، كُلُّ إِنْسَانٍ يَرَاهُ فِي مَكَانِهِ، قَالَ: «فإنَّكُمْ ترونَه يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ»؛ أَي: كَرُؤْيَيْتِكُمْ وَلَيْسَتْ الْإِشَارَةُ هُنَا عَائِدَةً إِلَى الْمَرْثِيِّ، وَلَكِنهَا عَائِدَةٌ إِلَى الرُّؤْيَةِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ قَوْلِهِ: «ترونَه»؛ يَعْنِي: ترونَه يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا ترونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ، وَكَمَا ترونَ الشَّمْسَ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَهَذَا الْحَدِيثُ كَمَا رَأَيْتُمْ وَاضِحٌ بِأَنَّهَا رُؤْيٌ بَصَرِيٌّ بِالْعَيْنِ يَرَاهَا الْإِنْسَانُ، رُؤْيٌ مُؤَكَّدٌ، وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا، وَقَدْ أُنْشِدْتُمْ بَيِّنِينَ فِيمَا سَبَقَ كَانَ مِنْ بَيِّنِهَا الرُّؤْيَةُ:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْضُ وَمَسْحُ خُفَّيْنِ وَهَذَا بَعْضُ

وَالشَّاهِدُ قَوْلُهُ: «رُؤْيَا». وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهَا كِتَابُ اللَّهِ ﷻ:

الآيَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا نَأْظُرْهُ﴾^(١) إِلَى رَجْعِهَا نَظَرُهُ^(٢) ﴿الْبَيْتَانِ: ٢٢-٢٣﴾.

(١) أخرجه مسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣).

﴿وَجُوهٌ﴾ والنظر بالوجه يكون بالعين. ﴿نَاضِرَةٌ﴾؛ أي: حسنة. ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾؛ أي: تنظر إليه.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾ [الزُّمَرُ: ٢٦]. فَسَّرَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ، وَأَعْلَمَ النَّاسَ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ لَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ٤٤]. فَهُوَ الَّذِي يُبَيِّنُ، فَإِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَا تَعْدِلْ بِهِ شَيْئًا.

والآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرْكَانِ يُنظَرُونَ﴾ [المُحَمَّدِيُّ: ٢٣]. حُذِفَ الْمَفْعُولُ بِهِ لـ ﴿يُنظَرُونَ﴾، فَإِذَا حُذِفَ الْمَفْعُولُ بِهِ كَانَ عَامًّا؛ لِأَنَّ حَذْفَ الْمَفْعُولِ يُفِيدُ الْعُمُومَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا حُذِفَ الْمَفْعُولُ مَعْنَاهُ أَنَّ الْأَمْرَ مُطْلَقٌ، يَنْظُرُونَ مَاذَا؟ يَنْظُرُونَ كُلَّ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ تَفْسِيرُهُ الْآيَةُ الْآخَرَى الَّتِي فِي الْقِيَامَةِ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ] ﴿٢٣﴾ [الْقِيَامَةُ: ٢٢-٢٣].

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [نُوحٍ: ٣٥]. ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ يَعْنِي: مَزِيدٌ عَلَى مَا يَشَاءُونَ؛ يَعْنِي: فَوْقَ مَا يَتَمَنُونَ، فَمَا هُوَ الْمَزِيدُ؟ مِمَّا يَدْخُلُ فِي الْمَزِيدِ الزِّيَادَةُ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنٍ وَزِيَادَةٌ﴾ [الزُّمَرُ: ٢٦]. الَّتِي فَسَّرَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهَا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ، فَيَكُونُ فِي الْقُرْآنِ أَرْبَعُ آيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى النَّظَرِ إِلَى اللَّهِ ﷻ بِالْعَيْنِ رُيُوءَةً حَقِيقَةً، وَلِهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ - كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - إِلَى كُفْرِ مَنْ أَنْكَرَ رُيُوءَةَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا عُذْرَ لَهُ، فَهَذَا مَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ، النَّصُوصُ فِيهَا لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ، فَمَنْ أَنْكَرَهَا فَقَدْ وَقَعَ فِي التَّكْذِيبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّا ذَكَرْنَا سَابِقًا قَاعِدَةً مُفِيدَةً فِي هَذَا الْبَابِ، وَقُلْنَا: مَنْ أَنْكَرَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ إِنكَارُهُ تَأْوِيلًا أَوْ تَكْذِيبًا، فَإِنْ كَانَ تَكْذِيبًا فَهُوَ كَافِرٌ، إِذَا أَنْكَرَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَكْذِيبًا فَهُوَ كَافِرٌ، مِثْلًا لَوْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَوْ عَلَى الْعَرْشِ. نَقُولُ: هَذَا كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ كَذَّبَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طٰهٍ: ٥٠]. لَكِنْ لَوْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ اسْتَوَى، لَكِنْ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوَى، هَذَا أَنْكَرَهَا تَأْوِيلًا، فَيَنْظُرُ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّا لَا نَكْفُرُهُ، وَإِذَا كَانَ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ فَإِنْ تَأْوِيلَ مَا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ تَكْذِيبٌ فِي الْحَقِيقَةِ، لَوْ سَمِعْتَ شَخْصًا يَقُولُ: اشْتَرَيْتُ ثَوْبًا فَقَالَ: أَرَادَ بِالثَّوْبِ الْخُبْزَةَ؛ لِأَنَّهَا تُشَبِّهُ الثَّوْبَ فِي انْبِسَاطِهَا فَقَدْ أَرَادَ بِالثَّوْبِ الْخُبْزَ، هَذَا كَذِبٌ مَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ، هَذَا تَكْذِيبٌ فَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ هَذَا. وَقَدْ رَأَيْتُ فِي «جَرِيدَةِ الْمُسْلِمِينَ» كَلَامًا لِشَخْصٍ - نَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ - فَسَّرَ أَكَلَ آدَمَ وَحَوَاءَ مِنَ الشَّجَرَةِ بِأَنَّهَا الشَّهْوَةُ، وَلَيْسَ هُنَاكَ شَجَرَةٌ وَلَا أَكَلَ، هَذَا

تحريف - والعياذ بالله - لعبٌ بالقرآن، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٢٥]. فأكل منها، كيف تقول شهوة؟ أين الشهوة؟

على كلِّ حال نقول: إنكار ما دلَّ عليه القرآن أو السنة، إما أن يكون تأويلاً أو تكذيباً، إن كان تكذيباً فهو كفر. وإن كان تأويلاً نظرنا إن كان اللفظ يحتمل فإنه لا يكفر صاحبه، وإن كان لا يحتمل فإنه يكون بمنزلة التكذيب، فروية الله ﷻ في الآخرة تواترت بها الأحاديثُ عن النَّبِيِّ ﷺ تواتراً لا خفاء فيه بمعنى واضح، لا يحتمل التأويل، وكذلك القرآن صريحٌ عند الإنسان الذي ليس له هوى.

❖ قوله: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئاً فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ»؛ يعني: تُصَوِّرُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَتَّبِعُونَهَا. «وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ». يتبع القمر. «وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ»؛ يعني: الطواغيت، إلى أين؟ إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ أي: محصوبون فيها أنتم وآلهتكم.

❖ قوله: «وَبَقِيَ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا». المنافق: هو الذي يُظْهَرُ الإسلامَ وَيُبْطِنُ الكفر، بل يُظْهَرُ الإيمانَ وَيُبْطِنُ الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]. هؤلاء المنافقون يُسَخِّرُ بِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، يُحْشَرُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ يُضْرَبُ بَيْنَهُمْ بَسُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ، فينادي المنافقون المؤمنين: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [الحج: ١٤]. نصلي معكم ونعشاكم في مجالسكم. فيقولون: ﴿بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَفْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [١١] فَأَلِيمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَاؤُنْكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ١٤-١٥]. هؤلاء المنافقون يبقون مع هذه الأمة فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، يأت الله هؤلاء المجتمعين من هذه الأمة من المؤمنين والمنافقين في غير الصورة التي يعرفون، بأي شيء يعرفونه؟ يعرفونه بما علموا مما وصف الله به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

وفيهِ: تحذيرٌ من البدعة التي تُنْكِرُ صفاتِ الله ﷻ المرئية بالبصر مثل العين والوجه واليد والقدم؛ لأنَّ قوله: «يأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون». يأتهم على صورة، لكن غير التي يعرفون اختباراً لهم، «فيقول: أنا ربكم». فيقولون: نعوذ بالله منك. هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا.

يَسْتَعِيزُونَ بِاللَّهِ مِنْهُ أَنَّهُ الرَّبُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَكِنْ بِنَاءً عَلَى مَا تَرَاهُ لَهُمْ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ إِيَّاهُ.

وفيه فائدة: وهي أَنَّ حَكَمَ الْإِنْسَانِ عَلَى مَا يَظُنُّ جَائِزٌ، حَتَّى فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الْخَطِيرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا أَنَّ الْإِلَهَ مَعَ أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَاءً عَلَى مَا تَرَاهُ لَهُمْ، وَقَدْ مَرَّ عَلَيْنَا مَرَارًا وَتَكَرَّرًا بِأَنَّ الْيَمِينَ عَلَى مَا يَغْلِبُ الظَّنَّ مَاضِيًا أَوْ مُسْتَقْبَلًا لَيْسَ فِيهَا حَنْتٌ وَلَا تَحْرِيمٌ، حَتَّى وَإِنْ تَضَمَّنَتْ أَكْلًا لِلْمَالِ بِالْبَاطِلِ، حَتَّى وَإِنْ تَضَمَّنَتْ قَتْلًا مَا دَامَ عَلَى غَلْبَةِ الظَّنِّ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُوَازِئُهَا، لَكِنِهَا فِي مَسْأَلَةِ الْقَتْلِ لَا بَدَّ مِنْ قَرِينَةٍ، وَوَجْهَ ذَلِكَ: قِصَّةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلٍ الَّذِي قُتِلَ فِي خَيْبَرَ وَجَاءَ أَهْلُهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَادَّعَوْا عَلَى الْيَهُودِ أَنَّهُمْ قَتَلُوا صَاحِبَهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَحْلِفُونَ خَمْسِينَ يَمِينًا وَتَسْتَحْقُونَ دَمَهُ - أَيْ: دَمَ مَنْ ادَّعَيْتُمْ عَلَيْهِ الْقَتْلَ - أَوْ دَمَ صَاحِبِكُمْ عَلَى مَنْ ادَّعَيْتُمْ عَلَيْهِ الْقَتْلَ». قَالُوا: كَيْفَ نَحْلِفُ وَلَمْ نَرَهُ وَلَمْ نَشْهَدْهُ. فَقَالَ: «تَحْلِفُ لَكُمْ الْيَهُودُ خَمْسِينَ يَمِينًا». قَالُوا: مَا نَرْضَى بِأَيَّانِ الْيَهُودِ وَهُمْ يَهُودٌ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَلَا يُبَالُونَ، فَوَدَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِهِ. الشَّاهِدُ أَنَّ الرَّسُولَ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَحْلِفُوا مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا، وَمَرَّ عَلَيْنَا أَيْضًا قِصَّةَ الْمُجَامِعِ الَّذِي قَالَ: وَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابِتْهَا أَهْلَ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنِّي. ^(١) مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَمْشِ عَلَى كُلِّ بَيْتٍ، فَالشَّاهِدُ: أَنَّ الْعَمَلَ بِغَلْبَةِ الظَّنِّ لَا بَأْسَ بِهِ كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَيْضًا.

قوله: «فَإِذَا أَنَا رُبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ». فَهُمْ يَعْرِفُونَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي هذا الحديث: شَاهِدٌ لِلْحَدِيثِ الْآخِرِ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» ^(١). حَيْثُ دَلَّ عَلَى أَنَّ لِلَّهِ صُورَةً وَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهَا.

وَلَكِنْ هَلْ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ آدَمَ عَلَى صُورَةِ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مِثْلًا لِلَّهِ؟

الجواب: لَا يَلْزَمُ لَا شَرْعًا وَلَا عَقْلًا.

أَمَّا لَا شَرْعًا: فَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَثْبَتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٢، ٦١٤٣)، ومسلم (١٦٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٦١٢).

فنقول: صورةٌ لكن ليست مثل صورة آدم، إنما على سبيل العموم، فقد خلق الله آدم على صورته لكن لا يلزم التماثل، مثل ما نقول: يدٌ لله ويدٌ للآدمي، لكن لا يلزم التماثل، ويجب علينا الإيمان بذلك لثبوت السنة به.

والرسول ﷺ هو أعلم الناس بربه، وأفصحهم فيما يعبر به، وأصدق الخلق فيما يقول، وأفصحهم فيما يريد.

وهذه الأوصافُ الأربعة في الكلام متى ثبتت فيه وجب القول بمدلوله ولم يجز العدول عنه وهي: كمال العلم، والصدق، والإرادة، والبلاغة.

فإذا عبر النبي ﷺ عن الله بأن له صورةً فلا ينبغي أن نأتي نحن لنقول بكذبٍ هذا، أو أن الله لا صورة له، بل إن البعض - والعياذ بالله - كَفَر من قال: إن الله صورة، وعلى قاعدته يكون النبي ﷺ كافرًا - والعياذ بالله -.

فنحن نقول: إن الله صورةٌ كما قالَ نبيُّنا ﷺ وهو إمامنا وأعلمنا بالله، لكننا نقولُ إلى جانب ذلك: لكنه **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**.

وإذا: فله صورةٌ لا تماثلها أي صورة؛ لأن الله ليس كمثله شيء.

فإن قال قائل: إن الله خلق آدم على صورته هذا يقتضي المماثلة، أي: أن يكون ما كان على صورة الشيء مثل الشيء؟

نقول: إن أولَ زمرةٍ تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ومع ذلك ليسوا مماثلين للبدر مماثلةً تنطبق؛ فلهذا كان مذهبُ أهل السنة والجماعة في مثل هذه الأمور هو القول بمدلول النصوص كلها، فيجمعون بين الإثبات وبين النفي - إثبات ما جاءت به ونفي التمثيل - ولا يجبنون عن ذلك ولا يتهيبونه، فالذي يجب أن نجبن منه ونهيه هو أن نصرف النصوص عن ظاهرها إلى ما ندعي أن العقل يوجهه، كما يفعل أهل البدع. ولا يمكن أن تهيب من شيء لم يتهيب منه الرسول ﷺ وهو أشدُّ منا تعظيمًا لله بلا شك.

فخلاصة القول: أن ثبتَ لله تعالى صورة، لكنها ليست مثل صورة المخلوق، ولا يجوز أن تماثل؛ لأن الله يقول: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** (١١).

وفي هذا الحديث أيضًا: إثبات القول لله والمحاضرة أو المناجاة معه ﷻ وهذا دليل على أنه يتكلم بصوت مسموع وبحرف يكون منه الكلام؛ لأنه يقول: أنا ربكم. وهذه الكلمة

إذا قيلت لابد أن تكون بصوت وأن تكون بحروف.

ومن فوائد هذا الحديث: ضربُ الجسرِ على جهنم ومعلوم: أن الذي يضربه هو الله وَعَلَيْهِ ولم يفصح بالفاعل للعلم به؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ^(١٨) [النكتة: ٢٨]. ولم يقل: وخلق الله الإنسان ضعيفاً؛ لأن الخالق معلوم وهو الله وَعَلَيْهِ.

فِيضْرَبُ الجسرُ بأمرِ الله لِيُعْبَرَ عليه، وهذا الجسرُ اختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ فيه هل هو جسرٌ كغيره من الجسور، يعني: أنه واسعٌ يعبرُ الناسُ منه عبوراً عادياً أو أنه ليس كذلك، ففي صحيح مسلم عن أبي سعيدٍ بلاغاً: «أَنَّهُ أَذَقَ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ» ^(١٩)، فهو دقيق جداً.

ولكن يبقى النظر: كيف تعبرُ الأمةُ ويعبرُ كلُّ أهل الجنة عليه، بل العالمُ كله، فمن نظر إلى العقل قال: هذا لا يمكن؛ لأن الإنسان لا يستطيع ذلك، لكن قاله النبي ﷺ من باب ضرب المثل لمشقة العبور عليه؛ يعني: أنه في مشقة العبور عليها كالشعرة، فكما أن الإنسان يشقُّ عليه إن أمكنه أن يعبرَ على الشعرة أو على حدِّ السيف فكذلك هذا الجسر؛ لأنه منصوبٌ على حرِّ جهنم والعياذ بالله، فحرارتها لا تطاق، فشدَّة الحرِّ التي نجدها يقول الرسول ﷺ: «هِيَ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ» ^(٢٠)، ويقول: «إِنَّ النَّارَ اشْتَكَّتْ إِلَى رَبِّهَا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٌ فِي الشَّتَاءِ وَنَفْسٌ فِي الصَّيْفِ» ^(٢١).

إذا: فهذا الجسرُ الذي على النارِ سيكون العبورُ عليه شديداً وصعباً كالذي يمشي على الشعرة أو حدِّ السيف، وهذه النظرة نظرة مَنْ يُغَلِّبُ العقلَ على التفويض.

وقال بعضُ العلماء: إن لدينا قرينة تدلُّ على هذا الصَّرفِ عن ظاهره، وهو ما ذُكر في هذا الحديث، يقول: «إِنَّ عَلَيْهِ كَلَالِبَ مِثْلِ شَوْكِ السَّعْدَانِ» ^(٢٢)، وقد ورد في وصفه أيضاً أنه «دَحْضُ مَرَلَةٍ» ^(٢٣)، أي: طينٌ ووحلٌ؛ فلا بد أن يكون طريقاً واسعاً، والذي عليه الشوك مثل شوك السعدان لابد أن يكون طريقاً واسعاً.

(١) أخرجه مسلم (١٨٣ م).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٦)، ومسلم (٦١٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧).

(٤) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٥) أخرجه مسلم (١٨٣).

وأما الذين غلبوا جانبَ التفويضِ فقالوا: إن الله على كل شيء قدير، والقادر على أن يحمل الإنسان في الهواء قادرٌ على أن يحمله على مثل هذا الطريق، وأما أن عليه كلالِبَ مثل شوكِ السعدانِ، فإنه لا يمنعُ أن يكونَ دقيقًا، وأما كونه دحضٌ ومذلةٌ فنعم، فلعمُرُ الله إن طريقًا مثل هذا لدحضٌ ومذلة، فالذي نرى: أن الأولى في هذا أن نفوِّضَ ونقول: إنه مثل الشعر وأحدٌ من السيفِ، وإن الله على كل شيء قدير، وهذا هو الأحسن.

ولكن مع ذلك: من خالفَ فإنه لا يكونُ خارجًا عن مذهبِ أهل السنة والجماعة، وهذا من المسائلِ الأصولية التي ثبت فيها اختلافُ أهل السنة، وبه نعرفُ أن من قال: لا خلاف في الأصول، فإنما عني به أمهات الأصول، يعني: لم يختلف أهل السنة بأن هناك جسرًا يكونُ على جهنم لكن صفته يختلفون فيها، ولا يختلف الناسُ مثلًا في أن هناك ميزانًا يومَ القيامة، لكن هل الذي يوزن العمل، أو العامل، أو الصُّحف، هذا اختلاف فرعي، فما نقل كثيرٌ من العلماء من أن أهل السنة والجماعة لم يختلفوا في الأصولِ مرادهم أمهاتِ الأصول. لكن بعضُ التفاصيلِ أو الصفاتِ لهذه الأصولِ قد يختلفون فيها، وهذا لا يضر؛ لأن الله عز وجل فوّت بين الخلق في أمور كثيرة كلها سببٌ للعلم، فوّت بينهم في العلم وفي الفهم وفي الإيمان وفي الجد والاجتهاد. وليس أحدٌ منهم حجة على الآخر، فالحجة فيما قال الله وقال الرسول ﷺ؛ ولهذا قال الله في كتابه: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وهذا هو المقياس، وعليه فالذين يقولون: ردُّوه إلى الأكثرِ صوتًا مُخطئون مُخالفون للكتاب والسنة، والذي يقولون: ردُّوه للأكثرِ سنًا مُخطئون مُخالفون للكتاب والسنة، والذي يقولون: ردُّوه للأكثرِ علمًا مُخطئون مُخالفون للكتاب والسنة، فالله تعالى قال: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. لكن صحيحٌ أنه كلما كثر القائلون بالقول كانوا أقرب إلى الإصابة، وكلما كثر علمُ الشخص كان أيضًا -إذا وفقَ لعلم وفهم- أقرب إلى الإصابة، وكلما كبر الإنسان في طلب العلم كان قوله أقرب إلى الإصابة، أمّا أن يكونَ قوله هو الصواب أو قول الأكثر هو الصواب، فلا، ولهذا لم يجعل الله مقياسًا إلا الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٠].

إذا: الخلافُ أمرٌ واقعٌ لا بد منه، إلا فيما لا يتصورُ فيه الخلافُ كوجوبِ الصلوات الخمس مثلاً، وما أشبه ذلك مما علم حكمه بالضرورة من الدين، فهذا شيءٌ معروفٌ ولا خلاف فيه.

وَإِذَا تَبَيَّنَ لِلإِنْسَانِ قَوْلٌ يَخَالِفُ مَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ فَلَا نَلُومَهُ، أَمَا إِذَا خَالَفَ الإِجْمَاعَ فَهِنَا نَلُومُهُ وَنَقُولُ لَهُ: خَرَجْتَ عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا نَرَى أَنَّ مَنْ الْجَوْرُ أَنْ يَقُولَ الإِنْسَانُ لِمَنْ خَالَفَهُ فِي الرَّأْيِ: هَذَا خَارِجٌ عَنِ السَّبِيلِ، وَلِلْمَخَالَفِ لَكَ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ لَكَ، وَهَذَا مِنْ أخطرِ مَا يَكُونُ عَلَى الإِنْسَانِ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى إعْجَابِ الإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ وَاحْتِقَارِهِ لغيره، وَربما يَكُونُ الْحَقُّ مَعَ الْمَخَالَفِ، فَيَجْتَمِعُ فِي حَقِّ هَذَا نَوْعَانِ مِنَ الْكِبَرِ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ، وَهَذَا يُخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَطْبَعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [نمل: ٢٥]. نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ مِنْ ذَلِكَ.

المهم: أَنَّ مَسْأَلَةَ الْخِلَافِ فِي الْأَصُولِ مُهِمَّةٌ جَدًّا، فَنَقُولُ: إِنَّ الْأُمَهَاتِ لَا شَكَّ أَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَكِنْ فُرُوعُ هَذِهِ الْأُمَهَاتِ مِنْ صِفَاتِهَا أَوْ عَدِيدِهَا أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ رُبَّمَا يَقَعُ فِيهَا الْخِلَافُ.

وفي هذا الحديث أيضًا: منقبةٌ للرسول ﷺ؛ لأنه كان أَوَّلَ مَنْ يَجِيزُ.

وفيه: دليلٌ على أَنَّ الرِّسْلَ مَفْتَقَرُونَ إِلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّهُمْ يَدْعُونَ فَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ».

وفيه: دليلٌ على ثُبُوتِ الدُّعَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالدُّعَاءِ عِبَادَةً؛ وَعَلَى هَذَا نَقُولُ: لَا غَرَابَةَ أَنْ تَقَعَ الْعِبَادَةُ يَوْمَ الْقِيَامِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ يَدْعُونَ، وَالدُّعَاءُ عِبَادَةً.

وَأَقُولُ هَذَا لِثَلَاثِ أَنْوَاعٍ الْقَوْلِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَخْتَبِرُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ الدُّعْوَةُ مِثْلًا، فَيَمْتَحِنُهُمْ بِهَا شَاءَ، فَمَنْ أَطَاعَ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَى دَخَلَ النَّارَ.

قوله: «وَبِهِ كَلَالِيْبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهَا لَا يُعْلَمُ قَدْرُ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ». وَهَذِهِ الْكَلَالِيْبُ مَاذَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: «تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ» يَعْنِي: إِذَا مَرَّ الرَّجُلُ الَّذِي عَلَيْهِ عَمَلٌ سَيِّئٌ - يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ لِمَدَّةٍ يَرِيدُهَا اللَّهُ ﷻ ثُمَّ يَخْرُجُ - خَطَفَتْهُ، «فَمِنْهُمْ الْمَوْبِقُ بِعَمَلِهِ»؛ يَعْنِي: الْمَهْلِكُ بِعَمَلِهِ الَّذِي تَخْطِفُهُ وَتُلْقِيهِ فِي النَّارِ «وَمِنْهُمْ الْمَخْرَدُلُ ثُمَّ يَنْجُو»

(١) أخرجه مسلم (٩١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (٢٧١ / ٤)، وابن حبان (٨٩٠) من حديث

النعمان بن بشير رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي.

(٣) حديث اختبار أهل الفترة، أخرجه أحمد (٢٤ / ٤).

المخردل: هو الذي - فيما يظهر - له عملٌ وعملٌ حتى ينجيه الله، فهو يمشي مشياً بطيئاً متعثراً حتى ينجو

قَالَ الْقِسْطَلَانِي رَحِمَهُ اللهُ:

❦ قوله: «المخردل» بالخاء المعجمة والبدال المهملة بينهما راء ساكنة: وهو المؤمن العاصي، قال في الفتح: ووقع في رواية الأصيلي هنا: «المجردل» بالجيم، والجردل: الإسقاط على الصخور، وواه القاضي عياض، ورجح ابنُ قرقول رواية الخاء المعجمة. قال الهروي: المعنى أنَّ كلالِبَ النارِ تقطعه فيهوي في النارِ، أو من الخردل: أي: تجعل أعضاءه كالخردل، أو المخردل المصروع، رجحه السفاقي وقال: هو أنسب لسياق الخبر. اهـ

هذا هو الظاهر: أنَّ المخردل: يعني: الذي يمشي مشياً ليس معتدلاً مستقيماً ثم ينجو؛ لأنَّ الأول - الموبق بعمله - هو الذي سقط في النارِ وهلك بعمله أي: بسببه.

ومن فوائد الحديث: إطلاقُ الفراغِ على الله، قَالَ ﷺ: «حَتَّى إِذَا فَرَّغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ» وقد دلَّ على ذلك القرآنُ في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٢١)﴾ [التكوير: ٣١]. وليس معنى ذلك: أنَّ الله يشغله شيءٌ عن شيءٍ؛ لأنه - كما تشهدون - يُدَبِّرُ الأشياءَ المتضادةَ والمتناقضةَ والمتفقةَ في مكانٍ واحدٍ ووقتٍ واحدٍ. لكن المرادُ بهذا أنه ﷻ يجعل العنايةَ التامةَ في هذا الشيءِ وإن كان له شئونٌ أخرى.

ومن فوائد الحديث أيضاً: أنَّ علامةَ السجودِ أو أعضاءَ السجودِ لا تأكلُها النارُ، وأعضاءُ السجودِ سبعة: الجبهة مع الأنف، والكفين، والركبتين، وأطراف القدمين^(١).

ومن فوائد هذا الحديث: أنهم يخرجون قد امتحشوا وصاروا فحمًا ويلقون في هذا الماء، فيكون لهؤلاء حالٌ غير حالِ أهلِ النارِ؛ لأنَّ أهلَ النارِ الذين هم أهلُها لا يموتون أبداً، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)﴾ [الأنبياء: ١٣]. أما هؤلاء فيكونوا فحمًا، فيحتملُ أن يكونوا فحمًا مع أنَّ أرواحهم باقية، ويحتملُ أنهم تذهبُ أرواحهم ويصُبُّ عليهم ماءٌ يقال له: ماءُ الحياة فيحيون^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٨٠٩، ٨١٠، ٨١٢، ٨١٥، ٨١٦)، ومسلم (٤٩٠).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» (١٨٥).

وفيه أيضًا: إثباتُ كلامِ الله ﷻ لمن هو آخر أهل الجنة دخولاً.
وفيه: بيانُ فضيلةِ الجنة، وأنه لا يمكنُ أن يكونَ شيءٌ من نعيمِ الدنيا مقارباً لها؛ ولهذا يعطى عشرة أمثال الدنيا وهو أدنى أهل الجنة منزلة.

ثم قال البخاري رحمه الله:

٥٣ - باب في الحَوْضِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ۖ﴾ [الكوثر: ١].
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اضْبُرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»
 ٦٥٧٥ - حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ حَمَّادٍ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ
 عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ»^(١).
 [الحديث ٦٥٧٥ - طرفاه في ٦٥٧٦، ٧٠٤٩].

٦٥٧٦ - وَحَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ الْمُغِيرَةِ قَالَ:
 سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَلِكِرْفَعَنَ مَعِيَ
 رِجَالٌ مِنْكُمْ ثُمَّ لِيُخْتَلَجَنَّ دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي فَيَقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدُكُمَا بَعْدَكَ»^(١).
 تَابِعَهُ عَاصِمٌ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ وَقَالَ حُصَيْنٌ: عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ حُذَيْفَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

❖ قوله: «باب في الحوض» «أل» فيه للعهد الذهني؛ لأنَّ المراد به حوضُ النبي ﷺ،
 وهو حوضٌ يكونُ في عرصاتِ القيامةِ، يصبُّ فيه ميزابان من الكوثر، والكوثر: نهر في الجنة
 أعطيه النبي ﷺ وهذا الذي يصبُّ عليه من هذا الكوثر أشدُّ بياضاً من اللبنِ وأحلى من
 العسل وأطيب من رائحةِ المسك، وجاء في الأحاديث: «أَنَّ طَوْلَهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ»، ومع
 ذلك لَا يَنْضَبُ مَاؤُهُ؛ لأنه يصبُّ عليه ميزابان من نهرِ الجنة «الكوثر» فيشربُ الناسُ منه،
 ومن شربَ منه لم يظمأ بعده أبداً.

واختلف العلماء: هل لغير النبي ﷺ حوض؟
 فقال بعضهم: لا، الحوضُ للنبي ﷺ فقط.

(١) أخرجه مسلم (٢٢٩٧).

(٢) انظر التعليق السابق.

وقال الآخر: بل لهم أحواضٌ ^(١)، لكن الحوض الكبير العظيم هو للنبي ﷺ؛ وذلك لأنَّ الأمم يومَ القيامة محتاجةٌ للشربِ كأمةِ محمد، فلا بد أن يكونَ هناك حوضٌ يردّه المؤمنون المبتعون لهذا الرسول الذي جعل الله له الحوض.

❖ وقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكثرة: ١]. الخطابُ للنبي ﷺ، والكوثر: على وزنٍ (فَوَعَلَ) من الكثرة، فهو فيه شيءٌ من صيغةِ المبالغة، والمراد به: الخير الكثير الذي منه هذا النهر الذي يكونُ في الجنة.

ثم ذكر المؤلفُ أحاديثَ فيها: أنَّ النبي ﷺ بيَّن أنه فرط أُمته -أي مقدّمهم- على الحوض، يصل إليه قبلهم ويتنظرونهم، وأنه يُزادُ أناسٌ من أُمته بل من أصحابه عن الحوض، فيقول: «أصحابي»، فيقال: إنَّك لا تَدْرِي ما أحَدُثُوا بعدك.

وقد سبق الكلام على هذا وبينَّا أنَّ الرَّافضةَ اتخذوا منه وسيلةً إلى الطَّعنِ في الصحابةِ رضي الله عنهم **وأجبنا عن ذلك، وقلنا:** إنَّ هؤلاء الأصحابَ قليلون كما تفيدُ الرواياتُ الأخرى التي يقولُ فيها: «أصحابي» ^(٢). وأنه قد حصل من بعضِ الصحابةِ ردةٌ، فمنهم من مات على ردةٍ ومنهم من رجعَ وأسلم.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٧٧ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا نَافِعٌ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أَمَامَكُمْ حَوْضٌ كَمَا بَيْنَ جَرَبَاءَ وَأَذْرَحَ».

قَالَ الْقُسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«كما بين جرباء وأذرح». «جرباء» بفتح الجيم والموحدة بينهما راء ساكنة آخره همز ممدود في الفرع، وَقَالَ أَبُو عبيد البكري وعياض بالقصر، قال: وكذا رأيتُه في أثرٍ صحيحٍ

(١) أخرج الترمذي (٢٤٤٢)، والطبراني في «الكبير» (٦٨٨١) من حديث سمرة رضي الله عنه؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إن لكل نبيٍّ حوضاً، وإنَّهم يَتَبَاهَوْنَ أَهْلَهُمْ أَكْثَرُ واردة، وإنِّي لأرجو أن أكونَ أَكْثَرَهُمْ واردة». والصواب فيه أنه من رواية الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا، وهو ما رجحه الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكذا الحافظ ابن حجر فيما نسبته إليه المُناوي رَحِمَهُ اللَّهُ، وانظر: «فيض القدير» (٥١٦/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢٥، ٦٥٢٦)، ومسلم (٢٣٠٤).

مقروء من رواية الحافظ أبي ذر، وصوبه النووي في شرح مسلم، وقال: إن المدَّ خطأ، وهو في البخاري بالمدِّ. وقال الرَّشَاطِيُّ: الجرباء على لفظ تأنيث أجرب: قرية بالشام. و«أذرح»: بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة وضم الراء، بعدها حاء مهملة: قال ابن الأثير في نهايته: هما؛ يعني: جرباء وأذرح قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاث ليال وهذا الذي قاله ابن الأثير تعقبه ابن الصلاح العلائي، وقال هذا غلطٌ، بل بينهما خلوة سَهْمٌ، وهما معروفتان بين القدس والكرك. انتهى.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٧٨ - حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ أَخْبَرَنَا أَبُو يَسْرِ وَعَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: الْكَوْثَرُ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ قَالَ أَبُو يَسْرِ: قُلْتُ لِسَعِيدٍ إِنْ أَنَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ سَعِيدٌ: النَّهْرُ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ.

٦٥٧٩ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ عَمَرَ، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ مَآوُهُ أبيضٌ مِنَ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنْجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا»^(١). هذا سياق تامٌ وواضحٌ.

❖ قوله: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ». أي: طولُه وعرضُه، «ومآؤه أبيضٌ مِنَ اللَّبَنِ، وريحُه أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وكِيزَانُهُ». جمع كوز وهو الكأس «كنجومِ السَّمَاءِ» كثرةٌ وحسنًا، ونجومُ السَّمَاءِ - كما تعلمون - كثيرةٌ جدًّا، وهي - أيضًا - حسنةٌ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ [الزلزال: ٥]. ومن المعلوم أنَّ كثرةَ الأواني تدلُّ على كثرةِ الشاربين، وقد سبق أنَّ أمةَ محمد ﷺ تمثلُ شطرَ أهلِ الجنةِ^(٢)، بل ثلثي أهلِ الجنةِ^(٣).

(١) أخرجه مسلم (٢٢٩٢) ..

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٤٦)، وابن ماجه (٤٢٨٩)، وأحمد (٣٤٧/٥)، والدارمي (٢٨٣٥)، وابن حبان (٧٤٥٩)، والحاكم (١/١٥٥).

❦ وقوله: «من شَرِبَ منها فلا يظمأ أبدا» هذه من آياتِ الله؛ فالإنسان إذا شَرِبَ من هذا الحوض، فإنه لا يظمأ أبداً لأنه سيكون من أهل الجنة، وسيكون في نعيم لا ينفد.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٨٠ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةٍ وَصَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ» ^(١).

❦ قوله ﷺ: «كما بين أيلة وصنعاء» يحتاج لكي ينظر كم تبلغ.

قَالَ الْقُسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أيلة» بهمزة مفتوحة وتحتية ساكنة ولا م مفتوحة وبعدها هاء تأنيث: مدينة كانت عامرة بطرف بحر القلزم من طرف الشام، وهي الآن خراب، يمرُّ بها الحاجُّ من مصر فتكون عن شماله، ويمرُّ بها الحجُّ من غزة وغيرها، فتكون أمامه، وإليها تنسب العقبة المشهورة عند أهل مصر.

«وصنعاء من اليمن» فتح الصاد والعين المهملتين بينهما نون ساكنة ممدودة، والتقييد باليمن يخرج صنعاء الشام. اهـ

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٨١ - حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ح وَحَدَّثَنَا هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ حَدَّثَنَا قَتَادَةُ حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «بَيْنَمَا أَنَا أُسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ قِيَابُ الدَّرِّ الْمُجَوِّفِ قُلْتُ مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَإِذَا طَيِّبُهُ أَوْ طَيِّبُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ». شَكَ هُدْبَةُ.

تَقَدَّمَ لَنَا الْكَلَامُ عَلَى حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ.

❦ وقوله: «بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر»: هذا يجب أن يكون على حقيقته، ولعل

هذا كان حين عُرِجَ بِهِ ﷺ.

❖ وقوله: «قَالَ: هذا الكوثر» يَعْنِي: أنه منه -أي: من الكوثر- كما سبق في حديث ابن عباس رضي الله عنه: أن الكوثر هو الخير الكثير ^(١)، ومنه هذا النهر في الجنة.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمته الله:

٦٥٨٢- حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ أَبِرَاهِيمَ حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِيرَدَّنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي الْحَوْضِ حَتَّى عَرَفْتَهُمْ اخْتَلَجُوا دُونِي فَأَقُولُ: أَصْحَابِي فَيَقُولُ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ» ^(١).

هذا الحديث سبق الكلام عليه، والأصل: «أصحابي». في نسخة أخرى «أصحابي».

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمته الله:

٦٥٨٣- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُطَرِّفٍ، حَدَّثَنِي أَبُو حَازِمٍ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي فَرَطُكُم عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا لِيرَدَّنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ» ^(١).

[الحديث ٦٥٨٣- طرفه في: ٧٠٥٠].

٦٥٨٤- قَالَ أَبُو حَازِمٍ فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عِيَّاشٍ فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ مِنْ سَهْلٍ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ لَسَمِعْتَهُ وَهُوَ يَزِيدُ فِيهَا فَأَقُولُ إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: «سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي» ^(١). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ سُحْقًا بَعْدًا يُقَالُ: سَحِيقٌ بَعِيدٌ سَحَقَهُ وَأَسَحَقَهُ أَبَعَدَهُ.

[الحديث ٦٥٨٤- طرفه في: ٧٠٥١].

هذا الحديث كما سبق ذكرنا أن الرافضة استدلوا به على ما ذهبوا إليه من تفسيق أو تكفير الصحابة رضي الله عنهم إلا نفراً يسيراً، وتقدّم الردُّ عليهم بأن هؤلاء النفر قليل؛ لأنه قال: «لِيرَدَّنَّ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٠٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٩٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٩١).

عَلَى أَقْوَامٍ أَعْرَفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ». وَقَالَ: «أَصْحَابِي». وَمَعْلُومٌ أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَثِيرُونَ جَدًّا، وَلَوْ أَخَذْنَا بظَاهِرِهِ لَكَانَ مِنْ يَمِيزُ هَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ لَا أَحَدٌ، فَكُلُّ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْكَافِرَةُ أَوْ الْمَرْدُودَةُ عَنِ الْحَوْضِ مِنْ بَيْنِهِمْ آلَ الْبَيْتِ، فَمَا الَّذِي يَخْصُ آلَ الْبَيْتِ بِالِاسْتِثْنَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حَصَلَ مِنْ بَعْضِهِمْ رَدَّةٌ عَنِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْضُ مَنْ ارْتَدَّ، وَبَقِيَ بَعْضٌ مِنْ ارْتَدَّ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ مِنْ غَيْرِ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ.

* * * *

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٨٥ - وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ شَيْبٍ بْنِ سَعِيدٍ الْحَبْطِيُّ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ يُونُسَ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَرُدُّ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِي فَيُجْلَوْنَ عَنِ الْحَوْضِ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي يَقُولُ: إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى».

[الحديث ٦٥٨٥ طرفه: ٦٥٨٦].

«الرَهْطُ»: مَا بَيْنَ ثَلَاثٍ إِلَى عَشْرَةٍ.

«الْقَهْقَرَى»: يَعْنِي: الْمَشْيُ إِلَى الْوَرَاءِ.

* * * *

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٨٦ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ «عَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَرُدُّ عَلَى الْحَوْضِ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِي فَيُجْلَوْنَ عَنْهُ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي، يَقُولُ: إِنَّكَ لَا عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى».

وَقَالَ شُعَيْبٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَيُجْلَوْنَ وَقَالَ: عُقِبِلُ فَيُجْلَوْنَ.

وَقَالَ: الزُّبَيْدِيُّ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

٦٥٨٧- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ الْحِزَامِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُلَيْحٍ حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنِي هِلَالُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءٍ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتَهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ هَلُمَّ فَقُلْتُ أَيْنَ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ، قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَذْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى، ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ حَتَّى إِذَا عَرَفْتَهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ، فَقَالَ: هَلُمَّ قُلْتُ: أَيْنَ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ قُلْتُ: مَا شَأْنُهُمْ قَالَ: إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَذْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى فَلَا أَرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ».

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (١١/ ٤٧٤-٤٧٥):

❖ قوله: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ». كذا بالنون للأكثر وللکشمیهنی: «قائم» بالقاف وهو أوجه، والمراد به قيامه على الحوض يوم القيامة، وتوجّه الأولى بأنه رأى في المنام في الدنيا ما سيقع له في الآخرة. قوله: «ثم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم». المراد بالرجل: الملك الموكل بذلك، ولم أقف على اسمه.

❖ قوله: «إنهم ارتدوا القهقري» أي: رجعوا إلى الخلف، ومعنى قولهم رجع القهقري: رجع الرجوع المسمّى بهذا الاسم، وهو رجوعٌ مخصوصٌ وقيل معناه: العدو الشديد.

❖ قوله: «فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم» يعنّي: من هؤلاء الذين دنوا من الحوض وكادوا يردونه فصدوا عنه، «والهمل» بفتح الحين الإبل بلا راع. وقال الخطّابي: «الهمل» ما لا يرعى ولا يستعمل ويطلق على الضوال، والمعنى: أنّه لا يرده منهم إلا القليل؛ لأنّ الهمل في الإبل قليلٌ بالنسبة لغيره. اهـ

❖ قوله: «يخلص منهم إلا مثل همل النعم». منهم أي: من هؤلاء الزمر، وليس المراد: لا يخلص من جميع الصحابة إلا مثل «همل النعم» لكن هؤلاء الزمرة تأتي ثم يقول لهم هذا الرجل: هلموا فيسأل الرسول: «إلى أين؟» فيقول: «إلى النار والله»، مثلاً شرد واحد منهم أو اثنان ليردّ الحوض، ومعلوم أن هذا ليس في الدنيا، لن يشرد إلا من أذن له بالشرب منه.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٨٨- حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ عِيَاضٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ خُبَيْبٍ عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمَبْرِي

رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمَنْبَرِي عَلَى حَوْضِي^(١)

هذا هو اللفظ الصحيح والمتعين «ما بين بَيْتِي وَمَنْبَرِي» وبعض الناس يرويه بلفظ: «ما بين قبري ومَنْبَرِي»^(٢)، هذا خطأ؛ لأنه حين تكلّم به ليس هناك قبر، فلم يكن القبر إلا بعد وفاته ﷺ، لكنه ﷺ دُفِنَ في بيته، فما بينه وبين المنبر روضة من رياض الجنة. والمعنى، أنه: محلّ عمل صالح؛ لأن رياضات الجنة محلّ عمل صالح؟ كما جاء في الحديث: «إن إبراهيم عليه السلام قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اقْرَأْ أَمَتَكَ مَنِّي السَّلَامَ وأخبرهم بأن الجنة قيعان، وأن غرسها: سبحان الله والحمد لله والله أكبر»^(٣).

فالمعنى: أنه روضة من رياض الجنة؛ يعني: محلّ عمل صالح من الصلاة والذكر والقرآن وغير ذلك. وليس المعنى: أن من كان فيه فهو في روضة من رياض الجنة. وقوله ﷺ: «مَنْبَرِي عَلَى حَوْضِي» معناه: أن محلّ الحوض هناك، هذا وجه.

الوجه الثاني: أن منبره هناك كما كان يقوم عليه للبلاغ في الدنيا، وقال ﷺ في حديث آخر: «وإني لأرى حوضي الآن»^(٤). وعلى هذا يكون حوض النبي ﷺ موجوداً، لكنه مُغَيَّبٌ عن النظر.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٤٧٥):

الحديث الرابع عشر حديث أبي هريرة أيضاً «ما بين بَيْتِي وَمَنْبَرِي» وفيه: «وَمَنْبَرِي عَلَى حَوْضِي» تقدم شرحه في أواخر الحجّ والمراد بتسمية ذلك الموضع روضةً أن تلك البقعة تنقل إلى الجنة، فتكون روضةً من رياضها، أو أنه على المجاز لكون العبادة فيه تتول إلى دخول العابد روضة الجنة، وهذا فيه نظر إذ لا اختصاص لذلك بتلك البقعة، والخبر مسوق لمزيد شرف تلك البقعة على غيرها، وقيل فيه تشبيهٌ محذوفٌ الأداة؛ أي: هو كروضة؛ لأن من يقعد فيها من الملائكة ومؤمني الإنس والجن يكثرون الذكر وسائر أنواع العبادة. وقال

(١) أخرجه مسلم (١٣٩١).

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٤٢٩٠)، وأحمد (٦٤ / ٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٢٤٦ / ٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٤٠ / ٦)، وفي «الأوسط» (٤١٧٠)، وانظر: «الترغيب والترهيب» (٢٢٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٩٦)، ومسلم (٢٢٩٦).

الخطابيُّ المراد من هذا الحديث التَّريُّبُ في سكنى المدينة وأن من لازم ذكرَ الله في مسجدها آل به إلى روضةِ الجنة وسقي يومَ القيامة من الحوضِ. اهـ
على كُلِّ حال: هذه أربعة أقوالٍ، ولكن الذي يظهرُ لي - والعلم عند الله - هو الأول، أن الرسول ﷺ أراد الحثَّ على العمل الصالح في هذا المكان، ولا مانع من أن يكون في هذا فضلٌ وغيره أيضًا، ولكن في هذا أفضل، أفضل من غيره.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٨٩- حَدَّثَنَا عَبْدَانُ، أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدَبًا قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ»^(١).

٦٥٩٠- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، عَنْ عُقْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَلَى الْمُنْبَرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ - أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا»^(٢).

هذا كله من نُصَحِهِ ﷺ.

❦ قوله: «فصلى على أهل أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ». قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: إن هذه الصلاة كالِتوديعٍ لهم، وليست هي الصلاة التي تصلى على المَيِّتِ؛ لأنَّ الشهداء إذا قتلوا في سبيلِ اللَّهِ لَا يُصَلَّى عَلَيْهِمْ؛ وَجْه ذلك:

أولاً: لأن هذا هو الذي جاءت به السُّنَّة، أن شهداء أُحُدٍ لَمْ يُعَسَّلُوا وَلَمْ يُكَفَّنُوا وَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ^(٣).

وثانياً: أن الصَّلَاةَ عَلَى الْمَيِّتِ من أجل الشفاعة فيه؛ كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يَشْرُكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»^(٤). والمَقْتُولُ

(١) أخرجه مسلم (٢٢٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٩٦)، وعقبة هو ابن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٤٣)، ومسلم في «المقدمة» (٨٢).

(٤) أخرجه مسلم (٩٤٨).

شهيداً في سبيل الله لا يحتاجُ إلى شفاعَةٍ؛ كما جاء في الحديث الذي أخرجه النسائي: «أنه لا يُفْتَنُ في قَبْرِهِ»^(١)؛ أي: لا يُسأل عن دينه وربه ونبيه، وقال: «كفى ببارقة السُّيُوفِ على رأسِهِ فِتْنَةً»^(٢)؛ يعني: اختباراً؛ لأن السؤال في القبر هو اختبار؛ للميت، هل هو صادق الإيمان أم لا؟ والذي قُتل شهيداً وهو يرى بارقة السيوف على رأسه وهو ثابتٌ لتكون كلمة الله هي العليا، هذا أعظم دليل على أنه صادقٌ مؤمنٌ حقاً؛ ولهذا لا يُسأل في قبره اكتفاءً بهذا.

ولكن ما جاء في صلاته ﷺ على شهداءٍ أُحْدٍ في آخر حياته هذا كالمودعٍ لهم؛ لأن الصلاة على الميت يجب أن تكون قبل الدفن.

❖ وقوله: «إني فرطُ لكم وأنا شهيدٌ عليكم»؛ يشهد ﷺ بأنه بلغ الرسالة، ويشهدُ عليهم بما صنعوا مما شاهده؛ كما قال عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١١٧].

❖ وفي قوله ﷺ: «وإني والله لأنظرُ إلى حوضي الآن». دليلٌ على أن الحوض موجودٌ؛ لأن الأصل في قوله: «وإني لأنظر» الحقيقة، يعني: لا يقولُ قائلٌ: لعله أراد بذلك توكيد وجوده ولكنه غير موجود.

❖ وقوله ﷺ: «إني أعطيتُ مفاتيحَ خزائن الأرض -أو مفاتيحَ الأرض-»: نعم أعطيتها لكنه ﷺ لم يدرك ذلك في حياته، وإنما أدركته أمته من بعده، وأمته إنما أدركته بشريعته ورسالته، فقد فتحت خزائن الأرض من الشام والعراق ومصر واليمن بالشريعة التي جاء بها، فصار كأنه أُعطي هذه الخزائن ﷺ.

ثم أقسم: أنه لا يخاف عليهم أن يشركوا بعده، «ولكن أخافُ عليكم أن تنافسُوا فيها»، وهذا الذي وقع فالصَّحابة لم يشركوا بعده ﷺ، ولكن تنافسُوا الدنيا.

وليس المرادُ جميعَ الصحابة، فمنهم من ارتدَّ كما عرفتم، لكن غالبهم تنافسُوا فيها فحصلَ بينهم القتالُ، كالذي حصلَ بين عليٍّ ومعاوية والزبير وعائشة رضي الله عنهم وغيرهم كما هو معروف.

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٢١٨٠).

(٢) انظر التعليق السابق.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٥٩١- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا حَرَمِيُّ بْنُ عُمَارَةَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مَعْبِدِ بْنِ خَالِدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَذَكَرَ الْحَوْضَ فَقَالَ: «كَمَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ»^(١).

٦٥٩٢- وَزَادَ ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مَعْبِدِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ حَارِثَةَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَوْلَهُ: «حَوْضُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَوْدُ: أَلَمْ تَسْمَعْهُ قَالَ: الْأَوَانِي قَالَ: لَا، قَالَ الْمُسْتَوْدُ: تُرَى فِيهِ الْآيَةُ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ»^(٢).

٦٥٩٣- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، عَنْ نَافِعِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ بَرِدَ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ نَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: هَلْ شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ وَاللَّهِ مَا يَرْجِعُونَ عَلَى أَغْقَابِهِمْ فَكَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُودُ بِكَ أَنْ تَرْجِعَ عَلَيَّ أَغْقَابِنَا أَوْ نَفْتِنَ عَنْ دِينِنَا»^(٣).
عَلَى أَغْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ تَرْجِعُونَ عَلَى الْعَقَبِ

[الحديث ٦٥٩٣ - طرفه في: ٧٠٤٨].

هذه الأحاديث كما ساقها البخاري رُحِمَهُ اللَّهُ يراد بها بيان كثرة الأحاديث الواردة في الحَوْضِ، وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ لهؤلاء القوم الذين يطردون عن حوضه إنما أراد به ﷺ التحذير، فكل واحد من الصحابة سيحذر أن يكون من هؤلاء، فلذلك ذكره. والحوض أحاديثه متواترة كما ذكرنا ذلك في البيتين المنشودين:

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلْبَيْتِ وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةِ وَالْحَوْضِ وَمَنْحُ خُفَّيْنِ وَهَذَا بَعْضُ



(١) أخرجه مسلم (٢٢٩٨م).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٩٣م).

شَيْخ
صَاحِبُ الْبَحَارِ

كِتَابُ الْقَدَرِ

7094

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

كِتَابُ الْقَدَرِ

١- بَابُ.

٦٥٩٤- حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، أَنْبَأَنِي سُلَيْمَانُ الْأَعْمَشُ قَالَ: سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ وَهَبٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ - قَالَ «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ عُلِقَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ بَرَزِقِهِ وَأَجَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، فَوَاللَّهِ إِنْ أَحَدَكُمْ - أَوْ الرَّجُلُ - لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ، أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا قَالَ آدَمُ إِلَّا ذِرَاعٌ»^(١).

❖ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بابُ القدر». القدرُ أمرُهُ عَظِيمٌ جَدًّا، وَيَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَةِ؛ وَلَأَنَّ فِيهِ مَسَائِلَ تَشْكُلُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، وَقَدْ خَاصَ فِيهَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَنَاقَشُوا فِيهَا الرُّسُولَ ﷺ، وَبَيْنَهَا لَهُمْ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدْرِ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَةِ؛ «أَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ»^(٢)، وَالْقَدَرُ: تَقْدِيرُ اللَّهِ ﷻ لِمَا كَانَ، فَالْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ: أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ فَهُوَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ ﷻ، وَلَكِنْ هَذَا التَّقْدِيرُ أَمْرٌ مَكْتُومٌ لَا يَعْلَمُ إِلَّا بِمَا أَعْلَمَ اللَّهُ بِهِ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، أَوْ بِمَا وَقَعَ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٦٤٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠)، وَمُسْلِمٌ (٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٨) مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَمَا أَعْلَمُ اللَّهُ بِهِ: مَا يَكُونُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ وَكَذَلِكَ الْمَلَاحِمِ وَالْفِتَنِ الَّتِي تَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَأَمَّا مَا عَلَّمَ بِالْوُقُوعِ: فَهَذَا كَثِيرٌ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَقَعُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مُقَدَّرٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِإِمْقَادٍ ۝۸﴾ [الْعَنَكَلَدُ: ٨]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى»؛ أَي: مُعَيَّنٌ، لَا يَتَقَدَّمُ أَوْ يَتَأَخَّرُ وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ.

وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ لَهُ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ: أَحَمُّهَا: أَنَّهُ مِنْ تَامِ الرِّضَا بِاللَّهِ رَبًّا؛ لِأَنَّكَ تُسَلِّمُ بِالْقَضَاءِ وَتَقُولُ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِذَا عَلِمَ الْإِنْسَانُ أَنَّ هَذَا الْقَدَرَ مِنَ اللَّهِ سَلَّمَ أَمْرَهُ لِلَّهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَنْ يَتَغَيَّرَ عَمَّا وَقَعَ شَيْءٌ مُطْلَقًا، فَلَا يُمْكِنُ رَفْعُهُ، لَكِنْ يُمْكِنُ الدُّعَاءُ وَفَعَلَ الْأَسْبَابُ الَّتِي تَرْبَى -أَي: تَتَرْتَّبُ- عَلَى الشَّيْءِ هَذَا مُمَكِّنٌ.

ثُمَّ إِنْ مِنْ فَوَائِدِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ اعْتَمَدْتَ عَلَى هَذَا الْقَدَرِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: أَنَّ لَا يَسْتَعِينُ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِرَبِّهِ، فَلَا يَطْلُبُ مِنْ أَحَدٍ عَوْنًا، بَلْ يَكُونُ طَلِبُ الْعَوْنِ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَلَكِنْ لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ يَسْتَعِينَ بغيرِهِ فِيمَا يَقْدُرُ عَلَيْهِ عَلَى وَجْهِ مَشْرُوعٍ، وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ نَعِينَ مِنْ اسْتِعَانَا، أَمَا أَنْ يَسْتَعِينَ بغيرِهِ فِيمَا لَا يَقْدُرُ عَلَيْهِ؛ كَمَا لَوْ اسْتَعَانَ بِمَيِّتٍ عَلَى قَضَاءِ حَاجَتِهِ، فَهَذَا شَرٌّ.

ثُمَّ أَعْلَمُ أَنَّ الْقَدَرَ، لَهُ مَرَا حِلٌّ: فَالْكِتَابَةُ الْأُولَى فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ^(١)، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ لِلْقَلَمِ لِمَا خَلَقَهُ: «اكْتُبْ» قَالَ: مَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: «اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ^(٢).

وَالْعُمْرِيَّةُ تَكُونُ عِنْدَ خَلْقِ الْجَنِينِ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَسَيَأْتِي -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- الْكَلَامُ عَلَيْهِ.

وَالْكِتَابَةُ السَّنَوِيَّةُ تَكُونُ فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبَرِّكَ ۚ إِنَّا كُنَّا

(١) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ (٢٦٥٣) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَتَبَ اللَّهُ مُقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٧٠٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «مُسْنَدِ الشَّامِيِّينَ» (٥٩)، وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ فِي «الْكَبَرَى» (٢٠٤/١٠) مِنْ حَدِيثِ عَبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَذَا أَخْرَجَهُ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ عَنْهُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٣١٧/٥).

مُنْذِرِينَ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١﴾ [الشَّحَّادَةُ: ٣-٤]. أَي؛ يُفَصَّلُ وَيُسَيَّن.

وهناك تقديرٌ يوميٌّ وهو الذي سمع فيه النبي ﷺ صريفَ الأقلامِ لما عُرِجَ به، وإليه يشيرُ قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿١١﴾ [الحج: ٢٩].

هذا التقديرُ لا نعلمُها إلا عن طريقِ الوحي، وقد بين الله تعالى في كتابه على لسانِ رسوله ما يتعلَّقُ بها.

وقد ذكر أهلُ العلم أن مراتبَ الإيمانِ بالقدرِ أربع:

الأولى: أن تؤمنَ بأن الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ جملةً وتفصيلاً، بعلمه الأزليُّ الأبديُّ.

الثانية: أن تؤمنَ بأن الله تعالى كتبَ ما هو كائنٌ في اللوحِ المحفوظِ، أي: المحفوظِ عن التغييرِ.

ودليل هاتين المرتبتين: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٧٠﴾ [الأنعام: ٧٠].

فالأول: العلم: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

الثاني: الكتابة في قوله ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾.

أما الرتبة الثالثة: فإنها مرتبة المشيئة، أي: أن ما كان وما يكون فهو بمشيئة الله، لا من

فعل نفسه ولا من فعل الخلق؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا﴾

[البقرة: ٢٥٣]. هذا بالنسبة للعباد.

أما بالنسبة لفعله تعالى قال: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٢٧﴾ [البقرة: ٢٧]. فالمشيئة هي المرتبة

الثالثة في مراتب الإيمانِ بالقدرِ.

أما المرتبة الرابعة: فهي أن كلَّ ما حدث في الكونِ مخلوقٌ لله ﷻ، فلا خالقَ غيره

سبحانه، سواء كان هذا جماً أو ذا روح، حتَّى أعمالُ العبادِ -بهيمةٍ وعقلها- كلها مخلوقٌ

لله؛ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [الأنعام: ٩٦]. وقوله ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾. يحتملُ أن

تكون «ما» موصولةٌ؛ يعني: والذي تعملونه، أو أن تكون مصدرية، أي: وعملكم، وعلى كلا

الوجهين فيها دليلٌ على أن أعمالَ العبادِ مخلوقةٌ لله.

أما إذا قلنا: إن «ما» مصدرية، وأن التقدير: خلقكم وعملكم فالأمرُ ظاهر، وأما إذا قلنا:

«ما» اسم موصول، وأن المعنى: خلقكم ومعمولكم فإن خالق المعمولِ خالقٌ للعمل؛

فالإنسان مخلوقٌ وأفعاله مخلوقةٌ.

فهذه أربعةٌ مراتبٍ، وأهلُ السنة والجماعة يؤمنون بهذه المراتبِ الأربع: أما المعتزلة فإنهم لا يؤمنون بالمرتبتين الأخيرتين وهما: المشيئة والخلق؛ لأنهم يقولون: إنه لا عمومَ لمشيئةِ الله ولا عمومَ لخلقِ الله؛ لأن الإنسان مستقلٌّ، يفعل الشيء ويوجده بنفسه وليس لله به علاقةٌ، فقد أعطاه الله عقلاً وفكراً وجعل له الحرية فهو يفعل بمشيئته، ويحدث الأفعال بمشيئته، وليس لله به علاقةٌ، ولهذا سُمُّوا: مجوس هذه الأمة؛ وذلك لأنهم جعلوا للحوادث الكونية خالقين، كل واحدٍ مستقلٌّ عن الآخر، فالأدمي خالقٌ لأفعاله مستقل بها، أما أفعال الله فهي خلقٌ لله، كإنزالِ المطر، والليل والنهار، وغير ذلك ^(١).



(١) إلى هنا ينتهي ما قام الشيخ رحمه الله بشرحه من كتاب «القدر».

شيخ
صحيح البخاري

كِتَابُ الْإِيمَانِ وَالنُّذُورِ

٦٧٠٧-٦٦٢١



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

كِتَابُ الْإِيمَانِ وَالنُّذُورِ

١- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ، وَإِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النِّسَاءُ: ٨٩).

❦ قَوْلُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كِتَابُ الْأَيَّانِ وَالنُّذُورِ». الْأَيَّانُ: جَمْعُ يَمِينٍ، وَهُوَ الْحَلِفُ، وَالنُّذُورُ: جَمْعُ نَذَرٍ، وَهُوَ الْإِلتِزَامُ بِالشَّيْءِ، فَإِلْزَامُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِالشَّيْءِ يُسَمَّى نَذْرًا. وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَمِينَ إِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَى شَيْءٍ مَاضٍ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ مُسْتَقْبَلٍ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَى شَيْءٍ مَاضٍ فَلَيْسَ فِيهَا الْكَفَارَةُ إِطْلَاقًا، سَوَاءً كَانَتْ صَدَقًا أَوْ كَذِبًا، لَكِنْ إِنْ كَانَ صَادِقًا أَوْ ظَانًّا الصَّدَقَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا أَوْ ظَانًّا الْكَذِبَ فَهُوَ آثِمٌ. ثُمَّ إِنْ تَمَنَّى أَكُلَ مَالٍ مُسْلِمٍ صَارَ يَمِينًا غَمُوسًا.

أَمَّا الَّتِي تَكُونُ عَلَى شَيْءٍ مُسْتَقْبَلٍ فَهَذِهِ هِيَ الْيَمِينُ الْمُنْعَقِدَةُ، فَإِذَا حَلَفَ عَلَى شَيْءٍ مُسْتَقْبَلٍ فَإِنَّهُ إِنْ وَفَّى بِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَفِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُكَفِّرَ كَفَارَةَ يَمِينٍ. ثُمَّ هَلِ الْأَوَّلَى أَنْ يَحْنُثَ أَوْ لَا يَحْنُثَ؟

هَذَا تَجْرِي فِيهِ الْأَحْكَامُ الْخَمْسَةُ: الْوَاجِبُ، وَالْمَنْدُوبُ، وَالْمَكْرُوهُ، وَالْمُبَاحُ، وَالْحَرَامُ، بِحَسَبِ الْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْأَحَادِيثِ.

أَمَّا النَّذْرُ فَقُلْنَا: إِنَّهُ التَّزَامُ الْإِنْسَانِ بِالشَّيْءِ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ أَوْ أَنْ أَتَصَدَّقَ أَوْ أَنْ أَصَلِّيَ. وَسَيَأْتِي أَيْضًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْأَحَادِيثِ حُكْمُهُ.

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ﴾
يَذُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّغْوَ هُوَ مَا لَمْ يَقْصِدْ عَقْدَهُ، وَدَلِيلُ هَذَا أَنَّهُ قُوبِلَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا
عَقَّدْتُمْ الْأَيْمَانَ﴾ وَمِنَ الْقَوَاعِدِ الْمَقْرَرَةِ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْكَلِمَةَ قَدْ يُعْرَفُ مَعْنَاهَا بِذِكْرِ مَا
يُقَابِلُهَا، وَلِهَذَا لَوْ قِيلَ: مَا مَعْنَى ﴿ثَبَاتٍ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾
[النِّسَاءُ: ٧١]. قُلْنَا: مَعْنَى قَوْلِهِ: ثَبَاتٍ؛ أَي: مَتَفَرِّقِينَ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿جَمِيعًا﴾ يُقَابِلُهُ الْإِنْفِرَادُ.

فقوله: «﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾» المرادُ فِيهِ بِاللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ هُوَ مَا لَمْ يَقْصِدْ
عَقْدَهُ، فَكُلُّ يَمِينٍ لَا تَقْصِدُ عَقْدَهَا فِيهِ لَعْوٌ، مِثْلُ مَا يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ، كَمَا يُقَالُ مِثْلًا
لِلْإِنْسَانِ: هَلْ تَرِيدُ أَنْ تَذْهَبَ لِفُلَانٍ، فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ لَسْتُ بِذَاهِبٍ، أَوْ يُقَالُ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ
فُلَانًا، فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُهُ، أَوْ يُقَالُ لَهُ: هَلْ تَرِيدُ أَنْ تُسَافِرَ غَدًا. فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ لَسْتُ
مُسَافِرًا. فَهَذَا لَوْ سَافَرَ وَخَالَفَ فِي يَمِينِهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ حِنْثٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ.

كَذَلِكَ أَلْحَقَ الْعُلَمَاءُ بِذَلِكَ مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يَظُنُّ صِدْقَ نَفْسِهِ مِثْلُ أَنْ
يَقُولَ: وَاللَّهِ لَيَقْدَمَنَّ فُلَانٌ غَدًا وَلَمْ يَقْدَمْ فُلَانٌ، فَهَذَا أَيْضًا لَيْسَ فِيهِ كُفَارَةٌ وَغَيْرُ مَوْأَخِذٍ عَلَيْهِ
الْإِنْسَانُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ الْإِلْتِمَامَ وَلَا الْإِلْزَامَ، وَإِنَّمَا قَصَدَ بِهِ الْإِخْبَارَ عَمَّا فِي مِيرِهِ فَهُوَ يَقُولُ:
وَاللَّهِ لَيَقْدَمَنَّ فُلَانٌ غَدًا. بِنَاءً عَلَى مَا فِي مِيرِهِ وَعَلَى ظَنِّهِ، فَإِذَا لَمْ يَقْدَمْ فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، حَتَّى لَوْ
غَابَتِ الشَّمْسُ غَدًا وَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ حَلَفْتَ وَقُلْتَ: وَاللَّهِ لَيَقْدَمُ لِقَالَ: أَنَا إِنَّمَا قُلْتُ: وَاللَّهِ لَيَقْدَمُ
بِحَسَبِ مَا فِي قَلْبِي، وَلَسْتُ أُرِيدُ الْإِلْتِمَامَ أَنْ آتِيَ بِهِ، وَلَا أَنْ أَلْزِمَهُ أَنْ يَحْضُرَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ
الْإِخْبَارَ عَمَّا فِي نَفْسِي، وَهَذَا هُوَ مَا كُنْتُ أَظُنُّهُ.

وقوله **وَعَلَى**: «﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾» كَفَارَتُهُ؛ أَي: كُفَارَةُ الْيَمِينِ إِذَا حِنْثَ
فِيهَا وَلَيْسَ الْمُرَادُ كُفَارَةُ الْيَمِينِ إِذَا حَلَفْتَ؛ لِأَنَّ مَجْرَدَ الْحَلْفِ لَا يُوجِبُ الْكُفَارَةَ، بَلِ الَّذِي
يُوجِبُ الْكُفَارَةَ هُوَ الْحِنْثُ؛ بِأَنْ يَفْعَلَ مَا حَلَفَ عَلَى تَرْكِهِ، أَوْ يَتْرُكَ مَا حَلَفَ عَلَى فَعْلِهِ.

وَلَا بَدَّ فِي الْحِنْثِ مِنْ شُرُوطٍ ثَلَاثَةٌ:

الأول: أَنْ يَكُونَ عَالِمًا.

الثاني: أَنْ يَكُونَ ذَاكِرًا.

الثالث: أَنْ يَكُونَ مُخْتَارًا.

وَصُدُّ الْعِلْمِ الْجَهْلُ، فَلَوْ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَلْبَسُ هَذَا الثَّوْبَ. ثُمَّ لَبَسَهُ يَظُنُّهُ غَيْرَ الثَّوْبِ الَّذِي

حَلَفَ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّهُ هُوَ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ جَاهِلٌ.
ولو قال: والله لا أَكَلَمُ زَيْدًا، ثُمَّ كَلَّمَ شَخْصًا فَقِيلَ لَهُ: هَذَا زَيْدٌ الَّذِي حَلَفْتَ أَلَّا تُكَلِّمَهُ.
فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ جَاهِلٌ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ زَيْدٌ.

ولو حَلَفَ أَلَّا يَشْرَبَ مَاءً قَبْلَ الْعِشَاءِ، فَشَرِبَ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ ذَاكِرًا.
ولو حَلَفَ أَلَّا يَفْعَلَ شَيْئًا، فَجَاءَ إِنْسَانٌ فَأَكْرَهَهُ عَلَى فَعْلِهِ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُخْتَارٍ.
إِذَا: فَالْجَاهِلُ لَا يَحْنُثُ، وَالنَّاسِي لَا يَحْنُثُ، وَالْمُكْرَهُ لَا يَحْنُثُ.
فَإِذَا زَالَتْ هَذِهِ الْأَعْدَارُ ثَبَتَ حَكْمُ الْيَمِينِ.

فَمَثَلًا: إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ الَّذِي حَلَفْتَ أَلَّا تُسَلِّمَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تُسَلِّمَ.
ولو قلت: والله لا أَدْخُلُ هَذَا الْبَيْتَ، ثُمَّ دَخَلْتَهُ نَاسِيًا، ثُمَّ ذَكَرْتَ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَخْرُجَ، وَإِنْ بَقِيَ بَعْدَ الذِّكْرِ وَجِبَتْ عَلَيْكَ الْكَفَّارَةُ.

كَذَلِكَ الْإِخْتِيَارُ: إِذَا أَكْرَهَنِي إِنْسَانٌ عَلَى شَيْءٍ، وَزَالَ الْإِكْرَاهُ عَنِّي، وَجِبَ عَلَيَّ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِمَّا أَنَا حَالِفٌ عَلَيْهِ، وَإِلَّا وَجِبَتْ عَلَيَّ الْكَفَّارَةُ.
مِثْلُ لَوْ قُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَبْقِي فِي هَذَا الْبَيْتِ سَاعَةً. فَجَاءَ رَجُلٌ فَأَكْرَهَنِي فَبَقِيْتُ، ثُمَّ تَوَلَّى
فَيَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ.

❖ وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ يُوَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْتَانَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿عَقَّدْتُمْ﴾ يَفْسِّرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. يَعْنِي: عَقَّدْتُمْ بِالْقَلْبِ وَنَوَيْتُمُوهُ، فَمَا لَمْ يُنَوِّ فَلَيْسَ فِيهِ كَفَّارَةٌ،
مِثْلُ أَنْ يَجْرِيَ عَلَى لِسَانِهِ قَوْلُهُ: وَاللَّهِ أَوْ أَكْرَهَ عَلَى أَنْ يَحْلِفَ فَيَحْلِفَ، فَإِنَّهُ لَا تَلَزُمُهُ الْكَفَّارَةُ؛
مِثْلُ: أَنْ يُمَسِّكَهُ شَخْصٌ وَيَقُولَ لَهُ: احْلِفْ أَلَّا تَدْخُلَ هَذَا الْبَيْتَ وَإِلَّا حَبَسْتُكَ. فَيَحْلِفُ، فَإِنَّهُ
لَا تَنْعَقِدُ يَمِينُهُ؛ لِأَنَّهُ مُكْرَهُ لَمْ يَعْقِدِ الْيَمِينَ.

❖ وَقَوْلُهُ: ﴿كَفَرْتُمْ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ كَفَّارَةً؛ لِأَنَّهُ مُقْتَضَى
تَعْظِيمِ اللَّهِ ﷻ إِذَا حَلَفْتَ بِهِ أَنْ تَلْزِمَ الْيَمِينَ فِي حُلِّ الْيَمِينِ أَوْ اتِّهَاكَهَا شَيْءٌ مِنَ الْإِثْمِ،
وَلِهَذَا سَمَّيْنَا مُخَالَفَةَ الْيَمِينِ: حِنْثًا، وَالْحِنْثُ فِي الْأَصْلِ: الْإِثْمُ، وَلِهَذَا أَوْجَبَ اللَّهُ فِيهِ الْكَفَّارَةَ.
وَمِنْ نِعْمَتِهِ ﷻ وَرَحْمَتِهِ بِالْخَلْقِ أَنْ أَبَاحَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْنُثَ فِي يَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَ يُسَمَّى

حِنْثًا وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فَلَوْ سَأَلْنَا سَائِلٌ: لِمَ إِذَا سُمِّيتْ كَفَّارَةٌ؟

فَالْجَوَابُ: لِأَنَّ الْأَصْلَ وَجُوبُ التَّزَامِ الْإِنْسَانِ بِمَا حَلَفَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ ذَلِكَ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ،

فإذا خالف صار فيه شيءٌ من عدم التعظيم، فصارت هذه الكفارة سترًا له.

وَيَدُلُّ لِهَذَا أَنَّا نُسَمِّي من خالف يمينه حائثًا، والحِثُّ في الأصل: الإثم.

❦ وقوله: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ﴾ «أو» هنا للتخيير ولكن هل هو تخيير اختياري، أو تخيير مصلحة؟

نَقُولُ: هو تخيير اختياري لا تخيير مصلحة، والقاعدة في ذلك: أن ما قُصِدَ به التخفيف عن المكلف فهو تخيير اختياري - أو إن شئت فقل: تخيير تشه - وما قُصِدَ فيه مصلحة الغير فهو تخيير مصلحة. فهنا المقصود بذلك التخفيف عن المكلف والتيسير عليه، وعلى هذا فيكون تخيير اختيار وتشه؛ يعني: افعل ما تشتهي.

❦ وقوله: ﴿إِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ حَدَّدَ فِي الْآيَةِ عَشْرَةَ. فإذا قال قائل: لماذا كانت عَشْرَةَ؟ **قُلْنَا:** لماذا كانت الصلوات خمسة؟ أي: أننا لا نَدْرِي فهذا أمرٌ تعبدِي، جائزٌ أن يَقُولَ فيه: عشرين، أو ثلاثين، أو خمسة. الله أعلم.

❦ وقوله: ﴿إِطْعَامِ﴾ كيف يكون هذا الإطعام؟ الصحيح: أن للإطعام صفتين:

الصفة الأولى: أن تُصَنَعَ طعامًا - غداءً أو عشاءً - وَتَدْعُوَ إِلَيْهِ عَشْرَةُ مَسَاكِينٍ حَتَّى يَشْبَعُوا.

والصفة الثانية: أن تُعْطِيَهُمْ تَمْلِيكًا من هذا الطعام، وإذا أُعْطِيَهُمْ تَمْلِيكًا فَإِنَّكَ تُعْطِيَهُمْ مَدًّا من البرِّ، أو نصفَ صاعٍ من الشعير.

وقال بعضُ العلماء: بل نصفَ صاعٍ من البرِّ أو الشعير، إلا أن أكثرَ أهلِ العلمِ يُقَرِّقُونَ بين الشعيرِ وغيره.

وبناءً على ذلك نَقُولُ: إن الأَرَزَّ مثل البرِّ أو أحسن، فيكفي في الكفارة مدٌّ من الأَرَزِّ.

ولكن بأي شيء نُقَدِّرُ هذا المدَّ؟

نَقُولُ: نقدره بمدَّ صاعِ الرسول ﷺ وهو ربعُ الصاعِ النبويِّ، والصاعُ الموجودُ عندنا الآن يَزِيدُ على الصاعِ النبويِّ بأن نضيفَ إليه ربعَ الصاعِ النبويِّ فيكون صاعًا لنا، وعلى هذا فيكون الصاعُ الموجودُ عندنا خمسةَ أمدادٍ نبويةٍ، فالصاعان إذن يكفيان العشرة.

لكن إذا أُعْطِيَهُمْ على سبيل التملكِ فيَحْسُنُ أن تَجْعَلَ معه ما يَأْذِيهِ من لحم، أو وَدَك، أو شبيهه؛ لِيَتِمَّ الإطعامُ؛ لأنَّ الْفَقِيرَ لَنْ يَأْخُذَ الْحَبَّ فَيَلْتَمِهُ، بل يَأْخُذُ الْحَبَّ فَيَطْبُخُهُ، وتِمَامُ الإطعامِ أن يوجدَ فيه ما يَأْذِيهِ.

❖ وقوله ﷺ: «مَنْ أَوْسَطَ مَا تُطْعَمُونَ» هل هذا على سبيل الوجوب، أو لا؟

نقول: على سبيل الوجوب باعتبار ما تحته، وليس على سبيل الوجوب باعتبار ما فوقه؛ يعني: لو أعطيتهم من أردء ما تطعم فهذا حرام لا يُجزئ، ولو أعطيتهم من أعلى ما تطعم لكان جائزًا بل هو خير.

فالله سبحانه قد ذكر الواجب، فما فوقه فضل، وما دونه ظلم، فيعطى الوسط.

❖ وقوله سبحانه: «أَوْكُسُوهُمْ» «كسوة» هذه معطوفة على قوله: «إِطْعَامُ»؛ يعني: أو تكون الكفارة هي كسوتهم.

والكسوة هنا مطلقة ولكن لا شك أنها من أوسط ما نكسوا أهلينا كالإطعام، فلا نعطيهم من الكسوة الفاخرة، ولا من الرديئة.

ولنعلم أن الكسوة تختلف باختلاف الأمكنة، فمثلاً نحن في هذه البلاد الكسوة عندنا قميصٌ وخمارٌ بالنسبة للأنثى، وبالنسبة للرجل قميصٌ وغترٌ، فهذا أدنى شيء، وإذا أتم فأعطى سراويلَ وغطاءً للرأس فهذا طيبٌ.

❖ وقوله: «أَوْتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» تحرير رقية؛ أي: تخليصها من الرق؛ يعني: أن تَحْرَرَ عبداً مملوكاً، سواء كان لك فتحرره، أو لغيرك فتشتره وتعتقه.

❖ وقوله: «رَقَبَةٍ» لم تقيّد هنا هذه الرقبة بالإيمان، فهل نأخذها على إطلاقها ونقول أي رقية ولو كانت كافرة، أو نقيدها بالإيمان؛ لأن الله ﷻ قيّد الرقبة بالإيمان في كفارة القتل، فقال: «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ» [النِّسَاءُ: ٩٢].

اختلف في هذا أهل العلم:

فقال بعضهم: نُطْلِقُ ما أطلق الله، ونُقيّد ما قيده الله؛ لأن الله أطلق في موضعين، وقيّد في موضع، ففي كفارة الظهار أطلق، فقال: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَّصِفَا»، وفي كفارة اليمين أطلق، فقال: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ». وفي كفارة القتل قيدها بالإيمان، ولا يقال: إن تقييد الرقبة بالإيمان في كفارة القتل حصل؛ لأن المقتول مؤمن؛ لأن الله ذكر ذلك حتى في غير المؤمن حيث قال: «وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» [النِّسَاءُ: ٩٢]. ولهذا لا يظهر أن نحمل المطلق على المقيّد؛ لأن الله أطلق في موضع وقيّد في كفارة القتل؛ لأن الحنث في القتل أعظم من الحنث في اليمين وفي الظهار.

ولكن يُمكنُ أن تُقَيَّدَ بالإيمان، من بابِ دلالةِ الإيساءِ في قصةِ معاويةَ بنِ الحكم رضي الله عنه حينَ لطمَ جاريةً له، وأراد أن يتخلَّصَ من هذا الإثمِ، فسألها النبي صلى الله عليه وآله: «أين الله؟». قالت: في السماء. فقال لها: «مَن أنا؟». قالت: أنتَ رسولُ الله. فقال: «أعْتَقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» ^(١) فأمرَ بإعتاقِها، وعُلِّلَ ذلكَ بأنها مؤمنةٌ، فإذا كان الإيمانُ مُراعَى في عتقِ التطوعِ فمراعاتُهُ في عتقِ الواجبِ من بابِ أولى.

وعلى هذا فيمكنُ أن نقولَ: إنه لا بد من الإيمانِ بناءً على دلالةِ حديثِ معاويةَ بنِ الحكمِ، وهو أحوط؛ لأن الكافرَ إذا أُعْتِقَ ربما يَهْرَبُ إلى بلادِ الكفرِ؛ لأن أصلَ الرِّقِّ سببُهُ الكفرُ، فربما إذا تحرَّرَ وعِتقَ ذَهَبَ إلى بلادِ الكفرِ وكان ندًّا لنا.

وهذه الثلاثةُ يُخَيَّرُ بينها فاعلُ الكفارةِ، والغالبُ أن الانتقالَ فيها من الأدنى إلى الأعلى، إلا أنه أحياناً يكونُ بالعكسِ، فقد يَكُونُ الإطعامُ خيراً من الكسوةِ، فمثلاً: إنسانٌ كاد يَهْلِكُ من شدةِ الجوعِ وعنده ألفُ ثوبٍ فلا شكَّ أن الطعامَ أحبُّ إليه، وربما يكونُ هناك أرقاءُ كثيرون فيَكُونُ العبدُ بريالٍ، والثوبُ بعشرةِ ريالات.

ولذلك نقولُ في الانتقالِ هنا: الغالبُ أنه من بابِ الترقِي من الأدنى إلى الأعلى.

وقوله: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَنُكُمْ» ﴿﴾ أي: مَنْ لَمْ يَجِدْ هذه الأشياءَ، أو مَنْ لَمْ يَجِدْ من يَصْرِفُ إليه هذه الأشياءَ فيشْمَلُ هذا وهذا، فقد يَجِدُ دراهمَ ولا يَجِدُ رَقَبَةً أو لا يَجِدُ من يَكْسُوهُ أو لا يَجِدُ من يُطْعِمُهُ، ففي بعضِ البلادِ الغنيَّةِ لا تَجِدُ فقيراً تَكْسُوهُ أو تُطْعِمُهُ، ولهذا كان من بلاغةِ القرآنِ أنه حَذَفَ المفعولَ به، فقال: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» ولم يُعَيِّنْ، فيكونُ شاملاً لمن لم يَجِدْ ما يُطْعِمُهُ أو لم يَجِدْ من يُطْعِمُهُ أو يَكْسُوهُ أو يُعْتِقُ.

وقوله: «ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ» ﴿﴾ ظاهرُ الآيةِ أنه لا يُشْتَرَطُ في هذه الثلاثةِ التتابعُ، وأنه يَجُوزُ أن تَصُومَ يوماً، وتُفْطِرَ يوماً، أو تَصُومَ يوماً، وتُفْطِرَ يومين؛ لأن الله لم يَذْكُرِ التتابعَ، ولو كان التتابعُ واجباً لَذَكَرَهُ، كما ذَكَرَ ذلكَ في كفارةِ الظهارِ، وفي كفارةِ القتلِ، وكما ذَكَرَهُ النبي صلى الله عليه وآله في كفارةِ الوطءِ في نهارِ رمضان.

ولكن نقولَ: قد صحَّ عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنه قرأ: «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مُتَابَعَةٍ». وقراءةُ

ابن مسعود إذا صحت عنه فهي حجة، فإن الرسول ﷺ قال: «من أراد أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأ بقراءة ابن أم عبد»^(١)؛ يعني: عبد الله بن مسعود، وهذه القراءة الثانية - قراءة ابن مسعود - تدل على أنه لا بد من التابع في الأيام الثلاثة.

❖ ثم قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيَمَّنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾. قوله: ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ قد يقول قائل: يعني عنه قوله: ﴿كَفَرَةٌ أَيَمَّنِكُمْ﴾.

ولكن نقول: إن هذا من باب التأكيد، والمراد: إذا حلفتם وحشتم، ثم قال: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيَمَّنِكُمْ﴾. قوله ﷻ: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيَمَّنِكُمْ﴾ فيه للعلماء أقوال:

القول الأول: احفظوها فلا تحشوا فيها، فإن هذا من حفظها؛ يعني: إذ حلفت على شيء فلا تحنث واستمر، فإذا قلت: والله لأفعلن كذا فافعل، وإذا قلت: والله لا أفعل فلا تفعل.

وقيل: المعنى لا تكثروا الأيمان؛ لأن كثرة اليمين بالله ﷻ ربما تشعر بهون اليمين عند المرء، فإذا تأنى الإنسان وصار لا يحلف إلا في محل الحلف فقد حفظ يمينه.

❖ وعلى هذا فيكون المراد بقوله: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيَمَّنِكُمْ﴾؛ أي: احفظوا أيمانكم عن الحنث، أو عن الإكثار من اليمين.

❖ ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: مثل هذا البيان يبين الله لكم آياته، والمراد هنا الآيات الشرعية لا الكونية.

❖ ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لأجل أن تشكروا فـ(لعل) هنا للتعليل؛ أي: لتشكروا الله، والشكر هو القيام بطاعة المنعم، ويكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٢١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ أَبُو الْحَسَنِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَكُنْ يَحْنَثُ فِي يَمِينٍ قَطُّ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ كَفَّارَةَ الْيَمِينِ، وَقَالَ: لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتُ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا آتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي.

هذا الحديث فيه: من مناقب أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يحفظ يمينه إذا حلف فلا يحنث،

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٨٢٥٥-٨٢٥٧)، وابن ماجه (١٣٨)، وأحمد (٣٥)، والطبراني في «الأوسط» (٢٤٠٤)، وابن خزيمة (١١٥٦)، وابن حبان (٧٠٦٦).

حتى أنزل الله كفارة اليمين ووسّع ﷺ على عباده، وصار من حلف، وأراد أن يفعل ما حلف عليه، أو يتركه، كفر عن يمينه، وفعل.

والكفارة إن كانت قبل الحنث تُسمى: تحلّة. وإن كانت بعده فهي: كفارة. قال الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. فإذا حلفت على شيء ألا تفعله، ثم أردت أن تفعله فلا حرج أن تفعله إذا كان مما يجوز شرعاً، فإن كفرت قبل فعله فهذا تحلّة؛ يعني: أنك قد حللت عقدة اليمين، وإن فعلت ثم كفرت فهي كفارة.

❦ وقوله: «لا أحلف على يمين فرأيت غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير» وكفرت عن يميني. إن كان قال ذلك بعد أن قال الرسول ﷺ لعبد الرحمن بن سمرّة ما قال^(١) فهو امثال لأمر الرسول ﷺ، وإن كان قاله قبل أن يقول النبي ﷺ هذا فإنه يُعتبر من موافقات أبي بكر رضي الله عنه لما جاءت به السنة.

وليعلم أنه إذا كان المحلوف عليه شيئاً واحداً كفته كفارة واحدة ولو تعددت الأيمان، وإن كان المحلوف عليه متعدداً فإن كانت اليمين واحدة كفته كفارة واحدة، وإن كانت الأيمان متعددة فلكل يمين كفارة.

فإذا قال: والله لا أدخل هذا البيت، ولا ألبس هذا الثوب، ولا أكلّم هذا الرجل، ثم حنث فهذا تكفي فيه كفارة واحدة.

أما إذا قال: والله لا أدخل هذا البيت، والله لا أكلّم فلاناً، والله لا ألبس هذا الثوب. فهذا فيه ثلاث كفارات.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٢٢ - حَدَّثَنَا أَبُو التَّعْمَانِ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ، حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِن أُوتِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُتِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكُفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»^(١).

(١) انظر التعليق التالي.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٢).

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَكَفَرُ عَنْ يَمِينِكَ، وَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ». فمثلاً لو قال: والله لا أَصَلِّيُ تَطَوُّعًا؛ فَإِنَّا نَقُولُ: صلاة التطوع خيرٌ، فكفر عن يمينك وَصَلَّ.

وَإِذَا قَالَ: والله لا أَصِلُ هذا الرجلَ، وهو من قرابته؛ فَإِنَّا نَقُولُ: الصلة خيرٌ، فكفر عن يمينك وَصَلَّهُ.

وكذلك لو قال: والله لا أَهْجُرَنَّ زَيْدًا. وهو ممن يَحْرُمُ هَجْرُهُ، قلنا: الهجر حرامٌ فكفر عن يمينك وكلّمه، وهكذا.

وعلى هذا فنقول: إِنْ الْحِنْثُ تَجَرِي فِيهِ الْأَحْكَامُ الْخَمْسَةُ.

فَإِذَا قَالَ: والله لا أَصَلِّيُ مع الجماعةِ كَانَ الْحِنْثُ وَاجِبًا.

وَإِذَا قَالَ: والله لا أَكَلَمُ فُلَانًا، وهو ممن يَحْرُمُ هَجْرُهُ كَانَ الْحِنْثُ وَاجِبًا.

وَإِذَا قَالَ: والله لأُصَلِّيَنَّ مع الجماعةِ. كَانَ الْحِنْثُ حَرَامًا.

وَإِذَا قَالَ: والله لا أَصَلِّيُ الرّاتبةَ. كَانَ الْحِنْثُ أَوَّلَى.

وَإِذَا قَالَ: والله لأُصَلِّيَنَّ الرّاتبةَ. كَانَ عَدَمُ الْحِنْثِ أَوَّلَى.

المهم: أنه على حَسَبِ المحلوفِ عليه، وظاهرُ قوله ﷺ: «كَفَرُ وَأَتِ» أنه لا يَضُرُّ أَنْ يُقَدَّمَ الكفارةُ أَوْ الْحِنْثُ، وذلك لِأَنَّ الْوَائِدَ لَا تَقْتَضِي التَّرتِيبَ، فَإِنْ شَتَّ فَكَفَرُ أَوَّلًا وَيُسَمَّى ذَلِكَ: تَحَلُّةً، وَإِنْ شَتَّ فَكَفَرُ ثَانِيًا وَيُسَمَّى ذَلِكَ: كَفَارَةً.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٢٣ - حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ غِيلَانَ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي بَرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي رَهْطٍ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ أَسْتَحْمِلُهُ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَا أَحْمِلُكُمْ، وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ». قَالَ: ثُمَّ لَبِثْنَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ نَلْبِثَ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِثَلَاثِ ذَوْدِ عُرٍّ الذَّرَى فَحَمَلْنَا عَلَيْهِمَا، فَلَمَّا انْطَلَقْنَا قُلْنَا - أَوْ قَالَ بَعْضُنَا -: «وَاللَّهِ لَا يُبَارِكُ لَنَا؛ أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ نَسْتَحْمِلُهُ فَحَلَفَ أَنْ لَا يَحْمِلَنَا ثُمَّ حَمَلْنَا، فَارْجِعُوا بِنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَّرْهُ، فَأَتَيْنَاهُ فَقَالَ: «مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ، بَلِ اللَّهُ حَمَلَكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، أَوْ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي»^(١).

في هذا الحديث: دليلٌ على حرصِ الصحابةِ رضي الله عنهم على الجهادِ في سبيلِ الله والغزوِ. **وفيه:** بيانُ جوازِ الحلفِ لطمأنينةِ المخاطَبِ وإن لم يُستَحْلَفْ؛ لقولِ النبي ﷺ: «والله لا أُحِلُّكُمْ».

وفيه أيضًا: دليلٌ على أن الإنسانَ إذا حَلَفَ على شيءٍ، فرأى غيرَه خيرًا منه، كفرَ عن يمينه، وأتى الذي هو خيرٌ، وهذه قاعدةٌ عامةٌ، ولهذا أقسمَ النبي ﷺ أنه لا يَحْلِفُ على يمينٍ، فيرى غيرَها خيرًا منها، إلا كفرَ عن يمينه، وأتى الذي هو خيرٌ.

وفيه: دليلٌ على أن النبي ﷺ يَجُوزُ عليه النسيانُ، ولهذا جَوَّزه عليه أعلمُ الناسِ به وبحالِه، وهم الصحابةُ رضي الله عنهم، لكن هذا في غيرِ أمورِ الشرعِ، فأما أمورُ الشرعِ فقد قال الله تعالى: ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ ① إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ② ﴿[الأنعام: ٦-٧]﴾. فلا يَنْسَى منها شيئًا إلا شيئًا نَسَاهُ الله إياه.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمته الله:

٦٦٢٤ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ①. ٦٦٢٥ - وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ لَأَنْ يَلِجَ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ أَثَمٌ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كِفَارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ②.

٦٦٢٦ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ - يَعْنِي: ابْنَ إِبْرَاهِيمَ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ، عَنْ يَحْيَى، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اسْتَلَجَ فِي أَهْلِهِ بِيَمِينٍ فَهُوَ أَعْظَمُ إِثْمًا، لِيَبْرَ»؛ يَعْنِي: الْكِفَارَةَ.

المراد من هذا الحديث: أن الإنسانَ إذا لَجَّ بيمينه في أهله؛ يعني: حَلَفَ حَلْفَ لُجَاجٍ وَغَضَبٍ، فإن خيرًا له أن يُكْفَرَ عن يمينه وأن يَحْتَنَ؛ لقوله: «أَثَمٌ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كِفَارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ». وهذا يَقَعُ كثيرًا، فقد يَكُونُ الإنسانُ مُخَاصِمًا أَهْلَهُ فَيَحْلِفُ،

(١) أخرجه مسلم (٨٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٥).

إِلَّا أَنْ الْقَوَاعِدَ تَقْتَضِي أَنَّهُ إِذَا غَضِبَ غَضَبًا لَا يَمْلِكُ مَعَهُ نَفْسَهُ، أَوْ غَضِبَ غَضَبًا لَا يَدْرِي مَعَهُ مَا يَقُولُ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِ كَفَارَةٌ؛ لِأَنَّ يَمِينَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَمْ تَتَّعِدْ.

وظَاهِرُ قَوْلِهِ: «أَنْتُمْ لَهُ». يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُكْفَرَ عَنْ يَمِينِهِ وَيَدَعَ هَذَا، وَلَكِنَّهُ يُحْمَلُ عَلَى إِذَا مَا لَجَّ فِي أَمْرٍ مُحْرَمٍ، أَوْ لَجَّ فِي أَمْرٍ يُخْشَى مِنْهُ التَّفَرُّقُ وَالتَّمَرُّقُ بَيْنَ الْعَائِلَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢- بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ «وَأَيْمُ اللَّهِ».

٦٦٢٧- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعثًا وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمْرَتِهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنْ كُنْتُمْ تَطْعَمُونَ فِي إِمْرَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعَمُونَ فِي إِمْرَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَأَيْمُ اللَّهِ، إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ» (١).

فِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَابْنِهِ أَسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَهْلٌ لِلْإِمَارَةِ؛ أَيٌّ: لِأَنَّهُ يَكُونُ أَمِيرًا.

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فِي غَزْوَةِ مَوْتَةَ، ثُمَّ حَصَلَ أَنَّ قُتَيْلَ هُلَيْفَةَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعثًا وَأَمَرَ عَلَيْهِ أَسَامَةَ ابْنَهُ، فَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ أَسَامَةُ كَانَ صَغِيرًا، ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ ابْنًا لِمَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَهُوَ مِنْ مَوَالِيهِ، وَلَكِنَّ الرُّسُولَ ﷺ بَيْنَ أَنَّهُ خَلِيقٌ بِالْإِمَارَةِ وَأَهْلٌ لَهَا.

وَفِيهِ: فَضِيلَةُ لَزِيدِ وَابْنِهِ حَيْثُ إِنَّمَا كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِهَذَا يُطْلَقُ عَلَى زَيْدٍ لَقَبُ حَبِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَفِيهِ: دَلِيلٌ عَلَى مَا بَوَّبَ لَهُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، بِقَوْلِهِ: «وَأَيْمُ اللَّهِ» وَقَوْلُهُ: «وَأَيْمُ اللَّهِ» مِثْلُ قَوْلِهِ: «وَاللَّهُ» فَهِيَ يَمِينٌ، فَإِذَا قَالَ الْإِنْسَانُ: وَأَيْمُ اللَّهِ لَا فَعَلَنْ كَذَا فَهُوَ كَقَوْلِهِ: وَاللَّهُ لَا فَعَلَنْ كَذَا.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣- بَابُ كَيْفَ كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَالَ سَعْدٌ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ».

وَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا هَا اللَّهُ إِذَا. يُقَالُ: وَاللَّهُ وَبِاللَّهِ وَتَاللَّهِ».

❦ قَوْلُهُ: «يُقَالُ: وَاللَّهُ، وَبِاللَّهِ، وَتَاللَّهِ». هَذِهِ أَيْضًا مِنْ حُرُوفِ الْقِسْمِ: الْوَاوُ، وَالْبَاءُ، وَالتَّاءُ، وَيُذَكَّرُ بَدَلًا عَنْهَا: (هَا) كَقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ: لَا هَا اللَّهُ.

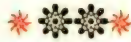
وَالْبَاءُ: أَعْمُ حُرُوفِ الْقِسْمِ، وَلِهَذَا تَدْخُلُ عَلَى الظَّاهِرِ وَالْمُرْمَرِ مَعَ وجودِ الفعلِ والحرفِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ آيَتِنِهِمْ﴾ فُهَذَا دَخَلَتْ عَلَى الْأَسْمِ الظَّاهِرِ مَقْرُونًا بِهَا فَعَلُ الْقِسْمِ.

وَتَدْخُلُ عَلَى الْأَسْمِ الْمُرْمَرِ فَتَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ بِهِ أَحْلَفُ. فَتَدْخُلُ عَلَى الضَّمِيرِ. وَتُذَكَّرُ مَجْرَدَةً عَنِ الْفِعْلِ، وَهُوَ كَثِيرٌ مِثْلُ: بِاللَّهِ لَا أَفْعَلَنَّ.

أَمَّا التَّاءُ: فَإِنَّهَا خَاصَّةٌ بِلَفْظِ الْجَلَالَةِ وَرَبِّ، عَلَى أَنَّهَا قَلِيلَةٌ فِي رَبِّ، فَيُقَالُ: تَرَبَّ الكَعْبَةِ. كَمَا يُقَالُ: وَرَبَّ الكَعْبَةِ. وَلَا يُذَكَّرُ مَعَهَا فَعْلُ الْقِسْمِ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَقُولَ: أَقْسِمُ تَاللَّهِ.

وَأَمَّا الْوَاوُ: فَإِنَّهَا تَدْخُلُ عَلَى كُلِّ مَا يُقَسَمُ بِهِ، لَكِنَّهَا لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى الظَّاهِرِ، وَلَا يُذَكَّرُ مَعَهَا فَعْلُ الْقِسْمِ.

فَصَارَ أَعْمَهُنَّ الْبَاءُ، ثُمَّ الْوَاوُ، ثُمَّ التَّاءُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٢٨- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُثْبَةَ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ ابْنِ

عَمْرٍ، قَالَ: كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ».

❦ قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ». لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَحْلِفُ بِذَلِكَ وَبِغَيْرِهِ.

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَهُ أَنَّهُ قَالَ: «وَايُمُ اللَّهِ» وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَحْلِفُ فَيَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ» أَوْ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ». وَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّ﴾ [النَّبَأُ: ٧]. ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سَبَأُ: ٣]. ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الزُّمَرُ: ٥٢]. وَلَكِنْ إِمَّا أَنْ

يَكُونُ هَذَا بِاعْتِبَارِ سَمَاعِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ؛ يَعْنِي: أَنَّ أَكْثَرَ مَا سَمِعَ مِنْ قَسَمِ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ قَوْلُهُ: «لَا وَمَقْلَبُ الْقُلُوبِ». أَوْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَذْكُرُ هَذِهِ الصَّيْغَةَ فِي الْحَالِ الْمُنَاسِبَةِ لَهَا، كَمَا لَوْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَحْلِفَ عَلَى أَمْرٍ يَجُوزُ أَنْ يَتَغَيَّرَ.

المهم: أَنَّ قَوْلَهُ: كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا وَمَقْلَبُ الْقُلُوبِ» لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ.

❖ وقولُهُ: «مَقْلَبُ الْقُلُوبِ»؛ يَعْنِي: مُصَرَّفُهَا، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ يُقَلِّبُهَا مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرٍ إِلَى وَجْهَةٍ نَظَرٍ أُخْرَى، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ قَلْبٍ مِنْ قُلُوبِ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، يُقَلِّبُهُ - أَوْ قَالَ: يُصَرِّفُهُ - كَيْفَ يَشَاءُ»^(١).



ثُمَّ قَالَ الْبَحَّارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٢٩ - حَدَّثَنَا مُوسَى، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ وَإِذَا هَلَكَ كَيْسَرِي فَلَا كَيْسَرِي بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

٦٦٣٠ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا هَلَكَ كَيْسَرِي فَلَا كَيْسَرِي بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣).

❖ قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ كَيْسَرِي فَلَا كَيْسَرِي بَعْدَهُ» ظَاهِرُهُ الْعُمُومُ، وَأَنَّهُ لَا تَقُومُ لِلْفَرَسِ دَوْلَةٌ عَلَيْهَا مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِ الْفَرَسِ، وَلَا لِلرُّومِ دَوْلَةٌ عَلَيْهَا مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِ الرُّومِ، وَلَكِنْ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْوَاقِعِ وَجَدْنَا أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِهِ، فَيُحْمَلُ عَلَى مَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ حَالِ عِزِّ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقُومَ لِلدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ، وَلَا لِلدَّوْلَةِ الْفَارَسِيَّةِ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ؛ لِأَنَّهُمْ مَقْهُورُونَ بِعِزِّ الْإِسْلَامِ، أَمَا إِذَا انْخَذَلَ الْمُسْلِمُونَ وَذَلُّوا، فَإِنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ تُقَامَ الْمَلَكِيَّةُ فِي فَارَسَ، وَفِي الرُّومِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٦٥٤).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٩١٩).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٩١٨).

قال الحافظ بن حجر رحمه الله في الفتح (٦/ ٦٢٥، ٦٢٦):

❦ قوله: «كسرى» بكسر الكاف، وَيَجُوزُ الْفَتْحُ، وهو لقبٌ لكلِّ من ولي مملكة الفرس، وقيصرُ لقبٌ لكلِّ من ولي مملكة الروم.
قال ابن الأعرابي: الكسرُ أفصحُ في «كسرى»، وكان أبو حاتم يَحْتَارُهُ. وأنكر الزَّجَّاجُ الكسرَ على ثعلبٍ، واحتج بأن النسبةَ إليه «كسروِيٌّ» بالفتح، وردَّ عليه ابنُ فارس: بأن النسبةَ قد يُفْتَحُ فيها ما هو في الأصلِ مكسورٌ أو مموءٌ، كما قالوا في بني تغلب بكسر اللام: تَغْلَبِيّ بفتحها وفي سلَمة كذلك، فليس فيه حجةٌ على تخطئة الكسر، والله أعلم.
وقد استشكل هذا مع بقاء مملكة الفرس؛ لأن آخرهم قُتِلَ في زمانِ عثمانَ واستشكل أيضًا مع بقاء مملكة الروم.

وأجيب عن ذلك: بأن المراد لا يَبْقَى كسرى بالعراق، ولا قيصر بالشام، وهذا منقولٌ عن الشافعي قال: وسببُ الحديث أن قريشًا كانوا يأتون الشامَ والعراقَ تجارًا، فلما أسلموا خافوا انقطاعَ سفرهم إليهما؛ لدخولهم في الإسلام، فقال النبي ﷺ ذلك لهم تطييبًا لقلوبهم وتبشيرًا لهم؛ بأن ملكهما سيزول عن الإقليمين المذكورين.

وقيل: الحكمةُ في أن قيصرَ بقي ملكه، وإنما ارتفع عن الشام، وما والاها، وكسرى ذهبَ ملكه أصلًا ورأسًا، أن قيصرَ لما جاءه كتابُ النبي ﷺ قبله وكادَ أن يُسَلِّمَ كما مضى بسطَ ذلك في أولِ الكتاب، وكسرى لما أتاه كتابُ النبي ﷺ مزقه، فدعا النبي ﷺ أن يُمَزَّقَ ملكه كل ممزق، فكان كذلك.

قال الخطابي: معناه فلا قيصرَ بعده يَمْلِكُ مثل ما يَمْلِكُ، وذلك أنه كان بالشام وبها بيتُ المقدس الذي لا يَتِمُّ للنصارى نسلٌ إلا به، ولا يَمْلِكُ على الروم أحدٌ إلا كان قد دخله إما سرًّا وإما جهراً، فانجلى عنها قيصرُ، واستفتحت خزائنه، ولم يخلُفه أحدٌ من القياصرة في تلك البلاد.

ووقع في الرواية التي في باب: الحربُ خدعةٌ. من كتاب «الجهاد»: «هَلَكَ كسرى، ثم لا يَكُونُ كسرى بعده، وَلِيَهْلِكَنَّ قيصَرُ». قيل: والحكمةُ في أنه قال ذلك لما هَلَكَ كسرى بنُ هُرْمُز، كما سيأتي في حديث أبي بكرٍ في كتاب «الأحكام»، قال: بلغَ النبي ﷺ أن أهل فارسَ ملكوا عليهم امرأة. الحديث، وكان ذلك لما مات شبرويه بنُ كسرى، فأَمَرُوا عليهم بنته لوران، وأما قيصرُ فعاش إلى زمنِ عمرَ سنةَ عشرين على الصحيح، وقيل: مات في زمنِ النبي ﷺ، والذي حارب المسلمين بالشام ولدهُ وكان يُلقَّبُ أيضًا قيصرَ.

وعلى كل تقدير فالمراد من الحديث وقع لا محالة؛ لأنها لم تبق مملكتها على الوجه الذي كان في زمن النبي ﷺ كما قررته.

قال القرطبي: في الكلام على الرواية التي لفظها: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» وعلى الرواية التي لفظها: «هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده». بين اللفظين بونٌ ويُمكن الجمع بأن يكون أبو هريرة سمع أحد اللفظين قبل أن يموت كسرى، والآخر بعد ذلك. قال: ويَحْتَمِلُ أن يَقَعَ التغيُّر بالموت والهلاك، فقوله: «إذا هلك كسرى»؛ أي: هلك ملكه وارتفع.

❖ وأما قوله: «مات كسرى، ثم لا يكون كسرى بعده»، فالمراد بعده كسرى حقيقةً. انتهى ويَحْتَمِلُ أن يكون المراد بقوله: «هلك كسرى» تحقق وقوع ذلك حتى عبّر عنه بلفظ الماضي، وإن لم يَقَعْ بعد للمبالغة في ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَمَرْتُ اللَّهَ فَلَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [الحج: ١٧]. وهذا الجمع أولى؛ لأن مَخْرَجَ الروایتين متحدٌ، فحمله على التعدد على خلاف الأصل فلا يُضَارُّ إليه مع إمكان هذا الجمع، والله أعلم. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ.

وبهذا يَتَحَصَّلُ لدينا في قوله: «فلا كسرى بعده، ولا يقصر بعده» ثلاث أقوال:

الأول: أن المراد: فلا كسرى بعده في هذا المكان، ولكن قد يكون له ملك في مكان آخر.

الثاني: أن المراد: لا كسرى بعده في قوة ملكه وسلطانه؛ أي: يكون الملك ضعيفاً مهزوزاً.

الثالث: ما أشرنا إليه من قبل، وهو أنه حينما تكون الأمة الإسلامية قاهرة عزيزة؛ فإنه لا يَبْقَى لأحد ملكٌ حولها.

❖ وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والذي نفسي بيده لتُسْفَنَ كنوزهما» قد يقول قائل: هل في هذا مخالفة لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ﴾ (٢٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ ﴿[الكهف: ٢٢-٢٤].

جوابه: أن يقال: ليس في هذا مخالفة؛ لأن الذي نهى الله عنه هو أن يقول الإنسان عن فعله الشيء لا عن الخبر، فإن الإخبار لا يُعَارِضُ الآية، والنبي ﷺ في هذا الحديث إنما أخبر خبراً.

وبناءً على ذلك نقول: إذا قال الرجل: والله لأفعلن هذا غداً يريد بذلك أن يُخبر عما في ميره فإنه لا يَأْتُمُّ بذلك، أما إذا قال: والله لأفعلن يريد بذلك أن يُطبّق هذا بالفعل؛ فهذا حلفٌ يَأْتُمُّ عليه إن لم يفعلْهُ إلا أن يقول: إن شاء الله.

وقوله: «لَتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله» قد وقع الأمر كما أخبر النبي ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فقد غُنِمَتْ أموال كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَأُنْفَقَتْ في سبيل الله.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٦٣١ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُهُ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا»^(١).
الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: قوله: «والله» إِذْنٌ فَالَّذِي مَرَّ عَلَيْنَا إِلَى الْآنَ مِنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ هُوَ قَوْلُهُ: «وَأَيْمُ اللهِ»، و«لَا وَمَقْلَبُ الْقُلُوبِ». وقوله: «والذي نفسُ محمدٍ بيده»، «والذي نفسي بيده»، «والله».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٦٣٢ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي حَيْوَةُ، حَدَّثَنِي أَبُو عَقِيلٍ زُهْرَةُ بْنُ مَعْبُدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ جَدَّهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هِشَامٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْآنَ يَا عُمَرُ».
الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: قوله: «لَا وَالَّذِي نفسي بيده».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٦٣٣ - ٦٦٣٤ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ، أَنَّهُمَا أَخْبَرَاهُ: أَنَّ رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَقَالَ الْآخَرُ - وَهُوَ أَفْقَهُهُمَا -: أَجْلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَذَّنَ لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ. قَالَ: «تَكَلَّمْ» قَالَ: إِنَّ ابْنِي كَانَ

عَسِيفًا عَلَى هَذَا - قَالَ مَالِكٌ: وَالْعَسِيفُ: الْأَجِيرُ - زَنَى بِامْرَأَتِهِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ، فَأَتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَجَارِيَةٍ لِي، ثُمَّ إِنِّي سَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ فَأَخْبَرُونِي أَنَّ مَا عَلَى ابْنِي جَلْدَ مِائَةٍ وَتَغْرِيبَ عَامٍ، وَإِنَّمَا الرَّجْمُ عَلَى امْرَأَتِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بَكْتَابِ اللَّهِ، أَمَّا غَنَمُكَ وَجَارِيَتُكَ فَرُدَّ عَلَيْكَ»، وَجَلَدَ ابْنَهُ مِائَةً وَغَرَبَهُ عَامًا، وَأَمَرَ أَنْتِيسَا الْأَسْلَمِيَّ أَنْ يَأْتِيَ امْرَأَةَ الْآخَرِ فَإِنْ اعْتَرَفَتْ رَجَمَهَا، فَأَعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا^(١).

هذا الحديث فيه: أن رجلاً كان له ابنٌ استأجره شخصٌ آخر، وكان للمستأجر امرأةً فزنا بها هذا الأجير، فقيل: إن عليه الرجم فافتداه أبوه بمائة شاةٍ وجاريةٍ مملوكةٍ، ثم إنه سأل أهل العلم، فقالوا: إن ابنك ليس عليه رجم، وإنما عليه جلدٌ وتغريبٌ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «أَمَّا الْغَنَمُ وَالْجَارِيَةُ رُدُّ عَلَيْكَ»؛ يعني: مردودٌ عليك؛ لأنه أخذٌ بغير حقٍّ، وبين ﷺ أن على ابنه جلدَ مائةٍ وتغريبَ عامٍ، والتغريبُ هو: أن يُطْرَدَ عن البلدِ لمدةٍ سنةٍ كاملةٍ، حتى ينسى المكانَ الذي زنى فيه، والمرأةُ التي زنى بها.

وأما المرأةُ - وهي زوجةُ الرجل - فكانت مُحْصَنَةً، والمُحْصَنُ إذا زنى يَجِبُ أَنْ يُرْجَمَ، فوَكَّلَ النبي ﷺ أَنْتِيسَا أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْمَرْأَةِ، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَلْيُرْجَمْهَا، فَذَهَبَ إِلَيْهَا فَأَعْتَرَفَتْ فَرَجَمَهَا.

وهذا الحديث يُسْتَفَادُ مِنْهُ فَوَائِدُ:

أولاً: أن الناسَ يَتَفَاضِلُونَ فِي الْأَسْلُوبِ وَمَخَاطَبَةِ الْأَكَابِرِ، فَالْأَوَّلُ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْعَنْفِ؛ حَيْثُ قَالَ: اقْضِ بَيْنَنَا بَكْتَابِ اللَّهِ، وَلَكِنَّهُ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ - كَمَا فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى -: أَنْشُدْكَ اللَّهَ إِلَّا مَا قَضَيْتَ بَيْنَنَا بَكْتَابِ اللَّهِ. وكلمة: أَنْشُدْكَ: تَوْحِي بِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِهَذَا الْإِنْشَادِ، وَهَذَا جَفَاءٌ، أَمَّا الثَّانِي فَإِنَّهُ كَانَ أَفْقَهُ مِنْهُ فَإِنَّهُ قَالَ بِأَسْلُوبٍ سَهْلٍ: اقْضِ بَيْنَنَا بَكْتَابِ اللَّهِ، وَأَذَّنَ لِي أَنْ أَتَكَلَّمَ. فَأَذَّنَ لَهُ، فَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ.

وفيه: أن ما أُخِذَ بِعَقْدٍ فَاسِدٍ فَإِنَّهُ يَجِبُ رُدُّهُ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «الْغَنَمُ وَالْوَلِيدَةُ رُدُّ عَلَيْكَ». وقال النبي ﷺ فِي قِصَّةِ التَّمْرِ الطَّيِّبِ الَّذِي جِيءَ إِلَيْهِ بِهِ حِينَ قَالُوا لَهُ: إِنَّا نَشْتَرِي الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ مِنَ التَّمْرِ الرَّدِيِّ. فقال: «هَذَا عَيْنُ الرَّبِّ،

رُدُّوهُ»^(١) أو قال: «رُدُّهُ» فأيد هذا الحديث ما يدلُّ عليه هذا الحديث الذي معنا من أن ما قبض بعقيد فاسدٍ وجب رُدُّه.

وفيه: الحذر من الفتيا بغير علم فإنها قد ترتب عليها هنا: تعطيل الحد، وترتب عليها: تمين هذا الرجل ما لم يمينه؛ لأن هذا الرجل لما أعطاه الشياة والوليدة لم يحده لظنه أنه لا يقام عليه شيء، ففي هذا تعطيل للحد، وفيه إلزام للغير بما لا يلزمه شرعاً.

والفتيا بغير علم لا شك أنها تهدم أكثر مما تعمّر، مع ما فيها من الإثم الذي جعله الله تعالى مقروناً بإثم الشرك، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْأَبْغَى يَغْيِرُ الْحَقُّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفيه: القسم بقوله: «والذي نفسي بيده».

وفيه: أن الرجم ثابت بكتاب الله؛ لقوله: «لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ» ثم أمر بالمرأة أن تَرْجَمَ.

وفيه: جواز التوكيل في إثبات الحدود، وجواز التوكيل في إقامة الحدود.

أما جواز التوكيل في إثباتها فلأن النبي ﷺ قال: «فإن اعترفت» وهذا إثبات.

وأما جواز التوكيل في تنفيذها فلقوله: «فارجمها».

وفي هذا الحديث: دليل على أنه لا يشترط في الإقرار بالزنا أن يتكرّر، وأنه إذا أقر به مرة واحدة ثبت عليه الحق وأقيم عليه الحد، وهذا هو القول الراجح في هذه المسألة: أن من أقر بما يوجب الحد من زنا، أو سرقة، أو غيرهما، فإنه يكفي في إقراره أن يكون مرة واحدة.

وأما الشهادة؛ فلا بد في الشهادة في الزنى من أربعة رجال؛ وذلك لأن الشهادة هنا على أمر عظيم فيه دنس على المشهود عليه، وقد يكون الشهداء لهم هدف في الصاق العار بهذا المشهود عليه، وقد يكونون متوهمين، أما إذا أقر به على نفسه فإنه لا يمكن أن يتهم في حق نفسه، ولهذا قلنا: إنه يكفي الإقرار مرة واحدة.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ قد ردّد ماعز بن مالك، حتى شهد على نفسه أربعة مرات؟

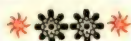
فالجواب: بلى، لكن النبي ﷺ إنما ردّد ماعز بن مالك؛ لأنه اشتبه في أمره، ولهذا قال له: «أبلك جنون؟»^(٢) وأرسل إلى قومه يسألهم عن حاله، وأمر شخصاً أن يقوم ويستنكّه لعله

(١) أخرجه البخاري (٢٣١٢)، ومسلم (١٥٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨١٥)، ومسلم (١٦٩١).

شَرِبَ خَمْرًا، فَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ بِتَكَرُّرِ الْإِقْرَارِ أَنْ يَتَّبَعَتْ فِي أَمْرِهِ، فَلَمَّا ثَبَتَ الرَّجُلُ وَصَمَّ عَلَى الْإِقْرَارِ أَمَرَ بِرَجْمِهِ.

وفي هذا الحديث أيضًا: دليلٌ على أنه لا يُجْمَعُ بين الرِّجْمِ والجلْدِ؛ لقوله: «فإن اعترفت فارجمها» ولم يذكرِ الجلدَ، وذكرَ الجلدَ محتاجٌ إليه في هذا المقام، وما دعتِ الحاجةُ إليه فلم يُذكرْ فهو دليلٌ على أنه لا أثرَ له؛ لأنه لا يَجُوزُ تأخيرُ البيانِ عن وقتِ الحاجةِ. وهذه قاعدةٌ معروفةٌ في أصولِ الفقه: أنه لا يَجُوزُ تأخيرُ البيانِ عن وقتِ الحاجةِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٣٥ - حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا وَهْبٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ أَسْلَمٌ، وَغَفَارٌ، وَمُزَيْنَةُ، وَجُهَيْنَةُ خَيْرًا مِنْ تَيْمِيمٍ، وَعَامِرُ بْنُ صَعَصَعَةَ، وَغَطَفَانٌ، وَأَسَدٌ خَابُوا وَخَسِرُوا؟». قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ»^(١).

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «والذي نفسي بيده إنهم خيرٌ منهم» فأقسم بهذا القسم، وأحيانًا كان يُقسمُ الرسولُ ﷺ بقوله: «والله» مثلُ قوله ﷺ: «والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم...».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٣٦ - حَدَّثَنَا أَبُو التَّيَّانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ، عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَ عَامِلًا، فَجَاءَهُ الْعَامِلُ حِينَ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أَهْدِي لِي. فَقَالَ لَهُ: «أَفَلَا قَعَدْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ فَنَظَرْتَ أَبْهَدَى لَكَ أَمْ لَا؟»، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشِيَّةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَتَشَهَّدَ وَأَتْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَمَا بَالُ الْعَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ فَيَأْتِينَا فَيَقُولُ: هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ، وَهَذَا أَهْدِي لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَنَظَرَ هَلْ يُهْدَى لَهُ أَمْ لَا، فَوَالَّذِي نَفْسُ

مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَغُلُّ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا جَاءَ بِهِ لَهُ رُغَاءٌ، وَإِنْ كَانَتْ بَقَرَةً جَاءَ بِهَا لَهَا خَوَارٌ، وَإِنْ كَانَتْ شَاةً جَاءَ بِهَا تَيْعُرٌ، فَقَدْ بَلَّغْتُ»، فَقَالَ أَبُو حَمِيدٍ: ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ حَتَّى إِنَّا لَنَنْتَظِرُ إِلَى عُفْرَةِ إِيْطِيهِ. ^(١) قَالَ: أَبُو حَمِيدٍ: وَقَدْ سَمِعْتُ ذَلِكَ مَعِيَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَوُهُ.

الشاهد من هذا الحديث: هو قول الرسول ﷺ: «فوالذي نفس محمد بيده» فأقسم بهذه الصيغة.

وفي هذا الحديث: التحذير من قبول العمال ما يُهدى إليهم؛ لأن النبي ﷺ قال له: «هلا قعدت في بيت أهلك وأهلك».

وفيه: دليل على أنه لا يجوز للإنسان أن يستعمل سلطته في الوصول إلى غرضه، فإن بعض الناس يستعمل سلطته في الوصول إلى غرضه فيقول مثلاً: أنا فلان بن فلان. ويذكر ألقاباً كبيرة، أو يذكر عملاً كبيراً يوجب للمخاطب أن يخضع له، وإن كان على باطل، فإن هذا حرام، ولا يجوز.

والمهم: أن المقياس هو ما أشار إليه الرسول ﷺ: هل أنت لو قعدت في بيت أهلك وأهلك يحصل لك هذا؟ إن كان كذلك فهو لك، وإلا فليس لك.

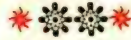
وهل مثل هذا الإهداء للمدرس، كما يفعل بعض الناس من أنه يهدي للمدرس مالاً، أو أعياناً؟ الظاهر: أنه مثله، بل قد يكون أخطر إذا كان يتوكل التدريس لهذا المهدي؛ لأن الهدية تجعل الإنسان يميل إلى من أهدى إليه، ولهذا جاء في الحديث: «تهادوا تحابوا» ^(٢) فربما يحاييه عند التصحيح، أو أمام الطلبة في معاملته إياه، أو ما أشبه ذلك ولهذا نرى أن المدرس إذا أهدى له التلميذ الذي يقرأ عنده أنه لا يقبل، ولكن يجبر خاطره، فيقول: يا بني هذا شيء حرام عليّ، ولا أستطيع قبوله.

أما إذا كان لا يدرسه فلا بأس بذلك؛ لأن المحاباة هنا ممنوعة، وليس له سلطة عليه، ولا عمل عنده، فلا حرج، وكذلك لو تخرج من المدرسة فلا حرج أيضاً أن يهدي لأستاذه مكافأة لهم على تعليمهم إياه.

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٤)، والبيهقي في «الكبرى» (١٦٩/٦)، وانظر: «تلخيص الحبير» (٧٠، ٦٩/٣).

وفي هذا: دليلٌ على حرصِ النبي ﷺ على تبليغِ الأمرِ العام الذي يُخشى الوقوعُ فيه، وإلا لاكتفى بأن يقولَ لهذا الرجل: أفلا قعدتَ في بيتِ أهلك وأهلك. لكنه ﷺ أراد أن يبينَ هذا الحكمَ العظيمَ، فالعمالُ لا يجوزُ لهم أن يأخذوا شيئاً مما يُهدى إليهم، وقد روى الإمامُ أحمدُ في «مسنده» عن النبي ﷺ أنه قال: «هدايا العمالِ غُلُولٌ»^(١). ويدلُّ لهذا الحديثِ قوله ﷺ هنا: «فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لا يغُلُّ أحدكم منها شيئاً إلا جاء يومَ القيامةِ يحمله على عنقه».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٣٧- حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا هِشَامٌ -هُوَ ابْنُ يُوسُفَ- عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ هَمَامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا»^(١).

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قال أبو القاسم». المعروف أن الصحابة كانوا يقولون: قال رسول الله. لكن لما كان الرسول ﷺ لا يتكئ بكنيته أحد صار هذا كالعلم الخاص، وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان كثيراً ما يُعبرُ بهذا، مثل قوله في الذي خرج من المسجد بعد الأذان: أما هذا فقد عصى أبا القاسم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟^(٢) لأنه لا يجوزُ للإنسان أن يخرج من المسجد بعد الأذان إلا في حالِ الضرورة والعذر، أو إذا كان يريد أن يصلِّي في مسجدٍ آخر يعلم أنه يلحقه.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٣٨- حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ الْمَعْرُورِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ: «هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ». قُلْتُ: مَا شَأْنِي أَرَى فِي شَيْءٍ، مَا شَأْنِي؟ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ -فَمَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْكُتَ- وَتَغَشَّانِي مَا شَاءَ اللَّهُ، فَقُلْتُ: مَنْ هُم بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (٥/٤٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٩٠١م).

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٥).

(٤) أخرجه مسلم (٩٩٠).

الشاهد: قوله: «وَرَبُّ الْكَعْبَةِ» فقد أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَبِّ الْكَعْبَةِ، وهذه ربوبية خاصة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [التكْوِينُ: ٩١]. وربوبية الله إما عامة كما في قوله تعالى: ﴿أَلَعَلَّ اللَّهَ رَبَّ الْقَلَمَيْنِ﴾ وإما خاصة كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، وقد اجتمعا في قول السحرة: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْقَلَمَيْنِ﴾ [الرعد: ١٦٢-١٦٣].

وفي هذا الحديث: الحذر من جمع المال، وأن المال خسارة على صاحبه، إلا من بذله في طاعة الله فإنه يكون ربحاً له في الدنيا والآخرة.

ولكن هل هذا على سبيل الوجوب، بمعنى: أنه يجب على الإنسان أن يُوزَّعَ ماله فلا يَبْقَى عنده ثروة، أو نقول: إن الإنسان إذا أدَّى الواجب من الزكاة، فما زاد عن ذلك فهو تطوع؟

نقول: الثاني؛ يعني: أنه لا يجب على الإنسان أن يَبْذُلَ من ماله شيئاً زائداً عن الزكاة إلا ما كان له سبب؛ كإطعام الجائع، وكُسوة العاري، وما أشبه ذلك.

وفيه: تكرار الكلام عند الاهتمام به، ولهذا كرر النبي ﷺ هذا الكلام مرتين.

فقال: «هم الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، هم الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٣٩ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزُّنَادِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ سُلَيْمَانُ: لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَائِمٌ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ»^(١).

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «وَائِمٌ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ».

وفي هذا الحديث: آية من آيات الله؛ حيث إن سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْسَمَ أَنْ يَطُوفَ عَلَى

تسعين امرأة؛ يعني: يُجَامِعُهُنَّ، فتأتي كل واحدة بفارسٍ يُجَاهِدُ في سبيل الله، فقال له صاحبه. وفي لفظ آخر: قال له الملك: لا تَعَارِضْ؛ لأن الملك يُصَاحِبُ، وَيَحْتَمِلُ أنه صاحبه من الإنس، وأنه قال له الملك وصاحبه أيضًا: قل: إن شاء الله. فلم يَقُلْ، قال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»، ولكنه لم يَقُلْ، فولدت واحدة منهن فقط شقَّ إنسان؛ أي نصف إنسان، ولم يَحْصُلْ له من مطلوبه شيء واحد.

وفي هذا: دليل على أن الإنسان يَنْبَغِي له إذا أراد أن تُقْضَى حاجته أن يُقَيِّدَ ذلك بمشيئة الله؛ لأنه إذا لم يُقَيِّدَ ذلك بمشيئة الله - أعني: القسم - صار فيه شائبة من التَّأَلِّي على الله، والتألي على الله قد يُحِبِطُهُ الله ﷻ.

إذا: فكلما حَلَفْتَ على شيء مستقبلي فقل: إن شاء الله؛ وذلك لفائدتين:

الفائدة الأولى: أن هذا من أسباب تيسير ما حَلَفْتَ عليه وحصول مقصودك.

والفائدة الثانية: أنك لو لم تَفْعَلْ ما حلفت عليه لم يَكُنْ عليك كفارة؛ لأن من حَلَفَ على يمينٍ فقال: إن شاء الله. فإنه لا يَحْنُ؛ لأنه علق الأمر بمشيئة الله، ومشيئة الله فوق إرادته. فلو قال قائل: والله لأزورن فلاناً غداً، إن شاء الله. ولم يَزُرْه فليس عليه حنث. ولكن لو قال: والله لأزورن غداً. ولم يَزُرْه وجب عليه الكفارة، فإن قيل: كيف يحدث

ذلك من النبي سليمان عليه السلام؟

الجواب: أنه عليه السلام إنما أقسم بدون استثناء لقوة عزمته في هذا الأمر، وكان الغالب أنه كان كلما جامع امرأة حكت، فأقسم عليه السلام بناءً على الغالب.



ثم قال البخاري رحمه الله:

٦٦٤ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: أَهْدَيْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ سَرَقَةً مِنْ حَرِيرٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْتَدْوِلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَعْجَبُونَ مِنْ حُسْنِهَا وَلِينِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْهَا؟» قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَمَنَادِيلُ سَعْدٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهَا» لَمْ يَقُلْ شُعْبَةً وَإِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» (١).

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «والذي نفسى بيده».

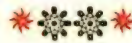
وفي هذا الحديث: بيان فضيلة سعد بن معاذ رضي الله عنه؛ مناديلُه في الجنة خيرٌ من هذه الحريرة. **وفيه:** الشهادة لسعد بن معاذ أنه في الجنة؛ لأن كونه له مناديلٌ في الجنة يستلزم أن يكون من أهلها.

وقد قررنا فيما سبق أن مذهب أهل السنة والجماعة أنهم لا يشهدون بالجنة إلا لمن شهد له النبي ﷺ عينا أو وصفاً.

فالوصف: كأن تقول: أشهد لكل مؤمن بأنه في الجنة. وهذا لا ينطبق على كل واحد بعينه، أو تقول: أشهد على أن كل من قُتل في سبيل الله فهو شهيدٌ. وهذا حق، لكن لا تشهد بذلك لشخص بعينه.

أما الشهادة بالعين: فإن الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة كثيرون، منهم: العشرة الذين جمعهم الرسول ﷺ في حديث واحد ^(١)، ومنهم: عكاشة بن محصن، حيث قال الرسول ﷺ له: إنك ممن يدخل الجنة بغير حساب، ولا عذاب ^(٢). ومنهم: سعد بن معاذ، وغيرهم كثيرون، فهؤلاء تشهد لهم بالجنة بالعين.

وفي هذا الحديث: دليل على أنه لا بأس أن ينفصل الاستثناء والمستثنى منه، ويدل لهذا أيضاً قول العباس بن عبد المطلب لما خطب النبي ﷺ وبين أن مكة حرامٌ حشيشها، وشجرها، فلما انتهى قال العباس: إلا الإذخر. فقال ﷺ: «إلا الإذخر» ^(٣).



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٤١ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يُونُسَ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: إِنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَ يَمَّا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَهْلٌ أَخْبَاءٌ أَوْ خِبَاءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ يَذِلُّوا مِنْ أَهْلِ أَخْبَانِكَ أَوْ خِبَانِكَ - شَكَ يَحْيَى - ثُمَّ مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ أَهْلٌ أَخْبَاءٌ أَوْ خِبَاءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَعْزُّوا مِنْ أَهْلِ أَخْبَانِكَ أَوْ

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨٤)، وابن ماجه (١٣٣)، والبيهقي في «الكبرى» (١٧/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٣٣)، ومسلم (١٣٥٣).

خِبَانِكَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَيْضًا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ». قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مَسِيكٌ فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُطْعِمَ مِنَ الَّذِي لَهُ قَالَ: «لَا، إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ»^(١).

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «والذي نفس محمد بيده».

❖ وقوله ﷺ: «وأيضًا».

قَالَ الْقَسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ستزيدون من ذلك والذي نفس محمد بيده». اهـ

والمعنى: أَنْكَ سَيَزِدَادُ إِيْمَانُكَ وَمَحَبَّتِكَ لِعَزِّ خِبَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ.

«وأيضًا» هذه مصدرٌ أَضَّ يَضُّضُ بمعنى: رَجَعَ، وهي دائماً منصوبة، وعاملها دائماً محذوفٌ لا يُذَكَّرُ معها، هكذا قال أهل الأعراب.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على جوازِ ذِكْرِ الْإِنْسَانِ بِمَا يَكْرَهُ إِذَا دَعَتْ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ كَاسْتِفْتَاءٍ وَنَحْوِهِ؛ لِأَنَّهَا قَالَتْ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مَسِيكٌ؛ يَعْنِي: مَمْسُكٌ لَا يَنْدُلُ وَلَا يُنْفِقُ، وَهَذَا مِنَ الْغَرَائِبِ أَنْ يَكُونَ رَأْسُ قَرِيشٍ قَبْلَ إِسْلَامِهِ وَهُوَ بَخِيلٌ؛ لِأَنَّ الْعَادَةَ أَنْ الْبَخِيلَ لَا يَكُونَ رَأْسًا، لَكِنْ إِرَادَةُ اللَّهِ فَوْقَ كُلِّ عَادَةٍ.

وفيه: دليلٌ - كما قال بعضهم - على جوازِ الْقَضَاءِ عَلَى الْغَائِبِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَذِنَ لَهَا أَنْ تَأْخُذَ بِالْمَعْرُوفِ. وَلَكِنْ هَذَا الِاسْتِدْلَالُ فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ هُنَا لَيْسَتْ قَضَاءً وَإِنَّمَا هِيَ فَتْوَى؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ قَضَاءً لَطَلَّبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهَا الْبَيِّنَةَ عَلَى دَعْوَاهَا؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمَدْعِيِّ»^(٢). وَلَكِنَّهَا فَتْوَى، وَالْفَتْوَى عَلَى الْغَائِبِ لَا بِأَسْ بِهَا؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِلْزِمَةً.

وفيه: دليلٌ على اعتبارِ الْعُرْفِ؛ لِقَوْلِهِ: «إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ». فَالْعُرْفُ لَهُ اعْتِبَارٌ فِي الشَّرْعِ، وَالْعُرْفُ هُوَ: مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ عِنْدَ النَّاسِ. إِلَّا إِذَا كَانَ الْعُرْفُ مُخَالَفًا لِلشَّرْعِ فَإِنَّهُ هَدَرَ؛ لِأَنَّ الشَّرْعَ إِنَّمَا جَاءَ بِإِصْلَاحِ الْخَلْقِ، وَكُلُّ مَا خَالَفَهُ فَإِنَّهُ فَسَادٌ وَإِفْسَادٌ.

وفيه: جوازُ الْقِسْمِ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ بِدُونِ ذِكْرِ الْمَشِيشَةِ اعْتِمَادًا عَلَى حَسَنِ الظَّنِّ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﷺ: «وَأَيْضًا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ» فَإِنْ هَذَا خَبَرٌ عَنْ شَيْءٍ مُسْتَقْبَلٍ هُوَ بِيَدِ اللَّهِ، لَكِنْ لِقُوَّةِ الْأَمَلِ أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ.

(١) أخرجه مسلم (١٧١٤).

(٢) أخرجه الترمذي (١٣٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه البيهقي في «الكبرى» (١٠/٢٥٢)، وانظر «تلخيص الخبير» (٤/١٦٧).

وفيه أيضًا: دليلٌ على جوازِ صدقةِ المرأةِ من مالِ زوجها فيما جرى به العرفُ، مثلُ التمرة، والتفاحة، والقبضةِ من الطعام، وما أشبه ذلك، ما لم يُنصَّ صاحبُ البيتِ على المنع، فإن نصَّ على المنعِ حُرِّمَ ولو بالشيءِ القليل؛ لأن المالَ ماله، ولا يجوزُ أن يُنفقَ شيءٌ من ماله إلا بإذنه، لكن ما جرى به العرفُ فلا بأس، فإن الشرطَ العرفيَّ كالشرطِ اللفظيِّ، فإذا جرت العادةُ عند الناسِ بالصدقةِ بالشيءِ اليسيرِ، والثيابِ الخلقة، وما أشبه ذلك، وفعلتِ المرأةُ هذا بشيءٍ من مالِ زوجها فلا بأس ما لم يُنصَّ على المنعِ، فإن نصَّ على المنعِ لم يجزَ حتى وإن جرت به العادةُ؛ لأن المالَ ماله.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٤٢ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُمَانَ، حَدَّثَنَا شُرَيْحُ بْنُ مَسْلَمَةَ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، سَمِعْتُ عَمْرَو بْنَ مَيْمُونٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُضِيفٌ ظَهْرَهُ إِلَى قَبَّةٍ مِنْ آدَمَ يَمَانِيٍّ إِذْ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «اتَرَضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «أَفَلَا تَرَضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «والذي نفس محمد بيده» وهذا القسم كان يُكثَرُ منه الرسول ﷺ، وبه نعرفُ أن قولَ ابنِ عمرَ: أن الرسولَ كانت يمينُهُ: «لا ومقلبُ القلوب»^(٢) ليس على إطلاقه.

وفيه: فضيلةُ هذه الأمةِ لكونها نصفَ أهلِ الجنة، وفضيلةُ الرسولِ ﷺ حيثُ كان إمامَ نصفِ أهلِ الجنة، ومع أن الأممِ السابقةَ عالمٌ لا يُخصيهم إلا الله، إلا أن هذه الأمةَ هي نصفُ أهلِ الجنة، وقد ورد في «السنن»: أن الجنةَ مائةٌ وعشرون صفًا، منها ثمانون من هذه الأمة^(٣). وعلى هذا فتكونُ هذه الأمةُ ثلثي أهلِ الجنة، والحمدُ لله.



(١) أخرجه مسلم (٢٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٨) وقد سبق قريبًا.

(٣) أخرجه أحمد (٤٥٣/١)، وابن حبان (٧٤٥٩)، والحاكم (١٥٥/١).

ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٤٣ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يَرُدُّهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ - وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالَّهَا - . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ» .

هذا الحديث فيه: فائدة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وأنها تعدل ثلث القرآن، ولكن لا يلزم من المعادلة الإجزاء، لهذا لو قرأها الإنسان ألف مرة في الركعة لم تُجزئ عن قراءة الفاتحة، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. كان ذلك كمن أعتق أربع أنفس من ولد إسماعيل»^(١). ومع ذلك لا يُجزئ عن رقية واحدة، فإنه لا يلزم من المعادلة الإجزاء.

إنما كانت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن؛ لأن القرآن خبرٌ عن الله، وخبرٌ عن المخلوقات، وأحكام، وهي قد تضمنت الخبر عن الله ﷻ، فكانت تعدل ثلث القرآن من هذا الوجه.



ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

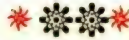
٦٦٤٤ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، أَخْبَرَنَا حَبَانُ، حَدَّثَنَا هَمَامٌ، حَدَّثَنَا قَنَادَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «آمِنُوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِي، إِذَا مَا رَكَعْتُمْ، وَإِذَا مَا سَجَدْتُمْ»^(١).

في هذا الحديث: بيان أن من جملة ما يُقسَّم به الرسول ﷺ قوله: «والذي نفسي بيده». وهذا تكرر كثيراً، ومعنى وقوله: «والذي نفسي بيده»؛ أي: وجودها، وبقاؤها، والتصرف فيها، كلها بيد الله، فوجود النفس في الإنسان من الله ﷻ، فهو الذي خلقها، وبقاؤها إلى أجلها المسمى أيضاً بيد الله، والتصرف فيها بيد الله ﷻ، فصار هذا القسم قسماً عظيماً.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٢٥).

وفيه: آية من آيات الرسول ﷺ، وهي أنه كان يَرَاهُمْ إذا رَكَعُوا وإذا سَجَدُوا، ونحن لا نرى مَنْ وراءنا إذا رَكَعْنَا أو سَجَدْنَا، لكن هذا من آيات النبي ﷺ. وهذه الرؤية؛ أي: كونه يرى مَنْ وراءه خاصة بحال الصلاة، أما في غيرها فليس يرى مَنْ وراءه، ودليل ذلك أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يَمْشِي معه في بعض أسواق المدينة، وكان على جنباية، فانحنس رضي الله عنه، واغتسل، ثم رَجَعَ، فقال له النبي ﷺ: «أين كنت يا أبا هريرة؟» قال: كنتُ جنبًا فكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ. فقال: «سبحان الله، إن المؤمن لا يَنْجُسُ»^(١). ولكن الله عز وجل جعل له هذه الآية حال الصلاة من أجل أن يَرْقُبَ أصحابه وَيَتَابِعَهُمْ فِي إِتِمَامِ صَلَاتِهِمْ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٤٥ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ آتَتْ النَّبِيَّ ﷺ مَعَهَا أَوْلَادُ لَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ» قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَارٍ^(٢).

قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ» هذا عامٌّ، وليس على إطلاقه؛ لأن المهاجرين - فيما يَظْهَرُ - أَحَبُّ إلى رسول الله ﷺ من الأنصار؛ لأنهم أفضل، وإن كان الأنصار لهم مَزِيَّةٌ ليست للمهاجرين، وهي إيواء الرسول ﷺ، ولهذا قال لهم حين قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ: «النَّاسُ دِثَارٌ، وَالْأَنْصَارُ شِعَارٌ»^(٣). وقال: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى رِحَالِكُمْ؟»^(٤) وقال: «لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا، وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ وَادِيًا؛ لَسَلَكَتُ وَادِي الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا»^(٥).

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٧١) م.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٠٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٤) أخرجه البخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٥٩، ١٠٦١).

ولكن الذي يَظْهَرُ لي - والله أعلم - أن هذا يُرَادُّ به مَنْ سِوَى الْمُهَاجِرِينَ؛ أَي: أَنَّهُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ مَا عَدَا الْمُهَاجِرِينَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَيَأْخُذُونَ مِنْهُ دِينَهُمْ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ إِلَى قَوْمِهِمْ.

قَالَ الْقُسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

الخطابُ في قولِهِ: «إِنَّكُمْ» لجنسِ المرأةِ وأولادِها، يعني: الانصار وهو عامٌ مخصصٌ بدلائلٍ آخر فلا يَلْزَمُ منه أن يكون الأنصارُ أفضلَ من المهاجرين عموماً. اهـ

❖ وقولُهُ: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ» الحقيقةُ أن الرسولَ ﷺ كان يَخْتَارُ مثلَ هذا القسمِ من أجلِ أن يَعْلَمَ النَّاسُ تحقِيقَ عبودِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ مَرْبُوبٌ، وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّهُ، فَحَتَّى نَفْسُهُ الَّتِي هِيَ نَفْسُهُ هِيَ بِيَدِ اللَّهِ؛ لثَلَاثَتِهِمْ وَاهُمٌ أَنَّ لِلرَّسُولِ ﷺ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، فَإِذَا كَانَتْ نَفْسُهُ بِيَدِ اللَّهِ فَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ بَابٍ أَوَّلَى، فَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَخْتَارُ أَنْ يَحْلِفَ بِهَذَا الْقِسْمِ.



ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٤ - بَابٌ لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ.

٦٦٤٦ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ وَهُوَ يَسِيرُ فِي رَكْبٍ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ، أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ»^(١).

هذا الحديثُ فيه: دليلٌ على تحريمِ الحلفِ بالآباءِ؛ لأن ما يَنْهَى اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ مُحَرَّمٌ. **وفيه:** دليلٌ على أن من حَلَفَ فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ، وهذا يَدُلُّ على أَنَّهُ لَا يَحْلِفُ بِالطَّلَاقِ، وَلَا بِالْتَّحْرِيمِ، وَلَا بِغَيْرِهِمَا مِنْ أَدْوَاتِ الْقِسْمِ، وَإِنَّمَا يَحْلِفُ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصُمْتُ. فَإِنْ قَالَ مَثَلًا: عَلَيَّ الطَّلَاقُ لَأَفْعَلَنَّ كَذَا. قلنا: هذا خطأ؛ لأن هذا خلافُ ما أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَإِنْ قَالَ: هَذَا حَرَامٌ عَلَيَّ. يُرِيدُ بِهِ اليمينَ، قلنا: هذا أيضًا خطأ؛ لأنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [النِّسَاءُ: ١].

وقوله: «أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ» هل معناه أن لنا أن نَحْلِفَ بإخواننا؟

الجواب: لا؛ لأن الرسول ﷺ قال: «من كان حالفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ»، وأيضًا نقول: أنه ما كان سببًا لواقعة فإنه لا يَتَخَصَّصُ به، ولهذا أحيانًا يأتي في جواب العلماء تخصيص الكلام بناءً على السؤال، أو بناءً على الحادثة، فلا يعني هذا أن الحكم يَتَخَصَّصُ بهذه الواقعة بعينها.

فلو أن الرسول ﷺ سمع عمرَ يَحْلِفُ بأخيه لكان الحكم واحدًا. وليعلم أن مَنْ حَلَفَ بصفةٍ من صفاتِ الله فهو حالفٌ بالله، فإذا قال: بعزة الله أو وقدره الله، أو وعلم الله. فهذا حلفٌ بالله.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٤٧ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَفِيرٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: قَالَ سَالِمٌ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ» قَالَ عُمَرُ: فَوَاللَّهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا. قَالَ مُجَاهِدٌ: أَوْ أَثَارَةً مِنْ عِلْمٍ يَأْتُرُ عِلْمًا^(١).

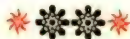
تَابِعَهُ عُقَيْلٌ، وَالزُّبَيْدِيُّ، وَإِسْحَاقُ الْكَلْبِيُّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ، وَمَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عُمَرَ....».

هذا الحديث كالأول.

وقوله: ذَاكِرًا؛ أي: عامدًا.

وقوله: «آثَرًا»؛ يعني: ناقلًا عن غيره، كما قال تعالى: ﴿أَوْ أَنْتَفَرْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الأنفال: ٤].

أي: أنه لم يَحْلِفْ بها إطلاقًا ~~مطلقًا~~ ذَاكِرًا، أو ناقلًا، بعدًا عما نهى النبي ﷺ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٤٨ - حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ

دينار، قال: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ»^(١).
 ٦٦٤٩ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ، وَالْقَاسِمِ التَّمِيمِيِّ،
 عَنْ زُهْدَمَ، قَالَ: كَانَ بَيْنَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ جَرَمٍ وَبَيْنَ الْأَشْعَرِيِّينَ وَدَّ إِخَاءَ، فَكُنَّا عِنْدَ أَبِي مُوسَى
 الْأَشْعَرِيِّ، فَقُرَّبَ إِلَيْهِ طَعَامٌ فِيهِ لَحْمٌ دَجَاجٍ، وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمِ اللَّهِ أَحْمَرٌ كَأَنَّهُ مِنْ
 السَّوَالِي، فَدَعَاهُ إِلَى الطَّعَامِ، فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ شَيْئًا فَقَذَرْتُهُ، فَحَلَفْتُ أَنْ لَا أَكَلُهُ. فَقَالَ:
 قُمْ فَلَا حَدَثَنَّكَ عَنْ ذَلِكَ، إِنِّي أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ نَسْتَحْمِلُهُ فَقَالَ: «وَاللَّهِ
 لَا أَحْمِلُكُمْ، وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ»، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَنَهَبَ إِبِلٍ فَسَأَلَ عَنَّا فَقَالَ: «أَيُّنَ
 النَّفَرِ الْأَشْعَرِيُّونَ؟» فَأَمَرَ لَنَا بِخَمْسِ ذَوْدِ غُرِّ الذَّرَى، فَلَمَّا انْطَلَقْنَا قُلْنَا: مَا صَنَعْنَا؟ حَلَفَ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ لَا يَحْمِلُنَا، وَمَا عِنْدَهُ مَا يَحْمِلُنَا، ثُمَّ حَمَلْنَا، تَغَفَّلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمِينَهُ، وَاللَّهِ لَا نُفْلِحُ
 أَبَدًا. فَرَجَعْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا لَهُ: إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِتَحْمِلَنَا فَحَلَفْتَ أَنْ لَا تَحْمِلَنَا، وَمَا عِنْدَكَ مَا تَحْمِلُنَا.
 فَقَالَ: «إِنِّي لَسْتُ أَنَا حَمَلْتُكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَمَلَكُمْ، وَاللَّهِ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا
 خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا»^(٢).

هذا الحديث سبق لنا أن تكلمنا عليه، وفيه هنا زيادة فائدة وهي: أن لحم الدجاج
 حلال، ولو كان يأكل شيئاً من القَدَرِ، ولهذا استقذره هذا الرجل التيمي وقال: إني رأيتُهُ يأكلُ
 شيئاً فَقَذَرْتُهُ.

وقد اختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي الْجَلَالَةِ، وهي البهيمة تأكلُ النجاسة، أو تكونُ النجاسةُ
 أكثرَ علفِها هل تحِلُّ، أو لا تحِلُّ حتى تُحْبَسَ عن النجاسة وتُطْعَمَ الطاهرَ ثلاثة أيام؟
 فمن أهل العلم مَنْ يَقُولُ: إنها تحِلُّ وإن لم تُحْبَسَ ثلاثة أيام؛ وذلك لأن النجاسة إذا
 استحالت صارت طاهرة، وهذه النجاسة التي أكلتها قد استحالت فصارت دماً فتغيَّرت.
 وهذه إحدى الروايتين عن الإمام أحمد رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

والرواية الثانية عنه، وهي القول الثاني للعلماء: أنها لا تحِلُّ حتى تُحْبَسَ وتُطْعَمَ الطاهرَ
 ثلاثة أيام، هذا إذا كانت النجاسة علفِها، أو أكثرَ علفِها.

(١) أخرجه مسلم (١٦٤٦ م).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٤٩).

أما إذا كانت لا تأكل من النجاسة إلا شيئاً يسيراً فلا خلاف في حلها، وأنها لا تحتاج إلى حبس. وعلى هذا فإذا خلط طعام الدجاج الذي يذبحونه للأكل بدم نجس، ولكنه ليس أكثر علفها، فإنها لا تحرم ولا إشكال في حلها، أما إذا كان الدم أكثر علفها فهذا فيه الخلاف الذي عرضنا.

أما أنا فمتردد في تحريمها، فإن صحَّ حديث النهي عن الجلالة فهو الفيصل^(١)، وإن لم يصحَّ فالقول بالإباحة أصحُّ.

فإن قيل: وهل ما سُمِّدَ بالنجس من الأشجار والزهور حكمه حكم الجلالة؟ فالجواب: أن هذا أيضاً فيه خلاف، فبعض العلماء يقول: حكمه حكم الجلالة، فلا يؤكل إلا إذا قُطِعَ عنه الماء النجس، وسُقِيَ الماء الطاهر.

ولكن الصحيح خلاف ذلك، فإن جمهور العلماء على أنه طاهر، حتى وإن سُمِّدَ بالعذرة - عذرة الإنسان - وكان الناس عندنا يُسمِّدون بأرواث الحمير فيما سبق؛ لأن الحمير كانت هي المركوبة عند الناس، وكانت أحواشها فيها سماً طيباً، فكان الناس يُسمِّدون بها، ويأكلونها؛ أي: يأكلون الثمر، وهذا هو الحق، حتى إن بعضهم قال: أعطِ الشجرة مِكتَل عذرة تعطيك مِكتلي ثمرة؛ يعني: الصاع بصاعين.

لكن إن ظهر طعام النجاسة على الثمرة فهنا يتوجَّه المنع، وتحرم؛ لظهور أثر النجاسة على الثمرة.

❖ وقوله: «ولكن الله حاكم». ليس فيه دليل لقول الجبرية الذين يقولون: إن فعل العبد هو فعل الله. ولكن لما كانت هذه الإبل قد جاءت بغير فعل الرسول ﷺ؛ حيث جاء الله بها غنيمَةً، أضافها النبي ﷺ إلى الله؛ لأنها ليست من كسب الرسول ﷺ، فليس هو الذي اشتراها، بل قد جاءت من الله ﷻ، فلا حجة فيه لقول الجبرية.

كما أنه لا حجة في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]. لقول الجبرية، بل هو حجة عليهم؛ لأن قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ فيه إثبات للرمي، لكن

(١) أخرجه أبو داود (٣٧٨٥)، والترمذي (١٨٢٤)، وابن ماجه (٣١٨٩)، وانظر «الإرواء» (١٤٩/٨) حديث (٢٥٠٣).

الرَّمِي قَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْقَذْفِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْإِصَابَةِ، فَالْإِصَابَةُ مِنَ اللَّهِ، وَالْقَذْفُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، فَقَدْ قَذَفَ بِالْتَرَابِ، لَكِنْ إِصْبَالَ التَّرَابِ إِلَى كُلِّ عَيْنٍ مِنْ عَيُونِ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَكُنْ بِفِعْلِ الرَّسُولِ ﷺ، بَلْ كَانَ مِنَ اللَّهِ ﷻ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥- بَابٌ لَا يُحْلَفُ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَلَا بِالطَّوَاغِيَتِ.

٦٦٨٥- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أَقَامِرَكَ فَلْيَتَصَدَّقْ»^(١).

اعْلَمْ أَنَّ الْحَلْفَ بِمَا عُدَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَبْلَغُ مِنَ الْحَلْفِ بِمَا لَيْسَ بِصَنْمٍ وَلَا مَعْبُودٍ، فَمَا لَيْسَ بِصَنْمٍ وَلَا مَعْبُودٍ فَإِنَّ الْحَلْفَ بِهِ مُحَرَّمٌ كَمَا سَبَقَ، لَكِنْ الْحَلْفُ بِالصَنْمِ وَالْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَكُونُ مُحَرَّمًا مَعَ الشَّرِكِ، فَلَا يَجُوزُ الْحَلْفُ بِاللَّاتِ، وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ، وَهُبْلَ، وَغَيْرَهَا مِنَ الْمَعْبُودَاتِ الَّتِي عِبَدَهَا النَّاسُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

❖ وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَمَنْ حَلَفَ بِاللَّاتِ فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ذَلِكَ لِيُدَاوِيَ الشَّرِكَ بِالتَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَاضَ تَدَاوَى بِضِدِّهَا.

❖ وَقَوْلُهُ: «وَمَنْ قَالَ: تَعَالَ أَقَامِرَكَ فَلْيَتَصَدَّقْ» ذَلِكَ لِأَنَّ الْقِمَارَ كَسْبٌ مُحَرَّمٌ، وَالصَّدَقَةُ عَكْسُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَتَيْتُم مِّن رَّبِّالْبَرِّئُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيئُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَاءَ تَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ (٢٦). [البقرة: ٢٦٩]. فِدَاوَى الْمَعْصِيَةِ بِضِدِّهَا.

وَهَذَا كَمَا أَنَّ الْحَدِيثَ يَدُلُّ عَلَى ثَوْبَتِهِ شَرْعًا فَكَذَلِكَ قَدَرًا، فَإِنَّ الشَّيْءَ يَدَاوَى بِضِدِّهِ، فَمَرَضُ السُّكْرِيِّ يَدَاوَى بِتَنَاوُلِ الْأَشْيَاءِ الْمُرَّةِ، وَكَذَلِكَ الْحَمَى تَدَاوَى بِالْمَاءِ الْبَارِدِ، وَهَكَذَا جَمِيعُ الْأَدْوَاءِ تَدَاوَى بِضِدِّهَا؛ لِأَنَّ هَذَا يَكْسِرُ هَذَا، كَذَلِكَ الشَّرِكُ يَدَاوَى بِالتَّوْحِيدِ.

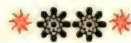
فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى. قُلْنَا: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَإِذَا قَالَ إِنْسَانٌ: تَعَالَ أَقَامِرَكَ. قُلْنَا: تَصَدَّقْ؛ لِأَنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تَكْتَسِبَ الْمَالَ بِطَرِيقِ

محرم، فَأَخْرِجِ الْهَالَ بِطَرِيقٍ يُقَرِّبُكَ إِلَى اللَّهِ، وَذَلِكَ بِالصَّدَقَةِ.

وفي هذا: دليلٌ على تحريم القمار، وهو الميسرُ، وضابطُ القمار أنه: كُلُّ مَعَامَلَةٍ يَكُونُ فِيهَا الْمُتَعَامِلَانِ بَيْنَ الرِّبْحِ وَالْخُسْرَانِ؛ أَي: أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا غَارِمًا وَالْآخَرُ غَانِمًا. وَصُورُهُ كَثِيرَةٌ لَا تَنْحَصِرُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: قَلْتُمْ: إِنْ الْقَمَارَ هُوَ كُلُّ مَعَامَلَةٍ دَائِرَةٌ بَيْنَ الرِّبْحِ وَالْخَسَارَةِ، وَالتَّجَارَةُ هَكَذَا. **قلنا:** الرِّبْحُ وَالْخَسَارَةُ فِي التَّجَارَةِ لَيْسَ مِنْ مَقْتَضَى الْعَقْدِ، بَلْ هُوَ لِأَمْرٍ خَارِجٍ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْمُتَعَاقِدِينَ، أَمَّا الْعَقْدُ فِي الْقَمَارِ فَهُوَ نَفْسُهُ عَقْدُ غَرَرٍ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦- بَابُ الْحَلْفِ عَلَى الشَّيْءِ وَإِنْ لَمْ يُحْلَفْ.

٦٦٥١- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَصْطَنَعَ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، وَكَانَ يَلْبَسُهُ فَيَجْعَلُ فَصَّهُ فِي بَاطِنِ كَفِّهِ، فَصَنَعَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ، ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَنَزَعَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي كُنْتُ أَلْبَسُ هَذَا الْخَاتِمَ وَأَجْعَلُ فَصَّهُ مِنْ دَاخِلٍ» فَرَمَى بِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّهِ لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا. فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ»^(١).

❦ قوله: «الحلف على الشيء وإن لم يُحْلَفْ» هذا ثابتٌ في مواضع كثيرة، وقد ذكرنا أن له أسبابًا منها: غرابة الشيء، فيَحْلَفُ؛ لِإِزَالَةِ الْغُرَابَةِ مِنَ النُّفُوسِ.

ومنها: أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ شَاكًّا فِي الْأَمْرِ فَيَحْلِفُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَزُولَ عَنْهُ الشُّكُّ.

ومنها: أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ الْمُحْلُوفُ عَلَيْهِ أَمْرًا هَامًّا يَحْتَاجُ إِلَى يَقِينٍ، فَيَحْلِفُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ إِبْتَاتِ هَذَا الْأَمْرِ وَتَحْقِيقِ وَقْعِهِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ.

أَمَّا إِذَا اسْتَحْلَفَ فَالْأَمْرُ وَاضِحٌ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَحْلِفَ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ:

الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَ﴾ [التَّجْوِاتُ: ٧].

الثاني: قولُ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَسْتَدْعُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الْمُؤْتَفِكَةُ: ٥٣].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [التَّيْنَةُ: ٣].

ولكن كما ذكرنا فيما سبق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾ [التوبة: ٨٩]. أن بعض المفسرين قال: إن المراد بحفظ اليمين: هو ألا يخلف إلا عند الحاجة إليه. وإذا قلنا: إن من أسباب اليمين هذه الأمور الثلاثة فإن اليمين في هذه الحال تكون محتاجاً إليها.

وفي هذا الحديث: دليل على تحريم لبس خاتم الذهب على الرجال.

وفيه: دليل على صراحة النبي ﷺ، وأنه أول من يعمل بما أوجي إليه؛ لأنه ﷺ قال للناس: «إني لست بهذا الخاتم». ثم قال: «والله لا ألبسه أبداً».

وعلى هذا فإذا كان للإنسان رأي في مسألة من مسائل العلم، ثم تبين له خلاف ذلك الرأي، فإنه يحسن أن يقول: إني كنت أرى كذا، ولكن الآن أرى كذا، وهذا يحتمل أن يكون رجوعاً عن الفتوى الأولى، فيكون له في المسألة قول واحد؛ لأنه رجع عن الأول فلا يحسب عليه.

أما إذا صرح بالرجوع فقال: كنت أرى ذلك، ولكني رجعت عنه. فلا شك في أنه ليس له في المسألة إلا قولاً واحداً.

وأما إذا قال: كنت أقول بكذا، ولكني أقول الآن بكذا. فهذا ليس بصريح أنه رجع عن القول الأول، ولكنه صريح بأنه أفتى بخلافه.

وكذلك لو سكّت أي: أنه أفتى أولاً بقول، ثم أفتى بعد ذلك بقول آخر، ولم يتعرّض للأول، إما ناسياً، وإما قصداً، فهنا لا تكون فتواه الثانية مبطلّة لفتواه الأولى.

وهل يصح في هذه الحال أن نقول: له فيها قولان، وأنه يجوز لمن يقلده أن يأخذ بهذا، أو بهذا؟

نقول: نعم، ولا ضير على الإنسان أن يكون له في المسألة قولان؛ لأنه غير معصوم، فقد يتبين له خطأ قوله الأول، وقد يتردّد فيه، فيعدل عنه.

فلا يضّر الإنسان أن يكون له في المسألة قولان أو ثلاثة، فهذا هو إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله أحياناً يكون عنه في المسألة الواحدة ستة أقوال، أو سبعة أقوال؛ لأن الإنسان الذي يتبع الأدلة لا يستغرب عليه أن تختلف أقواله؛ لأنه قد يظهر له علم بما لم يكن عالماً به من قبل، وقد يتجدّد له فهم بما لم يكن يفهمه من قبل، وقد يناظر الإنسان بالقول، فإذا نُظر به بتغير رأيه؛ لأن هناك فرقاً بين أن تأخذ بقول بدون أن يجادلِكَ فيه مجادل، وبين أن

يُجَادِلُكَ فِيهِ إِنْسَانٌ، فَقَدْ يُجَادِلُكَ إِنْسَانٌ وَيَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ قَوْلَكَ خَطَأٌ، فَتَرْجِعُ إِلَيْهِ.

المهمُّ أن هذا ليس من بابِ التناقض؛ لأن أسباب الاختلافِ متعددة وكثيرة، والأئمة المجتهدون كما بيَّنا يَكُونُ لَهُمْ أحياناً أقوالٌ كثيرةٌ في مسألةٍ واحدة.

وفي هذا الحديث أيضاً: فضيلةُ الصحابة رضي الله عنهم، وشدةُ اتباعهم لرسولِ الله ﷺ؛ حيث إنهم نَبَذُوا خَوَاتِيمَهُمْ دُونَ أَنْ يَأْمُرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، فهم أهلُ الاتِّباع، وانظر إليهم حينما خَلَعَ النَّبِيُّ ﷺ نَعْلَيْهِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِمَا، - وكان قد أَمَرَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا فِي نَعَالِهِمْ ^(١) - خَلَعُوا نَعَالَهُمْ ^(٢)؛ خوفاً من أن يَكُونَ الْأَمْرُ قد نُسِخَ، فلشدَّةِ اتباعهم للنبي ﷺ خَلَعُوا نَعَالَهُمْ، مع أن الأصلَ في الأمر: أنه باقٍ، لكنَّ الزَّمنَ زَمَنٌ تَشَرَّعَ.

ومن ذلك: أنهم كانوا يَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاةَ الظَّهِيرِ أَرْبَعٌ، ومع ذلك لما صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ خَمْساً لَمْ يُنَبِّهُوهُ ^(٣)، بل تَابَعُوهُ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنَّهَا زِيدَتْ، ولما سَلَّمَ مِنْ رَكَعَتَيْنِ مِنَ الظَّهِيرِ أَوْ الْعَصْرِ لَمْ يُنَبِّهُوهُ؛ لاحتِمَالِ أَنَّهُ قَصُرَتِ الصَّلَاةُ ^(٤).

فأقول: إن الصحابة رضي الله عنهم هم أشدُّ النَّاسِ اتِّباعاً لرسولِ الله ﷺ وَمَنْ قَدَحَ فِيهِمْ فَالْقَدْحُ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ أَهْلُ الْقَدَحِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٧- بَابُ مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ سِوَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ.

وقال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ولم يَنْسِبْهُ إِلَى الْكُفْرِ.

٦٦٥٢- حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ أَسَدٍ، حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، عَنْ أَبِي يُونُسَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ كَمَا قَالَ، قَالَ: وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عَذَّبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِينَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ رَمَى مُؤْمِناً بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ» ^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٦٥٢)، والبيهقي (٤٣٢/٢)، والحاكم (٢٦٠/١).

(٢) أخرجه أبو داود (٦٥٠)، وأحمد (٩٢، ٢٠/٣)، والدرامي (١٣٧٨)، وابن خزيمة (١٠١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٥٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٢٩)، ومسلم (٥٧٣).

(٥) أخرجه مسلم (١١٠).

❖ قول البخاري رحمه الله: «ولم ينسبه إلى الكفر» كأنه يُشير به إلى صَعْفٍ حديث: «مَنْ حَلَفَ بغيرِ الله فقد كفر أو أشرك»^(١) ولكنه عند كثيرٍ من العلماء حديثٌ صحيحٌ، ولكنَّ الكُفْرَ: إما أكبرٌ وإما أصغرٌ، وكونُ الرسولِ ﷺ لم ينسبه إلى الكُفْرِ في هذا الحديث لا يَمْنَعُ أَنْ يَرِدَ حديثٌ آخرٌ مُسْتَقِلٌّ ينسبه إلى الكُفْرِ.

أما الحديثُ المسندُ في هذا الباب فقد ذَكَرَ فيه أربعةَ أشياء.

الأول: «مَنْ حَلَفَ بغيرِ مِلَّةِ الإسلام فهو كما قال»؛ يعني: مَنْ قال: هو يَهُودِيٌّ، إن فعل كذا. أو نَصْرَانِيٌّ إن فعل كذا. وفعلُهُ فهو كما قال؛ أي: يَصِيرُ يَهُودِيًّا أو نَصْرَانِيًّا. وعلى هذا: ففي الحديثِ حَذْفُ تقديره: مَنْ حَلَفَ وَحَنَثَ، فهو كما قال. وليس مجردُ اليمينِ بذلك تَجَعُّلُهُ كما قال.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله:

٨- بابٌ: لا يَقُولُ: ما شاء الله وشئتَ. وهل يَقُولُ: أنا بالله ثم بك؟

٦٦٥٣- وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ: حَدَّثَنَا هَمَامٌ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَمْرَةَ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ مَلَكًا فَاتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: تَقَطَّعَتْ بِي الْجِبَالُ، فَلَا بَلَغَ لِي إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ يَكُ» فَذَكَرَ الْحَدِيثَ^(١).

❖ قوله: لا يَقُولُ: ما شاء الله وشئتَ؛ يعني: أنه لا يَجُوزُ أَنْ يَجْمَعَ الْإِنْسَانُ بَيْنَ مَشِيئَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَةِ غَيْرِهِ بِالْوَاوِ؛ لِأَنَّ الْوَاوَ تَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ، فَإِذَا قُلْتَ: ما شاء وشئتَ فكَأَنَّكَ جَعَلْتَ مَشِيئَةَ الْعَبْدِ بِإِزَاءِ مَشِيئَةِ اللَّهِ، وَلِهَذَا حِينَمَا قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ما شاء الله وشئتَ. قال: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟» أي: مُشَابِهًا وَنَظِيرًا، بَلْ قُلْ: «ما شاء الله وَحْدَهُ»^(٢).

وَأَمَّا إِذَا قَالَ: ما شاء الله ثم شئتَ. فهذا لا بَأْسَ بِهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ (ثُمَّ) تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (١٢٤/٢)، وابن حبان (٣٥٨)، والحاكم (١٨/١)، وإسناده على شرط مسلم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٥)، وابن ماجه (٢١١٧)، وأحمد (٢١٤/١).

بِمُهْلَةٍ وَتَرَاحٍ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْطُوفَهَا مُتَأَخَّرٌ فِي الْمَرْتَبَةِ عَنِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، فَهُوَ جَائِزٌ.
وكَذَلِكَ إِذَا قَالَ: مَا شِئْتَ فَقَط. وَهُوَ مِمَّا يُمَكِّنُ فِيهِ مَشِئَةُ الْخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ؛ كَمَا قَالَ
النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ سَأَلَهُ: أَتَوَضَّأُ مِنْ لَحُومِ الْغَنَمِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ» ^(١) فَإِذَا كَانَتِ الْمَشِئَةُ
الَّتِي أُضِيفَتْ لِلْمَخْلُوقِ مِمَّا يُمَكِّنُهُ الْقِيَامُ بِهَا، وَلَمْ تُقَرَّنْ بِمَشِئَةِ اللَّهِ بِالْوَاوِ، فَلَا بَأْسَ؟
وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهَلْ يَقُولُ: أَنَا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ. جَزَمَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالنَّفْيِ فِي الْأَوَّلِ، وَتَرَدَّدَ فِي
الثَّانِي؛ وَذَلِكَ لِأَن قَوْلَهُ: أَنَا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ. يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ: أَنَا بِاللَّهِ وَجُودًا ثُمَّ بَكَ. وَهَذَا
لَا يَصِحُّ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ لَا إِيجَادَ مِنَ الْمَخْلُوقِ لشيءٍ؛ لِأَنَّ الْإِيجَادَ خَاصٌّ بِاللَّهِ ﷻ.
أَمَّا إِذَا كَانَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: أَنَا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ اسْتِعَانَةً، فَهَذَا جَائِزٌ؛ لِأَنَّ الْاسْتِعَانَةَ بِالْمَخْلُوقِ
فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ جَائِزَةٌ.

وَإِنْ كَانَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: أَنَا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ عِيَادًا أَوْ لِيَادًا، فَهُوَ أَيْضًا جَائِزٌ؛ لِأَنَّ الْاسْتِعَانَةَ
بِالْمَخْلُوقِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ جَائِزَةٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ وَجَدَ مُعَاذًا فَلْيَعِذْ بِهِ» ^(٢).
فلهذا تَرَدَّدَ الْبُخَارِيُّ: هَلْ يَقُولُهَا أَوْ لَا، وَذَلِكَ لِأَن فِيهَا مَعْنَى وَاحِدًا لَا يَسْتَقِيمُ وَلَا يَتِمُّ
وَهُوَ: الْإِيجَادُ، فَإِنَّ الْمَخْلُوقَ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِإِيجَادِهِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَبَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/ ٥٤٠، ٥٤١):

❦ قَوْلُهُ: بَابٌ: لَا يَقُولُ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. وَهَلْ يَقُولُ: أَنَا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ؟ هَكَذَا بَتَّ
الْحَكَمُ فِي الصُّورَةِ الْأُولَى وَتَوَقَّفَ فِي الصُّورَةِ الثَّانِيَةِ، وَالسَّبَبُ: أَنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ وَقَعَتْ فِي
حَدِيثِ الْبَابِ الَّذِي أوردَهُ مُخْتَصَرًا وَسَاقَهُ مَطْوَلًا فِيمَا مَضَى، لَكِنْ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ
الْمَلِكِ عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِحَانِ لِلْمَقُولِ لَهُ، فَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ الْإِحْتِمَالُ... وَحَكَى ابْنُ التَّيْنِ، عَنْ أَبِي
جَعْفَرٍ الدَّوْدِيِّ قَالَ: لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ نَهْيًا عَنِ الْقَوْلِ الْمَذْكُورِ فِي التَّرْجُمَةِ، وَقَدْ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ٧٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ
تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ...﴾ [الْأَنْعَامُ: ٣٧]. وَغَيْرُ ذَلِكَ.

وَتَعَقَّبَهُ بَأَنَّ الَّذِي قَالَهُ أَبُو جَعْفَرٍ لَيْسَ بِظَاهِرٍ؛ لِأَن قَوْلَهُ: «مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ» تَشْرِيكَ فِي
مَشِئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمَّا الْآيَةُ فَإِنَّهَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَغْنَاهُمْ، وَأَنَّ رَسُولَهُ أَغْنَاهُمْ، وَهُوَ مِنَ اللَّهِ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٣٦٠).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٦٠١)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٨٦).

حقيقة؛ لأنه الذي قَدَّرَ ذلك، ومن الرسول حقيقة؛ باعتبار تعاطي الفعل، وكذا الإنعام: فَأَنْعَمَ اللَّهُ على زيد بالإسلام، وَأَنْعَمَ عليه النبي ﷺ بالعِتْقِ، وهذا بخلاف المشاركة في المشيئة، فإنها مُنْصَرَفَةٌ لله تعالى في الحقيقة، وإذا نُسِبَتْ لغيره فبطريق المجاز.

وقال المَهْلَبُ: إنما أراد البخاري: أن قوله: ما شاء الله ثم شئت جائرٌ، مستدلاً بقوله: أنا بالله ثم بك. وقد جاء هذا المعنى عن النبي ﷺ، وإنما جازَ بدخول (ثم)؛ لأن مشيئة الله سابقة على مشيئة خلقه، ولما لم يكن الحديث المذكور على شرطه استنبط من الحديث الصحيح الذي على شرطه ما يوافقُه.

وأخرج عبد الرزاق، عن إبراهيم النخعي: أنه كان لا يرى بأساً أن يقول: ما شاء الله ثم شئت. وكان يكره: أعوذ بالله وبك. ويُجيز: أعوذ بالله ثم بك. وهو مطابق لحديث ابن عباس وغيره مما أشرت إليه.

تنبيه: مناسبة إدخال هذه الترجمة في كتاب الأيمان من جهة ذكر الحلف في بعض طرق حديث ابن عباس كما ذكرت، ومن جهة أنه قد يُتَحَيَّلُ جواز اليمين بالله، ثم بغيره على وزان ما وقع في قوله: أنا بالله ثم بك. فأشار إلى أن النهي ثبت عن التشريك، وورد بصورة الترتيب على لسان المَلِكِ، وذلك فيما عدا الأيمان، أما اليمين بغير ذلك، فثبت النهي عنها صريحاً، فلا يلحق بها ما ورد في غيرها، والله أعلم. انتهى كلام الحافظ

على كل حال: قوله: أنا بالله ثم بك. وجه توقُّف البخاري فيه: هو ما أشرت إليه من أنه يحتمل أن المراد به الإيجاد، ولا مشاركة للمخلوق مع الله في الإيجاد، لا بالترتيب ولا بالتشريك. وأما حديث: لا بلاغ لي إلا بالله ثم بك. فالبلاغ معناه: الوصول؛ يعني: لا أستطيع الوصول إلى حاجتي إلا بالله ثم بك. وهذا خصّه؛ أي: خصّه في البلاغ، فليس كقوله: أنا بالله ثم بك. فليس مُحْتَمِلاً لمعنى فيه كراهة.

وأما القصة: فقد مرّت علينا، وذكرنا ما فيها من الفوائد.

وليُعْلَمَ أنَّ كل المسائل الكونية لا يَجُوزُ الجمعُ فيها بين الله وبين المخلوق إلا بـ(ثم)، فلا يَجُوزُ: أنا أعتد على الله وعليك.

أما المسائل الشرعية فيَجُوزُ فيها الجمعُ بالواوِ مثل: (الله رسولُه أعلم) وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [البقرة: ٥٩]. فهذا إيتاء شرعي، وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [البقرة: ٧٤]. فهذا أيضاً: إغناء شرعي.

❖ وأما قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٧]. هذا الإنعام صحيح أنه كوني لكنَّ النعمتين مختلفتان فإنَّ الله قد أَنْعَمَ عليه بالإسلام، وَأَنْعَمَ عليه الرسول ﷺ بالعِتْق؛ لأنَّ المراد به: زيد بن حارثة رضي الله عنه.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٩- بَابُ قولِ الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾.
وقال ابنُ عباسٍ: قال أبو بكرٍ: والله يا رسولَ الله، لَتُحَدِّثَنِي بِالَّذِي أَخْطَأْتُ فِي الرُّؤْيَا.
قال: لَا تُقْسِمُ.

❖ قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ لا أدري هل أراد البخاريُّ الآيةَ التي في سورة النور وهي قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣]. أو التي في سورة النحل وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [الحلک: ٣٨].
فإن كانت الأولى: فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ وهذه هي التي تُطابقُ الأثرَ المُعلَّقَ الذي ذكره المؤلفُ وهو قوله ﷻ لأبي بكرٍ: «لَا تُقْسِمُ»؛ لأنهم كانوا يقولون: والله، لئن أَمَرْتَنَا لَنَخْرُجَنَّ. فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾؛ يعني: عليكم طاعةٌ معروفةٌ بدون قَسَمٍ.

وفي هذه الآية: إشارةٌ إلى كراهةِ النَّذْرِ؛ لأنَّ النَّذْرَ إلزامُ العبدِ نفسه بما لم يَجِبْ عليه مِنَ العباداتِ.
❖ وقوله: قال أبو بكرٍ: والله يا رسولَ الله، لَتُحَدِّثَنِي بِالَّذِي أَخْطَأْتُ فِي الرُّؤْيَا. قال: «لَا تُقْسِمُ». ظاهرُ الحديثِ: أنَّ النبيَّ ﷻ لم يُخْبِرْهُ، فإذا كان لم يُخْبِرْهُ فهل يَجِبُ على أبي بكرٍ أن يُكْفِّرَ؟
الجوابُ: نعم يَجِبُ عليه أن يُكْفِّرَ. فإذا قال قائلٌ: إنَّ الحديثَ لم يُذَكِّرْ فيه أنه كَفَرَّ.
قلنا: هذا لا يَمْنَعُ مِنْ وُجُوبِ كَفَّارَةٍ؛ لأنَّ السكوتَ عن شيءٍ واجبٌ لا يَدُلُّ على سَقُوطِ الوُجُوبِ، بخلافِ السُّكُوتِ عن شيءٍ لم يَجِبْ، فإنَّ السكوتَ عن شيءٍ لم يَجِبْ يَدُلُّ على عدمِ الوُجُوبِ.

وهذه قاعدةٌ قد تَشَبَّهَ على بعضِ الطلبةِ فيقول مثلاً: لم يُذَكِّرْ في هذا الحديثِ وُجُوبُ الكَفَّارَةِ، فنقول: لا حاجةَ لِذِكْرِها ما دام قد عُلِمَ وَجُوبُها مِنْ نصوصٍ أُخْرَى، فإنَّ عدمَ ذِكْرِها لا يَدُلُّ على سَقُوطِ الوُجُوبِ بالاتِّفاقِ.

أما إذا لم يُوجد إلا هذا الحديث الذي لم يُذكر فيه الوجوبُ فحينئذٍ نقولُ: عدمُ ذكرِ الوجوبِ دليلٌ على عدمِ الوجوبِ.

❦ وقوله: قال أبو بكرٍ: والله يا رسولَ الله، لتُحدّثني بالذي أخطأتُ في الرؤيا. قال: «لا تُقسِمَ».

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي «الفتح» (١١/٥٤٢):

هذا طرفٌ مُختَصَرٌ من الحديثِ الطويلِ الآتي في كتابِ التعبيرِ: من طريقِ الزُّهريِّ، عن عبيدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ عُتبة، عن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رجلاً أتى رسولَ الله ﷺ فقال: إني رأيتُ الليلةَ في المنامِ ظلةً تنطفُ من السمنِ والعسلِ. الحديثُ، وفيه: تعبيرُ أبي بكرٍ لها، وقوله للنبي ﷺ: فأخبرني يا رسولَ الله، أصبتُ أم أخطأتُ؟

قال: «أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً»، قال: فوالله... إلى آخره، فقوله هنا: في (الرؤيا) من كلامِ المصنفِ؛ إشارةً إلى ما اختصره من الحديثِ، وتقديره: في قصةِ الرؤيا التي رآها الرجلُ وقصّها على النبي ﷺ فعبرَها... أبو بكرٍ إلى آخره، وسيأتي شرحُه هناك. والغرضُ من هنا: قوله: لا تُقسِمَ. موضعُ قوله: لا تحلفُ فأشارَ إلى الردِّ على مَنْ قال: إن مَنْ قال: أقسمتُ: انعقدتْ يمينُهُ، ولو أنه قال بدلَ أقسمتُ: حلفتُ. لم تتعقدِ اتفاقاً إلا إن نوى اليمينَ أو قصدَ الإخبارَ بأنه سبقَ منه حلفٌ.

وأيضاً فقد أمرَ ﷺ بإبرارِ القسمِ، ولو كان: أقسمتُ. يميناً لأبرَّ أبا بكرٍ حينَ قالها، ومن ثمَّ أوردَ حديثَ البراءِ عقبه، ولهذا أوردَ حديثَ حارثةَ آخرَ البابِ: «لو أقسمَ على الله لأبرّه». إشارةً إلى أنها لو كانت يميناً لكان أبو بكرٍ أحقَّ بأن يبرَّ قسَمَه؛ لأنه رأسُ أهلِ الجنةِ من هذه الأمة. انتهى كلامُ ابنِ حجرٍ.

ولكن يردُّ عليه: أن أبا بكرٍ قال للنبي ﷺ: فوالله لتُحدّثني بالذي أخطأتُ في الرؤيا. وهذا صريحٌ في القسمِ.

فإن قيل: لماذا لم يبرَّ النبي ﷺ قسَمَ أبي بكرٍ؟

فالجوابُ: أنه قد يكونُ من الخيرِ عدمُ الإبرارِ بالقسمِ، فمن هذه الرؤيا كان فيها شيئاً مكروهاً لو عبرَ لوقع، فلذلك لم يُخبر به النبي ﷺ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٥٤- حَدَّثَنَا قَيْصَةُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ أَشْعَثَ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ سُؤَيْدٍ بْنِ مَقْرِنٍ، عَنْ الْبَرَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. ح وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَشْعَثَ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ سُؤَيْدٍ بْنِ مَقْرِنٍ، عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ ^(١).

❦ قوله: «إبرارُ المُقسِم»؛ يعني: إذا أقسم عليك أخوك، فإن من حقه عليك أن تبرَّ بقسمه، ولكن هذا مشروطٌ بما إذا لم يكن معتدياً، أو كان عليك ضرراً.

فإن كان معتدياً، فإنه لا يلزمك أن تبرَّ بيمينه، مثل: لو قال لك: أقسم عليك أن تخبرني: كيف تنام مع أهلِكَ؟ وماذا تأكل؟ وكم أولادك؟ وكم مالك؟ فهذا لا يُبرَّ، بل هذا ينبغي أن يُوبَّخَ على هذا العمل، ولا يلزم أن تبر بيمينه.

وكذلك أيضاً: لو كان غير معتدي ولكن يضُرُّني ما أخبره به، فإنه لا يلزمُني أن أبر بيمينه. أما إذا لم يكن كذلك، فإن الرسول ﷺ أمر بإبرارِ المُقسِم؛ لما فيه من القيام بحق أخيك، وانتفاء تعرضه للكفارة.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٥٥- حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، أَخْبَرَنَا عَاصِمُ الْأَحْوَلُ، سَمِعْتُ أَبَا عُمَانَ يُحَدِّثُ عَنْ أُسَامَةَ: أَنَّ ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ -وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَسَعْدٌ، وَأَبِي وَأُبَيٌّ- أَنَّ ابْنِي قَدْ احْتَضَرَ فَأَشْهَدْنَا، فَأَرْسَلَ يَقْرَأُ السَّلَامَ وَيَقُولُ: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَمَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ مُسْمًى، فَلْتَصْبِرْ وَتَحْتَسِبْ». فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا قَعَدَ رَفَعَ إِلَيْهِ فَأَقْعَدَهُ فِي حِجْرِهِ وَنَفْسَ الصَّبِيِّ تَقَعَّقُ، فَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ يَضَعُهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ» ^(١).

الشاهد من هذا الحديث: قوله: «تقسمُ عليه» فأبرها النبي ﷺ وحضر. وهل

الإبرارُ بالقسم واجبٌ؟

(١) أخرجه مسلم (٢٠٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (٩٢٣).

الجواب: لا، بل هو سنة مؤكدة. والصارف له عن الوجوب: أنه قد يكون فيه ضررٌ على الإنسان؛ إلا إن دعت الحاجة إلى الوجوب، مثل: لو حلف عليه أن يخبره مثلاً عن الذي يريد أن يعتدي على ماله، وما أشبه ذلك، فهنا ربما نقول بوجوب الإبرار.

وإنما قلنا بعدم الوجوب؛ لأن في القول بالوجوب إلزاماً للغير بما لا يلزمه، ولسد الباب؛ لئلا يأتي الرجل إلى أخيه فيقول له: والله لتخبرني عن كذا. فيقع المُقسَمُ عليه في الحرج.

❖ وقوله: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء» هذه جملة فيها حصر، وليس معنى ذلك: أن مَنْ لا يرحم لا يرحم، بل قد يتعرض للرحمة مَنْ ليس عنده رحمة للخلق، لكن المعنى: أن رحمة الخلق من أسباب رحمة الله، فالحصر هنا كأنه مقلوب، ومعناه: أن الراحم يرحم، ولا يقتضي هذا: أن مَنْ لا يرحم الناس لا يرحله مطلقاً.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦٦٥٦ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ تَمَسُّهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ»^(١).

٦٦٥٧ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنِي غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ مَعْبُدِ بْنِ خَالِدٍ، سَمِعْتُ حَارِثَةَ بْنَ وَهَبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا أَدْلِكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، وَأَهْلِ النَّارِ كُلُّ جَوَاطِ عَتَلٍ مُسْتَكْبِرٍ»^(٢).

الحديث الأول بين النبي ﷺ والآلة فيه: أنه لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد ذكورا كانوا أو إناثا فتمسه النار إلا تحلة القسم؛ يعني: أنهم يكونوا له حجابا من النار. وظاهر الحديث: أنه حتى لو كان هذا الذي مات له ثلاثة من الولد من أصحاب الكبائر، ولكن قد يقال: إن موت الأولاد سبب من أسباب الجنة، والسبب قد يوجد له مانعٌ غيرهِ من الأسباب التي تكون سببا لدخول الجنة، ولكن يوجد مانعٌ يمنع من الدخول.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٣).

❖ وقوله: «إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ» المراد به: قوله تعالى: ﴿وَأِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [البقرة: ٧١]. وقد اختلف العلماء في الورد المذكور في هذه الآية.

فمنهم من قال: إنه العبور على الصراط.

ومنهم من قال: إن المراد به أنهم يردونها فعلاً ويقعون فيها، ولكن لا يعدَّبونَ فيها كما يعدَّب الكفار، بل هي نار خاصة.

والأصح: أن المراد به: العبور على الصراط، لكن ظاهر هذا الحديث: يُرْجَحُ القول الثاني: وأنها تَمُسُّه فعلاً مباشرة.

❖ وقوله ﷺ: «لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»؛ يعني: أنه له عند الله منزلة، لكنه عند الخلق لا منزلة له، فهو ضعيفٌ مُتَضَعِّفٌ، فهو بنفسه يرى نفسه ضعيفاً، وهو عند الناس أيضاً ضعيفٌ، كما جاء في الحديث الآخر: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١).

أما أهل النار، فإنهم العتاة كما قال ﷺ: كُلُّ جَوَاطِ عُتْلٍ مُسْتَكْبِرٍ - والعياذ بالله - فهو عاتٍ غليظُ الطَّبْعِ، كالعتلة وهي آلة يُحْفَرُ بها من الحديد صلبته.

والاستكبار: هو الاستعلاء على الخلق، فأهل الجنة تجدهم دائماً متضامنين متضاعفين لا يستكبرون، ولا يرفعون رؤوسهم، أما أهل النار فبالعكس. نسأل الله العافية.



ثُمَّ قَالَ الْبُحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٠ - بَابُ إِذَا قَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ، أَوْ شَهِدْتُ بِاللَّهِ.

٦٦٥٨ - حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ حَفْصٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَبِيدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ»^(١). قَالَ إِبْرَاهِيمُ: وَكَانَ أَصْحَابُنَا يَنْهَوْنَ وَنَحْنُ غُلَمَانٌ أَنْ نَحْلِفَ بِالشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ.

❖ قوله: «يَنْهَوْنَ أَنْ نَحْلِفَ بِالشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ». الحلفُ بالشهادة أن يقول: أَشْهَدُ بِاللَّهِ،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٣٣).

ولهذا سَمَى النَّبِيُّ ﷺ الشَّهَادَةَ فِي اللَّعَانِ: أَيْنَا مَعَ أَنَّهَا شَهَادَةٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَشَهَدَهُ أَحَدُهُمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النُّور: ٦٠]. ﴿وَيَذَرُوهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [النُّور: ٨]. فَإِذَا قَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ. تَمَنُّ هَذَا شَهَادَةً وَيَمِينًا.

وَعَلَى هَذَا حَمَلَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ». وَالْوَجْهُ الثَّانِي فِي الْحَدِيثِ: أَنَّهُمْ إِذَا شَهِدُوا أَكْدَوْا الشَّهَادَةَ بِالْأَيْمَانِ، فَيَقُولُ مَثَلًا: أَشْهَدُ أَنْ فُلَانًا فِي ذِمَّتِهِ لِفُلَانٍ كَذَا، وَاللَّهُ إِنْ لَهُ كَذَا. فَهُمْ لَضَعْفِ أَمَانَتِهِمْ، وَعَدَمِ ثِقَتِهِمْ بَأَنْفُسِهِمْ، يَجْعَلُونَ مَعَ الشَّهَادَةِ يَمِينًا، فَأَحْيَانًا يَحْلِفُ ثُمَّ يَشْهَدُ، وَأَحْيَانًا يَشْهَدُ ثُمَّ يَحْلِفُ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُؤْتَمِّنٍ، فَهُوَ ضَعِيفُ الْأَمَانَةِ عِنْدَ النَّاسِ، فَيُرِيدُ أَنْ يَقْوَى ذَلِكَ بِالْيَمِينِ مَعَ الشَّهَادَةِ.

قَالَ ابْنُ حَبَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٥٤٤):

❖ قَوْلُهُ: «تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ». قَالَ الطَّحَاوِيُّ: أَيُّ: يُكْثِرُونَ الْإِيمَانَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَصِيرَ لَهُمْ عَادَةٌ، فَيَحْلِفُ أَحَدُهُمْ حَيْثُ لَا يُرَادُّ مِنْهُ الْيَمِينُ، وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْتَحْلِفَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الْمُرَادُّ يَحْلِفُ عَلَى تَصْدِيقِ شَهَادَتِهِ قَبْلَ أَدَائِهَا أَوْ بَعْدَهُ، وَهَذَا إِذَا صَدَرَ مِنَ الشَّاهِدِ قَبْلَ الْحُكْمِ سَقَطَتْ شَهَادَتُهُ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُّ التَّسَرُّعُ إِلَى الشَّهَادَةِ وَالْيَمِينِ وَالْحَرَصُ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى لَا يَدْرِي بَأَيِّهَا يَبْدَأُ لِقَلَّةِ مَبَالَاةِهِ. انْتَهَى كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: هُوَ الْأَصَحُّ، وَهُوَ أَنَّهُ يُؤَكَّدُ شَهَادَتَهُ بِيَمِينِهِ؛ لِعَدَمِ ثِقَتِهِ بِنَفْسِهِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١١ - بَابُ عَهْدِ اللَّهِ ﷻ.

٦٦٥٩ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ وَمَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْثَدَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ يَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ - أَوْ قَالَ أَخِيهِ - لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ...﴾ [النِّسَاء: ٧٧].

٦٦٦٠- قَالَ سُلَيْمَانُ فِي حَدِيثِهِ: فَمَرَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ: مَا يُحَدِّثُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ؟ قَالُوا

لَهُ: فَقَالَ الْأَشْعَثُ: نَزَلْتُ فِيَّ وَفِي صَاحِبٍ لِي فِي بَيْتٍ كَانَتْ بَيْنَنَا ^(١).

❖ قوله: «بَابُ عَهْدِ اللَّهِ ﷻ». عهدُ اللَّهِ ﷻ هو ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَغِيلًا﴾ [التَّحْلِيلُ: ٧٧]. فعهدُ اللَّهِ هو ما عَهِدَ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ، وَمِنْهُ: بَيَانُ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ ﷻ الْعَبْدَ، فَإِنْ إِعْطَاءُ اللَّهِ الْعَبْدَ عِلْمًا عَهْدٌ مِنَ اللَّهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَبْدِ أَنْ يُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [التَّحْلِيلُ: ١٨٧]. فلو سَأَلْتَ أَيَّ عَالَمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَقُلْتَ: هَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ عَهْدٌ أَمَرْتَهُ، فَقُلْتَ: يَا رَبِّ أَعَاهِدُكَ أَنْ أُبَيِّنَ مَا عَلِمْتَنِي إِلَى النَّاسِ؟ لَقَالَ: لَا بَلْ إِنْ إِعْطَاءُ اللَّهِ الْعِلْمَ لِلشَّخْصِ هُوَ نَفْسُهُ عَهْدٌ، لَكِنَّهُ عَهْدٌ بِالْفِعْلِ وَلَيْسَ عَهْدًا بِالْقَوْلِ.

❖ وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾؛ أَي: بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، سَوَاءٌ كَانَ هَذَا الْعَهْدُ بِاللَّفْظِ أَمْ بِالْفِعْلِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَغِيلًا﴾ فهذا هو الشَّاهِدُ مِنَ الْآيَةِ، وَذَلِكَ يَكُونُ فِي الْخُصُومَةِ، كَأَنْ يَقَعَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ خُصُومَةٌ فَيَدَّعِي أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ أَنْ فِي ذِمَّتِهِ لَهُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ: لَيْسَ فِي ذِمَّتِي لَكَ شَيْءٌ، فَيُوجِّهُ الْقَاضِي إِلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُدَّعِي بَيِّنَةٌ وَيَقُولُ لَهُ: أَتُخْلِفُ؟ فَيُحْلِفُ: وَاللَّهِ مَا فِي ذِمَّتِي لِفُلَانٍ شَيْءٌ. وَفِي هَذِهِ الْحَالِ يَحْكُمُ الْقَاضِي بِبَرَاءَةِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، فَيَكُونُ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ الَّذِي حَلَفَ وَكَذَّبَ قَدْ اشْتَرَى بِبَيْمِينِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، وَهُوَ مَا أَنْكَرَهُ مِنْ حَقِّ خَصْمِهِ، وَهُوَ قَلِيلٌ مِمَّا بَلَغَ مِنَ الْكَثْرَةِ؛ لِأَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا كُلُّهَا قَلِيلٌ.

وفي هذا الحديث: أَنَّ هَذِهِ الْيَمِينَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ أَي: الَّذِي يُحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ.

وَالْاِقْتِطَاعُ نَوْعَانُ؛ إِمَّا جَحْدُ مَا هُوَ لَهُ؛ يَعْنِي: مَا هُوَ لِغَيْرِهِ. وَإِمَّا ادَّعَاءُ مَا لَيْسَ لَهُ؛ أَي: مَا لَيْسَ لِلْمُدَّعِي. فَإِذَا ادَّعَى عَلَى شَخْصٍ بَأَن فِي ذِمَّتِهِ لِفُلَانٍ كَذَا وَكَذَا، وَأَنْكَرَ، فَهَذَا اقْتِطَاعُ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ. وَإِذَا ادَّعَى عَلَى شَخْصٍ بَأَن لَهُ فِي ذِمَّتِهِ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ حَلَفَ عَلَى مَا ادَّعَى بِهِ فَهَذَا اقْتِطَاعُ مَا عِنْدَ غَيْرِهِ.

❖ وقوله: «وهو عليه غضبان» جملةٌ حاليةٌ من لفظِ الجلالةِ في قوله: «لَقِيَ اللَّهَ» وفيه: إثباتُ الغضبِ لله ﷻ، والقاعدةُ عندَ السلفِ: أن الغضبَ صفةٌ حقيقيةٌ ثابتةٌ لله ﷻ تليقُ به، وأخطأ مَنْ فسرها بأنها الانتقام؛ لأن الانتقامَ فعلٌ وليس غضبًا، بل هو نتيجةُ الغضب، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَا أَتَيْنَا مُنْتَهَرًا﴾ [التوبة: ٥٥]. ﴿أَسْفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا، ومعلومٌ أن الجزاءَ غيرُ الشرط، و﴿أَسْفُونَا﴾ هنا شرطٌ و﴿أَنْتَقَمْنَا﴾ جزاءٌ^(١).

وقد أنكر الأشاعرةُ وغيرهم من أهل التعطيل وصفَ الله بالغضب، وقالوا: لأن الغضبَ هو غليانُ دم القلبِ لطلب الانتقام. وهذا لا يليقُ بالله. وجوابنا على هذا السّفوف: أن نقول: هذا الذي قلتم هو غضبُ المخلوق، أما غضبُ الخالقِ فإنه يليقُ به.

ونقولُ لهم: أنتم أثبتتم الإرادة، وصحّحتُم وصفَ الله بالإرادة، مع أن الإرادةَ هي: ميلُ المريدِ إلى ما يَنفَعُه، أو يَدْفَعُ عنه مَضَرَّةً، ومعلومٌ: أن الله تعالى لا يَنْتَفِعُ بشيءٍ ولا يَضُرُّه شيءٌ. فإذا قالوا: هذه إرادةُ المخلوق. قلنا: قولوا أيضًا: هذا غضبُ المخلوق. وأثبتوا للخالقِ غضبًا يليقُ به كما أثبتتم له إرادةً تليقُ به، وإلا فأنتم مُتناقضون.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٢ - بَابُ الْحَلْفِ بِعِزَّةِ اللَّهِ، وَصِفَاتِهِ، وَكَلِمَاتِهِ.

وقال ابنُ عباسٍ: كان النبي ﷺ يَقُولُ: أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ.

وقال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: «يَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا».

وقال أبو سعيدٍ: قال النبي ﷺ: «قال الله: لك ذلك وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ». وقال أيوبُ: وَعِزَّتِكَ

لا غنى لي عن بركتِكَ.

(١) سئل الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمُنْتَقِمُ» هل هو صفةٌ أم اسم؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُنتَقِمُ صفةٌ، ولكن ليست صفةً مطلقةً أيضًا، بل هي صفة فعلية مقيدة، فلا يجوز أن يطلق على الله ﷻ اسمُ «المنتقم» أو صفةُ «المنتقم»؛ لأن الله قَدِ ذلك، فقال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [التكوير: ٢٢]. وقال: ﴿فَأَمَّا نَذْهَبُ يَكُ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ [التكوير: ٤١]. أما قوله تعالى ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ [التكوير: ٤]: أي: صاحب انتقام، وهذا لا يُعطى الوصف العام كما يُعطيه وصفُ «المنتقم»، ولهذا لا يصح أن نقول: «إن الله ذو انتقام» على سبيل الإطلاق، ولا يصح أن نقول: «إن الله هو المنتقم» على سبيل الإطلاق أيضًا.

٦٦٦١- حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، وَعِزَّتِكَ. وَيُرَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ» ^(١) رَوَاهُ شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ.

❖ قوله: الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته هو من باب عطف الخاص على العام؛ لأن العزة من الصفات، فيجوز للإنسان أن يحلف بعزة الله فيقول: وعزة الله لا أفعل كذا. ويجوز كذلك أن يحلف بأي صفة من صفات الله مثل أن يقول: وقدرة الله لأفعلن، وعلم الله لأفعلن، ورحمة الله لأفعلن.

إلا أن الصفات الخبرية غير الوجه مثل: اليد، والقدم، والعين في الحلف بها شيء من النظر أما، الوجه فيحلف به؛ لأنه يعبر به عن الذات، كقوله تعالى: ﴿وَبَعَثَ وَجْهَ رَبِّكَ﴾ [التين: ٢٧]. فالصفات المعنوية يحلف بها لا شك، سواء كانت هذه الصفات المعنوية ذاتية كاللازمة، أو فعلية. كالتى تحدثت تبع مشيئة الله ﷻ، مثل: النزول إلى السماء الدنيا. فإذا قلت: واستواء الله على عرشه: فالحلف جائز، وإذا قلت: ونزول الله إلى السماء الدنيا فهو جائز، وإن كان بصفة فعلية. وإذا قلت: ووجه الله لأفعلن فجائز. أما يد الله، وأصبع الله، وما أشبه ذلك من الصفات الخبرية فهذه محل نظر.

❖ وقوله: «وكلماته» أي: كلمات الله، وكلمات الله أيضًا يجوز الحلف بها، وهي من صفاته، وعطفها على الصفات من باب عطف الخاص على العام، ففي الترجمة عطف عام على خاص، وعطف خاص على عام.

فكلمات الله ﷻ يجوز الحلف بها، فتقول مثلاً: وكلمات الله التامات لأفعلن كذا. ولا بأس؛ لأن الكلمات صفة من صفات الله ﷻ، فيجوز الحلف بها.

ثم استدلل البخاري رحمه الله بحديث ابن عباس: أن النبي ﷺ كان يقول: «أعوذ بعزة الله» ^(١) فاستعاد بعزة الله ﷻ، فاستنبط البخاري من ذلك جواز الحلف بالعزة، وقد قال الله عن إبليس: ﴿فَعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [الحق: ٨٢]. وهذه صيغة قسم؛ لأنها أجيبت باللام التي هي جواب القسم.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٧).

(٢) سبق تخريجه.

❖ وقوله: وقال أبو هريرة: يَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا^(١).

❖ قوله: «لَا وَعِزَّتِكَ» هذا للتأكيد والشاهد: قوله: «وَعِزَّتِكَ».

❖ وقوله: وقال أيوب: وَعِزَّتِكَ لَا غَنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ^(٢). هذا حَلْفٌ مِنْ نَبِيِّ، وَالْأَنْبِيَاءُ مُبَرَّرُونَ مِنَ الشَّرِكِ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْلُفُوا بِيَمِينٍ لَا يَحِلُّ الْقَسَمُ بِهَا.

❖ وقوله: «فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ وَعِزَّتِكَ». يعني: حَسْبِيَ حَسْبِي وَعِزَّتِكَ.

❖ وقوله: «حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ». قَدْ يُشْكِلُ عَلَى الْبَعْضِ: كَيْفَ أَضَافَ «رَبُّ» إِلَى «الْعِزَّةِ» وَهِيَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؟

فقول: إِنَّ الرَّبَّ هُنَا بِمَعْنَى صَاحِبٍ، وَلَيْسَتْ بِمَعْنَى خَالِقٍ، فَرَبُّ الْعِزَّةِ؛ أَيُّ: صَاحِبُ الْعِزَّةِ.

وفي هذا الحديث: إِبْثَاتُ الْقَدَمِ لِلَّهِ ﷻ، وَهُوَ قَدَمٌ حَقِيقِيٌّ يَلِيقُ بِهِ ﷻ، وَلَا يُشَبِّهُهُ أَقْدَامُ الْمَخْلُوقِينَ.

وَأَنْكَرَ أَهْلُ التَّعْطِيلِ هَذَا، وَقَالُوا: لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ قَدَمٌ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ هُنَا: «حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ»؛ يَعْنِي: مَنْ قَدَّمَ لَهُمُ إِلَى النَّارِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا تَحْرِيفٌ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ لِمَا يَلِي:

أولاً: لِأَنَّ هَذَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ، فَالنَّارُ لَا يَزَالُ يُلْقَى فِيهَا، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ.

وثانياً: أَنَّ قَوْلَهُ: «يُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ» لَا يُنَاسِبُهُ أَنْ يُلْقَى فِيهَا أَنْاسٌ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أُلْقِيَ فِيهَا أَنْاسٌ فَإِنَّ هَذَا يَقْتَضِي أَنَّهَا تَتَسَّعُ، بِخِلَافِ مَا إِذَا وَضَعَ اللَّهُ فِيهَا الْقَدَمَ فَإِنَّهَا تَنْمُ وَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ.

فيستفاد من هذه الترجمة: جَوَازُ الْحَلْفِ بِكُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ: كَالْعِزَّةِ، وَالْكَلِمَاتِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْعِلْمِ، وَكُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ.



(١) أخرجه مسلم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩١)، وأحمد (٣١٤/٢).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٣ - بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ: لَعَمْرُ اللَّهِ.

قال ابن عباس: لَعَمْرُكَ: لَعِيشُكَ.

❦ قوله: قَوْلُ الرَّجُلِ: لَعَمْرُ اللَّهِ؛ يعني: هل هذا يمينٌ أم لا؟ فنَقُولُ: إن صيغته ليست صيغة قَسَمٍ؛ لأن القَسَمَ يَكُونُ بِالْوَاوِ، والْبَاءِ، والتَّاءِ، أو الهاءِ مثل: ها الله. لكنه بمعنى القَسَمِ. وعَمْرُ اللَّهِ؛ أي: حياة الله.

❦ وقَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَعَمْرُكَ»، يعني: قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ [الأنعام: ٧٢]. قال: لَعِيشُكَ؛ أي: لِحَيَاتِكَ، وليس المرادُ العيش الذي يُؤْكَلُ، فعاش، يَعِيشُ، عَيْشًا، يعني: حياةً.

هذا مِنْ بَابِ قَسَمِ اللَّهِ ﷻ بِحَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، والله أن يُقَسِمَ بِمَا شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ مَرْفُوعَةٌ وَمَوْقُوفَةٌ تُدَلُّ عَلَى جَوَازِ الْحَلْفِ بِقَوْلِهِ: «لَعَمْرُكَ»^(١)؛ أي: أن يَقُولَ الْإِنْسَانُ: لَعَمْرُكَ.

ولكن كما ذَكَرْتُ هذا ليس قَسَمًا صَرِيحًا، إِنَّمَا هُوَ بِهِ نِسْيُ الْقَسَمِ، فَهُوَ كَقَوْلِ الرَّجُلِ لَزَوْجَتِهِ: إِنْ فَعَلْتَ كَذَا فَأَنْتَ طَالِقٌ يُرِيدُ بِذَلِكَ الْحَلْفَ.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١ / ٥٤٧):

❦ قوله: «بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ: لَعَمْرُ اللَّهِ»؛ أي: هل يَكُونُ يَمِينًا؟ وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى تَفْسِيرِ: لَعَمْرُ، وَلِذَلِكَ ذَكَرَ أَثَرُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْحَجَرِ، وَأَنَّ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَصَلَهُ، وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْ أَبِي الْجَوَازِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾؛ أي: حَيَاتِكَ.

قال الراغب: العَمْرُ - بِالْمِ وَبِالْفَتْحِ وَاحِدٌ -، وَلَكِنْ خُصَّ الْحَلْفُ بِالثَّانِي، قَالَ الشَّاعِرُ:

* عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ *

أي: سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُطِيلَ عُمُرَكَ.

وقال أبو القاسمِ الزَّجَّاجُ: العَمْرُ: الْحَيَاةُ، فَمَنْ قَالَ: لَعَمْرُ اللَّهِ. كَأَنَّهُ حَلَفَ بِبِقَاءِ اللَّهِ، وَاللَّامُ لِلتَّوَكُّيدِ وَالْخَبَرُ مُحَذَوْفٌ؛ أي: مَا أُقْسِمُ بِهِ، وَمَنْ قَالَ الْهَالِكِيَّةُ وَالْحَنْفِيَّةُ: تَنْعَقِدُ بِهَا

(١) انظر «صحيح مسلم» (١٧٦٩).

اليمين؛ لأن بقاء الله من صفة ذاته.

وعن مالك: لا يُعْجِبُنِي الْحَلِفُ بِذَلِكَ.

وقد أخرج إسحاق بن رَاهَوِيَه في «مُصَنَّفِهِ» عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: كَانَتْ يَمِينُ عِثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ: لِعَمْرِي.

وقال الشافعي وإسحاق: لَا تَكُونُ يَمِينًا إِلَّا بِالنِّيَّةِ، لِأَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى الْعِلْمِ وَعَلَى الْحَقِّ، وَقَدْ يُرَادُ بِالْعِلْمِ، الْمَعْلُومُ، وَبِالْحَقِّ: مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ.

وعن أحمد كَالْمَذْهَبَيْنِ، وَالرَّاجِحُ عَنْهُ: كَالشَّافِعِيِّ.

وَأَجَابُوا عَنْ الْآيَةِ: بِأَنَّ اللَّهَ أَنْ يُقْسِمَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا شَاءَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لَهُمْ؛ لِثُبُوتِ النَّهْيِ عَنِ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ. وَقَدْ عَدَّ الْأَثْمَةُ ذَلِكَ فِي فُضَائِلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّامَ لَيْسَتْ مِنْ أَدَوَاتِ الْقَسَمِ؛ لِأَنَّهَا مَحْصُورَةٌ فِي الْوَاوِ، وَالْبَاءِ، وَالتَّاءِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي: «بَابِ كَيْفَ كَانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ». اهـ



ثُمَّ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٦٢ - حَدَّثَنَا الْأَوْسِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ، عَنْ صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ. ح وَحَدَّثَنَا حَبَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو النَّمِيرِيُّ، حَدَّثَنَا يُونُسُ، قَالَ: سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ، قَالَ: سَمِعْتُ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ، وَعَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ، وَعُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّاهَا اللَّهُ - وَكُلُّ حَدِيثِي طَائِفَةٌ مِنَ الْحَدِيثِ - فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَاسْتَعَدَّرَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتَلَنَّهٗ ^(١).

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: قَوْلُهُ: لَعَمْرُ اللَّهِ. فَقَدْ أَقْرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ.

وَعَمْرُ اللَّهِ؟ يَعْنِي: حَيَاتِهِ. وَقِصَّةُ الْإِفْكِ لَا تَخْفَى؛ فَإِنَّ الْمَنَافِقِينَ رَوَّجُوا: أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَصَلَ مِنْهَا مَا هِيَ بَرِيئَةٌ مِنْهُ، حِينَ تَخَلَّفَتْ عَنِ الْجَيْشِ فِي طَلَبِ عِقْدٍ لَهَا أَوْ فِي قَضَاءِ حَاجَتِهَا، فَوَجَدَهَا صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَحَمَلَهَا عَلَى بَعِيرِهِ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي هَذَا خَوْضًا عَظِيمًا، وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٤ - بَابُ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ [البقرة: ٢٢٥].

قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغوُ معناه الذي لا يُقصد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وفي آية المائدة قال: ﴿يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]. أي: بما أنفذتم عقده، وأحكمتم عقده، أما الشيء الذي لا يُقصد فهو لغوٌ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٦٣ - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ هِشَامٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ﴾. قَالَ: قَالَتْ: أَنْزِلْتَ فِي قَوْلِهِ: لَا وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ.

قولها: أنزلت في قوله: لا والله، وبلى والله؛ أي: في عرض الحديث، فالإنسان دائماً يتحدّث، أو تحدّث الناس إليه، فيقول مثلاً: لا والله لا أذهب، لا والله لن آتي، بلى والله قد رأي فلان، فهذه الكلمات تعد لغواً لا يُؤاخذُ عليها الإنسان لا من جهة انعقادها وإلزامه بالكفارة إذا حث، ولا من جهة الإثم بها؛ لأنه غير قاصدٍ له.

واستدل كثير من العلماء بهذه الآية على أن كل كلام لا يُقصد فلا حُكم له. فعلى هذا فإن بعض الناس يكثر على ألسنتهم الطلاق، يقول: علي الطلاق ما فعلت كذا. علي الطلاق لا أفعل كذا.

إلا أنه لا يُقصدُ، فيجعل هذا كحكم اليمين لغواً لا يُؤاخذُ به الإنسان؛ ذلك لأن هناك فرقاً ظاهراً بين الشيء الذي تقصده وتعرّض عليه، وبين الشيء الذي يأتي بدون قصد، فالثاني: لا حُكم له، والأول: هو الذي يُؤاخذُ به الإنسان.

وهنا يجب علينا أن ننبّه على مسألة، وهي: أن الحلف على الماضي ليس فيه كفارة، إنما فيه إثم، أو سلامة، ثم الإثم قد يكون من الكبائر، وقد يكون دون ذلك.

فهذه ثلاثة أقسام: السلامة، إثم دون الكبائر، إثم من الكبائر. فإذا قلت: والله ما فعلت كذا. فلا تخلو من ثلاث حالات: إما أن تكون لم تفعل فانت سالم، أو أنك فعلته ولكنه ليس فيه اقتطاع مال مسلم، فانت أثم لكنه إثم دون الكبائر، أو

يكون فيه اقتطاع مال مسلم فهذا من الكبائر.
أما الذي فيه الكفارة: فهو الحلف على شيء في المستقبل.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٥ - باب: إذا حنث ناسياً في الأيمان، وقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ [الاحزاب: ٥]. وقال: ﴿لَا تُؤْخَذُ بِمَا نَصِبْتُ﴾ [الكهف: ١٧٣].
قوله: إذا حنث ناسياً في الأيمان، وقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾، أرذف الترجمة بالآية؛ ليبين أن الخطأ كالنسيان، والنسيان: هو دھول القلب عن معلوم، والخطأ: هو الجهل بالشيء المعلوم، فالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ لم يُفصِح في الترجمة عن حكم الحنث ناسياً؛ إلا إن إردافه بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ يدل على أنه إذا حنث ناسياً فلا شيء عليه.
والحنث: هو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله. فإذا كان ناسياً فلا كفارة عليه، وإذا كان جاهلاً - وهو المخطئ - فلا كفارة عليه، ولكن عليه أن يتخلص منه إذا ذكر أو علم.

فإذا قال: والله لا ألبس هذا الثوب، ثم لبس ناسياً، ثم ذكر وجب عليه خلعه.
ولو قال: لا والله لا ألبس هذا الثوب ثم لبس يظنه غيره، ثم علم أنه هو وجب عليه خلعه.
ولو حلف ألا يكلم فلاناً، فاتاه رجل فجعل يكلمه وهو لا يدري من هو، ثم تبين له أنه هو. وجب عليه أن يمسك عن كلامه فوراً، وما سبق فليس عليه فيه شيء.



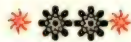
ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٤ - حَدَّثَنَا خَلَا دُبْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، حَدَّثَنَا زُرَّارَةُ بْنُ أَوْفَى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمِّي عَمَّا وَسَّوَسْتُ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ، أَوْ تَكَلَّمْ»^(١).

هذا الحديث فيه: بيان نعمة الله علينا، وهي أن الإنسان إذا حدثته نفسه بشيء ولم يركن

إليه، فإنه مَغْفُورٌ عنه أَيَّا كان هذا الشيء، حتى فيما يَتَعَلَّقُ بِالْخَالِقِ ﷻ، فإذا حَدَّثْتُكَ نَفْسُكَ فِيما يَتَعَلَّقُ بِالْخَالِقِ ﷻ بِشَيْءٍ لَا يَلِيقُ بِهِ ﷻ، ولكنك لم تَرَكْنِ إِلَى هذا الشيء، فإن هذا لَا يَضُرُّكَ، ولكن عليك أَنْ تَسْتَعِيدَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَأَنْ تَنْتَهِيَ عَنْهُ، فَإِنْ رَكَنْتَ إِلَيْهِ صَارَ عَمَلًا قَلْبِيًّا تَوَاخَذُ عَلَيْهِ.

فإن قيل: ما العلاقة بَيْنَ الْبَابِ وَالْحَدِيثِ. فالجواب: أَنَّ الْعَلَاةَ بَيْنَهُمَا: هِيَ أَنَّ حَدِيثَ النَّفْسِ لَا يُؤَاخَذُ الْإِنْسَانُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ أحيانًا بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ، وَبِغَيْرِ إِرَادَتِهِ، فَكَذَلِكَ النِّسيانُ لَمْ يَخْتَرِ الْإِنْسَانُ فِيهِ الْحِنْتَ، وَكَذَلِكَ الْخَطَأُ لَمْ يَقْصِدْ فِيهِ الْإِنْسَانُ الْحِنْتَ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٦٥- حَدَّثَنَا عُمَانُ بْنُ الْهَيْثَمِ - أَوْ مُحَمَّدٌ عَنْهُ - عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ شِهَابٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي عِيسَى بْنُ طَلْحَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ حَدَّثَهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ يَخْطُبُ يَوْمَ النَّحْرِ إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: كُنْتُ أَحْسِبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ قَامَ آخَرَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُنْتُ أَحْسِبُ كَذَا وَكَذَا لِهَؤُلَاءِ الثَّلَاثِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْعَلْ وَلَا حَرَجَ»، لَهْنُ كُلِّهِنَّ يَوْمَئِذٍ، فَمَا سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا قَالَ: «أَفْعَلْ أَفْعَلْ وَلَا حَرَجَ»^(١).

٦٦٦٦- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ زُرْتُ قَبْلَ أَنْ أُرْمَى. قَالَ: «لَا حَرَجَ». قَالَ آخَرُ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أُذْبَحَ. قَالَ: «لَا حَرَجَ». قَالَ آخَرُ: ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أُرْمَى. قَالَ: «لَا حَرَجَ»^(٢).

فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْآخِرِ: بَيَانٌ لِلثَّلَاثَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، وَهِيَ الْمَسَائِلُ الَّتِي سُئِلَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ:

الأولى: قَالَ: زُرْتُ قَبْلَ أَنْ أُرْمَى؛ يَعْنِي: طُفْتُ طَوَافَ الزِّيَارَةِ قَبْلَ الرَّمْيِ؛ أَي: قَبْلَ رَمْيِ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ.

والثانية: قَالَ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أُذْبَحَ، وَالدَّبْحُ يَكُونُ قَبْلَ الْحَلْقِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦].

(١) أخرجه مسلم (١٣٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٠٧).

والثالثة: قال: ذبحت قبل أن أزمي.

❦ وقوله: «لا حَرَجَ»؛ يعني: ليس عليك إثمٌ، وحديثُ عبد الله بن عمرو بن العاص مطلقٌ، وأما حديثُ ابن عباسٍ فهو مقيدٌ.

❦ وقوله ﷺ: «افعل ولا حَرَجَ». من غير أن يَقُولَ: ولا تُعَذِّبْ. يَدُلُّ على أن الترتيبَ بين هذه الأفعال ليس على سبيل الوجوب، وإنما هو على سبيل الاستحباب.

وكان البخاري كان يريد أن يبين الثلاث المذكورة في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بحديث ابن عباس.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٦٧- حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، حَدَّثَنَا عُبيدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يُصَلِّي وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ» فَارْجَعَ فَصَلَّى، ثُمَّ سَلَّمَ، فَقَالَ: «وَعَلَيْكَ، ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ» قَالَ فِي الثَّالِثَةِ: فَأَعْلَمَنِي. قَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ وَاقْرَأْ بِمَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ رَأْسَكَ، ثُمَّ ارْفَعْ رَأْسَكَ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ وَتَطْمِئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»^(١).

الشاهد من هذا: أن الرسول لم يأمره بإعادة ما سبق من صلاته؛ لأنه كان جاهلاً.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٦٨- حَدَّثَنَا قُرُوبَةُ بْنُ أَبِي الْمَغْرَاءِ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: هَزِمَ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ أُحُدٍ هَزِيمَةً تُعْرَفُ فِيهِمْ فَصْرَحَ إِبْلِيسُ: أَيَّ عِبَادِ اللَّهِ أَخْرَأَكُمْ، فَرَجَعَتْ أُولَا هُمْ فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأَخْرَأَهُمْ، فَنَظَرَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ فَيَاذَا هُوَ

بِأَبِيهِ فَقَالَ: أَبِي أَبِي، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا أَنْحَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ. قَالَ عُرْوَةُ: فَوَاللَّهِ مَا زَالَتْ فِي حُذَيْفَةَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ.

الشاهد من هذا الحديث: أنهم قتلوا أبا حذيفة رضي الله عنه جهلاً؛ لأنهم مع شدة القتال لم يعرفوه.
 وقوله: «أبي أبي». ناداهم عليهم السلام؛ لئلا يقتلوا أباه خطأ؛ إلا أنهم مع شدة القتال لم يتبينوا له فقتلوه، ومع ذلك فقد تصدَّق عليهم السلام بدينه على المسلمين.

وقوله: «فما زالت فيه بقية حتى لقي الله». وفي رواية: بقية خير حتى لقي الله. والمعنى يعني: أن هذه القضية اكتسب فيها حذيفة عليه السلام خيراً فصار فيه بقية خير، والإنسان قد يوفق في بعض القضايا، حتى يجعل الله فيه خيراً كثيراً بسببها.

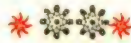


ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمته الله:

٦٦٦٩ - حَدَّثَنِي يُوسُفُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَوْفٌ، عَنْ خِلَاسٍ، وَمُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَكَلَ نَاسِيًا وَهُوَ صَائِمٌ فَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ، فَإِنَّا أَطَعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ» ^(١).

هذا الحديث أيضاً فيه: العفو عن النسيان في فريضة من فرائض الإسلام وهي الصيام، فكذاك يكون العفو في الحنث في اليمين من باب أولى.

والصحيح أيضاً: أن النسيان أو الجهل مَعْفُوٌّ عنهما حتى في الطلاق، فلو قال لزوجته: إن كَلِمَتٍ فَلَانَا فَأَنْتِ طَالِقٌ. فكَلِمَتُهُ نَاسِيَةٌ فَإِنِهَا لَا تُطْلَقُ، حتى ولو أراد الطلاق، وكذلك لو كَلِمَتُهُ جَاهِلَةٌ، فَإِنِهَا لَا تُطْلَقُ ولو أراد الطلاق، وأما إذا أراد اليمين فهي يمينٌ، كما هو معروف.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمته الله:

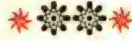
٦٦٧٠ - حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي ذَنْبٍ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ الْأَعْرَجِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُحَيْنَةَ قَالَ: صَلَّى بِنَا النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ فَمَضَى فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ أَنْتَظَرَ النَّاسَ تَسْلِيمَهُ، فَكَبَّرَ وَسَجَدَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ،

ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَسَلَّم^(١).

هذا الحديث أيضًا فيه: العفو عن النسيان، وذلك أنه ترك واجبًا من واجبات الصلاة، لكن لما كان نسيانًا جبره سجود السهو.

وليعلم أن سجود السهو إذا كان عن نقص فإنه يكون قبل السلام، وإذا كان عن زيادة فإنه يكون بعد السلام، وإذا كان عن شك وكان هناك ترجيح فإنه يكون بعد السلام، وإن لم يكن هناك ترجيح فإنه يكون قبل السلام.

فالإنسان إذا نسي وترك واجبًا من واجبات الصلاة فإن صلاته لا تبطل، ولكن عليه سجود السهو قبل السلام.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

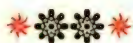
٦٦٧١ - حَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، سَمِعَ عَبْدَ الْعَزِيزِ بْنَ عَبْدِ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا مَنْصُورٌ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الظُّهْرِ فَزَادَ أَوْ نَقَصَ مِنْهَا - قَالَ مَنْصُورٌ: لَا أَدْرِي إِبْرَاهِيمَ وَهَمَ أَمْ عَلْقَمَةُ - قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْصَرْتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ؟ قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالُوا: صَلَّيْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: فَسَجَدَ بِهِمْ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: «هَاتَانِ السَّجْدَتَانِ لِمَنْ لَا يَدْرِي زَادَ فِي صَلَاتِهِ أَمْ نَقَصَ، فَيَتَحَرَّى الصَّوَابَ فَيُتِمُّ مَا بَقِيَ ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ».

هذا الحديث أيضًا فيه: دليل على أن من شك: أصلى ثلاثًا أم أربعًا، فإنه يتحرى الصواب، والصواب هو ما ترجح عنده فيتم ما بقي، ومنه السلام؛ يعني: ويُسَلِّمُ، ثم بعد ذلك يسجد سجدتين.

على هذا: تنبني قاعدة في باب سجود السهو وهي: أن الإنسان إذا شك في عدد الركعات، وتحرى الصواب وبنى عليه، فإنه يسجد بعد السلام.

أما موضوع الحديث: فإنه قد ثبت من غير شك أن النبي ﷺ صَلَّى خَمْسًا، ولما سلم قيل له: أزيد في الصلاة؟ قال: «وما ذاك؟» قالوا: صليت خمسًا وهو صريح.

والشكُّ هنا هو إما من إبراهيم أو من علقمَةَ، لكن غيرهم لم يشكَّ في أن الرسول صلى
خمسًا، فسجد سجدةً بعد ما سلَّم.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٧٢ - حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ
جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي بْنُ كَعْبٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:
﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝﴾ [البقرة: ٧٣]. قَالَ: «كَانَتْ الْأُولَى مِنْ
مُوسَى نَسْيَانًا»^(١).

الشاهد من هذا الحديث: قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ فقد أقر النبي ﷺ ذلك وقال:
«كَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نَسْيَانًا».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٧٣ - قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: كَتَبَ إِلَيَّ مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ: حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ مُعَاذٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ
عَوْنٍ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ - وَكَانَ عَنْدهُمْ ضَيْفٌ لَهُمْ -: فَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ
يَذْبَحُوا قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ؛ لِیَأْكُلَ ضَيْفُهُمْ، فَذَبَحُوا قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَمَرَهُ أَنْ
يُعِيدَ الذَّبْحَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِنْدِي عَنَاقُ جَذَعٍ، عَنَاقُ لَبَنِ هِيَ خَيْرٌ مِنْ شَاتِي لَحْمٍ^(١).
فَكَانَ ابْنُ عَوْنٍ يَقِفُ فِي هَذَا الْمَكَانِ عَنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ، وَيُحَدِّثُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ
بِمِثْلِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَيَقِفُ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَيَقُولُ: لَا أَدْرِي أَبْلَغْتَ الرُّخْصَةَ غَيْرَهُ أَمْ لَا. رَوَاهُ
أَبُو بَرْزٍ، عَنْ ابْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

٦٦٧٤ - حَدَّثَنَا سُليْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ
جُنْدَبًا قَالَ: شَهِدْتُ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى يَوْمَ عِيدٍ، ثُمَّ خَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ ذَبَحَ فَلْيَسِدْ لِمَكَانِهَا،
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَبَحَ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللَّهِ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦١).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦٠).

كَأَنَّ الْبَخَارِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ نَسْيَانِ الْمَأْمُورِ وَالْجَهْلِ بِهِ، وَبَيْنَ نَسْيَانِ الْمَحْذُورِ. وَنَسْيَانُ الْمَحْذُورِ سَبَقَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَإِذَا نُهِيتَ عَنْ شَيْءٍ فَفَعَلْتَهُ فَهَذَا يُسَمَّى: فَعْلٌ مَحْذُورٌ. فَإِذَا نَسِيتَ، فَقَدْ نَسِيتَ فِي فَعْلٍ الْمَحْذُورِ.

وَإِذَا أَمَرْتَ بِشَيْءٍ فَتَرَكْتَهُ، فَهَذَا يُسَمَّى: تَرَكَ مَأْمُورٌ. وَهَذَا تُعَذَّرُ فِيهِ بِالنَّسْيَانِ مِنْ حَيْثُ الْإِثْمُ، أَمَا مِنْ حَيْثُ الْأَدَاءُ فَلَا تُعَذَّرُ، وَلِهَذَا لَوْ سَلَّمْتَ مِنْ رَكَعَتَيْنِ نَاسِيًا فَلَا إِثْمَ عَلَيْكَ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُتِمَّ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ.

فَفِي قِصَّةِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ خَالَه ذَبَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ جَاهِلًا؛ أَي: ذَبَحَ الْأُضْحِيَّةَ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ الْعِيدِ جَاهِلًا، يُظَنُّ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَعْذِرْهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَهْلِ؛ لِأَنَّهُ جَهْلٌ فِي فَعْلٍ مَأْمُورٍ، وَلِهَذَا أَمَرَهُ وَأَمَرَ غَيْرَهُ مِمَّنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ أَنْ يَذْبَحَ بِدَلَّهَا. وَنَظِيرُ ذَلِكَ: لَوْ صَلَّيْتَ قَبْلَ دُخُولِ الْوَقْتِ جَاهِلًا، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الْوَقْتَ لَمْ يَدْخُلْ، وَجَبَ عَلَيْكَ إِعَادَةُ الصَّلَاةِ.

❖ وَقَوْلُهُ: «عِنْدِي عَنَاقُ جَدَعٍ». وَالْعَنَاقُ: هِيَ الصَّغِيرَةُ مِنْ أَوْلَادِ الْمَاعِزِ. وَقَدْ أَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي ذَبْحِهَا، كَمَا فِي غَيْرِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ، وَقَالَ لَهُ: «تُجْزِي عَنْكَ، وَلَا تُجْزِي عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ» لِذَلِكَ فَإِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ هَذَا مِنَ الْخَصِيصَةِ الشَّخْصِيَّةِ؛ يَعْنِي: أَنَّ إِجْزَاءَ الْعَنَاقِ خَاصٌّ بِهَذَا الرَّجُلِ شَخْصِيًّا، وَأَنْ غَيْرَهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَذْبَحَ عَنَاقًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُتِمَّ السَّنَّ الْوَاجِبَ.

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِنَّهُ لَيْسَ فِي الشَّرِيعَةِ تَخْصِيصُ شَخْصِيٍّ، بَلْ إِنَّمَا الْأَحْكَامُ تَتَّبِعُ الْمَعَانِيَ وَالْأَوْصَافَ، فَإِذَا وَجِدْتَ الْمَعَانِيَ وَالْأَوْصَافَ الْمَوْجِبَةَ لِهَذَا الْحُكْمِ ثَبَتَ الْحُكْمُ، حَتَّى خِصَائِصُ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ تَكُنْ خِصَائِصَ لَهُ شَخْصِيَّةً بَلْ هِيَ خِصَائِصٌ مَعْنَوِيَّةٌ بِصِفَتِهِ رَسُولًا وَبِصِفَتِهِ نَبِيًّا ﷺ، فَخَصَّهُ اللَّهُ بِخِصَائِصٍ اقْتَضَاهَا هَذَا الْوَصْفُ، فَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي أَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِذَبْحِ الْعَنَاقِ، يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَوْ أَنَّ شَخْصًا حَصَلَ لَهُ مِثْلُ مَا حَصَلَ لِهَذَا الرَّجُلِ لَقُلْنَا: لَا بَأْسَ.

فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا جَاهِلًا ذَبَحَ أُضْحِيَّتَهُ قَبْلَ الصَّلَاةِ، وَكَانَ عِنْدَهُ عَنَاقُ، فَأَرَادَ أَنْ يَذْبَحَهَا بِدَلَّا عَنْ الَّتِي ذَبَحَهَا؛ لَقُلْنَا لَهُ: إِنَّهَا تُجْزِي عَنْكَ.

ولو أراد أحد أن يذبح هذه العناق ابتداءً لقلنا: لا تُجزئ؛ لقول النبي ﷺ: «لا تذبحوا إلا مُسِنَّةً، إلا أن تغسّر عليكم فتذبحوا جذعةً من الضأن»^(١).

والعناق ليست مُسِنَّةً فلا تُجزئ، لكن تُجزئ عن هذا الرجل الذي ذبح شاته المجزئة خطأ قبل الوقت، وأراد أن يُعيد الأضحية في وقتها، فأذن له الرسول ﷺ.

وما ذهب إليه شيخ الإسلام رحمه الله هو الصحيح؛ أي: أنه لا شيء في الشريعة يُعطى للشخص نفسه دون غيره اخصيصة فيه، بل لما حصل فيه من المعنى الذي أوجب هذا الحكم.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمه الله:

١٦ - بَابُ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ، وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَسْوَأَ يَمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النَّحْلُ: ٩٤].
دَخَلًا: مَكْرًا وَخِيَانَةً.

٦٦٧٥ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ، أَخْبَرَنَا النَّضْرُ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، حَدَّثَنَا فِرَاسٌ قَالَ: سَمِعْتُ الشَّعْبِيَّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ».

[الحديث ٦٦٧٥ - طرفاه في ٦٨٧٠، ٦٩٢٠]

قوله رحمه الله: «بَابُ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ». غَمُوسٌ فَعُولٌ، وهي صيغة مبالغة مشتقة من الغمس، وذلك أن هذه اليمين تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار.

وقد اختلف العلماء رحمه الله هل اليمين الغموس في كل يمين كاذبة، أو أن اليمين الغموس هي ما اقتطع فيها مال امرئ مسلم فقط؟ على قولين لأهل العلم.

والراجع: أنها الثانية؛ أي: أنها هي اليمين التي يُقْتَطَعُ بها مال امرئ مسلم؛ لأنها هي التي ورد فيها الوعيد، كقوله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ يَقْتَطَعُ بِهَا مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهُ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ»^(١).

(١) أخرجه مسلم (١٩٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٧٦)، ومسلم (١٣٨).

أما التي لا تتمُّ ذلك فلا شكَّ أنها عظيمة؛ لأنَّ الكذبَ من حيث هو كذبٌ محرَّمٌ، وهو من كبائر الذنوبِ عندَ بعضِ أهل العلم وإحدى الروايتين عن أحمدَ رَحِمَهُ اللهُ، وإذا كان كذلك فإنه إذا اقترن باليمين الكاذبة صارَ أشدَّ إثماً.

ثم استدَلَّ المؤلفُ رَحِمَهُ اللهُ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنۡخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمۡ﴾ حَلَا؛ يعني: خيانةً ومكرًا؛ أي: أن يَحْلِفَ للشخصِ بالله عَجَلًا وهو ماکرٌ فيه وخادعٌ له، يقولُ اللهُ عَجَلًا في عقوبة هذا: ﴿فَنَزَلَ قَدَمُ بَعْدَ ثَوْبِهَا﴾. قوله: ﴿قَدَمُ﴾ المرادُ به: قدمُ هذا الذي اتَّخَذَ أَيْمَانَهُ دَخَلًا.

❖ وقوله: ﴿وَيَذۡفُقُوا لَشَوۡءٍ مِّمَّا صَدَدْتُمۡ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: بصدُّكم عن سبيلِ اللهِ ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وهذا الذي ذكره اللهُ ﷻ يكون فيما يَجْرِي بينَ الناسِ مِنَ المَعاہِداتِ المؤكِّدةِ بالأيمان، فإن الإنسان إذا اتَّخَذَهَا دَخَلًا فخانَ عَهْدَهُ فلا شكَّ أنه يَنالُ هذا الوعيدَ. ❖ وقوله ﷻ: «الكبائرُ: الإِشْرَاكُ بالله»؛ أي: أن يَتَّخِذَ اللهُ شريكًا في مُلكِهِ، أو في عبادَتِهِ، أو في أَسْمائِهِ وصفَاتِهِ.

❖ وقوله: «وعقوقُ الوالدين»؛ أي: قطعُ برِّهما، وهما الأُمُّ والأبُّ.

❖ وقوله: «قتلُ النفس»؛ أي: التي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِالْحَقِّ.

❖ وقوله: «واليمينُ الغمُوسُ» هذا هو الشاهدُ مِنَ الحديثِ، وقد بيَّنَّا فيما سبقَ معنى اليمينِ الغمُوسِ عندَ أهلِ العلمِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

١٧ - بَابُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشۡرُونَ بِعَهۡدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمۡ ثَمَنًا لَّيۡلًا أَوَّلَ بَلَدٍ لَا خَلۡقَ لَهُمۡ فِي الآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنۡظُرُ إِلَيْهِمۡ يَومَ الۡقِيَمَةِ وَلَا يَزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقوله - جَلَّ ذِكْرُهُ -: ﴿وَلَا تَجۡعَلُوا لِلَّهِ عَرۡضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلُّوا﴾ بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ [النِّسَاءُ: ٢٢٤].

وقوله - جَلَّ ذِكْرُهُ -: ﴿وَلَا تَشۡرُوا بِعَهۡدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنۡدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنۡتُمۡ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [النِّسَاءُ: ٩٥].

﴿وَأَوْفُوا بِعَهۡدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمۡ وَلَا تَنۡقُضُوا الۡأَيْمَانَ بَعۡدَ تَوَكُّدِهَا وَقَدۡ جَعَلَتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمۡ كَفِيلًا﴾ [النِّسَاءُ: ٩١].

٦٦٧٦- حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

فَدَخَلَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ: مَا حَدَّثَكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ فَقَالُوا: كَذَا وَكَذَا. قَالَ: فِي أَنْزَلَتْ، كَانَتْ لِي بَثْرٌ فِي أَرْضِ ابْنِ عَمٍّ لِي، فَاتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: بَيْتُكَ أَوْ يَمِينُهُ. قُلْتُ: إِذَا يَحْلِفُ عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»^(١).

❦ قَوْلُهُ: «يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا»؛ أَي: يَأْخُذُونَ بِالْعَهْدِ وَالْأَيْمَانِ ثَمَنًا قَلِيلًا، فَيُعَاهِدُونَ وَيَعْذِرُونَ مِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا، وَيَحْلِفُونَ وَيَحْثُونَ مِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا. وَمِنْ ذَلِكَ: إِذَا حَلَفَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِي ذِمَّتِهِ لِلْمُدَّعِي شَيْءٌ وَهُوَ كَاذِبٌ، فَهَذَا قَدْ اشْتَرَى بِيَمِينِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

❦ وَقَوْلُهُ: «﴿أَوَلَيْكَ لَخَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾» لَا خَلْقَ؛ أَي: لَا نَصِيبَ. ❦ وَقَوْلُهُ: «﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾»؛ يَعْنِي: تَكْلِيمَ رِضَا، أَمَا تَكْلِيمُ الْغَضَبِ فَإِنَّهُ رِيبًا يُكَلِّمُهُمْ، وَلِهَذَا إِذَا قَالَ أَهْلُ النَّارِ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ١٠٧]. قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ فَيُكَلِّمُهُمْ.

❦ وَقَوْلُهُ: «﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾»؛ أَي: نَظَرَ رَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ النَّظَرِ الْعَامِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَالْمُرَادُ: لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ نَظَرَ رَحْمَةٍ وَرَأْفَةٍ.

❦ وَقَوْلُهُ: «﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾»؛ أَي: لَا يَجْعَلُهُمْ مِنَ الزَّكَاكِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِذَلِكَ، فَلَيْسَ عَنْدهُمْ زَكَاةٌ.

وَبَعْدَ أَنْ نَفَى عَنْهُمْ سُبْحَانَهُ الْخَلْقَ وَالْكَلَامَ، وَالنَّظَرَ، وَالتَّزْكِيَةَ، أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ بِالْأَمْرِ الشَّبُوتِيِّ فَقَالَ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فَهَذَا وَعِيدٌ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - لِمَنْ اشْتَرَى بِعَهْدِ اللَّهِ وَيَمِينِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

وفي حديث أبي ذرٍّ المشهور: أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم» قالها ثلاثاً، فقال أبو ذرٍّ خابوا وخسروا يا رسول الله، من هم؟ قال: «المُسِيْلُ، والمَنَانُ، والمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الكاذِبِ»^(١). المُنْفِقُ؛ يعني: المُرْوجُ، أو الذي يَزِيدُ في ثمن سِلْعَتِهِ بِالْحَلِفِ الكاذِبِ، فهذا ممن اشترى بآيانه ثمناً قليلاً.

❖ وقوله -جلّ ذكره-: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا»؛ أي: لا تَجْعَلُوا الحَلِفَ بالله عُرْضَةً لِأَيَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا؛ يعني: إذا حَلَفْتُمْ عَلَى بَرٍّ فَلَا تَجْعَلُوا هَذَا اليمينَ مانعاً لكم مِنَ البرِّ والتَّقْوَى، والإصلاح بين الناس.

مثاله: قال: والله لا أَصْلِي الضُّحَى اليومَ، ثم قيل له: صلّ، فقال: قد حَلَفْتُ أَلَّا أَفْعَلَ، فنقول: لا تَجْعَلِ اللهُ عُرْضَةً لِأَيَانِكَ أَنْ تَبَرَّ بِأَفْعَلِ البرِّ.

❖ وقوله: «وَتَتَّقُوا»؛ مثاله: قال: والله لَا أَشْرَبَنَّ خَمِراً، فقيل له: اتَّقِ الله لا تَشْرَبْهَا. فقال: قد حَلَفْتُ أَنْ أَفْعَلَ، فنقول له: لا تَجْعَلِ اللهُ عُرْضَةً لِإِيمَانِكَ أَنْ تَتَّقِيَ الله، بل اتَّقِ الله، ولا تَمْنَعَكَ اليمينُ مِنَ التَّقْوَى.

❖ وقوله: «وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ»؛ مثاله: جاء رجلٌ لآخرَ وقال له: سمعتُ أن بينك وبين فلانٍ خصومةٌ، فلعلك تَتَصَالَحُ مع الرجلِ، فالصلحُ خيرٌ، فقال له: ما شأنك بهذا، لا دَخَلَ لك بنا، فقال: والله لا أَصْلِحُ بينهما، ثم جيء لهذا الحالفِ، وقيل له: أما علمتَ يا فلانُ، أن بينَ فلانٍ وفلانٍ مُسَاحَنَةً، قم وأصلح بينهما. فقال: لقد حَلَفْتُ عَلَى أَلَّا أَصْلِحَ بينهما. فنقول له: لا تَجْعَلِ اللهُ عُرْضَةً لِأَيَانِكَ أَنْ تُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ.

هذا هو معنى الآية ولهذا قال النبي ﷺ: «إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خيراً منها فَكْفَرُ عَنْ يَمِينِكَ وَانْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»^(٢).

❖ وقوله: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»؛ أي: سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بأحوالكم.

❖ وقوله -جلّ ذكره-: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» المرادُ بالثمنِ القليل: ما كان من أمرِ الدنيا، فإذا عاهد الإنسانُ ثم غدرَ مِنْ أَجْلِ الدنْيَا، فقد اشترى بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

(١) أخرجه مسلم (١٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

❖ وقوله: ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يعني: إذا وقَّيْتُم بِالْعَهْدِ، ولو على حسابٍ ما يَفُوتُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا، فَلَا يَهْتَمُّكُمْ؛ لِأَن مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ.

❖ ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذه جملةٌ شرطيةٌ؛ يعني: إِنْ كُنْتُمْ مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ، فَإِنْ مَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ.

وهنا يَنْبَغِي أَنْ تَقَفَ فِي الْقِرَاءَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لِأَنَّكَ لَوْ وَصَلْتَ لَكَانَتِ الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ شَرْطًا فِي الْخَيْرِيَّةِ؛ أَي: إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ فَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَعْلَمُ فَلَيْسَ بِخَيْرٍ. مَعَ أَنَّهُ خَيْرٌ سِوَاءَ عِلْمَتِ أَمْ لَمْ تَعْلَمْ.

وهنا إشكالٌ وهو أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تَكْتَبُ فِيهِ (مَا) وَحَدَّاهَا (إِنْ) وَحَدَّاهَا، مَعَ أَنَّهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا مَا يُكْتَبُ جَمِيعًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النَّكَاحُ: ١٥]. فَلَمَّا إِذَا فَصَّلْتَ (مَا) هُنَا عَنْ (إِنْ)؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ (مَا) هُنَا مَوْصُولَةٌ وَ (مَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ مَقْرُونَةٌ بِ (إِنْ) فَإِذَا كَانَتْ (مَا) اسْمًا مَوْصُولًا، فَإِنَّهُ يَجِبُ فَضْلُهَا عَنْ (إِنْ) وَإِذَا كَانَتْ كَافَّةً، فَإِنَّهُ يَجِبُ وَضْلُهَا بِ (إِنْ).

فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا الْقَائِمُ زَيْدٌ. فَهِنَا تُكْتَبُ مَوْصُولَةٌ؛ لِأَنَّهَا أَدَاءُ حَصْرٍ.

وَإِذَا قُلْتَ: إِنْ مَا قَامَ زَيْدٌ. فَإِنَّهَا تَكْتَبُ مَفْصُولَةٌ؛ لِأَنَّهَا هُنَا مَوْصُولَةٌ، وَالْمَعْنَى: إِنْ الَّذِي قَامَ زَيْدٌ.

❖ وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [الْحَافِلُ: ٩١]. الْمُرَادُ: إِذَا عَاهَدْتُمْ أَحَدًا بِاللَّهِ، فَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ.

❖ وقوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وَذَلِكَ حَيْثُ رَبَطْتُمُوهَا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

مِثَالُهُ: أَنْ تَقُولَ لِشَخْصٍ: أَعَاهِدُكَ بِاللَّهِ لِأَفْعَلَنَّ كَذَا. فَهَذَا عَهْدٌ بِاللَّهِ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُؤَفِّيَ بِهِ، وَلَيْسَ كَقَوْلِكَ: أَعَاهِدُكَ أَنْ أَفْعَلَ. فَلَا أَوَّلَ أَغْلَظُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: أَعَاهِدُكَ بِاللَّهِ. فَكَأَنَّكَ جَعَلْتَ اللَّهَ كَفِيلًا عَلَيْكَ، فَلَا تَخُونَنَّ وَلَا تَغْدِرَنَّ بِدِمَّةِ اللَّهِ وَرَجُلٍ وَعَهْدِهِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٧٦ - حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ

عَبْدُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لِقَيِّ اللَّهِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَ ذَلِكَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(١).

٦٦٧٧- فَدَخَلَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: مَا حَدَّثَكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ فَقَالُوا: كَذًا وَكَذَا. قَالَ: فِي أَنْزَلْتُ، كَانَتْ لِي بِئْرِ فِي أَرْضِ ابْنِ عَمٍّ لِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: بَيِّنْ لِي أَوْ يَمِينُهُ، قُلْتُ: إِذَا يَحْلِفُ عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ؛ لِقَيِّ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»^(٢).

هذا الحديث سبق الكلام على شيء منه وفيه دليل على وقوع الخصومة بين الأقارب وأنها لا تنكر؛ لأن النبي ﷺ لم ينكر على الأشعث بن قيس الخصومة مع ابن عمه.

وفيها أيضًا من الفقه: أنه ليس للمدعي إلا يمين المدعى عليه إذا لم يكن للمدعي بينة، حتى وإن كان متهماً بالكذب؛ لأن الأشعث لما قال: إذن يحلف عليها. بين له النبي ﷺ أنه إذا حلف كاذباً فعليه هذا الوعيد، ولم يقل: إذن لك ما ادعيت به.

ومن فوائد هذا الحديث: أنه يُسأل المدعي أولاً: هل لك بينة أم لا؟ فإذا قال: لي بينة أقامها، وإلا حلف المدعى عليه.

واختلف العلماء: هل للقاضي أن يحلف المدعى عليه من غير طلب المدعي، أو لا بد أن يطلب المدعي؟

فمن العلماء من قال: إن للقاضي أن يحلف المدعى عليه وإن لم يسأل المدعي. ومنهم من قال: لا يحلفه إلا إذا طلب المدعي ذلك.

فمثلاً: إذا قال للمدعي: هل لك بينة؟ فقال: لا. فهل يوجه اليمين إلى المدعى عليه ويقول: احلف أن المدعي لا يستحق عليك شيئاً. أو ينتظر حتى يقول المدعي حلفه؟ من نظر إلى قرينة الحال قال: إنه لا يحتاج إلى طلب المدعي؛ لأن الحال تقتضي أن المدعي يطلب اليمين.

(١) أخرجه مسلم (١٣٨).

(٢) انظر التعليق السابق.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى ظَاهِرِ سِيَاقِ الْقَضِيَّةِ قَالَ: إِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَطْلُبَ الْمُدَّعِي الْيَمِينَ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ لَهُ. ثُمَّ إِذَا حَلَفَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ: فَهَلْ تَكُونُ الْيَمِينُ مَزِيلَةً لِلْحَقِّ، أَوْ هِيَ قَاطِعَةٌ لِلخُصُومَةِ؟

نَقُولُ: الثَّانِي، فَالْيَمِينُ تَقْطَعُ الْخُصُومَةَ، وَتُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ وَتُنْهِي الْقَضِيَّةَ، فَلَوْ قَامَتِ بَيِّنَةٌ بَعْدَ الْيَمِينِ بِصَحَّةِ مَا قَالَ الْمُدَّعِي، فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ بِالْبَيِّنَةِ وَيُحْكَمُ لِلْمُدَّعِي بِهَا.

فَإِذَا قَالَ الْمُدَّعِي: لَيْسَ لِي بَيِّنَةٌ. ثُمَّ أَقَامَ بَيِّنَةً بَعْدَ ذَلِكَ فَهَلْ تُقْبَلُ؟

قَالَ الْفُقَهَاءُ: لَا تُقْبَلُ؛ لِأَنَّ إِقَامَتَهَا بَعْدَ قَوْلِهِ: لَيْسَ لِي بَيِّنَةٌ. تَنَاقُضُ، فَإِنَّهُ نَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ بَيِّنَةٌ أَوْ لَا فَكَيْفَ يُقِيمُهَا الْآنَ؟ بَلْ نَقُولُ لَهُ: أَنْتَ قَدْ أَكْذَبْتَ نَفْسَكَ، لَكِنْ لَوْ كَانَ ذَكِيًّا وَقَالَ: لَا أَعْلَمُ لِي بَيِّنَةٌ، ثُمَّ أَقَامَهَا بَعْدُ؛ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الْعِلْمِ لَا يَقْتَضِي الْعَدَمَ، وَهُوَ يَقُولُ: لَا أَعْلَمُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ نَسِيَهَا، أَوْ قَدْ تَكُونُ الْبَيِّنَةُ شَهِدَتْ، وَهُوَ لَمْ يَذَرِهَا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا إِذَا قَالَ: لَمْ يَكُنْ لِي بَيِّنَةٌ.

وَلَكِنْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قَالَ: إِنَّهُ إِذَا صَدَرَتْ كَلِمَةٌ: لَيْسَ لِي بَيِّنَةٌ مِنْ عَامِّي ثُمَّ أَقَامَ الْبَيِّنَةَ بَعْدُ، فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بِالْبَيِّنَةِ؛ لِأَنَّ الْعَامِّيَّ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ قَوْلِهِ: لَا أَعْلَمُ. وَبَيْنَ قَوْلِهِ: لَيْسَ لِي بَيِّنَةٌ. فَقَدْ يَقُولُ: لَيْسَ لِي بَيِّنَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ.

وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ؛ أَنَّهُ إِذَا قَالَ: لَيْسَ لِي بَيِّنَةٌ. وَعَلِمْنَا مِنْ قَرَائِنِ الْحَالِ أَنْ مَرَادَهُ بِذَلِكَ: أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ لِنَفْسِهِ بَيِّنَةً ثُمَّ أَقَامَهَا بَعْدُ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ.

❦ وَقَوْلُهُ: «مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ» هَلْ يَخْرُجُ بِهِ مَالُ الْمُعَاهَدِ؟ أَوْ نَقُولُ: إِنْ هَذَا خَرَجَ بِنَاءً عَلَى الْأَغْلَبِ؟

نَقُولُ: الثَّانِي فِيهَا يَظْهَرُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَالِ الْمُعَاهَدِ مُحْتَرَمٌ كَمَا لِلْمُسْلِمِ، وَإِنْ كَانَ مَالُ الْمُسْلِمِ أَقْوَى حُرْمَةً، وَلَكِنَّ الْمُعَاهَدَ قَدْ عُوْهِدَ مِنْ قِبَلِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُ مُؤَمَّنٌ عَلَى مَالِهِ وَنَفْسِهِ.

وَهَلْ يُقَاسُ عَلَى يَمِينِ الْكَافِرِ الشَّهَادَةُ؟

فَالْجَوَابُ: تُقْبَلُ شَهَادَةُ الْكُفَّارِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَتُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْلِمِ فِي مَسْأَلَةٍ مَعِينَةٍ، ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَدْنَا...﴾ [الْمَائِدَةُ: ١٠٦].

فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلْ هَذِهِ خَاصَّةٌ بِالْوَصِيَّةِ فِي حَالِ السَّفَرِ إِذَا لَمْ يَوْجَدْ مُسْلِمٌ؟ أَوْ أَنَّ عَامَّ لِكُلِّ ضَرُورَةٍ؟ وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَمِيلُ إِلَى هَذَا، إِلَى أَنَّ شَهَادَةَ الْكَافِرِ مَقْبُولَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَعَدَّرَتْ

فيه شهادة المسلم، وهذا الآن يقع كثيراً، فقد تكون القضية في شركة كل مَنْ فيها كُفَّار، ويقع بين رجلين عقد، وليس عندهم إلا هؤلاء الكُفَّار، فمن عَمَمَ، قال: يشمل الوصية وغيرها، ومن خصَّها وقال: إن الأصل أن شهادة الكافر باطلة أي مردودة خصَّها بالوصية ^(١).

وفي الحديث: إثباتُ صفةٍ من صفاتِ الله ﷻ يُنْكِرُهَا أَهْلُ التَّعْطِيلِ، وهي: الغضبُ، فالغضبُ من صفاتِ الله ﷻ، وهو دليلٌ على القُوَّةِ والسُّلْطَةِ؛ لأنَّ الغاضِبَ إِنَّمَا يَغْضَبُ لِقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، بخلافِ الحُزَنِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِالْحُزَنِ؛ لأنَّ الحُزْنَ صِفَةٌ نَقْصٍ، فلا يُوصَفُ اللَّهُ بها، أما الغضبُ فهو صِفَةٌ قُوَّةٍ.

ولهذا لو ضربك شخصٌ أقوى منك لحزنتَ، لكن لو كان مثلك، أو دونك، لغضبتَ، واحمرَّت عينك، ولربوت عليه حتى تصير فوقه مثل الجبل، ثم بطشتَ به.

إذًا: فالغضبُ صِفَةٌ كَمَالٍ فِي مَحَلِّهِ، ولذلك يُوصَفُ اللَّهُ به إذا انتهكت حرُماته ﷻ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٨ - باب اليمين فيما لا يملك، وفي المعصية، وفي الغضب
هذه الترجمة فيها ثلاثة مسائل:

الأولى: اليمينُ فيما لا يملكُ وذلك مثلُ أن يقولَ: واللَّهِ لأَعْتِقَنَّ عَبْدَ فُلَانٍ. أو: واللَّهِ لأُطَلِّقَنَّ امْرَأَةَ زَيْدٍ. أو: واللَّهِ لأَبِيعَنَّ مَالَ فُلَانٍ وهو لا يملكُ. فهل يَنْعَقِدُ هذا اليمينُ أو لا يَنْعَقِدُ؟

منهم مَنْ يَقُولُ: إن اليمينَ تَنْعَقِدُ، وأنه إذا لم يُوفَّ به فعليه الكفَّارَةُ.
ومنهم مَنْ يَقُولُ: إنها لا تَنْعَقِدُ.

وَيَبْنِي عَلَى ذَلِكَ: ما لو اشترى العبدَ الذي حَلَفَ عَلَى عِتْقِهِ وهو لغيره ولم يَعْتِقْه، فهل يَحْنُثُ فِي يَمِينِهِ أو لا يَحْنُثُ؟

(١) سئل الشيخ الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ ما الراجح في هذا؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا حكيت القولين، ولم أرجح بينهما، فهذا لأنِّي لم يترجح عندي شيء، وقد قلتُ لكم هذا قبل: أنا لن أبخل عليكم إذا رجحتُ شيئاً أن أقول: «هو الراجح»، ولكن إذا لم يترجح أذكر القولين، وأنتم - إن شاء الله - إذا كبرتم تُرْجِّحُون.

إن قلنا: إن اليمينَ مُنْعَقِدَةٌ ولم يَعْتِقْهُ حَنْثٌ.
وإن قلنا: غيرُ مُنْعَقِدَةٍ، فإنه لا يَحْنُثُ.

المسألة الثانية: اليمينُ في المعصية: هل تَنْعَقِدُ أو لا؟

مثاله: حَلَفَ شَخْصٌ أَنْ يَشْرَبَ خَمْرًا. فهل تَنْعَقِدُ يَمِينُهُ أو لا تَنْعَقِدُ؟
نَقُولُ: مِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّهُ لَا يُبَاحُ لَهُ أَنْ يَشْرَبَ الْخَمْرَ، وَالْحَرَامُ لَا يُبَاحُ بِالْيَمِينِ، وَلَوْ قُلْنَا بِإِبَاحَةِ
الْحَرَامِ بِالْيَمِينِ لَكَانَ كُلُّ شَخْصٍ يُرِيدُ الْحَرَامَ يَحْلِفُ؛ لَيْسَتِيَّحَهُ، فَنَقُولُ: لَا تَشْرَبُ الْخَمْرَ.
لَكِنْ هَلْ تَنْعَقِدُ يَمِينُهُ وَتَلْزِمُهُ كَفَّارَةٌ أو لا؟ فِي هَذَا خِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ.

فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ يَمِينَهُ تَنْعَقِدُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَ الْمَعْصِيَةَ، وَعَلَيْهِ الْحَنْثُ. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ.
المسألة الثالثة: اليمينُ فِي الْغَضَبِ؛ أَي: أَنْ يَحْلِفَ الْإِنْسَانُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ غَضَبَانُ،
تَقُولُ لَهُ مَثَلًا: يَا فُلَانُ، اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ وَزُرْهُ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ طَيِّبٌ - وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ -
فَغَضِبَ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَزُورُهُ، ثُمَّ زَارَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهَلْ يَحْنُثُ وَتَلْزِمُهُ الْكَفَّارَةُ أو لا؟
نَقُولُ: الْغَضَبُ لَهُ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ: أُولَى، وَوُسْطَى، وَغَايَةٌ.

فَالأُولَى: هِيَ الْغَضَبُ الْيَسِيرُ الَّذِي يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِيهِ.
وَالْغَايَةُ هِيَ: الْغَضَبُ الْكَثِيرُ الَّذِي لَا يَدْرِي الْإِنْسَانُ فِيهِ هَلْ هُوَ فِي السَّمَاءِ أو فِي الْأَرْضِ،
وَهَلْ هُوَ ذَكَرٌ أو أُنْثَى.

وَالْوُسْطَى: تَكُونُ بَيْنَ ذَلِكَ؛ أَي: أَنَّهُ يَعْقِلُ، لَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ.
أَمَّا الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: فَلَا شَكَّ فِي اعْتِبَارِ الْقَوْلِ فِيهَا؛ لِأَنَّهُ يَمْلِكُ نَفْسَهُ، وَالْغَضَبُ مِنَ طِبَاعِ ابْنِ آدَمَ.
وَأَمَّا الثَّانِيَةُ وَهِيَ الْغَايَةُ: فَإِنَّهُ لَا عِبْرَةَ بِالْقَوْلِ فِيهَا بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، فَكُلُّ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ:
هَذَا لَيْسَ لِقَوْلِهِ حَكْمٌ إِطْلَاقًا؛ لِأَنَّهُ يُشَبِّهُ الْمَجْنُونَ، فَهُوَ لَمْ يُرِدِ اللَّفْظَ، وَلَمْ يُرِدِ الْمَعْنَى.
وَأَمَّا الْوُسْطَى: فَهَذِهِ مَحَلُّ خِلَافٍ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَالصَّحِيحُ: أَنْ مَا يَشْتَرِطُ فِيهِ الْاخْتِيَارُ، فَإِنَّهُ لَا
عِبْرَةَ فِيهِ بِقَوْلِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ؛ أَي: أَنْ الَّذِي لَا يَقَعُ حَالُ الْإِكْرَاهِ لَا يَقَعُ فِي حَالِ الْغَضَبِ هَذِهِ؛ لِأَنَّ
هَذَا لَهُ مُكْرَهٌُ دَاخِلٌ وَهُوَ نَفْسُهُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا طَلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ»^(١). هَذَا هُوَ
التَّفْصِيلُ فِي مَسْأَلَةِ الْغَضَبِ.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٢١٩٣)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٠٤٦)، وَأَهْمَدُ (٢٧٦/٦).

وعلى هذا: لو حلف في المرتبة الأولى تَنَعَّدُ يمينه.
وإذا حلف في الوسطى فالصحيح: أنها لا تَنَعَّدُ يمينه.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٧٨ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدٍ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: أَرْسَلَنِي أَصْحَابِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَسْأَلُهُ الْحُمْلَانَ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَحْمِلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَوَافَقْتُهُ وَهُوَ غَضَبَانٌ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ قَالَ: انْطَلِقْ إِلَى أَصْحَابِكَ فَقُلْ: إِنَّ اللَّهَ - أَوْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يَحْمِلُكُمْ ^(١).

هذا الحديث فيه: دليل على أن اليمين تَنَعَّدُ في حال الغضب؛ لقوله: «والله لا أحملكم على شيء» ولكن المراد بالغضب هنا غضب المرتبة الأولى فيما يَظْهَرُ؛ لأنه يَبْعُدُ أن النبي ﷺ يَصِلُ إلى المرتبة الثانية، أو الثالثة من الغضب.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٧٩ - حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ، عَنْ صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ. ح وَحَدَّثَنَا الْحَجَّاجُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ النُّمَيْرِيُّ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ الْأَيْلِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ، وَعَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ، وَعَبِيدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْةَ، عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا، فَبَرَّأَهَا اللَّهُ بِمَا قَالُوا - كُلُّ حَدِيثِي طَائِفَةٌ مِنَ الْحَدِيثِ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَا الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النِّسَاءُ: ١١].
الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلُّهَا فِي بَرَاءَتِي، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: - وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ - وَاللَّهُ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ [النِّسَاءُ: ٢٢]. الْآيَةُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا عَنْهُ أَبَدًا ^(٢).

(١) أخرجه مسلم (١٦٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٧٠).

هذا الحديث أيضًا فيه: دليل على انعقاد اليمين حال الغضب؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ﴾ فجعل لها اعتبارًا، ومن المعلوم: أن الغضب الذي أصاب أبا بكر رضي الله عنه من المرتبة الأولى، فلا شك أنه غضب على مسطح بن أثاثه رضي الله عنه حيث قال في ابنته عائشة ما قال مع قرابته؛ لأنه كان ابن خالته، وهذا القول لا شك أنه يغضب، فحلف ألا ينفق عليه، فلما أنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ ويدخل في ذلك أبو بكر رضي الله عنه ﴿أَنْ يُوْتُوا أُولَى الْقُرْبَى﴾ مثل مسطح، واليتامى، والمساكين، والمهاجرين في سبيل الله ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾. قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾؛ أي: لا يؤاخذوا بالذنب رضي الله عنه ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾؛ أي: يعرضوا عنه وهو مأخوذ من صفحة العنق؛ لأن الإنسان إذا ولّى عنك قابلتك صفحة عنقه. وإنما قرن سبحانه العفو بالصفح في الآية؛ لأن العفو قد لا يكون فيه الصّفْحُ، فقد يعفو الإنسان عن المؤاخذه، لكن لا يزال يذكر الذنب، فإذا عفا وصفح لم يؤاخذ بالذنب، وكأنه ما حدث عليه.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الله أكبر! هذا عرض من الله عز وجل بهذا الرّفقِ واللين. والجواب: بلى، والله يحب أن يغفر الله لنا، وترجو الله ذلك. وقوله: «قال أبو بكر: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي»، فرجع النّفقة؛ يعني: ردّها. وقوله: «رجع النّفقة» بالنصب؛ لأن (رجع) تستعمل لازماً ومتعدياً فيقال: رجعت من السفر فهذه لازمة، وقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ﴾ [التوبة: ٨٣]. أي: ردك، وهذه متعدية والكاف في قوله: ﴿رَجَعَكَ﴾ مفعول به. وقوله: والله لا أنزعها منه أبداً. فعل ذلك رضي الله عنه؛ لأنه يحب أن يغفر الله له.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رحمته الله:

٦٦٨٠ - حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ الْقَاسِمِ، عَنْ زَهْدَمٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. فَقَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ، فَوَافَقْتُهُ وَهُوَ غَضَبَانُ، فَاسْتَحْمَلْنَاهُ فَحَلَفَ أَنْ لَا يَحْمِلَنَا، ثُمَّ قَالَ: «وَاللَّهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَخْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا». قد سبق الكلام على هذا الحديث.

ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

١٩- بَابُ إِذَا قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ الْيَوْمَ، فَصَلَّى، أَوْ قَرَأَ، أَوْ سَبَّحَ، أَوْ كَبَّرَ، أَوْ حَمِدَ، أَوْ هَلَّلَ فَهُوَ عَلَى نِيَّتِهِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْضَلُ الْكَلَامِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ». قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ: ﴿تَمَازُوا إِلَيَّ كَلِمَةً سَوَّامَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [الْعَلَلَةُ: ٦٤]. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كَلِمَةُ التَّقْوَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

٦٦٨١- حَدَّثَنَا أَبُو السَّيَّانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»^(١).

٦٦٨٢- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، حَدَّثَنَا عُمَارَةُ بْنُ الْقَعْقَاعِ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(٢).

٦٦٨٣- حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ شَقِيقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْثَدَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلِمَةٌ وَقُلْتُ أُخْرَى قَالَ: «مَنْ مَاتَ يَجْعَلُ لِلَّهِ نِدَاً أُدْخِلَ النَّارَ، وَقُلْتُ أُخْرَى: «مَنْ مَاتَ لَا يَجْعَلُ لِلَّهِ نِدَاً أُدْخِلَ الْجَنَّةَ».

هذا الباب أراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَبَيِّنَ فِيهِ هَلِ الْكَلَامُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَشْمَلُ الذِّكْرَ أَوْ لَا يَشْمَلُهُ؟ فَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ عَلَى نِيَّةِ الْإِنْسَانِ، فَإِذَا قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ الْيَوْمَ. فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَلَّا يَتَكَلَّمَ كَلَامَ إِنْسَانٍ لَمْ يَحْتِثْ بِالْقِرَآنِ، وَلَا بِالذِّكْرِ، وَلَا بِالصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُسَمَّى كَلَامَ إِنْسَانٍ. وَإِنْ أَطْلَقَ أَوْ أَرَادَ التَّعْمِيمَ؛ يَعْنِي: أَرَادَ أَيَّ كَلِمَةٍ تَكُونُ مِنْ لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ عَلَى نِيَّتِهِ.

ثُمَّ اسْتَشْهَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَفْضَلُ الْكَلَامِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»؛ يَعْنِي: أَفْضَلُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ النَّاسُ هُوَ هَذِهِ الْأَرْبَعُ، وَأَمَّا الْقِرْآنُ: فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهَا؛ لِأَنَّ الْقِرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ؛ أَي: تَكَلَّمَ بِهِ. فَسَمَّى النَّبِيُّ ﷺ هَذَا التَّسْبِيحَ، وَالتَّحْمِيدَ، وَالتَّهْلِيلَ، وَالتَّكْبِيرَ، كَلَامًا.

(١) أخرجه مسلم (٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٤).

❖ وقوله: «وَكَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾»، وهي: ﴿أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

❖ وقوله: «وقال مجاهد: كلمة التقوى: لا إله إلا الله». وهذا يدل على أن الذكر يُسمى كلامًا. ثم استشهد بالأحاديث التي وصلها: وهي قول الرسول ﷺ لهما حَضَرَتْ أَبَا طَالِبَ الْوَفَاءُ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةُ أَحَاجَّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، «أَحَاجَّ» بالفتح، ويُقال بالرفع: «أَحَاجَّ» فعلى الفتح تَكُونُ جَوَابًا لِكَلِمَةِ: «قُلْ» وهي مجزومة، وحُرِّكَتْ بِالْفَتْحِ لِلتَّخْفِيفِ، أَوْ لِلاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ، وَعَلَى رَوَايَةِ الرَّفْعِ: «أَحَاجَّ» تَكُونُ صَفَةً لـ «كَلِمَةٍ».

والمعنى: أن الرسول ﷺ أَمَرَ عَمَّهُ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. لعلها تَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، وَلَكِنْ هَذَا الْعَمُّ كَانَتْ قَدْ سَبَقَتْ لَهُ الشَّقَاوَةُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَدْ تَأَهَّبَ قَالَا لَهُ: أَتَرَعَّبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهِيَ مِلَّةُ الشُّرْكِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَمَاتَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، فَسَفَعَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ اللَّهِ فَكَانَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ أَشَدُّهُمْ عَذَابًا.

الشاهد من هذا: أن الرسول ﷺ سَمَّى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً.

ثم ذَكَرَ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي خَتَمَ بِهِ الْمُؤَلَّفُ كِتَابَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ» مَا أَوْلَانَا أَنْ نَقُولَ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ دَائِمًا؛ لِأَنَّهُمَا حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ جَلًّا، فَالَّذِي يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَسْتَعِْلَ الْفُرْصَةَ مَا دَامَ هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ ﷻ فَنَجْعَلُهُمَا دَائِمًا عَلَى أَلْسِنَتِنَا، وَهَمَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ» وَكَأَنَّهُمَا شَطْرٌ مِنْ بَيْتِ رَجُلٍ مِنْ خِفَّتَيْهَا.

فأكثِرْ مِنْهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ ﷻ.

والشاهد من هذا الحديث: قوله: «كَلِمَتَانِ» حَيْثُ سَمَّى هَذَا التَّسْبِيحَ كَلَامًا.

❖ وقوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ». قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْوَاوَ هُنَا لِلْحَالِ؛ يَعْنِي: أَسْبَحَ اللَّهُ، وَالْحَالُ أَنْ تَسْبِيحِي مَصْحُوبٌ بِالْحَمْدِ، وَالْبَاءُ يُقَالُ: إِنَّهَا لِلْمَصَاحِبَةِ، فَيَجْمَعُ الْإِنْسَانُ فِي قَوْلِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ بَيْنَ التَّنْزِيهِ وَالتَّمْجِيدِ وَالثَّنَاءِ، فَالتَّنْزِيهُ فِي قَوْلِهِ: «سُبْحَانَ» وَالتَّمْجِيدُ وَالثَّنَاءُ فِي قَوْلِهِ: «وَبِحَمْدِهِ»؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ، ثَابِتَةٌ لَهُ صِفَاتُ الْكَمَالِ.

ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: كلمة، وهي: «مَنْ مَاتَ يَجْعَلُ اللَّهُ نِدًّا أُدْخِلَ النَّارَ» وقال هو رضي الله عنه كلمة وهي: مَنْ مَاتَ لَا يَجْعَلُ اللَّهُ نِدًّا أُدْخِلَ الْجَنَّةَ. فابن مسعود رضي الله عنه أخذ من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ مَاتَ يَجْعَلُ اللَّهُ نِدًّا أُدْخِلَ النَّارَ» المفهوم لهذا المنطوق وهو أن العكس بالعكس؛ أي: أَنْ مَنْ مَاتَ لَا يَجْعَلُ اللَّهُ نِدًّا أُدْخِلَ الْجَنَّةَ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أليس هناك حَالٌ وَسَطٌ بَيْنَ النَّارِ وَالْجَنَّةِ؟

فالجواب: لا؛ لأنه ليس ثَمَّ إِلَّا دَارَانِ: إِمَّا نَارٌ، وَإِمَّا جَنَّةٌ، فَمَنْ نَجَا مِنَ النَّارِ دَخَلَ الْجَنَّةَ. فهذه هي الأحاديث والآثار التي ذكرها المؤلف رحمته الله تدلُّ على أن التسبيح والتحميد كلامٌ، وأن الإنسان إذا قال: وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ الْيَوْمَ فَسَبِّحْ وَحَمِّدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ، فَإِنَّهُ يَكُونُ حَانِثًا.

وفي هذا: دليلٌ على أن الكلمة في اللغة العربية هي الجملة المفيدة، وأن قول ابن مالك في الألفية:

*** وَكَلِمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤْم ***

هذا على اصطلاح النَّحْوِيِّينَ، أما في اللغة: فالكلمة هي الجملة المفيدة، فقد تَكُونُ خُطْبَةً مِنْ صَفَحَاتٍ تُسَمَّى كَلِمَةً، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ [الْمُؤْتَفِكَةُ: ٩٩]. مع أنها كَلِمَاتٌ وهي: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وَسَمَّاها اللَّهُ كَلِمَةً؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ غَيْرُهَا فِي اصْطِلَاحِ النَّحْوِيِّينَ.

وفي هذا: دليلٌ على أن النية تُخَصِّصُ الْعَامَّ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَمَنْ نَوَى بِالْعَامِّ خَاصًّا فَهُوَ عَلَى نِيَّتِهِ.

فلو قال رجلٌ: زَوَّجَتِي طَوَالِقَ وَلَهُ أَرْبَعُ زَوَّجَاتٍ، وَقَالَ: نَوَيْتُ ثَلَاثًا مِنْهُنَّ فَقَطْ، فَالْأَرْبَعَةُ لَا تُطَلَّقُ؛ لِأَنَّهُ خَصَّصَ الْعَامَّ بِالنِّيَّةِ.

ولو قال: وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ وَهُوَ يُرِيدُ أَلَّا يَتَكَلَّمَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ فَقَطْ، فَإِنَّهُ لَا يَحْتَسِبُ إِذَا تَكَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ آخَرَ؛ لِأَنَّ النِّيَّةَ تَقْيِدُ الْمُطْلَقَ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٠- بَابُ مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَدْخُلَ عَلَى أَهْلِهِ شَهْرًا، وَكَانَ الشَّهْرُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ.

٦٦٨٤- حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ نِسَائِهِ، وَكَانَتْ انْفَكَّت رِجْلُهُ، فَأَقَامَ فِي مَشْرِيبَةٍ تِسْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ نَزَلَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آلَيْتَ شَهْرًا، فَقَالَ: «إِنْ الشَّهْرُ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ»^(١).

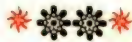
❦ قَوْلُهُ: «إِنْ الشَّهْرُ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ»، أَي: وَهَذَا الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الشَّهْرُ هَكَذَا، وَهَكَذَا، وَهَكَذَا» وَقَبِضَ إِهَامَهُ فِي الثَّالِثَةِ^(٢)؛ يَعْنِي: تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَيَكُونُ أَيْضًا ثَلَاثِينَ، وَعِنْدَ الشُّكِّ يُكْمَلُ ثَلَاثِينَ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ»^(٣).



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢١- بَابُ إِذَا حَلَفَ أَنْ لَا يَشْرَبَ نَبِيذًا، فَشَرِبَ طِلَاءً، أَوْ سَكْرًا، أَوْ عَصِيرًا لَمْ يَحْنُثْ فِي قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ وَلَيْسَتْ هَذِهِ بِأَنْبِذَةٍ عِنْدَهُ.

❦ قَوْلُهُ: «فِي قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ». الْغَالِبُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ إِذَا قَالَ: بَعْضُ النَّاسِ فَإِنَّهُ يُكْنَى بِذَلِكَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٨٥- حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ سَمْعٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ، أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّ أَبَا أُسَيْدٍ صَاحِبَ النَّبِيِّ ﷺ أَعْرَسَ، فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ لِغُرْسِهِ، فَكَانَتْ الْعُرُوشُ خَادِمَهُمْ، فَقَالَ سَهْلٌ لِلْقَوْمِ: هَلْ تَدْرُونَ مَا سَقَتُهُ؟ قَالَ: أَنْقَعَتْ لَهُ تَمْرًا فِي تَوْرِ مِنَ اللَّيْلِ، حَتَّى أَصْبَحَ عَلَيْهِ فَسَقَتُهُ إِيَّاهُ^(٤).

(١) أخرجه مسلم (٢٥١٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٨)، ومسلم (١٠٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٠٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم (١٠٨١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٠٦).

وجه ذلك: أن النبيذ يَكُونُ مِنَ التمر، وهو كذلك فالنبيذ يَكُونُ مِنَ التمر، وَيَكُونُ مِنَ الزَّبِيب، وصورة ذلك أن ينبذ التمر في الماء وَيَبْقَى لمدّة يوم، أو يوم وليلة، وربما يَبْقَى أَكْثَرَ في البلاد الباردة، وذلك من أجل أن يَكْتَسِبَ الماءُ مِنْ حلاوة هذا المُنْبُوذ، ولأن الفضلات التي تكون في الماء يَمْتَصُّهَا التمرُ فَيَخْرُجُ الماءُ نَقِيًّا حُلُومًا.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٨٦ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مِقَاتٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عِكْرَمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ سَوْدَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: مَاتَتْ لَنَا شاةٌ فَدَبَغْنَا مَسْكَهَا^(١)، ثُمَّ مَا زِلْنَا نَنِيذُ فِيهِ حَتَّى صَارَتْ شَنًّا.

في هذا الحديث من الفوائد: أن جِلْدَ المِيتَةِ يَطْهَرُ بِالدَّبْغِ؛ لأنها صَارَتْ تَنِيذٌ فِيهِ؛ يعني: صَارَتْ تَجْعَلُ فِيهِ الماءَ والتمرَ، حَتَّى صَارَ شَنًّا.

وفي هذا: دليلٌ على ضَعْفِ القولِ بأن جِلْدَ المِيتَةِ لَا يَطْهَرُ بِالدَّبْغِ، وإنما يُسَاحُ استعماله في اليَابَسَاتِ فَقَطْ، فإن هذا القولُ ضَعِيفٌ، والصوابُ: أَنَّهُ يَطْهَرُ بِالدَّبْغِ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ استعماله في المَائِعَاتِ والجَامِدَاتِ.

وقد اختلفَ العلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي جِلْدِ مَا لَا يُؤْكَلُ، كَجِلْدِ الذَّنْبِ، والسَّبْعِ، وما أَشَبَّهَا. فَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ يَطْهَرُ بِالدَّبْغِ أَيْضًا؛ قِيَاسًا عَلَى طَهَارَةِ جِلْدِ المِيتَةِ بِالدَّبْغِ؛ لِأَن جِلْدَ المِيتَةِ صَارَ بِمَوْتِهَا نَجَسًا، فَكَذَلِكَ جِلْدُ مَا لَا يُؤْكَلُ يَكُونُ نَجَسًا، فَإِذَا دُبِغَ صَارَ طَاهِرًا. وَلَكِنَّ الرَّاجِحَ: أَنَّهُ لَا يَطْهَرُ بِالدَّبْغِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْفَاضِلِ الْحَدِيثِ: «دَبَاغُ جُلُودِ المِيتَةِ ذَكَاتُهَا»^(٢). وَالدَّكَاءُ إِنَّمَا تَوَثَّرَ فِي مَا كُودِ اللَّحْمِ.

وأيضًا: لَا يَصِحُّ الْقِيَاسُ مِنْ جِهَةٍ أَنَّ الْأَصْلَ أَقْوَى نَجَاسَةً مِنَ الْفَرْعِ؛ لِأَنَّ جِلْدَ الْمَأْكُولِ إِنَّمَا تَنْجُسُ بِالمَوْتِ نَجَاسَةً طَارِئَةً، وَالْأَصْلُ فِيهِ الطَّهَارَةُ، أَمَا جِلْدُ مَا لَا يُؤْكَلُ فَنَجَاسَتُهُ أَصْلِيَّةٌ فَهُوَ أَقْوَى، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَاسَ الْأَقْوَى عَلَى الْأَضْعَفِ، فَإِذَا كَانَ الْأَضْعَفُ مِمَّا يَطْهَرُ بِالدَّبْغِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَطْهَرُ بِالدَّبْغِ، هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ فِي الْمَسْأَلَةِ.

(١) ورد في بعض النسخ «مسكها» بسكون السين المهملة، والصواب ما أثبتناه.

(٢) أخرجه النسائي (٤٢٥٦، ٤٢٥٧)، وأحمد (٤٧٦/٣)، وابن حبان (١٢٩٠)، والدارقطني (١/٤٤).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/٥٦٩، ٥٧٠):

❖ قَوْلُهُ: «بَابٌ إِذَا حَلَفَ أَنْ لَا يَشْرَبَ نَبِيذًا فَشَرِبَ طِلَاءً». فِي رَوَايَةٍ: الطَّلَاءُ بزيادةِ لَامٍ.

❖ قَوْلُهُ: «أَوْ سَكْرًا» بِفَتْحِ الْمَهْمَلَةِ وَتَخْفِيفِ الْكَافِ.

❖ قَوْلُهُ: «أَوْ عَصِيرًا لَمْ يَحْنُثْ فِي قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ وَلَيْسَتْ هَذِهِ بِأَنْبَذَةٍ عِنْدَهُ». فِي رَوَايَةِ الْكُشْمِيهَيَّي: (وَلَيْسَ).

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الطَّلَاءِ وَالسَّكْرِ وَالنَّبِيذِ فِي «كِتَابِ الْأَشْرَبَةِ».

قَالَ الْمُهَلَّبُ: الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ مَنْ حَلَفَ أَلَّا يَشْرَبَ النَّبِيذَ بَعِيْنَهُ لَا يَحْنُثُ بِشَرْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ حَلَفَ لَا يَشْرَبُ نَبِيذًا لِمَا يَخْشَى مِنَ السَّكْرِ بِهِ، فَإِنَّهُ يَحْنُثُ بِكُلِّ مَا يَشْرَبُهُ مِمَّا يَكُونُ فِيهِ الْمَعْنَى الْمَذْكُورُ، فَإِنْ سَاطَرَ الْأَشْرَبَةَ مِنَ الطَّبِيخِ وَالْعَصِيرِ تُسَمَّى نَبِيذًا؛ لِمَشَابَهَتِهَا لَهُ فِي الْمَعْنَى، فَهُوَ كَمَنْ حَلَفَ لَا يَشْرَبُ شَرَابًا وَأَطْلَقَ فَإِنَّهُ يَحْنُثُ بِكُلِّ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الشَّرَابِ.

قَالَ ابْنُ بَطَالٍ: وَمَرَادُ الْبَخَارِيِّ بِبَعْضِ النَّاسِ: أَبُو حَنِيفَةَ وَمَنْ تَبِعَهُ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ الطَّلَاءُ وَالْعَصِيرُ لَيْسَا بِنَبِيذٍ، لِأَنَّ النَّبِيذَ فِي الْحَقِيقَةِ مَا بُدِيَ فِي الْمَاءِ وَنُقِعَ فِيهِ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْمَنْبُودُ مَنبُودًا؛ لِأَنَّهُ بُدِيَ؛ أَي: طُرِحَ.

فَأَرَادَ الْبَخَارِيُّ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ، وَتَوَجَّهَهُمْ مِنْ حَدِيثِي الْبَابِ: أَنَّ حَدِيثَ سَهْلٍ يَقْتَضِي تَسْمِيَةَ مَا قَرَّبَ عَهْدُهُ بِالْإِنْتِزَاعِ نَبِيذًا، وَإِنْ حَلَّ شُرْبُهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «الْأَشْرَبَةِ» مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُنْبِذُ لَهُ لَيْلًا فَيَشْرَبُهُ عُذْوَةً، وَيُنْبِذُ لَهُ عُذْوَةً فَيَشْرَبُهُ عَشِيَّةً، وَحَدِيثُ سَوْدَةَ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ، فَإِنَّهَا ذَكَرَتْ أَنَّهُمْ صَارُوا يَتَّبِعُونَ فِي جِلْدِ الشَّاةِ الَّتِي مَاتَتْ، وَمَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ إِلَّا مَا يَحِلُّ شُرْبُهُ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ نَبِيذٍ، فَالْتَقِيَ فِي حُكْمِ النَّبِيذِ الَّذِي لَمْ يُلْغُ حَذَّ السَّكْرِ، وَالْعَصِيرُ مِنَ الْعَنْبِ الَّذِي بَلَغَ حَذَّ السَّكْرِ فِي مَعْنَى النَّبِيذِ مِنَ التَّمْرِ الَّذِي بَلَغَ حَذَّ السَّكْرِ.

وَزَعَمَ ابْنُ مُنِيرٍ فِي الْحَاشِيَةِ: أَنَّ الشَّارِحَ بِمَعْزَلٍ عَنْ مَقْصُودِ الْبَخَارِيِّ هُنَا قَالَ: وَإِنَّمَا أَرَادَ تَصْوِيبَ قَوْلِ الْحَنْفِيَّةِ وَمَنْ ثَمَّ قَالَ: لَمْ يَحْنُثْ وَلَا يَضُرُّهُ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: فِي قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ. فَإِنَّهُ لَوْ أَرَادَ خِلَافَهُ لَتَرَجَّمَ بَعْدَهُ، وَكَيْفَ يُتَرَجَّمُ عَلَى وَفْقِ مَذْهَبٍ ثُمَّ يُخَالِفُهُ. انْتَهَى

وَالَّذِي فَهَمَهُ ابْنُ بَطَالٍ أَوْجَهُ وَأَقْرَبُ إِلَى مَرَادِ الْبَخَارِيِّ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُسَمَّى فِي الْعُرْفِ نَبِيذًا يَحْنُثُ بِهِ؛ إِلَّا إِنْ نَوَى شَيْئًا بَعِيْنَهُ فَيَحْتَصُّ بِهِ.

وَالطَّلَاءُ يُطْلَقُ عَلَى الْمَطْبُوخِ مِنْ عَصِيرِ الْعَنْبِ، وَهَذَا قَدْ يَنْعَقِدُ فَيَكُونُ دَبْسًا وَرُبًّا فَلَا

يُسَمَّى نَبِيذًا أَصْلًا، وَقَدْ يَسْتَمِرُّ مَائِعًا وَيُسَكِّرُ كَثِيرُهُ، فَيُسَمَّى فِي الْعُرْفِ نَبِيذًا، بَلْ نَقَلَ ذَلِكَ ابْنُ التِّينِ عَنْ أَهْلِ اللُّغَةِ: أَنَّ الطَّلَاءَ جَنْسٌ مِنَ الشَّرَابِ.

وعن ابنِ فارسٍ: أَنَّهُ مِنَ أَصْنَاءِ الْخَمْرِ، وَكَذَلِكَ السَّكَّرُ يُطْلَقُ عَلَى الْعَصِيرِ قَبْلَ أَنْ يَتَخَمَّرَ. وَقِيلَ: هُوَ مَا أُسْكِرَ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ.

ونقل الجوهرِيُّ أَنَّ نَبِيذَ التَّمْرِ وَالْعَصِيرِ مَا يُعَصَّرُ مِنَ الْعِنَبِ فَيُسَمَّى بِذَلِكَ وَلَوْ تَخَمَّرَ. وَقَدْ مَضَى شَرْحُ حَدِيثِ سَهْلٍ فِي «الْوَلِيمَةِ» مِنْ كِتَابِ «النِّكَاحِ» وَعَلَى شَيْخِهِ هُوَ ابْنُ مَدْيَنِيٍّ. وَأَمَّا حَدِيثُ سَوْدَةَ فَهِيَ بِنْتُ زَمْعَةَ بْنِ قَيْسٍ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ الْعَامِرِيَّةُ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ الْقُرَشِيَّةِ، زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ، تَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِ خَدِيجَةَ وَهُوَ بِمَكَّةَ، وَدَخَلَ بِهَا قَبْلَ الْهَجْرَةِ.

[الصَّحِيحُ: أَنَّ عَائِشَةَ هِيَ الَّتِي تَزَوَّجَ بِهَا بَعْدَ خَدِيجَةَ، لَكِنْ لَهَا لَمْ يَدْخُلْ بِهَا خَفِيَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، فَظَنَّ أَنَّهُ تَزَوَّجَ سَوْدَةَ قَبْلَهَا، فَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ] (١).

❖ قَوْلُهُ: «أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ». هُوَ ابْنُ الْمُبَارَكِ.

❖ وَقَوْلُهُ: «فَدَبَغْنَا مَسَكَّهُا». بَفَتْحِ الْمِيمِ وَالْمَهْمَلَةِ؛ أَيِ: جَلَدَهَا.

❖ قَوْلُهُ: «حَتَّى صَارَ سَنًا». بَفَتْحِ الْمَعْجَمَةِ، وَتَشْدِيدِ النُّونِ؛ أَيِ: بِالْيَا، وَالشَّنَّةُ: الْقِرْبَةُ الْعَتِيقَةُ.

وَقَدْ أَخْرَجَ النَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيقِ مُغِيرَةَ بْنِ مِقْسَمٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَدِيثًا فِي دِبَاغِ جِلْدِ الشَّاةِ الْمَيِّتَةِ غَيْرَ هَذَا.

وَأَشَارَ الْمِزِّيُّ فِي «الْأَطْرَافِ» إِلَى أَنَّ ذَلِكَ عِلَّةٌ لِرَوَايَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ الَّتِي فِي الْبَابِ، وَلَيْسَا كَذَلِكَ بَلْ هُمَا حَدِيثَانِ مُتَغَايِرَانِ فِي السِّيَاقِ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَنِهْمَا مِنْ رَوَايَةِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَرَوَايَةُ الْمُغِيرَةِ هَذِهِ تُوَافِقُ لَفْظَ رَوَايَةِ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ مَيْمُونَةَ، وَهِيَ عِنْدَ مُسْلِمٍ وَأَخْرَجَهَا الْبَخَارِيُّ مِنْ رَوَايَةِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِغَيْرِ ذِكْرِ مَيْمُونَةَ، وَلَا ذَكَرَ الدِّبَاغَ فِيهِ.

وَمَضَى الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي أَوَاخِرِ كِتَابِ «الْأَطْعَمَةِ».

قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ: فِي حَدِيثِ سَوْدَةَ الرُّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الزُّهْدَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْخُرُوجِ عَنْ

(١) مَا بَيْنَ الْمُعْتَرِفِينَ مِنْ كَلَامِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ عَثِيمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

جميع ما يَمْلِكُ؛ لأن موت الشاة تَمَن سَبَقَ مِلْكُهَا واقتنائُهَا.

وفيه: جوازُ تنمية المالِ، لأنهم أَخَذُوا جِلْدَ المِيتَةِ فَدَبَغُوهُ فانتَفَعُوا به بعد أن كان مطروحاً.

وفيه: جوازُ تناولِ ما يَهْمُ الطَّعَامَ بما دَلَّ عليه الانتبَازُ.

وفيه: إضافةُ الفعلِ للمالكِ وإن بَاشَرَهُ غَيْرُهُ، كالخادم. انتهى ملخصاً اهـ



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٢ - بَابُ إِذَا حَلَفَ أَنْ لَا يَأْتِيَدِمَ فَآكَلَ تَمْرًا بِخُبْزٍ، وَمَا يَكُونُ مِنَ الْأُدْمِ.

٦٦٨٧ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَابِسٍ، عَنْ أَبِيهِ،

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا سَمِعَ أَلَّ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزٍ بَرٍّ مَادُومٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ. وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّهُ قَالَ لِعَائِشَةَ بِهَذَا^(١).

مسألةُ الاتِّدَامِ يرجعُ فيها للعُرفِ، فإذا لم يَكُنِ العُرفُ، فإن اتَّدَامَ الخُبْزِ باللحمِ يُعْتَبَرُ

إدَامًا؛ لأن أصلَ الإدَامِ مِنَ الالْتِمَامِ والجمعِ، فإذا أَخَذَ الإنسانُ خُبْزَةً وَوَضَعَ فِيهَا تَمْرًا أَوْ عَسَلًا أَوْ جُبْنًا، فهذا إدَامٌ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٦٨٨ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ

بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ضَعِيفًا أَعْرَفُ فِيهِ

الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاضًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخَذَتْ خِمَارًا

لَهَا، فَلَفَّتِ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَهَبْتُ فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ»، فَقُلْتُ:

نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لِمَنْ مَعَهُ: «قُومُوا فَانْطَلِقُوا» وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، حَتَّى جِئْتُ أَبَا

طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمُّ سُلَيْمٍ، قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسُ وَلَيْسَ عِنْدَنَا مِنَ

الطَّعَامِ مَا نَطْعِمُهُمْ فَقَالَتْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

ﷺ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو طَلْحَةَ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلُمِّي يَا أُمُّ سُلَيْمٍ مَا عِنْدَكَ» فَآتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ قَالَ: فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذَلِكَ الْخُبْزِ، فَفَتَّ وَعَصَرَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً لَهَا فَأَدَمَتْهُ، ثُمَّ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «أَنْذَنَ لِعَشْرَةٍ»، فَأَذَنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «أَنْذَنَ لِعَشْرَةٍ» فَأَذَنَ لَهُمْ فَأَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلًا^(١).

الله أكبر، هذا الحديث فيه آية من آيات الله؛ حيث أنزل الله بركة في هذا الطعام فهذا خبر يسير من شعير أكلوا منه حتى شبعوا، وكانوا سبعين أو ثمانين.

وفي هذا من الفوائد: أنه يجوز للمدعو أن يضحَبَ معه أصحابه، ولكن عند الاستئذان يقول: أَدْخُلْ وَمَنْ مَعِيَ. أو أَتَاذَنْ لِمَنْ مَعِيَ؛ لأن صاحب البيت قد يكون له حاجة خاصة في المدعو، فلا يجب أن يدخل معه أحد، فإذا استأذنه له كان على بصيرة من الأمر؛ لأن منعه من الدخول أهون من ردِّهم بعد الدخول.

أما إذا كان الأمر واضحاً فلا حاجة إلى أن يستأذن؛ لأن الرسول ﷺ لم يستأذن لمن معه. وقد يُقال: إن النبي ﷺ لما كان مُصْطَحِباً لَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وهو من أهل البيت كان هذا بمنزلة الاستئذان.

وفيه: بيان كمال عقل أم سليم؛ لأن أبا طلحة رضي الله عنه كأنه استغرب أن يأتي الرسول ﷺ بِالْغُلَامِ بِالْقَوْمِ جَمِيعاً، ولكنها قالت: الله ورسوله أعلم؛ يعني: لولا أن النبي ﷺ قد علم أن الطعام سيكفيهم ما أتى بهم.

وفيه أيضاً: دليل على جواز الشَّبْعِ أحياناً، وإلا فإن الأفضل أن يكون أكل الإنسان أثلاثاً: ثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس، فإذا جاع أكل، هذا هو الأحسن والأولى. أما أن يَمَلَأَ الإنسان بطنه حتى يَكَادَ لَا يَقُومُ إِلَّا بِرَدِيفٍ يُسَاعِدُهُ، فهذا لا يَنْبَغِي، بل يَنْبَغِي أَنْ يُقَلِّلَ الإنسان من الطعام، لكن لا بأس بالشَّبْعِ أحياناً.

والشاهد من هذا الحديث: أن هذا الخبز، أو الشعير أَدَمَ بِعُكَّةٍ مِنْ سَمْنٍ، فالدهن قد يكون إداماً؛ لأن الإدام اسم لكل ما يؤتدَّم به من أي نوع كان.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٣- بَابُ النِّيَّةِ فِي الْإِيمَانِ.

٦٦٨٩- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، قَالَ: سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ سَعِيدٍ يَقُولُ: أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ سَمِعَ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ اللَّيْثِي يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِأَمْرِي مَا نَوَيْتُ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ »^(١).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَابُ النِّيَّةِ فِي الْإِيمَانِ»، ثم ذكر حديثَ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو حديثٌ عظيمٌ، يَدْخُلُ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْعِلْمِ مِنَ الْعَقَائِدِ، وَالْعَمَلِيَّاتِ، فَهُوَ يَدْخُلُ فِي: الطَّهَارَةِ، وَفِي الصَّلَاةِ، وَفِي الصَّدَقَةِ، وَفِي الْحَجِّ، وَفِي الْبَيْعِ، وَفِي الرِّهْنِ، وَفِي النُّذُورِ، وَفِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْعِلْمِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ حَدِيثٌ فِيهِمَا تَعَلَّمَ أَوْ سَمِعَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ يَدْخُلُ فِي الْعَادَاتِ، وَالْعِبَادَاتِ، وَفِي كُلِّ شَيْءٍ.

وقد بينَ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ مَا يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالنِّيَّةِ؛ أَي: حَسَبَ مَا نَوَى الْإِنْسَانُ بِيَمِينِهِ.

وقد ذكرَ أهلُ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي تَرْتِيبِ مَا يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي الْإِيمَانِ: أَنَّهُ يُرْجَعُ أَوَّلًا إِلَى نِيَّةِ الْحَالِفِ، بِشَرْطِ أَنْ يَحْتَمِلَهَا اللَّفْظُ.

فَإِنْ عُدِمَتِ النِّيَّةُ رَجَعَ إِلَى سَبَبِ الْيَمِينِ؛ أَي: إِلَى السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَ الْحَالِفَ يَحْلِفُ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَبَبٌ رَجَعَ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ؛ يَعْنِي: إِلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا اللَّفْظُ. وَالْحَقِيقَةُ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: عُرْفِيَّةٌ، وَشَرْعِيَّةٌ، وَلُغَوِيَّةٌ.

فَاللَّفْظُ قَدْ يَكُونُ لَهُ حَقِيقَةٌ فِي الشَّرْعِ، وَحَقِيقَةٌ فِي الْعُرْفِ، وَحَقِيقَةٌ فِي اللَّغَةِ، وَقَدْ تَنَفَّقَ الْحَقَائِقُ الثَّلَاثُ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَقَدْ تَنَفَّرَ إِحْدَاهَا فِي مَعْنَى عَنْ صَاحِبَيْهَا، وَقَدْ تَنَفَّقَ اثْنَانِ دُونَ الْآخَرَى.

فَرَجَعُ أَوَّلًا: إِلَى النِّيَّةِ إِذَا احْتَمَلَهَا اللَّفْظُ، أَمَا إِذَا كَانَ لَا يَحْتَمِلُهَا فَإِنَّهُ لَا يُرْجَعُ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا لَعْوٌ. مِثَالُ ذَلِكَ: رَجُلٌ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَنَا مِنَ اللَّيْلَةِ إِلَّا عَلَى فِرَاشٍ. وَنَوَى بِذَلِكَ الْأَرْضَ. ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّحَرَاءِ فَنَامَ، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ تَنَامُ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنْتَ قَدْ حَلَفْتَ أَلَّا تَنَامَ إِلَّا عَلَى فِرَاشٍ؟ فَقَالَ: نَوَيْتُ ذَلِكَ. فَهَلْ هَذَا اللَّفْظُ يَحْتَمِلُ هَذِهِ النِّيَّةَ؟ الْجَوَابُ: نَعَمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ [النَّحْلُ: ١٢].

مِثَالُ آخَرَ: قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَبِيعُ الْخُبْزَ الْيَوْمَ. ثُمَّ أَخَذَ طَبَقًا مِنْ خُبْزٍ فَبَاعَهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَرَدْتُ بِالْخُبْزِ اللَّحْمَ. فَإِنَّهُ يَحْنُثُ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ لَا يَحْتَمِلُ هَذِهِ النِّيَّةَ؛ لِأَنَّ الْخُبْزَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ اللَّحْمَ.

وَلَكِنْ لَوْ نَوَى خِلَافَ ظَاهِرِ اللَّفْظِ فَهَلْ تَرَجَعُ إِلَى نِيَّتِهِ؟

نَقُولُ: يُرْجَعُ إِلَى نِيَّةِ الْحَالِفِ وَلَوْ خَالَفَ ظَاهِرَ اللَّفْظِ إِذَا كَانَ اللَّفْظُ يَحْتَمِلُهَا.

فَلَوْ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَكَلِمَ النَّاسَ الْيَوْمَ. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ وَصَارَ يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ يُقَابِلُهُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ. وَقَالَ: أَنَا أَرَدْتُ بِالنَّاسِ الْفَسَقَةَ. وَأَنَا مَا سَلَّمْتُ إِلَّا عَلَى عُدُولٍ. فَإِنَّ ذَلِكَ يُقْبَلُ؛ لِأَنَّ «النَّاسَ» صِيغَتُهَا الْعُمُومُ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ تُبَيِّنُ أَنْ يُرِيدَ الْإِنْسَانُ بِالْعُمُومِ الْخُصُوصَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [التَّحْقِيقُ: ١٧٣]. وَهُمْ لَمْ يَقُلْ لَهُمْ جَمِيعُ النَّاسِ، وَلَمْ يَجْمَعْ لَهُمْ جَمِيعُ النَّاسِ. إِذِنْ فَهَذَا الرَّجُلُ لَا يَحْنُثُ؛ بِنَاءً عَلَى نِيَّتِهِ مَعَ أَنَّهَا قَدْ خَالَفَتْ الظَّاهِرَ.

وَإِذَا قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَكَلِمَ النَّاسَ. ثُمَّ خَرَجَ إِلَى السُّوقِ وَصَارَ يُسَلِّمُ عَلَى الْفَسَقَةِ، وَالْعُدُولِ، وَالصَّغَارِ، وَالْكَبَارِ، وَلَمْ يَمُرَّ بِأَحَدٍ إِلَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أَرَدْتُ أَلَّا أَكَلِمَ النَّاسَ بغيرِ السَّلَامِ. فَإِنَّهُ لَا يَحْنُثُ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ يَحْتَمِلُ هَذِهِ النِّيَّةَ.

إِذِنْ فَالْنِّيَّةُ حَاكِمَةٌ عَلَى اللَّفْظِ، لَكِنْ بِشَرَطٍ أَنْ يَحْتَمِلَهَا اللَّفْظُ.

فَإِذَا لَمْ نَجِدْ نِيَّةً؛ يَعْنِي: إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نِيَّةٌ فَإِنَّهُ يُرْجَعُ إِلَى سَبَبِ الْيَمِينِ.

مِثَالُهُ: جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ زَيْدًا يَسُبُّكَ، وَيَغْتَابُكَ، وَيُقْشِي عَنْكَ أَسْرَارًا. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَكَلِمَ زَيْدًا مَا عَشْتُ. ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قَالَ لَهُ ذَلِكَ قَالَ: أَنَا كُنْتُ أَحْسَبُهُ زَيْدًا فَإِذَا هُوَ عَمْرُو. فَكَلَّمَ الرَّجُلَ زَيْدًا بَعْدَ أَنْ حَلَفَ أَلَّا يُكَلِّمَهُ. فَهَذَا لَا يَحْنُثُ؛ لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ أَنَّ سَبَبَ الْيَمِينِ لَيْسَ مَوْجُودًا؛ يَعْنِي: أَنَّهُ قَدْ عُدِمَ سَبَبُ الْيَمِينِ فَحِينَئِذٍ لَا يَحْنُثُ.

فإذا لم يكن هذا ولا هذا، فإننا نرجع إلى مدلول اللفظ، ومدلول اللفظ إما: عُرفي، أو شرعي، أو لغوي.

فيرجع إلى العُرفي؛ لأنه أقرب إلى مراد المتكلم، ولكن إذا كان للعُرفي معنى صحيح شرعاً، ومعنى فاسدٌ، فإنه يُحمَلُ على المعنى الصحيح شرعاً.

فمثلاً لو قال: والله لأشترينَّ اليومَ شاةً. ثم خرج إلى السوق واشترى معزاً. فإنه على العُرف يَحْنُثُ؛ لأن العُرفَ عندنا أن الشاة هي الأنتى مِنَ الضَّأْنِ، وأما في الشرع واللغة؛ فالشاة تطلق على الهامز وعلى الضَّأْنِ، ونحن نقول: إذا اختلفت اللغة والشرع والعُرف فُدِّمَ العُرف؛ لأنه أقرب إلى مقصود المتكلم، لاسيما العامة، فالعامة لا يعرفون من مدلول الألفاظ إلا ما كان في عُرفهم.

فإذا قال: والله لا أبيعُ اليومَ شيئاً. ثم خرج وباع دُخَانًا، فهل يَحْنُثُ؟

الجواب: لا يَحْنُثُ؛ لأن هذا البيع غير صحيح، بل هو فاسدٌ، وقد ذكرنا أنه إذا كان للفظ مدلول عُرفي، وكان له في الشرع معنيان: صحيحٌ، وفاسدٌ، فإنه يُحمَلُ على الصحيح. ثم إذا لم يكن هناك حقيقة شرعية للفظ، ولا حقيقة عُرفية فإنه يرجع للحقيقة اللغوية. فإذا قال قائلٌ: والله لا أصلي اليومَ. ثم قام فصلى وقال: أرذتُ المعنى اللغوي للصلاة؛ يعني: أرذتُ ألا أدعو. قلنا: لا حنث عليك؛ لأن لفظك يَحْتَمِلُ المعنى الذي أرذت.

وهذه قاعدة مفيدة في الأيمان. ومن هنا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ إلى أن الطلاق يَجْري مَجْرى الأيمان، كما أن العتق يَجْري مَجْرى الأيمان.

فمثلاً لو قال إنسانٌ: إن دَخَلْتُ هذا البيت فزوجتي طالق. وهو لا يريد أن يطلق زوجته، لكن يريد أن يمتنع، فهذا عند جمهور العلماء، ومنهم الأئمة الأربعة أنه لو دخل البيت الذي علّق الطلاق على دخوله لطلق المرأة، ولو كان ينوي المنع.

إلا إن شيخ الإسلام قال: ما دام لا يريد طلاق امرأته، وإنما يريد منع نفسه، وجعل هذا من باب التعليق على نفسه فإن زوجته لا تطلق، وعليه كفارة يمين. واستدل بقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»^(١). وهذا الرجل لم ينو الطلاق.

واستدلَّ أيضًا بالآثار التي جاءت عن الصحابة في العتق من أن الإنسان إذا نذر أن يعتق عبده نذرًا جاريًا مجرى اليمين، فإنه يُجزئ كَفَّارَةُ اليمين.

مثل أن يقول: إن كلمت زيدًا فعبدني حرًّا. فقد ورد عن الصحابة: أنه لا يلزمه تحرير عبده، وعليه كَفَّارَةُ يمين، لكن لم يرد عنهم شيء في الطلاق، قال شيخ الإسلام جوابًا عن ذلك: إن الحلف بالطلاق لم يكن معهودًا في عهد الصحابة، ولذلك لم يرد عنهم في ذلك فتيا، كما أن الحلف بالعتق لم يكن معهودًا في عهد الرسول ﷺ، فلم يقع فيه فتيا من الرسول ﷺ. قال: وإذا كان الصحابة رضوا قد حكموا بأن العتق المعلق على الشرط الجاري مجرى اليمين حكمه حكم اليمين، مع تشويف الشارع للعتق وتغليبه في السريان، فالطلاق المكروه شرعًا من باب أولى لا يقع.

وما قاله رحمه الله لا شك أنه عين الصواب، وأن الطلاق المقصود به الحث، أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب، جاز مجرى اليمين.

ويؤيده من حيث الدليل: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٠١﴾ قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم ﴿[البقرة: ٢١-٢٢]﴾. فجعل التحريم يمينًا مع أنه لم يخلف بل قال: حرامٌ عليَّ أن أدخل هذا البيت. ثم دخل فنقول: عليك كَفَّارَةُ يمين.

والصحيح: أن هذا شاملٌ حتى للزوجة.

فلو قال: حرامٌ عليَّ زوجتي إن دخلت هذا البيت. ثم دخله فإن الزوجة لا تحرّم عليه، ولكن عليه كَفَّارَةُ يمين؛ لأن تحريم الزوجة وغيرها سواء؛ فالكل مما أباح الله، فإذا حرّمه على نفسه قاصدًا بذلك معنى اليمين كان له حكم اليمين.

بل حتى الظاهر - على القول الراجح - إذا أجراه مجرى اليمين كان يمينًا. مثل أن يقول: إن فعلت كذا فزوجتي عليّ كظهر أمي، فهذا حكمه حكم اليمين إذا أراد به اليمين.

وكل هذا مأخوذ من قول الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

ثم ضرب الرسول ﷺ بعد قوله: «إنما الأعمال بالنيات». مثلاً بالهجرة، والهجرة هجرتان: هجرة بالبدن، وهجرة بالعمل، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ في قوله: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه». فهذه هجرة عمل، وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٠]. أي: هجرة بدن.

وهجرة البدن: هي أن يَنْتَقِلَ الإنسانُ من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وبلد الشرك ليست هي التي يَحْكُمُ حَكَّامُهَا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، بل التي يُعْلَنُ أنها بلادُ الشرك؛ أي: ليس فيها شعائرُ الإسلام، فلا أذان، ولا جماعة، ولا جمعة، فهذه هي بلدُ الشرك، أما البلادُ التي يُعْلَنُ فيها بالأذان، وَيَحْضُرُ النَّاسُ فِيهَا الْجَمَاعَةُ وَالْجُمُعَاتِ فَهِيَ بِلَادُ إِسْلَامٍ، حتى ولو كان حَكَّامُهَا يَحْكُمُونَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ؛ لأن الكفرَ هنا ليس في الدارِ بل في حكم الحاكم، أما الدارُ فهي دارُ إسلامٍ، ولذلك تَجِدُ أَهْلَهَا يَتَرَبَّصُونَ بِهَذَا الْحَاكِمِ رَيْبَ الْمُنُونِ أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَوْ يَقْضِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِأَيْدِيهِمْ؛ لأنها دارُ إسلامٍ.

ولو أننا جعلنا كلَّ بلدٍ يَحْكُمُ حَكَّامُهَا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِلَادَ كُفْرٍ فَلَا أَظُنُّ أَنَّنَا نَجِدُ الْآنَ بِلَادَ إِسْلَامٍ إِلَّا نَادِرًا.

لِذَلِكَ نَقُولُ: بلادُ الكفرِ: هي التي يُعْلَنُ فِيهَا شَعَائِرُ الْكُفْرِ، وَتُحَقِّقُ فِيهَا شَعَائِرُ الْإِسْلَامِ، فليس فيها أذان، ولا جمعة، ولا جماعة، ولا شهرُ رمضان.

أما هجرة العمل فهي: هجرة المعاصي، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ، كَأَنْ يَتَصَنَّعَ رَجُلٌ أَمَامَ شَخْصٍ يَرْجُوهُ بِتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ.

فمثلاً: كَانَ يَشْرَبُ الدُّخَانَ إِلَّا أَنَّهُ يَتَصَنَّعُ بِتَرْكِهِ عِنْدَ مَنْ يَرْجُوهُ، أَوْ كَانَ يَخْلُقُ لِحَيْتَهُ لَكِنْ يَتَصَنَّعُ بِإِعْفَائِهَا عِنْدَ مَنْ يَرْجُوهُ.

وَحَدَّثْتُ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْمُدْرِسِينَ تَقَرَّرَ رَحِيلُهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، وَكَانُوا يُعْفُونَ لِحَاهُمْ فِي الْبِلَادِ الَّتِي كَانُوا يُدْرِسُونَ فِيهَا، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْيَوْمِ الَّذِي يُسَافِرُونَ فِيهِ قَالُوا: فِي الصَّبَاحِ سَنُسَافِرُ، وَسَنَقْدُمُ عَلَى أَهْلِنَا، فَلَنَخْلُقُ اللَّحْيَ، فَخَلَقُوا اللَّحْيَ تَمَامًا، وَلَكِنَّ اللَّهَ فَضَّحَهُمْ فِإنَّ الرِّحْلَةَ تَأَخَّرَتْ، فَلَمَّا رَأَاهُم النَّاسُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ قَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْشَأَكُمْ اللَّهُ خَلْقًا آخَرَ؟ فَوَقَعُوا فِي خَجَلٍ عَظِيمٍ.

فَهَجْرَةُ خَلْقِ اللَّحْيَةِ فِي هَذَا هَجْرَةُ عَمَلٍ، لَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَهْجُرُ خَلْقَ اللَّحْيَةِ، وَيُعْفِي لِحْيَتَهُ لِلَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ تَصَنُّعًا لِدُنْيَا يُصَيِّبُهَا، أَوْ امْرَأَةً يَتَزَوَّجُهَا.

كَذَلِكَ الْهَجْرَةُ مِنَ الْبَلَدِ، فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ الْبَلَدِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ ^{وَعَلَيْهِ}، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ لِدُنْيَا يُصَيِّبُهَا، أَوْ امْرَأَةً يَتَزَوَّجُهَا.

ثُمَّ انْظُرْ إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

فهجرته إلى الله ورسوله». كيف أظَهَرَ ولم يَقُلْ: فهجرته إلى ما هاجر إليه. بل قال: «إلى الله ورسوله»؛ لأن هذا شَرَفٌ، وتعظيمٌ، وتكريمٌ، يعني: أن هجرته إلى أمرٍ عظيمٍ شريفٍ، وهو أنها إلى الله ورسوله.

ثم قال في الآخر: «وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ». ولم يَقُلْ: إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا؛ لأن المرادَ حقيرٌ، فلحقارته طَوَى ذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وهذا مِنْ بِلَاغَةٍ كَلَامِ الرَّسُولِ ﷺ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٤ - بَابُ إِذَا أَهْدَى مَالَهُ عَلَى وَجْهِ النَّذْرِ وَالتَّوْبَةِ.

٦٦٩٠ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبٍ بْنُ مَالِكٍ، - وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ - قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ فِي حَدِيثِهِ ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ [البقرة: ١١٨]. فَقَالَ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ: إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنِّي أَنْخَلِعُ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»^(١).

قصةُ الثلاثة الذين خَلَفُوا مبسوطةٌ في التاريخ، ومشارٌ إليها في القرآن الكريم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ [البقرة: ١١٨]. وهؤلاء قومٌ خَلَفَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ الْحَكَمِ فِيهِمْ حِينَ رَجَعَ مِنْ تَبُوكَ، وليس المرادُ بقوله: ﴿خَلَفُوا﴾. أي: تَخَلَّفُوا عن الغزوة ولهذا قال: ﴿خَلَفُوا﴾. أي: خَلَفَهُمُ غَيْرُهُم والذي خَلَفَهُمُ هو الرسول ﷺ حِينَ جَاءَ النَّاسُ بَعْدَ رَجُوعِهِمْ مِنْ تَبُوكَ يَعْتَذِرُونَ، وأما هؤلاء الثلاثة ﷺ فَمَنْعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ أَنْ يَعْتَذِرُوا بِمَا لَيْسَ بِعُذْرٍ، وأخبروا بالصدق، وقالوا: ما لنا عُذْرٌ.

وكان أصرحهم كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه كان أشبههم فأخبر أنه ما كان له عُذْرٌ، وأنه عنده راحلتين، وأنه لو جالس عند أحدٍ مِنْ ملوك الدنيا لخرج منه بعذرٌ؛ لأنه قد أُوتِيَ جَدَلًا، ولكن هو الآن يُخَاطَبُ النَّبِيُّ ﷺ، فيخشى أن يُحَدِّثَهُ بِحَدِيثٍ يَعُذُّرُهُ بِهِ، فَيَنْزِلُ الْوَحْيُ

لامرأته: الحقي بأهلك. فما بقيت عنده طرفة عين، أما الاثنان الآخران فاستأذنا من الرسول ﷺ أن تبقى عندهما زوجتهما؛ لأنها كبير السن.

ومضى على هذا الحال خمسون ليلة؛ أي: شهرين إلا عشرة أيام، والناس قد هجرهم وتكرت لهم الأرض، وأنا أعتقد أن الإنسان منا لو بقي عشرة أيام يخرج للسوق ويسلم على الناس، وعلى أصدقائه، وأحبائه، وأقربائه، ولا يرد عليه السلام فإنه سوف يهرب إلى البر، وإن كان عنده نقص إيمان فربما يتحجر.

لكن هؤلاء صبروا والعاقبة للمتقين، فبعد خمسين ليلة أنزل الله ﷻ على الرسول ﷺ فكانت بشرى عظيمة للرسول ﷺ، فخرج فارس إلى ديار قوم كعب بن مالك، ليشره، وذهب رجل قوي الصوت إلى سلع - جبل قريب من المسجد النبوي - فنادى بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر بتوبة الله عليك. فكان الصوت أسرع من الفرس، فكانت الإشارة لصاحب الصوت، فلما جاء البشير إلى كعب نزع ثوبه الإزار والرداء، وأعطاهما البشير الذي هنا وبشره.

ثم جاء إلى الرسول ﷺ، فلما جاء وجد هذه الرجل الذي كان بالأمس يسلم عليه ولا يدرى أحرک شفته برد السلام أم لا؛ وجدته مهللاً وجهه، فرحاً مسروراً يقول له: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». وقام الناس يهتفون بتوبة الله عليه. ففرح بهذا فرحاً عظيماً، وقال: إن من توبتي - أي: من تحقيقها وشكري نعمة الله عليّ - أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ﷻ تقرباً، وإلى رسوله توزيعاً؛ لأن الجهة مختلفة فهو يتصدق تقرباً إلى الله، ويُعطيه الرسول ﷺ من أجل أن يؤزغها ويتصرف فيها، ولكن الرسول ﷺ قال له: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». وهذا من حسن تربية الرسول ﷺ؛ لأنه يعرف أن الإنسان عند النشوة، وفي أول أمره قد ينسى مصالحه، وينسى الواجبات التي عليه، ولهذا قال: أنخلع من مالي كله صدقة. ولكن الرسول ﷺ المبعوث بالطمأنينة والتؤدة قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». وهذا من حسن التربية، فالإنسان إذا جاء شيء يفرح به نسي كل شيء، لكن ينبغي لك عند حدوث مثل هذه الأمور أن تكون متأنياً، وألا تتجرف مع عاطفتك.

فدل هذا: على أنه يجوز للإنسان أن يتصدق بآله إذا من الله عليه بتوبة، كما فعل كعب بن مالك رضي الله عنه.

وكذلك لو نذر أن يتصدق بماله، فإنه لا يلزمه أن يتصدق بكل ماله، بل يجزئه أن يتصدق بالثلث فقط، ولا كفارة عليه؛ وذلك لأن الصدقة بالمال كله ليست من الأمور المشروعة، لكنها من الأمور الجائزة كما أقر النبي ﷺ أبا بكر رضي الله عنه أن يتصدق بجميع ماله^(١)، ولكن الأفضل خلاف ذلك؛ أي: ألا تتصدق بجميع مالك؛ لأنك مأمور أن تبدأ بنفسك ثم بمن تعول^(٢)، والإنسان ربما يحتاج المال في المستقبل، لكنه يكون حين الفرح والنشوة ناسياً ما يستقبل، فكان من الأفضل ألا يتصدق بماله كله، وألا ينذر الصدقة بماله كله، وأنه لو نذر فإنه يكفيه ثلث المال، كما قال ذلك أهل العلم.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٥- باب إذا حرم طعاماً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرَّاتٍ أَرْوَجُكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ مَحَلَّةَ آيَاتِنَا ﴿[البُخَارِيُّ: ١-٢]﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البُخَارِيُّ: ٨٧].

٦٦٩١- حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا الْحَجَّاجُ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: زَعَمَ عَطَاءٌ أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَزْعُمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا، فَتَوَاصَبْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنْ آيْتَنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَلْتَقُلْ: إِنِّي أَحَدُ مَنْكَ رِيحَ مَغَافِيرٍ، أَكَلْتُ مَغَافِيرَ. فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «لَا بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ لَهُ». فَتَزَلَّتْ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [البُخَارِيُّ: ١]. ﴿إِنْ نُوْبًا إِلَى اللَّهِ﴾ [البُخَارِيُّ: ١]. لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ. ﴿وَإِذَا أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَرْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ [البُخَارِيُّ: ٣]. لِقَوْلِهِ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا»^(١).

وَقَالَ هَذَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، عَنْ هِشَامٍ: «وَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ فَلَا تُخْبِرِي هَذَا أَحَدًا». قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: بَابٌ: إِذَا حَرَّمَ طَعَامًا. يَعْنِي: مَاذَا يَكُونُ الْحُكْمُ؟

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، والحاكم (٤١٤/١)، والبيهقي (١٨٠/٤).

(٢) حديث: «أَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ»، أخرجه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٤)، وأمّا قوله: «أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ» فهو عند مسلم (٩٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٧٤).

ومثل هذه الترجمة التي تأتي غير مجزوم بها تدلُّ على أن المترجم الذي كتبها لم يتبين له الحكم فيها، فجعل الأمر موكولاً إلى القارئ.

وتحريم الطعام ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يُريد به الحكم الشرعي.

والقسم الثاني: أن يُريد به الكذب.

والقسم الثالث: أن يُريد به الامتناع.

أما الأول: فإن التحريم فيه يكون نوعاً من الشرك إذا حرم ما أحل الله؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿ اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُسَهُمْ أَرْكَابًا مِنَ دُونِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٢١]. ولما سمع عدي بن حاتم هذه الآية قال: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدُهم. قال: «أليسوا يُجِلُّون ما حرم الله فتُجِلُّونه، ويُحرِّمون ما أحل الله فتُحرِّمونه؟» قال: بلى. قال: «فتلك عبادتهم»^(١). وذلك مثل صنع أهل الشرك في الجاهلية فإنهم كانوا يُحرِّمون السائبة، والوصيلة، والحام، والبحيرة.

فإذا قصد به إثبات حكم التحريم صار هذا نوعاً من الشرك.

الثاني: أن يقصد به الكذب، كأن يقول: هذا حرام. وهو يعرف أنه حلال، كما يكذب الناس بعضهم على بعض، فهذا يعدُّ كذباً، والكذب معروف أنه حرام.

القسم الثالث: أن يقصد به الامتناع، فإذا قال: هذا حرام علي. فيعني: أي ممتنع عنه، فهذا حكمه حكم اليمين.

وربما يكون البخاري رحمه الله قد جعل الترجمة مطلقة من أجل هذا التقسيم الذي قسمناه.

فمثلاً: إذا قال رجل: هذه الخبزة حرام. قلنا له: كذبت. إذا كان قد قصد الكذب.

وإذا قال: هذه الخبزة حرام، لا أحد يأكلها، ومن أكلها فعليه التعزير فهذا نوع من الشرك؛ لأنه تحريم ما أحل الله.

وإذا قال: هذه الخبزة حرام. بمعنى أنني لن أدوقها. فهذا حكمه حكم اليمين في كل شيء، على القول الراجح حتى في المرأة.

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في «الكبير» (٩٢/١٧).

فَلَوْ قَالَ الرَّجُلُ لَزَوْجَتِهِ: هِيَ حَرَامٌ عَلَيَّ. وَلَمْ يَنْوَ الطَّلَاقَ فَإِنْ حَكَمَهُ حَكْمُ الْيَمِينِ، وَلَيْسَ بِظَهَارٍ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَالظَّهَارُ أَنْ يَقُولَ: هِيَ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي، أَوْ أَخْتِي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

أَمَّا إِذَا قَالَ: هِيَ حَرَامٌ. فَهُوَ أَخْفَى مِنْ قَوْلِهِ: هِيَ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَالَ: هِيَ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي فَقَدْ شَبَّهَ أَحَلَّ مَا يَكُونُ فِي النِّسَاءِ بِأَحْرَمٍ مَا يَكُونُ، بِخِلَافِ مَا إِذَا قَالَ: هِيَ عَلَيَّ حَرَامٌ. فَقَدْ تَكُونُ حَرَامًا كَالْمَيْتَةِ، وَالْخَنْزِيرِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

المهم: أَنَّهُ إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا مِنَ الْحَلَالِ مِنْ زَوْجَةٍ، أَوْ أَمَةٍ، أَوْ طَعَامٍ، أَوْ لِبَاسٍ، أَوْ سَكَنِ، أَوْ مُكَالَمَةٍ أَحَدٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَحَكَمَهُ حَكْمُ الْيَمِينِ، وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴿الْفَجَن: ٢٠-٢١﴾. فَسَمَّى الْحَرَامَ يَمِينًا فَقَالَ: ﴿تَحِلَّةُ أَيْمَانِكُمْ﴾. وَ«تَحِلَّةٌ» تَفْصِيلَةٌ بِمَعْنَى التَّحْلِيلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا حَلَفَ عَلَى الشَّيْءِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ تَحْرِيمِهِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنْ هَذَا، فَإِذَا كَفَرَ قَبْلَ أَنْ يَحْنُثَ سَمِّيَ هَذَا: تَحِلَّةً، فَكَانَ حَلُّ الْعُقْدَةِ الَّتِي هِيَ الْيَمِينُ.

أَمَّا إِذَا فَعَلَ الشَّيْءَ ثُمَّ كَفَرَ فَهَذَا يُسَمَّى كِفَارَةً.

فَهَذَا رَجُلٌ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَكَلِّمُ فَلَانًا. ثُمَّ كَلَّمَهُ، فَعَلِيهِ أَنْ يُطْعِمَ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ وَهَذِهِ تَسْمَى كِفَارَةً.

أَمَّا لَوْ قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَكَلِّمُ فَلَانًا. ثُمَّ نَدِمَ فَأَطْعَمَ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ عَنْ هَذَا الْيَمِينِ قَبْلَ الْحَنْثِ فَهَذِهِ تَحِلَّةٌ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾. «فَرَضَ هُنَا بِمَعْنَى: شَرَعَ، وَلَيْسَتْ بِمَعْنَى أَوْجَبَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ بِمَعْنَى أَوْجَبَ لَعُدِّيَتْ بِعَلَى وَلِقَالَ: فَرِضْ عَلَيْكُمْ. وَلَكِنَّهَا بِمَعْنَى شَرَعَ.

وفي هذه الآية الكريمة: عِتَابٌ يَسِيرٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِمَا أَفْلَأَ الْأَعْيَالُ، حَيْثُ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ أَزْوَاجِهِ.

وفي هذا: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُرَاعِيَ الزَّوْجَاتِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ؛ أَيَّ: إِلَى أَنْ يُحَرِّمَ عَلَى نَفْسِهِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ رَجُلًا بِمَعْنَى الْكَلِمَةِ بَحِثَ يَكُونُ لَهُ الْقَوَامَةُ عَلَى زَوْجَتِهِ وَلَيْسَ الْعَكْسُ، وَهَذَا هُوَ مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ، وَالْخِلْقَةِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا

الذكر والأنثى؛ أن يكون الذكر هو صاحب الشأن، وصاحب الإمرة، وصاحب الولاية، ولكن الذين انتكست قلوبهم من الكفار، والمشركين، والملحدين، ومن ضاهاهم، انتكسوا فجعّلوا الإمرة للمرأة، وقدموها على الرجل.

ولكن يُقال: إذا كان الله قد نكس فطرته في عبادة الخلاق وَعَلَى فلا غرابة أن تنتكس فطرهم بتقديم ما أخره الله وَعَلَى وهن النساء.

وفي قوله: ﴿عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. الإشارة إلى أن هذا نوع من الذنب، حيث خُيِّمَتْ بالمغفرة والرحمة.

وهنا نقول: هل النبي بَلِيَّةٌ لِلنَّاسِ يمكن أن يُذنب؟

فنقول: إن النبي وَعَلَى قد قال كلمة عامة وهي: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»^(١). وقال الله له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَيَبْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ۚ﴾ [البقرة: ١-٣]. وقال الله تعالى له: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۖ﴾ [محمد: ١٩]. ولكن الرسول بَلِيَّةٌ لِلنَّاسِ معصوم من كل ذنب يخدش الرسالة بالاتفاق، مثل: الكذب، والخيانة، وما أشبه ذلك، حتى إنه قال بَلِيَّةٌ لِلنَّاسِ: «ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين»^(٢). أي: أنه لا يمكن أن يأتي بشيء يُعدّ خيانة حتى بالإشارة.

أما ما لا يخدش الرسالة فإنه قد يقع من البشر؛ لأن البشر على اسمه: بشر. يقع منه، لكن إذا تاب عليه صار خيرا منه قبل التوبة، ولهذا لم يحصل الاجتناء والهداية لآدم إلا بعد أن عصى ثم تاب، قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۚ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ۚ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]. فهذا القول هو الصحيح في مسألة وقوع الذنوب من الأنبياء، ولكنهم يمتازون عن غيرهم بالإضافة إلى ما سبق من أنهم لا يمكن أن يقع منهم من الذنوب ما يخدش الرسالة، مع أنهم لا يقرّون على ذنب، فلا يمكن أن يقرّوا على ذنب، بل لابد أن ينبّهوا إليه حتى يرجعوا، بخلاف غيرهم، فإن الإنسان قد يغتمى عن الحق، ويبقى على الذنب إلى أن يموت، أما الأنبياء فمعصومون من الاستمرار فيه، بل لابد أن يهتدى الله لهم ما يتوبون به.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وأحمد (١٩٨/٣)، والحاكم (٢٥١/٤)، والبيهقي (٣٦٩/٣).

(٢) أخرجه أبوداود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٤٠٧٨)، والبيهقي (٢١٢/٩).

وَأَمَّا مَنْ مَنَعَ الذَّنْبَ مُطْلَقًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ الْآيَاتِ تَرُدُّ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [البقرة: ٢٠]. فَكَيْفَ يُجِيبُ عَنْ هَذَا؟

قَالَ: هَذَا مَجَازٌ وَالْمَعْنَى: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذُنُوبِ أَمْتِكَ وَمَا تَأَخَّرَ. وَهَذَا مِنْ أَعْدٍ مَا يَكُونُ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: إِنْ قُلْتُمْ كَذَلِكَ فَكَيْفَ تُجِيبُونَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَنْتَهِ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَهَدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ① وَبَصْرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ②؟ وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَتَعَتَّبُوا فَكَيْفَ تُجِيبُونَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾؟ وَكَيْفَ تُجِيبُونَ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ نَفْسِهِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دَقَّهُ وَجَلَّهُ، عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ» ③. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُجِيبُوا عَنْ ذَلِكَ: بِأَنَّ الرَّسُولَ إِنَّمَا قَصَدَ التَّعْلِيمَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَصَدَ التَّعْلِيمَ فَيُمْكِنُهُ أَنْ يُعَلِّمَ بِدُونِ أَنْ يُضَيِّفَ الذَّنْبَ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَضَافَ الذَّنْبَ إِلَى نَفْسِهِ وَهُوَ لَمْ يُذْنِبْ، كَانَ هَذَا جِنَايَةً عَلَى النَّفْسِ، وَهِيَ نَفْسٌ بَشَرِيَّةٌ مُتَصَفَّةٌ بِالرَّسَالَةِ، فَكَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: اسْتَغْفِرُوا مِنْ ذُنُوبِكُمْ. كَمَا قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» ④.

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْقَوْلَ الرَّاجِحَ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَدْلَةُ هُوَ: مَا أَسْلَفْنَا مِنْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ مِنَ الْإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ مُطْلَقًا.

ثَانِيًا: مَعْصُومُونَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ يَخْدُشُ بِالرَّسَالَةِ، مِنْ كَذِبٍ، وَخِيَانَةٍ، وَغَشٍّ، وَسُرْقَةٍ، وَزِنًا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ كُلَّ هَذَا يُؤْثِّرُ عَلَى الرَّسَالَةِ.

❖ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ٨٧]. هَذَا أَيْضًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْرُمُ عَلَيْهِ أَنْ يُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُ.

وَفِي هَذَا: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ رَبَّنَا وَجَّعَ أَرْحَمُ بَنَّا مِنْ أَنْفُسِنَا؛ حَيْثُ نَهَانَا أَنْ نَمْنَعَ أَنْفُسَنَا مِمَّا أَحَلَّ لَنَا، وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ هَذَا غَايَةَ الْإِنْكَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٤٨٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٠٧).

❖ وقوله: ﴿طَيَّبَتْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. هذا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها؛ لأن كل ما أحلَّ الله لنا فهو طيبٌ، كما قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

❖ وقوله - في الحديث -: «زَعَمَ عطاءٌ». وقوله: «سَمِعْتُ عائشةَ تَزْعُمُ» الزعمُ يُطْلَقُ على القولِ، وهو في الأكثرِ يطلقُ على القولِ الذي لا حقيقةَ له، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ [النحاش: ٧]. ولكنه يُطْلَقُ أيضًا أحيانًا على القولِ الصادقِ كما هنا.

وفي هذا الحديث: دليلٌ على أن الغيرةَ بين الضراتِ ثابتةٌ حتى بين أفضلِ ضراتٍ في هذه الأمة، وهن زوجاتُ النبي ﷺ، فإنهن تَقَعُ بينهم الغيرةُ كما تَقَعُ بين سائرِ النساءِ. **وفيه أيضًا:** دليلٌ على أن الغيرةَ إذا حَمَلَتِ الإنسانَ على ما يَكْرَهُ، فإنه لا يُؤَاخِذُ بذلك، حتى إن بعضَ أهلِ العلمِ يَقُولُ: إذا قَذَفَ شخصٌ شخصًا على سبيلِ الغيرةِ فإنه لا يُحَدُّ؛ لأن هذا شيءٌ يأتي رغماً عن الإنسانِ فلا يَمْلِكُ نفسه عنده.

❖ وقوله: ﴿إِنْ نُبَوِّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [البقرة: ٢٥]. يعني: عائشةٌ وحفصةٌ، وعائشةٌ هي بنتُ أبي بكرٍ، وحفصةٌ بنتُ عمرَ، فأبواهما وزيرَا رسولِ الله ﷺ، وهما من أحطَى النساءِ عندَ النبي ﷺ، ومع ذلك اتفقتا على هذا، وإنما قلن ذلك للرسولِ ﷺ غيرةً؛ لأجلِ ألا يَشْرَبَ مرةً ثانيةً عندَ زينبَ إذ كيف تسقيه العسلَ، ونحن لا نَسْقِيهِ.

❖ وقوله: أكلت مغافير. المغافيرُ نبتٌ كَرِيهُ الرائحةِ، إذا أَكَلَ منه النَّحْلُ، فإنه قد يَظْهَرُ ذلك في العسلِ الذي يَخْرُجُ مِنَ النَّحْلِ.

❖ وقوله: ﴿إِنْ نُبَوِّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾. إعرابُ هذه الآيةِ هكذا:
إن: حرفُ شرطٍ، تتوبا: فعلٌ الشرطِ.

فقد صغت: جوابُ الشرطِ، واقرن بالفاء؛ لوجود «قد» في الجوابِ، قال الناظمُ:

اسمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وبجَامِدٍ وبِهَا وَلَنْ وَقَدْ وَبِالتَّنْفِيسِ

هذا هو الإعرابُ على القواعدِ النَّحْوِيَّةِ الْمُقَرَّرَةِ، إلَّا أن قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾. ليس هو جوابُ الشرطِ؛ لأن ميلَ القلوبِ كان قبلَ التوبةِ ولو كان جوابًا له لكان بعده، لكنَّ الجوابَ محذوفٌ. ﴿إِنْ نُبَوِّأَ إِلَى اللَّهِ﴾. مثلاً: يَتَّبَعُ عليهما، أو ما أشبه ذلك، أو فواجبٌ عليهما التوبةُ.

أما قلوبٌ: فهي جمعٌ وهنا يُشكِّلُ علينا: كيف جمع القلوب، مع أن الله يَقُولُ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الْجَنْثَانِ: ٤]. وهما امرأتان؟

والجواب: أنه إذا أُضِيفَ المتعدِّي إلى جمع فالأفصحُ فيه: الجمعُ، ثم الإفرادُ، ثم التثنيةُ، فإذا أُضِيفَ إلى مثني فإنه يُقَالُ: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ أفضلُ، ولو كان في غير القرآن لقلنا: قَلْبَاكُمْ. وقلنا: قَلْبُكُمْ. لأن المفردَ المضافَ يُفيدُ العمومَ ما لم يَكُنْ في ذلك لَبْسٌ، فإن كان فيه لَبْسٌ فإنه يَجِبُ أن يُصاغَ على ما يزول به اللَّبْسُ. فإذا قلتَ وأنت تخاطبُ رجلينِ عندهما عَشْرَةٌ عبيدٍ: أعتقا عبيدكما. وأنت تريدُ جميعَ العبيدِ، فلازمُ أن تأتي بالجمع؛ لأنك لو قلتَ: عبدكما. لم تَدُلَّ الجملةُ إِلَّا على عَبدَيْنِ من عَشْرَةٍ، ولو قلتَ: عبدكما لم تَدُلَّ إِلَّا على عبدٍ واحدٍ مشتركٍ. فإذا كان يَخْشَى اللَّبْسَ من مخالفةِ الواقعِ وَجِبَ أن يُصاغَ المرادُ على حَسَبِ الواقعِ، إن جمعا فجمعٌ، وإن مثني فمثني، وإن مفردًا فمفردٌ، وإلا فإن القاعدةَ: الجمعُ، ثم الإفرادُ، ثم التثنيةُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٦- باب الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُؤْتُونَ النَّذَرَ﴾ [الْأَنْتَ: ٧].

٦٦٩٢- حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا فُلَيْحُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ الْحَارِثِ، أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: أَوْلَمْ يُنْهَوْا عَنِ النَّذْرِ، إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ النَّذَرَ لَا يَقْدَمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخَّرُ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِالنَّذْرِ مِنَ الْبَخِيلِ»^(١).

٦٦٩٣- حَدَّثَنَا خَلَادُ بْنُ يَحْيَى، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ مَنْصُورٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرَّةٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النَّذْرِ وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا وَلَكِنَّهُ يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»^(٢).

٦٦٩٤- حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنْ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَأْتِي ابْنَ آدَمَ النَّذْرُ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قُدْرَ لَهُ، وَلَكِنْ يُلْقِيهِ النَّذْرُ إِلَى الْقُدْرِ قَدْ قُدِّرَ لَهُ فَيُسْتَخْرَجُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ، فَيُؤْتِي عَلَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ يُؤْتِي عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ»^(٣).

(١) أخرجه مسلم (١٦٣٩).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٤٠).

❦ قَالَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: بَابُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ. وَلَمْ يَقُلِ الْمُؤَلِّفُ: بَابُ النَّذْرِ. لِأَنَّ النَّذْرَ لَهُ جِهَتَانِ:

الْجِهَةُ الْأُولَى: إِنْشَاءُ النَّذْرِ.

وَالْجِهَةُ الثَّانِيَّةُ: الْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ.

أَمَّا إِنْشَاءُ النَّذْرِ: فَإِنَّهُ مَكْرُوهٌ بِكُلِّ حَالٍ.

وَأَمَّا الْإِيفَاءُ بِالنَّذْرِ، فَإِنَّهُ أَقْسَامٌ تَخْتَلِفُ فَإِنْشَاءُ النَّذْرِ مَكْرُوهٌ لِلْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَأَمَّا الْإِيفَاءُ فَإِنْ نَذَرَ طَاعَةً وَجَبَ عَلَيْهِ الْوَفَاءُ؛ لِأَنَّ الطَّاعَةَ بِالنَّذْرِ تَكُونُ فَرِيضَةً؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعه»^(١). سِوَاهُ كَانَ النَّذْرُ مُطْلَقًا أَوْ مُعَلَّقًا.

فَالْمُطْلَقُ مِثْلُ: أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ. فَهَذَا مُطْلَقٌ.

وَالْمُعَلَّقُ مِثْلُ: أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ إِنْ نَجَحْتُ أَنْ أَصُومَ يَوْمَيْنِ. فَهَذَا نَذْرٌ مُعَلَّقٌ.

أَوْ: إِنْ شَفَى اللَّهُ مَرِيضِي فَلِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ شَهْرَيْنِ.

أَوْ مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْجُهَّالِ بِقَوْلِهِ: إِنْ جَاءَ اللَّهُ لَوْلَدِي بَوْلِدٍ وَرَأَيْتُهُ يَمْشِي، فَلِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ سِتِّينَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهَذَا نَذْرٌ مُعَلَّقٌ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، كَمَا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِالْمُطْلَقِ؛ لِعُمُومِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعه»^(٢).

أَمَّا نَذْرُ الْمَعْصِيَةِ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِه»^(٣).

مِثَالُهُ: أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ يَوْمَ الْعِيدِ. فَهَذَا لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ، لَكِنْ: هَلْ يُعْتَبَرُ

مَنْعَقْدًا أَوْ لَا؟

يَرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّهُ يَنْعَقِدُ، وَبَنَاءً عَلَى هَذَا يَقْضِي يَوْمًا وَيُكْفِّرُ.

وَيَرَى آخَرُونَ: أَنَّهُ لَا يَنْعَقِدُ؛ لِأَنَّهُ نَذْرُ مَعْصِيَةٍ لَا حَكَمَ لَهُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٤). وَعَلَى هَذَا فَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ قِضَاءُ الْيَوْمِ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ كَفَّارَةٌ؛ لِأَنَّهُ نَذْرٌ لَاغٍ. وَهَذَا قَوْلٌ قَوِيٌّ، لَكِنْ قَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ بِأَنَّهُ عَلَيْهِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ؛ يَعْنِي:

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٦٦٩٦).

(٢) انْظُرِ التَّعْلِيلَ السَّابِقَ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٦٦٩٦).

(٤) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٢٥٥٠)، وَمُسْلِمٌ (١٧١٨) وَاللَّفْظُ لَهُ.

لَا يُؤْفَى وَلَكِنْ عَلَيْهِ كَفَّارَةٌ يَمِينٍ.

وَأَمَّا نَذْرُ الْمُبَاحِ فَيُخَيَّرُ بَيْنَ فِعْلِهِ وَبَيْنَ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، وَفَعَلَهُ أَفْضَلُ.

مَثَلُ: أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَلْبَسَ ثَوْبِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ. فَإِنْ شَاءَ لَبِيسُهُ وَإِنْ شَاءَ كَفَّرَ كَفَّارَةَ

يَمِينٍ؛ لِأَنَّ هَذَا النَّذْرَ حَكَمُهُ حَكْمُ الْيَمِينِ.

الرابع: نَذْرُ اللَّجَاجِ وَالْغَضَبِ وَهُوَ: مَا يَحْصُلُ مِنَ الْإِنْسَانِ مِنَ النَّذْرِ لِقَصْدِ التَّصَدِيقِ بِمَا يَقُولُ، أَوْ تَكْذِيبِ مَا يَقُولُهُ خَصْمُهُ، أَوْ الْحَثِّ عَلَى الشَّيْءِ، أَوْ الْمَنْعِ مِنَ الشَّيْءِ. فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَغْرَاضٍ لِنَذْرِ اللَّجَاجِ وَالْغَضَبِ.

مَثَالُهُ: حَدَّثَنَا رَجُلٌ بِحَدِيثٍ فَقُلْنَا: هَذَا كَذِبٌ. فَقَالَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ إِنْ كَانَ كَذِبًا أَنْ أَصُومَ سَتَيْنِ. وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا النَّذْرِ هُوَ تَصَدِيقُ قَوْلِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَالَ هَذَا الْكَلَامَ فَقَدْ عَرَفْنَا أَنَّ الرَّجُلَ صَادِقٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُرِيدُ أَنْ يَصُومَ سَتَيْنِ. وَالتَّكْذِيبُ عَكْسُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

مَثَالُهُ: رَجُلٌ حَدَّثَهُ آخَرٌ بِحَدِيثٍ فَقَالَ: هَذَا كَذِبٌ، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَلِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ سَتَيْنِ. فَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا تَكْذِيبُ الرَّجُلِ.

وَالْمَنْعُ مَثَلُ أَنْ يَقُولَ: إِنْ كَلَّمْتُ فَلَانًا فَلِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ سَتَيْنِ. فَهَذَا النَّذْرُ الْغَرَضُ مِنْهُ الْمَنْعُ.

وَالْحَثُّ عَكْسُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، مَثَلُ أَنْ يَقُولَ: إِنْ لَمْ أَكَلِّمْ فَلَانًا اللَّيْلَةَ فَعَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ سَتَيْنِ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا النَّذْرِ هُوَ الْحَثُّ.

فَفِي هَذِهِ الْحَالِ نَقُولُ: أَنْتَ الْآنَ لَا يَلْزَمُكَ أَنْ تَفِي بِمَا نَذَرْتَ، وَلَكِنْكَ تُخَيَّرُ بَيْنَ فِعْلِهِ وَبَيْنَ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ؛ لِأَنَّ هَذَا النَّذْرَ حَكَمُهُ حَكْمُ الْيَمِينِ.

الخامس من أنواع النذر: النذر المطلق. مَثَلُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ. وَيَسْكُتُ، فَهَذَا يَكْفِيهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ؛ لِحَدِيثِ أَخْرَجَهُ أَهْلُ السَّنَنِ: «كَفَّارَةُ النَّذْرِ إِذَا لَمْ يُسَمَّ كَفَّارَةُ يَمِينٍ»^(١).

فَهَذِهِ أَنْوَاعُ النَّذْرِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، وَهِيَ مَعْلُومَةٌ بِالِاسْتِقْرَاءِ.

إِذَا: فَلَيْسَ هُنَاكَ نَذْرٌ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ إِلَّا نَذْرُ الطَّاعَةِ فَقَطْ بِشَرَطِ أَلَّا يَكُونَ مِنْ قِسْمِ اللَّجَاجِ وَالْغَضَبِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٦٤٥) دُونَ قَوْلِهِ: «إِذَا لَمْ يُسَمَّ».

❖ وقوله: «أو لم يُنْهَوْا عن النذر». الذي نهاهم هو رسول الله ﷺ.

❖ وقوله: «إن النذر لا يُقدَّم شيئاً ولا يؤخَّرُ، وإنما يُستخرجُ بالنذرِ من البخيلِ»؛ وذلك لأن كثيراً من الناس يظنون أن النذر يُقدَّم ويؤخَّرُ، فإذا ضاقت بهم الضوائق نذروا، ولكن هو كما قال النبي ﷺ: «يُستخرجُ به من البخيلِ». لأن الغالب أن الإنسان يَنْذِرُ مالا والبخيل لا يُخرجُ المالَ، لكن إذا كان نذراً أخرجَهِ غَضَباً عنه.

❖ وقوله: «لا يأتي ابن آدمَ النذرُ بشيءٍ لم يكنْ قُدْرَ له، ولكن يُلقِيه النذرُ إلى القدرِ قد قُدِّرَ له، فيستخرجُ الله من البخيلِ فيؤتِي عليه - أي: على نذره - ما لم يكنْ يُؤتَى عليه من قبل». هذا سياقٌ جيدٌ، أجودٌ من حديثِ ابنِ عمرَ.

فعلى هذا لو قال المريض مثلاً: إن شفاني الله لأصومن شهرين. فإننا نقول له: هذا النذر لا يأتيك بشيءٍ، فإن كان الله قد قَدَّرَ لك الشفاء فسوف تُشفى بلا نذرٍ، وإن لم يُقدِّرْ لك الشفاء فإنه لا يَنْفَعُكَ هذا النذرُ بشيءٍ.

لكن إذا نذرَ فإن النذرَ يُلقِيه إلى القدرِ قد قُدِّرَ له، فيستخرجُ الله من البخيلِ. هذا إذا كان قد نذرَ مالا، وفي المثال الذي ذكرنا قد نذرَ صوماً، فهذا أتى عليه النذرُ بشيءٍ لم يكنْ يَفْعَلْهُ من قبل وهو الصومُ، ولهذا قال: «فيستخرجُ الله من البخيلِ فيؤتِي عليه ما لم يكنْ يُؤتَى قبل». وقد اختلف العلماء رحمهم الله في النذر: هل هو مكروهٌ أو محرَّمٌ؟

والقول بالتحريم أقرب إلى الصواب من القول بالكراهة، وذلك لأن الرسول ﷺ نهى عنه وقال: «إنه لا يأتي بخير»، وإذا كان لا يأتي بخير فهو يأتي بشرٍّ، وإلى هذا مال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله؛ أي: إلى أن النذر حرامٌ، وهو قولٌ قويٌّ وجيهٌ من جهة الدليل. ومن جهة التعليل، فإن الإنسان يُلْزَمُ نفسه بشيءٍ هو في عافية منه، والإنسان لا يَنْبَغِي له أن يُلْزَمَ نفسه بما لم يُلْزَمْه الله به، بل يَحْمَدُ الله على العافية، فإذا ألْزَمَ نفسه بشيءٍ لم يُلْزَمْه الله به كان في هذا شيءٌ من الجِنَايَةِ على نفسه.

ويَدُلُّك لهذا أن الذين يَنْذِرُونَ نَدَمًا عَظِيمًا، وأحياناً لا يَقُومُونَ بما نذروا، وحينئذٍ يُخْشَى عليهم من العقوبة العظيمة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥). فهو لا يَنْذِرُوا بأن الله إن آتاهم من فضله تصدَّقُوا وصلَّحُوا، فلما آتاهم من فضله بخلُوا به وتولَّوا وهم مُعْرِضُونَ،

فَكَانَتِ الْعُقُوبَةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧) [البقرة: ٧٧]. فَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَنْدُمُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ النَّذْرِ، ثُمَّ يَتَهَاوُونَ وَلَا يُؤْفُونَ، فَيُخْشَى عَلَيْهِمْ أَنْ تَحِلَّ بِهِمْ هَذِهِ الْعُقُوبَةُ وَهِيَ: أَنْ يَعْقِبَهُمُ اللَّهُ نِقَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ.

وَلِهَذَا أَرَى مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى طَلِبَةِ الْعِلْمِ أَنْ يُبَيِّنُوا كَثِيرًا لِلنَّاسِ أَنَّ النَّذْرَ أَقْلُ أَحْوَالِهِ الْكَرَاهَةِ، وَأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى النَّدَمِ، وَهَذَا وَقَعَ كَثِيرًا.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٧- بَابُ إِثْمٍ مَنْ لَا يَفِي بِالنَّذْرِ.

٦٦٩٥- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ شُعْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو جَمْرَةَ، حَدَّثَنَا زُهْدَمُ بْنُ مَضْرِبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» - قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي ذَكَرْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا بَعْدَ قَرْنِهِ - ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ يَنْدُرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ^(١).

قَوْلُهُ: بَابُ إِثْمٍ مَنْ لَا يَفِي بِالنَّذْرِ؛ لِأَنَّ الْوَفَاءَ بِالنَّذْرِ وَاجِبٌ، وَتَرْكُ الْوَاجِبِ يَسْتَلْزِمُ الْإِثْمَ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ رُتِبَ عَلَيْهَا الْإِثْمُ مَا عَدَا الشَّرْكَ بِاللَّهِ فَإِنَّهَا تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، وَلِهَذَا يُقَالُ مَثَلًا: الْوَاجِبُ يَسْتَحِقُّ تَارُكُهُ الْعِقَابَ، وَلَا يُقَالُ: يُعَاقَبُ. إِلَّا إِذَا أَرَادَ الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ: يُعَاقَبُ؛ أَي: حَكَمًا لَا عَيْنًا، فَهَذَا صَحِيحٌ، أَمَا عَيْنُ الشَّخْصِ فَلَا تَجْزِمُ بِأَنَّهُ يُعَاقَبُ كُلُّ مَنْ تَرَكَ وَاجِبًا، أَوْ كُلُّ مَنْ فَعَلَ مُحَرَّمًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْرِفُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَتَعْرِفُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [الشعراء: ٤٨].

فَقَوْلُ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِثْمٌ مَنْ لَا يَفِي بِالنَّذْرِ». يُرَادُ بِهِ الْجَنْسُ وَالْحَكْمُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الشَّخْصُ، فَالشَّخْصُ لَا تَجْزِمُ بِأَنَّهُ يَأْتُمُّ فَقَدْ يُعْفَى عَنْهُ.

وقوله: «مَنْ لَا يَفِي بِالنَّذْرِ». يَعْنِي: النَّذْرَ الَّذِي يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَهُوَ نَذْرُ الطَّاعَةِ، وَقَدْ

سَبَقَ لَنَا أَنَا قَسَمْنَا النَّذَرَ إِلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ، وَبَيْنَا حَكَمَ كُلِّ قَسَمٍ.
 ❖ وقوله: «خيركم قرني..» إلى آخره. قوله: «خيركم» الخطاب فيه للصحابية مباشرة، وللأمة حكمًا، فهو للأمة جميعًا.

❖ وقوله: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» - قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي ذَكَرَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثًا. المعروف أنه ذكر اثنتان بعد قرنه، وهو الذي يُعْبَرُ عنه العلماء بالقرون الثلاثة الْمُفَضَّلَةِ.
 ❖ وقوله: «ثم يجيء قومٌ يَنْذُرُونَ وَلَا يُفُونَ». هذا الشاهد من هذا الحديث وهذا على سياق الذم؛ يَعْنِي: يَنْذُرُونَ وَلَا يُفُونَ، والنذر يُرَادُ بِهِ هُنَا النَّذَرُ لِلَّهِ ﷻ، وَيَشْمَلُ مَا هُوَ أَعَمُّ، فَيَشْمَلُ الْعَهْدَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، فَتَجِدُهُ يُعَاهَدُ وَلَا يَفِي.

❖ وقوله: «وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ». قد يقول قائل: إن المتبادر أن يقول: يُؤْتَمِنُونَ فَيَخُونُونَ. وهنا قدّم الخيانة فقال: «يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ».

نقول: المعنى يَخْتَلِفُ اخْتِلَافًا عَظِيمًا؛ لِأَنَّهُ إِذَا قِيلَ: يُؤْتَمِنُونَ فَيَخُونُونَ. فمعناه أنه تَقَعُ مِنْهُمْ الْخِيَانَةُ مَرَّةً وَاحِدَةً، أَمَا إِذَا قَالَ: «يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ». فمعناه: أن الخيانة سَجِيَّةٌ وَخُلُقٌ لَهُؤُلَاءِ، فَهُمْ يَخُونُونَ وَلَا يَأْتَمِنُهُمُ النَّاسُ؛ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ خَوَنَةٌ.

❖ وقوله: «وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ». أي: يشهدون بالشيء مِّنْ غَيْرِ أَنْ تُطْلَبَ مِنْهُمْ الشَّهَادَةُ، وَلَكِنْ مَا مَعْنَى: مِّنْ غَيْرِ أَنْ تُطْلَبَ مِنْهُمْ الشَّهَادَةُ؟ هل المعنى: مِّنْ غَيْرِ أَنْ تُطْلَبَ مِنْهُمْ الشَّهَادَةُ أَدَاءً، أَوِ الْمَعْنَى: مِّنْ غَيْرِ أَنْ تُطْلَبَ الشَّهَادَةُ تَحْمِيلاً؛ أَيْ: يَشْهَدُونَ بِشَيْءٍ لَا يَعْلَمُونَهُ؟

نقول: الحديث مُحْتَمِلٌ لِهَذَا وَهَذَا، فَعَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي: لَا إِشْكَالَ فِي ذَمِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ بِدُونِ أَنْ يَتَحَمَّلُوا الشَّهَادَةَ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا شَهِدُوا بِدُونِ أَنْ يَتَحَمَّلُوا صَارُوا شُهَدَاءَ زُورٍ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ مِنَ أَكْبَرِ الْكِبَايِرِ.

أما على المعنى الثاني وهو الذي صَدَّرْنَا بِهِ الْكَلَامَ وَهُوَ: أَنْ يُؤَدُّوا الشَّهَادَةَ قَبْلَ أَنْ تُسْأَلَ مِنْهُمْ. فلهذا فيه إشْكَالٌ حَيْثُ إِنَّ ظَاهِرَهُ يُعَارِضُ قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»^(١).

وقد اختلف العلماء في الجمع بينهما:

ف قيل: إن معنى قوله: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بأفضل الشهداء؟» الذي يَأْتِي بالشهادة قبل أن يُسألها». يُحْمَلُ على أحدٍ معنيين:

المعنى الأول: أن هذا كناية عن سرعة المبادرة بالشهادة، بحيث يَكُونُ مِنْ شِدَّةِ مبادرته إذا احتجج إليه فكأنما يُؤدِّيها قبل أن يُسألها؛ أو أن يُحْمَلَ هذا على شخص له شهادة لآخر دون أن يَعْلَمَ المشهود له، ففي هذه الحال يُؤدِّيها قبل أن يسألها لأن المشهود له لم يَعْلَمْ، وهذا يقع كثيراً كأن يَسْمَعَ شخصٌ شخصاً مِنَ الناسِ يُقرُّ لآخر بحقٍّ، وهو لا يَعْلَمُ أنه يَسْمَعُ. ولنفرض أن رجلاً كان نائماً في المسجد، ويتحدَّثُ حوله رجلان، فقال أحدهما للثاني: أَتَذْكُرُ حينَ أقرضتكَ مائة ألفِ ريالٍ. فقال: نعم أَتَذْكُرُ ذلك، وهي عندي لك. ثم بعد ذلك أنكر المُقرُّ - وهما يظنان أن هذا الرجل نائمٌ لم يَسْمَعْ -.

ففي هذه الحال يُؤدِّي الشهادة قبل أن يُسألها؛ لأن صاحب الحق لا يَعْلَمُ بأنه شاهدٌ بذلك، فهذا من خير الشهداء.

إذا: فحديثُ عمرانَ إن أُريدَ بقوله فيه: «يَشْهَدُونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ». أي: يَتَحَمَّلُونَ الشهادة بدون أن يَعْلَمُوا فلا معارضةَ بينه وبين قوله: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بخير الشهداء». وإن أُريدَ به المعنى الثاني، فظاهرهما التعارض، إلا أنه يُحْمَلُ حديثُ زيد بن خالد الجُهَنِيِّ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بخير الشهداء». على أحدٍ معنيين:

إما أنه كناية عن المبادرة بها بحيث لا يَتَقَاعَسُ. أو أنه في حقِّ مَنْ عنده شهادة لا يَعْلَمُ بها صاحبُ الحقِّ. أما قوله: «ويُظْهَرُ فيهم السَّمَنُ». السَّمَنُ في الواقع مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ﷻ، ولا تَصَرَّفُ للإنسانِ فيه، فقد يُحِبُّ الإنسانُ أن يَكُونَ خفيفَ اللحمِ ولكنه يَسْمَنُ، وقد يُحِبُّ أن يَكُونَ سميناً ولكن لا يَنَالُ السَّمَنَ، فكيف يُلامُّ الناسُ على أمرٍ لا حيلةَ لهم به.

نقول: إن المراد بذلك أن هؤلاء القومَ يَعْتَنُونَ بتربيةِ أبدانهم وتسمينها، كما تُسَمَّنُ الشاةُ في المراعي الجيدة، فتَجِدُ الواحدَ منهم ليس له هَمٌّ إلا أكله، وما يُتَرَفُّ بدنه، وهذا لا شك أنه يَشْغَلُ القلبَ عن ما هو أهمُّ وهو تسمينُ الرُّوحِ بالعلمِ والإيمانِ. فهؤلاء الناسُ لا يَهْتَمُّونَ إلا بتسمينِ أبدانهم، وإترافِ أبدانهم، ولا يَهْتَمُّونَ بغير ذلك، فيُظْهَرُ فيهم السَّمَنُ.

ولهذا نَجِدُ أنه كلما كَثُرَ هَمُّ الإنسانِ قَلَّ لحمُه في الغالبِ.

وقد ذَكَرَ لنا ونحن صغارُ أن رجلاً ابتُلِيَ بكثرة اللحم وصار سميناً جداً، فذهب إلى طبيبٍ، فجعل الطبيبُ يَفْحَصُه، وَيَجْسُسُ جميعَ بدنه، ثم قال له: إنك سوف تَمُوتُ بعدَ أربعينَ يوماً - أو قال: بعدَ عشرينَ يوماً، نَسِيتُ - فأخذه الهَمُّ، فصار لا يَنَامُ في الليل، ولا يَأْكُلُ في النهارِ، فما مضى نصفُ المدةِ إلّا وقد خَفَّ وَزَنُه كثيرًا، فلما انقَضَتِ المُدَّةُ لم يَرِ موتًا، فذهب للطبيب، وقال له: أين الموتُ؟ فقال له الطبيبُ: أحمَدُ ربِّكَ أن اللهَ أَحْيَاكَ، أنا أريدُ منك أن تصابَ بالهَمِّ فينزلَ وزَنُكَ، وأما الموتُ فعلمه عند الله، وهذه كانوا يقصونها علينا ونحن صغار، والله أعلم بصحتها، ولكن يُخشى بعد ما نجا من الموتِ أن يفرَحَ فيعودَ عليه اللحم أكثر.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٢٨- باب النَّذْرِ فِي الطَّاعَةِ. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ

كَذِبٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧٠].

٦٦٩٦- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ الْقَاسِمِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِيعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ».

[الحديث ٦٦٩٦ - طرفه في: ٦٧٠٠].

❦ قوله ﷺ: «﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ كَذِبٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾﴾. ﴿مَنْ﴾ هذه للبيان؛ لأنها جاءت بعد مبهم، فإن اسم الشرط من الأسماء المبهمة، فإذا جاء بعده «من» صارت للبيان.

❦ و«﴿نَفَقَةٍ﴾» هنا نكرة في سياق الشرط فتكون عامةً، فتشمل كل نفقة قليلة وكثيرة.

❦ «﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ كَذِبٍ﴾» معطوف على الجملة الشرطية.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالنَّذْرِ هُنَا مَا يُلْزِمُ الْإِنْسَانَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ جَمِيعُ الْوَاجِبَاتِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَلَبَّسَ بِالْوَاجِبِ صَارَ كَالنَّذْرِ فِي وَجوبِ الْوَفَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ: كُلُّ مَنْ دَخَلَ فِي وَاجِبٍ؛ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ قَطْعُهُ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ. فَإِذَا دَخَلَ فِي قَضَاءٍ رَمَضَانَ مَثَلًا فَصَامَ حَرُمَ عَلَيْهِ أَنْ يُفْطِرَ.

فإذا كان عليه كفارة يمين فصام، حُرِّمَ عليه أن يُفْطِرَ.

فكُلُّ الواجباتِ إذا شَرَعَ الإنسانُ فيها صارتْ نَذْرًا، ولهذا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْحَجِّ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

وهذا القولُ هو الصحيحُ: أن المراد بالنذرِ هنا ما أَوْجَبَهُ الإنسانُ على نَفْسِهِ بالدخولِ فيه، وهذا هو الشروعُ في الواجباتِ.

أما النذرُ الذي يُلْزِمُ الإنسانُ به نَفْسَهُ فهذا وإن كان اللهُ يَعْلَمُهُ بلا شكٍّ وَيَحَاسِبُ عليه، لكن ليس هو مِنَ الأمورِ التي تُحْمَدُ وَيُسَنُّ لِلإنسانِ فعلُهُ.

❦ وقوله: ﴿فَاتَّكَلَّ اللَّهُ يَعْلَمُهُ﴾. دائمًا يُعَبِّرُ اللهُ عَنِ الجِزَاءِ بِالْعِلْمِ؛ لأنَّ عِلْمَ اللهِ بِالشَّيْءِ يَتَرْتَّبُ عليه أثرُهُ وهو المُجَازَاةُ، وقد يَكُونُ هناك مُبْطِلٌ يُبْطِلُ هذا العملَ فلا يَكُونُ هناك ثوابٌ، فالتعبيرُ بِالْعِلْمِ أعمُّ مِنَ التعبيرِ بِالثوابِ؛ وإن كانت الآياتُ في التعبيرِ بِالثوابِ كثيرةً.

وهناك أيضًا نُكْتَةٌ أُخْرَى في التعبيرِ عن المراد بِالْعِلْمِ وهي: أن الإنسانَ يَعْلَمُ أنه لن يَضِيعَ من هذا العملِ شَيْءٌ؛ لأنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ.

وأحيانًا يَذْكُرُ اللهُ سُبْحَانَهُ الثَّوَابَ بِالْإِنْبَاءِ كما في قوله تَعَالَى: ﴿قُلْ لِي وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التكوير: ٧]. والله إذا أَخْبَرَ بِالْعَمَلِ فهو: إما أن يُجَازِيَ عليه، وإما أن يَعْفُوَ عنه إن كان إثمًا، وإن كان خيرًا جَازَى عليه الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أمثالِها كما هو معلومٌ.

❦ وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾. «مِنْ»: حرفُ جَرٍّ زائدٌ. و«أنصار»: مبتدأ مؤخر مرفوعٌ، وعلامةُ رَفْعِهِ الِئْتِمَامُ المُقَدَّرُ، مَنعٌ مِنْ ظُهُورِهَا اشْتِغَالُ المَحَلِّ بِحَرَكَةِ المُنَاسِبَةِ. «لِلظَّالِمِينَ» جَارٌّ ومَجْرُورٌ متعلقٌ بِمَحذُوفٍ خبرٌ مُقَدَّمٌ. و«مِنْ» زائدةٌ لَفْظًا زائدةٌ مَعْنَى، فهي زائدةٌ زائدةٌ.

❦ وقوله: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهْ». أي: أن نَذَرَ الطاعةَ لآبِدٍ مِنْ فِعْلِهِ، فإن لم يَفْعَلِ الإنسانُ كان مُعَرِّضًا نَفْسَهُ لِعُقُوبَةٍ عَظِيمَةٍ ذَكَرَهَا اللهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ. ﴿[التوبة: ٧٥-٧٦]﴾. وذلك ضِدُّ الصَّدَقَةِ «وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ». وذلك ضِدُّ الصَّلاحِ الذي التَزَمُوا به ﴿فَاعَقَبَهُمُ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾. وهذا جِزَاءٌ مِنْ أَعْظَمِ الجِزَاءِ: نِفَاقٌ فِي القَلْبِ، فليس نِفَاقًا عَمَلِيًّا كَنِفَاقِ اللِّسَانِ بِالْكَذِبِ، أو بِالْخِيَانَةِ، وما

أشبه ذلك، بل هو نفاق قلبي إلى الموت - نَعُوذُ بِاللَّهِ - ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ، بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧: آل عمران). فهم جَمَعُوا بَيْنَ إِخْلَافِ اللَّهِ مَا وَعَدُوهُ، وَالْكَذِبِ. فأما نذرُ المعصية فقال ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ». ولكن: هل يَلْزَمُهُ كَفَّارَةٌ أَوْ لَا؟ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُ يَلْزَمُهُ الْكَفَّارَةُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا نَذَرَ فِي مَعْصِيَةٍ، وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةٌ يَمِينٌ» (١).

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا تَلْزَمُهُ الْكَفَّارَةُ.

وَالْقَوْلُ بِلِزُومِ الْكَفَّارَةِ أَحْوْطُ.

فَإِذَا قَالَ مِثْلًا: وَاللَّهِ لَا أَصَلِّيَ الْيَوْمَ مَعَ جَمَاعَةٍ. فَهَذَا نَذَرُ مَعْصِيَةٍ، فَعَلِيهِ أَنْ يُصَلِّيَ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَأَنْ يُكْفِّرَ كَفَّارَةَ يَمِينٍ.

وَلَوْ قَالَ: وَاللَّهِ لَأَعُشَّنَ الْيَوْمَ فِي الْامْتِحَانِ. لَقُلْنَا: يَحْرُمُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْفَى؛ لِأَنَّهُ نَذَرُ مَعْصِيَةٍ، وَعَلَيْهِ كَفَّارَةٌ يَمِينٍ.



ثُمَّ قَالَ الْبَحَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢٩- بَابُ إِذَا نَذَرَ أَوْ حَلَفَ أَنْ لَا يُكَلِّمَ إِنْسَانًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ أَسْلَمَ.

٦٦٩٧- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ أَبُو الْحَسَنِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ، أَخْبَرَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ،

عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ عُمَرَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. قَالَ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ» (٢).

قَوْلُهُ: إِذَا نَذَرَ أَوْ حَلَفَ أَلَّا يُكَلِّمَ إِنْسَانًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ أَسْلَمَ. يَعْنِي: هَلْ يَنْفَكُ الْيَمِينُ وَالنَّذْرُ أَوْ يَبْقَى؟

نَقُولُ: هُنَا شَيْئَانِ: تَعْيِينٌ، وَوَصْفٌ أَوْ سَبَبٌ.

فَالْتَعْيِينُ أَنْ يَقُولَ: وَاللَّهِ لَا أَكَلِّمُ هَذَا الرَّجُلَ. وَالْوَصْفُ أَوْ السَّبَبُ: أَنَّهُ كَانَ جَاهِلِيًّا مُشْرِكًا، فَهَلْ تُقَدِّمُ التَّعْيِينَ، أَوْ تُقَدِّمُ الْمَعْنَى الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ نَذَرَ أَوْ حَلَفَ؟

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٦٤١، ١٦٤٥).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٦٥٦).

نقول: إِنْ كَانَ هُنَاكَ نِيَّةٌ فَإِنَّا نَأْخُذُ بِنِيَّتِهِ، فَقَدْ يَقْصِدُ التَّعْيِينَ.

مَثَلُ: أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخَرٍ مُشَاجَرَةٌ شَخْصِيَّةٌ، فَيَحْلِفُ أَلَّا يُكَلِّمَهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَالِهِ أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُشْرِكٌ. فَهَذَا إِذَا كَلَّمَهُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ يَحْنُثُ؛ لِأَنَّهُ قَصَدَ عَيْنَ الشَّخْصِ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ دِيَانَتِهِ. وَأَحْيَانًا يَحْلِفُ أَوْ يَنْذِرُ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُ؛ لِأَنَّهُ عَلَى الْجَاهِلِيَّةِ، فَهَذَا إِذَا أَسْلَمَ ثُمَّ كَلَّمَهُ فَلَا حَنْثَ عَلَيْهِ؛ لِزَوَالِ الْمَعْنَى الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا نَذَرَ أَوْ حَلَفَ.

وَقَدْ سَبَقَ لَنَا: أَنَّ الْإِيمَانَ يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى نِيَّةِ الْحَالِفِ أَوْ لَا، ثُمَّ إِلَى السَّبَبِ، ثُمَّ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ.

❖ وَقَوْلُهُ: «أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ. عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ هَذَا أَخُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَنَافِعٌ هُوَ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ»، فَاَنْظُرْ كَيْفَ يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَذَا الْعِلْمِ أَقْوَامًا، فَهَذَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ يَرْوِي عَنْ أَخِيهِ بَوَاسِطَةِ نَافِعٍ، وَهُوَ عَبْدٌ؛ لِأَنَّهُ نَافِعًا قَدْ لَازَمَ ابْنَ عُمَرَ، لِذَلِكَ فَإِنْ مَرَّ بِرَأْيِهِ عَنْهُ كَثِيرَةٌ.

❖ وَقَوْلُهُ: «أَنَّ عُمَرَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَذَرْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ. قَالَ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ». قَوْلُهُ: أَنْ أَعْتَكِفَ. الْإِعْتِكَافُ هُوَ: لَزُومُ الْمَسْجِدِ لِبَطَاعَةِ اللَّهِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّذْرَ يَصِحُّ مِنَ الْكَافِرِ؛ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ كَافِرًا حِينَ النَّذْرِ، لَكِنْ بَشَرًا أَنْ يَعْتَقِدَ الْكَافِرُ أَنَّ هَذَا النَّذْرَ عِبَادَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَتَعَبَّدُونَ بِالْإِعْتِكَافِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، كَمَا يَتَعَبَّدُونَ بِالطَّوَافِ فِيهِ.

وَفِيهِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ الْإِعْتِكَافُ بِغَيْرِ صَوْمٍ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ مَحِلًّا لِلصَّوْمِ، وَلَكِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ قَدْ وَرَدَ بِثَلَاثَةِ أَفْظَافٍ: أَنْ أَعْتَكِفَ يَوْمًا، أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً، أَنْ أَعْتَكِفَ يَوْمًا أَوْ لَيْلَةً. بِالشُّكِّ.

فَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ: إِنَّ التَّعْيِينَ بِاللَّيْلَةِ عَنِ الْيَوْمِ وَبِالْيَوْمِ عَنِ اللَّيْلَةِ سَائِغٌ، وَأَنَّ أَصْلَ هَذَا النَّذْرِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ.

(١) يَبْدُو أَنَّ الْإِمَامَ الْعَلَامَةَ ابْنَ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ تَبَسَّ عَلَىهِ الْأَمْرُ هُنَا، فَظَنَّ تَحَلُّفَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ الْمَذْكُورَ هُوَ أَخُو الصَّحَابِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَيْنَمَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ حَفْصِ بْنِ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَحَدِ أَوْثَقِ الرُّوَاةِ عَنْ نَافِعٍ مَوْلَى ابْنِ عُمَرَ، وَهُوَ الْمُلَقَّبُ بـ: «عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ الْعُمَرِيِّ»، وَهَذِهِ قِطْرَةٌ فِي بَحْرِ عِلْمِ الْإِمَامِ ابْنِ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالْإِحَاطَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

ولكن: هل هذا الاعتكاف من باب الأمور المشروعة، أو من باب الأمور الجائزة التي لا تحرّم، لكن لا يُندب إليها؟

الذي نرى أنه من القسم الثاني؛ لأن بعض الأعمال يُقرّها الشارع، لكن لا يشرّعها للأمة على سبيل العموم، وأظن أنه قد مرّ علينا في هذا أمثلة منها:

الرجل الذي كان يَحْتِمُ صلاته كلّما قرأ ب: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿الْإِسْلَامُ: ١﴾ (٢). فأقرّه النبي ﷺ ولكن لم يشرّعه للأمة لا بفعله ولا بقوله، فيما قال: أيها الناس، اختِمُوا صلاتكم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ولا كان هو يفعلُه.

كذلك الوصالُ أقرّهم على أن يواصلوا إلى السَّحَرِ (٣)، لكنه ندبهم إلى أن يُعَجِّلُوا الْفِطْرَ (٤). كذلك أيضًا: سأله رجلٌ عن أمّه قد افتلّت نفسها، وأنه لو تكلمت لتصدّقت. فقال: أَتَصَدِّقُ عنها؟ فقال: «نعم» (٥). ولكن لم يقل للناس: تصدّقوا عن أموالكم، لا الذين ماتوا فجأة، ولا الذين ماتوا بمرض.

كذلك استأذنه سعدُ بنُ عبادَةَ أن يَقِفَ مَخْرَافَه -نَحْلٌ يُخْرَفُ في المدينة- على أمّه بعد موتها فأذن له (٦)، ولكن لم يقل للناس: أوقفوا عقاراتكم لأموالكم. بل أومأ بإرشاده ﷺ إلى خلاف ذلك حيث قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (٧). ولم يقل: يُتبرّع له بصدقة أو وقف مع أن صيغ الحديث في العمل، فكان مقتضى هذا لو كان من الأمور المشروعة أن يذكّر عملاً يجعله الإنسان لو الدية.

على كلّ حال: نحن نقول: لا يسنُّ للإنسان أن يعتكِفَ يومًا أو ليلة، ولكن لو فعل لم نُنكر عليه.

مسألة أخرى: هل يُندبُ للإنسان كلّما دخل المسجد أن يتويّ الاعتكاف فيه؟

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٥٧)، ومسلم (١٠٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤).

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٥٦).

(٦) أخرجه مسلم (٢٦٨٢).

يَرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: أَنَّهُ يُنْدَبُ لَهُ ذَلِكَ، وَيَسْتَدِلُّونَ بِحَدِيثِ عُمَرَ.

وَلَكِنْ نَحْنُ نَقُولُ: لَا يُنْدَبُ لَهَا يَلِي:

أَوَّلًا: لِأَن فَعَلَ عُمَرَ لَيْسَ مَنْدُوبًا عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ.

وِثَانِيًا: أَنَّهُ قِيَاسٌ مَعَ الْفَارِقِ؛ لِأَن عُمَرَ نَذَرَ أَنْ يَعْتَكِفَ، فَهُوَ يُرِيدُ الْمَسْجِدَ لِلِاعْتِكَافِ،

أَمَّا هَذَا فَجَاءَ لِلصَّلَاةِ، وَلَمْ نَعْهَدْ وَلَمْ نَسْمَعْ أَنْ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَتَوَيِّعُ الْإِيمَانَ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمَشْرُوعَةِ لَكَانُوا هُمْ -أَعْنِي: الصَّحَابَةُ- أَسْبَقَ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَلَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُبَلِّغُهُ لِلأُمَّةِ؛ لِأَنَّهُ مَفْرُوضٌ عَلَيْهِ أَنْ يُبَلِّغَ ﷺ الْإِيمَانَ، وَبَلَّغَ الْمُبِينِ، وَقَدْ قَامَ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، وَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَحَسْبُنَا أَنْ نَأْتِيَ إِلَى الْمَسْجِدِ كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ مُبَكِّرِينَ، وَفِي غَيْرِهَا إِذَا سَمِعْنَا النِّدَاءَ، وَلَا بِأَسْ أَيْضًا أَنْ نَتَقَدَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ إِذَا أَرَدْنَا زِيَادَةَ قِرَاءَةٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/٥٨٢):

❦ قَوْلُهُ: بَابُ: إِذَا نَذَرَ أَوْ حَلَفَ أَلَّا يُكَلِّمَ إِنْسَانًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ أَسْلَمَ؛ أَي: هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ الْوَفَاءُ أَوْ لَا؟ وَالْمَرَادُ بِالْجَاهِلِيَّةِ جَاهِلِيَّةُ الْمَذْكُورِ وَهُوَ حَالُهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ. وَأَصْلُ الْجَاهِلِيَّةِ: مَا قَبْلَ الْبَعْثَةِ، وَقَدْ تَرَجَّمَ الطَّحَاوِيُّ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: مَنْ نَذَرَ وَهُوَ مُشْرِكٌ ثُمَّ أَسْلَمَ. فَأَوْضَحَ الْمَرَادَ وَذَكَرَ فِيهِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ فِي نَذَرِ عُمَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنَّهُ يَعْتَكِفُ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ». قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: قَاسَ الْبُخَارِيُّ الْيَمِينَ عَلَى النَّذْرِ، وَتَرَكَ الْكَلَامَ عَلَى الْإِيمَانِ، فَمَنْ نَذَرَ أَوْ حَلَفَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَلَى شَيْءٍ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ لَوْ كَانَ مُسْلِمًا، فَإِنَّهُ إِذَا أَسْلَمَ يَجِبُ عَلَيْهِ عَلَى ظَاهِرِ قِصَّةِ عُمَرَ.

قَالَ: وَبِهِ يَقُولُ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو ثَوْرٍ. كَذَا قَالَ، وَكَذَا نَقَلَهُ ابْنُ حَزْمٍ عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ. وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ: أَنَّهُ وَجْهٌ لِبَعْضِهِمْ، وَأَنَّ الشَّافِعِيَّ وَجَّلَ أَصْحَابَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ بَلْ يُسْتَحَبُّ، وَكَذَا قَالَ الْمَالِكِيَّةُ، وَالْحَنْفِيَّةُ، وَعَنْ أَحْمَدَ فِي رَوَايَةٍ: يَجِبُ. وَبِهِ جَزَمَ الطَّبْرِيُّ، وَالْمَغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالْبُخَارِيُّ وَدَاوُدُ وَأَتْبَاعُهُ.

قُلْتُ: إِنْ وَجَدَ عَنِ الْبُخَارِيِّ التَّصْرِيحَ بِالْوُجُوبِ قَبْلَ، وَإِلَّا فَمَجْرَدُ تَرْجُمَتِهِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَقُولُ بِوُجُوبِهِ؛ لِأَنَّهُ مُحْتَمَلٌ لِأَن يَقُولَ بِالنَّذْرِ فَيَكُونُ تَقْدِيرُ جَوَابِ الاسْتِفْهَامِ: يُنْدَبُ لَهُ ذَلِكَ.

قَالَ الْقَابَسِيُّ: لَمْ يَأْمُرْ عُمَرَ عَلَى جِهَةِ الْإِيجَابِ، بَلْ عَلَى جِهَةِ الْمَشُورَةِ. كَذَا قَالَ.

وقيل: أراد أن يُعَلِّمَهُمْ أن الوفاء بالنذر من أكيد الأمور، فغلَّظ أمره بأن أمر عمر بالوفاء. واحتج الطحاوي بأن الذي يجب الوفاء به: ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله، والكافر لا يصحُّ منه التقرب بالعبادة. وأجاب عن قصة عمر باحتمال أنه ﷺ فهم من عمر أنه سمح بأن يفعل ما كان نذره فأمره به؛ لأن فعله حينئذ طاعة لله تعالى، فكان ذلك خلاف ما أوجبَه على نفسه؛ لأن الإسلام يَهْدِمُ أمر الجاهلية.

قال ابن دقيق العيد: ظاهر الحديث يُخَالِفُ هذا، فإن دَلَّ دليل أقوى منه على أنه لا يصحُّ من الكافر قَوِي هذا التأويل ولا فلا. انتهى كلام ابن حجر.

❦ وقوله: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ». يُحْتَمَلُ أن يَكُونَ للإباحة؛ لأن عمر سأل: هل يُؤْفَى أو لا يُؤْفَى فقال: «أَوْفِ». وجواب الاستفهام عن الفعل يَكُون للإباحة. لكن نظرًا إلى أنه سَمَّاهُ نَذْرًا فقال: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ». فقد يَمْنَعُ هذا أن يَكُونَ الأمر للإباحة بل يَكُون دائرًا بين الوجوب أو الاستحباب، والأصل في الأمر: الوجوب.

وقد يؤخذ من الحديث: أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، وذلك لقوله: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ». فإن قيل: لماذا أمر النبي ﷺ بالوفاء بالنذر الذي وقع في الجاهلية، ولم يأمر بقضاء الصلاة؟ **فالجواب:** أن الفرق بينهما أن النذر مما أوجبَه الإنسان على نفسه فضلًا مُلتزمًا به، وأما الصلاة فهي من حق الله، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٠ - باب مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ نَذْرٌ.

وَأَمَرَ ابْنُ عُمَرَ امْرَأَةً جَعَلَتْ أُمُّهَا عَلَى نَفْسِهَا صَلَاةً بِقُبَاءٍ فَقَالَ: صَلِّيْ عَنْهَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ.

٦٦٩٨ - حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ

عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ الْأَنْصَارِيَّ اسْتَفْتَى النَّبِيَّ ﷺ فِي نَذْرٍ كَانَ عَلَى أُمِّهِ فَنُؤِفَتْ قَبْلَ أَنْ تَقْضِيَهُ، فَأَفْتَاهُ أَنْ يَقْضِيَهُ عَنْهَا فَكَانَتْ سُنَّةً بَعْدَ ١١.

٦٦٩٩- حَدَّثَنَا آدَمُ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ أُخْتِي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ، وَإِنَّهَا مَاتَتْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ كَانَ عَلَيْهَا دِينَ أَكُنْتُ قَاضِيَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَاقْضِ اللَّهَ، فَهُوَ أَحَقُّ بِالْقَضَاءِ».

❖ قوله: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ نَذْرٌ؟» أي: هل يُقْضَى عنه؟ البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يَجْزِمَ، ولكنه استدلَّ بأثرين عن ابنِ عمرَ، وابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن امرأةَ جَعَلَتْ أُمُّهَا على نَفْسِهَا صلاةَ بَقَاءٍ فقال: صَلِّيْ عَنْهَا.

❖ وقوله: «صَلِّيْ عَنْهَا». لو كان المخاطبُ ذَكَرًا لقال: صَلِّ عَنْهَا. بدونِ ياءٍ.

❖ وقوله: «صَلِّيْ عَنْهَا؟» أي: في نفسِ المسجدِ.

وفي هذا: دليلٌ على أن مَنْ نَذَرَ شيئًا مِنَ الْعِبَادَاتِ وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَهُ فَإِنَّهُ يُقْضَى عَنْهُ، سِوَاءَ كَانَ صَلَاةً أَوْ غَيْرَهَا.

❖ وقوله: «أَنَّهَا نَذَرَتْ صَلَاةَ بَقَاءٍ». هل تَتَعَيَّنُ هُنَا الصَّلَاةُ بِقَاءٍ؟

نَقُولُ: إِذَا نَذَرَ الصَّلَاةَ فِي الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي نَذَرَهُ، إِلَّا أَنَّهُ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنَ الْمَفْضُولِ إِلَى الْأَفْضَلِ، أَمَّا غَيْرُ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ» ^(١). فَلَا يَجُوزُ شَدُّ الرَّحَالِ إِلَى غَيْرِهَا، وَقَبَاءٌ لَا يُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَدِينَةِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يَأْتِيهِ كُلَّ سَبْتٍ مَاشِيًا فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَدِّ رَحْلٍ، وَقَبَاءٌ مِنَ الْمَسَاجِدِ الَّتِي تُقْصَدُ لِدَاثِهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَسْجِدَ أُتَسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ١٠٨].

وَلَكِنْ لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي نَذَرَ أَنْ يُصَلِّيَ بِقَاءٍ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ صَلَّى فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ لَكَانَ ذَلِكَ مُجْزِئًا، بِدَلِيلِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي فَتْحِ مَكَّةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ مَكَّةَ أَنْ أَصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ. قَالَ: «صَلِّ هَاهُنَا». فَأَعَادَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «صَلِّ هَاهُنَا». فَأَعَادَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «شَأْنُكَ إِذَنْ» ^(٢). يَعْنِي: الْأَمْرُ إِلَيْكَ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنَ الْمَفْضُولِ إِلَى الْأَفْضَلِ.

(١) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٦٣)، وأبو يعلى (٢٢٢٤)، وابن الجارود في «المتقى» (٩٤٥)، وأبو عوانة (٥٨٨٣)، والحاكم (٣٣٨/٤).

ومن جهة النظر فإنه إذا أتى بالأفضل فقد أتى بالمفضول؛ لأن الأفضل مُشْتَمِلٌ على أجر المفضول وزيادة.

فإن قيل: إن حديث ابن عباس الذي أورده البخاري في هذا الباب، قد ورد بعدة ألفاظ منها: أن السائل امرأة، ومنها: أن الناذرة أم: فهل هذا الخلاف يُعَدُّ اضطراباً في الحديث يُوهِنُ الحديث وَيُضَعِّفُهُ؟

فالجواب: يرى المحققون من أهل الحديث أن مثل هذا الاختلاف لا يُعَدُّ اضطراباً؛ وذلك لأنه لا يُؤَثِّرُ على أصل المعنى، فيَحْتَمِلُ أن الرواة اختلفوا فيه بناءً على أنه يَجُوزُ نقل الحديث بالمعنى، أو على أن الراوي منهم يَقُولُ: أنا إذا نسيت الشخص فلا يَهْمُ؛ لأن المقصود هو الحكم.

فلهذا لا يُعَدُّون مثل ذلك اضطراباً فصَحَّحوا مثل هذا الحديث، وصَحَّحوا مثل حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في بيعه الجمَل لرسول الله ﷺ، مع الاختلاف في ثمنه ^(١)، وصَحَّحوا حديث فضالة بن عبيد في القلادة التي باعها بدنانير وفيها خرز ^(٢)، فقد اختلف الرواة في مقدار الثمن؛ لأن هذا لا يُؤَثِّرُ في أصل الحديث، فلا يُعَدُّ اضطراباً مُوهِناً للحديث.

❖ وقوله: إن أختي نَذَرَتْ أن تَحْجَّ وأنها ماتت. ظاهر الحديث أنه يَجِبُ قضاء النذر وإن لم يُذَرِكِ الناذرُ زمنه.

مثل لو قال: لله علي نذرٌ أن أَحْجَّ هذا العام. ومات قبل أن يُذَرِكَه الحَجُّ: فهل يُقْضَى عنه؟ هذا يَنْبَغِي على خلافٍ عند العلماء في مسألة: هل التمكن من الأداء شرطٌ أو ليس بشرط؟ من قال: إن التمكن من الأداء شرطٌ قال: إنه لا يُقْضَى النذرُ في هذا الحال؛ لأنه لم يَتِمَّكَّنْ مِنْ أدائه ومات قبله.

ومن قال: إنه ليس بشرط وإن النذرُ يَنْبُتُ بمجرد إلزام الإنسان نفسه به، سواءً تِمَّكَّنْ مِنْ أدائه أم لم يَتِمَّكَّنْ. قال: إنه في هذه الحالة يَجِبُ أن يُقْضَى عنه.



(١) أخرجه البخاري (٢٧١٨)، ومسلم (٧١٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٥٩١).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣١- باب النَّذْرِ فِيمَا لَا يَمْلِكُ وَفِي مَعْصِيَةٍ.

٦٧٠٠- حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، عَنْ الْقَاسِمِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهْ».

٦٧٠١- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا عَنْ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنِي ثَابِتٌ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسُهُ». وَرَأَاهُ يَمْشِي بَيْنَ ابْنَيْهِ ^(١) وَقَالَ الْفَزَارِيُّ، عَنْ حُمَيْدٍ، حَدَّثَنِي ثَابِتٌ، عَنْ أَنَسٍ.

٦٧٠٢- حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنْ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ الْأَحْوَلِ، عَنْ طَاوُسٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ بِرِمَامٍ أَوْ غَيْرِهِ فَقَطَعَهُ.

٦٧٠٣- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، أَخْبَرَنَا هِشَامُ أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ: أَخْبَرَنِي سُلَيْمَانُ الْأَحْوَلُ أَنَّ طَاوُسًا أَخْبَرَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ بِإِنْسَانٍ يَقُودُ إِنْسَانًا بِخِزَامَةٍ فِي أَنْفِهِ، فَقَطَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَقُودَهُ بِيَدِهِ.

٦٧٠٤- حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وَهَيْبٌ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقَالُوا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَرَّةً فَلَيْسَتْ كَلِمَةٌ وَلَيْسَتْ ظِلٌّ وَلَيْقَعْدُ وَلَيْتَمَّ صَوْمُهُ».

قَالَ عَبْدُ الْوَهَّابِ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

❦ قوله: «النَّذْرُ فِيمَا لَا يَمْلِكُ وَفِي مَعْصِيَةٍ». فِيمَا لَا يَمْلِكُ؛ أَي: فِي شَيْءٍ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ مَلَكِهِ. مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَعْتِقَ هَذَا الْعَبْدَ. وَهُوَ لغيرِهِ فَإِنْ هَذَا النَّذْرُ لَا يَنْعَقِدُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ إِعْتَاقَهُ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ نَذْرٍ عَقَدَهُ الْإِنْسَانُ وَلَمْ يُوفَّ بِهِ لِعَذْرِ حَسِيٍّ أَوْ شَرْعِيٍّ، فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُكْفَرَ عَنْهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ.

أَمَّا نَذْرُ الْمَعْصِيَةِ فَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَيْضًا أَنَّهُ لَوْ نَذَرَ الْإِنْسَانُ مَعْصِيَةً، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ الْمَرَأَةُ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ حَيْضَتِي. فَإِنْ هَذَا النَّذْرُ لَا يَصِحُّ، وَلَا يَنْعَقِدُ، لِأَنَّهُ نَذْرٌ مُحَرَّمٌ.

أَوْ يَقُولُ قَائِلٌ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصُومَ يَوْمَ النَّحْرِ، أَوْ يَوْمَ الْفِطْرِ، أَوْ أَيَّامَ التَّشْرِيقِ. فَكُلُّ هَذَا نَذْرٌ مَعْصِيَةٌ.

أَوْ يَقُولُ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ. فَهَذَا نَذْرٌ مَعْصِيَةٌ لَا يَجُوزُ الْوَفَاءُ بِهِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُكَفِّرَ كَفَّارَةَ يَمِينٍ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يُعْصِهْ». وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَبَيَّنَّا أَنَّهُ إِذَا نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ وَجَبَ عَلَيْهِ طَاعَةُ اللَّهِ، سِوَاءٍ كَانَ هَذَا النَّذْرُ مُعَلَّقًا مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَفَى اللَّهُ مَرِيضِي فَلِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِكَذَا. أَوْ كَانَ غَيْرَ مُعَلَّقٍ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِكَذَا. فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَفِّيَ بِنَذْرِهِ.

وَإِذَا نَذَرَ نَذْرًا مُعَلَّقًا: فَهَلْ يَأْكُلُ مِنْهُ؟ مِثْلُ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ إِنْ شَفَى اللَّهُ مَرِيضِي أَنْ أَذْبَحَ شَاةً، أَوْ جَذُورًا.

فَالْجَوَابُ: نَسْأَلُهُ عَنْ نِيَّتِهِ: هَلْ قَصَدَهُ بِهَذَا أَنْ يَتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا شُكْرًا لِلَّهِ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ مَا أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَا يَأْكُلُ مِنْهُ، أَوْ كَانَ يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ يَذْبَحَ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْفَرَحِ وَالِابْتِهَاجِ وَالسُّرُورِ، كَمَا يَفْعَلُ الْإِنْسَانُ إِذَا قَدِمَ لَهُ قَادِمٌ. فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهَا جَمِيعًا.

وَإِنْ كَانَ الثَّانِي فَهُوَ بِالْخِيَارِ: إِنْ شَاءَ نَفَذَ النَّذْرَ، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ تَنْفِيزَ النَّذْرِ، وَلَكِنْ يُطْعِمُ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ؛ يَعْنِي: يُكَفِّرُ كَفَّارَةَ يَمِينٍ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ نَذْرِ الْمَبَاحِ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا فِي أَقْسَامِ النَّذْرِ: أَنَّ نَذْرَ الْمَبَاحِ يُخَيَّرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بَيْنَ فِعْلِهِ وَكَفَّارَةِ يَمِينٍ، وَإِنْ شَاءَ ذَبَحَ الشَّاةَ وَعَزَمَ عَلَيْهَا وَأَكَلَ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ هَذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ نَذْرِ الطَّاعَةِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ بَابِ نَذْرِ الْمَبَاحِ.

❁ وَأَمَّا قَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسِهِ» وَرَأَى يَمْشِي بَيْنَ ابْنَيْهِ. فَكَأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ مَشْيًا يَشُقُّ عَلَيْهِ، وَتَعَبَ فَصَارَ يَمْشِي بَيْنَ ابْنَيْهِ؛ يَعْنِي: مُتَمَسِّكًا بِهِمَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسِهِ». «تَعْذِيبٌ»: مُصَدَّرٌ مُضَافٌ إِلَى الْفَاعِلِ، وَ«نَفْسُهُ» مَفْعُولٌ بِهِ، وَإِذَا أُرِدَتْ أَنْ تُعْرَفَ مِثْلُ هَذَا التَّرْكِيبِ فَحَوَّلَ الْمَصْدَرُ إِلَى فِعْلٍ، فَقُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ أَنْ يُعَذِّبَ هَذَا نَفْسَهُ. تَجِدُ أَنَّ «هَذَا» فَاعِلٌ وَ«نَفْسَهُ» مَفْعُولٌ بِهِ.

وَفِي هَذَا: إِشَارَةٌ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ لَا يَنْبَغِي، فَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْذَرَ

نَذَرًا يَشُقُّ عَلَيْهِ، فَإِنْ فَعَلَ، فَإِنَّ النَّذْرَ يَنْعَقِدُ، وَلَكِنْ لَا يَفْعَلُهُ وَيُكْفِّرُ كَفَّارَةً يَمِينٍ، بِنَاءً عَلَى الْقَاعِدَةِ.
أَمَّا الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ فَهُوَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ بِزِمَامٍ أَوْ غَيْرِهِ فَقَطَعَهُ. وَكَانَ هَذَا الزِّمَامُ قَدْ عُلِقَ بِأَنْفِهِ وَصَاحِبُهُ يَقُودُهُ بِهِ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ يُؤَثِّرُ عَلَى الطَّائِفِ وَيُؤَثِّرُ عَلَى الطَّائِفِينَ الْآخَرِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا الْحَبْلَ الَّذِي رُبِطَ فِي أَنْفِهِ لَا بَدَأَ أَنْ يُصَيِّقَ الْمَكَانَ عَلَى الطَّائِفِينَ؛ فَلِهَذَا قَطَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَقُودَهُ بِيَدِهِ.

وفي هذا: دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ، وَهُوَ وَاجِبٌ لِمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»^(١).
وَقَوْلُهُ: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ». يَعْنِي: إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ حِسًّا أَوْ حُكْمًا.
حِسًّا مِثْلُ: أَنْ يَكُونَ الْمُنْكَرُ كَبِيرًا لَا يَسْتَطِيعُ وَلَا يَقْوَى أَنْ يُغَيِّرَهُ.
أَوْ حُكْمًا كَأَنْ يَكُونَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُغَيِّرَهُ وَعِنْدَهُ قُوَّةٌ، لَكِنْ يَخْشَى مِنْ مَفْسَدَةٍ أَكْبَرَ، فَفِي هَذِهِ الْحَالِ يَذَرُ هَذِهِ الْمَفْسَدَةَ الْكَبِيرَى بِهَذِهِ الْمَفْسَدَةِ الصَّغْرَى.

وَقَوْلُهُ: «رَأَى رَجُلًا قَائِمًا». وَفِي لَفْظٍ: أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا فِي الشَّمْسِ. فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومُ. وَهَذَا نَذْرٌ شَدِيدٌ - سُبْحَانَ اللَّهِ - كَيْفَ يَقَعُ مِنْ إِنْسَانٍ هَذَا النَّذْرُ: يَقُومُ وَلَا يَقْعُدُ، وَيَتَشَمْسُ وَلَا يَسْتَظِلُّ، وَيَصُومُ، وَلَا يَتَكَلَّمَ. وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مُعَذِّبٌ لِنَفْسِهِ بِهَذَا النَّذْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ». وَذَلِكَ ضِدُّ قَوْلِهِ: وَلَا يَسْتَظِلُّ. وَذَلِكَ ضِدُّ قَوْلِهِ: وَلَا يَسْتَظِلُّ. «وَلْيَقْعُدْ» وَهَذَا ضِدُّ قَوْلِهِ: يَقُومُ. «وَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ». فَأَمَرَهُ أَنْ يَتِمَّ صَوْمَهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَتَمَّ صَوْمَهُ فِي ظُلَالٍ، وَهُوَ قَاعِدٌ، لَمْ يَضُرَّ؛ وَلَئِنْ صَوْمَهُ طَاعَةً، وَأَمَّا كَوْنُهُ لَا يَسْتَظِلُّ فَهَذَا لَيْسَ بِطَاعَةٍ، وَكَوْنُهُ أَيْضًا يَقِفُ لَيْسَ بِطَاعَةٍ، وَكَوْنُهُ يَسْكُتُ لَيْسَ بِطَاعَةٍ، فَلِهَذَا أَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَنْ يَدَعَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ وَأَنْ يَتِمَّ صَوْمَهُ؛ لِأَنَّ الصَّوْمَ طَاعَةً، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِيعْهُ»^(٢).

وفي هذا: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَذَرَ الْمُبَاحِ، أَوْ الْمَكْرُوهِ، أَوْ الْمَحْرَمِ لَا يُؤْفَى، لَكِنَّ الْمُبَاحَ يَخِيرُ الْإِنْسَانُ فِيهِ بَيْنَ فَعْلِهِ وَبَيْنَ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، بِخِلَافِ الْمَحْرَمِ وَالْمَكْرُوهِ، فَإِنَّهُ يُنْهَى عَنْهُ وَعَلَيْهِ كَفَّارَةٌ، فَكُلُّ نَذْرٍ لَا يُؤْفَى فِيهِ كَفَّارَةٌ.

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٢- بَابُ مَنْ نَذَرَ أَنْ يَصُومَ أَيَّامًا فَوَافَقَ النَّحْرَ أَوْ الْفِطْرَ.

٦٧٠٥- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمُقَدَّمِيُّ، حَدَّثَنَا فَضِيلُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عَقَبَةَ، حَدَّثَنَا حَكِيمُ بْنُ أَبِي حُرَّةٍ الْأَسْلَمِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سَأَلَ عَنْ رَجُلٍ نَذَرَ أَنْ لَا يَأْتِيَ عَلَيْهِ يَوْمٌ إِلَّا صَامَ، فَوَافَقَ يَوْمَ أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ فَقَالَ: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، لَمْ يَكُنْ يَصُومُ يَوْمَ الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ وَلَا يَرَى صِيَامَهُمَا.

٦٧٠٦- حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمَةَ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، عَنْ يُونُسَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: نَذَرْتُ أَنْ أَصُومَ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَاءَ أَوْ أَرْبَعَاءَ مَا عَشْتُ فَوَافَقْتُ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمَ النَّحْرِ. فَقَالَ: أَمَرَ اللَّهُ بِوَفَاءِ النَّذْرِ، وَنَهَيْنَا أَنْ نَصُومَ يَوْمَ النَّحْرِ. فَأَعَادَ عَلَيْهِ فَقَالَ مِثْلَهُ لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ.

هذا الأثر عن ابنِ عمر: يَدُلُّ على أن الإنسان لا يَصُومُ إذا وافقَ نذره يومَ النَّحْرِ؛ لأنَّ صَوْمَ يَوْمِ النَّحْرِ حَرَامٌ، وَلَكِنَّ الأثرَ الثَّانِي يَدُلُّ على أَنَّهُ يَصُومُ يَوْمًا بَدَلَهُ، وَلَكِنْ: هل عليه كَفَّارَةٌ لِفَوَاتِ الْمَحِلِّ أَوْ لَا؟

قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصُومَ يَوْمًا بَدَلَهُ، وَيُكْفَرُ؛ لِأَنَّ الصِّيَامَ طَاعَةٌ وَكَوْنُهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ مَعْصِيَةً، فَعَلَيْهِ: أَنْ يَأْتِيَ بِالطَّاعَةِ مَجْتَنِبًا الْمَعْصِيَةَ، وَهُوَ قَدْ عَيَّنَّ يَوْمًا وَتَرَكَهُ، فَعَلَيْهِ مِنْ أَجْلِ تَقْوِيَةِ هَذَا الْيَوْمِ كَفَّارَةٌ يَمِينٌ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ أَنْ نَذَرَهُ: صَوْمٌ فِي يَوْمٍ مَمْنُوعٍ، فَالْصَّوْمُ يَلْزَمُ فِي يَوْمٍ غَيْرِ مَمْنُوعٍ، وَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي عَيَّنَهُ يُكْفَرُ عَنْهُ كَفَّارَةٌ يَمِينٌ؛ لِأَنَّهُ فَوَّتَهُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣٣- بَابُ هَلْ يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ وَالنُّذُورِ: الْأَرْضُ، وَالْغَنَمُ، وَالزُّرُوعُ وَالْأَمْتَعَةُ؟

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: قَالَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَصَبْتُ أَرْضًا لَمْ أَصِبْ مَا لَا قُطْ أَنْفَسَ مِنْهُ. قَالَ: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا».

وَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَحَبُّ أَمْوَالِي إِلَى بَيْرِ حَاءٍ لِحَائِطٍ لَهُ مُسْتَقْبَلَةُ الْمَسْجِدِ.

٦٧٠٧- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ ثَوْرِ بْنِ زَيْدٍ الدَّبَلِيِّ، عَنْ أَبِي الْغَيْثِ مَوْلَى ابْنِ مُطِيعٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ فَلَمْ نَعْنَمْ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً إِلَّا الْأَمْوَالَ وَالثِّيَابَ وَالْمَتَاعَ، فَأَهْدَى رَجُلٌ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ - يُقَالُ لَهُ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ - لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَلَا مَا - يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ -، فَوَجَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى وَادِي الْقُرَى حَتَّى إِذَا كَانَ بِوَادِي الْقُرَى بَيْنَمَا مِدْعَمٌ يَحُطُّ رَحَلًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَهْمٌ عَائِرٌ فَقَتَلَهُ فَقَالَ النَّاسُ: هِنِيئًا لَهُ الْجَنَّةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشُّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلَ عَلَيْهِ نَارًا». فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ النَّاسُ جَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكِ أَوْ شِرَاكِينِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «شِرَاكِ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكِانِ مِنْ نَارٍ»^(١).

❖ قول المؤلف: «بَابٌ هَلْ يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ وَالنُّذُورِ: الْأَرْضُ، وَالْغَنَمُ، وَالزُّرُوعُ، وَالْأَمْتَعَةُ». يَعْنِي: إِذَا نَذَرَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهَا: فَهَلِ الْمَالُ خَاصٌّ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، أَوْ يَشْمَلُ حَتَّى هَذِهِ الْأَشْيَاءُ؟

نَقُولُ: إِنْ كَانَ هُنَاكَ نِيَّةٌ فَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنَّ النِّيَّةَ تُخَصِّصُ الْعَامَّ، وَأَنَّهُ يُرْجَعُ فِي الْإِيمَانِ وَالنُّذُورِ إِلَى النِّيَّةِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نِيَّةٌ فَلَا شَكَّ: الْأَرْضُ، وَالْغَنَمُ، وَالزُّرُوعُ، وَالْأَمْتَعَةُ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ فِي الْمَالِ.

فَإِذَا نَذَرَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهَا وَأَطْلَقَ. وَلَمْ يَنْوِ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، ثُمَّ تَصَدَّقَ بِمَتَاعٍ، أَوْ بِطَعَامٍ، أَوْ بِشَاةٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَالصَّدَقَةُ صَحِيحَةٌ.

وكَذَلِكَ لَوْ نَذَرَ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِثُلْثِ مَالِهِ. فَإِنْ هَذَا يَشْمَلُ كُلَّ مَا يَمْلِكُ مِنْ دِرَاهِمٍ، وَدَنَانِيرٍ، وَأَمْتَعَةٍ، وَأَرَاظِي، وَغَيْرِهَا.

❖ وقوله: «قَالَ عُمَرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَصَبْتُ أَرْضًا لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ مِنْهُ». فَسَمَّى الْأَرْضَ مَالًا، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ تَدْخُلُ فِي الْمَالِ.

❖ وقوله: «أَنْفَسَ مِنْهُ». يَعْنِي: أَعْلَى مِنْهُ عِنْدِي فِي نَفْسِي.

❖ قوله: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا»^(٢). يَعْنِي: وَقَفْتَهَا، وَقَدْ فَعَلَ عُمَرُ ^{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ}، فَقَدْ وَقَفَهَا وَحَبَسَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقَ بِشِمَرَتِهَا.

(١) أخرجه مسلم (١١٥م).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢).

وقوله: «وقال أبو طلحة للنبي ﷺ: أَحَبُّ أَمْوَالِي إِلَى بَيْرَحَاءَ». وهي حائِطٌ كانت مستقبله المسجد النبوي، وكان النبي ﷺ يَأْتِي إليها وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طِيبٌ عَذْبٌ، ولما نَزَلَ قوله تعالى: ﴿لَنْ نَأْكُلَ أَلْهَرَحَّى نُفِيقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ [التغابا: ٩٢]. جاء أبو طلحة إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الله أنزل هذه الآية، وإن أَحَبَّ مَالِي إِلَى بَيْرَحَاءَ، وإنها صدقة إلى الله ورسوله. فقال النبي ﷺ بَلَيْنَا لِلَّهِ: «بَيْحُ ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ ذَاكَ مَالٌ رَابِعٌ، أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ»^(١). فجعلها أبو طلحة لأقاربه وبني عمه.

والشاهد من هذا: أنه سَمَّى الحائِطَ مَالًا.

ثم ذكر حديث أبي هريرة: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ فَلَمْ نَعْنَمْ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، إِلَّا الْأَمْوَالَ وَالثِيَابَ وَالْمَتَاعَ. فقال: إِلَّا الْأَمْوَالَ؛ مَعَ أَنَّهُ يَقُولُ: لَمْ نَعْنَمْ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا سِوَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ يُسَمَّى مَالًا.



شیخ
صالح بن الجبالی

کتاب کفارات الایمان

۶۷۲۲-۶۷۰۸

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ :

كِتَابُ كَفَّارَاتِ الْإِيمَانِ

١ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ [الثَّلَاثَةِ: ٨٩].

وَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ: ﴿فَفِذْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ شُكْرٌ﴾ [الثَّلَاثَةِ: ١٩٦].
وَيُذَكَّرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٍ، وَعِكْرِمَةَ: مَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ أَوْ. أَوْ. فَصَاحِبُهُ بِالْخِيَارِ.
وَقَدْ خَيْرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعَبَا فِي الْفِذْيَةِ.

٦٧٠٨ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا أَبُو شَهَابٍ، عَنْ ابْنِ عَوْنٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ عَبْدِ
الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: أَتَيْتُهُ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - فَقَالَ: «اذْنُ»
فَدَنَوْتُ، فَقَالَ: «أَبُودِيكَ هُوَ أَمْكُ؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فِذْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ نُسْكَ»^(١).
وَأَخْبَرَنِي ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ أَيُّوبَ، قَالَ: صِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَالنُّسْكَ شَاةً وَالْمَسَاكِينَ سِتَّةً.

❖ قَوْلُهُ: كَفَّارَاتِ الْإِيمَانِ. يَعْنِي: مَا نَوْعُهَا؟ هَلْ هِيَ عَلَى التَّرْتِيبِ، أَوْ عَلَى التَّخْيِيرِ؟
نَقُولُ: قَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ
كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [الثَّلَاثَةِ: ٨٩]. فَهَذِهِ الْآيَةُ قَدْ جَمَعَتْ تَخْيِيرًا
وَتَرْتِيبًا، تَخْيِيرًا فِي الْخِصَالِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى وَهِيَ: الْإِطْعَامُ وَالْكِسْوَةُ وَتَحْرِيرُ الرَّقَبَةِ.

وَالتَّرْتِيبُ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ وَبَيْنَ الصِّيَامِ، فَلَا يُجْزِئُ الصِّيَامُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ.
أَمَّا هَذِهِ الثَّلَاثَةُ فَالْإِنْسَانُ مُخَيَّرٌ فِيهَا، وَبَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِطْعَامِ؛ لِأَنَّهُ أَيْسَرُ، ثُمَّ الْكِسْوَةُ، ثُمَّ الرَّقَبَةُ.

❖ وَقَوْلُهُ: وَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ: ﴿فَفِذْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ شُكْرٌ﴾ يَعْنِي: حَيْثُ
خَيْرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعَبَ بْنَ عُجْرَةَ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ.

(١) أخرجه مسلم (١٢٠١).

❖ قوله: وَيُذَكِّرُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعَطَاءٍ، وَعَكْرَمَةَ - يُذَكِّرُ قَالَهَا بِصِغَةِ التَّمْرِ يَضِي؛ لَأَنَّهُا لَيْسَتْ عَلَى شَرْطِهِ رَحِمَ اللَّهِ: مَا كَانَ فِي الْقُرْآنِ: «أَوْ» فَصَاحِبُهُ بِالْخِيَارِ. يَعْنِي: إِذَا جَاءَتْ «أَوْ» فِي الْقُرْآنِ فَالْإِنْسَانُ مُخَيَّرٌ.

❖ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ﴾. فِيهِ التَّخْيِيرُ، وَهَذَا التَّخْيِيرُ لَيْسَ تَخْيِيرَ مَصْلَحَةٍ؛ يَعْنِي: لَيْسَ وَاجِبًا عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَخَيَّرَ مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لغيره، وَلَكِنَّهُ تَخْيِيرٌ تَشَهُ؛ يَعْنِي: أَفْعَلُ مَا تَشْتَهِي، فَهَذِهِ كَفَّارَةُ الْإِيمَانِ.

فِذْيَةُ الْأَدَاءِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فِذْيَةُ مَنْ صَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾. فَبِنَاءٌ عَلَى الْقَاعِدَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ نَقُولُ: الْفِذْيَةُ عَلَى التَّخْيِيرِ: صِيَامٌ، أَوْ صَدَقَةٌ، أَوْ نُسْكَ. وَهَكَذَا كُلَّمَا جَاءَتْ «أَوْ»، مِثْلُ قَوْلِهِ أَيْضًا: ﴿وَمَنْ قَلَّ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَجِزَاءٌ مِثْلُ مَا قَلَّ مِنَ النَّعْمِ يَعْطَى بِهِ، ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا يَبْلُغُ الْكَفَّةِ أَوْ كَفَرَةُ طَعَامِ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٩٠]. فَيَكُونُ هَذَا أَيْضًا عَلَى التَّخْيِيرِ.

أَمَّا إِطْعَامُ الْعَشْرَةِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٨٩]. يَعْنِي: مِنْ الْوَسْطِ، فَلَا يَلْزَمُكَ الْأَعْلَى وَلَا يَجُوزُ مِنْكَ الْأَدْنَى، بَلِ الْوَسْطُ، وَلَمْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْإِطْعَامَ، فَيَكُونُ رَاجِعًا إِلَى الْعُرْفِ فَمَا صَارَ إِطْعَامًا فَهُوَ إِطْعَامٌ.

وَبِنَاءٌ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ نَقُولُ: إِنْ الْإِنْسَانُ لَوْ جَمَعَ عَشْرَةَ مَسَاكِينٍ وَغَدَّاهُمْ أَوْ عَشَّاهُمْ فَقَدْ أَجْزَأَ ذَلِكَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَطْعَمَ عَشْرَةَ مَسَاكِينٍ.

فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: عَلَيْهِ نِصْفُ صَاعٍ مِنْ غَيْرِ الْبُرِّ لِكُلِّ وَاحِدٍ وَرَبْعُ صَاعٍ مِنَ الْبُرِّ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنْ عَلَيْهِ مَا يَكْفِي لِإِطْعَامِ الْعَشْرَةِ بِدُونِ تَقْدِيرٍ؛ لِأَنَّ الْمُدَّ مِنَ الْبُرِّ مِثْلًا قَدْ يُطْعِمُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَعَلِيهِ مَا يُطْعِمُ هَؤُلَاءِ الْعَشْرَةَ فِي بُيُوتِهِمْ.

أَمَّا الْكِسْوَةُ فَإِنَّ الْوَاجِبَ فِيهَا مَا يُسَمَّى كِسْوَةً، وَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَعْرَافِ النَّاسِ وَأَمَاكِينِهِمْ، فَمِثْلًا عِنْدَنَا لَا يَكُونُ كِسْوَةً إِلَّا بِالْقَمِيصِ وَالشَّاعِ أَوْ الْغَتْرَةِ فَأَدْنَى شَيْءٍ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصًا وَغَتْرَةً أَوْ شَاعًا، وَلَا شَكَّ أَنَّ كَمَالَهَا أَنْ يُعْطِيَهُ مَعَ الْقَمِيصِ سِرَاوِيلَ أَوْ إِزَارًا وَفَانِلَةً أَيْضًا، وَإِلَّا فَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَنْ أَذْنَى مُجْزِئٍ.

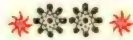
أما عَتَقُ الرِّقَبَةِ فمعناه: تحريرُ رَقِيبَةٍ مِنَ الرِّقِّ، ولم يَذْكُرِ اللهُ ﷻ أنه لابد أن تكونَ مؤمنةً، فقال: ﴿وَإِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾. يعني: تخليصها مِنَ الرِّقِّ، ولكنَّ العلماءَ اشترطوا أن تكونَ مؤمنةً قياساً على كِفَارَةِ القَتْلِ، حيث قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَا فَتَحَرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ [النِّسَاءُ: ٩٢]. ولأنَّ النَّبِيَّ ﷺ اختبرَ أُمَّةَ معاويةَ بنِ الحَكَمِ حينَ أرادَ أن يَعتِقَها فسألها: «أينَ اللهُ؟» قالت: في السماء. قال: «مَن أنا؟» قالت: أنتَ رسولُ اللهِ. فقال: «أَعتِقِها، فإنها مؤمنةٌ». فإن قوله: «فإنها مؤمنةٌ»^(١). فيه إشارةٌ إلى أن عَتَقَ غيرَ المؤمنِ ليس بمشروع.

ولأنَّ غيرَ المؤمنِ ربما يذهبُ إلى الكُفَرِ؛ لأنه كافرٌ، فيكونُ عوناً لهم على المسلمين. المهمُّ: أن أكثرَ أهلِ العلمِ يرونَ أنه لابد أن تكونَ الرقبةُ مؤمنةً. فإن لم يجدْ فعليه أن يصومَ ثلاثةَ أيامٍ.

وهل يشترطُ التتابعُ في صيامِ هذه الأيام؟

الصحيحُ: أنه يُشترطُ، فلا يجوزُ الإفطارُ بينَ الثلاثةِ إلَّا مِنْ عُدْرٍ؛ لأنَّ ابنَ مسعودٍ رضي الله عنه كان يقرأُ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِتَابَعَةً﴾. وابن مسعودٍ كما هو معلومٌ مِنَ القُرَّاءِ الذين أوصى النَّبِيُّ ﷺ باتباعِ قراءتهم، فقال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يقرأَ القرآنَ غَضًّا طَرِيًّا كَمَا أُنزِلَ فَلْيقرأْ بقراءةِ ابنِ أمِّ عبدٍ»^(٢). يعني به: عبدُ اللهِ بنَ مسعودٍ رضي الله عنه، وأحياناً كان يطلبُ منه الرسولُ ﷺ أن يُسمِعَهُ القراءَةَ، كما قال له ذاتَ يومٍ: «اقرأ». فقال: يا رسولَ اللهِ، أقرأُ وعليك أنزل؟ قال: «نعم، فإني أحبُّ أن أسمعَهُ مِنْ غَيْرِي». فقرأَ سورةَ النساءِ، حتى بلغَ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مِّنْهُمْ شَهِيدٌ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النِّسَاءُ: ٤١]. قال: «حَسْبُكَ». قال: فَتَطَرْتُ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَدْرِفَانِ بَعْدَ الْقُرْآنِ.

فلا بد مِنَ التتابعِ في صيامِ الأيامِ الثلاثةِ.



(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٨)، وأحد (١٧٦، ٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٤٩)، ومسلم (٨٠٠).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٢- باب قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْمُبِينُ﴾

[الْبَيْهَقِيُّ: ٢٠٠].

مَتَى تَحِبُّ الْكُفَّارَةَ عَلَى الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ؟

٦٧٠٩- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْ فِيهِ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: هَلَكْتُ. قَالَ: «وَمَا شَأْنُكَ؟» قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى أَمْرٍ آتَى فِي رَمَضَانَ. قَالَ: «تَسْتَطِيعُ أَنْ تُعْتِقَ رَقَبَةً؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِينَ مِسْكِينًا؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «اجْلِسْ». فَجَلَسَ فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ - وَالْعَرَقُ: الْمَكْتُلُ الضَّخْمُ - قَالَ: «خُذْ هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ». قَالَ: أَعْلَى أَفْقَرٍ مِنَّا؟ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ قَالَ: «أَطْعِمُهُ عِيَالَكَ»^(١).

في هذا الحديث: إشارة إلى أن الإنسان إذا كان لا يَسْتَطِيعُ فعلَ خصالِ الكُفَّارَةِ فإنه يَنْتَقِلُ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى.

وفيه أيضًا: قبولُ قولِ الإنسانِ فيما يَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادَاتِ، فهنا قَالَ الرَّجُلُ: لَا أَسْتَطِيعُ. ولم يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عليك بَيْنَةٌ عَلَى أَنْكَ لَا تَجِدُ مَا تَعْتِقُ بِهِ الرَقَبَةَ، أَوْ عَلَى أَنْكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصُومَ. فالإنسانُ مُؤْتَمِّنٌ عَلَى عِبَادَتِهِ فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ.

ولهذا قَالَ الْعُلَمَاءُ: لو أُمْسِكَ إِنْسَانٌ وَقِيلَ لَهُ: صَلِّ. فقال: قد صَلَّيْتُ. فإنه لَا يَتَعَرَّضُ الْمُحْتَسِبُ لَهُ، وَلَوْ أُمْسَكَ الْمُحْتَسِبُ شَخْصًا وَقَالَ لَهُ: ادَّ زَكَاةُ مَالِكَ؟ فقال: قد أَدَيْتُ زَكَاةَ مَالِي. فإنه لَا يَتَعَرَّضُ الْمُحْتَسِبُ لَهُ.

اللهم إِلَّا إِذَا كَانَ غَنِيًّا كَبِيرًا بَحِيثٌ لَوْ كَانَ قَدْ أَخْرَجَ زَكَاتَهُ لَتَبَيَّنَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ، فهنا قَدْ لَا تُصَدِّقُهُ؛ لِأَنَّ الْعُرْفَ يُكَذِّبُهُ، أَمَا إِذَا كَانَ مِنَ عَامَّةِ النَّاسِ، فَإِنَّا نُصَدِّقُهُ وَلَا نُزِلُّمُهُ. ولهذا يَقُولُونَ: الْإِنْسَانُ مُؤْتَمِّنٌ فِي عِبَادَتِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ.

وفي هذا الحديث: حَسَنُ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه لم يُوبِّخْ هَذَا الرَّجُلَ، مع أَنَّهُ فَعَلَ

فعلاً عظيماً؛ لأن الرجل يقول: هلكْتُ. ولكن لحسنِ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ لم يُوبَّخْهُ؛ وذلك لأن الرجل قد جاء تائباً يُريدُ المَخْلَصَ مما وَقَعَ فيه والمَخْرَجَ، بخلافِ الإنسانِ المُعَانِدِ، فلكلِّ مقامٍ مقالٌ، وكلُّ إنسانٍ يُعَامَلُ بحسَبِ حالِهِ.

وفيه: دليلٌ على أن الكُفَّارَةَ تَسْقُطُ عن العاجزِ عنها. وهذا هو الصحيح؛ لأن النَّبِيَّ ﷺ لم يَذْكُرْ لهذا الرجل أن الكُفَّارَةَ قد بقيت في ذِمَّتِهِ.

وقال بعضُ العلماء: بل في هذا الحديث: دليلٌ على أن الكُفَّارَةَ لا تَسْقُطُ عن العاجزِ؛ وذلك لأن الرجل قال: لا أَسْتَطِيعُ أن أُطْعِمَ ستينَ مسكيناً. فلما جيءَ بالتمرِ قال: «خُذْهُ فَتَصَدَّقْ بِهِ».

ولكن في هذا نظراً؛ وذلك لأن هذا التمرَ جاء في نفسِ الحالِ؛ يَعْنِي: في نفسِ القضية، فلو أن إنساناً مثلاً حينما فَعَلَ شيئاً يُوجِبُ المَالَ ولم يَكُنْ عنده مالٌ حينَ فَعَلِهِ، لكنه في نفسِ الوقتِ جاءه المَالُ فهنا نقولُ: يَجِبُ عليك أن تَصَدَّقَ بما يَلْزَمُكَ.

فإذا قال قائلٌ: هل تُحَدِّدُونَ هذا بيومٍ أو يومين، أو ثلاثة، أو شهرٍ أو شهرين؟

فالجوابُ على ذلك أن نقولُ: لا نُحَدِّدُهُ؛ لأن التحديدَ يَحْتَاجُ إلى دليلٍ، ولكن نقولُ ما جَرَى به العُرْفُ، فإذا كان في نفسِ المكانِ فهذا يَلْزَمُهُ.

فالصحيحُ: أن هذا الحديثَ يدلُّ على أن العاجزَ عن الكُفَّارَةِ حينَ وُجِبَها تَسْقُطُ عنه، ولا تَبْقَى في ذِمَّتِهِ. وهذا الذي قلناه لا شكَّ أنه ظاهرُ الحديثِ، ويؤيِّدُهُ العموماتُ الدالةُ على أنه لا واجبَ مع العجزِ.

وفي هذا: دليلٌ على جوازِ الضَّحِكِ مِنْ ذَوِي الهَيْئَاتِ والشَّرَفِ والسيادةِ، وأن الضَّحِكَ لا يُعَدُّ مخالِفاً للمروءةِ، ولكن يَجِبُ أن يُعْلَمَ أن أَكْثَرَ ضَحِكِ الرِّسُولِ ﷺ كان التَّبَسُّمَ^(١)، ولم يُحَفَظْ عنه أنه قَهَقَه.

أما ما يَفْعَلُهُ بعضُ الناسِ من أنه إذا ضَحِكَ قَهَقَه حتى تَكَادَ السَّقُوفُ التي فوقَه تَسْقُطُ منه، فهذا لا شكَّ أنه خلافُ المروءةِ، أما الضَّحِكُ المُعْتَادُ الذي يدلُّ على انبساطِ الإنسانِ وانسراحِ صَدْرِهِ فهذا أمرٌ يُحَمَدُ عليه الإنسانُ، ولهذا لما أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَضْحَكُ كما في حديثِ أَبِي رَزِينِ الْعُقَيْلِيِّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ يَضْحَكُ

رَبُّنَا؟ قَالَ: «نعم». قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبِّ يَضْحَكُ خَيْرًا. يَغْزِي: أَنْ الَّذِي يَضْحَكُ هُوَ الَّذِي يُؤْمَلُ فِيهِ وَيُرْجَى فِيهِ الْخَيْرُ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (٥٩٦/١١):

قَالَ أَبِي الْمُثَنَّى: مَقْصُودُهُ أَنْ يُبَيِّنَ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَةَ إِنَّمَا تَحِبُّ بِالْحِنْثِ، كَمَا أَنَّ كُفَّارَةَ الْمَوَاقِعِ إِنَّمَا تَحِبُّ بِاقْتِحَامِ الذَّنْبِ وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الْفَقِيرَ لَا يَسْقُطُ عَنْهُ إِجْبَابُ الْكُفَّارَةِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلِمَ فَقَرَهُ وَأَعْطَاهُ مَعَ ذَلِكَ مَا يُكْفِّرُ بِهِ كَمَا لَوْ أُعْطِيَ الْفَقِيرَ مَا يَقْضِي بِهِ دِينَهُ. قَالَ: وَلَعَلَّهُ كَمَا نَبَّهَ عَلَى احتِجَاجِ الْكُوفِيِّينَ بِالْفِدْيَةِ نَبَّهَ هُنَا عَلَى مَا احتِجَّ بِهِ مَنْ خَالَفَهُمْ مِنْ إلْحَاقِهِ بِكُفَّارَةِ الْمَوَاقِعِ، وَأَنَّهُ مُدٌّ لِكُلِّ مُسْكِينٍ. انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ حَجَرٍ.

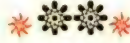
فَإِنْ قِيلَ: هَلْ فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَسْأَلَ الصَّدَقَةَ لِنَفْسِهِ؟

فَالْجَوَابُ: نعم فيه دليلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا فَلَا بَأْسَ أَنْ يَسْأَلَ لِنَفْسِهِ.

وَلَا بَدَّ فِي هَذِهِ الْكُفَّارَةِ مِنْ إِطْعَامِ سِتِّينَ مُسْكِينًا.

وإن قَالَ قَائِلٌ: نَحْنُ لَا نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ فِي بَيْتِهِ سِتُونَ مُسْكِينًا، قُلْنَا: وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ

الرَّسُولَ أَعْطَاهُ عَلَى سَبِيلِ الصَّدَقَةِ لَهُ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْكُفَّارَةِ، أَمَّا الْكُفَّارَةُ فَقَدْ سَكَتَ عَنْهَا.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٣- بَابُ مَنْ أَعَانَ الْمُعْسِرَ فِي الْكُفَّارَةِ.

٦٧١- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حُبُوبٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ

حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ:

هَلَكْتُ. فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قَالَ: وَقَعْتُ بِأَهْلِي فِي رَمَضَانَ. قَالَ: «تَحِدُّ رَقَبَةً؟» قَالَ: لَا. قَالَ:

«هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «فَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مُسْكِينًا؟»

قَالَ: لَا. قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِعَرَقٍ - وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ - فِيهِ تَمَرٌ، فَقَالَ: «أَذْهَبْ بِهَذَا

فَتَصَدَّقْ بِهِ». قَالَ: أَعْلَى أَحْوَجَ مِنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتِ

أَحْوَجَ مِنَّا. ثُمَّ قَالَ: «أَذْهَبْ فَأُطْعِمَهُ أَهْلَكَ»^(١).

هذا الحديثُ كالأولِ وهو يُدُلُّ على جوازِ إعانةِ الْمُعْسِرِ في الكَفَّارَةِ، وكذلك أيضًا في كفارةِ اليمينِ.

فلو أن أحدًا عَلِمَ أن شخصًا فقيرًا وَجَبَتْ عليه كفارةُ يمينٍ فَأَهْدَى إليه، أو بَعَثَ إليه بشيءٍ يُكْفِّرُ به فلا بأس ولا حرج.

وفيه أيضًا: جوازُ الحَلْفِ بدونِ استحلافٍ؛ لأنَّ الرجلَ قَالَ: والذي بعتك بالحقِّ.

وفيه أيضًا: دليلٌ على جوازِ الحَلْفِ على غَلَبَةِ الظَّنِّ؛ وذلك لأنَّ هذا الرجلَ حَلَفَ على أنه لا يُوجَدُ أهلُ بيتٍ أفقرَ منه، ومن المعلومِ أنَّ هذا الرجلَ لم يَطْفُفْ بالبيوتِ حتَّى يَنْظُرَ: هل هم أفقرُ منه أم لا؟ فمن الجائزِ أن يَكُونَ هناك مَنْ هو أفقرُ منه.

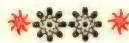
فإن قَالَ قائلٌ: إذا كان هذا الرجلُ ليس في بيته شيءٌ فمن ذا الذي يُمكنُ أن يَكُونَ أفقرَ منه؟ **فالجوابُ:** أنه يُمكنُ أن يَكُونَ الذي هو أفقرُ منه ليس عليه غيرُ لباسِهِ، ففي قصةِ الرجلِ الذي قَالَ للرسولِ ﷺ في الواهبةِ نفسها: رَوَّجْنِيهَا إن لم يَكُنْ له فيها حاجةٌ. فسأله عن صدَّقِهَا قَالَ: إزارِي. وليس عليه إلَّا إزارٌ^(١)، وليس عنده طعامٌ، وليس عنده أيُّ مالٍ.

وربما أيضًا يَكُونَ هناك أفقرُ منه بأن لا يَكُونَ في بيته شيءٌ، وعليه دُيُونٌ. وعلى هذا فنَقُولُ: في هذا: دليلٌ على جوازِ اليمينِ على غَلَبَةِ الظَّنِّ، وأنه لا يَحْتَنُ لو كان على مستقبل، كما هو القولُ الراجحُ.

فلو حَلَفَ على ظَنِّه: لَيَقْدُمَنَّ زيدٌ غدًا. فلم يَقْدُمْ فليس عليه كفارةٌ؛ لأنه إنما حَلَفَ على ما يَغْلِبُ على ظَنِّه، ولم يَحْلِفْ على أنه سَيُلْزَمُهُ بالحضورِ، أما لو كانت نيَّتُهُ أن يُلْزَمَهُ بالحضورِ فإنه يَحْتَنُ إذا لم يُحْضِرْهُ.

فإن قيل: هل مَنْ عليه اليمينُ يَجِبُ عليه أن يَقْبَلَ الإعانةَ؟

فالجوابُ: لا يُلْزَمُهُ أن يَقْبَلَ الإعانةَ؛ لما فيها مِنَ المِئَةِ، لكن إن أُعْطِيَ وَقَبِلَ فلا بأس.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٤ - باب يُعْطَى فِي الْكَفَّارَةِ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا.

٦٧١١ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: هَلَكْتُ. قَالَ: «وَمَا شَأْنُكَ؟» قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي فِي رَمَضَانَ. قَالَ: «هَلْ تَجِدُ مَا تُعْتِقُ رَقَبَةً؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطْعِمَ سِتِينَ مِسْكِينًا؟» قَالَ: لَا أَجِدُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ، فَقَالَ: «خُذْ هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ». فَقَالَ: أَعَلَى أَفْقَرِ مِنَّا، مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَفْقَرُ مِنَّا. ثُمَّ قَالَ: «خُذْهُ فَأَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»^(١).

الناظر في هذا الحديث يرى أن ألفاظه مختلفة، والراوي واحد وهو أبو هريرة رضي الله عنه، وسبب هذا الاختلاف: هو أن الرواة يروون الأحاديث بالمعنى، فيحصل هذا الاختلاف، ومن المعلوم أن الأحاديث الواردة عن الرسول ﷺ تروى بالمعنى إلا ما كان متعبداً بلفظه. بمعنى أن يكون مشروعاً على هذا الوجه، فإنهم يروونه بلفظه، مثل ألفاظ الشهد، والتعوذ من عذاب جهنم، وعذاب القبر على أنها فيها اختلاف في ألفاظها، لكن الغالب أن الأذكار التي يتعبد بها أنها تروى بلفظها، أما ما يقصد به المعنى، فإنه يروى بالمعنى؛ ولهذا تختلف ألفاظها فيه كثيراً. فلو قال قائل: مثلاً حديث أبي هريرة هذا يروى على عدة أوجه، ألا يمكن أن نعد هذا اضطراباً في الحديث يوجب ضعفه؟

فالجواب: لا؛ لأن هذا الاختلاف لا يختلف به المعنى، فكلهم يروونه بالمعنى، ومعلوم أن الإنسان لا يمكن أن يضبط كل ما يسمعه من غيره إلى هذا الحد.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٥ - باب صَاعِ الْمَدِينَةِ، وَمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ وَبَرَكَتِهِ، وَمَا تَوَارَثَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ.

٦٧١٢ - حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ مَالِكِ الْمُزَنِيِّ، حَدَّثَنَا الْجَعْفِدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: كَانَ الصَّاعُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مُدًّا وَثُلَاثًا بِمُدِّكُمْ الْيَوْمَ، فَرِيدٌ فِيهِ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

٦٧١٣ - حَدَّثَنَا مُنْذِرُ بْنُ الْوَلِيدِ الْجَارُودِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو قُتَيْبَةَ وَهُوَ سَلَمٌ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ يُعْطِي زَكَاةَ رَمَضَانَ بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ الْمُدَّ الْأَوَّلِ، وَفِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ أَبُو قُتَيْبَةَ: قَالَ لَنَا مَالِكٌ: مُدُّنَا أَعْظَمُ مِنْ مُدِّكُمْ، وَلَا نَرَى الْفَضْلَ إِلَّا فِي مُدِّ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ لِي مَالِكٌ: لَوْ جَاءَكُمْ أَمِيرٌ فَضْرَبَ مُدًّا أَصْغَرَ مِنْ مُدِّ النَّبِيِّ ﷺ، بِأَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تُعْطُونَ؟ قُلْتُ: كُنَّا نُعْطِي بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ: أَفَلَا تَرَى أَنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يَعُودُ إِلَى مُدِّ النَّبِيِّ ﷺ.

٦٧١٤ - حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مِكْيَالِهِمْ وَصَاعِهِمْ وَمُدِّهِمْ»^(١).
 قَوْلُهُ: بَابُ صَاعِ الْمَدِينَةِ، وَمُدُّ النَّبِيِّ ﷺ وَبِرَكَتِهِ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْفَتْحِ» (١١/٥٩٧، ٥٩٨):

أَشَارَ فِي التَّرْجُمَةِ إِلَى وَجُوبِ الْإِخْرَاجِ فِي الْوَاجِبَاتِ بِصَاعِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؛ لِأَنَّ التَّشْرِيعَ وَقَعَ عَلَى ذَلِكَ أَوَّلًا، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِدَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ بِالْبُرْكَ فِي ذَلِكَ.
 قَوْلُهُ: «وَمَا تَوَارَثَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ». أَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ مَقْدَارَ الْمُدِّ وَالصَّاعِ فِي الْمَدِينَةِ لَمْ يَتَغَيَّرْ؛ لِتَوَاتُرِهِ عِنْدَهُمْ إِلَى زَمْنِهِ، وَبِهَذَا احْتَجَّ مَالِكٌ عَلَى أَبِي يُوسُفَ فِي الْقِصَّةِ الْمَشْهُورَةِ بَيْنَهُمَا، فَرَجَعَ أَبُو يُوسُفَ عَنْ قَوْلِ الْكُوفِيِّينَ فِي قَدْرِ الصَّاعِ إِلَى قَوْلِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.
 ثُمَّ ذَكَرَ فِي الْبَابِ ثَلَاثَةَ أَحَادِيثَ: الْأَوَّلُ: حَدِيثُ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَوْلُهُ: كَانَ الصَّاعُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مُدًّا وَثُلُثًا بِمُدِّكُمْ الْيَوْمَ، فَرِيدَ فِيهِ فِي زَمَنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ. قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُدَّهُمْ حِينَ حَدَّثَ بِهِ السَّائِبُ كَانَ أَرْبَعَةَ أَرْطَالٍ، فَإِذَا زِيدَ عَلَيْهِ ثُلُثُهُ وَهُوَ رِطْلٌ وَثُلُثٌ قَامَ مِنْهُ خَمْسَةُ أَرْطَالٍ وَثُلُثٌ، وَهُوَ الصَّاعُ، بِدَلِيلِ أَنَّ مُدَّهُ ﷺ رِطْلٌ وَثُلُثٌ، وَصَاعُهُ أَرْبَعَةُ أُمْدَادٍ.
 ثُمَّ قَالَ: مَقْدَارُ مَا زِيدَ فِيهِ فِي زَمَنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَا نَعْلَمُهُ، وَإِنَّمَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُدَّهُمْ ثَلَاثَةُ أُمْدَادٍ بِمُدَّهُ. انْتَهَى
 وَمِنْ لَازِمٍ مَا قَالَ أَنَّ يَكُونُ صَاعُهُمْ سِتَّةَ عَشَرَ رِطْلًا، لَكِنْ لَعَلَّهُ لَمْ يَعْلَمْ مَقْدَارَ الرِّطْلِ عِنْدَهُمْ إِذَا ذَاكَ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي بَابِ الْوُضُوءِ بِالْمُدِّ مِنْ كِتَابِ الطَّهَارَةِ بَيَانُ الْاِخْتِلَافِ فِي مَقْدَارِ الْمُدِّ

والصاع وَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْمَاءِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَكِيلَاتِ، فَخَصَّ صَاعَ الْمَاءِ بِكَوْنِهِ ثَمَانِيَةَ أَرْطَالٍ، وَمُدَّهُ بِرِطْلَيْنِ، فَقَصَرَ الْخِلَافَ عَلَى غَيْرِ الْمَاءِ مِنَ الْمَكِيلَاتِ.

❦ الحديث الثاني: قوله: «حَدَّثَنَا أَبُو قُتَيْبَةَ وَهُوَ سَلَمٌ» -بفتح المهملة وسكون اللام-، وفي رواية الدَّارَقُطْنِيِّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنِ الْمُنْذِرِ: حَدَّثَنَا أَبُو قُتَيْبَةَ سَلَمٌ بْنُ قُتَيْبَةَ. قلت: وهو الشَّعِيرِيُّ -بفتح الشين المعجمة وكسر المهملة- بصريُّ أصله مِنْ خُرَاسَانَ، أَدْرَكَهُ الْبُخَارِيُّ بِالسَّنَدِ، وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَلْقَاهُ، وَهُوَ غَيْرُ سَلَمِ بْنِ قُتَيْبَةَ الْبَاهِلِيِّ وَلِدِ امِيرِ خُرَاسَانَ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ، وَقَدْ وَلِيَ هُوَ إِمْرَةَ الْبَصْرَةِ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الشَّعِيرِيِّ وَمَاتَ قَبْلَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ خَمْسِينَ سَنَةً.

❦ قوله: «الْمُدُّ الْأَوَّلُ». هو نَعْتُ مُدِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَهِيَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لَهُ، وَأَرَادَ نَافِعٌ بِذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَا يُعْطِي بِالْمُدِّ الَّذِي أَحَدَثَهُ هِشَامٌ.

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْ مُدِّ النَّبِيِّ ﷺ بِثُلُثِي رِطْلٍ. وَهُوَ كَمَا قَالَ، فَإِنَّ الْمُدَّ الْهَشَامِيَّ رِطْلَانٍ وَالصَّاعُ مِنْهُ ثَمَانِيَةَ أَرْطَالٍ.

❦ قوله: «قَالَ لَنَا مَالِكٌ». وَهُوَ مَقُولُ أَبِي قُتَيْبَةَ وَهُوَ مُوصُولٌ.

❦ قوله: «مُدُّنَا أَعْظَمُ مِنْ مُدِّكُمْ». يَعْنِي: فِي الْبَرَكَةِ، أَيْ: مُدُّ الْمَدِينَةِ وَإِنْ كَانَ دُونَ مُدِّ هِشَامٍ فِي الْقَدْرِ، لَكِنْ مُدُّ الْمَدِينَةِ مَخْصُوصٌ بِالْبَرَكَةِ الْحَاصِلَةِ بِدَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ لَهَا، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ مُدِّ هِشَامٍ. ثُمَّ فَسَّرَ مَالِكٌ مُرَادَهُ بِقَوْلِهِ: وَلَا نَرَى الْفَضْلَ إِلَّا فِي مُدِّ النَّبِيِّ ﷺ.

❦ قوله: «وَقَالَ لِي مَالِكٌ»: لَوْ جَاءَكُمْ أَمِيرٌ.. إِلَى آخِرِهِ. أَرَادَ مَالِكٌ بِذَلِكَ إِلْزَامَ مُخَالَفِهِ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ فِي مَطْلَقِ الْمَخَالَفَةِ، فَلَوْ احْتَجَّ الَّذِي تَمَسَّكَ بِالْمُدِّ الْهَشَامِيِّ فِي إِخْرَاجِ زَكَاةِ الْفِطْرِ وَغَيْرِهَا مِمَّا شُرِعَ إِخْرَاجُهُ بِالْمُدِّ كإِطْعَامِ الْمَسَاكِينِ فِي كِفَارَةِ الْيَمِينِ؛ لِأَنَّ الْأَخْذَ بِالزَّائِدِ أَوْلَى. قِيلَ: كَفَى بِاتِّبَاعِ مَا قَدَّرَهُ الشَّارِعُ بَرَكَةً، فَلَوْ جَاوَزَتِ الْمَخَالَفَةُ بِالزِّيَادَةِ لَجَاوَزَتْ مَخَالَفَتَهُ بِالنَّقْصِ، فَلِمَا امْتَنَعَ الْمَخَالِفُ مِنَ الْأَخْذِ بِالْناقصِ قَالَ لَهُ: أَفَلَا تَرَى أَنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يَرْجَعُ إِلَى مُدِّ النَّبِيِّ ﷺ. لِأَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتِ الْأُمْدَادُ الثَّلَاثَةُ، الْأَوَّلُ وَالْحَادِثُ وَهُوَ الْهَشَامِيُّ، وَهُوَ زَائِدٌ عَلَيْهِ، وَالثَّلَاثُ الْمَفْرُوضُ وَقَوْعُهُ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ وَهُوَ دُونَ الْأَوَّلِ كَانَ الرُّجُوعُ إِلَى الْأَوَّلِ أَوْلَى؛ لِأَنَّهُ الَّذِي تَحَقَّقَتْ شَرْعِيَّتُهُ.

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: وَالْحُجَّةُ فِيهِ: نَقُلُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لَهُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ. قَالَ: وَقَدْ رَجَعَ أَبُو يَوْسُفَ بِمِثْلِ هَذِهِ فِي تَقْدِيرِ الْمُدِّ وَالصَّاعِ إِلَى مَالِكٍ وَأَخَذَ بِقَوْلِهِ.

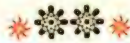
تنبيه: هذا الحديث غريبٌ لم يَرَوْه عن مالكٍ إلا أبو قتيبة، ولا عنه إلا المُنْذِرُ، وقد ضاق مَخْرَجُهُ على الإسماعيليِّ وعلى أبي نُعَيْمٍ فلم يَسْتَخْرِجَاهُ بل ذَكَرَاهُ مِنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ، وقد أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ فِي «غَرَائِبِ مَالِكٍ» مِنْ طَرِيقِ الْبُخَارِيِّ وَأَخْرَجَهُ أَيضًا عَنْ ابْنِ عُقْدَةَ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ الْبَجَلِيِّ، عَنْ الْمُنْذِرِ بِهِ دُونَ كَلَامِ مَالِكٍ، وَقَالَ: صَحِيحٌ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ الْمُنْذِرِ بِهِ. انتهى كلامُ الحافظ رَحِمَهُ اللهُ

كان مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ يَرَى أَنَّهُ لَا يَزَادُ فِي الْمُدِّ وَلَا فِي الصَّاعِ عَنْ مُدِّ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاعِهِ، حَتَّى فِي صَدَقَةِ الْفِطْرِ، فَلَوْ كَانَ الصَّاعُ فِي عُرْفِنَا أَكْثَرَ مِنْ صَاعِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ تُؤَدَّى زَكَاةُ الْفِطْرِ بِالصَّاعِ الْمَوْجُودِ، بَلْ تُؤَدَّى بِصَاعِ النَّبِيِّ ﷺ.

وصاعُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا قَالَ لَنَا شَيْخُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَعْدِيٍّ رَحِمَهُ اللهُ: يَزِنُ ثَمَانِينَ رِيَالًا فَرَنْسِيًّا وَالرِّيَالُ الْفَرَنْسِيُّ مَعْرُوفٌ، وَلَا يَزَالُ مَوْجُودًا حَتَّى الْآنَ، وَأَنْ صَاعَنَا فِي الْحَاضِرِ هُنَا فِي الْقَصِيمِ يَزِنُ مِائَةً وَأَرْبَعَةَ رِيَالاتٍ فَرَنْسِيَّةٍ فَتَكُونُ الزِّيَادَةُ رُبْعٌ وَخُمْسُ الرُّبْعِ، يَعْنِي: أَنْ صَاعَنَا يَفْضُلُ صَاعِ النَّبِيِّ ﷺ بِالرُّبْعِ وَخُمْسِ الرُّبْعِ، يَعْنِي: أَضْفَ إِلَى صَاعِ النَّبِيِّ ﷺ رُبْعَهُ وَخُمْسَ رُبْعِهِ فَهَذَا صَاعُنَا.

وبناءً عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ يُكْرَهُ أَنْ تُؤَدَّى زَكَاةُ الْفِطْرِ بِصَاعِنَا، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ تَرُدَّهَا إِلَى صَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلِهَذَا يَقُولُ رَحِمَهُ اللهُ - فِي مَنَازِلِهِ -: لَوْ جَاءَكُمْ أَمِيرٌ فَضَرَبَ مُدًّا أَصْغَرَ مِنْ مُدِّ النَّبِيِّ ﷺ: بِأَيِّ شَيْءٍ كُتِمَ تُعْطُونَ؟

قَالُوا: بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ وَصَاعِهِ، فَكَذَلِكَ إِذَا جَعَلَ مُدًّا أَكْبَرَ فَلَا تُعْطُونَ إِلَّا بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَاعِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

٦- بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وَآيِ الرِّقَابِ أَزْكَى؟

٦٧١٥- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ، حَدَّثَنَا دَاوُدُ بْنُ رُشَيْدٍ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي عَسَانَ مُحَمَّدِ بْنِ مُطَرِّفٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مَرْجَانَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ»^(١).

هذا الباب أراد المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فِي كَفَّارَةِ الْإِيمَانِ لَفْظٌ مُطْلَقٌ، وَاللَّفْظُ الْمَطْلُوقُ يَبْقَى عَلَى إِطْلَاقِهِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ: هَلْ يُشْتَرَطُ الْإِيمَانُ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ أَوْ لَا؟ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُشْتَرَطُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ.

فَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُشْتَرَطُ. قَالَ: يُحْمَلُ هَذَا الْمَطْلُوقُ عَلَى الْمُقَيَّدِ فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ؛ لِأَنَّ كَفَّارَةَ الْقَتْلِ قَالَ اللهُ فِيهَا: ﴿فَدِيكُمُ مَسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ. وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النِّسَاءُ: ٩٢].

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يَبْقَى الْقَيْدُ فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَيَبْقَى الْإِطْلَاقُ فِي كَفَّارَةِ الظَّهَارِ، وَفِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَعَلَّلُوا هَذَا بِأَنَّ كَفَّارَةَ الْقَتْلِ كَفَّارَةٌ فِي ذَنْبٍ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ، فَإِنْ قَتَلَ النَّفْسَ أَعْظَمَ مِنَ الْحِنثِ فِي الْيَمِينِ، وَأَعْظَمَ مِنَ الظَّهَارِ.

وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الرِّقَبَةَ الْمُؤْمِنَةَ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنَةِ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتِ الرِّقَبَةُ أَزْكَى فَهِيَ أَفْضَلُ، كَمَا تَرَجَّمَ الْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ حَيْثُ قَالَ: وَأَيُّ الرِّقَابِ أَزْكَى، فَالرِّقَابُ أَزْكَاهَا أَقْوَاهَا إِيْمَانًا، أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَغْلَاهَا ثَمَنًا؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَةَ كَانَتْ أَزْكَى لَوْصِفَ قَامَ فِيهَا، وَهُوَ الْإِيمَانُ، وَالتِّي هِيَ أَعْلَى وَأَنْفُسُ عِنْدَ أَهْلِهَا كَانَتْ أَزْكَى لَوْصِفَ فِي غَيْرِهَا وَهُوَ الْمَالُ، فَإِنَّهُ كُلَّمَا كَانَتْ أَعْلَى كَانَ بَدَلُ الْمَالِ فِيهَا أَدَلَّ عَلَى الْإِيمَانِ بِالنِّسْبَةِ لِلْبَازِلِ، وَكَذَلِكَ كُلَّمَا كَانَتْ أَنْفُسَ عِنْدَ أَهْلِهَا.

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي سَأَلَهُ الْمَوْلَفُ رَحِمَهُ اللهُ: فَضِيلَةُ الْعِتْقِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَبَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (١١/٥٩٩):

❖ قَوْلُهُ: بَابُ قَوْلِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الرِّقَبَةَ فِي آيَةِ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ مُطْلَقَةٌ، بِخِلَافِ آيَةِ كَفَّارَةِ الْقَتْلِ، فَإِنَّهَا قُيِّدَتْ بِالْإِيمَانِ.

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: حَمَلَ الْجُمْهُورُ وَمِنْهُمْ: الْأَوْزَاعِيُّ، وَمَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ، الْمَطْلُوقَ عَلَى الْمُقَيَّدِ كَمَا حَمَلُوا الْمَطْلُوقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ٢٨٢]. عَلَى الْمُقَيَّدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطَّلَاقُ: ٢].

وَخَالَفَ الْكُوفِيُّينَ فَقَالُوا: يَجُوزُ اعْتِاقُ الْكَافِرِ. وَوَأَفَقَهُمْ أَبُو ثَوْرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَاحْتَجَّ لَهُ فِي كِتَابِهِ «الْكَبِيرِ»: بِأَنَّ كَفَّارَةَ الْقَتْلِ مُغْلَطَةٌ بِخِلَافِ كَفَّارَةِ الْيَمِينِ، وَمِنْ ثَمَّ اشْتَرَطَ التَّابِعُ فِي صِيَامِ الْقَتْلِ دُونَ الْيَمِينِ. اهـ

فإن قيل: ما مناسبة الحديث للترجمة؟

فالجواب: الظاهر والله أعلم: أنه إذا كان عتق سبباً للإعتاق من النار، فإنه يكون سبباً لإعتاق من الإثم المتوقّع من فعل الذنب الذي فيه الكفّارة. ويمكن أن يقال: إنه لما قال: أي الرقاب أركى ذكر الحديث الذي يدل على أن المسلمة أركى من غيرها. فهذا أيضاً من وجه آخر.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «الفتح» (١١/٥٩٩):

وقال ابن المنير: لم يثبت البخاري الحكم في ذلك، ولكنه ذكر الفضل في عتق المؤمنة ليسنه على مجال النظر، فلقاتل أن يقول: إذا وجب عتق الرقبة في كفارة اليمين كان الأخذ بالأخوط، إلا كان المكفر بغير المؤمنة على شك في براءة الذمة.

قال: وهذا أقوى من الاستشهاد بحمل المطلق على المقيّد؛ لظهور الفرق بينهما. اهـ



ثم قال البخاري رحمه الله:

٧ - باب عتق المُدَبَّرِ وَأُمِّ الْوَلَدِ وَالْمُكَاتَبِ فِي الْكَفَّارَةِ وَعَتَقِ وَلَدِ الزَّنا. وَقَالَ طَاوُسٌ: يُجْزَى الْمُدَبَّرُ وَأُمُّ الْوَلَدِ.

٦٧١٦ - حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، أَخْبَرَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَمْرٍو، عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ دَبَّرَ ثَمْلُوكًا لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرُهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ يَشْتَرِيهِ مِنِّي» فَاشْتَرَاهُ نَعِيمُ بْنُ النَّحَّامِ بِثَمَانِيَةِ دِرْهَمٍ فَسَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: عَبْدًا فِطِيًّا مَاتَ عَامَ أَوَّلِ^(١).

قوله رحمه الله: «باب عتق المُدَبَّرِ، وَأُمِّ الْوَلَدِ، وَالْمُكَاتَبِ فِي الْكَفَّارَةِ، وَعَتَقِ وَلَدِ الزَّنا». هؤلاء أربعة:

❶ «المُدَبَّرُ»: وهو من عتق عتقه بالموت مثل أن يقول: إذا مت فعبدي حرّ. وسُمّي مُدَبَّرًا؛ لأن عتقه عتق بدبر حياة الميت؛ أي: بعدها.

❷ «والمكاتب»: هو الذي اشترى نفسه من سيّده.

❸ «وأمّ الولد»: هو التي أتت من سيّدها بولد قد تبين فيه خلق إنسان.

❦ «وُلِدَ الزَّنا»: هو وَلَدُ الْأَمَةِ الَّتِي زُنِيَ بِهَا؛ لِأَن وَلَدَ الزَّنا لَيْسَ لَهُ أَبٌ.

وَمِراذُ الْبُخَارِيِّ: أَن يَقُولَ: هَلْ يَصِحُّ عِتْقُهُمْ؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّهُ يَصِحُّ، فَيَصِحُّ عِتْقُ الْمُدَبَّرِ؛ لِأَنَّهُ فِيهِ تَعَجِيلٌ لِلْعِتْقِ، وَالْمُكَاتَبِ كَذَلِكَ،

وَأُمُّ الْوَلَدِ وَوُلَدُ الزَّنا.

أَمَّا الْحَدِيثُ، فَنَقِيه: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الدَّيْنَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْعِتْقِ فِي التَّدْبِيرِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَبَّرَ

عَبْدَهُ وَكَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَإِنَّهُ يُبَاعُ الْعَبْدُ وَيُوفَّى الدَّيْنَ.

وَلَا يُقَالُ: إِنَّ الْعِتْقَ قَوِيُّ السَّرَايَةِ وَالنَّفُوضِ. لِأَنَّ الْعِتْقَ تَطَوُّعٌ، وَوَفَاءُ الدَّيْنِ وَاجِبٌ.

وَهَذَا كَانَ الْقَوْلُ الرَّاجِحُ: أَنَّ مَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ وَاجِبٌ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَبَرَّعَ بِشَيْءٍ مِنْ

مَالِهِ، لَا صَدَقَةً، وَلَا هَدِيَّةً، وَلَا وَقْفًا، إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقْضِيَ دَيْنَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الدَّيْنَ وَاجِبٌ، وَمَا سِوَاهُ تَطَوُّعٌ.

وَرُبَّمَا يُقَالُ: إِنَّ الشَّيْءَ الْقَلِيلَ يَسَامَحُ فِيهِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الدَّيْنِ يَتَسَامَحُ فِيهِ فِي الْغَالِبِ، وَقَدْ

يُقَالُ: إِنَّا إِذَا سَمَحْنَا بِالْقَلِيلِ وَتَصَدَّقَ الْيَوْمَ بِرِيَالٍ مِثْلًا وَقَالَ: إِنَّهُ قَلِيلٌ وَغَدًا بِرِيَالٍ صَارَ كَثِيرًا

فَالْأَوَّلَى سُدُّ الْبَابِ، وَيُقَالُ: أَنْتَ إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ، فَإِنْ وَفَاءَ الدَّيْنِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ وَعَلَى

مِنَ الصَّدَقَةِ؛ لِأَنَّهُ مَا تَقَرَّبَ أَحَدٌ إِلَى اللَّهِ بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا افْتَرَضَ عَلَيْهِ ^(١). وَوَفَاءُ الدَّيْنِ وَاجِبٌ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابٌ: إِذَا أَعْتَقَ عَبْدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخَرَ.

فَإِنْ قِيلَ: لِمَاذَا أوردَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْبَابَ بَابٌ: إِذَا أَعْتَقَ عَبْدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخَرَ. بَلَا حَدِيثٌ؟

فَالْجَوَابُ: لَعَلَّ الْبُخَارِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَجِدْ فِيهِ حَدِيثًا عَلَى سَرَطِهِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ إِشَارَةً.

قَالَ الْحَافِظُ بْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْفَتْحِ (١١/١٠٦):

❦ قَوْلُهُ: بَابٌ إِذَا أَعْتَقَ عَبْدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخَرَ؛ أَيُّ: فِي الْكُفَّارَةِ، ثَبَّتَتْ هَذِهِ التَّرْجُمَةُ لِلْمُسْتَمْلِي

وَحْدَهُ بِغَيْرِ حَدِيثٍ، فَكَانَ الْمَصْنَفُ أَرَادَ أَنْ يُثَبِّتَ فِيهَا حَدِيثَ الْبَابِ الَّذِي بَعْدَهُ مِنْ وَجْهِ آخَرَ

(١) يَشِيرُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٠٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ...».

فلم يَتَّفِقْ، أو تَرَدَّدَ في الترجمتين فاقْتَصَرَ الأكثرُ على الترجمة التي تلي هذه، وكتبَ المستملي الترجمتين احتياطاً، والحديثُ في البابِ الذي يَلِيهِ صالحٌ لهما بَضْرِبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ.
وجَمَعَ أبو نعيمِ الترجمتين في بابٍ واحدٍ. انتهى

وقال العيني رحمه الله:

إذا أَعْتَقَ عبداً بينه وبين آخر. أي: هذا بابٌ في بيانِ حكمِ شخصٍ إذا أَعْتَقَ عبداً مشتركاً بينه وبين آخر في الكفارة، هل يَجُوزُ؟ ولكن لم يَذْكُرْ فيه حديثاً. قال: الكرمانى: قالوا: إن البخاريَّ تَرَجَّمَ الأبوابَ بينَ ترجمةٍ وترجمةٍ، لِيُلْحَقَ الحديثَ بها، فلم يَجِدْ حديثاً بشرطه يُنَاسِبُها، أو لم يَقِفْ عُمُرُهُ بذلك.

وقيل: بل أشارَ به إلى أن ما نُقِلَ فيه مِنَ الأحاديثِ ليست بشرطه.

وقال بعضهم^(١٧): بُتِّتْ هذه الترجمةُ للمستملي وحده بغيرِ حديثٍ، فكأن المصنفَ أراد أن يَكْتُبَ حديثَ البابِ الذي بعده مِنْ وجهِ آخرٍ فلم يَتَّفِقْ له، أو تَرَدَّدَ في الترجمتين فاقْتَصَرَ الأكثرُ على الترجمة التي تلي هذه، وكتبَ المستملي الترجمتين احتياطاً، والحديثُ الذي في البابِ الذي يَلِيهِ صالحٌ لهما بَضْرِبٍ مِنَ التَّأْوِيلِ. انتهى
قلت: هذا الذي ذَكَرَهُ كُلُّهُ تخمينٌ وحسبانٌ.

أما الوجه الأول: مما قاله الكرمانى فليس بسديد؛ لأن الظاهرَ أنه كان لا يَكْتُبُ ترجمةً إلاَّ بعدَ وُقُوفِهِ على حديثٍ يُنَاسِبُها.

وأما الوجه الثاني: فكذلك.

وأما الوجه الثالث: فأبعدُ مِنَ الوجهين الأولين؛ لأن الإشارةَ تَكُونُ لحاضرٍ، فكيف يَطَّلِعُ الناظرُ فيها على أن ها هنا أحاديثٌ ليست بشرطه.

وأما الذي قال بعضهم: أن المستملي كَتَبَ الترجمتين احتياطاً. فأَيُّ احتياطٍ فيه، وما وجهُ هذا الاحتياطِ؟ يعني: لو تَرَكَ الترجمةَ التي هي بلا حديثٍ لكان يَرْتَكِبُ إثمًا حتى ذَكَرَهُ احتياطاً.

❦ وأما قوله: «والحديثُ الذي في البابِ الذي يَلِيهِ إلى آخره». فليس بموجبه أصلاً ولا

(١٧) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «قوله: قال بعضهم، يريد به ابن حجر رحمه الله؛ لأن هذا كلام ابن حجر بعينه». اهـ

صالح لما ذكره؛ لأن الولاء لمن أعتق، فالعبد الذي أعتقه، له ولاؤه أيضًا له، فإين الاشتراك بين الاثنين في هذا؟

غاية ما في الباب: إذا أعتق بينه وبين آخر عن الكفارة فإنه إن كان مؤسرًا أجزاه، ويمن شريكه حصته، وإن كان مؤسرًا لم يجزه. وهو قول أبي يوسف، ومحمد، والشافعي، وأبي ثور. وعند أبي حنيفة لا يجزيه عن الكفارة مطلقًا.

والصواب: أن يقال: إن هذه الترجمة ليس لها وضع من البخاري، ولهذا لم تثبت عند غير المستملي من الرواة، ومع هذا في ثبوتها عنده نظر والله أعلم بالصواب. اهـ وهذا هو الأقرب، فما دامت هذه الترجمة قد انفرد بها واحد ممن نقلوا الكتاب، فإنه تعتبر على قاعدة المحدثين شاذة؛ لاسيما وأنه لم يذكر فيها الحديث.

وأما العبد المشترك فهذا أيضًا فيه خلاف بين العلماء، فإذا كان عند الإنسان نصفًا عبدًا، وعليه رقبة: فهل يجزئ أن يعتق نصيبه من هذا العبد ونصيبه من هذا العبد؟ يرى بعض العلماء أنه لا يجزئ ويرى آخرون: التفصيل الذي أشار إليه العيني وهو: أنه إن كان غنيًا أجزأ؛ لأنه إذا أعتق ما يملكه من العبد، وهو غني سرى العتق إلى جميع العبد، وألزم بدفع قيمة نصيب شريكه، وعلى هذا فإذا أعتق نصفي عبدتين فإنه يعتق عليه العبدان جميعًا. وهذا التفصيل جيد؛ لأنه إذا أعتق ما يملكه من هذا العبد، وما يملكه من هذا العبد، فقد أتم عتق رقبة.

بل لو أعتق ما يملكه من هذا العبد وحده بنية أنه إذا سرى العتق إلى باقيه، فإنه ينوي به تمام الكفارة، فلا بأس. هذا هو الصحيح.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٨ - باب إذا أعتق في الكفارة لمن يكون ولاؤه.

٦٧١٧ - حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ الْحَكَمِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ الْأَسْوَدِ، عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا أَرَادَتْ أَنْ تَشْتَرِيَ بَرِيرَةَ فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهَا الْوَلَاءَ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «اشْتَرِيهَا فَإِنَّهَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ»^(١).

(١) أخرجه مسلم (١٥٠٤).

❖ قوله: «إِذَا أَعْتَقَ فِي الْكُفَّارَةِ لِمَنْ يَكُونُ الْوَلَاءُ؟ أَيُّ: هَلْ يَكُونُ لَهُ أَوْ يَكُونُ لِلْفُقَرَاءِ؟ لَأَنَّهُمْ هُمْ أَهْلُ الْكُفَّارَاتِ، أَوْ يَكُونُ وَلَاؤُهُ لِبَيْتِ الْمَالِ، وَالْمَسْأَلَةُ فِيهَا خِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ. فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنْ الَّذِي يُعْتَقُ فِي الْكُفَّارَةِ، وَالزَّكَاةِ، يَكُونُ وَلَاؤُهُ لِبَيْتِ الْمَالِ أَوْ لِمُسْتَحِقِّي هَذَا الشَّيْءِ، فَإِنْ كَانَ فِي زَكَاةٍ فَهُوَ لِمُسْتَحِقِّي الزَّكَاةِ، وَإِنْ كَانَ فِي كُفَّارَةٍ فَهُوَ لِلْفُقَرَاءِ. وَمِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَقُولُ: الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ مُطْلَقًا وَلَوْ فِي الْكُفَّارَةِ أَوْ فِي أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، فَإِنَّهُ يَكُونُ وَلَاؤُهُ لِمَنْ أَعْتَقَهُ.

❖ و«الْوَلَاءُ»: هُوَ الْعُصُوبَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى الْمُعْتَقِ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَالُ الَّذِي يُخَلِّفُهُ هَذَا الْعَتِيقُ مَا لَا كَثِيرًا فَرُبَّمَا يَتَجَرَّ هَذَا الْعَتِيقُ إِذَا عُتِقَ وَيَكْسِبُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً تَبْلُغُ الْمَلَائِينَ. وَالْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الْحَنَابِلَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أَنَّ الْوَلَاءَ لِمَنْ أَعْتَقَ مُطْلَقًا؛ لِعُمُومِ الْحَدِيثِ: «إِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ».

وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي الْمَسْأَلَةِ: أَنَّ مَنْ أَعْتَقَ فِي الزَّكَاةِ يَكُونُ لَأَوَّهٍ لِأَهْلِ الزَّكَاةِ، وَمَا أَعْتَقَ فِي كُفَّارَةٍ يَكُونُ وَلَاؤُهُ لِأَهْلِ الْكُفَّارَاتِ وَهُمْ الْفُقَرَاءُ، وَمَا أَعْتَقَ تَطَوُّعًا، وَتَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ فَوَلَاؤُهُ لِمَنْ أَعْتَقَهُ.

فَإِنْ نَظَرْنَا إِلَى عُمُومِ الْحَدِيثِ؛ قُلْنَا: هَذَا الْحَدِيثُ عَامٌّ، وَأَكْثَرُ الَّذِينَ يُعْتَقُونَ إِنَّمَا يُعْتَقُونَ فِي كُفَّارَةٍ أَوْ زَكَاةٍ، وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْمَعْنَى وَأَنَّهُ كَيْفَ تَعُودُ ثَمَرَةُ زَكَاتِهِ وَكُفَّارَتِهِ عَلَيْهِ قُلْنَا: يَنْبَغِي أَنْ نَجْعَلَ الْوَلَاءَ فِيهَا أَعْتَقَ بِكُفَّارَةٍ لِلْفُقَرَاءِ، وَالْوَلَاءَ فِيهَا أَعْتَقَ بِزَكَاةٍ لِأَهْلِ الزَّكَاةِ. وَهَذَا أَحْوَجُ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ:

٩ - بَابُ الْإِسْتِثْنَاءِ فِي الْإِيمَانِ.

٦٧١٨ - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ غِيلَانَ بْنِ جَرِيرٍ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي رَهْطٍ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ اسْتَحْمِلُهُ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَا أَحْمِلُكُمْ؛ مَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ»، ثُمَّ لَبِثْنَا مَا شَاءَ اللَّهُ. فَأَتَنِي بِإِبِلٍ، فَأَمَرَ لَنَا بِثَلَاثَةِ دَوْدٍ، فَلَمَّا انْطَلَقْنَا، قَالَ: بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: لَا يَبَارِكُ اللَّهُ لَنَا أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَسْتَحْمِلُهُ فَحَلَفَ أَنْ لَا يَحْمِلَنَا فَحَمَلَنَا، فَقَالَ أَبُو مُوسَى: فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ بَلَّ اللَّهُ حَمَلْتُكُمْ إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا

خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَآتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»^(١)

قوله: «الاستثناء في الإيمان له وجهان»:

الوجه الأول: أن يَقُولَ: واللَّهِ لا أَفْعَلُ كَذَا إِلَّا أن يَكُونَ كَذَا. وهذا هو الاستثناء المعروف.

والوجه الثاني: أن يَقُولَ: واللَّهِ لا أَفْعَلُ كَذَا. إن شاء الله. فَيُعَلِّقُهَا بِالمَشِيئَةِ، فَالتَّعْلِيقُ بِالمَشِيئَةِ يُعْتَبَرُ اسْتِثْنَاءً.

ولهذا قال أهل العقائد: الاستثناء في الإيمان أن يَقُولَ: أنا مؤمنٌ إن شاء الله. فجعلوا الشرطَ استثناءً.

أما الأولُ فهو يمينٌ مُنْعَقِدَةٌ غيرُ معلقةٍ بِالمَشِيئَةِ.

إذا قال مثلاً: واللَّهِ لا أَكَلِمُ زَيْدًا حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ فهذا استثناءٌ.

وإذا قال: واللَّهِ لا أَكَلِمُ زَيْدًا إِلَّا أن يَعْتَدِرَ عَمَّا جَنَى عَلَيَّ فِيهِ. فهذا أيضًا استثناءٌ.

وأما الثاني وهو تعليقُ اليمينِ بِالمَشِيئَةِ: فهو استثناءٌ أيضًا.

وإذا عَلَّقَ إنسانٌ يمينَهُ بِالمَشِيئَةِ، فإنه لا حِنْثَ عَلَيْهِ؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى

يَمِينٍ فَقَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلَا حِنْثَ عَلَيْهِ»^(٢).

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهَا إِذَا عَلَّقَ الْيَمِينَ بِالمَشِيئَةِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَرُّكِ، لَا عَلَى سَبِيلِ التَّعْلِيقِ:

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ إِذَا قَالَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّبَرُّكِ، فإنه كَالْمَعْدُومِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ الشَّيْءَ مُعَلَّقًا

بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْمَشِيئَةَ عَلَى سَبِيلِ التَّبَرُّكِ.

ولكنَّ الصحيح: أن الحديثَ: عامٌّ، وأنه إذا قال: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَلَا حِنْثَ عَلَيْهِ، سَوَاءً

قَالَهَا عَلَى سَبِيلِ التَّبَرُّكِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِثْنَاءِ؛ لِأَنَّ التَّبَرُّكَ لَا يَمْنَعُ التَّعْلِيقَ بِالمَشِيئَةِ، وَإِنَّمَا

يَتَقَوَّى بِهِ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ، وَحَدِيثُ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي قَالَ لَهُ الْمَلِكُ فِيهِ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٣).

يُقْصَدُ بِهِ التَّبَرُّكَ لَا شَكَّ، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. لَمْ يَحِنْثْ».

والشاهدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: قَوْلُهُ ﷺ: «إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى

(١) أخرجه مسلم (١٦٤٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٦١)، والترمذي (١٥٣١)، وابن ماجه (٢١٠٦)، وأحمد (١٠/٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٤٢)، ومسلم (١٦٥٤).

غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير». وهذا هو المشهور في الإيمان: أن الإنسان إذا حلف على يمين فرأى خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير. مثل أن يقول: والله لا أتصدق اليوم بشيء. ثم يأتي سائل يسأل فهنا الأفضل أن يكفر عن يمينه ويتصدق، لأن الصدقة خير.

فإذا كان الشيء مستوي الطرفين؛ يعني: كان الحنث وعدمه سواء في الخيرية فالأولى أن يحفظ يمينه، وإذا كان حفظ اليمين هو الخير صار ذلك أو كد أو كد أي: أن يحفظ يمينه ولا يحنث.

❦ وقوله: إلا كفرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير هل نقول: إن ظاهره أن يبدأ بالتكفير، فيكون التكفير تحلة، أو له أن يؤخر التكفير؟

نقول: هو بالخيار، فإن شاء فعل ما حلف عليه ثم كفر، وإن شاء كفر ثم حلف. وقد قلنا فيما سبق: إنه إذا قدمت الكفارة صارت تحلة، وإذا أخرت فهي كفارة. وللاستثناء فائدتان:

الأولى: تسهيل أمره، وتحقيق يمينه.

والثانية: أن لو حنث فلا كفارة عليه.

ودليل الأول: ما جرى لسليمان عليه السلام عليه السلام فإنه قال: «والله لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يُقاتل في سبيل الله. فقليل له: قل إن شاء الله. فلم يقل، فطاف عليهن فولدت واحدة منهن شقاً إنسان، قال النبي ﷺ: «لو قال: إن شاء الله لكان دركاً لحاجته»^(١).

ودليل الثاني: قول النبي ﷺ: «من حلف على يمين فقال: إن شاء الله فلا حنث عليه»^(٢).

ثم لا بد أن ينطق الاستثناء بلسانه، فلو نوى بقلبه فإنه لا ينفعه بل لا بد أن ينطق بلسانه. ولا يشترط أن يسمع صاحبه، فلو قال: والله لا أكلمكم. ثم قال بلسانه: إن شاء الله. فإنه لا حنث عليه.

واختلف العلماء: هل يشترط أن ينوي الاستثناء قبل تمام الكلام أو لا يشترط؟

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٦١)، والترمذي (١٥٣١)، وابن ماجه (٢١٠٦)، وأحمد (١٠/٢).

والصحيح: أنه لا يُشترط، فلو قال الإنسان: والله لأسفرنَّ غداً. وليس بنيتِه أن يَقُولَ: إن شاء الله. ثم لمَّا فرغ من قوله قال: إن شاء الله. فعلى القولِ باشتراطِ نيته لا بد أن يَكُونَ قد نَوَى قَبْلَ أن يُتِمَّ الكلامَ الأوَّلَ.

وعلى القولِ الثاني - وهو الراجحُ -: أنه ليس بشرطٍ، فإنه يصحُّ أن يَقُولَ: إن شاء الله. ولو لم يَنوِها إلا بعدُ.

ودليلُ هذا: قصةُ سليمانَ فإن النبي ﷺ قال: «لو قال: إن شاء الله لكان دَرَكًا لحاجته، ولم يَحْنَثْ». مع أنه لم يَكُنْ نَوَى، وإنما قيل له قُلْ: إن شاء الله. ومع هذا لم يَقُلْ اعتياداً على عزمته عَلَيْهِ السَّلَامُ فَحَصَلَ مَا حَصَلَ.

المهم: أن الصحيح: أنه لا يُشترطُ أن يَنوِيَ الاستثناءَ قَبْلَ تِمَامِ المُسْتَنَى منه. وهل يُشترطُ الاتصالُ؟

نقول: نعم يُشترطُ الاتصالُ عُرْفاً، بأن يَكُونَ الكلامُ متصلًا ببعضه ببعضٍ ولو جاء الاستثناءُ في آخرِ الكلامِ، بدليل ما ثَبَتَ في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ خَطَبَ الناسَ يومَ الفَتْحِ وَبَيْنَ حُرْمَةِ مَكَّةَ، وأنه لا يعُضَدُ شَوْكُهَا. فلما انتهى مِنَ الخُطْبَةِ قال العباسُ: إِلَّا الإِذْخَرَ. قال النبي ﷺ: «إِلَّا الإِذْخَرَ»^(١). مع أنه فَصَلَ بَيْنَ المُسْتَنَى والمُسْتَنَى منه، لكنَّ الكلامَ متصلٌ وواحدٌ.

وكذلك لو انفَصَلَ المُسْتَنَى عن المُسْتَنَى منه بعُذْرٍ، كرجل قال: والله لأَصُومَنَّ غداً ثم أَصابه سُعالٌ -يعني: كحةٌ أو عَطَاسٌ-، أو كان مُرْهَقاً فنام، ثم لَمَّا زال العُذْرُ قال: إن شاء الله. فإنه يَنْفَعُهُ هذا الاستثناءُ؛ لأنه فَصَلَ بعُذْرٍ.

فصار الاستثناءُ على القولِ الراجحِ: لا يُشترطُ فيه النيةُ قَبْلَ تِمَامِ المُسْتَنَى منه، وإنما يُشترطُ فيه الاتصالُ، إذا انفَصَلَ بعُذْرٍ أو انفَصَلَ بالكلامِ المُتَّبَعِ بعضُهُ مع بعضٍ، فإن ذلك لا يَصُرُّ.

ولْيَعْلَمْ أن الكتابةَ مثلَ النُطْقِ، لو كَتَبَ اليمَنِي كتابَةً واستثنى فهو مثلُ النُطْقِ.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٧١٩- حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ وَقَالَ: «إِلَّا كَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفَرْتُ»^(١).

في هذا الحديث: دليل على أن الإنسان إذا حلف على شيء ورأى غيره خيراً منه فإن الأفضل أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خيرٌ، إلا إذا كان الذي هو خيرٌ واجباً؛ فإنه يجب أن يحنث ويكفر عن يمينه.
مثل: أن يقول إنساناً أحمق: والله لا أصلي مع جماعة. فهنا يجب عليه أن يحنث ويصلي، ويكفر عن يمينه.



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٧٢٠- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ هِشَامِ بْنِ حُجَيْرٍ، عَنْ طَاوُسٍ، سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ: سُلَيْمَانُ لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلُّ تِلْدٍ غُلَامًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ - قَالَ سُفْيَانُ: يَعْنِي: الْمَلِكُ - قُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَطَافَ بِهِنَّ فَلَمْ تَأْتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ بِوَلَدٍ، إِلَّا وَاحِدَةً بِشَقِّ غُلَامٍ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَرْوِيهِ قَالَ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ»^(٢).

وَقَالَ مَرَّةً: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ اسْتَشْنَى».

وَحَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ عَنِ الْأَعْرَجِ مِثْلَ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

❖ قوله: فقال أبو هريرة يرويه. هذا يُعَدُّ مِنَ الْمَرْفُوعِ حُكْمًا؛ لأنه لم يقل: يرويه عن النبي ﷺ. لكن من المعروف أن سند الصحابي غايته النبي ﷺ، ولهذا جعل العلماء في مصطلح الحديث قول الصحابي: يرويه، أو رواه، أو ما أشبه ذلك من المرفوع حكماً، وليس مرفوعاً صريحاً؛ لأنه لم يُصرِّح بالرفع.



(١) أخرجه مسلم (١٦٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٤).

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ تَحَلَّلَتْهُ:

١٠ - باب الكفارة قبل الحنث وبعده.

٦٧٢١ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْرَاهِيمَ، عَنْ أَيُّوبَ عَنِ الْقَاسِمِ التَّمِيمِيِّ، عَنْ زَهْدَمِ الْجَرْمِيِّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي مُوسَى وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ جَرَمِ إِخَاءٍ وَمَعْرُوفٍ، قَالَ: فَقَدَّمْ طَعَامًا قَالَ: وَقَدَّمْ فِي طَعَامِهِ لَحْمَ دَجَاجٍ قَالَ: وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمٍ اللَّهِ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ مَوْلَى قَالَ فَلَمْ يَدْنُ فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: اذْنُ فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْكُلُ مِنْهُ قَالَ: إِنِّي رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ شَيْئًا قَدَرْتُهُ فَحَلَفْتُ أَنْ لَا أَطْعَمُهُ أَبَدًا فَقَالَ: اذْنُ أَخْبِرَكَ عَنْ ذَلِكَ، أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي رَهْطٍ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ اسْتَحْمَلُوهُ وَهُوَ يَقْسِمُ نَعْمًا مِنْ نَعَمِ الصَّدَقَةِ قَالَ أَيُّوبُ: أَحْسِبُهُ قَالَ وَهُوَ غَضْبَانٌ قَالَ: «وَاللَّهِ لَا أَحْمِلُكُمْ وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ» قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَنَهَبَ إِسْلَ فَقِيلَ: آيَنَ هَؤُلَاءِ الْأَشْعَرِيُّونَ آيَنَ هَؤُلَاءِ الْأَشْعَرِيُّونَ؟ فَأَتَيْنَا فَأَمَرَ لَنَا بِخُمُسِ ذَوْدِ غُرِّ الدُّرَى قَالَ: فَاثِدَفَعْنَا فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَسْتَحْمَلُهُ فَحَلَفَ أَنْ لَا يَحْمِلَنَا ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْنَا فَحَمَلَنَا نَسِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمِينَهُ وَاللَّهُ لَئِنْ تَغَفَّلْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَمِينَهُ لَا تَفْلِحُ أَبَدًا ازْجِعُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَنُذَكِّرَهُ يَمِينَهُ فَرَجَعْنَا فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَيْنَاكَ نَسْتَحْمِلُكَ فَحَلَفْتَ أَنْ لَا تَحْمِلَنَا ثُمَّ حَمَلْتَنَا فَظَنْنَا أَوْ فَعَرَفْنَا أَنَّكَ نَسِيتَ يَمِينَكَ قَالَ: «انْطَلِقُوا فَإِنَّمَا حَمَلَكُمْ اللَّهُ إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا»^(١).

تَابَعَهُ حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ وَالْقَاسِمِ بْنِ عَاصِمٍ الْكَلْبِيِّ، حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قِلَابَةَ وَالْقَاسِمِ التَّمِيمِيِّ، عَنْ زَهْدَمِ بِهِذَا، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ الْقَاسِمِ، عَنْ زَهْدَمِ بِهِذَا.

الشاهد من هذا الحديث: قول الرسول ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمينٍ فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خيرٌ وتحللتها». فهذا يقول: «أتيت وتحللت» وفي السياق السابق أنه ذكر مرة أنه كفر من قبل، أو كفر من بعد.

والحكم في هذه المسألة: أنه يجوز أن يكفر ثم يحنث، ويسمى تقديم الكفارة على الحنث تحلة.

وَيَجُوزُ أَنْ يَحْنَتَ أَوْ لَا ثُمَّ يُكْفِّرُ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ كَفَّارَةً.

وقد قال الله تعالى في الأول: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]. وفي الثاني: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ [البقرة: ٨٩]. فالأمر في هذا واسع. فقد يكون الإنسان يحب أن يفعل الكفارة لوجود الفقراء، ويخشى أن لا يجدهم بعد هذا، وقد يكون بالعكس.

قوله ﷺ: «إِنَّمَا حَمَلَكَ اللَّهُ» يعني: أن الله هو الذي يسر لكم هذه الإبل حتى تسهل حملكم؛ لأن النبي ﷺ إنما حلف ألا يحملهم أولاً؛ لأنه ليس عنده شيء فقال: «والله لا أحملكم». ثم بعد ذلك يسر الله تعالى إبلاً جاءت من غير أن يكون الرسول ﷺ قد احتسبها فقال: «حملكم الله».



ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

٦٧٢٢ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عَمَرَ بْنِ فَارِسٍ، أَخْبَرَنَا ابْنُ عَوْنٍ، عَنْ الْحَسَنِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعْطِيتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكِلْتَا إِلَيْهَا وَإِذَا حَلَقْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكُفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ»^(١).
تَابِعَهُ أَشْهَلُ بْنُ حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَوْنٍ.

وَتَابِعَهُ يُونُسُ، وَسِمَاكُ بْنُ عَطِيَّةَ، وَسِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ، وَحُمَيْدٌ، وَقَتَادَةُ، وَمَنْصُورٌ وَهَشَامٌ، وَالرَّبِيعُ. الشاهد من هذا الحديث: قوله: «فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك». فهنا الكفارة صارت بعد الحنث ولو قدمها لكانت تحلة.

وفي هذا الحديث: النهي عن سؤال الإمارة؛ أي: أن يكون الإنسان أميراً، وبين النبي ﷺ الحكمة من ذلك بأنه إن أُعْطِيَها من غير مسألة أُعِينَ عليها، إن أُعْطِيَها بمسألة وُكِّلَ إليها. فهل يلحق بها سائر الولايات، كالقضاء مثلاً، وحفظ الأموال، وإمامة الصلاة، وما أشبه ذلك: أو نقول: هو خاص بالإمارة؟

نَقُولُ: قد ذكر الله في قصة يوسف أنه قال للمَلِكِ: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥].

وهذا معناه: أن يَكُونُ وزيراً على المال، وعثمان بن أبي العاص قال للنبي ﷺ: اجعلني إمام قومي، فقال: «أنت إمامهم»^(١) وسأله رجلُ عملاً من الأعمال فقال: «إنا لا نُؤَلِّي هذا الأمرَ أحداً سألَهُ»^(٢).

والنصوص في هذا تكادُ تكونُ متعارضةً أو شبه متعارضة، فنقول:

أما الإمارة فلا يسألها الإنسان أبداً؛ لأنها على خطرٍ، فإن الأميرَ قد يرى في نفسه عزاً وسلطةً على الغير، ويحصلُ منه ظلمٌ وعدوانٌ.

وأما غيرها فإن كانت لمصلحة فلا بأس، مثل أن يكون القائم على العمل غير أهل له، إما لجهله، أو خيانتِه، أو ما أشبه ذلك، فلا بأس أن يسأل أن يكون في هذا العمل، وعليه تحمّل قصة يوسف؛ لأن يوسف ﷺ رأى أن المال قد ضاع فقال: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾.

هذا هو الضابط، وقد يقال: إن هذا الضابط يشتمل الإمارة، وأن النهي عن السؤال المجرد الذي لا يشتمل على مصلحة، فإن كان سؤالاً لا يشتمل على مصلحة، بحيث أرى أن الأمير مضيع لأمانته، ظالم لرعيته، فأسأل أن أكون أميراً بدله من أجل إزالة ظلمة وغشمه، فإن هذا لا بأس به.

وقد يقول قائل: إن حديث النهي عن طلب الإمارة يُحمّل على ما إذا كان لغير إزالة المفسدة، أما إذا كان لإزالة المفسدة فلا بأس به.

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٣/١٢٤، ١٢٥):

وأما قوله: «لا تسأل الإمارة». فهو الذي في أكثر طرق الحديث، ووقع في رواية يونس بن عبيد عن الحسن بلفظ: «لا يتمنين» بصيغة النهي عن التمني مؤكداً بالنون الثقيلة، والنهي عن التمني أبلغ من النهي عن الطلب.

(١) أخرجه أبو داود (٥٣١)، والنسائي (٦٧١)، والترمذي (٢٠٩)، وابن ماجه (٧١٤)، وأحمد (٢١/٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٤٢٩/١).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٩)، ومسلم (١٧٣٣).

❖ قوله: «عن مسألة» أي: سؤال.

❖ قوله: «وَكُلْتَ إِلَيْهَا» بم الواو، وكسر الكاف مخففاً ومشدداً، وسكون اللام، ومعنى الْمُخَفَّفِ: أي: صُرِفَ إِلَيْهَا، وَمَنْ وُكِّلَ إِلَى نَفْسِهِ هَلْكَ، ومنه في الدعاء: «وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي». ووَكَّلَ أَمْرَهُ إِلَى فَلَانٍ صَرَفَهُ إِلَيْهِ، ووَكَّلَهُ بِالتَّشْدِيدِ: اسْتَحَفَّظَهُ.

ومعنى الحديث: أَنْ مَنْ طَلَبَ الْإِمَارَةَ فَأُعْطِيَهَا تَرَكْتَ إِعَانَتَهُ عَلَيْهَا مِنْ أَجْلِ حَرَصِهِ. **وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ:** أَنْ طَلَبَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحُكْمِ مَكْرُوهٌ، فَيَدْخُلُ فِي الْإِمَارَةِ: الْقَضَاءُ وَالْحِسْبَةُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَأَنْ مَنْ حَرَصَ ذَلِكَ فَلَا يُعَانُ.

وَلَا يُعَارِضُهُ فِي الظَّاهِرِ مَا أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ: «مَنْ طَلَبَ قَضَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَنَالَهُ ثُمَّ غَلَبَ عَدْلُهُ جَوْرَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ غَلَبَ جَوْرُهُ عَدْلُهُ فَلَهُ النَّارُ». وَاجْتُمَعَ بَيْنَهُمَا: أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ لَا يُعَانُ بِسَبَبِ طَلَبِهِ: أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ مِنْهُ الْعَدْلُ إِذَا وَلِيَ، أَوْ يُحْمَلُ الطَّلِبُ هُنَا عَلَى الْقَصْدِ، وَهَنَاكَ عَلَى التَّوَلِيَةِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى: «إِنَّا لَا نُؤَلِّي مَنْ حَرَصَ». وَلِذَلِكَ عَبَّرَ فِي مُقَابِلِهِ بِالْإِعَانَةِ، فَإِنْ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ اللَّهِ عَوْنٌ عَلَى عَمَلِهِ لَا يَكُونُ فِيهِ الْكَفَايَةُ، لِذَلِكَ الْعَمَلِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُجَابَ سَوَالُهُ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ: أَنَّ كُلَّ وَلايَةٍ لَا تَخْلُوا مِنَ الْمَشَقَّةِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ اللَّهِ إِعَانَةٌ تَوَرَّطَ فِيهَا دَخَلَ فِيهِ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ وَعُقْبَاهُ، فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِلطَّلِبِ أَصْلًا، بَلْ إِذَا كَانَ كَافِيًا وَأُعْطِيَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَقَدْ وَعَدَهُ الصَّادِقُ بِالْإِعَانَةِ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ. قَالَ الْمَهْلَبُ: جَاءَ تَفْسِيرُ الْإِعَانَةِ عَلَيْهَا فِي حَدِيثِ بَلَالِ بْنِ مَرْدَاسٍ، عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَفَعَهُ: «مَنْ طَلَبَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ عَلَيْهِ بِالشَّفْعَاءِ وَكُلَّ إِلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَكْرَهَ عَلَيْهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ». أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ.

قُلْتُ: وَكَذَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي عَوَانَةَ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى الثَّعْلَبِيِّ.

وَأَخْرَجَهُ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهَ، مِنْ طَرِيقِ أَبِي عَوَانَةَ، وَمِنْ طَرِيقِ إِسْرَائِيلَ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى، فَاسْقَطَ خَيْثَمَةَ مِنَ السَّنَدِ.

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَرَوَايَةُ أَبِي عَوَانَةَ أَصَحُّ. قَالَ وَفِي رَوَايَةِ أَبِي عَوَانَةَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ مِنْ طَرِيقِ إِسْرَائِيلَ وَصَحَّحَهُ، وَتُعْتَبَرُ، بِأَنَّ ابْنَ مَعِينٍ لَيْسَ خَيْثَمَةَ

وَضَعَفَ عَبْدَ الْأَعْلَى، وَكَذَا قَالَ الْجُمْهُورُ فِي عَبْدِ الْأَعْلَى: لَيْسَ بِقَوِيٍّ.

قَالَ الْمَهْلَبُ: وَفِي مَعْنَى الْإِكْرَاهِ عَلَيْهِ أَنْ يَدْعِيَ إِلَيْهِ فَلَا يَرَى نَفْسَهُ أَهْلًا لِذَلِكَ هَيْبَةً لَهُ، وَخَوْفًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَحْظُورِ، فَإِنَّهُ يُعَانُ عَلَيْهِ إِذَا دَخَلَ فِيهِ وَيُسَدِّدُ. وَالْأَصْلُ فِيهِ: أَنْ مَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللَّهُ.

وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ: هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْغَالِبِ، وَإِلَّا فَقَدْ قَالَ يُوسُفُ: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ وَقَالَ سُلَيْمَانُ: ﴿وَهَبْ لِي مَلَكًا﴾ [٣٠]. قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِي غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ. أَهَ الظَّاهِرُ - وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ - أَنْ يُقَالَ: إِنْ طَلَبَهَا مِنْ أَجْلِ السُّلْطَةِ وَالْوَلَايَةِ عَلَى الْخَلْقِ فَهَذَا لَا يُعَانُ عَلَيْهَا، وَيُنْهَى عَنْ ذَلِكَ، وَإِنْ طَلَبَهَا مِنْ أَجْلِ الْإِصْلَاحِ، وَإِزَالَةِ الْمَفْسَدَةِ، فَإِنْ هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، بَلْ قَدْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ أَهْلًا؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ مُقْتَضَى النُّصُوصِ. وَالْمَسْأَلَةُ عَلَى خَطَرٍ حَتَّى فِي الْمَسْأَلَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى خَطَرٍ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَدْخُلُ عَلَى أَنَّهُ يُرِيدُ الْإِصْلَاحَ، ثُمَّ يَتَخَلَّفُ.

وَهَلْ يَدْخُلُ فِي هَذَا طَلْبُ الْوِزَارَاتِ وَرِثَاةِ الْمَجَالِسِ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، يَدْخُلُ فِي هَذَا، وَلِهَذَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرِشَحُونَ أَنْفُسَهُمْ هُوَ طَلْبُ بِالْفِعْلِ.

فَإِنْ قِيلَ: وَهَلْ مِنْ ذَلِكَ: طَلْبُ عُضْوِيَّةٍ فِي الْمَجَالِسِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ قَدْ يُقَالَ: الْعُضْوِيَّةُ لَيْسَتْ مِثْلَ الرِّثَاةِ فَالْعُضْوُ لَا يُعْتَبَرُ قَوْلُهُ فَصْلًا.



شيخ
صحيح البخاري

الفهرست

الفهرس

الموضوع

رقم الصفحة

٣	• كتاب الاستئذان	○
٥	باب السلام اسم من أسماء الله تعالى	○
٦	باب تسليم القليل على الكثير	○
٧	باب تسليم الراكب على الماشي	○
٧	باب تسليم الماشي على القاعد	○
٨	باب تسليم الصغير على الكبير	○
٨	باب إفشاء السلام	○
٩	باب السلام للمعرفة وغير المعرفة	○
١١	باب آية الحجاب	○
١٤	باب الاستئذان من أجل البصر	○
١٥	باب زنا الجوارح دون الفرج	○
١٨	باب التسليم والاستئذان ثلاثاً	○
٢٠	باب إذا دعي الرجل فجاء هل يستأذن؟	○
٢٢	باب التسليم على الصبيان	○
٢٢	باب تسليم الرجال على النساء والنساء على الرجال	○
٢٥	باب إذا قال من ذا فقال أنا	○
٢٦	باب من رد فقال عليك السلام	○
٣٤	باب إذا قال فلان يقرئك السلام	○
٣٥	باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركون	○
٣٩	باب من لم يسلم على من اقترف ذنباً	○
٤٣	باب كيف يرد على أهل الذمة السلام؟	○
٤٦	باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره	○
٤٩	باب كيف يكتب الكتاب إلى أهل الكتاب؟	○

- باب بمن يبدأ في الكتاب؟ ٥١
- باب قول النبي ﷺ قوموا إلى سيدكم ٥٢
- باب المصافحة ٥٥
- باب الأخذ باليدين ٥٦
- باب المعانقة ٦١
- باب من أجاب بلييك وسعديك ٦٥
- باب لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ٧٠
- باب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسَحَّرُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَتَسَحَّرُوا بِسُحُورِ اللَّهِ لَكُمْ﴾ ٧٢
- باب من قام من مجلسه أو بيته ولم يستأذن أصحابه أو تهيأ للقيام ليقوم الناس ٧٤
- باب الاحتباء باليد وهو القرفصاء ٧٨
- باب من اتكأ بين يدي أصحابه ٧٩
- باب من أسرع في مشيه لحاجة أو قصد ٨٠
- باب السرير ٨١
- باب من ألقى له وسادة ٨١
- باب القائلة بعد الجمعة ٨٥
- باب القائلة في المسجد ٨٥
- باب من زار قومًا فقال عندهم ٨٧
- باب الجلوس كيفما تيسر ١٠١
- باب من ناجى بين يدي الناس ومن لم يخبر بسر صاحبه فإذا مات أخبر به ١٠٢
- باب الاستلقاء ١٠٧
- باب لا يتناجي اثنان دون الثالث ١٠٨
- باب حفظ السر ١١١
- باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة ١١٣
- باب طول التجوى ١١٥
- باب لا تترك النار في البيت عند النوم ١١٧
- باب غلق الأبواب بالليل ١١٩
- باب الختان بعد الكبر وتنف الإبط ١١٩
- باب كل هو باطل إذا شغله عن طاعة الله ١٢٤

- ١٣٢ باب ما جاء في البناء ○
- ١٣٥ • كتاب الدعوات ○
- ١٣٧ باب لكل نبي دعوة مستجابة ○
- ١٤١ باب أفضل الاستغفار ○
- ١٤٥ باب استغفار النبي ﷺ في اليوم واليلة ○
- ١٤٦ باب التوبة ○
- ١٥٠ باب الضجع على الشق الأيمن ○
- ١٥١ باب إذا بات طاهراً ○
- ١٥٢ باب ما يقول إذا نام ○
- ١٥٣ باب وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن ○
- ١٥٤ باب النوم على الشق الأيمن ○
- ١٥٥ باب الدعاء إذا انتبه بالليل ○
- ١٦٨ باب التكبير والتسبيح عند المنام ○
- ١٧١ باب التعوذ والقراءة عند المنام ○
- ١٧١ باب ○
- ١٧٣ باب الدعاء نصف الليل ○
- ١٨٢ باب الدعاء عند الخلاء ○
- ١٨٣ باب ما يقول إذا أصبح ؟ ○
- ١٨٤ باب الدعاء في الصلاة ○
- ١٨٧ باب الدعاء بعد الصلاة ○
- ١٨٩ باب قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ ○
- ١٩٢ باب ما يكره من السجع في الدعاء ○
- ١٩٥ باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ○
- ١٩٦ باب يستجاب للعبد ما لم يعجل ○
- ١٩٧ باب رفع الأيدي في الدعاء ○
- ٢٠٤ باب الدعاء غير مستقبل القبلة ○
- ٢٠٤ باب الدعاء مستقبل القبلة ○
- ٢٠٤ باب دعوة النبي ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله ○
- ٢٠٦ باب الدعاء عند الكرب ○
- ٢٠٧ باب التعوذ من جهد البلاء ○

- ٢٠٨ باب دعاء النبي ﷺ اللهم الرفيق الأعلى
- ٢١٠ باب الدعاء بالموت والحياة
- ٢١١ باب الدعاء الصبيان بالبركة ومسح رءوسهم
- ٢١٧ باب الصلاة على النبي ﷺ
- ٢١٩ باب هل يصلى على غير النبي ﷺ؟
- ٢٢١ باب قوله ﷺ من أذيته فاجعله له زكاة ورحمة
- ٢٢٢ باب التعوذ من الفتن
- ٢٢٤ باب التعوذ من غلبة الرجال
- ٢٢٧ باب التعوذ من عذاب القبر
- ٢٣٢ باب التعوذ من فتنة المحيا والممات
- ٢٣٢ باب التعوذ من المأثم والمغرم
- ٢٣٤ باب الاستعاذة من الجبن والكسل
- ٢٣٤ باب التعوذ من البخل
- ٢٣٤ باب التعوذ من أرذل العمر
- ٢٣٤ باب الدعاء برفع الوباء والوجع
- ٢٤٠ باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة الدنيا وفتنة النار
- ٢٤١ باب الاستعاذة من فتنة الغنى
- ٢٤١ باب التعوذ من فتنة الفقر
- ٢٤٢ باب الدعاء بكثرة المال مع البركة
- ٢٤٢ باب الدعاء عند الاستخارة
- ٢٤٥ باب الدعاء عند الوضوء
- ٢٤٦ باب الدعاء إذا علا عقبه
- ٢٤٨ باب الدعاء إذا هبط وادياً
- ٢٤٨ باب الدعاء إذا أراد سفراً أو رجع
- ٢٥٠ باب الدعاء للمتزوج
- ٢٥١ باب ما يقول إذا أتى أهله
- ٢٥٢ باب قوله ﷺ ربنا آتنا في الدنيا حسنة
- ٢٥٢ باب التعوذ من فتنة الدنيا
- ٢٥٣ باب تكرير الدعاء
- ٢٥٩ باب الدعاء على المشركين

- ٢٦٥ باب: الدعاء للمشركين ○
- ٢٦٦ باب قوله ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ○
- ٢٦٧ باب الدعاء في الساعة التي في يوم الجمعة ○
- ٢٦٨ باب قول النبي ﷺ يستجاب لنا في اليهود ولا يستجاب لهم فينا ○
- ٢٦٨ باب التأمين ○
- ٢٦٩ باب فضل التهليل ○
- ٢٧١ باب فضل التسبيح ○
- ٢٧٢ باب فضل ذكر الله ﷻ ○
- ٢٧٤ باب قول لا حول ولا قوة إلا بالله ○
- ٢٧٨ باب لله مائة اسم غير واحد ○
- ٢٨٠ باب الموعظة ساعة بعد ساعة ○
- ٢٨١ • كتاب الرقاق ○
- ٢٨٣ باب ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة ○
- ٢٨٦ باب مثل الدنيا في الآخرة ○
- ٢٨٨ باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ○
- ٢٨٩ باب في الأمل وطوله ○
- ٢٩١ باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر ○
- ٢٩٣ باب العمل الذي يبتغى به وجه الله ○
- ٢٩٨ باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ○
- ٣٠٧ باب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ○
- ٣٠٩ باب ذهاب الصالحين ○
- ٣١٠ باب ما يتقى من فتنة المال ○
- ٣١٢ باب قوله ﷺ هذا المال خضرة حلوة ○
- ٣١٤ باب ما قدم من مال فهو له ○
- ٣١٥ باب المكثرون هم المقلون ○
- ٣١٩ باب ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبًا ○
- ٣٢٠ باب الغنى غنى النفس ○
- ٣٢٤ باب فضل الفقر ○
- ٣٣٠ باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا ○
- ٣٣٨ باب القصد والمداومة على العمل ○

- ٣٤٣ باب الرجاء مع الخوف
- ٣٤٩ باب الصبر عن محارم الله
- ٣٥٤ باب ومن يتوكل على الله فهو حسبه
- ٣٥٨ باب ما يكره من قيل وقال
- ٣٦٥ باب حفظ اللسان، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت
- ٣٧٢ باب البكاء من خشية الله
- ٣٧٥ باب الخوف من الله
- ٣٧٧ باب الانتهاء عن المعاصي
- ٣٨٠ باب قول النبي ﷺ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً
- ٣٨١ باب حجب النار بالشهوات
- ٣٨٢ باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك
- ٣٨٤ باب لينظر إلى من هو أسفل منه، ولا ينظر إلى من هو فوقه
- ٣٨٥ باب من همّ بحسنة أو بسيئة
- ٣٨٧ باب ما يتقى من محقرات الذنوب
- ٣٨٨ باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها
- ٣٨٩ باب العزلة راحة من خلط السوء
- ٣٩٢ باب رفع الأمانة
- ٣٩٧ باب الرياء والسمعة
- ٣٩٨ باب من جاهد نفسه في طاعة الله
- ٤٠٢ باب التواضع
- ٤٠٨ باب بعثت أنا والساعة كهاتين ﴿وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَمَجِّ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾
- ٤٠٩ باب
- ٤١١ باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه
- ٤١٤ باب سكرات الموت
- ٤٢٠ باب نفخ الصور
- ٤٢٨ باب يقبض الله الأرض
- ٤٣٢ باب الحشر
- ٤٤١ باب قوله ﷺ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾
- ٤٥٠ باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (١) يَوْمَ عَظِيمٍ
- ٤٥٣ باب القصاص يوم القيامة، وهي الحاقة لأن فيها اثواب وحواق الأمور

- ٤٥٩ باب من نوقش الحساب عذب ○
- ٤٦٤ باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ○
- ٤٧٤ باب صفة الجنة والنار ○
- ٤٩٧ باب الصراط جسر جهنم ○
- ٥٠٨ باب في الحوض وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا آَعَطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ○
- ٥١٩ **• كتاب القدر** ○
- ٥٢١ باب ○
- ٥٢٥ **• كتاب الأيمان والنذور** ○
- ٥٢٧ باب قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ ○
- ٥٣٧ باب قول النبي ﷺ وإيم الله ○
- ٥٣٨ باب كيف كانت يمين النبي ﷺ؟ ○
- ٥٥٥ باب لا تحلفوا بأبائكم ○
- ٥٥٩ باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت ○
- ٥٦٠ باب من حلف على شيء وإن لم يحلف ○
- ٥٦٢ باب من حلف بملة سوى ملة الإسلام ○
- ٥٦٣ باب لا يقول ما شاء الله وشئت، وهل يقول أنا بالله ثم بك ○
- ٥٦٦ باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ ○
- ٥٧٠ باب إذا قال أشهد بالله أو شهدت بالله ○
- ٥٧١ باب عهد الله ﷻ ○
- ٥٧٣ باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته ○
- ٥٧٦ باب قول الرجل لعمر الله ○
- ٥٧٨ باب لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ○
- باب إذا حنث ناسياً في الأيمان، وقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
- ٥٧٩ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ ○
- باب اليمين الغموس وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
- ٥٨٦ بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثَوْتِهَا﴾ ○
- ٥٨٧ باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَغِيلًا﴾ ○
- ٥٩٣ باب اليمين فيما لا يملك وفي المعصية وفي الغضب ○
- باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم فصلي أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد
- ٥٩٧ أو هلل فهو على نيته ○

- باب من حلف أن لا يدخل على أهله شهرًا ٦٠٠
- باب إن حلف أن لا يشرب نبیذا فشرب طلاء أو سكرًا أو عصیرًا ٦٠٠
- باب إذا حلف أن لا یأندم فأكل تمرًا بخبز وما يكون من الأدم ٦٠٤
- باب النية في الأیمان ٦٠٧
- باب إذا أهدى ماله على وجه النذر والتوبة ٦١١
- باب إذا حرم طعامًا ٦١٤
- باب الوفاء بالنذر ٦٢٠
- باب إثم من لا یفي بالنذر ٦٢٤
- باب النذر في الطاعة وقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ ٦٢٧
- باب إذا نذر أو حلف أن لا یکلم إنسانًا في الجاهلية ثم أسلم ٦٢٩
- باب من مات وعليه نذر ٦٣٣
- باب النذر فيما لا یملك وفي معصية ٦٣٦
- باب من نذر أن یصوم أيامًا فوافق النحر أو الفطر ٦٣٩
- باب هل یدخل في الأیمان والنذور الأرض والغنم والزروع والأمتعة ٦٣٩
- **• کتاب کفارات الأیمان** ٦٤٣
- باب قول الله تعالى: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ ٦٤٥
- باب قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ ٦٤٨
- باب من أعان المعسر في الكفارة ٦٥٠
- باب يعطي في الكفارة عشرة مساكين قريبًا كان أو بعيدًا ٦٥١
- باب صاع المدينة ومد النبي ﷺ وبركته ٦٥٢
- باب قول الله تعالى ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وأي الرقاب أزكى؟ ٦٥٥
- باب عتق المدبر وأم الولد والمكاتب في الكفارة وعتق ولد الزنا ٦٥٧
- باب إذا أعتق عبدًا بينه وبين آخر ٦٥٨
- باب إذا أعتق في الكفارة لمن يكون ولاؤه؟ ٦٦٠
- باب الاستثناء في الأیمان ٦٦١
- باب الكفارة قبل الحنث وبعده ٦٦٦
- **• الفهرس** ٦٧١

